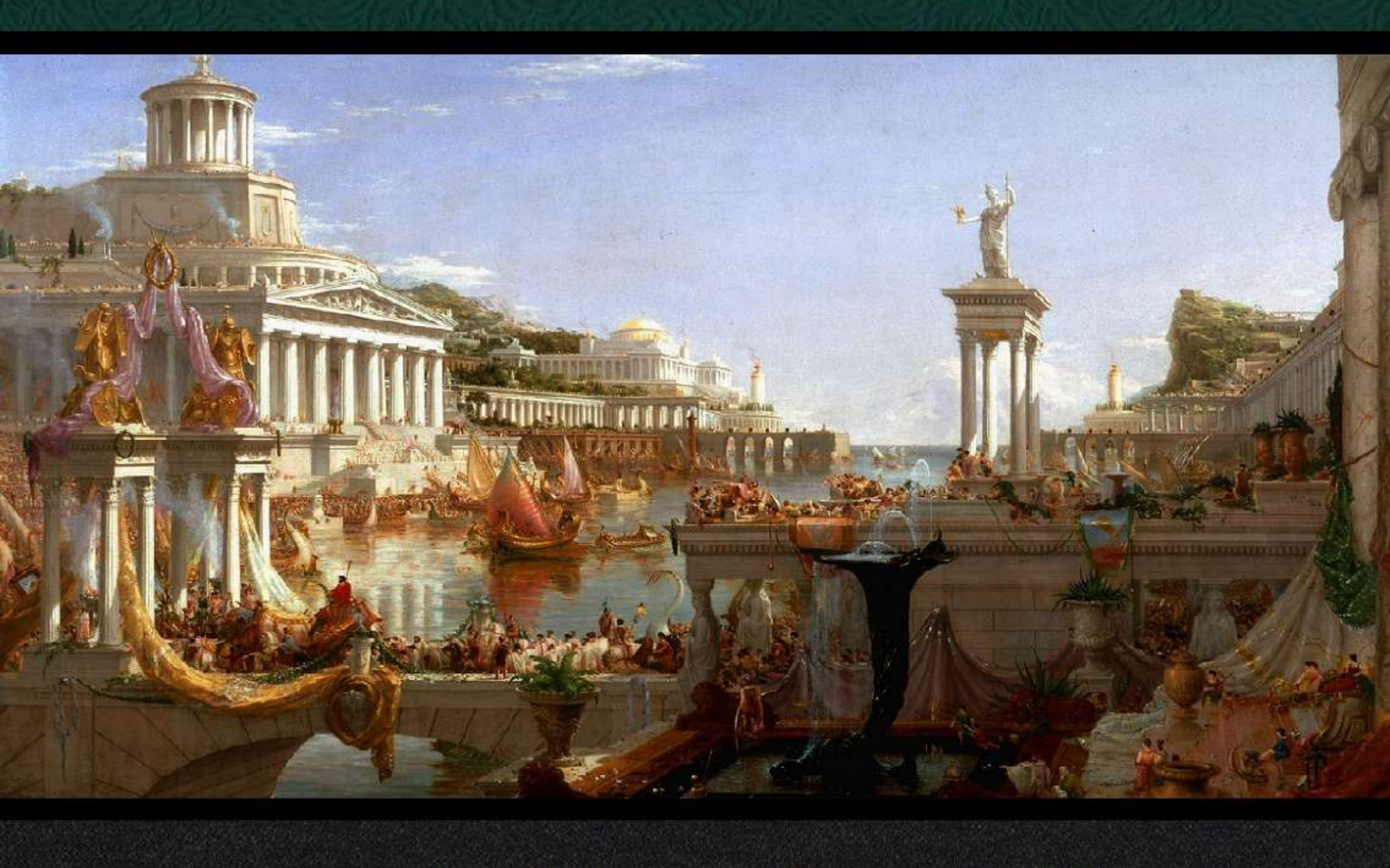
قصة الحضارة



المجلد التاسع

ويل ديورانت

قصة الحضارة

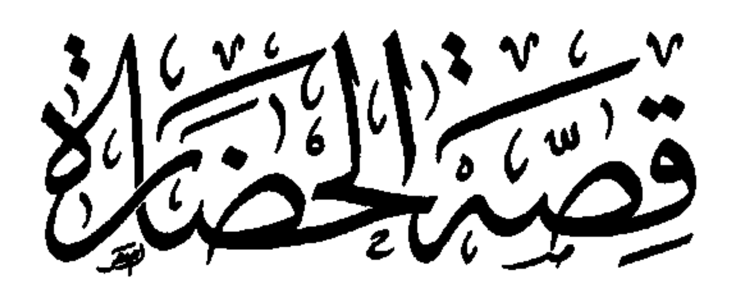
35- عصر فولتير (الجزء الأول)

36- عصر فولتير (الجزء الثاني)

37- أوروبا الوسطي (الجزء الأول)

38- أوروبا الوسطى (الجزء الثاني)

ويل ديورانت



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر ڤولتير

تاريخ الحضارة في أوروبا الغربية من ١٧١٥ إلى ١٧٥٦
مع التنويه الخاص بالصراع بين الدين والفلسفة

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأول من المجلد التاسع







تونس بيروت

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ = ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٧٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

إلى خيدنا المحبوب

جم

محتويات الكتاب

كلمة اعتذار

يجب أن يُلقى اللوم لطول هذا المجلد على المؤلفَيْن اللذين أغراهما بالاسهاب الشديد افتتانهما بموضوعه المحورى - ونعنى به الصراع الغالب ، المتصل ، بين الدين والعلم ، مضافا اليه الفلسفة ، ذلك الصراع الذى استحال الى مسرحية حية فى القرن الثامن عشر ، وتمخض عن علمانية عصرنا المنتشرة . فكيف حدث أن شطرا كبيرا من الطبقات المتعلمة فى أوربا وأمريكا فقد الايمان بلاهوت ظل خمسة عشر قرنا يقدم خوارق الدعائم والاسانيد للقانون الاخلاقى القلق ، المتنافر ، الذى أرسيت فوقه الحضارة الغربية ؟ وأى آثار - فى الأخلاق والأدب ، والسياسة - سيسفر عنها هذا التغيير ، الأساسي رغم صمته ؟

لقد ازداد التفصيل فى كل مجلد بتكاثر أحداث الماضي وشخصياته التى لا تزال اليوم حية فى تأثيرها وتشويقها . ولعل هذا التكاثر ، بالاضافة الى تعدد الموضوعات - التى تنتظم جميع مناحى الحضارة فى أوربا الغربية من ١٧١٥ الى ١٧٥٦ - ينهض عذرا عن طول القصة وتشعبها . وهكذا فجر « عصر فولتير » ضفافه وفاض بجزء عاشر ننوى اصداره عن « روسو والثورة » يبلغ بالقصة عام ١٧٨٩ . وسيتناول هذا الجزء العاشر التغيير الذى أحدثته حرب السنوات السبع فى خريطة العالم ، والسنين الاخيرة التى اختتمت بها حياة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٦ - ٧٤ ، وعصر جونسون ورينولدز فى انجلترة ، وتطور الثورة الصناعية وازدهار الأدب الالمانى من لسنج الى جوته ، والفلسفة الالمانية من هردر الى كانط ، والموسيقى الالمانية من جلوك الى موتسارت ، وانهيار الاقطاع فى فرنسا لويس السادس عشر ، وتاريخ تلك الأمم المحيطة بالقارة - وهى السويد ، والدنمرك ، وبولنده ، وروسيا ، وتركيا ، وايطاليا ، والبرتغال ، وأسبانيا - التى أرجأنا تناولها فى هذا المجلد قصدا فى المساحة من جهة ، ولعدم تورطها مباشرة فى الصراع العظيم بين العقل والايمان من جهة أخرى (الا عن طريق البابوية) . وسينظر هذا المجلد الختامى فى مراحل ذلك الصراع

اللاحقة ، متمثلة فى ثورة روسو على العقلانية ، وجهد ايمانويل كانط البطولى لانقاذ اللاهوت المسيحى عن طريق الأخلاق المسيحية . وسوف تستكمل لوحة عصر فولتير فى ذلك الجزء العاشر من « قصة الحضارة » وتعرض خاتمة هذا المجلد التاسع الدفاع عن الدين ، أما خاتمة « روسو والثورة » التى تلقى نظرة محيطة على المجلدات العشرة كلها ، فستتصدى لسؤال يبلغ بموضوع الكتاب ذروته : ما هى عظات التاريخ وعبره ؟ .

ولقد حاولنا أن نصور الواقع بالمزج بين التاريخ والسير . وستثير هذه التجربة نقد الناقدين ـ ولا ضير فى هذا ، ولكنها تحقق هدف « التاريخ المتكامل » . ذلك أن الاحداث والاشخاص تسير جنبا الى جنب خلال الزمن دون اعتبار لأيها كانت الاسباب وأيها النتائج ، والتاريخ يتكلم فى الاحداث ، ولكن خلال الافراد . وليس هذا المجلد سيرة لفولتير ، انما هو يستخدم حياته الجوالة الثائرة نسيجا يربط بين الامم والأجيال ، ويقبله بوصفه أعظم الاعلام دلالة واكثرهم ايضاحا فى الفترة بين موت لويس الرابع عشر وسقوط الباستيل . فمن من بين جميع الرجال والنساء الذين عاشوا فى تلك الحقبة المضطربة أنصع من فولتير صورة فى ذاكرة الناس ، وأحظى بقراءتهم الكثيرة لاعماله ، وأبقى تاثيرا فيهم اليوم ؟ يقول جيورج براندیس « ان فولتير خلاصة قرن من الزمان (١) » . ويقول فكتور كوزان « ان الملك الحقيقى للقرن الثامن عشر هو فولتير (٢) » . فلنسر اذن خلف ذلك اللهيب المتوهج خلال القرن الذى عاش فيه .

الفصل الأول

فرنسا : الوصاية

١٧١٥ ـ ٢٣

١ ـ فولتير الشاب : ١٦٩٤ ـ ١٧١٥

لم يكن اسمه بعد فولتير ، بل كان حتى اطلاق سراحه من الباستيل فى ١٧١٨ يدعى فرانسوا مارى آرويه . وقد ولد بباريس فى ٢١ نوفمبر ١٦٩٤ ، واصبح خلاصتها المصفاة حتى ١٧٧٨ . اما الرجل الذى يفترض أنه أبوه ، واسمه فرانسوا آرويه ، فكان محاميا ميسور الحال ، عرف الشاعر بوالو والغانية نينون دلانكلو ، وكتب وصيتهما ، وعرف المسرحى بيير كورنيى ، ووصفه بانه « أثقل من لقى من الناس ظلا (١) » . وأما أمه ، مارى مارجريت دومار ، فكان يجرى فى عروقها قدر طفيف من الدم النبيل ، وكانت ابنة موظف فى « البرلمان » واخت المراقب العام للحرس الملكى ، ومن طريقهما استطاعت الوصول الى بلاط لويس الرابع عشر . وقد جعلت حيويتها وذكاؤها المرح من بيتها صالونا صغيرا . وذهب فولتير الى انها ملكت كل ما وهبت أسرته من ذكاء ، كما ملك أبوه كل ما أوتيت من دراية مالية ، وقد استوعب الابن الموهبتين جميعا فيما ورثه . وماتت أمه فى الاربعين وهو لم يجاوز السابعة . وكان اكبر ابنائها الخمسة أرمان ، الذى كان غيورا على لاهوت الجانسنيين حريصا على ميراث الأسرة . اما أصغر الأبناء فرانسوا مارى ، فكان معتلا فى عامه الأول ، حتى أن احدا لم يصدق أن ستكتب له الحياة . وقد ظل حتى الرابعة والثمانين يتوقع موته المبكر ويذيعه على الناس .

وكان من بين أصدقاء الأسرة عدة « آباء » abbés وهو لقب كان يخلع على أى كنسي علمانى ، سواء كان قسيسا مرسوما أو لم يكن . وقد أصبح كثير من هؤلاء الاباء رجال دنيا لا دين ، لمعوا فى المجتمع رغم تمسكهم برداء الكهنوت ، ومنهم من ألفوا المشاركة السافرة فى

مجالس خلت من الوقار ، ومنهم من عاش كما يشـــتهى متسترا وان حافظ على مظهر لقبه . مثال ذلك الابيه دشاتو نوف ، آخر عشـــاق نينون دلانكلو وأول معلم لفولتير . وكان رجلا واسع الثقافة ، رحب الافق ، وقد اشرب تلميذه وثنية نيذون وارتيابية مونتينى . وفى رواية قديمة مشكوك فيها انه قدم للصبى ملحمة هازلة تدعى « الملحمــــة الموسوية » كانت تتداول فى مخطوطات سرية ، ومؤداها ان الدين ، اذا استثنينا الايمان بكائن اعظم ، ليس الا ذريعـــة يتذرع بها الحـــكام لاخضاع المحكومين وارهابهم (٢) .

بدأ تعليم فولتير حين اصطحبه معلمه « الابيـــه » فى زيارة لنينون ، وكانت الغانية الشـــهيرة يومهـــا (١٧٠٤) فى الرابعـــة والثمانين . ووجدها فرانسوا « يابسة كالمومياء » ولكنها مازالت فياضة برقة المرأة وعطفها . وقد تذكر فى تاريخ لاحق صنيعها فقال « لقـد طاب لها أن تذكرنى فى وصيتها ، فتركت لى ألفى فرنك لاشترى بها كتبا (١٣) » . وماتت بعد ذلك بقليل .

ورغبة فى موازنة هذا الغذاء ألحق الصبى وهو فى العاشرة طالبا مقيما بكلية لوى ـ لجران اليسوعية على شاطىء باريس الايسر ، التى اشتهرت بانها افضل مدرسة فى فرنسا . وكانت تضم بين تلاميـــذها الالفين من أبناء الاشراف كل من أطاق أن يتعلم ، وفى السنوات السبع التى أنفقها فولتير فى مدرسته صنع الكثير من الاصدقاء الارستقراطيين الذين احتفظ طوال حياته بالالفة الطبيعية معهم . وقد تلقى تدريبات حسنا فى الدراسات الكلاسيكية ، والادب ، ولا ســـيما المسرحيــــة ، ومثل فى مسرحيات عرضـــت هنـــاك ، وكتب هو نفســـه تمثيليـــة وهو بعد فى الثانية عشرة . وكان متقـــدما فى دراســـته ، وظفـــر بجوائز كثيرة وابهج معلميه وأفزعهـــم . فلقـــد أعرب عن عـــدم ايمانه بالجحيم ، وسمى السماء « عنبر نوم الدنيا الكبير (٤) » . وتنبأ أحد معلميه فى حزن بان هذا المفكر الصغير سيحمل لواء الربوبية الفرنسية ـ أى الدين الذى يرفض كل لاهوت تقريبا فيما عدا الايمان بالله . على أنهم احتملوه بما عهد فيهم من صبر وأناة ، وبادلهم هذا الصنيع باحتفاظه ـ طوال هرطقاته كلها ـ باحترام وعرفان بالجميل

دافئين لليسوعيين الذين راضوا عقله على الوضوح ودربوه على النظام كتب وهو فى الثانية والخمسين يقول :

« تلقيت العلم سبع سنين على يد رجال بذلوا جهـودا مضنية لم ينالوا عليها جزاء ليربوا عقول الشباب وأخلاقهم ... ولقد اشربونى ميلا الى الأدب ، وعواطف ستكون عزاء لى الى نهاية عمرى . وما من شىء سيمحو من قلبى ذكرى الأب بوريه ، الذى هو عزيز بالمثل على كل من أخذوا عنه العلم . فان أحدا من المعلمين لم يحبب تلاميذه فى الدرس والفضيلة كما فعل ذلك الأب ... وقد أسـعدنى الحظ بتلقى العلم على أكثر من أب يسوعى جملته أخلاق الأب بوريه .. فما الذى رأيته خلال السنين السبع التى قضيتها مع اليسوعيين ؟ أكثر ضروب الحياة جدا وقصدا وتنظيما ، أوقاتهم كلها قسمة بين رعاية يبذلونهـا لنا وممارسات لمهنتهم الشاقة . وانى لأستشهد بالآلاف الذين علموهم كما علمونى وليس بين هؤلاء فرد يكذبنى (٥) » .

وبعد أن تخرج فرانسوا نوى أن يجعل الأدب مهنته ، ولكن أباه أصر على أن يدرس القانون ، محذرا أياه من احتراف الأدب الذى هو كلمة المرور السحرية الى الفقر والعوز . وظل فرانسوا ثلاث سـنين « يدرس قوانين تيودوسيوس وجستنيان سبيلا لمعرفة مهنـة المحاماة الباريسية » على حد قوله . وقد كره « كثرة الأشياء عديمة الجـدوى التى ارادوا ان يشحنوا بها ذهنى ؛ ان شـعارى هو : التركيز على صميم الموضوع (٦) » . وبدلا من أن يستغرق فى مجموعات القوانين والسوابق القانونية ، سعى لصحبة جماعة من شكاك الأبيقوريين كانوا يجتمعون فى التامبل - وهو بناء تخلف من دير قديم لفرسان الهيكل (الداوية) فى باريس . وكان امامهم فيليب دفاندوم ، كبير رؤساء اديار فرنسا ، صاحب الموارد الكنسية الضخمة والايمان الدينى الهزيل ، ومعه الآباء سيرفيان ، ودبوسي ، ودشوليو ، ومركيز دلافار ، وأمير كونتى ، وغيرهم من الأعيان الذين يتمتعون بدخل ميسر وحيـاة مرحة .. . وكان الأبيه دشوليو يجهر بان الخمر والنساء أطيب النعم التى جادت بها على الانسان طبيعة حكيمـة خيرة (٧) . وقـد لاءم فولتير بين نفسه وبين هذا النظام دون عناء ، وصدم أباه بالسهر خارج

البيت مع أمثال هؤلاء السمار المعربدين حتى العاشرة مساء ، وكانت تعد يومها ساعة متأخرة تأخيرا منكرا .

وعين فولتير ملحقا للسفير الفرنسي بلاهاى (١٧١٣) ، ربما بناء على طلب الأب . ويعرف العالم كله كيف وقع الفتى البالغ الحساسية فى غرام أوليمب دنواييه ، وكيف لاحقها باشعاره ، وقطع لها العهد بعبادتها الى الأبد . كتب لها يقول : « لم يوجد حب يعدل حبى ، لأنه لم يوجد انسان أجدر بالحب منك (٨) » . وابلغ السفير أرويه الأب بأن فرانسوا لم يخلق للدبلوماسية . فاستدعى ولده الى وطنه ، وحرمه من ميراثه ، وهدد بنفيه على مركب الى جزر الهند الغربية . وكتب فرانسوا من باريس الى « بامبيت » بانه قاتل نفسه ان لم تبادر بالحضور اليه . واذ كانت أعقل منه بسنتين اثنتين ، وبجنس واحد ، فقد ردت عليه بأن من الخير له أن يصالح اباه ، ويصبح محاميا فالحا . وصفح عنه أبوه شريطة أن يدخل مكتب محام ويقيم معه ، فوافق . اما بامبيت فتزوجت كونتا . ويبدو انها كانت آخر مغامرات فولتير الغرامية . لقد كان انسانا مرهف الشعور كأى شاعر ، كله أعصاب وحساسية ، ولكنه لم يكن عارم الشهوة ، وسوف يقع بعد ذلك فى غرام مشهور ، ولكنه لن يكون تجاذبا بين جسدين بقدر ما هو تآلف بين عقلين . لقد فاضت طاقته من خلال قلمه . كتب الى المركيزة ديمور وهو لم يجاوز الخامسة والعشرين يقول « ان الصداقة أثمن الف مرة من الحب . ويخيل الى اننى لم أخلق قط للغرام . فاننى أجد فى الحب شيئا سخيفا نوعا ما .. وقد قررت أن أطلقه الى الابد (٩) » .

وفى أول سبتمبر ١٧١٥ مات لويس الرابع عشر ، فتنفست أوروبا البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء . لقد كان موته خاتمة مُلك ونهاية عصر : مُلك اتصل اثنتين وسبعين سنة ، وعصر - عصر القرن العظيم - بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية ، وبهاء الروائع الأدبية ، وفخامة فن الباروك ، وانتهى بانحلال الفنون والآداب ، وارهاق الشعب وافقاره ، وهزيمة فرنسا واذلالها . وتطلع الجميع فى أمل وشك الى الحكومة التى ستخلف الملك المهيب الذى راح غير مبكى عليه .

٢ - الصراع على الوصاية : ١٧١٥

كان هناك ملك جديد ، هو لويس الخامس عشر ، ابن حفيد

لويس الرابع عشر ، ولكنه لم يكن قد جاوز الخامسة . مات جـــده ، وأبوه ، وأمه ، واخوته ، واخواته ، وأخيرا جد أبيه . فمن يكون وصيا عليه ؟ .

لقد سبق وليان للعهد الملك الشمس الى الموت : ابنه لويس الذى مات فى ١٧١١ ، وحفيده دوق برجنديا الذى مات فى ١٧١٢ . وقبل حفيد آخر باسم فيليب الخامس ملكا على اسبانيا ، شريطة تنازله عن جمع حقوقه فى عرش فرنسا ، وبقى على قيد الحياة بعد موت الملك الشيخ ابنان غير شرعيين ، وكان قد اعترف ببنوتهما شرعا ، وأصدر مرسوما بأن يرثا تاجه فى حالة عدم وجود أمراء يجرى فى عروقهـم الدم الملكى . أما أكبرهما وهو لوى أوجست ، دوق مين ، البـــالغ آنئذ الخامسة والأربعين ، فكان رجلا هزيل الجسم لطيف المعشر زادت قدمه المشوهة من حيائه وجبنه ، ولعله كان يقنع بما تتيح له ضيعته الكائنة بضاحية سو (خارج باريس مباشرة) ، والتى بلغ ثمنهـــا ٩٠٠ر٠٠٠ جنيه ، من ترف ودعة ، لولا أن زوجته الطموح كانت تحثه على أن ينافس غيره من الساعين للوصاية على العرش . ذلك أن دوقة مين لم تنس قط أنها حفيدة كونديه الكبير ، فاحتفظت فى سو ببلاط أشبه ببلاطات الملوك ، بسطت فيه رعايتها على الفنانين والشـــعراء (ومنهم فولتير) ، وأحاطت نفسها بحاشية مرحة وفية تمهيدا للملك وسبيلا للوثب اليه ، وكان لها مفاتنها ، امــرأة لا عيب فى جســمها ولا شائبة فى هندامها ، شديدة القصر والنحافة حتى ليخالها الناظر صبية ، ذكية ماهرة ، تلقت تعليما كلاسيكيا طيبا ، وأوتيت بديهـــة حاضرة وحيوية لا تعيا وان أعيت غيرها . وكانت واثقة أن زوجها سيكون وصيا رائعا ما دام خاضعا لسلطانها . وبلغت بالحاحها من اقناع القوى المحيطة بالملك المحتضر مبلغا كفى لاستخلاص وصية منه (١٢ أغسطس ١٧١٥) تركت لدوق مين الاشراف على شخص الصبى لويس ، وتعليمه ، وعلى جنود القصر ، ومنحته كرسيا فى مجلس الوصاية . ولكن ملحقا للوصية (٢٥ أغسطس) عين فيليب الثانى ، دوق أورليان ، رئيســـا للمجلس .

وأما فيليب هذا فكان ابن فيليب الأول (المسيو) الأخ الخنثوى للملك الشيخ من زوجة ثانية ـ هى شارلوت اليزابث أميرة البالاتين

الخشنة الواقعية النزعة . وكان تعليم الفتى قد نيط باب دينى تصفه « مذكرات » سان ـ سيمون ، كما تصفه « المذكـرات السرية لفترة الوصاية » « لدكلو » بانه « بالوعة نتنة » من الرذائل . فلقد كان جيوم دبوا هذا ابنا لصيدلانى اقليمى ، بذل جهدا كثيرا فى الدرس ، وكسب قوته بالاشتغال مدرسا خصوصيا ، وتزوج ، ثم ترك زوجته برضاها ليلتحق بكلية سان ـ ميشيل بباريس ، حيث كان يدفع نفقات تعليمه بأداء الأعمال الحقيرة بهمة لا تفتر . فلما تخرج قبل وظيفة مساعد لسان ـ لوران ، ضابط بيت « المسيو » وجز شعر رأسه ليترهب ، ورسم كاهنا صغيرا ، ناسيا فيما يبدو زوجته . فلما مات سان ـ لوران عين دبوا مدرسا خصوصيا للوصي المستقبل . يقول دكلو ـ الذى قل أن توخى النزاهة وعدم التحامل « ان الابيه أحس أن تلميذه سيحتقره عما قليل ما لم يفسد أخلاقه ، فلم يدخر وسعا فى تحقيق هذا الهدف ، وافلح فى هذا فوق ما دبر لسوء الحظ (١٠) » . أما سان ـ سيمون الذى كان يكره الموهبة المجردة من عراقة الأصل ، فكان يجد متعة فى وصف دبوا ، قال فيه :

« رجل قصير القامة ، حقير الهيئة ، ذابل الوجـه ، مخلوع القلب ، يلبس باروكة صفراء باهتة ، له وجه عرسة يضيئه بعض الذكاء . لقد كان ـ فى كلمتين مألوفتين ـ وغدا أصيلا . اصطرعت فى داخله دون هوادة كل الرذائل لتظفر بالسيادة ، حتى ملأ ذهنه الضجيج المتصل ـ آلهته الحرص والفجور والطمع ، ووسائله الغدر والملق والتذلل ، ودينه الفسوق المطلق ، ورأيه الذى دان به كأنه المبدأ العظيم هو أن الاستقامة والأمانة من الأوهام التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها وجود ... كان فيه ذكاء ، وعلم ودراية بشئون الدنيا ، ورغبة شديدة فى ارضاء الناس والتودد اليهم ، ولكن هذا كله أفسدته رائحة كذب وزيف انبعثت رغم ارادته من مسام جسده كلها ... شرير ... خائن ، عاق ، خبير بأخبث الخبائث ، صفيق أشد الصفاقة حين يكشف أمره . يشتهى كل شيء ، ويحسد كل شيء ، ويود أن يظفر بكل شيء (١١) » .

وكان سان ـ سيمون وثيق الصلة بأسرة فيليب ، وعلينا الا نتعجل

فى تكذيبه ، ولكن لابد أن نضيف أن هذا الابيه كان دارسا كفئا ، ومساعدا قديرا ، ودبلوماسيا حكيما موفقا ، وان فيليب لخبرته بالرجل ظل وفيا له الى النهاية .

اما التلميذ ، الذى ربما كان نسبه من ناحية الأب قد افسده ، فقد تلقف تعليمات أستاذه وبزها عقلا ورذيلة . ابهج معلمه بذاكرته القوية ، وفطنته العقلية ، وذكائه الثاقب ، وفهمه وتذوقه للأدب والفن . واتاه دبوا بفونتنيل ليعلمه اصول العلوم ، وبهومبيرج ليعلمه اصول الكيمياء ، وسيكون لفليب فيما بعد مختبره الخاص كما كان لتشارلز الثانى ملك انجلترة ولفولتير فى سيريه ، وسيلتمس فى التجارب الكيميائية بعض الراحة من حياة الزنا والفجور . وكان يرسم صورا لا بأس بها ، ويعزف على القيثارة ، ويحفر الرسوم للكتب ، ويجمع التحف جمع ذواقة خبير ولم يتعمق واحدا من هذه الميادين ، فقد كانت اهتماماته شديدة التنوع ، وملاهيه تستأثر بوقته . وكان بريئا كل البراءة من الايمان الدينى ، وحتى أمام الناس « تظاهر باستهتار مخز بالدين (١٢) » وفى هذا ، كما فى اباحته الجنسية ، كان رمزا وحافزا لبلده وللقرن الذى عاش فيه .

لقد كان كاكثرنا خليطا مضطربا من الشخصيات . يكذب فى يسر وفى ابتهاج خبيث عند الحاجة أو للنزوة الطارئة ، وينفق ملايين الفرنكات المنتزعة من شعب مملق على ملاهيه وهواياته الشخصية ؛ على انه كان جوادا عطوفا ، بشوشا متسامحا ، « بطبيعته طيب القلب عطوف ، رءوف (كما قال سان ـ سيمون (١٣)) اكثر وفاء لاصدقائه منه لخليلاته . وكان يثمل بالشراب كان السكر شعيرة يؤديها كل ليلة قبل ان يمضي الى فراشه (١٤) . فاذا وبخته امه اجابها « من السادسة صباحا حتى الليل يفرض على العمل الطويل المضنى ، ولولا انى الهو بعد ذلك لما اطقته ، ولمت كمدا (١٥) » .

وربما كان له من اجهاض حبه الاول عذر فى اسرافه فى الجنس . ذلك انه شغف حبا بالآنسة سيرى ، وكانت وصيفة شرف لامه ، عريقة المولد . فراح ينظم لها القوافى ، ويغنى لها ، ويزورها مرتين فى

اليوم ، وأراد ان يتزوجها ٠ ولكن لويس الرابع عشر عبس ، وزكى له ابنته غير الشرعية ، دوقة بلوا ، تزكية قـــوية ٠ وأطـــاع فيليب (١٦٩٢) ، ولكنه واصل تعلقه الشديد بالآنسة سيرى حتى ولدت له ابنا ٠ فنفاها الملك الغاضب من باريس ٠ وبعث لها فيليب بالمال الكثير، ولكنه حاول أن يكون وفيا لزوجته ، دون أن يوفق فى ذلك طويلا ٠ ومنحته ابنة ، هى دوقة بيرى المستقبلة ، التى اصبحت أغلى حب له وأمر ماساة فى حياته ٠

وبعد موت أبيه (١٧٠١) خلفه فيليب على لقب الدوقية وثروة الأسرة ، دون أن يلتزم بشيء ، الا ان يستمتع بحياته فى السلم ويخاطر بها فى الحرب ٠ وكان قد قاتل قبل ذلك ببسالة ضـــد الحلف الأعظم (١٦٩٢ ـ ٩٧) ، واصابته من جراء ذلك جراح كبيرة ٠ ثم نال الآن مزيدا من الامتياز ببسالته المستهترة فى حـــرب الوراثة الأســـبانية (١٧٠٢ ـ ١٣) ٠ فلما نجا من الموت كافا نفسه بوليمة من البغايا ٠ وكان فى آثامه كلها ، وفى غير استهتاره الدينى ، يحتفظ بلطف فى السلوك وتهذيب وأدب فى الحـــديث يذكـــر الناس بشـــباب « الملك الشمس » الحالم ٠

ولم يخطر ببال فيليب أن من حقه ان يطالب بالوصاية على العرش الا بعد ان ازيح جميع الورثة المباشرين من الطريق ، اما بالموت واما بالمعاهدة ٠ واتهمته الشائعات بانه سمم امراء البيت المالك ليخلو له الطريق الى الملك ، ولكن الأجيال التالية وافقت لويس الرابع عشر على رفضه هذه الفرية ٠ وبدأت عدة جماعات ترى فيه شرا اهون من دوق مين ودوقتها ٠ فالبروتستنت الفرنسيون الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية تحت الاكراه بالتهديد تمنوا ارتقاءه الى منصب الوصي لما توسموا فيه من ميل ملحوظ الى التسامح ٠ كذلك الجانسنيون الذين قاســـوا من الاضطهاد الملكى والمراسيم البابوية ، وكذلك اصحاب « العقول القوية» او احرار الفكر الذين ابهجتهم فكرة حكم رجل حر الفكر لفرنســـا ، وكذلك جمهور باريس الذى سئم صرامة الملك المتوفى وتزمته الذى جاء متاخرا ، وكذلك جورج الأول ملك انجلترا ، الذى عرض على فيليب المعونة المالية فرفضها ، واهم من هؤلاء جميعا ان « نبلاء السيف » ـ

أى الأسر النبيلة التي انزلت عن سلطانها القـديم بامر ريشليو ولويس الرابع عشر ليصبح افرادها طفيليات تعيش عالة على البلاط ـ هذه الأسر راودها الأمل بانها عن طريق فيليب ستثار لنفسها من الاهانة الملكية ، اهانة الخضوع للأبناء غير الشرعيين فى الحكم ، وللتجار فى الادارة. وحث سان ـ سيمون فيليب على التخلى عن تبطله وفجـوره ، وعلى الكفاح فى سبيل حقه فى الوصاية ، وكان هو نفسه واحـدا من أكبر النبلاء مقاما .

وأما فيليب فكان يحب اللهو اكثر من السلطة ، ولعله كان يؤثر أن يترك وشانه . أما وقد راح أصحابه يحضونه ، فقد همز همته لتفور فورة قصيرة ، فاشترى هو ـ او هم ـ تأييد جنود القصر الملكى (تحت بصر دوق مين) ، وكسبوا كبار السياسيين والعسـكريين بوعـدهم بالوظائف ، واسترضوا البرلمان بآمال رد امتيازاته السـابقة . وفى ٢ سبتمبر ١٧١٥ ـ غداة موت لويس الرابع عشر ـ دعا فيليب برلمان باريس ، وقادة النبلاء ، وكبار موظفى الدولة ، للاجتمـاع فى قصر العدالة . وذهب دوق مين مؤملا الظفر بمنصب الوصي ، ولكن جسارة دوق أورليان ، وكذبه ، وفصاحته ، كلها غلبته فى هذه اللعبة . قـال فيليب فى معرض بذل الوعود « لن يكون لى هدف غير التخفيف من آلام الشعب ، وتوطيد النظام الحسن من جديد فى ماليـة الدولة ، والمحافظة على السلام فى الوطن وفى الخارج ، واعادة الوحدة والهدوء الى الكنيسة ، وسيعيننى على هذا اعتراضات هذا المحفل الجليـل الحكيمة ، وهانذا التمسـها سـلفا (١٦) » . أى انه عرض أن يرد للبرلمان « حق الاعتراض » (على المراسيم الملكية) الذى أنكره الملك السابق واغفله . وتحقق النصر لهذه الحركة البارعة ، وبايع البرلمان فيليب بالاجماع تقريبا وصيا على العرش واعطاه الاشراف الكامل على مجلس الوصاية . واحتج دوق مين بأن هذه الترتيبات تخالف وصية الملك الراحل ، وانه والحالة هذه لا يمكن ان يظل بعد ذلك مسئولا عن شخص الملك الصبى ، وانه مضطر الى طلب اعفائه من ذلك الواجب . فاخذه فيليب والبرلمان عند كلمته ، وانكفأ مين ساخطا عاجـزا الى ضيعته فى سو ، والى تقريعات زوجته العنيفة . واصبح فيليب أورليان وصيا على عرش فرنسا ثمانيـة اعوام ، وكان يومهـا فى الثانيـة والأربعين .

٣ ـ ازدهار ثم انهيار : ١٧١٦ ـ ٢٠

كانت مهمته الأولى اعادة النظام والاستقرار الماليين الى الدولة . لقد ورث حكومة مفلسة ، بلغ دينها ٢٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أضيف اليه دين قصير الأجل بلغ ٥٩٠ مليون جنيه على شكل « سندات على الدولة » ـ وهى كمبيالات ملكية تتداولها الأمة ، ولم تكد تساوى آنئذ ثلث قيمتها الاسمية . وكان صافى ايرادات الحكومة عام ١٧١٥ لا يتجاوز ٦٩ مليون جنيه ، ومصروفاتها ١٤٧ مليونا . وكان اكثر الدخل المنتظر فى ١٧١٦ قد أنفق مقدما (٤٧) .

واشار سان ـ سيمون بأن تشهر الحكومة افلاسها . ولكن الدوق أدريان موريس دنواى احتج . ووفق الوصي بين الرايين باجراءات اقتصاد واصلاح معتدلة . فخفض الجيش الى ٢٥٫٠٠٠ مقاتل ، واعفى الجنود المسرحون من الضرائب ست سنوات ، واعفى اباء الاطفال الثمانية اعفاء دائما . وخفضت ضرائب « التاى » ، والجابيل ، والرعوس ، وغيرها من الضرائب . وندد بالفساد الذى استشرى فى جميعها ، وعولج بعض هذا الفساد ، ورفتت مئات من شاغلى الوظائف الحكومية الزائدين عن الحاجة ـ ومنهم ٢٫٤٠٠ فى باريس وحدها . وانشئت « غرفة عدالة » (مارس ١٧١٦) دعى للمثول أمامها كل الماليين ، والتجار ، واصحاب مصانع الذخيرة ، وغيرهم ممن اشتبه فى انهم غشوا الحكومة . وهنا اقام نواى ، الذى الف الاجراءات العسكرية ، حكم ارهاب حقيقيا ، فوعد بالرافة كل من يكشف عن زملائه من المذنبين ، ووعد المبلغون بخمس المبالغ التى تسترد بفضل مساعدتهم . وشرعت عقوبة الاعدام لكل من يعوق عمل المبلغين ، وتقررت مصادرة الاملاك والحكم بالتشغيل على سفن الاسرى والعبيد مدى الحياة عقابا لمن يدلون بشهادة زور عن وضعهم المالى . وشنق بعض من حكم عليهم ، ووضع البعض الآخر فى المشهرات أمام جمهور مبتهج ، وانتحر بعض رجال المال بعد ان يئسوا من تبرئة انفسهم . على أن النتائج لم تكن متناسبة مع هذه الوسائل . ذلك أن اكثر المذنبين اشتروا الاعفاء من الفحص أو الادانة برشوة موظفى الغرفة ، او اصدقاء الوصي ، أو خليلاته . وتفاقم الفساد حتى بلغ حدا كان افراد الحاشية

يسعون فيه الى الرشوة بدلا من أن يعرضها المذنبون عليهم ، من ذلك أن احد رجال المال حكم عليه بغرامة قدرهـــا ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك ، فوعده أحد رجال البلاط برفع الغرامة لقاء مبـلغ ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه . قال له رجل المال « سيدى الكونت العزيز ، لقد تاخرت كثيرا ، لانى ابرمت للتو اتفاقا مماثلا مع زوجتك لقاء نصف هذا المبلغ (١٨) » . واعلن المرسوم الذى الغى غرفة العدالة (مارس ١٧١٧) ، فى صراحة ندر ان تتحلى بها الحكومات ، أن «الفساد استشرى حتى وصلت عدواه الى جميع الطبقات تقريبا ، بحيث لا يمكن توقيع العقوبات العادلة على مثل هذا العدد الغفير من المذنبين دون الاخلال الخطر بالتجارة والنظام العام والدولة » . وكان صافى ربح الحكومة حين انتهى التحقيق نحـــو سبعين مليون فرنك (١٩) .

فلما خاب امل الوصي فى هذه النتائج ، استمع الى رجل اسكتلندى ممتاز اقترح عليه نظاما جديدا للمالية . واسم الرجل جون لو ، وقـــد ولد لمصرفى من أدنبره فى ١٦٧١ ، ودرس علم المصارف فى لنـــــدن ، وشهد افتتاح بنك انجلترة فى ١٦٩٤ ، واشتبك فى مبارزة بسبب الحب، وقتل غريمه ، ثم فر الى القارة يحمل على رأسه حكما بالاعدام . وكان وسيما ، بشوشا ، مولعا بالعلوم الرياضية ، ضاربا بنجاح فى ســـوق النقد الاجنبى ، واعانته قدرته على حســـاب ارتباطـــات أوراق اللعب وتذكرها على كسب قوته فى مختلف الاقطار . وقد راقب الطرق التى تعمل بها المصارف فى أمستردام ، وهامبورج ، والبندقية ، وجنوة .وفى أمستردام على الأخص اخذ بسحر نظام الائتمان ، الذى اتاح للمصرف ان يصدر اوراقا نقدية باضعاف القيمة الذهبية لرصيده ، بحيث شغل عشرة جولدنات بغطاء جولدن واحد ، وبهذه الطريقة حفز الانشطة الصناعية والتجارية ، ويسرها ، وضاعفها . ورأى هناك كيف يمكن ، فى مصرف يثق به رجال الاعمال ، اجراء المعاملات بمجرد نقل الأرصدة المصرفية ، دون عناء حمل الفضة او الذهب أو مبادلتهما . وساءل نفسه : لم لا يمكن انشاء مصرف قومى ونظام ائتمان كهذين فى فرنسا ؟ وراح يفـــكر فى وضع « نظامه » ـ وهو الاسم الذى أطلق عليه بعد ذلك .

وكان محور فكرته زيادة توظيف الناس والمواد باصدار أوراق النقد، بضمان الحكومة ، لمثلى قيمة الاحتياطيات القومية من الفضة والذهب

والارض ، ويخفض معدل الفائدة ، تشجيعا لرجال الاعمال على اقتراض المال للمشروعات والطرق الجديدة فى الصناعة والتجارة . وبهذه الطريقة تخلق النقود الاعمال ، وتزيد الاعمال من التوظيف والانتاج ، وتزداد الايرادات والاحتياطيات القومية ، ويتيسر اصدار المزيد من النقود ، ويتصاعد الخير والنفع . ولو امكن اقناع الشعب — عن طريق المدفوعات من الفوائد — بايداع مدخراته فى مصرف قومى بدلا من اختزان المعدنين النفيسين ، لاضيفت هذه المدخرات الى الاحتياطيات ، واصدر المزيد من العملة ، وهكذا يشغل المال العاطل ، ويزداد رخاء البلاد .

وفى عام ١٧٠٨ شرح لو أفكاره للحكومة الفرنسية ، فرفضها لويس الرابع عشر . فلما أصبح فيليب اورليان وصيا ، عرض لو ان ينقذ بنظامه هذا مالية فرنسا المفلسة . وتساءل : لم تنفرد فرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال ، دون سائر دول أوربا الكبرى بخلوها الى ذلك الحين من المصارف القومية ؟ ولم تردت فرنسا فى مهاوى الركود الاقتصادى برغم ما تميزت به تربتها من خصب واهلها من ذكاء ؟ ووافق فيليب على السماح له بأن يؤسس « مصرفا عاما » (١٧١٦) على أن يكون هذا مشروعا أهليا . وقبل المصرف الودائع ، ودفع الفوائد ، واقرض القروض ، واصدر أوراق نقد — من فئات عشرة ومائة والف فرنك — سرعان ما أصبحت وسيطا مفضلا فى المبادلة بفضل قيمتها الثابتة ، المربوطة بوزن ثابت من الفضة . وكانت هذه الاوراق النقدية اول نقود ورقية قانونية ، وهكذا وضع مصرف لو ، وفروعه الاقليمية ، أول طرق الائتمان المنتظمة فى فرنسا . وفى ابريل ١٧١٧ تقرر قبول اوراق المصرف سدادا للضرائب .

وفى سبتمبر تقدم لو الى مرحلة من افكاره اشد مغامرة . ذلك انه حصل من الوصي على امتياز شركة جديدة سماها « شركة الغرب » لاستغلال حوض المسسبى باكمله ، وكان يومها خاضعا لفرنسا . وباع للجمهور ٢٠٠٠٠٠ سهم فى شركة الغرب هذه سعر السهم منها ٥٠٠ جنيه ، وكان الثمن عاليا ، ولكن يجوز دفع ثلاثة اربامه سندات حكومية بقيمتها الاسمية ، التى بلغت ثلاثة أمثال قيمتها الفعلية .

وبادر الجمهور الى شراء الاسهم كلها مغتبطا بهذه الفرصة التى أتاحت له أن يستبدل بالأوراق المنخفضة القيمة أسـهما فى مشروع يرجى من ورائه الربح . واصدر لو - فى تفاؤل متزايد - تعليمـاته لمصرفه بان يشترى الاحتكار الملكى للتبغ ، وجميع الشركات الفرنسية التى تشتغل بالتجارة الخارجية ، ثم ضم هذه الشركات الى شركة الغرب فالف منها « شركة جزر الهند » التى ستحتكر كل التجارة الخارجية . وبدا لبعض رجال الأعمال ان الاشتراكية فى التجارة الخارجية نذير بالاشتراكية فى الانتاج والتوزيع الداخليين ، فبدأت تختمر حركة معارضة للو .

وفى ٤ ديسمبر ١٧١٨ أعيد تاسيس مصرف لو باسـم « المصرف الملكى » ، واعترف باوراقه اوراقا نقدية قانونيـة ، واعطى الاشراف الكامل تقريبا على مالية الامة . واصدر لو اصدارا جديدا من الاسـهم فى شركة الهند بسعر السهم منها ٥٥٠ جنيها . وسرعان ما تم الاكتتاب. وزاد توقع الناس للارباح المرتفعة فى تقديرهم لقيمة الأسهم ، فتبادلوها باسعار مطردة الزيادة فى موجة مضاربة ، حتى طلبت بسـعر ٥٠٠٠ر٥ جنيه ، أى بتسعة أو عشرة أمثال قيمتها الاسمية . وتصـادف أن مرت بباريس فى ١٧١٨ الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، فابتسـمت لرؤية فرنسا تترك التصرف فى حياتها الاقتصادية لرجل بريطانى . وسمح لو نفسه لخياله بأن يشطح متجاوزا صواب حكمه . فلم يكتف المصرف الملكى الجديد بتسلم دار سك النقود وكل جبـايات الضرائب ، بل تلقى الدين القومى باعطائه حصة فى شركة جزر الهند نظير كل قيمة اسمية قدرها ٥٠٠٠ر٥ جنيه فى تعهدات الحكومة ، وخيل اليه أن راس المال العاطل سيصبح بهذه الطريقة عاملا فى مشروعاته المنـوعة . ثم عرض قـدرة المصرف على الوفاء بديونه لمزيد من الخطر باعطائه منحة للوصى قدرها ٢٤٠٠ سهم .

وظلت ثقة الناس به كاملة برغم هذه المغامرات الطائشة ، واشتدت حماستهم للشركة ، وزايد المشترون باسعار اعلى واعلى على اسهمها ؛ وزاد المزيفون هذه الضجة بانزال شهادات أسهم مزيفة الى السوق . وظل شارع كانكمبوا ، الضيق القذر ، الذى اختار « النظام » فيه مكانه ، مدى عامين المركز المالى الرئيسى لباريس (أشبه بوول سـتريت فى

نيويورك) . وتجمع فيه المشترون والبائعون من جميـــع الطبقات ، والدوقات والمومسات ، والباريسيون والريفيون والاجانب ، فى أعداد مطردة وانفعال اشتد يوما بعد يوم . ومات البعض تحت الاقدام وسط الزحام ، أو داستهم مركبات النبلاء . وكان المريشال الشيخ « دفيلار » يمر بالمكان راكبا ، فتوقف ليحاضر الجمع المحتشد عن جشعه المفرط . وكانت الأكشاك الصغيرة المقامة فى هذا الزقاق تغل كل شهر ايجارا أكثر مما تغله البيوت فى عشرين عاما . وشكا السكان من شدة الضجيج الذى لا يحتمل . ومع ذلك لم يتوقف المشترون عن المزايدة بأصوات مرتفعة ، وكان سعر السهم يزداد كل يوم تقريبا ، بل احيانا كل ساعة ، فبيع بعض الأسهم فى نهاية عام ١٧١٩ بمبلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه ، وبلغت القيمة السوقية لكل الاسهم المعروضة آنئذ ثمانين ضعف قيمة كل الذهب والفضة المعروفين فى فرنسا (٢٠) . واذ كان المطلوب دفعه من ثمن السهم لا يتجاوز عشرة فى المائة من قيمته الاسمية ، فان نقل الاسهم من مالك لآخر كان سريعا ، وحقق البعض ثروات فى يوم واحد . فكسب مصرف ١٠٠ مليون جنيه ، وخادم فى فندق ثلاثين مليونا (٢١) . وسمع الناس لاول مرة كلمة « المليونير (٢٢) » .

وكان لو رجل الساعة . ففى ١٧٢٠ عين مراقبا عاما للمالية . وكان أساطين النبلاء والنبيلات يذرعون حجرة انتظاره ملتمسين نصحه فى شئون المال أو تاييده فى دسائس البلاط . وقد كتب فولتير مستعيدا ذكرى ذلك العهد فقال « رأيته يعينى يخترق ابهاء الباليه ــ رويال ومن ورائه الأدواق والاشراف ــ وماريشالات فرنسا ، واساقفة الكنيسة (٢٣) » . وقبلت احدى الدوقات يده فى تذلل .

بيد أنه لم يبد عليه أن انتصار افكاره الظـاهر افســـده ، أو ان استفحال سلطانه الشخصي اطغاه ، والواقع انه ربح للقيمة المفرطة التى أوصل جشع الجمهور اسهم الشركة اليها (٢٤) . ولم يســتغل مركزه ليثرى . وقد صرح سان ــ سيمون ، الذى كان يعارض هذا « النظام » بقوله :

« لم يكن فى طبعه جشع ولا لؤم . فلقد كان رجلا رقيقا طيبـــا

محترما ، لم تفسده زيادة الثقة وكثرة المال ، ولم يكن فى مسلكه ، ولا فى بطانته ، ولا فى مائدة طعامه ، ولا فى اثاثه ، ما يصدم الناس. وقد احتمل بصبر وثبات عجيبين كل المضايقات التى سببتها عملياته ، حتى اذا قارب النهاية ... اصبح سريع الغضب حاد الطبع » .

ولكن بعض النبلاء لم يرضوا عنه لانه أجنبى وبروتستنتى ، ولاحظوا أنه هو وزوجته الانجليزية لم يكونا متزوجين زواجا شرعيا رغم ما بدا من اخلاصهما الواحد لصاحبه . ورغبة منه فى التخفيف من هذا العداء ، قبل المواطنة الفرنسية والمذهب الكاثوليكى الرومانى .

واستعمل سلطانه مهمازا يحفز به رضاء وطنه الثانى ، فخفض الضرائب ، وأنهى النظام السقيم الفاسد الذى كانت الوكالات الاهلية تتبعه فى جمع الضرائب ، وأظهر نحو جماهير الشعب عطفا لم يعهد فى رجال المال . وقسم ضياعا كبيرة ملكا للكنيسة أو النقابات ليزرعها الفلاحون ، لا بل اقترح عقب تعيينه مراقبا عاما الزام الكنيسة ببيع جميع الاملاك التى اقتنتها بعد عام ١٦٠٠ - أعنى نصف جميع ممتلكاتها الفرنسية (٢٥) - وسبق طورجو بالغائه الرسوم المفروضة على نقل الأغذية والسلع داخل فرنسا ، ونظم بناء الطرق والكبارى والقنوات أو ترميمها ، واستقدم مهرة الصناع من الخارج ليؤسسوا صناعات جديدة ، وشجع التوسع الصناعى بتخفيضه نسبة الفائدة على القروض ، وزادت المشروعات الفرنسية ستين فى المائة فى مدى العامين (١٧١٩ - ٢٠) اللذين بلغ فيهما قمة سلطته ، وأحيا البحرية التجارية وضاعفها بالتوسع فى التجارة مع آسيا وافريقيا ، وامريكا ، وكانت السفن الفرنسية التى تحمل التجارة الخارجية ، تبلغ ست عشرة فى مارس ١٧١٩ ، فاصبحت ٣٠٠ فى يونيو ١٧٢٠ ، وعادت التجارة الخارجية الفرنسية فى عهد لو الى الاوج الذى ادركته تحت كولبير . وأقنع النبلاء الفرنسيين بتمويل انتاج البن والتبغ فى لويزيانا ، ومول هو نفسه تطوير منطقة نهر اركنساس . وفى ١٧١٨ أسست نيو أورليانز ، واتخذت لها اسما من اسم اسرة الوصي .

على أن المشروع الأمريكى لم يكتب له التوفيق رغم جهود لو

وفيليب المتعددة النواحى . فلقد كان شطر كبير من وادى المسسبى لا يزال برية لم تفتح ، وعرض لو مهور العرائس و ٤٥٠ فدانا على الأسر المهاجرة الى الوادى . فلما تبين أن الهجرة اقل اغراء من المضاربة ، رحل المسجونون والمتشردون والبغايا الى لويزيانا ، ودفع الشبان والشابات (أمثال مانون ليسكو فى رواية بروست) الى هذه المغامرة بالحيلة أو القوة . وكان هؤلاء الضحايا يطعمون اسوأ الطعام حتى مات كثير منهم فى الطريق . واوقفت مراسيم مايو ١٧٢٠ هذا الاكراه الهمجى . أما فى المستعمرة ذاتها فان التجهيز الردىء ،والادارة السيئة ، والتمرد كلها عوقت النهوض بالاقتصاد ، وجعلت ارباح « شركة المسسبى » (كما سماها الناس) اقل كثيرا مما افترضه المضاربون . واتضح ان آمال استخراج الذهب او الاحجار الكريمة من أرض المستعمرة وهم فى وهم ، رغم أن لو نفسه راوده هذا الحلم .

ولا بد أن نبأ هذه الصعوبات قد وصل الى فرنسا . وحكم اذكى المضاربين ان اسهم الشركة قد بلغت قمتها ، أما غيرهم ممن لم يقلوا عن هؤلاء جشعا وان افتقروا الى المعلومات او الحكم الصائب ، فقد حل بهم الخراب لانهم تاخروا فى بيع أسهمهم . وفى ديسمبر ١٧١٩ أصبح التهافت والتنافس على البيع اكثر مما كان على الشراء . ففى بحر شهر واحد باع الدوق بوربون اسهما بعشرين مليون جنيه ، وامير كونديه بأربعة عشر مليونا ، وتطلب الأمر تخصيص ثلاث عربات لحمل الذهب الذى لم يجرؤ لو على الامتناع عن دفعه ثمنا لأوراقه النقدية واسهم الشركة (٢٦) . وافرغ مضارب بروسي ما يملكه منها ، ثم مضي بثلاثين مليونا من الجنيهات ذهبا . وصرف غير هؤلاء ثمن أسهمهم ليشتروا أرضا او بيوتا او حليا او اشياء اخرى مما تستند قيمته على اساس مكين من حاجة البشر و غرورهم . اما الماليون الذين عاقبتهم غرفة العدالة فقد انتقموا لانفسهم بصرف ثمن اوراقهم وارسال الذهب خارج فرنسا . وحاول لو ان يقف تدفق الذهب من الخزانة ، فحصل من الوصي على مراسيم تحرم على الشعب تملك المعادن النفيسة او الاتجار فيها أو تصديرها ، وتحتم تسليم كل الذهب والفضة مما تزيد قيمته على خمسمائة فرنك الى المصرف الملكى . وخول لمندوبى المصرف أن يدخلوا البيوت ويفتشوا عن المعدن النفيس المخبوء ، ومثل هذا

العدوان على حرمة البيوت لم يجرؤ عليه أحد قط حتى لويس الرابع عشر • يقول سان ـ سيمون « لقد اخفى الكثيرون اموالهـم فى تكتم شديد حتى انهم ـ بعد أن ماتوا دون الافضاء بمكمن كنوزهم الصغيرة ـ ظلت هذه مدفونه وضاعت على ورثتهم (٢٧) » •

فلما واصل سعر الأسهم هبوطه حاول لو أن يدعمه بعرضه ٩،٠٠٠ جنيه (باوراق النقد) ثمنا للسهم ، ولكن الزيادة المطردة فى أوراق النقد خفضت من قيمتها ورفعت من سعر البضائع • فلم يحل مايو ١٧٢٠ حتى كانت الاسعار قد ارتفعت مائة فى المائة ، والاجور خمسة وسبعين فى المائة بالمقارنة بسنة ١٧١٦ ، وفى يوليو كان زوج الجوارب الحريرية الطويلة يباع باربعين جنيها • وبدأ الذعر من التضخم ، فاندفع الناس الى تغيير أوراق النقد وشهادات الاسهم بالبضائع ، فجمع دوق دلافورس المقادير الكبيرة من الشموع ، وكدس المريشال ديسترى كميات ضخمة من البن والكاكاو • ولكى يحد لو من هذا الهروب من النقـــود الى السلع ، أعلن (٢١ مايو) تخفيض ٥٠ ٪ فى القيمة الرسـمية لأوراق النقد وأسهم الشركة • وكان هذا خطا كبيرا ـ ربما كان السبب فيـه ضغط الوصي المرتاع على لو ، وكان هو ذاته يشعر بالضغط عليـه من خصوم لو من النبلاء والكهنة (٢٨) ، وحاول فيليب تخفيف الأزمة برد كل أسهمه فى الشركة الى المصرف (٢٩) •

ومع ذلك استمرت موجة البيع • ففى يوليو اضطر المصرف الى وقف الدفع على أى ورقة نقدية تزيد على عشرة فرنكات وحاصر حملة الأوراق المصرف • وطالبوا فى صخب وضجيج برد قيمة اوراقهم ذهبا أو فضة • وفى باريس اشتد تزاحم القوم حتى ديست عشر نساء تحت الاقدام وسط الفوضي ، وحملت بعد ذلك ثلاث من جثثهن فى موكب غاضب تحت نوافذ الوصي • واعتبر الشـــعب لو مســـئولا عن جميع الصعوبات مع أن مضاربتهم المجنونة هى التى سببت انهيار « النظام »• وحاول بعضهم القبض عليه وقتله ، فلما فشلت المحـاولات هشـــمت مركبته تهشيما فى فناء الباليه ـ رويال ـ واعربت حوادث الشـــغب المتكررة عن شعور الشعب بانه كان ضحية الخدع المالية ، وبان الطبقات العليا كسبت على حساب جمهرة الأمة • وشارك البرلمان فى الحملات

على لو ، فنفى فيليب البرلمان الى بونتواز (٢٠ يوليو) ، ودافع الشعب عن البرلمان .

وفى اغسطس هبطت اسهم شركة المسيبى الى ٢٫٠٠٠ جنيه بعد أن بلغت فى أوج ارتفاعها ١٢٫٠٠٠ جنيه ، أما الأوراق النقدية فهبطت الى عشرة فى المائة من قيمتها الاصلية . وفى أكتوبر تسرب نبأ - سرى من فم الى فم - بان الوصي سحب من المصرف الملكى ابان ازدهاره أورقا بلغت قيمتها الاسمية ثلاثة بلايين من الفرنكات ، انفق أكثرها على الهدايا السخية للأصدقاء والمحظيات وحوالى هذا التاريخ هرب احد صيارفة المصرف الى بروسيا حاملا كمية ضخمة من الذهب . فهبطت أسهم شركة المسيبى الى ٢٠٠ جنيه . وفى ديسمبر الغى الوصي المصرف ، وطرد لو ، واعاد البرلمان . وفى الرابع عشر من أكتوبر غادر لو فرنسا مع ابنه . وكان قد وظف ثروته فى شركة جزر الهند الخاسرة ، وشارك مصير معظم حملة الأسهم ، ولم يكن قد اودع مالا فى الخارج ، فلم ياخذ الآن معه سوى الفى جنيه وبعض الجواهر غير القيمة . وفى بروكسل تلقى من بطرس الاكبر دعوة بالحضور الى روسيا والاضطلاع بشئون ماليتها ، فرفض ، واعتكف فى البندقية ، حيث لحقت به زوجته وابنته ، وعاش مغمورا فقيرا ، وهناك مات فى ١٧٢٩ .

لقد كانت المبادىء التى اقام عليها مصرفه سليمة نظريا ، ولولا جشع المضاربين المفرط واسراف الوصي لجعلت فرنسا قادرة على الوفاء بالتزاماتها ولحققت لها الرخاء . وحين فحصت حسابات لو الخاصة وجدت سليمة لا غبار عليها . وترك الاقتصاد الفرنسي مؤقتا خربا فى ظاهر الامر ، فحملة الأسهم والأوراق النقدية يطالبون بدفع قيمتها والدفع مستحيل ، وتداول النقود أصابه الشلل تقريبا ، والصناعة محجمة ، والتجارة الخارجية أصابها الركود ، والاسعار فوق طاقة الشعب . ودعا الوصي اخوان « باريس » ليشيعوا شيئا من النظام وسط هذه الفوضي . فطلبوا جميع أوراق النقد وعوضوا فئاتها المنوعة بحقوق على الدخل القومى ، بخسارة على اصحابها تفاوتت من ستة عشر الى خمسة وتسعين فى المائة ، أما الجمهور الذى استنفد سورة غضبه فقد اذعن لهذا الافلاس العملى فى صبر واحتمال .

على أن شيئا بقى بعد هذا الانهيار . فالزراعة افادت من ارتفاع قيمة محاصيلها وهبوط العملة . وأفاقت الصناعة سريعا لأنها وجدت حافزا من انخفاض الفائدة وارتفاع الأسعار ، وظهرت المشاريع الجديدة فى كل مكان . وانتفعت التجارة الداخلية من خفض الرسوم الداخلية ، واستأنفت التجارة الخارجية توسعها فيما وراء البحار بعد انحسار الفوضى . وخرجت الطبقات الوسطى سليمة كبيرة ـ وسعيها وراء الكسب كالعهد بها طبيعى وضرورى . وتضاعف عدد الماليين وازدادوا قوة على قوة . وكسب النبلاء لأنهم دفعوا ديونهم بعملة أرخص ، ولكنهم ظهروا بمظهر مخز لانهم ابدوا وسط حمى المضاربة شهوة ملحة للكسب لا تقل افتضاحا عنها فى أى طبقة . وظلت الوصاية ملوثة بالنكول عن التزاماتها المالية وبترفها الموصول وسط الخراب الشامل . وقال ناقد مجهول الاسم فى معرض الشكوى من الحال « لا بد من انقضاء قرون حتى يمكن استئصال الشر الذى يسأل عنه لو ، لأنه عود الناس الدعة والترف ، وجعلهم غير قانعين بحالهم ، ورفع ثمن الطعام والعمل اليدوى ، وجعل جميع طبقات التجار تتطلع الى أرباح باهظة (٣٠) » ولكن تلك الروح التجارية ذاتها حفزت اقتصاد فرنسا وفكرها ، رغم هبوطها بالجو الاخلاقى للمجتمع الفرنسي . فما حل عام ١٧٢٢ حتى انتعش الاقتصاد الفرنسي بقدر اتاح للوصي على العرش أن يعود ، باطمئنان ضمير الحاكم ، الى اساليبه المعهودة من الحكم العطوف ، والفجور الفاضح .

٤ ـ الوصي

لقد نبهته أمه الالمانية الى ضرورة الحد من لطفه مع الناس ، فقالت له « ان العطف خير من القسوة ، ولكن العدالة تقوم بالعقاب كما تقوم بالثواب ، ومن المؤكد أن من لا يجبر الفرنسيين على خشيته سيخشاهم بعد قليل ، لأنهم يحتقرون من لا يخيفونهم (٣١) » . أما فليب ، الذى شكله مونتينى ، فكان يعجب بالحرية الانجليزية ، ويتكلم بتفاؤل على حكمه رعية لا تطيعه طاعة عمياء ، بل تكون من الذكاء بحيث تدعه يشرح لها الدواعى التى تبرر قوانينه . ورمز لروح نظامه بتركه فرساى وسكنى الباليه ـ رويال ، فى قلب باريس ومعمعاتها .

وكان يكره مراسم حياة البلاط والاعلان عنها ، فترك ذلك كله وراء ظهره . ورغبة فى المزيد من التيسير والخلوة رتب الا يسكن الملك الصبى فرساى بل القصر الريفى فى ضاحية فانسين . وبدلا من أن يدس له فليب السم كما ارجفت الشائعات ، عامله ارق معاملة ، وابدى نحـوه كل الخضوع الواجب له ، واحتفظ لويس الخامس عشر طوال حياته بذكرى شاكرة للرعاية التى اغدقها عليه الوصي (٣٢) .

بعد ان دفن لويس الرابع عشر بيومين أمر فيليب بالافراج عـن جميع المسجونين فى الباستيل فيما عدا أولئك الذين عرف عنهـم ارتكابهم جرائم خطيرة ضد المجتمع . وكان مئات من هؤلاء الرجـال قد سجنوا بمقتضي اوامر القبض المختومة lettres de cachet التى أصدرها الملك الراحل ، واكثرهم جانسنيون لم تكن تهمتهم سوى الانشـقاق الدينى ، ومنهم من طال العهد بهم فى السجن حتى لم يعرف أحد ، حتى ولا هم انفسهم ، السبب فى سجنهم . مثال ذلك أن رجلا قبض عليه قبل خمسة وثلاثين عاما لم يحاكم قط او ينبا بسبب سجنه ، فلما افرج عنه وهو شيخ وجد نفسه حائرا مذهولا ، فهو لا يعرف انسـانا فى باريس ، ولا يملك فلسا واحدا ، وعليه فقد التمس ان يبقى فى الباستيل الى آخر عمره ، وأجيب الى ملتمسه .

ونفى من باريس ميشيل لوتلييه ، كاهن الملك الذى تعقب الجانسنيين من قبل . ونصح الوصي على العرش الحزبين المتخاصمين فى الكنيسة بان يهدئا من خلافاتهما . واغضي عن البروتستنت المتسترين ، وعين عـددا منهم فى وظائف ادارية . وأراد ان يجدد مرسوم نانت السـمح ، ولكن اليسوعيين والجانسنيين اتحدا فى التنديد بمثل هذا التسـامح ، كذلك ثناه عن ذلك وزيره دوبوا الذى كان يحتال للظفر بقبعة الكردينالية (٣٣) . « ولم ينل البروتستنت الانصاف الذى انكره عليهم الحزبان المتنافسان فى الكنيسة الا بفضل الفلسفة (٣٤) » فلقد كان الوصي فولتيريا قبل فولتير . ولم يكن له عقيدة دينية واضحة ، وكان على عهد لويس الرابع عشر الذى يقرأ رابليه فى الكنيسة (٣٥) ، اما الآن فقد سمح لفولتير ، وفونتنيل ، ومونتسكيو ، بنشر كتب لو صدرت قبل بضع سنوات لحرم تداولهـا فى فرنسا لما تنطوى عليه من تهديد للايمان المسيحى .

وكان فيليب ـ من الناحية السياسية ـ حاكما متحررا مستنيرا حتى حين زج بفولتير فى السجن ، وكان يفسر قوانينه للشعب بعبارات بلغت من الاعتدال والاخلاص مبلغا حدا بميشليه الى ان يرى فيها ارهاصا بجمعية ١٧٨٩ التاسيسية (٣٦) . وامتلأت مكاتب الحكومة بالرجال الاكفاء دون نظر الى عدائهم للوصي ذاته ، فعين رجل كان قد هدده بالاغتيال رئيسا لمجلس المالية (٣٧) ، أما فيليب ، الذى كان بطبيعته ابيقوريا ـ فكان يظل رواقيا حتى الخامسة مساء ، يقول سان ـ سيمون انه كان الى تلك الساعة « ينصرف بكليته الى أعمال الدولة ، واستقبال الوزراء والمجالس الخ . ولا يتناول طعامه أبدا خلال ذلك النهار ، بل يكتفى بتناول الكاكاو بين الثانية والثالثة ، حين يسمح للجميع بدخول غرفته ... وقد أبهجت الناس جدا الفته وسهولة الوصول اليه ، ولكنهم أساءوا استعمالهما (٣٨) » . وكان فليب أورليان ، دون سلائل هنرى الرابع جميعا ، اى جميع البوربون ، فى رأى فولتير « أشبههم بذلك الملك فى شجاعته ، وطيبة قلبه ، وصراحته ، ومرحه ، وبشاشته ، وسهولة الوصول اليه ، مع فهم أكثر تهذيبا وصقلا (٣٩) » . وكان يربك السفراء والمستشارين بمعارفه الواسعة ، وفكره الثاقب ، وحكمه الصائب (٤٠) . ولكنه شارك الفلاسفة ضعفهم ـ وهو القدرة والرغبة فى رؤية جوانب كثيرة جدا للموضوع الواحد ، بحيث يضيع الوقت فى النقاش ويؤجل العمل الحاسم .

ولم يكن على سماحته يطيق اى اختزال للسلطة الملكية التقليدية . فلما رفض البرلمان ـ الذى أراد استخدام حق الاعتراض الذى وعده به ـ ان يسجل بعض مراسيمه (اى ان يعتبرها ضمن قوانين البلاد المعترف بها) ، دعاه (٢٥ اغسطس ١٧١٨) الى « سرير عدالة » مشهور ـ وهى جلسة يمارس فيها الملك وهو جالس على « سرير » القضاء سلطته فى الالزام بتسجيل مرسوم ملكى . ومضي القضاة البالغ عددهم ١٥٣ ، وقورين مهيبين فى عباءاتهم القرمزية ، الى التويلرى سيرا على الاقدام . واتباعا لتعليمات فليب ، أمرهم الملك الصبى بتسجيل مراسيم الوصي ، ففعلوا . وانتهز فرصة مواصلة دوق ودوقة مين معارضته سواء فى المجلس الملكى أو بالتآمر عليه ، فحرم أبناء الملك وحفدته غير الشرعيين من وضعهم كامراء من الدم الملكى . ورد

الادواق الشرعيون الى سابق ترتيبهم وحقوقهم ، الأمر الذى أبهج الدوق سان - سيمون ، الذى رأس فى هذه الخطوة أعظم انجاز للوصاية ، وكانت أسمى اللحظات فى « مذكراته » .

على أن دوقة مين لم تقبل الهزيمة . فمولت بعض الظرفاء الذين راحوا يخزون الوصي باهاجيهم اللاذعة . واحتمل هذه السهام بصبر القديس سبستيان ، اللهم الا « الفليبيات » واهاجى « الأشياء التى شاهدتها » المنسوبة لفولتير . وفى ديسمبر ١٧١٨ اشتركت الدوقة فى مؤامرة مع كيلامار ، السفير الاسبانى ، والبيرونى رئيس الوزراء الاسبانى ، والكردينال ملشيور دبولنياك ، للاطاحة بالوصي وتنصيب فليب الخامس الأسبانى ملكا على فرنسا ، على أن يكون الدوق مين كبير وزرائه . وكشف أمر المؤامرة ، وطرد السفير ، وزج بالدوق والدوقة فى سجنين منفصلين ، وافرج عنهما فى ١٧٢١ . وادعى الدوق انه يجهل أمر المؤامرة . وعادت الدوقة الى بلاطها ومؤامراتها فى سو .

فى وسط هذه المضايقات ، وفى نطاق التقاليد وعلى قدر ما سمح به خلقه الشخصي ، قام فليب ببعض الاصلاحات المعتدلة . فشق فى حكمه القصير من الطرق أكثر مما شق فى نصف القرن الذى حكمه لويس الرابع عشر . ووفر ملايين الفرنكات بتركه قصرى مارلى وفرساى ، واحتفاظه بحاشية متواضعة العدد . وقد بقى الكثير من ابتكارات « لو » ممثلا فى جباية للضرائب أشد قصرا وأكثر رحمة ، وفى طرد الجباة المتهمين بالفساد أو التبديد . وفكر فليب فى ضريبة دخل تصاعدية : وجربها فى نورمنديه ، وفى باريس ، وفى لاروشيل ، ولكنها أبطلت بموته المبكر . وقد جاهد ليبقى فرنسا بنجوة من الحرب ، فسرح آلاف الجند ، ووطنهم فى الأراضي غير المزروعة . واسكن الباقين فى ثكنات بدلا من أن يسكنهم فى بيوت الشعب . وبنظرة سمحة فتح أبواب جامعة باريس والمكتبة لجميع الطلبة المؤهلين دون أجر ، ودفعت الدولة مصروفات تعليمهم (٤١) . وأعان بمال الدولة الأكاديمية الملكية للعلوم ، والأكاديمية الملكية للماثورات والآداب البحتة ، والاكاديمية الملكية للعمارة ، ومول نشر المؤلفات العلمية ، وانشا فى اللوفر اكاديمية للفنون الميكانيكية نهوضا بالاختراع والفنون الصناعية (٤٢) . وأجرى

المعاشات على الفنانين والعلماء والأدباء ، وهيأ لهم غرفا فى القصور الملكية ، وكان يحب أن يتكلم مع هؤلاء الرجال على مهنهم المختلفة . ولم تؤت تدابيره واصلاحاته ثمارها كاملة من جراء كابوس الدين وانهيار ثورة لو المالية من جهة ، وعيوب الوصي البدنية والخلقية من جهة أخرى .

ومن افجع المآسي فى تاريخ فرنسا أن هذا الرجل الذى وهب الكثير من فضائل الذهن والقلب لوثه وأضعفه فجور طبقته وفسق جيله . فهذا الابن الذى انجبه أب منحرف جنسيا ، ورباه رجل فاجر من رجال الكنيسة ، شب وهو يكاد يكون عاجزا عن كبح جماح شهوة الجنس التى انغمس فيها . اقول دكلوا « كان يمكن أن تكون له فضائل اذا كانت الفضائل ميسورة لانسان بغير مبادىء (٤٣) » . واذ كان قد اكره على الزواج من ابنة غير شرعية للويس الرابع عشر ، وافتقد الحب أو السلوى فى زوجته ، فانه أولع بالسكر الكثير ، وبمعاشرة الخليلات فى اسراف لم يعدله فيه حاكم خارج حريم السلاطين . واختار اصدقاءه من بين المعربدين الذين كان يصفهم بكلمة noués (أى الفاسقين) ، والذين كانوا ينفقون الثروات على الفجور ، ويؤثثون بيوتهم بالفن الغالى ويزودونها بالمثيرات الجنسية (٤٤) . وكان فليب يلحق باصحابه فى الباليه - رويال ، أو فى فللته فى سان - كلو ، ومعظمهم من شباب الاشراف ، وفيهم أيضا بعض الانجليز المثقفين امثال اللوردين ستير وستانهوب - فى حفلات عشاء صغيرة تختلط فيها النساء المثقفات كمدام دوديفان بالممثلات ومغنيات الاوبرا ، والخليلات ، فى توفير اثارة الانثى لذكاء الرجل . يقول سان - سيمون ، ربما فى شيء من التلوين المنافق :

« فى هذه الحفلات كانت تعرض أخلاق كل انسان ، الوزراء واصحاب الحظوة كغيرهم سواء بسواء ، بحرية هى الاباحية المطلقة : غزليات البلاط والمدينة فى الماضي والحاضر ، وكل قديم من القصص والخصومات والفكاهات والسخافات ينبش من مكامنه ، ولم يعف من هذا النبش احد ، وكان الدوق أورليان يدلى برأيه كالباقين . ولكن نادرا جدا ما كانت هذه الاحاديث تؤثر فيه أقل تأثير . وكان هؤلاء الاصحاب يسكرون ما شاء لهم السكر ، ويلهبون أنفسهم ، ويتكلمون باقذر الاشياء

دون تحرج ، ويتنافسون فى التفوه بافحش العبارات ، حتى اذا فرغوا من احداث الكثير من الضجيج وثملوا بالخمر ، مضوا الى فراشهم، ليعاودوا اللعبة ذاتها فى الغد (٤٥) » .

وقد افصحت روح فليب القلقة المنزوعة الجذور عن نفسها فى قصر تسلط محظياته عليه ، فندر أن سيطرت عليه أحداهن أكثر من شهر ، ولكن المبعدات منهن كن يترقبن الفرصة حتى يعود دورهن مرة اخرى . وكان خدمه الخصوصيون ، وحتى أصدقاؤه ، يجلبون له العشيقات الجديدات فى غير توقف . فنساء الطبقة العليا ، كالكونتيسه بارابير ، والنساء المغامرات كمدام تنسان ، والمغنيات والراقصات من الأوبرا ، والموديلات البارعات الجمال كمدام سابران (التى أثار « سمتها الرائع » و « وجهها الذى لا يدانيه فى الحسن وجه فى العالم » حتى مشاعر رجل فاضل كسان - سيمون) - هؤلاء كلهن وهبن أنفسهن للوصي لقاء برهة من السلطان ، أو لقاء الرواتب أو الاعانات أو المجوهرات ، وكان يغدق العطايا عليهن من دخله الخاص أو من الخزانة التى على شفا الافلاس . على أنه برغم اهماله لم يسمح قط لهؤلاء النسوة بأن ينتزعن منه اسرار الدولة ، أو أن يناقشن شئونها ، فلما حاولت ذلك مدام سابران جعلها تنظر الى صورتها فى المرآة ثم سألها ، « أيمكن للانسان أن يتحدث حديثا جادا الى مثل هذا الوجه الجميل ؟ اننى لا احب ذلك ابدا (٤٦) » . وما لبث سلطانها عليه ان زال .

هذا العربيد ذاته كان يحب امه ، فيزورها مرتين كل يوم ، ويحتمل توبيخها الحزين فى حلم . ومع أنه لم يحب زوجته ، فانه بذل لها العناية والمجاملة ، ووجد الوقت لينجب منها خمسة أطفال . وكان يحب أبناءه ، وحزن حين لجأت صغرى بناته للدير ، ولم يمر به يوم دون أن يزور فى قصر اللكسمبورج كبرى بناته ، التى كانت حياتها فضيحة محزنة تكاد تعدل فضيحة حياته هو .

ذلك ان زواجها بشارل ، دوق بيرى ، سرعان ما غدا تارجحا بين الحرب والهدنة . فبعد ان امسكته متلبسا بين احضان امراة ، وافقت على ان ترضى عن خياناته شريطة أن يغضى عن خيانتها ، ويضيف تاريخ اخبارى معاصر أنهما « تعهدا » بأن يحمى الواحد صاحبه (٤٧)»

هذه الحفيدة ـ حفيدة « المسيو » ، « اللوطى » ـ وسليلة أسرة بافارية ورثت الجنون فى دمها ، وجدت الن ثبات الذهن واستقرار الخلق امر يفوق طاقتها ، وزاد وعيها بعيوبها واخطائها من حدة طبع عاث ارعب كل من كان لهم صلة بحياتها . وقد استغلت نبالة اصلها استغلالا كاملا ، فكانت تركب عربتها مخترقة باريس كانها ملكة ، وتحتفظ فى اللكسمبورج بقصر مترف يخدمها فيه أحيانا ثمانمائة خادم (٤٨) . فلما مات زوجها (١٧١٤) راحت تستضيف سلسلة من العشاق . وصدمت كل انسان بسكرها وفجورها ، ولغتها النابية ، وعجبها وغطرستها ، وكانت تختلف عليها نوبات من التقوى ، ومن الهجمات الشكاكة على الدين .

ويبدو انها لم تحب انسانا قط محبتها لابيها ، وانه لم يحب انسانا قط محبته لها . ولقد شاركته ذكاءه ، ورهافة حسه وظرفه كما شاركته خلقه ، وكان حسنها فى شبابها يضارع حسن اجمل خليلاته . واتهمتهما شائعات باريس ـ التى لا قلب لها ولا حرمة ـ بسفاح القربى ، لا بل زادت بانه اقترف هذه الخطيئة مع بناته الثلاث جميعا (٤٩) . واغلب الظن ان بعض هذه الشائعات أطلقتها « شلة » مدام مين (٥٠) . وقد رفضها سان ـ سيمون ، وهو اقرب الناس الى الموقف ، لانها افتراءات قاسية وضيعة . اما فليب ذاته فلم يعبأ بنفيها . وخلوه التام من الغيرة من عشاق ابنته (١٥١) ، وعدم غيرتها من خليلاته (٥٢) ، لا يكادان يتفقان وطبيعة الحب المستاثرة (٥٣) .

ولم يقو على فصلها عن ابيها سوى رجل واحد ـ هو الكبتن ريون الضابط بحرس قصرها ، الذى سلبت فحولته لبها حتى خضعت له خضوع الاماء . ففى ١٧١٩ حبست نفسها فى اللكسمبورج مع بعض اتباعها ، وولدت ابنة للكبتن . ثم ما لبثت أن تزوجته سرا . وتوسلت الى ابيها ان ياذن لها باعلان هذا الزواج ، فرفض ، فانقلب حبها له غيظا مجنونا . ومرضت ، واهملت نفسها ، فاصابتها حمى انذرت بالخطر ، وماتت وهى فى الرابعة والعشرين اثر مسهل أعطاها اياه طبيبها (٢١ يوليو ١٧١٩) . وقد كشف تشريح جثتها عن تشوهات فى مخها . ولم يرض اى اسقف بالصلاة عليها فى جنازتها ، وكان فليب

شاكرا أعمق الشكر حين سمح رهبان سان ــ دنى بايداع جثمانها في المدافن الملكية فى كنيسة ديرهم ٠ أما الام فقد اغتبطت بموت ابنتها ، وأما الاب فقد دفن نفسه في فراغ السلطة ٠

٥ ــ المجتمع فى عهد الوصـــاية

كان ازدياد الثروة فى فرنسا فى الفترة بين صدور مرسوم نانت (١٥٩٨) والغائه (١٦٨٥) ، وانتشار حيـــاة الحضر ، واضمحلال العقيدة الدينية عقب الحروب الدينية والخلافات الجانسنية ــ كان هذا كله قد جر على طبقة الاشراف تحللا فى الاخلاق رمز له لويس الرابع عشر فى شباب حكمه ٠ وكان زواج الملك من مدام دمانتينون (١٦٨٥) ، واهتداؤه الى القناعة بامرأة واحدة والى حياة الفضيلة ، وما أحدثته الكوارث الحربية من تاثير منبه ، كل أولئك أكره بلاطه على أن يغير على الاقل من سلوكه الخارجى ، وكانت اصلاحات الاكليروس الذاتية قد أوقفت ضعف الكنيسة جيلا ، وفرض احرار الفـكر الرقـــابة على مؤلفاتهم ، وستر الأبيقوريون لهوهم الصاخب عن أنظار الناس ٠ ولكن حين جاء بعد الملك الصارم التائب هذا الوصي الشاك الاباحى المتسامح، تداعت هذه الضوابط ، وتفجر غيظ الغرائز المكبوتة فى موجـــة من الزندقة والاستغراق فى اللذات شبيهة بالفورة الشهوانية التى أصابت المجتمع الانجليزى عند عودة الملكية عقب جيل من تســـلط البيورتان (١٦٤٢ ــ ٦٠) ٠ واصبح التحلل من الاخلاق شارة التحـــرر ورقى الثقافة ، وغدا الفجور نوعا من « الاتيكيت (٥٤) » ٠

كانت المسيحية آخذة فى الاضمحلال قبل أن تهاجمها « الموسوعة » بزمن طويل ، لا بل قبل أن يصوب اليها فولتير أول سهام قلمه ٠ ففى ١٧١٧ شكا دبوى من كثرة الماديين فى باريس (٥٥) ، وقال ماسيون فى ١٧١٨ « يكاد الكفر اليوم يضفى على اصحابه مظهر التميز والفخار، انه فضيلة توصل الى العظماء ٠٠٠ وتجلب للمغمورين شرف الألفـــة بأمير الشعب (٥٦) » وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها فى ١٧٢٢ تقول « لست اعتقد ان فى باريس ، سواء بين رجال الدين أو الدنيا ، مائة شخص يدينون بايمان مسيحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا ، وهذا يجعلنى أرتعد فرقا (٥٧) » وقل من افراد الجيل الاصغر من فكر

ففى التحول عن الكاثوليكية الى البروتستنتية ، فقد تحولوا الى الالحاد ، التى كان أسلم لهم . وكان مقهى بروكوب ، ومقهى جرادو ، شأنهما شأن التامبل ، ملتقيات للمفكرين الملحدين .

واذا كان المروق عن الدين قد شارك فى اطلاق الإستهتار الخلقي فى الطبقة العليا ، فان الفقر تعاون مع جموح الناس الطبيعي على احـــداث الفوضي الخلقية بين دهماء باريس . وقد حسب العالم لاكروا ان « الاشخاص الخطرين ، والمتسولين ، والمتشردين ، واللصوص ، والنصابين من شتى الانواع ، ربما الفوا سدس مجموع الشعب (٥٨) » . ولذا أن نفترض أن الزنا كان يلطف من عناء الكدح بين فقراء المدن ، شانه بين اغنيائها . وأفرخت الجريمة فى شتى أشكالها ، من النشالين فى باريس الى قطاع الطريق العام . حقا كان لباريس شرطة منظمة ، ولكنها لم تســتطع ملاحقة الجريمة ، وكان رجالها أحيانا يقنعون بشطر من الغنيمة (٥٩). وفى ١٧٢١ نجحت وزارة الحرب على الأقل فى القبض على كارتوتن، قاطع الطريق الفرنسي الأشهر (قريع جاك شبرد الانجليزى) وحاصرت خمسمائة من رجال عصابته التى جعلت السفر خطرا حتى على الملوك . ولم يبق على الاستقرار الخلقى للحياة الفرنسية غير طبقة الفلاحين والطبقات الوسطى .

أما فى طبقة الاشراف بباريس ، وبين أعيان المـدن الطليقين ، ومدمنى الأدب أو الفن ، ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخليلات ، فقد بدا أن المبادىء الاخلاقية باتت نسيا منسيا ، ولم تذكر المسيحية الا ساعة يلتقى فيها الناس فى الكنائس أيام الآحاد . فاذا وفدت الزوجات على باريس أو فرساى تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المنافق، الذى حاول أن يحمى ميراث الاملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجهـــا جريمة أخطر كثيرا من خيانة الزوج لزوجته ، هناك كانت الزوجة التى تقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم ، وهناك نافست النساء الرجال فى ربط الروابط وفكها . وكان الزواج يقبل للحفـــاظ عـلى الأسرة ، وأملاكها ، واسمها ، اما بعد هذا فلا يطالب عـــرف العصر والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء (٦٠) . لقد كان الزواج فى العصور الوسطى يعتمد عليه فى أن يقود الى الحب ، أما الآن فنادرا ما كان

الزواج يقود الى الحب أو الحب الى الزواج ، وحتى في الزنا لم يكن هناك كبير ادعاء للحب . على أن العهد لم يخل من زوجين وفيين يتالقان كأنهما استثناء جرىء للقاعدة وسط هذا الحشد الفاسق ، مثال ذلك دوق ودوقة سان ـ سيمون ، وكونت وكونتيسة تولوز ، ومسيو ومدام لون ، ومسيو ومدام بونشارتران ، ومسيو ومدام بيل ـ ايل . وتحولت الكثيرات من الزوجات المستهترات الى جدات هادئات مثاليات وانكفأ بعضهن ، بعد ان بليت مفاتنهن من كثرة التداول ، الى اديرة مريحة حيث يفرغن لأعمال البر ويعلمن الحكمة للراهبات .

ومن اجرأ نساء عصر الوصاية كلورين الكساندرين دتنسان ، التي انطلقت فجأة من الدير وهي في الثانية والثلاثين الى سلسلة متلاحقة من العلاقات الغرامية . وكان لها اعذارها : فأبوها زير نساء موفق ورئيس برلمان جرينوبل ، وامها لعوب طائشة ، وكلودين ذاتها كانت واعية بجمالها الذي يتلهف على أن يباع . وكانت اختها الاكبر منها ، مدام دجروليه ، لا تقل عنها كثيرا في فوضى علاقاتها الغرامية ، وقد قالت في اعترافها على فراش الموت حين بلغت السابعة والثمانين معللة مسلكها « كنت شابة ، وكنت جميلة ، وكان الرجال يقولون لي ذلك فاصدقهم ، وعليكم ان تحزروا الباقي بعد هذا (٦١) » . ورسم اخو كلودين الأكبر منها قسيسا ، وشق طريقه الى قبعة الكردينالية والى منصب رئيس اساقفة ليون متوسلا الى هدفه بالعديد من النساء ، أما الأب فادخل كلودين ديرا في منفلوري ليوفر مهرها . هنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاما في حياة تقوى فرضت عليها كرها . وفي ١٧١٣ ، حين بلغت الثانية والثلاثين ، هربت واختبأت في حجرة الشفالييه ديتوش ، وهو ضابط في المدفعية ، أصبحت بمعونته (١٧١٧) أم الفيلسوف دالمبير . على أنها لم تتوقع انبعاث « الموسوعة » من هذا الوليد ، فتركته على سلم كنيسة سان ـ جساك ـ لرون بباريس . وانتقلت الى ماثيو برايور واللورد بولنبروك ومارك رينيه دفواييه دارجنسون ؛ وبعد أن جلست الى مثال ينحت لها تمثالا عاريا (٦٢) فيما روى ارتمت بين احضان الوصي نفسه . وكان مقامها هناك قصيرا ، وقد حاولت ان تحول قبلاتها الى وظيفة كهنوتية ذات ايراد لأخيها المحبوب ، واجاب فليب أنه لا يحب الغواني اللاتي يتحدثن في شئون العمل في

الفراتى (٦٣)) » ويأمر بأن توصد ابوابه فى وجهها . ثم نهضت من كبوتها تلك وغزت قلب ديوا . وسنلتقى بها مرة أخرى .

وفى وسط هذا التقلب الأخلاقى السريع واصلت بعض نساء باريس تلك الفضيلة الفرنسية المميزة ، فضيلة الجمع بين اصحاب الألقاب ، والذكاء ، والجمال ، فى الصالونات . وكان اكثر المجتمعات تهذيبا فى العاصمة يلتئم شمله فى مبنى الأوتيل دحطى الرائع العمارة ، هناك كان يحضر الساسة والماليون والشعراء ـ فونتنيل فى ستيناته الصامتة ، وفولتير فى عشريناته المندفعة . وكانت جماعة اكثر جذلا تجتمع فى الاوتيل دبويون ، الذى خلده لساج فى لحظة غضب ، ذلك انه دعى هناك ليقرأ مسرحيته « توكاريه » ، فوصل متأخرا ، فوبخته الدوقة فى خيلاء قائلة « لقد ضيعت علينا ساعة » ، فاجاب « ساجعلكم تكسبون ضعفى هذا الوقت » ثم غادر المنزل (٦٤) . وقد مر بنا من قبل صالون مدام دمين فى سو . وكانت مرجريت جان كوردييه دلونيه ، التى ستصبح البارونة دستال فيما بعد ، تخدم الدوقة وصيفة شرف ، وقد كتبت « مذكرات » بارعة (نشرت فى ١٧٥٥) تصف المهازل ، والنزوات ، والمهرجانات الليلية ، والحفلات التنكرية التى لم تترك مكانا يذكر للاحاديث التى تخللت « ملاهى سو » .

ولكن الحديث كان يغلب على الصالون الذى ادارته آن تيريز دكورسيل ، ماركيزة دلامبير ، فى الاوتيل دنفير (وتشغله اليوم المكتبة الاهلية) . وقد واصلت هذه المرأة الغنية الصارمة ، خلال عصر الوصاية الصاخب ، تلك العادات الرزينة الجليلة التى سادت سنوات لويس الرابع عشر الاخيرة . فلم تشجع لعب الورق ، ولا الشطرنج ، ولا حتى الموسيقى ، بل كانت بجملتها نصيرا للفكر . وقد أولعت ، كالمركيزة دشاتليه ، بالعلم والفلسفة ، وكانت احيانا (كما يقول فولتير) تتكلم فوق ما يفقهه رأسها ، ولكن الرأس كان جميلا يحمل لقبا نبيلا ، ويحرك مشاعر اى ميتافيزيقى ، وكانت فى كل ثلاثاء تستضيف العلماء والنبلاء ، وفى كل اربعاء الكتاب والفنانين والأدباء ومنهم فونتنيل ومونتسكيو وماريفو . وفى اجتماعاتها تلك كان العلماء يلقون المحاضرات والمؤلفون يقرءون ما يزمعون اصداره من كتب ، والشهرة الإدبية

تكتسب ، ومن « ندوة العقل » تلك ، قامت هذه المضيفة الكريمة الطموح بنحو عشرين حملة ناجحة لادخال من بسطت عليهم حمايتها فى عضوية الاكاديمية الفرنسية . لقد كانت واحدة من مئات النساء المهذبات ، المثقفات ، المتحضرات ، اللائى يجعلن تاريخ فرنسا اكثر القصص فتنة فى العالم .

٦ ـ فاتو والفنون

عكست ثورة فى الفن ذلك التغيير الذى طرأ على السياسة والاخلاق. فبعد أن انهارت سياسة لويس الرابع عشر الامبريالية فى حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ ـ ١٣) ، تحولت روح فرنسا من دماء المجد الحربى الى مباهج السلام . فلم يجد مزاج العصر حاجة للكنائس الجديدة ، بل وجد الحاجة أكثر للقصور المدنية كالاوتيل ماتينيون وقصر بوربون (١٧٢١ ـ ٢٢) . واذا استثنينا هذه العمائر الضخمة ، وجدنا ان المساكن والحجرات أصبحت الآن أصغر حجما ، وحليتها أكثر رقة وصقلا . وبهذا الباروك يتحول الى الروكوك* ، اى أن طراز الاشكال غير المنتظمة والحلية الكثيرة غلبت عليه اناقة تكاد تكون هشة ، تصل الى حد الخيال الجامح العابث الذى لا يمكن التنبؤ به . واصبح الولع بالصقل البديع ، والالوان الزاهية ، وتطويرات التصميم المدهشة ، طابعا لطراز الوصاية . وتلاشت الطرز الكلاسيكية تحت فرحة الثنايا الانيقة ، واختفيت الاركان ، ونقشت الحلى والقوالب المعمارية فى اسراف . وهجر النحت فخامه فرساى الأولمبية الى صور أصغر ، صور الحركة الرشيقة والاغراء العاطفى . وتجنب الأثاث الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، واستهدف الراحة أكثر من الوقار . فظهر الآن مقعد الشخصين ذو المسندين ، وهو المقعد المصمم للصديقين والحبيبين اللذين يكرهان عاطف البعد . وأرسى شارل كرسان كبير نجارى الوصي ، طراز اثاث عصر الوصاية بما حوى من مقاعد ، وموائد ، ومكاتب وخزائن ذات ادراج ومرايا ، تسطع بتطعيم الصدف وتشرق بالجمال المتعمد .

---

* ربما كانت هذه الكلمة rococo أصلها rocaille وهو لفظ استعمل فى فرنسا فى القرن السابع عشر للدلالة على بناء المغارات او تجميلها بالصخور والاصداف .

ولقد رمز فليب ذاته ، فى شخصه وعاداته وميوله ، الى الانتقال الى الروكوك . فحين نقل الحكومة من فرساى الى باريس أنزل الفن من وقار لويس الرابع عشر الكلاسيكى الى روح العاصمة الاكثر خفـــة ، ووجـــه ثروة الطبقة البورجوازية الى رعاية الفن . وكان راعيا للفن بحكم منصبه وبتفرده فى هذا المضمار ، فهو غنى بثروته اصلا ، سـخى فى البـــذل للفنانين . ولم يكن يسيغ الفخامة او الضخامة ، ولا مواضيع التصـــوير التقليدية ـ مواضيع الدين أو الأساطير أو التاريخ ، بل الروائع الصـغيرة ذات الصنعة المتقنة التى تغرى الاصابع وتفتح العيون ، أمثال علب الحلى المرصعة بالجواهر ، والآنية الفضية ، والطاسات الذهبية ، والخزفيات الصينية الغريبة الاشكال ، ورسوم النساء الفاتنات اللاتى يلبسهن روبنز او تتزيانو رداء الطبيعة أو يرفلن فى أرواب فيرونيزى الفاخرة . وقد فتح ابواب مجموعته الخاصة فى الباليه ـ رويال على مصاريعها لجميع الزوار المسئولين ، ولولا خليلاته اللاتى يطلبن وينلن ما يطلبن منهـا لضارعت مجموعته افضل نظائرها . ووفد الفنانون على قاعاته للدرس والنسخ ، وذهب فليب الى مراسمهم لينظر ويتعلم . تحدث الى كبير مصوريه ، شارل انطوان كوابيل ، فى ادب وتواضع تميز بهما فقال : « اننى يا سيدى لسعيد وفخـــور بان أتلقى نصـــيحتك وانتفـــع بدروسك (٦٥) » . ولولا ما عانى من ظمأ للجمال وتذوق عاث له لكان رجلا رفيع التحضر .

وافصحت روح العصر عن نفسها باجلى بيان فى التصوير . فقد نبذ الفنانون أمثال فاتو ، وباتير ، ولانكريه ، وليموان ، القواعد التى وضعها لبرون فى الاكاديمية الملكية للفنون الجميلة بعد أن حـــررهم الوصي ورعاتهم الجدد . واستجابوا عن طريب خاطـر للطلب عـلى الصور التى تعكس فهم الوصي للجمال والمتعة ، وحسن نساء عهـــد الوصاية الفياض بالحيوية والمرح ، والألوان الدافئة لاثاث الوصـــاية وسجفها ، والحفلات المرحة فى غابة بولونيا ، والالعاب والتنكريات فى قصر سو ، والاخلاق المتراخية التى اتسم بها الممثلون والممثلات ومغنيات الاوبرا والراقصات . وحلّت الأساطير الوثنية محل قصص القديسـين القاتمة المتجهمة ، وسمحت الأشكال العجيبة المستوردة من الصـــين ، او تركيا ، أو فارس ، أو الهند ، للعقل الذى أطلق من عقـــاله بأن

بجوب فى حرية خلال احلام غريبة ودخيلة ، واخذت الرعويات الحالمة مكان « التواريخ » البطولية ، وحلت صور اشخاص المشترين محـــل صور مآثر الملوك وجلائل اعمالهم .

وواصل بعض الرسامين الذين اشـــتهروا فى عصر لويس الرابع ازدهارهم فى عصر الوصاية ، ومنهم انطوان كوابيل ، فبعد ان زخرف فرساى بالطراز نفسه الذى زين به القصر القديم ، رسم فى الباليه ـ رويال نساء فى اثواب طويلة فضفاضة ساحرة . اما نيكولا دلارجلبير ، الذى كان يبلغ التاسعة والخمسين عند موت الملك العظيم ، فقد واصل الرسم ثلاثين سنة اخرى ، وصورته معلقة فى اللوفر الذى لا تنضب صوره ، وهو يبدو فى خيلائه وفى باروكته ، بصحبة زوجته وابنته . وراح الكماندر فرانسوا ديبورت ، الذى مات عام ١٧٤٣ وهو فى الثامنة والثمانين ، يرسم الآن مشاهد طبيعية عريضة ، كلوحـــة « منظر الايل دفرانس » المحفوظة بمتحف كومبيين . وزخرف فرانسوا لموان ، الذى انتحر فى التاسعة والاربعين (١٧٣٧) ، كنيسة سان ـ سولبيس بروح الخشوع والورع ، ثم أشاع الدفء فى صالون هرقول بفرساى باجساد شـــهوانية سيقلدها بوشيه من بعده . وادخل كلود جيو ، مصمم مناظـــر المسرح وملابسه ، ونقاش المناظر الطبيعية واللوحات المسرحيـــة ، أســـلوب « المهرجانات الريفية » الذى يرتبط عندنا بتلميذه انطوان فاتو .

وانطون هذا فلمنكى ، ولد لصانع بلاط فى فالنسيين (١٦٨٤) ، وشكلته اول الأمر التاثيرات الفلمنكية ـ صور روبنز ، واوستاد ، وتنييه ، وتعليم مصور محلى يدعى جاك جيران . فلما مات جيران (١٧٠٢) يمم فاتو شطر باريس وهو لا يملك شروى نقير . وكسب قوته بمساعدة رسام للمناظر ، ثم بالعمل فى مصنع ينتج بالجملة لوحات صغيرة وصورا دينية . وكان أجره ثلاثة فرنكات فى الاسبوع مضافا اليها من الطعام ما يمسك رمقه يفضي لأصابته بالسل . ولكن حمى اخرى كانت تعتمل فى صدره وتكويه كيا ـ وتلك هى الجوع للعظمة والشهرة . فكرس امسياته وعطـلاته لرسم الأشخاص والاماكن من الطبيعة . واستهوى أحد هذه الرسوم التخطيطية جيو ، الذى كان يرسم لوحات لمسرح الكوميدى ـ ايتاليين ، فدعا فاتو للانضمام اليه . وجاء انطوان ، ووقع فى غرام الممثلين ، فرسم احداثا

من حياتهم البطولية ، وغرامياتهم المتقلبة الطائشة ، والعابهم ونزهاتهم الخلوية ، وفزعهم الاكبر حين قصرتهم مدام دمانتنون على البانتوميم (التمثيل الايمائى) بعد أن ساءها هجاؤهم . والتقط فاتو ما فى قلقهم وعدم استقرارهم من أسي ، والتعبيرات المضحكة المرتسمة على وجوههم ، وطيات ثيابهم الغريبة ، ثم أضفى على هذه الصور نسيجا ذا ومض لعله اثار بعض الغيرة فى نفس جيو . على اية حال تشاجر الاستاذ والتلميذ وافترقا ، وانتقل انطوان الى مرسم كلود أودران فى اللكسمبورج . وهناك درس فى رهبة صور روبنز التى مجد بهـا مارى مديتشي ، ووجـد فى الحدائق مناظر من الشجر والغيوم فتنت قلمه أو ريشته .

تلك كانت سنوات مرة يساق فيها الغلمان الفرنسيون على عجل الى المعركة تلو المعركة فى حرب الوراثة الاسبانية الطويلة . وكان يقدم لتضحيتهم على هذا النحو بما ينبغى من العروض الوطنية وحفلات الوداع المثيرة للأسي . وقد وصفها فاتو فى لوحته . « رحيل الجنود » برقة فى الشعور والاسلوب جعلت أودران هو الآخر يوجس من تفوق فاتو عليه . ودخل انطوان مسابقة نظمتها الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت فى ١٧٠٩ أملا فى نيل « جائزة روما » . فلم ينـل الجائزة الثانية ، ولكن الأكاديمية الحقته عضوا بها فى ١٧١٢ . وبعد جهـود صغيرة كثيرة بلغ قمة مجده بلوحته « الابحـار الى جـزيرة سيتير (١٧١٧) » وهى اليوم من أروع كنوز اللوفر . وصفقت لها باريس كلها ، وعينه الوصي المغتبط مصورا رسميا للملك ، وكلفته الدوقة بيرى بزخرفة قصرها الريفى « لامويت » . وراح يعمل كالمحموم ، وكانه أدرك أن لن يفسح له فى الأجل سوى أربع سنين أخر . وقدّم انطوان كروزا ، منافس فليب ذاته فى رعاية الفن ، الى فاتو المأكل والمسكن فى قصره المترف . هناك درس انطوان المصور (أصغر الانطوانين سنا) اروع مجموعة جمعها مواطن الى ذلك الحين . ورسـم لكروزا أربع لوحات زخرفية ، سماها « الفصول » . وسرعان ما ضاق ذرعا بالترف، فراح يتنقل من مكان الى مكان ، حتى الى لندن (١٧١٩) ، ولكن غبار الفحم والضباب رداه الى باريس ، حيث سكن فترة مع تاجـر التحف جرسان . ورسم له انطوان فى ثمانية أصباح جانبى لافتة ظهر فيها باريسيون عصريون يفحصون صورا فى حانوت ، وفوق النزعـة

الواقعية العرضية ألقت طيات رقيقة لثوب امرأة ذلك الضوء الواهن الذى تميز به فاتو . وكان سعال سله يزداد سوءا يوما بعد يوم ، فاتخذ بيتا فى نوجن ، قرب فانسين ، معللا نفسه بأن هواء الريف سيعينه على البرء . وهناك ، بين أحضان جيرسان والكنيسة ، مات (١٨ يوليو ١٧٢١) غير متجاوز السابعة والثلاثين .

وقد سرت عدوى مرضه الطويل الى خلقه وفنه . وكان ، وهو الرجل النحيل المروض العصبى الحيى ، السريع الاعياء ، النادر الابتسام ، القليل المرح ـ يقصي حزنه عن فنه ، فصور الحياة كما رأتها احلامه وأمانيه ـ مشهدا عريضا من الممثلين المرحين والنساء اللدنات ، وأغنية للفرح الملهوف . واذ كان أضعف من أن يجرى وراء شهوات الحس ، فانه حتفظ وسط اباحية عهد الوصاية بلياقة فى الخلق انعكست فى مزاج انتاجه . صحيح انه رسم بعض النسوة العاريات ، ولكنهن خلون من اغراء اللحم ، وفيما عدا هؤلاء كانت نساؤه يرتدين ثيابا مشرقة تخطر فى خفة وحذر خلال دهاليز الحب . وتنقلت فرشاته بين تقلبات الممثلين ، ومراسم الغزل ، ومشكال الجو . فأضفى على شخص « غير المكترث (٦٦) » أغلى وأشف ما استطاع تخيله من ثياب . وصور « الكوميديين الفرنسيين (٦٧) » فى مشهد درامى ، والتقط صورة الممثل الايطالى جوزيبى باليتى فى دور المهرج جيل (٦٨) ، غارقا فى التفكير مرتديا سراويل بيضاء . وفاجأ « عازف جيتار (٦٩) » فى لحظة اكتئاب غرامى ، ورأى « حفلة موسيقية (٧٠) » مسحورة بعزف العود . وقد وضع شخصياته امام خلفيات حالمة ، من نوافير عابثة ، وأشجار متمايلة ، وغيوم سابحة ، يتخللها هنا وهناك تمثال وثنى يردد به صدى بوسان ، كما نلحظ فى « مهرجان الحب (٧١) » أو « الفراديس السعيدة (٧١) » كان يحب النساء على بعد متهيب ، بكل أشواق رجل أوهن من أن يلتمس ودهن ، وقد انفعل بأعطافهن الدافئة أقل من انفعاله ببهاء شعورهن وانسياب أثوابهن المتموج . فالقى على ثيابهن كل سحر الوانه ، وكأنه يعرف أن المرأة باتت بفضل هذا اللباس ذلك السر الغامض الذى بعث نصف ذكاء العالم ، وشعره ، واعجابه الشديد ، فضلا عن انجابه النوع الانسانى .

ومن ثم سكب روحه فى اشهر صورة قاطبة ، وهى « الابحار الى جزيرة سيتير » وفيها نساء رشيقات استسلمن لاثارة الرجـال فركبن السفينة مع عشاقهن الى جزيرة صغيرة قيل ان لفينوس فيها معبدا ، وانها طلعت هناك من البحر وهى تقطر جمالا . هنا يكاد الرجال يكسفون النساء فى بهاء ملبسهم ، ولكن الشيء الذى فتن الأكاديمية فى اللوحة هو جلال الاشجار المتدلى ، والقمة الثلجية للجزيرة البعيـدة تصبغها الشمس والغيوم الملامسة لها . وقد احب فاتو هذا الموضوع الدقيق حبا اغراه برسمه فى ثلاثة مناظر متنوعة ـ واستجابت باريس باختيـارها فاتو ليحمل راية عصر الوصاية ، ويحيى مباهج الحياة فى نظام حكم سيموت حالما يسلخ شبابه . وغدا بلقبه الرسمى « مصـور الاعيـاد المرحة » ، رسام العشاق من أهل المدن يتنزهون نزهات حالمة فى ريفه هادىء مطمئن ، ويمزجون بين « ايروس » (اله الحب) و « بان » (اله المراعى والغابات) فى الدين الوحيد الذى دان به العهد . على ان نسمة اكتئاب تهب على هذه المشاهد التى توهم بخلو البال ، فهؤلاء الفتيات الناعمات الطيعات ما كان يمكن أن يصبحن بهذه الرقة لولا انهن خبرن شيئا من الألم ، او ربما لم يساورهن الظن فى قصر برهة الهيام بهن . تلك هى ميزة فاتو ـ الترجمة المرهفة للحظـات الكمال التى لا بد ان تنقضي .

وعاجله الموت قبل ان ينعم بشهرته . وبعد موته اكتشف الخبراء رسومه القلمية والطباشيرية ، وفضلها بعضهم على لوحاته الزيتية ، لأن الطباشير أو القلم بلغ هذا دقة فى تفصيل الايدى والشعر ، ورهافة تمييز فى رسم العيون والوقفة والمروحة المعابثة لم تكشف عنهـا قط الوان الزيت كل الكشف (٧٣) . واغرمت نساء باريس غراما شـديدا بانفسهن كما رأينها فى اشواق الفنان الميت . والبست « دنيا المجتمع الراقى » نفسها بأسلوب فاتو (الا فاتو) ، ومشت واتكات بأسـلوب فاتو ، وزينت مخادعها وصالوناتها كما زينت هذه فى اشكال خيـاله والوانه . ودخل طراز فاتو فى تصميم الاثاث ، وفى وحدات الزخرفة الريفية و « ارابسك » الركوك الرشيق . وتلقف الفنانون امثال لانكريه وباتير تخصص فاتو ، وصوروا المهرجانات الريفية ، وأحاديث الغزل ، وحفلات الموسـيقى فى المنتزهات وحفـلات الرقص على الخضرة ،

والمكاشفات بين العشاق بخلود الحب . ان نصف تصوير فرنسا خلال المائة السنة التالية كان ذكرى لفاتو . وقد استمر تاثيره حتى بوشـــيه ، ثم فراجونار ، ثم ديلاكروا ، ثم مينوار ، ووجد التاثريون فى اســلوبه ارهاصات موحية بنظرياتهم فى الضوء والظل والمزاج . لقد كان كما قال جونكور المفتون به « الشاعر العظيم للقرن الثامن عشر (٧٤) » .

٧ ـ المؤلفـــون

زكا الادب فى ظل اخلاقيات عصر الوصاية الهينة اللينة وما ساده من تسامح ، ووجدت الهرطقة موطئا لقدمها لم تجل عنه قط بعدها . وافاقت المسارح والاوبرا من عبسات الملك الراحـل ومدام دمانتنون ، وكان فليب ، او بعض اهل بيته ، يختلفون كل مساء تقريبا الى الاوبرا ، أو الاوبرا ـ الهزلية ، او « المسرح الفرنسي ، او مسرح الايطاليين . واحتفظ المسرح الفرنسي بتمثيليات كورنيى ، وراســين ، وموليير ، ولكنه فتح أبوابه لتمثيليات جديدة كمسرحية فولتير « أوديب » ، التى سمع فيها صوت عصر جديد متمرد .

ونحن اذا استثنينا فولتير وجدنا اعظم كتاب هذا العصر محافظين شكلوا فى ظل الملك العظيم . فكان الان رينيه لساج المولود عام ١٦٦٨ ، ينتمى روحا وأسلوبا للقرن السابع عشر وان عاش حتى ١٧٤٧ . وفد على باريس بعد أن تلقى العلم على يد اليســوعيين فى فان ، فدرس فيها القانون ـ وكانت خليلته تدفع له نفقات تعليمه (٧٥) . وبعد ان قضي فى خدمة جاب للضرائب فترة بغضته فى رجال المال ، تكفل باعالة زوجته وابنائه بتاليف الكتب ، ولعله كان يموت جوعا لولا ان رئيسـا دينيا عطوفا اجرى عليه معاشا قدره ستمائة جنيه فى السنة . وقد ترجم بعض التمثيليات عن الاسبانية ، والتتمة التى كتبهـا افيلانيدا لرواية « دون كخوته » . ثم استوحى قصة « الشـيطان الاعـــرج » لفيليت دى جويفارا ، فوفق كل التوفيق فى قصته « الشيطان الاعرج » (١٧٠٧) التى صورت شيطانا مؤذيا يدعى اسمودوس ، يحط على قمة جبل فى باريس ، ويرفع أسقف البيوت كما يشاء بعصاه السحرية ، ويكشــف لصاحبه عن الحياة الخاصة والغراميات المحرمة للقطـــان الغافلين . والحصيلة فضح مرح لمكائد البشر القذرة ، ونفاقهـــم ، ورذائلهـم ،

وحيلهم . فترى مثلا سيدة تفاجأ بزوجها فى الفراش مع خادمهالخاص فتحل الكثير من المشاكل جملة بصياحها بان الخـادم يعتـدى على عفافها ، ويقتل الزوج الخادم ، وتنقذ السيدة عرضها وحياتها ، والموتى لا يتكلمون . واندفع كل انسان تقريبا لشراء الكتاب أو استعارته ، وقد ابهجه أن يرى افتضاح غيره من الناس . كتبت مجلة فردان فى عـدد ديسمبر ١٧٠٧ تقول « أن سيدين من رجال الحاشية اقتتلا بالسيوف فى دكان باربان للحصول على آخر نسخة من الطبعة الثانية (٧٦) » . وقد وجد سانت ـ بوف شبه خلاصة للعهد فى ملاحظة قالها اسمودوس عن شيطان من اخوانه تشاجر معه « لقد تعانقنا ، ومن وقتهـا ونحن خصمان لدودان (٧٧) » .

وبعد عامين كاد لساج يسمو الى مستوى موليير بهزلية تهجـو رجال المال . وقد نمى الى بعض هؤلاء نبأ « توركاريه » هذه سـلفا فحاولوا منع تمثيلها ، وقد صورتهم قصة ـ ولعلها اسـطورة ـ وهم يعرضون على المؤلف ١٠٠,٠٠٠ فرنك ليسحب المسرحية (٧٨) ، وأمر الدوفان ، ابن لويس الرابع عشر ، باخراجها . وتوركاريه هذا مقاول وتاجر ومراب يحيا حياة الترف وسط الفاقة التى جرّتها الحرب . وهو لا يسخو الا على خليلته التى تبتز ماله بنفس المثابرة التى يبتز بهـا الناس . يقول الخادم فرونتان « عجبا لمسار حياة البشر . نحن نلتقط مغناجا ، والمغناج تلتهم رجل أعمال ، ورجل الاعمـال ينهب غيره ، وهذا كله يؤلف أمتع سلسلة من الخدع الدنيئة يمكن تخيلها (٧٩) » .

وربما كان الهجو هنا ظالما مرهقا بشهوة الانتقام . وقد وفـق لساج ، فى اشهر روايات القرن الثامن عشر الفرنسية ، فى رسم شخصية اكثر تعقيدا ، وبموضوعية اكبر . وروايته هذه « مغامرات جيل بلاس دى سانتللانى » التى نسج فيها أيضا على منوال الروايات الاسبانية ، تتحرك ـ باسلوب روايات التشرد ـ خلال عالم من اللصوصية ، ونوبات السكر ، وخطف الناس ، واغواء النساء ، والسياسة ـ عالم الذكاء فيه هو الفضيلة العظمى ، والنجاح يغتفر كل شيء . و « جيل » هذا يستهل حياته فتى بريئا ، رقيقا ، مثاليا ، محبا للناس ، ولكنه ساذج ، ثرثار ، مغرور . يقبض عليه اللصوص ، فينضم الى عصابتهم ويتعلم حيلهـم

وأساليبهم ، ويشق طريقه الى البلاط الاسبانى ، ويخدم دوق ليرما مساعدا وقوادا . يقول « قبل ان التحق بالقصر كانت طبيعتى مترفقة عطوفا ، ولكن رقة القلب ضعف يعدونه هناك صفة عتيقة ، لذلك أصبح قلبى اقسى من أى صخر . فهنا مدرسة ممتازة لتصحيح الاحاسيس الرومانسية للصداقة (٨٠) » . ويولى ظهره لابويه ويرفض أن يعينهما . ويتعثر حظه ، فيودع السجن ، ويعتزم اصلاح ذاته ، ثم يفرج عنه ، فينزوى فى الريف ، ويتزوج ، ويحاول أن يكون مواطنا صالحا . ولكنه يجد هذا عبئا لا يطاق ، فيعود الى القصر وناموسه ، ويخلع عليه لقب الفروسية ، ويتزوج ثانية ، ويدهش لفضيلة زوجته ولسعادته بأطفالها « الذين اومن مخلصا بأننى أبوهم (٨١) » .

واصبحت « جيل بلاس » احب الروايات للقراء الفرنسيين ، الى أن تحدت « بؤساء » هوجو (١٨٦٢) ضخامتها وتفوقها . واحب لساج كتابه حبا جعله يواصل العمل فيه عشرين سنة فظهر المجلدان الأولان فى ١٧١٥ ، والثالث فى ١٧٢٤ ، والرابع فى ١٧٣٥ ، وكان آخر مجلداته لا يقل جودة عن اولها . وقد استعان على معاشه فى شيخوخته بكتابة هزليات صغيرة لمسرح شعبى يدعى « مسرح السوق » وفى ١٧٣٨ أصدر رواية اخرى تسمى « اعزب سلمنقة » ، واطال الكتاب بسرقات صغيرة لم يعترف بها ، وهى عادة درج عليها كتاب ذلك العصر وكان قد أصبح أصم تقريبا فى الاربعين ، ولكن كان فى قدرته أن يسمع ببوق ، فيا له من رجل محظوظ يستطيع ان يصم اذنيه حين يشاء كما نغمض أعيننا . وقرب نهاية حياته فقد القدرة على استعمال مواهبه العقلية « الا فى منتصف النهار » بحيث « بدا أن ذهنه يشرق ويغرب مع الشمس (٨٢) » ، كما قال اصدقاؤه . ومات عام ١٧٤٧ شيخا فى الثمانين .

وقصة لساج « جيل بلاس » تجد اليوم قراء اقل مما تجده « مذكرات » لوى دروفروا ، دوق سان - سيمون . وما من انسان يحب هذا الدوق الآن ، لأنه يفتقد قدرة الرجل المتواضع على اخفاء غروره . فهو لم ينس قط انه كان واحدا من « ادواق ونبلاء » فرنسا ، الذين لا يبزهم فخامة غير اعضاء الاسرة المالكة ذاتها ، ولم يغتفر قط للويس

الرابع عشر تفضيله كفاية البورجوازيين على عجز الاشراف فى ادارة الحكومة ، ولا رفعه الابناء والحفدة الملكيين غير الشرعيين فوق « الأدواق والنبلاء » فى مراسم البلاط وولاية العرش . يقول لنا فى أول سبتمبر ١٧١٥ :

« نمى الىّ نبأ موت الملك حين استيقظت . فذهبت من فورى لتقديم احترامي للملك الجديد .. ومن هناك ذهبت الى دوق اورليان، وذكرته بوعد قطعه على نفسه ، وهو ان يسمح للأدواق بان يحتفظوا بقبعاتهم على رءوسهم حين يطلب اليهم التصويت (٨٣) » .

وقد أخلص فى حب الوصي ، وخدمه فى مجلس الدولة ، ونصحه بالاعتدال فى أمر خليلاته ، وواساه فى أحزانه وهزائمه . واذ كان على كثب من الأحداث مدى خمسين عاما ، فقد بدأ تسجيلها في ١٦٩٤ — من زاوية طبقته — منذ مولده عام ١٦٧٥ الى وفاة الوصي عام ١٧٢٣ . أما هو فقد مد فى أجله الى عام ١٧٥٥ ، حتى أدرك عهدا لا يوافق طبيعته . وقد حكمت عليه المركيزة كريكى بأنه « غراب مريض هرم ، يحرقه الحسد ويأكله الغرور (٨٤) » . ولكنها كانت تكتب مذكرات مثله ، ولم تطق تشبثه بالحياة .

فاما الدوق الثرثار فكان دائما متحيزا ، وكثيرا ما كان ظالما فى احكامه ، ومرات مهملا فى التاريخ (٨٥) ، وأحيانا غير دقيق الرواية عن وعى (٨٦) ، كان يتجاهل كل شيء الا السياسة ، ويتوه بين الحين والحين فى ثرثرة لا غناء فيها عن الارستقراطية ، ولكن مجلداته العشرين سجلّ مفصّل نفيس لكاتب ذى عين لماحة ثاقبة وقلم سيال ، فهى تمكننا من أن نرى مدام دمانتنون ، وفنيلون ، وفليب أورليان ، وسان — سيمون ، رؤية ناصعة نابضة بالحياة ، وسان — سيمون يقرب فى هذا من بوربين اذ يتيح لنا رؤية نابليون . ورغبة فى اطلاق العنان لتحيزه ، حاول أن يخفى مذكرته ، ومنع نشرها قبل أن ينقضي قرن على موته ، ولم يصل منها شيء للمطبعة حتى عام ١٧٨١ ، وكثير منها لم يصلها قبل عام ١٨٣٠ . ومن بين جميع المذكرات التى تنير لنا تاريخ فرنسا تقف هذه المذكرات على القمة دون منازع .

٨ ـ الكردينال العجيب

لو صدقنا سان ـ سيمون لكانت سيرة جيوم دبوا النقيض لاعظم مبادىء شبابنا الهاما . فقد جمع كل رذيلة ، وحقق كل نجاح الا « نجاح الاحترام » . فلنستمع مرة اخرى الى سان ـ سيمون يقول فى زميله عضو المجلس :

« كان ذكاؤه من النوع العادى جدا ، ومعارفه من اكثر المعارف شيوعا ، وكفايته صفرا ، مظهره مظهر العرسة ، مظهر الرجل المتحذلق ، حديثه ثقيل ، متقطع ، غامض ابدا ، زيفه مكتوب على قسمات وجهه ، ... ما من شيء فى رايه جدير بالتقديس ... يجهر باحتقاره للايمان ، والعهود ، والشرف ، والاستقامة ، والصدق ، ويلذه ان يهزأ بهذه الأشياء كلها ، تستوى فيه الشهوة والطمع .. .. والى هذا كله كان ناعما ، ذليلا ، لينا ، منافقا ، كاذبا فى اعجابه ، يتخذ كل لبوس بيسر كثير ... حكمه معوج برغم ارادته ... ومن عجب انه لم يستطع ، وفيه هذه النقائض ، ان يغوى من الناس انسانا الا دوق أورليان ، الذى أوتى نصيبا موفورا من الذكاء واتزان العقل ، ووهب الكثير من الادراك الواضح السريع لاخلاق الناس (٨٧) » .

وكان هذا خليقا بان يؤدى بالمؤلف القاسي الى التشكك فى صواب غيرته . على أننا يحب أن نعترف بان دكلو يتفق مع سان ـ سيمون (٨٨) .

كان دبوا فى عامه الستين حين قلدته الوصاية السلطة ، متهدما بعض الشيء بعد أن أصيب بعدة أمراض تناسلية (٨٩) ، ولكنه كان قادرا على الترفيه عن مدام دتنسان حين وقعت من احضان فليب . على أية حال لابد انه اوتى شيئا من الفطنة العقلية ، لأنه ادار الشئون الخارجية ادارة لا باس بها . وقد أخذ رشوة ضخمة من بريطانيا ليصنع ما ظنه خيرا لفرنسا . ذلك أن حزب الاحرار فى انجلترا ، والامبراطور شارل السادس فى النمسا ، كانا يتآمران للتنكر لمعاهدة اوترخت واستئناف الحرب ضد فرنسا . وكان فليب الخامس يتحرق شوقا لعرش فرنسا غير قانع بعرش اسبانيا ، وخيل اليه ان ابرام اتفاق مع انجلترة سيزيح العقبات عن طريقه . فلو ان انجلترة ، وأسبانيا ، والنمسا

والأراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا) اتحدت في حلف أعظم جديد ، لطوقت فرنسا بالأعداء من جديد ، ولأبطلت كل سياسات ريشليو ولويس الرابع عشر وانتصاراتهما . ومنعا لمثل هذا الاتحاد أبرم دبوا وفليب اتفاقا مع انجلترة والأقاليم المتحدة (هولنده) في ٤ يناير ١٧١٧ . وكان هذا الاتفاق نعمة لفرنسا ، ولتوازن القوى الأوربي ، ولبريطانيا؛ فلو أن فرنسا وأسبانيا تملك عليهما ملك واحد لتحدى أسطولهما الموحد سيطرة انجلترة على البحار . كذلك كان نعمة للملكيـــة الهانوفـرية الجديدة غير الآمنة في انجلترة ، لأن فرنسا تعهدت الآن بالا تبذل مزيداً من العون للمطالبين الاستيوارتيين بالتاج الانجليزى

وغلبت الحكومة الأسبانية على أمرها ، ولم ترقها هذه الهزيمة فاشترك البيرونى ، وزيرها الحاكم ، في مؤامرة كيلامار ودوقة مين للاطاحة بالوصي وجعل فليب الخامس ملكا على فرنسا . واكتشف دبوا المؤامرة ، واقنع الوصي على كره منه بان يحذو حذو انجلترة في اعلانها الحرب على اسبانيا (١٧١٨) . وانهت معاهدة لاهاى (١٧٢٠) هذا الصراع . ورغبة في دعم السلام رتب دبوا زواج ابنة الملك فليب بلويس الخامس عشر ، وبنات الوصي بأبناء فليب . وعقدت الزيجات عـلى جزيرة بيداسو الواقعة على الحدود (٩ يناير ١٧٢٢) واحتفل بها في حفل لاحراق المهرطقين (٩٠) . ولما كانت الأميرة الاسبانية ماريا آنا فكتوريا لا تتجاوز الثالثة من عمرها ، فلابد أن ينقضي زمن قبـل أن ينجب منها لويس الخامس عشر وريثا للعرش ، فاذا حـدث أن مات الملك الصبى خلال هذه الفترة ، فان الوصي يصبح ملكا على فرنســا ، ويصبح دبوا وزيره الدائم .

وتسلق بدهاء خطوة فخطوة . ففي ١٧٢٠ عيّن رئيس أساقفة على كمبرى ، وبمفارقة مضحكة من مفـــارقات التـــاريخ طلب ملك بروتستنتى هو جورج الأول ، الى الوصي الشاك ان يقنع البـابا بأن يخلع على دبوا هذا الكرسي الرياسي الشهير ، الذى شرفه قبيل ذلك فنيلون ، وشارك أساقفة فرنسا بما فيهم التقى الورع ماســـيون في الاحتفالات التى أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من

الفرنسيين جماع الرذائل . أما دبوا فلحس بانه لم يكافأ بما يكفى جزاء على خدماته لفرنسا ، واستخدم المـال الفرنسي ليجلس على عرش البابوية مرشحا تعهد بان يبعث اليه بقبعـة حمراء (اى قبعـة الكردينال) . وأوفى انوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف ، وأصبح رئيس الاساقفة الكردينال دبوا (١٦ يوليو ١٧٢) . وبعد سنة عين وزيرا أول للملكة براتب قدره ١٠٠،٠٠٠ جنيه . واذ كان يتقاضى ايرادا قدره ١٢٠،٠٠٠ جنيه من منصب رئيس الأساقفة ، و ٢٠٤،٠٠٠ من سبعة اديرة ، و ١٠٠،٠٠٠ من نظارته على البريد ، ومعاشا انجليزيا قدّره سيمون بمبلغ ٩٦٠،٠٠٠ ، فقـد بلغ ايراده السـنوى الآن نحـو ١،٥٠٠،٠٠٠ جنيه (٩١) . ولم يكن له من هم الا خوفه من أن ترفض زوجته ــ التى كانت لا تزال على قيد الحياة ــ ما يبعثـه اليهـا من الرشا ، وتكشف عن وجودها ، وتبطل بذلك مناصبه الكنسية (٩٢) .

ولكن الزمن ادركه . ففى ٥ فبراير ١٧٢٣ بلغ لويس الخامس عشر سن الرشد وانتهى عهد الوصاية . وحين كان الملك لا يتجاوز الثالثـة عشرة ، وكان ينعم بالعيش فى فرساى ، طلب الى فليب ان يواصـل حكمه للمملكة ، وظل دبوا اكبر مساعدى فليب . ولكن حدث فى أول اغسطس أن انفجرت مثانة الكردينال ، ومات فجاة وهو مثقل باموالة . واضطلع فليب بالادارة ، ولكن فسحة أجله هو أيضا انتهت . ذلك انه بعد ان اتخم بالنساء ، وتخدّر بادمان السكر ، وكف بصره ، وفقـد حتى عاداته المهذبة ، تقبل ، فى نصف وعى ، ازدراء الناس لذلك النظام الذى بدأ فى جو شامل من الود والارتياح ، وقارب نهايته فى انحدار رسمى واحتقار شعبى . وانذره الأطباء بان أسلوب حياته سيقضي عليه ، ولكنه لم يكترث ، فلقد اترع بخمر الحياة حتى الثمالة ، ومات بنوبة فالج فى ٢ ديسمبر ١٧٢٣ ، وتلقفته ذراعا خليلته مؤقتا . وكان يومها فى التاسعة والاربعين .

على ان فليب اورليان لا يقع من نفوسنا موقع الرجل الشرير برغم تعدد آثامه . فرذائله رذائل الجسد لا النفس : كان متلافا سكيرا فاسقا ، ولكنه لم يكن انانيا ، ولا قاسيا ، ولا خسيسا ، بل كان رحيما ، شجاعا ، لطيفا . كسب مملكة بسقامرة ، وتركها بقلب خلىّ ويد مبسوطة . وقد

أتاح له ثراؤه كل الفرص ، ولم تتح له سلطته أي انضباط . انه لمنظر محزن حقا - منظر رجل لامع الذكاء ، سمح الرأى ، يكافح لاصلاح ما أفسده في فرنسا تعصّب الملك العظيم ، ثم يترك الأهداف السامية تغرق في سكر لا معنى له ، ويضيّع الحب في دوامة من الفسق .

كانت فترة الوصاية ، من الناحية الأخلاقية ، أشد الفترات خزيا وعارا في تاريخ فرنسا . فالدين الذي كان نافعا في القرى جلب على نفسه العار في القمة لأنه شرّف رجالا من أمثال دبوا وتنسان ، ففقد بذلك احترام الفكر الذي أطلق عقاله ، وقد حظى الذهن الفرنسي بحرية نسبية ، ولكنه لم يستخدمها لنشر الذكاء الرحيم المتسامح بقدر ما استخدمها لاطلاق الغرائز البشرية من ضوابط الهيمنة الاجتماعية التي تتطلبها الحضارة ، ونسيت الارتيابية فلسفة أبيقور ، وانصرفت الى اللذات الأبيقورية (أي الحسية) . ولقد كانت الحكومة فاسدة ، ولكنها حفظت السلام فترة كفت للسماح لفرنسا بان تفيق من عهد مدمر، عهد الفخامة والحرب . وقد انهار « نظام » لو وانتهى بالافلاس ، ولكنه اعطى الاقتصاد الفرنسي حافزا قويا . وشهدت تلك السنوات الثمان انتشار التعليم المجاني ، وتحرر الفن والأدب من الوصاية والسيطرة الملكيتين ؛ لقد كانت سنوات « الابحار الى سيتيرا » ، و « جيل بلاس » و « أوديب » و « رسائل مونتسكيو الفارسية » . ولقد زجت الوصاية بفولتير في السجن ، ولكنها أعطته من الحرية والتسامح ما لن يعرفه أبدا في فرنسا حتى في ساعة انتصاره وموته .

٩ - فولتير والباستيل : ١٧١٥ - ٢٦

في مذاكرات سان - سيمون فقرة مميزة تصف شابا محدثا أثار ضجيجا كثيرا أيام الوصاية :

« نفى آرويه ، وهو ابن موثّق كنا نعامله أنا وأبى حتى توفى .. الى تل في ذلك الحين (١٧١٦) لنظمه أبياتا من الشعر فيها هجو شديد ووقاحة بالغة . وما كنت لألهو بتدوين هذا الحدث التافه لولا أن آرويه هذا ، الذي أصبح شاعرا وأكادميا كبيرا باسم فولتير ، قد أصبح كذلك .. .. شخصية في دولة الأدب ، لا بل بلغ شيئا من الأهمية بين بعض الناس (٩٣) » .

هذا الشاب المحدث ، الذى بلغ الآن الحادية والعشرين ، وصف نفسه بأنه « نحيل ، طويل ، لالحم فيه ولا أرداف (٩٤) » ولعله بسبب هذا العيب كان يثب من مضيف (أو مضيفة) الى آخر ، ويجد الترحيب حتى فى الدوائر العليا ، بفضل شعره المتالق وذكائه الحاضر ، يتشرب الهرطقة وينشرها ، ويمثل دور زير النساء . واذ لمع فى قصر سو على الأخص ، فانه اثلج صدر دوقة مين بهجـــوه للوصي . وكان فليب قد اختزل الى النصف خيول المرابط الملكية ، فعلق آرويه على هذا بأنه كان خيرا له أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموّه . واسوأ من ذلك أنه فيما يبدو اذاع أبياتا عن اخلاق دوقة بيرى (ابنة الوصي) وانكر فولتير انه كاتبها ، ولكن الابيات نشرت بعد ذلك فى « أعماله » وقد واصل خطة الانكار هذه الى قرب ختام حياته ، باعتبارها حماية مغتفرة من رقابة مصلته على أصحاب الأقلام . اما الوصي فكان فى وسعه أن يغتفر الهجائيات اللاذعة الموجهة لشخصه ، لانهـــا كثيرا ما كانت كاذبة ، ولكنه كان يجرح جرحا عميقا من السخريات الموجهة لابنته ، لانها كانت صادقة فى اغلبها . وعليه ففى ٥ مايو ١٧١٦ اصدر أمــرا « بارسال السيد آرويه الابن الى تل » ـ وهى مدينة على ثلاثمائة ميل جنوب باريس ، اشتهرت بمدابغها الكريهة الرائحة ، ولم تكن قد اشتهرت بعد بالنسيج الرقيق « التل » الذى نسب اليها فى تاريخ لاحق . واقنع الاب آرويه الوصي بأن يغير المنفى من تل الى صلى ـ سير ـ لوار ، على مائة ميل من العاصمة . وذهب اليها آرويه ، واستقبله هناك الدوق صاحب لقب صلى آنئذ ، سليل الوزير الاكبر لهنرى الرابع ، ضيفا فى بيته .

وقد استمتع هناك بكل شيء الا الحرية . وما لبث أن وجه شعرا « رسالة للدوق أورليان » يؤكد فيه براءته ويلتمس اطـلاق سراحه . واستجاب الوصي ، وما وافى ختام العام حتى كان قد عاد الى باريس وراح يتنقل فى ارجائها تنقل الطائر وينظم الشعر ، فى بذاءة حينا ، وفى سطحية فى كثير من الاحيان ، وفى ذكاء دائما ـ حتى نسب اليه كل هجو بارع يسرى على موائد المقاهى دون معرفة كاتبه . وفى مطلع عام ١٧١٧ ظهر هجاء لاذع جدا ، بدأت كل جملة فيه بكلمـــة « رأيت J'ai vu » مثال ذلك :

« رايت الباستيل والف سجن آخر مملوءة بمواطنين شـجعان ورعايا أوفياء • رأيت الناس أشقياء يرسفون فى عبودية قاسية • رأيت الجند يهلكون جوعا ، وعطشا ••• وسخطا ، رأيت شيطانا فى زى امرأة ••• يحكم المملكة ••• رأيت البور ـ رويال وقد هدم ••• رأيت ـ وهذا ينتظم كل ما رأيت ـ يسوعيا يعبد ••• رأيت كل هذه الشرور ، وأنا لم أجاوز العشرين بعد (٩٥) » •

وواضح أن هذه الابيات كانت تعرض بلويس الرابع عشر ومدام دمانتنون ، ولابد أن كاتبها عدو جانسنى لليسوعيين لا شاك مستهتر لا يزال يحتفظ ببعض الحب فى قلبه لجماعة اليسوعيين • أما الكاتب الحقيقى فهو أ• ل• لبرون ، الذى التمس بعد ذلك الصفح من فولتير لأنه تركه يتحمل تبعة كتابتها (٩٦) • ولكن السن المتقولين امتدحت آرويه على القصيدة ، وألحت عليه الجماعات الأدبية فى القائها ، ولم يصدق أحد انكاره تأليفها (الا صاحبها) • واتهمته الشـائعات التى نقلت الى الوصي بكتابة عبارة لاتينية ـ وبحق فيما يبدو ـ فضلا عن قصيدة « رأيت » المذكورة ، ومطلعها Puero regnante •• يقول كاتبها ما ترجمته « صبى (لويس الخامس عشر) يملك ، ورجل مشهور بتسميم خصومه وغشيان المحارم يحكم ، •• •• وثقة الشعب تنتهك (افلاس مصرف لو) •• •• والبلاد يضحى بهـا طمعـا فى تاج ، وميراث ـ يعجل ميقاته بخسه ، وفرنسا على شفا الدمار (٩٧) » • وفى ١٦ مايو ١٧١٧ أمر خطاب ملكى مختوم بأن « يقبض على السيد آرويه ويودع الباستيل » • وفوجىء الشاعر فى مسكنه ، ولم يسمح له بأن يأخذ غير الثياب التى يرتديها •

ولم يتسع وقته لوداع خليلته آنذاك ، واسمها سـوزان دليفريه ، واتخذ صديقه لفيفر دجنونفيل مكانه على صدرها ، واغتفر لها آرويه خيانتهما فى تفلسف ـ « علينا أن نحتمل هذه التوافه (٩٨) » وبعد سنوات مات لفيفر فنظم فولتير فى ذكراه أبياتا تبين موهبة الثائر الشاب فى قرض الشعر الجميل ، والعواطف الرقيقة التى كانت دائما أعمـق فى نفسه من الشكوك : « انه يتذكرك ، أنت والجميلة ايجيرى (سوزان) فى أيام حياتنا الحلوة ، حين كنا ثلاثتنا يحب بعضنا بعضا • فالفكر

والطيش ، والحب ، وسحر الاخطاء الرقيقة ، كل اولئـــك ربط بين قلوبنا الثلاثة . الا ما كان اسعدنا ، اذ لم يقو على تكدير صفونا حتى الفقر ، رفيق السعادة الحزين .كنا شبابا ، مرحين ، قنوعين ، خالين من الهموم ، لا يشغلنا التفكير فى المستقبل ، رغباتنا كلها تحـــدّها مباهجنا الراهنة ـ فاى حاجة بنا بعد هذا لثراء لا غناء فيه ؟ لقد كنا نملك شيئا افضل منه جدا ، كنا نملك السعادة (٩٩) » .

وتزوجت سوزان رجلا غنيا يدعى المركيز جوفرينه ، وابت أن تدخل فولتير بيتها حين أتى لزيارتها . وعزى نفسه بهذه الفكرة ، وهى أن « كل الماسات واللآلىء التى تزينها الآن لا تعدل قبلة من قبلاتهـــا فى الأيام الخالية (١٠٠) » . ولم يرها ثانية حتى عاد الى باريس بعد احدى وخمسين سنة ليموت ، عندها أصر وهو فى الثالثة والثمـــانين على زيارة المركيزة الأرملة ، وكانت قد بلغت الرابعة والثمانين . لقد كان يسكن فولتير هذا شيطان ، ولكن كان يسكنه أيضا ارق قلب فى الوجود .

على أنه لم يجد الباستيل سجنا لا يطاق . فقد سمح له بان يرسل فى طلب الكتب ، والأثاث ، والثياب الداخلية ، وطاقية النوم ، والعطر ، وان يدفع ثمن هذا كله ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه مع مامور السجن ويلعب البليارد والبولنج مع السجناء والحراس ، وقد كتب فيه ملحمة « الهنريادة » . لقد كانت الالياذة من الكتب التى ارسل فى طلبها ، وساءل نفسه : لم لا ينافس هومر ؟ ولم تقصر الملاحم على الأساطير ؟ ان فى التاريخ الحى رجلا هو هنرى الرابع ، انسان مرح ، جسور ، بطل ، فاسق ، متسامح ، كريم ، فلم لا تصلح تلك الحياة المغامـــرة الفاجعة لشعر الملاحم ؟ ولم يكن مسموحا للسجين بورق الكتابة لأنه قد يستحيل فى يده سلاحا فتاكا ، لذلك كتب النصف الأول من ملحمته بين سطور الكتب المطبوعة .

وأفرج عنه فى ١١ أبريل ١٧١٨ ، ولكنه منع من البقاء فى باريس ومن شاتنيه القريبة من سو كتب الى الوصي رسائل يلتمس فيها الصفح ، ولانت قناة الوصي ثانية ، وفى ١٢ أكتوبر أصدر اذنا « للسـيد آرويه دفولتير بالمجىء الى باريس حين يشاء (١٠١) » .

ولكن متى وكيف جاءه هذا الاسم الجديد ؟ الظاهر أن هذا كان حوالى فترة سجنه فى الباستيل ، فنحن نلقاه أول مرة فى المرسوم الذى ذكرناه آنفا • وظن بعضهم (١٠٢) انه جناس تصحيفى anagram اى تغيير فى ترتيب أحرف كلمة Arovet L(e) J(eune) باعتبار الـ U هى حرف V والـ I هى حرف J ـ أما المركيزة دكريكى(١٠٣) فردته الى كلمة « فوتير » ، وهى مزرعة صغيرة على مقربة من باريس ورثها فولتير عن أحد أبناء عمومته ، ولم يرث معها أى حقوق سيادية ، ولكن آرويه ، كبلزاك ، اتخذ الاضافة التى يلحقها السادة باسمائهم "de" بحق العبقرية ، ووقع ـ كما فى اهداء تمثيليته الاولى ـ بهذا الاسم « آرويه دفولتير ») ولكنه عما قليل لن يحتاج لغير اسم واحد للدلالة على نفسه فى أى بلد فى أوربا •

وكانت تلك التمثيلية ـ أوديب ـ حدثا فى تاريخ فرنسا الأدبى • لقد كانت وقاحة صارخة من فتى فى الرابعة والعشرين الا يكتفى بتحدى كورنيى ، الذى أخرج تمثيلية « أوديب » فى ١٦٥٩ ، بل يتحدى سوفوكليس أيضا ، الذى ظهرت مسرحيته « أوديب ملكا » فى ٣٣٠ ق•م• أضف الى ذلك أن قصة فولتير كانت قصة سفاح للمحارم ، يمكن أن تحمل على محمل التعريض بالعلاقات بين الوصي وابنته ـ وهى بالضبط التهمة التى سجن بسببها آرويه • وقد فسرتها هذا التفسير دوقة مين واغتبطت بها ، وكان الشاعر قد فكر فى تمثيليته اثناء وجوده فى قصرها • وطلب فولتير بجرأته المألوفه الى الوصي أن يأذن له باهدائه التمثيلية ، وتردد الوصي ، ولكنه اذن باهدائها لأمه • واعلن أن حفلة الافتتاح ستكون فى ١٨ نوفمبر ١٧١٨ • وتكون حزبان من رواد مسارح باريس ـ أنصار الوصي ، وأنصار دوقة مين ، وتوقع الناس أن مباراة الفريقين فى صيحات الاستهجان وهتاف الاستحسان ستجعل من التمثيل مهزلة صاخبة • ولكن المؤلف الذكى كان قد ضمن مسرحيته أبياتا تسر أحد الفريقين ، واخرى تسر الفريق الآخر • فارضت الفريق المناصر للوصي فقره تصف كيف طرد الملك لايوس حرس القصر الغالى النفقة (كما فعل فليب) ، وارضي اليسوعيين أن يروا كيف احسن تلميذهم الافادة من المسرحيات التى كانوا يخرجونها فى كلية لوى ـ لجران ؛ أما احرار الفكر فقد صفقوا بحماسة لبيتين من الشعر وردا فى المشهد

الأول من الفصل الرابع ، بيتين سيصبحان الانشودة التى تتردد فى حياة فولتير . « ليس كهنتنا ما يحسبه جمهور غافل ، فسذاجتنا هى التى تصنع علمهم كله » وصفق كل فريق بدوره ، وفى النهاية ظفرت المسرحية باستحسان الجميع . وتقول رواية قديمة ان والد فولتير ذهب وهو على وشك الموت ليشهد التمثيلية فى أولى ليالى عرضها ، وكان لا يزال يتميز سخطا على ولده الحقير السيىء السمعة ، ولكنه بكى اعتزازا بروعة الشعر وانتصار التمثيلية .

وحققت أوديب فترة عرض لم يسبق لها مثيل ، بلغت خمسة واربعين يوما . وأطراها حتى فونتنيل المكتهل ، ابن أخت كورنيى ، وان ابدى لفولتير ان بعض أبياتها « بالغة الشدة تضطرم نارا » . واجاب الفتى المندفع بتورية فظة : « لكى أهذب نفسي سأقرا رعوياتك (١٠٤) » وامرت باريس على ان ترى فى أوديب (المذنب بغشيان المحارم) شخص الوصي ، وفى جوكستا شخص ابنته . وتصدت دوقة برى (ابنة الوصي) للشائعات بشجاعة ، فحضرت التمثيلية عدة ليال . اما الوصي فامر باخراجها فى مسرح قصره ، ورحب بالمؤلف فى بلاطه .

وبعد بضعة اشهر نشر شاعر افاك ، لم يعلن عن اسمه ، قصائد سماها « Les Philippigues الفليبيات » ، وهى هجائيات اتهمت فليب بانه يبيت تسميم الملك الصبى واغتصاب العرش . واشتبه الكثيرون فى فولتير مؤلفا للقصائد ، فاكد براءته ، ولكنه كان قد كذب فى حالات كهذه كذبا صارخا فلم يصدقه الان احد الا المؤلف . وبراه فليب لعدم كفاية الأدلة على التهمة ، واكتفى بنصحه بأن يغيب حينا عن نعيم باريس . فعاد الى شاتو صلى (مايو ١٧١٩) . وبعد سنة سمح له بالعودة الى العاصمة ، وهناك ظل فتى الارستقراطية المدلل فترة من الزمان .

واذ كان مؤمنا بان المال حجر الفلاسفة ، فقد استخدم ذكاءه الحاد فى فهم مشكلات المالية وحيلها . وسعى لمصادقة المصرفيين ، واجيز بمكافاة سخية للمعونة التى قدمها لاخوان باريس « للحصول على عقود

بتوريد مؤن وذخائر للجيش (١٠٥) » . وكان بطلنا من استغلاليى الحرب . وظل بعيدا عن « نظام » لو ، واستثمر ثروته بحكمة ، واقرض النقود بالربا . وفى ١٧٢٢ مات ابوه ، واحتكم فولتير الى القضاء فى أمر الوراثة وثابر على دعواه بعزيمة ماضية ، ففاز بوراثة دخل سنوى قدره ٤٫٢٥٠ فرنكا . وفى تلك السنة ذاتها اجرى عليه الوصي معاشا قدره ٢٫٠٠٠ جنيه ، وغدا الآن رجلا موسرا . وعما قليل سيصبح مليونيرا ، وعلينا الا نفكر فيه ثائرا ، الا فيما يتصل بالدين .

وقد أعان على تربيته وتهذيبه سقوط ممرحيته الثانية — آرتمير — (١٥ فبراير ١٧٢٠) . فجرى من مقصورته الى خشبة المسرح وناقش النظارة فى مزايا المسرحية ، وصفقوا لخطابه ولكنهم ظلوا على استنكارهم لها ، وبعد ان مثلت ثمانى مرات سحبها من المسرح ، وفى تاريخ لاحــق من تلك السنة قرأ قسما من « الهنريادة » على نفر فى اجتماع ، ووجه اليها بعض النقد ، وبحركة فرجيلية القى بالمخطوطة فى النار ، وخطف اينو الأوراق من اللهب ، وشبه نفسه باوغسطس وهو يستنقذ انيادة فرجيل ، وقال ان فولتير مدين له الآن بملحمة و « طوقى كم لطيفين (١٠٦) » . واستعاد الشاعر كبرياءه فى غير مشقة حين استمع الوصي نفسه الى قراءة من القصيدة . وكان حيثما ذهب يقرأ جزءا منها . وفى ١٧٢٣ زار اللورد بولنبروك وزوجته الفرنسية فى فللتهما ، لاسورس قرب أورليــان ، فاكدا له أن ملحمته تبز « جميع الأعمال الشعرية التى صــدرت فى فرنسا (١٠٧) » . وتظاهر بانه يشك فى صدق هذا الزعم .

وتبادل خلال ذلك الفلسفات مع ذلك الشاك النبيل ، وســمع بالربوبيين الذين يكدرون صفو المسيحية فى بريطانيــا . وخامــرته الظنون بان انجلتره سبقت فرنسا فى العلم والفلسفة . ولكنه كان قد انتهى الى هرطقات بولنبروك قبــل ان يلتقى به او يقرأ للربوبيين الانجليز . وفى ١٧٢٢ قبل دعوة من الكونتيسة مارى درويلموند بان يصحبها الى الأرضي المنخفضة . وكانت أرملة فى الثامنة والثلاثين ، من نساء المفكر ، ولكنها جميلة ، وقد قبل دعوتها وهــو فى الثامنــة والعشرين . وفى بروكسل التقى بشاعر منافس يدعى جان باتيســت روسو ، اثنى على « أوديب » ولكنه وبخ فولتير على استهتاره الدينى .

أما فولتير ، الذى قلما كان يطيق النقد ، فقد علق على قصيدة لروسو عنوانها « قصيدة غنائية للأجيال القادمة » بقوله « اتعلم يا سيدى اننى لا أعتقد أن هذه القصيدة ستصل ابدا الى من وجهت اليهم ؟ (١٠٨) » وقد ظلا ينهش احدهما الآخر حتى وفاة روسو . وبينما كان فولتير وكونتيسته يواصلان رحلتهما الى هولندة كشفت له عن شكوكها الدينية ، وسالته عن آرائه . واذ كان فولتير جياشا بالشعر ، فقد رد بقصيدة شهيرة سماها « رسالة الى أورانى » لم تنشر الا سنة ١٧٣٢ ، ولم يعترف بها فولتير الا بعد اربعين سنة . وكل شاب مسيحى مرهف الحس سيتبين فيها مرحلة فى تطوره . يقول فولتير « اذن انت تودين ايتها الجميلة أورانى (اسم لافروديت) وقد بعثت بامرك فى هيئة لوكريتيوس جديد ، أن أمزق امام عينيك بيد جريئة القناع عن الخرافات ، وأن أعرض عليك ذلك المشهد الخطر ، مشهد الاكاذيب المقدسة التى تزخر بها الارض ، وأن تعلمك فلسفتى ازدراء أهوال القبر ومخاوف الحياة الآخرة » .

ويسير الشاعر بـ « خطى ملؤها الاحترام » . فيقول « انى اريد أن احب الله ، والتمس فيه ابى » ، ولكن أى نوع من الاله يقدمه لنا اللاهوت المسيحى ؟ « طاغية ينبغى أن نكرهه . خلق البشر « على صورته » ليجعلهم حقراء ، واعطانا قلوبا آثمة ليكون له حق عقابنا . جعلنا نحب اللذة لكى يعذبنا بآلام رهيبة ... أبدية » . وما ان خلقنا حتى فكر فى اهلاكنا . فامر المياه بان تغرق الارض . وارسل ابنه ليكفر عن خطايانا ، لقد مات المسيح ، ولكنه مات عبثا فيما يبدو ، اذ يقال لنا اننا ما زلنا ملوثين بجريمة آدم وحواء ، وابن الله الذى يمتدح كثيرا على رحمته ، يمثل لنا وكانه ينتظر بروح الثار ان يقذف باكثرنا الى الجحيم ، بما فينا اناس لا حصر لهم لم يسمعوا به قط « لست اتبين فى هذه الصورة المخزية الاله الذى على أن أعبده ، وساشينه بمثل هذه الاهانة والولاء » . ومع ذلك ترى الشاعر يحس النبل والالهام الحى فى الفكرة المسيحية عن المخلص :

« انظرى الى هذا المسيح ، القوى المجيد .. يدوس الموت تحت قدميه الظافرتين ، ويخرج منتصرا من ابواب الجحيم . ان مثله

مقدس ، وفضيلته الهية . ويعزى سرا تلك القلوب التى يضيئها بنوره ، وفى افدح الكوارث يهبها العون ، واذا كان قد اقام تعليمه على وهم وخداع ، فان من النعم ان نخدع معه » .

وفى الختام يدعو الشاعر اورانى ان نستقر على راى فى الدين واثقة كل الثقة بان الله « الذى وضع الدين الطبيعى فى قلبـك ، لن يسوءه العقل البسيط الصريح . ثقى ان نفس الانسان البار ثمينة أمام عرشه ، فى كل زمان ومكان . ثقى ان الراهب البوذى المتواضـــع ، والولى المسلم العطوف ، يجدان نعمة فى عينيه أكثر مما يجده جانسنى (قدرى) صارم ، أو بابا يلوث الطمع روحه » .

ولما عاد فولتير الى باريس اقام فى الأوتيل دبيرنيير بشارع بون وطريق فولتير الحالى (١٧٢٣) . وفى نوفمبر ذهب الى اجتمـاع للاعيان فى الشاتودميزون (على تسعة اميال من باريس) ، حيث كانت أعظم ممثلات العصر آدريين لكوفرير ستقرأ تمثيليته الجديدة «ماريان» ولكن قبل ان يحل موعد الحفل أصيب بالجدرى ، وكان فى تلك الايام يفتك بنسبة عالية من ضحاياه . وكتب وصيته ، واعترف ، وراح ينتظر الموت . وهرب الضيوف الآخرون ، ولكن المركيز دميزون اســتدعى الدكتور جريفيه من باريس « وبدلا من المنبهات التى تعطى عادة فى هذا المرض ، جعلنى أشرب مائتى باينت من عصير الليمون (١٠٩) » ولعله كان لهذه الاكواب المائتين الفضل فى « انقاذ حيـاتى » . ولم يتماثل للشفاء الا بعد شهور كثيرة ، والواقع انه بعد هذا كان يعـالج نفسه علاج عليل عاجز ، يمرض تلك الحياة المتقطعة التى يحياها ذلك البدن الهش الذى فرض عليه ان يؤوى نار صاحبه الآكلة .

وفى ١٧٢٤ بدا تداول ملحمة الهنريادة سرا بين الصفوة المثقفة . لقد كانت اذاعة سياسية على مستوى ملحمى . واتخذت الملحمة مذبحة القديس برتلميو نصا لها ، وتتبعت الجرائم الدينية خلال العصـــور ؛ الامهات يقدمن أبناءهن محرقات على مذابح الاله ملخ ، واغا ممنون يتهيأ لتقديم ابنته قربانا للآلهة التماسا لقليل من الريح ، والمسيحيون يضطهدهم الرومان ، والمهرطقون يضطهدهم المسيحيون ، والمتعصبون

« يدعون الرب وهم يذبحون اخوتهم » ؛ والاتقياء يوحى اليهم بقتل الملوك الفرنسيين . وأشادت القصيدة باليزابيث لتقديمها المعونة لهنرى نافار ، ووصفت معركة افريه ، وشفقة هنرى ، وعشقه لجابرييل ديستريه ، وحصاره لباريس ، وامتدحت تحوله للكاثوليكية ، ولكنها انتقدت البابوية لأنها « قوة لا ترحم المغلوبين ، ويلين جانبها للغالبين ، على استعداد للغفران او الادانة حسبما تمليه المصلحة » .

وكان فولتير يأمل أن تقبل الهنريادة ملحمة قومية لفرنسا ، ولكن الكاثوليكية كانت أعز على مواطنيه من أن تجعلهم يستقبلون القصيدة ملحمةلروحهم . ثم ان أخطاءها كانت تثب الى العين الدارسة . فالتقليدات الواضحة لهومر وفرجيل - فى مشاهد القتال ، وفى زيارة البطل للجحيم ، وفى ادخال التجريدات المجسدة فى الحركة على غرار الآلهة الهومرية - كل أولئك ضحى بمفاتن الابتكار والأصالة ، ومع أن الأسلوب كان أسلوب النثر الجيد ، فقد افتقد أخيلة الشعر المنيرة . أما المؤلف ، الذى أسكره مداد المطبعة ، فلم يخامره ظن فى هذا . فكتب الى تييريو يقول « ان شعر الملاحم موطن قوتى ، والا كنت واهما جدا (١١٠) » ولقد كان واهما جدا .

ومع ذلك بدا أن المديح الذى ظفر به يبرر افتخاره بملحمته . فقد صرح ناقد فرنسي بأنها تسمو على الانيادة ، وذهب فردريك الأكبر الى « أن أى انسان تحرر من الهوى سيفضل الهنريادة على قصيدة هومر (١١١) » . ونفدت الطبعة الأولى سريعا ، ونشرت طبعة منتحلة فى هولندة وصدرت الى فرنسا ، وحظر البوليس الكتاب ، ولكن جميع الناس اشتروه . وترجم الى سبع لغات ، وسنراه يحدث ضجة فى انجلترة . وقد لعب دورا فى احياء شعبية هنرى الرابع . وجعل فرنسا تخجل من حروبها الدينية ، وتنقد النظريات اللاهوتية التى اشعلت فى الناس نيران هذه القسوة الضارية .

واستمتع الآن فولتير حينا بالشهرة والمال دون ان يكدرهما مكدر . فقد اعترف به الناس أعظم شاعر حى فى فرنسا ، واستقبل فى بلاط لويس الخامس عشر ، وبكت الملكة من تمثيلياته ، ونفحته بألف وخمسمائة جنيه من جيبها الخاص (١٧٢٥) . وكتب أكثر من عشرة

خطابات يشكو حياته عضوا فى الحاشية ويفاخر بهذه الحياة • وراح يتحدث فى الفة طبيعية مع النبلاء ، سواء منهم الشريف والخسيس • ولا شك أنه أسرف فى الحديث ، وهذا أيسر شيء فى الوجود • وحدث ذات ليلة وهو فى الأوبرا (ديسمبر ١٧٢٥) أن الشفالييه دروهان ـ شابو سمعه يسترسل فى الحديث فى بهو الانتظار فساله فى خيلاء شديدة « مسيو فولتير ، مسيو آرويه ـ ما اسمك ؟ » ولا علم لنا بم أجاب الشاعر • وبعد يومين التقيا فى الكوميدى ـ فرانسيز ، واعاد روهان سؤاله • ويختلف الرواة فى الجواب الذى اجابه به فولتير ، قالت رواية انه اجاب « انسان لا يتجرجر وراء اسم عظيم ، بل يعرف أن يشرف الاسم الذى يحمله (١١٢) » ، وتقول رواية أخرى انه اجابه « ان اسمى يبدأ بى ، واسمك ينتهى بك (١١٣) » • ورفع السيد النبيل عصاه ليضربه ، واتى الشاعر بحركة ليستل سيفه • وكانت آدريين لكوفرير تشهد المعركة ، وكان لها من حضور البديهة ما جعلها تقع مغشيا عليها ، وتهادن الخصمان •

وفى ٤ فبراير كان فولتير يتغدى فى بيت الدوق صلى ، واذا رسالة تنبئه ان بباب القصر من يريد أن يراه ، فذهب ، واذا ستة فتاك ينقضون عليه ويضربونه فى شيء من الترفق • وحذرهم روهان الذى كان يدير العملية من مركبته قائلا « لا تضربوا راسه ، فعسي أن يخرج منه شيء صالح (١١٤) » • واندفع فولتير عائدا الى البيت ، وطلب الى صلى أن يعينه على اتخاذ اجراء قانونى ضد روهان • ولكن صلى ابى • فاعتكف الشاعر فى ضاحية أخذ يتدرب فيها على المثاقفة • ثم ظهر فى فرساى ، مصمما على المطالبة بـ « ترضية » من الشفالييه • وكان القانون يعد المبارزة جريمة كبرى • وصدر أمر ملكى للشرطة بأن تراقبه ، ورفض روهان لقاءه • فى تلك الليلة قبضت الشرطة على الشاعر ، مما اراح كل من له صلة بالأمر ، ووجد فولتير نفسه نزيل الباستيل ثانية • وقال القائد العام لشرطة باريس فى تقريره « ان أسرة السجين اثنت بالاجماع ••• على حكمة الامر بمنع الشاب من ارتكاب حماقة جديدة (١١٥) » وكتب فولتير للسلطات يدافع عن مسلكه ، وعرض أن ينفى نفسه فى انجلتره مختارا اذا أفرج عنه • وقد عومل كما عومل من قبل ، فوفرت له كل أسباب الراحة والرعاية •

وقبل اقتراحه ، وافرج عنه بعد خمسة عشر يوما ، ولكن حارسا أمر أن يوصله الى كاليه . واعطاه اعضاء الحكومة خطابات تعـريف وتوصية لبعض الانجليز البارزين ، وواصلت الملكة دفع معاشه . وفى كاليه استضافه اصدقاؤه ريثما يقلع المركب التالى . وفى ١٠ مايو ركب البحر ، مسلحا بالكتب لدراسة الانجليزية ، راغبا فى رؤية البلد الذى سمع أن الناس والعقول فيه احرار . فلنر ماذا وجد فيه .

الكتاب الأول

انجلترا

١٧١٤ ــ ٥٦

الفصل الثاني

الشـــعب
١٧١٤ ـ ٥٦

كانت انجلتره التي وجدها فولتير أمة تتمتع بربع قرن من السلام النسبي عقب جيل من انتصاراتها الغالية على فرنسا ، امة غدت الآن سيدة البحار ، واذن فسيدة التجارة ، واذن فسيدة المال ، ممسكة برافعة القوى وميزانها فوق حكومات القارة ، منتصرة في كبرياء على أسرة من الاستيوارتيين حاولت أن تفرض عليهـــا الكثلكـة ، وعلى ملوك هانوفريين كانوا خداما لحزب البرلمان المنتفخ . تلك هي انجلتره التي احرزت قبل ذلك التفرق العالمي في العلم بفضل نيوتن ، وانجبت لوك الثائر دون عمد منه ، والتي كانت تقوض المسيحية بالربوبية ، والتي ستحل الشاعر الكـدر « بوب » (= بابا) محل بابوات روما أجمعين ، والتي سترقب بعد قليل في قلق عمليات ديفد هيوم العقلية المدمرة . انها انجلتره التي احبها الفنان هوجارث وشجبها بقوة في محفوراته ، انجلتره التي وجد فيها هندل وطنا وجمهورا مستمعا ، وحجب فيهـا ضوءه كل موسيقار من آل باخ اذ غدا اعظم « مايسترو » أنجبه العصر . ثم هنا ، في هذه « القلعة التي ابتنتها الطبيعة لنفسها ضد الغارات .. هذه البقعة المباركة .. في انجلتره هذه (١) » ـ بدأت الثورة الصناعية تغير وتبدل كل شيء الا الانسان .

١ ـ التمهيد للثورة الصناعية
١ ـ المؤيـــدون

رسم ديفو ، بعد أن جاب ارجاء انجلتره في ١٧٢٢ ، صورة مفعمة بمشاعر الوطنية لـ « أكثر بلاد الدنيا ازدهارا وثراء » ، صورة الحقول الخضراء والمحاصيل الوفيرة ، والمراعي تهيم فيها الخراف الذهبيـــة الفراء ، والعشب النضر الغزير يتحول ابقارا سمانا ، والفلاحين يضجون في العابهم الريفية ، وكبار المـــلاك في الريف ينظمـــون شـــئون

الفلاحين ، والنبلاء ينظلمون شئون الملاك ، وكبار حكام الأقاليم يتولون القضاء ويقرون النظام فى القرى ، ثم هى الى ذلك بلد يلوذ به بين الحين والحين الشعراء والفلاسفة (٢) . ان تجار الكلام ينزعون الى تصوير الريف بصورة مثالية اذا اعفوا من مضايقات هذا الريف ، ومله ، وحشراته ، وكده وكدحه .

لقد كانت الحياة الريفية فى انجلترة سنة ١٧١٥ شديدة الشبه بما كانته منذ الف سنة . كل قرية — بل كل بيت تقريبا — وحدة مكتفيــة بذاتها ، تزرع طعامها ، وتصنع ثيابها . وتقطع أخشابها للبناء والوقود من الغابات المجاورة . وكل أسرة تخبز خبزها ، وتصيد غزلانهــا ، وتملح لحومها ، وتصنع زبدها وهلامها وجبنها ، وتغزل وتنسج وتخيط وتدبغ الجلد وترقع الأحذية ، وتصنع أكثر انيتها وادواتها والاتها . وهكذا وجد الأب والأم والأبناء العمل والتعبير عن ذواتهم لا فى حقول الصيف فحسب ، بل فى امسيات الشتاء الطويلة أيضا ، وكان البيت مركزا للصناعة والزراعة على السواء . فالزوجة هى الخبير المكرم بفنون كثيرة ، من تمريض الزوج وتربية نحو اثنى عشر طفلا ، الى حياكة الفساتين وصنع الجبنة . وهى تحفظ وتصرف الأدوية المنزلية ، وتعنى بالحديقة والخنازير والطيور . والزواج هو اتحاد بين رفيقين متعاونين والأسرة كائن حى اقتصادى كما انها كائن حى اجتماعى ، وبهذا توافر لها مبرر قوى واساس مكين لوحدتها وتكاثرها واستمرارها .

ولو قد ترك الفلاحون احرارا فى الابقاء على اساليبهم القديمة فى الحقول لقنعوا بما فى بيوتهم من حيوية منوعة . لقد تذكروا أياما كان مالك الأرض فيها يسمح لهم ، أو لأسلافهم ، بأن يطلقوا قطعانهم لترعى فى حقول المنطقة المشاعة ، وبان يصطادوا السمك كما يشاءون فى غدرانها ، وأن يقطعوا الخشب فى غابتها ، أما الآن ، واثر عملية بدىء بها فى القرن السادس عشر ، فقد سور المـــلاك معظم الاراضي المشاعة ، ووجد الفلاحون عناء فى العيش على قدر دخولهم . صحيح انه لم يكن هناك اثر لرق الأرض ، ولا لضرائب اقطاع رسمية ، ولكن الملاك المغامرين وتجار المدن الذين استثمروا مالهم فى الأرض كانوا يزرعون على نطاق أوسع ، برأسمال أكبر ، وبادوات أفضل ، ومهارة

أعظم ، وأسواق أوسع مما أتيح لصغار الزراع الذين يزرعون مساحاتهم الضيقة . وقد قدر جريجورى كنج أنه كان بانجلترا فى ١٦٨٨ نحـــو ١٨٠٫٠٠٠ من هؤلاء الملاك الأحرار . وذكر فولتير حوالى ١٧٣٠ أن « فى انجلترا عددا كبيرا من الفلاحين ممن تبلغ قيمة ملكية الواحـد منهم ٢٠٠٫٠٠٠ فرنك ، ولا يأنفون من أن يواصلوا فلاحة الأرض التى أغنتهم ، والتى يعيشون فيها أحرارا » ، ولكن ربما كان قوله هذا من قبيل الدعاية ، حفزا لهمم الفرنسيين ، أيا كان الأمر ، فانه بحلول سنة ١٧٥٠ كان عدد الملاك الأحرار قد تناقص (٣) . فالملاك الســمان يشترون المساحات العجاف ، والبيت الصغير وما حـوله من أرض ، المقصود به اعالة الأسرة أو الأسواق المحلية ، يخلى مكانه لمزارع أكبر قادرة على الافادة من الوسائل والآلات المحسـنة . والمزارع يصــبح مستأجرا أو « يدا » أجيرة ، أضف الى ذلك أن نظام الفلاحة الذى ساد انجلترا عام ١٧١٥ قسم أرض القرية الى مناطق مختلفة حسب خصوبتها وسهولة الوصول اليها ، وتسلم كل مزارع شريطا أو أكثر فى النواحى المنفصلة ، وكان التعاون ضروريا ، واحبطت المبادرة الفردية ، وتخلف الانتاج . وكانت حجة مسورى الأراضى أن التشغيل الواسع النطاق تحت ملكية موحدة من شأنه أن يزيد الانتاج الزراعى ، وييسر رعى الأغنام ، ويتيح ناتجا مربحا من الصوف ، ولا ريب أنهم كانوا على حق . وأغمض التقدم الاقتصادى عينا واحدة على الأقل عما أصاب الناس من اضطراب شديد فى حياتهم نتيجة الارتحال والانتقال .

وتركز التقدم فى التكنولوجيا الزراعية على المزارع الموسـعة . فاستصلح حافز الكسب الأراضي البور وزرعها ، ودرب العمال على كفاية أعظم ، وشجع اختراع الآلات والوسائل الجديدة وحفز اجراء التجارب على تربية الحيوان ، ودعم الجهد المبذول فى صرف المستنقعات والحد من تعرية التربة وتطهير الغابات . واضيف بين عامى ١٦٩٦ و ١٧٩٥ نحو مليونى فدان الى المســاحة المزروعـة فى انجلترا وويلز . وفى ١٧٣٠ ادخل تشارلز تاونشند النظام الرباعى لدورة المحاصيل بدلا من الخطة المسرفة التى كان يترك بمقتضاها ثلث الأرض بورا كل سنة : فزرع القمح أو الشوفان فى السنة الأولى ، والشعير أو الشوفان فى الثانية ، والبرسيم والجاودار والنباتات العلفيـــة واللفت الأصـفر والكرنب فى

الثالثة ، واللفت فى الرابعة . ثم جاء بالاغنام لتاكل اللفت أو تدوس عليه فتدفعه داخل الأرض بينما يخصب روثها التربة ، وبذلك اعـدت الأرض لمحصول وفير من القمح فى السنة الثانية . وسخر منه جيرانه ، وأطلقوا عليه لقبا هو « تيرنب تاونشند » (أى تاونشند اللفت) ، الى أن حملهم على تقليده زيادة فى محاصيله بلغت ٣٠ ٪ . واذ كان تاونشند فيكونتا ، فقد حذا حذوه نفر آخر من الطبقة الأرستقراطية فى تحسين أرضهم ، وشاع بين اشراف الانجليز ان يهتم الواحد منهم اهتماما شخصيا بالزراعة ، وانتقل حديث الضـــياع من الصـــيد والكـلاب الى اللفت والسماد (٤) .

وكان جثرو تل محاميا ، اعتلت صحته فعاد الى مزرعة أبيه ، واستهوت ذهنه المرهف معجزة النماء وارباح الزرع ، ولكن صدمه مـا رأى من طرق الفـلاحة المسرفة ، ـ فالمزارعون ينثرون تسعة أو عشرة ارطال من البذار على الفدان باهمال شديد يترك « ثلثى الأرض خالية من الزرع ، فى حين تكتظ البذار فى الباقى اكتظاظا يمنع الزرع من ان يزكو (٥) » . ودرس اساليب الزراعة اثناء رحلاتـه فى فرنســا وايطاليا ، فلما عاد الى وطنه اشترى مزرعة ، وأذهل جيرانه بمخترعات ضاعفت من الانتاج . وقد بدأ (حوالى ١٧٣٠) بصنع محراث ذى أربعة قواطع يقتلع الحشائش ويدفنها فى التربة بدلا من مجرد ازاحتها جانبا . ولكن اكثر مخترعاته حسما (حوالى ١٧٣٣) كان الة حـفر تجرها الخيل ، تنثر الحب خلال انابيب مسننة على مسافات واعماق معينة فى خطين متوازيين ، ثم تغطى الحب بمسحاة متصلة بالحفار . ووفرت الآلة الحب والعمال ، وأتاحت زرع التربة المحصورة بين الخطين المبذورين وتهويتها وريها وتنقيتها من الحشائش . وقد شارك هذا التغير فى بذر الحب ، الذى يبدو تافها ، وتحسين المحراث ، فى احـداث ما سمى بعد ذلك بالثورة الزراعية ، التى يمكن ان تقاس نتائجها (حتى مع أخذ التضخم فى حسابنا) بارتفاع قيمة الأراضي التى استخدمت فيها الوسائل الجديدة عشرة اضعاف خـــلال القـرن الثامن عشر . ومكنت الزيادة فى انتاجية التربة المزارع من ان تطعم المزيد من الصـــناع فى المدن ، وأتاحت ذلك العدد النامى من ســكان المـــدن ، الذى لولاه لاستحالت الثورة الصناعية .

على أنه لا الفلاحون ولا عمال المدن كان لهم نصيب من الثروة النامية . فالملاك الفلاحون أمكن ضغطهم والتخلص منهم بالمنافسة الواسعة النطاق ، والعمال الفلاحون تقاضوا من الأجور البخسة القدر الضئيل الذى اكرههم خوف التعطل على قبوله . فلنستمع الى ما يقوله العلامة الرفيع المقام تريفليان :

« كان الثمن الاجتماعى الذى دفع نظير الكسب الاقتصادى هو تناقص عدد الزراع المستقلين ، وازدياد عدد العمال الذين لا يملكون أرضا ، وكان هذا الى حد كبير شرا لابد منه ، ولو وزع الربح الزائد الذى حققته دنيا الزراعة توزيعا عادلا لخف الضرر . ولكن بينما ارتفع ايجار المالك ، وعشور القسيس ، وأرباح المزارع المالك والوسيط ارتفاعا سريعا ، فان فاعل الحقل ، الذى حرم حقوقه الصغيرة فى الأرض المشاع وحقوق أسرته بتشغيلها فى الصناعة الى جانب الزراعة ، لم يجز الجزاء الواجب بأجر أعلى ، وكثيرا ما انحدر فى المقاطعات الجنوبية الى درك التبعية والفاقة (٦) » .

ومما خفف الى حد ما من التركز الطبيعى للثروة دفع الضرائب والاحسان المنتظم . ذلك ان أغنياء الانجليز ، بعكس النبلاء الفرنسيين كانوا يدفعون النصيب الاكبر من الضرائب التى أعالت الحكومة . فقد الزمت « قوانين اعانة الفقراء » التى بدأت فى ١٥٣٦ كل أبرشية بانقاذ الأشخاص الذين فى خطر الموت جوعا . وكان المتعطلون من القادرين صحيا يرسلون الى الاصلاحيات ، والعجزة الى الملاجىء ، والأطفال يشغلون صبيانا لمن يرغبون فى ايوائهم واطعامهم لقاء خدماتهم . وكانت نفقات هذا النظام تؤدى من ضريبة تفرض على أسر الابرشية . وقد ذكرت لجنة برلمانية فى تقرير لها أنه لم يبق على قيد الحياة من جميع الأطفال المولودين فى الاصلاحيات ، أو الذين استقبلتهم فى حداثة سنهم ، فى الأعوام ١٧٦٣ ــ ٦٥ ، الا سبعة فى المائة فى ١٧٦٦ (٧) . حقا لقد كان قرنا قاسيا .

ب ــ الصناعة

عطل البيت الريفى المكتفى بذاته تخصص العمل والثورة الصناعية

سواء كان هذا التعطيل خيرا أو شرا . فلم يمول الرجل حديث العهد برأس المال مصنعا ما دام فى قدرته ان يجعل مائة أسرة تغزل وتنسج له تحت أسقفهم ووفق نظام المنافسة الاوتوماتى ؟ لقد انتجت هذه الصناعة البيتية فى قسم « وست رايدنج » بيوركشير ١٠٠٫٠٠٠ قطعة قماش للسوق فى ١٧٤٠ ، و ١٤٠٫٠٠٠ قطعة فى ١٧٥٠ ، والى عام ١٨٥٦ لم يرد من المصانع سوى نصف انتاج الصوف ، أما النصف الثانى فظل يرد من البيوت (٨) . على ان تلك البيوت الشاغية بالحركة كانت فى الواقع مصانع وليدة ، فرب البيت يدعو الخدم والغرباء ليشاركوا فى العمل ، والحجرات الاضافية تجهز بدواليب الغزل وانوال النسيج . فلما ازداد حجم تلك العمليات البيتية واتسعت السوق بفضل الطرق المحسنة والسيطرة على البحار ، خلقت الصناعة البيتية ذاتها الطلب على الات افضل . وكانت الاختراعات الأولى أدوات اكثر منها مكنا . وكان فى الامكان تركيبها فى المنزل ، مثل مكوك « كى » الطائر ، ولم يحل نظام المصنع محل الصناعة المنزلية الا حين صنع المخترعون آلات تتطلب القسوة الميكانيكية .

وكان الانتقال تدريجيا ، فقد اقتضي قرنا تقريبا (١٧٣٠ - ١٨٣٠) ، وربما كانت كلمة « ثورة » لفظا اعنف مما يحتمله تغيير بطيء كهذا . ولم يكن الانتفاض على الماضي حادا بالدرجة التى وصفت بها فى الماضي النزعة الروائية فى كتابة التاريخ ، فالصناعة قديمة قدم الحضارة ، وقد تقدم الاختراع بسرعة متزايدة منذ القرن الثالث عشر ، وكانت المصانع فى فلورنسة على عهد دانتى كثيرة كثرة الشعراء ، والراسماليون فى هولنده ايام رمبرانت كثيرين كثرة المصورين . ولكن التغيير الصناعى الذى طرأ فى القرنين الأخيرين (١٧٦٠ - ١٩٦٠) اذا نظرنا اليه فى مراحله المتصاعدة ، من البخار الى الكهرباء الى النفط الى الالكترونيات والطاقة الذرية ، بالقياس الى معدل التغيير الاقتصادى فى اوربا قبل كولمبس - هذا التغيير يشكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والصناعة فحسب تغييرا اساسيا ، بل غيرت كذلك السياسة والعادات والأخلاق والدين والفلسفة والفن .

وقد تضافرت عوامل عديدة على فرض التغيير الصناعى . فالحروب التى اعقبت سقوط وزارة ولبسول (١٧٤٢) حثت على زيادة سرعة

الانتاج والتوزيع . ونمو السكان نتيجة لازدياد موارد الطعام أتاح سوقا داخلية متضخمة للزراعة والصناعة ، وشجع على صنع آلات أحسن وشق طرق افضل . وقد تطلبت الآلات المهارات ، مما افضى الى تخصص وتقسيم للعمل نهضا بالقوة الانتاجية . وقد جلب الهيجونوت وغيرهم من المهاجرين الى انجلترة ما استنقذوه من مدخراتهم كما جلبوا اليها حرفهم ، ومخترع أول آلة للنسيج (١٧٣٨) كان سليلا للهيجونوت . وكان لتقرير البرلمان تعريفات جمركية حامية (كقانون الكاليكوت - أى الشيت - الصادر فى ١٧٢١ ، والذى حرم استعمال الشيت المطبوع المستورد) الفضل فى الحد من المنافسة الاجنبية ، واتاحة السيطرة الكاملة لصناعة النسيج الانجليزية على السوق الداخلية ، فى حين اعان نفوذ التجار المتزايد فى التشريع على توسيع الاقتصاد البريطانى . وشجعت التقاليد البيورتانية - التى ستدعمها بعد قليل حركة المثوديين - فضائل الجد والاقدام والاقتصاد فى الطبقات الوسطى والدنيا وتراكم رأس المال ، وأجيز الاثراء ، وبدا أن الله اختص البورجوازية بنعمته .

واتاح تطوير التعدين فى الوقت ذاته موارد متزايدة من الفحم وقودا للصناعة . وكان الخشب الى ذلك الحين هو الوقود الأهم للبيوت والمتاجر ، ولكن الغابات كانت تتضاءل حتى أوشكت على الانقراض ، فمن بين تسع وستين غابة كبيرة عرفتها انجلترة الوسيطة ، اختفت خمس وستون بحلول القرن الثامن عشر(٩) . واقتضى الحال استيراد الخشب من اسكندناوة أو أمريكا ، وكان يكلف أكثر فأكثر ، وظهر الطلب على وقود أرخص . ولكن تعدين الفحم كان لايزال عملية بدائية ، وكانت المناجم ضحلة ، والتهوية رديئة ، والميثان وغاز الكربون يخنقان المعدّنين ، وظلت مشكلة ضخ المياه من المناجم بلا حل حتى جاءت آلات سافرى ونيوكومن البخارية . والواقع أن هذه المشكلة كانت اكبر حافز لتطوير هذه الآلات . على أن انتاج الفحم تصاعد وانتشر رغم هذه الصعوبات ، فما وافى عام ١٧٥٠ حتى كان الفحم الذى يشعل فى البيوت والمصانع يحجب سماء لندن (١٠) .

كانت اهمية الفحم للثورة الصناعية تكمن بوجه خاص فى استعماله :

لتنقية خام الحديد ليصبح حديدا أصفى وأقوى وأطوع بفصل الفلز عن المواد المعدنية العالقة به . والتنقية استلزمت الصهر ، الذى استلزم درجة عالية من الحرارة ؛ وكانت هذه الحرارة منذ القرن الرابع عشر تنتج باشعال الفحم النباتى (وهو الخشب المتفحم) فى افران عالية تسلط عليها تيارات قوية من الهواء ؛ ولكن الفحم النباتى أصبح الان اغلى ثمنا بسبب تناقص موارد الخشب . وفى ١٦١٢ أشار سيمون ستورتفانت باستخدام الفحم الحجرى وقودا صاهرا . وزعم « دَد » دَدلى (أى الفاشل) فى ١٦١٩ انه خفض تكاليف صهر الحديد بهذه الوسائل الى النصف ، ولكن منافسيه الذين استخدموا الفحم النباتى تضافروا لاقصائه عن هذه الصناعة . وأخيرا (حوالى ١٧٠٩) وفق أبراهام داربى الأول ، الذى استوطن كولبروكديل حيث الفحم كثير ، فى صهر خام الحديد بنجاح وبتكاليف قليلة ، وذلك بتسخينه بفحم الكوك - اى الفحم المحرق بقدر يكفى لتخليصه من عناصره الطيارة . اما الكوك فكان معروفا منذ عام ١٥٩٠ . وطور أبراهام داربى الثانى استعمال الفحم او الكوك فى الصهر ، وحسن الأفران العالية بمنفاخ يشغله دولاب مائى ، وسرعان ما استطاع أن يفوق فى مبيعاته كل أصحاب مصانع الحديد فى انجلترة وفى ١٧٢٨ انشيء اول مصنع انجليزى للحديد لتمرير الحديد بين سلسلة من الأسطوانات تضغطه لاخراج الأشكال المطلوبة . وفى ١٧٤٠ اخترع بنيامين هنتسمان طريقة البوتقة التى كان ينتج بها الصلب العالى الرتبة بتسخين المعدن وتنقيته فى قدور من الفخار . هذه التطورات فى المزاوجة بين الفحم والحديد هى التى يسرت اختراع آلات الثورة الصناعية .

جـ - الاختراع

لم يشهد النصف الأول من القرن الثامن عشر زيادة لافتة للانظار فى سرعة الاختراع بالقياس الى القرنين السابقين ، وقد نحتاج الى نصف مجلد لنعدد الاختراعات التى ورثها هذا العصر من سابقه . مثال ذلك ان الساعة الكبيرة ، التى لا غنى عنها فى العلم والصناعة والملاحة ، ابلغت مرتبة الكمال تقريبا فى القرن السابع عشر ، وبحلول عام ١٧٥٨ وصلت الى درجة من الدقة (لا يعدو الانحراف فيها دقيقة كل ستمائة

يوم) لم تتجاوز الا فى ١٨٧٧ (١١) . وكان العمال انفسهم يثبطون المخترعات ، وان كانوا فى كثير من الاحيان مصـدرها ، خشـية أن تهددهم بالتعطل التكنولوجى ، وهكذا فرض عداء العمال هجر اول منشرة خشب انجليزية (١٦٦٣) ، ولم تجدد المحاولة بنجاح الا سنة ١٧٦٧ . وزادت الطرق الرديئة من تعطيل الاختراع الصناعى ، ولم يكن هناك كبير حافز على زيادة الانتاج ما دامت صعوبات النقل تفوق توسيع السوق . على أن النقل البحـرى كان آخـذا فى التحسن ، وكانت المستعمرات ، التى غلبت عليها الزراعة ، تتهافت على طلب المنتجات المصنوعة ، هنا وجد حافز متزايد على الاختراع . وقد اعان عليه دافع الربح ، ومنح البرلمان حقوق امتياز تمتد أربع عشرة سنة . وجاء حافز آخر من المنافسة الأجنبية فى تجارة الصادر ، فحثت منسوجات الهند ، التى أنتجتها عمال مهرة منخفضو الأجور أصحاب المصانع الانجليز على الاقتصاد فى الانتاج باستعمال الأجهزة المكنية المحسنة . فصناعة النسيج اذن هى التى افتتح الاختراع فى ميدانها ذلك التغيير العظيم .

كان « المكوك الطائر » الذى ابتكره جـون كى (١٧٣٣) أول اختراع بارز فى انتاج المنسوجات ، ولنا أن نعتبر هـذا التاريخ بداية للثورة الصناعية . فمن قبله كان عرض القماش المراد نسجه محدودا بطول ذراعى النساج باستثناءات صغيرة ـ اذ كان عليه أن يقذف بالمكوك (وهو الأداة التى تمرر خيوط اللحام خلال خيوط السدى) من أحد جانبى النول بيد ، ويلقفه باليد الاخرى فى الجانب المقابل . ورتب كى جهازا من العجلات ، والمطارق ، والعصي ، يتيح لدقة حادة باليد أن تجعل المكوك يمرق من أحد الجانبين الى وقفة أوتوماتيكية عند أى عرض محدد سلفا ، مما ينجم عنه وفر كبير فى الوقت . فلما حاول تركيب اختراعه فى مصنع بكولتشستر اتهمه النساجون بانه يحـاول حرمانهم من قوتهم اليومى . ففر الى ليدز (١٧٣٨) وعرض اختراعه المسجل على اصحاب مصانع القماش لقاء رسم ، فاخذوا اختراعـه ، ولكنهم قبضوا عنه اتاوته ، فرفع أمره الى القضاء ، واستنزفت مصاريف التقاضي كل ماله . فذهب الى وطنه فى برى ، ولكن الأهالى هاجـوا عليه هناك (١٧٥٣) ، ونهبوا بيته ، وهددوه بالقتل . غير أن امرأة رحبت بالته فى حماسة وصاحت قائلة بلهجتها العامية « حسنا ، حسنا ،

ان أعمال الله عجيبة ، ولكن حيل الانسان تغلبه تعالى فى النهاية (١٢)» ووجد كى قبولا أكثر فى فرنسا ، التى تبنت حكومتها اختراعه وكافاته بمعاش . ولم يتغلب المكوك الطائر على كل معارضة ويعم استعماله الا عام ١٧٦٠ .

وعطل صناعة النسيج أن النساجين كانوا يستطيعون نسج الخيوط باسرع مما يستطيع الغزالون غزلها وامدادهم بها . وكان الغزل الى سنة ١٧٣٨ غزلا يدويا ، على دواليب مازالت تجمل البيوت التى تمجد الماضي . فى ذلك العام سجل لويس بول ، وهو ابن مهاجر هيجونوتى ، آلة غزل يبدو انها مبنية على أسس اقترحها جون فيات ، وهى مجموعة من البكر تسحب للخارج حبال القطن أو الصوف المشدودة لتصبح خيوطا باى رفع مطلوب ، وتغزلها على مغازل ، وذلك كله باقل جهد . وباع بول وفيات براءة الاختراع الى ادورد كيف ، صديق الدكتور جونسون ، واقام كيف خمس الات بمصنع نورثامبتن فى ١٧٤٢ - وهو الأول فى سلسلة طويلة من مصانع الغزل فى انجلترة القديمة والجديدة .

أما وقد تيسر الآن علاج الحديد لصنع الآلات القوية ، وتطلبت الأحوال الاقتصادية الانتاج الواسع النطاق ، فقد بقيت مشكلة العثور على قوة ميكانيكية يستعاض بها ، بثمن رخيص ، عن عضلات الرجال وصبر النساء . وأقدم الحلول استخدم القوة المائية . ففى مائة قطر كان الدولاب المائى العظيم ، الذى يدور على مهل مع جريان الانهار ، يسير منذ زمن سحيق المضخات ، والمنافيخ ، والبكر ، والمطارق ، لا بل الآلات الحديدية الثقيلة منذ عام ١٥٠٠ . وظل المصدر الأهم للطاقة الميكانيكية خلال القرن الثامن عشر . وقد عاش الى القرن العشرين ، وما التركيبات الهيدروليكية فى زماننا سوى قوة مائية حولت الى كهرباء قابلة للنقل . ولا يمكن الركون الى القوة المحركة للرياح بهذا القدر ، ولم ينتفع بها الا انتفاعا قليلا نسبيا فى بلاد الجنوب الهادئة الريح ، ولكن فى العروض الشمالية سخرت التيارات الهوائية فى ادارة طواحين هواء توجه « قلوعها » الى « عين الريح » بونش فى اسفلها يدار باليد . وقد بلغت هذه الآلة الثقيلة ، التى لا يركن اليها ، أوجها فى الأقاليم المتحدة فى القرن الثامن عشر ، ثم بدات اضمحلالها الرائع .

وكان المخترعون خلال ذلك يجاهدون ليبلغوا بالآلة البخارية درجة الكفاءة المجزية . وكانت قد قطعت قبل ذلك شوطا طويلا ، من أبواب ولعب « هيرو » التى يشغلها البخار فى القرن الثالث الميلادى ، مرورا بجيروم كاردان (١٥٥٠) ، وجامباتستا ديللابورتا (١٦٠١) ، وسالومون دى كاوس (١٦١٥) ، وجوفانى برانكا (١٦٢٩) ، ومركيز ورستر (١٦٦٣) ، وصموئيل مورلاند (١٦٧٥) وكرستيان هويجنز (١٦٨٠) ، ودنى بابان (١٦٨١) ، وتوماس سافرى (١٦٩٨) ، الى آلة توماس نيوكومن البخارية فى ١٧١٢ ؛ تلك قصة رويت ألف مرة . وهنا أيضا ، أى فى عام ١٧١٢ ، يمكن أن يبدأ تاريخ الثورة الصناعية ، لأن آلة نيوكومن « النارية » كانت مجهزة بمكبس ، وذراع متذبذب ، وصمام أمن ، واستخدمت بنجاح فى نزح الماء فى المناجم العميقة . وقد ظلت النموذج الأساسي للطلمبات مدى ثلاثة أرباع القرن .

د ـ رأس المال والعمال

حين ازدادت الآلات حجما وتكلفة ، وتطلب تشغيلها القوة الميكانيكية ، وجد نفر من المغامرين انه أربح لهم أن يستبدلوا بالصناعة فى البيوت مصانع تجمع الرجال النساء فى ابنية يحسن اختيار مواقعها قرب انهار توفر الطاقة والنقل معا . والمصانع ، كما سلف ، لم تكن بدعا ، فقد كان منها مئات فى انجلترة اليزابيث وفرنسة كولبير . غير أن « نظام » المصانع ـ اذا عرفناه بانه اقتصاد صناعى يتم فيه الانتاج بصفة رئيسية فى مصانع ـ لم يكد يوجد فى اى مكان قبل القرن التاسع عشر . ولكن بعد اختراعات كى وبول بدأت مصانع المنسوجات تقوم بالمزيد من الغزل والنسيج الذى كان يتم فى البيوت ، وفي ١٧١٧ أنشأ توماس لوم فى داربى مصنع نسيج طوله ٦٦٠ قدما ، يشغل ثلاثمائة عامل يقومون على ٢٦٫٠٠٠ دولاب . وسرعان ما قامت منشآت مماثلة الضخامة فى ستوكبورت ، وليك ، وبرمنجهام ، وليومنستر ، ونورثامتن .

وشراء الآلات وايواؤها ، والحصول على الخامات ، واستئجار العمال والادارة ، ونقل الناتج وتسويقه ، كل هذا يتطلب رأس المال . كذلك كان الراسمالى ـ مقدم رأس المال أو مديره ـ ظاهرة قديمة ، ولكن بزيادة الطلب على رأس المال ازدادت الأهمية الاقتصادية والقوة السياسية

للرجال الراغبين فى المخاطرة بتقديمه . وقاومت الطوائف الحرفية ، التى كانت من الناحية النظرية لا تزال تحكم معظم الصناعة الاوربية ، التنظيم الرأسمالى للانتاج والتوزيع . ولكن نظام الطوائف الحرفيـــة بنى على الحرف اليدوية لا الآلات ، وقد هيىء لتلبية الحاجات المحلية لا السوق القومية فضلا عن السوق الدولية ، ولم يستطع تلبيـــة المطالب المتزايدة للجيوش ، والمدن ، والمستعمرات ، وقد عوقه الولاء للوسائل والقواعد التقليدية ، وأخذ ينحدر الى درك « الشلل » من معلمى الحرف الذين يستغلون الصبيان وعمال اليومية . وكان الراسمالى اقـدر على تنظيم الانتاج الكبير والتوزيع البعيد ؛ فلقد كان عليما بذلك الفن البالغ الرهافة، فن جعل المال يلد المال ؛ وظاهره برلمان تواق لأن تمون الكفاية الصناعية التجارة المترامية والحروب .

وبانتشار المصانع والراسمالية تغيرت علاقة العامل بعمـله . فلم يعد يملك أدوات حرفية ، ولا يحدّد ساعات كده وظروفه . ولم يكن له غير نصيب صغير فى تقرير معدّل اجوره او نوعية ناتجـــه . ولم يعد حانوته مدخلا الى بيته ، ولا صناعته جزءا من حياته الأسرية . ولم يعد عمله ذلك التشكيل الفخور لأداة فى جميع مراحلها ، بل أصبح بحكم تقسيم العمل - الذى سيعجب آدم ســمث كثيرا - التـــكرار اللا شخصي ، الممل ، لجزء من عملية لم يعد ناتجها المصقول يعبر عن حذقه وتفننه ؛ انه لم يعد صانعا ماهرا ، بل « يدا » أجيرة . وقد حدد أجره جوع رجال ينافسون النساء والأطفال على العمالة . فاذا كان عاملا فى منجم فمتوسط أجره شلن وستة بنسات فى اليوم ، واذا كان فاعلا فى البناء تقاضي شلنين ، وسمكريا ثلاثة شلنات ، وقد اختلفت هذه المعدلات اختلافا يسيرا بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٧٠ (١٣) . وكان النساج يتقاضي حوالى سنة ١٧٥٠ ستة شلنات فى الاسبوع ، والنساجة خمسة شلنات وستة بنسات ، والطفل شلنين وستة بنسات . اما النساء الغزالات فمن شلنين الى خمسة فى الاسبوع ، وأما البنات من السادسة الى الثانية عشرة فشلن الى شلن ونصف (١٤) . على أن الاسعار كانت منخفضة ، وظلت ثابتة حتى ١٧٦٠ (١٥) . وكان يضاف الى هـــذه الأجور احيانا علاوة للخبز والجعة اثناء العمل ، وكان معظم عمـال المناجم يعطون الفحم مجانا .

وكانت حجة اصحاب العمل ان عمالهم لا يستحقون اكثر من هذه الأجور ، لأنهم ادمنوا الكسل والسكر والاستهتار والفجور . وزعم احدهم (١٧٣٩) أن السبيل الوحيد لجعل العمال عيوفين مجدّين « ان تفرض عليهم ضرورة الكد طوال الوقت الذى يستطيعون اقتطاعه من الراحة والنوم ليحصلوا على الضروريات العادية للحياة (١٦) » . وقال كاتب فى ١٧١٤ « ليس للفقراء ما يحفزهم للخدمة النافعة سوى الحاجة ، وهذه حال من الحكمة تخفيفها ، ولكن من الحماقة شفاؤها (١٧) » اما يوم العمل العادى فيمتد من احدى عشرة ساعة الى ثلاث عشرة ، ستة أيام فى الأسبوع ، ويهوّن من طول هذه الفترة ساعة ونصف لتناول الوجبات ، ولكن المتباطئين بلا مبرر فى تناولها يفقدون ربع اجر اليوم (١٨) . وشكا اصحاب العمل من أن عمالهم يتوقفون عن العمل ليختلفوا الى المهرجانات ، أو مباريات الملاكمة التكسبية ، أو مشاهد الشنق ، أو الاحتفالات بأعياد القديسين الشفعاء . ورغبة فى حماية انفسهم من هذه المخالفات واشباهها كان اصحاب العمل يحبون ان يكون لديهم رصيد من العمال المتعطلين فى المنطقة ، يستطيعون ان يعتمدوا عليه فى الطوارىء او أوقات الطلب المتزايد (١٩) . فاذا كسدت الأحوال كان فى الامكان تسريح العمال وتركهم ليعيشوا على قروض من التجار المحليين .

ونشأت فى المدن ببطء بروليتاريا تابعة . وكانت تجمعات الطبقة العاملة محظورة بمقتضى قانون قديم أصدره أدورد السادس ، فجدد البرلمان هذا الحظر فى ١٧٢٠ . ولكن عمال اليومية مضوا فى تنظيم انفسهم ، ولجأوا الى البرلمان لتحسين أجورهم ، واصبحت اتحادات هؤلاء العمال ـ لا الطوائف الحرفية ـ هى الرائدة لحركة النقابات العمالية التى تشكلت فى انجلترة فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى ١٧٥٦ ، بناء على التماس من عمال النسيج فى جلوسترشير ، أمر مجلس العموم قضاة الصلح بالمحافظة على الحد الأدنى القانونى للأجر ، ويمنع تخفيض الأجور فى الصناعة ، ولكن هذا الامر سحب بعد عام ، واتخذ البرلمان سياسة ترك تحديد الأجور للعرض والطلب على العمل (٢٠) . لقد بدأ عهد « المشروع الحر » وسياسة « عدم التدخل "Laissez - Faire

هـ ـ النقـل والتجـارة

توقف نمو الاقتصاد على التحسينات فى المواصلات والنقل . وكانت انجلترة تتمتع بميزة ساحلها البحرى وانهارها ، وكان نصف السكان يعيشون على أبعاد معقولة من البحر ، ويستطيعون استخدامه فى نقل السلع ؛ وتغلغلت الانهار مسافات بعيدة فى الداخـل ، فاتاحت بذلك طرقا مائية طبيعية . ولكن حال الطرق الانجليزية كانت دائما قذى فى عين الحياة الانجليزية . فتربة هذه الطرق لينة ، واخاديدها صلبة يغمرها الماء ، وكثير منها حولته أمطار الربيع او الصيف الى نهيرات أو بالوعات من الوحل كان المرور عليها عسيرا بحيث اقتضى اخـراج المركبات من فوقها استخدام أعداد اضافية من الخيل أو الثيران ، وكان على المسافرين على الاقدام ان ينحـولوا الى الحقـول أو الغـابات القريبة . ولم تتكفل الحكومة ، لاغراض حربية ، ببناء مجموعة من الطرق الرئيسية « صالحة لمرور الجنود والخيل والمركبـات على مدار السنة (٢١) » (١٧٥١) الا بعد أن قاد « الأمير تشارلى الجميل » رجاله الاسكتلنديين الثائرين واوغل جنوبا حتى داربى فى ١٧٤٥ ، لأن حالة الطرق عرقلت مسيرة القوات الملكية الموجهة ضده . ومع ذلك ظل اللصوص يعيشون فسادا فى الطرق ، وكانت تكاليف النقل غالية .

وكان الناس يسافرون على ظهور الخيل أو فى مركباتهم الخاصة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكان فى امكانهم استئجار الخيل الجديدة فى نقط أو مواقع على الطريق Posts فى الرحـلات الطويلة ، وانتشرت هذه البيوت Post – houses فى جميع أرجاء أوربا الغربية . ثم استخدمت كلمة « بوست » (البوسطة) للدلالة على نقل البريد ، لانه فى مثل هذه النقط كان حاملو البريد يستطيعون تسليم البريد او تسلمه وتغيير الخيل ؛ وبفضل هذا النظام امكنهم أن يقطعوا ١٢٠ ميلا فى اليوم . ومع ذلك كتب تشسترفيلد (١٧٤٩) يشكو الحـال « ان رسائلنا على احسن تقدير تنقـل نقلا مضطربا ، وكثيرا ما تضـيع تماما (٢٢) » . وذهب الى أن من « السرعة غير المالوفة » ان يستغرق خطاب مرسل من فيرونا ثمانية أيام ليصل الى لندن . وكان اكثـر السفر بالمركبات العامة يجرها جوادان أو اربعة ولها سـائق وحارس

مسلح خارجها ، وبداخلها ستة ركاب يترنحون . وكانت المركبات تغادر لندن بجدول منتظم صباحين أو ثلاثة فى الاسبوع قاصدة كبريات مدن جنوبى انجلترة ، ومعدل سرعتها سبعة أميال فى الساعة ، ورحلتها من لندن الى نيوكاسل تستغرق ستة أيام .

وظلت التجارة الداخلية بهذه الطرق المعوقة بدائية على نحو جدير بالتصوير . فكان تاجر الجملة يرافق عادة جياد الحمل التى تنقل بضاعته من بلد الى بلد ، والباعة الجوالون يمرحون بسلعهم من بيت الى بيت . أما الحوانيت فتميز عن البيوت بعلامات اهمها اللافتات الحافلة بالالوان ، وتحفظ السلع بداخلها ، وليس هناك عادة « أى عرض فى الفترينات » . وكل متجر تقريبا متجر عام لمختلف السلع ، مثال ذلك أن « الخردجى » كان يبيع الثياب ، والعقاقير ، والمصنوعات الحديدية ، والبدال سمى باسم grocer لأنه يبيع بالجملة. gross ; فالبدال هنرى كوارد مثلا كان يبيع كل شىء من السكر الى المسامير . وكان لكل مدينة يوم سوق يعرض فيه التجار - اذا سمح الجو - عينات من بضائعهم . ولكن المراكز الكبرى للتجارة الداخلية كانت الاسواق السنوية التى تنعقد فى لندن ، ولين ، وبوسطن ، وجينزبورو ، وبفرلى ، واهم منها كلها ستوربردج . فى هذه الأسواق ، فى اغسطس وسبتمبر من كل عام ، كانت تقوم مدينة حقيقية لها حكومتها وشرطتها ومحاكمها ، تتوفر فيها كل منتجات الصناعة الانجليزية تقريبا ، ويلتقى فيها رجال الصناعة من جميع ارجاء الجزيرة ليتبادلوا الحديث عن الاسعار والنوعيات والكوارث .

وكانت التجارة الخارجية بسبيلها الى التوسع لأن بريطانيا تسلطت على البحار . وزادت الصادرات الى اكثر من مثليها قيمة وكمية فى النصف الأول من القرن ، وارتفعت حمولة السفن المبحرة من الثغور الانجليزية من ٣١٧,٠٠٠ طن فى عام ١٧٠٠ الى ٦٦١,٠٠٠ فى عام ١٧٥١ الى ١,٤٠٥,٠٠٠ فى عام ١٧٨٧ (٢٣) . وضاعفت لفربول حجمها وارصفتها كل عشرين سنة . واقبلت الواردات من عشرات الأقطار لتداعب احلام الأغنياء أو بطونهم ، أو تزين تسريحات كرائم السيدات بالعطور ومساحيق التجميل التى تخلب الألباب . وبلغت

ارباح شركة الهند الشرقية من شراء السلع رخيصة فى الهند ، وبيعها غالية فى أوربا ، حدا اتاح لها أن تغرى بالانضمام الى مساهميها خمسة عشر دوقا او ايرلا ، واثنتى عشرة كونتيسة ، واثنين وثمانين فارسا ، وستة وعشرين قسا وطبيبا (٢٤) . ولم تنظر الطبقة الارستقراطية فى انجلترة الى التجارة نظرة ستعلاء والازدراء كما فعلت فى فرنسا ، ولكنها ساعدت على تمويلها وشاركت فى رخائها . وقد أبهج رجلا من الطبقة الوسطى كفولتير أن يجد نبلاء الانجليز يهتمون اهتماما نشيطا بالتجارة . قال موجها حديثه الى فرنسا فى ١٧٣٤ « ان لولع الانجليز بالتجارة وحده الفضل فى أن بزت لندن باريس حجما وسكانا ، وفى ان انجلترة استطاعت ان تملك مائتى بارجة وتعين بالمال الملوك من حلفائها (٢٥) » .

واصبح كبار التجار ينافسون الارستقراطية القديمة المالكة للأرض ثراء وسلطانا ، فيقررون العلاقات مع الدول الأجنبية ، ويثيرون ويمولون الحروب فى سبيل الاسواق والموارد والطرق التجارية . وسيطر القائمون على التجارة الانجليزية فى السكر ، والتبغ ، والعبيد ، على حياة برستول ، وحكم اصحاب السفن لفربول ، وساد اصحاب مناجم الفحم على نيوكاسل . وكانت ثروة السير جوسيا تشايلد التاجر صاحب ٥٠٫٠٠٠ سهم فى شركة الهند الشرقية ، تعدل ثروة الكثير من اللوردات وحدائقه فى وانستد من اشهر مشاهد انجلتره . كتب هيوم فى ١٧٤٨ يقول « فى معظم اقطار اوربا ترى املاك الاسرة - اى الأملاك الوراثية - التى تميزها الالقاب والشارات التى يخلعها عليها الملك ، هى أهم أسباب التمايز . أما فى انجلتره فان الاعتبار الأكبر للثراء الراهن (٢٦) » . وحدث قدر كبير من التبادل والامتزاج بين الطبقتين العليا والوسطى ، فتزوجت بنات التجار الاغنياء بابناء النبلاء ملاك الأرض ، واشترى أبناء التجار ضياعا من الارستقراطيين الذين افتقروا ودخل عليه القوم ميادين التجارة والقضاء والادارة . لقد كانت الارستقراطية تتحول الى بلوتوقراطية (اى حكومة الاغنياء) ، والمال يحل محل النسب سبيلا شرعيا الى السلطان .

و - المال

كان المصرفيون الاوربيون الآن يؤدون جميع الخدمات المالية

تقريبا ، يتسلمون الودائع ، ويحمونها من الحريق والسرقة ، ويرتبون المدفوعات بين المودعين بمجرد النقل من حساب الواحد الى حساب الآخر ، ويصدرون أوراق النقد التي يمكن أن يستبدل بها الذهب أو الفضة عند الطلب . واذ لم يكن من المتوقع أن يطلب جميع حملة هذه العملة الورقية هذا الاستبدال في وقت واحد ، فقد كان في استطاعة المصارف أن تصدر أوراقا بلغت من خمسة الى عشرة أضعاف قيمة احتياطياتها المشتركة . وأتاح تداول النقود المتكاثرة على هذا النحو رأس مال اضافيا للمشروعات التجارية ، وشارك في توسيع الاقتصاد الأوربي . وحفز المصرفيون الصناعة باقراض النقود بضمان الأرض أو المباني أو المواد ، أو بمجرد التسليف على مسئولية شخص ما . ويسرت التجارة بخطابات تبادل أو ضمان مكنت رأس المال من الانتقال بمجرد نقل الوزن المصرفي حتى عبر حدود معادية .

وتألفت في انجلترة شركات محاصة كما حدث في هولنده وايطاليا وفرنسا . ونظم مؤسسوها ، الذين كانوا وقتها يسمون « أصحاب المشروعات » الاتحادات الصناعية أو التجارية ، واصدروا اسهما ، ووعدوا بدفع أرباحها ، وأمكن تحويل شهادات الأسهم أو السندات من شخص الى آخر ، ولهذا الغرض أسست في لندن سوق للأوراق المالية (بورصة) في ١٦٩٨ . وشهد مطلع القرن الثامن عشر نموا سريعا في المضاربة بأسهم الشركات ، وسماسرة للأوراق المالية يتلاعبون في أسعار السوق رفعا وخفضا . وقد وصف ديفو في ١٧١٩ واحدا من هؤلاء المتلاعبين فقال :

« لو خطر للسير جوسيا تشايلد أن يشترى ، فان أول ما يفعله هو أن يكلف سماسرته بان يتكلفوا العبوس والتجهم ، ويهزوا رءوسهم ، ويلمحوا بان هناك أخبارا سيئة من الهند .. وربما باعوا فعلا بعشرة الاف أو ربما بعشرين ألف جنيه . وللتو ترى السوق .. وقد امتلأت بالبائعين ، ولا أحد يشترى ولو بشلن ، حتى تهبط الأسهم ستة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو عشرة في المائة ، وأحيانا أكثر . هنا يكون لدى السمسار الخبيث طاقم آخر منهم يستخدمه .. في الشراء ، ولكن في

تكتم وتحوط ، حتى يشترى - بعد ان باع بعشرة آلاف جنيه بخسارة أربعة أو خمسة فى المائة - اسهما بمائة الف جنيه ، باقل من السعر بعشرة أو اثنتى عشرة فى المائة . وفى ظرف أسابيع ، بعكس هذه الطريقة لا اكثر ، يدفعهم جميعا للتهافت على الشراء ، فيبيعهم أسهمهم ثانية بربح يبلغ عشرة أو اثنتى عشرة فى المائة (٢٧) » .

ولم تكد تفتتح أسواق الاوراق المالية ، حتى كان حرص الجمهور على تحقيق كسب دون عرق يثير موجات من المضاربة والانكماش . وقد جاء تضخم « فقاعة » بحر الجنوب (اى مشروعه الوهمى) فى انجلترة ، ثم انهيار المشروع تاليا ، فى اتفاق غير عادى ، لظهور وسقوط « فقاعة المسسبى » وصاحبها جون لو فى فرنسا . ذلك أن الحكومة الانجليزية ، التى تاثرت بشكاوى بولنبروك ، وسويفت ، وغيرهما من أن الدين القومى - البالغ ٥٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه فى عام ١٧١٤ - يفرض على الدولة عبئا سنويا مدمرا قدره ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه من الفائدة - فكرت فى خطة لتحويل ٣١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه من الدين الى شركة بحر الجنوب . وكانت الشركة قد أسست فى ١٧١١ بمنحها احتكارا للتجارة الانجليزية مع المستعمرات الأسبانية فى أمريكا وجزر المحيط الهادى . ودعى حملة الاوراق الحكومية ليستبدلوا بها اسهما فى الشركة . وأصبح الملك جورج الأول « محافظا » لها ، وبذلت كل الجهود لنشر الاعتقاد بان مرسوم احتكارها يعد بارباح عالية . وسرت العدوى من النجاح الظاهرى لنظام لو فى فرنسا المعاصرة الى انجلترة ، فاعترتها حمى مضاربة مماثلة . وما مضت ستة أيام على عرض الشركة قبولهما الأوراق الحكومية ثمنا لأسهمها حتى قبل الاقتراح ثلثا حملة الأوراق واشترى كثيرون غيرهم أسهما ارتفعت فى ظرف شهر واحد من ٧٧ جنيها الى ١٢٣٫٥ (١٧١٩) . ولكى يضمن مديرو الشركة استمرار التعاون الحكومى قرروا تقديم هدايا سخية من الاسهم لأعضاء الوزارة ولاثنتين من خليلات الملك (٢٨) . وقد حذر روبرت ولبول ، ولم يكن قد تولى منصب الوزارة بعد ، مجلس العموم من المشروع لأنه « مضاربة ... مؤذية » ، وقال ان المشروع يستهدف رفع قيمة الاسهم رفعا مفتعلا باثارة تهافت الناس عليها والابقاء عليه ، وبالوعد بارباح من اموال لن تفى بالغرض ، وتنبأ ، فى دقة عجيبة ، بأن المشروع سيفشل ، وأنه لو ترك

ليورط جماهير الشعب لجر فشله سخطا شاملا وخطرا (٢٩) . وقال انه ينبغى وضع حد ما على الاقل لارتفاع اســـهم الشركة . ولــكن مجلس العموم ابى الاستماع الى تحذيره . وفى ٧ أبريل ١٧٢٠ وافق كلا مجلسي البرلمان على اقتراحات الشركة .

وفى ١٢ أبريل اصدرت الشركة اسهما جديدة بسعر ٣٠٠ جنيــه للسهم ، فتم الاكتتاب فيها على الفور . وفى ٢١ أبريل اعلنت ، وهى منتعشة ناضرة بفضل دفع الحكومة فائدة على الأوراق الحكومية التى اصبحت الآن ملكا للشركة ، انها ستدفع أرباحا صغيرة تبلغ عشرة فى المائة ، واستغلت الحماسة التى اثارها هذا الاعلان لطرح اصدار آخر من الاسهم بسعر ٤٠٠ جنيه (٢٣ أبريل) . فلم تمض ساعات حتى تم الاكتتاب فيه . ورفع التهافت على شراء الأسهم ثمنها الى ٥٥٠ جنيها فى ٢٨ مايو ، والى ٨٩٠ جنيها فى ٢ يونيو ، وفى يوليو بيع اصـــدار جديد بسعر ١٠٠٠ر١ جنيه للسهم . وتهافت المجتمـــع الراقى كله على الاكتتاب . الأدواق والقساوسة والسياسيون والموســيقون والشـــعراء ، فاصبح شارع البورصة مشهدا لمنافسة هائجة مائجة على الشراء لم ير لها نظير الا فى شارع كانكمبوا بباريس فى الفترة ذاتها تقريبا ؛ فلقد كشفت طبيعة البشر عن نفسها عبر الحدود . وكان الناس يعقدون صفقات الأسهم فى الحانات ، ومشارب القهوة ، ودكاكين صانعات القبعـــات ، وفى كل ليلة يحسب الرجال والنساء اى ثراء أصابوا ، وما كان يمكن أن يصيبوا من مزيد لو انهم اشتروا فى تاريخ سابق ، او قدرا اكبر من الاسهم .

وبلغت لهفة المال العام على المضاربة مبلغا أغرى الشركة بطرح اصدارات صغيرة بلغت ستة وثمانين اصدارا . وبيعت أسهم أصـــدرتها شركات انشئت لتحويل المعادن الى فضة ، ولتشييد المستشفيات للأطفال غير الشرعيين ، ولاستخراج الزيت من الفجل ، ولاحداث الحــــركة الدائمة ، ولاستيراد الحمير من أسبانيا . واعلن مؤسس عن « شركة لمواصلة مشروع عظيم النفع ، ولكن احدا لن يعرف كنهه » الا فيما بعد ، فتلقى الف اكتتاب كل منها بجنيهين قبل ان ينتصف النهار ، ثم اختفى بعد الظهر (٣٠) .

وكان شطط بعض هذه « الفقاعات » الصـــغرى (وهو الوصف الذى وصفهم به ذلك العهد) بداية رد الفعل ضد مشروع بحر الجنوب. وجدد ولبول وغيره تحذيراتهم وباعوا اسهمهم . وفى ١١ يونيو حرم الملك جميع اصدارات الأسهم الا للشركات التى رخص لها البرلمـان بذلك . وسرعان ما انهارت المشروعات الصغرى ، فهدأ فشلها من حمى المضاربة. وانتشرت شائعة بأن الحكومة الاسبانية أخذت تضيق تجارة الشركة فى المستعمرات الامريكية تضييقا شديدا . وفى يوليو وصل نبأ بان مشروع لو أو « فقاعة المسسبى » قد انفجرت فى باريس . وباع السير جـون بلاونت وغيره من مديرى شركة بحر الجنوب أسهمهم سرا بربح كبير . وخلال اغسطس كله توالى هبوط الأســـهم حتى اذا جاء ٢ سبتمبر لم يتجاوز سعرها سبعمائة جنيه .

هنا استحال التهافت على البيع ضربا من الهلع والذعر الجماعى، فازدحمت مداخل شارع البورصة ازدحاما خانقا . وهبطت الأسهم الى ٥٧٠ جنيها ، ثم الى ٤٠٠ جنيه ، ثم الى ١٥٠ جنيها ، ثم الى ١٣٥ جنيها (٢٩ سبتمبر) . وخسرت مئات الأسر الانجليزية مدخراتها فى هذا الانهيار . وسرت بين الناس قصص الافلاس والانتحار (٣١) . وافلست المصارف التى كانت قد اقرضت المال بضمان شهادات اســـهم شركة بحر الجنوب . وطالبت الاجتماعات العامة فى جميع ارجـــاء انجلتره بعقاب المديرين ، ولكنها غفرت للجمهور غروره وجشـــعه . وعجل الملك بالعودة من هانوفر ودعا البرلمـــان للانعقاد . وفر امين صندوق الشركة الى فرنسا مصطحبا الكثير من الســـجلات التى كانت ستدين المديرين . وفى يناير ١٧٢١ وجدت لجنة برلمانية بعد فحصها دفاتر الشركة ، « صورة للظلم والفساد (٣٢) » مذهلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، حين كان التشريع عن طريق افساد البرلمان كانه جزء من دستور انجلتره . والظاهر ان المديرين كانوا قد انفقوا ٥٧٤٫٠٠٠ جنيه فى رشوة كبار رجال الحكومة .

وطالب بعض اعضاء البرلمان بعقوبات عنيفة ، واقترح احدهم بان يخاط المديرون المذنبون فى زكيبة ويلقوا احياء فى التيمـز (٣٣) . وحمى وطيس الجدل حتى تحدى الاعضاء بعضهم بعضا للمبـــارزة ،

وأصيب عضو منهم بأزمة ضغط مرتفع ومات فى الغد . ودعى المديرون ووزراء الحكومة الى المحاكمة أمام المجلس . فحكم على جون ايزلابى ، وزير الخزانة ، بالسجن فى برج لندن ، وصودرت ممتلكات المديرين — منهم ادورد جبون ، جد المورخ — فلم يترك لهم سوى عشرة فى المائة من ثروتهم . ولوحظ أن السير جون بلاونت ، الذى كان من أوائل منظمى الشركة ، ومن أول من بدأوا ببيع أسهمهم ، كان رجلا « ذا مسلك غاية فى التقوى » وكان « دائما يهاجم ما يشين العصر من سرقة وفساد » ويندد بجشع الأغنياء (٣٤) .

أما روبرت ولبول الذى برر الحدث تنبوءاته ، فقد أشار بالاعتدال فى روح الثأر الذى اتسم به رد الفعل ، وخفف من انهيار الشركة باقناع مصرف انجلتره وشركة الهند الشرقية بامتصاص نحو ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه من الأسهم الخاسرة . وقد وجد فى شركة بحر الجنوب من الاحتياطيات ما يسمح بدفع ثلاثة وثلاثين فى المائة لحملة أسهمها فى وقت مبكر . وجردت الشركة من امتيازاتها وسحرها ، ولكنها كانت تكسب من بيع العبيد ، فظلت على قيد الحياة ، فى حيوية هابطة حتى عام ١٨٥٣ .

٢ — مظاهر الحياة فى لندن

يقدر الاحصائيون الأجرياء سكان أوربا بنحو ١٠٠ مليون نسمة فى ١٦٥٠ ، و١٤٠ فى ١٧٥٠ . وقد قدر فولتير فى ١٧٥٠ سكان فرنسا بعشرين مليونا ، وألمانيا والنمسا باثنين وعشرين ، وبريطانيا العظمى وأيرلنده بعشرة ، وروسيا الاوربية بعشرة ، وأسبانيا والبرتغال بثمانية ، وبولنده بستة ، وخص كلا من تركية أوربا ، والسويد ، والدنمرك (مضافا اليها النرويج) والاقاليم المتحدة ، بثلاثة ملايين (٣٥) . وذهب قانونى ألمانى الى أن الزيادة فى سكان شمالى أوربا مردها الى حد كبير انتقال الرهبان والراهبات من حياة العزوبة الى الأبوة والامومة نتيجة لحركة الاصلاح البروتستنتى ، وحض على « اقامة تمثال للوثر بوصفه حافظ النوع الانسانى » (٣٦) . ولكن علينا الا نغالى فى عفة رهبان العصر الوسيط . واغلب الظن أن زيادة

السكان مرجعها تحسينات الزراعة والنقل التى زادت من كميات الطعام وتوزيعه ، وخطوات النهوض بالصحة العامة والعلاج الطبى التى خفضت نسبة الوفيات فى الاطفال والبالغين . ويبدو أن سكان انجلتره وويلز الذين نيفوا على ثلاثة ملايين فى ١٥٠٠ ، بلغوا اربعة فى ١٦٠٠ وستة فى ١٧٠٠ ، وتسعة فى ١٨٠٠ (٣٧) . وكل الزيادة تقريبا كانت من نصيب المدن التى غذت الصناعة والتجارة وتغذت منهما . وفى عام ١٧٤٠ فاخرت لندن بنحو ٧٢٥,٠٠٠ من الاهالى ، فاصبحت الان أحفل مدن العالم بالسكان ، وندد بها ديفو فى ١٧٢٢ لأنها « تضخمت »(٣٨) وتلتها باريس التى بلغ سكانها ٦٧٥,٠٠٠ فى ١٧٥٠ ، ثم امستردام وفينا ، ونابلى ، وبلرمو ، وروما . وبلغ سكان لندن عشرة أضعاف سكان برستول ، التى كانت ثانى اكبر المدن الانجليزية ، وثمانية عشر ضعف سكان نورتش ، ثالث اكبر المدن الانجليزية . وكانت مراكز العواصم تجمع فى يدها خيوط الحياة الاقتصادية للأمة ، وتحول كدّ الحقول والمناجم والمتاجر ومنتجاتها الى أرباح المال اللطيفة الرقيقة .

وأعان لندن موقعها على النمو مع نمو التجارة والمستعمرات الانجليزية . فكان فى استطاعة السفن عابرة المحيط أن تبحر مصعدة فى التيمز ، ومع أن أرصفة الميناء (حتى ١٧٩٤) لم يكن فى طاقتها أن تؤويها ، فان جيشا من عمال التفويغ والشحن الغلاظ ، يستخدم اسطولا من ثلثمائة صندل ، كان مهيأ لنقل البضائع من السفينة الى الساحل او الى سفينة أخرى ، وهكذا غدت لندن مركز توزيع شاغيا بالحركة لاعادة تصدير الواردات من وراء البحار الى القارة . ولم يكن شاطىء النهر أنيقا كما نجده الآن ، فقد كان يزخر بعمال الشحن المفتولى العضل ، والملاحين المتعطشين للجنس ، والنساء المتحللات ملبسا وخلقا ، القذرات مظهرا ولفظا ، الساكنات الاكواخ والحانات ، المنافسات للبحارة فى السكر والعنف (٣٩) . أما النهر نفسه فكان عجيب المنظر ، فيه خليط من السفن التى تتفاوت من قوارب الصيد الشراعية الى البوارج الضخمة ، بينما تعبر المعديات الصغيرة النهر غدوا ورواحا . وكان الملك ، وعمدة لندن ، ونفر من الاعيان ، يملكون « ذهبيات » انيقة ، ويستخدمونها للرحلة صعدا الى ونزور أو غيرها من البلاد — وظل كوبرى لندن حتى ١٧٥٠ الطريق الوحيد لاختراق المدينة على الاقدام

من شمالها الى جنوبها ، ولكن فى ذلك العام تم بناء كوبرى وستمنستر .
وفى ١٧٥٧ أزيل عن كوبرى لندن عبء البيوت والمتاجر الذى كان يثقله .
وقد أعجب الرسام البندقى أنطونيو كاناليتو ، الذى زار لندن فى ١٧٤٦
و ١٧٥١ ، بمشاهد الحركة التى يعج بها الماء فخلف لنا بعض الصور
الشهيرة التى ترينا التيمز كما عرفه وأحبه بوب وجونسون .

ولعل جونسون أحب شوارع لندن أكثر حتى من حبه لنهرها ، مع
انها كانت لاتزال سيئة الاضاءة رديئة الرصف ، لا ينظفها فى الغالب
سوى ماء المطر الهاطل عليها . وكان قد تقرر فى ١٦٨٤ نظام لاضاءة
الشوارع يقام بمقتضاه مصباح مضاء بالشمع عند كل عاشر بيت ، ولكن
المصابيح لم تضأ الا فى الليالى التى يحتجب فيها القمر ، وحتى منتصف
الليل فقط ، ومن عيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر) الى عيد السيدة
العذراء فقط (٢٥ مارس) . وفى ١٧٣٦ وافقت سلطات المدينة على
اقامة خمسة عشر الف مصباح زيتى فى أنحاء لندن كلها ، تظل مضيئة من
غروب الشمس الى شروقها ، وكان هذا حدثا مشهودا فى حياة العاصمة
حسن كثيرا من أمن شوارعها فى الليل .

كان أكثر الشوارع منذ حريق ١٦٦٦ الكبير مرصوفا بالحجارة الصغيرة
المدوّرة ، وظل الرصف بهذه الطريقة قاعدة متبعة الى القرن التاسع
عشر . وكانت تجرى فى وسط كل شارع قناة تتلقى الكثير من النفاية
وتصرف المطر . ولم يكن هناك افاريز بل صف من الشواخص حدد
طريقا للمشاة عرضه ستة أقدام . وكانت الشوارع تعج باصوات عربات
النقل ، وخيول الجر ، والحناطير ، والمركبات الخاصة ، وكلها تجرها
الخيل التى تقعقع حوافرها على أحجار الرصف ، كذلك كان هناك
الباعة الجوالون — وكثير منهم نساء — يسرحون بعشرات الأطعمة أو
الثياب ، والصناع المهرة المتنقلون يعرضون اصلاح ما فسد ، وسائقو
العربات يتشاجرون والكلاب تنبح ، والمتسولون يستجدون ، ومغنو
الشوارع يصيحون بالأغانى الشعبية ، والأراغن تقفز بالحانها من جدار
الى جدار . وكان الناس يشكون من هذه الضوضاء ولكنهم يحبونها ،
فهى السبيل الذى لا غنى عنه الى معاشهم . ولم يعمّل من الناس فى
صمت سوى النشالين والمومسات .

وبدأ تثبيت أرقام الشوارع على البيوت فى سنة ١٧٠٨ . وكان أكثرها فى سنة ١٧٥٠ مزودا بالمياه الجارية . وأخذت وسائل النظافة تتحسن . وكان القانون يطالب رب كل أسرة بأن يحتفظ برصيف الشارع نظيفا أمام بيته ، ولكل حى زبال ينظم جمع القمامة . أما المراحيض فكانت عادة مراحيض خارجية توضع وتستر فى الحديقة أو الحوش . وكان لبعض المناطق مجار ، ولكن لم يتح للندن نظام مجار عام الا سنة ١٨٦٠ . أما المداخن فيطهرها منظفو المداخـن ، الذين يتسـلقونها بضغط كيعانهم وركبهم على جدرانها الداخلية المصنوعة من الطوب أو بالحجر ، واستمر هذا التشويه القاسي لأجسام الأطفال حتى عام ١٨١٧ .

وكان شطر كبير من السكان يحشرون فى أحياء فقيرة مزدحمـة تلوثها القمامة والفضلات فتولد عشرات الأمراض (٤٠) . وفى حيين من أحياء لندن ـ هما وابنج ولايمهاوس ـ كان واحد من كل اثنين من السكان تقريبا يعيش عيش الكفاف ، معتمدا على الاحسان ، أو السرقة ، أو البغاء ، فى الحصول على المسكن والطعام . أما الأطفال فيجرون حفاة قذرين شعثا فى الشوارع لا تسترهم غير أسـمال ولا يتعلمون غير الاجرام . فى هذه الشوارع الفقيرة ندر أن اهتم الرجال والنساء بالزواج فالعلاقات الجنسية حدث عابر ، وسلعة تسوق دون احتفال أو قانون . ولم يكد يوجد فى هذه الأحياء كنائس على الاطلاق ، أما دكاكين الجعة والحانات فكثيرة . وفيها أيضا كانت بؤر اللصوص ، والنشـالين ، وقطاع الطرق ، والقتلة المحترفين . وكان كثير من المجرمين ينتظمون فى عصابات . فاذا تعرض لهم الحراس جدعوا أنوفهم . وألفت جماعة منهم يدعون « الموهوك » أن يخرجوا الى الشوارع سكارى ، ويخزوا المارة بالسيوف ، ويكرهوا النساء على الوقوف على رءوسهن ، ويسملوا عيون من يقاومونهم من ضحاياهم . أما لصوص العصابات الأقل ضراوة فكانوا يقنعون بكسر نوافذ الدكاكين والبيوت . ذكر سموليت فى ١٧٣٠ « أن اللصوص والسارقين أصبحوا الآن أشد استهتارا وضراوة مما كانوا فى أى عهد منذ عرف البشر الحضارة (٤١) » . وفى ١٧٤٤ حرر عمدة لندن وحاكمها خطابا للملك قررا فيه أن « عصابات شتى قوامها أعداد كبيرة من الأشخاص ذوى النزعة الشريرة ، المسلحين بالهـراوات ، والطبنجات ، والسيوف ، وغيرها من الأسلحة الخطرة ، يعيثون فسادا

لا فى الازقة والممرات الخاصة فحسب ، بل فى الشوارع العامة وأماكن الاحتشاد العادية ، ويقترفون اخطر الاعتداءات على أشخاص رعايا جلالتكم (٤٢) » . وقال هوراس ولبول فى ١٧٥٢ : « ان المرء ليضطر الى السفر ، حتى فى الظهيرة ، وكأنه ماض الى ساحة قتال (٤٣) » .

وكانت العاصمة الكبرى بالطبع شيئا اكثر كثيرا من هذه الحصيلة المتكاثرة من الفقر والجريمة ، فلقد كانت الى ذلك بلد البرلمان والقصور الملكية ، ووطن الف محام وتاجر وصحفى وشاعر وروائى وفنان وموسيقى ومعلم وكاهن ورجل بلاط . ويجب ونحن ماضون فى طريقنا أن نذيف الى رؤيتنا للندن القرن الثامن عشر بيوت الطبقات المتعلمة الفخمة واخلاقها وعاداتها ، وجمهور المصلين فى الكنائس ، والشكاك ، والعلماء ، والفلاسفة ، وظرفاء « المجتمع الراقى » وحسانه وعشاقه ، وحدائق اللهو فى فوكسهول وريتلاج ، والمتنزهين فى الحدائق العامة وشارع بل مل ، وسباقات الزوارق والمهرجانات والذهبيات على نهر التيمز ، والاحاديث المتدولة فى مشارب القهوة والنوادى ، ودكاكين الحرفيين ، وتجار الملابس ، والجواهرية ، وأسباب الترويح فى البيت والرياضة فى الخلاء ، والجموع المحتشدة فى معارك الديكة ، ومباريات الملاكمة التكسبية ، وعروض الدمى ، والمسارح ، والاوبرا ــ عندها فقط تكون رؤيتنا للحياة اللندنية منصفة كاملة الى حد معقول ، تتيح لنا أن نحس التاريخ فى كل نواحيه ينساب خلال اجساد وارواح جيلين و ٧٠٠ر٠٠٠ نفس .

٣ ــ المدارس

كانت الحياة فى انجلتره كما فى غيرها من الاقطار فى هذه الحقبة تبدأ بنسبة عالية من وفيات الاطفال ، يموت ٥٩ ٪ من مجموع الأطفال المولودين بلندن قبل أن يبلغوا الخامسة ، و ٦٤ ٪ قبل العاشرة (٤٤) . وكان كثير من الأطفال يلقون خارجا عقب ولادتهم ، ومن بقى من هؤلاء اللقطاء على قيد الحياة يربون على نفقة الدولة ثم يوضعون فى اصلاحيات للاحداث . ونجم الكثير من التشوهات الجسمية عن اهمال المولدات والامهات .

فاذا كان الأبوان فقيرين لم ينل الطفل حظا من التعليم فى المدرسة اطلاقا . وكان هناك « مدارس خيرية » تقدم التعليم الاولى للجنسين ولجميع الطبقات مجانا ، ولكن حملة الملتحقين بها لم يتجاوز ٢٨٫٠٠٠ فى ١٧٥٩ ، وكانت لا تقبل المنشقين على الكنيسة الانجليكانية ، ولا تصل الا لنسبة ضئيلة من الفلاحين ، ولا تكاد تصل الى فقراء المدن اطلاقا . يقول حجة انجليزى « ان الكثرة العظمى من الانجليز كانوا يمضون الى قبورهم دون تعليم » (٤٥) . أما فى طبقة الصناع فالتلمذة الصناعية تعد خير تعليم . وأما أطفال الطبقة الوسطى فيجدون مدارس يقوم عليها عادة « رجال محطمو الاعصاب ، أو مفلسون ، أو مطرودون من وظائف أخرى »(٤٦) والى ذلك « مدارس نسوية » تعلم فيها المعلمات المتواضعات مبادىء القراءة والكتابة والحساب والكثير من الدين للصبيان والبنات الذين يستطيع آباؤهم دفع مصروفاتهم . وفى جميع المدارس كان التركيز على تعليم الطلاب القناعة بمرتبتهم التى ولدوا فيها ، وابداء الخضوع الواجب للطبقات العليا .

وكانت قلة قليلة تدخل المدارس الثانوية حيث يستطيع الصبيان أن يضيفوا شيئا من اللاتينية واليونانية الى مبادىء القراءه والكتابة والحساب ، لقاء رسوم متواضعة تبصر المعلمين بمكانهم الوضيع فى السلم الاجتماعى . وكان النظام صارما ، وساعات الدرس طويلة تمتد من السادسة الى الحادية عشرة والنصف صباحا ، ومن الواحدة الى الخامسة والنصف مساء . وأجود من هذه المدارس المدارس الخاصة ، وأشهرها ايتون ، ووستمنستر ، ووينشستر ، وشروزبرى ، وهارو ، ورجبى — حيث يستطيع الشباب من الصفوة التحضير للجامعة نظير ستة وعشرين جنيها أو نحوها فى العام ، وادخار شارات كلاسيكية يتفاخرون بها فى المستقبل . واذ كانت هذه المدارس الخاصة لا تقبل غير صبيان الكنيسة الانجليكانية ، فان المنشقين على هذه الكنيسة — من معمدانيين ، ومشيخيين ، ومستقلين ، وتوحيديين ، وكويكريين ، ومجمعيين ، ومثوديين — هؤلاء انشأوا اكاديميات لشبابهم قل التركيز فيها على الكلاسيكيات القديمة ، وازداد على اللغات الحديثة ،

والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والملاحة ـ وهو تعليم انسب لأبناء الطبقة الوسطى .

وحرم المنشقون من دخول الجامعات . وكان اكثر طلابها ينتمون الى اسر موسرة ، ولكن بعض الصبيان رقيقى الحال تلقوا منحا دراسية من المحسنين أو المؤسسات الخيرية ، وبعض الطلاب الذين يقومون بخدمات للجامعة لقاء مكافآت (ويسمون servitors أو sizars) مثل نيوتن ، شقوا طريقهم خلال قاعات الدرس الواعية بالفوارق الطبقية . وقد عانت اكسفورد وكمبردج من الركود فى هذه الفترة بسبب النزعة المحافظة فى المناهج والطرق والافكار . وابدت كمبردج استعدادا اكبر للتوسع فى الدراسات العلمية على حساب الدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، ومع ذلك وصفها تشسترفيلد بانها « غارقة فى احلك الظلمات » . اما اكسفورد فقد تشبثت باللاهوت القديم وباسرة ستيوارت الساقطة ، ولم تسمح لملوك اسرة هانوفر الغشم بزيارتها . وقال آدم سمث ، الذى كان يطلب العلم باكسفورد فى ١٧٤٥ ، انه لم يتعلم فيها الا القليل ، أما جبون الذى درس فيها فى ١٧٥٢ ، فقد ندّد بمدرسيها لأنهم سكيرون جهلة ، وندم على السنين التى ضيعها فى الجامعة . وآثر الكثير من الأسر استخدام المدرسين الخصوصيين (٤٧) .

اما البنات فكن يتلقين تعليما اوليا فى مدارس القرية او المدارس الخيرية ـ فيتعلمن القراءة والكتابة ، والخياطة ، واشغال الابرة ، والغزل ، وقليلا من الحساب ، وكثيرا من الدين . وتلقى بعضهن التعليم على يد معلمين خصوصيين ، ومنهن من درس اللغات والآداب الكلاسيكية خفية كما فعلت الليدى مارى ورتلى مونتاجيو . قالت الليدى مارى « ان بنات جنسي تحظر عليهن عادة دراسات من هذا النوع ، والجهل يعد مجالنا المناسب لنا ، بحيث أن اى اسراف فيه من جانبنا يغتفر لنا اكثر مما يغتفر اقل تظاهر بمعرفة القراءة او بالادراك السليم ... وليس فى الوجود مخلوق ... اشد تعرضا للسخرية العامة من المرأة المثقفة » . وكانت تميل الى الظن بان الرجال كانوا يبقون النساء فى جهلهن ليستطيعوا اغواءهن بتكلفة اقل (٤٨) . واذا كان لنا أن نحكم من دخول محظيات الملك ، فان النساء وفقن كل التوفيق بغير

الدراسات الكلاسيكية ، ولم يكن بهن حاجة الى شاعر كاوفيد ليعلمهن لعبة الحب .

٤ - الأخـــلاق

لعل العلاقات السابقة على الزواج كانت بين النساء اقل شيوعا فى ذلك العهد مما هى اليوم (١٩٦٥) ، ولكن البغاء ازدهر الى حـد لم يكد يعرف ثانية حتى يومنا هذا . وقد قدر مراقب اجنبى عدد المومسات بخمسين الف فى لندن ، يوجدن فى حانات المدينة ، وفى الفنـادق الصغيرة على الطرق ، وفى حدائق المدينة ، وفى المراقص العـامة ، وحفلات الموسيقى ، والمسارح ، وكن فى شارع اكستر وحى سـتراند يجلسن الى النوافذ تشجيعا للمترددين من الزبائن . وفى « دروری لين » (شارع المسارح بلندن) - كما تغنى الشاعر جـون جـاى فى تمثيليته « تريفيا » : هى التى تمشي فى الليل بخطى وئيدة ، لا يضم جسدها اللدن مشد قاس ، وتحت المصباح تتوهج شرائطها المبهرجة ، والمعطف حديث التنظيف ، وسيماء المومس ... وباصوات التمـلق تستميل الأذن الساذجة قائلة « يا فارسي الهمام ! يا فاتنى ! يا حبيبى ! يا عزيزى ! » (٤٩) .

ولم تاخذ القانون بهن رحمة . فاذا امسكت احداهن وهى تتحرش برجل ، زج بها فى السجن وضربت بالسوط ووضعت فى المشهرة (آلة التعذيب) . وقد وصفت « مجلة جرب ستريت » فى عدد ٦ مايو ١٧٣١ مصير احدى هؤلاء « المدامات » فقالت « وقفت امس الام نيدهام فى المشهرة ببارك بليس قرب شارع سانت جيمس ، ونكل بها الجمهـور تنكيلا شديدا . وقد اشتد بها الاعياء حتى استلقت بطول المشـهرة ، ورغم ذلك ظلوا يحصبونها بقسوة ، ويظن انها ستموت بعد يوم أو يومين (٥٠) .

ولكن لم يكن يصل الى المشهرة غير افقر البغايا . فقد كن يتفادين القانون عادة بانرشا ، أو يخرجهن صاحبهن بكفـالة ، واحس بعض حفظة القانون - ربما لانهم تعرفوا فيهن على « مضيفات » سـابقات لهم - بعض العطف على نساء عاقبتهن القوانين على فسق الرجـال .

وأغلب الظن أنه لم يات الى فراش الزوجية محتفظا بعفته عشرة من كل، مائة ذكر من أهل لندن . لقد ندد القوم بالرذيلة علانيـة ، ولكنهـم، احتقروا الفضيلة سرا .. وكتاب جون كليلاند المسمى « مذكرات غانية » (١٧٤٩) ، والذى عرف فيما بعد باسم « فانى هل » ، وهو سلسلة من الاغواءات المفصلة ، كان (وما زال) من افحش كتب ذلك القرن واكثرها شعبية .

وألف بعض الرجال جماعات للاستمتاع المتبادل فيما بينهـم . وروت جريدة لندن فى عددى ٢٣ و ٣٠ أبريل ١٧٢٥ نبأ القبض على سبعة لوطيين ، وفى ١٤ مايو سجلت نبأ شنق ثلاثة آخرين بتهمـة اللواط ، ثم أضافت « نمى الينا انهم (اى الشرطة) اكتشفوا عشرين بيتا أو ناديا يجتمع فيها اللوطيون ، وهم يراقبون أيضا منتديات ليلية يلتقى فيها هؤلاء الوحوش فى جمع كبير » . وفى ٧ يوليـو روت الجريدة أدانة « روبرت هـويل ويورك هورنر بفتحهمـا بيـوتا فى وستمنستر يستقبلان فيها هواة هذه الرذيلة المنكرة » . وفى ٢٣ يوليو أعلنت ان : « مرجريت كلاب ، التى ادينت بفتحها بيتا سريا يستخدمه اللوطيون ... حكم عليها بوضعها فى المشهرة ، وبدفع غرامة قدرها تسعون ماركا ، وبالسجن سنتين » (٥١) .

وينبئنا مصدر وثيق بان « نسبة كبيرة جدا من أهل لنـدن كانوا يعاشرون النساء حراما دون زواج (٥٢) » . وكانت زيجات الحب فى ازدياد ، على الاقل فى روايات رتشردسن وفيـلدنج ، ولكن معظـم الزيجات كان يرتبها الآباء بعد الوزن الدقيق لمهر العروس بالقياس الى دخل العريس الفعلى أو المنتظر . وقد حرم قانون صدر فى ١٧٥٣ على الاشخاص دون الحادية والعشرين الزواج بغير موافقـة والديهـم أو الأوصياء عليهم . ولما كان هذا القانون لا ينطبق الا على انجلترة ، فان كثيرين من العشاق الفارين من آبائهم كانوا يعبرون الحدود الى اسكتلنده ، حيث يتبع القساوسة فى قرية جريتنا جرين قانونا اكثـر يسرا . وكان هناك مزيد من التيسيرات على العاشقين المتلهفين يوفرها رجال الدين الجشعون الذين يعقدون الزيجات السرية فى الحانات أو المواخير أو العليات أو غير ذلك من الاماكن فى شـارع فليت او على

مقربة منه (وفى الشارع سجن للمدينين) . وكان فى كل حانة تقريبا فى تلك المنطقة كاهن من هذا النوع على استعداد لتزويج اى انسان لقاء رسم ، دون أن توجه اليه أسئلة أو يطالب بترخيص . وشاع عن أحد هؤلاء القساوسة انه كان يعقد ستة آلاف قران فى السنة . وكانت الزيجات تبرم فى عاطفة مشبوبة ، ثم تفسخ وقد ذابت حرارتها؛ وكان آلاف النساء يهجرن رجالهن ، وكان البحارة يتزوجون وهم يقضون يوما على البر ، ويحدون ، ثم يرحلون . ورغبة فى القضاء على هذا المنكر اصدر البرلمان قانونا (١٧٥٣) بالا يعتبر اى زواج شرعيا ، باستثناء زيجات الكويكرز أو اليهود ، ما لم يعقده قسيس انجليكانى فى كنيسة أبرشية ، بعد نشر اعلان بالزواج فى الكنيسة على مدى ثلاثة آحاد متعاقبة ؛ وكل مخالف لهذا القانون يعاقب بالنفى الى المستعمرات .

ولم يكن الطلاق مسموحا به فى انجلترة (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان (٥٣) ، وكانت تكاليف هذا الاجراء تجعل منه ترفا مقتصرا على الأغنياء . وفشا الفسق فى جميع الطبقات الا الوسطى ، وضرب جورج الأول والثانى مثالا فى ذلك - والناس على دين ملوكهم . ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجريف يقول « كل انسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة (٥٤) » . ولم تتغير الحال الا قليلا فى ١٧٢٨ ، حين جعل الكاتب المسرحى « جاى » السيدة بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » تسال زوجها عن ابنتها « بالله لم يجب أن تشذ ابنتنا بوللى عن بنات جنسها فتقصر حبها على زوجها ؟ .. كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزداد عشقهم للمرأة ان كانت ملك رجل اخر (٥٥) » . على أنه يمكن القول عموما بان اخلاق النساء كانت فى انجلترة خيرا منها فى فرنسا ، وأنه فى الطبقات الوسطى ، التى ظلت التقاليد البيورتانية فيها قوية ، أوشكت العفة أن تكون افراطا فى الاحتشام ، وقد تجد من النساء زوجات من الطراز الذى يحلم به الرجال - صبورات ، مجدات ، وفيات . وكان المعيار ذو الوجهين مفروضا ومقبولا . فكانت النساء المهذبات يسمعن الكثير من الحديث النابى ويقران فيلدنج وسموليت ، ولكن كان ينتظر منهن أن تحمر وجوههن خفرا مغريا ، وان يغشى عليهن فى لمح البصر .

وكان ينظر الى المرأة فى جميع الطبقات على أنها أدنى من الرجل بحكم الطبيعة وبقضاء لا سبيل الى رده . ولقد ارتضت هذه النظرة حتى الليدى مارى المتكبرة المتمردة ، ولو ساخرة كارهة :

« لست أحاول الآن المطالبة بمساواة الجنسين ، اذ لا شك فى أن الله والطبيعة قد ألقيا بنا فى مرتبة أحط ، فنحن جزء أدنى من الخليقة ، وعلينا اطاعة الجنس الأعلى والاذعان له ، وكل امرأة تسمح لغرورها وحماقتها أن ينكرا ذلك انما تتمرد على ناموس الخالق ونظام الطبيعة الذى لا ينازع (٥٦) » .

وكانت فترة حكم البيورتان قد أنزلت المرأة عن مقامها الذى ارتقت اليه أيام اليزابيث . وحكم أحد الطلاب بأنه « حوالى عام ١٧٥٠ كانت النساء فى انجلترة قد نزلن الى مستوى منحط جديد لم يكد يفضل وضعهن فى القرن الثانى عشر (٥٧) » .

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الى الدرك الأسفل . فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد الى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى . وكان موظف خاص يسمى « الحاجب » منوطا بالاشراف على القمار فى البلاط الملكى . وكان لعب الورق التسلية المفضلة للأغنياء والفقراء ، وندر أن برىء من المراهنة ، وكثيرا ما شابه الغش . ولم يكن من غير المألوف للمتبطل المتلاف من أبناء الطبقة العليا أن يكسب أو يخسر مائتى جنيه فى جلسة واحدة ، وقد خسر دوق ديفونشير ضيعته فى لعبة واحدة ؛ وكان اللورد تشسترفيلد يقامر باستهتار فيما بين المحاضرات التى يلقيها على ابنه ، وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عهد جورج الأول الى درجة لعلها لم تضارع بعده . وفتحت ملاعب القمار فى نادى هوايت ، وفى تشيرنج كروس ، وفى لستر فيلدز ، وفى جولدنز سكوير ، وفى باث . وفى محفورة للمصور هوجارث سماها « رحلة الفاجر » نرى رجالا ونساء يقامرون فى نادى هوايت ، ولا يعبأون بانذار بنبئهم بأن المبنى يحترق ، فلا بد من مواصلة معركة اللعبة الى نهايتها الحاسمة★ . وقد

★ احترق النادى الشهير عام ١٧٣٣ ، ولكنه رمم سريعا .

حظر جورج الثانى هذا القمار المنظم ، ولكنه اعتمد يانصيب الحكومة الذى كان قد تقرر فى ١٥٦٩ وعمر حتى ١٨٢٦ . وكانت تذاكر اليانصيب تباع للجمهور بكل وسيلة من وسائل الترويج ، واشتد الانفعال والتحمس لها الى حد اغرى الخدم بسرقة سادتهم ، والكتبة بسرقة أرباب عملهم ، طمعا فى نصيب من الغنيمة (٥٨) .

ولعل السكر كان اكثر انتشارا من القمار . وكانت الجعة بنوعيها (البيرة والمزر ale) هى الشراب الوطنى . وكان الرجل اللندنى يستهلك مائة جالون منها فى السنة ، أو ربع جالون فى اليوم ، باعتبارها اسلم والطف مذاقا من الماء . وخلق المناخ الرطب طلبا على الروم ، والبنش ، والبرندى ، والجن ، والكورديال ، والوسكى ، وكان النبيذ دواء مفضلا . وانتشرت الحانات ومخازن الخمور فى كل مكان ، وكان ١٫٣٥٠ بيتا من بين ٧٫٠٦٦ فى ابرشية هوبورن تبيع الخمر . واغضي ملاك الاراضي - والبرلمان اذن - عن تجارة الوسكى ، لأنها فتحت سوقا اضافية لشعيرهم وقمحهم (٥٩) ، وكان ثلث الأرض المنزرعة فى انجلترة تقريبا يزرع شعيرا . واخذ الوسكى يحل عند علية القوم محل النبيذ لأن الحروب المتكررة مع فرنسا عاقت التجارة مع بوردو واوبورتو ، وادخل الهولنديون والالمان الى البلاد تفضيل الخمور القوية . وهنا ، كما فى القمار ، ضربت الحكومة المثل للشعب . فقد روى عن هارلى ، رئيس وزراء المملكة آن ، انه كان يمثل بين يدى الملكة مخمورا . وكان بولنبروك يسهر احيانا الليل كله وهو يحتسي الخمر ، أما روبرت ولبول فقد علمه السكر أبوه ، الذى عقد النية على الا يراه مخمورا ابن له صاح (٦٠) .

وازعج الحكومة ولع الجماهير بشراب الجن . فقد زادت الخمور المقطرة فى بريطانيا من ٥٢٧٫٠٠٠ جالون فى ١٦٨٤ الى ٥٫٣٩٤٫٠٠٠ فى ١٧٣٥ ، دون ارتفاع مقابل فى عدد السكان ؛ لا بل ان الأطباء انذروا الحكومة بان شرب الجن قد زاد معدل الوفيات بسرعة فى لندن ؛ وعزت هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس الكثير من فقر العاصمة وجرائمها الى ذلك المسكر . وعلق باعة الجن بالتجزئة لافتات تعهدوا فيها لزبائنهم بأن يسكروهم نظير بنس ، وعرضوا عليهم النوم على حصر من القش مجانا فى قبو المؤونة .

وحاول الحكام المرتاعون حظر شرب الجن بفرض الضرائب . ففرض قانون أصدره البرلمان فى ١٧٣٦ رسما على الجن قدره عشرون شلنا للجالون ، واشترط دفع خمسين جنيها فى العام نظير الترخيص ببيعه . وقام الفقراء الظامئون باضطرابات عنيفة . وأفضى الحظر ، كما تنبأ ولبول ، الى تهريبه وتقطيره خفية والانجار به سرا . وارتفع عدد دكاكين بيع الجن الى سبعة عشر الفا ، وعدد الجالونات المقطرة الى نيف وسبعة ملايين ، واستشرت الجريمة . فتخلت الحكومة عن التجربة ، وخفض رسم الرخصة الى عشرين جنيها ، والضريبة الى بنس للجالون ؛ واغتبط الشعب وراح يشرب ما شاء . وفى ١٧٥١ افضت سلسلة من التدابير المعتدلة الذكية (كجعل الديون الصغيرة لتجار الخمر غير قابلة للالغاء أمام القضاء) الى تحسين خفيف (٦١) . وأثار الفيلسوف باركلى الموقف بتنديده بالطبقات العليا لما ضربوا لجماهير الشعب من مثل سيىء ، وبانذاره اياهم بأن « أمة تشتعل عند طرفيها لابد أن تحترق سريعا (٦٢) » .

كذلك كان المستوى الخلقى منحطا فى ميدان المال والأعمال ، فجنى بعضهم أموالا طائلة من التهريب ، والقرصنة ، واقتناص العبيد أو بيعهم . وشكا الناس من تلوث مياه التيمز بالأقذار والنفايات التجارية والبشرية ، ومن غش النبيذ بعصير التفاح وأرواح الحبوب ، ومن خلط الخبز بالشبّ والجير ، ومن تنضير بشرة اللحوم الكبيرة السن بالكيماويات الخطرة على الصحة والحياة . فلما بذلت محاولات للحد من هذه الاعمال تصايح أبطال التجارة مطالبين بالحرية وبحق « كل انسان .. فى العيش على طريقته دون قيد (٦٣)» .

وتدخلت الحكومة فى الحريات ، ولكن تدخلها كان أكثره لاكراه الرجال على الخدمات العسكرية . فلما أخفقت مختلف المرغبات المالية فى تزويد البحرية بالرجال ، جردت الدولة (من ١٧٤٤ فصاعدا) « كتائب تجنيد » لاقتناص الرجال أو تخديرهم ، أو لاقناعهم بالانخراط فى سفن صاحب الجلالة . وكان أيسر هذه الوسائل أسكار الضحية ، اذ كان فى الامكان وهو على هذه الحال أن يحمل على النزول

عن سنة أو اكثر من حياته . ذكر الأميرال فيرنون (١٧٤٦) أن هؤلاء الرجال ، بعد ان يؤتى بهم الى السفينة ، كانوا فى الواقع محكوما عليهم بالموت ، اذ لا يسمح لهم بتاتا بان تطأ اقدامهم البر ثانية ، ولكنهم ينقلون من سفينة الى اخرى .. دون اى اعتبار للمشاق التى يتكبدونها (٦٤) ». ويقول صموئيل جونسون « لا يرضي رجل بان يكون بحارا اذا كان له من الحيلة ما يكفى لأن يدخل نفسه السجن .. فالسجين يحظى بمكان وطعام احسن وبرفقة افضل عادة (٦٥) » . وكان اكثر البحارة الذين يجندون كرها ضعاف الاجسام والعقول ، ولكن النظام الصارم والانتقاء القاسي بامتحان النار والجلد (كما هو موصوف ومبالغ فيه بلا شك فى قصة سموليت « رودريك راندوم ») جعلا الباقين منهم على قيد الحياة اصعب المقاتلين فى البحر مراسا وأشدهم اعتدادا بأنفسهم .

وكانت القرصنة لا تزال تلقى الاغضاء عنها بوصفها ضربا من التجارة ، ولكنها أخذت تضمحل بازدياد قوة البحريات . أما تجارة العبيد فقد زكت ، وتنافست السفن الانجليزية والفرنسية والهولندية والبرتغالية على امتياز بيع الزنوج الأفريقيين للمسيحيين الأمريكيين . وبمقتضي معاهدة أوترخت (١٧١٣) نقلت اسبانيا عقد « الأزينتو »، الذى تمد بمقتضاه المستعمرات الاسبانية سنويا بـ ٤٫٨٠٠ عبد ، من فرنسا الى انجلترة . ومن بين ٧٤٫٠٠٠ عبد نقلوا الى امريكا فى سنة واحدة (١٧٩٠) نقل الفرنسيون ٢٠٫٠٠٠ ، والهولنديون ٤٫٠٠٠ ، والدنمركيون ٢٫٠٠٠ ، والبرتغاليون ١٠٫٠٠٠ ، والبريطانيون ٣٨٫٠٠٠ - وهو أكثر من نصف المجموع (٦٦) . يقول مصدر انجليزى وثيق « ان الانجليز وحدهم ، على اقل تقدير ، حملوا اكثر من مليونى زنجى الى امريكا فى الفترة بين ١٦٨٠ و ١٧٨٦ (٦٧) » . واقتنت بعض الأسر الانجليزية عبيدا من الزنوج للخدمة فى البيوت . واشتملت الصحف على وعود بدفع مكافآت لمن يعيد العبيد الآبقين ، وعرض اعلان « صبيا زنجيا يناهز الثانية عشرة .. للبيع (٦٨) » ، وكان العبيد يباعون فى باريس حتى سنة ١٧٦٢ ، وحتى البابوات كانوا يقتنون عبيدا من سفن تشغيل العبيد التركية من القرن السادس عشر الى الثامن عشر (٦٩) . وفى ١٧٢٧ بدأ الكويكرز حركة لانهاء مشاركة بريطانيا فى تجارة العبيد . وناصرهم ستيل وبوب ، ودعم المثوديون هذه الحرب

الدينية ، ولكن الحملة لالغاء الرق لم تتقدم تقدما يذكر قبل ١٧٧٢ .

كانت الأخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة . فلم يكد عمل ينجز دون رشوة ولكل موظف تقريبا ثمنه ، والمناصب تباع ، والأصوات فى البرلمان تشترى كالسلع سواء بسواء . وقد باع أعضاء البرلمان امتياز اعفاء رسائلهم من أجرة البريد ، وباع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم (٧٠) ، و « وضعوا العراقيل امام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان ، أو شراء أعضاء مجلس العموم (٧١) » . وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة rotten boroughs التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى الى البرلمان عددا من الممثلين بعدل العدد الذى أرسلته اقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت « أولد سارم » التى لا يسكنها انسان واحد ، ممثلين لها ، وكانت أمثال هذه الدوائر يتحكم فيها بسهولة ذوو الحسب أو المال . وكان رجال الأعمال ، توسلا لنفوذ سياسي مكافىء لسلطانهم الاقتصادى ، يشترون الترشيحات أو المرشحين للبرلمان بنحو ١٫٥٠٠ جنيه للمرشح (٧٢) . ويمكن القول على الجملة بان نصف القرن الذى نحن بصدده كان اقسي العهود فى التاريخ الانجليزى ، ومن العسير على المؤرخ أن يفسر كيف استطاعت بريطانيا أن تنهض من فساد ذلك العصر — حتى بلغت ذلك الصيت الذائع بامانة رجال أعمالها ونزاهة حكومتها .

على أنه كان هناك الكثير من لمسات العاطفة الرحيمة يتخلل انحطاط الاخلاق والسياسة . فهناك ملاجىء — وان كانت سيئة الادارة — للشيوخ والعجزة والفقراء ؛ وهناك طوائف حرفية كان المعلمون فيها آباء رحماء على صبيانهم ؛ وهناك أسر تؤوى الايتام وتربيهم ؛ وهناك جمعيات — تسمى « اندية الصندوق » — للمعونة المتبادلة فى أيام العسرة . وضربت انجلترة مثلا رائعا — هو الأول فى التاريخ الحديث — للبر الدولى حين اكتتبت بمائة الف جنيه للبرتغال ، حليفتها الاقتصادية لاغاثة منكوبى زلزال لشبونة الذى وقع فى ١٧٥٥ (٧٣) ، وقد فتح فى الفترة بين ١٧٠٠ و ١٨٢٥ مائة وأربعة وخمسون مستشفى ومستوصف جدد فى بريطانيا ، منها أربعة فى لندن فى جيل واحد

(١٧٠٠ - ٤٥) . وكان اكثر هذه المؤسسات تموله التبرعات الخاصة . وخير ما اسس منها فى النصف الاول من القرن الثـامن عشر مستشفى اللقطاء الذى نظمه الكبتن توماس كورام ، وقد صور هوجارث هـــذا الكبتن عام ١٧٤٠ صورة أهداها الى المستشفى ، رجلا ممتلىء البدن ، أبيض الشعر ، لطيفا ، يمسك بيمناه المرسوم الملكى ، وعند قدميه كرة ارضية ، ذلك أن كورام جمع ثروته ضابطا فى البحرية التجارية . فلما تقاعد هاله ارتفاع نسبة وفيات الأطفال فى لندن ، وكثرة الاطفال الذين يلقون فى العراء أو تهجرهم أمهاتهم دون مال للعناية بهم أو اســم أب يطلق عليهم ، واقنع كورام بعض نساء الطبقة العليا بتوقيع ملتمس بانشاء مستشفى للقضطاء ، وحصل من جورج الثانى على مرسوم والفى جنيه ، ولقى النداء الذى ناشد فيه الناس التبرع للمستشفى سخاء غير متوقع ، وتبرع هندل العظيم بأرغن وبموسيقى لحنـه « ا لمسّيا » التى عظمت قيمتها الآن ، وأدار حفلات موســيقية غلت عشرة آلاف جنيه . وفى ١٧٣٩ عهد الاوصياء الى تيودور جاكوبسن بتصميم مجموعة فسيحة من المبانى والملاعب أصبحت من أروع مشاهد لندن .

٥ - الجريمة والعقـاب

كان اهل انجلترة فى القرن الثامن عشر سلالة صلبـة تمرســت بالمشاق والفت العنف ، سلالة قادرة على مغالبة كل صــعب عســير الا الموت . ومن الامثلة على هذه الصفات أن عريفين اقتتلا بغير سلاح حتى مات كلاهما ؛ وأن رقيبين تبارزا حتى أصيب كلاهمـا بجــراح مميتة ؛ وأن جنديا استاذن فى الزواج من احدى مومسات الجيش فعوقب بمائة جلدة . ثم مثل فى الغد وظهره كله مثخن بالجراح أمام الضابط نفسه وأعاد الطلب ، فاجيب اليه هذه المرة . وفاخر قارع طبل بانه جلد ٢٦٠٠٠ جلدة فى الاعوام الاربعة عشر التى خدم فيها الجيش ، ثم جلد اربعة آلاف اخرى فى عام واحد (١٧٢٧) وافاق منها وهــو مبتهج . وقيل فى وصف حالته بعد قليل انه « صحيح معافى ، لا يكدره مكدر على الاطلاق (٧٤) » .

وكانت العقوبات الوحشية التى وقعت علناً مشجعا على انتشار

الوحشية بين الشعب . مثال ذلك ان قانونا الغى فى ١٧٩٠ كان يقضي على المراة التى تدان بخيانة وطنها او بقتل زوجها بالحرق حية ، ولكن العرف كان يبيح خنقها قبل ان تحرق (٧٥) . اما الرجـال المدانون بخيانة الوطن فيجذبون من على المشنقة وهم بعد احياء ، وتخـرج امعاؤهم وتحرق امام اعينهم ، ثم تفصل رءوسهم ويقطعون ارباعا . وعلقت المشانق فى كل احياء لندن ، وكانت الاجساد تترك على كثير منها لتتغذى عليها الطير . وقد يظل الرجل مشنوقا نصف ساعة قبل ان يموت . على انه كان من المالوف ان تخدر بالبرندى حواس المحكوم باعدامه ، واذا كان الجلاد عطوفا شد ساقيه المتدليتين ليعجل بموته .

واضفت قسوة المتفرجين والمجرمين على مناظـر الشـنق طابع المهرجان ، فالناس يصطفون على جانبى الطريق ليشهدوا المحكوم عليهم يركبون العربات الى تيبيرن ، وتبيع الاكشاك والباعة المتجولون الجن والخبز المخلوط بالزنجبيل والجوز والتفاح للجمهور المحتشد ؛ وينشد المغنون الجوالون الاغانى الشعبية دون ان يجيدوا اجادة الكبتن مكيث فى « اوبرا الشحاذ » . وكانت الجماهير ، التى لم تتحمس قط للقوانين او الشرطة ، ترفع الى مقام البطولة المجرمين الذين حالفهم التوفيق فى مغامراتهم ، او الذين حين امسكوا واجهوا المحاكمة والموت بالازدراء او الابتسامات . فجاك شـبرد ، و « روب روى » (وهـو روبرت ما كجريجور) ، ودك تيربن ، وجوناثان وايلد - هؤلاء كلهم ترعرعوا وازدهروا فى هذه الفترة . اما جاك فقد وشي به جوناثان وايلد للشرطة بعد ان كان يمارس السرقة فى لندن او قربها كل يوم تقريبا ، ففر ، وقبض عليه من جديد ، ثم فر ثانية ، وقبض عليه وهو يعاقر الخمر ، وشنق وهو بعد فى الثانية والعشرين على مرأى جمهور من آلاف مؤلفه يتوقعون منه ان يهرب حتى وحبل المشنقة يطوق عنقه . وقد روى ديفو واينزورث قصته فى روايات عادت عليهما بالربح ، ورسم السير جيمس ثورنهل صورته . اما تيربن فوزع النقود على المشيعين ليسـيروا خلف عربته الى المشنقة فى موكب مهيب ، ولكن ما اذاع صيته هو الرواية الخيالية التى كتبها اينزورث عن رحلة دك تيربن الشديدة الخطر على جواده من لندن الى يورك . كذلك خلد كتاب فيلدنج « حياة مسـتر جوناثان وايلد العظيم » ذكرى هذا الوغد على مر القرون . ومعظم

ذلك الهجو الشديد مكتوب على صورة قصص خيالية ، ولكن الخيـال هنا ليس أطرف من الواقع . فقد كان لجوناثان وجهان مثل جانوس ، ينظم اللصوص ويدير شئونهم ويستغلهم ، ويشترى بضائعهم المسروقة بالثمن الذى يفرضه ، ثم يشي بهم للقضاء اذا تمرد عليه شركاؤه . وفتح فى الوقت ذاته مكتبا لطيفا يستقبل فيه ضحايا السرقات ، وكان يعدهم لقاء مكافأة كبيرة بأن يرد لهم بضائعهم أو مالهم ، ومن حصيلة هذا كله يحتفظ بعدة خليلات ويعيش فى ترف قرابة خمسـة عشر عاما . ولكن ثراءه فاق حكمته ، فقبض عليه بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ، وشنق ، فابتهج جمهور غفير بشنقه (١٧٢٥) . وربما كان هو المثال الذى نسج على منواله مستر بيتشم فى « أوبرا الشحاذ » .

وساد العبث بالقانون المجتمع كله علوا وسفلا ، من النشال المهذب الى التاجر المهرب الى المبارز حامل لقب النبالة . وكان هناك مئـات المبارزات ، جرى بعضها على قارعة الطريق ، وبعضها فى هايد بارك او حدائق كنزنجتن ، ولكن اكثرها فى « حقل الاربعين خطوة » خلف قصر مونتاجيو (المتحف البريطانى الآن) . وندر ان كانت المبارزات قتالة ، لأن المسدسات كانت رديئة الصنع ، وقل من الرجال من استطاع تصويبها بدقة على ثلاثين خطوة ، واغلب الظن أن كثيرا من المقاتلين حرصوا على اطلاقها فوق رأس الغريم ؛ على أية حال كان الصلح يتم عادة بعد أول جرح . وكانت المبارزات غير مشروعة ، ولكن يغضى عنها بحجة انها تشجع على التادب فى الحديث . وندر أن اعتقل مبـارز الا فى الاصابات المميتة ، واذا استطاع الخصم الحى أن يثبت انه اتبع قواعـد اللعبة كان يفرج عنه بعد قضائه فترة قصيرة فى السجن .

وفى سنة ١٧٥١ نشر فيلدنج ، وكان يومها قاضيا ، « تحقيقا فى أسباب الزيادة الاخيرة فى عدد اللصوص ، الخ ، مشفوعا ببعض المقترحات لعلاج هذا الشر المتفاقم » . ولم يعز الزيادة فى اكثرها الى الفقر بل الى ظهور « الترف » بين الطبقات الدنيا ؛ فعامة الشعب لديهـم الآن من المال ما يتيح لهم ارتياد الحانات ، وحدائق اللهو ، والمسارح ، والمراقص التنكرية ، والاوبرات ، وهناك يلتقون بأشخاص خبروا الفجور وحذقوا

الجريمة . أما السبب الثانى فى رأى الروائى العظيم فهو الزيادة فى استهلاك الجن . يقول :

« ان شراب الجن هو القوت الرئيسي (ان جاز لنا أن نسميه كذلك) لأكثر من مائة الف شخص فى هذه العاصمة . وكثير من هؤلاء التعساء يترعون عدة أكواب من هذا السم خلال أربع وعشرين ساعة ، ومن سوء حظى أننى أرى وأشم أيضا كل يوم ما يخلفه هذا من آثار رهيبة (٧٦) » .

وأما السبب الثالث فهو القمار ، والرابع قصور القانون ، فقد ترك مهمة القبض على المجرمين لحراس أو خفراء :

« يختارون من بين أناس فقراء ، شيوخ ، عجزة ... يطلب اليهم وهم لا يحملون من السلاح غير عمود لا يكاد يقوى بعضهم على رفعه ، أن يؤمنوا أشخاص رعايا صاحب الجلالة وبيوتهم من هجمات عصابات أوغاد صغار السن ، شجعان ، أشداء ، مستهترين ، مدججين بالسلاح (٧٧) » .

وحتى اذا لم يرهب الحارس عنف اللصوص ، فان فى الامكان رشوته ، وكذلك الضابط الذى يرفع اليه بلاغاته ، وكذلك القاضي الذى ياتيه الضابط بمجرم . وكانت واجبات الشرطة فى لندن موكولة الى ١٫٠٠٠ ضابط ، و ٤٧٤ معاونا ، و ٧٤٧ حارسا . وبين القبض والادانة قام ٢٫٢١٤ محاميا بلندن بعضهم ذوو ثقافة قانونية ونزاهة معقولة ، وبعضهم لم يبلغوا هذا المبلغ تماما . قال الدكتور جونسن فى رجل برح الغرفة لتوه ، انه « لا يحب أن يغتاب انسانا ، ولكنه يعتقد أن الرجل محام (٧٨) » .

ولم يوافق فيلدنج على رأى كوك الذى ذهب الى ان « حكمة جميع الحكماء فى العالم ، لو اجتمعوا معا فى وقت واحد ، ما كانت لتعدل » فضائل الدستور الانجليزى . ولعله كان يسلم بأن ذلك الدستور

كما لاحظ فولتير ومونتسكيو قبيل ذلك ، دبر بطريقة تدعو الى الاعجاب حماية الفرد وممتلكاته من طغيان أى ملك ، ولعـــله كان يثنى على « الهابياس كوريس » ، ومحاكمـــة المتهمـين على يد محلفين ، وعلى مدارس الحقوق العظيمة فى جمعيات لندن القانونية . ولم يكن بالأمر الهين حقا ان يحرم اعتقال اى شخص انجليزى دون اذن قانونى ، او سجنه دون محاكمة ، أو عقابه دون ادانة من محلفين من نظـــرائه ، والا تفرض عليه ضرائب دون موافقة البرلمان ، وأن يكون فى استطاعته أن يجتمع مع زملائه شريطة الا يخل بالنظام ، وان من حقه ان يقول ما يشاء ، الا ان يكون ذلك تحريضا ، أو قذفا ، أو فحشا ، أو تجديفا . ولكن مشرعى انجلترة كانوا من الحرص الشديد على حماية الفرد من الدولة بحيث اخفقوا فى حماية المجتمع من الفرد . لذلك كان جهاز تنفيذ القانون ينهار امام تفشي الجريمة وتنظيمها .

وكان يقوم على تنفيذ القانون العام قضاة صلح ، يمكن أن تستانف قراراتهم امام قضاة يقضون فى وستمنستر أو يسافرون ستة اشهر فى السنة ليعقدوا جلسات دورية فى مدن المقاطعات . وكان هؤلاء القضاه يتمتعون بمناصب مدى الحياة ، ويبدون مستوى معقولا من النزاهة . وبقيت المحاكم الكنسية على قيد الحياة وان اقتصرت على نظر القضايا غير الجنائية التى يتهم فيها الكهنة فقط ، او الفصل فى صحة الزيجات ، او تنفيذ الوصايا . وكان لمحكمة الأميرالية اختصاص على القضايا البحرية دون غيرها . وفوق هذه المحاكم كانت تقوم المحكمة العليا التى يراسها قاضي القضـــاة . اما المحكمة العليا للبلاد فهى البرلمان ذاته ، يحاكم مجلس العموم عامة الناس ومجلس اللوردات النبلاء . وكانت المساواة امام القانون لا تزال ناقصة ، لأن النبلاء كانوا عادة ينجون من العقاب . فقد اعدم ايرل فررز الرابع عام ١٧٦٠ لقتله وكيله ، ولكن حين حوكمت دوقـــة كنجـــزتن امام مجلس اللوردات فى ١٧٧٦ وادينت بتهمة الزواج برجلين فى وقت واحد ، أطلق سراحها دون عقاب سوى تغريمها الرسوم . وظلت اللاتينية لغة المحـــاكم حتى سنة ١٧٣٠ حين حلت الانجليزية محلها ، الامر الذى تالم له بلاكستن أشد الألم .

وفى محاكمات الجنايات الكبرى (ومعظم الجنايات كانت كبرى)

كان يسمح للمتهم بان يوكل محاميا اذا كان ميسور الحـال ، وللمحامى أن يستجوب شهود الادعاء ، ولكن لم يكن مسموحا له أن يوجه خطابه الى المحكمة ، فهذا متروك للسجين ، الذى كثيرا ما كان ضعف بدنه أو عقله يعجزه عن تقديم دفاعه . فاذا برىء رد الى السجن حتى يدفـع كل « البقاشيش » التى يفرضها عليه الحراس لقاء خدماتهم ؛ وقبل أن يلغى هذا النظام فى ١٧٧٤ كانت هناك عدة حالات لرجال ماتوا فى السجن بعد أن برئت ساحتهم . أما اذا أدين السجين فانه يواجه قانون عقـوبات من أقسى ما عرف فى تاريخ القضاء .

لقد كان هذا القانون يفضل ما سبقه ، كما يفضل الاجراءات المتبعة فى القارة الاوربية ، بتحريمه التعذيب والعقاب على الدولاب ، ولم يعد يجدع الانوف أو يصلم الاذان . ولكن فيما عدا ذلك كان يتسم بكل الوحشية التى كان الانجليز الشديدو المراس يومها يرونها ضرورية للسيطرة على جموح الانسان الفطرى . فاذا كانت العقوبة هى الجلد فى ذيل عـربة تجر فى الشوارع ، كان منفذها أحيانا يتلقى مبلغا اضافيا ، يجمع من المتفرجين ، لكى يضاعف من شدة ضربات سوطه (٧٩) . وكان السجين الذى يرفض الاجابة فى تهمة كبرى يطرح بحكم القانون على ظهـره عاريا فى حجرة مظلمة ، وتوضع أثقال من الحجر أو الحـديد على صدره الى أن يعصر عصرا أو تزهق روحه (٨٠) ، على أن هذا القانون لم ينفذ بعد ١٧٢١ ، ثم ألغى فى ١٧٧٢ .

وطوال القرن الثامن عشر أضافت قوانين أصدرها البرلمـان الى عدد الجرائم التى يعاقب عليها القانون بالموت . ففى ١٦٨٩ كان عددها خمسين ، وفى ١٨٢٠ ارتفع الى ١٦٠ . فالقتل ، والخيانة ، والتزييف وحرق الممتلكات عمدا ، وهتك العـرض ، واللواط ، والقرصـنة ، والتهريب المسلح ، والتزوير ، وتدمير السفن أو اشعال النار فيها ، والتفليس بالتدليس ، وقطع الطريق ، والسطو على المنازل ، وسرقة أكثر من اربعين شلنا ، وسرقة سلع من المتاجر تزيد قيمتها على خمسة شلنات ، وتشويه الماشية أو سرقتهـا ، واطلاق النـار على موظف الضرائب ، وقطع الاشجار فى شارع أو متنزه ، واحراق غيط غلال ، وارسال خطابات التهديد ، واخفاء موت زوج أو طفل ، والاشـتراك فى

حادث شغب ، واطلاق النار على الارانب ، وهدم بوابة طريق رئيسية والفرار من السجن ، وتدنيس المقدسات ـ هذه كلها ، وعشرات غيرها ، كانت تعد جرائم كبرى ايام جورج الاول والثانى والثالث . وقد عكست هذه القوانين تصميم البرلمان على حماية الملكية . وربما كانت الى حد ما النتيجة ـ والسبب ـ لما شاع بين الناس من تمرد على القانون ووحشية ولعلها اعانت على تكوين ما يتصف به الشعب البريطانى اليوم من عادات التزام القانون . وخفف من صرامة القانون رفض القضاة او المحلفين غير مرة أن يدينوا المتهمين ، أو ابطال الاتهام لخطأ فنى ، او تحديد قيمة سلعة مسروقة تحديدا تعسفيا باقل من المبلغ الذى يجعل السرقة جناية كبرى . وفى وقت الحرب قد يصدر عفو عن المذنبين شريطة ان ينخرطوا فى الجيش أو البحرية .

اما عقاب الجرائم الاقل خطرا فكان السجن ، أو المشهرة ، او الجلد ، أو الاشغال الشاقة فى الاصلاحيات ، أو النفى الى المستعمرات . وقضى قانون صادر فى ١٧١٨ ببيع المسجونين المحكوم عليهم الى متعهد يشحنهم بالمراكب على نفقته الى ميريلاند و فرجينيا عموما ، ويبيعهم بالمزاد عادة « الى زراع التبغ نظير قضائهم المدة المحكوم بها عليهم » واسفر سوء حال السجناء وهم فى الطريق عن نسبة عالية من الوفيات ، وعن انهاك الباقين منهم انهاكا يعجزهم عن العمل حينا . وقدر احد هؤلاء المتعهدين بانه يخسر سبع شحنته البشرية فى الرحلة المتوسطة (٨١) . ولم يقض على هذه التجارة غير حرب الاستقلال الامريكية .

وكثيرا ما كان ترحيل المذنب يفضل على سجنه ، لان السجون كانت سيئة السمعة بسبب قسوتها وقذارتها . فقد كان السجين الجديد يكبل بمجرد دخوله بالاغلال التى تتفاوت ثقلا بتفاوت ما يدفعه للحارس . اما فراشه فمن القش . واما طعامه فرطل من الخبز فى اليوم ، الا اذا استطاع استكماله بالهدايا من الخارج . واذا استثنينا سجن نيوجيت ، وجدنا انه لم تبذل محاولات تذكر لتنظيف السجون . فكانت الاوساخ والجراثيم تتراكم فيها فتعدى كل سجين تقريبا بما سمى «حمى السجن» ـ وهى فى الغالب التيفوس أو الجدرى . وذهب جونسن الى أن ٢٥٪ من السجناء كانوا يموتون بـ « حميات عفنة » . وبلغ نتن العفونة والمرض مبلغا كان يحمل القضاة

والمحلفين والشهود والمتفرجين على أن ينشقوا مرارا نشقات من الكافور أو الخل أو الاعشاب العطرية لتغلب على الرائحـــة الخبيثة . وفى مايو ١٧٥٠ جيء بمائة سجين من نيوجيت ليحاكموا فى « الأولد بيلي » وهى محكمة جنايات لندن الكبرى . وبلغ من خبث الحمى التى افشوها أن أربعة قضاة من الستة الذين نظروا القضية ماتوا ، ومات من المحلفين وصـــغار الموظفين اربعون ، وأمرت المحكمة بعد هذا الدرس بأن يغســل جميـــع السجناء القادمين للمحاكمة بالخل ، وأن توضع أعشاب زكية الرائحة فى قفص المتهمين (٨٢) .

وكان الرجل الذى يقاضي بسبب الدين ، ويدان ، ويعجز عن الوفاء بدينه أو لا يرغب فى الرفاء به ، يودع مثل هذا السجن حتى يوفى الدين أو حتى يسحب دائنه الدعوى . وكان الدائن ملزما بحكم القانون بدفـــع اربعة بنسات فى اليوم مساهمة فى اعاشة سجينه ، ولكنه اذا لم يفعل لم يكن امام المدين سبيل الا مقاضاته ــ وهذا يكلفه مالا . على أنه اذا استطاع الحصول على نقود من خارج السجن كان فى امكانه رشوة الحارس وغيره ليسمحوا له بالتمتع بفراش وطعام افضل ، وبحريات أرحب ، وبالائتناس بزوجته ، لا بل بقضاء اجازة فى المدينة بين الحين والحين . أما المدين المفلس فقد يموت جوعا موتا بطيئا من ضآلة جرايته من الخبز اذا عجز عن شراء الطعام . وقد قدر صموئيل جونسن أن خمسة آلاف سجين من كل عشرين الف مفلس يســـجنون فى الســـنة فى المتوســـط ، يموتون من الحرمان (٨٣) . وهكذا لم تجد انجلترة وسيلة اكثر رفقا لحماية طبقـة رجال الأعمال الصاعدة من الاقتراض المستهتر أو الافلاس بالتدليس .

وارتفعت بعض الاحتجاجات الخفيفة على صرامة قانون العقوبات . ولاحظ جونسن ، الذى لم يكن بالرجل العاطفى ، فى ١٧٥١ خطر اعتبار هذا العدد الغفير من الجرائم جرائم كبرى فقال : « ان تســـوية السرقة بالقتل ... معناها التحريض على اقتراف جريمة أكبر منعا لاكتشـــاف جريمة أحقر (٨٤) » . وظهرت اقوى الانتقادات لادارة السجون فى روايات فيلدنج وسموليت وفى رسوم هوجارث . وقد لطف من قسوة هذا النظام تلطيفا متواضعا جيمس أوجلثورب ، الذى تكشف حياته العملية المنوعة النشيطة عن الجانب الانبل لجون بول . ففى ١٧١٤ ترك الكلية وهو

فى الثامنة عشرة لينخرط فى جيش يوجين أمير سافوى ، وقاتل فى عدة معارك ضد الترك . فلما عاد الى انجلتره انتخب عضوا فى البرلمان . واذ كان له صديق سجن بسبب الدين ومات فى سجنه بالجدرى الذى أصابه فيه ، فقد اقنع مجلس العموم بتعيين لجنة - عين على رأسها - للتحقيق فى احوال سجون لندن . وافزع القذر والمرض والفساد والظلم الذى أماط التحقيق اللثام عنه ضمير انجلتره لحظة . فرفت بعض الحراس الذين وجه اليهم أكثر اللوم ، وخففت بعض اللوائح الجديدة من المفاسد القديمة ، ولكن معظم المساوىء بقى على حاله ، وكان على الاصلاح الحقيقى للسجون ان ينتظر مجىء جون هوارد والربع الأخير من القرن الثامن عشر . واتجه اوجلثورب الى الهجرة وسيلة لتخفيف وطأة الفقر فى انجلتره . ففى ١٧٣٣ أسس مستعمرة جورجيا ، وعمل فترة واليا عليها ، فحظر استيراد العبيد ، ورحب بالمورافيين ، وجون ويسلى ، واللاجئين البروتستنت من النمسا . ولما عاد الى انجلتره والبرلمان ، حصل على قانون يعفى المورافيين الانجليز من حلف اليمين او حمل السلاح . واصبح الصديق الحميم لجونسون ، وجولدسمث ، وبيرك ، وعمر الى التاسعة والثمانين . وتوج الشاعر بوب هامته ببيتين قال فيهما « ان انسانا يدفعه حب الخير الشديد سيطير مثل أوجلثورب من قطب الى قطب (٨٥) » .

٦ - آداب السلوك

ظل الرجال الذين يتنزهون فى الحدائق العامة او فى بل مل - كما كانوا أيام اليزابيث او عودة الملكية - هم الجنس الأفخم هنداما . يرتدون - فى غير العمل أو البيت - قبعات مثلثة الأركان ممالة ، تزهو غالبا بالشراريب أو الأشرطة او العقد ، ويعقصون غدائرهم بـ «فيونكات» جميلة خلف العنق ، أو يغطون رءوسهم بباروكة مبدرة . وكانت ستراتهم الجميلة التى تحدث حفيفا حول ركبهم تزهو بأزرار قصد بها أن تبهر الناظر اكثر مما تربط السترة ، وكانت الأكمام المصنوعة من القماش المقصب الفاخر تعلن عن ثراء لابسها أو طبقته . واجتذبت صداريهم المزوقة الانظار بألوانها الفاقعة - الصفراء أو البرتقالية أو القرمزية أو القرنفلية أو الزرقاء - وتدلت منها دلاية ساعة من الذهب على سلسلة ذهبية .

وكانت قمصانهم المصنوعة من الكتان الرفيع تغطى حواشيها باهدابه تخفى ملابس داخلية من الفانلا ، وكانوا يطوقون أعناقهم فى تانق بالاربطة (الكرافتات) المصنوعة من شاش « اللون » (وهو قماش مستورد من لاون بفرنسا) ، ويثبتون بنطلونات الركوب القصيرة بمشابك عند ركبهم وبثلاثة أزرار فى الخصر ، وثلاثة مخفاة فى لسان يغطيها . أما جواربهم الطويلة فهى عادة حمراء اللون ، ولكنها قد تكون من الحرير الابيض فى المحافل الرسمية . واقتضى الزى فى ١٧٣٠ أن تكون أحذيتهم حمراء عند الاصابع والكعب . على أن فتى العصر كان برغم هذا الجهاز كله يحس أنه عريان اذا لم يتقلد سيفا . فلما صعدت الطبقات الوسطى فى سلم المجتمع استبدلت بالسيوف العصي التى كانت تتوج عادة بمعدن نفيس وتنقش نقشا بديعا ، ولكن بما أن الشوارع كانت لا تزال محفوفة بالخطر ، فان العصا كثيرا ما احتوت سيفا . وكانت المظلات قد دخلت الصورة فى أواخر القرن السابع عشر ، ولكنها لم تعم حتى ختام الثامن عشر . واقتضى الركوب فى الحدائق العامة أو خلال الصيد بالكلاب ارتداء ازياء خاصة طبعا ، وقد حاول الشبان المغالون فى التانق (وكانوا يسمون المكرونى) جاهدين لفت الانظار بالاسراف فى الزينة أو التلون . وفريق آخر سمى « سلوفينز » غالوا فى الظهور بعادات رثة وثياب مهملة ، فنكشوا شعورهم بعناية متمردة وتركوا بنطلوناتهم دون ربطها بالمشابك ، وتباهوا بالوحل على أحذيتهم ، اعلانا لاستقلالهم ودليلا على أصالة التفكير .

أما النساء فكن اذا طلعن على الناس يلبسن كما نتخيلهن فى شبابنا الدهش ، حين كان جسد الانثى سرا غامضا مبهرا عزيز الرؤية . وكانت تنوراتهن الكثيرة الوبر تنفخها عادة أطواق ترفعها فى خفة من خطوة الى خطوة وتكشف كشفا خاطفا عن كعوب متلألئة واقدام رشيقة . وكانت الاطواق التى قد تمتد تسع ياردات حول الجسم سدودا ، والمشدات تروسا ، فتطلبت غزوات الحب كل حماسة الفارس ينفذ الى الدروع ويتسلق الاسوار ، وكان هذا الوضع احفز لخيال الشعراء . وضاع بعض ما لشعر المراة من بريق وبهاء فى الطبقات المقواة التى علت فوق راسها علوا اقتضي حمايتها من أن تحرقها الثريات . واخفيت وجوه النساء وراء الغسولات والطلاءات ولصوق التجميل والمساحيق والحواجبه

المتحركة ؛ وجندت كل جواهر الشرق لتزين شعورهن وآذانهن ونحورهن واذرعتهن وثيابهن واحذيتهن . وكانت المرأة العصرية ، من قبعتهـــا الشامخة وغدائرها المعطرة حتى حذائها الحريرى المرصع بالاحجـــار الكريمة ، تلبس لتطيح بأى تردد من جانب الذكور المحدقين بها . وفى عام ١٧٧٠ كانت فنون التبرج قد بلغت من السحر حدا حمل البرلمان فى نوبة مرح على اقرار قانون قصد به حماية الجنس الطائش المتهور :

« كل النساء ـ أيا كان عمرهن أو مقامهن أو مهنتهن أو طبقتهن ، وسواء كن عذارى أو صبايا و ارامل ، اللاتى يخدعن أو يغوين أو يوقعن فى الزواج ـ ابتداء من هذا القانون وبعده ـ أى ذكر من رعايا صاحب الجلالة بالعطور او الطلاء أو دهانات التجميل أو الاسنان الصناعية أو الشعر المستعار أو الصوف الاسبانى أو الكورسيهات الحديدية أو الأطواق أو الأحذية العالية الكعوب الخ ، يقعن تحت طائلة العقاب بمقتضى القانون الذى يطبق الآن على السحر وما أشبه من جنح ، ويصبح الزواج بمجرد ادانتهن باطلا (٨٦) » .

وحاولت القوانين المنظمة للانفاق جاهدة أن تحد من الغـــلو فى الانفاق على اللباس ، ولكن العرف قضى على جميع البريطانيين المخلصين بارتداء ثوب جديد فى عيد ميـــلاد الملكة كارولين ، التى لبست عنـــد تتويجها ثوبا تكلف ٤٠٠,٠٠٠ر٢ جنيه ـ اكثرها احجار كريمة مستعارة .

وكان البيت مكانا يستطيع المرء فيه ان يخلع كل ملبس عـــسير يقتضيه الظهور ، فيرتدى فيه اى شيء أو اقل القليل من الثيـــاب . ولم تكن النوافذ معينة على الفضول لأن عددها خفضـــه قانـــون الى خمس ، وفرض على المزيد ضريبة باعتباره ترفا . وكان داخل البيوت مظلما كتما لم يصمم ليساعد على التنفس . اما الاضاءة فبالشموع ، وهى عادة لا تزيد على شمعة فى وقت واحد لكل اسرة ؛ ولكن الأغنياء كانوا ينورون غرفهم بالثريات المتالقـــة وبالمشاعل الزيتيـــة . وفى قصور الموسرين كانت الجدران تجلد بخشب القرو ، والسلالم تصنع من الخشب الضخم والدرابزينات المتينة ، والمدفآت من الرخام الفاخر ، والكراسي تحشي بالشعر ، وتنجد بالجلد . اما الاثاث فمصمم بالطراز

« الجورجى » الثقيل ، تتشابك فيه النقوش ويتلألأ بالتغشية بالذهب . وحوالى ١٧٢٠ أدخل خشب « المجنة » من جزر الهند الغربية ، وكان أصلب من أن تنفذ فيه الأدوات المستعملة آنذاك ، فصنعت أدوات أحدّ ، وسرعان ما أبدع الخشب الجديد أروع قطع الأثاث فى البيوت الانجليزية .

وكانت البيوت تدفأ بحرق الفحم فى المواقد و الافران المكشوفة أو حرق الخشب فى مدفات واسعة . وكان هواء لندن غائما بالدخان . واصبح تنظيف البيوت مهمة عسيرة ولكن لا مناص منها بسبب ما يتهددها دائما من غبار وسناج . واعتبر الفرنسيون اعداءهم الانجليز احفل الشعوب بنظافة بيوتهم بعد الهولنديين . كتب نيكولا دسوسير فى ١٧٢٦ بقول :

« لا يمضي اسبوع الا والبيوت المعننى بها تغسل مرتين فى الايام السبعة علوا وسفلا ، لا بل تدعك معظم المطابخ والسلالم والمداخل كل صباح . وينال الأثاث كله ، خصوصا آنية المطبخ جميعها ، أعظم قدر من النظافة . وحتى المطارق الكبيرة والاقفال التى على الابواب تدعك حتى تلمع (٨٧) »

وهذا برغم غلاء الصابون وقلة الماء . أما غرف الاستحمام فكانت ترفا لا يستمتع به غير الاقلين ، وكان أكثر الناس يستحمون بالوقوف فى حوض ورش الماء على أجسادهم .

وكان العامة ينفقون أكثر ساعات البيت وأوقات الصحو فى المطبخ يلوذون فيه بالموقد الكبير ، فيأكلون ويتجاذبون الأحاديث واحيانا ينامون فى المطابخ لأنها واسعة جدا . أما حجرات الطعام فللمناسبات الخاصة . والغداء عند جميع الطبقات يكون بعد الظهر ، فهو عند الطبقات الوسطى فى الساعة الثانية أو الثالثة ، وعند الأغنياء فى الخامسة أو السادسة ، فالحال يومها هى الحال اليوم ، كلما كثر مالك طال انتظارك للغداء . وكانت النساء فى البيوت العصرية يبرحن القاعة اذا فرغن من الطعام ، لأن الرجال يبدءون عندها الشراب والتدخين وشرب الأنخاب وقص الحكايات . وكان الغداء وافرا ، ولكنه كان أول ما يتناوله بريطانى المدينة من طعام بعد الفطور وتصبيرة فى الحادية عشرة صباحا . وقد أدهش الفرنسيين مقدار الطعام

الذى ياكله الانجليزى فى جلسة واحدة . وكان معظم الطعام فى الطبقتين العليا والوسطى من اللحم ، اما الخضر فزخرف لا يؤبه به ؛ والبودنج الدسم هو التحلية المفضلة والشاى شراب الجميع وان كان ثمن الرطل منه عشرة شلنات . وكان عشاء التاسعة مساء مسك الختام لمنجزات اليوم .

وكان اكثر الانجليز يلوذون بامان بيوتهم فى الليل ، ويتسلون بالحديث والشرب والشجار والقراءة والموسيقى والرقص والشطرنج والداما والبليارد والورق . قالت دوقة ملبره « بربك لا تحدثنى عن الكتب فكل ما اعرف من كتب هم الرجال والورق (٨٨) » . وكان الأساقفة والقساوسة ، وحتى الوعاظ المتزمتون من اتباع المذاهب المنشقة على الانجليكانية ، يلعبون الورق ، وكذلك الفلاسفة ، فندر ان مضى هيوم الى فراشه دون أن يلعب دورا من الهويست (وهو البردج الآن) . وفى ١٧٤٢ نسق أدموند هويل قوانين الهويست فى « رسالة موجزة » وبعدها وجب أن تلعب اللعبة « وفق قوانين هويل » ، وذلك حتى عام ١٨٦٤ . وكانت الحيوانات البيتية الأليفة ضرورة فى الأسرة ، ولا تقتصر على الكلاب والقطط ، بل قد تجد هنا وهناك نسناسا أو اثنين (٨٩) . وكل امرأة تقريبا تربى الأزهار ، ولكل بيت تقريبا حديقة .

وجعلت انجلترة من تصميم الحدائق غراما قوميا ، وهى التى أغدقت عليها الطبيعة نعمة المطر حتى ضاقت به . ففى عهد تشارلز الثانى كانت الحدائق الانجليزية تنسج على منوال النماذج الفرنسية - لا سيما فرساى - ، فتصمم الحدائق « النظامية » على خطوط هندسية ، سواء المستقيمة أو المستطيلة او نصف القطرية او الدائرية ، وبوفر لها الأفق الجميل والمنظور الرائع (وقد دخلت هذه الألفاظ الثلاثة perspective, vista, picturesque اللغة الانجليزية فى القرن السابع عشر) ، والأشجار ومنابت الشجيرات ، والسياجات المقلمة فى خط منسق ، والتماثيل الكلاسيكية الموزعة توزيعا متناسقا . وكانت حدائق اللهو بفوكسهول وريناج تصمم على هذا النحو ، ونستطيع ان نجد عينة من هذا الطراز النظامى اليوم فى هامتن كورت . ومع أن الطراز كان منسجما مع أدب « العصر الأوغسطى » الكلاسيكى الجديد ، فان خير

ممثلى ذلك العصر من الادباء ، وهما اديسون وبوب ، تمردا على الحديقة النظامية ، والحا بأدب فى المطالبة بـ « حديقة طبيعية » ، تترك على الاقل جزءا من سخاء الطبيعة وخصبها دون تشذيب او تهذيب ، وتولد المفاجآت البهيجة باحتفاظها بشذوذات الطبيعة غير المتوقعة . وشاركت التاثيرات الصينية فى هذا التمرد ، فحلت هياكل الباجـودا محـل التماثيل فى بعض الحدائق ، وبنى دوق كنت فى حدائقه بكيو بيتـا لكونفوشيوس . وكامنت الحديقة الطبيعية انعكاسا لطومسـن وكولنز العاطفيين اكثـر من اديسـون المحتشـم وبوب المتـأنق المرتب ؛ وشاركت هذه الحديقة « شعراء الوجدان » فى سوبرانو « رومانسي » لباس كلاسيكى . واتفق بوب وطومسن فى اطراء الحدائق التى صممت على ضيعة « ستو » التى يملكها رتشرد تمبل ، فيكونت كوبم . وكان تشارلز بردجمان قد بداها على تصـميم نظامى ، فاعاد وليم كنت ولانسلوت « كيبابليتى » براون تشكيلها وفق نمط طبيعى ، فاصبحت حديث هواة فلاحة البساتين فى انجلتره وفرنسا ، وظفرت بثناء جان جاك روسو .

ومن وراء الحدائق انسابت النهيرات يجدف فيها ركاب الزوارق ويحلم عندها هواة الصيد الكسالى باقتناص السمك ، والغابات يطلق فيها الرجال رصاصهم على الديوك البرية او القطـا او الحجـل او الدجاج البرى ، أو يتبع فيها الصيادون ذوو الأردية القرمزية كلابهـم ليلحقوا بالثعلب المحاصر فى ركـن او الارنب البرى المرهـق . اما البريطانيون الاقل يسارا فيتسلون بالكريكت والتنس والفايف (كرة اليد) والبولنج (الكرات الخشبية) وسباق الخيل ، وقتال الديكة ، وتحريش الكلاب بالدببة ، ومباريات الملاكمة - بين النسـاء أو بين الرجال على السواء . وكان المتكسبون بالملاكمـة أمثـال فج وبايبر معبودى كل الطبقات ، يجتذبون الى الحلبـة الحشـود الكبيرة ، ويتلاكمون - الى عام ١٧٤٣ - بقبضاتهم عارية بغير قفازات ؛ ثم أدخل استعمال قفازات الملاكمة ، ولكن سنين كثيرة انقضت قبـل أن يغير المتفرجون رأيهم فيها ، وهى انها ليست سوى وسيلة مخنثة لا تليـق بجون بول . وكان من الملاهى التى اعلن عنها فى لندن فى ١٧٢٩ - ٣٠

« ثور هائج ترشق فيه الصواريخ ويطلق حرا » فى حلبة ، و « كلب ترشق فيه الصواريخ من فوقه ، ودب يطلق فى الوقت ذاته ، وقط يربط الى ذيل الثور (٩٠) » . وفى لعبة سموها « قذف الديوك » كان ديك يربط الى عمود ، ثم يقذف بالعصي من بعيد حتى يموت . وكانت احب مباريات الديكة الى الشعب تلك التى تطلق فيها مجموعة منها تصل الى ستة عشر ديكا على مجموعة اخرى معادلة حتى يقتل كل الديكة فى احد الجانبين ، ثم تقسم الديكة المنتصرة الى معسكرين متقاتلين ، يقتتلان حتى يفنى جميع الديكة فى أحدهما ، وهكذا دواليك حتى يموت الجميع الا ديكا واحدا . وكانت الاقاليم والمدن والقرى تحرش ديوكها بعضها ببعض بوطنية رفيعة ، وقد أطرى كاتب لطيف هذه الرياضات باعتبارها معادلا اخلاقيا للحرب (٩١) . وكانت كل الرياضات تقريبا تشفع بالمراهنات .

أما الذين لم ترقهم هذه المناظر فكان فى وسعهم أن يلتمسوا التسلية فى فوكسهول أو رينلاج ، ففى حدائقهما الظليلة يستطيعون لقاء شلن ان يستمتعوا بما تستشعره الجماهير من دعة وامان شريطة أن يحرصوا على جيوبهم ، هناك يستطيعون أن يرقصوا أو يشاركوا فى الحفلات التنكرية ، ويجلسوا تحت اغصان مضاءة بالمصابيح ، او يرشفوا الشاى ويرقبوا سيدات المجتمع وفتيان العصر ونجوم المسرح العابرين بهم ، ويتطلعوا الى الصواريخ النارية أو الالعاب البهلوانية ، ويستمعوا الى الموسيقى الشعبية ، ويتناولوا الطعام فى أبهة رسمية ، أو يلتمسوا المغامرات فى ازقة العشاق المتوارية عن الانظار فى شكر وعرفان . وفى رينلاج ، تحت سقف قاعة « الروتندا » الكبرى ، كانوا يستطيعون أن يرقوا بانفسهم الى موسيقى اسمى فى وسط قوم من طبقة أوجه . كتب هوراس ولبول فى ١٧٤٤ يقول « فى كل ليلة أذهب الى رينلاج التى هزمت فوكسهول هزيمة ساحقة ، فما من انسان يذهب الى غيرها ، وكل الناس يذهبون هناك (٩٢) » . وكانت فوكسهول ورينلاج تغلقان ابوابهما شتاء ، ولكن الانهار قد تتجمد ، وهنا تزدهر رياضات الشتاء . وحدث فى عيد ميلاد ١٧٣٩ أن تجمدت الانهار حتى التيمز ، وأبدى اللندنيون روحهم العالية بتنظيم كرنفال من الرقص والاكل على الجليد ، واستمتع بعضهم بنشوة ركوب العربات على النهر من لامبث الى كوبرى لندن (٩٣) . وأخيرا كان هناك المهرجانات الكبيرة حيث يلتقى المرء

بكل العالم من غير اصحاب الالقاب ، ويستمتع بشتى المشاهد من صندوق الدنيا الى الرجال الطائرين .

اما آداب السلوك ، فاننا اذا استثنينا بعض النساء المثقفات ، وجدنا فيها الخشونة وفحش الكلام . وسيرينا المصور هوجارث حياة العامة ، ولكنه لن يرينا حديثهم . فالعاهرات ، والفساق ، وسائقو عربات الجر ، والمراكبية ، والجنود والبحارة ، كلهم كانوا أساتذة فى اللعن وفحش القول ، وقد خلد باعة السمك فى بلنجزجيت (واللفظ معناه لغة السوقة) ذكرى سوقهم ببذاءتهم التى لا مثيل لها . وكان الحديث فى الفنادق والحانات اقل مرحا ولكنه متحرر الى حد البذاءة وكان الرجال حتى فى بيوتهم يروعون النساء بقصصهم وسبابهم وانخابهم . ولم تكن السيدات انفسهن يترفعن عن الشتيمة العنيفة او يتورعن عن القباحة المرحة .

اما فى مشارب القهوة والاندية فاللغة اكثر تهذيبا . وقد كتب ستيل وسويفت وفيلدنج وكوبر وجونسن عن الحديث ، بوصفه فنا مهذبا . وفى وسعنا أن نتصور الرجال فى اجتماعاتهم التى يحرصون على اقصاء النساء عنها ، يرشفون قهوتهم أو جعتهم ، ويترعون خمرهم ، ويدخنون بيباتهم ، ويتجادلون حول المناقشات البرلمانية ، وحول شراء روبرت ولبول للاصوات ، والسياسة المنكرة التى ينتهجها

اولئك « الكلاب الفرنسيون » وراء المانش . وكان الضحك عميقا فى البطون ، عاليا فى الحناجر ، رغم مناشدات الاخلاقيين امثال شافتسبرى وغيرهم ممن لا نزعة اخلاقية تميزهم مثل تشسترفيلد ، بوجوب ترك الضحك للوضعاء ، وبان يخفف حتى يصل الى مجرد الابتسامة (٩٤) . أما تعاطى النشوق او السعوط ، الذى ورد ذكره أول مرة فى ١٥٨٩ ، فكان قد بات شعيرة مرعية عند الجنسين ، وقد ظن القوم لن للنشوق (وهو التبغ المسحوق) قيمة دوائية كالقهوة ، فالعطس الذى يحدثه يطهر المسالك الانفية ، ويشفى من الصداع ، والبرد ، والصمم ، والخمول ، ويهدىء الاعصاب ، ويصلح الدماغ . ولم ير شخص ، رجلا كان أو امرأة كامل الهندام بغير علبة النشوق ، وعلى تلك الحاشية الملحقة

بصاحبها (أى العلبة) أفرغ الصائغ والجواهرى ، وصانع المينـــا ، ورسام المنمنمات ، ارق ما جاد به فنهم .

وكانت مشارب القهوة الثلاثمائة فى لندن مراكز للقراءة كما كانت منتديات للسمر . فقد اشتركت فى الجرائد والمجلات ، وادارتها عـلى زبائنها ، ووفرت الاقلام والورق والحبر ، وتسلمت الخطابات لارسالها بالبريد ، وقبلت ان تحفظ البريد المرسل الى عناوينها . وتطورت بعض مشارب القهوة او الكاكاو ، مثل مشرب هوايت ، فى هـذه الفترة الى اندية خاصة يطمئن الرجال الى أن يجدوا فيها الصحبة التى يؤثرونها على غيرها ، ويستطيعون أن يلعبوا القمار بمناى عن عيون الرقباء . وما اختتم القرن الثامن عشر حتى كان عدد الاندية مماثلا لما كان عليه عدد مشارب القهوة فى بدايته . ويبدو أن الماسون (البنائين الأحرار) بدأوا تاريخهم الانجليزى على هيئة ناد سموه « المحفل الكبير » ـ نظم بلندن فى ١٧١٧ . وشجعت الاندية الشرب والقمار والدس السـياسي ، ولكنها علمت الرجال على الاقل نصف فن الحديث . اما النصف الآخر من هذا الفن فكان مفقودا ، لان الاندية كانت خلوات للعزاب ، ولم يجد الادب الأرفع والفكاهة الارق اللذان يتطلبهما وجود النساء ما يحفزهما هناك . فلقد كانت انجلتره بلد الرجال ، اما النساء فلم يكن لهن فى حياتها الثقافية الا حظ ضئيل ، ولم يكن بها صالونات ، فلمـــا حاولت الليدى مارى مونتاجيو أن تقيم صالونا نظر القوم اليها كأنها مخلوق غريب الاطوار لا يعرف اين مكانه (٩٥) .

واستطاعت النساء فى الطبقات العليا ان يستخدمن مهاراتهن فى الاستقبالات ، والمراقص ، وحفلات الموسيقى فى البلاط أو فى بيوتهن . وكانت نهاية الاسبوع فى بيوت الريف حدثا جميلا فى الحياة الانجليزية لا يكدره بعض الشيء غير تلك « البقاشيش » الكبيرة التى ينتظر الخدم أن ينفحوا بها ، وكان على الضيف وهو يغادر البيت أن يغامر بالمرور وسط الاتباع ، والسقاة ، والخـــدم ، والقهرمانات ، والبـــوابين ، والخادمات ، والطباخين وغيرهم من الخدم والحشم يقفون فى صفين عند الباب ، فى حين ينتظر سائق المركبة وسائس الخيـل خارجا فى عبوس وتجهم . وما ذاع عن ولاء الخدم البريطانيين لسادتهم لم يكن

له كبير سند من الواقع فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فقد كانوا فى كثير من الحالات عديمى المبالاة ، وقحين ، متمـــردين ، لا يترددون فى التنقل من بيت الى بيت لقاء أجر افضل · وكان كثير منهم يسرقون رب البيت وربته والضيوف اذا استطاعوا ، ويشربون خمر مولاهم ، وتلبس الخادمات حلى سيداتهن أو ملابسهن ·

وكانت قمة انتماء شخص ما الى المجتمع العصرى ، بعد ان يقبل فى البلاط الملكى ، أن يلم بمنتجع للمياه المعدنية ، يشرب فيه الميـــاه الطبية ، أو يستحم مع صفوة القوم بعيدا عن البحر المختلط · واشتهرت تنبردج بينابيعها ، ولكن روادها كانوا اخلاطا · اما عيون ابسوم فكانت تقدم لروادها الموسيقى ، ورقصات المريسة ، والكلاب المؤدية للألعاب، والمياه المسهلة وان لم تجمع بعد معادنها فى « أملاح ابسوم » · ولم يكن الاستحمام فى البحر رياضة محببة ، وان لحظ تشسترفيلد شيئا منه فى سكاربرو ، ولكن فى ١٧٥٣ تدفقت الى البحر موجة بشرية بفضل كتاب الدكتور رتشرد رسل « فى سل الغدد وفائدة مياه البحــــر فى أمراض الغدد » ، وتفتحت قرى ساحلية مثل برايتون لتزدهـــر منتجعـــات للاستحمام ، مع أنها لم تعرف من قبل غير أسر صـــيادى الســـمك المتواضعة ·

اما الأرستقراطيون ففضلوا مدينة باث · فهناك ، وســـط ارقى البريطانيين من ذوى الاسقام ، يشرب الرواد ـ ويســتحمون فى مياه خبيثة الرائحة موصوفة لشفاء أوصاب من اتخمـــوا بالغـــذاء الطيب · وكانت مدينة الينابيع الصغيرة قد فتحت اول غرفة ذات مضـــخة فى ١٧٠٤ ، وأول مسارحها فى ١٧٠٧ ، وبعد عام أول « غرف اجتماعاتها » التى نوهت بها قصص فيلدنج وسموليت · وفى ١٧٥٥ اكتشف الحمام الرومانى الكبير · وأعاد جون وود وابنه بنـــاء المدينـــة بالطـــراز الكلاسيكى كما سنرى · وفى ١٧٠٥ ، اصبح ناش « الجميل » ، وكان محاميا ومقامرا ، دكتاتور حياتها الاجتماعية · فحظر الســـيوف فى ماكن اللهو العامة ، ووفق فى أن يجعل المبارزات ـ فى باث ـ عملا ضارا بالسمعة · وأقنع الرجال بان يلبسوا الاحذية المكشـــوفة بدلا من الطويلة · وكان دو ذاته يلبس قبعة بيضاء هائلة ، وسترة كثيرة الوشي

غنية التطريز ، ويركب عربة تجرها ستة خيول يتحتم أن تكون شهباء ، ويعلن عن قدومه بنفير فرنسي مرح . وقد أصلح من شأن الطرق والمبانى ، وخطط الحدائق الجميلة ، ووفر الموسيقى ، وسحر الجميع الا قلة منهم بلطفه وظرفه . وتوافد نبلاء الانجليز على مملكته ، لأنه وفر لهم موائد القمار كما وفر الحمامات ، فلما سنت قوانين تحرم القمار ابتكر العاب حظ جديدة تتفادى القوانين . واخيرا وفد على باث جورج الثانى ، والملكة كارولين ، والامير فردريك لويس ، وغدت باث حينا بلاطا ثانيا . ولا ريب فى أن ايرل تشسترفيلد الذى كان يعشق المدينة كان مطبقا على صفوتها ذلك الوصف الذى وصف به جميع البلاطات بقوله أنها أماكن « يجب أن تتوقع انك ستلتقى فيها بارتباطات دون صداقة ، وعداوات دون ضغينة ، ونبالة دون فضيلة ، ومظاهر تنقذ وحقائق تضحى ؛ آداب حسنة مشفوعة باخلاق سيئة ، وكل الرذائل والفضائل مقنعة ، حتى ان كل من كان يميز بينها بعقله فقط لن يتبين الواحدة من الاخرى حين يلقاها أول مرة فى البلاط (٩٦) » .

٧ ـ تشسترفيلد

فلننفق نصف ساعة مع هذا النبيل المرهف الحس . فقد تمثلت فيه خصائص ارستقراطية العصر الانجليزية ، اللهم الا تاليفه كتابا حسنا . ذلك أن هذا الكتاب « رسائل لولده » ، الذى درج الناس على الغض من قدره ، هو خزانة من الحكمة فى نثر مشرق ، ومرشد محكم لعادات طبقته ومثلها العليا ، واعلان جذاب عن ذكاء مرهف مهذب .

كان اسمه بالعماد (١٦٩٤) فليب دورمر ستانهوب ، بن فليب ستانهوب ، ايرل تشسترفيلد الثالث ، والليدى اليزابث سافيل ، ابنة جورج سافيل ، مركيز هاليفاكس ، المساير الماكر للعهود الملكية السابقة . ماتت امه فى طفولته ، واهمله ابوه ، فكفلته مركيزة هاليفاكس . وحذق تعلم الكلاسيكيات واللغة الفرنسية على يد معلم خاص ، فاصبحت ثقافة روما وفرنسا ابان نضجهما جزءا من عقله . وانفق سنة فى كمبردج ، ثم انطلق فى ١٧١٤ فى الرحلة الكبرى . وفى لاهاى قامر بمبالغ كبيرة ، وفى باريس جرب عينات من النساء تجربة

الفاسق الذواقة للنساء ، ومن باريس كتب (٧ ديسمبر ١٧١٤) يقول :

« لن أبدى لك رأيى فى الفرنسيين ، فكثيرا جدا ما يخالنى الناس واحدا منهم ، وقد حيانى العديدون منهم بأسمى تحيـــة يمكن — فى اعتقادهم — أن يحيوا بها انسانا ، وهى : « سيدى ، انك على شاكلتنا تماما » حسبى أن أقول اننى وقح ، كثير الكلام ، عالى الصـــوت ، آمر ناه ، اغنى وارقص اثناء سيرى ، واهم من هذا كله أننى انفق مبلغا باهظا على شعرى ، ومساحيقى ، وريشي ، وقفازى الأبيض (٩٧) » .

فلما عاد الى انجلتره عين وصيفا لمخدع أمير ويلز وقتها (الذى اصبح جورج الثانى) . وكان جيمس ستانهوب ، الوزير الاثير لدى جورج الأول ، قريبا لفليب . وعثر له على دائرة يمثلها فى البرلمان ، فظل احد عشر عاما عضوا من اعضاء حزب الاحرار فى مجلس العموم . فلما أصبح ايرل تشسترفيلد الرابع بعد موت أبيه (١٧٢٦) نقل الى مجلس اللوردات ، الذى قال فى وصفه فيمـــا بعد انه « مجلس ذوى الأمراض المستعصية » . وحين أوفد الى لاهاى سفيرا (١٧٢٨) قام بمهمته خير قيام ، فخلع عليه وسام ربطة ساق الفروسية وعين وكيلا اكبر للبيت الملكى . وفى ١٧٣٢ انجبت له خليلة تدعى الآنسة بوشيه ولدا هو فليب ستانهوب ، الذى وجهت اليه فيما بعد « الرسائل » التى كتبها أبوه . وبعد عام تزوج الكونتيسة ولزنجهام ، ابنة جورج الأول غير الشرعية من دوقة كندال . ولعله توقع أن تأتيـــه بمهر ملكى ، ولكنها لم تفعل ، فكان زواجا شقيا شقاء ارستقراطيا .

وكان من الجائز أن يرتقى الى منصب ارفع لولا معارضته مشروع قانون لولبول بفرض ضريبة انتاج على التبغ والنبيذ . وقد عاون على هزيمة القانون ، وما لبث أن طرد من الحكومة (١٧٣٣) . وكافــح ليسقط ولبول ، وضيع صحته ، واعتكف فى القارة (١٧٤١) ، وزار فولتير فى بروكسل ، واختلط بفونتنيل ومونتسكيو فى باريس . فلما قفل الى انجلتره واصل سياسة المعارضة للحكومة . وقد أبهجت المقالات التى كتبها تحت اسم « جفرى برودبوتوم » لصـحيفة جــديدة تدعى « انجلتره القديمة » سارة ، دوقة ملبره ، فاوصت له بعشرين الف جنيه . وفى ١٧٤٤ فاز حزبه ، حزب « البرود بوتوم » (الاحرار) . وانضم

الى بلام فى الوزارة ، واوفد الى لاهاى ليقنع الهولنديين بالانضمام الى انجلتره فى حرب الوراثة النمساوية . فادى المهمة بلباقة وحذق ، ورقى الى منصب نائب الملك فى ارلنده (١٧٤٥) وكانت السنة الوحيدة التى قضاها فى ارلندة انجح سنى حياته . فقد انشا المدارس والصناعات وطهر الحكومة من الفساد والرشوة ، وصرف شئون الحكم بكفاية ونزاهة . وأنهى اضطهاد الكاثوليك ، ورقى العديدين منهم الى مناصب الحكومة وبلغ من اكتسابه احترام السكان الكاثوليك له انهم حين غزا المطالب الشاب بالعرش الانجليزى انجلتره من اسكتلنده ، وتوقعت انجلتره ثورة فى ارلنده تنشب فى الوقت ذاته ، رفضوا أن يثوروا على تشسترفيلد .

ورد الى انجلتره وزيرا (١٧٤٦) . ولكن أستاذ الرقة واللباقة اقترف غلطة مدمرة . ذلك انه تودد الى خليلة الملك لا الى الملكة ، فنجحت كارولين فى تدبير سقوطه . وفى ١٧٤٨ طلق الحياة العامة ، وانكفا كما قال الى « حصانى ، وكتبى ، وأصحابى (٩٨) » وعرض عليه جورج الثانى لقب الدوقية ، ولكنه رفضه . وفى ١٧٥١ قاد حركة تبنى التقويم الجويجورى ، وتحمل وطأة استياء الشعب من « السرقة البابوية » لأحد عشر يوما من الشعب الانجليزى . وفى ١٧٥٥ سلط عليه جونسن ناره بمناسبة اهداء المعجم الذى الفه ، وسنلقى نظرة على هذه المعركة الصاخبة فى موضع لاحق .

وكان خلال ذلك يكتب الرسائل لولده منذ ١٧٣٧ . وينم حبه لهذه الثمرة الجاذبية لسفارته الأولى فى هولنده على الحنان الذى أخفاه عن الجماهير خلال أكثر حياته . قال للفتى : « منذ رات عيناك نور الحياة أصبح شغلى الشاغل ، المحبب الى نفسي ، ان أجعلك اكمل ما يسمح به قصور الطبيعة البشرية (٩٩) » . وقد خطط تعليم فليب ، لا ليجعله مسيحيا مثاليا ، بل ليعده للسياسة والدبلوماسية . وبدأ والغلام فى الخامسة بخطابات عن الأساطير الكلاسيكية والتاريخ القديم . وبعد عامين راح يعزف النغمة التى لن يفتا يلح عليها فى رسائله . يقول :

« فى خطابى الأخير كتبت لك عن أدب المجتمع العصرى ،

كاولئك الذين الفوا ارتياد القصور ، وهم القطاع الانيق من النـــوع الانسانى . وأدبهم عفوى طبيعى ، وعليك أن تميز بينـه وبين تأدب الدهماء والريفيين ، وهو تادب مقيّد أو مزعج دائمـا .. فالرجـــل المهذب يبدى رغبة دائمة فى أن يسر من يتحدث اليه ، ويحرص عـلى الا تكون تحياته مزعجة . وقل من الانجليز من يتصفون بالأدب الكامل فهم اما خجلون واما وقحون ، فى حين تجد معظم الفرنسيين طبيعيين مؤدبين فى سلوكهم . وبما أنك بحكم النصف الافضل فرنسي صغير ، فانى أرجو أن تكون على الاقل « نصف » مهذب . وستكون أميز وأبرز فى بلد ليس الأدب فيه فضيلة غالية (١٠٠) » .

وعليه فحين بلغ فليب الرابعـة عشرة أرســـله أبوه الى باريس باعتبارها المدرسة التى تنهى صقل عاداته وان كان عليما بأنها ستنهى فضائله أيضا . وكان على الفتى أن يتعلم أساليب الحـياة أن أراد ان ينفع حكومته . والدراسة المناسبة لرجل الدولة هى دراسة الانسان ، فبعد أن علم الوالد ولده العلوم الكلاسيكية وفنـــون الأدب عن طـــريق المعلمين الخصوصيين والرسائل ، رده الايرل ـ الذى كان خبيرا بهذه العلوم والفنون ـ من الكُتب الى البشر . قال :

« يا صديقى العزيز ، ان قلة قليلة من المفاوضين المشهورين هم الذين برزوا بفضل علمهم ... فدوق ملبرة الراحل ، الذى كانت كفايته مفاوضا تعدل على الاقل كفايته قائدا حربيا ، كان جاهلا جهلا مطبقا بالكتب ، ولكنه كان خبيرا بالرجال ، فى حين ظهر ان جروتيوس العلامة كان وزيرا خائبا غاية الخيبة ، سواء فى السويد أو فى فرنسا (١٠١) » .

فاذا شاء فليب أن يلتحق بالحكومة فينبغى له أولا أن يدرس الطبقات الحاكمة ، بيئتهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وغاياتهم ، ووســـائطهم ؛ والا يقرأ غير أجود الادب ليكتسب اسلوبا حسنا فى الكتابة ، لأن هـــذا أيضا جزء من فن الحكم ؛ وأن يلم بالموسيقى والفنون ، ولكن ، حـــذار أن يتطلع لأن يكون مؤلفا أو موســـيقيا (١٠٢) . وينبغى له أن يدرس بعناية تاريخ الدول الأوربية الحديث ، ملوكها ووزرائها ، قوانينهـــا ودساتيرها ، مالياتها ودبلوماسيتها ، وليقرأ ما كتبه لاروشفوكو ولابروبير

عن طبائع البشر ، انهما حقا « كلبيان » ، ولكنك لن تخطىء خطأ كبيرا ، فى السياسة على الاقل ، ان انت توقعت من كل انسان أن يسعى لتحقيق مصلحته كما يراها ، ولتسيء الظن باى سياسي يتظاهر بغير هذا . ولا نتوقع من الناس ان يكونوا معقولين ، بل خذ فى حسابك اهواءهم . « ان اهواءنا هى خليلاتنا ، اما العقل فهو الحليلة على احسن تقدير ، يُسمَع كثيرا جدا بلا ريب ، ولكن نادرا ما يُعبأ به (١٠٣) » تعلم أن تتملق ، لأنه لا يمتنع على الملق سوى احكم الحكماء واقدس القديسين ، ولكن كلما صعدت وجب أن يكون تملقك ارهف واحوط . وادرس انساب اهم الأسر ، لأن البشر اكثر افتخارا بانسابهم منهم بفضائلهم (١٠٤) . وتودد للنساء ، أولا لتحصل على معونتهن ، فحتى الحكام الأقوياء يتأثرون بالنساء الضعيفات ، لا سيما اذا لم يكنّ ازواجهم .

اما فى مسائل الجنس ، فان نصيحة تشسترفيلد لولده اضحكت الفرنسيين وروعت الانجليز . فقد ذهب الى أن طرفا من العلاقات الغرامية الحرام اعداد ممتاز للزواج والنضج . واكتفى بالاصرار على ان تكون خليلات فليب نساء مهذبات ، حتى يصقلنه وهن يأتمن معه . وزكى له مدام دوبان لما كانت عليه من « حسن التربية ورقة الطبع (١٠٥) » ولقن ابنه فن الاغواء . فعليه الا يقبل اى تمنع وهو مستسلم ، لأن :

« اكثر النساء فضيلة لن يسوءها أن يبوح لها رجل بحبه ، بل ان ذلك يشبع غرورها شريطة أن يكون باسلوب مؤدب لطيف . فاذا استمعت اليك ، وسمحت لك ان تفصح ثانية عن حبك ، فثق انك ان لم تغامر بالباقى كله سخرت منك .. فاذا لم تلق منها اذنا مصغية فحاول ثانية ، وثالثة ، ورابعة . وثق ، اذا لم يكن المكان قد احتل من قبل ، أن فى الامكان غزوه (١٠٦) » .

ثم افضي الايرل ، الذى لم يكن محظوظا فى الزواج ولا مولعا به ، الى ولده برأيه فى النساء ، وهو رأى لم يكن بالحسن جدا :

« فى هذا الموضوع سأفضي اليك ببعض الأسرار التى سيفيدك جدا أن تلم بها ، ولكن عليك أن تحرص اشد الحرص على اخفائها وعلى الا تبدو

ملمًا بها . فاعلم اذن أن النساء ما هن الا أطفال كبار ، فيهن ثرثرة مسلية ، وأحيانا ذكاء ، أما من حيث التفكير الرصين والادراك السليم ، فما عرفت فى حياتى امرأة أتيح لها هذان ، أو فكرت أو تصرفت منطقيا ولو اربعا وعشرين ساعة كاملة .. والرجل الفطن انما يلهو بهن ، ويلعب معهن ، ويلاطفهن ، ويتملقهن .. ولكنه لا يستشيرهن أبدا فى الخطير من الامور ولا يأتمنهن عليها وان موّه عليهن كثيرا بانه يفعل الاثنين، وهو اشد ما يفخرن به فى هذه الدنيا ، لأنهن ولوعات بالتسلى بالتجارة (التى يفسدنها دائما) .. وليس هناك ملق يرينه فوق ما يستأهلن أو دونه ، انهن يبتلعن أبلغ الملق فى شراهة ، ويقبلن أقله فى شكر وعرفان ، وفى وسعك أن تتملق أى امرأة مطمئنا ، بادئا بقوة ذكائها ومنتهيا بذوق مروحتها الرفيع . وخير ما تتملق به النساء الجميلات و القبيحات جمالا أو قبحا غير منازع هو الاشادة بذكائهن (١٠٧) .

وقال الايرل أن النساء فى فرنسا يجب تملقهن فى مثابرة وكياسة لسببين : فان فى استطاعتهن أن يقررن مصير الرجل فى بلاط الملك ، وأن يعلمنه لطائف الحياة وفنونها . فالنساء يحتفظن بسحرهن برشاقة الحركة والسلوك والحديث لا بجمالهن ، فالجمال بغير الرشاقة لا يجتذب الرجل ، وأما الرشاقة بغير الجمال فما زالت لها القدرة على الفتنة . « ان النساء هن المهذب الأوحد لكفاية الرجال . صحيح انهن لا يستطعن اضافة وزن لها ، ولكنهن يصقلنها ويضفين عليها بريقا (١٠٨) » . وحذر الأيرل ولده من الكلام بسوء عن النساء ، فهذا أمر مبتذل ، سوقى ، أحمق ، ظالم ، لأن النساء اقترفن فى هذه الدنيا من الأذى اقل كثيرا مما اقترفه الرجال . ثم انه ليس من الحكمة ابدا مهاجمة « فئات بجملتها » أو طبقات او جماعات ، « فقد يصفح الأفراد ، أما الهيئات والجماعات فلا (١٠٩) » .

ولم يمل تشسترفيلد من تلقين ولده أصول السلوك المهذب . « فالعادات المهذبة هى الوسيط الثابت المستقر للحياة الاقتصادية ، كما أن نوع السلعة هو الوسيط المقرر فى دنيا التجارة . والناس يتوقعون عائدا فى الحالين على السواء ، وهم لا يقدمون احترامهم لانسان فظ ، أكثر مما يقرضون مالهم لانسان مفلس (١١٠) » .

ومما يعين فى هذا المجال استاذ رقص قدير ، فهو يعلمنا علــى الاقل كيف نقعد ، او نقوم ، أو نمشي دون تبديد فى الجهد والطاقة . واذ كان الايرل ارستقراطيا ، فقد سمى السلوك المهــذب « تربيــة طيبة » ، فلقد تبين دون وعى منه ، وربما محقا ، كيف يصعب عــلى انسان اكتساب العادات المهذبة دون أن يكون قد ربى فى أسرة وتحرك فى محيط لهما هذه العادات . « ان من سمات الرجل الطيب النشأة ان يتحدث الى من هم أدنى منه دون صلف ، والى من هم اعلى منه باحترام ويسر (١١١) » فعلى المرء الا يستغل علوا فى المقام جاء وليد الصدفة .

« لا تستطيع ان تحسب ، وانا واثق انك لا تحسب ، انك ارقى بحكم الطبيعة من ذلك السافواوى الذى ينظف حجرتك ، او الخــادم الذى ينظف حذاءك ، ولكن لك ان تغتبط ، وبحق ، لما حبــاك به الحظ دون غيرك . فاستمتع بتلك المزايا ، ولكن دون اهانة اولئــك الذين قضي القدر بحرمانهم منها ، او حتى الاتيــان دون موجب باى عمل قد يذكرهم بذلك الحرمان . واقول لك عن نفسي اننى اشد حرصا على سلوكى نحو خدمى وغيرهم ممن يدعون أدنى منى ، منى نحــو نظرائى ، مخافة ان اتهم بتلك العاطفة القبيحة الوضيعة ، وهى الرغبة فى اشعار غيرى بذلك الفارق الذى اوجده الحظ بيننا ، ربمــا دون استحقاق على الاطلاق (١١٢) » .

والسلوك المهذب يصدق على العقل كما يصدق على الجسم ، وكلا النوعين يتاثر بعشرائنا .

« هناك نوعان من الخلطاء المهذبين ، الاول وهو المسمى المجتمع الراقى "beau monde" ، وهم اصحاب الصدارة فى قصور الملوك وفى الجوانب المرحة من الحياة ، والثانى هم اولئك الذين يتميزون بكفاية خاصة ، او يتفوقون فى فن او علم خاص عظيم القدر . اما عن نفسي فقــد ألفت ان ارانى وانا جالس الى (الكاتب) اديســون او (الشاعر) بوب فى صحبة اشخاص يعلون عنى علو جميع ملوك اوربا وأمرائها لو جلست اليهم (١١٣) » .

ومن الحكمة أن يسلك المرء فى كلتا الصحبتين بشيء من التحفظ ، فلا يسرف فى الكلام ولا يغالى فى الصراحة ، وأن يكون « من الحذق بحيث يخفى حقيقة دون أن يكذب » ، وأن يبدو صريحا وهو متحفظ :

« تظاهر بانك مرتاب حتى حيث تكون على يقين من الامر ... وان شئت أن تقنع غيرك فليبدُ عليك استعدادك للاقتناع . وأودع علمك كما تودع ساعتك جيبا خاصا فلا تبرزه .. لمجرد الاعلان عن نفسك (١١٤) . وهم من هذا كله ، احذر الحديث عن نفسك ما استطعت (١١٥) .

« وامسك عن الحديث فى الدين ، فلو أنك أطريته لابتسم أصحاب الثقافة والحكمة ، ولو ذممته لحزن الشيوخ الناضجون . وسوف يفيدك أن تقرأ تواريخ فولتير ، ولكن احترس من جماعة « الفلاسفة » الذين يهاجمون الدين .

« لا يبد عليك انك توافق على تلك الافكار الاباحية التى تهاجم الاديان على السواء ، أو انك تشجعها او تصفق لها ، والتى هى الحديث الحقير المهلهل الذى يخوض فيه انصاف العقلاء وصغار الفلاسفة . وحتى أولئك الذين بهم من الحمق ما يجعلهم يضحكون على نكاتهم ، لهم وزعم ذلك من الحكمة ما يشككهم ويبغضهم فى أخلاقهم ، ذلك اننا حتى لو وضعنا الفضائل الخلقية فى أسمى مكان لها ، والدين فى أدناه ، فلا بد رغم ذلك من أن نعترف للدين بانه ضمان اضافى على الاقل للفضيلة ، وكل انسان حصيف يؤثر الركون الى ضمانين خيرا من ضمان واحد . لذلك فاينما اتفق وجودك فى صحبة أصحاب « العقول القوية » المزعومة هذه ، أو فى صحبة اباحيين عديمى التروى ممن يسخرون بالدين كله اعلانا عن ذكائهم وظرفهم ، فلا تدعْ كلمة أو نظرة تبدر منك دليلا على اقل استحسان لما يقولون ، بل على العكس من هذا فلتفصح رزانتك الصامتة عن كرهك له ، ولكن لا تخض فى الموضوع واجتنب مثل هذه المجادلات العقيمة النابية (١١٦) » .

وفى ١٧٥٢ تبين تشسترفيلد فى التهجم على الدين اول مراحل الثورة الاجتماعية ، « اتنبأ انه قبل ان ينقضي هذا القرن لن تبلغ صناعة الملك والقسيس نصف ما بلغته من احترام الى الآن (١١٧) » . وفى ١٧٥٣ ، بعد ظهور « الموسوعة » المعادية لرجال الدين بعامين ، كتب الى ابنه يقول :

« ان احوال فرنسا .. .. تزداد خطورة ، وفى ظنى انها ستمضي فى هذا قدما كل يوم . فالملك محتقر ... والامة الفرنسية تفكر فى أمور الدين والحكم بغير قيود ، وهو ما لم تفعله قط من قبل ، وقد بدأت تصبح « محايدة » فى هذه الامور ؛ كذلك يفعل الموظفون ، وباختصار توجد الآن فى فرنسا ، وتزداد كل يوم ، جميع الاعراض التى صادفتها دائما فى التاريخ قبل وقوع التغييرات والثورات الكبرى فى الحكم (١١٨) » .

وقد كون اثنان من قرائه ، بعد دراسة ممتعة لصفحات تشسترفيلد الثمانمائة ، رأيا ممتازا عن عقله ، ان لم يكن عن اخلاقياته . أما معاصروه الانجليز فكانوا لعدم قراءتهم رسائله أميل الى أن يسلكوه ، دون ترو ، فى زمرة الأدباء الظرفاء لا الفلاسفة . وطابت لهم ملاحظته فى مجلس اللوردات حين قال « من حقنا يا سادتى اللوردات أن نشكر السماء لأن لدينا شيئا نركن اليه خيرا من أدمغتنا (١١٩) » . ورأوه يقامر مقامرة المستهترين أو الحمقى ، وعرفوا أنه لم يكن مثالا يحتذى فى العفة (وهو ما اعترف به لولده) . وقد وصف جونسون الغضوب « الرسائل » بأنها تغرس فى النفس « أخلاق عاهرة وسلوك معلم رقص (١٢٠) » . وفى هذا الحكم ، كما فى الكثير جدا من أحكام هذا « الخان الأكبر » بعض القصور والتحامل ، فلقد كان تشسترفيلد يعلم الفتى أخلاق جيله وطبقته ، وعادات المجتمع السياسي المتأدب ، وعلينا أن نتذكر أنه كان يهيىء ولده للدبلوماسية ، وما من دبلوماسي يجرؤ على تطبيق المسيحية وراء حدود بلاده .

غير أن الكثير من التعليم الخلقى الذى محضه فليب كان رغم هذا ممتازا . « لقد طالما أخبرتك فى رسائلى الماضية (وهو حق بكل تأكيد)

أنه ما من شيء يكسبك احترام البشر وتقديرهم غير أشد ضروب الشرف والفضيلة صرامة وتدقيقا (١٢١) » . وأغلب الظن أن نصيحته له فى أمر الخليلات كانت محاولة لصرف الفتى عن الفوضى الجنسية . لاحظ هذا التحذير « أما عن الجرى وراء النساء ، فان نتائج تلك الرذيلة انما هى فقدان المرء أنفه ، والتدمير الشامل لصحته ، وطعنات السـلاح تصيبه فى حالات غير قليلة(١٢٢) » . وقد ذهب جونسن نفسه ، فى لحظة غافرة ، الى أن « رسائل اللورد تشسترفيلد لولده قد يخرج منها كتاب لطيف جدا ، واذا انتزعت منه الجانب اللا أخلاقى ، وجب أن يوضع فى يد كل شاب مهذب (١٢٣) » . وربما كان فى « الرسائل » قصور فى غرس مبادىء الشرف واللياقة والشجاعة والوفاء . ولكن ليس صحيحا أن تشسترفيلد حسب الثراء أو المنصب فضيلة أو حكمة . وقد امتدح ملتن ، ونيوتن ، ولوك أكثر كثيرا مما امتدح سياسيى زمانه ، ورأيناه ينشد صداقة خيرة كتاب عصره . وقد أوتى تقديرا حارا للأدب الجيد ، حتى ولو لم يفتنه معجم من معاجم اللغة . وقد كتب هو نفسه انجليزية لم يبزها كاتب فى النثر المعاصر له ، لغة بسيطة ، قـوية ، واضحة ، فيها من الخفة والمرح القدر الذى يكفى لتعويم الفـكر الذى يثقله . وقد آثر الألفاظ الانجلو ـ سكسونية القصيرة المفعمة بالحيوية رغم احاطته بالكثير من اللغات ، وغزارة علمه بالكلاسيكيات . وفى رأى فولتير أن الرسائل « أفضل ما كتب اطلاقا فى التربيـة (١٢٤) » . ووصفها سانت ـ بوف بأنها « كتاب غنى ، لا تقرأ فيه صفحة دون أن تحملك قراءتها على أن تتذكر ملاحظة سعيدة (١٢٥) » .

ولو حكمنا على عمل ما بثمراته المباشرة لقلنا أن الرسائل فشلت . ذلك أن الفتى فليب ستانهوب لم يتغلب قط على روحـه البليـدة ، وعاداته الرثة ، وأسلوبه المتثاقل ، وحديثه المتردد ، فبعد كل هـذا الحث والحض ، كما تقول فانى بيرنى ، « كان حظه من حسن التربية ضئيلا كأى رجل لقيته (١٢٦) » . ويبدو أن انحرافا سببه مولد الفتى أو ظروفه أبطل فعل خمسة أرطال من التعاليم . لقد كان فليب يعانى من معوق هو أن له أبا غنيا ومكانا مضمونا ومريحا ، فلا خوف الجوع ولا كره الخضوع حفزاه الى الطموح و المغامرة ؛ لقد افتقد الدفعة الحية للروح " vivide vis animi " كمـا قال له أبوه المغلوب على أمـره

« تلك القوة التى تهمز الشـباب وتثيرهم للارضـــاء ، والتـــالق ، والتفوق (١٢٧) » . ومن المؤثر أن نرى الأيرل المسن يغدق كل هذه النصائح الحكيمة والحب الابوى فلا يجنى غير هذه الثمرة الهزيلة . كتب لولده حين كان فى الرابعة عشرة « ثق اننى ساحبك حبا جمـــا ما دمت تستاهله ، ولكن لن احبك لحظة واحدة بعد هذا (١٢٨) » ، على أن رسالته الأخيرة لولده بعد اثنتين وعشرين عاما فيها حـــرارة المحبة والتوسل (١٢٩) . ولم يمض عليها شـهر حتى مات فليب فى باريس (١٧٦٨) وهو فى السادسة والثلاثين تاركا ارمـلة وولدين . فلقد تزوج دون علم أبيه ، ولكن تشسترفيلد غفر له ، وراح الايرل الآن يكتب للزوجة الثكلى رسائل هى نماذج فى المجاملة والاحترام (١٣٠).

أما هو فكان فى تلك الفترة كثير التردد على باث بعد أن أقعده النقرس وأصابه الصمم الى حد محزن . « اننى أزحف فى هــذا المكان على ارجلى الثلاث ، ولكن يعزينى عن محنتى هذه اخوانى الزاحفون معى ؛ أن نهاية لغز ابى الهول تقترب ، وساختم حياتى بعد قليل كما بدأتها ، على أربع (١٣١) » . وقد اهتم بتربية حفيديه ، ولا غرو فالأمل لا يخبو ابدا فى الصدر العجوز . فلما عاد الى ضيعته فى بلاكهيث اتبع نصيحة فولتير وزرع حديقته فخـــورا بشـــمامه وتفاحـــه ، وقال انه قانع بان « يحيا حياة راكدة فى صحبتهما (١٣٢) » . وكتب له فولتير رسائل معزية ، مذكرا اياه بان الهضم الجيد (الذى احتفظ به الايرل) اجلب للذة من الآذان السليمة . وقابل النهاية بمرح لم يفتر . قال عن نفسه وعن صديقه اللورد تيرولى ، وكان مثله شيخا مقعدا ، (وربما كان فى قوله هذا متذكرا فونتنيل) « لقد كنت وتيرولى ميتين فى السنتين الأخيرتين ، ولكنا لا نود أن يعرف عنـا هـــذا (١٣٣) » . ومات فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بالغا التاسعة والسبعين ، غير عالم أن رسائله التى منع نشرها قد احتفظ بها ابنه وتركها فى وصيته ، وأنها بعد طبعها فى العام التالى ستسلكه فى عداد أساطين الحكمة الدنيوية وفحول النثر الانجليزى.

الفصل الثالث

الحكام

١ ـ جورج الاول : ١٧١٤ ـ ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين فى شئون الحكم ، كما سيتبين ذلك عما قليل فولتير ومونتسيكو • فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه فى المانيا ، ملكا يقضى الأجازات الطويلة فى وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط فى فهم أساليبه ولغته •

كان بيت هانوفر يمد جذوره فى المانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك ـ لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ ـ ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف او الجويلف • وقد أصبحت هانوفر نفسها امارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ • وتزوج ناخبها الأول ، ارنست أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك انجلترة • وبعد موت ارنست أصبحت أرملته وريثة للعرش الانجليزى بقانون تسوية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ •

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناءة هذا الميراث السعيد بزواج تعس • ذلك ان زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت ان تهرب مع الكونت فليب فون كوينجزمارك ، قائد الحرس الجميل • واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، واغلب الظن انه اعدم (١٦٩٤) • وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت ، وابطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال الأعوام الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن • وكانت قد ولدت لزوجها بنتا اصبحت ام فردريك الأكبر ، وولدا اصبح جورج الثانى ملك انجلترة •

وما تت صوفيا ، ناخبة هانوفر الأرملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارتبده باسم جورج الاول . وفى سبتمبر وصل الى انجلتره ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى . وجلب معه ابنه وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمـــان ، وخليلتين ، شارلوت فون كيلمانريجى ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجتن ، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيســة كندال ، وربما تزوجها . ولعل انجلترة كانت متقبلة هــذا الترتيب باعتباره متفقا واخلافيات ذلك الزمان ، لولا ان كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تبيع نفـوذها باثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب السداد والرشوة ، وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا بتقاني هو نفسه اتعابا لقـــاء توصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الاول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارع الطويل عسكرى السمت ، « رجلا بسيطا فظا » . لا يكترث مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد اثبت بسالته فى اكثر من ساحة قتال . وقد قالت الليدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل ابله امين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بانه « كان طيبا على نحو سلبى ، يود أن يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو انهم تركوه يفعل ذلك (٣) » . وما كان احد يتوقـــع ان هذا الرجـــل سيشعر بالاطمئنان والبسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب . فلقد استاجرته اولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة أخرى ؛ ثم رأى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هيمنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو ايضا ؛ ولم يستطع ان يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية . واعتقـــد انهم أدنى من عشرائه الهانوفريين . فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهـرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهـــد ليوجـــه الاموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة .

وضاعف من محننه كره ابده له لانه اعتبره قاتلا . ذلك أن جورج

اوغسطس ، الذى اصبح الآن امير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليلات الملك وغطرستهن ، وتشاجر مع وزراء الملك ، وإفصح عن آرائه فى صراحة حملت اباه على اقصائه عن القصر . واعتزل الامير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما امر ملكي عن ابنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا في قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشسترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير اشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومه مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبى التورى (المحافظين) والهويجز (الاحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والقضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات ـ وهم لم يتجاوزا ١٦٠٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) ـ وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزكيه المالك الرئيسي للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لاحد الحزبين حسب تاييدهم اما للنبلاء أصحاب الالقاب ، واما للاعيان واصحاب المصالح التجارية . فاما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، واما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الاحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا ان يزيحهم الاحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجالا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الاحرار ، وهكذا ارسي نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رآسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، اصبح العضو المهيمن « وزيرا اول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين . ومن أول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره - الذى اتهمه المحافظون من قبل - لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش . وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهيم ، وهناك عانى آلام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الأمة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحكم الذى أصدره عليه بولنبروك - « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملته ، وهى سارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد أنفقت اثنتين وعشرين سنة تقدس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها أجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت أبدا أن تقتسم قلبا ويدا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين أعادت قراءتها شعرت « باننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركتها لتعيش (٩) . ولابد أنه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت أن تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك أنه بعد أن طرده جورج الأول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الأسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لازدرائه اللاهوت المسيحى - بعد هذا كله فر الى فرنسا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، وأصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترة ، واقترح غزوها من فرنسا . فأعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليه بالاعدام .

وأوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الأول

فالمحافظون الكارهون للهانوفريين لأنهم أحلاف غاصبون ؛ وعامة الناس فى انجلترة ، الراسخون فى الولاءات القديمة ، والتواقون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بانها اعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحاد (١٧٠٧) الذى قضي على البرلمان الاسكتلندى - كل اولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على انجلترة .

وكان جميس فرانسس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وان عرفه التاريخ باسم « المطالب المسن» بالعرش » . كان قد ربى فى فرنسا ، واشربه المذهب الكاثوليكى معلموه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيتوى الميل لأسرته فى انجلتره اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخيين (اتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تاييد رجل ياتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل باشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بانه يؤثر أن يكون كاثوليكيا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البرىء من الايمان والمبادىء ، فقد حكم على جيمس بانه أصلح للرهبنة منه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (أغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠ر٠٠٠ جنيه مكافاة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطىء تراب بريطانيا .

ثم بدا ان عاملا شخصيا يحول الاحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك ان جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشئون اسكتلنده فى السنوات الاخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الأول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية فى انجلترة ، ثم أبحر الى اسكتلندة واستنفر الاسكتلنديين لينضووا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجل وستمائة خيال ؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الاعدام عقابا للخيانة

والمصادرة الملكية لجميع العصاة . وعبات ثلاثة عشر الف رجل ، ودعت ستة الاف آخرين للأسطول ، ثم امرت دوق آرجيل قائد حاميتى ادنبره وستيرلنج بان يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عند شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع اى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثا ان تثير وتحمى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوقها جيش حكومى واكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل ان يقلع من دنكرك فى ٢٧ ديسمبر . وكان بولنبروك قد انذره بان ثورة استيوارتية لن تنشب فى انجلترة . ولكن المطالب بالعرش دفعة للمغي فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠,٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين ألفا من الفاتيكان . فلما رسا على أرض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضع الخطط لحفل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتئابه ، وشكواه من أنه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يضف شيئا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من أنهم لم يروه قط يبتسم ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . اضف الى ذلك انه كان يرتعد من الملاريا، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فامرهم بالتقهقر الى مونتروز ، ويحرق جميع المدن والقرى والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل آرجيل عن مطاردته . وأسف جيمس على هذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر اولئك الذين تضررت أملاكهم . فلما اقترب جيش آرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وأبحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، واعدم سبعة وخمسون ، وتقرر اعدام اثنى عشر نبيلا اسكتلنديا التجاوا الى فرنسا ، اذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الامل فى ان يرسل فليب اورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترة ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا . ومن ثم أقام حينا فى افنيون البابوية ، ثم فى روما .

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذ كان يجيد الفرنسية فانه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة . وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشترى أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » . واذ كان قد ترك زوجته فى انجلترة ، فانه اتصل اتصالا كاد يكون شريفا بمارى ديشان دمارسيى ، وهى مركيزة فيليت الأرملة . وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين . وكانت ككثيرات جدا من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع انها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبه اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس . وهناك زاره فولتير كما سبق القول (١٧٢١) . قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » .

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برءوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا . وقد قضت القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بالا يستمر أى برلمان أكثر من ثلاث سنين . ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين للاستيوارتيين . وتفاديا لهذا الخطر قرر البرلمان ، بمقتضى قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات أخرى ، وقضى بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سبع سنين . قال المع حفدة ملبره « كان هذا أجرا وأكمل تأكيد لسيادة البرلمان عرفته انجلترة الى ذلك الحين (١٣) » . وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضا من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلا أن الهانوفريين اضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكوا .

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة أبرم ستانهوبه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا انهى التاييد الفرنسي لمطالب اسرة ستيوارت ، والتاييد الانجليزى لاسبانيا ضد فرنسا . وفى ١٧٢٠ وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الأول ان يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان . وفى ١٧٢٦ أرسلت اليه زوجته التى ما زالت حبيسة خطابا مرا ، وتحدته ان يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله . وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية . وتقول رواية أن عرافا تنبا بان جورج الأول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته . ففى ١٧٢٧ بدات صحة الملك تتدهور . وفى يونيو غادر انجلترة ليزور بلده الحبيب هانوفر . وقرب اوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة تركتها له زوجته وهى فى النزع . فلما قراها الملك اضطرب اضطرابا شديدا ، وما لبث أن قضي نحبه فى ١١ يونيو (١٤) .

٢ ـ جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى اصدرته العناية الالهية واهملت تنفيذه اهمالا غير معقول . وحين قدم رئيس اساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه ولم يذعها قط . وقال بعضهم انه تكتم أمرها لانها اقترحت الفصل بين تاجى هانوفر وانجلترة ، وزعم آخرون انها تركت لحفيده فردريك لويس ، ولخليلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابنته ملكة بروسيا ، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) . ولكن التاريخ يجهل الحقيقة .

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، ففى الخامسة والعشرين ابلى بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة اودينارد (١٧٠٨) . وفى الستين سيقود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) . وكثيرا ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ، فيصبح غاضبا ، ويغدق على وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدى الغباء » و « المهرجين(١٦) » ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطا وان شابتها لكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى ضيق ولكن فى حذر تلك القيود

التى فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول فى جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام فى ربوعه . وكان كابيه كثير التردد على هانوفر ، الأمر الذى ابهج كل من يعنيهم الأمر . ثم تشاجر كابيه مع امير ويلز (ولى العهد) لأنه « كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كابيه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصرى ، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج - آنزباخ ، قد نشات فى بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط اخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليبنتز واستمتعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستنت، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الرومانى المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتهما حميما ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفية مخلصة له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخليلاته . وكان جورج يعنف فى معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراما كفى لتركها تحكم انجلترة (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابه الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد التى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، وبعض لطائف فى السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وأمرها ان تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى فى وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدءوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وادركوا آخر الأمر أى تضحية من صحتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة صالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترة فى دهشة ان هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهنا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشسترفيلد ، وجاى ، والليدى مارى مونتاجيو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدرى . وانتشلت ابنة الملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل حلوال نزوات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وانقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه . و‌نا‌ت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الانجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبيـــة المتشـــككين فى الخلود(٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء(٢٣) . قال فولتير « لا شك أن هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى .. انهـــا فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسي الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق اخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانية بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، ساتخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاها بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم ار قط امراة تستحق ان تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتـــح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ ـ روبرت ولبـــول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول أمام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من أن يعطى انجلترة عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولى » او القديس ، ولعله كان افسد وزير عرفته انجلترة فى تاريخها ، ولكنه كان ايضا من خيرة

وزرائها ففى ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد .

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الابناء فى أسرة نورفوكية عريقة ، وفى ايتن التى زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته . ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء فى التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة . وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا فى حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية . وفى ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به فى برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبلدا فى الأنوف فلم يلبث أن أفرج عنه ، واعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (١٧١٥). وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة فى ١٧١٧ . وفى ١٧٢٠ اقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترة الى حالة الاستقرار المالى . فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترة ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه (٢٧) . وكافا المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة .

وقطع اعتلاء جورج الثانى العرش سلطان ولبول برهة . ذلك أن الملك الجديد كان قد اقسم ليكونن خصما لدودا لكل من خدموا اباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كونتن أن يشكل وزارة جديدة . ولكن سرعان ما اظهر كونتن قصور مواهبه واعترف به . فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذى دعم حجتها بوعده الملك والملكة براتب أكبر . وقبل السير سبنسر لقب الايرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه . وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال فى ألفاظ « المسيحى » ، و « البيورتانى »

و « المثودى ») . وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت قصرا رسميا له .

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي . فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روءساء الوزارات البريطانيين . ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تأنق . يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » . ولم ير ابنه هوراس ان فيه قصورا لانه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » . وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعرف لا الالمانية ولا الفرنسية . وكانت له كل صفات جون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكد ويكدح اذا دعاه داعى العمل ! وربما كان فيه أيضا من اوجه الشبه بجون بول انه آثر خشخشة كيسه على صليل سيفه .

اما الاخلاق فلم يكد يملك منها اى حظ . فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها . وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون . وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين ارسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا بأس بتمثيل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها . ولكم أن تطلبوه باسرع ما تريدون . فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضي هذا جمع المغفلين العقلاء الطيبين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » . ولم يكترث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية . وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره . ووجد المناصب السياسية المجزية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباه . وانفق

٠٠٠ر٢٠٠جنيه ليشيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون، وزينها بلوحاتتقدرها هوراس بمبلغ ٤٠٠٠٠ر جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لأنه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشترى اعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشترى الجيوش ، وهنرى الرابع ليسكت الأعداء . وكان ولبول يستخدمه ملاذا أخيرا بعد أن تعييه الحجج الأكثر لينا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحيم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياطى سرى - وحتى بحجرة خاصة - لشراء الكراسي والأصوات ومحررى الصحف ، وقيل انه انفق ٥٠٠٠٠ر جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتالف من الملك ، ورئيس آكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد راى لولبول ، كما راى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة اقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على ان يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشرّ نائما . واذا كان هذا المبدأ قد ترك حكمه غير متميز بفتوح او اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بانه لم يكن محبا للثار ولا حقودا ، وانه كان اجدر بالثقة ، لا بل اكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا(٣٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغتفرت له انجلترا فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الأعيان ملاك الأرض وطبقة

ورجال الاعمال . فحاول ان يخفض الضرائب على الارض ، وايد العقوبات الصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب في الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار .ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض في القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة في المدن ؛ والظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . واذا استثنينا تلك المنح والرسوم فانه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وآدم سمث بزمن طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير في سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وازال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الامريكية ، وكان رايه ان الاقتصاد الانجليزي يزكو في ظل اقل القليل من التشريع الحكومي . وقد برر الزمن رأيه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت ايرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة انجبته البلاد (٣٤) » .

على ان مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بافدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربي التبغ والنبيذ كانوا يحرمون الخزانة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات باكثر من نصيبها في الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهي شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت او بيعت في انجلترة . وخول لموظفي الضرائب (« رجال الانتاج ») أن يفتشوا اي بيت في اي وقت ، وكان الاشخاص الذين يتضح انهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة او السجن . وهب الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ او النبيذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما . وندد خصوم ولبول في مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفي من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد اخبر اعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون باسا في أن ينقدهم اجرا على شرورهم العادية ، اما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الاكبر - او لعلهم املوا ان يحلوا محله في الاشراف على

المال العام . وراحت النشرات من آلاف النسخ تسب الوزير بلغة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الحشود حول وستمنستر هول ، وأحرقوا دمى تصور ولبول فى عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الامة الى شفا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الأسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هذه اللحظة اضمحل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ - بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشيعة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلى Bonnie Prince Charlie " و « شلة » اخرى راحت ترقص حول فردريك لويس ، امير ويلز (ولى العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير - سويفت ، وبوب ، وفيلدنج ، وآربتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضحوا أخلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التى كانت تغدق على المؤلفين والتى تفردت بها الحكومة فى عهد وليم الثالث والملكة آن . اما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه اصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء واثاروا ثائرة البرلمان فى عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبت الصاعد ، باصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك فى غير هوادة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال فى ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترة واستعادة املاكه ، ولكنه أبعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك فى ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففى بيته بلندن التقت صفوة انجلترة ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه . هناك ، وفى بيته الريفى ، راح يتراشق بالسخريات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

بوب ، وبالاغانى الشعبية مع جاى ؛ وهناك ناضـــل ليوحـــد بين المحافظين الجياع وبين الاحرار الذين لم يظفروا بما يشـــبعهم من الرشا ، فى معارضة متكتلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة ـ سميت اولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم «الفنان» ـ راحت تكيل اللطمات ، اسبوعا بعد اسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو اراد ان يصنعه. وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى اروع نثر سياسي شـــهده العصر بعد اضمحلال سويفت . وقد اهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ ــ ٣٤) « رسالة فى الاحزاب » ــ الى ولبول تهكما منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن اعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قراتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان ادبه الجم (وهـــو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا احبطت مشـــيئته او عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلتنى الزعيم الاسمى للمعارضة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك اســـتقر مع مركيزته قرب فونتنبلو ووامي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراســـة التـــاريخ وفائدته » (الذى الفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بانه معمل هائل اجرت فيه الاحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال ... فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التـــاريخ (٣٧) » . وينبغى « ان نعكف عليه بروح فلسفية » والا يقتصر همنا على فهم الاســـباب والاثار والنتائج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى نبين الى الان انها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قليلا من كتب التاريخ يخلو من الاكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الاخطاء .. ولقـــد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب بآخر ان يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جـــديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتينى وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكارت وهو يبنى عوالم جديدة ، ولا ... نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا احد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل افكاره وافعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمله الى الجيل الأصغر . فلما زار انجلترة في ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان المقال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنروبك أن انجلترة قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشيع والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يقبض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على انها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحريات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليد المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تأثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشجع التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادىء الأحرار ويتألف من المحافظين الذين اقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدفه التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى اجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الاحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التى احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتطهر حكومة انجلترة . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الأب والابن . واوحى بالمحافظة الليبرالية التى دان بها بنيامين دزرايلى ، الذى أشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزى » (١٨٣٥) ببولنبروك ابا للديمقراطية المحافظة ، والرجل الذى ارسى باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الأساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) » . لقد كان تاثير بولنبروك ودزرايلى هو الذى صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمى فى انجلترة اليوم .

٥ ـ كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التى اتسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل وكان الوزير الحذر ، الذى أقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط فى خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى ـ الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادىء مماثلة ـ على الاحتفاظ أطول ما يستطاع بالسلام الذى ارسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء أوراتيو . ولكن احتفاظ انجلترة بجبل طارق ، وتنافس انجلترة واسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار ، ولدا عنفا أشد بمضي الزمن . وكان جورج الاول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك أسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترة ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى أبى أن يرتضي هذا الاستسلام (٤٥) . فلنتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترة الى الحرب ، فهى تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » ذلك الامتياز الذى منحته أسبانيا لانجلترة ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الاسبانية فى الدنيا

الجديدة ، وأن « تجـارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدير الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر . وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه فى قيامها بالتهريب . وزعم روبرت جنكنز أنه فى أحد هذه التفاتيش (٧٣١) فقد احدى أذنيـه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس فى بريطانيا ، وطالب عاليـا بالانتقام . وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجـارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين فى الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا فى المستعمرات البريطانية . واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ ولبول الذى كان يكره الانتقاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد فى عقاب التهريب على السواحل الانجليزية . وحبذت طبقة التجـار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحرى ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة . وأثارت ثائرة الشـعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل . وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء فى الأمر يشاد بهم وطنيين بواسل ، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور . وعرض جنكنز على البرلمان أذنه فى زجاجة (مارس ١٧٣٨) ، فالقى بلتنى ، وبت ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترة★ . وفى لحن عسكرى معـارض نددت جماهير الشـعب الأسـبانى بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا أكره أسبانيا نبيلا على جدع أنفه وأكله .

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقـولا . فنشر لاكوادرا ، كبير الوزراء الاسبان ، للاستهلاك الجماهيرى خطابا ساخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه أخبره سرا بان أسبانيا ترحب بتسـوية النزاع بعـد المفاوضة . ثم وقعت الحكومة البريطانية — فى تحد لهذه الصـورة

★ يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له أذنين سليمتين تماما . وتحدث بيرك عن « خرافة أذنى جنكنز (٤٧) » . ونسبت رواية أخرى صلم الأذن لقرصان عاقبته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) .

الجماهيرية الصاخبة ـ اتفاقية الباردو مع اسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩) وفيها نزل كل من الجانبين عن اشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسبانى المعاهدة ، ولكن انجلترة باكملها تقريبا اعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة ستنتقض من دخلها وارباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزى بمدريد وكيلا للشركة ايضا . يضاف الى هذا أن « الآزينتـــو » الذى سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترة بامداد أمريكا الأســـبانية بالعبيـــد الزنوج انتهى اجله فى ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزى من البحر المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم الغى الامر بعد أن اشتبه خطأ فى أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب التى أصابت البرلمان والشعب ، وفى ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترة الحرب على أسبانيا . واغتبط الشعب الذى كان لا يزال ينعت ولبول بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرع فى انجلترة طولا وعرضا . وكتب الآن جيمس طومسن اغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا » التى اقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ، فعندها تكمم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد ان وزارة ولبول كانت استثناء للقاعدة . فلقد احس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة للجيوش الزاحفة أو للاساطيل التى تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارتة تبعة الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل فى انتصار بحرى عند بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذى كان أحد أعضاء المعارضة . وفى فبراير ١٧٤١ أقترح صموئيل ســانديز عـلى البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه لم يهزم الا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وافسح له فى الوزارة عاما آخر ، غير انه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد تغييرا .

ثم انه أرهق . كتب أبنه يقول « هذا الذى كان فى السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة .. لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذى كان على المائدة ينسي دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) » . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذ كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب ايرل اكسفورد ، وبوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات ؛ وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت انجلترة السلام ، وانطلقت لتغزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » .

٦ ـ ارلنـدة : ١٧١٤ ـ ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الارلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى أحرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، "شرّعت مجموعة من القوانين قيدت الارلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيهم معاملة العبيد . يقول تشسترفيلد « ان الفقراء فى ارلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزنوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى ارلنده ان يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترة ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الايجارات التى يدفعها المستاجرون الارلنديون(٥٣). أما المستاجرون ـ الذين طحنتهم الايجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمقتونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم ـ فكانوا يسكنون اكواخا من الطين يرشح الماء من سقوفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الاحايين ، وذهب سويفت الى ان « المستاجرين الارلنديين يعيشون حياة اسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » . وأما المـلاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعهدون على همجية بيئتهم وعدائها بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرفة ، والشجار والمبارزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة .

ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على ارلنده ، فانه خنق اي صناعة تنافس انجلترة . وقد رأينا في غير هذا الموضع كيف قضي قانون صدر في ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى اى بلد كائنا ما كان . وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب . فاثقلت الصادرات الارلنـدية برسوم التصدير التى عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترة(٥٥) ، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترة ، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترة لماشية ارلندة او اغنامها او خنازيرها ، او لحم البقر او الضان او الخنزير ، حتى الزبد او الجبن . وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمســتعمرات الانجليزية ، فاشترط قانون صدر فى ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربيـــة للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترة ، فى مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز . وماتت البحرية التجارية الارلندية . يقول سويفت « ان مزايا الموانىء والمراقىء التى سخت بها الطبيعة على هذه المملكة ، ليست اكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس فى زنزانة (٥٦) » .

وارهقت القوانين التى شرعتهـــا انجلترة لرعاياها الارلنــديين البروتستنت كما ارهقت الكاثوليك ؛ وفى مناسبة مشهودة انضــموا الى الكاثوليك فى التمرد على الحكم البريطانى . وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا في العملة المعدنية بارلندة فى ١٧٢٢ . وعرض وليول تخفيف هذا العجز بأصدار عملة نحاسية . وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المالوف ، فقد منحت دوقة كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠٫٠٠٠ جنيه ؛ ولكى يجمع وليم هذا المبلغ مضافا اليه ريحــه

اقترح أن يسك ١٠٠ر٨٠٠ جنيه انصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانت حملة عملة ارلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ، فقد احتج الارلنديون بانه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية في المدفوعات وفي الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيهـا ايجارات المـلاك الغائبين بالفضة او العملة الورقية ، وان العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وانه لن يكون في ارلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة في علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الاصدار الجديد الى ٤٠ر٠٠٠ جنيه وقدمت تقريرا من اسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن انصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدني بشروط الامتياز ، وأنها افضل كثيرا من العملات الموروثة عن العهـود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سـويفت ، الناظـر الانجليكاني لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م. ب. درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما في روحه من عنف وما في جعبته من هجو ، لانها محاولة لغش الشعب الارلندي . وزعم أن العملة التي أرسلت الى نيوتن لاختبارها سـكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من انصاف بنسات وود تساوي اقل كثيرا من قيمتها الاسمية ! والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بان قدروا أن ارلنده ستخسر ٦٠ر٤٨٠ جنيهـا بالاصـدار الذي اقترح اولا (٥٧) . وفي الرسالة الرابعة انتقل سويفت الى اتهام قوي للحـكم الانجليزي كله في ارلنده ، ووضع هذا المبدأ « ان كل حـكم بغير رضي المحكومين ما هو الا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الارلنديون ، بما فيهم اغلبية البروتستنت لهذه النغمة الجريئة في لهفة ، وراح الناس يغنون في الشوارع اغاني شعبية تحض على مقاومة انجلترة . ووجـدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر لمام قلم واحد ، وهي التي تحـدت شعبا باكمله قرونا طوالا . وقدمت مكافاة من ثلاثمائة جنيه للقبض على الكاتب ، ولكن احدا لم يجرؤ على اتخاذ اجراء ضد الناظر العابس وان عرفه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ اي ارلندي على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة . وسلم ولبول بالهزيمة ، والغى الاصدار ، وعوض

وود بمبلغ ٢٤٫٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى انفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الافراد ، وذلك بسبب بنيان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستنت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترة . وفى ١٧١٩ اكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترة ، كقانون هابياس كوريس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلندة ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترة ، فلم يكن لها وجود فى ارلندة . ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبيهما واعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الاساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين اتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك. واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسطا من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزه الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستنت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستنتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة واقسم يمين التخلى التى تنبذ الولاء لأسرة ستيوارت . اما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ ذكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها أن فى ارلندة ١٫٤٤٥ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ارلندة .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، واليأس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو اسبانيا او أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجرأة ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعا . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمنا ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحيانا الى الثمانين لتنفيذ أوامرهم ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاغنام ، انتقاما كاثوليكيا - على ما يبدو - من الملاك البروتستنت . وكان عسيرا على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ارلندى طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقا . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالسحر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندة وألمانيا . وكان بين الاكليروس الأنجليكانى فى ارلندة علماء أفذاذ (كالأسقف آشر ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من أشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضوى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٫٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعا ، وكل اخفاق فى المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار ـ « فالشيوخ والمرضى يموتون وينتنون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » ـ على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطويل القاسي الذى أصاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ ـ ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من السكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . ففى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٫٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٫٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركلى ان « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما سلبته المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع سكان ارلندة من قرابة ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحو ٢٫٣٧٠٫٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم سلاح الغزاة وجشعهم .

٧ ـ اسكتلندة : ١٧١٤ ـ ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا أشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك اعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترة . وكان أهل سهولها سلالة انجلو ـ سكسونية ، ينتمون أساسا الى الأصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت،

في قبضة أهلها الشديدى المراس ٠ وأما دينها ، شانه شان الانجليكانية ، فكان نتاج حركة الاصلاح البروتستنتى ، لا تركة موروثة عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبعد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان فى انتخاب البرلمان الذى أصبح الآن يسمى البرلمان البريطانى (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وأذعنت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى ٠ وحاولت كل أبرشية فى اسكتلندة أن تنشيء مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد فى الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال ٠ وقد ازدهر هـذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر فى حركة « تنوير اسكتلندى» دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث ٠

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضي تحقيقه الكفـاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد أكله ٠ فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام ٠ كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة اتباعه المقطعين ، والأرض تفلحهـا طبقـة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليـم ٠ ولكن الاتحاد السياسي مع انجلترة أخذ الآن يقوض ذلك البناء ٠ كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئـة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفـوذ الأرض ؛ فتبنـوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصـحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدّون الزعامة القومية التى احتـكرها الأرجيليون ، والأثوليون ، والهاملتونيون ، والماربون ٠ وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السـلطة الاقطاعيـة الاسكتلندية ، فلما اخفقت اندمجت حياة اسـكتلندة الاقتصـادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى ٠ وفتح الاتحـاد المستعمرات الانجليزية للتجـارة الاسـكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجـار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان ٠ وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيـات ، وزاد السكان من ٠٠٠ر٠٠٠ر١ فى ١٧٠٠ الى ٠٠ ر٦٥٢ر١ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين الفا فى ١٧٥١ ثالثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول .

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب . ففى كل أحد يمشي الناس - أحيانا ميلين أو ثلاثة - ليختلفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر واهوال الجحيم . وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية . وقدّر هيوم ، حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة مرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلندة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الوعاظ فقليلو الحذق من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته . وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، وأى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وأى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة . وادان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح . واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان اخذت احكام الاعدام بسببها تقل . ففى ١٧٢٧ أدينت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرّت البنت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥). فلما الغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) .

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات . فوفد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة - من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكيبة من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج - كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوربا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشسن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ - ٤٦) ، نحّى الجدل الدجماطيقى ، وأرسي علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء - وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم ألوهيته ، لم يكن معادلا لله الآب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكوّنت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية - مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » - تبشر بالالحاد فى تفاخر ؛ ولعلهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة - اذا استثنيا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى - كانت لا تزال تنتشي بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ - الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترة أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريا كلمنتينا سوبيسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح - اللذان ربما ارتدا الى مارى ملكة الاسكتلنديين - مفخرة ومشكلة لأبويه . وأطلقت انجلترة على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مهذبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وُهب كل مفاتن الشبابه

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افتتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينيه العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارع طوله ستة أقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقى ماهر ، وراقص رشيق - وقال الدوق ان هذا « على الجملة أكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفى ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب فى الجيش الاسبانى فى جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على انجلترة . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البرلمان البريطانى ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى أفضي الى حرب الوراثة النمساوية . وأرسلت انجلترة جيشها الرئيسي الى القارة، فاى وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة اخرى للظفر بالعرش الانجليزى ؟ ومن ثم كونوا فى سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التى التزمت بتلك المغامرة ، وأوفدوا المبعوثين الى انجلترة ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وأرسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وامر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية واحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع فى برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل تحت امرة المريشال دساكس من دنكرك الى انجلترة . وانتظر الأمير تشارلز فى ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما فى ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتى ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة الى آنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . اما ابوه المسن فظل فى روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وامده بمعونة مالية معتدلة . فمضي الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافد الاوامر بالابحار مع المرشال دساكس ، الذى انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافد .

وحالفت الرياح والأمواج انجلترة كالعادة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريه ، وعمت الفوضي حين وصل نبأ بأن أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، واصيب الباقى بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبأ المثبط وصل فرنسا نبا بان الاستيوارتيين الانجليز مختلو النظام خائرو العزيمة ، وانه لا أمل فى معونة منهم اذا وصل الفرنسيون . وأخبر لويس ساكس بوجوب الاقلاع عن مشروع الغزو . اما انجلترة ، التى لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبأ فى باريس متنكرا ، واقسم لأصحابه أنه سيغزو انجلترة ولو اضطر الى الذهاب وحيدا فى زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحذر الاندفاع « الذى قد ينتهى بدماره ودمار كل من يشاركونك فيه (٧٠) » . وفى أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيا وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهدنى فى الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

واخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظه » و « يغزو أو يموت » وأرسل عملاء الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون فى منعه من المجىء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثانى ، محتذين فى ذلك حذو بولنبروك. ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠ر٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحق باحدى سفينتى تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو فى الأخرى شمالا الى غربى انجلترة ، وفى ٣ اغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، فى جزر الهبريد الخارجة . ونصحه زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الأمير « اننى فى وطنى » . وأنذر بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠ر٠٠٠ جنيه لمن يأتى به اسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التى اقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة . وفى ١٩ اغسطس رفع رايته فى جلينفينان باقليم المرتفعات ، ودعا كل أنصار اسرته ليعينوه .

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم أتباع له ليشوا به ، واعلن ستة اشراف انضمامهم اليه ، وكان الف ومائتان من بين رجاله الالفين من عشيرتى مكدونلد وكمرون . وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السر جون كوب . وفى ١٧ سبتمبر دخل ادنبره ، واستولى على المحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس السادس والاول أمه . وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا يأخذ بالألباب فى بزة اهل المرتفعات ، بسراويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء . وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد امتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلّت كل النساء من اجله وهفت قلوبهن اليه . وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نمى اليه نبأ اقتراب كوب من ادنبره فى الفين من جنوده . وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسري كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدا أنه قد ظفر باسكتلنده .

وأمر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والثياب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر اخرى اليه . وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا . وفى ٨ نوفمبر عبر الامير السعيد الحدود راجلا الى انجلتره على رأس ٤٫٥٠٠ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثيا الى داربى ، آملا بتقدمه المثير ان يحمل انجلتره على استقباله ملكا شرعيا لها . وأذاع منشورا تعهد فيه بأنه لن يصيب الانجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكى الرومانى ، أذى اكثر مما اصابهم على يد جورج الأول اللوثرى (٧٢) . غير ان انجلترة لم تصدقه ، وكرهت أن تعاود من جديد ذلك الصراع المضنى الذى خاضه المذهب الجديد ضد القديم .

ومع أن احدا فى انجلترة لم يكد يهب ليقاوم تشارلز ، فان حفنة من الجند الانجليز فقط هى التى خفت لنجدته . واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة .

وكان جورج الثانى قد هرع عائدا من هانوفر ليحمى عرشه المهدد وأمر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى . وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بالافه الستة ، ولكن زعمـــاء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه . ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة الاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليــه بعد قليـــل ، وان الانتفاضة الاستيوارتية التى وعدهم بها لا اثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيدا من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا . واذعن تشـــارلز ، وقاد التقهقر الاليـــم من داربى الى جلاسجو . وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) . ولكنه كان نصرا باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر . وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن انه مغلوب . وعاد الجيش الاسكتلندى متجها الى اقليم المرتفعات . وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صـــفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش .

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلنده ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزا من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا . وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨٫٨٠٠ مقاتل شمالا مخترقا مقاطعة انفرنيس . وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجأ الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد ان فارقه المجد . وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا اقله لفرنسا .

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تاخذه بهم رحمة » . فكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فورا . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل(٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا قصدا ضئيلا لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق أن العشائر المتمردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد التمرد . وظل دعاة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل فى روما .

ذلك معاهدة اكس ـ لا ـ شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترة وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الأرض الفرنسية . ولكنه رفض الرحيل ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متنكرا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول أن ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وان يعد بالتخلى عن المذهب الكاثوليكى (٧٦) . وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجوالة بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شىء فى نهاية الأمر (٧٧) » .

٩ ـ صعود وليم بت : ١٧٠٨ ـ ٥٦

أسلم سقوط ولبول انجلترة الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضى سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولمنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ ـ ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترة مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال ألهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ ـ ٥٤) انجلترة الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدّد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لساسة انجلترة ، ضمّنها ـ لدواعى الموازنة ـ جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وأبقى مأثرة لهاتين الوزارتين أنهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠ر١ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكمـا على

مدراس . فما حل عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا بملك من المـــال ما مكنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين الفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكنه من بيعها لفليب اورليـــان ، الوصى على عــرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٫٠٠٠ جنيه ، وهى محفوظه الآن ـ بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٫٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية فى متحف اللوفر شاهدا متالقا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاســـبه فى العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا فى البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . واوصي بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر ابنائه الذى تزوج هاربيت فليبـــه ، التى انجبت له سبعة اطفال ، كان وليم بت ثانى ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو فى ايتن ، وذهب الى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على انه لم يحطم روحه .. وقد اشتهر فى اكسفورد بمعاناته من النقرس وهو فى الثامنة عشرة . واذ راوده الامل فى البرء من هذا الداء اذا عاش فى مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون ان يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذى حمـــله طـــوال انتصاراته . ومع ذلك انخرط فى الجيش ، وخدم فيه اربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هى فيصل التاريخ وقدر الدول . وفى ١٧٣٥ اشترت له أسرته أصوات دائرة أولد ساروم، رغم نها تركته فى فقر نسبى باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته فى البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هنـــاك ، لأنه كان ابلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب فى خطبــه كل قوة خلقه العاطفى المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، واخيرا اعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الاهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقدح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماءته ، وكانت كل عاطفة تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتتقد فى عينيه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكأن الكلمة صارت جسدا . لقد كان أعظم ممثل اجتنب خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلفه والريح التى تدفع فى قلوعه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه انجلترة بأسرها ، وأفنى نفسه بجرّه انجلترة ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذ شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت ّحلّقى هانوفرى ، أو أى رشا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الُخلُقى - وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان قد توسل بالخديعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فان تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، وندر أن توقف ليُفسر أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يُبلغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه - الذى كان نجاحا لانجلترة - القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفخار . وكان فى كبريائه شيء جليل ؛ فقد كان يحتقر شراء الترقى بالتذلل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد أسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى - فى رأى بت - « نحو هانوفر تحيزا سخيفا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترة غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحدة حملت دوقة ملبره وهى على فراش الموت سنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بث وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بانه « أكفأ وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وامين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، واذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلـــده ، فالخازن ياخذ لنفسه نصفا فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للامراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة ـ التى يحتفظ بها لنفسه ـ الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وابى بت ان ياخذ غير راتبه الرسمى ، فلما الح عليه ملك سردانيا فى أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهـــدية . وصفقت انجلترة لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، واصغت فى شوق الى مرافعاته المطالبة ببريطانيا شامخة الراس فوق العالم بامره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترة وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترة معاهدة مع بروسيا . وفى مايو ابرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترة وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .

الفصل الرابع

الدين والفلسفة

١ ـ الموقف الدينى

كان لقصة القرن الثامن عشر فى غرب أوربا موضوع ذو شقين ، انهيار النظام الاقطاعى القديم ، والانهيار الوشيك للدين المسيحى الذى اضفى على ذلك النظام سنده الروحى والاجتماعى . فقد كانت الدولة والدين مرتبطين برباط المعونة المتبادلة ، وبدا أن سقوط الواحد يجر الآخر الى ماساة مشتركة .

وقد لعبت انجلترة الفصل الأول فى كلتا ناحيتى هـــذا التغيير العظيم . ففى المسرح السياسي سبقت حربها الأهلية (١٦٤٢ ـ ٤٩) الثورة الفرنسية بمائة وسبعة وأربعين عاما فى خلع أرستقراطية اقطاعية وضرب عنق ملك . أما فى مجال الدين فان نقد الربوبيين للمسيحية سبق الحملة الفولتيرية فى فرنسا بنصف قرن ، وسبقت مادية هوبز مادية لامترى بقرن ، وسبقت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) ومقاله « فى المعجزات » (١٧٤٨) هجوم « الفلاسفة » الفرنسيين على المسيحية فى « الموسوعة » (١٧٥١) . وكان فولتير قد تعلم شكوكيته فى فرنسا ـ وبعضها اخذه عن بولنبروك الانجليزى المبعد عن وطنه ـ قبل ان يحضر الى انجلترة ولكن السنوات الثلاث التى قضاها فى انجلترة (١٧٢٦ ـ ٢٨) روعته بمشهد السنية وقد أصابها الانحلال والكاثوليكية وقد ذلت ، والبروتستنتية وقد تفرقت شيعا مســـتضعفة ، والربوبيين يتحدون كل شيء فى المسيحية الا الايمان بالله ـ وهو بالضبط التحدى الذى سيحمله فولتير الى فرنسا . يقول فولتير « فى فرنسا ينظر الناس الىّ على أننى مقـــلّ فى الدين ، وفى انجلـترة على أننى مسرف فيـــه (١) » .

وقد كتب مونتسكيو بعد أن زار انجلتره فى ١٧٣١ يقول « ليس

فى انجلترة دين(٢)»• وهذا بالطبع تدريب على المبالغة اللافتة للأنظار، لأنه فى تلك الفترة بعينها كان جون وتشارلز وسلى يؤسسان الحركة المثودية فى اكسفورد • ولكن مونتسكيو ، وهو رجل ارستقراطى ، تنقل أكثر ما تنقل بين اقطاب النبالة او العلم ، وهو يخبرنا أنه فى هذه الجماعات « اذا ذكر الدين ضحك الجميع (٣) » • وهذا أيضا يبدو غلوا فى القول ؛ ولكن لنستمع الى اللورد هرفى ، الذى كان يعرف تقريبا كل رجل وامرأة ومنحرف بين علية القوم :

« ان خرافة المسيحية هذه ••• قد نسفت الآن (١٧١٨) فى انجلتره ، حتى ليكاد أى رجل عصرى أو ذى مكانة يخجل من الاعتراف بمسيحيته خجله فى الماضي من الجهر بتجرده من أى دين • وحتى النساء اللائى كن يفخرن بذكائهن حرصن على أن يفهمن الناس ان الميول المسيحية هى ما يحتقرن الالتزام به (٤) » •

فى تلك الطبقات أو العقول الرفيعة كان الدين يعنى اما نعاس صلاة القداس الانجليكانى أو « حماسة » المذاهب المنشقة ، وعما قليل سيعرف الدكتور جونسن الحماسة بأنها « ايمان مغرور بالالهام الخاص » ـ وبالمعنى الحرفى « الله فى باطن الانسان » • وكانت الكنيسة الرسمية قد فقدت كرامتها ونفوذها بمساندتها الاستيوارتيين ضد الهانوفريين وحزب الأحرار المنتصر ؛ وخضعت الان للدولة ، وغدا نساوستها أتباعا أذلاء للطبقة الحاكمة • وكان القسيس الريفى هو الهدف المفضل لهجو الأدباء أو سخرية السوقة ، وقد كرم فيلدنج من شذوا عن هذه القاعدة فى شخص الفس ادمز • وغلبت الفوارق الطبقية فى الكنائس ، فكان للأغنياء مقاعد خاصة قرب المنبر ، وجلس عامة الناس أو وقفوا فى المؤخرة ، فاذا قضيت الصلاة لزم العامة أماكنهم ريثما يخرج صف الكبراء فى وقار بطىء (٥) • وفى بعض كنائس لندن ، حين يكثر عدد الفقراء القادمين للعبادة ، كان المصلون من اصحاب البواريك يهربون بعد أن يقفلوا مقاعدهم خلفهم (٦) ، ملتمسين هواء أكثر نقاء •

وكان بعض الأساقفة الانجليكان أمثال بطلر ، وباركلى ، ووربرتون ، رجالا متبحرين فى العلم ؛ وكان اثنان من هؤلاء على خلق عظيم ، ولكن

اكثر كبار الاكليروس كانوا فى مناوراتهم للترقى يشاركون فى لعبـــة السياسة شكاك البلاط ومحظياته ، ويفنون فى حياة الترف دخول كثير من الابرشيات • وقد روى أن الاسقف تشاندلر دفع ٩٫٠٠٠ جنيه لترقيته من لتشفيلد الى درم ، اما ويليز اسقف ونشستر ، وبوتر رئيس اســاقفة كنتربرى ، وجبسن وشرلوك اسقفا لندن ، هؤلاء جميعا ماتوا « اغنياء غنى مخزيا » وبلغت ثروة بعضهم ١٠٠٫٠٠٠ جنيــه (٧) • ولم يكن تكرى يطيقهم ، فقال :

« قرات أن الليدى يارموث (خليلة جورج الثانى) باعت أسقفية لكاهن بمبلغ ٥٫٠٠٠ جنيه ••• أكان هو الحبر الوحيد فى عصره الذى قادته أيد كهذه الى المحراب ؟ اننى اذ اختلس النظر الى داخل قصر سانت جيمس الذى يقطنه جورج الثانى ، أرى الثياب الكهنوتية الكثيرة تحدث حفيفا وهى تصعد السلم الخلفى لسيدات البلاط ؛ قساوسة متسترين يدسون أكياس النقود فى حجورهن ، وذلك الملك العجوز الفاجر يتثاءب تحت مظلته فى المصلى الملكى أثناء عظة القسيس ، الواقف أمامه ، (أو) يثرثر بالالمانية ••• بصوت يبلغ من علوه أن القسيس ••• انفجر صارخا فى منبره لأن حامى الايمان وموزع الأسقفيات لا يريد الاصغاء اليــه ! (٨) » •

وكان من سمات العصر أن الكنيسة الرسمية أصبحت شديدة التسامح مع عقائد أعضائها وطقوسهم المختلفة • وقد وصفها بت بانها « عقيدة كلفنية ، وطقوس بابوية ، وأكليروس ارمنيومي (٩) » أى أن العقيدة الرسمية كانت جبرية ، والطقوس شبيهة بطقوس روما الكاثوليكية ، ولكن روحا متحررة سمحت للقساوسة الأنجليكان برفض حتمية كلفــن واعتناق تعليم المهرطق الهولندى أرمينيوس القائل بحرية الأرادة • لقد ازداد التسامح لأن الايمان اضمحل ، وآية ذلك أن هرطقات كهرطقــة هيوم ، كانت تروع انجلترة القرن السابع عشر لو جهر بها انسان ، لم تحدث غير موجة طفيفة على نهر الفكر البريطانى • وقد وصف هيوم نفسه انجلترة بانها « استكانت الى حال من عدم الاكتراث الهادىء بامور الدين لا تجدها فى اى امة اخرى من أمم الأرض (١٠) » •

وكان كل الانجليز ملزمين بالعبادة الانجليكانية حسب نص القانون. فكل متخلف عن صلوات الاحد عرضة لتغريمه شلنا عن كل تهرب ، وكل من يسمح لهذا المتخلف بمساكنته يعاقب بغرامة عشرين جنيها فى الشهر (١١) ؛ على ن هذه القوانين ندر أن طبقت . وكانت العبادة الكاثوليكية محرمة ، قانونا أيضا لا تطبيقا . فالقس الكاثوليكى الذى يؤدى وظيفة كهنوتية عقابه الحبس المؤبد . ومثل هذه العقوبة فرضت لثنى اى كاثوليكى عن فتح مدرسة ؛ وحرم على الوالدين ارسال ابنائهم الى الخارج ليتعلموا تعليما كاثوليكيا والا غرموا ١٠٠ جنيه . ولا يحق شراء الارض او ورثها الا للمواطنين الذين اقسموا يمينى الولاء والسيادة (اللتين تعترفان بملك انجلترة رأسا للكنيسة) وقرروا رفضهم لعقيدة التحول . وكل كاثوليكى يرفض أداء هاتين اليمينين يحرم من المناصب المدنية او العسكرية ، ومن ممارسة المحاماة ، ومن اقامة اى دعوى امام القضاء ، ومن العيش فى نطاق عشرة أميال من لندن ؛ يضاف الى هذا ان هذا الكاثوليكى يجوز فى اى وقت نفيه من انجلترة والحكم عليه بالاعدام اذا عاد اليها . على ان الذى حدث فعلا أيام جورج الاول والثانى هو ان الكاثوليك كانوا يورثون ثروتهم وعقيدتهم بانتظام لابنائهم ، ويستطيعون الاستماع الى القداس فى كنائسهم الصغيرة وبيوتهم دون معوق ، وان الكثيرين منهم أدوا اليمينين المطلوبتين مع تحفظ بينهم وبين انفسهم (١٢) .

وكان كل البروتستنت الانجليز الغيورين الآن يتبعون المذاهب المنشقة على الكنيسة الرسمية . وقد ضحك فولتير واغتبط لكثرة عددهم : مستقلون (بيورتان) ، ومشيخيون ، ومعمدانيون ، ومجمعيون ، وكويكريون ، وتوحيديون . فاما المشيخيون (البرزبتيريون) فكانوا فى طريقهم الى التسامح بعد ان فقدوا سلطتهم السياسية ، ولم ياخذوا عقيدة الجبر ماخذ الجد الشديد ، وكان كثير منهم قانعا فى صمت بمسيح بشرى(١٣) . وفى ١٧١٩ قرر مجمع للقساوسة المشيخيين باغلبية ٧٧ الى ٦٩ أن التعهد بالتزام عقيدة الثالوث التقليدية ينبغى الا يكون شرطا يفرض على المرشحين رعاة للكنيسة(١٤) . واما الكويكريون فكانوا فى نمو لا فى العدد بل فى الثراء ، وكلما ارتقوا فى مدارج المجتمع اصبحوا أكثر تقبلا لاساليب حياة البشر وذنوبهم . على أن ميلا الى الاكتئاب

اصاب كل المنشقين تقريبا حتى وهم ينعمون بالثراء ، وبينما كانت طبقات المجتمع العليا تجعل من يوم الاحد يوم جذل كانت الطبقة الوسيطة الدنيا - حيث يتكاثر المنشقون - تواصل « الأحد العبوس » الذى ورثته عن البيورتان . فى ذلك اليوم كانت الاسرة عقب صلوات الصباح فى البيت تمضي الى قاعة الاجتماع لحضور خدمة دينية تمتد ساعتين ، فاذا عادت الى البيت قرأ الأب الكتاب المقدس أو الكتب التقوية على زوجته وأبنائه الذين قد يجلسون على وسائد فوق أرض عطلت من الابسطة . وكانوا عادة يذهبون ثانية الى خدمات دينية تقام عصرا ومساء ، ويصلون جماعة ، ويسمعون عظة أخرى ، ويجدون بعض اللذة فى ترتيل الترانيم الجمهورية . ولم يكن مسموحا باى غناء فى ذلك اليوم المقدس ، ولا بلعب الورق ، ولا باى تسلية من أى نوع كانت بصفة عامة . ويجتنب السفر فى يوم الرب ، فيعطى قطاع الطرق بهذه الطريقة يوم راحة .

ووجد فولتير فى معرض وصفه للمشهد الدينى فى انجلترة الكثير مما يصلح درسا لفرنسا التى مازال التعصب يحكمها . قال :

« انظر الى بورصة الأوراق المالية الملكية بلندن ... هناك يُجرى اليهودى والمسلم والمسيحى معاملاتهم معا وكانهم من دين واحد ، ولا ينعتون بالكفر غير المفلسين . هناك يثق المشيخى بالقائل بعماد الكبار ، ويعتمد الانجليكانى على كلمة الكويكرى . فاذا انفض هذا الجمع الحر مضي بعضه الى مجمع اليهود ، وبعضه ليشرب كاسا من الخمر . هذا الرجل يذهب ويعمّد فى حوض هائل باسم الآب والابن والروح القدس ؛ وذاك يامر بختان ولده وبتمتمة طائفة من الكلمات العبرية التى يجهل كل الجهل معناها فوق الطفل ؛ وآخرون (الكويكريون) يمضون الى كنائسهم - حيث ينتظرون الوحى وقبعاتهم علىٰ رءوسهم ؛ والكل راضون .

« ولو ان انجلترة لم تسمح بغير دين واحد ، لاصبحت الحكومة فى اغلب الظن مستبدة ؛ ولو كان هناك دينان فقط لذبح الناس بعضهم بعضا ؛ اما والأديان بهذه الكثرة ، فانهم جميعا يعيشون فى سعادة وسلام (١٥) » .

٢ ـ التحـدى الربوبى

تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسـيحية فى انجلترة : ارتباط الكنيسة بصعود الاحزاب السياسية وسقوطها ؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة فى طبقات المجتمع العليا ، ودولية الافكار بفضل التجارة والسفر ، والالمام المتزايد بالاديان والشعوب غير المسيحية ، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها ، وتطور العلم ، وازدياد الايمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة ، والدراسة التاريخية والنقـدية للكتاب المقدس ، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل « معجم » بيل و « الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا » ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات (١٦٩٤) ، ومكانة العقل الصاعدة ، والمحـاولات الجديدة للفلسفة ، فى أعمال بيكون ، وهوبز ، ولوك ، لتفسير العالم والانسان تفسيرات طبيعية و ـ تلخيصا لكثير من هذه العوامل ـ حملة الربوبيين (المؤلهة) Deists لاختزال المسيحية الى مجرد الايمـان بالله والخلود .

وكانت تلك الحـركة قد بـدات بكتـاب « الحقيقة » لهربرت لورد تشربرى فى ١٦٢٤ ، ونمت خلال القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر بتشارلز بلاونت ، وجون تولاند ، وأنتونى كولنز ، وواصلت الان سيرها بأثر متراكم فى اعمال هويستن ، وولستن ، وتندال ، ومدلتن ، وتشب ، وآنت ، وبولنبروك . وقد طرد وليم هويستن الذى خلف نيوتن استاذا « لوكازيا » للرياضة فى كمبردج من منصـبه ذاك (١٧١٠) لاعرابه عن بعض الشكوك فى الثالوث ، فدافع عن اريوسيته فى كتاب « احياء المسيحية البدائية » (١٧١٢) ، وأجهـد نفسـه ليثبت أن تنبؤات العهد القديم لا تشـير الى المسـيح . فلما اقلع المدافعـون عن المسيحية عـن اتخـاذ الحجج من التنبؤات ، وبنـوا الوهيـة المسيح على المعجزات المروية فى العهد الجديد ، اطلق توماس وولستن سورته التى خلت من التوقير للمسيحية فى « ستة احاديث عن معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ ـ ٣٠) . يقول فولتير « لم يهاجم المسيحية قط مسيحى بمثل هذه الجراة (١٦) » . وقد زعـم وولسـتن أن بعض المعجزات لا تصدق ، وبعضها غير معقول . ووجد أن مما لا يصدقه

العقل ان يلعن المسيح شجرة تين لانها لم تثمر تينا فى وقت مبكر من العام كوقت الفصح • وتساءل ماذا كان مربو الأغنام لصوفها فاعلين بيسوع لو أنه دفع أغنامهم الى الموت كما فعل بخنازير الجدريين ؛ انهم كانوا « يستصدرون حكما باعدامه شنقا » ، لأن القانون الانجليزى يعتبر هذا العمل جناية كبرى (١٧) • وذهب وولستن الى ان قصة قيامة المسيح خدعة مفتعلة خدع بها الرسل سامعيهم • وغطى هذا كله بتاكيدات زعم فيها انه ما زال مسيحيا « قويا كالصخرة » • ومع ذلك أهدى كل حديث الى اسقف مختلف ، مع التنديد بكبرهم وجشعهم تنديدا حملهم على رفع دعوى القذف والتجديف عليه (١٧٢٩) • وحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها مائة جنيه ، وبتقديم ضمان لسلوكه سلوكا حميدا فى المستقبل • فلما عجز عن جمع المبالغ المطلوبة زج به فى السجن • وقدم فولتير ثلث المبلغ ، وجمع الباقى ، وافرج عن وولستن • ولا شك أن المحاكمة كانت اعلانا عن « الاحاديث » ، فبيع منها ستون الف نسخة فى بضع سنوات (١٨) • روت « سيرة لوولستن » بقلم كاتب مجهول (١٧٣٣) كيف انه وهو سائر فى سانت جورجز فيلدز ، « لقيته شابة وسيمة وخاطبته بهذه الكلمات ••• أيها الوغد العجوز ، ألم تشنق بعد ؟ » فاجابها وولستن « ايتها المراة الطيبة ، انا لا اعرفك • فقولى لى من فضلك بم أسات اليك» ؛ فاجابت المراة « لقد هاجمت مخلصي ، فما الذى يحدث لنفسي الخاطئة المسكينة، لولا مخلصي الحبيب ؟ ـ مخلصى الذى مات من اجل الخطاة الاشرار امثالى (١٩) » •

وبلغت الدعوى الربوبية ذروتها فى ماتيو تندال ، زميل كلية جميع النفوس باكسفورد • فبعد حياة هادئة محترمة كان اهم ما ميزها اعتناقه الكاثوليكية ثم تحوله عنها ، نشر وهو فى الثالثة والسبعين أول مجلد من كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة » (١٧٣٠) • وخلف عند موته بعد ثلاث سنوات مخطوطة مجلد ثان وقع فى يد أسقف فاتلفه • وفى وسعنا أن نقدر وقع المجلد الأول من الردود التى حاولت مناقضته وعددها ١٥٠ ، وهذا الكتاب هو الذى ابتعث كتاب الأسقف بطلر « أوجه الشبه بين الدين والطبيعة » وكتاب الأسقف باركلى « السيفرون » (أو الفيلسوف الصغير) •

وقد طوفتندال فى غير ترفق بكل أوهام اللاهوت . فتساءل لم أعطى الله وحيه لشعب صغير واحد هم اليهود ، وجعله حكرا عليهم اربعة آلاف سنة ، ثم أرسل اليهم ابنه بوحى آخر مازال بعد ألف وسبعمائة سنة مقتصرا على اقلية من الجنس البشرى . فأى نوع من الآلهة يمكن أن يكون هذا الآله الذى استعمل هذه الطرق السقيمة بمثل هذه النتائج البطيئة الناقصة ؛ وأى اله رهيب هذا الذى عاقب آدم وحواء على طلب المعرفة ، ثم عاقب كل ذراريهم لمجرد أنهم ولدوا ؟ يقال لنا ان السخافات التى يتضمنها الكتاب المقدس سببها أن الله وفق كلامه للغة سامعية وأفكارهم . فياله من هراء ! لم لم يستطع أن يحدثهم بالحقيقة البسيطة بصورة مفهومة ؟ ولم استخدم الكهنة وسطاء له بدلا من أى يتحدث مباشرة الى نفس كل انسان ؟ ولم سمح بأن يصبح دينه الموحى لشعب بعينه أداة اضطهاد ، وارهاب ، وحرب ، لا يخرج منه البشر بعد قرون من هذا التدبير الالهى أكثر فضيلة منهم عن ذى قبل ؟ـ بل جعلهم فى الواقع اشد ضراوة وقسوة مما كانوا فى ظل العبادات الوثنية ! أليس فى كونفوشيوس أو شيشرون فضيلة أرفع مما فى مسيحية التاريخ ؟ ان الوحى الحقيقى موجود فى الطبيعة ذاتها ، وفى عقل الانسان الممنوح من الله ؛ والاله الحقيقى هو الاله الذى كشف عنه نيوتن ، المهندس لعالم عجيب يعمل بعظمة وجلال وفق قانون ثابت ؛ والفضيلة الحقة هى حياة العقل فى انسجام مع الطبيعة ، « نكل من ينظم ميوله الفطرية بحيث تؤدى الى اقصى حد لاستخدام عقله ، وصحة جسده ، ولذات حواسه ، مجتمعة كلها معا (لأن فى هذا سعادته) ـ له أن يثق بأنه لا يمكن أن يغضب خالقه الذى اذ يحكم كل الاشياء حسب طبائعها فهو لابد يتوقع من مخلوقاته العاقلة أن تسلك وفق هذه الطبائع (٢٠) » . تلك هى الفضيلة الحقة ، تلك هى المسيحية الحقة « القديمة قدم الخليقة » .

وواصل كونيرز مدلتن الهجوم من الزاوية التاريخية . فبعد أن تخرج فى كلية ترنتى بكمبردج رسم قسيسا ، وبينما كان يكيل الضربة تلو الضربة للايمان السنى ، واصل الممارسات الخارجية للعبادة المسيحية . وقد كتب طرفا من أفضل النثر فى عصره ، وكتابه « سيرة شيشرون » (١٧٤١) ما زال الى اليوم سيرة رائعة رغم كثرة

ما استعارة من سير شيشرون التى سبقته . وقد ابهج زملاءه القساوسة حين أرسل الى انجلترة « رسائل من روما » (١٧٣٩) ، التى بين فيها بتفصيل ينم على علم ودراية رواسب الطقوس الوثنية المتخلفة فى مجموعة الطقوس الكاثوليكية ــ البخور ، والماء المقدس ، وآثار القديسين ، والمعجزات ، والقرابين المنذورة والأنوار القائمة أمام المزارات المقدسة ، و « كبير الأحبار Pontifex Maximus » القديم الذى أصبح كبير أحبار روما Pontiff . وصفقت انجلترة البروتستنتية للرسائل ، ولكنها سرعان ما تبينت أن ولع مدلتن بالتاريخ يمكن أن يكدر صفو اللاهوت البروتستنتى كالكاثوليكى سواء بسواء . فلما دافع دانيال ووترلاند عن حرفية صدق الكتاب المقدس ووحيه ردا على تندال ، أنذر مدلتن فى « رسالة الدكتور ووترلاند » (١٧٣١) اللاهوتيين البروتستنت بأن تشبثهم بكل أساطير الكتاب المقدس باعتبارها تاريخا فعليا ليس الا عملا انتحاريا ، لأن تقدم المعرفة سوف ينبذ ان عاجلا أو آجلا مثل هذه الخرافات ويكره المدافعين المسيحيين على التقهقر فى خجل الى موقف أكثر تواضعا . ثم لجأ مدلتن الى حجة فضحت ما كان لدراسته للتاريخ من اثر فى ايمانه الدينى فقال : « حتى ولو كان اللاهوت المسيحى لا يصدق ، فان المواطن الصالح سيساند المسيحية والكنيسة المسيحية باعتبارهما درعا للنظام الاجتماعى يوفر روادع ممتازة للهمجية الكامنة فى طبيعة البشر (٢١) » .

وأخيرا اصدر مدلتن اهم أعماله ، « تحقيق حر فى القوى الاعجازية المزعوم انها وجدت فى الكنيسة المسيحية خلال العصور المتعاقبة » (١٧٤٨) ــ وهو كتاب عدّه هيوم بعد ذلك أسمى من مقاله المعاصر « فى المعجزات » (١٧٤٨) . وقد بدأ بالتسليم بحجية المعجزات المنسوبة فى الاسفار القانونية من العهد الجديد الى المسيح أو رسله ، وأراد أن يظهر فقط أن المعجزات المنسوبة الى آباء الكنيسة وقديسيها وشهدائها بعد القرن الميلادى الأول غير جديرة بالتصديق ، ومجرد سرد تلك القصص يكفى للكشف عن سخفها . وقد أمّن بعض آباء الكنيسة على مثل هذه القصص وهم يعلمون زيفها ؛ ونقل مدلتن عن موزهايم ، المؤرخ الكنسي العلامة ، تصريحه بالخوف من أن « الذين يبحثون بشيء من العناية كتابات أعظم وأقدس لاهوتيى القرن الرابع

سيجدونهم كلهم وبلا استثناء ميالين الى الخداع والكذب كلما اقتضت ذلك مصلحة الدين (٢٢) » .

وفى كتاب مدلتن عيوب كثيرة . فقد فاته انه هو أيضا زكى الخداع بالجملة دعما للمسيحية ، وغفل عن ان من التجارب الغريبة ، كاخراج « المس الشيطانى » ، او كسماع القديس انطونيوس للشيطان واقفا ببابه ، ما يمكن ان ينشا عن قوة الايحاء أو الخيال ، وربما بدت هذه التجارب من قبيل المعجزات لمن رووها بامانة . على أى حال كان من اثر هذا « التحقيق الحر » انه سلّط على معجزات العهد القديم ثم على معجزات العهد الجديد ، طرق النقد ذاتها التى طبقها مدلتن على عصر آباء الكنيسة ، وكان خصومه الكاثوليك محقين تماما حين زعموا ان حججه من شانها اضعاف كل الأساس الاعجازى للاديان المسيحى . ولعل مدلتن قد قصد الى هذا . ولكنه احتفظ بترقياته الكنسية الى النهاية .

كان اعتناق بولنبروك للربوبية سرا مخفى وعدوى متفشية فى الطبقة الأرستقراطية . ففى كتاباته التى حبسها عن النشر فى حياته صوّب قدحه المفعم بالازدراء الى جميع الفلاسفة تقريبا فيما عدا بيكون ولوك . فلقب أفلاطون بابى الكذب اللاهوتى ، وسمى القديس بولس « حالما متعصبا » ولبينتر « مشعوذا كيميائيا (٢٣) » والميتافيزيقيين « مجانين مثقفين » ووصف كل القائلين بتميز النفس عن الجسد بانهم (٢٤) « معتوهون روحيون » وسخر من العهد القديم لأنه خليط من الهراء والأكاذيب (٢٥) . ولقد صرح بايمانه بالله ، ولكنه رفض ما بقى من العقيدة المسيحية . فكل المعرفة عنده نسبية وغير يقينية . يقول : « ينبغى لنا دائما ان نكون غير مؤمنين ... ففى الدين ، والحكم ، والفلسفة ، ينبغى أن نتشكك فى كل شيء مقرر (٢٦) » والقى وراء ظهره بآخر تعزيات الشكاك وهى الايمان بالتقدم ! فكل المجتمعات تمر بدورات « من النشوء الى الفساد ، ومن الفساد الى النشوء (٢٧) » .

وفى ١٧٤٤ ورث بولنبروك ضيعة الأسرة فى باترسي ، وغادر

فرنسا لينفق هناك آخر سنى صراعه مع المرض والياس · وهجره اصحابه القدامى لانهيار نفوذه السياسي وحدة طبعه · وانهى موت زوجته الثانية (١٧٥٠) اهتمامه بشئون البشر ، « فى كل سنة أزداد عزلة فى هذه الدنيا (٢٨) » وهذا عقاب الانانية · وفى ١٧٥١ ابتلى بالسرطان الذى انتشر من وجهه فاملى وصية تتسم بالتقوى ، ولكنه رفض ان يسمح لأى قسيس بالاهتمام بروحه (٢٩) · ومات فى ١٢ ديسمبر بعد ستة شهور من العذاب ، بغير أمل لا لنفسه ولا للبشر · لقد أخذ اضمحلال الايمان الدينى يولد ذلك التشاؤم الذى سيصبح العلة الخفية التى تبتلى بهـا النفس العصرية ·

٣ ـ الدفـع الدينى

اما المدافعون عن المسيحية فلم يقـابلوا الهجـوم الربوبى باى استسلام أو هزيمة ، بل انهم على العكس من ذلك ردوا الهجـوم بكل ما اوتى تندال او مدلتن أو بولنبروك من قوة عارمة ، وعلم واسع ، واسلوب مقذع · واعتمد المدافعون الأضعف شانا ، مثل تشاندلر أسقف لتشفيلد ، ونيوتن أسقف لندن ، على الحجج البالية ، وهى ان اليهود كانوا ينتظرون فى حرارة وشوق مجىء « المسيا » حين اتى المسيح ، وان كثيرا من النبؤات اليهودية تحققت على يديه ؛ او رجعوا ـ كمـا فعل شرلوك أسقف لندن وبيرس أسقف روتشستر ـ الى الشواهد الكثيرة على قيامة المسيح · وركز شرلوك وغيره على أن الادلة على معجزات المسيح غامرة ساحقة ، وفيها الكفاية لدعم الوهية المسيح والمسيحية · وقال شرلوك ان رفض حدث توافرت الأدلة على صـدقة لانه يناقض تجربتنا عمل شديد الخطر ، فعلى الأساس نفسه رفض سكان المدارين أن يؤمنوا بحقيقة الثلج · فاذا زعمنا أن الاشياء لا يمكن ان تكون غير ما عرفناها ، « تجاوزنا اعلام حواسنا ، وقامت النتيجة على الهـوى لا على العقل (٣٠) » · وليس فى امكاننا التاكد من ان الانسان لن يقوم من الأموات برغم تجربتنا الواسعة ، الضيقة فى حقيقتها · فانظر كم من العجائب التى نقبلها الآن على انها احداث عادية فى حياتنا كنا من قبل نظنها بعيدة التصور !

أما جورج باركلى ، الذى ترك بصمته على الفلسفة فى السنوات ١٧٠٩ ــ ١٣ ، فقد أدلى بدلوه فى الجدل من جــزيرة رود بكتــابه « السيفرون » أو الفيلسوف الصغير (١٧٣٣) ، وهو حــوار يتالق بالتفكير الجرىء والأسلوب المرح . والسيفرون هذا يصف نفســه بانه رجل حر التفكير ، تقدم من التسامح الدينى الى الربوبية الى الالحاد ، وهو الآن يرفض الدين كله باعتباره خداعا يموه به الكهان والحــكام على الناس ؛ وهو يابى الايمان باى شيء غير الحواس ، والعواطف ، والميول الفطرية ؛ وينذر بوفرانور (لسان حال باركلى) الربوبيين بأن عقيدتهم مفضية الى الالحاد ، وأن الالحاد سيفضي الى انهيار الفضيلة . قد يكون هناك بعض الملحدين الأفاضل ، ولكن ألا تولد عقيدتهم ، اذا ما قبلتها الجماهير ، الاباحية والتمرد على القانون ؟ وهؤلاء المتشككون فى الدين ينبغى أن يتشككوا فى العلم أيضــا ، لأن كثيرا من دعاوى العلماء ــ كما هى الحال فى الرياضة العليا ــ تتجاوز تماما شـــهادة حواسنا أو تناول فهمنا . وما من شك فى أن عقيدة التثليث ليست أعصي على الفهم من الجذر التربيعى لناقص واحد .

وأما وليم وربرتن فلم يكن بالرجل الذى يرسي ايمانه أو موارده الكنسية على أساس واه كجذور باركلى الصماء . فبعـــد أن "درّب لممارسة المحاماة ، ورّسم قسا انجليكانيا ، شق طريقة وســـط غابة اللاهوت بكل ما أوتى الذهن القانونى من براعة يقظة . ولعــله كان أصلح للجيش منه للمحاماة أو لرداء الكهنوت ، فقد كان يســتطيب العراك ، وما كان يستطيع النوم فى الليل الا اذا أردى خصما فى النهار . وقد وصف حياته بانها « حــرب على الأرض ، أى على المتعصـــبين والمنحلين ، الذين اعلنت عليهم الحرب الأبدية كما فعل هانيبال أمام المذبح (٣١) » . واتسع مرمى سهامه وبعد ، فاذا أخطأت الخصـــوم قتلت الأصدقاء . وقد وصف معاصريه باوصاف محكمـــة . فجونسن « بلطجى » خبيث وقح ، وجاريك « اذا انحرف مرة وتكلم كلاما له معنى كان أقرب الى الهراء » ، وسموليت « اسكتلندى متشرد » يكتب « لغوا مضروبا فى عشرة آلاف » ، وفولتير « وغد » يتمرغ فى « أقذر بالوعات التفكير الحر (٣٢) » .

وقد ظهرت رائعته الضـــخمة ذات المجـــلدين فى ١٧٣٧ — ٤١ بعنوان « رسالة موسي الالهية مفسرة طبقـا لمبـــادىء ربوبى دينى » وكانت حجتها مبتكرة وفذة . فالايمان بحالة مستقبله من الثـــواب والعقاب لا غنى عنه للنظام الاجتماعى (وهو ما وافق عليه الكثير من الربوبيين) ، ولكن موسي وفق فى تنظيم الحياة اليهودية وابلاغهـا حالة من الرخاء والفضيلة بغير ذلك الايمان ، ولا تفسير لهذه المعجزة الا بالارشاد الالهى لموسي واليهود ، ومن ثم فرسالة موسي ونواميســه الهية ، والكتاب المقدس كلمة الله . وأحس وربرتن أن هذا الايضـــاح « قريب كل القـــرب من اليقـــين الرياضي (٣٣) » ولم يكن زملاؤه اللاهوتيون سعداء كل السعادة برأيه فى أن الله أرشد اليهود خـــلال ٦١٣ قانون وأربعة آلاف سنة دون أن يعلمهم أن نفوسهم خالدة . ولكن المؤلف القوى ملأ صفحاته ببحوث علمية — عن طبيعة الفضيلة ، وعن التحالف الضرورى بين الكنيسة والدولة ، وعن ديانات الاسرار والشعائر فى العصور القديمة ، وعن أصـــل الكتـــابة ، وعن معنى الرمـــوز الهيروغليفية ، وعن التاريخ المصرى ، وعن تاريخ سفر أيوب ، وعن أخطاء احرار الفكر ، والآثريين ، والعلماء ، والمؤرخين ، والتوحيديين والاتراك ، واليهود — حتى لقد ذهلت انجلترة باسرها لثقل علمـــه واتساع مداه . وتقدم وربرتن من معركة الى معركة — ضد كروساز ، وثيوبولد ، وبولنبروك ، ومدلتن ، ووسلى ، وهيوم — حتى بلغ اسقفية جلوستر المريحة المجزية .

وأما جوزف بطلر فكان الين عودا ولكنه اكثر رهافة وتهذيبا ، رجلا بالغ الرقة والتواضع والاحسان ، "حز" فى نفســه كثيرا أن يرى الدين الذى أعان على فطم الحضارة الاوربية من الهمجية ، يواجـــه امتحانا من اجل حياته . وقد صدمه الاقبال الذق لقيته مادية هوبز فى الطبقات العليا . فلما عرضت عليه (١٧٤٧) رآسه اسقفية كنتربرى — وهى أعلى منصب كنسي فى انجلترة — رفضها معتذرا بان قد « فات وقت محاولة دعم كنيسة متداعية (٣٤) » . وفى ١٧٥١ أعرب عـــن فزعه « لما أصاب الدين من انحلال شامل فى هذه الامة .. فتاثيره يبلى أكثر فاكثر فى أذهان الناس ... وعدد الذين يجهرون بالكفـــر فى ازدياد ، وتحمسهم للكفر يزداد بتزايد عددهم (٣٥) » . وقد ادهش

صديقه « دين تكر » بسؤاله : الا يجوز ان تصاب الامة كما يصاب الفرد بالجنون ؟ وكانه شعر ان شعبا من الشعوب قد يصاب بفقد الذاكـــرة الروحى اذا تخلى عن تراثه الدينى والخلقى .

ومع ذلك كرس حياته فى محاولة لرد اعتبار عقلى للايمـــــان المسيحى . فنشر وهو ما زال قسيسا شابا فى الرابعة والثلاثين « خمس عشرة عظه » (١٧٢٦) لطف فيها من تحليل هوبز المتشائم للطبيعة البشرية ، فزعم أن الانسان وان كان فى نواح كثيرة شريرا بطبيعته ، الا انه بطبيعته ايضا كائن اجتماعى اخلاقى ، فيه احساس فطـــرى بالحق والباطل . وقال ان العناصر الاسمى فى كيان الانسان تدين باصلها لله ، الذى هى صوته ، وعلى هذا الاساس اقام نظرية عامة تقول بان هناك قصدا الهيا يتخلل العالم . وأعجبت كارولين بحجته ، وفى ١٧٣٦ عين بطلر كاهنا خاصا للملكة .

فى ذلك العام نشر كتابا ظل طوال قـــرن اهم حصـــن لحجج المسيحية ضد الالحاد ، واسمه « وجه الشـــبه بين الـدين الطبيعى والوحى ، وبين تكوين الطبيعة ومسلكها » وقد كشفت مقدمة الكتاب عن مزاج العصر :

« لقد انتهينا - ولا ادرى كيف انتهينا - الى حال اصبح فيها من القضايا المسلمة عند الكثيرين ، ان المسيحية ليست موضوعا يكثر فيه البحث والتحقيق الا لانه قد تبين آخر الامر انها ديانة زائفة . ومن ثم يتناولونها وكان هذا بات الآن نقطة يجمع عليها كل اصحاب الفطنة والتمييز ، فلم يبق الا أن يجعلوا منها هدفا رئيسيا للهزء والسخرية ، وكانهـــم يعاقبونها لانها قطعت على الناس لذات الدنيا هذا الزمان الطويل(٣٦) »

واذ قصد بالكتاب أن يكون ردا على الربوبيين ، فانه افترض وجود الله . ر... الدين الطبيعى » الذى يدين به الربوبيون يقبل « اله الطبيعة » ، مخطط العالم وصانعه الاعظم ، ولكنه يرفض الاله الذى صوره الكتاب المقدس ، وهو اله ظالم ظلما بينا ، لانه لا يتفق ابدا وهذا المفهوم السامى . واراد بطلر أن يبين أن فى الطبيعة من علامات الظلم

والقسوة ما لا يقل عما فى « يهوه » كما صوره العهد القديم ؛ وانه لا تناقض بين اله الطبيعة واله الوحي ، وان الذين قبلوا احدهما ينبغى منطقيا أن يقبلوا الآخر . ويبدو ان كاهن الملكة الخاص ، الطيب ، لم يدر بخلده قط أن بعض الشكاك الوقحين قد يخلصون من هذه الحجة (كما خلص جيمس مل) الى انه لا هذا الاله ولا ذاك جدير بان يعبده المتحضرون .

واقام بطلر حجته فى وجود الالهين ، وفى انهما واحد ، على الترجيح والاحتمال . فقال ان عقولنا ناقصة ، وانها عرضة لكل ضروب الخطأ ، فليس فى امكاننا أن نصل الى اليقينية لا فى مر الله ولا في أمر الطبيعة ؛ وحسبنا الترجيح ، والترجيح يؤيد الايمان بالله والايمان بالخلود . وواضح أن النفس اسمى من الجسد ، لان اعضاء الجســـد أدوات النفس وخدامها . والنفس ، التى من الواضـح انها جوهـــر الانسان ، لا داعى لفنائها مع الجسد ، واغلب الظن انها عند الموت تبحث عن أدوات جديدة فى مرحلة أعلى . وليس من المريح للطبيعة ان يتغير كائن من صورة ادنى الى صورة اعلى - كتغير الكائنات الزاحفة مثلا الى كائنات مجنحة ، او تغير الخادرة الى فراشة ؛ وقياس آخـــر يرجح انه سيكون فى حياة النفس بعد موت الجسد الوان من الثواب والعقاب - مع الافتراض دائما بان الله موجود . فكما اننـــا نعاقب المجرمين على جرائمهم ضد المجتمع ، كذلك تعاقب الطبيعة فى معظم الحالات الناس على ما اقترفوا من آثام ؛ ولكن بما ان هناك امثلة كثيرة لا تلقى فيها الرذيلة عقابا واضحا ، ولا الفضيلة ثوابا واضحا ، فى هذه الحياة ، لذلك كان مما لا يصدق أن الله لن يعيد ، فى حياة اخرى ، علاقة اكثر انصافا بين السلوك والمصير . وضميرنا ، حسنا الخلقى ، لا يمكن ان يكون قد جاءنا الا من لدن اله عادل .

واكثر ما لحجج بطلر من اهمية فى عصرنا هذا مرجعه انها توضح مرحلة فى تطور العقل العصرى . ونحن اذا نظرنا اليها باعتبـــارها موجهة اصلا ضد الربوبيين وجدنا فيها فكرة لا يستهان بها ؛ فالذين قبلوا شهادة القصد الالهى فى الطبيعة ، لا مبرر لهم فى رفض الكتاب المقدس بسبب الاله القاسى المعلن عنه فى العهد القديم ، لان اله الطبيعة

لا يقل عنه قسوة . لقد كانت طريقة غاية فى الأصالة فى الدفاع عن المسيحية . والظاهر ان بطلر لم يتوجس من ان هذه الحجة قد لا تفضي الى المسيحية ، بل الى شيء اشد دفعا الى اليأس من الكفر - الى النتيجة التى خلص اليها توماس هنرى هكسلى ، وهى أن القوى المطلقة فى الكون أو وراءه غير اخلاقية ، تتناقض أشد التناقض مع ذلك الاحساس بالحق والباطل الذى بنى عليه بطلر ، كما بنى عليه كانط ، الكثير من لاهوته . على أية حال كان كتاب « وجه الشبه » خطوة الى الامام ولو فى هدوئه ولطفه ، فهنا لا تجد كراهية لاهوتية ، ولا قدحا دينيا ، بل محاولة جادة من الكاتب للتادب حتى مع أولئك الذين بدوا انهم يدمرون أعز آمال البشر . ورحبت الملكة كارولين بالكتاب لانها رأت فيه افضل دفاع ظهر الى ذلك الحين عن العقيدة المسيحية . وأوصت وهى على فراش الموت بترقية بطلر ، فعينه جورج الثانى اسقفا على برستل ، ثم ناظرا على كتدرائية القديس بولس ، وأخيرا أسقفا على درم . وهناك ضرب بطلر المثل لزملائه بالعيشة البسيطة والتصدق على الفقراء بجانب كبير من دخله .

وقد ترك كتابه للكفر منافذ كثيرة حتى ان كثيرا من رجال الكنيسة اشاروا بالكف عن هذا الجدل ، وأثروا أن يرسوا ايمانهم على الحاجات والعواطف الدينية بعيدا عن سهام العقل . مثال ذلك ان كتاب هنرى دودويل « المسيحية دون أساس من الجدل » (١٧٤٢) يرفض الجدل العقلى فى المسائل الروحية ، لانه لا يهدى الى الحقيقة ، واقل من ذلك الى السعادة ، انما هو رقصة موهنة ترتعش فيها الحجج المؤيدة والمعارضة ، وما من انسان يقيم ايمانه على مثل هذه الأسس المائتة . وذهب دودويل الى أن حجج كلارك ، ووربرتن ، وبطلر ، وغيرهم من المدافعين المسيحيين ، قد هزت من الايمان الدينى اكثر مما قوت ، وربما لم يكن هناك الحاد لولا ان المحاضرين فى محاضرات بويل التذكارية دأبوا كل عام على تفنيد الالحاد . ان المسيح لم يجادل ، بل علم كمن له سلطان . فانظر الى أى شخص متدين حقا ، تجد فيه اقتناعا باطنيا ، لا استنتاجا عقليا ؛ فالايمان للنفس البسيطة يجب ان يكون تقليدا مقبولا ، وللروح الناضجة يجب أن يكون شعورا مباشرا بواقع فوق الطبيعة .

أما وليم لو ، فبعد أن ترك بصمته على الجدل مع الربوبيين ، دفعته قراءة يعقوب بومى الى التحول من الجدل الى الصوفية ؛ وفى نصف القرن الذى نحن بصدده ، والمتسم بالمادية والكلبية الظافرتين ، كتب عن الوجود الباطن للمسيح ومحبته الفادية بحرارة وثقة كانه توماس اكمبيس مولودا من جديد دون أن يطرأ عليه تغيير . وقد ضحّى بكل المطامح الدنيوية برفضه حلف اليمين التى تعترف بجورج الأول رأسا للكنيسة لانجليزية ؛ فحرم زمالته بكمبردج ، واستردت درجاته الجامعية . ثم أصبح معلما خاصا لأبى ادورد جيبون ، ومكث مع تلك الأسرة ردحا كفى لأن يذكره المؤرخ (جيبون) . قال هذا الشاك « لقد ترك فى أسرتنا سمعة الرجل الفاضل التقى الذى يؤمن بكل ما يصرح به ، ويمارس كل ما يامر به (٣٧) » وقد أثنى جونسن على كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » (١٧٢٩) وقال انه « أروع قطعة من اللاهوت الوعظى فى أى لغة (٣٨) » فمن المؤكد أن صوفية الكتاب أصح من تلك التى تتوه فى رؤى خارقة ، سماوية كانت أو جهنمية . كتب لو يقول : ليس هناك شيء خارق للطبيعة فى نظام فدائنا كله ، فكل جزء فيه له اساس فى أعمال الطبيعة وقواها ، وكل فدائنا انما هو الطبيعة مصححة . « وليست الجحيم مكانا ، بل هى حالة النفس المضطربة ، ولا الجنة مكانا ، ولا « حالة غريبة ، منفصلة ، مفروضة » ، بل هى سعادة نفس فى نظام وسلام (٣٩) . ومع أن لو كان عضوا مخلصا فى الكنيسة لانجليزية ، فانه كان يحلم برهبنة مجدّدة بروتستنتية . يقول :

« اذن لو ان اشخاصا من الجنسين ... تواقين الى الكمال ، تجمعوا فى جماعات صغيرة ، تنذر الفقر الاختيارى ، والنبتل ، والعزلة ، والعبادة ، حتى تخفف صدقاتهم حاجة البعض ، ويتبارك الجميع بصلواتهم وينتفعوا بقدوتهم ... هؤلاء لا يتعرضون للاتهام بأى ميل للخرافة أو تعبّد أعمى ... بل يمكن ان يقال حقا وصدقا أنهم يستعيدون تلك التقوى التى كانت فخر الكنيسة ومجدها على حياة قديميها العظام (٤٠) » .

وقد اثرت مثل لو العليا ونثره الرائع فى عمة جيبون

هستر جيبون ، تاثيرا حملها هى وارملة غنية على الذهـــاب للعيش بقربه فى مسقط راسه كنجزكليف بنورثمتونشير ، وكرستا اكثر دخلهما لأعمال البر تحت اشرافه . وقد وجد هذا الرجل ســـعادته فى توزيع الطعام والثياب والعظات على الفقراء والمرضى والمحرومين ، وهو الذى كان فى يوم ما طالب علم شغوفا بالبحث ، محبا للصـــحبة المثقفة المهذبة . وغالى فى تقشفه ، فانكر جميع لذات الدنيا تقريبا ، وجدد الحملة البيورتانية على المسرح باعتباره « بيت الشيطان » أو على الأقل « شرفة الجحيم (٤١) » . ولم يكن الخـــلق الانجليزى ، ولا مـــزاج العصر ، حفيين بصوفية لو ، وبدا أنه مختتم حياته فى خمول ذكـــر عقيم ، واذا جون وسلى ياتى ليجلس عند قدميه .

٤ ـ جون وسلى : ١٧٠٣ ـ ٩١

اذا أردنا أن نفهم مكانه من التاريخ وجب أن نذكر انفسنا ثانيـــة بانه حين أسس هو وأخوه تشارلز الحـــركة المثـــودية Methodism فى اكسفورد (١٧٢٩) كان الدين فى انجلترة أحط منزلة مما كان فى أى فترة من فترات التاريخ الحديث . فلم يكن يختلف الى الكنيســـة من أعضاء مجلس العموم أكثر من خمسة أو ستة (٤٢) . وكان رجـــال الاكليروس الأنجليكانى قد غالوا فى قبولهم العقلانية غلوا جعلهم يبنون كل كتاباتهم تقريبا على الجدل العقلى . وندر أن ذكروا الجنة أو النار ، وكانوا يؤكدون على الفضائل الاجتماعية دون الغيبيـــات . والعظـــة الانجليزية كما وصفها فولتير كانت « رسالة جدية ولكنها جافة أحيانا ، يقرؤها رجل على الشعب دون ايماءة ودون أن يرفع صـــوته رفعـــا ملحوظا(٤٣) » . ولم يكن الدين نشيطا حارا الا فى المذاهب المنشقة التى تتبعها الطبقة الوسطى . وكان عمال المدن مهملين اهمالا كليـــا تقريبا من الاكليروس الانجليكانى ، « كان هناك فرقة ضخمة تتالف من أدنى الطبقات ، أفرادها بعيدون عن متناول التعليم أو الدين ، لا دين لهم ، ولم يعلموا دينا على الاطلاق (٤٤) » ، وقد أسلموا الى فقر لا يضيئه نور الأمل الدينى الا قليلا . فى هذه الخلفية احيا جون وسلى وجورج هوايتفيلد العقائد والآداب البيورتانية احياء قويا واسسا الكنيسة المثودية .

كان اللاهوت والثورة يجريان فى عروق آباء وسلى . فجده الاكبر برتلميو وسلى طرد من وظائف القسوسية فى دورست لأنه واصل العبادة المنشقة بعد أن "رد" الاحتكار الكنسي فى انجلترة للكنيسة الانجليكانية. واصبح جد جون ، جون وسلى ، قسيسا فى دورسيت ، وسجن لرفضه أن يستعمل كتاب الصلاة العامة ، وطرد من القسوسية ، وأصبح راعيا منشقا فى بول . واسقط والد جون ، واسمه صموئيل وسلى ، حرف التاء من اسمه ، وشق طريقه الى أكسفورد ، وهجر المنشقين ، ورسـم قسيسا انجليكانيا ، وتزوج سوزانا آنزلى (وكانت بنت واعظ) واصبح قسيس ايبورث فى لنكولنشير ، ومات من أبنائه التسعة عشر ثمانيـة فى طفولتهم - وفى هذا بيان لشقاء النسـاء ، وفحـولة القساوسـة المستهترة ، ونوعية الطب فى انجلترة القرن الثامن عشر . وكان الأب مؤدبا صارما فى البيت وعلى المنبر ، نشأ ابناءه على الخوف من الله منتقم ، وأدان احدى رعايا أبرشيته بالزنا ، واجبرها على السـير فى الشارع فى مسوح التوبة (٤٥) . وكانت زوجته ضريبا له فى الصرامة والتقوى . فلما بلغ ابنها الأشهر التاسعة والعشرين شرحت له فلسفتها فى التربية الخلقية فقالت :

« اننى أصر على قهر ارادة الأطفال فى وقت مبكر ، لأن هـذا هو الأساس القوى والمعقول الوحيد للتربية الدينيـة ، الذى بدونه لا يكون للتعاليم ولا للقدوة جدوى . ولكن متى قهرت هذه الارادة قهرا تاما أصبح فى الامكان أن يحكم الطفل بعقل ابويه وتقواهما ، الى أن يبلغ فهمه درجة النضج ... فاذا بلغ الطفل عاما كانوا (اى أطفالها) يعلمون ان يخافوا العصا ويبكوا بصوت خافت ، وبهذه الطريقة وفروا على انفسهم الكثير من العقاب الذى كان يصيبهم ان لم يفعلوا (٤٦) ».

واصبح اكبر ابنائها ، صموئيل وسلى الثانى ، شاعرا وعالما وقسيسا انجليكانيا انكر على اخويه مذهبهما الميثودى . وكان الطفل الثامن عشر هو تشارلز وسلى ، الذى دعم مواعظ اخيه جون دعما قويا بترانيم بلغ

عددها ٦٫٥٠٠ . أما جون فكان الخامس عشر ، وهو مولود بايبورث فى ١٧٠٣ . فلما بلغ السادسة احترق بيت القسيس ، وتركته الأسرة وسط النيران ظنا منها انها قضت عليه ، ولكنه أطل من شباك فى الطابق الثانى ، فانقذه جار وقف على كتفى آخر ، وسمى نفسه بعد ذلك « جمرة اختطفت من بين المحترقين » ولم يتغلب قط على خوفه الشديد من الجحيم . وفى بيت ابيه كانت اى ضوضاء غير واضحة السبب ، تفسر على أنها وجود خارق للطبيعة ، شيطانى أو الهى .

وحين بلغ جون الحادية عشرة أرسل الى مدرسة تشارترز هاوس الحرة ، وفى السابعة عشرة الى كرايست تشيرش باكسفورد . وقد تغلب على ضعف صحته بادمان المشي والركوب والسباحة ، فعمر حتى بلغ الثامنة والثمانين . وقرأ كثيرا ، واحتفظ بمذكرات ومقتطفات من قراءته توخى فيها التدقيق والعناية . وكان أحب الكتب اليه كتاب جيريمى تيلر « الحياة المقدسة والموت المقدس » ، وكتاب توماس اكمبس « محاكاة المسيح » . وبدأ — حتى فى أيام دراسته بالكلية — تلك اليومية التى هى احدى آيات الأدب الانجليزى والتقوى البروتستنتية . وقد كتب بعضها بالشفرة والاختزال . وفى ١٧٢٦ عين زميلا بكلية لنكولن ، وفى ١٧٢٨ رسم قسيسا أنجليكانيا .

واخوه تشارلز هو الذى بدأ بجمع فى اكسفورد جماعة صغيرة من نحو خمسة عشر طالبا ومعلما اعتزموا ممارسة المسيحية بدقة منهجية . واعداؤهم هم الذين خلعوا عليهم تهكما وازدراء اسمى « النادى المقدس » و « المثوديين » . وكانوا يقرءون معا العهد الجديد اليونانى والآداب القديمة ، ويصومون كل أربعاء وجمعة ، ويتناولون العشاء الربانى كل أسبوع ، ويتفقدون المسجونين والمرضى ليقدموا لهم العزاء والأمل الدينى ، ويرافقون المحكوم باعدامهم الى المشنقة . ووصل جون وسلى الى تزعم الجماعة بفضل شدة حماسته وتقواه ، فكان يستيقظ كل كل يوم فى الرابعة — وهى عادة احتفظ بها حتى وهو طاعن فى السن ،

ويخطط منهجيا فى كل صباح الاعمال التى تؤدى فى كل ســـاعة من ساعات اليوم . وكان يعيش على ثمانية وعشرين جنيها فى العـــام ، ويوزع باقى دخله على اعمال البر . وقد أكثر من الصوم حتى بدا مرة انه قد دمر صحته تدميرا لا برء منــه . وكان يحج راجـــلا الى وليم لو يلتمس منه النصيحة ، وأصبح كتاب لو « دعوة جادة الى حياة تقية مقدسة » مرشده الروحى . تقول يومياته أنه من هذا الكتاب « فاض النور على نفسي بقوة حتى ظهر كل شيء فى صورة جديدة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ دعا الجنرال أوجلثورب جون وتشـــارلز ليرافقــاه مبعوثين دينيين الى جورجيا . واذ كان أبوهما قد مات فانهما التمسا مشورة امهما . فقالت لهمـــا « لو كان لى عشرون ولـدا لأبهجنى أن يدّعوا الى مثل هذا ، حتى ولو لم أرهم بعـــد ذلك أبدا (٤٨) » . فليت شعرى أنى لنا نحن المجردين من التقوى أن نفهم هذه التقوى ؟ وارجئت جلسات « النادى المقدس » الى اجـــل غير مســـمى ، وفى ١٤ أكتوبر ابحر جون وتشارلز و « مثوديان » آخران على الســفينة « سيموندز » قاصدين سافانا . وفى السفينة اثرت فيهم التقوى المرحة التى آنسوها فى بعض « الأخوة المورافيين » الذين قدموا من المانيـا ليستوطنوا امريكا ، فلما هاجمت عاصفة هوجاء المركب الصغير لم يبد على المورافيين اثر لخوف ، وقارعوا رياح العاصفة بترانيمهم القوية ، واحس الوسليان أن هذا ايمان يفوق ايمانهما قوة .

فلما بلغا جورجيا (٥ فبراير ١٧٣٦) اتخذا منصبين مختلفين ، فاصبح تشارلز سكرتيرا للحاكم أوجلثورب ، وجون راعيا للجاليـــة الجديدة ، ومرسلا بين الحين والحين للهنود الحمـــر المجاورين . واثنى أول الأمر على الهنود لشوقهم الى تقبل الانجيل ، ولكنه وصفهم بعد عامين بانهم « شرهون ، لصوص ، مراءون ، كذابون ، قتـــلة لآبائهم ، قتلة لأمهاتهم ، قتلة لأبنائهم » ، وقيل انه « لم يوفـــق مع الهنود (٤٩) » . أما السكان البيض ، الذين كانوا يضمون مئات من

المجرمين المنفيين ، فقد أنكروا لهجته الاكسفوردية وروحه الآمرة الناهية واصراره على أدق قواعد الطقوس والنظام . ففى العمـــاد اشـــترط التغيطس الكامل ثلاث مرات ، فاذا اعترض والد رفض أن يعمد الطفل. واذ كان لا يزال « كنسيا طقسيا من النوع الشديد التزمت (٥٠) » . فانه اقصي عن تناول القربان رجلا كريما اعترف بانه من المنشقين ، وأبى ان يقرأ صلاة الجنازة على مستعمر لم ينكر مذهبه المنشق قبل موته ، وحرم على النساء من رعيته أن يلبسن الملابس الغالية أو الحلى الذهبية ، وأقنع الحاكم ان يحرم صيد السمك وقنص الحيوان فى يوم الاحد ـ وهو اليوم الوحيد الذى كان يتاح فيه لرعيته فراغ من الوقت للصيد أو القنص . وقد افتتن بصوفيا هوبكى ، ابنة أخت كبير قضـــاة سافانا البالغة من العمر ثمانية عشر ربيعا . ولكن أصحابه المورافيين لم يرضوا عنها . فلما سئمت تردده تزوجت رجلا يدعى ولكنسون . وحين تقدمت لتناول القربان أبى أن يناولها السر بحجة انها لم تتناول سوى ثلاث مرات فى الشهور الثلاثة الاخيرة ، وأنها اهملت ان تطلب الى راعيها اذاعة اعلان زواجها . فرفع زوجها عليه الدعوى لتشهيره بخلق زوجته ، وأدانت المحكمة سلوك وسلى خطيبا وخدماته كاهنا ، فرفض الاعتراف بحقها فى محاكمته ، وتفاقم عداء الشعب له ، ففر الى تشارلزتن واستقل سفينة الى انجلترة (٢٢ ديسمبر ١٧٣٧) .

وفى لندن استانف تقشفاته أملا فى ان ترد اليه ثقتـــه بنفسه ، ولكن بيتر بولر ، وكان واعظا مورافيا فى طريقه الى امريكا ، اكد له أن ايمانه مازال ناقصا ، وانه مهما كانت فضائله كاملة وتقواه وطقسيته حارتين ، فسيظل فى حالة الهلاك الابدى ، حتى يدرك ـ بومضة الهية من الاشراق واليقين ، مختلفة كل الاختلاف عن اى عملية اســـتدلال عقلى ـ ان المسيح قد مات لأجله هو ، وانه كفر عن خطاياه هو ! فبعد هذا التغير دون سواه يكون الانسان فى مأمن من ارتكاب الخطايا وعلى ثقة من الخلاص . وقد خلد وسلى فى يوميته ذلك « اليوم المشهود » ٢٤ مايو ١٧٣٨ الذى وافته فيه هدايته النهائية ، قال :

« ذهبت فى المساء على مضض شديد الى جمعيـــة فى شـــارع اولدرزجيت ، حيث كان احدهم يقرأ مقدمة لوثر لرسالة بولس الى أهل رومية . وفى نحو التاسعة الا ربعا ، بينما كان يصـــف التغيير الذى يحدثه الله فى القلب بالايمان بالمسيح ، شعرت بقلبى يدفأ على نحو عجيب . شعرت باننى فعلا اثق بالمسيح ، والمسيح وحده ، للخلاص ، واعطيت تاكيدا بأنه نزع خطاياى ، خطاياى أنا ، وخلصنى من ناموس الخطية والموت . وبدأت اصلى بكل ما أوتيت من قوة لأجل أولئك الذين اساءوا الى واضطهدونى أشد من غيرهم . ثم شهدت علانية لجميـــع الحاضرين بما شعرت به الآن فى قلبى لأول مرة (٥١) » .

ويمكن القول بايجاز انه لخص تطور المسيحية من الخـــلاص بالايمان والاعمال ، الى الخلاص بالايمـــان وحـــده (لوثر) ، الى الخلاص باشراق شخصي والهى (الكويكرز) . وعبر وسلى البحر الى المانيا فى صيف ١٧٣٨ وهو عارف بصنيع بولر ، وانفق عدة اسابيع فى هرنوت ، القرية المكسونية التى انشئت فيها مستعمرة للاخوة المورافيين على ضياع كونت زنزندورف .

وكان تشارلز وسلى خلال ذلك قد جاز بتغير مماثل عند عودته الى انجلترة ، وبدأ بطريقته الاكثر رقة فى وعظ المسجونين فى نيوجيت والوعظ من كل منبر يسمح له بارتقائه ، واهم حتى من هذا ان شخصية لا يبزها قوة غير شخصية جون وسلى كانت فى طريقها الى الصدارة فى الحركة المثودية ، وهى شخصية جورج هوايتفيلد . وقد ولد لصاحب نزل بجلوستر فى ١٧١٤ . وعمل سنة أو اكثر ساقى خمـــر لضـــيوف ابيه . ثم شق طريقه الى كلية بمبروك باكسفورد ، وكان من الرعيـــل الأول فى « النادى المقدس » . وتبع الوسليين الى جورجيا فى ١٧٣٨ ولكنه عاد الى انجلترة فى خريف ذلك العام ليرسم قسيسا انجليكانيا . واذ كان غير قانع بالفرص المتاحة له فى المنابر ، تواقا لأن يبث الهام ايمانه فى جماهير الشعب ، فقد بدأ فى فبراير ١٧٣٩ ، فى الخـــلاء

قرب برستل ، وعظ عمال مناجم الفحم الذين ندر ان جرءوا على دخول كنيسة أو اهتموا بدخولها . وكان فى صوته من الوضوح والقوة ما مكنه من الوصول الى أسماع عشرين الف مستمع ، وأثرت مقدرته الخطابية المشبوبة فى هؤلاء الرجال المتحجرين ، المرهقين ، تاثيرا جعله يرى (كما قال) « المسارب البيضاء التى احدثتها دموعهـــم التى هطلت بغزارة على خدودهم السوداء (٥٢) » واثارت خيال انجلترة سمعة الواعظ الجديد ، وأخبار عظاته فى الهواء الطلق . فكانت الحشـــود الهائلة تتجمع أينما ذهب لتستمع اليه .

ولم يكن وعظه بالشيء الذى ينسي . فهو لم يدع لنفسه تبحرا فى العلم ، ولكنه ادعى أنه يتكلم كلاما حميما مع الله (٥٣) . ويقـــول وسلى ان لغته كانت تميل الى « الحلاوة والحب » وانه يستعمل فيها بعض الأخيلة المذهلة ؛ من ذلك أنه كان يقول عن المسيح انه « كالمشوى بغضب الآب ، ومن ثم يوصف بحق بانه حمل الله (٥٤) » . وكما فعل بت فى البرلمان كذلك فعل هوايتفيلد فى الحقـول ، اذ اســـتعان فى خطبه بفنون التمثيل ، فكان فى قدرته أن يبكى فى التو والساعة بكاء من الواضح انه اقترن بعاطفة صادقة ؛ وكان فى قدرته أن يشعر سامعيه بالاحساس بالخطيئة ، ورهبة الجحيم ، ومحبة المسيح ، احساسا قويا فوريا . وقد اعترف بقوته الخطباء أمثال بولنبروك وتشسترفيلد ، والشكاك أمثال فرانكلين وهيوم ، والممثلون أمثال جاريك . واذ كان يلقى الترحيب أينما حل ، فانه جعل انجلترد، وويلز، واسكتلندة، وارلندة ، وأمريكا ، أبرشيته . فعبر المحيط الى أمريكا ثلاث عشرة مرة، واخترق اسكتلندة اثنتى عشرة مرة . ولم يكن غريبا عليه ان يعظ اربعين ساعة فى الاسبوع . فما بلغ الخمسين حتى حل به الارهاق ، وخفض برنامجه بعد فوات الوقت الى « الحد الدقيق المسموح به » - اى انه اكتفى بالوعظ مرة واحدة كل يوم من أيام الأسبوع ، وثلاث مرات فقط يوم الأحد . وفى ١٧٦٩ قام بزيارته السابعة للمستعمرات ، ومات فى نيوبريبورت بولاية ماساتشوستس فى العام التالى .

وحين عاد جون وسلى من هيرنوت ، لم يستطع أن يوافق تماما على طريقة هوايتفيلد الخطابية ، وتردد فى الأقتداء به فى الخطابة فى الخلاء . قال : « اذ كنت طوال حياتى (الى عهد قريب جـــدا) شديد التمسك بكل قواعد اللياقة والنظام ، ... فقد كان المفروض ان ارى فى تخليص النفوس شيئا يكاد يبلغ مبلغ الخطيئة اذا لم يتم فى الكنيسة (٥٥) » . على أنه تغلب على نفوره هذا ، وحمل رسالته الى الحقول والشوارع ، « وسلمت بان أكون أكثر نزولا الى العـامة فى الخلاء » (ابريل ١٧٣٩) . وكانت خطابته أقل حرارة من خطـــابة هوايتفيلد ، ولغته لغة العالم والجنتلمان ، ولكنه هو أيضـــا خاطب عواطف سامعيه ، وجعل الحياه اليومية لبسطاء الناس تبدو كانها جزء من مسرحية هائلة ، نبيلة ، نفوسهم فيها ساحة معركة بين الشيطان واسيح ، فتحركوا معه فى عالم من العجائب والمعجزات ، وسمعوا فيه (أى فى وسلى) ـ كما زعم ـ صوت الله . وبينما ألف هوايتفيلد أن يعظ الجمع ثم ينصرف عنه ، راح وسلى ينظم اتباعه فى « جماعات صغيرة » فى المدينة تلو المدينة ، ويرشدهم الى الثبات والاستمرار . وكانت اجتماعاتهم احياء للقاءات المحبة التى استنها المسحيون الأولون ـ أعياد من الفرحة الدينية ومحبة الجماعة ، يعترف بعضـــهم لبعض بخطاياهم ، ويخضعون لفحص حياتهم الخلقية ، ويشتركون فى الصلاة وترتيل الترانيل الورعة . وكان جون قد ألف أو ترجم بعض الترانيم المؤثرة ، وكان تشارلز قد بدأ مجموعة تراتيله الضخمة . وفى ١٧٤٠ كتب تشارلز اشهر ترانيمه الرائعة الكثيرة « يسوع يا حبيب روحى » .

فى هذه الجماعات المتحمسة درب جون وسلى وعاظا علمانيين حملوا البشارة الجديدة الى حيث لا يستطيع القادة البقاء . فقد انتشر هؤلاء « المساعدون » ـ دون رسامة ، ودون أى ابرشيات محـددة ، بمنبر أو بغير منبر ـ فى أرجـــاء انجلترة ، واســـكتلندة ، وويلز ، وأوصلوا مخاوف وآمال اللاهـــوت البروتستنتى للطبقات العـــاملة ، وحضروا للزيارات الانعاشية التى سيقوم بها وسلى وهوايتفيلد . وكان

وسلى نفسه يسافر - الى اقصى أركان انجلترة راكبا جوادا أو مركبة أو راجلا - وكثيرا ما كان يقطع ستين ميلا فى اليوم ، ويبلغ متوسط ما قطعه أربعة آلاف ميل فى السنة على مدى أربعين عاما . وكان يعظ فى كل فرصة . فى السجون للمسجونين ، وفى المركبات لرفاقه الركاب ، وفى الفنادق للمسافرين ، وفى السفن العابرة البحر الى ارلندة أو من ثغر الى ثغر . وفى ايبويرت ، حين منع من الوقـــوف على منبر أبيه ، وعظ فى فناء الكنيسة واقفا فوق قبر أبيه .

فماذا كان يعظ ؟ العقيدة البيورتانية اساسا ، تلك التى خيل للناس أن الفوضى الخلقية التى صاحبت عودة الملكية الاستيوارتية عصفت بها عصفا مميتا . لقد رفض الجبرية (التى قبلها هوايتفليد) ، واصر على ما دان به الجناح الأرمنيومي من الكنيسة الرسمية ، وهو أن للانسان من حرية الارادة ما يكفيه لتقرير ما يختاره أو يرفضه من النعمة الالهية . ورفض كل لجوء الى العقل ، وأحس أن الدين يصل الى أبعد مما يصل اليه المنطق الذى صنعه الانسان ، وأنه يعتمد على الوحى الالهى والاقتناع الباطن ، ولكنه ابتعد عن الصوفية بحجة انها تترك كل شيء لله ولا تحفز الانسان الى التقوى النشيطة . وشارك طبقته وزمانه معظم خرافاتهما : فكان يؤمن بالاشباح ، وبالأصل الشيطانى للاصوات الغريبة ، وبحقيقة السحر وأجرامه ؛ وقال ان التخلى عن الايمان بوجود السحر معنـــاه التخلى عن الايمان بالكتاب المقدس . ولم يساوره شك فى المعجزات ، وذهب الى انها تحدث كل يوم بين اتباعه . فكان الصداع ، أو الورم المؤلم ، أو الفتق الشديد ، أو الساق المكسورة ، تشفى بصلواته أو صلوات الجماعة المثودية ؛ وحكى عن فتاة كاثوليكية كانت تفقد بصرها كلمـــا قرأت كتاب القداس الكاثوليكى ، ولكنها تستعيده دائما حين تقرأ العهد الجديد . وقد قبل روايات النساء اللاتى زعمن انهن راين الملائكة او المسيح أو الجنة او النار ، وسجل فى يوميته عددا من الحالات التى عوقب فيها خصوم المثودية بعقوبات خارقة (٥٦) .

وقد بلغ وعظه من الحيوية مبلغا افضي بالكثيرين من جمهوره الى الهستريا والتشنجات . وتنبئنا اليومية عن خطاة غلبهم الألم البدنى بعد سماعه فراحوا يتقلبون على الارض من فرط العذاب ، بينما ركع مؤمنون آخرون الى جوارهم وصلوا لخلاصهم من مس الشيطان (٥٧). وبصف وسلى اجتماعا فى شارع بلدوين بلندن فى ١٧٣٩ فنقول :

« لم يكد صوتى يسمع وسط أنين البعض وصراخ الآخـــرين .. وساء كويكريا واقفا يتفرج ... أن يسقط هو نفسه على الأرض كأنه المصعوق . وكان الكرب الذى يعانيه رهيبا حتى لمن يشهده . وقد تضرعنا الى الله الا يؤاخذه بالحماقة والجهل ، وسرعان ما رفع رأسه وصـاح « الآن أعرف أنك نبى من أنبياء الرب (٥٨) » .

وبصف شاهد عيان نقل عنه وسلى اجتماعا للمثوديين بافرتن فى ١٧٥٩ كما يلى :

« كان بعضهم يصرخون ، وبعضهم يجارون ... وأكثر ما سمع كان شهيقا عاليا كذلك الذى يصدر عن قوم نصف مخنوقين يلهثون طلبا للحياة ؛ أن الصيحات كلها تقريبا كانت كصيحات مخلوقات آدمية تعالج سكرات الموت الأليم . وكان الكثيرون يبكون دون ضجيج ، وغيرهـم سقطوا كالأموات ... ووقفت على مقعد كما فعل شاب فى المقعد المقابل، وكان ريفيا قويا نضرا صحيح البدن ، ولكن حين بدا أنه لم يخطر له شيء آخر خر على الارض فى عنف لا يتصوره الانسان .. وســمعت خبط اقدامه يكاد يحطم الألواح الخشبية وهو راقد يتشنج تشنجات شديدة فى أسفل المقعد ... وأكثر الذين وضع الله عليهم يده احمرت وجوههم احمرارا شديدا أو كادت تسود .. وسقط وراءه على الجدار رجل غريب حسن الهندام كان يقف أمامى ، ثم خر على ركبتيه وهـو يعصر يديه ويهدر كالثور .. ثم قام وراح يخبط الحائط حتى أمسك به مستر كبلنج ورجل آخر . وصرخ قائلا « أواه ماذا أصنع ، ماذا أصنع ؟ أواه ، ليت لى قطرة واحدة من دم المسيح ! » وبينما كان يتكلم حرّر الله روحه ، فعلم أن خطاياه مُحيت ، وبدا أن نشوة الفرح التى غمرته أعظم من أن تحتملها الطبيعة البشرية (٥٩) » .

ولعل هذه التفجرات الهستيرية سببتها أحوال الرث فى الضحايا قبل الاجتماع المثودى ، فجاءت كعظة عن نار الجحيم وكانت مجرد تتويج لذروة لا يمكن السيطرة عليها . اما وسلى فقد فسر هذه التشنجات بأنها مس شيطانى اعقبه شفاء الهى . وذهب الى أنها احيانا لم تات باصلاح دائم للسلوك أو الخلق ، ولكنه احس بانها فى كثير من الحالات طهرت النفس من الخطيئة وافتتحت حياة جديدة .

وقد حققت المثودية أعظم نجاح لها بين الفقراء . فقد كان الوعاظ انفسهم رجالا ذوى ثقافة متواضعة ، بسطاء فى مشاعرهم وحديثهم ، ولم يقم حاجز طبقى أو ثقافى بينهم وبين جمهورهم . وقد حملوا رسالتهم ، رسالة الخطيئة والتوبة ، الى الفلاحين وعمال المناجم والمجرمين ؛ ومع انهم بشروا بايمان قام على الخوف اكثر مما قام على المحبة ، فانهم أعطوا غير المتعلمين ناموسا أخلاقيا شارك بنصيب فى رد اعتبار الأخلاق الى انجلترة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. هذه الأخلاق البيورتانية هى التى انتقض عليها عصرنا انتقاضا متطرفا. لقد كان وسلى عدوا لكل الوان الترفيه تقريبا . صحيح انه سمح بلعب الورق ، ولكنه رأى أن من الاثم الذهاب الى المهرجانات ، ولبس الحلى او الملابس الغالية ، والاختلاف الى المسرح أو المرقص . ولم يخصص اى وقت للعب فى المدرسة التى انشاها فى كنجروود ، لان « من يلعب وهو طفل سوف يلعب وهو رجل (٦٠) » . ولكن الأخلاق البيورتانيه انسجمت مع الخلق الانجليزى ، واستطاع أن يتحملها الرجال الاشداء والنساء الصبورات ، وقد منحت الطبقات العاملة الانجليزية احساسا فخورا بالاختيار سندها فى الفقر وجعلها عدوا لأى ثورة تتشكك فى المسيحية . وأحس المحافظون بعد حين بعرفان الجميل لوسلى لأنه انقذ الفقراء البريطانيين من الربوبية والالحاد ، وحوّل تطلعاتهم من الثورة الاجتماعية الى الخلاص الفردى ، ومن عالم مثالى على هذه الارض الى فردوس بعد الممات (٦١) .

وكان وسلى نفسه يميل الى المحافظة فى السياسة . وقد تقدم طبقته فى المطالبة ببعض الاصلاحات التى طال تاخرها : فندد بنظام « الدوائر العفنة » ، وبتفاوت التمثيل النيابى فى البرلمان ، وبفساد

السياسة الانجليزية الصارخ ، وبوحشية الرق ، وباهوال السجون البريطانية . ولكنه تقبل الهيكل الطبقى للمجتمع باعتباره طبيعيا وعادلا ، وعارض أى انفراج فى القوانين الموجهة ضد الكاثوليك ؛ وكانت ميوله كلها مع جورج الثالث فى ثورة المستعمرات الأمريكية .

وقد ظل أنجليكانيا بالعقيدة ، ولكنه رفض الرأى الانجليكانى القائل بأن رسامة القسيس لا تكون قانونية الا على يد أسقف فى سلسلة الاساقفة الرسوليين ؛ ورسم هو بنفسه قساوسة لاسكتلندة وأمريكا . وحين قال « ان العالم أبرشيتى (٦٢) » كان يقصد أنه سيعظ حيثما شاء ، دون اذن أو تعيين أسقفى ، والى هذا الحد كان انشقاقه على الكنيسة الرسمية . ولكنه حض أتباعه على حضور الخدمات الانجليكانية ، وتجنب الاجتماعات والعقائد المنشقة على هذه الكنيسة ، والامتناع عن مخاصمة الاكليروس الانجليكانى . وفتحت أول الأمر بعض المنابر الأنجليكانية للقساوسة المثوديين ، ولكن حين اتخذ وعاظ وسلى العلمانيون لأنفسهم حق مناولة القربان ، وارتدت العقيدة المثودية الى توكيد العصر الوسيط على الجحيم والانشغال البيورتانى بالخطيئة ، سحب الكهنة الأنجليكانيون تاييدهم ، تماما كما انسحب ارزم من لوثر ، وآثروا تطورا منظما ، وأقصوا المثوديين عن المنابر الأنجليكانية .

وكان الاضطهاد الذى ابتلى به المذهب الجديد على يد الكنيسة الرسمية اقل كثيرا من ذلك الذى جاءه من العامة البسطاء الذين لم يطيقوا الطرق الجديدة فى التبشير بالافكار القديمة . ففى المدينة بعد المدينة هوجم وعاظ الهواء الطلق ـ كما سيهاجم نظراؤهم اللاحقون الذين سيبشرون بانجيل اجتماعى جديد ـ من غوغاء أسعدهم أن يكونوا قساة دون خوف ولا لوم . ففى مونموث ضُرب واعظ علمانى على رأسه بصخرة فمات من الضربة . وفى ودنزبرى حطم جمْع بيوت المثوديين ، وآذى نساءهم ، وضرب رجالهم . فلما ظهر وسلى طالب الجميع بدمه ، وصفق للذين ضربوه بالهراوات ، وصلى هو بصوت عال ، فأطلق الجمع سراحه . وفى بولتن أغار جمع غاضب على البيت الذى كان يعظ فيه ، وواصل هو عظته الى النهاية وسط وابل من الحجارة والبلاط والبيض . وفى ديفيزيه صوبت طلمبة مائية على مسكن تشارلز وسلى ، وأطلقت الكلاب البولدوج على

اتباعه . وفى اكستر رُجم هوايتفيلد حتى كاد يلقى حتفه . وفى هوكستن دفع ثور بمهماز الى محفل مثودى ، وفى بنسفورد سيق عجل هاجه تحريش الكلاب به الى المائدة التى كان جون وسلى يعظ عندها . وراقت شجاعة الوعاظ الخلق الانجليزى ، واكسبتهم التسامح والتاييد .

كان وسلى رجلا قصير القامة ، طوله خمسة أقدام وثلاث بوصات ، ووزنه ١٢٨ رطلا . وكان فى شيخوخته يقع من نفوس ناظريه وقعا طيبا بشعره الأبيض ، ولكنه كان من قبل فى كهولته يسترعى الاهتمام بقسماته الدقيقة المتقشفة وعينيه المسيطرتين . وكان من القضايا المسلمة عنده انه خلق ليَحكُم ؛ ووضعه نشاطه العصبى وقوته الذهنية فى مكان الزعامة بحكم الطبيعة ، واشتطت به أحيانا ثقته بنفسه ثقة لا يتشكك فيهما الى اعتداد بالنفس ، رأى فيه أسقف مثودى « غطرسة » شديدة (٦٣) . ولم يكن بالرجل الذى يسهل الانسجام معه ، لأنه كان يفكر ويتحرك بسرعة لا يستطيع الآخرون أن يجاروه فيها . وتزوج فى ١٧٥١ ، بعد أن أحب كما نحب كلنا المرضة التى اعتنت به فى مرضه . وسافرت معه زوجته فى جولاته المحمومة طوال عامين ، ثم انهارت صحتها واعصابها فتركته كما يقفز انسان من فوق ظهر حصان جموح . وكان يعزو الفضل فى صحته وحيويته لرحلاته المتصلة راكبا أو راجلا ، وقد نضيف أن الخطابة رياضة "تهوّى الرئتين . وفى ١٧٣٥ أصبح نباتيا ، وبعد عام قرر هو وصديق له ان يعيشا على الخبز القفار دون غيره ، وأن « يجربا امكان الحياة بلون واحد من الطعام كما هى ممكنة بمختلف الوانه ... ولم نكن اشد قوة وعافية منا حين لم نذق طعاما آخر (٦٤) » ،ولكنهما سرعان ما انتكسا الى التنويع فى الطعام .

ماذا كانت نتائج الوعظ المثودى ؟ فى جيل واحد أصبح الدين ، الذى لاح من قبل انه يموت من أثر الوقار الانجليكانى والشكوك الربوبية عنصرا مدوّيا فى الحياة الانجليزية ، لا يعلو عليه الا السياسة والحرب. فلما مات وسلى (١٧٩١) كان اتباعه يعدون ٧٩٫٠٠٠ فى انجلترة ، ٤٠٫٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، وفى ١٩٥٧ كان هناك ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ مثودى فى بريطانيا العظمى ، و ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى الولايات المتحدة و ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فى العالم (٦٥) . وفضلا عن تكاثر اتباع المذهب كان

له تأثير فى المذاهب الأخرى ؛ مثال ذلك ما حدث فى الكنيسة الانجليكانية التى رفضت المثودية ، اذ بعثت المثل المثودية العليا الحركة « الانجيلية» فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولعلها دخلت فى حــركة اكسفورد فى القرن التاسع عشر . أما من الناحية السياسية فان النتائج كانت استسلاما محافظا بين الطبقــات العاملة حتى ١٨٤٨ . وأما من الناحية الخلقية فان المثودية حسنت السلوك الشخصي والحياة العائلية بين الفقراء وشاركت فى تقليل الفساد الانتخابى والرسمى ، وأخزت الكثيرين من طبقة السادة فاقلعوا عن الطيش والرذيلة ، وهيأت لنفور الانجليز من تجارة الرقيق . وأما من الناحية الثقافية فان الحركة كانت سلبية . لقد أعطت الشعب ترانيم مقدســة ، ولكنهــا واصلت العــداء البيورتانى للفن . واما من الناحية الفكرية فانها كانت خطوة الى الوراء فقد أرست عقيدتها على الخوف ، وشعائرها على العاطفــة ، وأدانت العقل بوصفه فخا للانسان . وفى الصراع الكبير بين الايمان والعقــل علقت كل آمالها على الايمان ، ولم تضع أى ثقة فى تقدم المعرفة والعلم ، وتجاهلت أو احتقرت « التنوير » الذى أخذ يشعل النار فى فرنســا . وشعرت أن هدف الحياة ومعناها الوحيد هو الهروب من الهلاك الأبدى ، وان الشيء الوحيد المطلوب لهذه الغاية هو لايمان بالموت الفادى الذى ماته المسيح .

وفى يناير ١٧٩٠ ، حين بلغ وسلى السادسة والثمانين ، كتب فى يوميته يقول « بت" الآن شيخا متهدما من رأسي الى قدمى . عينــاى معتمتان ، ويمناى تهتز بشدة ، وفمى ساخن جاف كل صباح ، وتنتابنى حمى طويلة كل يوم تقريبا . ولكنى بفضل الله لا أخفف من جهدى . ففى استطاعتى أن أعظ وأكتب الى الآن (٦٦) » . وبعد شــهرين بدأ جولة خطابية اتصلت خمسة أشهر وجابت به أرجاء انجلترة واسكتلندة . وقضي نحبه فى العام التالى (٢ مارس ١٧٩١) . ولو حكمنا على عظمة الأفراد بمدى تأثيرهم لقلنا انه ـ باستثناء بت ـ كان أعظم الانجليز فى زمانه .

٥ - فى النحل والبشر

هناك شخصيتان أقل شأنا توقفاننا فى طريقنا الى ديفد هيوم . أولهما برنارد ماندفيل ، وكان طبيبا لندنيــا من أصــل فرنسي ومولد هولندى ، نشر فى ١٧٠٥ كراسة فى عشر صفحات تباع بست بنســات ، مكتوبة بشعر مرح عنوانها « الخلية المتذمرة » . وموضــــوعها مفارقة مؤداها أن رخاء الخلية راجع الى رذائل أفرادهــا من النحـــل - الى جشعها الأنانى ونشوتها التناسلية ومشاكستها الجماعية . وبتطبيق هذا التناقض على الخلية الانســانية ، ذهب الطبيب الخبيث الى أن ثروة الدولة وقوتها لا تعتمدان على فضائل مواطنيها بل على الرذائل التى يندد بها الأخلاقيون المتذمرون بحماقة . فلنتصور ما يحـــدث لو كفت فجأة كل ضروب حب التملك والغرور والخيانة والمشاغبة - لو لم يأكل الرجال والنساء من الطعام الا بقدر ما يحتاجون اليه ، ولم يلبسوا من الثياب الا ما يقيهم القر والحر ، ولم يغشوا أو يؤذوا بعضهم بعضا ، ولم يتشاجروا ، وأدوا ديونهم دائما ، واحتقروا أسباب الترف ، وكانوا أوفياء لأزواجهم . لو حدث هذا لتوقف المجتمع كله فجـــأة ، فترى المحامين يتضورون جوعا ، والقضاة يتركون بغير قضايا أو رشا ، والأطباء يذوون لانعدام المرضي ، وزراع الكروم يفلسون ، والحانات تغلق أبوابها لانعدام شاربى الخمر ، وملايين الصناع المهرة الذين ينتجون الغريب من الأطعمة أو الحلى أو الملابس أو البيوت يتعطلون ؛ ولن يرغب أحد فى أن يكون جنديا ؛ وما يلبث المجتمع أن يقهر ويستعبد .

وعطل تأثير الخلية المتذمرة صياغتها فى شعر هزلى محطم الوزن ، وغاظ هذا الطبيب المغرور ، الجشع ، المشاغب ، فأعاد اصدارها ثانية فى ١٧١٤ ، وثالثة فى ١٧٢٣ ، باسم « خرافة النحل » موسعا اياها المرة بعد المرة بالمقدمات ، والملاحظات ، والتعليقات التى بلغت بالصفحات العشر مجلدين . وأصغت انجلترة وفرنسا هذه المرة ، لأن هذه الملاحق كانت من أقذع ما كتب من تحليلات للطبيعة البشرية .

واتخذ ماندفيل من ايرل شافتسبرى الثالث هدفا رئيسيا لكتـــابه بكل معنى الهدف . ذلك أن الايرل كان قد فسر الطبيعة البشرية ببلاغة

متفائلة ، فافترض فى الانسان « احساسا باطنيا بالصواب والخطأ ... فطريا فينا كالمحبة الفطرية ، وهو مبدأ أول فى كياننا » . ورد ماندفيل على هذا بانه هراء بديع ؛ فالطبيعة البشرية قبل التربيـــة والتدريب الخلقى لا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، انما تحكمها المصالح الذاتية دون غيرها . وقد وافق اللاهوتيين على أن الانســـان بطبيعته « شرير » (متمرد على القانون) ، ولكنه بدلا من أن يهدد النـاس بالجحيم ، هناهم على الملاءمة البارعة بين رذيلة الفرد وخير المجتمع . فالبغاء السرى مثلا يحمى العفة العامة ، والنهم للانتاج والخدمـات يحفـــز الاختراع ، ويدعم الصناعة والتجارة ؛ والثروات الكبيرة تتيح البـــر بالناس والفن الضخم . وبينما بشر اللاهوتيون بالتقشف ، دافع ماندفيل عن الترف ، ، وحجته أن الرغبة فى الكماليات (وهى أى شيء خـلاف الضروريات المجردة للحياة) هى أصل الصناعة والحضارة ؛ فلو أزلنا الترف كله ُعدنا همجا . وبينما ُيفترض فى الأخلاقيين ان يدينوا الحرب قال ماندفيل ان الأمم عاشت بفضل قدرتها على شن الحرب ، لأن معظم الدول وحوش ضارية .

ولم ير فى الطبيعة أى فضيلة . فالخير والشر كلمتان تصـدقان على الأفعال الاجتماعية أو المعادية لمصلحة المجتمع فى الانسان ، أما الطبيعة نفسها فلا تابه بكلماتنا أو عظاتنا ، وهى تحدد الفضيلة بانها أى صفة تعين على البقاء ؛ وعالم الطبيعة فى عباراتنا المتحيزة مسرح للجشع والشهوة والقسوة والقتل والتبديد الذى لا معنى له . ومع ذلك فمن ذلك الصراع الرهيب ، كما يقول ماندفيل ، طور الانسان اللغـــة والنظام الاجتماعى والنواميس الأخلاقية أدوات للتماسك الاجتمـاعى وبقاء المجتمع . والثناء واللوم لا تبررهما الطبيعة ، ولكنهما مبرران باعتبارهما وسائل نستعين بها - لأنها تروق غرور الانسـان وخـــوفه وكبرياءه ، - على ان نشجع فى غيرنا الوانا من العمل مفيـدة لنا أو للجماعة .

ومعظم الذين سمعوا بماندفيل رموه بالنزعة المادية الكلبية ، ولكن فولتير اتفق معه على نفع الكماليات ، وصفق فزيوقراطيو فرنسا القائلون بسياسة « عدم التدخل » لرأيه فى أن عدم التدخل فى طمع الانسان

كفيل بأن يجعل عجلات الصناعة تدور . وأغلب الظن أن الطبيب الكثير النزوات كان مسلما بأن مفارقته هذه ، « الرذائل الخاصة هى فضائل عامة » كانت الى حد كبير لعبا بألفاظ فضفاضة التعريف . ان « الرذائل » كحب الاقتناء ، والعشق الجنسي ، والمشاغبة ، والكبرياء ، كانت يوما ما « فضائل » فى الصراع البدائى للبقاء . ولم تصبح رذائل الا حين مورست فى المجتمع ممارسة تجاوزت الخير الاجتماعى ؛ وقد أصبحت منافع عامة بفضل التحكم فيها بالتعليم ، والرأى العام ، والدين ، والقانون .

وشتان بين فرانسس هتشسن وبين هذا الطبيب المفترى . وقد ولد هتشسن فى ارلندة لقس مشيخى ، ثم انحرف عن جادة أبيه وفتح معهدا خاصا فى دبلن . واذ كان شديد الوعى بالتزامه بأن يجعل من المتوحشين الصغار مواطنين ، فقد كتب من معهده « تحقيقا فى الخير والشر الأخلاقيين » (١٧٢٥) عرّف فيه المواطن الصالح بأنه ذلك الذى يعزّز الخير العام ، ووصف فيه الخير العام (بعبارة سبقت بحذافيرها صيغة بنتام فى مذهب المنفعة) فقال انه « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس (٦٩) » فلما رقى الى كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو ، أزعج المشيخيين بدفاعه عن حق الفرد فى اصدار حكمه على الأشياء ، وعن مشروعية اللذة ، وعن « الفنون الابداعية كالموسيقى والنحت والتصوير ، وحتى الملاهى الرجولية » (٧٠) ، ولم يشارك ماندفيل فكرته المتشائمه عن الطبيعة البشرية . وقد سلم بأخطاء الناس وذنوبهم ، وبشهواتهم الجامحة وجرائمهم العنيفة ، « ولكن الجانب الأكبر من حياتهم يستخدم فى القيام بمهام من المودة الطبيعية ، أو الصداقة ، أو حب الذات البرىء ، أو حب الوطن » . ثم أضاف تحذيرا نافعا للمؤرخين فقال :

« ان الناس ميالون الى اطلاق العنان لخيالاتهم فى أمر جميع ما سمعوا عنه او قرءوا فى التاريخ من سرقات ، وقرصنات ، وجرائم قتل ، وايمان كاذبة ، وتزويرات ، ومذابح ، واغتيالات ، فيستنتجون من هذا كله أن النوع الانسانى كله شرير جدا ، وكأن دار القضاء هى المكان الصحيح لتقييم أخلاق البشر ، او المستشفى لتقييم ملاءمة المناخ

للصحة . أفلا يجدر بهم أن يروا أن عدد المواطنين والمزارعين الشرفاء يفوق كثيرا عدد كل أنواع المجرمين فى اى دولة ... وأن ندرة الجرائم بالقياس الى الأفعال البريئة أو الخيرة هى التى تلفت انتباهنا لها ، وتبعث على تسجيلها فى التاريخ ، فى حين تغفل أفعال شريفة سمحة مالوفة ، تفوقها بما لا يقاس ، لا لشيء الا لأنها عادية جدا ؛ وما أشبه هذا بخطر جسيم واحد ، أو شهر يقضي فى المرض ، فيصبح قصة تتردد كثيرا ، خلال حياة طويلة من الصحة والسلامة » .

ذلك عقل سليم !

٦ ـ ديفد هيوم : ١٧١١ ـ ٧٦

أ ـ الفيلسوف الشـاب

كان هتشسن جزءا متواضعا من حركة « التنوير الاسكتلندى » ، اما هيوم فكان ألمع كواكبها . وهو يروى لنا فى ترجمته الذاتية البسيطة ، ذات الصفحات الست ، أنه ولد بادنبره فى ٢٦ أبريل ١٧١١ ، « لأسرة طيبة أبا وأما ، فاسرة أبى فرع من ايرل Home أو Hume★ وكانت أمى ابنة السر ديفد فوكنر عميد كلية الحقوق » . ومات الأب فى ١٧١٢ ، تاركا ممتلكاته لشقيق ديفد الأكبر ، جون هيوم ، ولديفد دخلا يبلغ ثمانين جنيها فى السنة ـ يكفى لمعيشة متقشفة . أما الأسرة التى كانت كلها تدين بالمذهب المشيخى ، فقد أشربت الصبى اللاهوت الكلفنى اشرابا قويا تخلّف على شكل الحتمية فى فلسفة ديفد . كان فى بكرة كل أحد يختلف الى صلاة فى الكنيسة تتصل ثلاث ساعات ، منها ساعتان من الوعظ ؛ ثم يعود عشية كل أحد الى الكنيسة ساعة ؛ يضاف الى هذا صلوات الصباح فى البيت (٧٢) . ولم يكن مندوحـة من أن ينتقض ديفد على هذا كله بالانحراف الى الهرطقة ما دام فيه ذرة من صلابة الخلق .

وحين بلغ الثانية عشرة دخل جامعة أدنبره . ثم تركها بعد ثلاث

★ كان سليل لذلك الايرل رئيس وزراء لبريطانيا العظمى فى ١٩٦٤ . والاسم Home كان ومازال يلفظ Hume « هيوم » .

سنوات دون درجة ، عازما على ان يفرغ بكليته للأدب والفلسفة . وفى السادسة عشرة كتب الى صديق يلوم نفسه

« لان سلامى العقلى لا تدعمه الفلسفة دعما يكفى للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا فى الدرس والتامل .. .. فاسمح لى بان أتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع أطيل التفكر فيه ولا يعيينى الحديث فيه اليوم كله (٧٣) » .

وسرعان ما تبخر ايمانه الدينى :

« وجدت ضربا من جراة الطبع يتملكنى ، وهى جراة لا تميل الى الخضوع لاى سلطة فى هذين الموضوعين (الفلسفة والادب) ... فلما ناهزت الثامنة عشرة بدا كانه قد انفتح أمامى مشهد جديد من الفكرة ، أطربنى منتهى الطرب ، وحملنى بحماسة الشباب الطبيعية على ان انبذ كل لذة او شغل آخر لاعكف عليه العكوف كله (٧٤) » .

وقال فى فترة لاحقة انه « لم يشعر باى ايمان بالدين منذ بدا قراءة لوك وكلارك (٧٥) » . فما ان بلغ السابعة عشرة حتى كان قد خطط لرسالة فى الفلسفة .

والح عليه اقرباؤه فى إن الفلسفة وثمانين جنيها فى العام لن يتيحا له سوى عيش ضنك ، وان عليه ان يقنع بضرورة التكسب . فهل فى استطاعته أن يدرس القانون ؟ وحاول ذلك طوال ثلاث سنوات مؤلمة (١٧٢٦ ـ ٢٩) . وانهارت صحته ، وأوشكت روحه أيضا أن تنهار ، وفقد اهتمامه بالافكار فترة . « رأيت دراسة القانون شيئا يثير فى « الغثيان » (٧٦) ، فطلقها ، وعاد الى الفلسفة ، ربما بانحراف واحد . ففى أواخر فبراير ١٧٣٤ رحل عن ادنبرة الى لندن « لابذل محاولة هزيلة جدا لولوج مجال من الحياة اكثر نشاطا (٧٧) » . وفى ٥ مارس مثلت آجنس جلبريث أمام القس جورج هيوم (عم ديفد) ، واعترفت بانها حبلى . فلما جىء بها امام جلسة لمجلس الكنيسة المشيخية صرحت بان « المستر ديفد هيوم ... هو أبو الطفل » وارتاب المجلس فى صدقها فاحالها الى الاجتماع التالى للمجلس المشيخى

المحلى ؛ وأمام هذا المجلس فى ٢٥ يونيو ، كررت التهمة . وقد جاء فى محضر مجلس تشيرنسايد :

« ان رئيس الجلسة ... ناشدها ان تقول الصدق وتعترف هل أذنب معها شخص آخر ... وبعد أن نظر المجلس فى الأمر ، وأحيط أعضاؤه علما بان ديفد هيوم المذكور خرج من المملكة ، أحالوها الى دائرة مجلس تشيرنسايد امتثالا لقواعد الكنيسة (٧٨) » .

وهذا يتطلب مثولها فى المسرح أمام الكنيسة وعرضها فى المشهرة ثلاثة آحاد . وفى ١٧٣٩ أدينت آجنيس مرة اخرى بالزنا .

ومضي هيوم الى برستل بعد ان توقف فى لندن ، واشتغل فى مكتب تاجر « ولم تمض عليّ شهور حتى وجدت ذلك الجو لا يلائمنى اطلاقا » فعبر البحر الى فرنسا ، حيث المعيشة أرخص منها فى انجلترة . ومكث فترة فى رانس ، ثم رحل الى لافليش (على نحو ١٥٠ ميلا جنوب غربى باريس) ، لأن كلية اليسوعيين فيها كانت تملك مكتبة كبيرة ، واتصل الاسكتلندى المدبّر اتصالا وديا بالكهنة فسمحوا له باستعمال كتبهم . وقد وصفه أحد الآباء فى نظرة لاحقة بأنه « كان شديد الاعتداد بنفسه .... فى روحه حيوية أكثر مما فيها من التماسك وفى خياله توقد أكثر مما فيه من العمق ، وقلبه أشد انغماسا فى الأشياء المادية والعجب الروحى من أن يتغلغل الى الخفايا المقدسة للحقائق الالهية (٧٩) » .

وفى ظل اليسوعيين ألف هيوم أول جزئين من رائعته الشكوكية « رسالة فى الطبيعة البشرية » . وفى سبتمبر ١٧٣٧ ، عاد الى انجلترة مثقلا بمخطوطته . وقد لقى عنتا مع الناشرين ، لأنهُ كتب فى ديسمبر الى هنرى هيوم يقول : « اننى الآن أجب كتابى ، أى اقتطع منه اجزاءه الممتازة ، محاولا أن أقلل ما استطعت من ايذائه لشعور الناس (٨٠) » . وكان أهم ما حذف منه « مناقشات حول المعجزات » فنحاها لاستعمالها فى أوقات أسلم . أما الباقى ، الذى ضمن انه يدق على أفهام المتشبثين بالقديم ، فقد نشره جون نون اللندنى غفلا من اسم المؤلف فى مجلدين فى يناير ١٧٣٩ . وباع هيوم المجلدين اجمالا

بخمسين جنيها واثنتى عشرة نسخة ـ وهى صفقة ليست خاسرة جـدا بالنسبة لكتاب فى المنطق ونظرية المعرفة بقلم شاب مغمور فى السابعة والعشرين . على أنه كان قمة من قمم الفلسفة الحديثة .

ب ـ الغض من شأن العقل

كشف « الاعلان » الذى تصدّر الكتاب عن ثقة هيوم فى قدراته . فقد قال فيه انه يستهدف دراسـة الطبيعة البشرية من حيث الفهـم والانفعالات ، ثم فى مجلد ثالث قادم من حيث الاخلاق والسياسة . وشرع فى تحليل « الانطباع » (الاحسـاس) ، والادراك الحسي ، والذاكرة ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والاعتقاد . وهذا البحث فى كيفية وصولنا الى أن « نعرف » بحث أساسي ، لأن صحة العلم والفلسفة والدين والتاريخ تتوقف على طبيعة المعرفة ، وأصلها ، وامكان وثوقنا بها . وهو فرع من الدراسة عسير ، لأنه يتناول الأفكار المجردة لا الأشياء المحسة ، والفكر آخر شيء يحاول الفكر أن يفهمه .

وبدأ هيوم بقبوله تجريبية لوك نقطة انطلاق لبحثه ، فكل الأفكار مستقاة فى النهاية من التجربة بطريق الانطباعات . وهذه اما أحاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والـذوق ؛ واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والألم . والادراك الحسي احساس مفسر ؛ « فالضوضاء » احساس ، ولكن « نقرة على الباب » ادراك حسي (وهيوم ليس دقيقا أو ثابتا دائما فى استعماله هذين المصطلحين) . والمولود أعمى أو أصم ليس لديه « فكرة » عن الضوء أو الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما . وفكرتا المكان والزمان نابعتان من التجربة ، فالأولى « فكرة نقاط مرئية أو محسوسة موزعة بنظام معين » ، والثانية ادراك التعاقب فى انطباعاتنا (٨١) ولا تختلف الأفكار عن الانطباعات الا فى ضعف « القوة والحيوية التى تقع بهما على الذهن (٨٢) » . والاعتقاد « ليس الا فهما أكثر حيوية وحدة لأى فكرة ... انه شيء يشعر به الذهن ، يميز أفكار الحكم عن خرافات الخيال (٨٣) » .

ويبدو أن هيوم فى تعريفاته هذه يرى فى « الذهن » كيـانا أو أداة

حقيقية تمارس الانطباعات أو الأفكار ، أو تمتلكها ، أو تتذكرها ، أو تحكم عليها . على انه اذ يمضي في البحث ينكر وجود أى ذهن ملحق بالحالات النفسية - الاحساس ، أو الادراك الحسي ، أو الفكرة ، أو الشعور ، أو الرغبة التى تشغل الوعى فى لحظة بعينها يقول :

« ان ما نسميه « الذهن » ليس الا كومة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية توحدت معا بشتى الارتباطات ، ويفترض فيها - وان كان الفرض خطأ - أنها وهبت غاية البساطة والتطابق ... أما أنا فاننى حين أتغلغل فيما أسميه « نفسي » أعثر دائما على ادراك حسي معين أو آخر ، للحرارة أو البرودة ، للضوء أو الظل ، للحب أو الكره ، للألم أو اللذة . ولا أستطيع اطلاقا ان الحظ شيئا غير الادراك الحسي . فاذا زالت عنى ادراكاتى الحسية أى فترة ، كما يحدث بالنوم العميق ، فاننى طوال هذه الفترة أكون عادم الحس « بنفسي » ، ويمكن القول حقا اننى غير موجود . واذا زالت ادراكاتى الحسية كلها بالموت ، فعجزت عن التفكير والشعور والابصار والحب والكره بعد تحلل جسمى، فاننى أمحق محقا ، ولست أتصور ما يلزم بعد ذلك لجعلى عدما فى عدم ... واذا ضربنا صفحا عن بعض الميتافيريقيين .. فقد أجرؤ على التاكيد بأن باقى البشر ليسوا سوى حزمة أو مجموعة من مختلف الادراكات الحسية التى يعقب بعضها بعضا بسرعة فائقة ، والتى تتدفق تدفقا دائما ... وهذه الادراكات الحسية المتعاقبة ... تشكل الذهن (٨٤) » .

وهكذا بضربة واحدة من هذا الفتى المتهور سقطت ثلاث فلسفات : الفلسفة المادية ، لأننا (كما اثبت باركلى) لا ندرك « المادة » أبدا ، ولا نعرف غير عالمنا العقلى عالم الأفكار والمشاعر ؛ والفلسفة الروحانية، لأننا لا ندرك أبدا « روحا » ملحقة بمشاعرنا وأفكارنا الخاصة ؛ وفلسفة الخلود ، لأنه ليس هناك « ذهن » يبقى حيا بعد الحالات الذهنية العابرة . وكان باركلى قد هدم المادية برده المادة ذهنا ، فضاعف هيوم التدمير برده الذهن افكارا . فلا « المادة » ولا « الذهن » موجودان. لا لوم على ظرفاء العصر اذن أن « يرفضوا الفيلسوفين جميعا بهذه

العبارة « No matter, never mind (وفيها تورية ، لايهم (لا مادة) ، لا بأس (ولا ذهن)) .

وحرية الارادة فى هذه النظرة المدمرة مستحيلة ، فليس هناك ذهن يختار بين الافكار أو الاستجابات ، وتعاقب الحالات النفسية يقرره ترتيب الأحاسيس ، وترابط الأفكار ، وتناوب الرغبات ؛ ان « الارادة » ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة ، والهوية الشخصية هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها بفكرة العلة .

ولكن العلة أيضا ليست سوى فكرة ؛ فليس فى قدرتنا أن نثبت أنها واقع موضوعى . فاذا ادركنا أن : أ (اللهب مثلا) تعقبه بانتظام ب (الحرارة) ، استنتجنا أن أ كانت العلة فى ب ، ولكن كل ما لاحظناه هو تعاقب الاحداث ، لا عملية علية ، فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن ب ستعقب أ دائما . « كل استدلالاتنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة لا مصدر لها غير العادة (٨٥) » . وليست « قوانين الطبيعة » التى نتحدث عنها الا تعاقبات مالوفه فى تجربتنا ؛ لا روابط ثابتة وضرورية فى الأحداث ، ولا ضمان أنها ستصدق غدا . فالعلم اذن تراكم للاحتمالات المعرضة للتغيير دون انذار . والميتافيزيقا مستحيلة اذا زعمت انها نسق من الحقائق حول واقع مطلق ، لأنه لا سبيل الى معرفة « الأسباب » الكامنة وراء النتائج ، ولا « المادة » الكامنة وراء الأحاسيس ، ولا « الذهن » الذى يقال انه كامن وراء الأفكار . وما دمنا نبنى ايماننا بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد الى « محرك أول لا يتحرك » ، فان علينا أن نتخلى عن تلك السفسطة الارسطاطالية . ان الأشياء كلها تتدفق ، وما اليقينية الا حلم من الاحلام .

وبعد ان ينشر هيوم الدمار من حوله بسيف عقله البتار ، يتوقف لحظة تواضع فيقول « حين أتأمل القصور الفطرى فى حكمى ، تقل ثقتى بآرائى عنها حين أتأمل الاشياء التى أتناولها بالاستدلال (٨٦) » فهو يعلم مثلنا أن اليقينية ليست ضرورية للحياة ، ولا للدين ، ولا حتى للعلم ؛ وان درجة كبيرة من الاحتمال تكفى لعبور شارع او بناء

كتدرائية أو لتخليص نفوسنا . ويسلم فى تذييل للكتاب بانه قد يكون هناك رغم ذلك نفس وراء الأفكار ، وواقع وراء الاحاسيس ، وعلاقة علية وراء التعاقبات المتصلة . وهو ثابت على موقفـــه نظـــريا « لم يسعدنى الحظ الى الآن بان اكتشف أى أخطاء جسيمة فى الاستدلالات المعروضة فى المجلدين السابقين (٨٧) » . ولكنه يعترف فى لطف أنه، عمليا ، يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه .

« لو سئلت هل أوافق مخلصا على هذه الحجة التى بذلت هـذا الجهد فى اقرارها ، وهل أنا حقا واحد من هؤلاء الشكاك الذين يذهبون الى ان كل الاشياء غير يقينية ... لاجبت ... اننى لا أنا ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى اى وقت باخلاص وثبـــات (٨٨) ... اننى أتناول غذائى ، وألعب النرد ، وأتحدث واسمر مع أصحابى ، فاذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح الى هذه التأملات ، بدت لى باردة مفتعلة سخيفة جدا بحيث لا أستطيع أن أجد فى صميم نفسي ما يدفعنى لمزيد من الايغال فيها (٨٩) ... وهكذا يواصل الشـــاك استدلاله العقلى واعتقاده ، وان أكد أنه لا يستطيع الدفاع عن استدلاله العقلى بالعقل ؛ وعلى هذه القاعدة نفسها يجب أن يوافق على مبدأ وجود الجسد وان عجز عن الادعاء باى حجج من الفلسفة بانه أثبت صحته (٩٠) » .

واخيرا يتنكر هيوم للجدل العقلى باعتباره هاديا للحياة ويضع ثقته فى الايمان الحيوانى ، فى الاعتقاد القائم على العرف بأن الواقع عقلانى تتخلله العلية . وحين يؤكد هيوم أن « الاعتقاد هو على الاصح فعل من افعال الجانب الحساس لا الجانب العارف من طبائعنا (٩١)» فانه - وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره - يلتقى بجان جاك روسو ، ذى الستة والعشرين ، فى الشباب والنظرية ، كما قدر له أن يلتقى به بعد ذلك فى الصداقة والمأساة . ولم يقتصر أبرع المجادلين العقليين فى عصر العقل على اتهام المبدأ العلى العقل ، بل انه فتح بابا لرد الفعل الرومانسي الذى سينزل العقل عن عرشه ويجعل من الوجدان الها له .

و « الكتاب » والمجلد الثانى من « الرسالة » يواصل انزال العقل

عن عرشه . فنرى هيوم يرفض محاولات الفلاسفة بناء مبـــدأ أخلاقى على تحكم العقل فى العاطفة . وهو يعنى بكلمة العاطفـــة الرغبـــة الوجدانية . « لكى أثبت مغالطة هذه الفلسفة باكملها ، ســأحاول أن اثبت أولا أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعا لأى فعل من افعـــال الارادة ؛ ثانيا انه لا يستطيع اطلاقا معارضة العاطفة فى اتجاه (ضد قوة) الارادة (٩٢) » . « فلا شيء يستطيع مقاومة أو تعطيل دافـــع العاطفة الا عاطفة مضادة » (أهذا صدى لسبينوزا ؟) . ويضيف هيوم امعانا منه فى ترويع المتشبثين بالقديم « ان العقل عبد ، وينبغى أن يكون عبدا ، للعواطف (الأداة المنيرة والمنسقة للرغبات) ولا يمـــكن ان يزعم لنفسه اى وظيفة أخرى سوى خدمتها وطاعتها (٩٣) » .

ثم يمضي الى تحليل دقيق للعواطف ـ واهمها الحب ، والكره*، والعطف ، والغضب ، والطمع ، والحسد ، والكبرياء . « ان العلاقة التى تحدث فى الكثير الغالب عاطفة الكبرياء هى علاقة الملكية (٩٤)». وكل العواطف تقوم على اللذة والألم ، وتمييزاتنا الاخلاقية تنبـــع فى النهاية من هذا المنبع الخفى ذاته « اننا نميل الى اطلاق اسم الفضيلة على اى صفة فى الآخرين تعطينا اللذة لأنها تعين على نفعنا ، والى اطلاق اسم الرذيلة على اى صفة بشرية تعطينا الألم (٩٥) » . وحتى مفاهيم الجمال والقبح مشتقة من اللذة والألم . يقول :

« لو تأملنا جميع الفروض التى وضعت ... لتفسير الفرق بين الجمال والقبح ، لوجدناها كلها تنحل الى هذا ، وهو أن الجمال نظام وتركيب للأجزاء ، مهيأ لاعطـــاء اللذة والرضي للنفس ، اما بســـبب التكوين الفطرى لطبائعنا (كما نرى فى جمال الجسم البشرى) أو بسبب العرف (كما نرى فى الاعجاب بنحافة القوام فى النســاء) أو بسبب النزوة العارضة (كما نرى فى اضفاء الكمال على أوهام الرغبة المعاقة) ... فاللذة والألم اذن ليسا مرافقين ضروريين فحسب للجمال والقبح ، ولكنهما يكوّنان جوهرهما ذاته ، ... وما الجمال الا شكل يحدث اللذة ، كما أن القبح بناء للأجزاء يحدث الألم (٩٦) » .

والحب بين الجنسين يتركب من هذا الاحساس بالجمال ، مضافا اليه « الرغبة الجسمية فى التناسل ورقة ومودة سمحتان (٩٧) » .

وفى مارس ١٧٣٩ عاد هيوم الى ادنبره · وراح يقلب الدوريات فى لهفة بحثا عن نقد لمجلديه ، وعانى من نتائج تقليبها · قال « لم تلق محاولة أدبية قط حظا اعثر مما لقيت « رسالتى فى الطبيعة البشرية» فلقد ولدت ميته من المطبعة ، ولم نحظ حتى باثارة دمدمة سخط بين المتعصبين (٩٨) » ولكنه حين كتب هذا فى شيخوخته كان قد نسي ، ربما بسبب الرغبة فى نسيان الذكريات الكريهة ، أن عدة مقالات نقدية ظهرت خلال سنة بعد نشر كتابه · وقد شكت كلها تقريبا من أنه عسير الفهم ، وأن المؤلف سمح لشبابه بالاعلان عن ذاته بتكرار الاشارة الى نفسه والى الجدة الخطيرة التى تنطوى عليها افكاره · قال ناقد نموذجى من أحداثه : « ان ما يؤذى القارىء أشد الأذى هو تلك الثقة التى يسوق بها مفارقاته ·· فما عهدنا شاكا أشد من هذا قطعا بآرائه ··· وأمثال لوك وكلارك ليسوا فى الغالب فى نظره سوى مجادلين تافهين سطحيين بالقياس اليه (٩٩) » ·

واعد هيوم للمطبعة ، فى عزيمه صادقة رغم حزنه ، المجلد الثالث من رسالته ، المحتوى على الكتاب الثالث « فى الاخلاق » · وقد ظهر فى ٥ نوفمبر ١٧٤٠ · وساء تحليله للفضيلة العقلانيين بقدر ما ساء اللاهوتيين · فهو يزعم أن قواعد الفضيلة ليست الهامات خارقة ، ولكنها ايضا ليست استنتاجات خلص اليها العقل ، وذلك - كما يكرر هيوم القول « لأن العقل ليس له تاثير على عواطفنا أو افعالنا (١٠٠) » · وحسنا الخلقى ليس مصدره السماء بل التعاطف - شعور الزمالة مع اخواننا من البشر ، وهذا الشعور جزء من الغريزة الاجتماعية التى بها نلتمس الارتباط بالغير لخشيتنا من العزلة · « ان اول حالة وموقف للانسان يمكن أن يوصفا بحق بانهما اجتماعيان » ؛ و « الحالة الطبيعية » التى عاش فيها الناس دون تنظيم اجتماعى « يجب اعتبارها حديث خرافة (١٠١) » ، فالمجتمع قديم قدم الانسان · واذ كان الناس اعضاء فى جماعة ، فانهم سرعان ما تعلموا أن يمتدحوا التصرفات

النافعة للجماعة ، ويذموا الضارة بها . ثم ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل أو محاكاة الآراء التى سمعوها من حولهم ؛ وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم ، وطبقوا هذه الأحكام بوعى أو بلا وعى على سلوكهم . هذا فى رأى هيوم أصل الضمير ، لا صوت الله (كما سيتصور روسو وكانط) . ويقول هيوم ان قانون التعاطف هذا ، قانون التجاذب الجماعى ، هو عام ومنير فى العالم الأخلاقى شأن قانون الجاذبية فى الكون المادى ، ثم يختتم بهذه العبارة « وهكذا يحدونى على الجملة الأمل بانه لا ينقصنا شيء للبرهان الصحيح على هذا النسق من الأخلاق (١٠٢) » .

وكان المجلد الثالث اقل لفتا للانظار حتى من المجلدين السابقين . وظلت بقايا النسخ الألف والمائة ، وهى مجموع نسخ الطبعة الأولى للرسالة ، الى سنة ١٧٥٦ ، مكدسة على رفوف الناشر ، ولم يعش هيوم ليرى طبعة ثانية من كتابه .

ج ـ الأخلاق والمعجزات

كان واضحا انه لا يستطيع كسب قوته بقلمه . وفى ١٧٤٤ بذل محاولة فاشلة للوصول الى كرسي الأستاذية بجامعة ادنبره . ولا شك انه قبل فى شيء من الاحساس بالهوان (أبريل ١٧٤٥) وظيفة معلم خاص لمركيز أنانديل الصغير لقاء راتب قدره ٣٠٠ جنيه فى العام . أما المركيز فقد اختلط عقله ، وتبين هيوم أنهم يتوقعون منه ان يكون حارسا لمجنون ؛ ونشبت المشاجرات ، فطرد (أبريل ١٧٤٦) واضطر الى رفع دعوى مطالبا براتبه . ثم اشتغل سنة (١٧٤٦ ـ ٤٧) سكرتيرا للجنرال جيمس سانت كلير ، وكان يتقاضي راتبا طيبا ، ويتناول طعاما طيبا . وفى يوليو ١٧٤٧ عاد هيوم الى ادنبره وهو يملك ويزن من الجنيهات أكثر كثيرا منه حين غادرها . وفى ١٧٤٨ أعاد الجنرال استخدامه سكرتيرا وياورا فى بعثة الى تورين ، واكتسي ديفد الآن سترة قرمزية متوهجة .

واعجب جيمس كولفيلد (ايرل تشارلمونت فيما بعد) وكان يومها طالبا بتورين ، بذكاء هيوم وخلقه ، ولكن أفزعته سمنته . قال :

« ان سحنته حيرت علم الفراسة واعيت قدراته ... فى الكشف عن اقل اثر لمواهبه العقلية فى ملامح وجهه التى تخلو من المعنى . كان وجهه عريضا سمينا ، وفمه واسعا ، بغـير أى تعبير غـير تعبير البلاهة ... وكانت بدانة جسمه كله اجدر بان توحى للناظر بفـكرة العمدة أكل الترسة ، لا الفيلسوف المهذب (١٠٣) » .

ويدعى كولفيلد هذا انه رأى هيوم (وهو فى السابعة والثلاثين) جاثيا على ركبتيه أمام كونتيسة منزوجة (فى الرابعة والعشرين) ، يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر ؛ أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة انه ليس الا « عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى » . ويقول المصدر نفسه ان هيوم اصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم ، ويروى اسكتلندى اخر أن هيوم « تناول القربان الاخير » أثناء مرضه على يد كاهن كاثوليكى . وقيل ان هيوم اعتذر عن مطارحة الغرام وعن تناول القربان الاخير قائلا « ان نظام دماغى كان مختلا ، وكنت مجنونا كأى نزيل لمستشفى المجاذيب (١٠٤) » وفى ديسـمبر ١٧٤٨ عاد الى لندن وفرغ للفلسفة بعد أن بلغت ثروته ألف جنيه .

واعتزم أن يجد أذنا مصغية من جديد لافكار « الرسالة » ، فنشر فى ١٧٤٨ « تحقيقا عن الفهم البشرى » ، وفى ١٧٥١ « تحقيقا عـن مبادىء الاخلاق » . وفى « اعلان » قدم به لطبعه لهذين التحقيقين صدرت بعد وفاته (١٧٧٣) تنكر للرسالة باعتبارها « عملا صبيانيا » ورجا أن « تعتبر المقالات التالية وحـدها هى المحتـوية على آرائـه ومبادئه الفلسفية (١٠٥) » . أما تلاميذ هيوم فقد وجدوا عموما فى أعمال هيوم الاولى من الدسم أكثر مما وجدوا فى أعمـاله الاخيرة ، فهذه تغطى الارض نفسها ربما باسلوب أقل عدوانا وقطعا ، ولكنها تخلص الى النتائج ذاتها .

وبعد أن أعاد هيوم تحليله الشكى للعقل قدم القسم العاشر من التحقيق الأول ، وهو مقاله « فى المعجزات » الذى رفض الناشر من قبل أن يطبعه ضمن الرسالة . واستهله باعتداده المعادى بنفسه ، « انى اغبط نفسي على اننى عثرت على حجة ... اذا صدقت كانت للعقلاء والمثقفين رادعا دائما لكل ضروب الوهم الخرافى وستكون اذن نافعة أبد الدهر » . ثم يطلق أشهر فقراته فيقول :

« ما من شهادة تكفى لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها اكثر اعجازا من الواقعة التى تحاول اثباتها ... فاذا انبأنى انسان بانه راى ميتا يبعث ، سالت نفسي للتو ايهما اكثر احتمالا ، أن يكون هذا الشخص خادعا و مخدوعا ، او أن الواقعة التى يرويها وقعت فعلا . فأوازن بين المعجزتين ، وطبقا لرجحان احداهما ... أرفض المعجزة الأكبر . ولن تجد فى التاريخ كله معجزة شهد عليها عدد كا فمن الناس ، اوتوا من صادق الادراك والتعليم والثقافة ما يؤمننا من أى انخداع قد ينخدعون به ، ومن النزاهة التى لا ريب فيها ما يرفعهم فوق اى شبهات من أى قصد فى خديعة غيرهم ، ومن الثقة وحسن السمعة فى أعين البشر ما يجعلهم يخسرون الكثيرا اذا ضبطوا متلبسين بأى كذبة ؛ ويشهدون فى الوقت نفسه على وقائع وقعت علانية ، وفى جزء مشهور من العالم ، مما يجعل الضبط أمرا لا يمكن تجنبه ؛ وهذه الظروف كلها لازمة لاعطائنا الثقة الكاملة فى شهادة البشر ..

« ان القانون الذى نهتدى به عادة فى استدلالاتنا العقلية هو ان الأشياء التى لا خبرة لنا بها تشبه تلك التى لنا بها خبرة ؛ وأن ما وجدناه اكثر الأشياء عادية هو دائما اكثرها احتمالا ؛ وانه حيث يكون هناك تعارض فى الحجج ينبغى لنا ان نفضل تلك القائمة على اكبر عدد من الملاحظات الماضية .. وانها لقرينة قوية ضد جميع العلاقات الخارقة والاعجازية ما يلاحظ من انها تكثر على الاخص بين الامم الجاهلة

والهمجية ، ... ومن الغريب أن مثل هذه العجائب لا تحدث أبدا فى أيامنا . ولكن لا غـــرابة ... فى أن يكـــذب النـــاس فى جميـــع العصور (١٠٦) » .

واسترسل هيوم فى ادعاء عقبات اخرى فى طريق الايمان المسيحى: حياد الطبيعة الهادىء ازاء الانسان ومنافسيه على الارض ؛ وتنـــوع الشرور المتكاثر فى الحياة والتاريخ ؛ ومسئولية الله الواضحة عن خطيئة آدم ، وعن جميع الخطايا ، فى عالم لا يمكن أن يقع فيه شيء - طبقـا للفرض المسيحى - الا برضي الله . ودرءا لتهمة الكفر عنه، أجرى هيوم على لسان «صديق يحب المفارقات الشكية» «لا أستطيع أبدا الموافقة» على مبادئه ، دفاعا عن تخيل أبيقور أن الآلهة موجودة ولكنها لا تعبأ بالبشر . ويتساءل الصديق لم لا يمكن أن يتفق الدين والفلسفة على الا يزعج أحدهما الآخر كما اتفقا - فيما يظن - فى الحضارة الهلنستية :

« بعد أن انتهى الفزّع الأول الذى نجم عن مفارقات ومبـادىء الفلاسفة الجديدة ، يبدو أن هؤلاء المعلمين عاشوا طوال العصور القديمة فى انسجام عظيم مع الخرافة المقررة ، وقسموا البشر قســمة عادلة بينهما : فالقسم الأول يدعى لنفسه جميع العلماء والحكماء ، والثانى جميع السوقة والأميين (١٠٧) » .

فياله من أسلوب للمهادنة !

وفى ١٧٤٩ عاد هيوم الى اسكتلندة ليعيش مع أخيه وأخته فى ضيعتهما بناينويلز . وبعد عامين تزوج جون هيوم ، وانتقل ديفد الى ادنبره ، وأرسل الى المطبعة الآن « التحقيق فى مبادىء الأخلاق » الذى أمل أن يحل محل المجلد الثالث من الرسالة ، وأكد من جديد أن الحس الأخلاقى مشتق من التعاطف أو المشاعر الاجتماعية ؛ ورفض ما ذهب اليه سقراط من أن الفضيلة والذكاء شيء واحد ؛ واستنكر استنكارا قاطعا فكرة لارشفوكو القائلة بأن الأفعال « الغيرية » مدفـــوعة أنانيا بأمل اللذة الحاصلة من التقدير الاجتماعى الذى يتوقع أن تحظى به . فاللذة

التى نستشعرها فى مثل هذه الافعال ، فى رأى هيوم ، ليست سببا لها بل مرافقا ونتيجة لها ؛ أما الأفعال ذاتها فهى عملية من عمليات غرائزنا الاجتماعية (١٠٨) .

ولكن أبرز ملامح هذا التحقيق الثانى هو تفصيله لمبدأ منفعة أخلاقى . فبعد هتشسن بثلاثة وعشرين عاما ، وقبل بنتام بثمانية وثلاثين ، عرف هيوم الفضيلة بأنها « كل صفة فى العقل نافعة أو لذيذة للشخص نفسه أو لغيره(١٠٩) » . وعلى هذا الأساس برر اللذات الصحية للحياة باعتبارها نافعة للفرد ، والمعيار المزدوج للفضيلة باعتباره نافعا للمجتمع . يقول :

« ان طفولة الانسان الطويلة العاجزة تقتضي تضافر الوالدين للابقاء على حياة صغارهما ، وهذا التضافر يحتاج الى فضيلة العفة أو الوفاء للفراش الزوجى .. والخيانة من هذا النوع اشد أذى فى المرأة منها فى الرجل . ومن ثم كانت قوانين العفة أشد صرامة على أحد الجنسين منها على الآخر (١١٠) » .

وقد كتب المؤلف المفتون بكتابه عن هذا التحقيق فى مبادىء الأخلاق يقول : « فى رأيى (أنا الذى ينبغى الا أكون حكما فى هذا الموضوع) انه من بين جميع مؤلفاتى .. .. افضلها بما لا يقاس » واضاف « لقد ولد غير ملحوظ ولا مرموق فى هذه الدنيا (١١١) » .

د ـ الداروينية ومسيحية

وفى ١٧٥١ ألف « حوارات فى الدين الطبيعى » . وهو أشد ما أخرج مزاجه الشيطانى تخريبا وعدوانا على المقدسات . هنا يتحدث ثلاثة أشخاص ، ديميا الذى يدافع عن السنية ، وكليانثيس الربوبى ، وفيلو الذى هو هيوم لا يخطئه النظار . ويزعم ديميا انه ما لم نفترض وجود عقل أعلى وراء ظواهر الطبيعة فان العالم يصبح غير مفهوم الى

حد لا يطاق ، ولكنه يسلم ن الهه غير مفهوم بتاتا للعقل البشرى (١١٢)٠ ويلوم كليانثيس ديميا على محاولته تفسير غير المفهوم بغير المفهوم ، ويؤثر أن يثبت وجود الله بأدلة القصد فى الطبيعة ٠ أما فيلو فيسخر من الحجتين ، ويزعم أن العقل لا يمكن أبدا أن يفسر العالم أو يثبت وجود الله ٠ « فأى امتياز خاص تمتاز به حركة الدماغ الصغيرة هذه التى نسميها الفكر ، حتى يتحتم علينا أن نجعلها نموذجا للكون كله ؟ (١١٣) » ٠ وأما عن القصد ، فان تكييف الأعضاء لتلائم الأغراض ربما لم ينشأ عن ارشاد الهى ، بل عن تجارب الطبيعة ، البطيئة المتخبطة ، خلال آلاف السنين (١١٤) ٠ (هنا نجد « الانتخاب الطبيعى » بعد ١٫٨٠٠ سنة من لوكرينيوس ، وقبل ١٠٨ سنة من داروين) ٠ وحتى لو سلمنا بالقصد فوق الطبيعى ، فان قصور التكييفات وعيوبها ، وآلاف الآلام فى دنيا الانسان والحيوان ، تكشف لنا ــ على أحسن الفروض ــ عن اله محدود القدرات والذكاء ، أو اله غير مكترث للبشر بتاتا ٠ « فحياة الانسان فى النهاية ليست أعظم اهمية للكون عن حياة المحارة (١١٥) » يقول :

« يخيل للمرء أن هذا الانتاج الفخم لم يتلق آخر اللمسات من خالقه ، فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا ، والخطوط التى نفذ بها غاية فى الخشونة ٠ فالرياح مثلا تساعد الناس على الملاحة ، ولكن ما اكثر ما تصبح مؤذية حين تنقلب زوابع وأعاصير ! والأمطار ضرورية لتغذية جميع نباتات الارض وحيواناتها ، ولكن ما اكثر ما تكون شحيحة وما اكثر ما تكون مسرفة ! ٠٠٠ ليس فى الكون شيء كثير النفع الا انقلب المرة بعد المرة مؤذيا لافراطه أو قصوره ، ثم أن الطبيعة لم تتخذ حيطتها بالدقة المطلوبة من جميع الوان الخلل أو الفوضى (١١٦) » ٠

وأسوأ من هذا أن الأمر لا يقتصر على وجود الخلل وسط النظام (اذا نظرنا الى العالم على أنه مخطط) ، بل ان فى وسط الحياة الزاخرة صراعا عقيما على الدوام مع الموت ٠

« ان حربا لا يخمد لها أوار تستعر بين جميع الكائنات الحية . فالضرورة ، والجوع ، والعوز ـ تحفز الاقوياء والشجعان ، والخوف ، والقلق ، والرعب ، تقلق الضعفاء والعاجزين . وأول مدخل للوليد الى الحياة فيه الم مبرح له ولأمه المسكينة ، والضعف والعجز والضيق رفقاء كل مرحلة من مراحل تلك الحياة ، ثم يختم آخر الامر بالعذاب والرعب .. لاحظ أيضا .. حيل الطبيعة العجيبة ، لتكدر حياة كل كائن حى .. .. تامل ذلك الجيش العرمرم من الحشرات التى تتربى على جسم كل حيوان ، أو تغرز حمتها فيه وهى تطير من حوله ... فكل حيوان يحدق به أعداء يسعون على الدوام الى اشقائه وتدميره .. والانسان ألد خصوم الانسان . فالقهر ، والظلم ، والاحتقار والاهانة ، والعنف، والاغواء ، والحرب ، والافتراء ، والغـدر ، والتزييف ؛ بهذه يعـذب الناس بعضهم بعضا (١١٧) .

« انظر الى هذا الكون نظرة محيطة . يا لها من وفرة هائلة فى الكائنات ، الحية المنظمة ، الحساسة النشيطة ! انك لتعجب بهذا التنوع الضخم وهذه الخصوبة الهائلة . ولكن افحص بتدقيق أكثر هذه الكائنات الحية ... ما أشد عداءها وتدميرها بعضها لبعض ! ... والكل لا يمثل سوى فكرة الطبيعة العمياء ، التى تزخر بمبدأ محى عظيم ، ويتدفق من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية أطفالها الشائهون المجهضون (١١٨) ».

وتوحى الأدلة المتضاربة على الخير والشر فى العـالم الى فيلو بثنائية الآلهة المتنافسين أو تعددهم ، بعضهم « اخيـار » وبعضـهم « أشرار » ، وربما كانوا مختلفى الجنس . وهو يلمع فى خبث الى أن العالم :

« لم يكن سوى المحاولة الفجة الأولى لاله طفل أقلع عنها بعد ذلك خجلا من انجازه الاعرج .. أو انه نتاج الشيخوخة والخرف فى اله طعن فى السن ، وبعد موته واصل العالم مسيرته مغامرا ، مدفوعا بالدفعـة والقوة الفعالة الأولى التى تلقاها منه (١١٩) » .

ولعل العالم كما اكد البراهمة « نشا عن عنكبوت لا نهائى غــزل خيوطه المعقدة كلها من امعائه ... فلم لا يغزل نسق منظم من البطن كما يغزل من الدماغ ؟ (١٢٠) » . فتكون الخليقة والحالة هذه انسالا . أو ربمــا « كان العــالم حيــوانا والاله روح العــالم التى تحــركه وتتحرك به (١٢١) » .

وبعد هذا المزاح كله يعود فيلو الى القصد ، فيسلم بان « علة النظام أو علله فى الكون فيها على الأرجح بعض الشبه بالذكاء الانسانى (١٢٢) » . ثم يعتذر عن آرائه المخزية عن الكون :

« يجب أن أعترف اننى اقل حذرا فى موضوع الدين الطبيعى منى فى أى موضوع آخر ... وانك على الاخص يا كليانثيس ، أنت الذى أعيش معه فى علاقة حميمة بغير قيود ، تدرك أننى رغم تحــرر حديثى ، وحبى للحجج الغريبة ، فليس هناك من طبع ذهنه باحساس بالدين أعمق من احساسي ، أو من بعبد الكائن الالهى عبادة أعمق اذ يكتشف فى نفسه أنه يناقش أساليب الطبيعة وحيلهــا التى لا يمــكن تفسيرها . فالقصد ، أو النية ، أو التخطيط ، يسترعى فى كل مكان نظر أشد المفكرين غفلة وغباء ، وما من رجل يمكن أن يتجمد فى المذاهب الفلسفية السخيفة تجمدا يجعـله يرفض هــذا القصــد على طــول الخط (١٢٣) » .

على أن أصحاب هيوم ناشدوه الا ينشر الحوارات رغم هذا العرض بالمصالحة . فاذعن ، وحبس المخطوطة فى مكتبه ، فلم تر النور الا فى عام ١٧٧٩ ، بعد موته بثلاثة سنوات . ولكن افتتانه بالدين أغراه بالعودة الى الموضوع ، وفى ١٧٥٧ نشر « أربع مقالات » تناولت احداها « تاريخا طبيعيا للدين » . وسحب مقالين آخرين بناء على الحاح ناشره ، وقد طبعا حين كان أبعد من أن يناله خوف أو لوم ؛ واحد المقــالين عــن الخلود ، والاخر تبرير للانتحــار حين يصــبح الشــخص عبئا على اخوانه .

ومقال « التاريخ الطبيعى للدين » هذا يجمع بين اهتمام هيــوم القديم بالدين ، واهتمامه الجديد بالتاريخ ٠ فقد فات مرحلة الهجوم على المعتقدات القديمة الى مرحلة التساؤل عن كيفية توصل الانســان الى اعتناقها ٠ ولكنه لا يميل الى البحث الصابر المستأنى ، حتى بين المواد الشحيحة المتاحة آنئذ عن الأصول الاجتماعية ، بل يؤثر أن يتنــاول المشكلة بالتحليل السيكولوجى والاستنباط العقلى ٠ فعقل الانسان البدائى فسر العلية كلها قياسا على ارادته وسلوكه ، فوراء أعمال الطبيعة واشكالها — كالانهار والمحيطات والجبال والعواصف والأوبئــة والعجائب الخ — تصور هذا الانسان أعمالا ارادية يقوم بها أشخاص مختفون ذوو قــدرة خارقة ؛ ومن هنا كان الشرك أول ضروب الايمان الدينى ٠ واذ كانت قوى أو أحداث كثيرة مؤذية للانسان ، فقد كان للخوف نصيب موفــور فى أساطيره وعباداته ، فجسد هذه القوى الشريرة أو الشياطين وحــاول أن يسترضيها ٠ ولعل الاله الذى آمن به كلفن كان شيطانا قاسيا ، خبيثا ، مستبدا ، صعب الارضاء (وهذه اشارة خبيثة من هيوم) (١٢٤) ٠ واذ تصور الانسان الآلهة الخيرة على شــكل البشر — الا من حيث القــوة والدوام ، فانه افترض أنها تمنح العون والراحة لقاء الهدايا والزلفى ، ومن ثم كانت طقوس القرابين ، والضحايا ، والعبادة ، وصلاة التضرع ٠ وبازدياد التنظيم الاجتماعى حجما واتساعا ، وبخضوع الحكام المحليين لملوك أعظم ، مرت دنيا اللاهوت بتغيير مشابه ، فعزا الانسان فى الخيال الى الآلهة نظاما هرميا تسوده الطاعة ، وانبعث التوحيد من الشرك ، وبينما كانت الجماهير لا تزال تجثو للآلهة أو القديسين المحليين ، عبــد المثقفون زيوس ، أو جوبتر ، أو الله ٠

ولسوء الحظ أصبح الدين أكثر تعصبا كلما غدا أكثر توحيــدا ٠ فالشرك سمح بألوان كثيرة من العقيدة الدينية ، أما التوحيد فقد طالب بالتماثل ٠ وانتشر الاضطهاد ، وغدت الصيحة المطالبة بالعقيدة السنية « أعذف العواطف الانسانية وأعتاها جميعا (١٢٥) » ٠ وأكرهت الفلسفة على أن تكون خادما لايمان الجماهير ومدافعا عنه بعد أن كانت مطلقة

نسبيا بين القدامى باعتبارها دين الصفوة . وفى هذه العقائد التوحيدية ـ اليهودية والمسيحية والاسلام ـ فصل الاستحقاق و « الخلاص » اكثر فاكثر عن الفضيلة ، وربط بحفظ الشعائر والايمان الاعمى . وترتب على هذا ان المتعلمين اصبحوا اما شهداء واما منافقين ، وبما انهم قلما اختاروا الاستشهاد ، فان حياة البشر لونها النفاق وعدم الاخلاص .

على أن هيوم كان يغضي عن قدر من النفاق ، وذلك فى نوباته الأقل ولعا بالقتال . مثال ذلك انه حبذ استشاره قسيس شاب فقد ايمانه أيبقى فى الكنيسة ويقبل وظائفها ، أجاب دبقد ، ابق :

« ان الوظائف المدنية الصالحة للمثقفين نادرة ... ومن المغالاة فى احترام العامة ونزعاتهم الخرافية ان يعتز المرء باخلاصه معهم . فهل حدث مرة أن التزم انسان بشرفه بأن يقول الصدق للأطفال أو المجانين ؟ ... والوظيفة الكنسية انما تضيف القليل الى الخداع أو قل التظاهر ـ البرىء ـ الذى بدونه يستحيل على المرء أن يشق طريقه فى هذه الدنيا (١٢٦) » .

هـ ـ الشيوعية والديمقراطية

اتجه هيوم فى اخريات عمره أكثر فاكثر الى السياسة والتاريخ بعد أن أعياه الجدل حول مسائل يقررها الوجدان ـ فى رأيه ـ أكثر مما يقررها العقل . ففى ١٧٥٢ نشر « أحاديث سياسية » . وقد أدهشه اقبال القراء عليها . وأبهج انجلترة أن تنمي نزعة لاهوته المدمرة فى النزعة المحافظة لسياسته .

كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية :

« لا بد فى الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد أن يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل أكثر كمالياتها ، لو أن عطاياها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت

بالفن والصناعة ، .. كذلك لا بد من الاعتراف باننا اينما خرجنا على هذه المساواة سلبنا من الفقراء رضي أكثر مما نضيف الى الاغنياء ، وبان الاشباع الطفيف لغرور طائش فى فرد واحد ، كثيرا ما كلف أكثر مما يكلفه الخبز لكثير من الأسر بل الاقاليم » .

ولكنه أحس أن الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التى تسودها المساواة ضربا من المحال :

« ان المؤرخين ينبئوننا ، لا بل الفطرة السليمة تنبئنا ، بأن هذه الأفكار عن المساواة « التامة » مهما بدت قيمة الا أنها فى صميمها « غير ممكنة عمليا » ، والا لألحقت أشد الأذى بالمجتمع الانسانى . فلو انك سويت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا . أو لو فرضت الرقابة على هذه الفضائل ... لاحتجت الى اكثر محاكم التفتيش صرامة لمراقبة أى ضرب من عدم مساواة بمجرد ظهوره ، واشد السلطات القضائية صرامة لعقابه واصلاحه .. .. فمثل هذا السلطان المفرط لا بد أن ينحدر سريعا الى درك الطغيان (١٢٧) » .

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف . فالمبدأ فى رأيه « مبدأ ... نبيل فى ذاته .. ولكن تكذبه كل التجارب ، أن الناس هم الأصل فى كل ضرروب الحكم العادل (١٢٨) » . ورفض النظرية (التى سيحييها روسو بعد قليل) القائلة بأن الحكومة نشأت أصلا من « تعاقد اجتماعى » بين الناس ، أو بين الشعب والحاكم ، لأنها نظرية صبيانية :

« فكل الحكومات الموجودة الآن تقريبا ، أو التى خلفت لنا أى سجل فى التاريخ ، أسست اصلا اما على الاغتصاب ، او على الغزو ، أو عليهما جميعا ، دون أن تزعم بانها حظيت بموافقة الشعب ، أو

بخضوعه الاختيارى . واغلب الظن ان أول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت فى حالة الحرب .. .. وكان من اثر استمرار تلك الحالة طويلا ... وهو أمر مالوف لدى القبائل المتوحشة ، أن الشعب تعود الخضوع (١٢٩) » .

وهكذا أصبحت الملكية أكثر أشكال الحكم انتشارا ، ودواما ، واذن فاكثرها عملية على الأرجح . « ان الامير الوراثى ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذى يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارستقراطية ، وديمقراطية (١٣٠) » .

وبالاضافة الى تفنيد هيوم لروسو سلفا ، استخدم اسلوبه « الاديسونى » لينبذ سلفا نظرية مونتسكيو التى تزعم ان مناخ البلد يقرر طبع أهله . كتب يقول فى « مقالات أخلاقية وسياسية » ظهرت طبعتها الثانية فى آن واحد تقريبا (١٧٤٨) مع « روح القوانين » : « اما عن الاسباب الطبيعية فانى أميل الى الشك فى مفعولها فى هذا المجال . كذلك لا أظن ان الناس يدينون باى شىء فى طبعهم أو نبوغهم للهواء أو الغذاء أو المناخ (١٣١) » . فالخلق القومى يترتب على الحدود القومية لا المناطق المناخية ، وأهم ما يقرره هو القوانين والحكومة وهيكل المجتمع وأعمال السكان ومحاكاة الجيران أو الرؤساء .

فى ظل هذه العوامل المختلفة المحلية تكون الطبيعة البشرية أساسا طبيعة واحدة فى كل زمان ومكان ؛ فالدوافع والغرائز ذاتها ، التى تفرضها دواعى البقاء ، تنتج أساسا ، فى جميع العصور والأقطار ، الافعال والنتائج ذاتها .

« فالطموح والجشع ومحبة الذات والغرور والصداقة والكرم وروح الجماعة ـ هذه العواطف ، المختلطة بدرجات متفاوته ، والموزعة بين افراد المجتمع ، كانت منذ ان وجدت الدنيا وما زالت مصدر جميع

الأفعال والمشروعات التى لوحظت بين بنى البشر . أتريد ان تعرف عواطف اليونان والرومان وميولهم وسير حياتهم ؟ اذن فادرس جيدا طبائع الفرنسيين والانجليز وأفعـــالهم ، فلن تخطىء كثيرا ان طبقت على الأولين معظم الملاحظات التى لاحظتها على الاخرين - فالبشر شديدو التشابه فى كل زمان ومكان حتى ان التاريخ لا يضيف الى علمنا جديدا أو غريبا فى هذا الباب . وأهم فائدة له انه يكشف عن المبادىء الثابتة والعامة للطبيعـة البشرية بعرضـــه البشر فى شـــتى الظروف والمواقف ، ويمدنا بالمواد التى نكون منها ملاحظاتنا ونحيط منها علما بالمنابع المنتظمة لأفعال البشر وسلوكهم . فهذه السجلات للحـــروب والدسائس والأحزاب والثورات هى مجموعات كثيرة من التجـــارب يستعين بها فيلسوف السياسـة أو الأخـــلاق على تحـــديد مبـــادىء علمه (١٣٢) » .

وقد أضاف هيوم اضافات قيمة للفكر الاقتصـادى فى كتابيـــه « أحاديث سياسية » و « مقالات ورسائل فى موضـوعات مختلفـــة » (١٧٥٣) . ذلك أنه رفض رأى الفيزيوقراطيين الفرنسيين القائل بان جميع الضرائب تقع فى النهاية على الارض . وذهب الى أنها تقع فى النهاية على العمل ، لأن « كل شىء فى العالم يشترى بالعمل (١٣٣) » (وهو هنا مردد صدى لوك) . وحتى قبل أن تتشكل الثورة الصناعية تنبأ بان العمال « سيرفعون اجـورهم بالتكتـــل » ، وندد بتمـــويل المصروفات والمشروعات الحكومية بالضرائب المرتفعـــة والاصـــدارات المتكررة للسندات ، وتنبأ بأن مثل هذه الاجراءات الضريبية ســـتجر « الحكومات الحرة » الى « حالة العبودية التى ترزخ تحتها جميـــع الامم المحيطة بنا » (١٣٤) . والنقود ليست هى الثروة ، وسك مقادير تزيد على متطلبات التجارة منها انما يرفع الاسعار ويعرقل التجـــارة الخارجية . والنظرية « المركنتلية » الخاطئة التى ما زالت تحمل الدول الاوربية على التركيز على الصادرات ، ومنع الواردات ، وتجميـــع

الذهب ، ستحرم أوربا من المنافع الدولية الناشئة عن قـــدرة كل أمة على انتاج سلع نوعية بفضل التربة والمناخ والمهارات الخاصـــة بادنى تكلفة واعلى جودة . ثم جرؤ على ان يصلى :

«لا بوصفى انسانا فحسب، بل احد الرعايا البريطانيين ، .. لاجل التجارة المزدهرة لألمانيا ، واسبانيا ، وايطاليا ، بل وفرنسا ذاتها. وانى على الاقل واثق أن بريطانيا العظمى وهذه الامم جميعا سيزيد ازدهارها لو أن ملوكها ووزراءها اعتنقوا هذه الآراء السمحة الخيرة نحو بعضهم البعض ... فازدياد الثروة والتجارة فى اى أمة لا يؤذى وانمـا على العكس من ذلك يدعم عادة ثروة وتجارة جيرانها جميعا (١٣٥) » .

هذه الأفكار ، التى ربما كانت متاثرة بمذهب « عدم التدخل » الذى نادى به الفيزيوقراطيون ، اثرت بدورها فى آدم سمث ، صديق هيوم ، ولعبت دورا فى تطوير سياسة بريطانية تقول بحرية التجارة ، وهى تجد تحقيقها فى أوربا الغربية فى عصرنا هذا .

و ـ التـــاريخ

فى ١٧٥٢ بعد حملة شنها عليه الحزب السنى الذى اتهمـــه بانه زنديق وقح ، انتخب هيوم أمينا لمكتبة كلية المحامين بادنبره . وكان المنصب كبير المعنى فى نظره رغم تواضع راتبـــه الذى لم يزد على اربعين جنيها فى العام ، لأنه جعله السـيد المتصرف فى ثلاثين الف مجلد . وبفضل وجود هذه المكتبة فى متناوله استطاع ان يؤلف كتابه « تاريخ انجلترة » . وكان فى عام ١٧٤٨ قد اعترف الى صـديق له بهذه الكلمات « لقد طالما نويت ان أؤلف كتاب تاريخ فى سنى حياتى الاكثر نضجا (١٣٦) » . وكان يسمى التـاريخ « الخليـلة العظمى للحكمة (١٣٧) » ، ويؤمل أن يجد فيه أسباب نهوض الأمم وسقوطها ، يضاف الى هذا :

« ان نرى النوع الانسانى كله يمر بنا وكانه فى عرض امامنا ، باديا على سجيته ، دون أى من هذه الاستخفافات التى طالما شوشت حكم المتفرجين على هؤلاء الناس اثناء حياتهم - فاى مشهد آخر يمكن أن تتصوره بهذا البهاء والتنوع والتشويق ؟ وأى متعة للحواس او الخيال يمكن أن تقارن به ؟ (١٣٨) » .

ان من مظاهر القرن الثامن عشر انه انجب فى جيل واحد ثلاثة من أعظم مؤرخى العالم : فولتير ، وهيوم ، وجبون ، وكلهم مؤسس فى الفلسفة ، محاول أن يعيد تفسير التاريخ بلغة غير لغة اللاهوت ، وفى أعرض منظور للمعرفة حشده زمانهم . ولم يملّ جبون من الثناء على هيوم والاقرار بفضل تاثيره ، وكان يقدر اطراء هيوم للمجلد الاول من « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » (١٧٧٦) فوق كل اطراء آخر . فهل كان هيوم بدوره مدينا بالكثير لفولتير ؟ كان قد توصل الى فلسفته وصاغها كباحث مدين للربوبيين الانجليز لا للشكاك الفرنسيين . « والرسالة فى الطبيعة البشرية » سبقت كل الاعمال الكبرى التى كتبها فولتير وديدرو ومونتسكيو . ولكن ربما كان كتاب هيوم « تاريخ انجلترة » (١٧٥٤ - ٦٢) مدينا بشيء لكتاب فولتير « عصر لويس الرابع عشر » (١٧٥١) ، وحتى لكتاب « مقال فى العرف » الذى طبعت اجزاء منه فى ١٧٤٥ و ١٧٥٥ . هؤلاء المؤرخون الثلاثة كلهم أجمعوا على فضح الخرافة ، ورفض التفسيرات الخارقة ، والتوحيد بين التقدم وتطور المعرفة والعادات والفنون .

وكتب هيوم تاريخه الى الخلف . فغطى مجلده الاول الصادر فى (١٧٥٤) عهدى جيمس الاول وتشارلز الاول - السنوات ١٦٠٣ - ٤٩ ، والثانى (الصادر فى ١٧٥٦) امتد من ١٦٤٩ الى ١٦٨٨ ، والثالث والرابع (الصادران فى ١٧٥٩) من ١٤٨٥ الى ١٦٠٣ ، والخامس والسادس (الصادران فى ١٧٦١) من غزو يوليوس قيصر لانجلترة الى ارتقاء هنرى السابع العرش فى ١٤٨٥ .

وقد أدهشه عنف النقد الذى هوجم به المجلد الأول . كان يؤمن بأن تسلط حزب الاحرار على انجلترة منذ استقدموا وليم الثالث فى ١٦٨٨ ، وخوفهم من الثورتين الاستيوارتيتين الناشبتين فى ١٧١٥ و ١٧٤٥ ، قد لوثا كتابة التاريخ الرسمى الانجليزى بالعداء لأسرة ستيوارت ، ثم زعم أنه برىء من النزعات المضادة . « رايتنى المؤرخ الوحيد الذى أهمل فى وقت واحد الحكومة والمصلحة والسلطة الراهنة من جهة ، وصيحة التحيز الجماهيرى من جهة اخرى (١٣٦) » . ولكنه نسي أنه اسكتلندى ، وأن اسكتلندة مازالت تبكى سرا أميرها الجميل تشارلى ، وأن الاسكتلنديين ، واغلب الظن ان هيوم لم يشذ عنهم ، لم يغفروا قط لانجلترة قتلها تشارلز الأول نصف الاسكتلندى ، واستقدامها أولا رجلا هولنديا ، ثم آخر ألمانيا ، لحكم انجلترة واسكتلندة ويلز . فبينما نراه يسلم بأن تشارلز الأول جاوز حدود الامتيازات الملكية واستحق أن يخلع ، نجده يصور البرلمان متجاوزا بالمثل حقه ، ومذنبا بالمثل فى أمر الحرب الأهلية . ولقد سلم بحق لامة فى خلع الملك الطالح ، ولكنه تمنى لو ان أحدا لم يدفع هذا الحق قط الى نهايته ، وخاف من « هياج الشعب وظلمه » وأحس أن اعدام تشارلز « الرجل المعتدل الكريم النفس » قد زعزع بشكل خطر عادات الشعب فى احترام الحكومة . واحتقر البيورتان لأنهم « منافقون متظاهرون بالتقوى « لوثوا » لغتهم « برطانة » غامضة و « ووشوا اثامهم بالصلوات (١٤٠) » . وحكم على فترة الكومنولث (جمهورية كرومويل) بأنها فترة تقوى قاتلة ، وطغيان عسكرى ، وفوضي اجتماعية ، لم تبرأ البلاد منها الا بعودة أسرة استيوارت الى العرش . وقد ذهب فولتير فى عرضه لتاريخ هيوم الى أنه منصف تمام الانصاف :

« ان المستر هيوم ... غير متحيز للبرلمان ولا للملكية ، ولا هو انجليكانى ولا مشيخى ، انما هو رجل منصف لا اكثر . فلقد طالما حرم جنون الحزبية انجلترة من المؤرخ النزيه كما حرمها من الحكومة الصالحة . فما كتبه محافظ كان يرفضه الاحرار ، الذين يكذبهم المحافظون بدورهم ... ولكننا نجد فى المؤرخ الجديد ذهنا يسمو فوق مظلماته ،

يتحدث عن مواطن الضعف وعن الاخطاء الجسيمة وافعال القسوة حديث الطبيب عن الأوبئة (١٤١) » .

اما النقاد البريطانيون فلم يوافقوا فولتير . فهم لم ياخذوا على هيوم انه قل أن رجع الى المصادر الاصلية ، بل (كما ذكر فيما بعد) « هوجم بصيحة واحدة كلها لوم واستنكار ، بل بغض وكراهية . فالانجليز ، والاسكتلنديون ، والارلنديون ، والاحرار ، والمحافظون ، ورجال الكنيسة الانجيكانية واتباع المذاهب المنشقة ، واحرار الفكر والمتدينون ، والوطنيون والحاشية ـ كل أولئك أجمعوا على السخط على الرجل الذى جرؤ على أن يذرف دمعة كريمة على مصير تشارلز الأول وايرل سترافورد . وبعد ان همدت السورة الاولى لغضبتهم ، كان أشد خزيا ما بدا من انالكتاب طوى فى زوايا النسيان . وقد اخبرنى المستر ملر أنه لم يبع خلال اثنى عشر شهرا الا خمسا واربعين نسخة منه (١٤٢)»

وقد فت هذا فى عضده حتى لقد حدثته نفسه حينا بان يرحل كما رحل فى شبابه الى مدينة من مدن الاقاليم فى فرنسا ، حيث يستطيع العيش باسم منتحل . ولكن فرنسا وانجلترة كانتا تقتتلان ، وقد اوشك المجلد الثانى على نهايته ، فاعتزم ان يواصل العمل . وازداد تحيزه بسبب ما لقى من معارضة ، ففى تنقيحه للمجلد الأول ادخل « نيفا ومائة تغيير » . ولكنه يقول بكل البهجة الخبيثة التى يستشعرها عفريت ضخم « جعلتها كلها فى صف المحافظين (١٤٣) » ومع ذلك بيع من المجلدات التالية عدد لا باس به ، ورحب به المحافظون الان محاميا شديد المرس ، وسلم بعض الاحرار بسحر اسلوبه البسيط ، الواضح ، البتار ، الصريح ، الذى سبق احيانا وقار جبون الحصيف . فوصفه للصراع المثير بين هنرى الثانى وتوماس ابيكيت يضارع رواية جبون لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . ورفع تاثير المجلدات الستة المتراكم صيت هيوم الى ذروته . وفى ١٧٦٢ ذهب بوزويل فى تقديره له الى انه « اعظم الكتاب فى بريطانيا (١٤٤) » ـ ولكن بوزويل كان اسكتلنديا . وفى ١٧٦٤ صرح فولتير فى تواضع بان الكتاب « ربما كان افضل تاريخ كتب فى اى لغة اطلاقا (١٤٥) » وقد ازاحه جبون وماكولى الى الظل ، ووازن ماكولى تحيزه بتحيز معادل ، ولا ينصحنا

المؤرخون بقراءة كتاب هيوم اليوم ، لان تسجيله للوقائع قد طرأت عليه تحسينات منذ أمد بعيد ، ولكن قارئا بدأ قراءته باعتبارها واجبا فوجد فيه الاثارة والمتعة .

ز ـ الفيلسوف العجوز

فى ١٧٥٥ بدأت حركة يقودها بعض رجال الدين الاسكتلنديين لاتهام هيوم أمام مجمع الكنيسة العام بتهمة الزندقة ، وكان « التنوير الاسكتلندى » قد انجب حركة متحررة بين شباب القساوسة ، فاستطاعوا ان يحولوا دون أى ادانة علنية للفيلسوف ـ المؤرخ ؛ ولكن الهجمات الكنسية اتصلت ضده ، ولدغته لدغات جعلته يعود الى التفكير فى الفرار . وواتته فرصته حين دعاه ايرل هرتفورد (١٧٦٣) ليكون نائب سكرتير له فى سفارة لفرنسا ، وحصل له على معاش قدره ٢٠٠ جنيه مدى الحياة .

وكان منذ امد بعيد معجبا بالفكر الفرنسي ، وقد تاثر بالرعيل الأول من كتاب « التنوير » الفرنسي ، وراسل مونتسكيو وفولتير . وكانت أعماله تحظى فى فرنسا بثناء يفوق كثيرا ما حظيت به فى انجلترة . وعشقته الكونتيسة دبوفليه من قراءة كتبه ، وكتبت له تتملقه ، وجاءت الى لندن لتراه ، فافلت منها . ولكن حين وصل باريس بسطت عليه رعايتها ، وجعلته بطل صالونها ، وناضلت لتوقظ فى صدره عاطفة الرجولة ، ولكنها وجدته اثبت وارسي من أن تجرفه رياح الغرام . وكان يدعى للمآدب فى الاجتماع تلو الاجتماع . قالت مدام دبينيه « لا تكتمل وليمة بدونه » . وفتحت له الارستقراطية ذراعيها ، ورفت من حوله عظيمات النساء ـ حتى بومبادور العليلة . وكتب يقول : « انى واثق ان لويس الرابع عشر لم يكابد قط فى أى ثلاثة أسابيع من حياته مثل هذا التملق الكثير » . والتقى بطورجو ودالمبير ودولباخ وديدرو ، ودعاه فولتير من عرشه النائى فى فرنيه « يا قديسي ديفد » . وأدهش ايرل هرتفورد أن يجد الناس يسعون وراء سكرتيره وينحنون له أكثر كثيرا مما يفعلون معه . ولكن هوراس ولبول غاظه هذا كله ، وسخر بعض « الفلاسفة » من بدانة هيوم غيرة منه . وفى

احدى الحفلات بعد ان دخل هيوم عقب دالمبير بآية من الانجيل الرابع (يوحنا) « والكلمة صار جسدا » وقيل ان احدى السيدات المعجبات بهيوم ردت هنا على الملاحظة بحضـــور بديهة عجيب « والكلمـــة صار محبوبا(١٤٦) » . لا عجب ان يكتب هيوم ، الذى ناكده خصومه فى ادنبرة ، وكرهوه فى لندن ، « ان الحياة فى باريس تبعث على الرضى الحقيقى لوفرة مجتمع الاشخاص المعقولين الاذكياء المهـذبين ، الذين تزخر بهم المدينة (١٤٧) » .

وفى نوفمبر ١٩٦٥ أقبل سفير بريطانى جديد ، فانهى استخدام هيوم . فعاد الى ادنبره ، ولكن فى ١٧٦٧ قبل وظيفة وكيل فى وزارة الخارجية بلندن . فى هذه الفترة أتى بروسو الى انجلترة ، فخلق له متاعب مشهورة ، ولابد من ارجاء هذه القصـــة الآن . وفى اغسطس ١٧٦٩ ، حين بلغ الثانية والخمسين ، عاد نهائيا الى ادنبره ، وقد غدا الآن « غنيا جدا (لاننى كنت أملك دخلا قدره الف جنيه فى العام) صحيح البدن ، اتوقع ــ رغم انى طعنت فى السن بعض الشيء ــ ان استمتع طويلا بالراحة ، وأن أرى شهرتى فى اتساع (١٤٨) » .

وأصبح بيته فى شارع سانت ديفد صالونا يجتمع فيه من حوله آدم سمث ووليم روبرتسن وغيرهما من مشاهير الاســـكتلنديين كأنه ملكهم المعترف به . ولم يحبوه لرجاحة ذهنه فحسب ، فقد رأوا انه رغم استدلالاته العقلية المحطمة للمقدسات ، محدث ظريف بشوش معتدل فى الجدل متسامح مع الآراء المعارضة ، لا يسمح للخـلاف فى الأفكار بالانتقاص من حرارة صداقاته . ويبدو انه (كمونتينى وفولتير) كان يضع الصداقة فوق الحب . « ان الصداقة بهجة الحيـــاة الانســـانية الكبرى (١٤٩) » . ومع ذلك كان محبوبا من النساء ، ربما لأنه لم يكن متزوجا . وكان الضيف الاثير فى بيوت كثيرة ، واذا كانت سمنته تتلف المقاعد (١٥٠) ، فان خفة روحه عوضت عن ثقـل بدنه ، وقد اقترح ضريبة على السمنة ، ولكنه توقع ان « بعض القساوسة قد يدعـــون أن الكنيسة فى خطر » ، وكان يبارك ذكرى يوليوس قيصر لانه آثر السمان من الرجال ــ قال آدم سمث : « كنت على الجملة اعده دائما .. اقرب ما تسمح به طبيعة الضعف البشرى من فكرة عن الرجل الكامل الحكمة والفضيلة (١٥١) ».

واذا لم يكن بد من البحث عن نقائص فى هذا الخلق الذى بلغ غاية اللطف ، أو عن بقع معتمة فى هذا الذهن الألمعى ، فان أكبر أغلاطه التى يصعب اغتفارها له هى اشاراته الى « الفرض البشـــع » الذى افترضه سبينوزا « الكافر »(١٥٢) ، وهى اشارات لابد أن الهدف منها كان تغيير لون جلده ليحمى نفسه .ولقد كانت سيكولوجية هيـــوم أكثر سيكولوجيات زمانه نفاذا ، ولكنها لم تعلل تماما الاحساس بالهوية الشخصية ؛ فان حالة نفسية ما لا تستدعى حالة نفسية أخرى فحسب ، بل قد تستدعيها باعتبارها حالتى « انا » ، واحلال « التتابع المنتظم » محل « العلة » لا يتطلب سوى تغيير فى العبارة ؛ و « التتابع المنتظم » كاف للعلم والفلسفة ؛ وكتابه « تاريخ انجلترة » لا يفتأ يحاول تفسير الأحداث بالأسباب (١٥٣) » . وان شكوكيه تخلى عنها صاحبها صراحة فى الحياة العملية ، لا بد أن تكون خاطئة من حيث نظريتهـــا ، لأن الممارسة هى المحك النهائى للنظرية . ومن الغريب أن هيوم مع ردّه العلة الى العرف ، والفضيلة الى شعور التعاطف ، لم يعط وزنا يذكر للعرف والشعور فى تفسيره للدين ، وأبدى اقل التعاطف مع وظائف الدين الملحة فى التاريخ . وكان عديم الاحساس بتعزيات الايمان ، والراحة التى كان يمسح بها على النفوس المقشعرة أمام سر الوجـــود وضخامته ، أو وحشة الحزن ، أو حتمية الهزيمة القاسية . لقد كان نجاح وسلى رد التاريخ على هيوم .

على اننا برغم هذه الاعتراضات التافهة نعود الى الاقرار بما اتسم به ذهن هيوم النفاذ من رهافة بتارة . لقد كان هو وحده «التنوير» للجزر البريطانية ، ونحن اذا استثنينا مجال الرؤية السياسية ، وجدنا ان أثر هيوم أساسا كان فى بريطانيا معـــادلا لأثر نيف وعشرة فلاسـفة فى فرنسا .. ومع أنه كان يشعر بالتأثير الفرنسي شعورا عميقـــا ، فانه توصل الى افكار التنوير ، وكال بعض لطماته البالغة الشدة قبل أن يجرد « الفلاسفة » ــ بل فولتير ــ مخالبهم على « العار » l'infâme ' لقد كانوا مدينين له بقدر دينه لهم . كتب اليه ديدرو يقـــول ؛ « انى احبك ، انى أحبك ، انى اجلك (١٥٤) » وفى انجلترة انهى مذهب الربوبية بتحديه قدرة العقل على الدفاع حتى عن أبسط مقوماته الايمان الدينى ، وحمل الحرب لا الى أسوار العقيدة القديمة فحسب ، بل الى

قلعته الحصينة . وكان جبون سليل هيوم فى الفلسفة ، وتلميذه الذى بزه فى التاريخ . وفى المانيا أيقظ كتابه « تحقيق فى الفهم البشرى » كانط من « سباته الدجماطيقى » بما بدا من تقويضه لكل العلم والميتافيزيقا واللاهوت عن طريق تشككه فى موضوعية العلة . وبعد أن قــرأ كانط مخطوطة الترجمة التى قام بها هامان لكتاب « الحوارات حول الدين الطبيعى » أدمج فى اعداده النهائى لكتابه « نقد العقـل الخالص » (١٧٨١) انتقادات هيوم للحجة القائمة على القصد ، واعتبر هــذه الانتقادات مستعصية على الرد (١٥٥) .

وقد كتب هيوم يقول « اتمنى أن يكون حظى — لاجلى ولاجل اصدقائى جميعا — أن أقف دون عتبة الشيخوخة فلا أوغـل فى ذلك الأقليم الكئيب (١٥٦) . واستجاب له الحظ . تقول ترجمته الذاتية :

« فى ربيع ١٧٧٥ أصبت باضطراب فى أمعائى لم يفزعنى لأول وهلة ، ولكنه اصبح بعد ذلك ، كما خشيت ، قتالا لا شفاء منه . وانى الآن أعلق املى على الانحلال السريع . لقد عانيت الما طفيفا جــدا من اضطرابى هذا ، وأعجب من ذلك أننى برغم التدهور الشديد الذى ألم ببدنى ، لم أعان قط ولو للحظة واحدة أى هبوط فى معنويتى ، بحيث لو طلب الى أن أسمى فترة حياتى التى أوثر ان اعيشـــها من جديد فربما اغريت بان أسمى هذه الفترة الاخيرة . فعندى الحماسة ذاتها التى الفتها فى الدرس ، والمرح فى صحبة الاخوان ، ثم اننى أحسب أن الرجل اذا مات وهو فى الخامسة والستين انما يوفر عــلى نفسه بضع سنين من العلل والاسقام (١٥٧) » .

واشتمر عليه الاسهال ، ذلك الانتقام الاثير لدى الآلهة من عظماء البشر ، مع النزيف الداخلى ، فهبطا بوزنه سبعين رطلا فى عام واحد (١٧٧٥) . وكتب الى الكونتيسة بوفليه يقول « انى ارى الموت يدنو شيئا فشيئا دون أن اشعر بقلق او اسى . احييك بكثير من الود والاحترام لآخر مرة (١٥٨) » وذهب للاستشفاء بالمياه المعدنيـة فى باث ، فلم تجد فتيلا فى التهاب المعى الغليظ المقرح المزمن . ولكن ذهنه ظـل هادئا صافيا .

وعاد الى ادنبره فى ٤ يوليو واستعد للموت « بالسرعة التى يشتهيها أعدائى ان كان لى أعداء ، واليسر والبشاشة اللذين يتمناهما لى أصدقائى (١٥٩) » فلما قرأ فى كتاب لوكان « حوارات الموتى » مختلف الأعذار التى تذرع بها المحتضرون لشارون حتى لا يستقلوا قاربه من فورهم ليعبر بهم نهر الجحيم الى الأبدية ، لاحظ أنه لا يستطيع أن يجد عذرا يناسب حالته الا بأنه قد يقول متوسلا « قليلا من الصبر اى شارون الطيب . لقد كنت أحاول فتح عيون الجماهير . فلو عشت بضع سنين اخر لطبت نفسا بان أرى سقوط بعض مذاهب الخرافة السائدة » . ولكن شارون أجاب « أيها الوغد المتلكىء ، لن يحدث هذا ولو بعد مئات السنين . أتتوهم اننى مانحك فسحة طوال هذه السنين ؟ فادخل الزورق اذن من فورك » .

اما بوزويل ، الملحاح الوقح ، فقد أصر على توجيه هذا السؤال الى الرجل المحتضر - أيؤمن الآن بحياة آخرة؟ وأجاب هيوم « انه لوهم غير معقول للغاية أن نعيش الى الأبد » . وثابر بوزويل على الحاحه قائلا « ولكن من المؤكد أن فكرة الحياة المستقبلة تسر النفس ؟» وأجاب هيوم « ابدا ، انها فكرة كئيبة جدا » . وأقلبت النساء ورجونه أن يؤمن ، فصرفهن عن الموضوع بمزاحه (١٦١) .

ومات فى هدوء ، « بغير الم كثير » (كما قال طبيبه) فى ٢٧ اغسطس ١٧٧٦ . ومشى فى جنازته جمع غفير برغم هطول المطر الغزير . وسمع صوت يقول « كان كافرا » ، وأجاب صوت آخر «لا يهم ، فلقد كان رجلا أمينا (١٦٢) » .

الفصل الخامس

الادب والمسرح

١٧١٤ ـ ٥٦

١ ـ دولة القلم

كانت انجلترة تشغى بالطباعة على الاقل ان لم تشغ بالادب . فضلا عن زيادة سكانها ، لا سيما فى المدن وخصوصا فى لندن ، كان الالمام بالقراءة قد انتشر بينهم باعتباره ضرورة للتجارة والصناعة وحياة المدينة . وعكفت البورجوازية المزدهرة على قراءة الكتب تميزا وترويحا ، وعكفت النساء على الكتب فوفرن القراء والحوافز لرتشردسن والرواية . وزاد من جمهور القراء المكتبات الدائرة ، التى انشيء أول مكتبة فيها يعيها التاريخ المدون فى ١٧٤٠ ، وسرعان ما اصبح عددها اثنتين وعشرين فى لندن وحدها . وبدات الطبقة الوسطى الجماعية تحل محل الطبقة الارستقراطية الفردية بوصفها راعية للادب ، وهكذا استطاع جونسن أن يهزأ بشسترفيلد . ولم تعد الاعانات الحكومية تتحكم فى كبار الاقلام بالمغريات السياسية ـ كما حدث من قبل مع اديسون وسويفت وديفو .

وشحذت شهية الجمهور للاخبار تلك الصراعات المرة بين الاحرار والمحافظين ، وبين الهانوفريين والاستيوارتيين ، وتورط انجلترة المتزايد فى الشئون الاوربية والاستعمارية ، واصبحت الجريدة قوة يعتد بها فى تاريخ بريطانيا . ففى ١٧١٤ كان هناك احدى عشرة جريدة تصدر بانتظام فى لندن ، واكثرها اسبوعى ، وفى ١٧٣٣ زادت الى سبع عشرة ، وفى ١٧٧٦ الى ثلاث وخمسين . وكان كثير منها تعينه الاحزاب السياسية ، فكلما رفع الشعب صوته اشترت الاقليات الموسرة الجرائد لتملى افكارها . واشتملت كل الجرائد تقريبا على اعلانات . وخصصت « الديلى ادفرتيزر » التى اسست فى ١٧٣٠ اول الامر

للاعلانات دون سواها ، ولكنها سرعان ما أضافت عنصرا مثيرا من الأنباء ، كما تفعل جرائدنا الصباحية العملاقة ، لدعم توزيعها وزيادة أجور اعلاناتها . وولدت فى هذه الفترة بعض المجلات الهامة مثل « الكرافتسمان » (١٧٢٦) وهى السوط الذى راح بولنبروك يسوط به ولبول ، ومجلة « جراب ستريت » (١٧٣٠ - ٣٧) ، وهى لسان بوب الحاد ، ومجلة « الجنتلمان » (١٧٣١) التى أعطت جونسون وظيفة فيها ، ومجلة « ادنبره » (١٧٥٥) التى ماتت الى اجل فقط فى ١٧٥٦ . وكثير من الجرائد والمجلات الانجليزية مازال حيا بعد مضي مائتى عام على صدوره .

هذه الدوريات كلها - اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية - أعطت المطبعة قوة أضافت الى مخاطر الحياة البريطانية وحيويتها . ومع ان روبرت ولبول حظر نشر المناقشات البرلمانية ، فانه أباح للصحفيين ان يهاجموه بكل ما فى أدب القرن الثامن عشر من قسوة وخبث.وقد عجب مونتسكيو القادم من فرنسا التى فرضت عليها رقابة المطبوعات ، لتلك الحرية التى كانت صحيفة « جراب ستريت » تقذف بها داونتج ستريت (مقر الحكومة) بالمداد المسموم (١) . وشكا عضو فى البرلمان الى مجلس العموم فى ١٧٣٨ من أن : « شعب بريطانيا العظمى تحكمه قوة لم يسمع بها قط من قبل ، باعتبارها السلطان الاعلى ، فى أى عصر او بلد . وهذه القوة يا سيدى لا تكمن فى ارادة الملك المطلقة ، ولا فى توجيه البرلمان ، ولا فى قوة جيش ، ولا فى نفوذ الاكليروس ، انها حكومة الصحافة . فالبضاعة التى تحفل بها صحفنا الأسبوعية يتقبلها الشعب باحترام يفوق احترامه لقوانين البرلمان ، وآراء هؤلاء الكتاب التافهين لها عند الجماهير وزن اثقل مما لرأى خيرة السياسيين فى المملكة(٢) » .

وراح الطباعون يعملون بحماسة جديدة ليلبوا الطلب المتزايد فكان فى لندن ١٥٠ منهم ، وفى انجلترة كلها ثلاثمائة ، اثنان منهم فى هذا العهد - وهما وليم كاسلون وجون باسكرفيل - خلفا اسميهما على طقم حروف طباعية . وظل الطبع والنشر وبيع الكتب فى معظم الحالات موحدا فى شركة واحدة . ومن الشركات الباقية الى يومنا شركة لونجمان التى ولدت فى ١٧٢٤ . وكانت كلمة « publisher

الناشر » تدل عادة على المؤلف ، أما الذى يخرج الكتاب فهو بائع الكتب أو تاجرها bookseller . وألف بعض باعة الكتب ، كأبى جونسن ، أن يحملوا بضاعتهم الى الاسواق ، أو يسرحوا بها من مدينة الى مدينة ، ويفتحوا كشكا فى أيام السوق ، وكان الثمن الذى يطلبونه عن كتاب مجلد يتفاوت بين شلنين وخمسة ، ولكن الشلن عام ١٧٥٠ كان يساوى دولارا وربعا تقريبا . وكان البرلمان قد أقر قانونا بحقوق الطبع فى ١٧١٠ ، وكفل للمؤلف أو من يخصصهم حقوق الملكية فى كتابه أربعة عشر عاما ، تمتد الى ثمانية وعشرين عاما اذا عمر بعد الفترة الأولى ؛ على أن هذا القانون لم يحمه الا فى المملكة المتحدة ، وكان فى استطاعة الطباعين فى ارلندة وهولندة أن ينشروا طبعات مسروقة ويبيعوها (حتى ١٧٣٩) فى انجلترة منافسين بذلك بائع الكتب الذى دفع ثمن الكتاب .

فى هذه الظروف المنطوية على المجازفة تشدد باعة الكتب فى مساوماتهم مع المؤلفين . وكان الكاتب يبيع حقه فى الكتاب عادة بمبلغ محدد ، فاذا راج الكتاب على غير توقع فقد ينفح البائع المؤلف بمبلغ اضافى ، ولكن هذا لم يكن لزاما عليه . أما ثمن الكتاب الذى يؤلفه مؤلف معروف فكان يتفاوت بين مائة ومائتى جنيه . وقد تسلم هيوم خمسمائة جنيه ثمنا للمجلد من كتابه « تاريخ انجلترة » وهو ثمن مرتفع ارتفاعا استثنائيا . وكان للمؤلف الحق فى قبول الاكتتابات لكتابه ، كما فعل بوب فى ترجمته للالياذة ؛ وفى هذه الحالات كان المكتتب يدفع عادة نصف ثمن الشراء سلفا ، والنصف الثانى عند تسلمه الكتاب ، وكان المؤلف يتولى الدفع للطابع .

وعاشت الكثرة العظمى من المؤلفين فى فقر مسخط . من ذلك أن سيمون اوكلى ، الذى ظل عاكفا عشر سنوات على تأليف كتابه « تاريخ المسلمين » (١٧٠٨ - ٥٧) ، اضطر الى استكماله فى سجن المدينين ؛ وكان رتشرد سفدج يتسكع فى الشوارع ليلا لافتقاره الى مسكن ، وظل جونسون ثلاثين عاما يعانى مرارة الفقر قبل أن يصبح أمير الأدب الانجليزى . وكان شارع جراب (شارع ملتن الآن) الموطن التاريخى « للشعر والفقر » (كما قال جونسن) ، حيث الكتاب المأجورون -

من صحفيين ، ومترجمين ، ومصنفين ، وقراء تجارب الطبع ، وكتاب المقالات للمجلات ، ومحققين - ينامون ثلاثة فى فراش واحد ويرتدون البطاطين لافتقارهم الى غيرها من الملابس . ولم تكن العلة فى هذا الفقر شح باعة الكتب وعدم اكتراث ولبول بقدر ما كانت اتخام السوق الادبية اتخاما لم يسبق له نظير بأصحاب المواهب الهزيلة ينافس بعضهم بعضا فى قبول الاجور المنحطة . وشارك طغيان حالات الاخفاق على حالات الفلاح فى المال والاعمال ، مع انسلاخ الأدب عن الحماية الارستقراطية ، على الحط من المكانة الاجتماعية للمؤلفين . وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والفلاسفة والمؤرخون فى فرنسا يستقبلون بالترحيب فى أروع البيوت والصدور ، كانوا فى انجلترة - باستثنائين او ثلاثة - يقصون عن « المجتمع المهذب » باعتبارهم بوهيميين غير مغتسلين . وربما كان هذا هو السبب فى أن كونجريف رجا فولتير الا يدرجه فى زمرة الكتاب . وقد تحدى الكسندر بوب تحيزات عصره بادعائه انه شاعر وجنتلمان معا . وقد عنى بكلمة جنتلمان الرجل « الكريم المولد » لا الرجل الكريم السلوك . ولكن الامر كان على النقيض ! .

٢ - الكسندر بوب : ١٦٨٨ - ١٧٤٤

يستهل جونسن ، الذى كان يحتقر الترجمات التى تبدأ بنسب صاحبها وتنتهى بماتمه ، ترجمته الممتازة لبوب بانبائنا أن « الكسندر بوب ولد بلندن فى ٢٢ مايو ١٦٦٨ ، لابوين لم يتحقق أحد قط من مرتبتهما أو مركزهما (٣) » . اما ابوه فتاجر كتان جمع ثروة متواضعة ثم اعتزل فى بنفيلد قرب غابة ونزر . وكان أبواه كلاهما يتبعان المذهب الكاثوليكى الرومانى ، والسنة التى ولد فيها بوب كانت أيضا السنة التى حطم فيها خلع جيمس الثانى آمال الكاثوليكية فى تخفيف القوانين المعادية للكاثوليك . وخصت الام الصبى الذى كان وحيدها بكثير من الترفق ، وقد ورث عنها استعدادا للصداع ، وعن أبيه تقوسا شديدا فى عموده الفقرى ، فلم يزد طوله على أربعة أقدام ونصف .

وقد عهد بتعليمه الاول الى القساوسة الكاثوليك ، فاعانوه على اجادة اللاتينية ، واليونانية بقدر اقل ، وعلمه معلمون خصوصيون

آخرون الفرنسية والايطالية ، واذ اقفلت فى وجهه الجامعات والمهن الراقية بسبب مذهبه ، فقد واصل دارساته فى البيت ، فلما عاقه جسمه المحدودب وصحته الهشة عن العمل النشيط ، ترك أبواه العنان لولعه بكتابة الشعر . يقول :

« كنت وأنا بعد طفل ، لم تغرر بى الشهرة بعد ،
الثغ ببحور الشعر ، لأن بحوره وافتنى طوعا (٤) » .

وحين بلغ الثانية عشره اتيحت له نظرة خاطفة الى درايدن يحتل مكان الصدارة فى مقهى ولز ، وأثار المنظر فيه رغبة عارمة فى المجد الأدبى . فلما بلغ السادسة عشرة كتب بعض « الرعويات » التى تداولها الناس مخطوطة وحظيت بثناء أدار رأسه ، وقبلت للنشر فى ١٧٠٩ . وفى ١٧١١ ، وبكل الحكمة الناضجة التى احتوتها سنوه الثلاث والعشرون ، ادهش أدباء لندن بقصيدته « مقال فى النقد » نراه - حتى وهو يحذر المؤلفين من أن :

« العلم القليل شيء خطر ؛
فانهلوا من الأعماق ، والا فلا تذوقوا ينبوع الشعر (٥) »

يضع بحسم القاضي قواعد الفن الأدبى . هنا هضم الشاعر « فن الشعر » لهوراس ، و « الفن الشعرى » لبوالو فى ٧٤٤ بيتا جيدة المعانى هضما عجيبا ، نظمت نظما رائعا ، بالفاظ لا يزيد كثير منها على مقطع واحد - « افكار طالما خطرت بالبال ، ولكن لم يعبر عنها بمثل هذه الروعة (٦) » .

وكان للفتى ولع « بالابجرام » ، وبضغط جوامع الحكمة فى بيت واحد ، وقفل كل فكرة بقافية . وقد أخذ مذهبه فى النظم عن درايدن ، ونظريته عن بوالو . واذ كان لديه من الفراغ ما يتسع لصقل شعره ، فانه لم يتردد فى قبول النصيحة الكلاسيكية ، نصيحة تهذيب الشكل وصقله ، وجعل الكاس اثمن من نبيذها . ومع أنه ظل يجهر بكثلكته ، فانه اعتنق مبدأ بوالو القائل بأن الأدب ينبغى ان يكون العقل مفرغا فى ثوب لائق . أما الطبيعة فنعم ، ولكنها الطبيعة التى روضها

الانسان ؛ وأما الوجدان فنعم ، ولكنه الوجدان الذى هـذبه وصـفاه الذكاء . وأى مرشد أهدى الى مثل هذا الفن المحكوم المنحوت من أعمال قدامى الشعراء والخطباء ، وتصميمهم على أن يكونوا عقلانيين ، وعلى ان يجعلوا كل جزء من كل عمل أدبى عنصرا منظما مدمجا فى كل متناغم ؟ هنا التقليد الكلاسيكى ، المنحدر بطريق ايطاليا وفرنسا ، بطريق بترارك وكورنيى ، والذى يغزو الآن انجلترة ويقهرها على يد الكسندر بوب ، كما قهر شيكسبير بمسرحية أديسون « كاتو » (فى زعم فولتير) ، وكما كست العمارة الكلاسيكية المنحـدرة عن طريق بالاديو وسيرليو ، وعن طريق بأرو ورن ، الخيالات القوطية والشطحات الجامحة أو غلبتها بقواصر رزينة وصفوف أعمـدة هادئة . وهـكذا تكون مفهوم الشاعر الشاب عن العقل الكلاسيكى الذى يعمل فى ناقد مثالى :

« ولكن أين هو الرجل الذى يستطيع أن يمحض النصح ،
الذى ما زال يغتبط بأن يعلم ، ومع ذلك لا يطغيه علمه ؟ .
رجل لا يحرفه رضي ولا يميله حقد ، لا هـو منحيز فى غبـاوة ولا مستقيم فى عمى ،
مهذب رغم علمه ، مخلص مع تهذيبه ،
جرىء فى تواضع ، صارم فى انسانية ،
يبصر الصديق بعيوبه فى غير تحرج
ويطرى العدو على فضائله وهو مبتهج ،
رجل أوتى ذوقا مدققا دون تزمت ،
ووهب العلم بالكتب والبشر جميعا ، محدث سـمح ، ونفس تنزهت عن الكبرياء ،
يحب أن يثنى ثناء يؤيده فيه العقل (٧) ؟ »

وقد وجد نفر من أمثال هذا الناقد ، على استعداد للترحيب بمثل هذا الشعر وهذه الفضيلة المحسوبة من فتى فى الثالثة والعشرين ؛ وعلى ذلك خلع اديسون ، الذى لابد قد شعر أنه المقصود بهذه الأبيات ، على الشاعر فى العدد ٢٥٣ من صحيفته « اسبكتيتور » ثناء عظيما لن يلبث أن يذمي فى معارك الكلام . أما الشاعر جون دنيس ، مؤلف مسرحية

« ترى هل تحطم الحورية (بليندا ـ ارابيلا) قانون ديانا (قانون العفة) ،

أم أن قارورة هشة من الصيني سيصيبها شرخ ،
اتراها تلوث شرفها ، ام ثوبها الموشي الجديد ؟
التنسي أن تتلو صلواتها ، ام يفوتها عرض بالاقنعة ،
اتضيع قلبها ، أم قلادتها ، فى حفل راقص ... (١) »

وتشارك بليندا فى ثرثرات جماعة الاشراف ، وقمارهم فى هامتن كورت ، حيث :

« تموت سمعة عند كل كلمة (١١) » ؛

ويحشد الشاعر براعته الفنية ليصف لعبة ورق . فاذا انحنت بليندا لتشرب ، قصّ البارون القوى خصلتها وهرب (وهذا السيل المتدفق من البحر العمبقى « الايامبى iambic » ياخذ بالالباب) . فتطارده وقد أخذ الغضب منها كل ماخذ ، وتعثر عليه ، وتلقى قبضة من النشوق فى وجهه ؛

« وبغتة تفيض كل عين بالدموع المنهلة
وتردد قبة السماء صدى عطسه (١٢) »

وفى هذه الاثناء يغتصب الاقزام أو السيلفات أو السمندلات الخصلة ويجرونها وفى اثرها سحب الفخر الى السماوات حيث تصبح نجما مذنبا يفوق بريقه تلألؤ شعر بليندا .

وقد ابهج هذا كله نبلاء لندن ونبيلاتها ، وانديتها ومقاهيها . ووجد بوب نفسه رجلا يشيد به الناس أبرع شاعر فى انجلترة ، وغدا كل من عداه من الشعراء خصوما له . ولم يضف جديدا لشهرته بالابيات المملة التى وصف بها غابة ونزر (١٧١٣) ، كذلك لم ينس له الاحرار بعد انتصارهم فى ١٧١٤ انه فى تلك القصيدة كشف عن ميوله الكاثوليكية نحو الاسرة المالكة التى سقطت (١٣) . ولكنه عاد فاسر جمهوره فى ١٧١٧ بنظمه فى مقطوعات من بيتين

« أبيوس وفرجينيا » فقد خيل اليه انه المذموم فى ابيات بوب الطائشة :

« ولكن ابيوس يحمر لكل كلمة تقولها
ويحملق حملقة رهيبة بعين مهددة
وكانه طاغية متوحش مرسوم على قطعة نسيج قديمة (٨) »

فرد عليها بكتابة « تاملات نقدية وهجائية » (١٧١١) . وقد انتقى عيوبا حقيقية فى فكر بوب واسلوبه ، وعرضها فى اطار مقذع . فوصف بوب بالمنافق القبيح الذى خلق على شكل قوس كيوبيد أو ضفدع أحدب ، وهناه على انه لم يولد فى اليونان القديمة ، والا لالقت به عاريا بعد ولادته لقبحه (٩) . ولعق بوب جراحه وترتب فرصته .

ثم تابع نجاحه بنشر قصيدته « اغتصاب خصلة شعر » (١٧١٢) وكانت تقليدا سافرا لقصيدة بوالو Le Lutrin المقرأ (١٦٧٤) ، ولكن الناس اجمعوا على أنها فاقت أصلها . وخلاصة الموضوع أن اللورد روبرت بيتر أعرب عن تحمسه للمسز ارابلا فيرمر بقصه خصلة من شعرها الجميل وهروبه بها ، وتلا ذلك فتور بين الغاصب والمغتصبة . واقترح رجل يدعى كاريل على بوب ان ارابلا قد يهدأ سخطها اذا قص الشاعر القصة فى شعر مازح وقدم لها القصيدة . وهكذا فعل ، وهكذا انتهى الامـر . فصفحت المسز فيرمر عن اللورد ، ووافقت على نشر القصيدة . ولكن بوب وسع الخطة ، مخالفا نصيحة اديسون ، وكدسها بعدة من الشعر الملحمى - الهزلى ضمت الكائنات الخرافية : السيلفات، والسمندلات ، والحوريات ، والاقزام المشاركة فى الملحمة ؛ وراقت هذه « الميليشيا الخفيفة للسماء السفلى » خيالات العصر وميوله ، ولقيت قصيدة « الاغتصاب » المعدلة استحسان الجميع الا الشاعر دنيس . وتوقف جورج باركلى فى حملته على المادة ليهنىء المؤلف على لدونة رية شعره . ولباقة بوب النظمية كلها ، ومعين أخيلته وعباراته الذى لا ينضب ، يجعلان القصيدة تتالق تالق الاحجار الكريمة التى رصعت بها الحسناء « بليندا » شعرها . وهو يصف بخبرة النساء مستحضرات التجميل التى يسلح بها احد الجان البطلة لحروب الغرام ، ويعدد فى مرادفات تهكمية ما سيحفل به يومها من جلائل الامور :

مقفيين couplets رســـائل هلويز وابيــلار المختلقــة . فنرى « الويزا » التى حبست نفسها فى دير للراهبات تطلب الى ابيلار المخصي أن يضرب بقوانين الكنيسة والدولة عرض الحائط ويأتى الى حضنها :

« تعال ان جرؤت بكل ما فيك من فتنة !
تحد السماء ، وطالب بقلبى ،
تعال ، وبنظرة واحدة من تلك العيون المضللة
امح كل فكرة ذكية من افكار السماء ...
اخطفنى ، وانت تهمّ بامتطاء جوادك ، من مسكنى المبارك ،
اعن الاصدقاء ، وانتزعنى من الهى ! »

وفى نزوة أخرى تقول له :

« لا ، ابعد عنى بعد المشرقين ،
لترتفع جبال الالب حاجزا بيننا ! ولتهدر محيطات باسرها !
أواه ، لا تات ، ولا تكتب ، ولا تفكر فى ولو مرة ،
ولا تشاركنى وخزة واحدة من وخزات الالم الذى ذقته لاجلك (١٤) » .

ومع ذلك تثق انه آت اليها فى ســـاعة احتضارها ، لا عاشـــقا بل كاهنا :

« ليتك تقف فى ثياب مقدسة
والمشعل المقدس يرتعش فى يدك
وتمد الصليب امام عينى التى تهفو اليك ،
وتعلمنى وتعلم منى الموت(١٥) » .

وكان بوب يحلم ككل شاعر فى زمانه بان ينظم ملحمة ، ولقد بدا كتابة ملحمة وهو بعد فى الثانية عشرة . فلما شب ودرس هومر خطر له ان يترجم الالياذة الى ذلك المقطوعات ذات البيتين المقفيين التى كانت تكون منطقه الذى فطر عليه . واستشار أشدقاءه فأمنوا على الفكرة . وقدمه احدهم وهو جوناثان سويفت الى هارلى وبولنبروك وغيرهما من كبار رجال الحكومة أملا فى أن يحصل له على وظيفة شرفية يرتزق منها . فلما اخفق فى هذا تكفل بأن يجمع له اكتتابات تحول «الكسندر» الجديد وهو يطفر بشعره فوق طرواده . واذ كان سويفت فى موقـــع

استراتيجى بين طلاب الوظائف والكهنوت ، فقد أعلن أن « افضـــل شعراء انجلترة هو المستر بوب ، بابوى بدأ ترجمة لهومــر بالشــعر الانجليزى ، لا بد له ليكملها من ان يكتتبوا فيها جميعا ، لأن المؤلف لن يبدأ الطبع حتى أجمع له الف جنيه ! (١٦) » . واقترح بوب أن يترجم الالياذة فى ست مجلدات من قطع الربع ، ثمن كل المجمـوعة منها ستة جنيهات (١٨٠ دولارا ؟) . واقبلت الاكتتابات تترى رغــم هذا الثمن الغالى ، واشتدت الحماسة للمشروع حتى أن برنارد لنتو تاجر الكتب وافق على أن ينقد بوب مائتى جنيه لقاء كل مجلد ، وأن يقدم له نسخا مجانية لمكتتبيه . وبما أن المكتتبين (وعددهم ٥٧٥) أخذوا ٦٥٤ مجموعة ، فان بوب كســب ٥٣٢٠ جنيهـــا (١٤٨ر٩٦٠ دولارا ؟) ثمنا للالياذة ، وهو مبلغ لم يظفر بمثله مؤلف فى انجلترة الى ذلك الحين . وظهر المجلد الأول المحتوى على أربعة أقســـام فى ١٧١٥ . وقد لقى منافسه غير متوقعة بسبب نشر ترجمة فى اليوم ذاته للقسم الأول بقلم توماس تيكل . واثنى اديسون على ترجمة تيكل ، التى اعتقد بوب انها ليست فى الحقيقة الا بقلم أديسون ، وأحس أن نشرها فى آن واحد مع ترجمته عمل غير ودى ، فأضاف أديسون الى قائمة أعدائه .

ولو كان التفقه فى العلم هو المحك الوحيد لما استحقت ترجمـــة بوب ثناء يذكر . فعلمه باليونانية متواضع ، وقد اضطر الى الاستعانة بالشراح المدرسيين ، وأنجز اكثر مهمته بالمضـــاهاة بين الترجمـــات السابقة واعادة صياغتها بالأبيات الزوجية المقفاة من البحــر الايامبى (العمبقى) الخماسي التفاعيل iambic — pentameter couplets التى برع فيها . فأما بنتلى ، أمير علماء الدراسات اليونانية الأحياء يومها ، فقد أصاب فى حكمه على هذا الأداء : « قصيدة لطيفة يا مستر بوب ولكن يجب الا تسميها هومر (١٧) » فالأبيات الزوجية ونقر قوافيها الشبيه بنقر الطبل ، والعبارات والفقرات والطباقات المتوازنة ، هــذه كلها عطلت أسلوب الشعر الاغريقى السداسي التفاعيل ، الأســلوب السريع المتدفق . ومع ذلك كان هناك فخامة زاحفة ، ومعين زاخر من اللغة ، فى تلك الأبيات التى ساقها الشاعر على نحو معجــز ، عبرا بها — رغم اعتراضات بنتلى — الى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كأحب

ترجمة للالياذة . قال فيها جونسن « انها أسمى ترجمة للشعر شهدها العالم الى اليوم (١٨) » وقال جراى انه لن تضـارعها اية ترجمـة اخرى (١٩) . كذلك كان رأى انجلترة الى أن اجال كيتس بصره فى ترجمة تشابمن لهومر ، واستمطر وردزورث اللعنة على الاسـلوب المصطنع الطنان الذى أبهج الكثيرين جدا فى عصر انجلترة الاوغسطى.

ونشرت الياذة بوب فى ١٧١٥ ــ ٢٠ ، وأتى نجاحها بتجار الكتب المتنافسين الى بابه . ورجاه أحدهم أن يعلق على طبعـه حديثـه لمسرحيات شكسبير ، فوافق بغباوة ، غافلا عن الهوة التى تفصله عن شكسبير عقلا وفنا . وراح يكد ويكدح بصبر ذاهب فى تلك المهمة التى لا تلائمه ، وظهرت الطبعة فى ١٧٢٥ ، وما لبث لويس ثيوبولد ، اقدر المتخصصين فى دراسة شكسبير يومها ، أن أوسعها طعنا لقصـورها ، فصلبه بوب فى قصيدته « الدنسيادة » (أى ملحمة المغفلين) .

واقنعه لنتوت أثناء ذلك بان يترجم الاوديسة ، عارضا عليه مائة جنيه ثمنا لكل مجلد من مجلداتها الخمسة ، وأخـذ المكتتبون ٨١٩ مجموعة ، ولكن بوب ، وقد افتقد الآن حافز الشباب والحاجة ، سئم نحت مقطوعاته ، وعهد بنصف العمل الى دارسين من كمبردج لم يطل بهما الوقت حتى تعلما محاكاة اسلوبه . وكان قد نبه المكتتبين سلفا الى انه سيستخدم معاونين له ، ولكنه حين نشر الاوديسة (١٧٢٥ ــ ٢٦) ــ التى قصرت كثيرا عن الياذته ــ نسب الى مساعديه هذين الفضل فى خمسة كتب من الكتب الاربعة والعشرين ، فى حين أنهما ترجما اثنى عشر كتابا فى الواقع (٢٠) . ونقدهما ٧٧٠ جنيها ، أما هو فبـلغ صافى ربحه ٣,٥٠٠ جنيه ، اذ شعر بحق أن اسمه هو الذى باع الكتاب . وكفلت له الترجمتان الاستقلال المالى ، فقال ان فى وسعه الآن « بفضل هومر أن يعيش ويزكو غير مدين لانسان اميرا كان أو نبيلا (٢١) » .

وفى ١٧١٨ اشترى فيللا فى تويكنهام وحديقة مساحتها خمسـة افدنة تنحدر الى نهر التيمز . وصمم الحديقـة بالطـراز الطبيعى ، متحاشيا الرقابة الكلاسيكية التى مارسها فى شعره . وقال « ان الشجرة شىء أنبل من الملك فى ثياب تتويجه (٢٢) » . وحفر له من بيته نفق

تحت شارع معترض ليخرج منه الى الحديقة ؛ وزين هذه « المغـــارة » زينة حالمة فيها الاصداف ، والبللورات ، والمرجـــان ، والمتحجرات ، والمرايا ، والمسلات الصغيرة . فى هذه الخلوة اللطيفة الجـو استضاف الكثير من الاصدقاء المشهورين ـ سويفت ، وجـــراى ، وكونجـريف ، وبولنبروك ، وآربثنوت ، والليدى مارى ورتلى مونتاجيـــو ، والاميرة كارولين ، وفولتير . وكانت الليدى مارى جارته فى حى أطلقا عليه اسم « تويتنام » ؛ وكان بولنبروك يسكن دولى على مقربة منه ، ولندن لا تبعد أكثر من احد عشر ميلا فى نزهة لطيفة بالقارب على التيمز ، واقرب منها القصور الملكية فى رتشموند ، وهامتن كورت ، وكيو .

وانضم الدكتور جون آربثنوت ، الذى أضفى كتابه « تاريخ جون بول » (١٧١٢) على انجلترة شخصية واسما ، الى سويفت ، وكونجريف وجراى ، وبوب ، فى نادى سكربليروس الشـــهير (١٧١٣ ـ ١٥) ، الذى كرس للتهكم على كل ضروب الدجل والعجز ، واضيف كل ضحاياهم الى القائمة المتعاظمة من خصوم بوب . وكان له مع الليدى مارى مغامرة اختلط فيها الواقع بالادب وانتهت بعداوة مرة . وساكنه سويفت أحيانا ، كما حدث أيام نشره « رحلات جلفر » (١٧٢٦) ، وتبادل الاثنـــــان بغضهما للبشر ، وبعض الرسائل التى كشفت عن رقة مخبـــؤة تحت دروعهما القاسية (٢٣) . أما معرفة بوب ببولنبروك فقد بدأت حوالى ١٧١٣ ، وتطورت الى تأثير فلسفى . وقد اثنى الواحد منهما على صاحبه ثناء يبعث على الغثيان لغـــلوه ، فقال بوب « أعتقد حقيقـــة أن فى ذلك الرجل العظيم شيئا يبدو انه وضع هنا خطأ من عالم أعلى » ، وقال بولنبروك وبوب يحتضر « لقد عرفته هذه السنين الثلاثين ، ويزيد تقديرى لنفسي بسبب حبى لهذا الرجل » ـ وهنا خانه صوته كما تقول القصة (٢٤) .

ولا بد أنه كان هناك شيء يحب فى هذا الشـــاعر الذى صـــورته الرواية المتواترة ، بل صوره قلمه هو احيانا ، انسانا مشاغبا خداعا خسيسا مغرورا . وينبغى أن نذكر دائما أنه كان ممرورا ـ وله العذر ـ بسبب ما استشعره كل يوم من مذلة عجزه البدنى . لقد كان فى صباه جميل الصورة ، لطيف الطبع ، وقد ظل وجهه دائما جـــذابا ، ولو

لمجرد توقد عينيه . ولكنه كلما شب أصبح تقوس عموده الفقرى سافر بصورة أكثر ايلاما له . وقد وصف نفسه بأنه « مخلوق قصـــير ، كله حيوية ، طويل الســـاقين والذراعين ، لا تخطىء اذا رمـــزت له بالعنكبوت ، وقد حسبه البعض على بعد طاحونة هواء صغيرة (٢٥) » . (ويذكرنا هذا بسكارون المسكين) . فاذا جلس الى المـائدة وجب أن يسند على مقعد عال كالطفل ليحاذى غيره . وكان يحتاج الى من يخدمه طوال الوقت تقريبا . وما كان فى استطاعته أن يمضي الى فراشه أو ينهض منه دون أن يعان عليه ، ولا أن يرتدى ثيابه أو يخلعها بنفسه ، وكان يجد مشقة فى الاحتفاظ بنظافة جسمه . فاذا نهض لم يستطع أن ينصب عوده حتى يشده خادمه الى صدار من القنب المقوى ، وبلغ من نحافة ساقيه أنه كان يلبس ثلاثة جوارب طويلة ليضخمهما ويدفئهمـا ، وكان بسبب حساسيته الشديدة للبرد يرتدى « نوعا من الصدرة الضيقة المصنوعة من الفراء » ، تحت قميص من الكتان الثقيل الخشن . وقل أن عرف لذة العافية . وقد قال عنه اللورد باثورست أنه كان يشـــكو الصداع أربعة أيام فى الأسبوع ، ويمرض فى الثلاثة الباقيـــة . ومن المعجز أن استطاع جوناثان رتشردسن أن يرسم لبوب لوحة بمثل هـــذه الطلعة الحسنة (٢٦) ـ كلها تيقظ وحساسية ، ولكننا نستطيع فى التمثال النصفى الذى صنعه له روبياك أن نتبين الجسم المعذب يعذب العقل .

ومن القسوة أن نتوقع من رجل كهذا أن يكون هادىء الطبع ، أو لطيفا ، أو بشوشا ، أو رقيقا . فلقد أصبح شأن كل عليل نزقا ، كثير المطالب ، نكد المزاج . وندر أن تجاوز فى ضحكه الابتسامة ، واذ حرم كل فتنة الجسد ، فقد عزى نفسه بكبرياء المقام وغرور الفكر . وكمـا يفعل حيوان ضعيف أو جريح ، وكما يسلك فرد من أقلية مظلومة ، تعلم المكر والمراوغة والدهاء ، وما لبث أن تعلم الكذب ، لا بل ممارسة الخيانة مع أصدقائه . وتملق النبلاء ، ولكنه ترفع عن كتابة الاهداءات التى تستهدف الكسب . وكان فيه من الشجاعة ما حمـــله على رفض معاش عرضته عليه حكومة يحتقرها .

ونحن نرى فى حياته الخاصة بعض الخلال الجديرة بالحب . قال سويفت عنه انه « أعظم من عرفت أو سمعت عنه من الأبناء قياما

بواجبهم نحو آبائهم(٢٨) » . فلقد كان حبه لأمه اطهر عاطفة وابقاها من عواطف روحه المضطربة . كتب فى عامها الحادى والتسعين يقول ان صحبتها اليومية جعلته لا يحس أى افتقار الى علاقات عائلية أخرى . وكانت أخلاقياته الجنسية أفضل تطبيقا منها كلاما ! ولم يكن هيكله يصلح للزنا ، ولكن لسانه وقلمه كانفى وسعهما أن يكونا اباحيين الى حد مقزز (٢٩) . وحتى فى رسائله للمرأتين اللتين ظن أنه يعشقهما كان يكتب بتحرر مفرط لا تطيقه اليوم سوى بغى . ومع ذلك فان احداهما ، وهى مرتا بلاونت ، أحبت الشاعر العاجز حبا حسبه المنفولون علاقة آثمة . وفى ١٧٣٠ وصفها بانها « صديقة ... كنت اتفق معها كل يوم ثلاث ساعات أو أربعا طوال هذه السنين الخمس عشرة(٣٠) » . وبات فى شيخوخته المبكرة معتمدا على محبتها ، وأوصى لها بكل تركته الكبيرة تقريبا .

واذ كان دائم الوعى بعيوبه البدنية ، فقد كانت تكويه كيا كل كلمة تنقد خلقه أو شعره . لقد كان العصر عصرا يغلب عليه حب الثار فى معاركه الادبية ، وكان بوب يرد على السباب بسباب لا يصح طبعه احيانا . وفى ١٧٢٨ حشد خصومه ونقاده فى زريبة شعره ، وأطلق عليهم كل سهام غضبه فى أقوى أعماله الأدبية وأبلغها ايذاء . ولم ينشر اسمه عليه ، ولكن كل لندن القارئة استشفت توقيعه فى أسلوب الكتاب . وسيرا على الطريق الوعر الذى سلكته من قبل قصيدة درايدن « ماك فلكنو » (١٦٨٢) ، أشادت قصيدة بوب « الدنسيادة » بكتبة جراب ستريت اقطابا للمغفلين فى بلاط الغباء الذى يتربع ثيوبولد على عرشه . وقد بكى على موت رن وجراى ، وعلى اقصاء سويفت فى منفاه الارلندى ، حيث يموت « كفأر مسموم فى جحر » يعنى كتدرائية دبلن . اما عن الباقين فلم ير من حوله الا عجزة فاسدين لا طعم لهم ولا مذاق . وتلقى ثيوبولد ، ودنيس ، وبلاكمور ، وأوزبورن ، وكرل ، وكيبر ، وأولدمكسون ، وسميدلى ، وآرنل — كل فى دوره جزاءهم من الجلد والتهكم والقذر — ولا غرو فقد كان للشاعر ولع بالقذارة ، ربما لأن هذه صفة تلازم العجز البدنى (٣١) .

وفى طبعة لاحقة ذكر بوب فى ابتهاج ، على لسان الشاعر سفدج ، كيف أن حشدا من الكتاب حاصروا تاجر الكتب فى تاريخ نشر القصيدة

لأول مرة ، وهددوه باستعمال العنف معه اذا نشرها ، وكيف أن هـذا جعل الجمهور اشد تهافتا على النسخ ، وكيف أن الطبعة تلو الطبعة كانت تطلبه وتنفد ، وكيف أن الضحايا ألفوا أندية ليكتلوا الثـار من بوب ، وصنعوا دمية على صورته وأحرقوها . وجاء ابن دنيس بهراوة ليضرب بوب ، ولكن اللورد باثورست صرفه عنه ، وبعدها ظل بوب حينا يأخذ معه فى جولاته مسدسين وكلبه الدنمركى الضخم . ورد عليه عدد من ضحاياه بكتيبات ، وبدأ بوب وأصحابه (١٧٣٠) « مجـلة جراب ستريت » ليواصلوا الحرب . وفى ١٧٤٢ أصدر جزءا رابعا من « ملحمة المغفلين » ، هاجم فيه المربين وأحرار الفكر تعطشا لخصوم جدد — هؤلاء الذين يفخرون قائلين :

« اننا نتخذ فى فخر ذلك الطريق الاعلى
ونجادل هابطين حتى نشك فى الله ،
ونجعل الطبيعة تعدو على قصده ،
وندفعه الى أبعد ما نستطيع .. ..
أو ، بوثبة واحدة تقفز فوق كل قوانينه ،
نجعل الله صورة للانسان ، والانسان العلة النهائية ،
ونجد الفضيلة شيئا محدودا ، ونحتقر كل الصلات ،
نرى الكل فى أنفسنا ، واننا لم نولد الا لانفسنا ،
لا نوقن بشيء يقيننا بعقولنا ،
ولا نتشكك فى شيء تشككنا فى الروح والارادة (٣٢) » .

وواضح أن بوب كان ينقب فى الفلســفة ، وليس مع بولنبروك وحده ؛ فقد صدرت رسالة هيوم « فى الطبيعة البشرية » فى ١٧٣٩ ، قبل هذا الجزء الرابع من « ملحمة المغفلين » بثلاث سنوات . وهناك بعض الادلة على أن الفيكونت كان قد نقـل الى الشـاعر ربوبيــة شافتسبرى مشحوذة بحكمة الدنيا (٣٣) . وقال له بولنبروك ، حسبك هجاء وسفاسف ، ووجه ربة شعرك وجهة الفلسفة الدينية . يقــول جوزف وارتن « لقد اكد لى اللورد باثورست غير مرة انه قرأ كل خطة « مقال عن الانسان » مكتوبة بخط بولنبروك ، ومفصــلة فى سلسلة من القضايا كان على بوب أن ينظمها شعرا ويوضحها (٣٤) » . ويبدو

أن بوب فعل هذا ، الى درجة استعماله عبارات بعينها من وضع المتشكك الكبير (٣٥) ، ولكنه أضاف بعض البقايا المنقذة التى تخلفت عن عقيدته المسيحية . وهكذا أصدر « مقاله عن الانسان » فصدرت الرسالة الاولى فى فبراير ١٧٣٣ ، والثانية والثالثة فى تاريخ لاحق من تلك السنة ، والرسالة الرابعة فى ١٧٣٤ . وسرعان ما ترجم المقال الى الفرنسية ، واشاد به أكثر من عشرة فرنسيين باعتباره من ألمع ما ألف من جوامع الشعر والفلسفة معا .

واليوم يذكر هذا المقال أولا لما حوى من أبيات يعرفها كل انسان، فلننصف بوب برؤيتها فى اطار فنه وفكره . وهو يستهلها بمناجاة لبولنبروك :

« استيقظ يا قديسي جون : واترك كل التوافه
للطمع الدنىء وكبرياء الملوك .
وما دامت الحياة لا تستطيع أن تهبنا
غير نظرة فيما حولنا يعقبها الموت ،
فطوف ببصرك حرا فوق هذا المشهد كله ، مشهد الانسان ،
يا له من متاهة هائلة ، ولكنها ليست بغير خطة ، ..
فلنضرب معا فى هذا الحقل الفسيح ،
ولنضحك حيث يجب الضحك ، ونتصارح حيث نستطيع المصارحة،
ولكن لنبرر طرق الله مع الانسان (٣٦) » .

هنا بالطبع ذكرى « لالهيات » ليبنتس ، « وفردوس ملتن المفقود (٣٧) » . ويمضي بوب فيحذر الفلاسفة من أن يؤملوا الفهم أو يدعوه ، « فهل يستطيع الجزء أن يحتوى الكل ؟ » فلنكن شاكرين لأن عقلنا محدود ومستقبلنا مجهول :

« فذلك الحمل الذى قضي استهتارك بذبحه اليوم ،
لو أوتى عقلك ، أكان يطفر ويلهو ؟
انه فى ابتهاجه الى النهاية يقضم طعامه اليانع
ويلعق اليد التى رفعت لتريق دمه (٣٨) » .

هاهنا تشاؤم خفى ، فالرجاء لا يمكن أن يبقى حيا الا بالجهل :

« فارج فى تواضع اذن ، وحلق بجناحين مرتعشين ،
وانتظر الموت ، ذلك المعلم العظيم ، واعبد الله .
انه لا يهبك العلم بالنعيم الآتى ،
ولكنه يسمح بان يكون ذلك الرجاء بركتك الآن .
فالرجاء ينبعث ابدا فى صدر الانسان ،
وهو لا ينعم بالسعادة ، بل لا يفتأ يرجوها ابدا (٣٩) » .

ولا قدرة لنا على رؤية المبرر لما يبدو فى الحيـــاة من مظالم ؛ وعلينا ان ندرك أن الطبيعة لم تخلق للانسان ، وأن الله لابد يرتب كل الاشياء لكل الأشياء ، لا للانسان وحده . ويصف بوب « سلسلة الوجود الشاسعة » ابتداء من أدنا المخلوقات ومرورا بالانسان والملاك الى الله ، ويحتفظ بايمانه فى نظام الهى وان خفى عن علمنا :

« ان الطبيعة كلها ليست الا فنا لا علم لك به ؛
وكل المصادفات توجيه لا تستطيع رؤيته ؛
وكل تنافر تناغم غير مفهوم ؛
وكل شر جزئى خير كلى ؛
ورغم ما فى حقد العقل الضال من كبرياء ،
فان هناك حقيقة واحدة واضحة ، وهى أن كل الوجود صواب(٤٠)»

أما الدرس الأول فهو التواضع العقلى . ثم هذه الأبيات المذكـرة تذكيرا رائعا ببسكال :

« فاعرف نفسك اذن ، ولا تجسر على فحص الله ،
فالدراسة الصحيحة للبشر هى الانسان .
هذا الذى وضع فوق هذا البرزخ فى حالة وسط ،
كائن حكيم فى غموض ، عظيم فى فجاجة ...
حكم اوحد فى أمر الحقيقة ، مدفوع الى اخطاء لا تنتهى ،
مفخرة الدنيا ، واضحوكتها ، ولغزها المحير ! (٤١) »

فلنوافق فى نطاق هذه الحدود البشرية على أن .« محبة الذات ، منبع الحركة ، تحفز الروح » ، ولكن لابد للعقل أيضا أن يدخل ليبث النظام والتوازن فى عواطفنا وينقذنا من الرذيلة . لأن

« الرذيلة مخلوقة متوحشة رهيبة السحنة ،
نكرهها حالما نراها ،
ولكنا لكثرة ما نراها نالف وجهها ،
ونحتملها أولا ، ثم نرثى لها ، ثم نعانقها (٤٢) » .

هذه العواطف وان كانت كلها الوانا من محبة الذات الا انها جوانب من المخطط الالهى ، وقد تفضي الى نهاية طيبة حتى لبصرنا الأعمى . فشهوة الجسد تبقى على النوع ، وتبادل المصلحة ولد المجتمع . والنظام الاجتماعى والايمان الدينى نعمتان واضحتان ، رغم أن الملوك وأصحاب المذاهب لطخوا التاريخبدماء البشر :

« ليختلف الحمقى حول اشكال الحكم
فاصلحها هو افضلها ادارة وتصريفا
وليقتتل المتعصبون الثقلاء حول ضروب الايمان ،
فلن يخطىء من عاش حياة فاضلة (٤٣) » .

أما الرسالة الرابعة من مقال الانسان فتنظر فى السعادة ، وتحاول جاهدة أن تسوى بينها وبين الفضيلة . فاذا رأيت الرجل الصالح يبتلى بالكوارث ، والأشرار يفلحون احيانا ، فانما السبب أن :

« العلة الكونية
لا تعمل وفق قوانين جزئية بل كلية (٤٤) ! »

والله ينظم بالكل ، ولكنه يترك الأجزاء لقوانين الطبيعة ولارادة الانسان الحرة . وقد يأسي البعض لفوارق الملكية باعتبارها مصـــدرا للشقاء ، ولكن الفوارق الطبقية ضرورية للحكم :

« فالنظام أول قوانين السماء ، واذا سلمنا بهذا
كان البعض ، ولا بد أن يكونوا ، أعظم من الباقين (٤٥) » .

وليس هذا واضحا وضح النهار ، ولكن أى كلام آخـــر يمكن ان يقال للفيكونت بولنبروك ، (أو يقوله بولنبروك) ؟ والسعادة موزعة بالقسط رغم عدم المساواة فى العطايا الطبيعية والمكتسبة ؛ فالفقير سعيد سعادة الامير . وليس سعيدا ذلك الوغد الغنى ؛ فهو يحتضـــن أمواله ولكنه يشعر باحتقار العالم له ، اما البار فتنعم روحه بالسلام حتى فى الظلم .

أما ما يسترعى نظرنا لأول وهلة فى مقال الانسان ، فهو هـــذا الأسلوب المحكم الذى لا يضارع فى ايجازه . يقول بوب « لقد اخترت الشعر لأننى رأيتنى قادرا على التعبير عن هذه الأفكار بالشعر باوجز مما بالنثر (٤٦) » . ولم يبلغ شاعر ، حتى شكسبير نفسه ، ما بلغـــه بوب من قدرة على حشد ذخائر لا حصر لها — وحشد المعنى الكبير على الأقل — فى حيز ضيق . فهنا فى ٦٥٢ بيتا زوجيا ، هى أدعى لأن تعيها الذاكرة من نظيرها فى أى ميدان أدنى معادل غير العهد الجديد . وكان بوب عليما بحدود قدراته ، فقد انكر صراحة اصالة افكاره ، وأراد ان يصوغ من جديد فلسفة ربوبية متفائلة بفن موجز ، ووفق فيما اراد . وفى هذه القصيدة نحى عقيدته الكاثوليكية ولو الى حين . ورأى فى الله علة أولى فقط ، لا يعنى « عناية الهية خاصة » ليقى الرجل الفاضل من خبث الأشرار . وليس فى هذا النسق معجزات ، ولا أسفار مقدسة موحاة من الله ، ولا آدم ساقط أو مسيح مكفر ، انما هو رجاء مبهم فى الجنة ، ولكن لا ذكر للنار اطلاقا .

وقد هاجم نقاد كثيرون القصيدة باعتبارها فلسفة « انسـانية أو بشرية » منظومة . فالقول بان « دراسة البشر الصحيحة هى الانسان » عرف وجها من وجوه هذه الفلسفة ، وبدا انه يغرق اللاهوت كله . فلما ترجم المقال الى الفرنسية انقض عليـــه قسيس سويسرى يدعى جـان كروزاز ، فزعم ان بوب قد ترك الله فى طـريق جانبى فى قصـــيدة مفروض فيها انها تبرر طرق الله للانسان . ولم يخف للدفاع عن بوب أمام هذا الهجوم من الخارج رجل غير وليم وربرتون الفحل ، فقـد شهد أسقف المستقبل أن القصيدة عمل من أعمال التقوى المسيحية التى لا شائبة فيها . ورغبة فى تهدئة رجال الدين نشر بوب فى ١٧٣٨ ترنيمة·

حلوة سماها « الصلاة العالمية » . ولم يقتنع السـنيون تماما ، ولكن العاصفة هدأت . أما فى القارة فقد استقبلت القصيدة بعواطف مسرفة . فقال فولتير فى حكمه عليها « انها فى رايى ابدع وانفع واسمى قصيدة وعظية نظمت فى اى لغة (٤٧) » .

وفى ١٧٣٥ كتب بوب مقدمة لمجلد من الهجائيات سماها « رسالة الى الدكتور اربتنوت » دافع فيها عن حياته واعماله ، وقتـل خصوما جددا . هنا وردت صورته الشهيرة لاديسون الذى سماه « اتيكوس » ، وفضيحته القتالة للورد هرفى المخنث الذى كان قـد زل فوصف بوب بانه « قاس كقلبك ، مجهول كاصلك (٤٨) » . وطعنه بوب طعنات نجلاء تحت اسم « سبوراس » فى ابيات يتجلى فيها الشاعر فى أروع صوره وأسوئها . قال :

« ماذا ؟ ذلك الشىء المصنوع من الحرير ،
سبوراس ، ذلك الخثارة البيضاء من لبن الحمير ،
وا أسفاه ! لا يجدى معه هجاء ولا كلام معقـول ! أيسـتطيع سبوراس أن يحس ،
وهو الذى يحطم فراشة على دولاب التعذيب ،
ولكن دعونى أصفع هذا البقة المذهبة الاجنحة ،
ابن القذر هذا المزوق ، الذى ينتن ويلدغ ...
وسواء تكلم وهو عاجز عجزا فاضحا
وزيق كالدمية حين ينفخ فيها الملقن ؛
أو جلس الى اذن حواء ، كانه الضفدع الاليف ،
ينفث حديثا نصفه زبد ونصفه سم ،
فى توريات او احاديث سياسية ، او حكايات ، أو اكاذيب ،
أو غل او سناج او قوافى او كفريات .
ذكاؤه كله متارجح هنا وهناك ،
صاعد حينا ، هابط حينا ، سيد مرة وفتاة مرة ،
وهو ذاته تناقض حقير .
شىء ذو وجهين ، يلعب كلا الدورين ،
الرأس التافه ، أو القلب الفاسد ؛

غندور فى زينته ، متملق فى مجلسه ،
يخطر آنا كالنساء ، ويتبختر آنا كالسادة (٤٩) » .

وكان بوب فخورا ببراعته فى هذه الهجمات القتالة -

« أجل ، انى فخور ، ويجب أن افخر برؤية
الرجال الذين لا يخشون الله يخشوننى (٥٠) » .

وقد اعتذر عن مرارته بأن العصر يتهدده انتصار الغباوة ، وأنه فى حاجة الى عقرب يلدغه ليفيق ويعقل ، ولكنه انتهى فى ١٧٤٣ الى أنه خسر المعركة . ففى آخر تنقيح لملحمة المغفلين رسم صورة قوية - هى نذر الشاعر « دون » بالويل والثبور صاغها بلهجة ملتن ونبراته للدين ، والأخلاق ، والنظام ، والفن ، وقد لفها كلها ظلام واضمحلال شاملان . فالاهة الغباء المتوجة تتثاءب فوق عالم محتضر :

« انها قادمة ، انها قادمة ، تأمل العرش الأسود ،
عرش الظلمة الأزلية والفوضى القديمة !
امامها تتبدد كل سحب الخيال الذهبية ،
وتتلاشى كل أقواسه القزحية ....
بينما تأفل النجوم الذابلة نجما بعد نجم
من الأفق الأثيرى ، عند سماع لحن ميديا الرهيبة
وهكذا عند الاحساس بدنوها ، وخشية جبروتها الخفى ،
ينطفىء الفن تلو الفن ، وتمسي الدنيا ظلاما فى ظلام .
فانظر الى الحقيقة وقد هربت متسللة الى كهفها القديم ،
وفوق رأسها أهيلت جبال من الفتاوى !
والفلسفة التى كانت من قبل تستند الى السماء ،
تنكمش الى علتها الثانية ثم تموت .
والطبيعة (العلوم) تسأل ما بعد الطبيعة الدفاع (ضد هيوم ؟)
وما بعد الطبيعة يستنجد بالحس الطبيعى (لوك ؟) !
وترى الأسرار الخفية تلجأ الى الرياضيات (نيوتن ؟) !
ولكن عبثا نحاول ! انها تحملق ، وتترنح ، وتهذى ، ثم تموت .
ويستر الدين نيرانه المقدسة وقد احمر وجهه خجلا ،

وتذوى الفضيلة دون أن تدرى ...
فهناك دولتك الرهيبة وقد عادت أيتها الفوضي ،
والنور ينطفىء أمام كلمتك القاتلة ،
وبدك أيتها الفوضي الجبارة تنزل الستار
فاذا الظلام الدامس يلف كل شيء (٥١) » .

ولعله حسب اضمحلاله هو انهيارا للكون كله . فقد كان وهو بعد فى الخامسة والخمسين يموت من الهرم . واصبح المشي عسيرا عليه لاصابته بالاستسقاء ، والتنفس مؤلما لاصابته بالربو . وفى ٦ مايو ١٧٤٤ أصابه هذيان كان يفيق منه فترات ، واعرب فى احداها عن ايمانه بحياة بعد الموت . وسأله صديق كاثوليكى ايستدعى له كاهنا فاجاب بوب « لست أراه ضروريا ولكنه سيكون عين الصواب ، وشكرا لانك ذكرتنى بهذا » (٥٢) . ومات فى ٣٠ مايو ، « هادئا رابط الجأش » (اذا صدقنا جونسن) ، « حتى أن خدمه لم يتبينوا بالضبط وقت وفاته » . ولم يكن من حقه أن يدفن فى دير وستمنستر لانه كاثوليكى ، فووري التراب الى جوار أبيه وأمه فى تويكنهام .

اكان جنتلمانا ؟ لا ، فان أحقاده الفياضة بالقدح والذم شاركت فى تسميم هواء انجلترة الأدبى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد أخرجت آلامه الجسدية أحماضا لاذعة وحرمته العاطفة التى تفيض بالحب والود على من حولها . أكان عبقريا ؟ بالطبع ، لا فى الفكر الذى استعاره ، بل فى الشكل الذى بلغ به مرتبة الكمال فى النوع الادبى الذى اختاره . وقد وصفه ثاكرى بأنه « أعظم فنان أدبى شهده العالم (٥٣) » . ففى لباقة الكلام ، وايجاز التعبير ، وخصب العبارة ، كان أمام عصره غير منازع . وحتى الفرنسيون قبلوه أعظم شاعر فى جيله ، وتطلع اليه فولتير مثلا له وقلده ، كما نرى فى « أحاديثه عن الانسان » . ولقد ظل ثلاثين عاما - اطول من أى شاعر آخر - أمير الشعر الانجليزى ، وثلاثين عاما أخر نموذجا يحتذيه الشعراء الانجليز ، الى أن جاء وردزورث بشيرا بعصر جديد .

ونحن الذين نهرول فى حياتنا اليوم رغم فراغنا كله ، نرى فى مقطوعات بوب ، فى تشطيرها الآلى ، أو فى صعودها وهبوطها

« كالأرجوحة » (٥٤) القدرة على التنويم ، فلا توقظنا الا بين الحين والحين بالابجرامات ، وحتى مقاله البارع عن الانسان ، ليس شعرا الا فى أوزانه وقوافيه . والصنعة نيه ظاهرة فوق ما ينبغى ، فلقد نسي الفنان نصيحة هوراس له بستر فنه . كذلك غفل عما نبه اليه هوراس من أن الشاعر لابد ان يملك الشعور قبل أن يستطيع نقله ؛ وقد شعر بوب ، ولكن غالبا ليحتقر ويسب ؛ وقد افتقد الاحساس بالجمال نحـو الأفعال النبيلة او اللطف الانثوى . واستنفد خياله فى العثور على ألفاظ رقيقة ، بتارة ، مركزة ، لأفكار قديمة ؛ فلم يتطاول ليمسك بالأشكال المثالية التى تلهم عظماء الشعراء والفلاسفة . ولم تعطه الأجنحة سوى أحقاده .

وهو لم يزل الى اليوم الرمز الشـــعرى الأكبـــر لعصر انجلترة الاوغسطى ـ الذى يجوز ان نرسم حدوده بعمره ، ١٦٨٨ ـ ١٧٤٤ . فمعرفة الذهن الانجليزى المتزايدة بعيون الأدب اليونانى والرومانى ، وبمسرحية « القرن العظيم » الفرنسية ؛ وتأثير الارستقراطية ـ تأثير الطبقة المسيطرة على الكثرة ـ فى الحديث ، والعادات ، والألفـــاظ المهذبة ، ويسر السلوك واطفه ؛ وانتقاض العقل والواقعية على الشطط الاليزابيثى وعلى التدين البيورتانى المتزمت ، وانتقال المعايير الفرنسية الى انجلترة مع عودة الملكية ، والمكانة الجديدة للعلم والفلسفة ـ كل أولئك تضافر لاخضاع أشكال الشعر الانجليزى السائدة لقواعد هوراس وبوالو الكلاسيكية . وجاء عصر من النقد بعد عصر الخيال ، فبينما غزا الشعر فى انجلترة الاليزابيثية النثر ولونه ، نرى النثر فى انجلترة الأوغسطية يحط من قدر الشعر ويغير لونه . وكان أثر هذا الأدب « الكلاسيكى الجديد » على اللغة الانجليزية حسنا وسيئا : فقد أعطاها دقة ووضوحا ورشاقة جديدة ، ولكنها خسرت حيـــوية الكلام الاليزابيثى وقـــوته ودفئه . وخضعت ثورة الشخصية والتعبير وفردانيتهما القديمة لنظام مفروض من فوق ، الزم بالتطابق فى الحياة ، وبالشكل فى الأدب . وهكذا استحال الشباب كهولة .

على ان الأسلوب الكلاسيكى الجديد لم يعبر الا عن شـــطر من الحياة الانجليزية ، فلم يكن فيه متسع للتمرد ولا للعاطفة ولا للحب .

وقام شعراء بريطانيون ، حتى أيام ســلطان بوب ، نددوا بالصنعة والمنطق ، وتحولوا من العقل الى الطبيعة ، ووجدوا صـوتا يعبر عن الوجدان ، والدهشة ، والخيال ، والاكتئاب المتفكر ، والأمل المحزون . فبدأت بذلك الحركة الرومانسية فى ذروة عصر انجلترة الكلاسيكى .

٣ ـ أصوات الوجـدان

لم يكد الشعر الكلاسيكى الجديد يتأمل شيئا غير عالم الكتب . فقد رأى هومر وهوراس ، وأديسون وبوب ، رؤية أوضح من رؤيته للرجـال والنساء الذين يمرون فى الشوارع ، أو الدلفس والمناظر الطبيعية التى تنفعل بها أمزجة الناس كل يوم . ولكن الأدب كشف الآن من جديد ما كان الفلاسفة يزعمونه طويلا ، وهو أن « الانسان » فكرة عامة غامضة ؛ وأنه لا وجود الا « للناس » ، المعتزين بفرديتهـم الحريصــين على واقعهم . وعمق الشعراء ذواتهم بلمسهم الأرض ، وشعورهم بالحقول والتلال والبحر والسماء واســتجابتهم لها ، وبتغلغلهـم الى ما وراء الأفكار ليصلوا الى المشاعر الدفينة التى يعلنها الكلام أقل مما يخفيها . فلم يبالوا كثيرا بالكلام واعتزموا الغناء ، وعادت القصيدة الغنائيــة وذوت الملحمة . وغلب الشوق الى العزاء المنبعث من الايمان بما فوق الطبيعة ، والى الانبهار الصوفى الذى يوسع الحياة ، هجوم الربوبيـة على المعجزات ، والتمس بازدياد ، فى أساطير العصور الوســطى ، ورومانسيات الشرق ، والأشكال القوطية ، شيئا من الهروب من الواقع القاسي لهذه الحياة الدنيا .

وبالطبع لم يخل عصر من أصوات الوجدان . ألم يشد « البطل المسيحى » للكاتب ستيل (١٧٠١) بالايمان القديم والعاطفة الرقيقة ؟ والم تركز « السمات المميزة » لشافتسبرى (١٧١٠) حياة البشر فى « العاطفة » و « المحبة » ؟ والن يشتق المتشكك هيــوم والاقتصادى سمث كل الفضيلة من شعور الأخوة والتعاطف ؟ ولكن جيمس طومسن هو الذى ضرب أول ضربة واضحة جلية دفاعا عن قضية الاحساس ورقة الشعور .

وكان ابن قسيس فقير فى تلال اسكتلنده . نزل الى أدنبره ليدرس للقسوسية ، ولكن عاقه عن غايته ادانة الأساتذة لأسلوبه لأنه شــعرى

بصورة لا تتفق ولغة الدين . فهاجر الى لندن ، وسرق ماله فى الطريق ، وأشرف على الهلاك جوعا ، وباع قصيدته « الشتاء » (١٧٢٦) ليشترى حذاء (٥٥) . على أن اهـداءه اياهـا الى السر سبنسر كونتن أتاه بعشرين جنيها ثمنا لثنائه ؛ ولا غرابة فان النبـلاء الانجليز لم يكونوا صما أو بخلاء بالقدر الذى خاله جونسون . وتصور طومس فى قصيدته صوت النعال وهى تطحن قشرة الجليد ، وكيف :

« سمع الرياح تزار والسيل العميق يهدر ،
أو راى العاصفة العميقة الثوران تتجمع
فى سماء المساء الكالحة ؟ »

وكيف راقب من الشاطىء الرياح وهى تحرث البحـر ، وتقلب « اليم من قاعه وقد تغير لونه » ، وتمزق المراكب من مراسيها ، وترفعها رفعا خطرا فوق موجة وتهوى بها هويا منذرا تحت أخرى ، وتقذف بها فوق « صخر مدبب أو مياه ضحضاحة غادرة » ثم تبددها « شظايا متناثرة ... تطفو فى حركة دائرة » . وصور الفـلاح وقد اقتنصته عاصفة من الثلج الذى يعمى العيـون ، تغوص قدماه المتجمدتان فى الثلوج العميقة وهو يكافح فى سيره ، حتى يعجز عن رفع حذائه ، فيقع منهوكا فريسة للموت متجمدا .

« أواه ، ما اقل ما يخطر ببال المستكبرين ، المستبيحين المرحين،
كم من الناس يحسون فى هذه اللحظة بالموت
وكل ضروب الألم الحزينة .. ..
وكم يذوون فى الفاقة وغياهب السجون محرومين مما ينعم به الخلق كلهم من تنسم الهواء
وتحريك الأطراف ، وكم يتجرعون كاس
الحزن القاتل ، أو ياكلون خبز الضـيق المر ، وقـد اخترمت اجسامهم رياح الشتاء ،
وكم ينكمشون فى ذلك الكوخ القذر ،
كوخ الفقر التعس » .

هنا نغمة جديدة من الشفقة تخزى « بل مل » وداوننج سترتت ،

وعودة تنعش النفس الى شعر ملتن المرسل عقب ما وصف به طومسن قوافى بوب من « بهرجة تافهة » .

وشهد عام آخر ، ورواج جديد لطومسن ، طبع قصيدته « الصيف » (١٧٢٧) ؛ وفى ذلك العام شارك بقصيدة شهيرة فى صيحة الحرب على أسبانيا :

« حين انبعثت بريطانيا اول مرة
بامر السماء من اليم الأزرق ،
كان هذا دستور أرضها ،
وتغنت ملائكتها الحارسة بهذا اللحن :
احكمى يا بريطانيا ، تسلطى على الأمواج ؛
ان البريطانيين لن يستعبدوا أبدا » .

ومن لندن راح يجول الأيام والأسابيع فى الريف ، مستوعبا بحواس الشاعر المرهفة « كل مشهد ريفى ، وكل صوت ريفى » ، يحب « رائحة الألبان » المنبعثة من المزارع ، وينتشي بمنظر الشمس منتصرة عقب المطر ، أو يسبق كيتس فى اكتئابه لمرأى الخريف . وهكذا نشر قصيدته « الربيع » فى ١٧٢٨ ، وباضافة قصيدة « الخريف » ومطلعها (« حين تبدأ الورقة المسمومة فى الالتواء ») جمع القصائد الاربع كلها فى ديوان « الفصول » (١٧٣٠) . وقد كوفىء بجولة فى القارة رفيقا لتشارلز تالبوت ، ابن وزير الخزانة فى ذلك الحين . فلما عاد عاش فى دعة ونظم الشعر الردىء الى أن مات الوزير (١٧٣٧) . وبعد أن صاحب الفقر فترة أخرى قدموه الى ولى العهد (امير ويلز) الذى ساله عن احواله ، فاجاب « انها فى وضع اكثر شاعرية من ذى قبل » . وتلقى معاشا قدره مائة جنيه مكافاة على ملاحظته الساخرة هذه . ثم قضي عليه برد أصيب به على التيمز ، ومات غير متجاوز الثامنة والأربعين .

وقد قررت « الفصول » أسلوبا جديدا فى شعر انجلترة الاقل شانا، ووجدت اتباعا فى فرنسا ؛ هناك نظم جان فرانسوا دسان ـ لامبير ،

الذى سرق اميلى من فولتير ، قصيدته « الفصول » (١٧٦٩) . وبينما كانت مقاطع الشعر الملحمى تختال عبر القـــرن ، كان ادورد ينج ، ووليم كولنز ، ووليم شنستون ، ومارك أكينسايد ، وتوماس جراى ، يوسعون الطريق الرومانسى المفضي الى وردزورث وتشاترتن . أما ينج فبعد ان ظل ينظم الشعر التافه المرح حتى الستين من عمره ، عمــل لآخرته بديوان شعر اسمه « خواطر لبلية فى الحياة والموت والخـلود » (١٧٤٢ — ٤٤) . وقد شجب فولتير هذا النتاج الليـــلى لأنه « مزيج مهوش من الشعر الطنان والتوافه الغامضة » ، ولكن ربما كان دافعـــه الى هذا الحكم أن ينج كان قد وخزه ببيتين لاذعين قال فيهما :

« انك مسرف فى الذكاء ، والحلاعة ، والنحول ،
حتى لنحسبك ملتن ، والموت ، والخطيئة ، مجتمعة كلهـــا فى رجل واحد (٥٦) » .

واما وليم كولنز فعاش نصف عمر ينج ، وكتب اقل مما كتب ينج واجود منه مرتين . هرب من دعوة لاحتراف القسوسية ، وانفق آخـــر دراهمه فى صقل الابيات الألف والخمسمائة التى نظمها قبل أن يجـن ويموت (١٧٥٩) وهو بعد فى الثامنة والثلاثين . واجمل من قصيدته « نشيد المساء » التى ظفرت بالتقريظ القبرية التى كتبها رثاء للجنود البريطانيين صرعى المعركة فى ١٧٤٥ :

« كيف ينام الشجعان الذين يسقطون ليرقدوا
وقد باركتهم كل دعوات وطنهم !
حين يعود الربيع الذى يبلل الندى أصابعه الباردة
ليجمل ترابهم المقدس ،
هنالك يكسو بالعشب ثرى اعطر
مما وطئته اقدام الخيال .
اجراسهم تدقها ايدى الجان
ولحن الموت ترتله افواه لا ترى ،
هنالك يحضر « الشرف » ، حاجا أشيب الشعر ،

ليبارك العشب الذى يكسو ثراهم ،
وتذهب « الحرية » برهة
لتقيم كالناسك الباكى على قبورهم » .

وأكثر من يذكر بين شعراء الوجدان هؤلاء ذلك الروح الغريب الذى أسبغ على اكتئاب الشباب كثيرا من العبارات الرقيقة . ذلك هو توماس جراى ، الذى كان أحد اثنى عشر طفلا ولدوا لكاتب عمومى لندنى ، مات منهم أحد عشر فى طفولتهم . ولم يتخط توماس هذه السن الخطرة الا لأن أمه استعملت مقصها لتفتح وريده بعد أن رأته يتشنج . فلما بلغ الحادية عشرة ذهب الى ايتن ، حيث بدأ صداقاته المشئومة مع هوراس ولبول ورتشرد وست ثم مضى الى كمبردج ، التى وجدها « مملؤة بالمخلوقات المكتئبة والمعلمين المجدبين » . وأراد أن يدرس القانون ، ولكنه انزلق الى دراسة الحشرات وقرض الشعر ، وانتهى الى التبحر فى اللغات والعلوم والتاريخ الى حد خنق العلم فيه شعره .

وفى ١٧٣٩ جاب أوربا مع هوراس ولبول . فلما عبر جبال الألب فى الشتاء كتب يقول « ما من جرف ، ولا سيل ولا منحدر فيها الا وهو مفعم بالدين والشعر » ، وفى ١٧٤٠ حين كتب من روما أدخل الى اللغة الانجليزية كلمة جديدة هى picturesque (أى الشبيه بالصورة الرائعة) . ولم يكن قاموس جونسن يعرف هذه الكلمة حتى فى ١٧٥٥ . وفى ريدجو ايميليا تشاجر مع ولبول ، فقد كان هوراس شديد الوعى بنبالته ، وتوماس شديد الفخر بفقره ، ووشي « صديق للطرفين » لكل منهما برأى الآخر المستتر فيه ، فافترقا ، وواصل جراى رحلته منفردا الى البندقية وجرينوبل ولندن .

وبغضه فى الحياة موت صديقه وست (١٧٤٢) فى السادسة والعشرين من عمره . فاعتكف فى بيت عم له فى ستوك بوجز ، وهناك، وسط دراساته المتصلة ، كتب (١٧٤٢) « قصيدة غنائية فى نظرة من بعيد لكلية ايتن » . اذ نظر من مسافة مأمونة الى هذه المشاهد المدرسية، فقد تذكر صديقه الذى قصف الموت عمره قبل الاوان ، ووراء العاب هؤلاء الشباب ومرحهم رأى ببصر مكتئب مصائرهم الشقية :

« هؤلاء ستمزقهم الانفعالات والعواطف الجامحة ،

ونسور العقل الجارحة ،
والغضب المفعم بالاحتقار ، والخوف الشاحب الوجه ،
والخجل الذى يتوارى مختبئا ؛
أو يفنى الحب المعذب شبابهم ،
أو الغيرة المكشرة عن نابها ،
التى تقرض القلب فى شغافه
والحسد الشاحب ، والهم الذابل ،
واليأس المتجهم الذى لا يقبل العزاء ،
وسهم الحزن الذى يخترم النفس .

انظر ، فى وادى الحياة أسفلك
تر رهطا رهيبا ،
هم اسرة الموت المؤلمة ،
الأبشع منظرا من ملكتهم .
فهذا يحطم المفاصل ، وهذا يلهب الأوردة ،
وذاك يوجع كل عضلة مجهدة ،
وأولئك يحدثون ثورة فى الأحشاء الدفينة .
ثم ها هو الفقر اقبل ليكمل الفرقة ،
الفقر الذى يخدل الروح بيده الباردة ،
والهرم الذى يبرى الناس على مهل .

لكل انسان آلامه ، والكل بشر ،
قضي عليهم كلهم بالأنين ،
فالحنون يئن لألم غيره ،
والقاسي يئن لألم نفسه ،
ولكن واها لهم ! فلم يبصرون بحظوظهم ،
ما دام الحزن لا يبطىء مجيئه أبدا ،
والسعادة سريعة الهروب ؛
ان التفكير كفيل بان يدمر فردوسهم ،
فامسك ، لأنه حيث يكون الجهل نعيما
فمن الحماقة ان تكون حكيما » .

وفى أواخر ١٧٤٢ قفل جراى الى كمبردج ليستانف دراساته .

وارسل الى ولبول ، بعد أن اصطلحا ، (١٧٥٠) « مرثية مكتوبة فى فناء كنيسة ريفية » . وداولها ولبول بين أخصـــائه وطبعهـــا ناشر لص وحرفها .. وحماية لشعره سمح جراى لددسلى بأن يصدر نسخة أفضل وان شابها النقص هى أيضا (١٧٥١) ، فى هذه القصيدة التى نعد من أروع قصائد القرن البس جراى الاكتئاب الرومانـي لبوسا كلاسيكيا دقيق النحت ، مستبدلا بمقطوعات بوب الزوجية العالية الرنين رباعيات هادئة تتحرك فى وقار نسجى الى خاتمتها الحزينة .

وفى ١٧٥٣ ماتت أمه ، فكتب لها قبرية رقيقة ، ودفن همومه فى الشعر . وفى قصيدة غنائية عن « تقدم الشعر » حيا انتقال ربات الفن والأدب من اليونان والرومان الى « البيون » ، واعترف بتطلعات صباه الى مباراة الشاعر بندار ، والتمس من الشعر أن يهبه عطية « العقل الذى لا يقهر » . وفى قصيدة غنائية أكثر شموخا حتى من هذه ، واسـمها « الشاعر » ، رأى جراى فى الشعراء ضربا من التكفير عن سيئات الحياة البريطانية يفضح الرذيلة والطغيان . هاتان « القصيدتان الغنائيتان البنداريتان » ، اللتان نشرتهما مطبعة ولبول فى ستروبرى هل ، بلغتا فى افتعال الشكل والازدحام بالشواهد القديمة والوسيطة مبلغا جعـل فهمهما عسيرا على القراء الا الراسخين منهم فى الأدب . وقد لف جراى نزوعه هذا للعزلة فى ثوب من الكبرياء فقال « ما كنت لأضيف حاشية (تفسيرية) أخرى لأنقذ أرواح جميع البوم الذين فى لندن . ان الوضع الراهن حسن جـــدا ـ فلا احـــد يفهمنى ، وأنا راض بهـــذا تمـــام الرضي . وكان البوم معتادا على مثل هذا الصفير فى الظلام .

واذ انكفأ مكتئبا الى غرفته ببيتر هاوس فى كمبردج يعانى من فقر وتهيب منعاه من الزواج ، ومن حساسية شديدة قعدت به عن نضال الحياة ، فقد أمسي انسانا منطويا محزونا ؛ وروعه بعض الطلاب ذات ليلة ، وقد ساءهم منه عزوفه ووقاره ، وعرفوا فيه الخوف من النار ، فصاحوا تحت نافذته بأن الردهة تحترق . وفى رواية مختلف عليها انه أدلى نفسه من النافذة وهو فى قميص النوم وانزلق على حبل ـ ليقع فى حوض ماء وضعه العابثون ليتلقاه (٥٨) . وفى ١٧٦٩ جاب اقليم البحيرات الانجليزية ، وفى اليومية التى كتبها (بخط غاية فى الجمال) جعل انجلترة تدرك لأول مرة جمال ذلك الاقليم . وفى جولة أخـــرى

بمالفيرن تلقى نسخة من قصيدة « القرية المهجورة » (لجولدسمث) فقال « هذا الرجل شاعر » ثم وضع النقرس نهاية لرحلاته ، ثم لحياته بعد قليل (١٧٧١) .

وطبقت شهرته الآفاق حينا . فانعقد الاجماع فى ١٧٥٧ على أنه يقف على قمة الشعراء الانجليز ، وعرضت عليه امارة الشعر فرفضها . وقال فيه كوبر متخطيا ملتن « انه الشاعر الوحيد بعد شكسبير الذى يحق له أن ينعت شعره بالسمو » . اما آدم سمث فاضاف متخطيا شكسبير « ان جراى يضيف الى سمو ملتن اناقة بوب وتناغمه ، ولا ينقصه شيء ليكون - ربما - أول شاعر فى اللغة الانجليزية ، الا أن يكون قد نظم شعرا اكثر قليلا مما فعل (٥٩) » . واعجب جونسن بالمرثية ، ولكنه كان يملك من العلم ما جعله يجد عشرات العيوب فى القصائد الغنائية . « ان لجراى ضربا من الوقار المختال ، وهو طويل القامة بفضل مشيه على أطراف اصابعه ... وانى لأعترف اننى اتامل شعره برضي أقل مما اتامل حياته (٦٠) » .

ونستطيع ان نقلب هذه الحكمة مطمئنين . فقد كانت حياة جراى تعسة لا اغراء فيها ، من شجاره مع ولبول الى قصة الحوض . وكانت انبل احداثها ثلاث قصائد أو أربعا ستظل اجيالا كثيرة من ادمغ البراهين على « تقدم الشعر » من اليونان والرومان الى الببون .

٤ - المسرح

ماذا كانت مسارح لندن تصنع فى نصف القرن هذا الذى نحن بصدده ؟ كان أهمها مسرح دروری لين . ثم (من ١٧٣٣) كوفنت جاردن ؛ وكان هناك مسارح صغيرة فى لنكولنز ان فيلدز وجودمانز فيلدز ، وكان فى هيماركت « مسرح صغير » للتمثيليات الهزلية ، « ومسرح جلالة الملك » للاوبرا ؛ وبلغت جملة المسارح فى لندن مثلى عددها فى باريس . وكانت حفلات التمثيل تبدأ فى السادسة مساء . أما النظارة فقد غيروا طابعهم منذ ايام عودة الملكية ، فتحول « المجتمع الراقى » الآن عن المسرح الى الاوبرا . وكان المتفرجون المحظوظون أو الاثرياء لا يزالون يجلسون على خشبة المسرح . واتسع

« قاع » المسرح واعلاه لقرابة الفى شخص جالسين ؛ هنالك غلبت الطبقة الوسطى ، وقررت بتصفيق الاستحسان استقبال التمثيليات ونوعيتها ؛ ومن هنا ازدياد المنافسة بين الموضوعات البورجوازية والرومانسية . واستولت النساء على كل الادوار النسائية وعلى كثير من قلوب الرجال ؛ وبدأ الآن سلطان الممثلات الشهيرات من أمثـــال كتى كلايف ، وبـــج ووفنجتن ــ التى رسمها هوجارت ، وحاك تشارلز ريد رواية حولها .

ولقد قال جاريك ، بما ان « هواية الممثلين الاولى ، والعظمى ، والمسيطرة ، هى الأكل (٦١) » فانهم فضلوا التمثيليات المتبلة بالجنس. وقال آدمز ، القسيس الذى رسمه الروائى فيلدنج : لم أسمع قط بتمثيليات تصلح لأن يقرأها مسيحى الا تمثيليات أديسون ، ورواية ستيل « العشاق الواعون » . على أن فيلدنج ذاته كتب هزليات فاجرة (٦٢) . وقد وصف فولتير المسارح فى انجلترة بأنها « مجردة من اللياقة » . وناشد السرجون برنارد مجلس العموم فى ١٧٣٥ بان يكبح شيئا من جماح المسارح ، وزعم أن « الأمة البريطانية ... أصبحت شديدة الادمان على الملاهى الداعرة العاطلة ... حتى لقد ادهش أوربا كلها أن يتقاضى السنيورات والخصيان الايطاليون رواتب تعادل رواتب وزراء الخزانة (٦٣) » . ولم يفعل أحد شيئا فى أمر المناظر والعبارات الخليعة ، ولكن حين سخر فيلدنج وجاى المسرح للهجو السياسى فهاجما روبرت ولبول وجورج الثانى ، استصدر الوزير ، المتسامح عادة مع المعارضة ، بطريق البرلمان قـــانون الرخص (١٧٣٧) ، الذى وجه أمين البلاط الى المزيد من التشدد فى منح الأذن بالحفلات المسرحية★ .

وقد غالى ديدرو فى « موسوعته » فى الثنـــاء على مسرحيـــة « التاجر اللندنى » ، التى اخرجت بلنـــدن فى ١٧٣١ ، والتى أثارت اهتمامه لانها المسرحية التى أدخلت مأساة الطبقة الوســطى الى المسرح البريطانى . وكانت الدراما الكلاسيكية الفرنسية قد أرست مبدأ مؤداه أن المأساة وقف على الارستقراطية ، وأنها تفقد مقامها ووقارها ان هى نزلت

★ هذا القانون بصيغته المعدلة فى ١٨٤٣ مازال قانونا بريطانيا ، ولكنــه يطبق بتساهل كبير .

الى المشاهد البورجوازية . وقام جورج ليللو بمغامرة مزدوجـــة ؛ أنزل المأساة الى بيت تاجر ، وكتبها نثرا . فترى فيها التاجر الأمين ثوروجود يعتز « بكرامة مهنتنا » ويثق بانه « لما كان اسم التاجر لا يشين الجنتلمان أبدا ، فهو اذن لا يقصيه اطلاقا عن المجتمع الراقى » . والفـــكرة فى المسرحية هى تدمير حياة صبى تاجر على يد غانية أغوته ، والموضــوع موشي بالحض على مكارم الاخلاق وملفوف فى العاطفة الرقيقة . وقــد صفقت للمسرحية طبقة وسطى ابهجها أن ترى فضائلها ومثلها العليـــا معروضة على مسرح بريطانى . ورحب بها ديدرو وحكاها فى حملتـــه لادخال « المأساة البيتية والبورجوازية » فى المسرح الفرنسي . ونقل لسنج نبرتها فى « الآنسة سارا سامپسن » (١٧٥٥) . وهكذا راحت الطبقات الوسطى تؤكد ذاتها فى الادب كما تؤكدها فى السياسة .

اما فى اسكتلنده ، فقد اجج النار تحت قدر الدراما جون هيوم ، الذى أغضب زملاءه رجال الدين بكتابته واخراجه تمثيلية « دجلاس » (١٧٥٦) ، وهى انجح مأساة فى زمانها . وقد حياه ابن عمه ديفـــد هيوم فى نوبة من الحماسة المتدفقة لا تكاد تليق بفيلسوف مثلك ، فقال انه « تلميذ صادق لسوفوكليس وراسين قد يوفق فى الوقت المناسب لتبرئة المسرح الانجليزى من تهمة الهمجيـــة (٦٤) » . فلمـــا رفض جاريك المسرحية ، رتب هيوم ، ولورد كيمس (هنرى هيوم) ، و « المعتدلون» من رجال الدين الاسكتلنديين اخراجها فى ادنبره ، وقام ديفد ببيـــع التذاكر . وكان الحدث نصرا لآل هيوم جميعا ولباقى اسكتلندة ، لان جون هيوم حول اغنية شعبية اسكتلندية قديمة الى دراما وطنيـــة ملأت عيون الاسكتلنديين بدموع الفرح ، اللهم الا هيئة شيوخ الكنيسة بادنبره ، التى نددت بهيوم لانه جلب العار على ردائـــه ، وذكرته « بالرأى الذى كانت الكنيسة المسيحية تراه دائما فى تمثيليات وممثلى المسرح لاضرارهم بالدين والفضيلة (٦٥) » . ثم صدرت اتهامات رسمية لهيوم وقسيس آخر يدعى الكسندر كارليل لحضوره التمثيل . اما ديفد هيـــوم الذى اضطرم بالغيرة على قريبه فقد أهدى « المقالات الأربع » لابن عمــه ، وكتب اتهاما حارا للتعصب . واستقال جون من قسوسيته ، وذهب الى لندن ، وشهد مسرحيته « دجلاس » تخرج ، وعلى رأس ممثلاتهـــا بج ووفنجتن (١٧٥٧) . هناك أيضا انتصرت المسرحية ، واحتشــد

الاسكتلنديون الساكنون لندن ليصفقوا لها ، وفى نهاية هذه الحفلة الافتتاحية فى لندن هتف اسكتلندى من أعلى المسرح « اخساوا يا قوم : فما قولكم الآن فى ويلى شكسبيركم (٦٦) ؟ » وظلت التمثيلية تتردد على المسرح جيلا باكمله ، مع أنها اليوم ميتة موت تمثيلية أديسون « كاتو » . وحين مثلتها المسز ،يدونز بادنبره فى ١٧٨٤ ، اضطر المجمع العام للكنيسة « الى توقيت الاجتماع لأعماله الهامة بالتناوب مع أوقات تمثيلها ، بحيث يجتمع فى الايام التى لا تمثل فيها (٦٧) » .

أما اطرب نجاح حققه المسرح اللندنى فى هذه الفترة فكان « أوبرا الشحاذ » . وقد بدأ مؤلفها جون جاى حياته صبيا فى متجر ، وارتقى حتى أصبح سكرتيرا لأيرل كلارندن ، وواحدا من أكثر أعضاء نادى « سكربليروس » حيوية ومرحا . وقد وصفه بوب بأنه :

« دمث الطبع ، رقيق العاطفة ،
فى ذكائه رجل ، وفى بساطته طفل ؛
مفطور على مرح يخفف من غضبته للحق ،
مخلوق ليبهج العصر ويسوطه معا (٦٨) » .

وقد وضع جاى بصمته على المسرح عام ١٧١٦ بتمثيلية « تريفيا أو فن التسكع في شوارع لندن» . فقعقعة عجلات المركبات على أحجار الرصف، والسائقون يستحثون خيلهم بالسوط واللسان ، و « الصبية الموحلة » تحمل السمك الى بلنجزجيت ، وهدوء « بل مل » بسيداته المعطرات يتكئن على أذرع العشاق ، والسائر يشق طريقه الملتوى وسط مباراة فى كرة القدم تسد الشارع ، واللصوص المهذبون « يخففون جيبك من أثقاله باصابع لا تحس » ، والحارس الضخم يهدى خطاك المضطربة بمصباحه المرشد الى الطريق الأمين « ويقودك الى بابك ؛ كل هذا وأكثر منه يجده فى « تريفيا » من يريد أن يتصور لندن فى ١٧١٦ .

وفى ١٧٢٠ نشرت « قصائد » جاى بنظام الاكتتاب ، فوافته بألف من الجنيهات خسرها فى انهيار شركة بحر الجنوب . وخف بوب وغيره لنجدته ، ولكنه أدرك الثراء من جديد عام ١٧٢٨ بتأليفه « أوبرا الشحاذ » . وتقدم لنا مقدمتها الشحاذ ، الذى يقدم لنا بدوره أوبراه .

وتبدأ باغنية شعبية يغنيها بيتشوم ، الذى يتظاهر (كما تظاهر جوناثان وايلد) بخدمة القانون بالابلاغ عن اللصوص (اذا رفضوا خدمته) ، ولكنه فى حقيقة الأمر يتجر فى البضائع المسروقة . ويصف نفسه بالرجل الأمين لأن « كل اصحاب المهن الراقية يحتال بعضهم على بعض » ، ويحدوهم الجشع للربح . ويفسد عليه امره ان ابنته بولى وقعت فى غرام قاطع الطريق الوسيم الأنيق الكبتن ماكهيث ، وربما تزوجته ، ومن شان هذا الغزام أن يعطل تسخيره مفاتن بولى فى ملاطفة المشترين والبائعين ورجال الشرطة . وتطمئنه المسز بيتشوم قائلة :

« بحقك لم يجب ان تختلف ابنتنا بولى عن غيرها من بنـــات جنسها ، فلا تحب الا زوجها ، ولم يجب أن يقلل زواجها من ملاحقة الرجال الآحرين لها ، على عكس ما نلحظه فى كل مكان ؟ كل الرجال لصوص فى الحب ، ويزيد من حبهم للمرأة أن تكون ملكا لغيرهم(٦٩)». على أن الأم تحذر ابنتها قائلة :

« لست أعارض يا بولى ، كما تعلمين ، فى أن تعبثى قليـلا مع زبون خدمة للعمل ، أو سبيلا لاستخلاص سر أو نحوه ، ولكنى ساقطع رقبتك لو وجدتك تصرفت كالحمقى ، وتزوجت . أيتها اللعوب ».

وتعتذر بولى عن زواجها فى أغنية شعبية :
« أيمكن أن تحكم النصيحة الغرام ؟
ايطيع كيوبيد أمهاتنا ؟
لو كان قلبى باردا كالثلج
لذاب من لهيب ناره .
حين قبلنى ضمنى بشدة
وكان عناقه حلوا فلم أملك غير الامتثال ،
ورأيته أسلم وافضل
أن اتزوج مخافة لومك وتقريعك (٧٠) » .

ويشتعل غضب بيتشوم ، وهو يخشي أن يقتله ماكهيث ويقتل زوجته ليرث ثروتهما من طريق بولى . فيبيت أن يشي بماكهيث لرجال القانون

ليشنقوه دون ريب . ويظهر ماكهيت على المسرح ، ويهدىء روع بولى بعناقه ، ويؤكد لها انه منذ الآن سيكون ملكا لها دون غيرها من النساء :

« لقد كان قلبى طليقا
يتنقل كالنحلة ،
حتى سلبت بولى لبى
كنت أرشف رحيق كل زهرة ،
وأتقلب كل ساعة ،
ولكن هنا اجتمعت كل الزهور فى واحدة » .

وتضرع اليه ان يقسم ان يأخذها معه اذا نقل . فيقسم قائلا « أفى استطاعة أى قوة ... أن تنتزعنى منك ؟ أيسر من هذا أن تنتزعى راتبا من رجل بلاط ، أو اتعابا من محام ، أو امرأة جميلة من مرآة » ثم يشتركان فى ثنائية جميلة :

« هو ... لو ألقيت على شاطىء جرينلند ،
واحتضنت فتاتى بين ذراعى ،
دافئة الجسد وسط صقيع لا ينقضي
لانقضي سريعا ليل نصف العام .
هى ... لو باعونى فى أرض الهند
لاستطعت عقب انقضاء النهار المحرق
أن أهزأ بالكدح فى القيظ الشديد
ما دمت أستريح على صدر فاتنى .
هو ... ولأحببتك اليوم كله ،
هى ... ولتعانقنا ولعبنا كل ليلة ،
هو ... لو سرحت معى فى هيام
هى ... فوق التلال ، بعيدا جدا » .

وتبوح له بان أباها يدبر تسليمه للقانون ، وتطلب اليه فى أسي أن يختفى برهة . فينصرف ، ولكنه يتوقف فى حانة ليعطى أعوانه تعليماته بشأن احدى سرقاته . فاذا انصرفوا رقص وعبث مع فتيات

الحانة ، وكان بيتشوم قد رشاهن ليشين به ، فيسرقن مسدسيه وهن يدللنه ، ثم يستدعين الشرطة ، ونراه فى سجن نيوجيت فى المنظــر التالى . هناك تتنافس عليه بولى واحدى زوجــاته ، وتحررانه من السجن ، ولكن يقبض عليه من جديد ويرسل الى المشنقة ، وفى طريقه اليها يعزى نساءه بهذه الاغنية :

« وداعا اذن يا حبى ـ وداعا يا ساحراتى العزيزات !
انى أموت راضيا ـ وهذا خير لكن .
هنا ينتهى كل نزاع طوال ما بقى لنا من حياة ،
لاننى بهذا أرضى زوجاتى أجمعين (٧١) » .

ويظهر الآن الشحاذ المؤلف ، ويفخر بانه جعــل الرذيلة تلقى ما تستحقه من عقاب ، كما هى الحال فى جميع التمثيليات اللائقة ، ولكن ممثلا يعترض بأن « الاوبرا يجب أن تنتهى نهــاية ســعيدة » (لشد ما تتغير العادات !) . ويذعــن الشحاذ ، وينقــذ ماكهيث من حبل المشنقة ويحيط عنقه بحبل آخر هو بولى ، ويرقص الجميــع حولهما ، بينما يتساءل الكبتن ، أتراه لقى مصيرا شرا من الموت .

وكان من حسن حظ جاى أن افاد من خدمات يوهان بوش ، وهو مؤلف موسيقى المانى يقطن انجلترة ، واختار بوش موسيقى لاغانى جاى من الالحان الانجليزية القديمة ، وكانت النتيجة رائعة . فقد استجاب الجمهور بحماسة فى حفلة الافتتاح بمسرح لنكولنز ان فيلدز (٢٩ يناير ١٧٢٨) رغم ما جاء فى المسرحية من هجو للرشوة والنفاق . واستمر عرضها ثلاثا وستين ليلة متوالية ، وفاقت فى هذا كل ما ســبقها من تمثيليات ، وعرضت عروضا طــويلة فى كبرى المــدن البريطانيــة ؛ ومازالت تشغل المسرح فى قارتين ، وقد حولت الى فلم من ابهج الافلام فى عصرنا . أما الممثلة التى قامت بدور بولى فقد أصبحت معبــودة الفتيان الطائشين المرحين ، وتزوجت دوقا . ولكن رجلا من رجــال الكنيسة الشديدة الاحتفال بالطقوس ندد بجاى لانه جعل قاطع طريق بطلا لتمثيليته ، ولانه تركه يفلت من العقاب . فلما حاول جاى أن يخرج تتمة للتمثيلية سماها « بولى » رفض كبير الامناء الترخيص

بها . فنشرها جاى ، وراجت ، وتصاعدت حصيلة « أوبرا الشحاذ » تصاعدا سارا ، حتى قال ظريف ان التمثيلية جعلت جاى غنيا (rich) وجعلت رتش (المدير) مبتهجا (gay) . وبعد أربع سنوات من انتصار الشاعر أصيب بمغص أودى بحياته .

٥ ـ الروايـة

كان الحدث البارز فى التاريخ الادبى لهذه الحقبة هو ظهور الرواية الحديثة . فروايتا « كلاريسا » و « توم جونز » من الناحية التاريخية اهم من أى قصيدة أو مسرحية انجليزية فى ذلك العهد . ومنـــذ عام ١٧٤٠ ، باتساع مجال الحياة العامة وامتداده من البلاط الى الشعب ، ومن الافعال الى الاحاسيس ، حلت الرواية محل الدراما صوتا ومرآة لانجلترة .

أما القصص فكانت قديمة قدم الكتـــابة . فللهنـــد حكاياتهـــا وخرافاتها ؛ واليهودية ضمنت أدبها اساطير لراعوث واســتير وأيوب ؛ واليونان الهلنستية والاقطار المسيحية الوسيطة أخرجــت رومانســيات مغامرة وحب ، وايطالية النهضة أنتجت آلاف « النوفللى movelle " (أى المستحدثات الصغيرة) ، كما فى بوكاتشو وبانديللو ، واسـبانية النهضة وانجلترة الاليزابيثية كتبتا حكايات تشرد لأوغـــاد رائعـــين ، وفرنسة القرن السابع عشر أثقلت الدنيا بقصص حب أطـــول كثيرا من الحب . وقص لساج قصة جيل بلاس ، وجود ديفو حكاية المغامرة بيانا لشجاعة الانسان ؛ وسخر سويفت قصة الرحلات ليسلخ بها جلد البشر .

ولكن اكانت هذه الآثار روايات بمعنانا الحالى ؟ لقد أشــبهت قصص القرن الثامن عشر فى كونها حكايات خيالية ، وامتاز بعضها بميزة الطول الذى لا شك فيه ، وصور بعضها الشخوص بجهد يحاول تجسيد الواقع ؛ ولكنها (ربما باستثناء كروسو) افتقدت الحبـــكة التى تربط بين الاحداث والشـخوص فى كل متطــور . لقـــد كان فى قصـــة « الأورونوكو » للسيدة أفرا بن (١٦٨٨) ، وهى قصة عبد أفريقى ، حبكة رابطة ، وكذلك قصص ديفو « الكبتن سنجلتون » (١٧٢٠) ،

و « مول فلاندرز » (١٧٢٢) ، و « روكسانا » (١٧٢٤) ، ولكن هذه كلها كانت لا تزال سلسلة من الأحداث المترابطة أكثر منها وحدة بنائية يعمل كل جزء فيها على تقديم موضوع يوحد بينهـا . فلمـا ملك رتشردسن وفيلدنج ناصية فن التطوير هذا ، وصورا الشـخصية وهى تنمو خلال الأحداث ، وجعلا رواياتهما تصور العادات فى عصرنا ، كان هذا استهلالا للرواية الحديثة .

١ ـ صموئيل رتشردسن : ١٦٨٩ ـ ١٧٦١

كان الرجل الذى استهل عصر الرواية الجـديدة ابن نجـار من داربيشير انتقل الى لندن عقب مولد صموئيل . وكانت الأسرة ترجو أن تجعل الصبى قسيسا ، ولكن الفقر عافها عن تاهيله التاهيـل المدرسي المطلوب ؛ على أنه وفق فى أن يضمن كتبه شيئا من الوعظ . وكان الوسط الذى شب فيه يحتفظ بالفضيلة البيورتانية . والحق صبيا لطباع ، واعانه اشتهاره بجمال الخط على زيادة دخله بتدبيجه الرسائل للفتيات الأميات اللاتى أضناهن الحب ، وقد قررت هذه المصادفة الشكل الذى اتخـذته رواياته ، اعنى شكل الرسائل ، وما افاضت فيه هذه الروايات من ريادة لسيكولوجية المرأة وسبر لعواطفها . وافاده جده واقتصاده ، فانشا مطبعة خاصة به ، وتزوج ابنة مخدومه السابق (١٧٢١) ، وانجب منها ستة أطفال ، مات منهم خمسة فى حداثتهم . كذلك ماتت أمهم (١٧٣٠) وهى ما تزال صغيرة السن محبوبة ، واعانت هذه الاحزان على خلق مزاجه الذى تغلب عليه الكآبة . وتزوج ثانية ، وانجب سـتة أطفـال آخرين ، واكتوى بمزيد من الاحزان ، ثم ارتقى لوظيفة طباع مجلس العموم . وبلغ الخمسين من عمره قبل أن ينشر كتابا .

وفى ١٧٣٩ كلفه صديقان طباعان بكتابة مجلد صغير من نماذج للرسائل مرشدا « للقراء الريفيين الذين لا قدرة لهـم على التحـرير بأنفسهم » ، ومعلما فى « التفكير والتصرف بصواب وحكمة فى الشئون العادية لحياة الانسان (٧٢) » . وبينما كان رتشردسن يعد هذا الكتاب ـ وهنا اغتنمت العبقرية فرصة الظرف ـ خطر له أن ينسـج سلسلة من الرسائل فى قصة حب تشرح الفضيلة الحكيمة فى بطلتها العذراء . ولعل

الموضوع ، وهو العفة المصونة خلال سلسلة طويلة من المغريات ، قد أوحت به قصة « حياة ماريان » (١٧٤١ — ٤١) التى ألفها الكاتب الفرنسي ماريفو . أيا كان الأمر ، فان رتشردسن أقام فى نوفمبر ١٧٤٠ معلما على طريق الأدب الانجليزى باصداره كتابا فى مجلدين سماه « باملا ، أو الفضيلة التى كوفئت : سلسلة من الرسائل العائلية من آنسة شابة جميلة الى أبويها : منشورا لأول مرة ليربى مبادىء الفضيلة والدين فى عقول الشباب من الجنسين » وراج الكتاب ، وأضاف اليه رتشردسن مجلدين آخرين فى ١٧٤١ ، « باملا فى أسمى حالاتها » ، يقصان فضائلها وحكمتها بعد زواجها .

ومازال نصف القصة الأول طريفا ، لأننا لا نكبر أبدا على استطرافنا لقصص الاغواء — وان كان كل شيء حتى الاغواء يصبح مملا بعد ألف صفحة . ويبدأ التركيز على العاطفة فى الصفحة الأولى ، حيث تكتب باملا « أواه ! لكم تذرف عيناى الدمع مدرارا ! لا تعجبا اذا رأيتما الورق شديد التلوث » . وهى مثال الطيبة والتهذيب والتواضع . فلما أرسلت خارج الأسرة لكى « تخدم » وهى فى السادسة عشرة حولت لأبويها أول ما كسبت من مال « لأن العناية الالهية لن تتركنى فى عوز ... فاذا حصلت على المزيد فانى واثقة بأنه من واجبى ، وسيكون موضع اهتمامى أن أحبكما وأعتز بكما ، لأنكما أحببتمانى واعتززتما بى حين لم كن أقوى على صنع شيء لنفسي (٧٣) » . أما الأبوان الحذران فيرفضان انفاق المال حتى يطمئنا الى أنه ليس عربونا يدفعه مخدومها الأعزب لوصالها . وينبهانها الى أن جمالها يعرض عفتها للخطر « اننا نخاف — نعم ، يا بنيتى العزيزة ، اننا نخاف — لئلا تشتطى فى عرفان الجميل ، فتكافئيه بتلك الجوهرة ، بفضيلتك ، التى لا يستطيع مال ... أن يعوضك عنها » . فتعدهما بأن تكون حذرة وتضيف « ما أجمل فعل الخير ! انه كل ما أحسد عليه العظماء » . وعواطفها جديرة بالاعجاب وان فقدت بعض فتنتها لأنها تصرح بها . وفى مأساة متفاقمة يدخل مخدومها مخدعها دون التمهيد الواجب ، ويضمها الى صدره المضطرب . فيغشى عليها ، وتفسد خطته . فلما أفاقت « وضعت يدى على فمه وقلت : أواه ! قل لى ، ولكن لا تقل لى ، ماذا عانيت أنا فى هذه المحنة ؟ (٧٤) » . فيؤكد لها أن مقاصده

أخفقت . واذ تقدر ما ينطوى عليه اشتهاؤه لها من تحية ، تتعلم شيئا فشيئا أن تحبه ، وتعد المراحل التى تتدرج فيها عاطفتها من الخوف الى الحب ، لمسة من اللمسات الرقيقة الكثيرة التى تدعم شهرة رتشردسن كاتبا سيكولوجيا . على أنها تقاوم كل حصاراته رغم ذلك ، وينتهى به الحال الى الانهيار ، فيعرض عليها الزواج . واذ أسعد باملا انها انقذت فضيلتها وروحه ، فانها تعتزم أن تكون زوجة انجليزية مثالية : تلزم بيتها ، وتتجنب الحفلات الفخمة ، وتمسك حسابات الأسرة بعناية ، وتوزع الصدقات ، وتطهو الهلام والكعك والحلوى والفاكهة المحفوظة ، وتكون شاكرة اذا تفضل عليها زوجها بالحديث معها بين الحين والحين هابطا السلم الطبقى اليها . ويختتم رتشردسن المجلد الثانى بعظة فى فوائد الفضيلة فى المساومة بين الجنسين ، « ان ناشر هذه الصفحات سيحقق هدفه اذا أوحت (فضيلة باملا) بالقدوة المحمودة فى عقول أى أشخاص افاضل ، قد يكتسبون بهذا حقا فيما نالته باملا عن جدارة من أسباب الثواب والثناء والبركة » .

واضحك هذا بعض الانجليز ، مثل فيلدنج القوى الصب ، ولكن آلافا مؤلفة من قراء الطبقة الوسطى شاركوا باملا خفقات قلبهـــا فى تعاطف . وأطرى رجال الدين الكتاب ، وقد سرهم أن يجدوا مثل هذه الدعامات لعظاتهم فى أدب بدا أنه باع نفســـه لرئيس الشـــياطين (بعلزبول) . ونفدت اربع طبعات من باملا فى ستة أشهر . وبالطبع حث الناشرون رتشردسن على مزيد من التنقيب فى هذا المنجم الغنى ، ولكنه لم يكن بالكاتب المرتزق ، ثم ان صحته بدأت تعتل . فتريث ، ومضى فى أعماله الطباعية . ولم يخرج رائعته التاليـــة التى جاءته بأوربا البورجوازية كلها عند قدميه الا عام ١٧٤٧ .

وقد صدرت هذه الرائعة ، واسمها « كلاريسا ، أو تاريخ شابة » وطولها الفا صفحة ، فى سبعة مجلدات ، ما بين نوفمبر ١٧٤٧ وديسمبر ١٧٤٨ . وكان قد ساءه اتهامه بأن قصة باملا أظهرت الفضيلة مجـــرد خطة للمساومة ، وانها صورت فاسقا صلحت حـــاله تصـــويرها لزوج صالح ، لذلك عمد الى اظهار الفضيلة هبة الهية سوف تثاب فى السماء ، واظهار فاسق سادر فى غيه مقضيا عليه لا محالة بنهاية سيئة مدمرة ،

وخلاصة القصة ان لفلبس الطائش الذى اشتهر بانه شيطان مع النساء ، يطلب يد كلاريسا هارلو ، فلا تثق به ، ولكنها مفتونة أشد الفتنة بشهرته . وتحظر عليها أسرتها لقاء وغد كهذا وتغلق ابوابها فى وجهه ، وتعرض عليها مستر سومز ، وهو رجل لا رذائل فيه ولا شخصية ؛ فترفضه ؛ ولكى يكرهوها على الاذعان يوبخونها ويعذبونها ويحبسونها . ويستأجر لفليس مساعدا ليزيف هجوما مسلحا عليها من اقاربها ؛ ولكى تفر منهم تسمح له بخطفها الى سانت البانس . وهى راغبة فى الزواج منه ، ولكنه يرى فى هذا مغامرة يائسة جدا . فيكتب لصديق له :

« ... كنت أصمم على الزواج لولا هذا الاعتبار ، وهو أننى متى تزوجت مرة أصبحت متزوجا مدى الحياة . تلك هى المصيبة ! لو أن الرجل استطاع أن يفعل كما تفعل الطير ويغير (زوجاته) كل عيد من اعياد القديس فالنتين .. لما كان فى الأمر باس على الاطلاق ... وتغيير كهذا سيكون وسيلة للقضاء على .. أربع أو خمس كبائر فظيعة : هتك العرض ، الذى يطلق عليه هذه التسمية السوقية ، والخيانة الزوجية ، والزنا ؛ كذلك لن يلهث الرجل وراء تعدد الزوجات ، وستمتنع كثيرا جرائم القتل والمبارزة ، ولن يسمع الناس بشيء اسمه الغيرة (وهى العلة فى أعمال العنف المفزعة) ... ولن تكون هناك امرأة عاقر ... فكلا الجنسين سيحتمل الاخر ، لأن فى استطاعتهما ان يرعى كل منهما مصلحته بعد بضعة أشهر ... وستزدحم الصحف بفقرات .. .. تعنى بتعارف المحبين . عندها الن يكون التميز جميلا جدا يا جاك ؟ تماما كما فى الزهور ، فهذا السيد ، أو هذه السيدة ، اما موسمى (أو موسمية) ، واما مستديم (أو مستديمة) (٧٥) » .

ويحاول اغواء كلاريسا ، فتنذره بانها قاتلة نفسها ان لمسها ، فيحبسها حبسا خسيسا وان تلطف معها فيه ، وترسل خلاله الرسائل المفعمة حزنا لآنا هاو ، صديقتها التى تأتمنها على سرها . أما هو فيخترع الحيلة تلو الحيلة ليخترق معاقل دفاعها ، فتقاومه ، ولكنها

ترى أن عرضها تلوث تلوثا لا برء منه لانها قبلت نصف قبول أن تهرب معه . وتكتب الرسائل الأليمة لأبيها ضارعة اليه أن يغفر لهـــا بل أن يسحب اللعنة التى استمطرها عليها ، والتى تعتقد انها ســـتقفل فى وجهها أبواب الجنة الى الأبد ، ولكنه يأبى ، فتصيبها علة مدمـــرة لا يسندها فيها غير ايمانها . أما لفليس فيختفى فى فرنسا ويقتل فى مبارزة بيد عم كلاربسا ، واخيرا ياتى أبواها عارضين عليها المغفرة ، فيجدانها ميتة .

انها قصة بسيطة ، طال عزفها على نغمة واحدة طولا لا يمكن ان يشد عقولنا المحمومة ، ولكنها أصبحت فى انجلترة القرن الثامن عشر مثار خلاف قومى . فكتب مئات من القــراء الى رتشردسن فى فترات النشر يتوسلون اليه الا يدع كلاريسا تموت (٧٦) . ووصف أحد الآباء بناته الثلاث بأنهن « فى هذه اللحظة تمسك كل منهن بمجلدها الخاص (من كلاريسا) ، وعيونهن كلها بللها الدمع كأنها زهرة مخضلة فى الربيع (٧٧) » . أما الليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، التى بلغت غاية ما تبلغ نساء عصرها الانجليزيات من علم وثقافة ، فقد تقبلت الكتاب على أنه استرضاء لعواطف الطبقة الوسطى وحماسة الجماهير ، ولكنــه آذى ذوقها الارستقراطى . قالت :

« كنت تلك الحمقاء العجوز التى بكت على كلاريسا هارلو كمـــا تبكى أى بائعة لبن فى السادسة عشرة لسماعها اغنية « سقوط السيدة » الشعبية . والحق أن المجلدات الأولى الاثنتى بما حوت من شبه كبير بأيام صباى ، ولكن الكتاب فى جملته بضاعة غثة ... ان كلاريسا تتبع قاعدة الافضاء بكل افكارها لكل من تراه ، وقد غاب عنهـــا أن أوراق التين فى وضعنا البشرى الشديد النقص لازمة لعقولنا لزومها لاجسامنا ، وليس من اللياقة أن نعرض كل أفكارنا ، تماما كما أنه ليس من اللياقة أن نعرض كل أبداننا (٧٨) » .

والحت نساء انجلترة الآن على رتشردسن المنتصر فى أن يصـــور لهن رجلا مثاليا كما صور المرأة المثالية ــ فى ظنهن ــ فى باملا . فتردد أمام هذه المهمة الشائكة ، ولكن حفزه اليها هجو فيلدنج لباملا فى روايته

« جوزف أندروز » ، كما حفزته اللوحة الكاملة المفصلة التى رسمها فيلدنج لرجل فى روايته « توم جونز » ، وعليه فقد أخرج بين نوفمبر ١٧٥٣ ومارس ١٧٥٤ ، فى مجلدات سبعة ، « قصة السر تشارلز جراندیسن » . ومزاج عصرنا الذى لا يبالى يصعب عليه أن يفهم لم لقيت هذه الرواية الثالثة نجاحا عظيما كما لقيت أختاها من قبل ؛ فانتقاض القرن العشرين على البيورتانية ، وعلى التوفيق الذى حاوله العصر الفكتورى الوسيط ، ختم على قلوبنا فلم تعد ترى صور الطيبة المثالية ، على الاقل فى الذكور ؛ فقد لقينا رجالا طيبين ، ولكن أحدا منهم لم يخل من عيوب تكفر عن طيبته . ولقد حاول رتشردسن أن يجمل السر تشارلز ببعض الهنات ، ولكنا ما زلنا نكره هذه الشقة البعيدة بينه وبيننا . أضف الى ذلك ان الفضيلة تفقد فتنتها اذا عرضت على الانظار . ولقد افلت جرانديسن بالجهد من أن يسلكه صانعه فى زمرة القديسين .

والح رتشردسن على الوعظ الحاحا جعله يسمح لبعض العيوب أن تشوب فنه الادبى . فانعدمت أو كادت الفكاهة والنكتة الذكية عنده ، وأوقعته محاولة حكاية قصة طويلة بالرسائل فى أشياء بعيدة الاحتمال (كتذكر العدد الهائل من الاحاديث) ، ولكنها اتاحت له عرض الاحداث نفسها من مختلف وجهات النظر ، واضفت على الحكاية الفة لا تكاد تتيسر فى شكل اقل ذاتية . وكان مما يتمشي تماما مع العرف فى ذلك العصر أن يكتب الانسان الرسائل الطويلة الحميمة الى من يثق بهم من ذوى القربى أو الاصدقاء . ثم ان طريقة الرسائل هذه افسحت المجال أمام موهبة رتشردسن الكبرى - وهى عرض خلق المرأة . هنا أيضا توجد عيوب . فعلمه بالرجال اقل من علمه بالنساء ، وبالنبلاء اقل من العامة ، وقل أن لقط ما فى النفس الانسانية من تقلبات وتناقضات وتطور - ولكن مئات التفاصيل تدل على ملاحظته الدقيقة للسلوك الانسانى . ففى هذه الروايات ولد القصص السيكولوجى الانجليزى والنزعة الذاتية التى بلغت فى روسو مبلغ الحمى .

وتقبل رتشردسن نجاحه فى تواضع وواصل عمله طباعا ، ولكنه بنى لنفسه بيتا افضل . وكتب رسائل طويلة ضمنها النصائح لدائرة كبيرة من النساء ، كان بعضهن يدعوه « بابا العزيز » - وفى أخريات عمره

دفع ثمن الفكر المركز والفن المسهب حساسية غصبية وأرقا . وفى ٤ يوليو ١٧٦١ قضت عليه اصابة بالفالج .

وكان تاثيره الدولى أعظم من تاثير أى انجليزى اخر فى عصرة باستثناء وسلى وبت الأب . وقد أعان فى وطنه على صوغ المزاج الخلقى لانجلترة جونسن ، وعلى الارتفاع بأخلاقيات البلاط بعد جورج الثانى . وأسهم التراث الخلقى والأدبى الذى خلفه فى تكوين رواية جولدسمث « قسيس ويكفيلد » (١٧٦٦) ورواية جين أوستن « العقل والوجدان » (١٨١١) . أما فى فرنسا فقد عد كاتبا لا ضريب له فى القصة الانجليزية . يقول روسو « لم تكتب قط فى أى لغة رواية نعدل أو حتى تقترب من كلاريسا (٧٩) » . وقد ترجم الأبيه بريفوست رتشردسن ، ومسرح فولتير باملا فى « نانين » وصاغ روسو « هلويز الجديدة » على غرار كلاريسا موضوعا وشكلا وهدفا خلقيا . وارتفع ديدرو الى المناجاة المفرطة الحماسة فى مقاله « تقريظ لرتشردسن » (١٧٦١) ، فقال انه لو أكره على بيع مكتبته لما احتفظ من كتبه كلها الا بهومر ويوربيديس وسوفوكليس ورتشردسن . وفى المانيا ترجم جيلليرت باملا ، وحاكاها ، وبكى تاثرا من جرانديسن (٨٠) ؛ وانتشي كلوبشتوك طربا بكلاريسا ؛ وبنى فيلاند تمثيلية على جرانديسن ؛ وراح الالمان يحجون الى بيت رتشردسن (٨١) . وفى ايطاليا مسرح جولدونى قصة باملا .

واليوم لا يقرأ أحد رتشردسن الا مضطرا بحكم الدرس ، ونحن لا نملك الفراغ الذى يتسع لكتابة رسائل كهذه ، فضلا عن قراءتها ؛ والناموس الاخلاقى الذى يدين به عصر صناعى دارويني يهرب فى ضجر من المحاذير والقيود البيورتانية . ولكنا نعرف أن هذه الروايات مثلت ثورة الوجدان على عبادة الفكر والعقل ، اكثر مما مثله شعر طومسن ، وكولنز ، وجراى ، ونتبين فى رتشردسن الأب - كما تتبين فى روسو البطل - لتلك الحركة الرومانسية التى ستنتصر فى أواخر القرن على صنعة بوب الكلاسيكية وواقعية فيلدنج العارمة .

٤ ـ هنرى فيلدنج : ١٧٠٧ ـ ٥٤

حين قدم الى لندن فى ١٧٢٧ أعجب الناس كلهم بقوامه الفارع ، وبنيته القوية ، ووجهه الوسيم ، وحديثه المرح ، وقلبه المفتوح ؛ فهنا رجل أعدته الطبيعة ليستمتع بالحياة فى كل لذتها وواقعها السيىء السمعة . كان يملك كل شيء الا المال ؛ واذ كان مضطرا ـ على حد قوله ـ الى أن يكون سائقا أجيرا ، أو كويتبا أجيرا ، فانه شد نفسه الى قلم ، واكتسب قوت يومه بكتابة الهزليات والتمثيليات الكاريكاتورية . واستعملت الليدى مارى مونتاجيو ، وهى ابنة خال له من المرتبة الثانية ، نفوذها ليخرج له مسرح دروري لين تمثيلية « الحب وراء اقنعة عديدة » (١٧٢٨) ، وذهبت مرتين لتشهدها معلنة عن نفسها فى تفضل : وفى ١٧٣٢ ساعدت على عرض تمثيلية « زوج عصرى » فترة طويلة . وواصل تاليف المسرحية تلو المسرحية ، وكلها غير ممتاز ، ووقع على عرق من الهجاء المرح فى « مأساة المآسي ، أو حياة وموت توم ثم الكبير » (١٧٣١) .

وفى ١٧٣٤ تزوج شارلوت كرادوك بعد خطبة اتصلت أربع سنين . وورثت عقب زواجهما ١٫٥٠٠ جنيه ، فاخلد فيلدنج معها الى حياة الدعة سيدا من سادة الريف . ووقع فى حب زوجته . وقد وصفها وصف الزوج المفتون بزوجته فى شخص صوفيا وسترن الجميلة فى خفر ، وأميليا بوث التى لا حد لصبرها وأناتها . وتؤكد لنا الليدى بيوت « أن اللغة المشرقة التى عرف كيف يستعملها لم تزد على أن أنصفت محاسن الأصل وجمالها (٨٢) » .

وفى ١٧٣٦ عاد الى لندن وأخرج تمثيليات لا تستحق الذكر ؛ ولكن فى ١٧٣٧ وضع قانون الرخص قيودا على الدراما ، وانسحب فيلدنج من المسرح . ودرس القانون ، وقبل محاميا (١٧٤٠) ؛ وتحول مسار حياته فى ذلك العام بظهور رواية رتشردسن « باملا » . وأثارت فضائل البطلة وخالقها المتعددة كل ما فى فيلدنج من نزوع الى الهجو . و « قصة مغامرات جوزف أندروز وصديقه مستر ابراهام آدمز ، مكتوبة بطريقة سرفانتيس » (١٧٤٢) بدأها تقليدا ساخرا

لباملا . فجوزف ، الذى يقدمه لنا المؤلف على أنه أخو باملا ، فتى طاهر جميل بين الفتيان كباملا بين الفتيات ، تراوده مخدومته المرة بعد المرة كما وقع لباملا ، ويقاوم مثلها ، ويفصل مثلها فى رسائله المحاولات الخبيثة للعدوان على عذريته . ورسالته لأخته باملا رسالة تكاد تكون « رتشردسونية » ، وان لم تكن كذلك تماما :

« اختى العزيزة باملا :

« أرجو أن تكونى بخير ، عنـدى خبر ويا له من خبر أفضي به اليك ! ... لقد وقعت سيدتى فى غرامى - أى ما يسميه عليه القـوم بالوقوع فى الغرام - وفى نيتها أن تدمرنى ، ولكنى أرجو أن يكون لدى من العزم والحصافة ما يعصمنى من التفريط فى عرضي لأى سيدة على ظهر البسيطة .

« لقد طالما أخبرنى المستر آدمز أن العفة فضيلة كبرى فى الرجل كما هى فى المرأة سواء بسواء . وهو يقول انه لم يعرف قط امرأة غير زوجته ، وسأحاول أن اقتدى به . والحق ان الفضـل كله لمواعظـه ونصائحه الممتازة ولرسائلك فى قدرتى على مقاومة اغراء يقـول ان أحدا لا يذعن له الا ندم فى هذه الدنيا وهلك عقابا فى الآخـرة ... ما أجمل النصائح والمثل الطيبة ! ولكنى مسرور لأنهـا طردتنى من مخدعها كما فعلت ، فلقد كدت أنسي مرة كل كلمـة قالهـا لى القس آدمـز .

« ولست أشك يا أختى العزيزة فى أن لك من الحصافة ما تصونين به فضيلتك من كل اغراء ، وأتوسل اليك فى الحاح أن تصـلى لكى يمنحنى الله القوة على صون فضيلتى ، لأنها فى الحق تهاجم هجوما عنيفا من أكثر من امرأة ، ولكنى أرجو أن اقتدى بمثالك ، وبمثـال يوسف الصديق سميى ، فاصون فضيلتى من كل اغراء (٨٣) » .

وينجح جوزف ، ويظل بكرا حتى يتزوج العذراء فانى . اما باملا، التى رفعت درجة فى سلم المجتمع حين تزوجت مخدومهـا الغنى ، فتدين فانى لتجاسرها على الزواج من جوزف ، الذى ارتفعت منزلته

فى المجتمع بزواج باملا برجل من علية القوم . ولام رتشردسن فيلدنج لأنه اقترف « اضافة فاجرة خسيسه » الى باملا (٨٤) .

ولم تشبع شهوة فيلدنج للهجو بتقليده الساخر لرتشردسن ، وراح يحاكى الالياذة محاكاة ساخرة ، بالتضرع الى ربات الفنون والآداب ويجعل كتابه ملحمة . وقد فاض ينبوع فكاهته فى مختلف الشخصيات التى تلقاها جوزف وآدمز فى طريقهما ، لا سيما الفندقى تو - واوز ، الذى تفاجئه المسز تو - واوز متلبسا « بالجرم الفاضح » مع الخادمة بتى ثم نصفح عنه ، و « احتمل فى هدوء ورضى أن يذكر بذنوبه ... مرة أو مرتين كل يوم طوال حياته الباقية » . واذ لم يكن فى طبع فيلدنج أن يصنع بطلا ، ورواية باكملها ، من شاب لا عيب فيه ، فانه سرعان ما فقد اهتمامه بجوزف ، وجعل القس آدمز الشخصية المحورية لكتابه . وقد بدا هذا خيارا بعيد الاحتمال ، لأن آدمز كن قسا سنيا فى اخلاص وصدق ، يحمل معه مخطوطة بمواعظه باحثا عن ناشر متهور . ولكن المؤلف أعطاه « بنية » متينة ، ومعدة قوية ، وقبضتين صلبتين ؛ ومع أن القس يعارض الحرب ، فانه مقاتل كفء يصرع سلسلة من الأوغاد يتعقبونه لسرقة قصته . وهو الى حد بعيد أحب شخص رسمه فيلدنج ، ونحن نشارك لذة المؤلف فى مواجهته مواجهات غريبة مع الخنازير ، والوحل ، والدم . والذين كانوا فى شبابهم يتاثرون تاثرا عميقا بالمثل المسيحى الاعلى ، لا بد يستشعرون المحبة الحارة لرجل دين خلا تماما من الغش وفاضت نفسه برا . ويقابل فيلدنج بينه وبين القس تراليبر الجشع ، الذى كان « من اضخم الرجال الذين يجدر بك أن تراهم ، وكان فى استطاعته أن يقوم بدور المر جون فلستاف دون أن يحشو بدنه (٨٥) » .

وازدهى النجاح فيلدنج ، فاصدر فى ١٧٤٣ ثلاثة مجلدات وضع عليها عنوانا متواضعا هو « منوعات » . وقد احتوى المجلد الثالث على آية من آيات التهكم المتصل فى « حياة المستر جوناثان وايلد العظيم » ولم يكن ترجمة حقيقية للص القرن الثامن عشر الأشهر ، « فان قصتى تروى على الأصح افعالا كان من الجائز أن يقوم بها (٨٦) » . وكان فى شكله الأول سخرية من السر روبرت ولبول لاتجاره فى الأصوات

الانتخابية المسروقة ، فلما مات ولبول أصدره المؤلف من جديد فى صور هجاء « للعظمة » كما درج الناس على تقديرهـا وتحقيقها . وذهب فيلدنج الى أن معظم « عظماء الرجال » أساءوا الى البشر أكثر مما أحسنوا اليهم ؛ وهكذا لقب الاسكندر بالأكبر أو « العظيم » لأنه بعد ان « اجتاح امبراطورية شاسعة بالحديد والنار وأهلك العدد الهائل من البؤساء الذين لا ذنب لهم ، ونشر الخراب والدمار كأنه العاصفة الهوجاء يقال لنا ان من أعمال الشفقة التى تذكر له انه لم يذبح عجـوزا ولم يغتصب بناتها (٨٧) » واللص أحرى بضمير أكثر راحة واطمئنانا من ضمير رجل الدولة ، لأن ضحاياه أقل وغنيمته أضال (٨٨) .

وبأسلوب التراجم السياسية يخلع فيلدنج على جوناثان شجرة نسب رفيعة ، فيرجع بأصله الى « ولفستن وايلد ، الذى قدم مع هنجست ». وكان لأمه صفة غروية فى أصابعها غاية فى العجب (٨٩) . ومنها تعلم جوناثان فن اللصوصية وآدابها . وسرعان ما مكنه ذكاؤه الفائق من تنظيم عصابة من الشبان البواسل الذين كرسوا حياتهم لأراحة الناس الزائدين عن الحاجة من سلعهم الزائدة عن الحاجة ، أو من حياتهم التى لا معنى لها . وكان يصيب حظ الأسد من مكاسـبهم ، ويتخلص من المتمردين من مساعديه بتسليمهم لسلطات القضاء والأمن . وقد أخفق فى اغواء ليتيتيا المطاردة ، التى آثرت أن يعتدى على عرضها مساعده فايربلود ، الذى « اغتصب هذه المخلوقة الجميلة فى دقائق ، أو على الأقل كاد يغتصبها ، لولا أنها منعتـه من ذلك بامتثالهـا فى الوقت المناسب (٩٠) » . وبعدها تزوجت وايلد . وبعد اسبوعين يدخلان فى « حوار زوجى » تشرح فيه حقها الطبيعى فى حياة الفسق ، فيدعوها بالكلبة ، ثم يتبادلان القبل ويتصالحان . ويتصاعد حجم جرائمه أكثر فأكثر حتى يطيب لزوجته أن تراه محكوما عليه بالاعدام . ويرافقـه قسيس الى المشنقة . فينشله وايلد فى الطريق ، ولكنه لا يجد معه سوى فتاحة للقوارير ، لأن الكاهن كان ذواقة للخمـور ، أما « جوناثان العظيم ، فبعد كل مغامراته الجبارة ، كانت خاتمته — التى قل من عظماء الرجال من يستطيعون تحقيقهـا — أن علق من عنقـه حتى مات (٩١) » .

وفى أواخر عام ١٧٤٤ فقد فيلدنج زوجنه ، وكدر موتها مزاجه حتى طهر حزنه بتصويرها تصوير المحب ، خلال أسي البعد ، فى شخص صوفيا واميليا . وبلغ به العرفان بالوفاء الصادق الذى أبدته خادمة زوجته التى بقيت معه لترعى أبناءه أنه تزوجها فى ١٧٤٧ . وكان خلال ذلك يعانى من المرض والعوز ، ثم أنقذه من الفقر تعيينه (١٧٤٨) قاضى صلح لوستمنسنر ، ثم لمدلسكس بعد قليل . وكانت وظيفة شاقه ، ينقد عليها راتبا غير مضمون من رسوم المتقاضين الذين يوافونه فى محكمته بشارع بو . وقد وصف الجنيهات الثلثمائة التى تجمعت له من هذه الوظيفة كل عام بأنها « أقذر نقود على وجه الأرض (٩٢) » .

ولابد أنه كان خلال هذه السنوات الحافلة بالشدائد (١٧٤٤ — ٤٨) عاكفا على أعظم رواياته ، لأنها صدرت فى فبراير ١٧٤٩ فى مجلدات ستة باسم « قصة توم جونز اللقيط » . وهو يروى لنا أن الكتاب ألف فى « بضعة آلاف من الساعات » استنقذها من الفضاء والكتابة المأجورة ، ولم يستطع أحد أن يتبين من فكاهة الكتاب القوية وأدبه الفحل أن هذه كانت سنوات الحزن والنقرس والعوز . ومع ذلك فهاهنا ألف ومائتا صفحة فى رواية يعدها الكثيرون أعظم الروايات الانجليزية . فلم يسبق فى الأدب الانجليزى أن وصف رجل هذا الوصف الكامل الصريح ، بدنا وعقلا وخلقا وشخصية . ويحضرنا فى هذا المجال تلك الكلمات الشهيرة التى قدم بها ثاكرى لقصته « بندنيس » .

« منذ أن وورى مؤلف توم جونز التراب لم يؤذن لروائى منا أن يرسم « رجلا » بأقصي ما يملك من قدرة . فحتم علينا أن نستره وأن نخلع عليه ابتسامة متكلفة تقليدية معينة . والمجتمع مصر على رفض « الطبيعى » فى فننا .. .. وأنت تأبى أن تسمع .. .. ما يتحرك فى دنيا الواقع ، وما يدور فى المجتمع ، وفى الأندية ، والكليات ، وقاعات الطعام — تأبى أن تسمع واقع حياة أبنائك وحديثهم » .

ويطالعنا توم أول ما يطالعنا طفلا غير شرعى وجد فى فراش المستر أولورذى الطاهر النقى . وبين هذه البداية وزواج توم فى النهاية

حشر فيلدنج مائة حدث ، بأسلوب يوهم بانه أسلوب قصص التشرد ذات الفصول المتتابعة فى غير ترابط ، ولكن القارىء سيدهشه ان هو ثابر على القراءة الى النهاية ان يجد أن هذه الاحداث كلها تقريبا ضرورية للحبكة البارعة ، أو لعرض الشخوص وتطويرها ؛ وأن يجد الخيوط تحل والعقد تفك . والعديد من الأشخاص مرسومون فى صورة مثالية ، مثل أولورذى الذى يكاد يشبه جرانديسن ، وبعضهم مبسطون تبسيطا شديدا ، مثل بلايفل الذى يكرهنا على احتقارة ، أو القس ثواكوم ، المربى « الذى سيطرت العصا على أفكاره (٩٣) » . ولكن كثيرا منهم يظهر فيهم ماء الحياة ، ومنهم سكواير وسترن « الذى يعتز ببنادقه وكلابه وخيله (٩٤) » أكثر من أى شيء فى الدنيا ، ثم تأتى زجاجة شرابه ، ثم ابنته صوفيا الفريدة فى بابها . ها هنا « كلاريسا » أخرى تعرف مسالكها بين فخاخ الرجال ، وباملا أخرى تصيد رجلها دون أن تزعجها تجاربه الماضية قبل الزواج .

أما توم ففيه شيء من التحلل الجنسي ، وفيما عدا ذلك فهو أطيب من أن يصلح للبقاء . تبناه أولورذى ، وعلمه ثواكوم وأدبه بعصاه ، فأدرك الرجولة القوية التى لا يكدر صفوها غير الخبثاء الذين يذكرونه بأصله الغامض . وهو يسطو على بستان فاكهة ويسرق بطة ، ولكن أباه بالتبنى يغتفر هذه الألاعيب جريا على أفضل التقاليد الشكسبيرية . وتعجب به صوفيا وهى على بعد عفيف منه ، ولكن توم ، الشاعر بمولده غير الشرعى ، لا يجرؤ اطلاقا على الوقوع فى حب سيدة تبعد عنه هذا البعد السحيق مكانة ومالا وهو يقنع بمولى سيجرم ، ابنة حارس الصيد ، ويعترف بانه ربما كان أبا لطفلها ، ويروح عنه كثيرا أن يجد انه لبس الا واحدا من عديدين يحتمل أن يكون احدهم أبا للطفل . وتعانى صوفيا اذ تعلم بهذا الغرام الاثم ، ولكن اعجابها بتوم لا يفتر الا لحظة عابرة . وهو يمسك بها بين ذراعيه اذ تسقط من جوادها أثناء الصيد ، ويشي احمرار وجهها بشعورها نحوه ، فيسارع الى مطارحتها الغرام . ولكن أباها ، سكواير وسترن ، كان قد هيأ جيبه لصفقة تزويجها من المستر بلايفل ، وهو ابن اخت أولورذى الغنى الذى لم يعقب ، ووريثه الشرعى . وترفض صوفيا الزواج من هذا المنافق الشاب ، ويصر أبوها ، وتكدر المعركة الناشبة بين ارادة الأب

ودموع ابنته عدة مجلدات . أما توم فيبتعد محجما ، ويدعهم يفاجئونه فى أيكة ومولى بين ذراعيه ، وتظهر صوفيا فى هذا المشهد فتقع مغشيا عليها . ويطرد أولورذى توم كارها ، فيبدأ هذا أسفاره الحافلة بالأحداث ، التى بدونها كان عسيرا على فيلدنج أن يكتب رواية ، اذ كان لا يزال مقلدا لسرفانتس ولساج . ويظل قلبه مع صوفيا الكسيرة الخاطر ، ولكنه وقد ظن أنه فقدها الى الأبد ينزلق الى فراش المسز ووترز . وبعد شدائد كثيرة ، وتعقيدات لا تصدق ، يصفح عنه أولورذى ، ويحل محل بلايفل وريثا له ، ويصلح ذات البين مع صوفيا الخجول الصفوح ، ويرحب به سكواير وسترن صهرا له ترحيبا صادقا مع أنه كان قبل أسبوع على أهبة قتله . ويتعجل وسترن الخاتمة الآن فيقول :

« اليها يا بنى ، اليها ، أمض اليها .. هل انتهى كل شيء ؟ هل حددت اليوم يا فتى ؟ ماذا ، أيكون غدا أم بعد غد ؟ لن أرضي بالتأجيل دقيقة أكثر من بعد غد ... يمينا انها لتود من كل قلبها أن تزف الليلة ، أليس كذلك يا صوفى ؟ ... أين بالله أولورذى ؟ اسمع يا أولورذى ، أراهن خمسة جنيهات لكراون أن سيولد لنا صبى بعد تسعة أشهر من غد (٩٥) » .

ان أحدا لم يصف الحياة الانجليزية منذ شكسبير بمثل هذه الخصوبة أو الصراحة . ذلك أن أوصافهم لا تشمل كل جوانب تلك الحياة ؛ ونحن نفتقد فيها الرقة والوفاء والبطولة والمجاملات والعاطفة ـ هذه التى توجد فى أى مجتمع . أما فيلدنج فآثر رجل الغريزة عن رجل الفكر . واحتقر مهذبى الكتب ومطهريها الذين حاولوا فى زمانه أن ينقوا تشوسر وشكسبير ، كما احتقر الشعراء والنقاد الذين ظنوا أن الأدب الجاد يجب ألا يتناول غير علية القوم . وفهم الحب بين الجنسين على أنه حب جسدى ، وأحال نواحيه الأخرى الى دنيا الأوهام . واحتقر جنون المال الذى لحظه فى كل طبقة ، وكره الدجل والنفاق كرها شديدا . ولم يرحم الوعاظ ، ولكنه أحب القس آدمز ، والبطل الوحيد فى « اميليا » هو الدكتور هاريسن ، وهو قس انجليكانى ؛ وكان فيلدنج نفسه يعظ فى كل مناسبة فى رواياته .

وبعد أن نشر توم جونز جرد قلمه لحظة لتناول المشكلات التى

يكابدها فى عمله قاضيا ، وكانت تجربته تواجهه كل يوم بما فى لندن من عنف واجرام ، فاقترح وسائل لتشديد حراسة الأمن العام وتصريف القضاء ، وبفضل جهوده ، وجهود السر جون فيلدنج ، وأخيه لأبيه ، الذى خلفه قاضيا فى شارع بو ، قضي على عصابة بثت الرعب فى لندن، وشنق كل أفرادها تقريبا ، وذكر متفائل فى ١٧٥٧ أن « الشر المسيطر ، شر سرقات الشوارع ، قد قمع كلية تقريبا (٩٦) » .

فى هذه الأثناء كان هنرى قد نشر آخـــر رواياته « أميليـــا » (ديسمبر ١٧٥١) ، انه لم يستطع نسيان زوجته الأولى ، ولقد نسي أى عيوب ربما شابتها ، فاقام الآن لذكراها أثرا صورها فيه الزوجـــة الكاملة لجندى مبذر قصير النظر ، فالكبتن بوث رجل لطيف شجاع كريم ، وهو يعبد زوجته أميليًا ، ولكنه يقامر حتى يتردى فى الدين ، ويبدأ الكتاب بالكبتن فى السجن ، وهو يستغرق مائة صفحة يقص فيها قصته على نزيلة أخرى هى الآنسة ماثيوز ؛ يفصل لها جمال زوجتـــه وتواضعها ووفاءها وحنانها وغير ذلك من صفاتها المثالية ، ثم يقبـــل دعوة الآنسة ماثيوز له أن يشاركها فراشها ، وينفق «أسبوعا كاملا فى هذا الحديث المجرم (٩٧) » ، وفى مشاهد السجن هذه وغيرها من المشاهد اللاحقة ، يفضح فيلدنج ، ربما فى شيء من المغالاة ، نفاق الرجـــال والنساء وفساد الشرطة والقضاء ووحشية السجانين ، ويجد القارىء هنا وصف سجون المدينين التى ستعمر قرنا آخـــر لتثير ســـخط دكنز ، ويستطيع القاضي ثراشر أن يعرف جريمة سجين من لهجته الارلندية ، « يا غلام ، لسانك يشي بذنبك ، فانت ارلندى ، وهذا دائما دليل كاف فى نظرى (٩٨) » ، ويتصاعد عدد الأوعاد مع كل فصل ، حتى تصرخ أميليا لابنائها الذين عضهم الفقر قائلة « سامحونى لاننى أتيت بكم الى هذه الدنيا (٩٩) » .

وأميليا ، مثل جريزلدا ، هى المثل الأعلى للمراة الصبور كمـــا تخيله فيلدنج ، يكسر أنفها فى أحد الفصول الأولى ، ولكن جراحـــة الأنف تصلحه ، وتعود جميلة جمالا يغرى بمحاولة العدوان على عرضها مرة فى كل فصلين تقريبا ، وهى تسلم بقصورها الفكرى عن زوجهـــا وتطيعه فى كل شيء ، الا أنها ترفض الذهاب الى حفلة تنكرية ؛ وتحضر

لحنا دينبا (أوراتوريو) ، ولكنها تتردد فى تعريض نفسها لنظرات العابثين فى فوكسهول . فاذا عاد بوث اليها بعد احدى مغامراته الطائشة وجدها « تؤدى عمل الطاهى باللذة التى تستشعرها سيدة راقية فى ارتداء ثيابها استعدادا لحفلة رقص (١٠٠) » . وتتلقى رسالة من الآنسة مانيوز اللئيمة تشي فيها بخيانة بوث لزوجته فى السجن ، فتمزق الرسالة وتكتم خبرها عن زوجها ، وتظل تحبه رغم كل سكره وقماره وديونه وسجنه ، وتبيع حليها الضئيلة الثمن ، ثم ملابسها ، لتطعمه وتطعم أطفالها . ولا تفت فى عضدها اخطاؤه بقدر ما تفت فيه قسوة الرجال والانظمة التى توقعه فى شباكها . فلقد كان فيلدنج ، شأنه فى ذلك شأن روسو وهلفتيوس ، يرى ان اكثر الناس طيبون بفطرتهم ، وأن ما يفسدهم هو البيئات الشريرة والقوانين السيئة . وعند ثاكرى أن أمليا « اكثر الشخصيات فتنة فى القصص الانجليزى (١٠١) » . ولكن ربما لم تكن سوى حلم زوج . وفى النهاية تصبح اميليا بطبيعة الحال وارثة ، وتعتزل هى وبوث فى ضيعتها ، ويستقيم حال بوث .

أما خاتمة الرواية فلا نكاد نبررها مقدماتها ؛ فبوث يبقي بوث على الدوام . ولقد حاول فيلدنج ان يربط كل عقد حبكته فى وحدة سعيدة ، ولكن خفة يده هنا مكشوفة جدا ، فلقد أدرك التعب هذا الروائى الفحل ، وأثار تقززه جو اللصوص والقتلة الذى أحاط به . كتب بعد أن هزع من اميليا يقول « لن أزعج العالم بعد اليوم بمزيد من أطفالى الذين تلدهم لى ربة الأدب ذاتها » . وفى ينساير ١٧٥٢ بدأ « مجلة كوفنت جاردن » ، وكتب بعض المقالات القوية ، ورد على نقد سمولت ، وصوب طلقه الى روايته « روديك رانـدوم » ، وفى نوفمبر ترك المجلة تموت . وكان شتاء ١٧٥٣ - ٥٤ اقسي من أن يحتمله بدنه الذى هده العمل والاستسقاء والصفراء والربو . وجرب ماء القار الذى نصبح به الأسقف باركلى ، ولكن الاستسقاء استفحل ، وأشار عليه طبيبه بالسفر الى بلد أدفأ . ففى يونيو ١٧٥٤ استقل سفينة تدعى « ملكة البرتغال » مع زوجته وابنته . وفى الطريق كتب « يوميات رحلة الى لشبونة » ، وهى من الطف ما كتب . ومات فى لشبونة فى ٨ أكتوبر ١٧٥٤ ، ودفن هناك فى الجبانة الانجليزية .

فما الذى انجزه ؟ لقد أرسى دعائم رواية السلوك الواقعيـــة ؛ ووصف حياة الطبقات الوسطى الانجليزية وصفا أنصع من أى وصف اتى به مؤرخ ، وفتحت كتبه عالما بأسره . ولكنه لم ينجح مثل هـــذا النجاح مع الطبقات العليا ، وكان عليه أن يقنع فى هذا الميدان ، كما قنع رتشردسن ، بنظرة الدخيل . ولقد عرف من حياة وطنه الجســد خيرا مما عرف الروح ، ومن الحب جسده خيرا مما عرف روحـــه ، وغابت عنه مقومات الخلق الانجليزى الأكثر رهافة وخفاء . ومع ذلك فقد ترك بصمته على سمولت ، وستيرون ، ودكنز ، وثاكرى ؛ لقد كان أبا لهم أجمعين .

٣ ـ طوبياس سمولت : ١٧٢١ ـ ٧١

لم يكن سمولت يحبه ، لأنهما تنافسا على استحسان القراء فى الميدان نفسه . وكان أصغر الرجلين اسكتلنديا وافق هيوم على التحسر لأن انجلترة عاقت الطريق الى فرنسا . ولكن جده كان قد شجع الاتحاد البرلمانى مع انجلترة عمليا (١٧٠٧) ، وكان عضوا فى البرلمـــان المتحد . ومات الأب وطوبياس فى الثانية من عمـــره ، ولكن الأسرة انفقت على تعليم الصبى فى مدرســة دمبرتون الثانوية وفى جامعـــة جلاسجو حيث درس المقررات الممهدة لدراسة الطب . ولكنه بدلا من أن يواصل الدرس حتى يحصل على درجته الطبية أدركته عدوى الكتابة ، وهرع الى لندن وجاريك ، يحمل ماساة ضعيفة ألفها ، ورفضها جاريك . وبعد أن جاع طوبياس فترة قصيرة التحق مساعدا لجراح فى البارجة « كمبرلاند » وأبحر معها (١٧٤٠) فى الحرب التى نشبت مع أسبانيا بسبب « أذن جنكينز » . واشترك فى الهجوم الأخرق على قرطاجنة المواجهة لساحل كولومبيا . وفى جميكا ترك الخدمة ، وهناك التـقى بنانسى لاسيل التى تزوجها عقب عودته (١٧٤٤) الى انجلترة . وسكن بيتا فى داونـج ستريت ومارس الجراحة ، ولكن شهوة الكتابة غلبته ، وكانت تجاربه فى البحرية تطالبه على الأقل بقصة واحدة . لذلك نشر أشهر رواياته فى سنة ١٧٤٨ .

أما هذه الرواية ، واسمها « مغامرات رودريك راندوم » ، فهى

رومانسية التشرم القديمة ، الحافلة بالأحداث الدائرة حول احــــدى الشخصيات . ولم يعترف سمولت بأى فضل لفيلدنج ، ولكنــه اعترف بالفضل الكبير لسرفانتيس ولساج . وقد شده البشر وأفعالهم أكثر ممــا شدته الكتب والألفاظ ، فحشد قصته بالأحداث واضفى عليها نتــانة الأقذار ولون الدماء ، وملأها ناسا تفوح منهم رائحة الشخصية والحديث الفج . وهذه الرواية من أقدم وأفضل مئات الروايات الانجليزية التى كتبت عن البحر . ولكن قبل أن يجند رودريك فى البحرية يختبر - كما اختبر صانعه - عينات من الفنادق الانجليزية والأخلاق اللندنية . وما أكثر ما افتقدناه لأننا لم نجرب السفر فى مركبات القرن التــامن عشر تلك والنزول فى تلك الفنادق ! - مسرح حافل بالأنفس المصطرعة والجنود المحتضرين ، والقوادين والمومسات ، والباعة الجوالين يحملون حزمهم ويخفون نقودهم ، والرجال يقلبون المباول بحثا عن الفراش الخطا ، والنساء يصرخن مستغيثات من مغتصب ثم تسكتهن النقود ، وكل صعلوك يتظاهر بالعظمة ، وكل انسان يسب ويشتم . فالآنسة جنى تخاطب البائع الجوال قائلة « أنت أيها الفاسق العريق فى الزنا مائة فى المائة » وتسال الكبتن « لعنك الله يا سيدى ، من أنت ؟ ومن جعلك كبتنا أيها المتملق ، القواد ، كناس الخنادق الحقير ؟ تبا لك ! وويل للجيش اذا كان أمثالك من ضباطه (١٠٢) » .

وفى لندن يصبح رودريك (وهو هنا = ســمولت) مســاعدا لصيدلانى . ويفلت من الزواج حين يجد خطيبته فى الفراش مع رجل آخر . « لقد أعطتنى السماء من الصبر وحضــور الذهـــن ما جعلنى انسحب فورا ، وشكرت حظى الف مرة على هذا الكشف السعيد الذى عولت على الافادة منه فاكف عن كل تفكير فى الزواج مستقبلا (١٠٣) » وهو يقنع بحياة الفسق ، ويطلع على حياة البغايا وبلاويهن ، ويعالج امراضهن ، ويندد بالدجاجلة الذين يبتزون مالهــن ، ويلاحظ كيــف أن المومس « مع كثرة شكوى الناس من أنها مصدر ازعــاج تفلت من العقاب بفضل مالها من نفوذ على القضاة ، الذين تدفع لهم هى وجميع من يعملن فى خدمتها تبرعات ربع سنوية لقاء حمايتهن (١٠٤) » .

ثم يفقد وظيفته لاتهامه باطلا بالسرقة ، ويتردى فى مهاوى الفاقة حتى « لم أجد ملجأ الوذ به غير الجيش والبحرية » . ويعقبــه من

عذاب اتخاذ القرار عصابة لجمع المجندين بالقوة ، تصرعه على الأرض فاقد الوعى وتجره الى متن سفينة صاحب الجلالة « ثندر » . ويستسلم لمصيره ، ويصبح ضابطا جراحا . وبعد يوم واحد فى البحر يدرك أن الكبتن أوكم ليس الا وحشا نصف مجنون ، يلزم البحارة المرضي بالعمل ضنا منه بالمال حتى يموتوا . ويقاتل رودريك فى قرطاجنة وتتحطم به السفينة ، فيسبح الى بر جميكا ، ويصبح خادما لشـاعرة عجـوز عليلة ، ويقع « فى حب » ابنة أخيها نارسيسا ، « وداعبته الاحلام بانه سيستمتع يوما ما بهذه المخلوقة اللطيفة (١٠٥) » . وهكذا نجـرى القصة فى تدفق سمولت اللاهث ، بفقرات تتصل الواحدة منهـا ثلاث صفحات ، فى لغة بسيطة قوية بذيئة . وفي لندن يصـادق رودريك مجوعة جديدة من الأصدقاء الغريبى الأطوار ، بما فيهـم الآنسـة ميلندا جوستراب والآنسة بدى جرايبويل . ثم بمضي الى باث بمـزيد من مناظر مركبات السفر ؛ هناك يلتقى بنارسيسا الحـلوة ويظفـر بمحبتها له ، ثم يفقدها ، ويشتبك فى مبارزة ... ويعود الى البحرية جراحا ، ويبحر الى غينيا (حيث « يشترى » قبطان سفينة أربعمائة عبد ليبيعهم فى بارجواى « بربح كبير ») ، ثم يعود الى جميكا ، حيث يجد أباه الذى فقده منذ أمد طويل وأصبح الآن ميسور الحال ، ويعود الى أوربا ثم الى نارسيسا ، فيتزوجان ويعود بها الى اسكتلنده وضيعة أبيه ؛ أما نرسيسا « فيبدأ خصرها يستدير بشكل ملحوظ » . وأما رودريك :

« فاذا كان على الأرض شيء يسمى السعادة الحقة فانى استمتع بها . لقد سكتت الآن اضطرابات عاطفتى العاصفة ولانت فى حنان الحب وهدوئه ، بعد ان رسخ جذورها ذلك الاتصال الحميم والتعاطف القلبى الذى لا يجود به غير رباط الزوجية الطاهر » .

وراجت رواية رودريك راندوم . وأصر سـمولت الآن على نشر مسرحيته « قاتل الملك » مشفوعة بمقدمة محق فيها أولئك الذين رفضوها من قبل ؛ وقد دأب على أن يطلق العنان لطبعه الحاد فى خلق الأعداء . وذهب الى أبردين فى ١٧٥٠ وتسلم درجة الطب ، ولكن شخصيته كانت عقبة فى طريق مارسته الطب ، فانكفا الى الأدب . وفى ١٧٥١ أصـدر « مغامرات بريجرين بيكل » . وهنا ، كما فى راندوم ، دعا العنوان

القارىء لجولة من الأحداث المثيرة فى حياة جوابة ؛ ولكن سمولت وقع الآن على عرق من الفكاهة اللاذعة فى أنجح شخوصه ، ذلك هو الكومودور ترنيون ، الذى يصفه بانه « سيد من طراز غاية فى الغرابة» كان « مقاتلا مغوارا فى زمانه ، وفقد عينا وعقبا فى الخدمة العسكرية (١٠٦) » وهو يصر على أن يقص للمرة التاسعة كيف قصف بالمدافع بارجة فرنسية تجاه رأس فنستير . ويأمر خادمه توم بابير بان يؤمن على كلامه ، وهنا « فتح توم فمه كانه سمكة « قد » لاهثة ، وبايقاع أشبه بعصف الريح الشرقية تصفر فى شق » فاه بالتاييد المطلوب (وقد رأى فيه ستيرن هذا آثارا طفيفة من العم توبى والجاويش تريم) .

ويواصل سمولت مرحه خلال وصف صاخب لمسز جريزل وهى تخطب ود الكومودور الذى يتوسل اليه مساعده، ذو الساق الواحدة ، جاك هانشواى ، الا يسمح لها بان « تجره تحت مؤخر سفينتها » لأنها « متى احكمت وثاقك الى مؤخرها ، انطلقت والله حثيثا ، وجعلت كل عرق من عروق جسدك ينشق من الشد » . ويطمئنه الكومدور قائلا « لن يرى انسان هوسر ترنيون طريحا فى مؤخر السفينة فى ذيل اى - فى العالم المسيحى (١٠٧) » على أن مختلف الخطط والمكائد تحطم عفته ؛ فيوافق على أن « يثبت مركبه بمرساة » أى يتزوج ، ولكنه يمضي الى رباط الزوجية « كمجرم ماض الى اعدامه ... وكانه يخشي فى كل لحظة من تحلل عناصر الطبيعة » . ويصر على أن يكون فراش زواجه أرجوحة شبكية ، فتنهار تحت ثقل الجسدين ، ولكن هذا لم يقع الا بعد أن « ظنت السيدة أن هدفها العظيم قد تحقق ، وسلطانها اصبح مكفولا أمام جميع صدمات الحظ » . على أن هذا التلاحم بين جسدين ينتهى بغير ثمر ، فتنكفىء المسز ترنيون الى البرندى و « فروض الدين التى راحت تؤديها بصرامة تفيض حقدا » .

وقد صور السر ولتر سكوت سمولت فى اربعيناته بانه « وسيم جدا ، جذاب الملامح ، وحديثه - بشهادة كل أصدقائه الباقين على قيد الحياة - منير ومسل الى أبعد حد (١٠٨) » . وأجمع الناس على أنه رجل حاد الطبع فى حديثه . قال يصف السر تشارلز نولز انه « اميرال بغير ارادة ، ومهندس بغير معرفة ، وضابط بغير عزيمة ، ورجل بغير

السجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها مائة جنيه (١٧٥٧) . على أن حدة طبعه كانت ترافقها فضائل كثيرة ، فقد كان كريما رحيما ، أعان فقراء المؤلفين ، وأصبح كما قال السر ولتر « أبا شديد التعلق بأبنائه ، وزوجا محبا لزوجته (١١٠) » . وكان منزله فى لورنس لين بحى تشلسي ملتقى لصغار الكتاب الذين كانوا يصيبون من طعـــامه وان لم يتبعوا نصائحه ؛ وقد نظم بعضهم فى فرقة من المســـاعدين الأدبيين . وكان رائدا بين الناشرين (ودرايدن بين الشعراء) ؟) فى الزامه تجـــار الكتب بتاييده فى شرط يليق بعبقريته . وكان أحيانا يكسب ســتمائة جنيه فى العام ، ولكن كان عليه أن يكد ويكدح ليكسبها . وكتب ثلاث روايات أخرى ، اثنتان منها لا تستحقان الذكر . واقنع جاريك بان يخرج تمثيليته « العقاب » ، التى نجحت بفضل هجماتها على فرنسا ؛ ثم كتب لعدة مجلات مقالات تتسم بروح التحرش والمشاكسة ؛ ورأس تحرير صحيفة «البريطانى» لسان حال المحافظين . وترجم جيل بلاسي، وعدة مؤلفات لفولتير ، ودون كخوته (مستعينا بترجمة سابقة) ، وكتب — أو أشرف على كتابة — تاريخ لانجلترة من تســـعة مجلدات (١٧٥٧ — ٦٥) . ومن المؤكد أنه استخدم « مصنعه الأدبى » المؤلف من الكتاب المأجورين فى جراب ستريت ليصنف « تاريخا للعـــالم » وكتابا ذا ثمانية مجلدات اسمه « الحالة الراهنة للأمم » .

وحين بلغ الثانية والأربعين عام ١٧٦٣ ، كان قد دفع باعتلال صحته ثمن حياته المتطلعة ، الحافلة بالمغامرة والجهد والشجار والكلام. ونصحه طبيبه بان يستشير اخصائيا فى مونبلييه يدعى الدكتور فيز . فمضي اليه ، واخبره الاخصائى أن ربوه ، وسعاله ، وبصاقه الصديدى ، دليل على اصابته بالسل ، واذ كره العودة الى رطوبة انجلترة وخضرتها، فقد ظل عامين فى القارة ، يغطى نفقاته بكتابة « رحلات فى فرنسا وايطاليا » (١٧٦٦) ، وقد أبدى هنا ، كما أبدى فى رواياته ، تلك النظرة الحادة اللماحة التى ترى سمات خلق الأفراد والأمم ومميزاته ؛ ولكنه تبل أوصافه بالشتائم الصريحة . واخبر سائقى مركبات السفر ، وزملاءه المسافرين ، وأصحاب الفنادق ، والخدم ، والأجانب المتحمسين لأوطانهم ، رأيه فيهم دون مواربة ؛ واعترض على كل فاتورة حساب ، وحطم الفن الفرنسي والايطالى ، وسخر من الكاثوليكية ، وحـــكم على

الفرنسيين بأنهم لصوص جشعون لا يغلفون دائما سرقاتهم بغـــلاف من الأدب والكياسة . استمع اليه يقول :

« لو أن فرنسيا أدخل الى أسرتك .. لكان أول رد له على مجاملاتك أن يطارح زوجتك الغرام اذا كانت جميلة ؛ والا فأختك ، أو ابنتك ، أو ابنة أخيك أو أختك ... او جدتك ... فاذا كشف أمره ... صرح فى صفاقة بأن ما صنعه لم يكن سوى تودد لا غبار عليه ، مما يعد فى فرنسا من مقومات التربية الحسنة (١١١) » .

وعاد سمولت الى انجلترة وقد تحسنت صحته كثيرا . ولكن علته عاودته فى ١٧٦٨ ، فحاول الاستشفاء فى باث . غير انه وجد مياههـــا عديمة الجدوى له ، وهواءها الرطب خطرا عليه ؛ وفى ١٧٦٩ عاد الى ايطاليا . وفى فيللا قرب لجهورن كتب آخر كتبه وأفضلها وهو « رحلة همفرى كلنكر » وفى رأى ثاكرى أنه « أفكه قصة كتبت منذ بدأ ذلك الفن الجميل ، فن كتابة الروايات (١١٢) » . وهو ولا شك أمتع وألطف كتب سمولت اذا استطعنا أن نطيق شيئا من القذر . وفى مطلع القصـــة تقريبا نلتقى بالدكتور - الذى يتحـــدث عن الروائح « الطيبة » أو « الخبيثة » باعتبارها ميولا ذاتية خالصة « لأن كل شخص يزعم أنه يتقزز من رائحة افرازات شخص آخر يستنشق رائحة افرازاته هو برضا تام ، وقد ناشد جميع الحاضرين من السيدات والسادة هناك أن يشهدوا على صدق قوله (١١٣) » ، ويلى ذلك صفحة أو اثنتان من شروح أشد لذعا وحرافة حتى من هذه . وبعد أن تخفف سمولت من هذه اللقمة ، عمد الى اختراع سلسلة مرحة من الشخوص ، يواصلون الحكاية بخطاباتهم فى أسلوب غاية فى العجب والامتاع ، وعلى رأسهم ماثيو برامبل وهو « سيد عجوز » وعزب عصي ، ينطقه ســمولت بآرائه . وهو يذهب الى باث للاستشفاء ، ولكنه يجد خبث رائحة مياهها أشد وقعـــا فى نفسه من قوتها الشافيه . وهو يكره زحام الجمــاهير ، ويغمى عليـــه مرة من رائحتهم المتجمعه ، ولا يطيق هواء لندن الملوث ، أو أطعمتها المغشوشة . يقول :

« ان الخبز الذى آكله فى لندن عجين مؤذ اختلط به الجير والشب

ورماد العظام ؛ غث المذاق مدمر للجسم . ولا يجهل القـوم الطيبون هذا الغش لكنهم يفضلونه على الخبز الصحى ، لانه اكثر بياضا ... وهكذا يضحون بمذاقهم وصحتهم ... والطحان او الخباز مضطر الى تسميمهم ... ومثل هذا الفساد الشديد يظهر فى لحم العجول الذى ياكلونه ، والذى يبيضون لونه باستنزاف دمه مرارا وتكرارا ، وبغير هذا من الوسائل الخبيثة ؛ وقياسا على هذا يصح للمرء أن يتناول غذاءه بمثل هذا الاطمئنان من قطعة محمرة من قفاز جلد الماعز .. .. ولن تصدقوا أن الجنون بلغ بهم أن يسلقوا خضرهم ومعها قطع نحاسـية من نصف البنس لينضروا لونها (١١٤) » .

وعليه يهرع ماثيو عائدا الى ضيعته الريفية ، حيث يستطيع أن يتنفس وياكل دون أن يعرض حياته للخطر . وفى طريقه اليها ، بعد أن انتهى ربع القصة ، يلتقط غلاما ريفيا فقيرا فى أسمال بالية يدعى همفرى كلنكر « كانت نظراته تنبىء بالجوع ، ولم تكد الخرق التى يلبسها تستر ما تقتضي اللياقة اخفاءه » . ويعرض هذا الصعلوك أن يسوق العربة ، ولكن حين يتربع على مقعد السائق العالى تنشق سراويله العتيقة ، وتشكو المسز طابيثا برامبل (اخت ماثيو) من أن همفرى « جرؤ على أن يؤذى بصرها بابداء أردافه العارية » . ويكسو ماثيو الصبى ، ويلحقه بخدمته ، ويحتمله بصبر حتى حين يصـبح الفتى واعظا مثوديا عقب سماعه جورج هوايتفيلد .

ويبدو جانب آخر من الموقف الدينى فى المستر - الذى يقـابله برامبل فى سكاربرو ، والذى يفاخر بانه تحدث الى فولتير فى جنيف « عن تسديد اللطمة القاضية للخرافة المسيحية (١١٥) » ويدخل خارجى آخر اسمه الكبتن لزماها جو القصة فى درم - « رجل طويل هزيل ، يتفق مظهره هو وحصانه مع وصف دون كخـوته ممتطيـا جـواده روزنانتى » . وقد عاش بين هنود آمريكا الشمالية ، وهو يقص فى لذة كيف أن هؤلاء الهنود قد شووا على النار مرسلين فرنسيين لقولهما ان الله سمح لابنه « ان يدخل أحشاء امرأة ، ويعدم كما يعدم المجرمون »، ولانهما زعما انهما يستطيعان « تكثير الله الى مالا نهاية بالاستعانة بقليل من الدقيق والماء » وكان لزماهاجو « يكثر استعمال الفاظ مثل

العقل ، والفلسفة ، وتناقض الحدود ! وقد أنكر خلود نار الجحيم ، بل قذف ببعض مفرقعاته عقيدة خلود الروح قذفا شيط شوارب ايمان السيدة طابيثا قليلا (١١٦) » .

ولم يكتب لسمولت أن يرى « همفرى كلنكر » مطبوعة . ففى ١٧ سبتمبر ١٧٧١ مات فى فيللته الايطالية غير متجاوز الخمسين ، بعد أن خلق من الأعداء والشخصيات الحية أكثر مما خلقه أى كاتب آخر فى زمانه . ونحن نفتقد فيه ما نجده فى فيلدنج من ابتهاج وتقبل صحى للحياة وبناء للحبكة فيه جهد وعناية ، غير أن فى سمولت حيوية عارمة ، وفيه رنين ورائحة مدن بريطانيا ومراكبها وطبقتها الوسطى ، وحكايته ذات الأحداث المترابطة البسيطة تتدفق بحرية وحيوية أكثر دون أن يعوقها عائق من المواعظ .. ورسم الشخوص أقل لفتا للنظر فى فيلدنج ، ولكنه أكثر تعقيدا . وكثيرا ما يقنع سمولت بتكديس السمات المميزة للأفراد بدلا من ارتياده للتناقضات والشكوك والتجارب التى تصنع الشخصية . وهذا الأسلوب فى تمييز الأفراد ـ بالمبالغة فى خصيصة ما باعتبارها « لازمة » فى كل شخص ـ انتقل الى دكنز ، الذى واصل بمذكرات بكوك الرحلة التى بدأها ماثيو برامبل .

هؤلاء الكتاب ـ رتشردسن وفيلدنج وسمولت ـ اذا أخذناهم معا ، وجدناهم يصفون انجلترة منتصف القرن الثامن عشر وصفا أكمل وأدق من أى وصف أتى به مؤرخ أو جميع المؤرخين ـ الذين يضلون طريقهم وسط الشذوذات . فكل شىء موجود هنا ، اللهم الا تلك الطبقة العليا التى أخذت عن فرنسا عاداتها ومستعمراتها . هؤلاء الروائيون أدخلوا الطبقات الوسطى دخول الظافرين الى ميدان الأدب ، كما أدخلهم ليللو الى الدراما ، وجاى الى الاوبرا ، وهوجارث الى التصوير . لقد خلقوا الرواية الحديثة وتركوها تراثا لا يبارى .

٦ ـ الليدى مارى

بهذا اللقب ألفت انجلترة أن تلقب ألمع الانجليزيات فى جيلها ، المرأة التى دخلت تاريخ الآداب والعادات بهجومها على التقاليد التى حبست جنسها ، ودخلت تاريخ آداب اللغة بكتابتها رسائل تنافس رسائل مدم دسفينييه .

وقد حظيت بظروف مواتية للانطلاق ؛ فهى حفيدة السر جون ايفلين ، وابنه ايفلين بييربونت الذى انتخب عضوا بالبرلمان سنة مولدها (١٦٨٩) ، والذى ورث عقب ذلك ضيعة غنية ولقب ايرل كنجزتن ، ومن هنا لقبت ابنته بـ « ليدى مارى » منذ طفولتها . أما أمها ، الليدى مارى فيلدنج ، فكان أبوها ايرلا ، وابن عمها هو الروائى المعروف . وماتت الأم وبطلتنا لا تتجاوز الرابعة من عمرها . وأرسل الأب أطفاله الى أمه لتكفلهم ، فلما ماتت عادوا الى مقره الريفى المترف ، ثورزبى بارك ، فى مقاطعة نوتنجهامشير ، وكانوا يعيشون أحيانا فى منزله اللندنى فى بيكاديللى . وكان شديد التعلق بمارى التى اختارها « نخبا » (أى شخصا يشرب نخبه) للعام فى نادى الكيت كات؛ هناك كانت تنتقل من حجر الى حجر ، وتبدى ذكاءها فى شيطنة . وقد علمت نفسها فى مكتبة أبيها بمعاونة مربيتها ، فكانتا تنفقان هناك أحيانا ثمانى ساعات فى اليوم ، تستوعبان الرومانسيات الفرنسية ، والتمثيليات الانجليزية . والتقطت بعض الفرنسية والايطالية ، وعلمت نفسها اللاتينية بالاستعانة بـ « تحولات » الشاعر أوفيد .. وكان اديسون وستيل وكونجريف يختلفون الى البيت ، ويشجعونها على الدرس ، ويحفزون ذهنها المتطلع . ونحن نعرف ، من مصدر وحيد هو مصدرها هى ، أن المامها بالاداب اللاتينية هو الذى جذب اليها اهتمام ادورد ورتلى .

وكان حفيدا لادورد مونتاجيو ، أول ايرل لساندوتش ، واتخذ أبوه سدنى مونتاجيو اسم ورتلى عند زواجه بوارثة ذلك اللقب . وكان ادورد حين التقى بمارى (١٧٠٨) — وهو فى الثلاثين — رجلا ذا شان وتطلعات كبيرة ، تزود بتعليم جامعى ، ودعى لاحتراف المحاماة فى الحادية والعشرين ، وظفر بكرسي فى البرلمان وهو فى السابعة والعشرين . وهو لا يدرى كيف بدأ توددها اليه ، ولكن هذا التودد احرز شيئا من التقدم ، لأنها كتبت له فى ٢٨ مارس ١٧١٠ تقول :

« اسمح لى بأن أقول هذا (وأنا عليمة بأن قولى قد يبدو غرورا) ، وهو أنى أعرف كيف أسعد رجلا معقولا ؛ ولكن على ذلك الرجل ... أن يسهم هو نفسه بشىء فى هذا ... وهذه الرسالة ... هى أول رسالة كتبتها فى حياتى لانسان من جنسك ، وستكون الأخيرة . فعليك الا تتوقع رسالة أخرى على الاطلاق (١١٧) » .

وأفلحت استراتيجيتها المثالية . فلما مرضت بالحصبة أرسل اليها رسالة قصيرة كانت آخر مما الف أن يرسل : « كان يفرحنى كثيرا أن اسمع بأن حسنك قد اوذى جدا لو كنت اسر باى شىء يسوءك ، لأن من شأن هذا أن يقلل من عدد المعجبين بك (١١٨) » . ودفع جوابها حملتها خطوة أخرى « انك تظن أننى - لو تزوجتنى - ساهيم بحبك شهرا ، ويجب آخر فى الشهر التالى ، ولكن لن يحدث هذا ولا ذاك . ففى استطاعتى أن أقدر انسانا ، وأن أكون صديقة لانسان ، ولكننى لا أدرى أأستطيع أن أعشق (١١٩) » . ولعل هذه الصراحة جعلته يتريث ، لأنها كتبت فى نوفمبر « تقول انك لم تستقر على رأى بعد ، فدعنى أقرر نيابة عنك ، وأعفيك من مشقة الكتابة ثانية . وداعا الى الأبد ! لا ترد (١٢٠) » . وعادت تكتب فى فبراير ١٧١١ لتقول له « هذه آخر رسالة أبعث بها (١٢١) » . واستأنف تودده اليها ، فتقهقرت ، وأغرته بالمطاردة الحثيثة . وتدخلت الاعتبارات المالية واعتراض الأب ، فدبرا الهرب ، وان كان معنى هذا الا تتوقع مهرا من أبيها . وأنذرت ورتلى انذارا أمينا « فكر الآن لآخر مرة بأى طريقة يجب أن تأخذنى . سأحضر اليك بقميص نومى وتنورتى ، وذلك كل ما ستحصل عليه معى (١٢٢) » والتقيا فى نزل ، وتزوجا فى أغسطس ١٧١٢ ، وبعدها لقبت بالليدى مارى ورتلى مونتاجيو ، هذا الاسم الأخير اتخذته من نسب زوجها ، ولكن لما كان ابنا لابن ثان للأسرة (غير البكر) ، فقد ظل اسمه ادورد ورتلى دون القاب شرف .

وما لبثت دواعى العمل والسياسة أن نقلته الى درم ولندن ، بينما تركها بدخل متواضع جدا فى عدة بيوت فى الريف انتظارا لوصول وليدهما . وفى ابريل لحقت بورتلى فى لندن ، وهناك وُلد طفلهما الأول فى شهر مايو . على أن سعادتها كانت قصيرة الأجل ، فقد رحل زوجها سعيا لاعادة انتخابه فى البرلمان ، وما لبثت أن أخذت تشكو الوحدة ؛ لقد تطلعت الى شهر عسل حالم ، وتطلع هو الى مقعد فى البرلمان الجديد . وأخفقت حملته الغالية التكلفة ، ولكنه عين عضو لجنة صغيرا . واستأجر بيتا قرب قصر سانت جيمس ، وهناك ، فى يناير ١٧١٥ ، بدأت الليدى مارى غزوها للندن .

وقد خبرت فيها دوامة الحياة الاجتماعية . فكانت تستضيف الاصحاب أيام الاثنين ، وتختلف الى الأوبرا أيام الاربعاء ، والى المسرح أيام الخمس . وتزور وتزار ، وترفرف حول بلاط جورج الأول، ومع ذلك ظفرت برضي الأميرة كارولين . وصادقت الشعراء ، وتبادلت النكت الذكية مع بوب وجاى . وافتتن بوب ببديهتها الحاضرة ، ونسي لحظة احتقاره للجنس الأنعم ، وصفق لجهودها فى تعليم البنات ، وأهداها بعض قوافيه التى نظمها فى هرولة :

« فى الحسن أو الذكاء
لم يجسرؤ بشر بعد
ان يشك فى علو كعبك ،
ولكن من الرجال ذوى الفطنة
من رأى ان التسليم لسيدة
فى أمور العلم امر عسير .

ان المدارس الوقحة ،
بقواعدها الغبية البالية ،
انكرت التعليم على الاناث ،
وكذلك ينكر البابويون
على الناس قراءة الكتاب المقدس
مخافة أن تغدو الرعية حكيمة كراعيها .

ان المرأة كانت أول
من ذاق لذة المعرفة
(رغم انها لعنت)
ويجمع الحكماء
على أن القوانين يجب أن تقضي
بالحق لأول مالك .
اذن فاستأنفى أيتها السيدة الحسناء
فى جراة ذلك الحق القديم

الذى هو مطلب جنسك كله ؛
واجعلى الرجال يتلقون
على يد حواء ثانية ذكية
معرفة الخير والشر .

ولكن اذا كانت حواء الاولى
قد عوقبت عقابا صارما
لانها لم تقطف غير تفاحة واحدة ،
فاى عقاب جديد
يقضي به عليك ،
يا من سرقت الشجرة كلها بعد أن ذقت حلاوتها (١٢٣) ؟ »

وكتب جاى الآن نشيدا رعويا سماه « التبرج » هجا فيه بعض اعلام لندن تحت أسماء زائفة شفافة . وشاركت الليدى مارى فى هـذه اللعبة . وبمساعدة بوب وجاى نظمت نشيدين رعويين نافست أبياتهما الزوجية البتارة ابيات الشاعرين رشـاقة ولذعـا . ولم تنشر هاتين القصيدتين ، ولكنها سمحت بتداول نسـخ مخطـوطة منهمـا بين الاصدقاء ـ واكتسبت الآن شهرة بأنها قريع بوب بين النساء ، امـرأة تحذق فنون القلم والقوافى والسخرية الموجعة .

على أنها فى ديسمبر ١٧١٥ كابدت لطمة أوجع من سهامها . ذلك أن الجدرى الذى قتل من قبل أخاها هاجمها هجوما قاسيا حتى شاع انها ماتت . وقد نجت من الموت ، ولكن وجهها تشوه ببثور الجدرى ، ورموشها سقطت ، ولم يبق غير عينيها السوداوين النجلاوين اثرا من ذلك الجمال الذى اعتمدت عليه فى دفع زوجها الى الامام . ومع ذلك ظفر ورتلى بالمكافاة ، ففى أبريل ١٧١٦ عين « سفيرا فوق العادة » فى البلاط العثمانى . وابتهجت الليدى مارى ، فلقد حلمت بالشرق مرتعا للاحلام والشعر ، وحتى وهى فى صحبة زوجها قد تجد الرومانس فى الاستانة أو فى الطريق اليها . وكتب لها بوب وقد طاف هذا الحلم

بخياله كذلك ، فى أول يوليو ، رسالة اشرفت على شفا الغرام باسلوب انيق :

« لو خطر لى اننى لن اراك ثانية لقلت هنا أشياء ما كنت لأقولها لشخصك . فما أريد أن اتركك تموتين مخدوعة فى ، أى تذهبين الى الآستانة دون علم بأننى ، بشيء من المبالغة ، وبغاية التعقل أيضا ، يا سيدتى » .

ثم وقع بالتحية المنمقة المالوفة ، تحية العبد الخاضع المطيع (١٢٤) .

وفى اول اغسطس ، عبر ورتلى ومارى وابنهما البالغ ثلاث سنين ورهط من الخدم والحشم البحر الى هولندة . ومروا بكولونيا الى ريجنزبرج ، حيث ابحروا على ذهبية يجذف فيها اثنا عشر ملاحا مرورا بقمم جبلية تعلوها القلاع . وفى فيينا وجدت رسالة من بوب يقدم فيها قلبه ويؤكد لها :

« لا لأنى أرى فى كل انسان متجرد مشهدا رائعا مثلك انت وقلة اخرى من الناس .. فى وسعك أن تتخيلى بسهولة مبلغ رغبتى فى مراسلة شخص علمنى منذ أمد بعيد ان الاحترام من أول نظرة محال كالحب ، وأفسد على منذ ذلك الحين لذة كل حديث مع احد الجنسين ، وكل صداقة مع الجنس الآخر تقريبا .. لقد فقدت الكتب تاثيرها على ، وآمنت منذ رأيتك أن هناك شيئا اقوى من الفلسفة ، وأن هناك ، منذ سمعتك ، انسانا حيا هو احكم من جميع الحكماء (١٢٥) » .

ولكنه اضاف امله بان تكون سعيدة مع زوجها . وردت عليه قائلة :

« ربما ضحكت منى لشكرى اياك بكل وقار على اهتمامك المتفضل الذى اعربت عنه . ومن المؤكد أنه يحق لى ، أن شئت أن أحمل الأشياء الجميلة التى قلتها لى على محمل الفكاهة والمزاح ، وربما كان حملى

لها على هذا المحمل صوابا . ولكننى لم اكن فى حياتى ميالة ولو نصف ميلي الآن لتصديقك (١٢٦) » .

وفى ٣ فبراير ١٧١٧ بعث لها بوب بتصريح آخر يبوح فيه بحبه العميق ، محتجا على اعتبارها اياه « صديقها فقط » . واحتفظت مارى بهذه الرسائل لنفسها ، سعيدة بأنها حركت حطام أعظم الشعراء الأحياء .

وبلغت الجماعة الآستانة فى مايو . وهناك عكفت مارى على تعلم التركية بعزيمة ماضية ، وبلغت من ذلك مبلغا أتاح لها فهم الشعر التركى والاعجاب به ، واتخذت الثياب التركية ، وزارت النساء فى الحريم ، ووجدتهن أرقى من خليلات جورج الأول . ولاحظت ممارسة التطعيم فى تركيا بشكل منتظم وناجح وقاية من الجدرى ، وطعم الدكتور ميتلاند الجراح الانجليزى فى الآستانة ولدها بناء على طلبها . ورسائلها من تلك المدينة لا تقل فتنة عن اى رسائل فى هذا الجانب من جوانب مدام دسفنييه ، أو هوراس ولبول ، أو ملشيور جريم . ولم تنتظر حتى يخبرها انسان بانها أدب ، فلقد كتبت بهذا التطلع ، وقالت لاصدقائها « أن أحدث اللذات التى صادفتها فى طريقى هى رسائل مدام دسفنييه ، جميلة جدا هذه الرسائل ، ولكنى أؤكد ، دون أدنى غرور ، أن رسائلى لن تقل عنها امتاعا بعد مضي أربعين سنة من الآن . لذلك انصحكم بالا تقذفوا بأى منها فى سلة المهملات (١٢٧) » .

واتصلت رسائلها مع بوب . فتوسل اليها أن تاخذ تاكيداته ماخذ الجد ، ولكن نبرته كانت مزيجا محيرا من المزاح والحب . وقد تصور تركيا فى خياله الشاطح « بلد الغيرة ، حيث لا تتحدث النساء التعسات مع أحد الا الخصيان ، وحيث يؤتى لهن بالطعام - حتى الخيار - مقطعا » . ثم اضاف وهو يفكر فى تشوه جسده محزونا « اننى شخصيا قادر على أن أتبع انسانا أحببته ، لا الى الآستانة فحسب ، بل الى ارجاء الهند التى يقولون لنا أن النساء فيها يعظم حبهن لاقبح الرجال صورة ، ... ويرين فى التشوهات دلائل الرضي الالهى » . ويقول انه سيعتنق الاسلام ان اعتنقته ويصحبها الى مكة ، وأنه لو وجد التشجيع

صدق (١٠٩) » . وأقام عليه الأميرال دعوى القذف ، فكابد سمولت الكافى لالتقى بها فى لمباردية ، « مسرح تلك الغراميات المشهورة بين الأميرة الجنية وقزمها (١٢٨) » . فلما علم أنها عائدة الى أرض الوطن هزه الطرب حتى كاد ينتشي : « أكتب وكأننى ثمل ، فاللذة التى أجدها فى التفكير فى عودتك تطربنى فوق حدود التعقل واللياقة ... تعالى بالله ، تعالى يا ليدى مارى ، تعالى سريعا ! (١٢٩) » .

واخفقت بعثة ورتلى ، ودعى للعودة الى لندن . ونحن نقرأ عينة من أسفار القرن الثامن عشر فى رحيلهم من الآستانة فى ٥ يونيو ١٧١٨ ووصولهم الى لندن فى ١٢ أكتوبر . هناك عاودت الليدى مارى حياتها فى البلاط ومع الأدباء والظرفاء ، ولكن بوب الذى كان الآن عاكفـــا على ترجمة هومر ، كان مشغولا فى ستانتون هاركورت . على أنه انتقل فى مارس ١٧١٩ الى تويكنهام ، وفى يونيو وجد ورتلى والليدى مارى بمعونته بيتا هناك أيضا باعه لهما السر جودفرى نللر . وعقب ذلك دفع بوب لنللر عشرين جنيها ليرسم له صورتها (١٣٠) . وقد أجـــاد نللر رسمها مع أنه كان فى الرابعة والسبعين . فاليدان رائعتان ، والوجه يكاد يكون شرقيا كلباس الرأس التركى ، والشفتان ممتلئتان امتـــلاء شهوانيا ، والعينان نجلاوان سوداوان لا تزالان تخلبان الألباب ــ وقد أشاد بهما جاى فى أبيات فى هذه الفترة . وعلق بوب اللوحة فى حجرة نومه ، وخلدها فى قصيدة بعث بها اليها :

« البسمات اللعوب حول الفم المغمّز ،
وسيماء الجلال والصدق السعيدة ،
ونظير هذا من تألق فى الذهن الرفيع
حيث اجتمعت كل المفاتن والفضائل ،
علم فى تواضع ، وحكمة فى اعتدال ،
عظمة فى غير تكلف ، وذكاء فى غير ادعاء (١٣١) » .

فى ذلك العام بلغ نجمها أوجــه ، وبدأت الكوارث التى ابتليت بها . ذلك أن زائرا فرنسيا يدعى توسان ريمون أودع عندها ألفين من الجنيهات لتستثمرها على الوجه الذى تستصوبه . فاشترت بها أسهما

من شركة بحر الجنوب بناء على نصيحة بوب ، ولكن الأسهم هبطت هبوطا مدمرا ، فأصبح الألفان خمسمائة ، فلما أنهت الأمر الى ريمون اتهمها بسرقة ماله (١٧٢١) . وفى السنة نفسها هدد حياة ابنتها التى ولدتها فى ١٧١٨ وباء جدرى أصابها ، فارسلت فى طلب الدكتور ميتلاند الذى كان قد عاد من الآستانة ، فطعم الفتاة بناء على طلبها . وسنرى فى مكان لاحق تاثير هذا المثل على الطب البريطانى قبل جنر .

وفجاة ، فى سنة ١٧٢٢ ، انهارت صداقتها لبوب . كانا الى شهر يوليو يلتقيان فى كثرة اثارت القيل والقال فى تويكنهـــام . ولكن فى سبتمبر بدأ يكتب الرسائل الودية الى جوديث كوبر ، ذكر فيها على سبيل تعزيتها ، أن هناك اضمحلالا واضحا فى « الملح ذكاء فى العـــالم » . وزعمت الليدى مارى ان بوب قد باح لها بحبه فى حرارة ، وانه لم يغتفر لها قط الاستخفاف الذى قابلت به هذه المغامرة الجريئة (١٣٢) . ولزم الصمت برهة ، ولكنه كان بين الحين والحين يرهف شعره فى مناسبات بسهام يستشفها القارىء بسهولة . ولما كتبت لصديق تذكر أن ســـويفت وبوب وجاى هم الذين اشتركوا فى كتابة قصيدة غنائية شـــعبية ظن الصديق أنها من نظمها ، بعث اليها بوب بتوبيخ حاد ؛ وفى قصـــائده « المنوعات » التى نشرها فى ١٧٢٨ أذاع هذا التوبيخ بوضوح صارخ :

« تلك الاعيبك يا ليدى مارى ،
ولكن ما دمت تفقسين ، فاعترفى بافراخك ،
وكونى أكثر حذقا فى نقراتك ،
فلا تنقرى كبار ديوكك كما تفعلين بصغارها (١٣٣) » .

وفى قصيدة سماها « التقليد » (١٧٣٣) أشار الى « ســـافو الهائجة .. .. التى ابتلاها حبها بمرض ... » وهو يعنى أن عشيقها أصابها بالزهرى (١٣٤) . ويقول هوراس ولبول أنها هددت بأن ترسل اليه من يضربه بالسوط .

وكانت هذه المشاحنة القبيحة ضربة أخرى أعانت على انهيـــار زواجها . ذلك ان ورتلى بعد أن استعاد مكانه فى البرلمان تركها مهملة

انفصالا واضحا فى تويكنهام . وقد جعلة موت ابيه (١٧٢٧) رجـــلا عريض الثراء ، فزودها بحوائجها المادية ، ولكنه تركها لمواردها الخاصة فى شئون الحب . وأخذ ابنها يثبت أنه وغد كسول . أما ابنتهـــا التى غدت امرأة ذكية مهذبة فكانت سلواها الوحيدة . وحاول اللورد هرفى أن يحتل مكان بوب فى حياتها ، ولكن كان فى طبيعة جسمه ما جعله لا يستطيع أن يغتفر لها ، ولا لزوجته ، كونها امرأة . ولابد أنه عرف بتقسيم الليدى مارى النـــوع الانســـانى الى رجـــال ، ونســـاء ، وهرفيين (١٣٥) .

وفى ١٧٣٦ دخل نيزك ايطالى فلكها وغير مساره . ذلك هـــو فرانتشسكو الجاروتى ، الذى ولد بالبندقية فى ١٧١٢ ، وكان قد أثار بعض الضجة فى دنيا العلم والأدب الخالص . وفى ١٧٣٥ كان ضيفا فى بيت فولتير ومدام دشاتليه فى سيريه حيث درس ثلاثتهم نيوتن . ثم قدم الى لندن بخطابات تعريف من فولتير ، واستقبل فى البـــلاط ، والتقى بهرفى وباالليدى مارى عن طريقه . ووقعت فى غرامه كما لم تقع قط فى غرام ورتلى لأن قلبها كان خاليا ، ولأنه كان جميلا ، ذكيا، شابا . وكانت ترتعد حين يخطر لها أنها فى السابعة والأربعين وأنه فى الرابعة والعشرين . وبدا أن طريقها الى الرومانس قد غدا ممهدا بزواج ابنتها من ايرل بيوت (اغسطس ١٧٣٦) . فلما سمعت أن الجاروتى عائد الى ايطاليا أرسلت اليه خطابا يفيض بعاطفة الصبايا المشبوبة :

« لم أعد أعرف بأى طريقة أكتب اليك . فمشاعرى أقوى ممـــا ينبغى ، وليس فى طاقتى أن أفسرها ولا أن أخفيها . فلكى تغتفر لى رسائلى يجب أن تجيش فى صدرك حماسة كحماستى . واننى لأرى كل ما فى هذا من حماقة دون أى أمل فى اصلاح نفسي . فمجـــرد فكرة مشاهدتك أعطتنى نشوة تذيبنى ، فماذا جرى لتلك اللامبالاة الفلسفية التى صنعت مجد أيامى الماضية وهدوءها ؟ لقد فقدتها الى الأبد ، ولو أن هذا الغرام المشبوب شفى لما رأيت أمامى غير الملل القاتل . فاغفر هذا الشطط الذى كنت السبب فيه ، وتعال لترانى (١٣٦) » .

وأتى ، وتناول العشاء معها عشية رحيله . وكان هرفى قد دعاه أيضا ؛ فلم يلب دعوته . فجن من الغيرة ، وكتب الى الجاروتى طعنا

مرا فى الليدى مارى ، منبها اياه الى انها كانت تذيع على لندن كلها غزوها الايطالى بهذه العبـــارة المزهـــوة Veni. Vidi; Vici « جئت ، ورأيت ، وغلبت » ربما ، ولكن رسائلها الى الجاروتى لم تكن رسائل الغالب :

« ما أجبن الانسان حين يحب : اخشي أن اسيء اليك بارســالى هذا الخطاب حتى ولو كان قد يمكن أن أسرك . والحق أننى مجنــونة فى كل أمر يتصل بك حتى اننى لست واثقة من خواطرى .. كل ماهو مؤكد هو أننى ساحبك ما حييت ، برغم نزوتك وتعقلى (١٣٧) » .

ولم يرد على هذه الرسالة ، ولا على ثانية ، ولا ثالثة ، رغـــم تهديدها بالانتحار . اما الرابعة فقد انتزعت منه ردا جاء كما تقــول « فى وقت مناسب جدا لانقاذ البقية الباقية من عقلى » . فقد عرضت أن تتبعه الى ايطاليا ، ولكنه ثناها عن الفكرة ، وراحت تجتر غرامها فى عزلتها ثلاث سنوات . ولكن فى ١٧٣٩ اقنعت زوجها بانها فى حاجة الى رحلة لايطاليا . وكان قد فقد حبه لها ، فاستطاع أن يتصرف تصرف الانسان المهذب . فودعها حين غادرت لندن ، ووافق على أن يرسل لها راتبا ربع سنوى قدره ٢٤٥ جنيها من دخله الخاص ، وأن يحول اليها دخلها السنوى الذى أوصي به أبوها وقدره ١٥٠ جنيها . وســـافرت باسرع ما تستطيع الى البندقية أملا فى أن تجد الجاروتى هناك ، ولكنه كان قد ذهب الى برلين (١٧٤٠) ليعيش مع فردريك الثانى المتوج حديثا ، وكان يحبه حب اللوطيين . واتخذت مارى لها بيتا على قناة البندقية الكبرى وقد استبد بها الحزن ، وافتتحت فيـــه صـــالونا ، واستضافت الادباء والكبراء ، وحظيت بالتودد اللطيف من نبـــلاء البندقية وحكامها .

ثم غادرت البندقية الى فلورنسة بعد عام ، وأقامت شهرين فى قصر ريدولفى ضيفا على اللورد والليدى بومفريت . ورآهـــا هوراس ولبول هناك ، وأرسل الى هـ . س . كونواى وصفا رقيقا لها :

« هل انباتك بان الليدى مارى ورتلى هنا ؟ انها تضـــحك من الليدى ولبول (زوجة أخى هوراس) . وتقرع الليـــدى بومفريت ،

وتفضحك منها المدينة كلها . ولابد أن لباسها ، وجشعها ، ووقاحتها ، تذهش أى انسان لم يسمع باسمها . فهى ترتدى قبعة بشعة (تربط تحت الذقن) لا تخفى خصلاتها السوداء الدهنية القوام التى ترسلها دون تمشيط أو تجعيد ، وازارا أزرق قديما يفغر فاه ويكشف عن تنورة من التيل . وقد انتفخ وجهها انتفاخا شديدا من أحد جانبيه بمخلفات - غطى بعضها بلزقة ، وبعضها بالطلاء الابيض .. وقد قامرت مرتين أو ثلاثا فى لعبة ورق (تسمى الفرعونية) فى قصر الأميرة كراعون حيث تغش بكل وسيلة فى اللعب . وهى فى الحق مسلية ، كنت أقرأ أعمالها التى تعيرها مخطوطة ، ولكنها نسائية الى حد مفرط ، وأعجبنى القليل من أعمالها (١٣٨) » .

والواقع أن هذا الكاريكاتور كان له أساس ، فقد جرى العرف فى ايطاليا على أن ترتدى المرأة فى بيتها الثياب الفضفاضة المهملة توخيا للراحة ، وما من شك فى أن وجه مارى كان منفرا جدا ، ولكن ليس بالزهرى بالتأكيد (١٣٩) . وكان من عادات المؤلفين أن يعيروا الأصدقاء مخطوطاتهم . وقد أثارت الليدى مارى استياء ولبول الشاب بمصادقتها لمولى سكيريت ، التى ساءه منها أنها أصبحت الزوجة الثانية لأبيه . ولعل الليدى مارى كانت أكثر اهمالا لمظهرها مما اعتادت بعد أن ظنت أنها فقدت الجاروتى الى الأبد .

ثم علمت أنه فى تورين ، فهرعت اليها ، ولحقت به (مارس ١٧٤١) ، وعاشت معه شهرين . ولكنه عاملها بخشونة وعدم مبالاة ، وسرعان ما تشاجرا وافترقا ، فمضى هو الى برلين ، وهى الى جنوه . هناك رآها ولبول مرة أخرى ، واستمتع بكرم ضيافتها ، ووجه الى مركبتها ابياتا تنفث السم :

« ايه ايتها العربة ، يا من حكم عليك بأن تحملى
جلد الليدى مارى العفن ،
اذهبى بها الى أقصى ركن فى ايطاليا ،
وأنزليها بالله حية ،
ولا تعجنى بهزاتك ولطماتك

نصف الأنف الذى مازالت تحتفظ به (١٤٠) » .

وفى ١٧٦٠ أبهجها أن تعلم أن صهرها اصبح عضوا فى المجلس الخاص لجورج الثالث . وفى ٢١ يناير ١٧٦١ مات زوجها تاركا معظم ثروته لابنته ، و ١٫٢٠٠ جنيه فى العام لأرملته . وعادت الليدى مارى الى انجلترة (يناير ١٧٦٢) بعد غيبة امتدت أحدى وعشرين سنة ، أما لأن موت زوجها ازال عقبة خفية فى سبيل رجوعهـا ، واما لأن سطوع نجم صهرها فى عالم السياسة قد اجتذبها الى وطنها .

غير ان الأجل لم يمهلها اكثر من سبعة اشهر ، ولم تكن بالأشهر السعيدة . ذلك ان مطاردتها لالجاروتى ، وأنباء كتلك التى اشاعهـا عنها هوراس ولبول ، كانت قد سوأت سمعتها ؛ ثم ان ابنتها لم تسعد بصحبة أمها رغم حرصها على صحتها وراحتها . وفى يونيـــو بدأت الليدى مارى تشكو ورما فى صدرها . وتقبلت فى هدوء مصارحة طبيبها لها بانها مصابة بالسرطان ، وقالت انها عاشت من العمر ما يكفى . وماتت بعد شهور من الألم (٢١ اغسطس ١٧٦٢) .

وكان من آخر طلباتها أن تنشر رسائلها لتعطى القراء جانبها من القصة ، وتدعم حقها فى تذكر الناس لها . ولكنها كانت قد عهـدت بمخطوطاتها الى ابنتها ، فبذلت هذه الابنة (الليدى بيوت) التى غدت الآن زوجا لرئيس الوزراء ما وسعها لتمنـــع نشرها . على ان الرسائل التى كتبتها من تركيا نسخت سرا قبل أن تسلم لابنتهـــا ، وصدرت فى ١٧٦٣ . وسرعان ما نفدت عدة طبعات منها ، وكان من قرائها الذين ابتهجوا بها جونسن وجبون . أما النقاد الذين قسوا على المؤلفة وهى حية ، فقد أسرفوا الآن فى اطراء رسائلها . وكتب سمولت يقول ان الرسائل « لم يكتب نظيرها أى كاتب رسائل من أى جنس ، أو سن ، أو أمة » وفضلها فولتير على رسائل مدام سفنييه (١٤١) . وقد

أحرقت الليدي بيوت قبل إن تموت فى ١٧٩٤ يومية أمها الضخمة ، ولكنها تركت الرسائل ليتصرف فيها ابنها البكر . فسمح بنشر بعضها فى ١٨٠٣ ، أما الرسائل التى كتبتها لالجاروتى فظلت طي الخفاء الى أن اقنع بايرون جون مرى بأن يشتريها من صاحبها الايطالى (١٨١٧). ولم يكتمل نشرها الا عام ١٨٦١ ، واعترف الناس بان الليـدى مارى تشارك بوب ، وجراى ، وجاى ، ورتشردسن ، وسمولت ، وهيوم ، الفضل فى جعل أدب انجلترة أعظم آداب ذلك العصر الفحل تنوعـــا وحيوية وتأثيرا

الفصل السادس

التصوير والموسيقى

١٧١٤ ـ ٥٦

١ ـ المصورون

لم تكن انجلترة التى سطع نورها الاصيل فى عالم الادب والسياسة سوى تابع متواضع فى دنيا الموسيقى والتصوير . وكان لتخلفها فى التصوير أسباب كثيرة ، ليست منها أجواؤها المعتمة ، فالأجواء أعتمت فى الأراضي المنخفضة كذلك ، ومع ذلك حفلت هولندة بمصورين كثيرين كثرة طواحين هوائها . وربما كان المانش أحد الأسباب ، لأنه كان أشبه بالترس منع عن انجلترة الفنون كما وقاها حروب القارة ، وربما كانت الموهبة الانجليزية غارقة فى التجارة وفى الحرب بعد ولبول . وقد تلام البروتستنتية على ركود الفن الانجليزى، لأن الفن ينمو ويترعرع على الخيال ، والبروتستنتية أقصت الخيال عن الفن وكرسته للأدب واللاهوت ، ولكن يرد على هذا أيضا بأن هولندة كانت بروتستنتية . وأغلب الظن أن العامل الأهم كان الثورة والتراث البيورتانيين ؛ اعدام تشارلز الأول عاشق الفن ، وتشتيت مجموعته الفنية ، وانحسار الذهن الانجليزى ـ باستثناء ملتن ـ خلال فوضى الجمهورية (الكومنولث) . وقد طاطا التأثير البيورتانى رأسه خلال عودة الملكية ، ولكنه عاد يرفعه مع وليم الثالث والهانوفريين ، ثم اتخذ فى الميثودية صورة منبعثة القوة ، وغدا الجمال خطيئة مرة أخرى .

كان هناك منجزات صغيرة فى الفنون الصغرى . من ذلك أن الخزف البديع الناعم العجينة صنع فى تشلسي (١٧٥٥) تقليدا لخزف مايسين وسيفر . والثرى خزافو برمنجهام من صنع الآنية من اللك (اللاكيه) . وبلغ ثراء أحدهم ، واسمه جون بسكرفيل ، مبلغا أتاح له اشباع هوايته بطبع طبعات جميلة للشعراء الانجليز . وزينت حنايا الروكوك المتسمة بالخيال الجامح الكتب والقماش والأثاث والأوانى

وفضة شفيلد وقاعة الروتندا فى حدائق فوكسهول ، وبعض الحجرات فى قصر تشسترفيلد وستروبيرى هل .

اما المثالون فكان الناس قد بداوا يفرقون بينهم وبين البنائين . وكان اقطاب المثالين فى انجلترة اجانب المولد وان اصبحوا عادة مواطنين بريطانيين . فوفد بيتر شاميكرز من انتوبرت ، واشرك مع لوران ديلفو فى نحت تمثال دوق بكنجهام ونورمانديه فى دير وستمنستر . وكان اعظم هؤلاء الأجانب لوى روبياك ، وهو ابن مصرفى من ليدن ، قدم الى انجلترة فى ١٧٤٤ وارتقى سريعا بفضل رعاية آل ولبول . وقد نفذ تمثال شكسبير النصفى المعروض الآن بالمتحف البريطانى ، وتمثال هندل المعروض بقاعة الصور القومية ، وحبته الملكة كارولين برعايتها ، وجلست اليه ليصنع لها تمثالا ، وكلفته بأن ينحت تماثيل نصفية لبويل ، ونيوتن ، ولوك ، وغيرهم من افاضل الانجليز لتضعها فى مغارتها برتشموند . وقد لقب تشسترفيلد (وكان ذواقة للفنون) روبياك - « فيدياس زمانه (١) » . ومات روبياك مفلسا فى ١٧٦٢ بعد أن عاش حياة ملؤها التفانى فى خدمة فنه .

أما العمارة فكانت فى نشوة من فن باللاديو . ذلك أن الثروة المتصاعدة التى حققتها الطبقات العليا التى اثرت وهى منبرمة فى ظل السلام الولبولى قد مولت مئات الرحلات الكبرى ، التى تشرب فيها السادة البريطانيون حب معابد الرومان وقصور النهضة . وكانت البندقية دائما تدخل فى أسفارهم ، فيقف المسافرون فى الطريق عند فتشنتسا ليعجبوا بواجهات باللاديو ، فاذا عادوا ملأوا انجلترة بالأعمدة والأعتاب والقواصر الكلاسيكية . وفى ١٧١٥ - ٢٥ أصدر كولين كامبل كتابه « فتروفيوس بريتانيكوس » الذى أصبح انجيل البلاديويين ، ودفع وليم كنت (١٧٢٧) وجيمس جبز (١٧٢٨) الطراز دفعة أخرى بتاليف كتيبات فى العمارة ، وفى ١٧١٦ نشر رتشرد بويل ، ايرل برلنجتن الثالث ، طبعة فاخرة من نصوص باللاديو ، وفى ١٧٣٠ نشر ترميمات باللاديو للصروح القديمة . واحتوى بيته الريفى فى تشزيك على نسخة من « فيللا روتندا » التى بناها باللاديو فى

فتشنتسا ، برواقها المعمد وقبتها الوسطى . وكان برلنجتن راعيا سخيا للأدب والموسيقى والفن ، وصديقا لباركلى وهندل وبوب وجاى .

وفى ١٧١٩ جلب معه من روما معماريا شابا يدعى وليم كنت ظفر بجائزة بابوية على رسومه ، وكان شديد التحمس لكل ما هو كلاسيكى. وغدا كنت أحب الفنانين وأحفلهم بالمواهب فى انجلترة ، بعد أن سكن قصر برلنجتن حتى وفاته (والقصر مازال بعد تجديده مركزا من مراكز الفن الانجليزى) فصور أسقف قصور هوتن وستو وكنزنجتن ؛ وصمم الأثاث وصحاف الطعام والمرايا والزجاج ، ومركبا للمهرجانات وملابس لسيدات المجتمع ، ونحت تمثال شكسبير فى دير وستمنستر ؛ وكان ممن تزعموا حركة تشجيع الحديقة الانجليزية « الطبيعية » ؛ وفى ميدان العمارة شيد معبد الفضيلة القديمة فى حدائق ستو ، وقصر ديفونشير ببيكادللى ، وقصر حرس الخيالة فى هوايتهول ، وقاعة هولكم المدهشة فى نورفوك .

وفى ١٧٣٨ رفع اللورد برلنجتن الى مجلس مدينة لندن تصميم كنت البللاديوى لمسكن عمدة لندن « مانشن هاوس » ، واعترض عضو بان باللاديو كان بابويا ، فرفض تصميم كنت ، وتلقى جورج دانس الأب التكليف (وكان بروتستنتيا) وقام به خير قيام . ولكن فى ذلك العام بدأت الحفائر فى هركولانيوم ، وأفضت الكشوف فيها الى الحفر عن بومبيى (١٧٤٨ وما بعدها) ، وفى ١٧٥٣ نشر روبرت وود « أطلال بلميرا (تدمر) » وفى ١٧٥٧ « أطلال بعلبك » ، وأعطت هذه الكشوف للحملة الكلاسيكية فى انجلترة دفعة لا تقاوم ، ووضعت حدا لوفرة التزويق الباروكى الذى ازدهر فى قصر فانبروج « بلنهيم » الذى بنى لأسرة تشرشل . وفى ١٧٤٨ بنى اسحاق وير ، وهو معمارى آخر كان يرعاه برلنجتن ، قصر تشسترفيلد فى شارع كرزن .

وقد فات البالاديويين فى تحمسهم هذا أن العمارة الكلاسيكية انما صممت لأجواء البحر المتوسط لا لرياح انجلترة وغيومها . وأخطأ كولن كامبل خطأ جسيما بنقله عن النماذج الايطالية دون أن يطوعها لشتاء انجلترة ؛ فقلعة ميروث التى بناها لم تسمح الا لبصيص من أشعة

الشمس بحقولها ، أما قاعة هوتن التى شادها لروبرت وابول فقد ضحت بحجرات المعيشة ايثارا للصالات الفخمة التى تلقف التيارات الشديدة البرودة . واستخدم جيمس جبز ، أحد تلاميذ كرستوفر رن ، الطراز الكلاسيكى استخداما رائع التأثير فى كنيسة سانت مارى — لمستراند بلندن (١٧١٤ — ١٧) ، وبرج هذه الكنيسة أشبه باغنية من الحجر . واضاف جبز (١٧١٩) الى كنيسة سانت كلمنت دين التى بناها رن برجا يعلو علوا لا يتناسب مع قاعدته ، ولكنه مع ذلك جميل جمالا محفوفا بالخطر . وتوج عمله فى ١٧٢١ برواق كلاسيكى وأعمدة كورنثية فى سانت مارتنز — ان — ذفيلدز ، بميدان ترافلجار . واخيرا خلق فى مكتبة رادكليف باكسفورد (١٧٣٧ — ٤٧) لحنا منسجما من الأعمدة والقبة .

اما بهاء باث المعمارى فالفضل الأول فيه لجون وود . وكانت الفكرة المسيطرة عليه هى ربط المبانى المفردة فى كتلة واحدة ، ومن ثم صمم وبدأ — واكمل ابنه جون بكفاية — « الهلال الملكى » الضخم — وهو ثلاثون بيتا وراء واجهة موحدة من ١١٤ عمودا كورنثيا — دمرت تدميرا شديدا فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن أمكن ترميمها . وعلى مقربة من هذا المكان بنى وود الأب والابن « السيركس » (الميدان) (١٧٥٤ — ٦٤) ، وهو دائرة جميلة من المساكن يكسو واجهتها افريز متصل وثلاثة صفوف من الأعمدة ؛ هنا سكن بت الأب ، وتوماس جينزبورو ، وكليف حاكم الهند . وصمم وود — دون أن يكمل — لجوانب ثلاثة من « كوين سكوير » سلسلة أخرى من المنازل الموحدة وراء واجهة تحكى واجهات قصور النهضة . والكثير من هذا البرنامج ، برنامج تصميم وبناء المدن ، موله رالف الين الذى اتخذه فيلدنج نموذجا صاغ على غراره « سكواير أولوردى » . وبنى وود الأب لألن قصرا فاخرا بالاديوى الطراز فى برايور بارك (١٧٣٥ — ٤٣) ، خارج باث بميلين .

لقد كان فقر جماهير بريطانيا يعدله بهاء قصورها . فقد تكلف معبد الن فى برايور بارك ٢٤٠٫٠٠٠ جنيه . واوحت نزوة المباراة للنبلاء والتجار باقامة القصور الضخمة للضيافة والتباهى . ويقول

هرفى ان روبرت ولبول اكتسب عداء اللورد تاونشند الأبدى ببنائه هوتن هول على مستوى أشد ترفا حتى من قصر تاونشند المجاور المسمى رينهام بارك . وقد ندد اللورد لتلتن بهذا « الجنون الوبائى » جنون بناء القصور ، ومع ذلك طالبت زوجته بقصر جديد يبنى على الطراز الايطالى ، فاذعن لها تحت ضغط الالحاح والى حد اشرف به على الافلاس . فلما تم بناء القصر هجرت زوجها الى مغنى اوبرا ايطالى مشكوك فى رجولته ، وسرعان ما انتشرت فى انجلترة ، وحتى فى ارلندة الانجليزية ، امثال هذه البيوت المظهرية التى بناها الأغنياء . ونظمت الرحلات السياحية ، ونشرت الكتب المرشدة ، لزيارة هذه المساكن الفخمة وحدائقها وقاعات صورها . وطبقت شهرة هذه الصروح الآفاق حتى بلغت روسيا ، فطلبت كاترين الكبرى الى جوسيا ودجوود ان يصنع لها طقم مائدة امبراطوريا مزينا بمناظر من قصور الريف الانجليزية (٢) .

واودعت معظم الصور فى انجلترة ، واخفيت فى كثير من الحالات ، فى هذه البيوت الارستقراطية اذ لم يكن هناك بعد متاحف يستطيع الجمهور العام أن يشاهد فيها الصور . وكانت الرعاية تغدق بوجه خاص على الفنانين الأجانب ، وكلها تقريبا لقاء لوحات تصور الأعيان الذين داعبهم الأمل فى أن يخلدوا على القماش بينما تبلى اجسادهم داخل توابيت من الخشب ؛ ولم يكن هناك سوق للمناظر الطبيعية ولا للوحات « التاريخية » . فلما وفد كارل فانلو على انجلترة فى ١٧٣٧ تهافت الكثير جدا من الوجوه النبيلة عليه ليصورها ، حتى ان رتل العربات المقتربة من بيته ظل أسابيع ينافس ذلك الواقف أمام المسارح . ودفعت المبالغ الطائلة للرجل الذى كان يسجل مواعيده رشوة يؤدونها له ليسبقوا غيرهم والا فقد يضطر الواحد منهم الى الانتظار ستة أسابيع (٣) .

وحاولت « الجمعية الملكية للفنون » التى أسست عام ١٧٥٤ أن تشجع المواهب الوطنية بالمباريات والمعارض ، ولكن الطلب على التصوير الانجليزى تباطأ جيلا آخر . وظفر جوزف هايمور ، وهو تلميذ لنللر ، ببعض المشترين للوحاته حين رسم مشاهد من رواية

« باملا (٤) » ؛ والتقط توماس هدسن بعض حيوية هندل فى لوحته التى رسمها له فى ١٧٤٩ (٥) . وكان من تلاميذ هدسن مصور يدعى جوشوا رينولدز ، تنبأ أستاذه بانه « لن ينبغ أبدا (٦) » . ولكن السر جيمس ثورنهل كان أبعد نظرا . فقد حقق نجاحا بصور نيوتن ، وبنتلى ، وستيل ، وصور القبة الداخلية لكنيسة القديس بولس ، وأسقف مستشفى جرينتش وقصر بلنهيم ، وأحرز الخلود بالانابة ، لأنه زوج ابنته لأعظم مصورى العصر الانجليز قاطبة .

٢ ـ وليم هوجارث : ١٦٩٧ ـ ١٧٦٤

كان أبوه مدرسا وكاتبا أجيرا ، الحقه فى صباه بنقاش للأسلحة . وانتقل من ذلك الى الحفر على النحاس ، ثم الى رسم الرسوم الايضاحية للكتب . وفى ١٧٢٦ أعد اثنتى عشرة محفورة (كلشيهات) كبيرة لكتاب بطلر « هوديبراس » . ثم التحق بفصل التصوير الذى كان يعلم فيه ثورنهل ، وتعلم التصوير بالزيت ، ثم هرب مع ابنة استاذه ، وصفح عنه ثورنهل وعينه مساعدا له .

كانت الرسوم الايضاحية التى رسمها هوجارث لمسرحية العاصفة ، ولمسرحيتى هنرى الرابع ، ولأوبرا الشحاذ ، صورا نابضة بالحياة . فميراندا رقيقة حنون ، وكاليبان فظ غليظ ، وبروسبرو عطوف كريم ، وايريل يداعب مزهرا فى الهواء ، والسير جون فلستاف يتكلم من كرشه بخيلاء ، والكبتن ماكهيث فى اغلاله والحانه ، بطل فى عيون زوجاته رغم كل شيء . ووقع هجاء المستقبل على ذلك العرق الذى تميز به ، وذلك فى لوحة « المصلين النيام » ، فقد كره هوجارث كل المواعظ الا مواعظه ؛ أما فى « حفلة الأطفال » فقد تلذذ باجمل جوانب الحياة الانجليزية . وهذه الصور تلذنا الآن ، ولكنها لم تأته بثناء وقتها .

وجرت تصوير الاشخاص ولكنه لم يحقق نتائج تذكر ، وكانت المنافسة قاسية ، فاكثر من عشرة مصورين يجمعون ثروات صغيرة بتملق زبائنهم وتوزيع العمل على مساعديهم ؛ فهم يرسمون الراس ولكنهم يحيلون رسم الخلفيات والستائر لمساعدين يبخسونهم اجورهم . يقول هوجارث

« وكل هذا يتم بسرعة مريحة تتيح للرئيس الحصول فى أسبوع واحد على مال اكثر مما يستطيع ان يحصل عليه رجل ذو مواهب فنيـــة من أعلى المراتب فى ثلاثة أشهر (٧) » . وندد بتجار الوجوه هؤلاء الذين جملوا وجوه زبائنهم اشباعا لغرورهم واستدرارا لمالهم . أمـا هو فمذهبه ان يصور زبائنه بكل ما فيهم من دمامل والا فلا . فلمـا جلس اليه نبيل تغلب عليه سيماء القردة صوره هوجـــارث باهـــانة مؤذية . ورفض اللورد ان ياخذ صورته اذ لم يكن قد رأى نفسه قط كما يراه الآخرون . فارسل اليه المصور رسالة جاء فيها :

« المستر هوجارث يقدم احتراماته الواجبة للورد ـ واذ وجد انه لا يريد ان ياخذ الصورة التى رسمت له ، فهو يذكره مرة أخرى بحاجة المستر هوجارث الى المال . فاذا لم يرسل سيادته فى طلب الصــورة خلال ثلاثة أيام ، فسيبيعها ، بعد اضافة ذيل وغيره من الملحقـــات الصغيرة ، الى المستر هير مقتنى الوحوش الشهير ؛ لان المستر هوجارث قطع لذلك السيد عهدا باعطـــائه الصـــورة لعرضـــها فى معرض للصور (٨) » ..

ودفع اللورد المال .

وكان هوجارث واثقا من ان فى استطاعته ان يرسم صور الاشخاص كاى فنان قدير . وبينما كان يصور هنرى فوكس (البارون هولاند فيما بعد) اخبر هوراس ولبول انه وعد فوكس انه اذا جلس متبعا تعليماته فانه سيرسم له صورة لا تقل روعة عن صور روبنز أو فانديك (٩) ، وهو ما صدم هوراس فى الصميم من تقاليـــده . وربما برر كثير من لوحات هوجارث التى رسمها للذكور استنكار ولبول لها ، فالوجـــوه « مقولبة » جدا ، وبعضها يستحق وصف هوجـــارث الهـــازىء لبعض الصور الانجليزية بالـ « ساكنة » ولكن يجب أن نستثنى منها لوحـــة « السر توماس كورام » التى اســلفنا ذكرها فى معرض الحديث عن الاحتفال بمستشفى اللقطاء الذى اسسه كورام ، والذى ترى فيه صورته ، فقد التقط هوجارث الطبيعة البارة بالناس فى الوجه المبتسم ، والخلق الحازم فى اليدين المقبوضتين . ولقد كانت فرشاته ، بوجه عام ، أرفق بالنساء منها بالرجال . مثال ذلك أن « صورة سيدة » تنافس صـــور

جانزبورو ، وصورة « سيدة فى ثياب بنية (١١) » لها الملامح القوية لامرأة افلحت فى تربية أطفال كثيرين ؛ واذا كانت صورة « الآنسة مارى ادوردز (١٢) » ميتة نوعا ما ، فان الكلب — وهو حاضر دائما فى لوحات هوجارث — يبعث فيها الحياة ، واروع من هذه الصور اللوحات الجماعية مثل « أسرة برايس (١٣) » و « أبناء جراهام (١٤) » وأفضل حتى من هذه « خدم هوجارث (١٥) » ، حيث ترى كل وجه مرسوما فى حب بكل طابعه المتفرد . وأبدع صوره كلها بالطبع هى « بائعة الجمبرى (١٦) » — وهى ليست لوحة شخصية بل ذكرى رجل سليم قوى الصبية التى رآها تبيع الجمبرى من سلة متزنة على رأسها ؛ فتاة عطلت من كل زينة او زخرف ، لا تستحى من الأسمال التى تكسوها ، تطل على الدنيا وقد توردت وجنتاها وتالقت عيناها صحة وعافية بفضل الحركة والنشاط .

وقد ترك هوجارث على الأقل أربع لوحات صور نفسه فيها . ففى ١٧٤٥ صور نفسه مع كلبه السمين « ترمب (١٧) » . وفى ١٧٥٢ أرانا نفسه جالسا الى حامله ، جسم قصير متين ، ووجه مستدير قصير سمين ، وأنف افطس عريض ، وعينان زرقاوان أتعبهما طول النضال وشفتان مزمومتان تحفزا لاستئناف النضال . كان فى رأى ثكرى « مواطنا لندنيا امينا مرحا ، ورجلا مخلصا صريحا ، يحب نكتته ، وأصحابه ، وكأسه ، وروزبيفه — روزبيف انجلترة العجوز (١٨) » . ولم يكن يصل طوله الى خمسة اقدام ، ولكنه كان يحمل سيفا (١٩) ولا يطيق اللغو من أى انسان . ووراء حبه للقتال دفاعا عن النفس قلب محب ، مسرف فى العاطفة احيانا ، قطع على نفسه العهد ابدا بشن الحرب على النفاق والقسوة . وكان يحتقر النبلاء الذين يصورهم ، ويحب اللندنى البسيط البرىء من الخيلاء . وقد ادخل الجماهير الانجليزية الى دنيا الفن ، فصورهم فى آثامهم وآلامهم ، فى مستشفى المجاذيب ، والسجن ، والدين ، والكد المضنى . وكره الفرنسيين لانهم أفسدوا الانجليز بغلوهم فى الزينة وبخيلائهم الارستقراطية . ولم ينس قط انه قبض عليه لأنه رسم رسوما تخطيطية لبوابة كاليه ، فثار لنفسه بتصويره الفرنسيين كما رآهم هناك : عمالا اجلافا ، وجمهورا يؤمن بالخرافة ، وراهبا بدينا يحدق بنشوة فى كتف من لحم البقر (٢٠) .

وقد أنبانا هوجارث فى كتابه « نوادر » كيف حولته ضآلة ربحه من صوره الى الاتجاه الذى اكسبه الشهرة ، قال :

« كرهت أن أنحدر الى درك « صانع » الصور الشخصية ، واذ كنت لا ازال أصبو الى الاستقلال فى عملى ، فقد طلقت كل امل فى الانتفاع من ذلك المورد .. وبما اننى لم أستطع اقناع نفسي بالعمل كما يعمل بعض اخوانى ، وجعل تصوير الاشخاص ضربا من الصناعة يدار بالاستعانة بمصورى الخلفيات والستائر ، لذلك لم تحقق لى هذه الطريقة من الربح ما يكفى لسد نفقات أسرتى . ومن ثم وجهت افكارى الى رسم وحفر الموضوعات الخلقية العصرية ، وهذا ميدان لم يطرق غى أى بلد أو عصر (٢١) » .

وعلى ذلك رسم فى ١٧٣١ ستة صور سماها « رحلة بغى » ، وحفرها على النحاس ، ومن هذه المحفورات صنع سلسلة من النسخ المطبوعة عرضت للبيع بعد عام ، ترى فيها الفتاة القادمة من الريف تقدمها قوادة قادرة على الاقناع الى سيد ملهوف ؛ والصبية سريعة التعلم ، ولا تلبث أن تحرز ثراء قبيحا . ثم يقبض عليها لا للبغاء بل للسرقة ، وتؤدى عملها المفروض عليها فى السجن وهو نفض القنب ، ثم تسير حثيثا الى المرض والموت ، ولكن يعزيها أن يشيع جثمانها رهط من المومسات . وكان فى استطاعة هوجارث أن ينقل شخوصه من الواقع دون مشقة أو عناء ، فقد راينا المسز نيدهام ينكل بها فى المشهرة عقابا لها على احترافها البغاء ، ويحصبها الجمهور ، وتموت من اصاباتها . (ومع ذلك فان الكولونيل تشارتريز ، الذى اتهم مرتين بهتك العرض وحكم عليه مرتين بالاعدام ، عفا عنه الملك مرتين ، ومات فى أبهة النبلاء بمقره بالريف (٢٢)) . وقد اخطأ هوجارث حين خيل اليه انه طرق ميدانا جديدا فى هذه الرسوم التى تمثل الحياة اليومية ، فقد سبقها الكثير فى ايطالية النهضة ، وفى فرنسا ، وفى الأراضي المنخفضة ، وفى المانيا . ولكن هوجارث جعل الآن من « الموضوعات الخلقية » فنا وفلسفة . على انه ، ككل الأخلاقيين ، لم يكن مبرأ من الاثم ، فقد أطاق فى غير اشمئزاز صحبة السكارى والبغايا (٢٣) ، وكان الهدف من صوره المطبوعة أولا التكسب ، ثم التبشير بالفضيلة ان أمكن .

وراجت صور « البغى » المطبوعة ، فاستهوت ألفا ومائتى مكتتب، ونيف ربحها الصافى على الف جنيه . ومع أن طبعات مسروقة كانت تنتقص من ربح المصور ، فانها أبعدت شبح الجوع عن بابه . واقبل الجمهور البريطانى فى غير تردد على مناظر الخطيئة هذه ، وهو الذى لم يكن به ولع باللوحات ، فهنا فاكهة محرمة ، طهرتها الفضيلة ولكنها لم تنتقص من بهجتها ، وهنا يستطيع المرء لقاء ثمن زهيد أن يتعرف الى الرذيلة وهو فى مأمن ، وان يرقب عقابها الذى تستحقه وهو راض . واستطاع هوجارث الآن أن يطعم أسرته من مكاسبه ، لا بل اتخذ مسكنا له فى حى لستر فيلدز العصرى ، وعلق على بابه رأسا مذهبا يشير الى مهنته فنانا . وقد اشترى بعد ذلك بيتا ريفيا فى كزيك .

ثم رسم صورا كبيرة فى السنوات القليلة التالية ، لا سيما « مهرجان سذيرك » ـ وهى لوحة « بروجلية » انجليزية ـ ولوحة جماعية لطيفة تدعى « أسرة أدوردز » ولكنه عاد الى رسومه المطبوعة فى ١٧٣٣ ، وعارض سلسلة « البغى » بسلسلة سماها « رحلة فاجر » ترى فيها شابا طائشا مفتونا يرث فجأة تركة كبيرة ، فيهجر اكسفورد الى لندن ، ويستمتع بالحانات والمومسات ، ويبدد ماله ، ويجر الى السجن لعجزه عن الوفاء بديونه ، ثم تنقذه خليلته التى نبذهـا ، ويستعيد قدرته على الوفاء بديونه بالزواج من كهله عوراء غنية ، ولكنه يقامر بثروته الجديدة فى نادى هوايت ، فيودع السجن مرة أخرى ، ويختتم سيرته مجنونا فى مستشفى « بدلام » . لقد كانت تمثيلية أخلاقية فى صور سهلة الفهم تصور قطاعا من الحياة تصويرا دقيقا . ولكى يحمى هوجارث سلسلة صور « الفاجر » المطبوعة من السرقة شن حملة تستهدف الحماية القانونية لحقوقه . وفى ١٧٣٥ اقر البرلمان « قانونا لتشجيع فنون الرسم ، والحفر ، والنقش الخ » ، وهذا القانون ، الذى تعارف الناس على تسميته « قانون هوجارث » أعطاه حقا يعادل حق التاليف على صوره المطبوعة . وفى ١٧٤٥ باع بالمزاد اللوحات التى حفر عنها سلسلتى « البغى » و « الفاجر » ، فربح منها ٤٢٧ جنيها .

وتوافرت له الآن الكفاية المالية والثقة بالنفس ، فغزا غزوة أخرى

فى التصوير . « لقد راودتنى بعض الآمال فى أن انجح فيما يسميه المغالون فى اطراء الكتب « الاسلوب العظيم فى تصوير التاريخ (٢٤) ». وفى العقد الممتد من ١٧٣٥ الى ١٧٤٥ انتج صورا رائعة كان عليها ان تنتظر قرنا لتحظى بالتقدير . فلوحة « الشاعر المحزون (٢٥) » هى القصة القديمة ، قصة المؤلف الذى افتقر يطالب فى الحاح بايجار مسكنه بينما تحيك زوجته فى عصبية وينام قطه فى رضي خلى من الهسم . وحاولت لوحته « بركة بيت حسدا » رسم مشهد من الانجيل ، ولكن هوجارث تبله بحسناء نصف عارية تقف امام المسيح وجها لوجه . ولم يكن الفنان معصوما من اغراء جسد الانثى ، ففى محفورته « الممثلات المتجولات يرتدين ثيابهن فى جرن » خلع على هذا الجسد مزيدا من الفتنة والاغراء بالثياب نصف المجردة . وتقرب لوحة « السامرى الصالح (٢٦) » من مستوى « ائمة التصوير القدامى » . والطف منها لوحة كبيرة سماها « ديفد جاريك فى دور رتشرد الثالث (٢٧) » وقد كلفه بها رجل يدعى دنكوم دفع فيها مائتى جنيه ، وهذا اغلى ثمن دفع لمصور انجليزى الى ذلك الحين .

ومع ذلك لم تظفر هذه الاعمال باستحسان النقاد . فعاد هوجارث (١٧٥) الى هجو الحياة اللندنية فى محفورات اكد فيها المنقاش درسا اخلاقيا بقصة . ففى المشهد الاول من « الزواج العصرى » يتعاقد ايرل مفلس مصاب بالنقرس ليزوج لقبه وابنه الكاره فتاة كارهة هى ابنة حاكم اقليمى غنى . ويعرض الايرل نسب الاسرة فى شكل شجرة على درج ، ويرش المحامى المسحوق المجفف على التوقيعات ، ثم يدير العريس ظهره للعروس التى تلقى اذنا مصغية لعشيقها ، ويختص كلبان نفسيهما بالسلام العائلى . وفى المنظر التالى يبدو الزوجان وقد تخاصما . فقد عاد اللورد الشاب منهوكا من مغامرة انفق فيها ليله ودلت على طبيعتها قلنسوة فتاة من الدنتللا تطل من جيبه ؛ اما الزوجة الشابة فتتثاءب بعد أن قضت الليل ترفه عن اصحابها بالموسيقى والقمار و « الدردشة » ، وهنا ايضا ليس هناك مخلوق سعيد الا الكلب . اما المشهد الثالث فهو هوجارث فى اجرأ حالاته ، ترى فيه اللورد الوغد ياتى بخليلته الى طبيب دجال ليجهضها . والمنظر الرابع يرينا الزوجة اثناء ترجيل شعرها فى استقبال الصباح ، ونرى عشيقها معها وهى تتجاهل الموسيقى التى يعزفها او يغنيها

ضيوفها ، وفيهم مخنث فى شعره أوراق ملفوفة . وفى المنظر الخامس أمسكها زوجها متلبسة مع عشيقها ، ويستل الرجلان سيفيهما ، ويجرح الزوج جرحا مميتا ، ويفر العشيق من النافذة ، ويغلب الندم الزوجة ويظهر رجل الشرطة بالباب . وفى المنظر الاخير نرى الأرملة الشابة تحتضر ، وينزع ابوها خاتما ثمينا من أصبعها ليستنقذ البقية الباقية من الثروة التى دفعها ثمنا للقبها .

وفى ١٧٥١ اعلن هوجارث أنه سيبيع بالمزاد فى ساعة محددة فى مرسمه اللوحات الزيتية التى رسمها لسلسلة « الزواج العصرى » ، ولكنه انذر تجار الصور أن يبتعدوا عن المزاد . فلم يظهر غير شخص واحد ، عرض ١٢٦ جنيها ثمنا للوحات واطرها . ونزل عنها هوجارث لقاء هذا الثمن ، ولكنه سخط فى سره على ما رآه اخفاقا معيبا . وفى ١٧٩٧ بيعت هذه اللوحات بمبلغ ١٫٣٨١ جنيه . وهى اليوم من أغلى ما تملكه قاعة الصور القومية بلندن .

وكان اثناء ذلك قد اسخط الملك بلوحته « زحف فرقة الحرس الى اسكتلندة » (١٧٤٥) وكانت السنة التى حاول فيها « الأمير تشارلى الجميل » الاطاحة بالهانوفريين . وصور هوجارث رجال الحرس الملكى يتجمعون عند احدى ضواحى لندن المسماة فنشلى . يدعوهم زمار وطبال ، ويستعين الجند على تقبل قدرهم بالسكر ، وهم جماعة مظهرهم زرى ، واصلح للقصف فى حانة منهم للقاء مع الموت فى ساحة الأبطال ، وأطلع جورج الثانى على اللوحة كطلب الفنان الذى استاذن فى اهدائها اليه . ولكن الملك رفض وهو يصيح «ماذا ؟ مصور يهزأ بجندى ؟ انه يستحق أن يحبس عقابا على وقاحته . اغربوا باللوحة الحقيرة عن وجهى » وتقول رواية غير مؤكدة ان هوجارث أهدى الصورة الى فردريك الأكبر بوصفه « مشجعا للفنون والعلوم (٢٨) » .

وعاد الى صوره المطبوعة الهجائية . فتتبع سيرة صبيين من صبيان الصناع فى اثنتى عشرة لوحة سماها « الجد والكسل » (١٧٤٧) . فأما فرانك جودتشايلد فيكد ويكدح ويقرأ الكتب الجيدة ويختلف الى الكنيسة كل أحد ، ويتزوج ابنة معلمه ويحسن الى الفقراء ، ويصبح عمدة البلدة وحاكما اقليميا ثم عمدة على لندن ، وأما توم أيدل فينام

ويشخر فوق نوله ، ويقرأ الكتب الخبيثة مثل « مول فلاندرز » ، ويسكر ويقامر وينشل ، ثم يؤتى به أمام الحاكم جودتشايلد الذى يحكم عليه بالشنق وهو يبكى شفقة عليه . وقابلت محفورتان ، هما « زقاق الجن » و « شارع الجعة » (١٧٥١) بين « النتائج الرهيبة لشرب الجن » والآثار الصحية للجعة . أما « المراحل الأربع للقسوة » (١٧٥١) فقد قال الفنان انها استهدفت « تهذيب تلك المعاملة الهمجية للحيوان ، التى تجعل منظر شوارع عاصمتنا محزنا جدا لكل نفس حساسة . واننى لأشد فخرا برسمى لهـذه الصـور مما لو كنت صـاحب رسـوم رفائيـل الهزليـة (٢٩) » . وفى سلسلة « صـور أربع لأحـد الانتخابات » (١٧٥٥ ـ ٥٨) استهدف شرورا أبهظ ثمنا ، فقد هاجمت فساد السياسة الانجليزية .

ولو أخذنا صور هوجارث المطبوعة على انها مجرد رسوم لكانت فجة فى فكرتها وتنفيذها متعجلة غير دقيقة فى تفاصيلها . ولكنه كان ينظر الى نفسه على أنه مؤلف أو كاتب مسرحى أكثر منه مصورا ، وقد اشبه صديقه فيلدنج اكثر من الد خصومه وليم كنت ، ولم يكن يعرض تقنيات التصوير بل يقدم صورة للعصر ، « لقد حاولت تناول موضوعى كما يتناوله كاتب للدراما ، فصورتى هى خشبة مسرحى ، والرجـال والنساء هم ممثلى الذين يراد منهم ببعض الحركات والايماءات أن يقدموا عرضا صامتا (٣٠) » . ونحن اذا نظرنا الى صوره المطبوعة على انها هجائيات وجدناها مبالغات متعمدة ، فهى تشدد على جانب وترهف نقطة وهى أكثر ازدحاما بالتفاصيل مما ينبغى أن يكون عليه العمل الفنى ، ولكن كل تفصيل فيما عدا الكلب الذى لا مناص منه يسهم فى الموضوع . وصوره المطبوعة فى مجموعها تتيح لنا نظرة الى طبقة لندن الوسطى ـ الدنيا فى القرن الثامن عشر : البيوت ، والحانات وحى المل ، وكوفنت جاردن ، وكوبرى لندن ، وتشيبسايد ، وبرايدويل ، وبدلام ، وشارع فليت ، وهذه ليست كل لندن ، ولكن ما صوره منها ينبض بالحياة نبضا رائعا .

أما ناقدو الفن وجماعوه وتجاره فى ذلك العهـد فلم يعترفوا لا بكفاية هوجارث فنانا ولا بصدقه هجاء . فاتهموه بانه لا يصور غير

حثالة الحياة الانجليزية ، وسخروا منه لانه اتجه الى صور مطبوعة شعبية لعجزه عن تصوير اللوحات الشخصية الناجحة أو المناظر التاريخية . ونددوا برسمه لانه مهمل وغير دقيق . وقد رد عليهم بأن اتهم التجار بانهم يتآمرون على الاشادة بما يحتفظون به من مخلفات كبار المصورين القدامى ، بينما يتركون الأحياء يتضورون جوعا . قال :

« ان افضل الصور صيانة وأكملها صقلا ، بغير تكريس لها من سلطتهم وتأييد من التقاليد ... لا تباع فى مزاد علنى بخمسة شلنات ، فى حين أن لوحة قماشية عتيقة ، حقيرة ، معطوبة ، مرممة ، اذا كرسها ثناؤهم عليها ، لا بد ان تباع باى ثمن مهما غلا ، وتحتل مكانا بين ارقى المجموعات . كل هذا يفهمه التجار فهما تاما (٣١) » .

وقد رفض ان يخضع رأيه لامثال هؤلاء التجار أو الخبراء . وندد باسترقاق المصورين الانجليز لمحاكاة فانديك أو للى أو نللر ؛ لا بل انه اطلق على عمالقة التصوير الايطالى لقبا هزليا هو « الاساتذة السود »، لانهم القوا على التصوير الانجليزى حجابا كثيفا بالسحر الأسود (الشيطانى) الكامن فى الوانهم القاتمة الشبيهة بالصلصة البنية . فلما بيعت لوحة منسوبة الى كوريدجو باربعمائة جنيه فى مزاد بلندن ، تشكك فى صحة نسبتها وفى قيمتها ، وقال ان فى وسعه أن يرسم صورة لا تقل عنها جودة فى أى وقت شاء . فلما تحداه بعضهم ، رسم لوحة « سجسموندا » (١٧٥٩) - وهى محاكاة جيدة لكوريدجو ، فيها الدانتيللا والملابس الزاهية والايدى الرقيقة والوجه الجميل ، ولكن العينين كان يشوبهما من الاكتئاب ما لم يسر المشترى المنتظر ، الذى أبى أن يدفع الجنيهات الاربعمائة التى طلبها هوجارث ثمنا لها . وقد بيعت بعد موته بستة وخمسين جنيها .

ثم أعطى خشومه سلاحا جديدا بتاليفه كتابا . فعلى لوحة الالوان الظاهرة فى الصورة التى رسمها لنفسه ولكلبه (١٧٤٥) كان قد تتبع خطا ملتفا لاح له أنه العنصر الاساسي فى الشكل الجميل . وقد عرف هذا الخط فى رسالة تربوية سماها « تحليل الجمال » (١٧٥٣) بأنه

ذلك الخط الذى يتكون بلف سلك فى توال مطرد حول مخروط ، وذهب الى أن خطا كهذا ليس سر الجمال فحسب ، بل حركة الحياة . وكان هذا كله فى رأى نقاد هوجارث هراء سخيفا .

على أنه أثرى برغم أنوفهم ، فاقتنى كل بيت مثقف تقريبا صوره المطبوعة ، وتاح له بيعها المتصل دخلا ثابتا . وفى ١٧٥٧ ، وبعد أن نسيت لوحته « زحف فرقة الحرس » ، عين « رئيس المصورين لكل أعمال جلالته » ، وهى وظيفة أتته بمائتى جنيه أخرى فى السنة . وكان فى وسعه الآن أن يختصم أعداء جددا . ففى ١٧٦٢ أصدر صورة مطبوعة سماها « العصر الحاضر » هاجم فيها بت وولكس وغيرهما لأنهما تجار حرب . ورد ولكس فى مجلته « البريطانى الشمالى » يصف هوجارث بأنه عجوز مغرور جشع لا يستطيع تصور « فكرة واحدة عن الجمال » ورد هوجارث بنشره لوحة صور فيها ولكس وحشا أحول . ورد تشرشل ، صديق ولكس ، بخطاب شرس سماه « رسالة الى وليم هوجارث » ، فأصدر هوجارث صورة مطبوعة بدا فيها تشرشل على هيئة دب ، وكتب يقول « ان اللذة والفائدة المالية اللتين حصلت عليهما من هاتين المحفورتين ، بالاضافة الى ركوبى الخيل بين الحين والحين ، أعادا الى من الصحة الموفورة أكثر ما يرجى فى مثل عمرى » . ولكن فى ٢٦ اكتوبر ١٧٦٤ انفجر أحد شرايينه فمات .

ولم يترك بصمة منظورة على فن زمانه . وفى ١٧٣٤ افتتح « مدرسة حياة » ليدرب الفنانين ، وقد أدمجت فى ١٧٦٨ فى الأكاديمية الملكية للفنون . ولكن حتى الفنانون الذين تعلموا فى مدرسته هجروا واقعيته مؤثرين عليها المثالية الفاشية يومها ، مثالية رينولدز وجينزبورو . على أن تأثيره أحس به الناس فى مجال الكاريكاتور ؛ هناك انتقلت فكاهته وقوته من توماس رولاندسن الى اسحاق وجورج كروكشانك ، وأصبح الكاريكاتور فنا . أما شهرة هوجارث الحالية مصورا فقد بدأت بملاحظة لهويسلر قال فيها ان هوجارث « هو المصور الانجليزى العظيم الوحيد (٣٤) » . وقد استثنى هويسلر نفسه فى حرص من هذه المقارنة . وقال قاض أقل تحوطا فى تقديره لهوجارث « اننا لو نظرنا اليه فى أفضل صوره لوجدناه أعظم شخصية فى تصوير

القرن الثامن عشر (٣٥) » . وهذا التقدير يمثل ما يشيع اليـــوم من بخس لقدر رينولدز بدعوى أنه كان مجملا للارستقراطيين همه جمـــع المال ، وتلك نزوة عارضة ستختفى . ومن العسير تقييم هوجارث كفنان، لأنه لم يكن فنانا فحسب ، فلقد كان صوت انجلترة الغاضبة لما فيها من فساد وانحطاط ، ولقد عد نفسه بحق قوة اجتماعية . كذلك فهمـــه فيلدنج فقال فيه « أكاد اجرؤ على التاكيد بان عمليـه هـــذين اللذين يسميهما « رحلة فاجر » و « رحلة بغى » ، قصد بهما خدمة قضـــية الفضيلة .. أكثر مما خدمتها كل المجلدات الضخمة التى كتبت اطلاقا فى الأخلاق (٣٦) » . على أن شيئا واحدا لا شك فيه ، هو انه كان الأنجليزى الصميم بين جميع من عاش من الفنانين الانجليز .

٣ ـ الموســـيقون

من الغاز التاريخ المحيرة ذلك السر فى أن انجلترة التى اسهمت هذا الاسهام الموفور فى التطور والنظرية الاقتصاديين والسـياسيين ، وفى الأدب والعلم والدين والفلسفة ـ انجلترة هذه اقفزت نســـبيا فى اشكال التاليف الموسيقى الأكثر تعقيدا منذ عصر اليزابيث الأولى . وربما وجدنا بعض تعليل لهـــذه الظاهرة فى زوال الكثلكـــة من انجلترة ؛ فالمذاهب الجديدة شجعت المؤلفات الموسيقية الرفيعة تشجيعا أقل ، ومع أن الشـــعائر اللوثرية فى المانيـــا والانجليكانية فى انجـلترة تطلبت الموسيقى ، فان اشكال البروتستنتية الأكثـر تزمتـــا فى انجلترة وفى الجمهورية الهولندية لم تبذل تشجيعا يذكر لأى موسـيقى تزيد عـــلى الترنيمة الجماعية التى يرنمها المصلون . وحل محل اساطير كنيســة روما وطقوسها ، التى طالما شددت على مباهج الايمان ، عقائد جبرية قاتمة تشدد على هول الجحيم ، ولم يستطع غير « أورفيوس » أن يغنى فى وجه الجحيم . وماتت أغانى انجلترة الاليزابيثية الغرامبســة المشعربة فى الصقيع البيورتانى . وقد جلبت عودة الملكية من فرنســـا روحا أكثر مرحا ، ولكن بعد موت بيرسل اسدل حجاب كثيف عـــلى الموسيقى الانجليزية من حديد .

هذا باستثناء الأغانى التى تفاوتت من الجهـــوريات الجماعيـــة المنتشرة فى أندية الطرب glee clubs الى الرقة الهفافة التى تميـزت

بها الغنائيات المأخوذة من تمثيليات شكسبير . وكلمة glee هى الكلمة الانجلو ـ سكسونية gleo ، ومعناها الموسيقى ؛ ولم تتضمن بالضرورة الفرح ، وكانت تطبق عادة على الاغانى التى لا ترافقها الموسـيقى لثلاثة أصوات أو أكثر . وازدهرت أندية الطرب قرنا ، وبلغت أوجها حوالى عام ١٧٨٠ فى عز أيام أكبر مؤلف لأغانى الطرب ، وهو صموئيل وب . وكان أجمل منها موسيقات توماس آرن التى لحنها لأغانى شكسبير ـ « هبى ، هبى ، يا ريح الشتاء » و « تحت شجرة الغابة الخضراء » و « حيث ترشف النحلة رحيقها هناك أرشف رحيـقى » ؛ وما زالت هذه تسـمع فى انجلترة . والموسيقى المشجى آرن هو الذى لحن قصيدة طومسن « احكمى يا بريطانيا » ! » وفى هذه الفترة ، أو قبلها ، لحن وطنى مجهول نشيد بريطانيا القومى ، « حفظ الله الملك » . وعلى قدر ما نعلم ، غنى هذا النشيد علنا أول مرة فى ١٧٤٥ حين جاء نبأ بأن قوات جورج الثـانى هزمها الاسكتلنديون بقيادة المطالب الشاب بالعرش عند بريستونبانس ، ولاح أن أسرة هانوفر قد حان حينها . والنشيد فى أقدم صوره المعروفة (وهى لا تختلف الا اختلافا طفيفا عن الكلمات واللحن الحاليين) دعا الى الله بالنصر على الحزب الاستيوارتى فى السياسة الانجليزية ، وعلى الجيش الاستيوارتى الزاحف من اسكتلندة :

« حفظ الله مولانا الملك
ليحى ملكنا النبيل (جورج الثانى) طويلا ،
حفظ الله الملك .
ربنا انصره نصرا عزيزا
واجعله سعيدا عظيما ،
ليملك علينا طويلا ،
حفظ الله الملك .

ربنا والهنا قم ،
وشتت أعداءه ،
واجعلهم يسقطون ،
وأحبط سياساتهم
وافسد مكائدهم الوضيعة

آمالنا معلقة عليه (فى النص الحالى « عليك ») ،
احفظنا اللهم اجمعين (٣٧) » .

واقتبست اللحن لفترات شتى تسع عشرة دولة ، لحنت به اغانى وطنية ، ومن هذه الدول المانيا وسويسرة والدنمرك والولايات المتحدة الامريكية ـ التى أحلت فى ١٩٣١ محل « أمريكا » نشيدا قوميا « الراية المرصعة بالنجوم » يغنى وفق لحن عسير من اغنيـــة شراب انجليزية عتيقة .

ويدل رواج الاغانى الرقيقة فى انجلترة على ذوق موسيقى واسع الانتشار . فكان فى كل بيت هاربسيكورد فيما عدا بيوت الفقراء ، وكان كل انسان تقريبا يعزف على احدى الآلات الموســيقية ، وتوفــر من العازفين فى الاحتفال بذكرى هندل عام سنة ١٧٨٤ بدير وستمنستر عدد يكفى للعزف على خمسة وتسعين كمانا ، وست وعشرين فيـــولا ، واحدى وعشرين فيولنتشللو ، وخمسة عشر دبل باصا ، وستة نايات ، وست وعشرين أوبوا ، واثنى عشر بوقا ، واثنى عشر نفيرا ، وســـت ترمبونات ، واربعة طبول ، مع فرقة غنائيـــة من تســـعة وخمسين سوبرانو ، وثمانية وأربعين تينورا وأربعة وثمانين باصا ـ وهذا عدد كان خليقـــا لكبره بأن يرتجف له هنـــدل فرقا فى مقبرته بالدير . ولم يدخل الكلارينت الا فى أواخر القرن . وكان هناك أراغن رائعة ، وعازفون عظماء عليها مثل موريس جرين الذى كانت اناشيده وتسبيحات شكره ـ مع تلك التى لحنها هندل وبويس ـ هى تقريبا موسيقى انجلترة الكنسية الوحيدة الجديرة بالذكر فى ذلك العصر .

أما وليم بويس فقد ارتقى حتى اصبح مديرا للفرقة الموسيقية الملكية (أى الأوركسترا) وعازف الارغن فى الكنيسة الملكية رغم ما شاب سمعه من خلل فى صباه . وكان أول « مايسترو » يقود العازفين واقفا . أما هندل ومعاصروه الآخرون فكانوا يقودونهم من الارغن أو الهاربسيكورد وما زالت بعض أناشيده ـ لا سيما « على أنهـار بابل » ـ تســـمع فى الكنائس الانجليكانية ، وما زالت البيوت الانجليزية تسمع على الأقـل أغنيتين من اغانيه « قلوب من البلوط » التى كتبها لاحدى تمثيليـــات

جاريك الايمائية ، و «رفقا فى هبوبك يا نسيم الجنوب » وهو لحن فى كنتاتا « سليمان » . أما سمفونياته فتبدو ضعيفة هزيلة لآذاننا التى عراها الذبول .

كان الشيء المثير الوحيد فى دنيا الموسيقى الانجليزية فى مطلع القرن الثامن عشر هو مجيء الأوبرا ، وكانت هناك عروض سابقة ترجع الى عام ١٦٧٤ ، ولكن الأوبرا لم تستهو المزاج الانجليزى الا حين قدم المغنون الايطاليون من روما فى ١٧٠٢ . وفى ١٧٠٨ صدمت لندن وافتتنت بصوت مغن سوبرانو ، خصي (castrato) يدعى نيكولينى . وتلاه مغنون خصيان آخرون ، وقد ألفتهم انجلترة ، وكادت تجن بصوت فارينللى . فما وافى عام ١٧١٠ حتى كان فى لندن من المغنين الايطاليين عدد أتاح لهم تقديم أول أوبرا فيها بالايطالية دون غيرها . وقامت الاحتجاجات الكثيرة على هذا الغزو . وخصص له أديسون العدد الثامن عشر من صحيفته « سبكتيتور » مستهدفا :

« أن يسلم الى الأجيال القادمة وصفا أمينا للأوبرا الايطالية .... ان حفدتنا البعيدين سيشتد فضولهم لمعرفة السر فى أن أجدادهم اعتادوا الجلوس معا كأنهم جمهور من الأجانب فى وطنهم ليستمعوا الى تمثيليات بأكملها تمثل أمامهم بلسان لا يفهمونه » .

واستنتج من حبكات هذه التمثيليات انه ما من شيء فى الأوبرا « يصلح للتلحين الجيد الا كان لغوا فارغا » . وسخر من المناظر التى يغازل فيها البطل حبيبته بالايطالية ، فترد البطلة بالانجليزية ـ وكان اللغة أمر ذو بال فى مثل هذه الأزمات . واعترض على المناظر المسرحية المسرفة ـ على العصافير الحقيقية التى تطير حول المسرح ، ونيكولينى يرتعش فى قارب مكشوف على بحر من الورق المقوى .

وكان فى صدر أديسون ضغينة يريد شفاءها ، فقد كتب النص لأوبرا توماس كلايتون الانجليزية « روزاموند » التى فشلت (٣٨) . وأغلب الظن أن ثورته (٢١ مارس ١٧١١) فجرها العرض الأول (٢٤ فبراير) لأوبرا ايطالية تسمى « رينالدو » فى دار أوبرا هايماركت .

وزاد الطين بلة ان الموسيقى الفها المانى وفد مؤخرا على انجلترة ، هذا الى ان الكلام كان بالايطالية . ومما افزع اديسون أن الأوبرا الجديدة حققت نصرا عظيما ، فما مضت ثلاثة اشهر حتى كانت قد عرضت خمس عشرة مرة اكتظ المسرح فيها دائما بروداه ، ورقصت لندن على مختارات من موسيقاها ، وتغنت بالحانها الأكثر بساطة (٣٩) . تلك هى بداية الطور الانجليزى فى أروع سيرة فى تاريخ الموسيقى .

٤ ـ هندل : ١٦٨٥ ـ ١٧٥٩ (٤٠)

أ ـ نشـــــأته

كان جيورج فريدرش هندل★ اشهر مؤلف موسيقى على عهد يوهان سباستيان باخ . انتصر فى المانيا ودانت له ايطاليا الموسيقية ، وكان روح الموسيقى وتاريخها فى انجلترة طوال النصف الأول من القـــرن الثامن عشر . واتخذ تفوقه قضية مسلمة ، لم يجادله فى ذلك مجادل ، وشمخ فى دنيا الموسيقى كانه مارد مسيطر يزن ٢٥٠ رطلا .

ولد فى مدينة هاله بسكسونيا العليا فى ٥٣ فبراير ١٦٨٥ قبل مولد يوهان سبستيان باخ بستة وعشرين يوما ، وقبل مولد دومنيكو سكارلاتى بثمانية أشهر . ولكن بينما اشرب باخ وسكارلاتى الموسيقى منذ طفولتهما، وأتيح لهما أبوان من مشهورى المؤلفين ، وربيا على سلم موســـيقى ملزم ، ولد هندل لأبوين لا يكترثان للموسيقى ؛ فابوه كان الجـــراح الرسمى فى بلاط الدوق يوهان أدولف أمير ساكس ـ فايسنفيلز ، وأمه ابنة قسيس لوثرى . ولم يرضيا عن ادمان الغلام على عزف الأرغـن والهاربسيكورد ، ولكن حين أصر الدوق بعد أن ســمعه يعـــزف على ضرورة تدريبه على الموسيقى ، سمحا له بان يدرس عــلى فريدريش تساخاو ، عازف الأرغن بكنيسة ليبفراوينكيرشي فى هاله . وكان تساخاو معلما مخلصا دقيقا . فما بلغ جيورج الحادية عشرة حتى كان يؤلف

★ كان فى المانيا يوقع باســمه Händel (هنـــدل) ، وفى ايطاليـــا وانجلترة Hendel (٤١) .

السوناتات (التى بقى منها ست) ، وحذق العزف على الارغن الى حد حمل تساخاو والابوين المستسلمين على ايفاده الى برلين ليعزف أمام صوفيا شارلوت ناخبة براندنبورج المثقفة ، التى ستصبح عما قليل ملكة بروسيا . فلما عاد جيورج الى هاله (١٦٩٧) وجد أن أباه قد مات . أما أمه فعمرت الى سنة ١٧٢٩ .

وفى ١٧٠٢ دخل جامعة هاله ليحضر لمهنة المحاماة فى ظاهر الأمر. وبعد شهر عينه القائمون على الكتدرائية الكلفنية فى هاله مكان عازف أرغنهم السكير . أما العبقرى الشاب الذى لا يستقر على حال ، والذى هفت نفسه الى مجال أرحب ، فبعد ان قضي عاما واحدا هناك اقتلع كل جذوره التى فى هاله باستثناء حبه المقيم لأمه وانطلق ميمما هامبورج ، حيث كان الناس يحبون الموسيقى حبا يكاد يبلغ حبهم للمال . وكان فى هامبورج دار للأوبرا منذ ١٦٧٨ . هناك وجد هندل ، وهو فى الثامنة عشرة ، مكانا له عازفا ثانيا للكمان . وصادق يوهان ماتيسون البالغ من العمر اثنين وعشرين عاما ، و « التينور » الأول فى الأوبرا ، الذى اصبح بعد ذلك اشهر النقاد الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . ورحلا معا الى لوبك (أغسطس ١٧٠٣) ليستمعا الى الشيخ بوكستيهودى يعزف ، ويتحسسا امكان خلافته فى العزف على الأرغن فى كنيسة مارينكرشي ، ووجدا ان خليفته يجب أن يتزوج ابنة هذا الشيخ . فنظرا الى الشيخ وابنته ثم رحلا عن المدينة .

وانهارت صداقتهما فى مبارزة سخيفة سخف المبارزات فى أى مسرحية . ذلك أنه فى ٢٠ أكتوبر ١٧٠٤ أخرج ماتيسون أوبراه « كليوبطره » ومثل دور البطل فيها . ولقيت نجاحا لا شك فيه ، واعيد تمثيلها مرارا . وفى هذه الحفلات قاد هندل الأوركسترا والمغنين من الهاربسيكورد . وكان ماتيسون أحيانا ينزل من خشبة المسرح بعد أن يموت فى دور أنطونيوس ، وفى نشوة الفخر يأخذ مكان صديقه قائدا وعازفا على الهاربسيكورد ، ويسعد بنصيب من التصفيق الأخير . وفى ٥ ديسمبر ابى هندل أن يحل صديقه محله على هذا النحو . فالحق الصديقان الاوبرا بشجار ساخن ، وعقب انتهاء التمثيل سارا الى الميدان العام ، واستلا سيفيهما ، واقتتلا على أنغام المديح من رعاة الاوبرا

والمارة . وصك سيف ماتيسون زرا معدنيا على سترة هندل فانكسر . وانقلبت المأساة مهزلة فى نظر الجميع الا بطليها ، وراحـــا يجتران سخطهما الى ان قبل مدير الفرقة أوبرا هندل « الميرا » التى احتاجت الى ماتيسون ليؤدى دور التينور . واعاد نجاح الأوبرا (٨ يناير ١٧٠٥) الخصمين صديقين كما كانا من قبل .

واحب الناس أوبرا « الميرا » ، التى احتوت على واحد واربعين لحنا بالألمانية وخمسة عشر بالايطالية ، حبا اتاح عرضها عشرين مرة فى سبعة أسابيع . ودب دبيب الغيرة فى قلب راينهارت كايزر الذى كان مشرفا على الفرقة ومؤلفا لمعظم أوبراتها . وضعفت شعبية أوبرا هامبورج ، وعاش هندل عامين على دخل ضعيف . وكان الأمير جوفان جاستونى دى مديتشي ، اثناء مروره بهامبورج ، قد نصحه بأن يرحل الى ايطاليا حيث يجن الناس كلهم بالموسيقى ويصدح حتى خدم المطاعم بالأغانى الجميلة . واقتحم هندل ثلوج جبال الألب فى ديسمبر وفى محفظته ماثتا دوقاتية ، وخطاب من جاستونى الى أخيـــه فرديـنـــاند راعى الأبرا فى فلورنسه ؛ وبلغها أواخر عام ١٧٠٦ . فلما وجـد جيـــوب فرديناند منيعة نزل الى روما . ولكن دار الأوبرا هناك كان قد اغلقها البابا انوسنت الثانى عشر باعتبارها بؤرة للفساد . وعزف هندل على الأرغن فى كنيسة سان جوفانى لاترانو ، وصفق له الجمهور عازفـــا بارعا ، ولكنه عاد الى فلورنسة لأن أحـدا لم يرد أن يخـــرج أوبراه الجديدة . هناك وجد جاستونى الذى دافع عنه ، ففتح فرديناند كيس نقوده ، ومثلت « رودريجو » ، وسر الجميع بها . ونفح فرديـنـــاند مؤلفها الشاب بمائة سكوين (٣٠٠ دولار ؟) وطقم عشاء من الخزف . ولكن فلورنسة لم يكن بها دار أوبرا عامة ، اما البندقية فكان بها ست عشرة دارا . ومن ثم مضى هندل الى البندقية .

كان ذلك فى خريف ١٧٠٧ ، وملكة الأدرياتى مبهورة بســـحر اليسساندرو سكارلاتى ، تصفق لأعظم أوبراته « متردلتى أوباتورى » ، فلا مجال فيها لألمانى شاب حديث العهد بتعلم أسرار الميلوديا الايطالية ودرس هندل أوبرات سكارلاتى ، ووجـد له صـــديقا وفيـــا فى ابن اليساندرو . وتقول الرواية انه حين عزف هنـــدل وهو مقنـــع على الهاربسيكورد فى حفلة تنكرية فى البندقية ، صاح دومنيكو سكارلاتى

« هذا اما السكسونى المعجز أو الشيطان (٤٢) » • والصداقة الخالدة التى ربطت قلبى أعظم عازفين للهاربسيكورد فى ذلك المعهد أشـــبه بلحظة تناغم وانسجام وسط نشاز التاريخ • وقد ترك كلاهما البندقية للموسيقيين الأكبر منهما سنا وانطلقا الى روما (يناير ١٧٠٨ ؟) •

وفى هذه المرة لقى هندل استقبالا افضل • فقد بلغ نبأ « رودريجو » العاصمة ، وفتح الأمراء والكرادلة أبوابهم له ، وهم أشد ضيقا بلهجته الألمانية منهم بمذهبه اللوثرى • وبنى المركيز دى روســبولى مسرحا خاصا فى قصره ليخرج عليه أول أوراتوريو لهندل ، واسمها « القيامة »، وكانت موسيقاها مفاجأة ملهمة فى قوتها وتعقيدها وعمقها ، وسرعان ما راحت الصفوة المثقفة كلها فى روما تتحدث عن « السكسونى الطويل الجبار » • غير أن موسيقاه كانت أصعب مما يحبه العازفون الايطاليون • فلما اخرج الكردينـــال بييترو أوتوبونى أوراتوريو هنـــدل « سريناتا » اتعبت الموسيقى أركانجلو كوريللى ، الذى كان عازفا أول للكمان وقائدا للأوركسترا • فتمتم فى تأدب « أيها السكسونى العزيز ، هذه الموسيقى تنهج النهج الفرنسي الذى لا أفهمه (٤٣) » • وأخذ هندل الكمان من يدى كوريللى وعزف بحيويته المعهودة • وسامحه كوريللى •

بقى على هندل أن يغزو نابلى • وتقول رواية لا يعتمد عليها ان هندل وكوريللى ، وسكارلاتى الأب والابن ، كلهم قصدوا تلك المدينة معا (يونيو ١٧٠٨) • وتزعم قصة اخرى مشكوك فيها ان هندل وقع فى غرام هناك ! ولكن التاريخ الحذر يعترف فى أسف بان ليس لديه أى دليل سليم على أى غرام وقع فيه هندل ابان حياته فى اى بلد ، اللهم الا غرامه بأمــه وبموسيقاه • وقد يبدو أمرا لا يصدق أن يخلو قلب رجــل استطاع أن يكتب مثل هذه الالحان المشبوبة من شعلة الحب ، ولعل التعبير عنهــا بدد حرارته على أجنحة الغناء • أما أهم الأحداث فى هذه الفترة التى اقام فيها هندل فى نابلى فهو ـ على قدر علمنا ـ لقاؤه بالكردينـــال فنتشنتسو جريماتى ، حاكم نابلى وسليل أسرة بندقية غنية • وقد قدم للمؤلف نص أوبرا تتناول موضوع أم نيرون القديم • وأتم هندل المهمة فى ثلاثة أسابيع • ورتب جريماتى تمثيلها فى مسرح أسرته بالبندقية ، فاسرع اليها هندل حاملا موسيقاه •

كانت الحفلة الافتتاحية لأوبرا « أجربينا » (٢٦ ديسمبر ١٧٠٩) أبهج الانتصارات التى عرفها هندل الى ذلك الحين . ولم تخالج الايطاليين الكرماء الغيرة لأن المانيا تفوق عليهم فى لعبتهم ، وأراهم روائع من النغم، واقتحامات من الانتقال ، وأفانين من الصـــنعة قل أن أدركهـــا حتى موسيقيهم المفضل اليساندرو ســـكارلاتى ، فهتفـــوا « يحى السكسونى الحبيب (٤٤) » . ونال نصيبا من هذا الهتاف المغنى الباصو المتـــاز جوزيبى بوسكى الذى تنقل صوته فى يسر بين سلسلة كاملة من تســع وعشرين نغمة .

وخطب الكثيرون ود هندل الآن . فنصحه تشارلز مونتاجيــو ، ايرل مانشستر الذى كان سفيرا لبريطانيا فى البندقية ، بان يذهب الى لندن ، وعرض عليه الأمير ارنست أوغسطس الأخ الاصغر للناخب جورج لويس ، وظيفة قائد الفرقة الموسيقية الكنسية فى هانوفر . لقد كانت البندقية رائعة ، تتنفس الموسيقى ، ولكن الى متى يســـتطيع المرء أن يكسب قوته من أوبرا واحدة ، والى متى يستطيع الركون الى هــؤلاء الايطاليين المتقلبين ؟ اما هانوفر ففيها ضباب ، وغيوم ، وكلام خارج من الحناجر ، ولكن فيها ايضا دار فخمة للأوبرا وراتب ثابت وطعام المانى دسم ؛ ثم انه يستطيع بين الحين والحين أن يركب منها ليزور أمه فى هاله . وعليه ففى ١٥ يونيو ١٧١٠ عين هندل قائدا للفـــرقة الكنسية فى هانوفر ، وكان يومها فى الخامسة والعشرين ، براتب سنوى قدره الف وخمسمائة كراون ، مع الأذن له بالغياب بين حين وحين . وفى خريف ذلك العام ، طلب الأذن له بزيارة انجلترة ، فحصل عليـــه ، ووعد بالرجوع سريعا .

ب - غـزو انجلترة

كانت أوبرا لندن فى محنة . ففيها فرقة ايطالية تغنى ، مغنيهــا الباصو بوسكى ، ومغنيتها الكونترالتو زوجته ، ومغنيها الســـوبرانو نيكولينى الذى ذهب تشارلز بيرنى ، مؤرخ الموسيقى الغيور ، الى أنه « أول مغن عظيم حقـــا غنى فى مسرحنا (٤٥) » . ولكن دار أوبرا هايماركت (وكانت يومها تسمى مسرح صاحبة الجـلالة) ، ومسرح

دروزى لين ، كانا يقعان فى قسم سوقى من المدينة ، تنشل فيه الجيوب وتحطم الرءوس . وتردد « المجتمع الراقى » فى المغامـرة بباروكاته وأكياس نقوده هناك .

وسمع آرون هل مدير الفرقة بان هندل فى لندن ، فعرض عليه نص أوبرا ماخوذا عن « تحرير أورشليم » لتاسو . وعكف هندل على العمل بنشاطه الهائل ، ونقل فى غير تحرج عن ألحانه هو ، فلم ينقض أسبوعان حتى أتم أوبرا « رينالدو » . فأخرجت فى ٢٤ فبراير ١٧١١ ، وأعيد عرضها أربع عشرة مرة أمام جمهور حافل قبل أن ينتهى الموسم فى ٢٢ يونيو . وهاجمها اديسون وستيل ، ولكن لندن اقبلت عليهـــا ، وتغنت بألحانها فى الشوارع ، وأكثر ما مس أوتار العاطفة من ألحانها بل يستطيع أن يحرك مشاعرنا حتى فى يومنا هـذا ، لحنـــان همـــا اتركنى اننى أبكى Lascia ch'io pianga و Cara Sposa يا زوجتى العزيزة ، وقد ربح جون وولش ألفا وأربعمائة جنيـه بنشره أغانى من أوبرا مينالدو ، واقترح هنـدل فى ســـخرية أن على وولش أن يكتب موسيقى الاوبرا القادمة ويترك له نشرها (٤٦) . وما لبثت هذه الأوبرا ، وهى خير أوبرات هندل ، أن أخرجت فى دبلن وهامبورج ونابلى ، وقد شغلت المسرح فى لندن عشرين عاما .

ومد هندل أجازته حتى بلغت سنة كاملة وهو يرشف نجاحه على مهل ، ثم عاد كارها الى هانوفر (يونيو ١٧١١) ولم يكن هناك أسدا فى قاعات الاستقبال ، بل خادما فى قصر الامير النـاخب ؛ وأغلقت دار الاوبرا فترة الموسم ، فألف الكونشرتوات الكبيرة والكنتاتات ، بينما كان خياله يحلق فى سماء الاوبرات . وفى أكتوبر ١٧١٢ اسـتأذن فى زيارة أخرى « قصيرة » لانجلترة . وأذن له الامير الناخب ، ربما وهو شاعر أن انجلترة ستكون على أية حال اقطاعية هانوفرية بعد قليل . ووصل هندل الى لندن فى نوفمبر ، ومكث هناك ستا وأربعين سنة .

وقد حمل معه أوبرا جديدة هى « الراعى الوفى » ، التى مازال استهلالها اللطيف يسحر جونا . وقد أخرجت فى ٢٢ نوفمبر ، وفشلت . وللفور بدأ موضوعا آخر وقد حفزه هذا الفشل أكثر مما ثبط همتـه ،

والموضوع هو « تيسيو (ثيوسيوس) . وكانت حفلة الافتتاح نصرا له ، ولكن المدير هرب بعد الليلة الثانية حاملا ايصـالات شباك التذاكـــر . وتسلم عمله مدير آخر اسمه جون هيديجر ، وواصل عرض « تيسيو » حتى بلغت عروضها ثلاثة عشر ، وكافأ المؤلف الذى لم ينقد أجره بتنظيمه حفلة خيرية لأعانة « المستر هندل » ، ظهر فيها المؤلف وهو يعزف عــلى الهاربسيكورد . ودعا ايرل بيرلنتن ، وكان مستمعا متحمسا ، هندل لينزل ضيفا عليه فى قصر بيرلنتن ، وقبل هندل الدعوة ، ووجد المسكن الطيب والطعام المترف ، والتقى هناك ببوب ، وجاى ، وكنت ، وغيرهم من أئمة الأدب والفن .

وأقبلت عليه الدنيا أيما اقبال . ذلك أن الملكة آن تاقت لوضع حد لحرب الوراثة الأسبانية ، وأتت النهاية مع معاهدة أوترخت ، فابهـج هندل آن بـــ « تسبحة أوترخت » وبـــ « أغنية الميلاد » فى عيد ميلادها ، وأثبت فيهما أنه درس « كوارس » بيرسيل . وأثابته الملكة العطـــوف بمعاش قدره مائتا جنيه . أما وقد ظفـر بالاطمئنان والرخـــاء ، فانه استراح الآن على مجدافيه طوال سنة من التهرب .

ولكن فى أول اغسطس ١٧١٤ ماتت آن ، وأصبح الناخب جورج لويس أمير هانوفر ملكا على انجلترة باســم جورج الأول . وتوجس هندل بعض الشيء من هذا الاتجاه الذى اتخذته الأحداث . فالواقـع أنه هرب من هانوفر ، وله أن يتوقع أن يكون الملك غير راض عنه ، وقد حدث هذا ، ولكن جورج لزم الهدوء . وأعيدت تسمية مسرح هايماركت الآن فسمى « مسرح جلالة الملك » ، وأحس الملك أنه ملزم ببسط رعايته على هذا المسرح ، ولكنه كان يعرض أوبرا « رينالدو » التى لحنها ذلك المتهرب ، فذهب جورج متنكرا الا فى لهجته ، واســـتمتع بالعرض . وكان هندل خلال ذلك قد كتب أوبرا أخرى « اماديجى الغـــالى » ، وأخرجها هيديجر فى ٢٥ مايو ١٧١٥ ، وأحبها جورج . وبعد قليل طلب عازف الكمان والمؤلف الايطالى فرانتشسكو جيمنيانى ، الذى دعى للعزف فى البلاط ، أن يصاحبه هندل ، لأنه عازف الهاربسيكورد الوحيد فى انجلتره الذى يصلح لمصاحبته . وكان له ما أراد ، وابدع هندل فى العزف فعفا عنه الملك ، ورفع معاشه الى أربعمائة جنيه فى السنة .

ووكلت اليه الأميرة كارولين تدريس بناتها ، وأضافت معاشا قدره مائتا جنيه . وهكذا الآن صاحب أعلى اجـــر بين المؤلفين الموسـيقيين فى أوربا .

فلما غادر جورج الأول لندن (٩ يوليو ١٧١٦) ليزور هانوفـر اصطحب هندل معه . وزار الموسيقى أمه فى هاله ، وبدأ نفحاته الدورية لأرملة معلمه القديم تساخاو التى أخنى عليها الدهـــر . وعاد الملك والمؤلف الى لندن فى مطـــلع ١٧١٧ . ودعا جيمس بريدجس ، ايرل كارنارفون ـ دوق تشاندوس فيما بعد ـ هندل ليعيش فى قصره الفاخر المسمى « كانونز » بمدلسكس ، ويحل محل قائد الموسـيقى فيـه ، الدكتور يوهان بيبوش ، الذى انتقم لنفسه فيما بعد بتاليفه موسـيقى « أوبرا الشحاذ » . هناك كتب هندل « متتابعات موسيقية للهاريسيكورد» وهى « فنتازيات » على الهاريسيكورد بأسلوب دومنيكو سـكارلاتى وكوبران ، وبعض الكونشرتوات الكبيرة ، واثنى عشر « نشيدا تشاندوسيا» وموسيقى لتمثيلية تنكرية لجاى سمها « آسيس وغلاطيــة » ، وأوبرا « راداميستو » .

ولكن من يخرج الأوبرا ؟ لقد هبط عـدد رواد مسرح صـــاحب الجلالة ، وأشرف هيديجر على الافلاس . ورغبة فى انقاذه وانقــاذ الأوبرا أسس نفر من النبلاء والأعيان (فبراير ١٧١٩) الأكاديمية الملكية للموسيقى ، ومولوها بخمسين سهما طرحت على الجمهور بسعر مائتى جنيه للسهم ، واشترى جورج الأول خمسة أسهم . وفى ٢١ فبراير أعلنت صحيفة لندنية أسبوعية أن « المستر هندل ، وهو أستاذ موسيقى شهير ، أبحر الى القارة بأمر جلالة الملك ليجمع فرقة من صفوة المغنين فى أوربا للأوبرا فى مسرح هايماركت (٤٧) » وأغار هندل على مختلف الفرق فى المانيا ، وزار أمه مرة أخرى . وبعد ساعات من مغادرته هالة الى انجلترة ظهر يوهان سبستيان باخ فى المدينة بعد أن مشى اليهـا نحو خمسة وعشرين ميلا من كوتن ، وطلب أن يقابل الألمانى العظيم الذى غزا انجلترة ؛ ولكنه وصل متاخرا ، ولم يلتق الموسيقيان قط .

وفى ٢٧ أبريل ١٧٢٠ مثلت « راداميستو » أمام الملك ، وخليلته ، وجمهور تالق بالألقاب والجواهر ، وناضل أشخاص من ذوى الالقاب

ليدخلوا . يقول مينويرنج « لقد رد العديد من السادة الذين عرضوا دفع أربعين شلنا ثمنا لكرسي من المقاعد الرخيصة (٤٨) » . ونافس الجمهور الانجليزى فى تصفيقهم وهتافهم البنادقة الذين صفقوا وهتفوا لأوبرا « اجربيينا » قبل ذلك باحد عشر عاما . وهكذا غدا هندل مرة أخرى بطل لندن .

ولكن البطولة شاب تمامها نقصان . ذلك أن جماعة منافسة من عشاق الموسيقى ، يتزعمهم ايرل بيرلنتن الراعى الأسبق لهندل ، فضلوا عليه جوفانى باتيستا بونونتشينى . فاقنعوا الأكاديمية الملكية للموسيقى بأن تفتتح موسمها الثانى بأوبرا بونونتشينى « آستارتو » (١٩ نوفمبر ١٧٢٠) ، وضمنوا لدور البطل فيها مغنيا سوبرانو كان الآن معبودا للجماهير أكثر من نيكولينى . وكان لـ « سنسينو » هذا (فرانتشيسكو برناردى) ، الكريه الطباع ، الساحر الصوت ، الفضل فى انتصار أوبرا آستارتو والوصول بعروضها الى العشرة . اما المعجبون ببونونتشينى فقد أشادوا به موسيقيا أعظم من هندل . ولم يكن أحد هذين المؤلفين مسئولا عن الحرب التى قسمت الآن جمهور الأوبرا اللندنى الى فريقين متخاصمين ، ولكن لندن كانت فى ذلك العام ، عام انفجار فقاعة بحر الجنوب ، عصبية كباريس . أما الملك والأحرار ففضلوا هندل ، وأما ولى العهد والمحافظون فناصروا بونونتشينى ، واحتشد الظرفاء وكتاب الكراريس لدخول المعركة .. وبدا أن بونونتشينى قد أثبت تفوقه باوبرا جديدة سماها « كريسبو » (يناير ١٧٢٢) وفقت توفيقا حمل الأكاديمية على أن تتبعها بنصر آخر لبونونتشينى هى « جريزلدا » . فلما مات ملبره العظيم (فى يونيو) اختير بونونتشينى ، لا هندل ، ليؤلف النشيد الجنائزى ، ونفحت ابنة الدوق هذا الايطالى معاشا سنويا قدره خمسمائة جنيه . لقد كان ذلك العام عام بونونتشينى .

ورد هندل بأوبرا « أوتونى » ومغنية سوبرانو جديدة اغراها من ايطاليا بضمان لم يسبق له نظير مقداره الفا جنيه . وكانت هذه المغنية ، واسمها فرانتشسكا كوتزونى ، كما رآها هوراس ولبول ، « قصيرة سمينة ، لها وجه عجينى القوام نزق ، وبشرة ناعمة رقيقة ،

ممثلة غير قديرة ، سيئة الهندام ، غبية ، شاطحة الاحلام (٤٩) » ، ولكنها كانت تصدح بصوت ساحر . وقد حفلت « بروفاتهـــا » بصراع الارادات والطباع الحادة . قال لها هندل « أعرف جيدا انك شيطانة حقيقية ، ولكننى أنا نفسي أريدك أن تعــرفى اننى بعلزبول (رئيس الشياطين) » . فلما أصرت على غناء لحن مخالفة لتعليماته ، أمسك بها وهدد بأن يقذفها من النافذة (٥٠) . ولما كانت الآلفان من الجنيهات ستتبعانها ، فانها اذعنت لأمره . وفى حفـــلة الافتتاح (١٢ ينـــاير ١٧٢٣) ابدعت الغناء حتى صاح احد المتحمسين من المقاعد الرخيصة وسط غنائها « على اللعنة ان فى بطنها عشا من البلابل (٥١) » . وقد نافسها سنسينو ، واعانها « باصو » بوسكى . وفى الليلة الثانية بيعت الكراسي بزيادة قدرها خمسة جنيهات . وفى نحو هــذه الفترة كتب جون جاى الى جوناثان سويفت يقول : ـ

« أما التسلية المسيطرة على المدينة فهى الموسيقى دون سواها ؛ هى الكمانات والفيولات الجهيرة والأوبوات الواقعيـــة ، لا القياثير والمزامير الشعرية . ولا يسمح لأحد بأن يقول « أنا أغنى » الا اذا كان خصيا أو امرأة ايطالية . وكل انسان أصبح الآن حكمـــا عظيمـــا فى الموسيقى كما كان الناس فى أيامك حكاما فى الشعر ؛ والقــوم الذين لم يكونوا يستطيعون التمييز بين نغمة وأخرى يتشاجرون الآن كل يوم على الأساليب المختلفة التى ينتهجها هندل ، وبونونتشينى ، وأتيليــو (اريوستى) ... وفى لندن ووستمنستر ، فى كل حديث مهـــذب ، يجمع الرأى على أن سنسينو هو أعظم رجل ظهر فى الوجود (٥٢) » .

ثم اشترى هندل بعد أن صعد نجمه ثانية بيتا فى لندن (١٧٢٣) واصبح مواطنا بريطانيا (١٧٢٧) . وواصل حرب الأوبرا حتى ١٧٢٨ . ونبش التاريخ بحثا عن الموضوعات ، فعرض على المسرح فلافيــوس ، وقيصر ، وتيمورلنك ، وسكبيو ، والاســـكندر ، وريتشرد الأول . ورد بونونتشينى باستياناكس ، وارمينيا ، وفارناسس ، وكلبورنيا ؛ ولحــن مؤلف آخــــر هو اريوســـتى أوبرات عن كريولانوس ، وفســـبازيان ، وارتاجزرسيس ، ودارا ؛ ولم ينسبق فى أى عهد ان لحن التاريخ على هذا النحو المتناغم . وفى ١٧٢٦ ازداد وطيس الصراع الثـــلاثى بوصـــول

فاوستينا بوردونى ، وهى مغنية نصف ـ سوبرانو ، دانت لها قبل ذلك البندقية ونابلى وفيينا . صحيح انها لم توهب نبرات كوتزونى الرقيقة العذبة ، ولكنها وجدت لصوتها سندا من وجهها وقوامها ورشاقتها . وفى أوبرا « اليساندرو » (٥ مايو ١٧٢٦) جمع هنــدل بين المغنيتين ، وأعطاهما عددا متساويا من الألحان المنفردة ، ووازن بينهما بعناية فى لحن ثنائى ، وصفق لهما السامعون معا بضع امسيات ، ثم انقســموا فريقين ، فكان فريق يصوت سخرية بينما الآخر يصفق استحسانا ، وهكذا أضيف بعد جديد لحرب الانغام . وفى ٦ يونيو ١٧٢٧ حين غنت المغنية الأولى فى أوبرا بونونتشينى « استياناتى » انفجـر انصــار كوتزونى محدثين جلبة شائنة من صفير الاستهجان وصــيحات الاســتنكار حين حاولت بوردونى الغناء . واندلع القتال فى قاع الصالة وسرى الى خشبة المسرح ، وشاركت فيه مغنيتا الأوبرا وراحت الواحدة منهما تشـد شعر الأخرى ، وحطم النظارة مناظر المسرح مبتهجين ـ وكل هذا فى حضرة كارولين ، اميرة ويلز ، وهى شاعرة بالخزى والمهانة .

ولعل « قياس الخلف » هذا كان وحده كافيا لقتل الاوبرا الايطالية فى انجلترة . أما الضربة القاضية فقد كالها لها واحد من أرق الناس فى لندن . ففى ٢٩ يناير ١٧٢٨ ، قدم جون جاى « أوبرا الشـحاذ » فى مسرح لنكولنز ان فيلدز . وقد وصفتا اغانيها المرحة الذكية البذيئـــة ، ولكن الذين سمعوها تغنى على انغام الموسيقى التى وضعها او اقتبسها يوهان بيبوش ـ هؤلاء فقط هم الذين فى وسعهم ان يفهموا لم تحــول جمهور المسارح بجملته تقريبا عن هندل وبونونتشينى واريوسـتى ، الى بيبوش وبوللى وجاى ، وظلت « أوبرا الشحاذ » تمثل الليلة تلو الليلة طوال تسعة أسابيع ، بينما راحت « سيرانات » مسرح صاحب الجـلالة وخصيانه يغنون لكراسي خاوية . ثم ان جاى كان قد هجا الاوابر الايطالية وسخر من حبكاتها البلهاء ، وهزأ بالارتعاشات و « الشخلعات » فى غناء المغنين والمغنيات السوبرانو ، واتخذ اللصوص والشحاذين والمومســات شخوصا للتمثيلية بدلا من الملوك والنبلاء والعذارى والملكات ، وعرض القصائد الشعبية الانجليزية اغانى أفضل من الالحان الايطالية . وابتهج الجمهور بالألفاظ التى يستطيع فهمها ، خصوصا اذا كانت مكشوفة بعض الشيء . ورد هندل بمزيد من الأوبرات ـ سيروى ، وطولوميو ملك مصر

(١٧٢٨) وقد حظيت كلتاهما بلحظات مجيدة ولكنهما لم تأتيا بربح ٠ وفى ٥ يونيو شهرت الأكاديمية الملكية للموسيقى أفلاسها ولفظت أنفاسها الأخيرة ٠

على أن هندل لم يسلم بالهزيمة ٠ فبعد أن هجره النبلاء الذين لاموه على خسائرهم ، كون مع هيديجر (يونيو ١٧٢٨) « الأكاديمية الجديدة للموسيقى » ، وانفق عليها عشرة آلاف جنيه ـ وهى كل مدخراته تقريبا ـ وتلقى من الملك الجديد ، جورج الثانى ، وعدا بألف جنيه فى العام معونة له ٠ وفى فبراير انطلق الى القارة فى رحلة أخرى ليجند مواهب جديدة ، لأن كوتزونى وبوردونى وسنسينو ونيكولينى وبوسكى ، هجروا سفينته المشرفة على الغرق وراحوا يغنون للبندقية ٠ واستخدم هندل بدلا منهم ديوكا وبلابل جددا ٠ انطونيو برناكى السوبرانو ، وانبيالى فابرى التينور ، وآنا ماريا سترادا ديل بو السوبرانو ٠ وفى رحلة عودته توقف ليزور أمه آخر مرة ٠ وكانت يومها فى التاسعة والسبعين ، عمياء مشلولة تقريبا ٠ وبينما كان فى هاله زاره فلهلم فريدمان باخ ، الذى أتاه بدعوة لزيارة ليبزج ، حيث عرضت قبيل ذلك أول مرة « آلام المسيح كما رواها متى البشير » ٠ واضطر هندل الى رفض الدعوة ٠ فهو لم يسمع بيوهان سباستيان باخ الا لماما ، ولم يخطر بباله قط أن شهرة هذا الرجل ستحجب شهرته يوما ما ٠ وهرول قافلا الى لندن ، والتقط فى طريقه الباصو الهامبورجى يوهان ريمنشنيدر ٠

وظهرت الفرقة الجديدة فى أوبرا « لوتاريو » فى ٢ ديسمبر ١٧٢٩ دون أن تلقى نجاحا ٠ وجرب حظه ثانية فى ٢٤ فبراير باوبر « بارتنوبى » ، فلم يوفق ٠ وأعيد برناكى وريمنشنيدر الى القارة ، واستدعى سنسينو ثانية من ايطاليا ، وبفضله هو وسترادا ديل بو ، ونص كتبه متاستاسيو ، اجتذبت أوبرا هندل « بورو » أسماع لندن (٢ فبراير ١٧٣١) ، وكان قد خلع على هذه الأوبرا طائفة من أعظم ألحانه تأثيرا ٠ وامتلأ مسرح صاحب الجلالة بروداه مرة أخرى ٠ واستقبلت أوبرتان أخريان ، هما « ايتسيو » و « سوزارمى » استقبالا طيبا ٠

ولكن الكفاح للابقاء على جمهور انجليزى باوبرا ايطالية أخذ

يصبح أشد عسرا ، وقد بدا الآن أنه طريق مسدود ينتهى دائما بالانهاك البدنى والمالى . لقد قهر هندل انجلترة ، ولكن انجلترة بدت قاهرته الآن ، فلقد كانت أوبراته شديدة التشابه ، مصيرها المحتوم الى الضعف والهزال . ولقد سمت بها الألحان الرائعة ، ولكن هذه الالحان انما كانت موصولة بالحبكة وصلا هزيلا ، وكانت بلغة غير مفهومة مهما كان فيها من انسياب رقيق ، وكثير منها لحن للسوبرانو من الرجال ، وهؤلاء ازداد العثور عليهم صعوبة . وتحكمت القواعد الجامـدة والغيرة بين الفنانين فى توزيع الألحان ، وزادت من افتعال القصة . ولو أن هندل واصل السير على الخط الايطالى لكاد يصبح اليوم نسيا منسيا . على أن سلسلة من المصادفات انتزعته انتزاعا من دربه المطروق ووجهته الى الميدان الذى سيظل فيه نسيج وحده حتى فى أعين زماننا هذا .

جـ - هزيمتـــه

فى ٢٣ فبراير ١٧٣٢ ، وفى حانة « التاج والمرســـاة » عرض برنارد جيتس ، احتفالا بعيد ميلاد هندل السابع والاربعين ، أوراتوريو هندل « استير » عرضا خاصا . وقد اجتذبت جمهورا مجزيا أغـــرى جيتس بتكرار عرضها مرتين - مرة لجماعة خاصة ، ومـرة (فى ٢٠ أبريل) للجمهور . وكان هذا أول أداء علنى فى انجلترة . واقترحت الأميرة أن عرض « اسـتير » بمسرح جـــلالة الملك وتزويدها بالملابس والمناظر والحركة ، ولكن أسقف لندن احتج على تحويل الكتاب المقدس الى أوبرا . فاتخذ هندل الآن قرارا من أهم القرارات فى حياته ، وأعلن انه سيخرج « قصة استير المقدسة » « اوراتوريو : الانجليزية » فى مسرح هيماركت فى ٢ مايو ، ولكنه أضاف أنه « لن يصاحب الأداء حركة على المسرح » ، وأن الموسيقى « ستؤدى بطريقة حفلة التتويج الدينية » ، وهكذا فرق بين الأوراتوريو والأوبرا . وجاء بكورسه وأوكستراه ، وعلم لاستراادا والايطاليين الآخرين أن يغنوا أغانيهم المنفـردة بالانجليزية . وحضرت الأسرة المالكة ، واحتملت « استير » عروضا خمســة فى أول شهر لها .

وأخفقت أوراتوريو أخرى سماها « أسيس وغلاطية » (١٠ يونيو) فى ارضاء مشـــاهديها ، وارتد هنـدل الى الأوبرا . فعرضت أوبرا

« أورلاندو » (٢٧ يناير ١٧٣٣) فترة طيبة • ولكن حتى مع هـــذا التحسن ، واجهت شركته مع هيديجر الافلاس • فلما اخـرج هنـــدل الاوراتوريو الثالثة « دبوره » (١٧ مارس) حاول أن يستعيد كفايته المالية بمضاعفة أجر الدخول • ونددت رسالة غفل من التوقيع موجهة الى صحيفة « كرافتسمان » بهذا الاجراء ، ودعت للثورة على سيطرة « المستر هندل الوقح ... المستبد ، المسرف (٥٣) » على موســيقى لندن • ولما كان هندل قد ظفر برعاية الملك ، فقد فقد أوتوماتيا مودة فردريك ، أمير ويلز ، وابن جورج الثانى وعدوه • واخطأ هندل ــ الذى كثيرا ما خضع سلوكه لحدة طبعه ــ بالاساءة الى جوزف جوبى ، الذى كان يعلم الرسم لفردريك ؛ وثار جوبى لنفسه برسمه كاريكاتورا للموسيقى ظهر فيه مخلوقانهما متوحشا له خطم خنزير برى ؛ ووزعت نسخ من الرسم فى أرجاء لندن فاضافت الى تعاسة هندل • وفى ربيع ١٧٣٣ شجع أمير ويلز حاشيته على تاليف فرقة منافسة سميت « أوبرا الأشراف » • واستقدمت الفرقة من نابلى أشهر معلمى الغناء فى ذلك العهد ، وهو نيكولو بوربورا ، وأغرت سنسينو بترك هندل ، وكوتزونى بالمجىء من ايطاليا ؛ وفى ٢٩ ديسمبر ، وفى مسرح لنكولنز ان فيلدز ، اخرجت أوبرا بوربورا « آريانا » التى لقيت استحسانا عظيما • أمــا هندل فقد قابل هذا التحدى الجديد باوبرا تناولت موضــوعا مشابها مشابهة تنطوى على التحدى ، « آريانا فى كريت » (٢٦ يناير ١٧٣٤) ، فلقيت هى أيضا استقبالا حسنا • ولكن فى نهاية الموسم انتهى عقده مع هيديجر ، وأجر هيديجر مسرح جلالة الملك لأوبرا الاشراف ، ونقل هندل فرقته الى مسرح كوفنت جاردن الذى يملكه جون رتش •

وانتقم بوربورا بدعوة كارلو بروسكى ، اشهر المغنين الخصيان ، المعروف لأوربا كلها باسم « فارينللى » • وقد نفصل الحديث عن غناء هذا الرجل حين نلتقى به فى وطنه بولونيا ، وحسبنا هنا ان نقول انه حين انضم الى سنسينو وكوتزونى فى أوبرا بوربورا « أرتازرسي » كان ذلك حدثا فى تاريخ انجلترة الموسيقى ، وأعيد عرض الأوبرا أربعــين مرة فى السنوات الثلاث التى مكثها فارينللى ــ وقابلها هنــدل باوبرا « أريودانتى » (٨ يناير ١٧٣٥) ، وهى من أروع أوبراته ، غنيـــة غنى فريدا فى موسيقاها الآلية ، وقد ظفرت بعشرة عروض فى شهرين،

ووعدت بأن تغطى نفقات هنـدل . ولكن حين أخـرج بوربورا أوبرا « بوليفيمو » (أول فبراير) التى لعب فيها فارينللى دور البطل ، لم يستطع الملك ولا الملكة ولا الحاشية أن يمتنعوا عن مشاهدتها ، وفاقت فى مرات عرضها « ارتازيرمي » ، بينما لم تلبث أوبرا هندل «التشينا» (١٦ أبريل) أن اقفر مسرحها من رواده ـ ولو أن الحانا أوركسترالية متتابعة (سويت) من موسيقاها لا تزال تظهر على البرامج اليـوم . واعتزل هندل ساحة القتال نصف سنة ليطبب آلامه الروماتزمية بميـاه ينابيع تنبردج .

وفى ١٩ فبراير عاد الى كوفنت جاردن باوراتوريو لحنها لقصيدة درايدن «وليمة الاسكندر» . كتب معاصر أن جمهور الألف والثلثمائة مشاهد الذين ملأوا المسرح استقبلوا الأوراتوريو بتصفيق « ندر أن سـمع فى لندن (٥٤) » . وتعزى هندل بربح منهـا بلغ ٤٥٠ جنيهـا ، ولكن القصيدة كانت أهزل من أن تحتمل اعادة عرضها أكثر من أربع مرات ، رغم أن هندل قام بعزف مثير على الارغن فى فترة الاستراحة ، وانقلب المؤلف ـ المخرج ـ القائد ـ العازف اليائس الى الأوبرا من جديد . وفى ١٢ مايو قدم « أطالانطا » مسرحية رعوية تحتفل بزواج أمير ويلز . وكان قد دعا من ايطاليا مغنيا خصيا جديدا يدعى جيتسيللو (جواكينو كونتى) لغناء السوبرانو ، وخص دوره بلحن (كارى سلفى » وهـو من اجمل وأخلد اغانيه . وبلغ من سرور فردريك أنه نقل رعايته من فرقة بوربورا الى فرقة هندل ، ولكن هذا النصر كدره الغاء الملك لتبرعه السنوى بالف جنيه لمشروع هندل حين سمع بالخطوة التى اتخذها ابنه .

وكف بوربورا عن المعركة فى ربيع ١٧٣٦ . وملأ هندل مسرحه بمناوبة الأوبرا مع الأوراتوريو ، وأضاف الى فرقـة « جوسـتينو » (١٦ فبراير ١٧٣٧) « الدببه ، والحيوانات الغريبة ، والتنانين التى تقذف النار (٥٥) » . ولكن الجهد الذى اقتضته مسئولياته المنـوعة حطمه . وفى أبريل اصابه انهيار عصبى ، ونقطة شلت ذراعه اليمنى فترة . وفى ١٨ مايو عرض « برينيتشي » ، آخر أوبرا كتبها لفرقته . ثم أغلق مسرحه فى أول يونيو مثقلا بديون كثيرة ، متعهدا بالوفاء بها جميعا كاملة ، وقد فعل . وبعـد عشرة أيام حلت « أوبرا الاشراف »

المنافسة له ، مثقلة بدين قدره اثنا عشر ألف جنيه . وهكذا انتهى عصر الأوبرا العظيم فى انجلترة .

وكانت صحة هندل من بين ما تخلف من حطام . فالروماتزم فى عضلاته ، والتهاب المفاصل فى عظامه ، والنقرس فى أطرافه ـ هذه كلها تفاقمت فى صيف ١٧٣٧ بنوبة جنون عارضة (٥٦) . فغادر انجلترة ليستشفى بمياه آخن . وكتب السرجون هوكنز يقول انه هناك:

« احتمل من افرازات العرق التى بعثتها حمامات البخار ما أدهش كل انسان . وبعد بضع محاولات من هذا النوع ، بدت معنويته خلالها ترتفع ولا تهبط من أثر العرق الغزير ، فارقه اضطراب عقله ، وبعد بضع ساعات .. .. ذهب الى كنيسة المدينة الكبرى ، ووصل الى الأرغن ، ثم عزف عليه عزفا جعل الناس يعزون شفاءه الى المعجزة (٥٧) » .

وفى نوفمبر عاد الى لندن ، والى الكفاية المالية وأسباب التشريف. وكان هيديجر قد عاد ثانية الى ممرح صاحب الجلالة . ونقد هندل الف جنيه لقاء أوبراتين ، واحتوت احداهما وهى « سرمي » (١٥ أبريل ١٧٣٨) على اللحنين المشهيرين « لارجو » و « أومبرا ماى فو » . ودفع مستاجر حدائق فوكسهول الى روبياك ثلاثمائة جنيه لينحت تمثالا يظهر فيه الموسيقى وهو يداعب أوتار قيثارة ؛ وفى ٢ مايو أزيح الستار عن هذا التمثال الثقيل الوقفة ، الغبى التعبير ، فى الحدائق فى حفلة موسيقية . ولا بد أن هندل قد سره أكثر من هذا تلك الحفلة التى أعين بها فى ٢٨ مارس ، والتى أتته باكثر من الف جنيه . فدفع الآن ديون أعجل دائنيه ، وكان احدهم يهدد بايداعه سجن المدينين . ولكنه كان مشرفا على الافلاس برغم كل تشريف . ولم يستطع أن يتطلع بعد ذلك لهيديجر ، الذى أعلن (٢٤ مايو) أنه لم يتلق من الاكتتابات ما يتيح له اخراج أوبرات فى ١٧٣٨ ـ ٣٩ . هنا ، ودون تكليف ولا فرقة ، بدأ هندل أعظم أطواره ، وهو فى الثالثة والخمسين ، والأوصاب والاوجاع تهز بدنه .

د ـ الاوراتوريو

نشأ هذا الشكل الجديد نسبيا من كورالات العصور الوسطى التى تمثل أحداثا فى التاريخ المدون فى الكتاب المقدس أو حياة القديسين . وكان القديس فليب نيرى قد خلع على هذا الشكل اسمه بتفضيله أياه وسيلة للعبادة والتعليم الدينى فى مصلى آباء الاوراتوريو فى روما . وطور جاكومو كاريسمى وتلميذه اليساندرو سكارلاتى الاوراتوريو فى ايطاليا ، ونقلها هنريش شوتس من ايطاليا الى ألمانيا ، وبلغ رينهارت كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (١٧٣٩) . وهـذا هو التراث
كيزر بهذا اللون شأوا بعيدا قبل موته (٢٧٣٩) . وهـذا هو التراث
الذى بلغ غايته فى « مسيا » " Messiah " هندل عام ١٧٤١ .

والفضل فى نجاح هندل يرجع بعضه الى توفيقه بين هذا الشكل وبين الذوق الانجليزى . وقد واصل اختيار موضوعات الاوراتوريو من الكتاب المقدس ، ولكنه أضفى عليها بين الحين والحين عنصر تشويق غير دينى ، كما فعل فى موضوع الحب فى « يوسف واخوته » . وفى « يفتاح » ؛ وركز على الطابع الدرامى لا الدينى ، كما فعل فى «شاول» و « اسرائيل فى مصر » ؛ واستعمل نصا انجليزيا خالصا ، أخذ جزءا منه فقط من الكتاب المقدس. لقد كانت فى جزء كبير منها موسيقى دينية، ولكنها مستقلة عن الكنائس والطقوس. وقد مثلت على مسرح تحت رعاية علمانية . يضاف الى هذا أن هندل استخدم الموضوعات الكتابية ليرمز بها للتاريخ الانجليزى ، فاسرائيل ترمز لانجلترة ، وتمرد ١٦٤٢ الكبير وثورة ١٦٨٨ المجيدة يمكن سماعهما فى كفاح اليهود للتحرر من ربقة المصريين (اسرة ستيوارت) والسيطرة الهلنستية (الغالية) ؛ ولم يكن الشعب المختار فى حقيقته ســـوى الامة الانجليزية ، واله اسرائيل هو نفس الاله الذى قاد الشعب الانجليزى الى النصر بعد المحن . وكانت فكرة هندل عن الله اشبه بفكرة البيورتان ، فهو « يهوه » اله العهد القديم الجبار ، لا الله الاب كما يصوره العهد الجديد (٥٨) . وكان هذا احساس انجلترة ، فاستجابت فى فخر لاوراتوريوات هندل .

بدأ الطريق الصاعد الى « المسيا » باوراتوريو « شـــاول » التى أخرجت على مسرح صاحب الجلالة فى ١٦ يناير ١٧٣٩ . « ان مارش الموتى المهيب ، الجليل ، لكفيل وحده بان يخلد هذا العمل (٥٩) » .

ولكن الجمهور لم يعتد شكل الأوراتوريو ، لذلك لم تعمر « شاول » أكثر من عشرة عروض . وبهمة لا تصدق ألف هندل وقدم (٤ أبريل) آية أخرى من آياته هى « اسرائيل فى مصر » . هنا جعـل الكورس هـو البطل ، صوت أمة تولد ، ووضع موسيقى يعـدها الكثيرون أسـمى ما كتب (٦٠) . ولكن اتضح أنها مترامية عسيرة فوق ما يحتمله الذوق السائد آنئذ ، وانهى هندل موسمه التاريخى بديون جديدة .

وفى ٢٣ أكتوبر اندفعت انجلترة الى الحرب مع أسـبانيا بسبب أذن جنكنز . وفى وسط ضجيج الحرب وصخبها استأجر هندل مسرحا صغيرا ، وفى عيد القديسة راعية الموسيقيين قدم الاطار الموسيقى الذى ألفه لقصيدة درايدن الغنائية التى كتبها بمناسبة « عيد القديسه سيسيليا » (٢٢ نوفمبر ١٧٣٩) ولم تستطع لندن ، حتى فى برد تلك الليلة من ليالى الشتاء وفوضاها ، أن تقاوم ذلك الاستهلال الرخيم المشرق ، أو لحن السوبرانو الانيرى فى القسم الثالث ، أو « الناى الشاكى الخافت » و « العود الصادح » فى الخامس ، فى حين اتفق « دق الطبل الراعد ، ذلك الدق المضاعف المضاعف المضاعف » مع روح الحـرب المدمدمة فى الشوارع . وعاود الأمل هندل ، وجرب أوبرا سـماها « امينيـو » (١٧٤٠) ، ولكنها فشلت ، وجرب أخرى اسمها « ديداميا » (١٧٤١) ، ففشلت هى أيضا ، واعتزل العملاق المرهق المسرح الموسيقى اللنـدنى قرابة عامين .

وكان هذان العامان أروع ما فى حياته . ففى ٢٢ أغسطس ١٧٤١ بدأ يؤلف أوراتوريو « المسيا » . وقد اقتبس النص تشـارلز جيننز من أسفار أيوب والمزامير واشعياء ومراثى أرميا وحجى وزكـريا وملاخى — وكلها من أسفار العهد القديم ، ومن أناجيل متى ولوقا ويوحنا ، ورسائل بولس ، وسفر الرؤيا — وهى من أسفار العهد الجديد. وأتم كتابة الموسيقى فى ثلاثة وعشرين يوما ، وقال لصديق انه فى بعض هذه الأيام « حسبتنى حقا أبصر السماء كلها امامى فعلا ، والله العلى ذاته (٦١) » . واذ لم يتح له أمل مبكر فى العثور على جمهور لها ، فقد انتقل الى كتابة أوراتوريو كبيرة أخرى هى « شمشون » ، بناها على قصيدة ملتن عن معاناة شمشون Samson Agonistes وفى تاريخ غير معرف خـلال

هذه النشوات تلقى دعوة لعرض بعض اعمـاله فى دبلن . ويبدأ له ان الاقتراح آت من العناية الالهية التى تقدره حق قدره ، ولكن الحقيقة انه أتى من وليم كافندش ، دوق ديفونشير ، ونائب الملك فى أرلندة .

ووصل الى دبلن فى ١٧ نوفمبر ١٧٤١ . واستخدم أفضل من وجد من المغنين ، ومنهم سوزانا ماريا كبر ، الابنة المثقفة لتوماس آرن . ونظمت عدة هيئات خيرية ست حفلات موسيقية له ، نجحت نجاحـا حمله على تقديم سلسلة ثانية . وفى ٢٧ مارس ١٧٤٢ نشرت مجلتان فى دبلن اعلانا جاء فيه :

« رغبة فى اغاثة المسجونين فى عدة سجون ، واعانة مستشفى ميرسر .. .. سيقدم يوم الاثنين ١٢ أبريل على قاعة الموسـيقى فى شارع فيشامبل ، اوراتوريو المستر هندل الكبرى الجديدة ، المسـماه « المسيا » . وسيشارك فيها اعضاء الكورس فى كلتـا الكتدرائيتين ، ويعزف المستر هندل بعض الكونشرتوات على الأرغن (٦٢) » .

وبيعت التذاكر كذلك للبروفات التى ستجرى فى ٨ أبريل ، والتى قالت مجلة فوكنر انها « تؤدى أداء رائعا ... اعترف معه أعظم الحكام بانها أبدع لحن موسيقى سمعه الناس اطلاقا » . واضيف الى هذا اعلان يؤجل حفلة الاثنين الى الثلاثاء ، ويرجو السيدات « أن يحضرن بغير أطواق لأثوابهن ، لأن هذا من شأنه أن يدعم عمل البر ، اذ سيفسح المكان لعدد أكبر من الحاضرين » . وطلبت فقرة أخـرى الى الرجـال أن يحضروا بغير سيوفهم . وبهذه الطرق اتسعت قاعة الموسيقى لسـبعمائة شخص بدلا من ستمائة .

وأخيرا ، وفى ١٣ أبريل ١٧٤٢ ، قدم أشهر الألحان الموسـيقية الكبرى قاطبة . وفى ١٧ أبريل احتوت ثلاثة صحف دبلنية نقدا واحدا :

« فى يوم الثلاثاء الماضي قدمت أوراتوريو المستر هندل الكبرى المقدسة ، « المسيا » .. .. وقد اعترف أفضل الحكام بانها أفضل القطع الموسيقية صقلا . وتعوزنا الألفاظ للاعراب عن المتعة الفائقة التى اتاحتها للجمهور المزدحم المعجب . وقد تضافرت عناصر السـمو والفخـامة

والرقة ، التى واءم بينها وبين انبل الالفاظ واجلها واشدها تاثيرا ، لتطرب وتسحر القلب والاذن المسلوبين . ومن الانصاف لمستر هندل أن يعرف العالم أنه تبرع فى سخاء بحصيلة هذه الحفلة الكبرى لتوزع بالتساوى بين جمعية اغاثة المسجونين ، ومبرة العجزة ، ومستشفى ميرسر ، وهو عمل ستذكره له هذه الهيئات بالشكر على الدوام (٦٣) » .

واعيد عرض « المسيا » فى دبلن فى ٣ يونيو . وقد أعيدت الف مرة منذ ذلك التاريخ ، ومع هذا فمنذا الذى مل تلك الالحان ـ سواء الهادئة منها أو الفخمة ـ ، تصاحبها الترانيم الخافتة الرقيقة اللطيفة مثل « سوف يطعم قطيعة » و « اعلم أن فادى حى » ، و « ليتمجد اسمه » و « كان مزدرى مرفوضا » ؟ لقد حدث والمسز كبر تترنم بهذا اللحن الأخير فى أول عرض بدبلن ان صاح قسيس انجليكانى من بين الحاضرين قائلا « لتغفرلك خطاياك من أجل هذا أيتها المرأة ! » فكل ما فى الرجاء الدينى من عمق وحرارة ، وكل ما فى الترتيل الورع من رقة وحنان ، وكل ما وهب الموسيقى من فن وعاطفة ـ كل هذا اجتمع لبجعل من هذه الالحان أرفع اللحظات فى الموسيقى الحديثة .

وفى ١٣ أغسطس غادر هندل دبلن منتعش الروح ممتلىء الجيب وقد عقد النية على أن يغزو انجلترة من جديد . ولابد أن قد سرى عنه غلو بوب فى الثناء عليه فى الجزء الرابع من « ملحمة الأغبياء » (١٧٤٢) :

« ها هو هندل العملاق يقف قويا وهو مدجج بسلاح جديد !
مثل برياريوس الشجاع ، وله مائة يد (أى الأوركسترا)
يأتى ليحرك ويوقظ ويهز النفوس
ورعود جوبيتر تتبع طبول مارس .

وعليه ففى ١٨ فبراير ١٧٤٣ ، فى المسرح الملكى بكوفنت جاردن، قدم الموسيقى الذى استعاد شبابه أوراتوريو « شمشون » . وكان جورج الثانى على رأس الصفوة اللندنية التى حضرت حفلة الافتتاح . وأبهج الاستهلال الجميل كل انسان سمعه الا هوراس ولبول ، الذى صمم على ألا يعجب بشىء قط ؛ وكان اللحن الرفيع الذى مطلعه « يارب الجنود »

رائعا روعة تقرب من روعة الحان المسيا ، وكما فعل شمشون الجبار الذى سحق بقوته المحتفلين اذ اسقط عليهم المعبد ، فكذلك كان تاثير أوراتوريو « شمشون » ساحقا على الحاضرين . ولكن حين عرضت المسيا نفسها بعد شهر (٢٣ مارس) على لندن ، لم يستطع حتى الملك ـ الذى أرسي يومئذ تقليدا دائما بوقوفه عند ترنم الفرقة بلحن « هللويا » ـ أن ينهض بالأوراتوريو الى مقام التقبل . فرجال الدين نددوا باستعمال المسرح للموسيقى الدينية ، اما النبلاء فما زالوا على صدهم وجراح اخفاق فرقتهم الأوبرالية توجعهم . ولم تعرض المسيا فى العامين التاليين الا ثلاث مرات ، ثم توقف عرضها حتى عام ١٧٤٩ . ففى ذلك العام أهدى هندل ، الذى كان رجلا بارا بالانسانية فيما بين افلاساته ، ارغنا جميلا لمستشفى اللقطاء الذى كان صديقه هوجارث يحبه حبا جما ، وفى أول مايو ١٧٥٠ قدم أول عرض من عروض المسيا السنوية لاعانة أولئك البؤساء المحظوظين .

وفى ٢٧ يونيو ١٧٤٣ قاد جورج الثانى جيشه للنصر فى معركة ديتنجن . فلما عاد الى لندن حيته المدينة بالعروض والأضواء والموسيقى، وصدحت الكنيسة الملكية فى قصر سانت جيمس بـ « تسبيحة ديتنجن » التى لحنها هندل لهذه المناسبة (٢٧ نوفمبر) . وكانت نتاج العبقرية والمقص ، لأنها احتوت فقرات مسروقة من مؤلفين اسبق وأقل شأنا من هندل ، ولكنها كانت معجزة من معجزات اللصق . وابتهج الملك .

فلما أن تشجع هندل بالابتسامات الملكية ، جدد جهوده ليقتنص آذان لندن من جديد . وفى ١٠ فبراير ١٧٤٤ قدم أوراتوريو أخرى سماها « سملى » احتوت ترنيمة بديعة اسمها « حيثما مرت » ما زالت تترنم بها انجلترة وامريكا ، ولكن الأوراتوريو لم تستطع تجاوز عروض اربعة. وظل النبلاء على عدائهم لهندل ، وحرصت نبيلات كثيرات على اقامة الولائم المترفة فى الأمسيات المقررة للحفلات الموسيقية التى يحييها هندل، واستؤجر الأوباش ليمزقوا اعلاناته . وفى ٢٣ ابريل ١٧٤٥ الغى الحفلات الموسيقية الثمان التى أعلن عنها من قبل ، وأغلق مسرحه ، واعتزل فى تنبردج ولز . وأرجفت الشائعات أنه مجنون . كتب حامل لقب ايرل شافتسبرى فى تلك الفترة يقول (٢٤ اكتوبر) « ان هندل المسكين يبدو

أحسن قليلا ، وأرجو أن يتماثل للشفاء تماما ، ولو أن عقله قد اختلط اختلاطا تاما (٦٤) » .

وربما أخطأت الشائعات ، لأن هندل الذى بلغ الستين استجاب بكل قواه لدعوة من ولى العهد ليحيى ذكرى انتصار أخى الأمير الأصغر ، دوق كمبرلاند ، على القوات الاستيوارتية فى كالودين . واتخذ هندل انتصار يهوذا المكابى (١٦٦ - ١٦١ ق .م) على خطط أنطيوخس الرابع لفرض الهلنستية على وطنه موضوعا رمزيا للأوراتوريو الجديدة . وقد أحسن الجمهور استقبالها (أول أبريل ١٧٤٧) حتى احتملت اعادة عرضها خمس مرات فى أول موسم لها . أما يهود لندن الشاكرون هذا الاحتفال النبيل بأحد أبطالهم القوميين ، فقد أعانوا على تكثير جمهور النظارة ، فمكنوا هندل من تقديم الأوراتوريو أربعين مرة قبل موته . واعترافا بفضل هذا الدعم الجديد اتخذ أكثر موضوعات الحانه الدينية بعد ذلك من تاريخ اليهود أو أساطيرهم ، اسكندر بالوس ، ويشوع ، وسوسنة ، وسليمان ، ويفتاح . وعلى عكس ذلك لم تجتذب أورانوريو « تيودورا » - وهو اسم مسيحى - من الجمهور الا أقل القليل ، حتى لاحظ هندل فى مرارة أنه « كان هناك مكان يتسع للرقص » وغادر تشسترفيلد المسرح قبل نهاية العرض معتذرا بأنه « لا يريد ازعاج الملك فى خلوته (٦٥) » .

هـ - بروميثيوس

ليست الأوراتوريو الا « نوعا » واحدا من ذلك « الجنس » المسمى هندل . ذلك أن روحه المتعددة الأشكال اتجهت بتوافق تلقائى تقريبا لأى شكل من الأشكال الموسيقية الكثيرة . فالأغانى التى مازالت تمس أوتار العاطفة ، وقطع الأرغن أو البيان المتناهية الرقة ، والسوناتات ، والمتتابعات ، والرباعيات ، والكنشرتو ، والأوبرا ، والأوراتوريو ، وموسيقى الباليه ، والقصائد الغنائية ، والرعويات والكنتاتات ، والتراتيل ، والأناشيد الوطنية ، وتسبيحات الشكر ، وترانيم أسبوع الآلام - كل شيء تقريبا الا السمفونية الوليدة نجده فى موسيقاه ، منافسا بذلك فيض بيتهوفن أو باخ المتدفق ، و « متتابعات الهاربسيكورد » تبدو اليوم على الهاربسيكورد وكأنها أصوات أطفال سعداء لم يعرفوا التاريخ بعد . وهناك مجموعة ثانية من المتتابعات .

بدات بخلك الاستهلال الذى لعب به الموسيقى برامز لعبا مرحـــا فى « تنويعات وفوجه على موضوع لهندل » .

وكما اخذ هندل الاوراتوريو عن كاريسيمى وكايزر وارتفع بها الى أوجها ، كذلك أخـــذ عن توريللى وكوريللى « الكونشرتو الكبير » ـ لآلتين أو اكثر لمغن واحد أو مغنيين مع أوركسترا صغير (أوركسـترا الحجرة) . وفى مجموعته الموسيقية السادسة ترك اثنى عشر من هذه الكونشرتوات الكبيرة ، مقابلا كمانين وفيولنتشيللو بمجموعة وترية ، وبعضها يبدو لنا اليوم رتيبا ، وبعضها يقرب من كونشرتو براندنبورج لباخ . كذلك نجد فى هندل كونشرتوات ممتعة لآلة منفردة ـ الهاربسيكورد أو الكمان ، أو الفيولا ، أو الاوبوا ، أو الهارب . أما تلك المخصصـــة للوحات المفاتيح فكان يؤديها هندل بنفسه فى المقدمات أو الفواصل . وكان أحيانا يترك متسعا فى موسيقى الكونشرتو لما يجب أن نســميه اليوم « ارتجالا » cadenza ، حيث يستطيع العازف أن يطـــلق العنان لخياله ويظهر براعته . وكانت ارتجالات هندل فى مثل هـــذه الافتتاحات أعاجيب تحدث الناس بها طويلا .

وفى يوليو ١٧١٧ نظم جورج الاول « رحلة » ملكية فى ذهبيات حفلت بالزينات على نهر التيمز . وتكشف صحيفة « الديلى كورنت » عدد ١٩ يوليو ١٧١٧ عن هذا المشهد فتقول :

« فى مساء الاربعاء حوالى الثامنـــة نزل الملك الى النهر عنــد هوايتهول فى ذهبية مكشوفة ، كان فيها أيضا دوقة نيوكاسل ، وكونتيسة جودولفن ، ومدام كيلمانسيك ، وايرل أوركنى ، وصعدوا فى النهر جنوب تشلسي . ورافقتهم ذهبيات كثيرة أخرى يستقلها بعض عليـــة القوم ، وزوارق كبيرة العدد بحيث غطت صفحة النهر تقريبا . وخصص زورق فرقة موسيقية من فرق المدينة لعزف الموسـيقى ، زود بخمسين آلة من جميع الانواع ، عزف عليها العازفون طوال الطريق من لامبث .. .. ابدع السمفونيات ، التى لحنها المستر هنـــدل خصيصا لهـذه المناسبة وأعجبت جلالته جدا حتى طلب عزفها اكثر من ثلاث مرات فى الذهاب والاياب (٦٦) » .

وهذه هى « موسيقى المياه » ، التى هى اليوم أبقى والذ ما تخلف من مؤلفات هندل الآلية . ويبدو انه كان هناك فى الاصل احدى وعشرون حركة - وهو عدد اكبر من أن يحتمله المستمعون العصريون الذين تعوزهم الذهبيات والوقت ، ونحن لا نستمع عادة لأكثر من ست . وبعضها متعبة بعض الشيء فى تطوافها المشجى ، ولكن اكثرها موسيقى صحية مرحة متالقة ، كانها متدفقة من ينبوع لتهدهد خليلات الملك . و « موسيقى المياه » اقدم قطعة موسيقية فى الذخيرة الاوركسترالية الحالية .

وبعد جيل كامل ، ومن اجل جورج ثان ، اضفى هندل الكرامة على مناسبة خلوية أخرى . ذلك أن الحكومة قررت اقامة عرض للألعاب النارية فى جرين بارك احتفالا بصلح اكس - لا - شابل ، ووكلت هندل بتاليف « موسيقى الألعاب النارية الملكية » . فلما عزفت بروفا هذه الموسيقى فى حدائق فوكسهول (٢١ أبريل ١٧٤٩) ، دفع اثنا عشر الف شخص مبلغ الشلنين - الكبير فى ذلك الوقت - للاستماع اليها ؛ وبلغ التزاحم مبلغا عطل المرور على الطريق الذى يعبر كوبرى لندن ثلاث ساعات - « ولعل هذا كان أروع ثناء ظفر به أى موسيقى على الاطلاق (٦٧) » . وفى ٢٧ أبريل شق نصف سكان لندن طريقهم الى جرين بارك ، واقتضى الأمر هدم ست عشرة ياردة من سور الحديقة لتمكينهم من الدخول فى الميعاد . وعزفت « فرقة » من مائة موسيقى لحن هندل ، وتالقت الألعاب النارية فى السماء ، وشبت النار فى مبنى أقيم لهذه المناسبة ، فذعر الجمع المحتشد وأوذى كثيرون ومات شخصان . ولم يبق من المهرجان الا موسيقى هندل . واذ كان هدف هذه الموسيقى أن تخلد حربا ظافرة وأن تسمع عن بعد فقد كانت عبارة عن دوى هتافات وطنين طبول أشد ضجيجا مما تحتمله الأذن التى الفت الحركة البطيئة . ولكن فيها حركة بطيئة جدا تقع وقعا محمودا على الأعصاب المرهقة .

وانتهت انجلترة آخر الأمر الى محبة الألمانى العجوز الذى ناضل جاهدا ليكون انجليزيا . لقد فشل فى نضاله ، ولكنه حاول ، حتى الى حد السب والشتم بالانجليزية . وتعلمت لندن ان تغتفر له بدانته الهائلة ،

ووجهه العريض وخديه المنتفخين ، وساقيه المقوستين ومشيته الثقيلة ، ومعطفه القرمزى المخملى ، وعصاه الذهبية المقبض ، وعجبه وتعاليه ؛ لقد كان لهذا الرجل بعد كل المعارك التى خاضها الحق فى الظهور بمظهر الفاتح ، أو على الاقل بمظهر اللورد ، نعم كان فى سلوكه جلافة ، وكان يدرب موسيقييه بالحب والغضب ، ويوبخ جمهور المستمعين على كلامهم خلال البروفات ، ويهدد مغنياته باستعمال العنف ، ولكنه غلف عنفه بالفكاهة . فلما التحمت كوتزونى وبوردونى بالايدى على خشبة المسرح قال هدوء « اتركوهما لتنهيا المعركة » ، وراح يدق لحنا مصاحبا مرحا على النقاريات ليرافق سورة غضبهما (٦٨) . ولما هدده مغن بالوثب على الهاربسيكورد لأن عزف هندل المصاحب اجتذب السامعين اكثر من غناء المغنى ، طلب اليه هندل أن بحدد ناريخ هذه التمثيلية المقترحة للاعلان عنها قائلا أن « الذين سياتون لبروك تقفز أكثر من الذين سياتون لبسمعوك تغنى (٦٩) » . وكانت ملاحظاته الظريفة تعدل فى براعتها تعليقات جوناثان سويفت، ولكن الاستمتاع بها كان يقتضي الالمام باربع لغات .

وفى ١٧٥٢ بدأ يفقد بصره . فبينما كان يكتب « يفتاح » اختلطت الرؤية أمام عينيه حتى أضطر الى الكف عن الكتابة . وفى المخطوطة الأصلية المحفوظة بالمتحف البريطانى اخطاء عجيبة - « سيقان رسمها بعيده بعض الشيء عن النوتات التى تنتمى اليها ، ونوتات واضح أنها ضلت طريقها (٧٠) » . وفى أسفل الصفحة سطر كتبه المؤلف « الى هنا وصلت ، الأربعاء ١٣ فبراير . منعتنى عينى اليسرى من الاستمرار » . وبعد عشرة أيام كتب على الهامش « ٢٣ فبراير ، حالتى احسن قليلا . استانفت العمل » . ثم الف موسيقى لهذه الكلمات « فرحنا يضيع فى الحزن ... كما يضيع النهار فى الليل(٧١)» . وفى ٤ نوفمبر كتبت صحيفة «الجنرال أدفرتيزر» : « بالأمس أعد (لعملية السد أو الكتركت) السيد جورج فردريك هندل التى يجريها له الطبيب وليم برومفيلد جراح سمو أميرة ويلز »، وبدا أن الجراحة نجحت ، ولكن فى ٢٧ يناير ١٧٥٣ أعلنت جريدة لندنية أن « المستر هندل كف بصره فى النهاية تماما لسوء الحظ » . على أن التقارير اللاحقة تشير الى انه احتفظ ببصيص من النور حتى موته .

وواصل التاليف والقيادة سبع سنين اخر . فقدم فى ستة اسابيع (٢٣ فبراير الى ٦ أبريل ١٧٥٩) حفلتين عرض فيهما « سليمان » ، وحفلة عرض فيهـــا « شمشون » واثنتين « يهـــوذا المكابى » وثلاثا « المسيا » . ولكن بينما كان يغادر المسرح عقب حفلة عرض المسيا فى ٦ ابريل وقع مغشيا عليه ، واقتضي الأمر حمله الى بيته . فلما افاق كان دعاؤه أن يفسح له فى الأجل اسبوعا آخر . « أريد أن اموت فى يوم الجمعة الكبيرة ، رجاء أن الحق بالالة الصالح ، ربى ومخلصي الحبيب ، فى يوم قيامته (٧٢) » . واضاف الى وصينه ملحقا أوصي فيــه بالف جنيه لجمعية اعانة الموسيقيين العجزة وعائلاتهم ، وبمبالغ كبيرة لثلاثة عشر صديقا ، والى « خادمانى راتب سنة لكل واحدة » . ومات فى سبت النور (عشية القيامة) ، ١٤ ابريــل ١٧٥٩ ، ودفـــن فى دير وستمنستر فى ٢٠ ابريل ، فى مشهد من « اعظم حشد للبشر من جميع الرتب روءى فى مثل هذه المناسبة بل وفى اى مناسبة أخرى (٧٣) ».

ولقد ترك ثروة موسيقية لا تصارع ، ستا واربعين أوبرا ، واثنين وثلاثين اوراتوريو ، وسبعين مقـدمة ، واحـــدى وســبعين كنتاتا ، وستة وعشرين كونسرتا كبيرا ، وثمانية عشر كونشرتا للأرغن ، وكثيرا وكثيرا غير هذا بحيث يملأ كل هذا مائة مجلد ضخم ، تكاد تعدل أعمال باخ وبيتهوفن مجتمعة . وكان بعض هذا التراث مكـررا ، وبعضـــه مسروقا ، لأن هندل سطا على موسيقى تسعة وعشرين مؤلفا على الأقل دون اقرار بفضلهم ليستعين بهم على الوفاء بمواعيده (٧٤) ، مثال ذلك أن المينبوويت فى مقدمة « شمشون » أخذت انغامها نصا من أوبرا كلوديوس لكايزر .

ومن العسير تقدير هندل بقدره الصحيح ، لأنه لا يعرض علينا اليوم الا اليسير من أعماله . اما الأوبرات ، فانها باستثناء بعض الألحان الساحرة لا سبيل الى بعثها ، فقد وضعت وفق نماذج ايطالية ذهبت ولا امل فى رجوعها فيما يبدو ، ونصوص موســيقاها الموجـــودة الآن ناقصة ، وهى تستعمل رموزا واختصارات اكثرها غير مفهـوم الآن ، وقد كتبت لأوركيسترات يختلف تكوينها عن تكوين أوركستراتنا اختلافا تاما ، ولأصوات لجنس ثالث مختلف كل الاختلاف عن المتوســط من

أجناس عصرنا . وتبقى بعد ذلك موسيقى الكونشرتو الشبيهة بأرض صيد سعيدة تحوى كنوزا منسية ، و « موسيقى المياه » ، والأوراتوريوات ـ ولكن حتى هذه الاوراتوريوات « عتيقة » ، لأنها كتبت لانجليز يعدون للمعركة ويهود شاكرين ؛ وتحتاج تلك الكوارس الضخمة والحركات الصوتية المتكاثرة الى معدة ضليعة فى الموسيقى لتهضمها ـ وان كان مما يبهجنا أن نسمع « يفتاح » و « اسرائيل فى مصر » من جديد . ويخبرنا الموسيقيون ان فى الأوراتوريوات المهملة فخامة ووقارا ، وسموا فى الوجدان ، وقوة فى التصوير والتعبير والدراما ، وتنوعا وبراعة فى التقنية التركيبية ، لم يدركها احد بعده فى ذلك اللون من التاليف الموسيقى . وقد عاشت «المسيا» الى اليوم رغم ما شابها من تكرار وتقطيع أوصال لأنها من جهة تصون وتدخر أهم العقائد المسيحية العزيزة حتى على من تنكروا لها ، ولكن أهم من ذلك أن الحانها العميقة و « قراراتها » المعبرة عن الانتصار تجعلها فى جملتها أعظم تاليف مفرد فى تاريخ الموسيقى .

وقد أدركت انجلترة عظمته بعد موته ، فلما اقتربت ذكرى ميلاده انضم النبلاء الذين كانوا يخاصمونه من قبل الى الملك والنواب فى أحيائها بثلاثة أيام من موسيقاه . ولما كان مولده فى ١٦٨٤ طبقا للتقويم الانجليزى ، فقد أقيمت أول حفلة فى ٢٦ مايو ١٧٨٤ بدير وستمنستر ، والثانية والثالثة فى ٢٧ و ٢٩ مايو . ولم تكف هذه لتلبية الطلب ، فاقيمت حفلتان أخريان فى الدير فى ٣ و ٥ يونيو . وبلغ عدد المرتلين ٢٧٤ ، والعازفين فى الأوركسترا ٢٥١ ، وبدأ الآن ذلك التقليد الذى يسبغ على عروض هندل الضخامة العارمة والجلال الطاغى . واحببت عروض هائلة كهذه احتفالات لاحقة بذكرى مولد هندل ، حتى اذا جاء عام ١٨٧٤ ازداد عدد المشاركين فى الأداء حتى بلغ ٣٠٠٠ . وقد ذهب بيرنى الذى سمع أحد هذه العروض الكبرى الى أن ضخامة الصوت لم تنتقص من حلاوة الموسيقى (٧٨) . على أى حال كانت هذه أضخم حفلات أقيمت لاحياء ذكرى أى موسيقى كائنا من كان . والآن وقد خفت فورتها فقد يصبح فى الامكان الاستماع الى موسيقى هندل من جديد .

٥ - فولتير فى انجلترة ١٧٢٦ - ٢٨

كان يعيش فى انجلترة عام ١٧٢٦ شاب فرنسي سيتبوأ فى تاريخ القرن الثامن عشر مكانا أهم كثيرا من مكان هندل . لقد بلغ فولتير السواحل الانجليزية عند جرينتش قرب لندن فى ١٠ أو ١١ مايو . وكان أول انطباع له فياضا بالحماسة . فقد كان أسبوع مهرجان جرينتش ، وكادت صفحة التيمز تغطيها الزوارق والأشرعة الضخمة ، وكان الملك هابطا النهر فى ذهبية حافلة بالزينة ، تسبقها فرقة موسيقية ، وعلى الشاطىء رجال ونساء يختالون على جياد تخطر ، ثم عشرات من الفتيات الحسان يمشين وقد تزين ليوم عطلة . وأثارت مشاعر فولتير البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة أجسادهن الرشيقة ، واحتشامهن ، ووجناتهن المتوردة . على أنه نسيهن حين وصل الى لندن ووجد أن المصرفى الذى كان يحمل اليه خطاب تحويل على رصيده بعشرين ألف فرنك قد أشهر افلاسه . وانقذه افرارد فوكنر ، وهو تاجر التقى به فى فرنسا ، فاقام عدة شهور فى ضيعة هذا البريطانى الكريم بواندزورث ، وهى ضاحية من ضواحى لندن . وارسل جورج الأول الى فولتير مائة جنيه حين سمع بحادثه المؤسف .

وكان يحمل رسائل تعريف من هوراشيو ولبول ، السفير البريطانى لدى فرنسا ، الى كثير من مشاهير الانجليز ، وقد التقى عاجلا أو آجلا بكل انسان تقريبا ممن يشار اليهم بالبنان فى ميدان الأدب أو السياسة الانجليزية . فاستقبله روبرت ولبول ، رئيس الوزراء ، ودوق نيوكاسل ، وسارة دوقة ملبره ، وجورج أوغسطس وكارولين أمير وأميرة ويلز ، ثم آخر المطاف الملك الذى منحه بساعة ثمينة أرسلها فولتير عربون صلح لأبيه .

ثم زار « سيدى اللورد بولنبروك وسيدتى الليدى بولنبروك » و « وجد محبتهما لاتزال كما هى (٧٧) » . وفى أغسطس قام برحلة خاطفة الى فرنسا ، وهو لم يزل على تلهفه لقتال روهان ، ولكن سبب الرحلة كان فى أغلب الظن تنظيم شئونه المالية . وعاش ثلاثة أشهر - بعضها مع سويفت - ضيفا على الايرل الثالث لبتربورو . واستمتع

ثلاثة اخرى فى قصر ايستبرى بضيافة بوب دودنجتن ، ذلك السياسي الفاسد والراعى العطوف لفيلدنج ، وطومسون ، وينج ، والتقى فولتير بكلا الشاعرين هناك ، وقرأهما دون أن يخرج بفائدة من القراءة . ومن ثم عكف على تعلم اللغة بعزم صادق ، فما وافت نهاية عام ١٧٢٦ حتى كان يكتب الخطابات بالانجليزية(٧٨) . واقتصر فى الشـهور الأولى على المجالس التى كانت تفهم فيها الفرنسية ، ولكن كل من كان ذا شأن من الرجال أو النساء فى الأدب الانجليزى أو السياسة الانجليزية كان يعرف الفرنسية . وكتب المذكرات التى ملأها الآن باللغتين على السواء ، وهى تدل على أنه تعلم الألفاظ النابية أول ما تعلم من الانجليزية .

وقد اكتسب من الاحاطة بالأدب الانجليزى ما لم يكتسـبه فرنسي مرموق بعده حتى ايبوليت تين . وقرأ بولنبروك ، ولكنه وجـــد قلم الفيكونت أقل المعية من لسانه ؛ على أنه ربما أخذ عن كتاب بولنبروك المسمى « مفهوم الملك الوطنى » الاعتقاد بأن خير أمل فى الاصـــلاح الاجتماعى يجىء على يد الملكية المستنيرة . وشق طريقه وسط أحقاد سويفت المقطرة ، وربما تعلم منه بعض فنون الهجاء ، وحـــكم بأنه « يفوق رابليه بما لا يقاس (٧٩) » . وقرأ ملتن ، ووقع من فوره على هذه الحقيقة ، وهى أن الشيطان هو البطل الحقيقى لملحمـــــة الفردوس المفقود (٨٠) . وقد رأينا فى مكان آخر انفعـــاله المختلط بشكسبير ـ الاعجاب ببلاغة « الهمجى المحبوب » ، و « درر » السـمو أو الرقة الدفينة وسط « كومة روث هائلة » من المهازل والمباذل (٨١) . وقلد « بوليوس قيصر » فى « موت قيصر » ، وعطيل فى « زائير » . كذلك ظهرت رحلات جلفر من جديد فى « ميكروميجاس » ، ومقال بوب عن الانسان فى « رسائل منظومة فى الانسان » .

وبادر بعد وصوله الى انجلترة بزيارة بوب . وصدمه منه تشوهه وعذاباته ، وأذهلته حدة ذهن بوب وارهاف عبارته ، وفضل مقال بوب فى النقد على مقال بوالو فى « فن الشعر (٨٢) » . وزار كونجريف المسن وساءه أن يجد أن الرجل الذى كان يوما ما مسرحيا عظيما أراد أن يعتبر « جنتلمانا لا مؤلفا (٨٣) » . وعلم فى حسد بأمر الوظائف الشرفية والمعاشات التى منحتهـا الوزارة الانجليزية قبـــل ولبـــول

للمؤلفين ، وقارن بين هذا الوضع وما صار اليه امر أكبر شعراء فرنسا ، الذى زج به فى السجن لأنه استاء من اهانة نبيل له .

ومن الأدب انتقل الى العلم ، فالتقى باعضاء الجمعية الملكية ، وبدأ يدرس نيوتن تلك الدراسة التى أتاحت له بعد ذلك أن يحل نيوتن محل ديكارت فى فرنسا . وتاثر تاثرا عميقا بالجنازة الرسمية التى شيعت بها صفوة الانجليز نيوتن ، ولاحظ كيف رحبت الكنيسة الأنجليكانية بعالم يدفن فى دير وستمنستر . ومع أنه كان قد أصبح ربوبيا قبل زيارته لانجلترة — اذ تعلم فن الشك من رابليه ومونتينى وجاسندى وفونتنيل وبيل — فانه الآن اتخذ دعما له من ربوبيى انجلترة — من تولاند وولسنن وتندال ونسب وكولنز ومدلنن وبولنبروك؛ وسيسلح مكتبته بكتبهم فى فترة لاحقة . وكان أقوى حتى من هؤلاء تاثير لوك الذى امتدحه فولتير لأنه أول من درس العقل دراسة واقعية. ولاحظ أن القليل جدا من هؤلاء المهرطقين المصرين على هرطقتهم سجنوا بسبب آرائهم . ثم لاحظ نمو التسامح الدينى منذ ١٦٨٩ ، وذهب الى أنه لا يوجد فى انجلترة تعصب دينى أعمى ، وحتى الكويكرز خفت فورتهم فغدوا رجال أعمال هادئين . وزار أحدهم ، وسره أن ينبأ بأن بنسلفانيا بلد مثالى يخلو من الطبقات والحروب والاعداء (٨٤) .

كتب بعد ذلك الى مدام دو دفان يقول « ما أشد حبى للانجليز ، ما أشد حبى لهؤلاء القوم الذين يقولون ما يعتقدون (٨٥) ! » وعاد يقول :

« انظرى ما حققته قوانين الانجليز ، لقد ردت لكل انسان حقوقه الطبيعية التى سلبته اياها كل النظم الملكية تقريبا . وهذه الحقوق هى : الحرية الكاملة للفرد وما يملك ؛ وحقه فى أن يكلم الناس بقلمه ؛ وأن يحاكمه محلفون من الرجال الاحرار اذا اتهم بجريمة ؛ والا يحاكم فى اى امر الا طبقا لقوانين محددة ؛ وأن يجهر وقت السلم بالدين الذى يفضله أيا كان ، مع البعد عن تلك المناصب التى لا يختار لها الا أعضاء الكنيسة الأنجليكانية (٨٦) » .

والسطر الأخير يدل على أن فولتير أدرك حدود الحرية الانجليزية . فقد عرف أن الحرية الدينية لم تكن قط كاملة ، وقد سجل

فى مذكراته القبض على « مستر شبنج » لما ابدى من ملاحظات مهينة على خطاب العرش (٨٧) . وكان فى استطاعة أى من مجلسي البرلمان أن يستدعى المؤلفين لمحاكمتهم على تصريحاتهم المؤذية عن أعضاء البرلمان ؛ وكان فى استطاعة كبير الامناء أن يرفض التصريح بالتمثيليات ؛ وقد وضع ديفو فى المشهرة عقابا على نشرة حشاها تهكما . ولكن فولتير احس بان حكومة انجلترة رغم فسادها أعطت الشعب قسطا من الحرية يحفزه حفزا خلاقا فى كل مجالات الحياة .

فهنا على سبيل المثال كانت التجارة حرة نسبيا ، لا يغل يدها ما يعرقلها فى فرنسا من مكوس داخلية . وخلعت على رجال الاعمال المناصب الادارية الرفيعة ، وسيعين صديقه فوكنر بعد قليل سفيرا لانجلترة فى تركيا . واحب فولتير ، رجل الأعمال ، روح الانجليز العملية ، واحترامهم للحقائق والواقع والمنفعة ، وبساطة سلوكهم وعاداتهم وملبسهم حتى الأثرياء منهم . واحب اكثر من هذا كله الطبقة الوسطى الانجليزية . وقارن بين الانجليز وجعتهم : رغوة على السطح ، وحثالة فى القاع ، ولكن الوسط رائع (٨٨) . كتب فى ١٢ اغسطس ١٧٢٦ يقول : « لو خيرت لآثرت المكث هنا لغرض واحد هو أن أتعلم أن افكر» ، وفى دفقة من حماسته دعا تييريو الى زيارة « أمة مغرمة بالحرية ، مثقفة ، ذكية ، تحتقر الحياة والموت ، أمة من الفلاسفة (٨٩) » .

وقد كدر صفاء غرامه هذا بانجلترة ما حام حوله حينا من اشتباه بوب وغيره فى انه يعمل جاسوسا على أصدقائه المحافظين لوزارة وليول (٩٠) . فلما اتضح أن الشبهة ظالمة نبذت للتو ، وظفر فولتير بشعبية كبيرة بين النبلاء وصفوة المثقفين اللندنيين . وحين قرر أن ينشر ملحمة الهنريادة فى انجلترة ، أرسلت له كل الدوائر المثقفة تقريبا اكتتاباتها ، بما فيها جورج الأول ، والأميرة كارولين ، والبلاطان المتنافسان ؛ وطلب سويفت الى بعض هؤلاء ، أو قل أمرهم ، بالاكتتاب . فلما ظهرت القصة (١٧٢٨) أهديت الى كارولين ، التى كانت الملكة الآن ، مشفوعة بباقة من الازهار الى جورج الثانى ، الذى رد على التحية بنفحة قدرها أربعمائة جنيه ، ودعوة الى حفلات العشاء الملكية . ونفدت ثلاث طبعات فى ثلاثة أسابيع ، رغم أن النسخة بيعت بثمن باهظ قدره ثلاثة جنيهات . وقد قدر فولتير دخله من هذه الطبعة

الانجليزية بمبلغ ١٥٠٫٠٠٠ فرنك . واستخدم بعض هذا المال ليعين عدة فرنسيين فى انجلترة (٩١) ، اما الباقى فقد استثمره بغاية الحكمة ، حتى لقد حكم بعد ذلك على هذا الربح الذى لم يتوقعه بانه الأصل فى ثرائه . ولم يكف قط عن عرفانه بصنيع انجلترة .

لقد دان لها قبل كل شيء بحفز هائل لذهنه وانضاج لفكره . فلما عاد من منفاه جلب معه كتب نيوتن ولوك فى حقائبه . وانفق جزءا من سنيه العشرين التالية فى تعريف فرنسا بهما . كذلك جلب معه كتب الربوبيين الانجليز ، الذين زودوه ببعض الذخيرة التى سيستعملها فى الحرب على « العار » . وكما أن انجلترة على عهد تشارلز الثانى تعلمت الخير والشر من فرنسة لويس الرابع عشر ، فكذلك ستتعلم فرنسة لويس الخامس عشر من انجلترة الاعوام ١٦٨٠ ــ ١٧٦١ . ولم يكن فولتير وسيط التبادل الأوحد فى هذا الجيل ؛ فان مونتسكيو ، وموبورتوى ، وبريفوست ، وبوفون ، ورينال ، وموريلليه ، وليلاند ، وهلفتيوس ، وروسو ــ هؤلاء ايضا أتوا الى انجلترة ، والذين لم يأتوا تعلموا من الانجليزية ما يكفى لجعلهم حملة للافكار الانجليزية . وقد أجمل فولتير فى تاريخ لاحق هذا الدين فى رسالة بعث بها الى هلفتيوس . قال :

« لقد استعرنا من الانجليز المرتبات السنوية ، وأموال استهلاك الديون ، وبناء السفن وتسييرها ، وقوانين الجاذبية ، ... والألوان الأساسية السبعة ، والتطعيم ، وسنكتسب منهم ، دون ادراك منا ، حرية تفكيرهم الرفيعة ، واحتقارهم العميق لتفاهة المعلومات التى تعطيها المدارس (٩٢) » .

ومع ذلك شعر بالحنين الى فرنسا . لقد أشبهت انجلترة الجعة ، اما فرنسا فلها مذاق النبيذ فى فمه . والتمس المرة بعد المرة أن يؤذن له فى العودة . ويبدو أنه منح الاذن بشرط معتدل هو أن يجتنب باريس أربعين يوما . ولا علم لنا متى غادر انجلترة ، واغلب الظن أن هذا كان فى خريف ١٧٢٨ . وفى مارس ١٧٢٩ كان فى سان ــ جرمان ــ أن ــ ليه ؛ وفى ٩ ابريل كان فى باريس ، رجلا هذبته المحن ومحصته دون أن تقضي عليه ، جياشا بالافكار ، متلهفا على تغيير هذه الدنيا وتبديلها .

المراجع

APOLOGY

1. Brandes, G., *Voltaire*, I, 4.
2. Cousin, Victor, *Histoire de la philosophie*, in Buckle, H. T., *History of Civilization in England*, I, 519n.
3. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 16.

CHAPTER I

1. Brandes, *Voltaire*, I, 30.
2. *Ibid.*, 31; Parton, James, *Life of Voltaire*, I, 26; Campbell, T. J., *The Jesuits*, 354.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, I, 32.
4. *Ibid.*, 17-18.
5. Letter of Feb. 7, 1746, to Father Latour, in Desnoiresterres, I, 24; Brandes, I, 44.
6. Parton, I, 53.
7. Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 129.
8. Parton, I, 66.
9. Desnoiresterres, I, 171.
10. Duclos, C. P., *Secret Memoirs of the Regency*, 6.
11. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 329.
12. Duclos, 10.
13. Saint-Simon, II, 326.
14. Desnoiresterres, I, 96.
15. Wormeley, K. P., *Correspondence of Madame, Princess Palatine, . . . Marie Adélaide de Savoie, . . . and Mme. de Maintenon*, 29.
16. Guizot, F., *History of France*, V, 3.
17. Martin, Henri, *Histoire de France*, XV, 13.
18. Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 55.
19. Martin, H., XV, 20-22; Desnoiresterres, I, 164.
20. Stryienski, C., *Eighteenth Century*, 82.
21. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 47.
22. Martin, H., XV, 53.
23. Voltaire, *Works*, XVI, 20.
24. Martin, H., XV, 54.
25. Michelet, J., *Histoire de France*, V, 268.
26. Saint-Simon, II, 232.
27. *Ibid.*, III, 239.
28. Martin, H., XV, 62.
29. Saint-Simon, III, 243.
30. In Lacroix, Paul, *Eighteenth Century in France*, 201.
31. Wormeley, 31.
32. Guizot, V, 42.
33. Duclos, *Secret Memoirs*, 70.
34. Martin, H., XV, 107.
35. Saint-Simon, III, 338.
36. Michelet, V, 133.
37. *Ibid.*, 135.
38. Saint-Simon, III, 69.
39. Voltaire, *Works*, XVIa, 155.
40. Saint-Simon, III, 418.
41. *Cambridge Modern History*, II, 133.
42. Michelet, V, 197; Martin, H., XV, 110.
43. Duclos, *Secret Memoirs*, 8.
44. Ercole, L., *Gay Court Life in France in the 18th Century*, 18-20.
45. Saint-Simon, III, 69.
46. Ercole, 27.
47. *Ibid.*, 10.
48. Ducros, *French Society*, 56.
49. Ercole, 44.
50. *Camb. Mod. History*, VI, 132.
51. Duclos, *Secret Memoirs*, 131.
52. Ercole, 44.
53. Martin, H., XIV, 552n., and Michelet, V, 160, credit the charge of incest.
54. Martin, XV, 12.
55. Dupuy, *Dialogues sur les plaisirs*, 14, in Crocker, L. G., *Age of Crisis*, 117.
56. Brunetière, F., *Manual of the History of French Literature*, 282.
57. Wormeley, 30.
58. Lacroix, 83.
59. Michelet, V, 251.
60. Martin, H., XV, 339.
61. Batiffol, L., *The Great Literary Salons*, 103.
62. Toth, K., *Woman and Rococo in France*, 107.
63. *Ibid.*
64. Lacroix, 417.
65. Ercole, 56.
66. Louvre.
67. Metropolitan Museum of Art, New York.
68. Louvre.
69. Metropolitan Mus. of Art.
70. Wallace Collection, London.
71. Dresden, Gemäldegalerie.
72. Wallace Collection.
73. There are outstanding collections of Watteau's drawings in the Louvre and in the Pierpont Morgan Library, New York.
74. Goncourt, E. and J. de, *French 18th-Century Painters*, 1.

75. Aldington, R., *French Comedies of the 18th Century*, 103
76. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 81.
77. *Ibid.*, 82.
78. Lesage, *Adventures of Gil Blas*, prefatory memoir.
79. Aldington, 131.
80. Lesage, *Gil Blas*, Book VIII, Ch. x.
81. *Gil Blas*, last line.
82. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 104.
83. Saint-Simon, III, 42, *cf.* 91-94
84. Créqui, Marquise de, *Souvenirs*, 44.
85. Michelet, V, 126.
86. Faguet, Émile, *Literary History of France*, 474.
87. Saint-Simon, III, 376.
88. Duclos, *Secret Memoirs*, 326.
89. Michelet, V, 155; Martin, H., XV, 80.
90. *Ibid.*, 115.
91. Saint-Simon, III, 373.
92. *Ibid.*, 376.
93. 77
94. In Torrey, N., *The Spirit of Voltaire*, 21.
95. Parton, I, 99.
96. Desnoiresterres, I, 217.
97. Parton, I, 98.
98. Brandes, I, 97.
99. *Ibid.*, 98.
100. 99.
101. Parton, I, 115.
102. Like Desnoiresterres, I, 159, and Brandes, I, 100
103. Créqui, 149.
104. Desnoiresterres, I, 157.
105. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 463, Brandes, I, 306.
106. Desnoiresterres, I, 190.
107. Parton, I, 154.
108. Desnoiresterres, I, 242; Faguet, *Literary History*, 469, gives a different version: "*Gare que cet écrit in extremis n'aille pas à son addresse.*"
109. Parton, I, 165.
110. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
111. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 59.
112. Desnoiresterres, I, 345.
113. Brandes, I, 152.
114. *Ibid*; Parton, I, 185.
115. Parton, I, 190.

CHAPTER II

1. Shakespeare, *Richard II*, II, i.
2. Defoe, *Tour through England and Wales*, I, 1 and *passim*.
3. Voltaire, *Lettres philosophiques*, No. 9, Ashton, T., *Economic History of England: The 18th Century*, 36.
4. Quennell, M. and C., *History of Everyday Things in England*, 21, Mantoux, P., *Industrial Revolution in the 18th Century*, 165.
5. Quennell, *Everyday Things*, 12
6. Trevelyan, G. M., *English Social History*, 379
7. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 386.
8. Lipson, E., *Growth of English Society*, 212.
9. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 252.
10. Jaurès, *Histoire socialiste de la Révolution française*, I, 67.
11. Usher, A., *History of Mechanical Inventions*, 280.
12. Lipson, 196.
13. Ashton, *Economic History*, 220.
14. *Encyclopaedia Britannica*, VI, 544a
15. Mantoux, 73.
16. Ashton, 201-4.
17. In Tawney, R. H., *Religion and the Rise of Capitalism*, 190.
18. Ashton, 212; Mantoux, 72.
19. Ashton, 203.
20. Webb, S and B., *History of Trade Unionism*, 31-50.
21. Mantoux, 119.
22. Chesterfield, Earl of, *Letters to His Son*, letter of Sept. 22, 1749.
23. Mantoux, 102; Taine, H., *Ancient Regime*, 33.
24. Beard, M., *Business Man*, 430.
25. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, No. 10, in Mantoux, 138.
26. Hume, David, *Enquiry concerning the Principles of Morals*, 248.
27. In Beard, M., 435.
28. Lecky, W E., *History of England*, I, 323.
29. Mackay, C., *Extraordinary Popular Delusions*, 50.
30. *Ibid.*, 55
31. Quennell, P., *Caroline of England*, 71.
32. *Camb. Mod. History*, VI, 181.
33. Mackay, 73.
34. *Ibid.*, 78.
35. Voltaire, *Works*, XIIIa, 23.
36. Ranke, L., *History of the Reformation in Germany*, 468.
37. Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 157, Ashton, 2, Ogg, David, *Europe in the 17th Century*, 2.
38. Defoe, *Tour*, I, 337.
39. Besant, *London in the 18th Century*, 352.
40. Trevelyan, *English Social History*, 142
41. Lecky, *History of England*, I, 482-84.
42. *Ibid.*
43. Letter of Mar. 23, 1752.
44. Besant, 380-81.

45. W. R. Brock in *New Camb. Mod. History*, VII, 266
46. Besant, 238.
47. Lecky, II, 543-45.
48. James, B. B., *Women of England*, 235
49. Besant, 138.
50. Markun, L., *Mrs Grundy*, 183.
51. Faÿ, B., *La Franc-Maçonnerie et la révolution intellectuelle du xviii^e siècle*, 78-79
52. Besant, 384.
53. Blackstone, *Commentaries on the Laws of England*, 151n.
54. Congreve, Wm., *Way of the World* III, iii, in Hampden, J., *Eighteenth-Century Plays*.
55. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v, in Hampden.
56. Halsband, R., *Lady Mary Wortley Montagu*, 14.
57. Langdon-Davies, J., *Short History of Women*, 305.
58. Besant, 459; Lecky, I, 522; Quennell, P., *Caroline of England*, 29.
59. George, M. Dorothy, *London in the 18th Century*, 29.
60. Lecky, I, 477.
61. *Ibid.*, 479; Besant, 297 f.
62. Berkeley, George, *Siris*, in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 122
63. Besant, 301-2.
64. Turberville, *Johnson's England*, I, 48.
65. Boswell, *Journal of a Tour to the Hebrides*, 84 (Aug. 31, 1773).
66. *Enc. Brit.*, XX, 779d.
67. *Camb. Mod. History*, VI, 187.
68. Ashton, 62-63.
69. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 313.
70. Besant, 342.
71. Lecky, I, 183.
72. *Ibid.*, 367; Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 256.
73. Westermarck, E. A., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 558.
74. Turberville, I, 72.
75. Some instances in Thackeray, *The Four Georges*, 42-43.
76. Turberville, I, 312.
77. Fielding, H., *Amelia*, Book I, Ch. ii.
78. Turberville, I, 310.
79. Quennell, M. and C., *Everyday Things*, 9.
80. Lecky, I, 507.
81. Turberville, I, 322.
82. *Ibid.*, 319; Lecky, I, 501-2.
83. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 586.
84. Johnson, S., *The Rambler*, 183.
85. Pope, A., *Imitations of Horace*, Epistle II.
86. James, B. B., *Women of England*, 318.
87. Turberville, I, 341.
88. Thackeray, *Four Georges*, 41.
89. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 249.
90. Lecky, I, 552.
91. *Ibid.*, 553-54.
92. Walpole, H., *Letters*, I, 309 (June 29, 1744).
93. Weinstock, H., *Handel*, 228
94. Allen, B. S., *Tides*, I, 94; Chesterfield, *Letters*, Oct. 19, 1748.
95. Clergue, H., *The Salon*, 4.
96. Chesterfield, *Letters*, June 11, 1750.
97. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 25.
98. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 349.
99. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 29.
100. Chesterfield, letter of July 8, 1739
101. Letter of June, 1752, in *Letters to His Son*, II, 96.
102. Letter of Apr. 19, 1749.
103. Apr. 13, 1752.
104. Nov. 6, 1747.
105. May 16, 1751.
106. May 23, 1751.
107. Sept. 5, 1748.
108. Apr. 15, 1751.
109. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 41.
110. Dec. 25, 1753.
111. May 17, 1748.
112. Nov. 11, 1752.
113. Oct 9, 1747.
114. Feb. 22, 1748.
115. Oct. 19, 1748.
116. Jan. 8, 1750.
117. Apr. 13, 1752.
118. Dec. 25, 1753.
119. Stephen, Leslie, *English Literature and Society in the 18th Century*, 150.
120. Krutch, J. W., *Samuel Johnson*, 354.
121. Chesterfield, July 25, 1741.
122. Feb. 24, 1747.
123. Krutch, 354.
124. Parton, II, 551.
125. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 43.
126. Nicolson, H., *Age of Reason*, 201.
127. In Sainte-Beuve, *English Portraits*, 34.
128. Dec. 2, 1746.
129. Oct. 17, 1768.
130. *Letters*, II, 334.
131. Oct. 11, 1769.
132. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 44.
133. *Ibid.*, 45.

CHAPTER III

1. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 266.
2. Quennell, P., *Caroline*, 22.
3. Halsband, *Lady Mary*, 45.

4. Voltaire, *Works*, XXIb, 70-72; cf. Laski, H., *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 16.
5. Hauser, *Social History of Art*, II, 261.
6. *New Cambridge Modern History*, VII, 261.
7. Voltaire, XIXb, 29.
8. Chidsey, D. B., *Marlborough*, 291.
9. Rowse, A. L., *The Early Churchills*, 131.
10. Martin, H., XV, 76.
11. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 226-27.
12. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 117.
13. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, III, 91.
14. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 275.
15. Quennell, *Caroline*, 93; Martin, H., XV, 343.
16. Traill, H. D., *Social England*, V, 139.
17. Walpole, H., *Reminiscences*, in *Letters*, introd., cxxx.
18. Walpole, H., *Memoires of ... the Reign of George II*, I, 63.
19. Thackeray, *Four Georges*, 33.
20. Wharton, G. and P., *Wits and Beaux of Society*, I, 176.
21. Lecky, *History of England*, I, 465.
22. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 4; Quennell, *Caroline*, 134.
23. *Camb. Mod. History*, VI, 77.
24. Voltaire, XIXb, 23.
25. Lecky, I, 510.
26. Quennell, *Caroline*, 252.
27. Lecky, I, 326; *Camb. Mod. History*, VI, 181.
28. Macaulay, T., *Essays*, I, 346.
29. Walpole, *Memoires of the Reign of George II*, II, 273.
30. Mossner, *Bishop Butler*, 5.
31. Beard, M., *History of the Business Man*, 477.
32. Macaulay, *Essays*, I, 348; Lecky, I, 367-72; Koven, A. de, *Horace Walpole and Mme. du Deffand*, 13.
33. Lord Hervey in Jefferson, D. W., *Eighteenth-Century Prose*, 28.
34. Tucker in Lecky, I, 334.
35. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 29.
36. Chesterfield, letter of Dec. 12, 1749.
37. In Lovejoy, *Essays*, 177.
38. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 166.
39. *Camb. History of English Literature*, IX, 154.
40. Bolingbroke, *On the Spirit of Patriotism*, 18.
41. Collins, J. C., 172.
42. Bolingbroke, 118.
43. Hearnshaw, F. J., *Social and Political Ideas of Some English Thinkers of the Augustan Age*, 215.
44. *Ibid.*
45. Acton, *Lectures*, 273.
46. See *Camb. Mod. History*, VI, 64 f.; Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 681; Churchill, III, 101.
47. Lecky, I, 385n.; Burke, *Letters on a Regicide Peace*, in *Reflections on the French Revolution*.
48. Altamira, R., *History of Spain*, 435.
49. *Enc. Brit.*, XX, 779c.
50. In Lecky, I, 394.
51. *Ibid.*, 291.
52. *Ibid.*
53. 239.
54. ~~241~~.
55. Mantoux, *Industrial Revolution*, 87.
56. Swift, Jonathan, *Short View of the State of Ireland*, in Lecky, II, 208.
57. Lecky, II, 424.
58. *Camb. Mod. History*, VI, 485.
59. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, IV, 531.
60. Lecky, II, 159.
61. D'Alton, IV, 472-73.
62. Lecky, II, 217.
63. *Ibid.*
64. Mossner, *Life of Hume*, 234.
65. Lecky, II, 83.
66. Trevelyan, *English Social History*, 444.
67. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 168.
68. Traill, *Social England*, V, 159.
69. Lang, A., *History of Scotland*, IV, 425-27.
70. *Ibid.*, 449.
71. 451.
72. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 14.
73. Lang, A., IV, 512.
74. *Camb. Mod. History*, VI, 117.
75. Lang, A., IV, 519.
76. *Enc. Brit.*, IV., 292d.
77. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, 44.
78. Frederick, *Mémoires*, I, 191
79. Wingfield-Stratford, 682.
80. Lecky, II, 479-80
81. *Ibid.*, 476.
82. Churchill, III, 112

CHAPTER IV

1. *Pensées diverses*, in Lecky, II, 531n.
2. Davidson, John, introd. to Montesquieu's *Persian Letters*, xxi.
3. *Ibid.*
4. Hervey, *Memoirs of the Court of George II*, in introd. to Mandeville's *Fable of the Bees*, x.
5. Besant, *London*, 152.
6. *Camb. Mod. History*, VI, 79.

7. Stephen, L., *History of English Thought in the 18th Century*, I, 217.
8. Thackeray, *Four Georges*, 34.
9. Lecky, II, 468.
10. Hume, D., essay "Of National Character."
11. Besant, 153.
12. Lecky, I, 275-76, 303-4.
13. Trevelyan, G. M., *England under the Stuarts*, 342.
14. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 161; Lecky, I, 313.
15. Voltaire, XIXb, 218.
16. Voltaire, VIa, 288.
17. Woolston, *Discourses*, I, 34, in Stephen, *History of English Thought*, I, 231.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 141; Voltaire, *Philosophical Dictionary*, article "Miracles," in *Works*, VIa, 288-93; Robertson, J. M., *Freethought*, II, 157-59; Stephen, *History of English Thought*, I, 228-38.
19. Benn, A. W., *History of English Rationalism in the 19th Century*, I, 145.
20. Tindal, M., *Christianity as Old as the Creation*, 14, in Stephen, *History*, I, 139.
21. Stephen, I, 261; Robertson, II, 158.
22. In Stephen, I, 266.
23. Collins, J. C., *Bolingbroke*, 183.
24. Stephen, I, 178.
25. Torrey, N. L., *Voltaire and the English Deists*, 149.
26. In Hearnshaw, *English Thinkers of the Augustan Age*, 240.
27. Stephen, *History*, I, 180.
28. Collins, J. C., 180.
29. Goldsmith, O., *Life of Bolingbroke*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies*, 1057.
30. In Stephen, I, 246.
31. *Ibid.*, 345.
32. 349-52.
33. 356.
34. *Enc. Brit.*, IV, 463b.
35. Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 8.
36. Toynbee, Arnold J., *Study of History*, abridgment of Vols. I-VI by D. C. Somervell, 486.
37. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 21.
38. Turberville, *Johnson's England*, I, 33.
39. Inge, *Christian Mysticism*, 283.
40. *Camb. Mod. History*, VI, 81.
41. Gibbon, *Memoirs*, 22.
42. Bearne, *Court Painter*, 198.
43. Voltaire, essay "Epic Poetry."
44. Besant, 149.
45. McConnell, F. J., *John Wesley*, 13.
46. Wesley, John, *Journal*, 94.
47. *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, XII, 724d.
48. *Ibid.*, 725a.
49. McConnell, 47.
50. Lecky, II, 554.
51. Wesley, *Journal*, 43; Hastings, XII, 725d.
52. *Enc. Brit.*, XXIII, 576.
53. Lecky, II, 565.
54. *Ibid.*
55. 563.
56. 591-94; Lecky, *History of European Rationalism*, I, 45.
57. Turberville, *Johnson's England*, I, 221.
58. Wesley, *Journal* for 1739, in Lecky, *History of England*, II, 584.
59. *Ibid.*, 583.
60. 590.
61. 636; Toynbee, *Study of History*, IX, 459-60.
62. McConnell, 48.
63. *Ibid.*, 66.
64. Wesley, *Journal*, entry for Mar. 30, 1736.
65. *World Christian Handbook*, 5.
66. *Journal* for Jan. 1, 1790.
67. Shaftesbury, 3d Earl of, *Characteristics*, I, 260.
68. Mandeville, *Fable of the Bees*, 83-85.
69. Hutcheson, F., *Inquiry concerning Moral Good and Evil*, in *Enc. Brit.*, XI, 945c.
70. Buckle, II, 334.
71. *Ibid.*, 336.
72. Hume, D., *Dialogues concerning Natural Religion*, 4.
73. Huxley, T. H., *Hume*, 3.
74. *Ibid.*, 6.
75. Mossner, *Life of Hume*, 51.
76. Huxley, 6.
77. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, 233.
78. Mossner, 82.
79. *Ibid.*, 94.
80. 111.
81. Hume, *Treatise of Human Nature*, Book I, Part II, Sec. 5.
82. *Ibid.*, I, II, 1.
83. I, III, 10 and 7.
84. I, IV, 2 and 6.
85. I, IV, 1.
86. *Ibid.*
87. Appendix.
88. I, IV, 1.
89. I, IV, 7.
90. I, IV, 2.
91. I, IV, 1.
92. II, III, 3.
93. *Ibid.*
94. II, I, 10.
95. II, I, 7.
96. II, I, 8.
97. II, II, 11.

98. "My Own Life," in Hume, *Dialogues concerning Natural Religion*, p. 234.
99. Mossner, p. 129.
100. *Treatise*, III, i, Sec. 1.
101. III, ii, 2.
102. III, iii, 6.
103. Mossner, p. 213.
104. *Ibid.*, 215-18.
105. Hume, *Enquiry concerning the Human Understanding*, p. 2.
106. *Ibid.*, Part X, Secs. 91-95 and 100-101.
107. XI, 102.
108. *Enquiry concerning the Principles of Morals*, V, 1, Secs. 174-75, Appendix II; *cf.* essay "Of the Dignity and Meanness of Human Nature."
109. *Enquiry concerning . . . Morals*, IX, 1, Sec. 226.
110. *Ibid.*, IV, Sec. 166.
111. "My Own Life," *loc. cit.*, p. 236.
112. *Dialogues concerning Natural Religion*, 156.
113. *Ibid.*, 148.
114. 182-83.
115. Essay "On Suicide."
116 *Dialogues*, 210.
117. *Ibid.*, 194.
118. 211.
119. 169.
120. 180.
121. 171.
122. 227.
123. 214.
124. Hume, *Natural History of Religion*, Secs. I, XIII-XV, in Cassirer, E., *Philosophy of the Enlightenment*, p. 181.
125. *Dialogues*, introd., *xv*.
126. Burton, *Life of Hume*, II, in Lecky, *History of England*, II, 543.
127. *Enquiry concerning . . . Morals*, III, ii, Sec. 155.
128. Hume, *History of England*, IV, p. 480.
129. Hume, *Essays Literary, Moral, and Political*, 27, 273
130. *Ibid.*, 161.
131 Essay "Of National Character."
132 *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part VII, Sec. 65.
133 Essay "Of Commerce."
134 Essay "Of Civil Liberty."
135. Essay "Jealousy of Trade."
136 In Black, *Art of History*, p 80.
137. Mossner, 317.
138. Essay "Of the Study of History
139. "My Own Life," *loc. cit*, 236
140. In Black, 114.
141. Mossner, 318.
142. "My Own Life," *loc. cit.*, 236
143 *Ibid.*, 237
144. Mossner, 223.
145. *Ibid.*, 318.
146. 444-45.
147. "My Own Life," *loc. cit.*, 238.
148. *Ibid.*, 239.
149. *Enquiry concerning the Human Understanding*, Part XI, Sec. 108.
150. Mossner, 568.
151. Adam Smith, letter to Wm. Strahan, Nov. 9, 1776, in Hume, *Dialogues*, p. 247.
152. *Treatise of Human Nature*, Book I, Part iv, Sec. 5.
153. Wolf, *History of Science*, 757.
154 Mossner, 478.
155. Hume, *Dialogues*, introd., xxx.
156. Mossner, 588.
157 "My Own Life," *loc. cit.*, 239.
158. Strachey, L., *Portraits in Miniature*, 151.
159 "My Own Life," *loc. cit.*, 244.
160. *Ibid.*, 245.
161. Mossner, 598-600.
162 *Ibid.*, 603.

CHAPTER V

1. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 132.
2. Buckle, I, 312.
3. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 143.
4. Pope, "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 127-28.
5 *Essay on Criticism*, lines 214-15.
6. *Ibid.*, line 298.
7. Lines 631-42.
8. 585-87.
9 Stephen, L., *Alexander Pope*, 45.
10 *Rape of the Lock*, Canto ii, lines 105-9
11 *Ibid.*, iii, 16.
12. v, 85-86.
13. See "Windsor Forest," lines 41-42.
14. Pope, "Eloisa to Abelard," lines 281-92.
15. *Ibid.*, lines 325-28.
16. Stephen, *Pope*, p. 61.
17. *Ibid.*, 64.
18. Johnson, *Lives*, II, 161.
19. Stephen, *Pope*, 64.
20 *Ibid.*, 78.
21 Pope, "Second Epistle of the Second Book of Horace," lines 68 69, in *Collected Poems*, p. 305.
22 Thornton, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*, 112
23 E.g., see Jefferson, *Eighteenth-Century Prose*, 25.
24. Parton, I, 214.
25. Stephen, *Pope*, 91.
26. Boston Museum of Fine Arts
27. London, National Portrait Gallery
28. Stephen, *Pope*, 100.

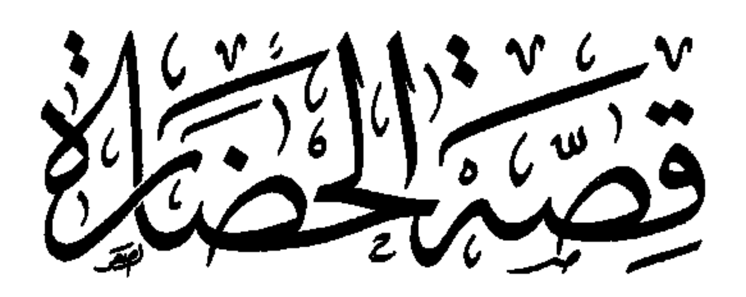
29. See "Farewell to London," in *Poems*, 368, and Strachey, *Portraits*, 14.
30. Garnett and Gosse, *English Literature*, III, 199.
31. Pope, *Dunciad*, Book II, lines 75-76, 102-8, 155-56.
32. *Ibid.*, Book IV, lines 471-82.
33. Robertson, J. M., in Shaftesbury, *Characteristics*, introd., p. xxv.
34. Collins, *Bolingbroke*, 158.
35. Stephen, *Pope*, 166.
36. *Essay on Man*, Epistle I, lines 1-16.
37. Milton, *Paradise Lost*, 1, line 26.
38. *Essay on Man*, I, 81-84.
39. I, 91-96.
40. End of Epistle I.
41. *Essay on Man*, II, 1-17.
42. *Ibid.*, 217-20.
43. III, 303-6.
44. IV, 35-36.
45. 49-50.
46. Taine, H., *History of English Literature*, Book III, Ch. vii, Sec. 4.
47. Voltaire, *Lettres sur les Anglais*, in *Works*, XIXb, p. 94.
48. Johnson, *Lives*, II, 193.
49. "Epistle to Dr. Arbuthnot," lines 305-29.
50. *Satires*, epilogue, lines 208-9.
51. *Dunciad*, IV, 629-55.
52. Johnson, *Lives*, II, p. 199.
53. Thackeray, *English Humourists*, 213.
54. Walt Whitman, in Traubel, H., *With Walt Whitman in Camden*, 126.
55. Lecky, *History of England*, I, 463.
56. Brandes, *Voltaire*, I, 16.
57. Woods, Watt, and Anderson, *Literature of England*, II, 51.
58. Garnett and Gosse, III, 287; questioned by *Camb. History of English Literature*, X, 147.
59. Arnold, M., *Essays in Criticism*, 317.
60. Johnson, *Lives*, II, 391, 388.
61. Allen, R. J., *Life in 18th-Century England*, 16.
62. Brandes, *Voltaire*, I, 32.
63. Lecky, *History of England*, I, 541.
64. Mossner, *Hume*, 357.
65 *Ibid.*, 360.
66. 379.
67. 364.
68. Pope, "Epitaph on Gay."
69. Gay, John, *Beggar's Opera*, I, v.
70. *Ibid.*, I, viii.
71. III, xi.
72. *Camb History of English Literature*, X, 3.
73. Richardson, S., *Pamela*, 2.
74. *Ibid.*, 179.
75. Richardson, *Clarissa*, 429-31.
76. *Ibid*, introd., *viii.*
77. *Ibid.*, *ix.*
78. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, II, 232 (Mar. 1, 1752).
79. Rousseau, J. J., letter to Duclos, Nov. 19, 1760.
80. Francke, K., *History of German Literature*, 216.
81. Texte, J., *J. J. Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 148 f.
82. Fielding, H., introd. to *Amelia*, *xxiii;* Thackeray, *English Humourists*, 263n.
83. Fielding, *Joseph Andrews*, Book I, Ch. x
84. Saintsbury, G., introd. to *Pamela.*
85. *Joseph Andrews*, II, xiv.
86. Fielding, *Jonathan Wild*, preface.
87. *Jonathan Wild*, I, i.
88. *Ibid.*, I, v.
89. I, iii.
90. III, vii.
91. IV, xv.
92. Thackeray, *English Humourists*, 266n.
93. Fielding, *Tom Jones*, III, v.
94. *Ibid.*, III, x.
95. XVIII, xii.
96. Besant, *London*, 502 f.; Lecky, *History of England*, I, 487.
97. *Amelia*, IV, ii.
98. *Ibid.*, I, ii.
99. XI, ix.
100. VI, ii.
101. Thackeray, 263
102. Smollett, T, *Roderick Random*, Ch. xi. pp. 56-58.
103. *Ibid.*, xx, 114.
104. xvii, 95.
105. xxxix, 223.
106. Smollett, *Adventures of Peregrine Pickle*, Ch. ii.
107. *Ibid.*, vi.
108. Thackeray, 254n.
109. *Ibid.*, 255n.
110. 254n.
111. Smollett, *Travels through France and Italy*, xxvii.
112. Thackeray, 256.
113. Smollett, *Humphrey Clinker*, 16 (letter of Apr 18).
114. *Ibid.*, 142 (letter of June 8).
115. 218-20 (letter of July 4).
116. 225-37 (letter of July 13).
117. Montagu, Lady M W., *Letters*, I, 173.
118. Halsband, *Lady Mary Wortley Montagu*, 11.
119. Montagu, *Letters*, I, 174 (Apr. 25, 1710)
120. *Ibid.*, 178.
121. 181.
122. Letter of Aug. 16, 1712, Halsband, 25.
123. Pope, *Collected Poems*, 370.
124. Halsband, 58.

125. Pope, letter of Aug. 18, 1716, in Montagu, I, 405-7.
126. Montagu, I, 237 (Sept. 14, 1716).
127. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 170.
128. Halsband, 63.
129. Montagu, I, 431, 434.
130. Collection of the Marquess of Bute.
131. Pope, *Poems*, 371.
132. Halsband, 113.
133. *Ibid.*, 130.
134. 141.
135. *Camb. History of English Literature*, IX, 277.
136. Translated from Halsband, 156.
137. *Ibid.*, 157.
138. Walpole, H., *Letters*, I, 57-62 (Sept. 25 and Oct. 2, 1740).
139. Halsband, 204, 218
140. *Ibid.*, 218.
141. 289.

CHAPTER VI

1. Turberville, *Johnson's England*, II, 75.
2. Allen, B. S., *Tides in English Taste*, I, 73 f.
3. Lecky, *History of England*, I, 530.
4. Tate Gallery, London.
5. Staatsbibliothek, Hamburg.
6. Traill, *Social England*, V, 271.
7. Wilenski, R., *English Painting*, 102.
8. Thackeray, *English Humourists*, 247n.
9. Beckett, R. B., *Hogarth*, 22.
10. Vienna.
11. Collection of Sir Francis Cook.
12. Frick Gallery, New York.
13. Metropolitan Museum of Art, New York.
14. Tate Gallery.
15. *Ibid.*
16. National Gallery, London.
17. Tate Gallery.
18. Thackeray, 247.
19. Quennell, P., *Hogarth's Progress*, 31.
20. Tate Gallery.
21. Thackeray, 245n.; Wilenski, 60.
22. Wilensky, 79 f.; Dobson, *Hogarth*, 23.
23. Wilenski, 72.
24. Beckett, 13.
25. Art Gallery, Birmingham, England.
26. St. Bartholomew's Hospital, London.
27. Collection of Earl of Faversham.
28. Wilenski, 63; Beckett, 18, questions this story.
29. Wilenski, 85.
30. Dobson, 21.
31. Wilenski, 71.
32. Tate Gallery.
33. Wilenski, 68.
34. Craven, Thos., *Treasury of Art Masterpieces*, 210; Quennell, P., *Hogarth*, 7.
35. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 777.
36. Dobson, 31.
37. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, II, 406.
38. Weinstock, *Handel*, 55.
39. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 60; Turberville, *Johnson's England*, II, 160.
40. This section is especially indebted to Herbert Weinstock's *Handel*.
41. *Grove's Dictionary*, II, 504.
42. Weinstock, 32; Brockway and Weinstock, 57.
43. *Oxford History of Music*, IV, 80; Weinstock, 38.
44. Mainwaring, John, *Life of Handel*, in Deutsch, Otto, *Handel*, 27.
45. Burney, C., *General History of Music*, II, 662.
46. Weinstock, 60.
47. *Ibid.*, 92.
48. 97.
49. *Oxford History of Music*, IV, 209.
50. Burney, II, 721n.
51. *Ibid.*
52. Weinstock, 115.
53. *Ibid.*, 172.
54. McKinney and Anderson, *Music in History*, 438.
55. Weinstock, 207.
56. Burney, II, 817.
57. Weinstock, 212.
58. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 522.
59. Brockway and Weinstock, *Men of Music*, 76.
60. *Oxford History of Music*, IV, 84, Weinstock, 225; Brockway and Weinstock, 76.
61. Weinstock, 232.
62. *Ibid.*, 239.
63. 241.
64. Rolland, R., *Musical Tour through the Land of the Past*, 58.
65. *Oxford History of Music*, IV, 198.
66. Weinstock, 77.
67. Brockway and Weinstock, 81.
68. Rolland, 49.
69. Davison, A., *Bach and Handel*, 46.
70. *Ibid.*, 44.
71. Rolland, 67.
72. Weinstock, 303.
73. *Ibid.*, 305.
74. Davison, A., 41.
75. *Oxford History of Music*, IV, 85-89, 93
76. Burney, II, 1023.

77. Letter to Thieriot in Strachey, *Books and Characters*, 122.
78. E.g., *Works*, XXIa, 211.
79. *Works*, XIXb, 91.
80. Goldsmith, O., *Life of Voltaire*, in *Miscellaneous Works*, 504.
81. Letter of July 19, 1776, in Desnoiresterres, VIII, 108; article "Dramatic Art" quoted in Holzknecht, *Backgrounds of Shakespeare*, 387.
82. Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 101, Brandes, *Voltaire*, I, 173.
83. Johnson, *Lives of the Poets*, II, 7.
84. *Works*, XIXb, 209.
85. In Buckle, I, 518.
86. *Philosophical Dictionary*, article "Government."
87. Gay, *Voltaire's Politics*, 44.
88. Parton, II, 523.
89. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, II, 31.
90. Johnson, *Lives*, II, 176; Collins, J. C., 210.
91. Collins, 230.
92. Brunetière, *Manual of the History of French Literature*, 319.



ول وايريل ديورانت

عصر ڤولتير

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد التاسع







تونس

بيروت

فهرس الجزء الثانى من المجلد التاسع

عصر فولتير – (٣٦)

الكتاب الثانى

فرنسا – ١٧٢٣ – ١٧٥٦

الفصل السابع

الشعب والدولة

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

الفصل التاسع

عبادة الجمال

الكتاب الثاني

(من المجلد التاسع)

فرنسا

١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل التاسع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير ١٧٢٧ ، نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ — النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استمدوا ألقابهم من الأرض التي امتلكوها (وهي ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن مليكهم . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعمائة ألف من الأنفس[1] . وكانوا شيعا أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذي يتربع في دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . ويلي هؤلاء في منزلة أدنى ، طبقة أشراف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين . ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقا . ويأتي بعد ذلك الأدواق الأقل شأناً ، ثم الحاصلون على لقب مركيز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفاليه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسميه تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة في مواكب عيد القربان أو حق الجلوس في حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء ذوي المحتد الكريم »

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثى العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم فى عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة فى الحرب أو فى الإدارة أو فى التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل سته آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، و حصل عدد كبير من المواطنين — رجال المصارف والجراحون والتجار والكتبة وخدم الأمراء - على براءة النبالة [٢] ، وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تضفى على شاغلها لقب النبالة تلقائيا . وفى عهد لويس الخامس عشر كان فى مقدور أى رجل عادى أن يحصل على النبالة بشراء حتى تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفى عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هذا الطراز . كما أنه كان فى الإمكان شراء اللقب بشراء ضيعة أحد النبلاء . ويحتمل أنه فى ١٧٨٩ ، كان نحو ٩٥ / ، من مجموع النبلاء ينحدرون فى الأصل من الطبقة الوسطى [٣] .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون ، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التى كانت بمثابة دور قضاء فى كبريات المدن فى فرنسا ، ولما كان يجوز القاضى أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية — هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون فى أرديتهم القرمزية ، وصباغتهم الثقلية والأكمام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون فى مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التى كانوا يتقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى الحسب والنسب، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين . وبلغت الطبقة التى تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف فى وجهها أو يقاومها ، وزعماء الثورة وحدهم هم الذين استطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف .

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الاهمال فى إدارة ممتلكاتهم أو تغيبهم عنها ، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة فى زراعتها ، أو إنهاك التربة ، أو خفض قيمة العملة التى كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية . ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة ، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال ، قد يمتلك المرء فى ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً . وكان هناك فى بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعانى الفلاحون(٤) . ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة ويبذروا تبذيراً . فكان الدخل السنوى لمركيز دى فييت ١٥٠ ألف جنيه ، ولدوق دى شفريز ٤٠٠ ألف جنيه ، ولدوق دى بويون ٥٠٠ ألف جنيه . وأعفى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة ، إلا فى حالة الطوارىء ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالا ويسرا . وخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ، فقد تفرض الطبقات الثلاث فى مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمنا للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات . قال توكفيل « كان عدم المساواة فى الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات فى كل عام حيث أعفى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء (٥) » . وفى عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها .

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب ، وأيا كانت طريقة إحراز الممتلكات . فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها ، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار ، وسهروا على القانون ، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، ونفذوا العقوبات ، وتعهدوا المدارس والمستشفيات المحلية ، ووزعوا الصدقات. وفى مئات من مناطق السيادة والنفوذ مارس السيد الإقطاعى هذه الوظائف والمهام ، بالقدر الذى سمحت به الأنانية الطبيعية فى الإنسان . وقد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه، ومن ثم فإنهم أطاعوه واحترموه وفى بعض الأحيان أحبوه .

وأدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو وما بعده ، وتحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . وكان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثنين والثلاثين التى انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . وكانوا عادة ذوى كفاية ومقدرة ونيات حسنة ، ولو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . وقاموا بتحسين الأحوال الصحية والإضاءة وتزيين المدن ، وأعادوا تنظيم الشئون المالية ، وبنوا السدود والخزانات على الأنهار من أجل الرى ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، وزودوا فرنسا فى هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل فى سائر أنحاء العالم . وشرعوا فى أن يغرسوا على جوانبها الأشجار التى تظللها اليوم وتزينها [٦] . وسرعان ما زحزح تفوقهم فى الدأب على العمل والمقدرة والكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، ورغبة فى التعجيل بهذه الزحزحة التى تركز الحكم فى أيدى هؤلاء المحافظين ، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام فى بلاطه الملكى ، وهناك عينهم فى وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة وأوسمة مخدرة . وفقدوا الاتصال بالشئون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للانفاق على قصورهم وبطانتهم فى باريس أو فرساى ، وتشبثوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التى كانوا يقومون بها فى مجال الاقتصاد والحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالة على فرنسا .

٢ ـ رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز فى كل ركن فى لحكومة . وقدر رجال الدين الكاثوليك فى فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفا فى ١٦٦٧ (٧) ، و ٤٢٠ ألفا فى ١٧١٥ (٨) . و ١٩٤ ألفا فى ١٧٦٢ (٩) . وهذه الأرقام كلها من قبيل التخمين ، ولكن قد نفترض انخفاض هــذا العدد بنسبة ٣٠ ٪ فى القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩ أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية (١٠) ، ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدو رؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وينصف أو ثلثى دخــل الدير ، دون أن يكون مطلوبا منهم أن يحيوا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعا من النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب فى عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه فى ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً فى فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوى الألقاب (١١) . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الـكنيسة عاداتهم التى درجوا عليها فى التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن الأمير الكاردينال إدوارد دى روهان كان فى القداس يرتدى ثوبا كهنوتيا له حواش من المخرمات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة (١٢) . وفسر رئيس الأساقفة ديللون دى ناربون للويس السادس عشر ، السبب فى أنه أى رئيس الأساقفة ، استمر

وممارسة الصيد بعد أن حرمه على رجال الدين فى أسقفيته ، بقوله « مولاى إن رذائل رجالى من عند أنفسهم ،ولكنى ورثت رذائلى أنا عن أسلافى (١٣)
لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة — من أمثال بوسويه وفينلون وبوردللو — وأفسح المرح الابيقورى الصاخب فى عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبواوتنسان للترقى فى مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم فى ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم فى فرساى أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى بهجته ومسراته ومباذله ، فاحتفظوا بقدم فى الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمة أبقار فلاحيهم (١٤) . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة ، التى كانت تضم أحياناً مدن بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكا للأديار (١٥) ، وفى بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإدارى) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كمبراى الذى كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة فى كاتوكمبرسيس ، ونصفهم فى كمبراى (١٦) . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة فى ضياع الأديار (١٧) وكان للكهنة فى سان كلود فى جبال جورا اثنا عشر ألفا من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقاص من الخدمات الإقطاعية (١٨) . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعى القائم ، كما جعلت لهيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أى تغيير فى فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنويا ، مع شىء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ما كان العشر فى الواقع ، بل كان فى الكثير الغالب جزءا من اثنى عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين (١٩) . وبهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين عاش الأساقفة مترفين منعمين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفى المقام التالى بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة فى فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقاً لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض [٢٠] ؛ وثلث الثروة [٢١] . وكان دخل أسقف سنس السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً، ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناربون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف . أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على المليون من الجنيهات [٢٢] . وكان رأس مال كنيسة بريمونتريه بالقرب من لاؤون ٤٥ مليونا من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ فى تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع فى المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليونا من الجنيهات تدر ثمانية ملايين فى العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شىء من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية فى المجامع الوطنية إعانة اختيارية للدولة . وفى ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليونا من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة [٢٣] . وفى ١٧٤٩ اقترح ماشول دى ارنوفيل المراقب العام المالى أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥ ٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة فى « غضب شديد واصرار [٢٤] » . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التى قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلى الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقا على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكى أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتيبا عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة[٢٥] . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سببا يدعوه إلى الاعتقاد بأن الفلسفة فى مقدورها أن تكسب الجولة فى الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحه بالزيت المقدس وتتويجه بأيدى رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك — فى نظر الجماهير التى ليس فى مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته — نائب الله الذى يتحدث بمقتضى التفويض الإلهى . ان الإرهاب الروحى الذى يبثه رجال الدين فى النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الارهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة فى المحافظة على النظام الاجتماعى ، والابقاء على طاعة الجماهير وامتثالها للحكومة والملك . وهل فى مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الخارقين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساسا على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلا) ، فانهم أحبوا الراعى المحلى الذى شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحيانا كدحهم وكدهم فى فلح الأرض . انهم تذمروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعى هم الذين أرغموه على جمعها ،

.وأن ثلثي هذه العشور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضناها ما كانت تعانى من خلل وحاجة إلى ترميم ، مما تئن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفى سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن فى آذانهم ، والاحتفالات هى المسرحية التى تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هى العطلات المحببة إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعى الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادىء أسطورية لتدعيم لسطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوى والانضباط الخلقى ، وعلى أنه إيحاء بنظام إلهى يتجلى فيه معنى الخلود الذى خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف فى هذه الدنيا . فكانت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الوالدان الفلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية فى البيت ، ونقلا إلى أولادهما الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان اعى الأبرشية يحب الناس كما أحبوه ، فانضم إليهم فى الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهبات واخوة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة[٢٦] كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشرن على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات فى القرية ، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجىء ، ووزعت الطعام على الفقراء يوميا[٢٧] . وفى ١٧٨٩ ألحت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة فى

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدى الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللائى افترقن عن أزواجهن ، وللسيدات المراهقات مثل مدام دى ديفان التى رغبت فى أن تنأى بنفسها عن صخب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً . فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأم أورينى (رئيسة دير للراهبات) عربة تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل فى جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات فى ألكس يرتدين التنورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكن فى أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضروباً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأقاصيص التى رويت عن الفساد الخلقى فى الأديار فى القرن الثامن عشر كانت مبالغات بشـــنيعة مثيرة استخدمت فى حرب الدعاية بين المذاهب المتنابذة ، وكانت الحالات التى لزم فيها البنات الدير على غـــير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوى تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشـــكك أوصياء العرش عير الأتقياء ، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسنيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير فى مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغـــيره من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتى المتقشف فرانسوا دى باريس (١٧٢٧) حج الجانسنيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته فى مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشنجين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برئوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأتى بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعى التأثر مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفى ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين فى مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطيبة جانسنية قلبا وقالباً (٣١) . وتحدياً للمرسوم الملكي الصادر فى ١٧٢٠ رفض صغار رجال الدين الامتثال للأمر البابوى الصادر فى ١٧١٣ الذى استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسنيين آثاروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لقسيس كان قد ارتضى الأمر البابوى . واسهم هـذا النزاع فى إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لايزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفى عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفى ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف فى القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم فى السجن ، وقضى مرسوم صدر فى ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف فى السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقالهن مدى الحياة (٣٢) وفى عهد الكاردينال فليرى حدث شىء من التراخى فى تنفيذ هذا المرسوم . ولكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك فى جنوب فرنسا (٣٣) . وفى ١٧٤٩ أمر برلمان بوردو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زوجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشتبه فى أن آباهم من البروتستانت ، لتربيتهم وتنشئتهم فى بيوت كاثوليكية . وإنا نسمع عن رجل ثرى من الهيجونوت أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامى ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتى ، وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفى ١٧٥٢ شنق فى مونبلييه الواعظ البروتستانتى بينز — البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفى نفس العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دى بمبادور ، بوضع حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت فى باريس أو قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة فى العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم فى السلطة والنفوذ ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئات ممن امتازوا بالعلم الغزير والحياة التقية النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا فى باريس العشور التى جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون اتسموا بالطهر والتقى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال لويس أنطوان دى نواى رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبيلا . وكان الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كلبرمونت على الرغم من عظاته الزاخرة بألوان العلم والمعرفة ، والتى كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دى كايلوس أسقف أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضى ليطعم الجياع ؛ ثم اعتذر لمن التمسوا رفده بعد ذلك بقوله « يا أبنائى ، لم يبق لدى شىء أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسوادى بلزونس مكانه وسط الطاعون الرهيب الذى اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ، وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفى هذا كتب لمرتى : « انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا فى خدمته بسبب العدوى . فسار على قدميه فقيرا بائسا فى الصباح إلى مواطن

التعاسة والشقاء ، كما كان يرى مساء وسط الأماكن التى اكتظ بها ولوثها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليطفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفى ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التى لا معين لها . إن هذا المثل للذى ضربه هذا الأسقف الذى يبدو أنه محصن ضد أى أذى كان كفيلا بأن يدفع ...... كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته فى شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالى أحد بما يلقى من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الوباء بستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكيوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد فى خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثولوكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم [٣٩] .

ولنذكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخانقة والخرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصيبة الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ - الطبقة الثالثة

١ - الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسى » الذى وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذى يفاخر به الفلاح الفرنسى اليوم ، وحالته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفى ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آخذة فى التحسن بالمقارنة بالمستوى المنحط الذى هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تتراوح بين ٢٠٪ فى نورماندى وبريتانى و٥٠ ٪ فى لنجدوك وليموزين(٤٠) . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا — من ثلاثة إلى خمسة أفدنة — إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر فى المزارع الأخرى ليعولوا أسراتهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبلاء أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وغلة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول فى مقابل الأرض والآلات الزراعة والبذور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تجاوز ٢ ٪ هى التى وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكى هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعى المحلى لعدة أيام فى السنة تكفى لحرث أرضه وبذرها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك فى البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعى ماشيتهم فى الحقول ، مما يقع فى زمام أرضه . (فى فرانش كومتيه ، وأوفرن ، وبريتانى ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج (٤١) . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ومخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا فى كل مرة يستخدمون فيها شيئاً من هذه . كما نقدوه مالا عن كل مستوقد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عبروه فى نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه الضرائب موجود بيننا الآن فى أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين إأغفلت إغفالا إشديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النـار على حمائم السيد ، وهى تأكل محصوله(٤٢) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الاقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة (٤٣) .

وفى بعض الأماكن بقى الرق بمعناه الحقيقى ، وقدر مؤرخ اقتصادى مشهور أن عدد الرقيق فى فرنسا فى القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون (٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن فى ١٧٨٩ كان لا يزال فى فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء (٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانونا أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال اقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التى تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضى ، وبالاضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد فى البيت . وبهذا كان يدفع فى الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة .(٤٦) وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخه ، ليفتشوا عن المدخرات المخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزما بالعمل ودفع الرسوم لسيده ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزما بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوما فى السنة ، فى إقامة الجسور وبناء الطرق أو اصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو توانى .

ومع تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بدائية فى فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب فى انجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذى يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة فى كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت انجلترا نظام الدورة الزراية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريث الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد فى المزرعة ، كما كان السماد قليلا . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلا إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز فى ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسى . ففى ١٧١٨ كتبت السيدة مارى مونتاجو : « فى كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحسانا ، فى وجوه أضناها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك فى حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم [٤٧] . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا فى وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « فى ١٨٢٥ كان الناس فى نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك فى أوربا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شىء دون أن يدوا شيئاً من التذمر [٤٨] » . وفى ١٧٤٠ حسب المركيز رينيه لويس دى أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز فى العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا فى حروب لويس الرابع عشر كلها [٤٩] » . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين — وكانوا كلهم تقريباً فقراء — تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا . . . . أما الحذاء الوحيد (المرقع الواهى المثبت بالمسامير) الذى اقتناه عند زواجه ، فكان لزاما أن يستخدمه بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الحذاء [٥٠] » . وقدر فولتير أن مليونى فلاح فرنسى كانوا يستخدمون نعالا خشبية فى الشتاء ، وكانوا يسيرون حفاة الأقدام فى الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضربا من الترف[٥١]
أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لا سقف لها فى بعض الأجزاء فى شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبنى بطريقة أقوى حتى تحتمل البرد والرياح فى الشتاء » . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طاوئاً [٥٢] . ففى فرنسا ، كما هو الحال فى أى مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة فى الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة فى الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأسرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختطفت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة فى سكان فرنسا فيما بين عامى ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء فى نظرية مالتس .

٢ - البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدم المنازل أدنى مكانة من الفلاحين فى السلم الاجتماعى ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهيء إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا فى المدن أعلى قليلا من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين فى الحوانيت والمصانع وحمالى البضائع ومتعهدى الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزليا أو محليا يقوم فى أكواخ ريفية أو فى الدور فى المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة فى المدن إلى حد كبير فى الطور النقابى (نظام نقابات العمال وطوائفهم فى العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعا وفقاً للقواعد القديمة التى حددت النقابة والحكومة بمقتضاها ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمرا عسيرا ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية فى تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرستقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول فى سلك المعلمين الصناعيين إلى ألفى جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية . (٥٣) وكان العمل فى الحوانيت يبدأ مبكرا وينتهى متأخرا . وكان عامل المياومة حول فرساى يبدأ عمله فى الرابعة صباحا وينتهى منه فى الثامنة مساء . (٥٤) ولكن العمل كان أقل اجهادا منه فى المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة فى معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثا أو أربعا من « الأيدى العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدابغ ومصانع الزجاج والمصابغ كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال فى بوردو لا يتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة — مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخزف الصينى فى سيفر . وأخذت عملية التعدين فى التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب فى الوقود . وثارت الاحتجاجات على دخان الفحم الذى يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس فى باريس ، وفى لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب فى دوفينى ، ومصانع للورق فى أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعا ملحوظا فى الشمال ، فاستخدم فان روبيه ١٥٠٠ عامل فى مصنع واحد فى آبفيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل فى ليل (٥٥) . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافا ورسوماً مدهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل فى الصناعة فى فرنسا ، يندر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكار (لحياكة الأقمشة المصورة) فى ليون ، عمد عمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلقى بهم فى عرض الطريق بلا عمل (٥٦) .

ورغبة فى تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا ـ كما فعلت حكومة انجلترا فى عصر التراث ـ منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فإن روبية احتكار انتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيما صارما موروثا عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضا متزايدا من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديدا لهذا المطلب ، قال فنسنت دى جورناى (حوالى ١٧٥٥) عبارته التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التى عبرت فى الجيل التالى ، على لسان فرنسواكنى وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطى الذى نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضا من هذه القواعد والتعليمات التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدى النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين فى المدن الكبرى ـ حتى بالمعملين النقابيين ـ إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون فى عملهم على المقاولين أو الملتزمين . (٥٧) وفى نطاق النقابات أجرى المعلمون ـ تخفيضا فى أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دورى . وكان الفقر فى القرى شديدا مثلما هو فى المدن تقريبا . ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، فى المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث فى تولوز ١٧٤٧ ، وفى باريس

١٧٥١ ، وفى تولوز ١٧٥٢ [٥٨] وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل ، حوالى ١٧٤٩ استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالنظام القائم[٥٩].

وفى أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزى توماس جراى فى ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها بالغة الضيق والقذارة ، ودورها بالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق فى كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » . [٦٠] وكانت باريس خلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خادم ، و٢٠ ألف متسول ، وفيها الأكواخ الكئيبة والقصور الفخمة ، والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزهات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقر المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الجواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد فى حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفى عام ١٧٤٢ رصف تريساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قذرة تماما ، مملوءة بالحصى الكبير الذى يصلح لإقامة المتاريس فى أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحل محل الفوانيس فى ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع فى ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنابير ماء فى بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض فى المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن والبارد ، فكانت امتيازا لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالها من الفوضى فى الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمناء فى « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطفيف فى المقاييس والتلاعب فى الأسعار ورداءة أنواع السلع.(٦١) وكان بعض الحوانيت ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون فى شراء حاجياتهم أساسا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين فى دلاء أو سلال على ظهورهم، والذين أسهموا فى موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التى يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة» إلى الموت للفئران » فقد نازعت الفيران الناس على تيسيرات السكنى فى المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفيران فى مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسى كان فى زيارة مونتسكيو » : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت فى الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهى مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظرى فيه على شخص واحد يسير بخطى وئيدة . وليس فى العالم كله مثل الرجل الفرنسى وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . (٦٢) أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين فى الشوارع والنافخين فى الأرغن والدجالين بائعى الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف فى الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوتى اليسير من الطعام والنبيذ فهو ألطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ — البرجوازية :

وفيا بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى . تضمر لها أولاهما البغض والكراهية، وتزدريها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الادارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهى طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة فى حذق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكوا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التى تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغتاظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التى تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هى تعويض معقول له عما ينفق فى صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكى صادر فى عام ١٧٢٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئات لعبت دورا فى كسب البورجوازية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التى كانت معوقة فى الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوربا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التى أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ، أسواقها ونفوذها السياسى فى البحر الكاريبى ووادى الميسيبى وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهى ، المنفذ الرئيسى لتجارة الأطلنطى ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات فى عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا فى ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا فى مزارع قصب السكر فى جزر الأنتيل ولويزيانا(٦٣) . وفاقت نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثيلتها من السكر الإنجليزى المنتج فى جمايكا وباربادوس فى الأسواق الأوربية ، (٦٤) وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات فى ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون فى ١٧٥٠ . (٦٥) وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التى استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة فى ١٧١٥ إلى ١٨٠٠ فى ١٧٣٨ . (٦٦)

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسى لغـــزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسبي وبعض الجزر فى البحر الكاريبي . وتحدت إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها فى أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هى التى يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا فى الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون فى ١٦٨٣ قد وطدوا مركزهم فى بوندشيرى على الساحل الشرقى جنوبى مدراس ، وفى ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالى كلكتا . وفى ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التى كانت قد أقامت لها مراكز فى مدراس (١٦٣٩) وبمباى (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) — أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التى تتمزق أوصالها .

ولما رأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفى نقيض فى حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٤) فان ماهى دى لابوردونيه — الذى كان قد ضرب رقما قياسيا فى الاقدام والمغامرة فى إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية فى المحيط الهندى — عرض على حكومة فرساى خطة « للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية فى الهند » .[٦٧] وهاجم مدراس بأسطول فرنسى ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسئوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضى بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لابوردونيه أصر فى عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرته سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فزج به فى الباستيل بتهمة التمرد والخيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما فى السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفى ١٧٥٣ . وفى تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزى قوى بوندشيرى (أغسطس

١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (إكتوبر) . وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لا شابل أعادت مدراس إلى إنجلترا . ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة فى الهند بسبب ضعف قواتها البحرية ، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس فى الغزو والفتح ، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة ، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤) . وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيين هزيمة منكرة فى الطور الهندى من حرب السنين للسبع .

وكان « رجال المال » فى قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضى النقود على نطاق ضيق ، من الطراز العتيق المحافظ ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة ، الذين يتعاملون فى الودائع والقروض والاستثمارات ، أو من « ملتزمى الضرائب » الذين يعملون للدولة باعتبارهم « وكلاء الدخل » . وكانت القيود التى فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضى فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريباً ، فى تلك الأيام . ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلهف على الاتجار فى الأسهم والسندات، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤ .

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء . فكان باريس مونتمارتل يمتلك مائة مليون جنيه ، ولينورمان دى تورنهيم عشرين مليونا ، وصمويل برنارد ٣٣ مليونا [٦٨] . وزوج برنارد بناته من أزواج أرستقراطيين حيث دفع لكل منهن مهراً قدره ٨٠٠ ألف جنيه [٦٩]. وكان سيداً مهذباً محبا لوطنه . وفى ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يخفيها جزئياً [٧٠] . وعندما قضى نحبه (١٧٣٩) ، أماط فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية [٧١] . أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب « باريس » فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية . وتعلم منهم فولتير كثيرا من براعته المالية ، فأذهل أوربا لكونه فيلسوفا و « مليونيرا » فى وقت معا .

وكان « الملتزمون العامون » أبغض رجال المال في فرنسا في القرن الثامن عشر . وكان نظام « الملتزم العام » قد أدخل في ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة ـــ أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ ـ ولكي تنفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم في ارتفاع ثمن هـــذا العقد الرابح : ٨٠ مليونا ١٧٢٦ ، ٩٢ مليونا ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليونا ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوما في حيرة جرياً وراء الطرق التي تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملتزماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولعق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامى ١٧٢٦ - ١٧٣٠ جاوزت أرباح الملتزمين العامين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات [٧٣] وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية في البذخ والترف ، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والخليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « ألطف الفلاسفة » ، هلفشيوس ، واحـــداً من أكرم « الملتزمين العامين » . وقضى روسو فترة طويلة في ضيافة مدام دى ابيناى زوجة أحد الملتزمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دى لابوبلنيير الذى اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الرومانى من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل في القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتلهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمناصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ ـ الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة فى الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التى كانت تتطلب عبر شجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب ،وكان أفرادها يشكلون البيروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعى فى ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلى الأسرات الواهنين الخاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجد والعمل . وفى الحق أن نبلاء الرداء فى البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ،وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنوات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم فى باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون فى تخطيط الحرب (٧٣) . إن نمط البرجوازية الفرنسية فى القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله فى القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة فى فرنسا كانت أحسن إدارة فى أوربا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت فى نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بانجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبى إلا فى المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أى برلمان فى وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً فى تسيير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية فى الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومى » . وبإحدى هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدى فرانسيز » فى عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لئيم فى السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفى حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامح . وفى مثل هذه الحالات كان السجن خفيفا قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاز الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ — ١٧٥٦) فى حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة فى نفى شارل ادوارد ستيوارت حفيد جيمس الثانى من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش). (٧٤) وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألمانى ولهلم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس فى المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمرا سريا ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس . (٧٥) إن أية إساءة إلى أحـــد النبلاء من رجل عادى ، أو أى نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدى إلى صدور رسالة سرية مختومة تتضمن أمرا بالقبض والزج فى السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياءا متزايدا على مر السنين فى هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسي مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتى ، فى سالف الأيام . وكان فى مختلف أقاليم فرنسا . ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة فى تنظيم القانون الفرنسى وتحديده فى « قانون العقوبات » الذى صدر فى ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألمانى والرومانى ، والتشريع الكنسى والمدنى . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع فى التحقق من إنسياقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أى القوانين سارى المفعول فى محل إقامته أو فى قضيته .

وتولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات فى الأقاليم ، أما فى المدن الكبيرة فكان يتولاه « شرطة البلدية » ، التى نظمها ودربها أحسن تدريب وتنظيم فى باريس ، مارك رينيه دى فواييه دى آرجنسون ، الذى لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرمى باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية »[٧٦] — عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى — مثل جين كالاس — شهورا فى السلاسل والأغلال والتعذيب العقلى ، معرضاً للمرض فى كل يوم بين الأقذار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق فى قانونية أمر الاعتقال (هابياس كوربس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضى بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائى وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية فى فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة فى عقاب عدم الأمانة فى العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم يجرون مربوطين فى ذيل عربة فى الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفى ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف فى السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجنسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد المجرم إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدى وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة فى باريس ، كانوا دائماً يتطلعون فى ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام [٧٧] » .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان فى الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التى تطبق القانون المحلى ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر فى القضايا الصغيرة فقط . وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة . وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان فى كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التى تطبق القانون الملكى ، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها فى محاكم كنسية . وكان المحامون يحتشدون فى مختلف المحاكم وفيما حولها، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان فى المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئة محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ،وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكومى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه فى الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسى كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاونى رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صارمة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل فى البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشريفات معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرفة لطفت من رتابة نظام الحاشية . وهيأت جو الغموض الذى لاغنى عنه للحكومة الملكية - وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هى الانهماك فى القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلى « إن تسعة أعشار الناس فى فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم[٧٨] وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موائد القمار جسيمة . ولكى يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محترماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج فى البلاط ، تقريباً ، عشيقة ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكا منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه مادام دى بمبادور وهى سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى.

وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً فى ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك فى سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دى بوربون . وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دى تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً [٧٩] » وكان السيد الدوق دى تولوز « نفسه رجلا طيب الشعور ، بذل كل ما فى وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر فى تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب خيب آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وتآمروا على سقوطه[٨٠]

وأباح لعشيقته المركيزة دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغى ، وكانت ذكية ، ولكن ذكاءها كان دون جمالها ، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من مارى لزكزنسكا ، أملا فى أن تستبقى الملكة الشابة تحت تأثيرها . ومهما يكن من أمر فإن مارى سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير ، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذى يتولى تعليم الملك ، والذى كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول . ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر فى الدولة .

وكان أندريه هركيل دى فلبرى قد عين أسقفاً فى فريجيس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥ . وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبى . وكان الأسقف فارع الطول وسيما مرناً لبقاً ، كسولا بعض الشيء لا يتعجل الحظ والثراء أبداً ، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه . واعتقد ميشيليه وسانت بيف أن فلبرى ، باعتباره معلما ، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته فى ابتهاج خال من الهموم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم (٨١) . ولكن فولتير ، الذى لم يكن صديقاً لرجال الدين ، أعجب بفلبرى ، وقدره أعظم تقدير ، معلماً ووزيراً ، على حد سواء وأخذ فلبرى على عاتقه أن يشكل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة ، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها ، طيلة الفترة التى لم يبلغ فيها الملك سن الرشد ، والتى نعم فيها بحسن تأثير الوصى وتقدير الشعب . ولم يمن فلبرى قط بقيمة خدماته ، ولم يشك قط من الآخرين ، ولم يغمس يده فى مكائد الحاشية ودسائسها قط . وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة فى الداخل ومصالحها فى الخارج . وصفوة القول إن سلوكه الواعى الحذر ومزاجه اللطيف جعلا كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإداره فيها (٨٢) .

ولما علم فلبرى بأن تأثيره المستمر فى تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط ، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب فى هدوء إلى دير السلبيشيانز فى ISSY، إحدى ضواحى باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥) . وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فلبرى أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفى ١١ يونيه ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، [٨٣] أمر لويس الخامس عشر، بشكل مفاجىء ، بوربون « أن يأوى إلى شانتيللى ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام دى برى إلى قصرها فى نورماندى ، حيث تولاها الضجر والسأم إلى أبعد الحدود . فتناولت السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فلبرى يخطو إلى الأمام بفضل تراجعه . ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار . وأصبح فلبرى الوزير الأول فى كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيه ١٧٢٦) . وكان آنذاك فى الثالثة والسبعين من العمر ، وكم من نفس طموحه تطلعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فلبرى أنه قسيس ، فألغى ضريبة الـ ٢ ٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه ، وطلب فلبرى إليهم أن يساندوه فى تنصيبه كاردينالا ، وكان فى حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأدواق فى مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هى أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو فى أوج السلطة مثلما كان متواضعاً وهو يمهد لها . وعاش فى بساطة تكاد تتسم بالتقتير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا فى شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفى نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » [٨٤] وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبذخ ومات فقيرا » . [٨٥] وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسئ استغلال منصبه قط . [٨٦] وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحا ممن يحيطون به » [٨٧] وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا ، ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسنيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم في حزم وكياسة . وفي عهده تابع هنري فرنسوا دي أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ – ١٧٥١) في اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيليبرت أوري النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فلبري الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطماع الأسرية في الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هيأ لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادي . وبدا أن نجاحه برر مقدماً الحجج التي رددها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكما يسيرا معناه أن نحكم حكما صالحا » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . ووعد بوقف التضخم ، وأوفى بوعده . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الايرادات في قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغي ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التي بهظت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق في انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذي ضربه فلبري في الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفي مقابل هذه المفاخر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العامين في الاستمرار في جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزيزا منه للمشروع الضخم الذي وضعه المحافظون ، أقر نظام السخرة الذي فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام . وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولكنه قبض يده بشكل مخل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء فى قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول فى إنجلترا نجحت سياسة السلام التى انتهجها الكاردينال . فإن الرجلين . ولو أنهما كانا على طرفى نقيض فى الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه فى ١٧٣٣ ، حضه مستشاروه فى الشئون الخارجية على القيام بمحاولة فاترة لاجلاس ستانسلاس لزكزنسكى ، وهو حمو الملك . على عرش بولندة ، ولكن ستانسلاس اقترح اصلاح دستور بولندة وتشكيل حكومة قوية ، وآثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندة عاجزة مهيضة الجناح ، فرفضتا هذا الاقتراح . وفى حرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ — ١٧٣٨) طردتا لزكزنسكى من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فلبرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستلانسلاس بأن يلجأ إلى نانسى ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لزكزنسكى والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التى كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهـــذا ما حدث فى ١٧٦٦ .

وجاهد فلبرى الذى كان فى الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينأى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه . ذلك أن فليسيتيه دى نسل مركيزة فنتيميل ، التى كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت فى بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه، كونت دى بل أيل . حفيد المختلس البارع نيقولا فوكيه الذى كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فلبرى رجل هرم أحمق ، وأنه فى مهاجمة فردريك الثانى ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتمزيق إمبراطوريتها ، وأن فرنسا ينبغى أن تنضم إلى فردريك ، وتقتسم الغنائم . وصبت العشيقة الفاتنة هذه الكلمات فى آذان الملك الولهان . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدى الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فلبرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضى فى مشروع بل آيل . فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد ينذر بالخطر . وأن على فرنسا أن تدخل فى حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا فى خير حال فى السلم ! وفى ٧ يونية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفى ٢٥ نوفبر استولى بل أيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن فلبرى عجوز أحمق .

وبعد عام فى الحرب تخلى فردريك المراوغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة مع النمسا ، وإذ تحررت الجيوش النمسوية على هذا النحو ،تقدمت إلى بوهيميا ، وشرعت فى تطويق براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقض مضاجعهم وأزعجهم الأهالى الذين أضمروا لهم العداء . وفى ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فلبرى إلى القائد النمسوى كونت فون كونجزج نداء مذلا يناشده فيه شروطا معتدلة للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرض القرارات التى اتخذناها ، وإنى أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » [٨٨] فأرسل كونجزج الخطاب إلى ماريا تريزا التى نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسى لإنقاذ بل أيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفى ديسمبر ترك بل أيل وراءه ستة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود عند ايجر ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت فى قلب الشتاء عبر مائة ميل جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم طيلة انسحابهم . وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هـــذه المسيرة اثنى عشر ألفا فى الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع بالارتداد المذهل . وتخلى فلبرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير فى اسى حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو فى سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رياسة الوزارة بنفسه منذ الآن

٥ — لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عندما يكون ملكا وهو فى سن الخامسة ؟ ان الصبي الذى قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة فى طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة فى ١٧١٢ توفى والداه دوق ودوقة برجندى بالجدرى ، وأصبح الصبي وريث العرش . وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

واتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فنتادور أشد القلق على صحته ، وعملت على وقايته من قسوة الجو ، وغرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراما رهيبا للكنيسة . وكان فلبرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر فى أنه من الخير لفرنسا أن يكون مليكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريشال دى فيلروا فقد دبر سماً عكسيا ، حيث قاده إلى نافذة فى قصر التويلرى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاى ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت مليكهم وسيدهم.» (٨٩) واقترنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا فى سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليجد متنفسا فى الحفر على الخشب وشغل الابرة وحلب البقــرة واللعب مع الكلاب . (٩٠) إن عناصر القسوة التى تكمن فينا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جبنه . ويروى أنه كان فى صباه يجد لذة فى صيد الحيوانات بل قتلها . (٩١) وفى سنى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت فى سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللائى شاركنه فراشه بعد تدريبهن على ذلك فى « متنزه الظباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقــدر من الحساسية المقرونة بالحذر والخجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولـكنه استوعب بعض التعليم الصحيح فى اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارع الطول نحيل القوام ، ولـكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجعد . وقال عنه ماريشال دى ريشيليوانه « أكثر الصبية وسامة وملاحة فى مملـكته »[٩٢] يحتفظ متحف فرساى بصورة رسمها له فانلو ، وهو فى الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبيانى. وقارنه رينيه لوس دى آرجنسون باله الحب عند اليونان « ايروس » (كيوبيد عند الرومان) . ووقعت النساء فى غرامه لأول نظرة . وحين مرض فى ١٧٢٢ صلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهاجا . إن هذا الشعب الذى كثيرا ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهج لما راوده من أمل فى أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش فى الأسرة الـكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو فى سن الحادية عشرة ، ماريا آنا فـكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولـكن مدام دى برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المتزايد بفسخ هذا القران المرتقب ، وتزويج لويس من مارى لزكزنسكى ابنة ملك بولندة المخلوع . وشرعت فى تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسبانى قط . وكان ستلانسلاس فى مأواه فى ويزمبرج فى الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجرة التى كانت ابنته وأمها تعملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت مارى فرحة مبتهجة وقالت « أبى العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولندة ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بنعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا » (٩٣) إن ماري لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش في أوربا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا يكاللة المجد والرفعة ، وسيما قوياً ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحذية والقفازات والمجوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرساي ، وبراتب سنوي قدره عشرون ألف كراون ذهبا مدى الحياة . وتلقت ماري هذا كله في ذهول وهي لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفي ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل في ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك في فونتنبلو في ٥ سبتمبر . وكان هو في الخامسة عشرة . وكانت هي في الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذي لم يكن قد أبدى بعد ولعا بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها في حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوما ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعوذها الدعابة المرحة ، ومع ذلك افتقدت فرساي فيها الذهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحيوية . مما أصبح لزاما أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت ماري لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثلا للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى انجاب وريث له . وعلى مدى اثني عشر عاما وضعت عشرة أطفال ، وفي سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . انها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصيبت في غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتمست « الحرارة » التي تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دى برى والدوق دى بوربون محنة ابتليت بها وأصغت فى صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فلبرى فى حضرة الملك . وعندما تولى فلبرى زمام السلطة أرسل بناتها إلى ديرناه بحجة الاقتصاد فى النفقات . ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسجت البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء فى التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهبنة وسط انفعالات الحاشية وعبثها »[٩٤] .

وكان ينبغى للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دى برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خليلة إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذلك اتخذ أربعا على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحيوية ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذوات خبرة بأساليب الغنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دى نسل كونتيسة دى ميللى الشرف فى أن تكون سباقة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . انها ، مثل لويزا دى لا فالير ، أخلصت فى حبها لعشيقها الملكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أختها فليسيتيه ، وكانت لتوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها فى لويس (١٧٣٩) فى قران رباعى مهرطق — لأنه ظل يتردد على الملكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصا رهيبة مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان فى فم آثم خاطئ .[٩٥] إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغريق كائن أسطورى له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) — كما تروى احدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سمك بحرى) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد »[٩٦] . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ، وعينها مركيزة فنتميل . وفى ١٧٤٠ آوت مدام دى ميللى إلى أحد الأديار ، ولكنها غادرته بعد عام واحد لترعى منافستها المنتصرة التى كانت تعانى سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . ويبكى الملك وبكت مدام دى ميللى معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعيها ، وعادت عشيقة له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدليد نسل ، البدينة الدميمة ، وكانت بارعة ذكية ، عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديهتها وأجوبتها السريعة . واستمتع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت الرابعة ، مدام دى فلافاكور ، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن الأخت الخامسة ، أقدرهن جميعاً ، هى مارى آن دى نسل دى لاتورنل ، أقنعت مدام دى ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغز مارى قلب الملك فحسب ، بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أبهة الملكية إلى كآبة الدير . وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختا لها . وبعد ذلك بقليل كانت مارى تشق طريقها لتصل إلى مقعدها فى كنيسة نوتردام ، فكان فى هذا ازعاجا لجماعة من المصلين ، وتذمر أحدهم قائلا : « كل هذه الضجة من أجل بغى فاجرة : « فقالت هى « سيدى ، ما دمت عرفتنى جيدا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . [٩٧] » ولا بد من أن الله سبحانه وجد من اليسير أن يغفر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التى رسمها لها ناتييه — وجه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، فى ثوب من حرير مهفهف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين — لتفسر شدة اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقدا قدر بريق عينيها . وعلى النقيض من دى ميللى كانت مارى تتلهف على الثروة والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التى تدر ٨٥ ألف فرنك فى العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقة (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى فى البلاط ، كان يأمل فى استخدام نفوذها فى كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس فى بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهمك فى العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته . ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات فى البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فإذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخندق .

وفى المخدع وفى حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب — مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل — الملك على القيام بدور فعال فى الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة فى مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع فى درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الخطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحثاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فليرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفى ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفى ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذى بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة فى أبهته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خليلاته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التى يقودها الملك ، ولكن خطط عملياتها

أدريان موريس دى نواى وموريس دى ساكس ، انتصارات يسيرة فى كورتراى ومنان وأبيرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مساندتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هيأت الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الالزاس واللورين ، مما اضطر معه ستلانسلاس الذى لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لونفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متز أملا فى استثارة همم الجيش المنهزم بوجوده . ولكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه فى ١١ أغسطس ظن أن فى خطر من أن يهلك ، وكانت خليلته قد لحقت به ، وهى الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالى بصيحات الاحتقار والاستنكار وهى تغادو المدينة .

وفى الوقت نفسه كانت مارى لزكزنسكى قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملكة قائلا « لقد سببت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفرى لى هذا كله » . فكان جوابها « ألا تعرف أنك لست فى حاجة أبدا إلى الصفح من جانبى . إن الخطأ فى حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دى موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنون بعضهم بعضا فى الشوارع ؛ وعانق بعضهم جواد الرسول الذى حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جداً » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبوننى إلى هذا الحد ؟ » [٩٨] إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأنقذ فردريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمسوى المجرى ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، ورآه يستولى على فريبورج - أم بريسجو . وفى نوفمبر عاد الملك إلى فرساى ، وأعاد مدام دى شاتورو إلى سابق حظوتها ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن فى ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخليلة نحبها . ودفنت فى ظلام الليل، تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن تناول الأسرار المقدسة فى عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات جيشه ، وكان قائد ألمانى بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس دى ساكس كان ابن أوغسطس القوى ناخب مكسونيا وملك بولندة . وكانت أمه هى الكونتس ماريا أورورا فون كونجز مارك التى اشتهرت بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفى سن الثانية عشرة تزوج موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) . وبعد أن أظهر شجاعته فى حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات . وفى ١٧٢٠ حصل على منصب فى الجيش الفرنسى . وبعد أن نجا من كل محاولات زوجته السابقة لقتله بالسم ، عثر على خليلة مخلصة فى شخص أدريين لكوفرير التى برزت مكانتها فى الكوميدى فرانسيز آنذاك (١٧٢١) . وفى ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة فى كورلند (جزء من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد على فقد حبيبها ، منحته ، عونا له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ، بالاضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ، قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصرة روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندى فى مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندى الذى لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصة له ، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الحظوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الخلقى الجدير بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادلهن اخلاصهن ، أصبح موريس فى ميدان القتال عبقريا لا يجارى فى استراتيجية الحرب ، جريئاً فى تفكيره ، يقظا لأى خطر يتهددة ، ولأية فرصة تسنح له . وقال عنه فردريك الأكبر منافسه الوحيد فى ذاك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لأى قائد فى أوربا »[١٠٠] وفى ربيع ١٧٤٥ عين قائدا عاما للجيش الفرنسى ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجبهة . وكان على شفا الموت آنذاك فى باريس ، حيث أنهكه إفراطه فى الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال فى مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » .[١٠١] . وفى ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفا من الرجال الأشداء ، فى فونتنوى . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذى أقعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسى من الأغصان المجدولة . ويروى لنا فولتير ، فيما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ،[١٠٢] أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرمى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروش عن الفرنسيين « أيها الرجال ، نحن لن نبدأ باطلاق النار ، فهل تبدأون أنتم »[١٠٣] وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غاليا . حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطا و ٤٣٠ جنديا .[١٠٤] واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أخجلهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواد ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون مليكهم فى خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دى ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان فى أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام فى ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واختلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز فى هذا الالتحام المرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه خجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى الدوفين ولى العهد قائلا « انظر يا بنى كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاياك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقوه إلى فرساى ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتائج فونتنوى بتوقيعه صلحا منفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جبهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستالا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فليب الأسبانى . وعاش موريس أوف سكوسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرما ، ومثقلا بالأمراض. وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغوانى ، ليدون بعض نظرات فلسفية حالمة : « ماذا نرى اليوم فى الأمم ! نفر من الناس يعيشون فى فراغ وسرور وجدة على حساب الجماهير التى لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دى فوابيه ، مركيز أرجنسون الذى تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات ١٧٤٤ - ١٧٤٧) ، كتب فى ١٧٣٩ « تأملات فى حكومة فرنسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا فى ١٧٦٥ ؛ وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع فى السكان قيمة ، وينبغى أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الانفاق على زراعاتهم (١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة فى الدولة، أثبتوا عجزهم فى الإدارة ، وهم عالة على المجتمع » . وإذا قال أحد بأن هــذه المبادئ تتفق مع الديموقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا » . وإنه ليجدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغى أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية فى يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هى القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء (١٠٨) . واستبق دى آرجنسون الفلاسفة فى التطلع إلى الاصلاح على يد ملك مستنير ، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة فى طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفى ١٧٤٧ استسلم لويس لتحريض نواى وموررباس وبمبادور وعزل دى آرجنسون . وفقد المركيز ثقته فى الملوك . وفى ١٧٥٣ تنبأ بما حدث فى عام ١٧٨٩ : « إن المساوئ والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات . . . . وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدى إلى ثورة وطنية . . . وكل شىء يمهد الطريق إلى حرب أهلية . . وأذهان الناس مهيأة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى فى الدين والحكومة معاً (١٠٩) » .

أو كما قالت خليلة الملك الجديدة « من بعدى الطوفان » .

مدام دى بمبادور

هى من أشهر النساء فى التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكنها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمى فولتير وتنقذ موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم .. ومن العسير أن ننظر إليها فى الصورة التى رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ فى الافتتان بالإنسان . فهل كانت دى بمبادور إحدى روائع الطبيعة ، أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها المزيلة تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسية أو الشهوانية السطحية فى صوره العارية المشرقة . وبدلا من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ، والذوق فى ملابسها . والرقة الناعمة فى يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف الأسمر عاليا فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته ، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكتها المرحة المستهترة ، ولا رمحها الوديعة ، بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابة إرادتها التى لا تلين ولا ترحم أحيانا .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ، فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقراطية للطبقة الوسطى التى نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذى لم يستطع يوما أن يتخلى من اسمه « السيد سمك » (بواسون بالفرنسية معناها سمك) . واتهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام سنقاً ، ولكنه هرب إلى همبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين المعجزة . » وشغلت بالارتماء فى أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف فى همبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملتزم ثرى ، هو شارل فرنسوا لينورمانت دى تورنهيم ، الذى تولى الانفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعتها مدام بواسون فى ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، الجهير العظيم ، للغناء ، وكربيون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت فى الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح فى الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها فى حد ذاته اغواء » . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثارى إلى حد تحمست له مدام دى ميللى فى استحسان عزفها . ولما كانت جين فى التاسعة من عمرها تنبأت لها سيدة عجوز (كافأتها فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى للملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى الملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفى سن العشرين أغراها مسيودى تورنهيم بأن تتزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج بحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرا مزهو بها . والتفت فى منتدى مدام دى تنسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتنها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير فى بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد فى العالم ، إلا الملك ، على أن تخون زوجها أو تكون غير مخلصة له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة فى أن هذا الاستثناء من المستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جمالها لديه . وفى ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت فى أوتيل دى فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحدثت إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهى ترقص ، وفى أبريل رآها فى مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية فى فرساى . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلى الملك وتدخل السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا فى فرساى فقبلت . وحث مسيو تورنهيم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال فى الغضب مثل أى برجوازى ، أو تخلق مشكلة »[١١٤] وعين الملك سيو دى أتوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت نحبها . وفى سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المركيزة دى بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التى هدأت من روعها ولاطفتها فى ارتباك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرا لا بد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فإنه ، على أية حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البغى) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت باريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت فى صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطانها .

وإذ رأت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذى يملك كل شىء ، ولكن كل شىء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته ، فإنها تفننت وأظهرت عبقريتها فى تسليته والترفيه عنه . فألهته بحلبات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والنزهات والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكائها . وأقامت فى فرساى

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال فى أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هى نفسها فى مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة فى فرنسا » [١١٥] . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغى » . وتفضل بأن يكون دمثا معها فى دنيا النفاق . وأصابت الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التى عزفتها بشكل يأسر لبه ، حتى نسى خوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريبا . وما هى إلا بضع سنين حتى خارت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دى بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً، وأنها كانت عبئاً ثقيلا على خزانة الدولة، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألقت غرفة ملابسها بآنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلسانى أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة فى درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثريات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أما سقوفها فكانت مغطاة بالصور التى رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التى تبهج الحواس وتثيرها . ولما أحست بأنها سجينة وسط هذا الترف والبذخ ، سحبت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشيد أو تؤثث قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضيعة والقصر فى كريسى فى درى ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أو أدياراً صغيرة فى غابات فرساى وفونتنبلو وكومبين واتخذت من « أوتيل دى بونشارتران مقراً لإقامتها فى باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دى افرى فى شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ فى جملته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنيها (١١٦) ، كان جزء منه فنا بقى فى حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنيه سنوياً (١١٧) . واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحروب .

وجمعت دى بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الثروة وأصبحت المجرى الرئيسى الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من من النعم والعطايا من الملك . . وحصلت لذوى قرباها على المنح والهبات والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهىء لابنتها الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانفان » شيئاً يذكر ، ولكنها كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دى فنتميل، ولكن فانفان ماتت فى سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل — الوسيم الدمث — فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعوه « بالأخ الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعوه إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركيز دى مارينى وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته فى جد وكفاية ، إلى حد رضى معه وسر به الجميع تقريبا . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوربى ، ويرجع هذا إلى حد ما إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت محاولاتها فى أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ، وما لمست شيئاً إلا وصار جميلا . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يبهر الألباب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما يكلفها ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة بتمويل مصانع الخزف فى سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل وساعات الحائط والمرواح والمركبات وأوانى الزهر والزجاجات والصناديق والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فتنة دقيقة سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبحت « ملكة الروكوكو »[١١٨] . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها فى النفقة يرجع إلى الرعاية التى أسبغتها على الرسامين والمثالين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجارى الأثاث الفاخر والمعاريين . وأغدقت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصوروا مشاهد الحياة العامة ، فأنهت بذلك التكرار المبتذل لموضعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت فى تسامح باسم تذمر لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأرائك والكراسى والأشرطة ، وعلى « وردة بمبادور » المصنوعة من الخزف المفضل لديها ، وفى هذه الحقبة ، لا فى عهـــد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوربية ذروته .

وربمـا كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ فى التاريخ ، و ٣١٥ فى الفلسفة ، ومجلدات كثيرة فى الفن ، وبعض مجلدات فى السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص فى الحب . وواضح أنها إلى جانب تسلية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هى نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، فى رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان. وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده فى رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تخجله وتحرجه بقولها : بأن فردريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتبا قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما فى بروسيا . وقد أكون مضطر إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يعدهم على أصابعه « موبرتيوس ، فونتنيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتسكيو ، كاردينال دى بوليناك » . وأضاف من كانوا حوله ، « دالمبرت ، كلبرو ، كريبيون الابن ، بريفوست » . . وعندئذ تنهد الملك قائلا « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معى طوال خمسة وعشرين عاماً[١١٩] » .

وعلى ذلك احتلت بمبادور مكان الملك فى رعاية الأدب . فأتت بفولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميـــه من سوء تصرفاته ، وساعدت مونتسكيو ، ومارمونتل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعانى كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً فى اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته «كاتيلينا» ، وأصدرت تعليماتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كينزى طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطى وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة فى فرساى ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروى مارمونتل : «ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى «صالونها» فإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث (١٢٠)» .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء فى الحاشية وعلى رأسهم الدوفين ، بعين الرعب والفزع إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فـــكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدها من الصفة الدينية أو انتزاعها من يد الكنيسة ، إذا كان هـــذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة (١٢١) . وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يمتنع عن مناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة (١٢٢) . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التى يؤثرها بحبه ، نفوذها فى التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففى ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديدا على تناول القربان المقدس . وفى محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واظبت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريئة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهـذا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بيروسو ، ولكن خلفه ديمارتس وكان متشدداً مثله . وثبتت بمبادور فى مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهرى. ولم تغتفر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا « تحولها » مأخذ الجد ، وربما كان لإستيائها منهم دور صغير فى طردهم من فرنسا فى ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق فى أنه لم يعد لها اتصال جنسى بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أعدائها هذه الحقيقة [١٢٣] . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض خلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة فى الإستجابة للنيران المتقدة بين جنبيه [١٢٤] ، واعترفت بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أوهن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسى وتملكه الغضب [١٢٥] . وتناولت « عقاقير الحب» [١٢٦] دون نتيجة تذكر، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها فى البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفى ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذ بها مدام دى شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بثمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع تضحيتها وسرعان ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوى المحظية الأولى المنهوكة إلى « متنزه الظباء » البغيض .

وفى « متنزه الظباء » فى طرف ناء من فرساى جهز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خـدمهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس فى جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما فى مسكنهما متنكراً فى زى كونت بولندى عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضـافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن فى وقت واحد أكثر من اثنتين [١٢٧] ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدربن على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حملت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدها على العثور على زوج لها فى الأقاليم ، وكان الأطفال

الذين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دى بمبادور بأمر هذا « الحريم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده . وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دى هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلمات لن يسلبنى إياه (١٢٨) » .

ولم تنزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « منتدى الظباء » هذا لخليلاتهم (١٢٩) . ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن خاب فألهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفتره طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « خليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلازمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القداس . ولما كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة » ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتى ناصبنها العداء منذ زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد اللذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التى لا تنضب معينها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، وتحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها ، وكأنها تشترك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزحمون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشئون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التى كثيراً ماكانت ثاقبة [١٣٠] . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكرى . وفى ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشىء مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم فى خدمة الدولة . ووافق الملك ولكنه أبطأ فى توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالا إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق . وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ ملحقة « بقصر الانفاليد » .

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « النقض المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا فى باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة التقية ماريا تريزا التى خاطبت بمبادور « بصديقتى العزيزة » ، و « ابنة عمى » ، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهينة إلى المركيزة دى بمبادور « بحكم المرأة » فى البلاط الفرنسى . وكانت مدام دى شاتورو ودارجنسون قد وجها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة — التى قويت بالانتصار فى حرب الوراثة النمسوية ، والتى لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندى أحسن تدريبهم تحت امرة قائد قدير طموح لا يبالى بأية مبادىء خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً — إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التى كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أى عون أو تأييد من أسبانيا فى ظل حكم آل بوربون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحجة حين عقدت بروسيا فى ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع انجلترا — عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسى على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دى بمبادور التى عادت الآن تبصق دماً ، وكانت فى الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها فى التمهيد لاشعال حرب السنين السبع .

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

١ - التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التي شهدتها فرنسا في القرن الثامن عشر ، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم ، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم إنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها . وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا في ١٧٦٢ م ، وتأميم المدارس الفرنسية ، وغلبة التعليم العلماني في الثورة الفرنسية . وكان الخلاف قد بدأ يبرز في النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط .

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة . وفي كثير من المجتمعات الريفية ، كانت الهيئات البلدية ، حتى إلى عام ١٧٨٩ ، « لا تكاد تعرف الكتابة »[1] . وكان في معظم الأبرشيات على أية حال « مدرسة صغيرة » يقوم فيها الكاهن بنفسه ، أو من يعينه هو ، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحي على صورة سؤال وجواب ، للأولاد الذكور أساساً ، في مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ[2] ، أما الأولاد الذين يعجز آباؤهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالمجان إذا طلبوا ذلك . وكان اللحاق بهذه المدرسة مطلوبا قانوناً بمقتضى مراسيم ١٦٩٤ و ١٧٢٤ ، ولكن هذه المراسيم لم تنفذ[3] ، وامتنع كثير من الآباء الفلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، لحاجتهم إليهم في المزرعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا في الأرض. فالتعليم لم يكن يكفل أي ارتفاع في المركز الاجتماعي لأن الحواجز الطبقية كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً في النصف الأول من القرن . وفي القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرأون شيئاً غير ما تعلق بعملهم اليومي . وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين ، وفي المدن الكبيرة وحدها كان هناك شيء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ .

وفى الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعلم على أيدى المربيات والمؤدبين ، أو المعلمين الخاصين ، وأخيرا على أيدى معلمى الرقص ، وهؤلاء الأخيرون كان مفروضاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة ، وهى فنون الجلوس والوقوف والمشى والحديث والإيماء ، فى كياسة ورقة . وتلقت بعض الفتيات دروساً خاصة فى اللاتينية ، وفوق هذا كله تقريباً ، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثارى . وقام التعليم العالى للبنات فى الأديار ، حيث ارتقين فى الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذى يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلى به .

وكان كل التعليم الثانوى للذكور تقريباً فى يد اليسوعيين ، ولو أن الرهبان الأوراتوريين والبندكتيين أسهموا فيه . وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين فى كلية اليسوعيين « لويس الأكبر » حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس « البلاغة » (أى اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك فى تلاميذه ذكريات طيبة . وما كاد المنهج فى المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان . وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق ، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد ، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات رومه القديمة فى نصوصها الأصلية ، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثنى لمدة خمس أو ست سنوات ، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة فى عقيدتهم المسيحية . وأكثر من هذا فإن اليسوعيين « لم يدخروا وسعا فى تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم » (٤) . فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات ، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها ، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب الفرنسى وصفاته من غرس المدارس اليسوعية ، وأخيرا تلقى الطالب مناهج قاسية فى المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن النتائج كانت تقليدية ، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتعليل بقيت — وأصبحت بالفعل — علامة مميزة لهذا العصر

« عصر العقل » بوجه خاص . وكان الجلد بالسياط أيضا جزءا من المنهج ، حتى لطلاب الفلسفة ، ودون تميز فى المرتبة أو المكانة الاجتماعية ، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركيز دارجنسون ودوق بوفلرز ، أمام أقرانهما فى الفصل ، لأنهما قذفا أساتذتهما الأجلاء بحبات البازلاء[٥] .

وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار ، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير ، ولا يعد للحياة العملية ، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الدينى قد أفسد الأذهان أو أغلقها . وفى « رسالة عن التعليم » كانت يوماً مشهورة (١٧٢٦-١٧٢٨) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكى (القديم التقليدى) وعن التركيز على الدين . وكان من رأيه أن الهدف الأسمى من التعليم هو خلق أناس أفضل . وأفاضل المعلمين « لا يعنون كثيراً بالعلوم ، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة . ولم يكونوا يأبهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة ، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق . وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الاطلاع[٦] . وقال رولان إنه من الصعب أن نشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيدة دينية . ومن ثم « ينبغى أن يكون الهدف من جدودنا ، والغرض من تعليمنا هو الدين »[٧] وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع ، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر ، والقرن الذى يليه . وهو جدل حى فى أيامنا هذه .

٢ - الأخلاق

ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقية فى المبادىء الأخلاقية . إن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً . وربما كان هذا ، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعى ، وأن الأب كان أيضا المستخدم أى صاحب العمل ، وكان نظام الأسرة يرتكز فى جذوره على نظام اقتصادى يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض . واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

الدينية ، مما عزز سلطة الأبوين أساسا للنظام الاجتماعي . أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال ، فقد هيأ لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد . وكانت الزوجة البرجوازية نموذجا للجد والتقوى والأمومة . وكانت تتحمل آلام الوضع فى صبر وجلد ، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها . وكانت قانعة ببيتها وعلاقاتها مع جيرانها ، وقليلا ما انزلقت إلى زخرف الدنيا الخداع التى يسخر الناس فيها من الاخلاص على أنه شيء عتيق بال . ونادرا ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى . وضرب كل من الأب والأم معا مثلا رائعاً فى العادات القويمة والتمسك بالدين والحب المتبادل . وتلك هى الحياة التى خلد شاردان ذكرها معتزا بها ، فى لوحاته مثل « البركة » .

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة . وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها . ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير ، وبنوا دعوتهم على أن هذا حب للإنسانية لا حب لله ، ومن ثم كانت « الإنسانية » الحديثة نتاجا للدين والفلسفة معا . وأمدت الأديار الجياع بالطعام ، وعنيت الراهبات بالمرضى ، وقامت المستشفيات وملاجيء الفقراء والأيتام والعجزة على الأموال التى تدفعها الدولة والكنيسة والنقابات . وكان بعض الأساقفة مبذرين منصرفين إلى متاع الدنيا . ولكن نفراً آخر منهم — مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا — وهبوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والاحسان . ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين ، فإن موظفي بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء » وفى ريمس خصص أحد أعضاء البلدية ٥٠٠ ألف جنيه للصدقات . وكان بالملك لوس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجبن . وعندما خصص مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه للألعاب النارية احتفالا بمولود دوق برجندى الجديد (١٧٥١) ، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستمائة من أفقر بنات باريس ، وحذت مدن أخرى حذوه . وعاشت الملكة عيشة مقتصدة غير مسرفة وأنفقت معظم

دخلها فى الأعمال الخيرية . وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصى المشاغب الخليع ثروته فى أعمال البر والإحسان . ويبدو الجانب غير المشرق فى هذا الموضوع فى الفساد والإهمال اللذين شوها إدارة المؤسسات الخيرية . فهناك عدة أمثلة لمديرى مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التى كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء .

وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان — أنانى وكريم ، وحشى ولطيف ، يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء فى المعركة . ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر فى تهور بالغ ، دون إحساس بالمسئولية وبددوا ثروات أسراتهم ، وكان الغش فى اللعب سائداً إلى حد كبير [8] . وفى فرنسا ، كما كان الحال فى انجلترا . أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء « يانصيب » وطنى . أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو تبذير أرستقراطية الحاشية البالغ الخالى من الرحمة ، تلك الأرستقراطية التى كانت تعيش على الدخول التى كانت تبتزها من الفلاحين الفقراء . فإن ملاءات سرير الدوقة دى لافرى كانت مشغولة بالمخرمات الغالية الثمن ، وتكلفت ٤٠ ألف كراون ، وكانت لآلىء ومجوهرات مدام اجونت تساوى ٤٠٠ ألف كراون [9] ، وكانت الخيانة والخداع أمرين عاديين مألوفين فى أعمال الموظفين . واستمر بيع الوظائف والمناصب ، وكان مشتروها يستغلونها فى الاثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجبى من الضرائب يصل إلى خزانة الدولة . وفى غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية ، ولم يكف الرجل الفرنسى عن حب فرنسا ، ولم يطق الرجل الباريسى أن يعيش طويلا بعيداً عن باريس . وامتاز كل فرنسى تقريباً بالبسالة . وفى حصار ماهون ، ورغبة من المارشال دى ريشيليو فى منع جنوده من تعاطى المسكرات ، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه « أن أى فرد منكم يوجد ثملا فى المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك فى الهجوم » فتوقف شرب الخمر تقريباً [10] ، واستمرت المبارزة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها . قال لورد تشسترفيلد « إن المرء ليلحقه الخزى والعار إذا لم يثر للإهانة ، وإنه ليلقى حتفه إذا استاء لها [11] »

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً ، ولكن هذا القانون كان ينفذ فى الفقراء وحدهم ، كما حدث مع أحد رعاة البغال ١٧٢٤ . وفى ١٧٢٥ ألقى القبض على الراهب ديفونتين ، الذى كان قد اشتغل بالتدريس فى إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً ، واتهم بمثل هذه الفعلة ، فأهاب بفولتير لمساعدته ، فنهض فولتير من فراش مرضه قاصداً إلى فونتينلو ، واستحث فليرى ومدام دى برى لاستصدار عفو عنه (١٢) ، وطيلة العشرين عاما اللاحقة كان ديفونتين من ألد أعداء فولتير . وكان بعض خدم الملك منحرفين جنسيا . ويبدو أن أحدهم ، وهو تريمو ويل ، اتخذ من الملك دى. الستة عشر ربيعاً غلاما له (١٣) .

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء . وفى المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينقدون مستخدماتهم الأناث مبالغ لا تفى بنفقاتهن الضرورية ، وأجازوا لهن أن يكملن أجورهن اليومية بالاستجداء وممارسة الدعارة ليلا (١٤) . وقدر كاتب معاصر عدد البغايا فى باريس بأربعين ألفاً . وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً (١٥) وكان الرأى العام — فيما عدا الطبقة الوسطى متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة ، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذى أدى إلى هـذا العرض ، وتذرع الرأى العام بشىء من اللياقة ، فأدان الفقيرات اللاتى يبعن أعراضهن أقل مما أدان الذين يشترون المتعة ، أى أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر . وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هـذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصـة أو عامة ضد هؤلاء « البنات » وهنا يتم الاعتقال بالجملة ، تبرئة لساحة الحكومة ، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة ، وقد يحكم القاضى بإيداعهن السجن أو المستشفى ، حيث تحلق رءوسهن بالموسى ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن . وتنمو شعورهن من جديد . وإذا خلقن متاعب جمة لأحد ذوى النفوذ والسلطان أو أسأن إليه ، فيمكن ارسالهن إلى لويزيانا . وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتى يتردد عليهن

الأغنياء ، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن فى طريق «كور - لا - رين» فى باريس ، أو فى متنزه «لونجشامب» [١٦] . وإذا حصلن على عضوية الكوميدى فرانسيز أو الأوبرا ، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة ، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتنهن أو أعراضهن . وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية) ، أو يتخذهن النبلاء ورجال المال أخدانا لهم خاصة . واقتنص بعضهن أزواجاً ، وحصلن على ألقاب وثروات ، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند .

وكانت الزيجات القائمة على الحب ، دون موافقة الأبوين ، تزداد فى عددها وفى الإنتاج الأدبى . وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق . ولكن فى معظم الأحوال ، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات ، لا مجرد اتحاد الأفراد . فالأسرة ، لا الفرد ، هى وحدة المجتمع ، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور . وفوق هـذا قال فلاح لابنته «الحظ أقل عمى من الحب [١٧]» .

وكانت السن القانونية للزواج هى الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث . ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة فى سن السابعة ، وهى التى حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ «سن العقل» وكانت الشهوة الجامحة عند الشبان تدفع بهم إلى مطاردة الآنسات مطاردة عنيفة ، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهن حالما كان ذلك ممكناً ميسوراً تفادياً لإنفضاض البكارة قبل الأوان ، وهكذا كانت المركيزة دى سوفيف أرملة فى الثالثة عشرة من عمرها . ولازمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن ، وعندئذ يعجل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية ، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن فى الطريق . وبهذا النظام القاسى المنافى للأخـلاق السيىء ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج .

وإذ احتقرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة ، ونادراً ما

خطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة فى البلاط وما تقتضيه من مظاهر ، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال ، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللاتى لا يملكون أرضاً ، ولكن يملكن مالا . ولما اعترض ابن دوقة شولن على زواجه من ابنة التاجر بونييه ذات الصداق الكبير . أوضحت له أمه « أن زواج المنفعة ممن هى دونك مرتبة ، هو مجرد حصولى على الروث لتسميد أرضك »(١٨). وفى مثل هذه الزيجات عادة ، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب ، وهو يستغل أموال زوجته ، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع ، وسرعان ما يتخذ خليلة . وفى هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته . ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة .

ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعى ، فى البيئه الأرستقراطية ، بل كان أمراً مقبولا باعتباره بديلا ساراً عن الطلاق الذى حرمته الديانة الوطنية . وقد يتخذ الزوج الذى يخدم فى الجيش أو فى الأقاليم له خليلة ، دون أن يبدى لزوجته سبباً مقبولا للشكوى . وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر ، بالخدمة فى الحاشية أو فى الضيعة ، وهنا أيضاً قد يتخذ خليلة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشا فترة طويلة من حياتهما منفصلين ، وأباح كل منهما للآخر زلاته ، شريطة أن تكون هـذه الزلات مستورة بلباقة ، كما تكون فى حالة المرأة مقصورة على رجل واحد فى نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائحه الفارسى قوله : « إن الرجل الذى يريد أن يستحوذ على زوجتـه له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة ، غبياً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ، ويحجبها عن سائر الناس (١٩)». وسئل يوماً دوق دى لوزون الذى لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين ، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تنبئه بأنها حامل ، فأجاب ، مثل أى سيد ماجد فى القرن الثامن عشر : « أكتب إليها لأقول إنى مبتهج فرح لأن الله بارك زواجنا ، اعتنى بصحتك ، سأحضر لأقدم لك احتراماتى هذا المساء (٢٠) » فالغيرة كانت أمراً مرذولا .

وكان بطل الزنى وفتى العصر ونموذج الإناقة فى ذاك الزمان هو لويس فرانسوا أرمان دى فينيرو دى بلسيس ، دوق ريشيليو حفيد أخى الكاردينال الصارم المتقشف . وقد انزلقت إلى مخدعه عدة سيدات نبيلات من ذوات الألقاب ، الواحدة تلو الأخرى ، تجرهن إليه مكانته وثروته وشهرته . ولما وبخ ابنه وهو العاشرة من عمره على بطء تقدمه فى دراسته اللاتينية ، أجاب فى سرعة مفحمة : « أن أبى لا يعرف اللاتينية ، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا [٢١] » . وهذا لم يمنع اختياره للاكاديمية الفرنسية قبل فولتير ، صديقه ودائنه ، بثلاث وعشرين سنة . وكان فولتير يكبره بعامين . ومهما يكن من أمر فإن الرأى معام استهجن سلوك هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض الدنىء . ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكبائر [٢٢] » . وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين ، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو ، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما . كان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبناءهم عوائق فى طريقهم ، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المرضعات ، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعلمون خاصون ، حيث يرون والديهم بين الحين والحين . وروى تاليران أنه لم ينم قط تحت السقف الذى نام تحته أبوه وأمه . وكان من رأى الأبوين أنه من الحكمة أن يباعدوا بينهم وبين أبنائهم ، فكانت العلاقة الحميمة أمرا شاذا ، وكانت الألفة أمرا غير معروف . فخاطب الابن أباه بقوله « سيدى » وقبلت البنت يد أمها . وإذا كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير . وكانت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر ، كما كان الحال فى إنجلترا .

واستمر أسلوب الحياة هذا سائدا فى نبلاء الحاشية ، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ . وكشف هذا الأسلوب ، من جهة أخرى ، عن فقدان الإيمان بالدين عند الطبقات العليا . وتخلى الناس تماماً عن مفهوم الزواج فى المسيحية ، مثله فى ذلك مثل بمفهوم الفروسية فى

العصور الوسطى . وأصبح الجرى وراء اللذة والمتعة « وثنيا » بشكل أشد سفورا منه فى أى وقت منذ عصر رومه الامبراطورية المضمحلة . ونشرت كتب كثيرة فى « الأخلاقيات فى فرنسا فى القرن الثامن عشر » ، ولكن كانت هناك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة ، وكانت أوسع انتشارا ورواجاً ولو كانت سرية . وكتب فردريك الأكبر يقول « إن الفرنسيين ولا سيا سكان باريس ، أصبحوا الآن مترفين متغمسين فى الملذات ، أوهنتهم المتعة والدعة »[٢٣] وحوالى ١٧٤٩ رأى مركيز دارجنسون فى إنحطاط الوعى الخلقى نذيرا آخر بكارثة وطنية : « القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندربه أبدا . على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار ، فنصبح عقلانيين -لا عاطفيين- أكثر فأكثر . . . وإنى لأتنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة ، نتيجة لاخماد القوى التى تنبع من القلب ، إننا لا نكسب أصدقاء ، ولم نعد نحب عشيقاتنا ، فكيف نحب بلادنا ؟ . . . إن الناس يفقدون يوما بعد يوم تلك الخلة الحميدة التى نسميها رقة الشعور . ويختفى الحب والحاجة إلى الحب . . . وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً . وكل شىء سبيل إلى الدسيسة والمكيدة . . . وتنطفىء جذوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها ، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب[٢٤] » .

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسنيين) وصوت روسو ، قبل ظهور جون جاك بجيل واحد ، أو صوت الأرواح المرهفة الحس فى أى عصر من عصور القلق الفكرى والتحرير ، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية .

٣ - العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه ، مزخرفة مموهة بتهذيب ورقة فى السلوك وأناقة فى الملبس والحديث ، وتنوع فى المتع والملذات ، وفتنة فى النساء ، وكياسة متأنقة فى المراسلات ، وإشراق فى الفكر والذكاء :

« ولم يوجد قط فى فرنسا من قبل ، أو فى أوربا المعاصرة . . . بل ولا فى العالم منذ وجد العالم ، مجتمع مهذب ذكى مبهج ، مثل المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر » [٢٥] قال هيوم فى ١٧٤١ إن الفرنسيين « أتقنوا بدرجة كبيرة ذلك الفن ، وهو أنفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة ، فن المجتمع ، فن الحديث » [٢٦] . ولم تستخدم كلمة « مدنية » إلا فى أخريات هذه الحقبة ، فلم تظهر فى قاموس جونسون ١٧٥٥ ، ولا فى « المعجم الكبير » الذى صدر فى ٣٠ مجلدا فى باريس فى ١٧٦٨ .

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص فى ملابسهم ، ونافس الرجال النساء منافسه كبيرة فى العناية بالثياب . واقتضى الزى العصرى السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى ذوات ثلاث زوايا ، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية ، ولما كانت هــذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة ، فإنهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعتهم . وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر)، وكانت أكثر شيوعا حتى بين الحرفيين . وكان فى باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة ، يعمل فيها ستة آلاف عامل . وكان الشعر الطبيعى والمستعار يدهن بالمساحيق . وكان شعر الذكور طويلا عادة ، ويلم بشريط أو فى كيس وراء الرقبة . وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون — من المخمل عادة — فوق البذلة الداخلية التى تكشف عن صدرة مفتوحة عند الحلق ، وعن قميص حريرى رقيق ، ورباط عنق عريض ، وأكمام تنتهى إلى « كشكشات » مزخرفة عند المعصم . وكانت « بنطلونات » الركوب القصيرة ملونة ، والجوارب من الحرير الأبيض . وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة . ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء ، علامة مميزة لهم . واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح . وتزين بعضهم بالماس فى عرى ستراتهم . وكان الجميع يحملون سيوفا . وحمل بعضهم العصى . وكان حمل السيف محرما على الخدم وغلمان الحرفيين والموسيقيين [٢٧] . وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

بسيطة : سترة و « بنطلون » قصير من قماش عادى قاتم ، وجوارب صوفية سوداء أو رمادية ، وأحذية ذات نعال سميكة وكعوب وطيئة . وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردية التى كان الأغنياء ينبذونها . وتذمر ميرابو الأكبر من أنه كان لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد !

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتنوراتهن ذات الأطواق الموسعة . وشجب رجال الدين النساء اللائى ارتدين مثل هذه التنورات « بأنهن اناث قردة أو أعوان الشيطان » ولكن النساء أحببنها لأنها تضفى عليهن جلالا حتى ولو كن حبالى . وتروى مدام دى كريكى « أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دى اجمونت لأن التنورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى » [٢٨] أما حذاء السيدة ميلادى « ذو الكعب العالى والمصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة — فقد أضفى على قدميها فتنة تسلب الألباب إذا لم يراها أحد . وارتقى صانع حذائها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه فى فنه ، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة ، وهى عادة حذاء جميل وكان مثيرا إلى مثل هذا الحد تقريباً ، ذلك « الخف » المزين برسوم الأزهار ، الذى لا نعل له ، والذى كانت تلبسه ميلادى فى البيت . وكانت مقيدة أيضا الأهداب والحواشى والمراوح والملابس التحتية المزخرفة التى كانت تجذب عين الرجل الزائغة أو تخفى جسم المرأة الحائرة فى كل ناحية . وكان مشد الخصر والردفين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم فى القوام الأنيق الذى يقتضيه العصر ويلائم المكانه الاجتماعية . وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح . وكان الحلاقون وضيعين بسطاء . ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا فى ١٧٦٣ . وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية لليدين والذراعين والوجه والشعر . وتخلف الرجال قليلا عن النساء فى استخدام العطور . وكان وجه السيدة ينقش ويطلى بالمساحيق ، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

أو قطرات من الدموع أو أقمار أو نيازك أو نجوم ، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوق على جبهتها، وصدغيها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم . وكانت تحمل صندوقاً للصوق فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها . وكانت المائدة فى حجرة ملابس السيدة الغنية تتألق بالأدوات والمواد اللازمة لها — صناديق من الذهب والفضة أو الحجر اللازوردى ، مخصصة لحفظ أدوات الزينة . وتلألات الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر . وكان يسمح للرجال ذوى الحظوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادى ليجاذبوها أطراف الحديث ، بينما كانت وصيفاتها تقمن باعدادها لبرنامج اليوم . وكان الرجال فى الطبقة الارستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزى السائد للنساء،أما الزى فيحدده مصممو ملابس النساء . وبعد ١٧٠٤ أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزى أو الملابس ، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق . واتبعت أوربا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا ، ولكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من مارى لزكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية ، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا رافاييلا على انتشار « الطرحة » فى فرنسا من جديد .

ولم تكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الثياب ، ولكنها تطلبت علما دقيقاً متنوعاً ، كما تطلبت فناً رقيقاً . وكان المطبخ بالفعل النموذج الذى يحتذى فى العالم المسيحى ومكمن الخطر فيه . وفى ١٧٤٩ حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقلية التى يتناولونها « قد تصيب آخر الأمر أذهانهم بالتبلد » [٢٩] . وضرب مثلا طيباً الغذاء البسيط وسلامة العقل والفطنة . وكلما ارتقت الطبقة ، ازداد ما تتناول من طعام . وعلى هـذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء ، وشواء من لحم البقر ، وطبق من لحم العجل ، وبعض الدجاج ، والحجل والحمام . ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة [٣٠] ويقول فولتير « كان نفر قليل من الفلاحين يذوقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحـدة فى الشهر » [٣١] .

وكانت الخضروات ضرباً من الترف فى المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة . وانتشر أكل السمك « الأنقليس » . وكان بعض السادة الكبار ينفقون ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً على المطبخ ، وأنفق أحدهم ٧٢ ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية . وكان رئيس الخدم فى البيوتات الكبيرة شخصية مهيبة تثير الإعجاب ، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة ، ويحمل سيفاً ، ويتألق فى أصبعه خاتم من الماس . وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار ، وكم طمع الطباخون وجهدوا فى ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء سادتهم ، فأكلت فرنسا طبق شرائح لحم عجل المنظر الجميل (بل ڤ) — قصر مدام دى بمبادور المفضل لديها — « ودجاج فيلروا » وصلصة الميونيز ، تخليداً لذكرى انتصار ريشيليو فى « ماهون » (٣٢) . وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية فى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، والعشاء فى التاسعة أو العاشرة ليلا .

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شراباً . ولا بد أن ميشيليه (المؤرخ الفرنسى ١٧٩٨ — ١٨٧٤) أحب القهوة كثيراً ، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوربون والبحر الكاريبى أسهم فى انتعاش الروح الذى ميز عصر الاستنارة (٣٣) . وكانت كل صيدلية تبيع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشراب على المنضدة الطويلة بداخلها . وفى ١٧١٥ كان فى باريس ٣٠٠ مقهى ، وفى ١٧٥٠ زادت إلى ٦٠٠ ، كما وجد منها عدد مناسب فى كل مدينة فى الأقاليم وفى مقهى « بروكوب » وكان يسمى أيضاً « كاف الكهف لأنه كان دائماً مظلماً » كان ديدرو ينشر أفكاره ، كما كان فولتير يقصد إليه متنكراً ليسمع التعليقات على أحدث رواياته . وكان مثل هذا المقهى منتدى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو « الضامه » أو « الدومينو » ، وفوق هذا وذاك يتجاذبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان فى المدن .

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة ، عضويتها مقيدة ، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد . وحوالى ١٧٢١ أسس الراهب آلارى نادى

« دى لا ترسول » (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضى والطابق الذى فوقه ، فى دار الراهب ، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليتدارسوا شئون الساعة، دينية أو سياسية وكان بولنجبروك هو الذى جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية ، وهناك شرح الراهب دى سانت بيير برامجه للإصلاح الاجتماعى والسلام الدائم ، مما أزعج بعضها الكاردينال فليرى فأمر بفض النادى فى ١٧٣١ . وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثانى اللاجئون من انجلترا فى باريس أول دار فرنسية للبنائين الأحرار (الماسونيين) ، كانت ملجأ للربوبيين ، ووكراً للدسائس السياسية ، وأصبحت منفذاً للنفوذ الإنجليزى ومهدت الطريق للفلاسفة .

إن الرجال والنساء ، وقد أصابهم الضجر والسأم من الكدح والنصب فى أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووحدانا إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا ، وأولع الأثرياء بالصيد والقنص والبرجوازيون بالنزهات الخلوية . وكانت غابة بولونيا والشانزلزية وحدائق التويرلرى وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتات أو حديقة الملك ، كما كانوا يسمونها آنذاك — أماكن مفضلة للتنزه فى المركبات أو مشياً على الأقدام ، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح . أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتمثيليات الخاصة . وكان كل إنسان يرقص . وكان « البالية » قد أصبح فناً ملكياً معقداً . ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين . وكان راقص الباليه مثل كامارجو أو لاجوسان معبود الجماهير فى المدينة ومشتهى أصحاب الملايين .

٤ — الموسيقى

كانت الموسيقى فى فرنسا قد انحطت منذ تفوق للى على موليير فى تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا فى فرنسا هذا الجنون أو الولع الشديد بالموسيقى الذى أدى بإيطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسى ، ولا التفانى الشديد فى أساليب التلحين ، الذى أوجد القداسات الضخمة والألحان الموسيقية

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح فى ألمانيا على عهد باخ .

وكانت الموسيقى الفرنسية فى عصر انتقال من الشكل التقليدى إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو ، ومن الطباق المعقد ذى الألفاظ المشوهة للحن ، إلى ألحان سلسلة متدفقة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية . واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغانى الغزل أو الهجاء أو أغانى حزينة تتحدى الفتيات ، وتتحدى الملوك ، وتستنكر العزوبة والتوانى . وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوى الجاه والنفوذ . وأخرجت أوبرا روسو « الموزيات الأنيقات » (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء فى الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes فى بيت الملتزم العام بوبلنيير . وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم . وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول ، تقدمها بانتظام فى باريس « فرق الموسيقى الروحية » التى أنشئت ١٧٢٥ وتبعتها فى ذلك سائر المدن . وقدمت الأوبرا فى باليه رويال » فى وقت متأخر بعد الظهر عادة ، حتى إذا انتهت فى الثامنة والنصف مساء ، قصد المتفرجون للتنزه فى حدائق التويلرى ، وأطربهم المغنون والعازفون فى الهواء الطلق . وكان هذا واحدا من المظاهر الفاتنة فى الحياة فى باريس .

وإنا لندرك من مطالعة كتاب ديدرو « ابن أخى رامو » كم من الملحنين والموسيقيين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالا شديداً فى هاتيك الأيام ، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذيوله . وثمة ملحن فرنسي واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالا لا تزال تتشبث بالحياة . إن جين فيليب رامو أولع أيما ولع بالموسيقى . وكان أبوه عازف الأرغن فى كنيسة سانت اتيين فى ديجون . ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع فى سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد وقوع نظره عليها . وفى الكلية استغرق كل جهده فى الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه ، وبعد ذلك

كاد جين لا يفتح كتابا إلا فى الموسيقى أو عن الموسيقى . وسرعان ما أصبح بارعا فى العزف على الأرغن والبيان القيثارى والكمان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد فى ديجون . ولما وقع الشاب فى شراك الغرام ، ورأى الوالد أن فى هذا مضيعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا ليدرس أسرار الألحان فيها (١٧٠١) .

ولما عاد جان إلى فرنسا ، عمل عازفاً على الأرغن فى كليرمونت فراند وخلف أباه فى ديجون (١٧٠٩ — ١٧١٤) ، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن ، فى الكاتدرائية (١٧١٦) ، ثم استقر به المقام فى باريس ١٧٢١ . وهناك فى ١٧٢٢ وهو فى التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر « رسالة عن علم الإيقاع موجزاً فى أسسه الطبيعية » . وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً فى التأليف الموسيقى السليم ، سواء كان موزعاً أو غير موزع — « قاعدة أساسية » يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التى فوقها ، وأن كل النغمات المتآلفة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية ، وأن كل هذه الأنغام يمكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها . إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى ، ولكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضى ، الذى شرحها بشكل أوفى ١٧٥٢ وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوترى التى صاغها رامو ، مقبولة فى عصرنا هذا أساساً نظريا للتأليف الموسيقى [٣٤] .

وشن النقاد هجومهم على رامو ، فرد عليهم هو بتآليف وتفاسير ، حتى حظى بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين ، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم [٣٥] . وفى ١٧٢٦ — وهو فى سن الثالثة والأربعين تزوج من مارى ماجنو ، إذ ذاك فى الثامنة عشرة . وفى ١٧٢٧ وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية « سمسون » ولكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب المقدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا . وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن فى كنيسة « سانت كروادى لا بروتنيرى . وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا .

وفى ١٧٣٣ قدم له الراهب بللجرين أوبرا « هبوليريت وأريسيى » المبنية على رواية راسين « فدر » ولكن الراهب حصل من رامو على صك بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً فى حالة سقوط الأوبرا . ولما مثلت على سبيل التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج ، إلى حد أنه مزق الصك فى نهاية الفصل الأول . ولما مثلت أمام الجمهور فى أكاديمية الموسيقى أدهشت المتفرجين بخروجها الجرىء عن الأنماط التى كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة منذ عهد للى . واعترض النقاد على ما أتى به رامو من إيقاعات جـديدة غريبة ، وتغييرات مبتدعة فى طبقة الصوت وتعقيدات فى التوزيع الموسيقى بل إن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى . وفكر رامو لبعض الوقت فى التخـلى عن محاولاته فى مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانيـة Les Indes galantes (١٧٣٥) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها المنسقة ، أما أوبرا Castor et Polluy ١٧٣٧ فكانت من أروع الانتصارات فى تاريخ الأوبرا الفرنسية .

وأفسده النجاح . وتفاخر بأنه فى مقدوره أن يحول أى نص إلى أوبرا جيدة وأن ينقل صحيفة أى جريدة إلى موسيقى . وأنتج [٣٦] سلسلة طويلة من الأوبرات غير الهامة . ولما ضاق مديرو أكاديمية الموسيقى ذرعا به انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثارى والكمان والفلوت . وأخذ لويس الخامس عشر — أو بالأحرى مدام دى بمبادور — بيده ، باستخدامه فى كتابة موسيقى رواية فولتير « أميرة نافار » . التى لقيت فى فرساى نجاحاً أعاد له مكانته (١٧٤٥) ونال رضا الأكاديمية من جديد ، وكتب مزيداً من روايات الأوبرا . ومذ ألفت باريس أسلوبه فإنها نسيت للى ، ونادت برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع .

وفى ١١٥٢ وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً . ذلك أن بعض الفنانين العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا . ومن ثم بدأت حرب صاخبة بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التى بلغت ذروتها فى السبعينات بالموسيقار بتشينى ينافس جلك Gluck . وفى دار الأوبرا فى باريس قدمت

فرقة إيطالية مع أوبرا برجوليزى « La serva Randona » فاصلا موسيقياً وهى من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات وبقطع رامو . وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية ، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (١٧٥٢) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغيضة لا تطاق . والعبارة الأخيرة فى مؤلفه « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) تدل أبلغ دلالة على خلله العاطفى قال : « وفى اعتقادى أنى قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً ، لأن اللغة لا توفر لها هذا أو ذاك . والغناء الفرنسى مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطيقه الأذن غير المتحيزة ، وأن إيقاعها غير مستساغ وإنها لا تعبر عن شىء ولا تشعر إلا بما تلقت عن معلمها ، وأن النغم الفرنسى ليس نغماً ، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية . ومن ثم انتهيت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى ، ولن يكون لهم شىء منها وإذا قدر لهم أن يكون لديهم شىء من الموسيقى فستكون وبالا عليهم » .

وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدروها ضد روسو ، وأحرقوا تمثالا له على باب دار الأوبرا [٣٧] واستخدم رامو ، على كره منه ، عنصراً رئيسياً فى حرب المهرجين ، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال فى حاجة إلى أن تتعلم الشىء الكثير عن الموسيقى الإيطالية ، وقال إنه لو لم تكن سنه قد كبرت إلى هذا الحد ، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجوليزى وغيره من الأساتذة الإيطاليين .

وكان رامو آنذاك فى قمة شعبيته ، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجدد . وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها اخطاءه التى وردت فى المقالات التى ظهرت عن الموسيقى فى دائرة المعارف . فما كان من روسو ، وهو كاتب معظم هذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتاً له . أما ديدرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السباب للملحن العجوز فى لباقة تبعث

على الاحترام فى « ابن أخى رامو » التى لم ينشرها تفضلا منه وكرماً ، قال : إنه الموسيقار الشهير الذى خلصنا من موسيقى لى المتعددة الأصوات التى ترغمنا بها لأكثر من قرن من الزمان ، والذى كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى — وهى كتابات لم يفهمها هو ، ولا أحد غيره قط . إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التى يجد فيها المرء أنغاماً متآلفة وشيئاً من الغناء ، والأفكار غير المترابطة والثرثرة فى سرعة وجلبة ، والحركات السريعة ومواكب النصر والحراب والمثل العليا وألحان الرقص . . . مما سيبقى إلى الأبد (٣٨) .

وحين ظهر رامو فى إحدى المقصورات ١٧٦٠ — وهو فى سن السابعة والسبعين لمناسبة إعادة أوبرا «داردانوس» وهى من إخراجه ، لقى احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قوبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً . ومنحه الملك براءة النبالة . وأعفته هو وأسرته ديجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة . وانتابته وهو فى قمة مجده حمى التيفوييد ، وذبل بسرعة وقضى نحبه فى ١٢ سبتمبر ١٧٦٤ وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث وورى التراب فى كنيسة سانت أوستاش . وأقامت مدن كثيرة فى فرنسا الصلوات تكريماً له .

٥ — الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم ، أكثر منها لفرنسا . قال ديكلوس « إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير (٣٩) وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان . فالمجتمع المهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع ائتلفا فى رباط وثيق مذهل . وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم فى حالة من المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل ، لا يلقون بالا فى وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قدير فى السموات ، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم . ومن تحرير الذهن على هذا النحو لم تنجم بعد آثار كئيبة من عالم مجرد من القداسة

والهدف الخلقى ، عالم يرتجف فى زمهرير التفاهة والحقارة ، وكان الحديث شائقا تتخلله الدعابة والمرح . وغالبا ما انتقل إلى هزل ظاهرى ، وهنا كان التفكير ينحصر فى ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شىء فى أعماقها . وكان القيل والقال والفضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت ، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة فى السياسة والدين والفلسفة ، مما قد يتيسر الخوض فيه اليوم إلا نادرا .

وكان المجتمع متألقا ، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه . وكن المعبودات التى قدسها هذا المجتمع ، وهن اللائى تولين توجيهه . وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفى لتبادل الحديث فى فطنه وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحببن أن يستضيفوهم .ونافسن الرجال فى الاستماع إلى محاضرات رجال العلم (٤٠) . إذ عاش الرجال قليلا فى المعسكرات وطالت إقامتهم فى العاصمة وفى الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمفاتن غير الملموسة فى النساء — رشاقة الحركة ، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها ، بريق العينين ، رهافة الذوق ، الجزع المشوب بالحنان والحب ، النفس المشربة بالرحمة والشفقة . إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبة فى كل مدينة ولكنا ربما لا نجد فى أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلى وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقا يسحر الألباب بقــدر ما كانت عليه فى فرنسا القرن الثامن عشر . وكل هذا المفاتن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن نفسر سلطان المرأة وقوتها . إن الذكاء فى معالجة الرجال وسياستهم أمر ضرورى. وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفى بعض الأحيان تفوق عليه . وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء . والرجال يندفعون فى تهور بالغ إلى أفكار لتنضج حتى تفهم ، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المتفتحة ، هيأ لهـا فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها .

وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعا وعمقا ، نما تأثير المرأة ونفوذها . وفتشت البسالة فى ميدان الحب عن جزاء وفاق لها فى الصالون وفى مخدع

المرأة وفى الحاشية على حد سواء . وكم اهتز الشعراء طرباً حين وجدوا آذاناً صاغية من الجنس الرقيق . وكم رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم ، بل إن أغزر العلماء علماً وأوسعهم إطلاعا وجدوا فى الصدور الناعمة وفى حفيف الرقص مثاراً للفكر والعقل . وهكذا مارست المرأة قبل « تحريرها » سيادة طبعت العصر بطابعها المتميز . وتذكرت مدام فيجى لبرون فيما بعد « كانت المرأة تحكم آنذاك ، ثم ثلت الثورة عرشها » (٤١) . إن النساء لم يعلمن الرجال أداب السلوك والعادات فحسب ، بل إنهن كذلك رفعن أو خفضن من درجاتهم فى الحياة السياسية ، بل حتى فى الحيـاة العلمية . من ذلك أن مدام دى تنسان هيأت اختيار ماريفو بدلا من فولتير ، لعضوية مجمع الخالدين (الأكاديمى فرانسيز) فى ١٧٤٢ . وكان شعار « فتش عن المرأة » وسيلة النجاح ، فإنك إذا عثرت على المرأة التى يحبها الرجل ، كشفت عن المنفذ الذى تصل منه إلى الرجل الذى تريد .

كانت كلودين الكسندرين دى تنسان — بعد بمبادور — هى السيدة الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتى سيطرن على فرنسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار . وأنجبت دالمبرت ، واتخذت لها مسكناً فى باريس فى شارع سانت أونوريه حيث استقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق ، بينهم بولنجبروك ، ريشيليو ، فونتنيل (صموت ولكنه نشيط قوى فى سن السبعين) وعدداً من الرهبان ومدير الشرطة فى باريس . وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين عليها ، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيبه كاردينالا ، إن لم يكن رئيساً للوزراء . وعن طريقه وعن طريق غيره دبرت أن تكون ركناً قوياً فى حياة فرنسا .

إنها جمعت المال أولا : . واستثمرته على طريقة دكتور لو ، ولكنها باعت الأسهم فى الوقت المناسب. وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف دى لا فرزنى ، ثم أبت إعادتها إليه ، فانتحر فى دارها ، تاركاً وصية

يتهمها فيها بالسرقة (١٧٢٦) ، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها دبروا أمر الإفراج عنها ، واحتفظت بمعظم الثروة . وتحدث ثرثرة المدينة والحاشية ، وخرجت منها سالمة .

وحوالى ١٧٢٨ أفاضت مدام دى تنسان إلى مخدعها صالوناً اتخذته سلما ترقى به إلى السلطة والقوة ، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين ، أطلقت عليهم « معرض الوحوش » منهم مونتنيل ، مونتسكيو ، ماريفو ، بريفوست ، هلفشيوس ، استروك ، مارمونتل ، هينولت ، ديكلوس ، مابلى ، كوندرسيه ، وأحياناً تشسترفيلد . وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة لأن تنسان لم تكن تطيق على مائدتها أية منافسات . ولكنها أطلقت « لوحوشها » العنان ، ولم تغضب قط لرفضهم السافر للمسيحية . وتساوى كل الناس من كل الطبقات هناك ، فكان الكونت النبيل فى مستوى الرجل من العامة ، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجرى أكثر المناقشات تألقاً ودقة طوال هذا القرن ، قرن الحديث الذى لا حدود له [٤٢] .

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا وروما . ولم يكن أخوها طموحاً ، بل كان يتوق إلى البساطة فى الحياة والهدوء فى الأقاليم ، ولكنها سعت حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالا ، وأخيراً وزيراً فى مجلس الدولة . وعاونت على أن تجعل من مدام شاتورو خليلة للملك ، واستحثتها على حث الملك ليقود جيشه فى الحرب . إنها رأت فى بلادة لويس وتكاسله مصدراً للاضمحلال السياسى ونذيراً بهذا الاضمحلال . وربما كانت على صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رياسة الوزارة للقيت الحكومة نجاحاً أكبر ، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر . وناقش رواد صالونها فى جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة .

وفى شيخوختها نسيت خطاياها ، وانضمت إلى اليسوعيين وشنت الحملات على الجانسينين ، وتبادلت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذى

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدماتها للكنيسة . إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها ، وجدت لها منافذ كثيرة . ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً ، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين . وتولت رعاية ما رمونتل الشاب وأسدت إليه النصح أن يعقد فوق كل شيء ، أواصر الصداقة مع النساء ، لا الرجال ، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم (٤٣) . وأصبحت هي نفسها ، في سني شيخوختها وضعفها الأخيرة ، كاتبة ومؤلفة ، وسترت الطيش والحماقة بإغفال ذكر اسمها على ما ألفت . وقارن أصدقاؤها النقاد قصتها بقصة مدام دي لافاييت (برنسيس دي كليف Prnicesse de Cleves) .

وفارقت مدام تنسان الحياة في ١٧٤٩ وهي في الثامنة والستين . وعندئذ تساءل فونتينل العجوز « أين أتناول العشاء مساء الثلاثاء الآن ؟ » ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور « حسناً » ، عند مدام جيوفرين (٤٤) . وربما ألتقينا به هناك .

كان صالون مدام دي دفاند قديماً قدم صالون تنسان ، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً . إن ماري دي فيشي شامروند باتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم ، فبدأت تدرس وتتأمل في سن مبكرة الأوان ، وكانت تلقي أسئلة تتسم بالتشكك إلى حد مزعج ، وإذ وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون ، الذي عجز عن تفسير المسائل الغامضة ، فتخلى عنها يأساً من إنقاذها من الضلال . وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركيزة دي ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين ، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتذل ممل إلى حد لا يحتمل ، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها . وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد « لم أفكر في شيء إلا القمار » ولكن بعد ثلاثة أشهر منيت فيها بخسائر فادحة ، « تولاني جزع شديد ، وحزنت على ما أنا فيه ، ونأيت بنفسي

عن هذه الحماقة » . وقضيت فترة قصيرة خليلة للوصي (٤٥) . ثم تنحت عنه إلى عدوته الدوقة دى مين . وفى مسكو ألتقت بشارل هنولت رئيس مجلس التحقيق العسكرى ، الذى أصبح عشيقاً لها ، ثم صديقاً مدى الحياة .

وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار فى شارع دى بون ، التى قضى فيها فولتير نحبه . وإذ اشتهرت بجمالها وعينيها البراقتين وذكائها الحاد ، فإنها جذبت إلى مائدتها (حوالى ١٧٣٩) نفراً من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالونا يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تنسان تقريباً : هنولت ، مونتسكيو ، فولتير ، مدام دى شانيليه ، ديدرو ، دالمبرت ، مارمونتل ، مدام دى ستال دى لونيه . . . . . . وفى ١٧٤٧ ، وقد بلغت آنذاك الخمسين ، وخفضت من غلوائها بعض الشىء ، استأجرت شقة جميلة فى دير سان جوزيف فى شارع سان دومينك . وكان من عادة الأديار تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللائى افترقن عن أزواجهن ، وكانت هذه المساكن عادة فى أبنية خارج المبنى الأساسى الخاص بالراهبات . ولكن فى حالة هذه المتشككة الثرية ، كان المسكن داخل جدران الدير ، والحق إنه المسكن الذى كان قد آوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الآثمة ، مدام دى مونتسبان . وتبع صالون المركيزة شخصها إلى مقرها الجديد . ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة ، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يجىء مارمونتل ، وكان جريم يتردد بين الحين والحين ، وسرعان ما انقطع د المبرت . ومعظم المجموعة الجديدة فى سان جوزيف كانوا من سلالة الأستقراطية القديمة : مارشال لكسمبرج ومارشال ميربوا وعقيلتاهما ، دوقا ودوقتا دى بوفلوز ودى شوازيل ودوقات اجويون وجرامونت وفيلروا وصديق مدام دى ديفاند من أيام طفولتها ولمدى الحياة ، وهو بونت دى فيل . وكانوا يلتقون فى السادسة ، ويتناولون العشاء فى التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر ؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية فى عالم السياسة والأدب والفن ، ثم يفترقون . فى نحو الساعة الثامنة صباحا . وكان الأجانب البارزون ، الوافدون على باريس يحتالون للحصول على

دعوة إلى « مأوى النبلاء » هذا . وروى لورد باث فى ١٧٥١ « انى لأذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا ، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه ! (٤٦)

وتفردت دى ديفاند بأصفى دهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغطرسة عيابة شكاكة ، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون . ولما عالج كتاب هلفشيوس « الروح » ما ذهب إليه لا روشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية ، علقت هي بقولها في ازدراء « إنه إنما كشف عن سر كل إنسان » (٤٧) وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضغينة كما فعلت فى وصفها مدام دى شاتيليه . ولم تر فى الحيـاة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة . وذهبت إلى أن الفقراء اشتركوا، بقدر ما سمحت به ظروفهم فى رذائل الأغنياء ومساوئهم . ولم تضف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغرية مريحة للنفس . وتجنبت الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة . واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج . وأحبت دالمبرت ثم عادت فكرهته . وأعجبت بفولتير لأنه سيء السلوك حاد الذهن . والتقت به فى ١٧٢١ وعندما هرب من باريس ، ثم شرعت فى ١٧٣٦ تبادله الرسائل التى تعد من الروائع فى الأدب الفرنسى ولم تقل رسائلها عن رسائله . رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه هو فى رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة .

وفى سن الخامسة والخمســين بدأت تفقد بصرها ، واستشارت كل متخصص فى طب العيون ، ثم لجأت إلى كل دجال ومشعوذ . وبعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (١٧٥٤) ، ويومذاك أنذرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا فى شهود أمسياتها فإنه يجدر بهم أن يحتملوا السيدة العجوز الضريرة . وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها . وأكد لها فولتير من جنيف أن ذكاءها وفطنتها باتا أكثر تألقاً مما كانت حتى وهى مبصرة ، وشجعها على المضى فى الحيـاة حتى لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

رواتبها السنوية . ووجدت فى جولى دى لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء . وكانت هى آنذاك تتصدر المائدة وكأنها هومر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية ، وكانت تتنقل هنا وهناك وقورة شامخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً أخر . وإنا لنأمل أن نلتقى بها هى أيضاً مرة أخرى .

ولقد كان عصراً مشرقاً زاهياً ، لأن النساء تألقن فيه ، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال ، مما لم يسبق له مثيل . وبفضلهن ألهب الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة ، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح . وكيف كان يتسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن ؟ حتى ديدور الفظ الغامض اعترف بقوله « إن النساء عودتنا أن نناقش أشد الموضوعات جفافاً وتعقيداً ، بشكل ساحر واضح ، إننا نحدثهم حديثاً متواصلا ، ونريد منهن الإصغاء إلينا ، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر . ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة فى إيضاح آرائنا لهن فى يسر وسهولة . وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب » (٤٨) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسى أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسبت اللغة الفرنسية سحراً رقيقاً ، ورشاقة فى العبارة ولباقة فى الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة . وبفضل النساء انتقل الفن الفرنسى من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المهذب المصقول والذوق الرفيع ، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة فى فرنسا .

* * *

الفصل التاسع

عبادة الجمـــال

١ — انتصار الروكوكو

فى هذا العصر ، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع — عصر طراز لويس الخامس عشر — كانت النساء تتحدى الآلهة : أى الفريقين أحق بالعبادة ، وكان السعى وراء الجمال ينافس الإنصراف إلى التبتل والورع ، والإندفاع إلى الحرب . وفى الفن والموسيقى ، كما فى العلوم والفلسفة ، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعى . إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهوانى ، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرهافة ورقة الوجدان . كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة فى الحياة الذى كان قد بدأ على عهد فيليب دى أورليان ، بلغ ذروته فى أيام بمبادور . وأصبح الجمال أكثر من أى وقت مضى ، أمراً ذا « قيم ملموسة » فكان شيئاً يسر المرأ أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه ، ابتداء من خزف سـيفر إلى لوحات بوشيه العارية . وتخلى المهيب الفخم عن مكانه للبهيج السار والجليل الوقور للرشيق الرقيق ، وكبر الحجم لفتنة الرشاقة ، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال ، فى غمرة طوفان من التغيير تتعجل حـدوثه . وفى هذا الطراز الدنيوى الصريح طفرت الخطوط فرحاً ، ورقت الألوان ، وخلت الأزهار من الأشواك ، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانات الباسمة المشرقة فى الحياة ، وكان الروكوكو آخر مرحلة فى الباروك من تمرد الخيال على الحقيقة والواقع ، ومن ثورة الحرية والإنطلاق على النظام والقواعد . ومع ذلك لم تكن حرية مخلة ، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب ، ويعطى المغزى شكلا . ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة ، ونفرت من التماثل ، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث دون نقوش . وعلى

الرغم من أناقة الروكوكو الجذابة ، فإنه أنتج آلافا من الأشياء التى لا يفوقها شىء فى رشاقتها وزخرفتها . ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن فى فرنسا .

وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل . وقليلا ما كان مثل هذا التفوق والامتياز ، فى مجالات الأعمال الجمالية . تلك المجالات التى كانت يوما أقل شأناً . وفى تلك الحقبة صار الفنان والحرفى مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال فى أوربا فى العصور الوسطى . وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية فى الحياة موضع تكريم مع الرسامين والمثالين والمعماريين فى هذا العصر .

ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والاتقان . ولم يعد أثاث طراز « لويس الخامس عشر ضخما مثل ما كان فى عهد الملك العظيم ، وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة ، ولا للعظمة والوقار ، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها ، منه للجلال والتباهى ، واتخذت الأرائك أشكالا شتى ، لتتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة . وكتب فولتير « إن السلوك الاجتماعى أيسر اليوم منه فى الماضى ، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول فى النهار إلى أريكة) دون أن يسببن أى إزعاج أو مضايقة لأصدقائهن ومعارفهن[1] . وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواحه بالصور والرسوم أو تنجد ، وتنقش قوائمه نقشاً جميلا . وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل آثر فينوس على مارس (آثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسى المنجد ذو الذراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم ، والكرسى الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة القرأ (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض فى حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول) ، ومسند القدمين ، والخزانة العالية ذات الأدراج ، وصوان السفرة — كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها ، وفى الغالب أسماءها التى احتفظت فى الواقع

بها إلى يومنا هذا . وأسرفوا فى النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل فى النصف الثانى من القرن ، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذى أدخله أندريه شارل بولليه فى عهد لويس الرابع عشر ، وأهمله أبناؤه من بعده ، حيث كانوا نجارى الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش اللك » ووضع فولتير » أشغال اللك » فى فرنسا القرن الثامن عشر، فى مرتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان . أما الحرفيون من أمثال كرسنت ، أو بورد اوبن ، كافييرى ، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز فى تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدت بنجارى الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا لدراسة أساليبهم ، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج . وجمع جوست أوريل ميسونييه بين عشرة فنون أو تزيد ، فبنى البيوت ، وزخرف أجزاءها الداخلية ، وصنع الأثاث على أحدث طراز ، وصنع « الشمعدانات » والآنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات ، ونظم المشاهد الفاخرة ، وألف عدة كتب دون فيها مهاراته وفنونه . وكاد أن يكون الرجل العالمى فى زمانه .

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة فى الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذى ساد القرن السابع عشر ، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة . وفى هـذا أيضاً بلغ العصر الذروة ، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية ، وساعات الحائط والمرايا ، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات ، حتى خزائن الكتب — صنعت كلها فى تناسق فى الألوان والطراز يسر الناظرين . وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشترى للون جلدتها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشترى من أجل محتوياتها . ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً . وإنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوصة وراء الزجاج فى خزائن جميلة

مرتكزة إلى الحائط : وكانت حجرات الطعام نادرة فى فرنسا قبل ١٧٥٠ ، أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدها لمضاعفة عدد الجالسين إليها وإزالتها ، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن التنبؤ به . ولم تعد المدافىء من ذلك الطراز الضخم الذى كان قد انحدر من العصور الوسطى إلى عشر لويس الرابع عشر ، ولكنها إزدانت بزخرفة مترفة ، وفى بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم فى هذه الحقبة) كانت تماثيل للمرآة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة . وكانت كل التدفئة تقريباً عن طريق مدافىء مفتوحة تسترها حواجز مزخرفة ، ولكنا كنا نجد هنا وهناك فى فرنسا ، كما كان فى ألمانيا ، موقداً مكسواً بالخزف المزخرف . وكانت الإضاءة بالشموع التى تثبت بمائة طريقه مختلفة ، تبلغ أقصى روعتها فى الشمعدان الضخم المتألق ، المصنوع من البللور أو الزجاج أو البرونز . وإنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع ، ولكن ربما قللت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه .

ومع تقدم القرن ، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم ، وفى هذه الفترة كانت قمة ازدهار فن هذا النسيج . وفى كل أنواع النسيج تقريباً — من الدمقسى والمطرزات والمقصبات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحدت فرنسا فى تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق . وتخصصت أميان فى المخمل المنقوش واشتهرت ليون وتور ونيم بالحرير المزركش . وفى ليون ابتدع جان بيلمنت وجان بابتست هويه وغيرهما سجاجيد تعلق على الجدران ممهورة ومخيطة بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور . وكان هذا النسيج يصنع فى المصانع المؤممة فى باريس وبوفيه ، وفى الحوانيت الخاصة فى أوبيسون وليل . وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها فى الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية ، وأصبحت للتزين فقط وغالباً ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات . وسار النساجون فى مصانع الجوبلان وبوفيه فى عملهم وفق التصميمات والرسوم

التى وضعها ، والألوان التى تصبح باستخدامها أئمة الرسم فى ذاك العصر ، وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التى نسجتها مصانع جوبلان (١٧١٧) وفق الرسوم التى أعدها شارل أنطوان كوبيل لتصوير قصة « دون كيشوت » . أما نساجو بوفيه فإنهم ، كما سنرى انتجوا قطعاً رائعة من هذا النسيج ، صمم رسومها الفنان بوشيه . وفى ١٧١٢ أعيد تنظيم مصانع « سافونيرى » وكانت فى الأصل لصنع الصابون — وأطلق عليها المصنع الملكى لصناعة السجاد على طراز سجاد فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملى ، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر فى فرنسا القرن الثامن عشر . وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هى التى تقوم بالتنجيد الذى يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسى الأثرياء ، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الذليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيهم عناء الجلوس .

وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة . وهيأت لهم حروب لويس الرابع عشر الفرصة . ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة ، وأمر رعاياه بأن يحذوا حذوه . وسرعان ما لبت مصانع الخزف فى روان وليل وسكو وستراسبورج وموستير سانت مارى ومرسيليا هذا المطلب الجديد . وبعد موت لويس الرابع عشر إشجع الميل إلى الأطباق وغيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف — شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها فى تاريخ أوربا . ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكونيه وباجو المناظر على الخزف الفرنسى وابتدعوا أشكالا كثيرة منه .

وفى نفس الوقت كانت فرنسا تتجه إلى إنتاج الخزف الصينى . وكانت أنواع متعددة من العجينة الناعمة الملساء تصنع فى أوربا منذ مدة طويلة ترجع إلى ١٥٨٢ فى فلورنسه و ١٦٧٣ فى روان ، وكانت كلها على أية حال تقليداً للنماذج الصينية . ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

من مادة الكاولين أى الصلصال الصينى ، أو حجر الطفل الصينى الذى يذاب فى درجة حرارة عالية فى الشرق الأقصى . وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن فى درجة حرارة منخفضة ثم يغطى « بالغربتة » وهى مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة . وحتى هــذا الخزف الصينى المصنوع من العجينة الطرية — وبخاصة فى شانتيللى ، وفنسن ومنسى — فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلا جداً ، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن . وفى ١٧٤٠ انتزعت مدام دى بمبادور مائه ألف جنيه من لويس الخامس عشر ، و ٢٥٠ ألفاً من مصادر خاصة للتوسع فى إنتاج الخزف من العجينة الطرية فى فنسن . وفى ١٧٥٦ نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض فى سيفر (بين باريس وفرساى) وهناك فى ١٧٦٩ بدأت فرنسا إنتاج الخزف الصينى الحقيقى من الصلصال الصلب .

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيداً إحتياطياً قومياً ، محولا السبائك إلى أشكال مسرفة فى الجمال ، ولكن يمكن فى الحال صهرها إذا دعت الضرورة . وفى عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات نافعة أو وسائل للزينة . وتكاد كل أنماط السكاكين التى نستخدمها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن فى فرنسا القرن الثامن عشر : شوكات المحار ، ملاعق المثلجات، ملاعق السكر ، أطقم الصيد، طقم الرحلات ، سكاكين وشوكات الأكل، أضف إلى ذلك مملحة المائدة، وفناجين الشاى والأباريق والأوانى وأدوات التجميل والشمعدانات ، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة فى أشكال جميلة . . « وكان أحسنها فى هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية[٢] وصنع صائغو الذهب والفضة صناديق أو علبا صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء ، لحفظ السعوط أو الأقراص أو الساحيق أو الحلوى ، كما صنعوا مائة صنف من الأوانى والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس . وكان فى حوزة

الأمير دى كونتى مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال ، من المعادن النفيسة ، وكلها رائعة متقنة الصنع . واستخدمت مواد أخرى كثيرة لمثل هذه الأغراض : العقيق ، عرق اللؤلؤ ، اللازورد . . . . وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذى تفرد به ٣٥٠ من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين .

وحملت أشغال المعادن سمة العصر فى رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان . واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالا خرافية من التصميات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة . واستخدم البرونز الذهبى اللون لصنع أو زخرفة هذه المناصب والمشاعل والشمعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف ، أو لتركيب ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر البشب أو الخزف الصينى . فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه فى القرن الثامن عشر ، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط فى أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة — من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب ، ومزدانة بنقوش غاية فى الجمال والإتقان . وكانت المشاعل فى بعض الأحيان تحفاً رائعة فى فن النحت ، مثل تلك التى أبدعها فالكونيه لقصر فرساى . وكانت المنمنمات والرسوم الفاخرة من روائع هـذا العصر . وأنتجت أسرة واحدة هى أسرة رومتيير ، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان ، تميزت كلها بدقة الصنع إلى حد أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامهم إليها ، فى عداد كبار الرسامين والمثالين . إن القرن الثامن عشر عرض فى الأشياء الصـغيرة فى الحياة أعظم ثروته خلوا من الهموم ، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً . وقال تاليران « إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل ١٧٨٩ لن يدركوا أبداً إلى أى حد يمكن أن الحياة حلوة »[٣] ، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التى ينتمى إليها ويتفادى المقصلة .

٢ — فن العمـــارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً . وتتغير الطرز ببطء فى البناء أكثر منها فى الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق . وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التى نظمها كولبير فى ١٦٨١ يتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر . وواصل روبرت دى كوت عمل جول هردوين مانسار الذى كان قد أكمل قصر فرساى . وكان جرمين بوفران تلميذاً لمانسار ، وكان جاك جول جبرابيل وابنه جاك آنج خلفين غير مباشرين لمانسار ، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه فى قوة وصلابة ، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك ، بل بالطراز نصف الكلاسيكى ، بالمظاهر الخارجية التى سادت فى القرن العظيم ، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات ، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادو من مبان .

وخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة ، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيستين قديمتين . ذلك أنه فى ١٧٣٦ أقام روبرت دى كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلث أعلى الواجهة) كلاسيكية . وفيما بين ١٧٣٤ — ١٧٤٥ زود جان نيقولا سرفاندونى كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذى طابقين فى مدخلها ، قائم على أعمدة دورية وأيونية من طراز بللاديو الرومانى الكثيب ، ولكن العمارة المدنية هى التى عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت فى تلك الفترة إلى وزارت وطنية أو دور للسفارات الأجنبية . من ذلك قصر ماتنيون ١٧٢١ الذى أصبح سفارة النمسا ، ثم داراً لرئيس الوزراء ، وقصر البوربون (١٧٢٢ — ١٧٥٠) الذى أدمج جزء منـه فى مجلس النواب ، وقصر سوبيز (الذى عدل بناؤه ١٧٤٢) والذى أصبح داراً للمحفوظات الوطنية .

وفى عهد المركيز دى مارينى ، مدير المبانى ، ازدهرت أحوال عدد

كبير من المهندسين المعماريين والمثالين والرسامين ومهندسي الزخرفة ، ووجد مساكن وأعمالا لهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسنا . وكان المهندس المعماري الأثير لديه هو جاك آنج جبرابيل الذى ارتضى التقليد الكلاسيكى عن طيب خاطر . وبعد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) انهمك إدم بوشاردون فى إقامة تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وعهد إلى جبريل بتصميم المكان الذى يحيط بالتمثال . فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلرى والشانزليزيه ، دائرة من « الدرابزينات » والحدائق الغائرة ، وشاد فى الطرف الشمالى قصر كحريون الحالى ووزارة البحرية الحالية ، وكلاهما على طراز كلاسيكي بحت ، وعمد إلى تزيين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خليلات الملك — ميللى فنتيميل ، شاتورو ، بمبادور . وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر ، ونسميه اليوم ميدان الكونكورد . وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام فى حركة المرور منذ مائتى عام . وجيمس انجل جبرائيل هذا هو نفسه الذى شاد فى ١٧٥٢ المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتى تضاهى رشاقة أعمدتها مثيلتها فى أية ساحة رومانية قديمة .

ولم تكن باريس هى وحدها التى جددت مبانيها وغيرت وجهها فى هذا العصر فنى شانتيللى عهد دوق بوربون إلى جان أوبيرت بإقامة اسطبلات لجياده وكلابه ، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكواخ الفلاحين . وفى اللورين جعل ستانسلاس لزكزنسكى من نانسى واحدة من أجمل مدن فرنسا ، وهناك أكمل بوفران بناء الكاتدرائية التى كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين « انسار » وفيا بين عامى ١٧٥٠—١٧٥٧ أقام أمانويل هيرى دى كورنى « المدينة الجديدة » فى نانسى : دار البلدية من طراز الروكوكو ، وميدان ستانسلاس الذى يؤدى عبر حديقة عامة وقوس للنصر إلى ميدان دى لاكاريير ودار الحكومة ، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بحواجز من قضبان حديدية متصالبة (١٧٥١ — ١٧٥٥) هى أجمل ما صنع من نوعها فى الفن الحديث . وأقامت ليون آنذاك ميدان

لويس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك . وشادت تولوز مبنى فخما للبرلمان ، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس . وعمت المتنزهات الواسعة نانت وبلوا ومونبلييه . وفيما بين عامى ١٧٣٠ — ١٧٦٠ حول جان جاك جبرابيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومتنزهات طلقة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه ، وشيدت فيها المبانى العامة على طراز عصر النهضة الرائع .

وأخيرا تخطت العمارة الفرنسية الحدود ، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المبانى فى سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا . وفى أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكانتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير فى مجال العادات والفن .

٣ — النحت

خاض النحت فى تلك الحقبة معركة مريرة فى محاولة للاعتراف به فنا هاماً كبيراً . وكانت مهمته قد اقتصرت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية . وفى عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفى زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة . أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولع بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا ، وقبع الأغنياء فى مبان أصغر حجما ، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً فى قاعات الاستقبال أو النوم . وشكا المثالون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسامين . واقترح بيجال أن يكون هناك مثال ملكى على غرار الرسام أو المصور الملكى ، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذى جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة . وانصرف المثالون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهريات والنقوش البارزة ، وسعوا إلى منافسة رسامى الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفانى فى صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذى لا يبلى ، ما داموا يتقاضون الأجر . ولما تهيأ لبعض هؤلاء المثالين مزيد

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعي اللعوب المرح على حين ظلوا يحبذون وقار الخطوط الكلاسيكية .

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينموا فى أسرات بعينها . وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس فى تزيين القصور الملكية فى مارلى وفرساى ، وصمم الشخصيات العظيمة ، رامزا إلى أنهار فرنسا ، وهى الآن فى البلدية دار البلدية فى ليون . ولا يزال تمثاله « النزول من الصليب » فى كنيسة نوتردام دى باريس ، و « الراعى الصياد » واحداً من اثنا عشر تمثالا رائعا تغالب الزمن والجو فى حدائق التويلرى . ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنقولا ، تمثالا من المرمر لمارى لزكز نسكا ، مثل تمثال جونو[٤] (زوجة جوبيتر فى الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال « جياد مارلى » القوية (١٧٤٠ — ١٧٤٥) لذلك القصر أساسا ، ولكنها الآن متمردة على اللجام فى المدخلين الغربى والشرقى لقصر الكونكورد . أما ابنه غليوم كوستو الثانى ، فقد حفر للدوفين مقبرة فى كاتدرائية سنس .

وأنجبت مدينة نانسى أسرة أخرى من الفنانين فورت جاكوب سجسبرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة ، وقضى لمبرت سجسبرت آدم عشر سنوات فى الدرس والتحصيل فى رومه ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نقولا سباستيان فى إقامة نافورة « نبتيون وامفتريت » (إله وإلهة البحر) فى حدائق فرساى ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفردريك الأكبر — هدية من لويس الخامس عشر — مجموعتين من الرخام — صيد الحيوان وصيد السمك — لقصر سان سوسى . ثم رجع نقولا سباستيان إلى نانسى وشاد مقبرة كثرين أو بالنسكا فى كنيسة نوتردام دى بون سيكور ، وثمة أخ ثالث ، وهو فرنسوا بلتازار جسبار ، أسهم فى تزيين عاصمة ستانسلاس .

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثال فيلبوكافيرى الذى غادر إيطاليا فى ١٦٦٠ ليعمل مع ابنه فرنسوا شارل فى خدمة لويس الرابع عشر .

وثمة ابن آخر هو جاك كافييرى الذى بلغ بعبقرية الأسرة إلى الذروة متفوقا على كل معاصريه فى أشغال البرونز . وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً فى الإفادة من فنه فى زمانه . وفى قصر فرساى اشترك مع ابنه فيليب فى المدفأة فى جناح الدوفين وفى صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن . وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التى صنعها للأثاث أثمن وأغلى قيمة من الأثاث نفسه(٥) .

وارتضى آدم بوشاردون — الذى أسماه فولتير « فيداس » فرنسا(٦) (نحات أغريقى فى القرن الخامس ق . م) — ارتضى تماما كل القواعد الكلاسيكية التى نادى بها راعيه كونت دى كايلوس . وجد لعدة سنين منافسا للمثال بيجال حتى خيل لهـذا الأخير أنه غلب على أمره . وأورد ديدرو ذكر بوشاردون فى قوله « لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع »(٧) ورأى ديدرو أن تمثال « الحب — كيوبيد »(٨) الذى صنعه بوشاردون مكتوب له الخلود ، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب ، وخير منه النافورة التى أقامها المثال نفسه فى شارع جرينل فى باريس ، وهى تحفه رائعة فى جلالها الكلاسيكى وعظمتها وفى ١٧٤٩ عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين ، وصبه فى ١٧٥٨ ، لكن لم يمهله القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية ، وهو على فراش الموت ١٧٦٢ ، أن تـكل إلى بيجال اكمال المشروع ، وهكذا اختتمت المنافسة التى طال أمدها بين هذين المثالين ، فيما بنىْ عن الأعجاب والثقة بينهما ، ونصب التمثال فى ميدان لويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمته ١٧٩٢ باعتباره رمزاً بغيضاً :

ونبذ جان بابتست ليموين كل القيود والقواعد الكلاسيكية ، لأنها تحكم على النحت بالفناء . لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز — مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح أو الحزن — مما تجرأت التماثيل الهللينية على أن تعبر عنه ؟ وبهذه الروح صمم ليموين

مقبرتى كاردينال فليرى والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش ، وكذلك فى تمثال مونتسكيو الذى نحته لمدينة بوردو . أبرز المثال المؤلف « روح القوانين » ساخرا مكتئباً شكاكاً ، وسطا بين سناتور رومانى وفيلسوف إقليمى يسخر من أساليب الباريسين فى حياتهم . وأصبحت تلك البسمة العابرة هى العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التى صنعها ليموين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين . وانتصر هذا الأسلوب التعبيرى الممتع على كلاسيكية بوشاردون ، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وفالكونيه فى عصر من أعظم عصور النحت فى فرنسا .

٤ — الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك . وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون ، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسى المسيحية وآلهة الإغريق ، وقد آن الأوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء فى أبهى حللهن وتورد خدودهن ، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التى لم يسبق لها مثيل فى تقاطيع الوجوه ، وفى الثياب وفى العادات وفى كل الكماليات فى حياة الأقلية الثرية . وكانت المرأة يوما خطيئة ، وهى تعلن أنها لا تزال خطيئة ، لكن لا شىء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة . إنها ثأرت لنفسها من تلك القرون المرعبة التى أذلتها فيها الكنيسة ودمغتها بأنها أس البلاء ، ومصدر اللعنة . وسمح لها بدخول جنة لا يغشاها إلا الخصيان بفضل عذرية أم الإله فقط . وليس ثمة شىء ينم فى جراة أكبر على اضمحلال الديانة فى فرنسا من زحزحة السيدة العذراء عن الفن الفرنسى .

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة فى رعاية الفن . وفى باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافسا ومستحثا للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم . وفى الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية فى ليون ونانسى ومتزومرسيليا وتولوز وبورد وكلبرمنت

فراند وبوو ديجون وريمس . وفضلا عن جائزة رومه السنوية وضعت ثنتا عشرة مسابقة وجائزة ، بعثت فى دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً شديداً ، وفى بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن ، يواسون من لم يفوزوا فى هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال الذى يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت فى إيطاليا .

وعرض الرسامون لوحاتهم فى الشوارع ، وفى بعض الأعياد الدينيـــة كانوا يثبتونها فى الستائر التى تتدلى من نوافذ الأتقياء فى الطرق التى يمر بها الموكب الدينى . ورغبة فى تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير ملائم ، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة فى ١٧٣٧ وبعد انقطاع ثلاث وثلاثين سنة ، أقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين فى « القاعة المربعة » فى متحف اللوفر . وهذا المعرض السنوى أو الذى كان يقام كل عامين بعد ١٧٥١ أصبح فى أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثا مثيرا فى الحياة الفنية والاجتماعية فى باريس ، وفى دنيا الأدب ، وجعل الصراع بين المحافظين فى الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها ، من الفن معركة تنافس معارك الحديث عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية فى أحاديث الناس فى العاصمة . واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة غير المبالغ فى زخرفتها ، والتهذيب الذى يعاون على الإصلاح — كما كانوا هم أنفسهم موضع احتقار — أنصار اللون والتجريب والابتكار والحرية . وأصبح النقد الفنى عملا ناجحاً . وكانت « تأملات فى فن الرسم » للكونت دى كايوس تقرأ فى إسهاب على الملاء فى الأكاديمية . وروى جريم أنباء المعارض لقراء رسائله . وتخلى ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح واحداً من أشد النقاد الفنيين معارضة فى ذاك العصر . وأثار الحفارون على الخشب والمعادن مثل جاك لى بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور ، وإنتاج روائع من عملهم هم أنفسهم . وكان لى بلون أول من بدأ الحفر بالألوان فى ١٧٢٠ .

ولم يكسب الفنانون قط من قبل . اللهم إلا فى مجال الفنون الدينية ،

مثل هذا الجمهور المتحمس ، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع . ويأت الرسام الآن يوجه نشاطه إلى العالم بأسره .

١ — فى حجرة الانتظار .

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد فى تلك الحقبة ، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم ، ولسوف نعرض فى تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور . ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم .

فهناك الرسام المبرز جان فرنسوادى تروى ، ولكنه كانت تعوزه الحيوية ، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيما . وأحبه الجميع ، ووافق إلى حد كبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح « آلام المسيح فى البستان(٩) » ووجد فى إغراء السيدات لذة أكثر منها فى رسمهن ، وترك وراءه كثيراً من القلوب المكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة ، وزخرف فرنسواه ليموين (ويجب ألا تخلط بينه وبين المثال جان بابتست) عقد قاعة هركيول فى قصر فرساى بنحو ١٤٢ شكلا ضخما ، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن احلال اللون الوردى اللى تؤثره مدام دى بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمره فى لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كوبيل ، وهو ابن وحفيد لرسامين ، شاردان فى رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها ، وقد التقينا به رساماً للوصى ، وفى ١٧٤٧ أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر .

وقد سر فردريك الأكبر باقتناء لوحته « سيدة أمام المرآة » لقصر سان سوسى ، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته « الحب والأميرة فاتنة الجمال التى أحبها كيوبيد » من نسيج الجوبلان المنقوش ، وهى تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش .

وحظى جان مارك ناتيير بشعبية ورواج فى رسم الأشخاص لأنه عرف ، عن طريق الوضعة (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء ، كيف يخلص المجالسين أمامه من العيوب أو التشويهات التى أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحيـاة ، حتى أن كل السيدات اللاتى

رسمهن ، فيما عدا واحدة ، سررن حين وجدن أنفسهن فى لوحاته، فاتنات مغريات كما اعتقدن دائماً فى أنفسهن . ولوحته « مدام دى بمبادور » معلقة فى فرساى ، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف ، وعينيها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن لهفتها على السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفنان ناتيير . فقد رسم مارى لزكزنسكا سيدة برجوازية تشرع فى القيام بنزعة فى الريف (١٠) وأنصف كل الانصاف جمال أدليد(١١) ابنة الملكة . وعند ما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناتيير لوحتين له ولزوجته القيصرة ، ودعاه بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى ، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحتين دون أن ينقده أجرا . وأحضر جاك أندريه أفيد المولود . الفلاندرز بعض لوحات فلمنكية واقعية تصور الناس كما هم ، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فصوره(١٢) . ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن .

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين فى حجرة الانتظار — حتى على بوشيه وشاردان — نجد جريم وديدرو يؤثران كارل فانلو ، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو ، نعرف منهم تسعة بأسمائهم . ولد فى نيس ١٧٠٥ . واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابتست إلى رومه حيث درس بالازميل والفرشاة معا . وفى باريس فاز بجائزة رومه ١٧٢٤ ، ثم قضى فى إيطاليا فصلا دراسيا آخر ، عاد بعده إلى فرنسا وأرضى الأكاديمية وأغضب بوشيه ، بأتباعه كل القواعد الأكاديمية . وحيث أنه أفرغ كل جهده وقضى كل وقته فى الاشتغال بفنه ، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المهذب ، فإن مدام بمبادور نفرت منه فى شىء من الاشمئزاز (١٣) بأنه « وحش مزعج » ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية) . ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر . ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن ، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء فى حياة أسرية نموذجية ، فخورا بزوجته البارعة المصقولة ولوعا بابنته كارولين . وفى ١٧٥٣ اشترك مع بوشيه فى زخرفة قاعة المجلس

الرائعة فى قصر فونتنبلو ، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده فى الكوميدى فرانسيز ، بعد مرض عضال كاد يودى بحياته ، نهض الحاضرون وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه العلاقة الوثيقة بين الفن والأدب فى هذا العصر الذى تميز بثقافة عالية .

وسجل جان بابتست أودرى رحلات الصيد الملكية فى أعمال النقش والرسم على القماش . واختارته الملكة معلما لها . وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين ترقبه وهو يعمل . وزودت بعض قطعه المنقوشة نساجى القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتدون بها فى عملهم ، وسرعان ما عين أودرى مديرا للمصنع الملكى فى بوفيه ، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور ، فأعاد تنظيم العمل فى حزم وشدة ، وأثارهم العمال بحماسته ؛ وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم ، موضحا بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية . وهناك أيضا وضع الرسم التمهيدى للمجموعة الأخاذة من النساء والوحوش المعلقة فى اللوفر ، فى « ديانا دى بورتيير » . وتملكت النساجين فى الجوبلان الغيرة من النجاح الذى أصابه مصنع بوفيه ، فاقنعوا الملك بنقل أودرى إلى المصنع القديم ، وهناك أفنى نفسه فى صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التى وضعها . وفى الوقت نفسه أسهم فى كل من بوفيه وباريس فى تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فنانى منتصف القرن فى فرنسا امتيازا وتألقاً ، وأكثر من نال منهم تعنيفا قاسيا .

٢ — بوشيه : ١٧٠٣ — ١٧٧٠ .

استمع إلى ديدرو وهو يتأمل فى لوحات بوشيه العارية : أية ألوان ، وأية تشكيلة ، وأية وفرة فى المواد والأفكار ! إن هذا الرجل توفر لديه كل شىء إلا الصدق . إن انحطاط الذوق واللون . وأسلوب التركيب ، والشخصية والتعبير ، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق . . . . وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره فى خياله ؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضى حياته برفقة نساء المدينة ؟ . . . . . إن هــذا الرجل

لا يمسك بفرشاته إلا ليبرز الأرداف والصدور . إنه لا يدرك ما هو الجمال . . . . فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه . إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط ، وعلى الأقل الطبيعة التي تدخل البهجة على نفسي ، وعلى نفسك ، مثل طفل كريم المولد ، أو إمرأة ذات وجدان حي . إنه مجرد من الذوق . . . . والواقع إنه في تلك اللحظة بعينها ، عين الرسام الأول للملك (١٧٦٥) [١٤] » .

ويحتمل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجانب . فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه .

كان بوشيه ابنا صميما من أبناء باريس . وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم ، يملك محلا بالقرب من اللوفر ، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت ، وإذ أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم على الرسام فرنسوا ليموين . وحيث اشتغل برسم المشاهد للابرا ، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية . وانغمس في مباذل عهد الوصاية ، بقدر ما أتاحت له إمكاناته [١٥] ويروى لنا إنه وقع مرة في حب رومانتيكي مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت ، وبدا له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معا ، فاتخذ منها نموذجا للوحة لمريم العذراء ، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تقوى طفولته وصباه . ولكنه ، وهو لما يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسي غير شرعي ، وحين حاول أن يكملها أفلت منه الوحي والإلهام ، كما أفلتت منه روزيت . ولم يسترجع قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف [١٦] .

وتطورت مهارته ونمت بسرعة تحت ارشاد ليموين . وفي هذا المرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات التقاطيع الكلاسيكية والرقة الناعمة . وفي قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التي كان روبنز قد حول فيها الحياة لماري مديتشي إلى ملحمة من اللون « وعظمة الثياب » . وفي ١٧٢٣ ، وهو في سن العشرين فاز بجائزة رومه

التى أهلته للاقامة الكاملة فى باريس لمدة ثلاثة سنوات ، مع راتب قدره ٣٠٠ جنيه ، ثم أربع سنوات فى رومه . وإنا لنحصل على صورة حياة الطالب فى عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطافوا به حول ميدان اللوفر .

وفى ١٧٢٧ رافق كارل فانلو إلى إيطاليا . ويقول مدير الأكاديمية الملكية الفرنسية فى رومه وجد « للشاب الصغير المدعو بوشيه . . . . جحراً صغيراً فى غرفة ، وأسكنه فيه . وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر ، ولكنه على الأقل سيقيم تحت السقف[١٧] . ولكن لم يكن لزاما على الشاب المتواضع ، كما وصفه المدير ، دوما أن ينام فى هذا الجحر ، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به فى رومه . وإنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبدا ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكلأنجلو ، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسى ١٦٩٦ — ١٧٧٠) .

ولما عاد إلى باريس (١٧٣١) استمر يوقد الشمعة من طرفيها (يمسك بالعصا من وسطها) ، ونادرا ما كان يقنع بشىء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه ، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل « اغتصاب يوروبا » فى الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهى من بين عروضه التى لا تحصى لشكل المرأة . وخيل إليه فى ١٧٣٣ أنه وقع على فينوس نفسها فى نموذجه جين بوزو ، وعلى الرغم من أنه أحس « بأن الزواج لا يلتئم معه »[١٨] فإنه اتخذ منها زوجة ، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلا . وكالت له هى بنفس الكيل . ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة « رينو آرميد[١٩] » التى كسبت له العضوية الكاملة فى أكاديمية الفنون الجميلة (١٧٣٤) . وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة فى حجرة نوم الملكة التى كانت لا تزال تتمتع بحبه ، وعند إعادة افتتاح المعرض ١٧٣٧ اتسعت شهرة الفنان وكثر رعاة فنه . ولم يلق بعد ذلك طعم الفاقة ، ولم يعد له منافس .

وتخصص بوشيه فى رسم « العاريات » وحتى زواجه لم يكن قد تريث

طويلا إلا نادرا مع إمرأة واحده ليكشف شيئاً أكثر من بشرتها . ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجي ممتع بلا حدود ، وبدا أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا ، وفى كل الأشكال والأوضاع ، من الشعر الأشقر الحريرى الناعم إلى الأقدام العارية التى لم تنتعل قط . وكان بوشيه هو الروكوكو قلبا وقالبا .

ولكنه كان أكثر من ذلك . وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية ، فإنه كان بالفعل فناناً حاذقاً فى التأليف واللون والخط ، على أنه فى بعض الأحيان تعجل فى العمل ، ولم يعط الفن حقه رغبة فى سرعة الحصول على الأجر ، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية فى لوحاته وخصوبة خياله والرشاقة البسيطة فى خطوطه . وقال ديدرو الذى ناصبه العداء ، « لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه ، فن الضوء والظل[٢٠] وكاد أى فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته . إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليدهشون إذ يعلمون أن « شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية[٢١] . وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته ، وتنافس فى الحصول عليها مشاهير جامعى الرسومات . وكانت تشترى لتستخدم مساند أو حوامل ، وتعلق فى حجرات النوم والجلوس على الجدران ، وكانت من عجائب الاقتصاد — نقرة فى الخد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط ، وكل بريق وحفيف التنورات الحريرية ينبثق فى إعجاز من قطعة من الطباشير . ومن المحقق أنه ليس من أجل الثروة وحدها ، ولكن بفضل العبقرية والخيال المتفجرين فيه ، يضيئان عينيه ويقودان يديه ، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً فى مرسمه ، تاركا بصماته على كل شىء يلمسه تقريباً . وفضلا عن ألف لوحة ، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والحرف والرصائع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح . وقصدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التى أعدها خلفية (لباليه نوفير : الأعياد

الصينية » ١٧٥٤ . ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية ، لأنه كان سفير أفروديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر ، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية فى الغابات والحقول ، بجوار المياه الفوارة والاطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء فى السماء الزرقاء ، وشمس دافئة تغرى بحرارة الدم وتطربها . وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائمه ، ومع ذلك رسم لوحة « منظر أسرة » ، أبرز — وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال — فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام ، وعربة اليد ، والأنقاض فى الفناء الخلفى ، والحمير ترزح تحت أحمال من الأوعية والآنية التى تحدث قعقعة . واستكمالا لذخيرته أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج فى هذا القرن .

وفى ١٧٣٦ دعاه أودرى إلى مدينة بوفيه ليضع تصميمات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسما لمناظر قروية إيطالية (٢٢) . وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيرا إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته . ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية « قصة الأميرة الفاتنة » — خمس استار تعلق على الجدران ، شكلتها مدام بوشيه ، وهى من التحف الرائعة فى فن القرن الثامن عشر . وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزدان بالرسوم والنقوش أطلق عليها « الحياة الريفية الكريمة » (٢٣) إحداها وهى « صائد الطير » تمثل حبيبين فاتنين من أروع ما أخرج من الحرير والصوف . وشكا النقاد من أنه بسبب أودرى وبوشيه أصبح النسيج المزدان بالنقوش أقرب شبها باللوحات الزيتية ، وأنه فقد خصائصه المميزة . ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيرا ، لأنه عندما توفى أودرى (١٧٥٥) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان .

وفى الوقت نفسه حظى الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المتقدة حماسة وغيرة . فزخرف لها قصر « المنظر الجميل » وصمم أثاثه . وللمسرح الذى سمت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آية فى الجمال الأخاذ والرقة يحار الناظرون إليها فى الحكم عليها . وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

سقط الآن وأخرس ، فإنه لم يهيئ لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هيأ لنا أن نلمس مناقب الذكاء والرقة التى حببتها إلى الملك ، والاهتمام بالثقافة الذى جعل منها معبودة الفلاسفة ، والذوق الفنى النسوى الرفيع فى الثياب الذى أضفى فى كل يوم فتنة جديدة على مفاتن الجسد العانية . ويفضل هذه اللوحات ولوحة « الرحلة — لاتور » استطاعت بمبادور تذكير الملك فى هدوء بالجمال الذى ولى والفتنة الأرق التى بقيت . وربما استخدمت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية فى ارضاء رغبة الملك الجنسية القوية . ولا عجب إذن فى أنها جعلت من برشيه صديقاً أثيرا لديها ، ووفرت له جناحا فى اللوفر ، وتلقت عنه درساً فى النقش ، وبحثت معه مشروعاتها فى زخرفة قصورها ، والارتقاء بالفنون . ورسم لها (١٧٥٣) لوحتين من أعظم لوحاته « الشروق والغروب »[٢٤] وفى كلتا اللوحتين ، بطبيعة الحال ، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء وبريقا .

وعمر بوشيه بعد بمبادور ، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفردريك الأكبر ، وظلت أحواله فى ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنية . وتكاثر عليه التكليف بعمل اللوحات ، وأصبح ثريا ، ولكن لم تقل حماسته وغيرته فى العمل عن ذى قبل ، وطهر ثروته بالبذل والسخاء . وكان عربيدا محسنا خيرا ، لا يكل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبدا مرح ودود ، « لطيف كريم غير متحيز ، ينأى بنفسه عن الأحقاد الدنيئة ..... به مناعة ضد التلهف الحقير على كسب المال »[٢٥] وكان متعجلا فى عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز . وأطلق لخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع . وأبلغ رينولدز أنه ليس فى حاجة إلى نماذج ، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة ، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية . ولما لم يصوب له الواقع ذاكرته ، فإنه بات مهملا فى رسمه مبالغا فى ألوانه . واتهمه جريم وديدروو وآخرون بأنه أخطأ فحسب الظرف واللطف جمالا ، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

زخرفة سطحية ذات مظهر خداع ، وبأنه افسد أخلاق العصر باعلاء قيمة مفاتن الجسد . وعاب عليه ديدرو واستنكر ابتساماته المتكلفة وتصنعه . . . وشامات الجمال ، واللون الأحمر على الخدود . . . ونساءه العابثات ، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسلينوس غير الشرعيين (إلها الخمر والعربدة فى الأساطير اليونانية) (٢٦) ومات بوشيه وهو يعمل فى مرسمه تاركا على الحامل لوحة لم يكملها « تزين فينوس » وكأنما يتحدى بها ديدرو . وعند ما سمع ديدرو بموت الفنان أحس بالندم وقال « لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامى عنه ، وإنى لأكف الآن عن الحديث عنه . (٢٧) ولنكتف نحن بهذا القدر »

٣ — شاردان : ١٦٩٩ — ١٧٧٩

كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان — أى تباين بينهما فى مفاهيم الجمال وفى الخلق وفى الذكاء ! كانت هنا تقريبا حرب طبقية ، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الابيقورية المسرفة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية . ولدجان مابتست سيمفون شاردان برجوازيا ، وظل برجوازيا قانعا ، وصور الحياة البرجوازية فى اخلاص بالغ . وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانه عالية فى نقابته ، يمتلك دارا فى شارع السين على الضفة اليسرى من النهر ، ولما كان يظن أن ابنه جان سيخلفه فى مهنته ، فإنه لم يعن بتعليمه فى المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية . وأسف شاردان على ما فاته من تعليم وعلى ضآلة ما حصل منه ، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة ، فولى وجهه وفرشاته شطر الأشياء التى حوله فى المصنع والبيت . وسرعان ما أحب الرسم وتلهف على التصوير ، وسمح له والده بالالتحاق بمرسم بييرجاك كيز ، ثم بتسجيل اسمه رساما فى البلاط الملكى .

ولم يكن الشاب سعيدا هناك ، فإن النماذج التقليدية التى طلب إليه أن ينسخ عنها بدت له بعيدة بشكل مخيف عن الحيـــاة التى عرفها وألفها . وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الحلاق الجراح ، وتبرز أدواتها ، فإن جان — وربما تذكر عند ذاك شعار الرسام

اتو لجرسانت — رسم لافتة ضخمة تمثل رجلا جرح فى مبارزة ، يقوم على العناية به جراح ومساعده ، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطيا وبعضا من حراس الليل ، ومركبة ، وامرأة تحدق النظر من نافذتها ، وحشدا من المتفرجين يحملقون من فوق الرؤوس — كل أولئك فى منظر رائع عن الصخب والايماءات والاثارة . وغضب الجراح ورأى أن يلقى باللافتة عرض الحائط ، ولكنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابه ، ولم نسمع بعد ذلك شيئاً عن شاردان ، حتى كان عام ١٧٢٨ ، حين حظيت باطراء خاص ، لوحته « السمكة » ولوحته « الخوان » (البوفيه) — طبق فضى فيه فاكهة — فى معرض فى الهواء الطلق فى ميدان الدوفين . ودعاه بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها . ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلا من اسمه ، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة ، ونسبوها إلى فلمنج ، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها ، فاستنكروا هذه الخدعة ، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (١٧٢٨) .

وفى ١٧٣١ خطب مرجريت سنكتار التى وعده أبواها بصداق كبير ، ولكن فى فترة الخطوبة منى الوالدان بخسائر جسيمة وفارقا الحياة ، تاركين مرجريت لا تملك شروى نقير ، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك ، وهيأ لهما أبوه مسكنا فى الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثا على ناصية شارع دى فور وشارع البرنسيس . وهناك أقام الفنان مرسمه الذى كان أيضا مطبخه ، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهادئة ومشاهد الحياة اليومية . وأصبحت الخضر والفاكهة والسمك والخبز واللحم كل الأشياء التى تبعثرت فى أنحاء الغرفة ، نماذج لفرشاته تارة ، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى .

وافتتن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة فى الأشياء العادية ، ورأى فيها خصائص فى البيئة والتركيب والضوء قلما تلحظها العين الغافلة . فإن جانبى التفاحة أو خديها كانا بالنسبة له يحملان طابعا رومانتيكيا مثل تورد

وجنتى عذراء ، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحداه أن يمسك به فى حركته السريعة ، ويحاول تثبيته فى فنه . وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة فى أمانة وتبصر ، وبراعة فنية فى اللون والمناسيب والضوء والظل ، مما لم يتيسر إلا لقلة من الفنانين أن يبلغوه . وإننا لننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية الميتة ، ونحس بأنها حية وإننا لم نرها رؤية صادقة قط من قبل ، وأننا لم نتحقق قط من تعقيد أشكالها وتفردها . ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها ، ولم يجد الشعر فقط فى إناء من الأزهار أو عنقود من العنب . بل فى مرجل قديم محطم ، وفى جوزة ، وفى قشرة برتقالة . وفى فتات كسرة خبز جاف . ففى هذه كلها شعر دائماً كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل ، ولكن من فى فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوما شعور بوجود هذا الشعر . وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال فى عين الرائى أو المشاهد أو بالأحرى فى نفسه . إن شعور شاردان القوى وبصيرته النافذة — وفقره — كل أولئك هو الذى جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية ، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية .

وكل إنسان يعرف هذه القصة — أو الاسطورة ؟ — كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية . إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض ٤٠٠ جنيه أجرا لرسم لوحة لأحد الأشخاص ، فعجب شاردان أشد العجب ، وهو المعتاد على الأجور الضئيلة ، لهذا الرفض . فما كان جواب أفيد إلا أن قال « هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرق التوابل (الصلصة) . [٢٨] . وكانت سخرية لاذعة . ولكن مفيدة . إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضييقاً شديدا ، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه فى الأطباق وألوان الطعام ، وعقد العزم على رسم الأشخاص . وكشف فى نفسه عن عبقرية فى رسم الأشخاص فى رقة وتعاطف ، وكان هو الذى هيأ لهذه العبقرية أن تخمد . وقبل التحدى من فوره . ورسم لوحة لصديقة أفيد نفسه ، « المتفاخر »[٢٩] . وأتبعها بلوحة أحسن منها « دار لعب الورق » . ولكن هنا أيضا كان التفوق والامتياز

فى الملابس لا فى الوجوه . وفى لوحة « الطفل والخذروف (النحلة) » خطا شاردان خطوته الثانية : اليدان يشعتان بعض الشيء ، ولكن الوجه ينبئ عن عقل سليم . ووجد هذا الاعتناق الرقيق منفذا فى رسمه للبنات ، كما هو الحال فى التحفتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد : « بنت تلعب تنس الريشة » ، وأخرى « تتسلى بتناول غذائها » .

إن شاردان لم ير فى النساء الاغراء الباسم الذى أثار بوشيه ، بل رأى فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التى هى عماد الدولة ، وهى التى تقودها إلى طريق الخلاص . ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال الفن الفرنسى ، وحصلت على حقها فيه . إن هذا الفنان عرفها وأحبها فى كل ما تقوم به من خدمات جليلة آسرة : احضار الطعام من السوق ، سحب الماء ، تقشير السلجم ، لف الصوف ، العناية بالمريض ، تحذير التلميذ من إهمال واجبه أو التهرب منه ، أو كما أبرز شاردان فى أشهر لوحاته « الخير والبركة » [٣٠] الامساك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات ، ويداها الصغيرتان مضمومتان ، عن الصراخ والبكاء ويشيع فى وجهها ابتسام الرضا ، ورأى المرأة دائماً فى ملابس البيت ، غير متبرجة ، فى حركة دائبة ، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا جميعاً فى أمان إلى فراشهم ويتدثروا . وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان باريس وهى أكثر حكمة وأكبر عقلا من الحاشية ، لا تزال متعلقة بالأخلاقيات القديمة والعقيدة الدينية التى وفرت لها عونا روحيا . وهذا هو أعظم فن نفعا وصحة فى كل تاريخ الفن .

إن هذه الصور التى يهلل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجا محدوداً جداً آنذاك ، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده فى بساطة قانعة . ولم يساوم مع عملائه . وباع اللوحات بأى ثمن عرضوه عليه تقريباً . ولما كان يعمل فى بطء وكد وجد ، فإنه انهك نفسه فى فقر نسبى ، على حين أن بوشيه استنفد جهده فى يسر ورخاء . ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة أعوام فقط من الزواج ، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

النظام . وكأنه مسكن طالب ، ألح عليه أصدقاؤه أن يتزوج ثانية ، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته . وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه . وهو فى بساطة زواج مصلحة . وجاءت له مرجريت بصداق متوسط ، يشمل بيتا تملكه (١٣ شارع البرنسيس) ، فانتقل إليه . حيث وضعت خاتمة لفقره وعوزه ، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق . وتعلم هو أن يحبها شاكرا ممتنا .

وزيادة فى معونته من الناحية المالية خصص له الملك (١٧٥٢) راتبا قدره ٥٠٠ جنيه ، وعينته الأكاديمية (١٧٥٤) أمينا للصندوق فيها ، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها فى قاعات العرض فيها ، ولكنه لم يكن يصلح لهذه المهمة مطلقا ، ولكن زوجته ساعدته فيها . وفى ١٧٥٦ أقنع صديق نقاش — هو شارل نيقولا كوشان الثانى — مارينى بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة فى اللوفر . وهذا هو كوشان نفسه الذى كان تواقا إلى ابعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات ، لتوضع (فوق الباب) لقصر مارينى . فأخرج شاردان فى جد واجتهاد (١٧٦٥) « خصائص الفن » وخصائص الموسيقى [٣٢] ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دى بمبادور « المنظر الجميل » . ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعود للوحات الخمس حتى عام ١٧٧١ .

وفى نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته . ففى ١٧٦٧ نرى ديدرو الذى كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه « روح الطبيعة والحقيقة » يقول فى أسى وأسف « إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية ، ولكنه يذوى ويذبل [٣٣] » . وكانت لوحات لاتور المرسومة « بالبستل » تأخذ بمجامع الألباب فى باريس . وفى غمرة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين بالبستل لشخصه . وهما من أعظم الإنتاج جاذبية وروعة واتقانا وكمالا فى اللوفر . إحداهما تمثله فى قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه ، والعوينات

(النظارة) فى أعلى انفه ، ورباط عنق مربوط باحكام حول عنقه . وأبرزت الأخرى نفس الزى ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية ، بالإضافة إلى قناع يظلل عينيه اللتين يشكو فيهما ألما . وأشهر من هاتين ، لوحة البستل التى أبدعها لزوجته الثانية ، وهى آنذاك فى الثامنة والستين : وجه كريم جميل ، أخرجه بمهارة متسمة بالحب . وتلك هى اللوحة التى يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته .

وكانت خاتمة مظفرة لحياة فذة شريفة كريمة . ولسنا فى حاجة إلى تصوير شاردان رجلا بريئا من زلات البشر ، فالحق أنه هو نفسه أيضا ، وقد وخزته أشواك الحياة وأساءت إليه الأحقاد ، كان فى مقدوره أن يقاوم بالانفجار فى الغضب وفى قارص الكلام ، ولكنه لما فارق الحياة فى ١٧٧٩ ، فإن أحدا فى دنيا الفن الباريسى الحاسدة الحاقدة المفترية ، لم يجد كلمة سوء عدائية يقولها فيه . بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فنى لم يبزه فيه أحد فى زمانه ، عن فرنسا ، التى هى فرنسا الحقيقية التى لا تزال سليمة بارئة من السقام ، تلك الدنيا المستترة ، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة ، مما يمكن أن يبقى ويعمر — ويساعد فرنسا على البقاء — بعد قرن من الفوضى والثورة . وكما قال ديدرو « كان شاردان أعظم ساحر لدينا »(٣٣) .

٤ — لاتور — ١٧٠٤ — ١٧٨٨

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم إكليل الغار فى فن الرسم الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، إلى بوشيه أو إلى شاردان ، بل تقدمه إلى موريس كانتان دى لاتور .

وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقا ، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطانى ، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية ، وطلب كما فعل ديوجنيس ، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه . وكان نزاعا إلى جمع المال فى جشع شديد ، مغرورا وقحا متغطرسا ، عدوا لدودا وصديقا متقلبا عميقا مزهوا مثل رجل عجوز يخفى سنى عمره أو يفاخر بها ، وكان أمينا

صريحا ، بخيلا ، ومحسنا مسرفا وساذجا أنيسا ، وطنيا ملتهبا حماسة وغيرة ، يحتقر الألقاب ، ومن ثم رفض لقب النبالة الذى عرضه عليه الملك . ولكن هذا كله لا يتصل بالموضوع ، فإنه كان أعظم رسام فى عصره ، وأعظم مصور بالبستل فى تاريخ فرنسا .

وجلس لويس الخامس عشر يوما إلى لاتور ليرسمه ، فاستاء الملك وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على الأجانب . وقال له « ظننت أنك فرنسى » . فأجاب لاتور « لا يامولاى ، أنا من سانت كانتان فى بيكاردى [٣٤] » (مقاطعة فى شمال فرنسا كانت يوما جزءاً من الفلاندرز) . انه ولد هناك لأب موسيقار موسر ، أراد له أن يكون مهندسا ، ولكن الولد آثر أن يكون رساما ، فأنبه الوالد على ذلك ، وهرب موريس وهو فى الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كمبراى ، يرسم اللوحات هنا وهناك ، وفى كمبراى دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز إلى لندن ضيفا عليه فيها . وذهب إليها موريس ، وهنا جمع مالا وقضى وقتا سعيدا مستمتعا بالحياة ، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزى . وكانت روزاليا كاريرا فى باريس فى عام ١٧٢١ وكان وجهاء القوم ، إبتداء من الموصى إلى أحدث محدثى الثراء ، يفتشون عن لوحاتها المرسومة بالبستل . ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتيم مع مزاجه القلق ، أكثر من الزيت الذى يحتاج إلى جهد وجلد . وقضى عدة سنين يحاول ويجرب ويخطئ ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظلالا ودقة فى اللون والتعبير مما لم يتسن لأحد من رسامى الأشخاص فى زمانه أن يباريه فيها .

وعندما عرض بعض لوحاته فى معرض ١٧٣٧ بدأ رسامو الزيت يوجسون خيفة من منافسة أقلام البستل لهم . وكانت لوحاته الثلاث المرسومة بالبستل حديث معرض ١٧٤٠ . وكانت لوحته رئيس مدينة ريو فى رداء الحاكم الأسود وعباءته الحمراء « هى التى فازت بالجائزة فى معرض ١٧٤١ . أما لوحته التى رسمها للسفير التركى فقد تكاثر عليها الجمهور المعجب فى

١٧٤٢ . وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التي تهفو دوما إلى كل ما هو مستحدث ، بالتحول إلى الطباشير ، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثا تاريخيا . ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختيرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه ، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب ، قائلا « ماذا تتوقع مني أن أفعل في هذه المشكلة ؟ » فأجاب الملك « لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصا ، حتى لا يعكر صفونا أحد » . فرد عليه لاتور بقوله « لم أكن يا سيدي أعلم أنك لست سيدا في دارك » . وفي مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخما ، فاعترض الملك في خبث « فما بال فرنيه الذي صور مناظر البحر يعج بالسفن [٣٥] » ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أنباء مضللة كاذبة عن مسألة معينة ، ابتدره في رفق « وهكذا ترى كيف أنه من السهل على اناس أمثالكم أن يقعوا في حبائل المخادعين المخاتلين »[٣٦] .

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة المزعجة ، منحته الأكاديمية عضويتها الكاملة ١٧٤٦ — التي هي بمثابة شهادة امتياز وتفوق . ولكن في ١٧٤٩ ، نتيجة سعي حثيث من الوسامين بالزيت ، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيدا من رسوم البستل . وفي ١٧٥٣ شكا أحد مصوري اللوحات الزيتية « من أن دي لاتور ارتقى برسم البستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية » ورد لاتوركيد الشاكي في نحره بالحوافز والروائع .

وكان له منافس في البستل ، هو جان بابتست برونو الذي كان يؤثره ليموين وأودري وغيرهما من الأكاديميين على دي لاتور ، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصيا) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة ، وأجزل له دي لاتور الأجر ، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه في لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وابرازا للشخصية والذات ودبر مع شاردان أن تعرض اللوحتان كلتاهما جنبا إلى جنب في معرض ١٧٥١ . وأجمع كل الذين شاهدوهما ان اللوحة الذاتية تفضل لوحة برونو ، ولا تزال اللوحة الذاتية التي رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامة النصر في متحف اللوفر .

وهناك أيضا اللوحة التى تحدى بها بوشيه وهى لوحة البستل الوحيدة التى عرضها ١٧٥٥ . وأفلتت الفرصة منه تقريباً . فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة فى المملكة أجاب « أرجو أن تتفضلوا بابلاغ مدام دى بمبادور أننى لا أخرج لأرسم » . وكانت تلك طريقته فى جلب الحظ والمال ، مثل ايقاع الفريسة فى الشرك ، بالتراجع ، وتوسل إليه أصدقاؤه أن يقبل . فأرسل كتابا ينبئ بأنه سيحضر ، ولكن شريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل . ولما وصل نزع وقاء حذائه ، وخلع الحذاء ، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية ، ثم بدأ يرسم . وفجأة فتح الباب ودخل الملك . فاحتج لاتور قائلا : لقد وعدتنى يا سيدتى أن يظل الباب مغلقا « فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله ، ولكنه رفض » يستحيل على أن أطيع جلالكم . سأعود عندما تكون السيدة وحدها . . . لا أحب أن يقاطعنى أحد . فانسحب الملك ، وأكمل الفنان الجلسة ، ومن أشهر صورتين لمدام دى بمبادور ، نجد أن اللوحة التى رسمها لاتور أعمق من تلك التى أنتجها بوشيه ، وأقل اشراقا فى اللون ، واتقاناً فى اللمسات الأخيرة والتفاصيل ، ولكنها أكثر نضجا من حيث التعبير وابراز الشخصية . ولا ريب أن لاتور رسم المركيزة ، بايحاء منها ، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة ، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة ، وفى يدها بعض صفحات موسيقية ، وعلى المنضدة كرة أرضية ، وحقيبة أوراق من نفش يديها ، وقصة فولتير « هنرياد » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو .

وعندما فرغ لاتور من اللوحة طلب عليها أجرا قدره ٤٨ ألفا من الجنيهات . وعلى الرغم من تبذيرها واسرافها فانها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشىء ، وأرسلت إليه ٢٤ ألف جنيه ذهبا . وفكر لاتور فى رد المبلغ . فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة فى نوتردام ، بما فيها روائع برون ولى سير ، وأجاب لاتور سلبا . وقدر شاردان جملة تكاليفها بمبلغ ١٢ ألف جنيه . وأعاد لاتور النظر فى تقديره

وقبل المبلغ الذى أرسلته بمبادور (٢٤ ألفا) . إنه ، بصفة عامة كان يطالب بالأجر تبعا لثروة الجالسين أمامه ، فإذا اعترضوا ردهم خائبين ، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ود المبرت ، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه ، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الدينى .

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً فى اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء . وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية فى عصره ، وأصبح قمة فى الرسم بالبستل ، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولى العهد الصغير ، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام(٣٨) ، ولاكامارجو راقصة الباليه الأولى ، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفا عاقلا حكيما(٣٩) ، وفى أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دى ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات(٤٠) ، وأبرز فى لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة فى عينيه(٤١) . ولبس الخز والمخرمات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن فى اميان . وعلى الرغم من عاداته الخشنة ونزواته غير المشروعة ، وحالاته النفسية المتقلبة التى لا ضابط لها : فقد كان موضع الترحيب فى قصور الأرستقراطية ، فى ندوة مسيو دى لابوبلنيير فى باسى ، وفى صالون مدام جيوفرين . وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره ، بل حتى بالرسامين والمثالين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة — فانلو ، شاردان ، جريز ، بيجال ، باجو . ومنحه الملك معاشا إضافيا ومسكنا فى اللوفر . ولا بد أن الرجل كان . فوق كل شىء ، محبوبا .

ولم يتزوج لاتور قط . ولكنه لم يتنقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقة ، هى الآنسة فل Mlle Fel التى ساعد غناؤها على نجاح أوبرا روسو « عراف القرية » . وتضايق منها جريم لأنها لم تبادله الحب ، ولكنها أقبلت على لاترر من كل قلبها . وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو فى الثمانين من عمره . وكان فى إخلاصها له شىء من العزاء

والسلوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشي بصره . ودفع ثمن الرخاء والرغد الذى نعم به وهو فى ذروة المجد ، بما لقى من إذلال طال أمده فى سنى شيخوخته واضمحلال صحته . إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته . وسمع النقاد يتحدثون عنها ، وكأنما أدركها الفناء .

وعند ما قارب الثمانين ترك مسكنه فى اللوفر ، ليعيش فى الهواء الطلق فى أوتى Auteuil . وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه . واستقبلت سانت كانتان ابنها السخى المبذر بطلقات المدافع ودق النواقيس والهتافات الشعبية . وعمر فى هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشيط إلى مس خفيف غير مؤذ من الجنون ، فأصبح يتمتم بشىء من فلسفة وحـدة الوجود (الله والطبيعة شىء واحد ، والـكون المادى الإنسان مظاهر للذات الإلهية) ، ويعبد الله والشمس معا ، ويحلم بالثورة مؤملا فى قيامها . وفارق الحياة قبل قيامها بعام واحد . وقبل أيدى خدمه وهو فى النزع الأخير .

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١ — صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف في أوربا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها في الدبلوماسية العالمية ، وكان فردريك الأكبر يستخدمها بانتظام ، اللهم إلا في التحدث إلى قواته . وألف جيبون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفي ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم في الأراضي الوطيئة وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسي في القارة ، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا) ، وشعبية المجتمع الباريسي بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعي ، تنهل منها النخبة الممتازة في أوربا ، ثم الرغبة في إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغته الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر في العبارة ، ورشاقة ووضوح في الأسلوب . وكان ثمة بعض الخسارة في هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسي ضحى بالصراحة البريئة عند مونتاني والحيوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسي الوهن والضعف في سجن القواعد التي وضعها بوالو ،

وانزلقت الأكاديمية نفسها — حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ — إلى شكليات غامضة وضآلة مبعثها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية فى عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكتبات . واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب فى كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن ، أصبحت هذه التجارة خاسرة ، وكان فى باريس وحدها منهم ٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات فى كثير من المدن ، وكان فى بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجماهير ، نظير رسم دخول ضئيل (٤٠ سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت . ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتبا لدى موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته « ماريان » ، وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانونى الوحيد هو الترخيص الملكى بالنشر وكان فى هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه فى فرنسا ، ولكن ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون خلو كتابه مما يسئ إلى الكنيسة أو الدولة . وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب أو المرطقة فى أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد المؤلفين الى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية أخرى ، ليطبع هناك بالفرنسية ويوزع فى الخارج ، ويتداول سرا فى فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين فى باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثار ضعف الدولة فى عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني ، المناقشات الشفوية والخطية في المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التي حدث من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التي كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بآذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كلتيهما ، وانضمت الطبقة المتوسطه العليا إلى الأرستقراطية في اصغائها لهذا النقد ، أملا في تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفي هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقوبلوا بالترحيب في الصالونات حيث تحدثوا وأيدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا في قصور ذوي الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيئوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفي بعض الأحيان يسكنونهم في قصورهم ، مثل ما فعل بوبيلنيير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة في الدولة . قال ديكلوس في ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأمرون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيتغلب الرأي العام على أي شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »[1] (وفي ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذي يتحقق به تشكيل الرأي العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم مثات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستحثهم زهو الطباعة وخيلاؤها ، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقيودها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد فى الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصدعت كل القواعد التقليدية فى الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجمات التى شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهوله عادة .

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قناعاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نقح رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملا فى أن يطالعها أكثر من الشخص الذى أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئيها ، كذلك نجحوا أحيانا فى أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أى قطعا من الأدب . وبسبب حبهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعى وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسه والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة فى الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت فى معظم الأحوال نقاشا فى السياسة والأدب والفن ، وكانت فى بعض الأحيان نثرا — لغة المجتمع — يزخر بالسجع الذى كثيراً ما يأتى عفو الخاطر فى الفرنسية ، مع أكبر الأمل فى إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التى يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ فى القرن السابع عشر) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعقاب والأجيال القادمة . احتفظت بشىء من سحر المكاتبات وفتنتها : وفى نهاية الحقبة ، فى ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دى ستال دى لونى التى كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دى سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها فى النثر [٢] .

٢ — المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التى احتلتها فى باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لمارمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاها ومالا ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتى لصاحبها بالثروة والشهرة »[٣] . وكانت هناك فى الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحى خاص فى بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية فى فرساى . ولكن التحمس للروايات فى باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكوميدى فرنسيز » فى « المسرح الفرنسى » بأعلى الدرجات فى الموضوع والأداء ، ولكن الجماهير الغفيرة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبرا كوميك » . .

وتألفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا فى « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التى يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجا وثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، (على الأرض) التى نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأنقين الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حوارا طويلا ، فإن التمثيل المسرحى لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بدا سخيفاً »[٤] وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحى أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطونى وهما يخطبان فى أهل رومه بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين فى هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أى من روايات شكسبير فى مثل هذه الظروف[٥] وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التى أيده فيها ديدرو وغيره ، أثرها فما وافى عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح فى فرنسا قد أخليت من المتفرجين .

ولتى فولتير نجاحا أقل فى حملاته لتحسين الوضع الدينى للممثلين : وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرستقراطية ، وفى كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت فى اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والفضائح والأعمال المخزية ، وذهبت إلى أن كل الممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم فى الأرض المخصصة للمؤمنين — وهى تشمل كل المقابر فى باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن الممثلين يتقاضون أجورا من الملك ، فى الوقت الذى تحرمهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقا ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم فى السجن (كما حدث عندما أضرب ممثلو جلالته عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) فى البالوعات . إننا نبتهج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، ونرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم (٦) .

وكانت أدريين ليكوفرير أعظم الممثلات الفرنسيات فى زمانها مثلا واضحا لهذه المتناقضات فى حياتها ومماتها . إنها ولدت فى ١٦٩٢ قرب قرب ريمس وجاءت إلى باريس فى العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسى » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت فى البيت الممثلات اللاتى أعجبت بهن وهى واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفى سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاها الممثل « لى جراند » دروسا ، وهيأ لها مكاناً فى فرقة تمثل فى ستراسبورج . وقامت بالتمثيل فى الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل موليير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منهما على التعاقب حاملا ، ورفضا الزواج منها . وفى سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفى الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى . وفى ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها لبعض الوقت أكثر من صديق[٧] . وفى ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى فى « المسرح الفرنسى » الذى كان مأواها ومبعث إلهامها فى شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت بدينة ، وكانت قسمات وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت برقة تفوق الوصف فى جلستها ووقفتها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية فى صوتها ، وبريق من الشرر والإحساس فى عينيها السمراوين ، وتعبير متحرك كريم فى وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تتبع الأسلوب الخطابى الذى كان قد أصبح تقليدا سائدا فى التمثيل فى فرنسا فى المسرح الطويل المستطيل الشكل فى المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن تمثل دورها وتنطلق بعباراتها على خشبة المسرح كما تتحدث فى الحيـــاة الواقعية ، اللهم إلا فى إخراج الحروف من مخارجها والإبانة فى اللفظ ، ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد فيه الجمهور . إنها فى فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلابا فى فن التمثيل المسرحى . وتحقق هذا أيضا فى عمق شعورها ، وقدرتها على نقل انفعالات الحب أو رقته ، وكل العطف أو الرعب فى أى مشهد مأساوى . وتفوقت فى الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا فى غرامها . وهام بحبها الشاب شارل أوجسطين دى فريول كونت أرجنتال الذى كان مقدرا أن يصبح « ممولا ومدعماً بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدة شارل لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث بولدها إلى المستعمرات ، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام دى فريول (٢٢ مارس ١٧٢١) تؤكد لها أنها لن تشجع الشاب على الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأى شىء يرضيك . ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين فى ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث فى قلبك الرضا والارتياح ، ويضفى عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن توجهى مواهبه وقدراته وتنمى فضائله لتؤتى ثمارها[٨] .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ، وفى سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقلب النظر فى الأوراق التى تركتها والدته ، عثر على هذه الرسالة التى لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل .

واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسونى كثيراً ما يتردد على المسرح الذى تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ، ولكنه كان وسيما عاطفيا خياليا حتى أنه عندما أقسم على الاخلاص والولاء لها مدى حياته ظنته فارس أحلامها الذى طال انتظارها له ، وإذا وصل الأمر بالرجال إلى الوعد بالاخلاص مدى الحياة ، فانهم يحيون ويموتون عدة مرات مثل القطط (بسبع أرواح) . ورضيت به عشيقا (١٧٢١) ، وعاشا لفترة من الزمن يرشفان كؤوس المحبة والاخلاص إلى حد أن باريس قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولكن الجندى الشاب الذى أصبح لتوه « قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملكا ، وقد رأيناه يسارع إلى كورلند (جزء من لتفيا الحالية) طمعا فى الحصول على التاج فيها ، وكان نصف الأموال التى حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » فى بيتها . ولم يكن غير ذى عائد فكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفكار موليير ، حتى أصبحت من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلما ، ولم يكن أصدقاؤها من المعجبين العابرين ، ولكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونتيل وفولتير ودارجنتال والكونت دى كايلوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد بعض السيدات الأنيقات من ذوات الألقاب والاحساب متعة فى الانضمام إلى هذه الجماعة المتألقة .

وفى ١٧٢٨ عاد الجندى الذى لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدرين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت فى السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركنه مضجعه ، وكان الدم الملكى يجرى فى عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهى لويز دى لورين دوقة بويون حفيدة بطل بولنده النبيل جان سوبيسكى ، وكانت تختال فى جرأة أمام موريس فى مقصورتها فى المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدرين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى فى شىء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللائى تعلمن ، وهن يلقين ظلالا من الجريمة على مظهر الوئام الهادىء الوادع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن »(٩) .

وفى يوليه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الآنسة ليكفرير أن رسولين مقنعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدرين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدرين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إنى تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلىّ كثيراً لوقت طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب فى أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولا . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريئا فأرجو أن تفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلق بالا إلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلا أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبى ، وكم هى صادقة مخلصة ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا(١٠) .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولسنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفى فبراير ١٧٣٠ بدأت الآنسة ليكوفرير تعانى من إسهال يزداد سوءاً يوما بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن فى أوائل مارس حملوها من المسرح مغمى عليها . وفى ١٥ مارس مثلت ، وهى تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » فى رواية فولتير « أوديب » وفى يوم ١٧ مارس لزمت الفراش ، وصارت تنزف نزيفا مميتا من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرا على العناية بها فى هذه الخاتمة الفاجعة المذلة ، وفاضت روحها فى ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدريين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة [١١] . فإن القانون الكنسى حرم دفنها فى الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها فى عربة أجرة لدفنه سراً على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . (فى نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولدفيلد باحتفال عام فى كنيسة وستمنستر .) وفى ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة (موت الآنسة ليكوفرير يستنكر فيها المعاملة المهينة فى دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قلبى ، بالأسى والفجيعة . وإنى لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولى ، وهى تذرف الدمع . ان ملبومين (ربة المأساة) قضت نحبها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذى ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه الفنون البائسة التى تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرموا من الدفن من إذا كانت فى اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحا فى الهيكل . لقد رأيتم يقدسونها ويزدحمون حولها . إنها لا تكاد تموت حتى تصبح مجرمة ، لقد سحرت ألباب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفاتك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبدا جديدا لنا ، تمجده فى ترانيمنا ، وتضفى عليه ظلالك قدسية » .

فى ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب وارنست ليجوفيه فى باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة تماما « آدريين ليكوفرير » . وفى ١٩٠٢ ألف فرانسسكو سيليا أوبرا فى نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحي فى ذلك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير . وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبرجولتون دى كربيون ؛ وهو معمر عجوز كان ينبغي له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان كربيون قد أنتج فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان قد انقطع عن التأليف ، وبات يعانى الفقر ، ويجد بعض السلوى فى مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخمسة عشر قطا وبعض الغرابيب السود . وفى ١٧٤٥ أنقذته مدام دى بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة (يقبض راتبا ولا يؤدى عملا) ، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله فى مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساى ليقدم لها الشكر . ولما كانت هى مريضة ، فقد استقبلته وهى ملازمة الفراش ، فلما انحنى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولاتى ، لقد وقعت الكارثة ، إن الملك فاجأنا معا »[١٢] . وسر الملك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور فى حثه على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الاستحسان (١٧٤٨) . واهتز كربيون طوبا من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفى ١٧٥٤ وهو فى الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيدا بحيواناته ؛

ولم يطب فولتير نفسا بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان عليه أيضا أن يواجه فى الملهاة منافسه ماريفو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دى شمبلين دى ماريفو أصبح هجاءا حين رأى بمحض الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعا تطبق عمليا مفاتنها المغرية أمام المرآة . ودق قلبه مؤقتا فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك النقود فى ريوم ، وكم من شابه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير . وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها الرصانة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دى تنسان [؟] ، وربما تعلم فيه الدعابة المرحة ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح إصابة ماريفو هو رواية « آرليكان يصقله الحب » التى عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروى إنه استرد ثروته بقلمه[١٣] ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة (الكوميديا) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكاتها البارعة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعتزام زوجين (أربعة أشخاص ، رجلان وامرأتان) اعتزاما متزامنا ، ولكن غير متفق عليه ، أن يختبرا اخلاص الخطيب الذى لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخادم وسيدة وخادمة ، فى سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل منديل ديدمونة (فى رواية عطيل) . وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التى يتورط فيها الحب فى هذه الروايه وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال فى قصر فرساى ، وفى الصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتخلت الملهاة الرجولية عند موليير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التى سيطرت على المسرح الفرنسى (معترضـــة الطريق) إلى أيام سكرايب وديماس الابن وساردو .

٣ - القصة الفرنسية

إن ماريفو هذا هو نفسه الذى أضفى على القصة فى فرنسا شكلا جديدا . وفى ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءاً ، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة فى الحب . ولم يكن ثمة شيء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحى ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة البريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التى عاشت لتقص القصة فى شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة ، بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتحمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتنى ألا تبوح باسمى أبدا ، أنا أود ألا يعرفنى أحد إلا أنت . »(١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا ، فقد تولى تربيتها رجل برجوازى محسن كريم ، حتى أصبحت بائعة فى محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالا إلى حد أثار مسيو دى كليمال . وصار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيرا طلب يدها جراء ما قدم . ولكنها رفضته ، وأعادت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريفو فى ذكاء لطيف . وكان جديرا بنا أن نقول إنها فى نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخى كليمال ، وهو مسيو دى فالفيل ، الذى كان أقل من عمه مالا وأصغر سناً . ومهما يكن من أمر فإن فالفيل يترك ماريان معلقة ، لما يقرب من ألف صفحة ، وينصرف إلى سيدة أخرى . وهنا ختام قصة ماريم .

تلك هى القصة النفسية فى فرنسا القرن الثامن عشر ، التى لم تنافسها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التى كتبها كودرلوس دى لا كلوس (١٧٨٢). إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دى لافاييت « الأميرة دى كليف (١٦٧٨) » ، ولو إنها تكاد لا تعادلها فى رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكن بزتها فى تحليل الدافع والعاطفة ، وهنا نجد امرأة ، مثل باميلا عند ريتشاردسن ، تحتفظ بشرفها لأهميته فى سوق الزواج ، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية ، لتقدمها تأييدا لأحادبة الزواج للرجل الذى يتجه إلى تعدد الزوجات . وتلك صورة أكثر تهذيبا من الصورة التى أخرجها ريتشاردسن ، الذى بدأ قصة باميلا بعد تسع سنين من ماريان وربما تأثر بها . وفى مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن « كلاريسا (١٧٤٧) » ساعدت روسو فى « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريفو خلق الطبقة المتوسطة القوى الحذر ، على حين أولع كريبون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كربيون المرح » تميزا له عن أبيه « كربيون المكتئب » (الذى قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير) . نشأ كلود بروسبرجولبوت دى كربيون فى باريس فى عصر الوصاية الذى رجحت أخلاقه التعليم الجزويتى الذى تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلابه وقططه . وفى ١٧٣٤ وهو فى السابعة والعشرين اشتهرته قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها — كما قال شامفورت — هو مجرد « ملامسة سطحين »[١٥] . ووقعت أحداث القصة فى اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءا صريحاً للكنيسة والدولة فى فرنسا ، واللدوقة دى مين الصغيرة (الفتاة الجميلة) ، إلى حد أن الكاردينال فلبرى أبعد الكاتب — كلود كربيون — عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر فى ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث فى « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان تولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزى ، فيروى كيف أنه تجسد فيا مضى من الزمان على هيئته أريكة ، ويعود بذاكرته إلى بعض الخطايا التى ابتلى بها زنبرك الأريكة . وتعاقبت أحداث الزنى فى تفصيل متزايد . ووجد كربيون متعة بالغة فى قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنبا فى التفاخر بعفتهما وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون فى الفعل إثم أكبر منه فى التفكير ، ومن ثم فانهما يوائمان بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كربيون يتطلبن عادة جزاء (عملا) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ فى العملية الحسابية .[١٦]

ولقى الكتاب ما كان مقدرا له من نجاح . ووجد قراء فى عدة لغات

أسرفت كلها فى تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كربيون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراى عن الجنة والنعيم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريفو وكربيون » [١٧] . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خليلة كربيون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها [١٨] . وفى ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كوللى فى تأسيس « الكاف — الكهف » ، وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد فى الوقار والمزاح . وفى ١٧٥٩ عين « بدليل الخلاف » رقيبا ملكيا على الأدب . ولما توفى والده فى ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بخواتيمها » .

وفقدت كتب كربيون شعبيتها قبل وفاته بزمن طويل . ولكن فى الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المثقفين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دى أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التى أبدعها قلمه . إنه ولد فى أرتوا فى ١٦٩٧ ، وتعلم فى مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهبا مبتدئا فى طائفة اليسوعيين (١٧١٣) . وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع فى شراك الحب . وخاب فيه أمله وتحطم قلبه ، وأصبح راهبا بندكتيا (١٧١٩) ، ثم قسيسا ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد فى حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيثية » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ فى باريس ، وبعد عام قضاه فى إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفى ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزى ، أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعى لكروامول » وهى من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها فى ثمانية مجلدات فى السنوات التسع التالية . وفى ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سالفة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة فى باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » (تأليف مسيو د) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه فى باريس لقى رواجا كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار »(١٩)

وقصة مأنون موضوعة فى قالب قبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا فى مركبة فى طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز — الرجل ذو الحيثية المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التى وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية »(٢٠) . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد الذى يحدق النظر باكيا فى خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولايستطيع أن يتبعها إلى منفاها ، وتتحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنيهات ذهبا ، مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لويزيانا . ويراه المركيز فى كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهى رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم المحتد ، مبرزا فى كل شىء فى الكلية فى اميان ، وكان فى عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان فى مالطة . وفى غمرة آمالهما العريضة « جعلانى أضع الصليب »(٢١) . ولكن مانون مرت أمامى ودخلت حياتى ، وتغير كل شىء . وكانت آنذاك فى الخامسة عشرة وهو فى السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنبهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » « وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج فى سلك الراهبات ، فيعرض عليها أن يخلصها من من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقا كافيا » ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلا

وزوجة ، دون أن نفكر فى هذا أو تنتبه له » ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذى يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خليلة للسيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جرييه أن يذهب ليقتل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتى أحد الأصدقاء تيبرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خليلة السيد « ب » ويحث دى جرييه على الانتظام فى سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتى ، ويصبح راهبا . « وظننت أنى تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة فى السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشق هى طريقها إليه ، وتعترف بخياناتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جرييه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا فى ضاحية شيو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذى حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جرييه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . لقد عرفت مانون . . . . ومهما كانت مخلصة وفية مغرمة بى فى وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها فى وقت الشدة . إنها اهتمت كثيراً بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجلى »[٢٢] . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لاخوتها أن يعلموه الغش فى لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقة مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثرى ، وتركت له رسالة تقول فيها « إنى أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها فى مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل العجوز ، وينجحان ويختفيان ثم يقبض عليها ، وتوضع هى فى الملجأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر فى الملجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفد رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غنى أن يتخذها خليلة ، ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جرييه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول دى جرييه انقاذها فى الطريق ، فلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ، وهناك تعلمت أن تحتمل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصة كل الاخلاص لدى جرييه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولـكن ابن حاكم المستعمرة يهيم بحبها . ولما كان مانون ودى جرييه قد أهملا أن يعقدا عقدا شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه فى أن يزوجها من أى فرد فى المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجا لها . واردى دى جرييه لابن قتيلا فى مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفيافى والقفار سيرا على الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق الحياة ، «وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاى وجه عزيزتى مانون ويديها» . وحفر بيديه جدثا لها ويواريها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى نحبه هو الآخر . ولـكن صديقه الطبيب تيبرج ، الذى قدم فى نفس الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركيز ليروى حكايته .

وأصبحت «مانون ليسكو» معينا لا ينضب لقصص حب مبللة بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تـكن «محطمة القلب» تذرف الدمع على موت مانون وحزن دى جرييه ، مغتفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه الخسيسة . وضرب بريفوست على نغمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته أخطاءا كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة والقتل . وهى طراز عتيق للبطلة ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما بلغ الـكتاب قدرا أكبر من القـــوة لو أن دى جرييه ترك ليموت على قبر مانون »

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا فى دى جرييه . ومن ثم كانت

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشاردسن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشاردسن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفى امستردام فى ١٧٣٣ ، وقع فى غرام عشيقة رجل آخر . ولما نمى إليه أن البندكتيين استصدروا أمراً بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفى لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفى ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيها — وهى جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا (١٧٣٤) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفى ١٧٥٣ عين فى دير سان جورج — دى جين .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترويها حفيدته بيف لسانت بيق وكأنها حقيقة ، تلك هى أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره فى غابات شانتيللى ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتشريحه ليقف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذى أودى بحياته[٢٣] . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة[٢٤] .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم فى تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديدرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير اتجاها مثاليا فى قصة « بول وفرجينى » للكاتب برناردين دى سانت بيير . وبرز التأثير من جديد فى « غادة الكاميليا » لدماس الابن . ولعبت دورا فى الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلوبرت « مدام بوفارى » (١٨٥٧) . ولا تزال مانون تحيا وتموت فى الأوبرا .

٤ — حكماء أقل شأنا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغى علينا فى هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل ايرينى كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين فى أوترخت بكتابه « مذكرة فى حفظ السلام على الدوام » . (١٧١٢) . وهى التى أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، بعرض على نادى « أنترسول » خليطا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقاذاً للدولة (١٧٣١) . فلماذ كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من الثائرين المتمردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت ليطرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكثلكة ، فإنه ألحق بها أذى ماكرا فى « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج — مثل فولتير فى كتابه « محمد » — يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التى قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون ، قصد به بالمثل التشكك فى المعجزات الكاثوليكية .

وفى ١٧١٧ ثم فى ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسع فيه . وناشد ملوك أوربا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربى تكون له قوة فرض قبول القرارات التى يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التى يمكن اتباعها فى إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصبة المالية التى تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على هذه الأسس « حلفا مقدسا » للابقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، وإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تزعزع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر . فى عبرة دينية الإيمان بالتقدم ، وفى كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر فى العقل العالمى » (١٧٣٧) أعلن ، قبل كوندوروسيه بزمن طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل فى رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شىء قال وهو مستغرق فى التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقا لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون فى مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذى لا نتوقعه منه فى شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفى الازدهار الرائع فى مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ [٢٩] .

إن سان بيير تنبأ بمشكلتنا الحديثة : تلك هى أنه بينما خطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة فى طريق التقدم ، لم يحدث فى مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافىء مع تلك الخطوات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف نتحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفى رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلا وحكمة فى البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء فى الدولة فى كل ما يتعلق بالاصلاح الاجتماعى والخلقى . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة) ، تسامح دينى ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعى ، وأخيرا زيادة الايرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات[٢٦] . وفى ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التى آثرها على الصدقات التى تقترن بفكرة التنازل والتلطف فى النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التى تحققها ، وما ينتظر أن تحققها فى المستقبل ، لأكبر عدد من الناس [٢٧]. وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالا أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل فى ملك مستنير ، كعامل من عوامل الاصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسذاجته واطنابه ، أحد الأذهان التى حملت بذور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل بينو ديكلوس قد ازدرى الراهب سالف الذكر لأنه خيالى واهم لا يتفق مع ذهن واقعى . ولد فى دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التى تميز بها البريتون . وكان ابنا لوالد برجوازى ميسور ووالدة ماتت فى السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش فى باريس فى عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالى عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس فى حماقات الشباب أيما انغماس . وزاد من حدة ذكائه فى المقاهى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دى لوز » (١٧٤١) التى كادت أن تكون اتهاما لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنقذ حياة زوجها المتورط فى مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين . وفى سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القاسى ، كيف استحق كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريهة لديك ؟ [٢٨] » .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (١٧٤٦) بفضل نفوذ مدام دى بمبادور . واشترك بحيوية ونشاط فى أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطا بعث فيها الحياة . وفى ١٧٥١ خلف فولتير فى وظيفة مؤرخ الملك وفى ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفى ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لتهور دى هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبة من الملحدين الصغار سوف تنتهي باقتيادي إلى كرسي الاعتراف » .

وإنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات في الخير والشر في هذا القرن » (١٧٥٠) وهو يتضمن تحليلا هادئا دقيقاً مفصلا عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستهله بوقار حكيم تخرف « لقد عشت ، وأود أن أعيش لأكون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكا بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هي تلك التي لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفا للسخرية فتلك هي آخر مراحل الفساد[٢٩] .

وفي رأيه أن « أكبر نقيصة في الرجل الفرنسي ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو في الغالب أنيس لطيف ، وقلما يكون راسخا متزنا ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة ..... فالرجل الفرنسي هو طفل أوربا[٣٠] — مثلما أن باريس هي ملعبها . ولا يتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذي يحس أنه دوامة تعصف حوله » « لست متأكداً من إني أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لي أن تخمرا معيناً في العقل يتجه نحو التطور والنمو في كل مكان[٣١] » . إننا في هذه الأيام ننتقد كثيراً في عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحي بالائمة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة الخرافة (وقد يكون من البواعث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

وأعقب هذا في سنة ١٧٥١ « مذكرات لالقاء الضوء على النظرات » أما رسالة ديكلوس « مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا في ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الانجليزية تحت اسم مذاكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفي) . فيقوضون أسس الأخلاق ويضعفون روابط المجتمع . . . والنتيجة المؤسفة لهذا على قرائهم ، هى أن يصبح الشباب مواطنين سيئين ومجرمين محزين ، وأن ينتاب الشقاء الذين يتقدم بهم العمر (٣٢) .

وكان جريم المراسل الباريسي للشخصيات الأجنبية وواحداً من كثير ممن استاءوا من هذا التشهير الرقيق بالفلسفة ، الصادر من رجل نهل من منابع كثيرة « إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق ، فليس له أن يتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون (٣٣) . ولكن جريم كان يزاحم ديكلوس فى الظفر بالحظوة لدى مدام دى ابيناى ، وإن مذكرات هذه السيدة الرقيقة لتصور ديكلوس فظاً مستبداً إذا تمكن ، شديد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جريم هو الذى أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتيقة الباكية فإن مدام ابيناى طردت من بيتها هذا العربيد الخائن . وهام رجل الأكادمية العلامة على وجهه بحثا عن مضاجع وأراض أخرى ، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو فى السابعة والستين .

وكان لوك دى كلابير مركيز دى فوفينارج أجدر بالحب . وفى سن الثامنة عشرة التحق بالجيش ثملا بحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد فى خدمة الملك . واشترك فى مغامرة الماريشال دى بل أيل المنكوبة فى حملة بوهيميا ١٧٤١ — ١٧٤٣ . وفى الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب فى دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجيش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دبلوماسي ، وكاد أن يظفر ببغيته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدرى شوه وجهه . وبدأ بعده يضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال أقعده عن ممارسة أى عمل .

وأصبحت الكتب عزاءه ، وشغله الشاغل . وكان يقول « فوق كل شيء ، إن أحسن الأسماء هي أكثرها شيوعا ، فإنك تستطيع أن تشترى ن فولتير مقابل كرون واحد »(٣٤) وحذر من الحكم على الكتب بثقل ها ، فإن خير المؤلفين قد يتحدثون أكثر مما ينبغى وكثير منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق » [٣٥] .
وكان مؤلفه الذى دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع فى خمس وسبعين صفحة مقدمة فى التعرف على الروح الإنسانية » ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات والحكم » فى ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفى فندق حقير فى باريس ، قضى نحبه ، وهو فى الثانية والثلاثين . وهو يمثل موزار وكيتس فى الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أنماطها وأشكالها ، مثل الملابس والموسيقى والعمارة [٣٦] » وقبل بضع سنين قليلة من اضفاء روسو المثالية على الطبيعة والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشى من أجل الغلبة والسيطرة » ، و« المساواة » على أنها وهم وخداع : السائد بين الملوك ، وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ، وهكذا يجرى كل شىء فى الكون بالعنف . وهذا النظام الذى نعيبه بشىء من شبهة العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون فى الطبيعة[٣٧] .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار و ر مسووين .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسى هو الاخضاع والتبعية . . . . ومن ولد ليطيع . فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش [٣٨] .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهى أيضا أسطورة أو خرافة « فليست الارادة هى العلة الأولى لأى تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » .
وإذا أوردنا المثل التقليدى على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « إنى إذا اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى فى اللحظة التى تجول ب بخاطرى فيها[٣٩] . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة فى النهاية[٤٠] .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغي القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن فى القلب أى فى العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا تمدنا بالقوة على العمل والارادة[41] . . . . والأفكار العظيمة تنبع من القلب . . . وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل[42] . . إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويغفل الآخر ، إنما يحرم نفسه فى حمق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا[43] .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحرزه الأمم من تقدم ونجاح[44] . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت[45] . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن فى توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام[46]. وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أولى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيلة فى الشباب[47] .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولاروشفوكو ، ومن تجربته للشر فى حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحتقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، يرثى للناس بهما لا جريمة . وحلت الشفقة فى قلبه محل الاحتقار والبغض . . . إنه لم يذل إنسانا قط . . . إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا فى حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فإنا ونحن نرى رباطة جأشه ، ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه[48] .

ووصفه فولتير بأنه « أتعس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً »[٤٩] .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسي فى القرن الثامن عشر . ذلك العطف السابغ والعون الودى اللذين حبا بهما فولتير « نبى العقل » فوفينارج نصير بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه »[٥٠] . وكتب إليه الرجل العجوز الأكبر منه سنا فى لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد رأيت النور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتى قيمة أكبر[٥١] إن أفصح قطعة فى مجلدات فولتير المائة هى ما قال فى تأبين فوفينارج عند تشييع جنازته[٥٢] .

مونتسكيو ١٦٨٩ — ١٧٥٥

١ — الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح القوانين » (١٧٤٨) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلى فى هذا العصر . وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمرة خمسين عاما من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عاما قضاها فى تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لابريد ودى مونتسكيو ، فى لابريد بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتانى ، فى ١٨ يناير ١٦٨٩ . وكان يفاخر مبتهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا وهناك فى كل مكان »[٥٣] إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة فى جوين ، وكان الصداق التى قدمته أمه قصر لابريد وأرضها . وفى ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل مسكين ، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل (أى أباه فى العماد) . زعما منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا[٥٤] . وتربى طوال السنوات الثلاث الأولى من عمره بين فلاحى القرية ، وأرسل فى سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأوراتوريين فى جويللى على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو فى سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفى سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية فى القانون .

وفى ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك فى الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف نراه تمسك بشــدة بالنظام الاقطاعي . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفى ١٧١٦ أوصى له عمه — الذى كان قد اشترى رياسة البرلمان — بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا فى الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب ابناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التى قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها [٥٦] . وبينما كان يتولى رياسة البرلمان قضى معظم وقته فى الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا فى الفيزياء والفسيولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التى جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان فى الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس فى عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعا لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفني مارانا « جاسوس السيد الكبير » (١٦٨٤) الذى نقل فيه جاسوس تركى وهمى للسلطان ، فى بذاءة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم فى أوربا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا فى تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون فى « سبكتاتور » . وكان شارل دفرسنى فى « تسليات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام فى باريس ، كما أن نيقولا جيودفيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا . وكانت ترجمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » (١٧٠٤ —

١٧١٧) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان تافرنيه . كما أنه من مارس إلى يوليه ١٧٢١ لفت السفير التركى أنظار باريس بفتنة زيه وأساليبه الغريبه . من أجل ذلك كله كانت فرنسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . وبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم مونتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان فى فرنسا . ومراسليهما فى اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مساً رقيقا . ومن ذا الذى يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسرارا أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك فى اصفهان . من ذلك أن زاكى أى محظيته ، تكتب لتبلغة بما تعانى من آلام مبرحة لغيابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيدة مسلمة عن الجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيدة فاضلة مجموعة من الرجال الوسيمين المكتملى الرجولة ، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان فى سرد التفاصيل فى أسلوب الطيش الذى اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم فى فترة خلو العرش هذه ، أن تتفادى الهرطقات السياسية والدينية فى الرسائل عين الرقيب والمؤاخذة الرسمية . لقد قضى الملك القديم نحبه ، والملك الجديد ما زال صبيا ، والوصى رجل متسامح مرح مبتهج . وعند ذاك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردهم فى رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار [٥٧]) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، وخمول النبلاء المبذرين وسوء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان وروما القديمة ، والجمهوريات الحديثة فى هولنـــده وسويسرا . يقول أوزبك «ان الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق » [٥٨] (انظر فيما بعد رأيا مخالفاً) .

وفى الرسائل من ١١ — ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحدث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) (*) الذين يتخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت [٥٩] وأرسطو [٦٠] بأنهم قبائل همجية عاشت فى أفريقية (قبل التاريخ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكومى ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا فى جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقى على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلتا العون ، ونشأتا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرتا أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانهما دائماً تقريباً . [٦١] ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية لحكمهم فاختاروا ملكا وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة فى الحاكم والمحكومين . .

وكانت المرطقات الدينية فى الرسائل أكثر ترويعا وتنفيرا من المرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى (مثل زينوفون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

(*) قصد بهذه الكلمة فى الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحوراً ليقيموا فيها . مثل خصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزا وأن الخمر ليس خمرا . وألف شيء من هذا الطراز . [٦٢] ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفزعته محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان فى إحراق الناس كما يحرق القش » . [٦٣] ويسخر من المسابح وثياب الرهبان الفضفاضة . وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية فى منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان فى فرنسا وإيطاليا واسبانيا (قارن ايرلنده فى القرن العشرين) ويقدر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية فى أوربا لن تعمر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى[٦٤] (*) . أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الخاملين الذين يزعمون انهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً « إنهم عصبة من البخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبدا . إنهم باستمرار يكنزون دخولهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل فى التجارة أو الصناعة أو المصانع » [٦٦] ويقلق أوزبك التفكير فى أن كفار أوربا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل فى أنهم فى النهاية سيعتنقون الإسلام ويُنقذون [٦٧] .

وفى تخيل رمزى جليل يتأمل أوزبك فى الالغاء (١٦٨٥) مرسوم هنرى الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم يامبزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبروا خطة لارغام الأرمن فى فارس (الهيجونوت) على مغادرة المملكة أو الدخول فى الإسلام (الكثلكه) ، اعتقادا منهم بأن امبراطوريتنا

(*) ذهب مونتسكيو فى ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوربا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها فى عهد الامبراطورية الرومانية[٦٥] وأنه آخذ فى التناقص ، وأن زنوج أمريكا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين لهؤلاء الكفار عبدة النار اضطرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشيط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية (فرنسا ١٧١٣) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار النزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فلست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زاخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذى أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذى يشجع الديانة التي تعتقد أنها فى صعود[٦٨] .

إن الأفكار التي تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفي . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية فى التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحريته بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصى على العرش كان متسامحا ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار وسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الافصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذى انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكار يستطيع أن يأتى بها رجل ذكى بسهولة ، ولكن ينبغى على الرجل الحصيف الحذر ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ماريفو الحريص « يجدر أن يضن الإنسان بمجهوده فى مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عند ما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء »[٦٩]

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

الشهرة فى المجتمع وفى الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دى تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراءه فى لابريد فلم يكن من العسير أن يقع فى شراك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتاقت نفسه إلى مارى آن دى بوربون أخت الدوق دى بوربون الذى أصبح رئيسا للوزارة فى ١٧٢٣ . ويروى من أنه ألف من أجلها شعراً منثورا « معبد الحب » (١٧٢٥) عامرا بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكى بطبعها . وبذل المساعى وبخاصة عن طريق مدام دى رى ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم فى باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلى عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الاربعين الخالدين (١٧٢٨) .

وفى أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وأراضى الراين وهولنده ، وإنجلتره . التى قضى فيها ثمانية عشر شهرا (نوفمبر ١٧٢٩ — أغسطس ١٧٣١) وهناك عقد أواصر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضوا فى الجمعية الملكية فى لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية) ، واستقبله الملك جورج الثانى والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطانى . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الاعجاب — مثل فولتير — بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه . وآوى إلى لابريد ، وحول منتزهه إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ — فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس — لأبحاثه وكتاباته التى شغلت بقية أيام حياته .

٢ — لماذا سقطت روما

فى ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع . ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات فى أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالمخطوطة إلى عالم يسوعى ، ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذى صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعا قديما معقداً وكان محافظا نسبيا فى سياسته ولاهوته . ولم يستسغ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط الخلقى سببا للاضمحلال القومى ، ولم يكونوا مستعدين ليقدروا عمق التقدير الحكمة الرائعة فى عبارات مثل « أن الذين لم يعودوا يرهبون القوة فى مقدورهم أن يظلوا على احترامهم للسلطة » . [٧٠] وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة فى فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسى تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض فى نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية — وهى عملية الفناء أو الانحلال الذى يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور فى الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه فى أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت فى فترة طويلة من الاضمحلال فى الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالوث المدنس : فولتير وديدرو وروسو — لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكرى والعقلى فى القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت فى حقيقة أن مونتسكيو ، فى ايضاحه وشرحه لمجرى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانبا فى هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التى نجدها فى كتاب بوسيويه « بحث فى تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها فى الفضاء : « ليس الحظ هو الذى يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها فى كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص بعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذى قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحـــدة . وصفوه القول إن الحركة العامة تجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة(٧١) .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد فى التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » فلو أن قيصر وبومبى فـكرا مثل ما فـكر كاتو (سعيا فى الابقاء على سلطة السناتو الرومانى) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفـكارهما . وعند ذاك كانت الجمهورية التى كان مقدراً عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيد أخرى »(٧٢) .

ولـكن « القـــدر » ليس توجيها روحيا أو باطنيا ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلسفيين ، فى رأى مونتسكيو ، هى الـكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة (فى نظره) يرجع أولا إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحـكم بلاد تابعة لها ، ولـكنها تركز كل الحـكم فى مدينة واحدة فى يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . وبمرور الزمن انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسى : انتشار الخنوع والخمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء فى أن تعولهم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور ، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكرى وسيطرة الجيش على الحـكومة المدنية ، إيثار الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعهم عن حـــماية الحدود من هجمات المتبربرين . . . . ومن الجائز أن مونتسكيو — على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية — لم يقم كبير وزن لتغيير الديانات ، الذى أكده جيبون سببا أساسيا لانهيار الامبراطورية .

ولكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسى فى اضمحلال رومه — وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن فى الوقت الذى حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت فى الاضمحلال مبادئ الحكم الجديد وهى مخالفة لمبادئ الجمهورية (٧٣) . ومهما يكن من شيء فأننا إذا عدنا إلى الفصل السادس لنتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التى قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة منوعة غريبه : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بذر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجا ، (فرق تسد) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم فى القضاء على أعدائهم ، وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء (٧٤) وواضح — أن مونتسكيو — ناسبا هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدردا مكيافللى فى جرعة واحدة — اعتبر فى الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلا أعلى للعظمة ، ورأى الامبراطورية منزلقا بهيجا للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة فى الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية فى ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنين الانطونيين » (٧٥) وهنا وجه مونتسكيو كلا من جيبون وريبنان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة فى تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضا أخلاق الرواقيين التى فضلها بصراحة ووضوح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان فى عهد الجمهورية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم فى تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون فى فرنسا .

ووقع فى الكتاب بعض أخطاء فى عمل علمى عجل به ضغط الوقت والرغبة فى إنجاز مهمة أضخم . فلم يكن مونتسكيو فى بعض الأحيان مدققا فى استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التى كتبها ليفى عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشى وقيصر ، ولكن فى مقابل مواطن الضعف هذه ، فأن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة فى أن يرسم فى صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهته ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين .

٣ — روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالى ١٧٢٩ ، وهو فى سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيله جانبية أو ثانوية اعتراضية . وفى ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقى من العمل نصبا وكأن به ميلا إلى تركه ، « كثيراً ما شرعت فى هذا الكتاب ، وكثيراً ما طرحته جانبا . وقلفت بالأوراق التى كتبتها ألف مرة . »[٧٦] وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضنانى الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبى البهجة والفتنة اللتين تدفعان بى إلى السير فى الطريق ، لقد عرفتهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عنى أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق »[٧٧] . ولا بد أن هؤلاء الربات استجبن لندائه ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة فى خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

وزهوه : لقد سلكت طريقي نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقدها ثانية . ولكن عند ما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتانى كل ما كنت أفتش عنه ، وفى غضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فانى سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أنى كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال فى فرنسا وألمانيا طرقوا هذا الموضوع قبلى ، تملكتنى الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتى ولم يزايلنى الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام »[٧٨] .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهينولت وفونتنيل ، ورأى هذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسى . [٧٩] وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسىء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشر كتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم[٨٠] . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهناك صدر الكتاب ١٧٤٨ فى مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبوه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله فى فرنسا . وفى ١٧٥٠ تولى ما لشرب — منقذ دائرة المعارف فيما بعد — شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنتان وعشرون طبعة فى عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغات أوربا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمى كتابه « فى روح القوانين » أو « فى العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا فى العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية ، وفى

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول ان يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمى » : أى – على غرار البحث فى العلوم الطبيعية – التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تنبؤات مشروطة للمستقبل . وكان عسيرا بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للأنثولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتأريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « – أى أصلها وطبيعتها ونزعتها – إنما يحددها أولا مناخ البلد وتربته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميما هى العلاقات الضرورية التى تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتى « بالقوانين الطبيعية » فى العالم المادى ، والاطرادات القياسية فى التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ – القانون الطبيعى ، الذى عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها »[٨١] أى « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلا . ٢ – قانون الأمم فى علاقاتها بعضها ببعض . ٣ – قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ – القانون المدنى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه فى الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم فى القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزرعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل فى تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية) . (إن بودين فى القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تبعه فيه بكل فى القرن التاسع عشر) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية فى الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق فى القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل المثال جرأة أكبر ، أى مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أى رغبة أقل فى الإنتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أى مزيداً من الصراحة وقدراً أقل من الأرتياب ومن الدهاء السياسى والمكر . لقد شهدت الأوبرا فى انجلترا وفى إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة فى كل من الأمتين ، فإحداهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبتهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق ، حيث تؤدى أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واتته الظروف ، أن يحقق رغباته الجامحة . . . » .

وفى البلاد الحارة نجد الماء الموجود فى الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذى يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية . أما فى البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلا ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التى بدونها قد يتخثر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذى حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخى . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة فى الجو [٨٢] . أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث فى البلاد الحارة يكن صالحات للزواج فى سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن فى سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجمالهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هذا المطلب . و إذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . ومن ثم ينبغى أن تكون

هؤلاء السيدات فى حالة من التبعية ، لأن العقل فى الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التى لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققاها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود فى هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفى المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتنهن على أكمل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجبن فى مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلاتهن فى الأقاليم شبه المدارية) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب فى أن الإسلام (مع نظام تعدد الزواجات) دخل بسهولة واستقر فى آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوربا ، وأن المسيحية استقرت فى أوربا وتحطمت فى آسيا . وقصارى القول ، هذا هو للسبب فى أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم فى الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلا[٨٣] .

وعند هذه النقطة يتبين مونتسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراسا منقداً : إن عقول البشر على أية حال خاضعة للعلة الأسمى ، الله ، الذى يفعل ما يشاء ، ويخضع كل شيء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتسكيو قد عراه الخجل .

وسرعان ما تابع تعمياته الطائشة . فنى « الشرق » ، (تركيا وإيران والهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزواجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال فى (بلادنا فى الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفى لتوجيهه وقيادته) [٨٤] . إنها لمتعة أية متعة أن تعيش فى مثل هــذه

الأجواء التي تبيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتي تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن في إدخال السرور والبهجة على الجميع [٨٥]) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغي أن تحاول في بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو القانونية — وينبغي لها أن تتحكم — في العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجابها في الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية) . والعادات والأعراف وظيفة الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل في حد ذاته . والعرف . في الجملة خير قانون ، لأنه تكيف طبيعي بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأنى ونسير بخطى وئيدة في تغيير العادة والعرف . وتأبى العادة أن تتبدل بالقانون عادة [٨٦] .

وحيث أن الموطن يحدد العادة التي تحدد بدورها الخلق القومي فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثي . وهي تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، وخضعت للحكم الملكي . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغي لأن السلطة الاستبدادية وحدها هي التي تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها [٨٧] . ويجدر أن تركز الملكية على (الشرف) ، أعني أنه يجب تصنيف سكانها في مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو إيثارهم بالحظوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده — أعني حب المساواة [٨٨] .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها : هل يتولاه قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا (البندقية) كجمهورية أرستقراطية . ويعدن الدول القديمة على أنها ديمقراطية وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح الحكم الذى أقامه وليم بن فى أمريكا . ويمتدح فى حماسة أكبر انشاء المناطق الشيوعية الدينية التى أسسها اليسوعيون فى باراجواى(٨٩) . والحق يقال على أية حال إن الديمقراطية الأمينة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية والسياسية معاً ، وأن تنظم المواريث والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة التصاعدية على الثروات (٩٠) . أن خير تلك الديموقراطيات هى التى يعترف فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التى تنتهجها بلدهم ، ومن ثم يقررون السياسة التى يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغى على الدولة الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة المتطرفة، حين يسعد كل مواطن أن يكون فى مستوى أولئك الذين اختارهم ليأتمر بأمرهم . . . وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة فى الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة فى ممارسة مهام الحكام الذين لا يعود لهم أى توقير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف بمداولات السناتو ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه . ولا احترام لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك الإذعان للوالدين أو الأزواج والامتثال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهـذا البلاء محاولين التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم ... وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بادارة الأمور بالإضافة إلى تكاسلهم وتراخيهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشىء من لهو الترف (٩١) .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين : تنقلب الديموقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك فى مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه خشى الاستبدادية التى ذهب إلى إمكان قيامها فى الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادى وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لويزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية [٩٢] » أى أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرات كفاية ومقدرة ليحمى قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التى أوردها لهذا شرقية بشكل يطمأن إليه ، ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد . حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الارستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطلقة [٩٣] » . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلا فرنسياً ، أن يهبطوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد فى الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكى الأرض والحكام الوراثين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعى بتفصيل شديد (١٧٥٣ صفحة) ، مضحياً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسيكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر الذى امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » . تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفى الصراع الذى استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد فى « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تحبيذه حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً - ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى الحكومة [٩٤] . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تسنها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . » وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

« في مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم وثرواتهم وألقابهم ، فإذا تساووا وخلطوا بعامة الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية في غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم في الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة في الدولة يكون لها الحق في مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة في الدولة ، كما يكون للشعب الحق في مقاومة أي اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداولاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها (٩٥) » .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباًبعضهم على بعض ، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها :

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجرنو وسيدني ولوك ، ومن الخبرة التي اكتسبها في انجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، في ملكية تكبح جماحها ديموقراطية في مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية في مجلس اللوردات . وظن أن المحاكم في انجلترا هي بمثابة كابح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ماكان قد رأى في انجلترا رقابة نشتستر فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالي حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الإستقلال عن البرلمان ، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر فى الأخذ بحق المتهمين فى انجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم فى هيئتهم . » إنهم كذلك لهم الحق فى محاكمتهم أمام نظرائهم (٩٦) » .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه فى السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والتزام فى الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، (التطرف) رسالة نافعة فى الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة فى أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور فى ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات وقيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة . بأنها » حق كل إنسان فى عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية (٩٧) » . واتفق مع زميليه جاسكون ومونتاني ، على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هى ، لأن الأسباب — هى غالباً معقدة أو غير معروفة — التى هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر فى الإبقاء عليها (أى على هذه الحكومة (٩٨)) .

ورفض فكرة المساواة فى الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جراتسى فى تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التى تكفى لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسره . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التى تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التى دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفى هذا الوضع يجدر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغى أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها (٩٩) .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة فى حماسة أخلاقية وتهكم لاذع [١٠٠] . واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة — المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضى : إن حق الدفاع الطبيعى قد ينطوى أحياناً بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام [١٠١] .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل أوربا ، فأصاب أمراءها وأغراهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ، ويصبح بالضرورة معديا ، فإنه إذا شرع ملك فى زيادة قواته ، فإن الباقين بطبيعة الحال يحذون حذوه . ومن ثم لا نجنى من هذا إلا الدمار الشامل [١٠٢] .

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده فى بعض الأحيان حلم مبادىء أخلاقية أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصى ولكنه يضر بأسرتى ، فينبغى على ألا أقدم عليه . وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصى . ولكنه يضر بأسرتى ، وليس لوطنى ، فيجدر بى أن أحاول أن أنساه . وإذا رأيت أن شيئاً ذا فائدة لوطنى ، ولكنه يضر بمصلحة أوربا والجنس البشرى فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية [١٠٣] » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادىء أخلاقية وديانة خفية هو مذهب الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادىء أكثر منها إلتئاماً مع الطبيعة البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أتخلى عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب الرواقيين محنة من بين المحن التى ابتلى بها الجنس البشرى . . . إن هذا المذهب وحده هو الذى صنع المواطنين . وهو وحده الذى صنع عظماء الرجال وهو وحده الذى صنع الأباطرة وإذا نحينا جانبا الحقائق التى

كشف عنها لحظة ، وفتشنا فى الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطراء انتزع منى أرجو ألا يجعلنى شريكاً فى جريمة الردة) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشرى [١٠٤] وواضح أن مونتسكيو حرص فى « روح القوانين » على مسالمة المسيحية إنه اعترف بوجود الله — فأى حق أفظع من قضاء وقدر أعمى خلق كائنات ذكية [١٠٥] . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجيه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين [١٠٦] » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقى لا يلتئم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيدا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية [١٠٧] » . وينبغى أن تكون الدولة والكنيسة رقيبة كل منهما على الأخرى ، كما ينبغى أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم [١٠٨] » . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل [١٠٩] . ولكنه أخضعه ، مثل أى شىء آخر لتأثير المناخ والخلق القومى : « إن حكومة معتدلة هى أصلح ما يكون للعالم المسيحى ، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامى . وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم فى هذا البلد الثانى ، وإذا أدخلت كان مآلها النبذ والرفض [١١٠] . . . . والمذهب الكاثوليكى أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية . . . . وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كثلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتنقون البروتستانتية ، على حين يظل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التى لا يكون لها رئيس بارز هى أكثر ملاءمة لهم [١١١] .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالا فإننا نراه يسهب فى نقده، واستنكر شراه رجال الدين فى فرنسا [١١٢] . ودون « أفظع احتجاج على محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم من أنه « إذا تجرأ أحد فى الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس فى أوربا فى عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لابد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين [١١٣] » وسخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ وألح فى أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح الدينى موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية فى اعتناق أو نبذ أى دين جـديد ، فينبغى أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه [١١٤] . ومع كل احترامه للرقيب ظل مونتسكيو عقلانياً « فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا [١١٥] » . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا ؟ .

٤ — النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضخماً فى الأدب الفرنسى ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانسـنيون واليسوعيون ، وهم على طرفى نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ماكر خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهى لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعترضة التى يضعها المؤلف ليقول لنا إنه مسيحى تؤكد لنا توكيداً هزيلا أنه كاثوليكى ، وإن المؤلف ليسخر من سذاجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . وختم المحرر حديثه بنداء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب [١١٦] . واتهم اليسوعيون مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز، بافتراضه وجود قوانين فى التاريخ مثلما هى فى العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالا لحرية الإرادة . ودافع الأب برتييه فى صحيفة « تريفو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليسا نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن ترتكز على مبادىء عامة من الله . لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومى [١١٧]

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر فى ١٧٥٠ « دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين »

وكان الفلاسفة الناشئون فى ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً فى المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض واعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح الدينى [١١٨] . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعى والمصاعب التى تعترضه [١١٩] . أما فولتير الذى كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ فى بحث « فى الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسى معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضوا فيها ، وسيكون العار عليه يوما ما ألا يكون عضواً فيها [١٢٠] » .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعترض بأن مونتسكيو كان مبالغاً فى تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت فى أرض اليهود الحارة ، وأنها لاتزال مزدهرة فى النرويج القارصة البرد ، ورأى أنه من الأرجح أن انجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنرى الثامن كان فاترا [١٢١] . وإذا كانت روح الحرية نشأت — كما ذهب إليه مونتسكيو ، فى الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولنـدية القوية ، أو « حق اعتراض » ، اللوردات البولنديين (وفى القاموس الفلسفى) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً أكبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير [١٢٢]) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شىء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان فى رسائله إن الذى سره فى الباريسيين هو خلقهم الوقور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغير فى المناخ ، أطفالا لعوبين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، فى نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، فى لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لاذعاً (١٢٣) .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقباض أو الاكتئاب ، وهو عكس ما يرددونه فى كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس فى المناطق الحارة جبناء مثل العجائز ، أما فى المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان فى مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا فى ثمانين عاما من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها (١٢٤) .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أقنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة فى ، « روح القوانين . . . » وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذى اضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه فى المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا فى هـــذا الموضوع كانت كتاباتهم مملة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأت إحدى السيدات (مدام دى ديفان) وهى تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء فى القوانين » ، وهو أصح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخرافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالما ، ولكنه كان دائما على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدى الرقيق . أن أوربا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام (١٢٥) .

وأضاف فى موضـــع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو (١٢٦) .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض على

مبالغاته (١٢٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً ، مع قليل من المنطق في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه . وفي تحمس مونتسكيو ليكون عالما ، يجمع الحقائق ويفسرها ، لم يعد فناناً . أنه ضيع الكل في الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء في كل منسق . وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه في نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها — مثال ذلك أيرلندة الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخلى من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادىء الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لابد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي ، وأن تاريخ كل الأمم ليس إلا نتائج لهذه المبادىء » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتسكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » في حكومة انجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطى على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لابد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عانى من من شظايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتسكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذى كتبه عن الحكم الاستبدادى المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تفاقم ضعف بصره مما إضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراق والروعة في الرسائل الفارسية . ويروى فولتير أن في « روح القوانين من العبارات الساحرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس في فينيسيا مقترون غاية التقتير إلى حد أنه من أجل المومسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود (١٢٨) » . وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو في بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز .

وكان مونتشكيو متواضعا كما كان مصيبا في أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعة وهدفه . أنك لكي تعثر على قوانين في القوانين ، وعلى نظام في تنوعها تبعا للمكان والزمان ، ولكي تعمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس — فهذا عمـــل جليل ضخم تقتضي ضخامته وجلاله الصـــفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر في نفس هـــذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من من المعاونين في البحث ، وبسبب نفس الرغبة في استخلاص أحكام عامة ، ولـكن كلنا المحاولين كأننا زيادة في الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان . أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (•) بالتأليف في هذا الموضوع ، ولـكنه عجل بوضع المنهج التاريخي بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق فولتير في وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة في الرأى لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر (١٣٠) واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزانا في هذا العصر (١٣١) ورأى هوراس ورلبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الاطلاق (١٣٢) وقد لا يكون هذا صحيحا ولـكنه أحسن كتاب ظهر في هذا الجيل .

لقد أنهك هذا الكتاب مؤلفه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الـكتاب قتلني . سأخلد إلى الراحة ولن أعمل شيئا بعد الآن (١٣٣)

(•) أبقراط : الهواء والماء والأماكن . ارسطو : دساتير أثينا . ميكافيللي : المقالات . بودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لى هى خير علاج لـكل خيبة أمل فى الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة [١٣٤] .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التى كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (١٧٤٨) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي . اننا نجده فى مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعندكل شبابنا المتأنق [١٣٥] ورحبوا بالمؤلف من جديد فى الصالونات واستقبلوه فى البلاط الملكى ، ولكنه قضى معظم الوقت فى لابريد حيث قنع بأن يكون سيدا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفى سنيه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لى أن الأثر الخفيف من البصر الذى بقى لى ليس إلا فجر اليوم الذى تغلق فيه عيناى إلى الأبد [١٣٦] وفى ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانهاء إيجار بيته هناك ، ولـكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوى وقضى نحبه فى ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو فى السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذى شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللا أدرية [١٣٧] وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جيبون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه . وليست روح البحث والتحيق التى أثارها أقل مآثر الـكاتب علينا [١٣٨] » وكان جيبون وبلاكستون وبيرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامير ، ورأت كثرين الـكبرى أنه ينبغى أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك [١٣٩] واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الامريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الـكونجرس كذلك.

وتضمنت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين فى الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض أعجابهم بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو [١٤١] وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله فى فرنسا .

الفصل الحادي عشر

فولتير فى فرنسا

١ – فى باريس : ١٧٢٩ – ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان – ان لى – على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندا مين حسب أن من يشترى كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (١) وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشترى أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدير الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجليز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الآنسة ليكوفرير » ، والصفحات الأولى فى الغادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخا ، ولم يكونوا بعد فى فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدا للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة فى أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحداه ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة فى تلك الليلة ، ولم تكن مرثيته فى ليكوفربر قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على الملأ على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طنينها المزعج حول رأس فولتير .

وفى ١١ ديسمبر وكأنما كان فولتير ظمآنا إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيوس جينيوس بروتوس الذى أطاح طبقاً لرواية ليفى بعرش الملك تاركينيوس وأسهم فى إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيتهم وعدم جواز انتهاك حرماتهم ، ونادت بحق الشعب فى تغير حكامه . وشكا الممثلون من أن الرواية خاليه من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسحبت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاما أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفى نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكى بنشر « تاريخ شارل الثانى عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسيء إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة فى الوقت الذى ألغى فيه الترخيص الملكى دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختتام فأبلغ أنه قد حدث تغير فى السياسة الخارجية مما كان لزاما معه ارضاء غريم شارل الثانى عشر وضحيته ، وهو أوغسطس « القوى » الذى ما زال ملكا على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متنكراً إلى روان وباشر طبع تاريخه سراً . وفى أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس فى حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماه بعض المؤرخين الواسعي الاطلاع رومانسية ، وفى أسلوب مشرق بارع فى السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق فى التفاصيل[٢] ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانسلاس ، ماريشال دى ساكس دوقة مالبرو ، بولنجبروك ، آكسل سبار (الذى اشترك فى معركة نارفا) فونسيكا (طبيب برتغالى كان يعمل فى تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتز وزير شارل ذى الحظوة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال ، وفى ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء فى الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة فى الوصف التفصيلى للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون[٣] فى أن فولتير بالغ فى تقدير شارل على « إنه الرجل الاكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع فى شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب فى إفراط زائد[٤] وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، لقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط فى التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوبا وعددها ، ومنها التبذير والتهور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلا شاذا استثنائيا لا رجلا عظيما[٥] » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملا ثقافيا فحسب ، بل عملا فنيا كذلك — من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المتعلمين فى أوربا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفا مقيما

على الكونتيس دى فونتين مارتل فى قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ، وقد وجدت فى رفقته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣ وترأس فى حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التى كانت تقيمها ، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفى أثناء إقامته هناك كتب نص « أوبرا شمشـون » لرامو — وهو ملحن فرنسى فى القرن الثامن عشر (١٧٣٢) — ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس فى « المسرح الفرنسى » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح الباهر الذى لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له : « ما مثلت رواية بمثل الروعة التى مثلت بها زائير فى عرضها الرابع . وكم وددت لو أنك كنت معى لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ، وظهرت فى المقصورة ، واتجهت كل الأيدى بالتصفيق لى ، فأستحييت وخبأة نفسى . ولكنى أكون مرائياً إذا لم اعترف لك بأنى قد اهتزت مشاعرى وتأثرت كثيراً [٦] .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . إنها كلها ليس لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولـكننا يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جميعاً دوراً مثيراً كبيراً فى حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون فى صباها فى الحروب الصليبية ، ونشأوها على العقيدة الإسلامية ، وهى لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهى الآن غادة فاتنة فى حريم السلطان أوروزمان فى بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هى به حباً . وفى مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيا على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفى رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا فى تحـديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة فى أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الـكنج لعبدت أوثان الهند . وإذا ولدت فى باريس لـكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أيدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتنا

وتعليمنا هي التي تنقش على قلوبنا الفضة تلك الأحرف التي ينفحها الزمن ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة فى عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله (٧) .

ويصور فولتير أوروزمان رجلا يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويذهلون إذ يرون مسلما وقوراً مهذباً مثل المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن يحتفظ بحريم ، ويعد بالاقتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أبياتاً عامرة فى جمال الحياة المسيحية الحقة . وهناك أسير مسيحى آخر هو نير ستام ، وقع فى الأسر فى طفولته كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدى بالمال عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص . ويكافئه أوروزمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين . ولكن نير ستام يحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم ، ومكان هـذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ — ١١٨٧) . وتناشد زائير السلطان أوروزمان أن يطلق سراح لوسنيان ، فيجيبها إلى طلبها . إن الملك العجوز يعتبر زائير فى منزلة ابنته ونيرستام فى منزلة ابنه . إنها الآن موزعة بين حبها للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخيها وعقيدتهما المسيحية . ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أواه يا إبنتى ، فكرى فى الدم الزكى الذى يجرى فى عروقك ، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلى ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أمك ، إنك لا تعرفين أنه فى نفس اللحظة التى ولدت فيها ذبحها أولئك المتبربرون الذى تعتنقين دينهم البغيض على مرأى منى . إن إخوتك والشهداء الأعزاء يمدون إليك أيديهم من السماء ، يريدون أن يحتضنوا أختا لهم . آه يا ابنتى ! تذكريهم ! إن الرب الذى خنث عهده ، لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجـل البشر جميعاً . انظرى إلى الجبل المقدس الذى قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التى نهض منها ظافراً منتصراً . فى كل طريق تمشين فيه ستـرين خطوات الرب ، هل

تنكرين خالقك ؟ زائير : . . . . يا إلهي العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا أفعل ؟ لوسنيان : . . . أذهبي عني العار والحزن بكلمة منك ، وقولي أني مسيحية . زائير : إذن يا إلهي ، أنا مسيحية . . . . .

لوسنيان : أقسمي بأنك ستحفظين هذا السر الخطير ».

زائير : اقسم لك على ذلك [٨] .

ولما علم نيرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير في قتلها ، ولكن رق قلبه ، وألح في قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان الذي لم يكن يدري أن نيرستام أخوها ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجيء زائير في الموعد المضروب ، ويطعنها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين ليسا إلا أخاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعة ببراعة ، مبسوطة بطريقة مسرحية متماسكة وهي تمثل في شعر سلس موسيقي . وإننا لندرك من خلال القطع العاطفية التي تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب في أن باريس أغرمت بزائير وأوروزمان ، وفي أن الملكة الصالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل المسرحية للحاشية في فونتنبلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت بسرعة في انجلترا وإيطاليا وألمانيا . ونودي آنذاك بفولتير أعظم شاعر على قيد الحياة في فرنسا ، وخلفاً صالحاً لكورني وراسين . ولكن هـذا لم يرق في عيني جان بابتست روسو ، وهو شاعر فرنسي مقيم في المنفى في بروكسل ، فحكم على زائير بأنها « مسرحية تافهة فاترة . . . مزيج كريه من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً في معبد الذوق ، يشهر فيه بروسو ويمجد موليير .

وبلغ فولتير ذروة المجد وعانق النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل . ففي شتاء ١٧٣٢ — ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع صحبته مستقبلا موبرتوي Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile » ونقح زائير وشارل الثاني عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر » ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه « رسائل عن الإنجليز » وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراحات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغاني الحب — وكلها تتسم بالظرف في نظم رقيق مصقول . وعندما ماتت مضيفته السخية ، مدام دى فونتين مارتل ، انتقل إلى داره فى شارع (لونج بزان) واشتغل بتصدير القمح . ومذ جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبرييل اميلى لى تونلييه دى برتيل مركيزة دى شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك فى السادسة والعشرين (وهو فى الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهى ابنة البارون دى برتييه ، ولذلك تلقت تعليما غير عادى . حتى أنها فى سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخيا ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت فى سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدى موبرتوى . وفى التاسعة عشرة تزوجت المركيز فلورنت كلود دى شاتيليه لومونت ، وكان فى الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد منهما يرى الآخر إلا لماماً ، حيث كان هو عادة مشغولا مع فرقته ، أما هى فبقيت قريبة من الحاشية وقامرت بمبالغ طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سماً ، وأنقذوها على كره منها بواسطة عقار مقيء ، واحتملت فى رباطة جأش جربتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دى ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة تقلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث فى الرياضيات والفلك والشعر اللاتينى . ولم تكن مفاتنها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، فى وصفها ، استمع إلى مدام دى دفان وهى تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أوراك لها ، صدرها هزيل ؛ . . . ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صــغير جداً ، وقسمات حادة ، وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة . سمراء البشرة أسنانها رديئة (٩) » واتفقت معها المركيزة دى كريكى فقالت « إنها عملاقة ـ ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلا عن ذلك آية فى القبح والبشاعة ، وكان جلدها فى لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشبه فى جملتها جندياً طويل القامة قبيح الصورة . ومع ذلك تحدث فولتير عن جمالها (١٠) » . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سراً عند ما كانت فى الثانية والأربعين . وليس لنا أن نثق فى رأى السيدات بعضهن فى البعض الآخر . وقد يتبين من صورها الشخصية أن اميلى كانت طويلة القامة مسترجلة ، ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ، وقد نشعر بشىء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدراً شهوانياً ولـكنه راسخ (١١)) .

ويمكن أن تكون أميلى قد كان فيها ما يكفى من الرجل ليكمل المرأة فى فولتير . ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها ـ مستحضرات التجميل والعطور والمجوهرات والحلى والخرمات . وسخر فولتير من ولعها بالتزين . ولـكنه أعجب بتحمسها للعلوم والفلسـفة . فهنا سيدة استطاعت حتى فى غمرة الصخب والضوضاء فى باريس وفرساى أن تنسحب من مائدة القمار ، لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك وهى التى ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة فى وقت معاً . وفى ١٧٣٤ اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذى ترتضيه عشيقاً لها : (يا إلهى ! أية لذة ومتعة أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التى أحبها (١٢) !

٢ ـــ رسائل عن الإنجليز

فى عامى ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه فى عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من انجلترا إلى تيريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت فى لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية . ولكن كان فى طبع الأصول فى فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . وخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً فى روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن فى أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفى نفس الوقت كان فولتير ومدام دى شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجي بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو .

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية فى إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أوتخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمدوك ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتى » . وصحت فى وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب فى صوت هادىء خفيض يابنى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » « ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لا نرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمد المسيح ؟) فرد قائلا : يا صاحبى ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمد المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً . . . ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق فى بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبته (لم يكن لى شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أنت مسيحي دون ختان ، وأنا مسيحي دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً ، ولا كلابا نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذى أمرنا نحب أعداءنا يقينا لا يريد منا أن نعبر البحر لنقتل إخوة لنا ، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثيابا فى لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة باثنتين من العصى ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها فى الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثى فى صمت للمذبحة التى أدت إلى مثل هـذا الابتهاج العام[١٣] .

لقد أوذيت فرنسا أيما إيذاء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير فى وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية فى إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزى ، باعتباره حرا يسلك إلى السماء الطريق الذى يختاره . »[١٤] ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليز وأقرانهم الفرنسيين ، وهنأ الإنجليز بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الانجليز ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأغانى الرقيقة ويقيمون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل . »[١٥] وفى الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة فى فرنسا : « إن الأمة الانجليزية وحدها هى التى عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها فى وجههم . . . وأخيرا أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة فى أن يفعل الخير ، على حين تغل يداه عن الإتيان بأى شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فنيلون « تلياك » . ان إقرار الحرية فى إنجلترا تطلب ثمناً غالياً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادى المطلق فى بحر من الدماء ؛ ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التى أريقت دفاعا عن قضية الحرية لم تكن إلا تثبيتاً لعبوديتها[٢١]

إن حق التحقيق فى قانونية حبس المتهم فى إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما فى فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاما ، رأى فولتير « فصل السلطات فى الحكومة الانجليزية وامتدحه وبالغ فيه ، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العموم . وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » « وأنه لا يعفى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »[١٧] وفى إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما فى فرنسا فإن التاجر غالبا ما يسمعهم يتحدثون عن مهنته فى ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحمق إلى حد الشعور بالخزى والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدرى أيهما أنفع للدولة — نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير فى لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم فى اسعاد العالم بأسره[١٨] وأخيرا فى قطعة تضمنت برنامجا لفرنسا ذهب فولتير إلى : "أن الدستور الإنجليزى بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرمون منها فى سائر الملكيات تقريبا . وهذه الحقوق هى الحرية الكاملة فى أشخاصهم وفى ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح فى القانون ، وحق كل إنسان فى اعتناق العقيدة التى يرتضيها دون إزعاج . [١٩]

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقا من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية ، وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأى العام فى إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالما والثانى حكيما . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستسغ الدوامات الكونية عند ديكارت . إنه أقر بأن ثمة شيئاً وهميا غامضا ، أو على الأقل مخدرا فى مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها [٢١] إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصا يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين فى الحكومة وفى ميدان العلوم لتشييع جنازته ترك فى نفسه أثرا عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضا غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيرا صدم فولتير الفكر الدينى فى فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا فى رسائله ، فليس لهذا علاقة بانجلترا : ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تيير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسنيين — الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس — ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) فى استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان فى هذه المرحلة (اللهم إلا فى رواياته) عقلانيا متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالا للوجدان فى فلسفته . وكان لا يزال شابا ممتلئا حيوية ونشاطا ينعم بالحياة وسطه محنه البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكئيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشرى ضد هذا المبغض للبشر المهيب » [٢٢] ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملا صبيانيا يجافى الحشمة والوقار . . . إن اهتمامى بالاعتقاد بشىء ليس برهاناً على أن هذا الشىء موجود » [٢٣] ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس فى مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام فى الدين وفى السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة فى إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم إنجلترا سوطا يحرك به الثورة فى فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها فى البلدان المتحضرة يضفى على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية فى أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذى اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجبزوك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا » [٢٠] ثم أردف يقول « إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التى قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للنهوض بالبحث العلمى . وتلك هى الفكرة التى حدت بديدرو ود المبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التى وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كامنة كاملة حتى انه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربى عن الإلهام الإلهى إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك فى انه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلوق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير فى الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تنبأوا فيها بمادية لامترى وديدرو . ورفض فولتير ان يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولا شىء غير هذا » .

« أشارت الرسالة الرابعة عشرة على الفرنسيين أن يتخلصوا من ديكارت

الإنسان ، ولكنه ارتاب فى أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحي الذى جاء به الرسل . كما أنه لم يحس فى هذا العصر المرح المفعم بالحيوية بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان [٢٤] » .

وليست « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعدها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونه — على نضارة تفاؤله الفتى . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة فى الأدب الفرنسي والفكر الفرنسي . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا مميزا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسي من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فانها أحكمت حلقة من أقوى الحلقات فى الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهى كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد فى تاريخ القرن الثامن عشر » [٢٥] إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل انها قامت بدور كبير فى إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت انها صيرته جمهوريا وهو فى التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء » [٢٦]

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطيقون صبراً على مثل هذه الجراح الكثيرة فى صمت ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفى ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولكن من

المحتمل أن موبرتوى ودار جنتال كانا قد حذرا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان فى ١٠ يونيه أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام فى فناء قصر العدل باعتباره عملا شائناً ينافى الدين والأخلاق القومية ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلى اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمى بأنه فى السجن وهو فى مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحبذ ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة والدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه الكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الأختام هذا أحد موظفى الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما فى الكتاب من مآخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلا عن أن الكتاب الذى برئ من تأليفه وزع دون موافقته . وكتب فولتير إلى الدوقة دى ايجوبون :

يقولون إنه يجب على أن أتراجع . . . بكل سرور . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض وإن الرهبان ليسوا متغطرسين ولا منصرفين إلى تدبير الدسائس ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هى انتصار للإنسانية والتسامح [٢٧] .

وألغى أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فتنقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين ، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة فى بلاط هولشتين مع معاش قدرة عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض[٢٨] وفى يوليه أوى إلى قصر مدام دى شاتيليه فى سيرى

فى شمبانيا . وهناك وهو الضيف الذى يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ أسعد سنى حياته .

٣ — أنشودة الحب فى سيرى ١٧٣٤ — ١٧٤٤

سيرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً فى مقاطعة المارن الأعلى فى شمال شرق فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس ابنة أخى فولتير ١٧٣٨ بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من العمران فى منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرض غير المزروعة [٢٩] وربما أحبها فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها لدراسة العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحقته فإنه يستطيع الانطلاق منها هربا إلى اللورين فى ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر طللا متهدما من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه آل شاتليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم المركيز باصلاحه ، أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة قدرها ٥ ٪ للقيام بالاصلاحات اللازمة ولم يطالب المركيز قط بسداد هذا القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ، وأشرف على ترميم بقية القصر . وفى نوفبر وصلت المركيزة ومعها مائتا حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها الخاص ، وأقامت هناك — وهى التى كانت قضت معظم سنى شبابها بين الحاشية الملكية أو قريباً منها — منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقها فى وقف معا . وأقام المركيز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين حتى ١٧٤٠ ، محتفظا لنفسه فى لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها باخلاص العشيقين .

وفى ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو فى معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة (٢ مارس ١٧٣٥) فقصد إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولـكن ماضيه لاحقه . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم يتمالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كما نشر أحد الناشرين اللصوص « رسالة إلى أورانيا » ، وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشرة سنة . وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولـكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف ، فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها فى حيطة وحذر إلى سيرى . وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . ولحقت به مدام دى شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيرا بدأ شهر عسل فلسفى .

وكان لكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبى القصر . وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب ، مكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران بنسيج من المخمل الأحمر المنقوش ، وازدانت بالاوحات التى اقتنى منها فولتير مجموعة ثمينة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكيوبيد وهركيوليز . ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فردريك ولى عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافينى . كانت النظافة تامة فى هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » (٣١) أما جناح المركيزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقا : اللون الأصفر الفاتح واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز ووأتو ، وصورة السقف وارضيته من الرخام . ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والخواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك فى حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتى الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معملا للفيزياء والكيمياء . فيها مضخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار ، لم تكن مؤثثه تأثيثاً جيداً . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

تتسلل إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك فى اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (الكورد = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك مسرحا لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة فى رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية ، ويغنوا بالأوبرا ، أحيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان صوتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالفانوس السحرى ، قرنهـا فولتير بتعليقـات أغرقت الحاضرين فى الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل فى نطاقه ، ولو أنهما تعاونا أحيانا فى العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر فى أثناء النهار إلا فى وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . وإنا لنرى فيه بحق عدئنا متماعتنا بالحيوية ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة فى أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث التافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه فى الحديث يزعجنى كثيرا ويجدر بنا ألا نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت [٣١] وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا فى الرياضة .

وجدير بنا ألا نصور الرفيقين الفلسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشىء عنيفة مقترة مع خدمها وكانت تحتج إذا تقدم فولتير أجراً أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شىء فى جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا لخلع ملابسها جميعا أمام سكرتيرهما لو نجشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى فى الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التى يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى [٣٣] أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التى ستتكشف فى الوقت المناسب . كان شاعرا مزهوا وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب صيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدوئه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته الحادثة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع فى فن محكم . وكانت إحدى هذه الدرر الأدبية مع خاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هذه القسمات ليقع عليها بصرك . أنظرى إليها لتقرى عينا بها . أما صورتك فهى منقوشة فى أعماق قلبى بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . [٣٤] » .

أما هى فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقنى الألم [٣٥] .

ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هى أكثر انصرافا إلى العلم وانكبابا عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور فى إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذى لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحقة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دى جرافينى ، وكانت ضيفاً عليها فى ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضى معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل فى مكتبها . وفى بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً . [٣٦]
وكان موبرتوى يأتى من حين لآخر إلى سيرى ليتابع دروسه لها فى الرياضيات والفزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالاضافة إلى إعجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هى التى أثارت الغيرة فى قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملاكمة والشجار بينهما فى برلين .

وهل كانت دى شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم سبيلا للأناقة ومجاراة مقتضيات العصر . ورأت مدام دى ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكى ، أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلاها لا تحتمل . والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفته[٣٧] ولكن استمع إلى مدام دى جرافينى وهى تصف لنا جلسة فى سيرى .

« فى هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزى حالم . . . وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت لحظة عند كل عبارة ، وكأنى بها تتفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، إنها ترجمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف فى شىء . ألا يثير هذا الدهشة حقاً ؟ [٣٨] .

وأكد فولتير لتيبريو أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الانجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا [٣٩]. وذات مرة بزت العالم الفيزيائى وعضو الأكاديمية دى ميران فى مناقشة عن الطاقة الحركية[٤٠] وقرأت شيشرون وفرجيل فى الأصل اللاتينى وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالانجليزية ، وعندما زار الجاروتى سيرى تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتابا من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الانجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة فى الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلا عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هى الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتى العقلانى ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كليرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضا موجزا لنظام العالم لنشر فى ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادىء فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) [٤١] وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هى سرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها ، وكتبته فى الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أنى فى بحثى عارضت كل آرائه تقريبا [٤٢]) ولم يفز أى منهما بالجائزة التى حصل

أولر . ولكن الأكاديمية طبعت مقاليهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر في نشوة الحب العقلي .

ومن أجل موضوعه هو . قام بعدة تجارب بعضها في معمله وبعضها في مسبك في شومون المجاورة [٤٣] ودرس فولتير التكلس وكان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين[٤٤] . ونراه في مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو في باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيري لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولكن كان على هذا الكيميائي أيضا أن يتلو القداس في أيام الآحاد والعطلات في كنيسة القصر [٤٥] . أنه من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب في ١٧٤١ ينبغي أن نعتقد في صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجدر أن أن نكتفي بالقول بأننا لا نعرف [٤٦] . فالفلسفة كانت تعني عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح في مؤلفه « مبادىء فلسفة نيوتن » أملا في الترخيص الملكي بنشره ، ولكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة في أستردام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك في عام ١٧٤١ ،وكانت عبارة عن مجلد ضخم يضم ٤٤٠ صفحة ، نموذجا رائعا لما يسميه الفرنسيون «دون تعمد الانتقاص من قدره» تبسيطا، أي محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنوانا فرعيا وضع ليكون في متناول الجميع . وغير الراهب ديفونتين هذا العنوان الفرعي في نقد غير ودي إلى « عويص على كل الناس» وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الكتاب بل أن اليسوعيين تقبلوه بقبول حسن في صحيفة تريفو [٤٧] . وهنا طردت الجاذبية الكونية التي كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضا لبصريات نيوتن ، وتحقق من التجارب في معمله الخاص ، وحاول إجراء تجارب أخرى من عندياته ، وحاد عن طريقه قليلا ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمان بالله . وفى نفس الوقت أكد شمولية القانون فى العالم المادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لفولتير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق فى أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصا ثريا متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والانهماكات الانسانية فى الشئون الأساسية فى عصره «يجب أن نهيىء الطريق فى حياتنا لكل أساليب المعرفة والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنفذ إلى نفوسنا ، فإذا لم تتبدد هذه شذر مذر فإن هناك مكانا فسيحا لكل شىء [٤٨]» وهكذا كتب فى ذلك الوقت (١٧٣٤) بحث فى الانسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب فى نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير فولتيرية «كل شىء صواب [٤٩]» . ونظم فى هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعا لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته فى رسالة فى الميتافيزيقا . وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة فذة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائراً وافدا من كوكب المشترى إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين أرائه وبين ما جاء به الكتاب المقدس . وحط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم ينتقل إلى الهند ليجد أناسا صفر اللون ذوى شعر سبط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحدر كلها من أصل أو سلف واحد [٥٠] ويحكم من مظاهر النظام فى العالم ومن التركيب الهادف ذى المعنى فى أعضاء الحيوان بأن هناك ربا ذكيا يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلا على وجود نفس خالدة غير فانية

فى الانسان ، ولكنه يشعر بأن ارادته حرة . وقبل هيوم وآدم سميث بزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض ، وقبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضا نرى فولتير يحدد الفضيلة والرذيلة بما هو مفيد وغير ضار بالمجتمع [٥١] وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذى نظمه فولتير فى تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الكلام الفرنسى والأدب الفرنسى كانا أكثر تحررا آنذاك منهما فى النصف الأول من القرن العشرين . ولقد رأينا نموذجا فى الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لا فى الجواهر المنظومة فحسب ، بل فى جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا قورنت جان دارك بهذين الكتابين كما نشرها أخيرا فولتير فى ١٧٥٦ ، لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذى جرى تداوله سرا كان أقرب إلى أسلوب رابيليه ، ودافع كوندرسيه الوقور الرزين عن القصيدة وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفى الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب [٥٢] ، ووجد فى القسم الحادى والعشرين من القصيدة بعد بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة فى فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين فى زمانه يرى فى جان دارك بنتا فلاحة بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنه غير شرعية استسلمت للخرافات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب فى أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الانجليزى حتى ولو لم تولد هى قط . وفيما عدا هذا ومع التسامح فى بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة مع تمليحها ببعض الدعابة ومال الملك برأسه نحو جان الباسلة التى لا تهاب شيئا ، وقال فى صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هى وحدها ، أنصتى إلى ياجان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمى اليمين ، فأجابت : مولاى العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم، ورجال الدين والصيادلة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل فى الأمر، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلقت وحيا، وأنها تتمتع بنعمة العذوية المقدسة المباركة، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء، ما دمت تعرفين كل شىء فأخبرينى ماذا حدث بينى وبين زوجتى فى الفراش فى الليلة الماضية؟ أتوسل إليك تحدثى بصراحة. فقالت جان لا لم يحدث شىء. فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال: أنها معجزة، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا (٥٣).

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعاً أو مقطعين من جان دارك رغبة فى تسليتهم، وليبعث الدفء فى أمسيات الشتاء الباردة. وكانت مدام دى شاتيليه تحتفظ بالمخطوطة الضخمة فى خرز أمين، وسمح فولتير فى استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون. وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية — لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع فى بعض أجزائها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش — من بواعث القلق والهموم التى أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته.

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا فى الزير Alzire» التى بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسى فى ٢٧ يناير ١٧٣٦. وحققت التاريخ المسرحى بارتداء الممثلين الثياب التى كانت سائدة فى الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية — الغزو الأسبانى لدولة بيرو وسلبها ونهبها. ويتوسل الفاريت الحاكم الأسبانى للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول «نحن سوط العذاب الذى انصب على هذه الدنيا الجديدة، نحن عابثون جشعون ظالمون ... نحن المتبربرون وحدنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء، ولو أنهم عنيفون

بطبيعتهم . فانهم شجعان بواسل مثلنا ، ولكنهم يفوقوننا فى الميل إلى الخير وطيبة النفس [٥٤] . وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣٫٦٤٠ جنيها ، وتنازل فولتير عن نصيبه من دخل الرواية للممثلين .

وفى ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فردريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقة فاجعة . وفى نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدنيوى » وكأنما كانت رداً مسبقاً على رسالة روسو « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالحالمين الواهمين الذين يضفون المثالية على الإنسان البدائى غير المتمدن الودود الصاعد « أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة » هربا من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع فى الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعانى من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة فى المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة فى الفقر ، أو أى انسجام بين الجرائيم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم خمور « وأنا من جانبى أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتى أنجبتنى فى هذا العصر الذى يحط من قدره نقادنا الذين تعروهم الكآبة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم كل الملاءمة لحياتى فأنا أحب الترف والبذخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلا لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبى العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقذار ، وان شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما . . . . وعبثا حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هى التى أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق فى أعين رجال الدين الصورة التى رسمها فولتير لآدم وحواء ، وأصروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقروا فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالت الأصوات مطالبة بالقبض على شيطان سيرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل . وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سيرى واميلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى التاجر ريفول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير تكريماً له . وحذر جان بابتست أهل بروكسل من أن فولتير جاء إليهم ليبشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المركيزة آنذاك الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبت إلى دار جنتال : « منذ اسبوعين فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين ، وكنت أكتب إليه من غرفتى إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها » وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧) وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام فى فرنسا التى تلاحقه وتطارده على هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل مواهبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بممتلكات المركيزة . ثم قصد هو وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتى محمد وميروب إلى مسرح الكوميدى فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة ليبنتز . وفى سبتمبر عادوا إلى سيرى ، ثم قصدوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر ١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان قد أصبح ملكا ، ورفض أن يدعو إميلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة ١٥٠ ميلا مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فلبرى ، وسنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت اميلى فى نفس الوقت إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة فى باريس ، وواضح أن سيرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كتبت إلى دارجنتال : لقد لقيت جزاء سنمار على كل ما فعلت فى فونتنبلو ، لقد ذللت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله فى الأكاديمية ، وصفوة القول أنى فى ثلاثة أسابيع استطعت أن أعيد إليه كل ما فقده فى ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافأنى على مثل هذا الاخلاص والغيرة ؟ أنه أبلغنى فى رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبى ويعذبنى عذابا لا يوصف ... لقد انتابتنى الحمى . . . وآمل أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التى تستبد بعقلى حين أحس بأن الحزن سيقتلنى ، هى فكرة الأسى العميق الذى ينتاب فولتير لموتى ؟... أنى لا أطيق أن أفكر فى أن ذكراى سوف تسبب له يوما الشقاء والألم ، ويجدر بكل الذين أحبوه أن يكفوا عن لومه .

وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكى ليلحق بعشيقته ، وفى طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره فى الموضوع :

« إنى أترك ملكا عظيما يكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ، لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فيزيقا وولف المسيحى (شارح ليبنتز) . أنى أنتزع نفسى من أعظم حاشية امتاعا وإيناسا فى أوربا من أجل قضية قانونية . أنى لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتنهد وأتأوه مثل أحمق معتوه بين يدى امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاى هجرت من أجلى كل شىء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أننى أسير فضلها فى كل شىء . أن الحب غالبا ما يكون سخيفا مضحكا ، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافى لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك (٥٦) .

والتقى ثانية باميلى فى بروكسل التى أصبحت بلدهما الثانى بسبب طول الاجراءات فى قضيتها . وفى مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد فى ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين ، ولكن عكر صفوهما شعور بأن جذوة الغرام قد بدأت تنطفئ . وكان حبها

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة فى التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه . وفى يولية ١٧٤١ اعتذر لها عن غيرته التى أخذت تذوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمر على الحب فعليك أن تعيدى إلى مساقات من زمان الحبيبين ، أعيدى إلى إذا كان فى مقدورك ، فجر الحياة ، وهى فى غسق المساء ، نحن نموت مرتين ، وأنا الحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديرات به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له » .

وفى أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » فى المسرح الفرنسى . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمى من الكاردينال فلبرى بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه . وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذلك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان . وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميلى أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول فى صورة غير ودية ربما أثلجت صدرور المسيحين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول مخادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم فى استثارة هممهم فى القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو وعند ما يتردد سعيد يؤنبه محمد فى عبارات بدت

لبعض المستمعين وكأنها تعريض برجال الدين المسيحيين : فهو يقول : «وأنت أيضا تتردد ؟ أيها الشباب الجرئ ، إنه لمما يتنافى مع الدين أن تتردد : إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك ن تمتثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه ، وتخلى عن ولده العزيز ! ! أن الله العلى القدير نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ، ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد فى تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم فى الدار لآخرة »[58] (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير . وفى رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر أن المشرحية هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين بمبادىء المسيحية الحقة .

وفى سبتبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فلبرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير مزهوا بدبلوماسيته لزيارة الملك فى آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلى والمسرحية . وفى ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدى فرانسيز أعظم رواياته ميروب حيث لاقت نجاحا أخرس ألسنة أعدائه بعض الوقت .

---

(١) أثبتنا هنا ما ورد فى الأصل الانجليزى من رواية فولتير . وواضح أنه أبعد ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكنا حرصنا على الأمانة فى النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل فى نفس الموضوع ، منها مسرحية يوريبيدس التى لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفى خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانشسكو سيبون دى مافى (وهو من فيرونا) الذى كان قد أخرج ميروب فى ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحول الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسى ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم فى المشهد الأخير . ولأول مرة فى تاريخ المسرح الفرنسى تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس فى مقصورتهما ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً فى مكانه لحظة رداً على التحية[٥٩] ، وحكم فردريك بأن هذه المأساة من أحسن ما كتب من مسرحيات[٦٠] . وذهب جيبون إلى أن الفصل الأخير يضارع أى فصل فى مسرحيات راسين[٦١] .

وقلل من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير فى الفوز بمقعد فى الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعيا متواصلا إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكيا حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة [٦٢] . وأيده اوبس الخامس عشر فى بداية الأمر ولكن وقف فى طريقه وزيره الجديد موريباس الذى احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريرة دنسة المقعد الذى خلا بوفاة الكاردينال فلبرى . وشغل المقعد أسقف ميربوا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذى لا يلقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم ، ويحضر ليقيم معه فى بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس فى برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكبا عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى فى هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس — ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردرتك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى اميلى

فى بروكسل . وفى أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما فى سيرى محاولين بعث غرامهما الميت إلى الحياة من جديد .

وفى «رسالة السعادة» كانت المركيزة ترى أن الرغبة فى المعرفة هى إحدى الرغبات التى تسهم أكبر اسهام فى سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية التى هى فى متناول أيدينا ، وهى الشيء الوحيد الذى نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى فى هذا المجال شخصان يفتتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبدا ، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل فى مثل هذا التآلف والانسجام بين شخصين ، لأن هذا شيء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوفية بالمحبة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان (٦٣) .

وفى رسالة مؤثرة لخصت تخليها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذى غزا قلبى . وقضيت هذه الأعوام العشرة فى ارتباط وثيق به . . . وعندما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بى لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إنى أحببته لسببين ، قضيت حياتى كلها معه واستمتع قلبى الواثق بنشوة الحب ، بالإضافة إلى توهمى أننى أيضا جديرة بالحب ، وأفلت من يدى هذا الظرف السعيد (٦٤) .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو أنه كان صادقا فى التذرع باعتلال صحته . ولكنا سنجده فى بحر عام واحد يتأوه ويتنهد كالمتوه بين يدى امرأة ، والحق أنه كان قد استنزف جانبا من حياته واهتمامه — مدام دى شاتيليه والعلم . إن العزلة فى سيرى ربما أورثت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له ، وعندما كان يدعوه العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان آنذاك قد تذوق ثانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا فى السياسة القومية ، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دى ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رق له ولان جانبه . وفى ١٧٤٥ كان الدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريزا رافاييلا . ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر فى العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفى سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سيرى وانتقلا إلى العاصمة .

٤ - رجل البلاط : ١٧٤٥ - ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين وكان لوقت غير قصير يحتضر فى كل عام مرة . وكتب إلى تيريو فى ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أمامى إلا سنوات قليلة أعيشها »(٦٥) . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عند ما انتابته علة خطيرة فى شالون فى أعالى المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروى سكرتيره ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التعليمات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه فى أيام الصحة والمرض على حد سواء . وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفى مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاى الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيره لو نجشامب فيقول : « تلك هى الطريقة التى عالج بها فولتير نفسه فبرىء من سقمه الذى ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هى القصد فى الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال فى كل شىء ، والتمرينات والرياضية البسيطة . ففى كل الأمراض التى لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أساسى فى أعضاء الجسم الداخلية ، يكفى أن تساعد الطبيعة التى

تسعى جاهدة فى شفائنا ، وأن نلتزم فى الغذاء بنظام دقيق لفترة طويلة إلى حد ما ، فنتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيته دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودى معه[٦٦] .

وكان بارعا مثل رجال المصارف فى إدارة أمواله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولا وكاتبا مسرحيا ورأسماليا وفيلسوفا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعده صديقه دارحنسون على جمع ثروة من تموين الجيش[٦٧]، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقية أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دى فلبار والأمير دى جيز وسيرهم مبالغ كبيرة، ووجد عناء كبيرا فى استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح[٦٨]. وفى ١٧٣٥ كان ريشيليو مدينا له بمبلغ ٤١٧ ر٤٦ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠[٦٩] جنيه » وفى حالة مسيودى بريزى غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ ٪ ، واستثمر فولتير أكثر أمواله فى سندات مدينة باريس التى تدر ربحا قدره ٥ ٪ أو ٦ ٪ . وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للالحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضرورى يا صديقى أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف فى الطلب—ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومتأخراتى »[٧٠] وفى ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه[٧١] . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولا أو فعلا إلى فوفينارج ومارمونتل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر فى هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التى تعلمها فى صغره «أعطانا الله ، وأخذ الله فليتقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتى مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو اكتنز لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أقل حساسية وعصبية وأقل نزقا

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المحيا مفعماً بالحيوية والنشاط ، وكان أهلا للصداقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تجرح كبرياءه ، ولكنه لم يكن يحتمل فى صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أنى أحسد الحيوانات على شيئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها[٧٢]) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا أراءه فى عنف أشد من عنف رجال الدين فى مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصح مدام شاتيليه له بالتزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم،وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكم وجدت المركيزه مشقة فى منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه، بل أنه فكر فى مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان فى فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير فى رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما فى العمل امتحانا قاسيا لكل منهما : ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . و ٢٣ فبراير ١٧٣٥ عُرضت « أميرة نافار » — ولقيت ما كان مقدرا لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة فى فرساى تقارب ما وصفه فى رسائله الخاصة بأنها « أقذر حجره فى فرساى » وتبوأت مركيزة شاتيليه من جديد فى الحاشية مكانها الذى كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس فى حضرة الملكة . وكان فى صعود نجم مدام دى بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها فى دارها ، وكتب فى مديحها شعرا تافها ، وبناء على الحاح منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك براتب قدره ألفى جنيه فى العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده . ذلك أنه فى ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز فى فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر فى ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير افترة وجيزة ، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة فى تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد العظيم » أى تراجان — أى لويس الخامس عشر — عائدا من المعركة ظافرا منتصرا ، وخصص لفولتير فى تلك الأمسية مكان على مائدة الملك ، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو فى لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرىء بعض الشىء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وثمل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد فى تحقيق مآربه . وفى ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه . وفى ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سمعت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التى قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإنى لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميع ... وأنى لأكبر كل الأكبار نبلك واخلاصك ..؟ وإنى هنا أمنحك بركتى الرسولية [٧٣] » .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين [٧٤] وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكى وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب فى مدائحه لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا فى ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء فى هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة فى تكريمه وتدعيم مركزه عين فى ٢٢ ديسمبر موظفا فى الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له فى أيام النجاح والعيش الرغيد هـذه أن يكتب رواية « بابوك أو الدنيا كما هى » وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم فى جنوب شرق أوربا وجنوب غربى آسيا) يجول ليرى الدنيا ، وبخاصة كيف تسير الأمور فى فارس (أى فرنسا) وأصابه الذهول والفزع لما رأى من الحروب والفساد السياسى وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين . ولكن ترحب به سيدة (مدام دى بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى « المدنية » ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة . ثم يزور رئيس الوزراء (تذكيرا بالكاردينال فليرى) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والمزائم ، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم ، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد ، وأن الاصلاح خير من الثورة ، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم فى عزلة وهدوء[٧٥] . فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرى فعلا ؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً ليعمل فى البلاط . فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين فى برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور ، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها ، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر ، وفى الوقت عينه كانت دى شاتيليه قد انغمست فى لعب الميسر ، وفى ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك ، وأنذرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش فى اللعب . وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هـذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية ، فلم تترك للشاعر صديقاً فى فرساى أو فونتنبلو ، وهرب فولتير واميلى إلى سكو (١٧٤٧) ليقيما لدى الدوقة دى مين التى ما زالت على قيد الحياة ، وهناك بقى لمدة شهرين فى جناح منفرد (منعزل) بعيد عن أنظار الناس ، وهناك حاول أن ينسى ورطته

ومحنته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرحة التي ساعدت على أن تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية في الأدب الفرنسي . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية الدوقة الخاصة . ومن هنا كان إيجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التي كتبت فيما بين عامي ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هي « زاديج أو سر القدر » وزاديج شاب بابلي لطيف غني تلقى أحسن تعليم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلديين ، فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف في أي عصر ، أي القليل منها أو لا شيء على الاطلاق[٧٦] . وكان على وشك أن يتزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج في عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه في العين اليمنى لأمكن علاجه بسهوله ، ولكن الجروح في العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سمينا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوي العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه . وفي ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك موابدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع في شراك غرامه ، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية . وفي الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب في شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجمه الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بألفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضي زاديج في طريقه ويؤخذ ويباع بيع الرقيق . عندئذ تصور زاديج « الناس كما هم في حقيقة أمرهم . . . . حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوما الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصرا قصورا يائسا عاجزا يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه [٧٧] .

أما رحلات سكارمنتادو فهي تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له في كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل . ففي فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفي إنجلترا تحرق الملكة مارى خمسمائة من البروتستانت ، وفي اسبانيا ينشق الشعب في لذة رائحة المهرطقين الذين ألقى بهم في النار ، وفي تركيا ينجو سكارمنتادو من الختان بأعجوبة ، وفي فارس يتورط في الصراع بين طائفتي السنة والشيعة من المسلمين ، وفي الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان ، وأخيرا يعود إلى كريت « ومذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض ، فقد وطدت العزم على ألا أرى في المستقبل شيئاً غير بلدى ، وتزوجت وسرعان ما داخلني الشك في خيانة زوجتي ، ولكني على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هي أسعد ظروف الحياة [٧٨] » .

وتوسع ميكرو ميجاس في أفكار النسبية التي استخدمها سويفت في رحلات جلليفر . والسيد ميكروميجاس رجل يصلح للاقامة في نجم الشعرى اليمانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفا ، وطول أنفه ٦,٣٣٣ قدما . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاما من العمر ذهب ليستزيد من التعليم .
وبينما هو يحوم في الفضاء هبط على كوكب زحل فسخر من الأقزام هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أى حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهي بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت في اللحظة التي نولد فيها . . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا[٧٩] . ويدعو ساكن الشعرى اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعثر أقدامهما على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعرى ، ويكاد ساكن زحل يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا من الأهالى صغار الأجسام يتمركزون هنا وهناك فى اهتياج شـديد ، وعندما يتضح لساكن الشعرى اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمائم ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس بعض فى صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين) لا يكاد يعلو على عقبيه يصيح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . . قلبى يحدثنى أن أتقدم خطوتين أو ثلاثا لأسحق تحت قدمى وكر السفاحين الحمقى بأسره [٨٠] .

وكل هذا كان عاما سارا بهيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك أحد ساكنا . ولـكن فولتير فى ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة « صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا فى نقطة حساسة ، تلك هى « أملاك الكنيسة فى فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالكنيسة أن تسهم فى نفقات الأمة بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التى نصبت نفسها لتلقين مبادىء العدالة يجدر بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع أقوات الشعب وموارد الأرض فى نحول عقيم ، واتهم « الخرافة » بقتل الحكام واراقة بحور من الدماء فى الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على مليكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل وجردوا أنفسهم من الخرافة فكم يكون الناس أسعد وأهنأ بالا [٨١] . وقل أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحكماء وصوت الشعب » التى لم يذكر اسم مؤلفها .

وأثناء إقامة فولتير فى فصل الشتاء فى سكو سددت مدام دى شاتيليه

ديون القمار . وهدأت من روع الرابحين . وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانسلاس لزكزنسكى لزيارة بلاطه فى لونفيل — على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسى عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيبان إلى لونفيل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجنتال ينبئ فيه فولتير بأن ممثلى الكوميدى فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم فى حاجة إليه لمعاونتهم فى تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشيء الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كريبون (الأب) الفقير المعدم وهيأت له سبل النجاح . وكان ماريفو قد تجاسر فاعتبر مسروحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكان الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات فى نفس الموضوعات التى كان كريبون قد طرقها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا اميلى فى حرية مهلكة فى لونفيل . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثانى أسرع متنكراً إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهدو المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت الرواية وأطرتها ، تقبلها فولتير على أنها من حقه ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجمتها . وقد آلمته هذه أيما ايلام ، حيث كان عليه أن يحتملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا . وهى تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية فى جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لونفيل ، وكاد يموت فى الطريق عند شالون ، ولما استحثه فردريك الأكبر على المضى إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه . إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل فى برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين . إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشيء الذى يتعذر تعريفه ، والذى يمكنك من التفكير ، والذى يوحى بكل ما جميل ، سيحضر معك »[٨٢] ولكن فولتير آثر المقام مع إميلى .

٥ - موت الحبيبة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الاستنارة ، وفى ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيانه « الفيلسوف المسيحى » الذى كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته فى امتياء حزين . وحذرته من أن آراءه يشتم منها أنها نابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هى المركيزة دى بوفلرز) فإنه لم يجد تناقضا فى أن يتخذ من الشاعر محظيا له فى بلاطه . كما عين . فوق ذلك ، زوج اميلى المتحرر الواسع الأفق كبير مديرى قصره براتب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف آخر فى بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دى سانت لامبرت ، قائد الحرس . وكانت مدام دى شاتيليه قد التقت به لأول مرة فى ١٧٤٧ ، وكان هو فى الحادية والثلاثين وهى « فى الحادية والأربعين . وكانت تلك سن خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حيم . وفى ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تتسم بحماسة البنات الصغيرات وخلاعتهن : « تعال إلى بمجرد أن ترتدى ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . » واستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة فى أكتوبر فاجأهما فولتير فى خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذى يتقبل هذه الفعلة النكراء ، الخيانة ، فى هدوء وتسامح . ولم يتر فولتير لهذا الوضع على الفور . وأنبهما فى شىء من الهذر والمزاح ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه - أى بقتله عند الفجر . وقصدت اميلى إلى فولتير فى الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد ، ولكنها ذكرته فى رفق « بأنك لزمن طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل يسوء إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانقته ولاطفته ودللته بأسماء الدلال التى كانت تناديه بها ، فخفت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائماً ياسيدتى . ولكن طالما كان لزاما أن تجرى الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمعى وبصرى » وفى الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شىء . إنى أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فإنها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثلى لا يصلح لهذه الملذات » وفى الليلة التاليــة تناول ثلاثتهم العشاء معا(٨٣) .

واستمر هذا الثلاثى » حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سيرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فردريك دعوته . وكان فولتير يميل الآن إلى تلبيتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سيرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت أنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فردريك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سيرى . وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سيرى للتعجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى حلة ، ولاطفته أعظم ملاطفة . وشرب وثمل حتى كان ما كان (ممـا لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتضنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت أتفقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة » (٨٤) وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت اميلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تامنى على نيوتن ، ويكفينى

عذابى بسببه . وما ضحيت قط بشيء قدر تضحيتى للعقل ببقائى هنا لانجازه . . أنا استيقظ فى التاسعة . وأحيانا فى الثامنة صباحا . وأتناول القهوة ،واستأنف العمل فى الرابعة ، وأتوقف عنه فى العاشرة . . . وأتجاذب أطراف الحديث مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معى العشاء . وفى منتصف الليـل أعود إلى العمل فى نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحا . إنى أنجز هذا الكتاب من أجل العقل والشرف ولـكنى أحبك أنت وحدك » (٨٥) .

وفى ١٠ يونيه جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات أخرى يلتزم بها تجاه دى شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر نفسه لا يستطيع أن يحول بينى وبين القيام بواجب لا يمكن أن يخلى منـه أى شيء . . . لن أتخلى عن سيدة قد تعاجلها المنية فى سبتمبر . والأرجح أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولـكن إذا كتبت لها النجاة ، فإنى أعدك يا مولاى أنى أحضر فى أكتوبر وأقدم ولائى لجلالتكم (٨٦) » .

وفى يوليه صحبها إلى لونفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف الموت أزعجها كل الازعاج — يختطفها الموت فى الوقت الذى وجدت فيه الحب من جديد ، وفى الوقت الذى كانت فيه سنى دراستها وبحثها على وشك أن تتوج بنشر كتابها . وفى ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفى اليوم العاشر من سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعى فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال فولتير عندئذ : « آه يا صديقى أنت الذى قتلتها . . . . يا إلهى ! ما الذى أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير من لونجشامب الخاتم الذى خلعوه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته منقوشة عليه يوما ماووجده السكرتير فى يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلا : « هكذا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت لامبرت فطردنى . . . هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينتزع مكان آخر .

وهكذا تدبر الأمور في هذه الدنيا[٨٧] » . ووريت مدام دى شاتيليه التراب فى لونفيل فى أروع مظاهر المهابة والجلال فى بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعتها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيرى ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التى تلقاها من باريس : « أنتم عزائى ، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلوننى أحب بقية أيامى التعسة . إننى أعترف لكم أن البيت الذى أظلها على الرغم مما يثير فى نفسى من أشجان ، ليس كريها عندى . . . أنا لا أهرب من أى شىء يحدثنى عنها ويذكرنى بها . إنى أحب سيرى . . . والأماكن التى زانتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسى . فقدت نفسا خلقت لها نفسى ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتها فى طفولتها . إن أكثر الآباء عطفا وحنانا لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة . وبودى أن أجد فى كل مكان ما يذكرنى بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها[٨٨] .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوى إذا هو بقى مترملا فى سيرى الموحشة المنعزلة . وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنيــة إلى باريس ، وسافر فى أثرها فى ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفى ١٢ أكتوبر استقر به المقام فى العيصمة ، فى قصر واسع الأرجاء فى شارع ترافرسيير .

٦ — مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت مارى لويز مجنو Mignot (١٧١٢) وهى ابنة كاترين أخت فولتير . وعند ما توفيت كاترين (١٧٢٦) تكفل فولتير برعاية أولادها . وفى ١٧٣٧ . عند ما بلغت مارى السادسة والعشرين ، دفع لهـــا خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً فى الحكومة .

وتوفى الزوج بعد ست سنوات من زواجه . فى نفس الوقت الذى انتقل فيه فولتير والمركيزة دى شاتيليه إلى باريس . والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعيها . وواضح أن حب الخال سرعان ما تحول إلى شىء غير مشروع . وفى رسالة مؤرخة فى ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبتى ، عزيزتى »[٨٩](*) وقد تكون هذه عبارة حب برىء ، ولكن فى ديسمبر ، أى قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرملة الطروب رسالة يجدر اقتباسها حرفيا حتى يمكن تصديقها : « اقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبى مفتون بك . أقبل كل شىء فيك »[٩٠] .

وحذفت مدام دنيس بعض الألفاظ تواضعا وخجلا ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساى فى ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتى ، تقولين إن كتابى إليك بعث السرور والنشوة حتى فى حواسك كلها . وأنا مثلك تماما . فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التى جاءت فى كتابك حتى التهبت مشاعرى من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذى أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات »[٩٢] . وفى ثلاث رسائل بعث بها إليها فى ١٧٤٦ « إنى أقبلك ألف قبلة »[٩٣] . بودى أن أعيش عند قدميك وأموت بين ذراعيك . .[٩٤] « متى يكون فى مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسانى العالم بأسره ؟ »[٩٥] وفى ٢٧

(*) هذه العبارة والمقتطفات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان فى ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بيير بونت مورجان فى نيويورك من أعقاب السيدة دنيس . ونشر الدكتور بسترمان ، مدير معهد ومتحف فولتير « لى دليس » فى جنيف ، النص الأصلى ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنه أخته (باريس ١٩٥٧) وترجمة انجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعا من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالايطالية التى كانت مدام دنيس ملمة بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامى ١٧٤٢ — ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخى مؤكدا . والتواريخ التى أوردناها هنا هى التى حددها دكتور بسترمان .

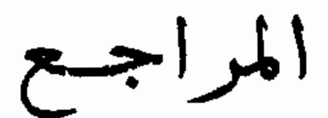
يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفى السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفى نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع فى جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » (٩٧) .

فى عمر الرجال ، مثلما هو فى عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية فى القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعده من بين الفضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقترف هذه السخافات والأعمال الطائشة وتردى فى هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصبيانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقاءه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحا أنها مغرمة به ، ولكنها أحبت نقوده حبا متزايدا . إننا نجدها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما جاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركيز دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . (٩٨) ووصفها مارمونتيل مادحا فى ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشربت مسحة من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » (٩٩) .

وفى يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاما . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطريننى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة فى مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب ، وأنا لا أتخلى عن المركيز دى شاتيليه فى هذه المحنة المتبادلة . . . . سأحضر من سيرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد فى الحياة (١٠٠) .

وطوال الشهور الثمانية التى قضاها فى العاصمـــة ، تلقى فولتير من فرردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فردريك أن يشغل وظيفة كبيرة فى البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر فى العام .[١٠١] ولكن فولتير الذى كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك فى تأنيب ماكر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذى رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول[١٠٢] . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقربين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون فى بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل فى فرساى[١٠٣] . وفى ١٠ يونيه ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .



CHAPTER VII

1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
2. *Ibid.*, 84.
3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 207; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 13n.
8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
10. Lacroix, 138.
11. Ducros, 24; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 32.
15. Sée, 61.
16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
17. Tocqueville, 34.
18. Taine, 15.
19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
20. *Ibid.*, 51, Sée, 3.
21. Palmer, R. R., 25; Lacroix, 157.
22. Taine, 42 f.
23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
24. Martin, H., XV, 439.
25. *Ibid.*, 439-40.
26. Lacroix, 157.
27. *Ibid.*, 269.
28. Taine, 34.
29. *Ibid.*, 119-20.
30. Goncourts, *Women of the 18th Century*, 10, 15, Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 79.
32. Taine, 61, Michelet, *Histoire de France*, V, 288
33. Martin, H., XV, 441.
34. *Ibid.*, 442.
35. Taine, 63
36. Lecky, *History of England*, V, 329.
37. Desnoiresterres, VIII, 248.
38. Lacroix, 270
39. Guizot, *History of France*, V, 48.
40. Sée, 4.
41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
42. Taine, 23-24, Ducros, 256-57.
43. Herbert, 37.
44. Sée, 15.
45. Herbert, 4-5.
46. Sée, 28.
47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 395 (Oct. 10, 1718).
48. Taine, 330.
49. Martin, H., XV, 216.
50. Sée, 38
51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
54. Sée, 181.
55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
57. Sée, 165.
58. Taine, 334.
59. Mornet, *Origines intellectuelles de la Revolution française*, 28.
60. Parton, II, 184
61. Lacroix, 228
62. *Ibid.*, 311.
63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
65. Sée, 151-53.
66. Martin, H., XV, 213.
67. *Ibid.*, 305.
68. Sée, 93.
69. Ducros, 160.
70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
71. Lacroix, 206
72. *Ibid.*

73. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 5-7.
74. Desnoiresterres, III, 241
75. Grimm, *Correspondance*, VIII, 131-33, in Buckle, I, 539.
76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
77. Lacroix, 209.
78. Ducros, 53.
79. Stryienski, *Eighteenth Century*, 57
80. Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes au xviiie siecle*, 129
81. Michelet, V, 277, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 445
82. Voltaire, *Works*, XVIa, 157
83. Stryienski, 79
84. *Works*, XVIa, 158.
85. Martin, H., XV, 256n.
86. Stryienski, 85
87. Desnoiresterres, II, 336
88. Martin, H., XV, 251.
89. Saint-Simon, *Memoirs*, III, 283.
90. *Michelet*, V, 248
91. Martin, H., XV, 116n., Ercole, *Gay Court Life*, 88.
92. Bearne, *Court Painter*, 85
93. Guizot, *History of France*, V, 78
94. Goncourts, *Pompadour*, 9.
95. Michelet, V, 325
96. Ercole, 167
97. Lewis, D B Wyndham, *Four Favorites*, 42
98. Stryienski, 140-41
99. *Webster's Biographical Dictionary*, 833.
100. Brandes, I, 124
101. Voltaire, *Works*, XVIb, 224.
102. Carlyle, Thos., *History of Friedrich II*, IV, 438, *Enc Brit.*, IX, 454a.
103. Voltaire, XVIb, 238, Martin, H., XV, 282, Stryienski, 148
104. Voltaire, XVIb, 239
105. Stryienski, 149.
106. Martin, H., XV 431n.
107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238
108. Martin, H., XV, 356-58.
109. Lecky, *England*, V, 327.
110. Goncourts, *Pompadour*, 12
111. Michelet, V, 349.
112. Ercole, 197
113. Goncourts, 117.
114. Ercole, 203.
115. Lewis, *Four Favorites*, 48
116. Taine, *Ancient Regime*, 82
117. Goncourts, 71
118. *Ibid.*, 348
119. Sainte-Beuve, I, 450.
120. *Ibid.*, 451
121. Michelet, V, 354
122. Martin, H., XV, 416
123. Goncourts, 131
124. Lewis, 50.
125. Ercole, 209.
126. Toth, 165.
127. Goncourts, 127.
128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme de Pompadour*, 65.
129. Ercole, 220.
130. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 249

CHAPTER VIII

1. See, *Economic and Social Conditions*, 48 f
2. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 422
3. La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 6.
4. Lacroix, 252.
5. *Ibid.*, 151
6. 242.
7. 244.
8. Desnoiresterres, III, 133
9. Crequi, *Souvenirs*, 57, 121.
10. Ducros, *French Society*, 83.
11. Chesterfield, *Letters*, I, 348.
12. Brandes, I, 137.
13. *Ibid.*, 141.
14. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 187.
15. *Ibid.*, 188.
16. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 53
17. Funck-Brentano, 50.
18. Ducros, 61
19. Quoted in Funck-Brentano, 60
20. Taine, *Ancient Regime*, 134
21. Walpole, *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752)
22. Toth, 135.
23. Frederick the Great, *Memoires*, I, 25.
24. D'Argenson, *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
25. Ducros, 342.
26. Mossner, *Hume*, 92.
27. Kohler, Carl, *History of Costume*, 340.
28. Créqui, 123.
29. Lacroix, 370
30. Ducros, 35.
31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
32. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 166.
33. Michelet, V, 189.
34. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 441
35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
36. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d
37. Burney, II, 970.
38. Diderot, *Le Neveu de Rameau*.
39. Duclos, C., *Considérations sur les moeurs*, 13

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156, in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Memoirs*, I, 181.
44. Batiffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan 25, 1766.
46 Batiffol, 208.
47 Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168
48 Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196

CHAPTER IX

1. Faniel, S, *French Art of the 18th Century*, 36
2. *Ibid*, 91.
3. Funck-Brentano, 180
4 Louvre
5 See the great commode in the Wallace Collection
6 Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77
7 *Ibid.*, 81
8 Louvre.
9 Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181
10. Dijon Museum.
11 Versailles Museum.
12 Louvre
13 Bearne, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearne, 43.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18 Turner, 197
19 Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69. Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif
23 *Ibid*.
24. Wallace Collection.
25 Goncourts, *French Painters*, 91
26 *Ibid* 84.
27 Block, 11.
28. Ridder, *Chardin* 8, Goncourts, *French Painters*, 117
29. Louvre
30 Louvre.
31 Louvre
32. Goncourts, 141-42, Havens, *Age of Ideas*, 321.
33. Diderot, *Salons*, III, 4.
34 Goncourts, 177n.
35 *Ibid*.
36 *Ibid*.
37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre
39. St.-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Duclos, *Considérations*, 217
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73
3 Parton, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5 "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Parton, II, 325.
7 Brandes, I, 72.
8 Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10 Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12 Mitford, N., *Madame de Pompadour*, 126
13 Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14 Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15 Crebillon *fils*, *Le Sopha*, introd.
16 *Le Sopha*, 65
17 Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18 Crebillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, xliii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57
23 Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24 Saintsbury, introd to *Manon Lescaut*, ix-xii
25 Bury, J., *History of the Idea of Progress*, 135-36 Martin, K, 280.
26. Lichtenberger, A, *Le Socialisme et la Revolution française*, 73, Martin, H., XV, 335; Martin, K, 62, Hazard, 197.
27 In Martin, K, 61
28. In Crocker *Age of Crisis*, 426-29
29 Duclos, *Considerations*, 11-12.
30 *Ibid*, 17, 21
31 27.
32. 25.
33. Torh, 38
34 La Bruyere and Vauvenargues, *Selections* 189
35 Vauvenargues *Oeuvres choisies*, cxv iv.
36. La Bruyere and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, cLxxxvii
38 *Ibid*, clxxxii.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40. *Ibid.*, 30.
41. Vauvenargues, CLXIX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173.
43. Vauvenargues. CL
44. *Ibid.*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid.*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744, in Martin, H., XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa. 43
53. Sorel, A., *Montesquieu*, 125
54. *Ibid.*, 9.
55. 23
56. Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, xxiv.
58. In Sorel, 43
59. Herodotus, *History*, IV, 183.
60. Aristotle, *Historia animalium*, viii, 12
61. *Persian Letters*, xii
62. Letter xxiv
63. xvix.
64. cxviii.
65. cxiii
66. cxviii.
67. xxxv.
68. lxxxvi.
69. Sorel, 49
70. *Grandeur et décadence des Romains*, introd., vi.
71. *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73. Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75. Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81. *Spirit of Laws*, Book I, Ch. iii.
82. *Ibid.*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, x.
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Sée, H., *Idées politiques en France au xviii^e siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92. V, xiii.
93. V, x.
94. XI, vi
95. *Ibid.*
96. *Ibid.*
97. XI, iii.
98. *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxvii.
100. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105. *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106. I, i.
107. XII, xxix
108. In Havens, *Age of Ideas*, 121
109. *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111. XXIV, v.
112. XXV, v
113. *Ibid.*, xiii.
114. *Ibid.*, x.
115. Quoted in Faguet, 195.
116. Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux, 78 f., Martin, K., 153
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel.
121. Voltaire, XIXa, 238-39
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 204-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127. *Cf.* Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 226, Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 272-76, Brunetière, 301, Stephen, L., *English Thought in the 18th Century*, II, 188, Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876-96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109,
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750)
133. Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137. Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed.), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
151. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

1 Desnoiresterres, I, 410.
2 Bain, R N., in Voltaire, *Charles XII*, introd., xxvi.
3. E.g., Buckle, I, 577
4. Voltaire, *Charles XII*, p 11
5. *Ibid.*, 334.
6. Letter of Aug 25, 1732, in *Works*, XXIa, 216
7. *Zaire*, I, i, in *Works*, Xa, 27
8 *Zaire*, II, iii
9. Desnoiresterres, II, 2
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11 Brandes, I, 256.
12. *Ibid.*, 34-.
13. *Letters on the English*, Letter 1, in *Works*, XIXb, 193-98.
14 Letter v.
15 *Ibid*
16 Letter viii, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17 *Ibid.*, 169.
18 Letter x.
19. Letter viii, Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203
22 Voltaire, XIb, 212
23. *Ibid.*, 219.
24 235
25. Buckle, I, 517.
26 Parton, I, 215
27. *Ibid.*, 303.
28 343.
29 Desnoiresterres, II, 139.
30. Parton, I, 384.
31. Desnoiresterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Cirey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35 Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190
36 Parton, I, 391
37 Créqui, 35.
38 Parton, I, 389.
39 Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14
40 *Ibid.*
41 37.
42 Brandes, I, 388.
43 Voltaire, XXIa, 197-201.
44 Desnoiresterres, III, 330.
45 Voltaire, XXIa, 193, 209.
46 Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47 Brandes, I, 365, Desnoiresterres, II, 53
48 Voltaire, XXIb, 107.
49. Ia, 290
50 Voltaire, *Traité de métaphysique (Oeuvres complètes*, XLIII), end of Ch. i.
51. *Ibid.*, p 187.
52 Taine, *Ancient Regime*, 258.
53 *La Pucelle*, Canto ii, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, i
55. Brandes, I, 361
56 Parton, I, 445.
57 Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474
58 *Mahomet*, III, vi, in *Works*, VIIIb, 55
59 Brandes, II, 8
60 Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, p 101
61 Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parton, I, 461.
63 Brandes, I, 405.
64 *Ibid.*
65. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 75.
66. Parton, I, 541-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXIb, 98
69. XXIa, 190, 193.
70 *Ibid.*, 195.
71 Parton, I, 575.
72 *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIIb, 12.
74. *Ibid.*, 14.
75. Voltaire, IIa, 281
76. Ib, 6.
77 IIb, 41
78 IIa, 63.
79. IIa, 26.
80 IIa, 44-45
81 Parton, I 581-82.
82 Voltaire and Frederick, *Letters*, 188, 191
83. Longchamp in Parton, I, 553 f.
84 Longchamp in Desnoiresterres, III 246 and Parton, I, 556.
85 Parton, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 19?
87 Desnoiresterres, III, 390.
88 Parton, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90 Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53
91 Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46 Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92 *Lettres d'amour*, 57, *Love Letters*, 48
93. *Lettres d'amour*, 69, *Love Letters*, 54
94 *Lettres d'amour*, 77 *Love Letters* 57
95 *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters* 58
96 *Lettres d'amour*, 146
97. *Love Letters*, 103
98 *Lettres d'amour*, 15.
99 Marmontel, *Memoirs*, I, 121
100 Mitford, N., *Voltaire in Love*, 303

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; Gay, *Voltaire's Politics*, 150
03. Gay, 151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 110.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326. de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Régime*, 28
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344
5. Lang, *Music in Western Civilization*, 608
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov 21, 1716).
7. Tietze *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 818b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture* II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716
25. Dillon, F., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Baroekmuseum, Vienna.
29. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Lang, 450
32. Spitta, *Bach*, II, 46. *Enc. Brit.*, XVII, 896b.
33. Spitta, III, 18
34. Rolland, *Musical Tour*, 84
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 210
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E.g., Concerto in D for trumpet, Suite in A Minor for flute, Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158. On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 261-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 322.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Lang, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid.*, 230, Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 242
74. 254

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 113
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264. *New Camb Mod History* VII, 402.
6. In 1714-34.
7. 1726-33.

8. 1715–56
9. 1722–32.
10. 1729–32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; *cf.* Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II, 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288.
25. *Camb. Mod. History*, VI, 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 211.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 164.
38. Carlyle, II, 317.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar. 18, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolo Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lutzow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Coxe, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 260.
89. Carlyle, V, 197, hotly repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 461; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 211.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid.*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 213.
113. 214. Strachey, *Books and Characters*, 191.
114. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 18, 1753, in Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 264.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 262.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.
34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 184.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les moeurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 533.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 158.
19. *Cf. Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361.
— 516
22. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwein, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, VIIIa, 176.
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425.
35. *Ibid.*, 315, 281.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, Va, 208.
39. *Works*, XVIa, 119; XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI.

CHAPTER XVI

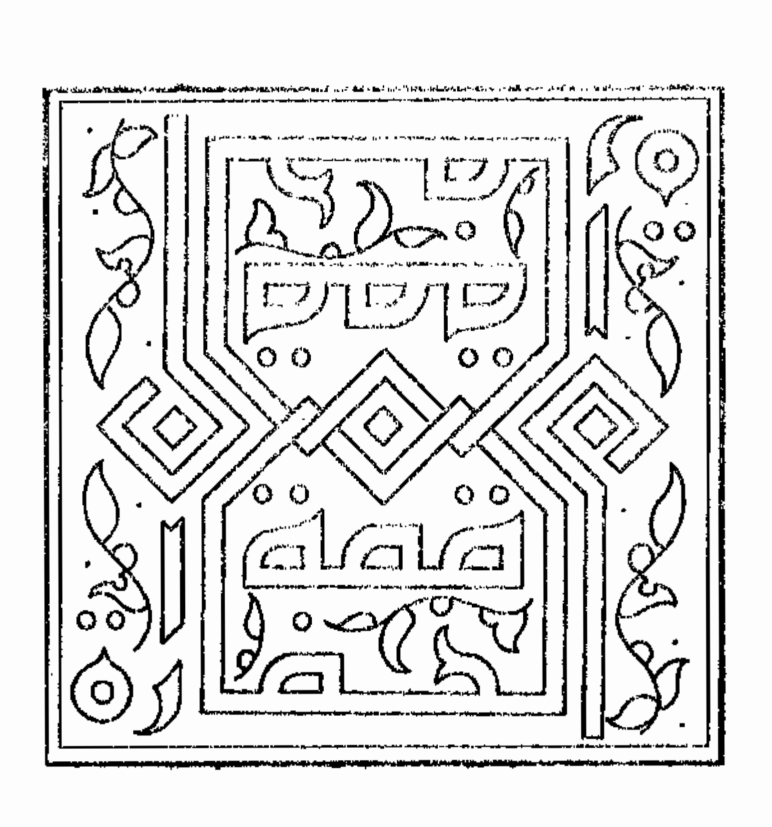
1. Buckle, I, 660n.
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 522.
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91.
8. Bell, 170.
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 189.
22. 290.
23. 295; Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 350.
28. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62b.
30. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353.
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27.
40. *Ibid.*, in Willey, 197.
41. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
42. French, S. J., 215.
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
44. Moore, 49.
45. McKie, *Antoine Lavoisier*, 225.
46. *Ibid.*, 293.
47. 325.
48. 319.
49. 412 f.
50. 404.
51. 407.
52. French, 267.
53. Williams, III, 11.
54. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435.
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
57. Williams, III, 21.
58. *Enc. Brit.*, XI, 510d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172.
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322.
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 281.
66. Quoted by Cajori in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

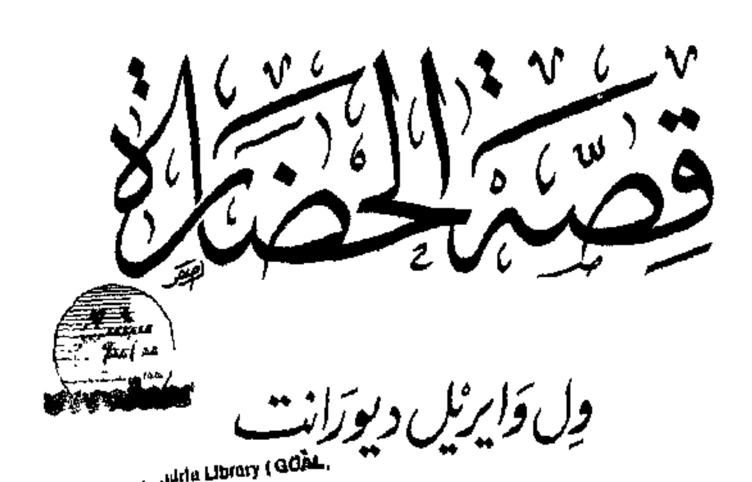
69 In Bell, 181.
70 Berry, 307.
71. Wolf, 299.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
73 *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 269
76 Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
77 Trattner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34.
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
81 Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16
84 Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 130
85 Bearne, *A Court Painter and his Circle*, 272
86 Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
87 Gourlie, 270
88 Wolf, 455
89 *Ibid*, 456
90 457.
91 *Enc Brit*, XVIII 32.
92 Locy, 199
93 Wolf, 349
94 *Ibid*, 450
95 Jardine, Wm, *The Naturalist's Library*, 24
96 *Ibid.*, 321
97 Sainte-Beuve II, 264
98 Osborn 136
99 In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175
100 Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, H, XVI, 37.
101 Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145
102 Osborn, H F., *Men of the Old Stone Age* 3.
103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
104 In Smith, P, II, 518.
105 In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introd xxii.
106. Rousseau, letter of Nov 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
108 Buffon, I, introd, xxiii.
109. *Ibid.*, XII, 324-30
110. *Ibid* 324n
111. Hazard, 144
112. Voltaire, letter to Helvetius, Oct. 27, 1740
113. Sainte-Beuve, II, 254
114 Jardine, 32.
115. *Ibid*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
119. Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid*, 122.
125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
126. Turberville, A. S., ed, *Johnson's England*, II, 245.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 146
130. *Ibid.*
131 149.
132 Brett, G. S, *History of Psychology* 423.
133. Condillac, *Traité des sensations*, 38
134. *Ibid.*.
135. *Ibid.*, 70.
136. Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187
2. Sigerist, *Great Doctors*, 235.
3 Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602
4. Williams, H S., *History of Science* IV, 78.
5 Garrison, *History of Medicine*, 346.
6. *Ibid*
7 Vartanian, *Diderot and Descartes*, 270.
8 Wolf, 263.
9 Locy, *Growth of Biology*, 443.
10. Castiglioni, 613.
11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Good."
12. Garrison, 402.
13 Besant, *London*, 380.
14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
15. *Ibid.*, 191
16 198.
17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
18 Voltaire, *Works*, XIXb, 24.
19. Goncourts, *The Woman of the 18th Century*, 11.

20. Sée, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
21. Garrison, 321.
22. Traill, *Social England*, V, 425.
23. Chamousset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
24. *Ibid.*
25. Garrison, 400.
26. *Ibid.*
27. Castiglioni, 657.
28. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
29. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
30. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
31. Castiglioni, 641.
32. Traill, V, 51.
33. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
34. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
35. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
36. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
37. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
38. Garrison, 351.
39. Besant, 377-78.
40. Garrison, 343.
41. *Ibid.*, 110.
42. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
43. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
44. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 211.
45. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
46. Garrison, 353; Sigerist, 237.
47. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Halos*, 85.
48. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
49. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.





ول وايريل ديورانت

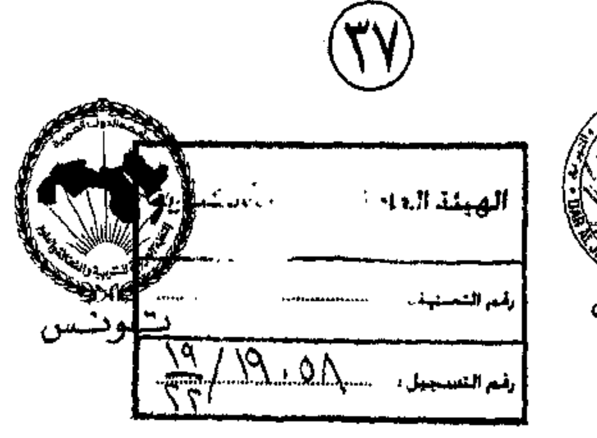
أوروبا الوسطى ٣

ترجمة
فؤاد أندراوس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد التاسع

(٣٧)





دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ - ت : ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس : ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب - بيروت - لبنان

فهرس

الكتاب الثالث من المجلد التاسع

الفصل الثاني عشر

ألمانية باخ

١٧١٥ ـ ٥٦

صفحة

الفصل الثالث عشر

فردريك الأكبر وماريا تريزا

صفحة

صفحة

الفصل السابع عشر

الطب ١٧١٥ ـ ٨٩

الكتاب الثالث

أوربا الوسطى

١٧١٣ – ٥٦

الفصل الثاني عشر

ألمـــانية باخ

١٧١٥ – ٥٦

---

١ – المشهـد الألمـانى

لم يكن منتظراً من فولتير وهو يخترق ألمانيا أن يستطيع ترويض ذهنه الباريسى الهوائى على تقدير ما للألمان من أجسام وملامح وآداب وحديث، وعلى تذوق الأدب والموسيقى والفنون القوطية. وأغلب الظن أنه لم يكن قد سمع قط بيوهان سبستيان باخ، الذى مات فى ١٨ يوليو ١٧٥٠، بعد وصول فولتير إلى برلين بثمانية عشر يوما. ولعله لم يكن قد رأى تلك العبارة التى وصف بها هيوم المانيا فى ١٧٤٨، وهى أنها «بلد بديع، زاخر بقوم أمناء مجدين، ولو قيضت له الوحدة لكان أعظم قوة .... فى الأرض»[1].

وكان من حسن طالع فرنسا وانجلترا أن هذا الشعب القوى النشيط، البالغ عدده آنذاك زهاء عشرين مليونا من الأنفس، كان لا يزال منقسماً إلى نيف وثلاثمائة دويلة مستقلة من الناحية العملية، لكل منها أميرها المتمتع بالسيادة، وبلاطها، وسياستها، وجيشها، وعملتها، ومذهبها الدينى، وزيها الخاص، وكلها فى مختلف مراحـــل التطور الاقتصادى والثقافى، لا تجمعها غير رابطة اللغة، والموســيقى، والفن. وثلاث وستون من إماراتها – بما فيها كولونيا، وهلدسهايم، ومبنز، وترير، وشبيير، وفورتسبورج – يحكمها رؤساء أساقفة أو أساقفة، أو رؤساء ديورة. وكانت إحدى وخمسون مدينة – أهمها هامبورج، وبريمن،

ومجدبورج ، وأوجربورج ، وفورمبورج ، وأولم ، وفرانكفورت — على المين — مدنا « حرة » ، بمعنى أنها ، كالأمراء ، تخضع لرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة خضوعاً طليقا من القيود الثقيلة .

وكان أكثر الأراضي الألمانية ، باستثناء سكسونيا وبافاريا ، يزرعه الأقنان أو رقيق الأرض المرتبطون بها ، ويخضع لكل الفروض الإقطاعية القديمة تقريبا . وكان هناك ٤٫٥٠٠ قن من بين ٨٫٠٠٠ فلاح فى أسقفية هلدسهايم حتى عام ١٧٥٠ [٢] وكانت الفوارق الطبقية حادة ، ولكن طول العهد بها ثبتها تثبيتا جعل طبقة العامه تتقبلها فى غير تذمر شديد ، وقد خفف منها بقاء أطول واحترام أعظم لالتزامات السادة الإقطاعيين بحماية الفلاح فى الكوارث . ورعايته فى المرض والشيخوخة ، والعناية بالأرامل واليتامى ، وحفظ النظام والسلام [٣] ، واشتهر الإقطاعيون « اليونكر » فى بروسيا بادارتهم أملاكهم بكفاية ، وبتطبيقهم السريع الطرائق الزراعية الحسنة .

وأخذت الصناعة والتجارة تنتعشان بعد أن أنفقت ألمانيا سبعة وستين عاما فى الأفاقة من حرب الثلاثين سنة . وكانت سوق ليبزج أحفل أسواق أوربا بروادها ، ففاقت سوق فرانكفورت حتى فى بيع الكتب . وبلغت فرانكفورت وهمبورج فى هذا القرن فى نشاطهما التجارى شأواً لم تبلغه سوى باريس ، ومرسايا ، ولندن ، وجنوه ، والبندقية ، والآستانة . ولم يستعمل أمراء التجارة الهمبورجيون ثراءاهم فى الترف والمظاهر فحسب بل فى الرعاية المتحمسة للأوبرا ، والشعر والدراما ، ففى همبورج حقق هاندل انتصاراته الأولى ، ووجد كلوبستوك المأوى . وكتب لسنج مقالاته عن المسرح الهمبورجى . وكانت المدن الألمانية كشأنها اليوم ، خير المدن إدارة فى أوربا [٤] .

وبينما أفلح الملك فى فرنسا وانجلترا فى اخضاع النبلاء للحكومة المركزية ، نرى أن الناخبين أو الأمراء ، أو الأدواق ، أو الكونتات ، أو الأساقفة ، أو رؤساء الديورة والذين حكموا الدويلات الألمانية ،

سلبوا الإمبراطور كل سلطان حقيقي على أملاكهم ، وأتو بصغار النبلاء أتباعا فى بلاط الأمير . وكانت هذه البلاطات (Residenzen) ، فضلا عن المدن الحرة ، مراكز للحياة الثقافية كما كانت مراكز للحياة السياسية فى ألمانيا . وانجذبت إليها ثروات ملاك الأراضى ، وأنفقت على القصور الضخمة ومظاهر البذخ والثياب الفاخرة التى كانت فى كثير الأحايين نصف الرجل ومعظم سلطانه . وهكذا نجد إيبرهارت لودفج ، دوق فورتمبرج ، يكل إلى ى . ف . نى ودوناتو فريتسونى أن يشيدا له (١٧٠٤ — ٣٣) فى لودفجزبورج (قرب شتوتجارت) قصرا بديلا بلغ فى فخامة تصميمه وزخرفته ، وفى كثرة ما حوى من أثاث أنيق وتحف فنية بديعة ، مبلغاً لا بد قد كلف رعاياه الكثير من المال والعرق . وفى ١٧٥١ ألحق بالقلعة الكبرى (Schloss) فى هيدلبرج ، التى بدء بناؤها فى القرن الثالث عشر ، راقود فى كهف الخمور (وهو وعاء ضخم للتخمير) يتسع لتخمير ٤٩,٠٠٠ جالون من الجعة فى المرة . وفى مانهايم انفق الدوق شارل تيودور خلال حكمه الطويل ناخبا للبالاتين (١٧٣٣ — ٩٩) ، ٣٥ مليون فلورين على المؤسسات الفنية والعلمية ، والمتاحف ، والمكتبات ، وعلى إعانة المعماريين ، والمثالين ، والمصورين والممثلين والموسيقيين . ولم تكن هانوفر بالبلد الفسيح ولا الفخم ، ولكن كان يحوى داراً متألقة للأوبرا اجتذبت إليها هاندل . وكانت ألمانيا مجنونة بالموسيقى جنون إيطاليا الأم ذاتها .

كذلك كان لميونخ دار كبرى للأوبرا مولتها ضريبة فرضت على لعب الورق . غير أن أدواق بافاريا الناخبين أشهروا عاصمتهم بشىء آخر أيضاً هو العمارة . وكان مكسمليان إمانويل قد لجأ إلى باريس وفرساى حين اجتاح النمساويون دوقيته فى حرب الوراثة الإسبانية ، فلما عاد إلى ميونخ (١٧١٤) جلب معه ولعا بالفن وطراز الركوك . وصحبه معمارى فرنسى شاب يدعى فرنسوا دكوفلييه ، شيد للناخب التالى ، شارل البرت فى حديقة نمفنبورج ، آية من آيات الروكوك الألمانى ، هى قصر صغير يسمى اماليينبورج (١٧٣٤ — ٣٩) ، ظاهره بسيط ، وباطنه يعج

بالزخرف : فيه قاعة مرايا (شبيجلزال) ، مقببة تبهر الأنظار ، ذات زخارف من الجص بأشغال شعرية وعربية الطراز ، وحجرة صفراء (جلبس تسيمر) تحير زخارفها الجصية المذهبة العين التي تحاول تتبع تصميمها المعقد . وبهذا الطراز الطاغي نفسه بدأ يوزف افنر ، وأتم كوفلييه ، الحجرات الإمبراطورية في قصر الدوق بميونخ . وكان كوفلييه قد غادر فرنسا في العشرين من عمره قبل أن يتعلم الخضوع الكامل للذوق الفرنسي . ومن ثم عكف الفنانون الألمان ، دون أن يلقوا منه معارضة ، على تطوير الزخارف الجصية بتحرر الهواة وحماستهم ، فحققوا الكمال في الجزئيات مع الإسراف في الكليات . وقد تحطمت الحجرات الإمبراطورية في الحرب العالمية الثانية .

ولم يكن فردريك أوغسطس الأول « القوى » ، ناخب سكسونيا (حكم ١٦٩٤ — ١٧٣٣) ليرضى بان يبزه أى دوق ميونخى . ومع أنه انتقل إلى وارسو (١٦٩٧) ملكا على بولنده باسم أوغسطس الثانى ، فقد وجد الوقت ليفرض على السكسونيين من الضرائب ما يكفى لجعل درسدن « فلورنسة نهر الألب » . فتقدمت بذلك جميع المدن الألمانية في الانفاق على الفن ، كتبت الليدى مارى مونتاجيو في ١٧١٦ تقول : « إن المدينة أكثر ما رأيت من مدن في ألمانيا نظافة وأناقة ، وأكثر بيوتها حديثة البناء وقصر الناخب آية في الجمال »[٦] . وجمع أوغسطس الصور في نهم كنهمه في جمع الخليلات ، أما ابنه الناخب فردريك أوغسطس الثانى (حكم ١٧٣٣ — ٦٣) فقد أغدق المال على الخيل والصور ، و « جلب الفنون إلى ألمانيا »[٧] كما قال ونكلمان . وفي ١٧٤٣ أوفد أوغسطس الأصغر هذا لجاروتى إلى إيطاليا حاملا الدوقاتيات لشراء الصور ، ولم يلبث الناخب أن دفع ١٠٠,٠٠٠ سيكوين (٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لمجموعة الدوق فرانتشسكو الثالث أمير مودينا ، وفي ١٧٥٤ اشترى لوحة رفائيل « سستينى مادونا » (عذراء كنيسة السستين) بعشرين ألف دوقاتية ، وهو ثمن لم يسبق له نظير . وهكذا تكونت قاعة صور درسدن العظمى .

وقامت في درسدن دار جميلة للأوبرا في ١٧١٨ ، ولا بد أن فرقتها

كانت متفوقة ، لأن هاندل أغار عليها ليزود منها مشروعاته الانجليزية الجريئة فى ١٧١٩ ، وكان أوركستراها بقيادة يوهان هاسّى من خيرة الأوركسترات فى أوربا (٨) . وفى درسدن ولد الخزف الميسيني — ولكن يجب أن تنفرد لهذا قصة مستقلة . وأما فى عمارة العاصمة السكسونية فإن ألمع الأسماء كان متاوس دانيل بوبلمان ، الذى شاد لأوغسطس القوى فى ١٧١١ — ٢٢ قصر تسفنجر الشهير مركزاً لمهرجانات البلاط . وهو مجمع باروكى رائع من أعمدة وعقود ونوافذ جميلة ذات عمد وشرفات وقبة تتوج هذا كله . وقد دمرت القنابل القصر فى ١٩٤٥ ، ولكن البوابة الفخمة أعيد بناؤها وفق التصميم الأصلى . ولهذا الناخب الذى لا يتعب ولا يكل أقام المعمارى الرومانى جيتانو كيافيرى بطراز الباروك كنيسة البلاط (١٧٣٨ — ٥١) ، وهذه أيضاً دمرت إلى حد كبير ثم رممت بنجاح . إن التاريخ سباق بين الفن والحرب ، والفن يلعب فى هذا السباق دور سسيفوس (ملك كورنثة الذى قضى عليه بان يدحرج حجرا ثقيلا صاعداً الجبل ، فلا يلبث الحجر أن يتدحرج إلى أسفل) .

٢ — الحياة الألمانية

كانت ألمانيا الآن تتصدر أوروبا فى ميدان التعليم الأولى . ففى ١٧١٧ جعل فردريك وليم الأول ملك بروسيا التعليم الابتدائى إلزاميا فى مملكته ، وأسس فى العشرين سنة التالية ١٧٠٠ مدرسة لتعليم الصغار وتلقينهم ما يريد . وكان يقوم بالتدريس عادة فى هذه المدارس مدرسون علمانيون وأخذ دور الدين فى التعليم يتضاءل . وتركز الاهتمام على تعويد التلاميذ الطاعة والاجتهاد ، وكان الجلد عقابا لا غنى عنه . وقد حسب معلم أنه خلال إحدى وخمسين سنة مارس فيها التعليم جلد تلاميذه ١٢٤،٠٠٠ جلدة بالسوط ؛ وصفعهم بيده ١٣٦،٧١٥ صفعة ، وضربهم بالعصا ٩١١،٥٢٧ ضربة ، ولكمهم على آذانهم ١،١١٥،٨٠٠ لكمة . وفى ١٧٤٧ أسس يوليوس هيكر ، القسيس البروتستنتى فى برلين أول « مدرسة واقعية Realschule » ، وقد سميت كذلك لأنها أضافت الرياضيات والدراسات

الصناعية إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية ، وسرعان ما أنشأت معظم المدن الألمانية معاهد على غرارها .

أما فى الجامعات فإن دراسة اليونانية ارتفعت إلى مكان مرموق جديد فارست بذلك الأسس لتفوق ألمانيا اللاحق فى الدرسات اليونانية وقامت جامعات إضافية فى جوتنجن (١٧٣٧) وإرلانجن (١٧٤٣) . وإذا كان ناخب هانوفر (الذى أصبح ملكا على انجلترة) يمول جامعة جوتنجن ، فإنها حذت حذو جامعة هاللى فى إطلاق يد الأساتذة فى التعليم ، والتوسع فى تدريس العلوم الطبيعية والدراسات الاجتماعية ، والقانون . وخلع الطلاب الآن الرداء الجامعى ، وارتدوا العباءة ، وتقلدوا السيف والمهماز ، والتحموا فى المبارزات ، وتلقوا الدروس من سيدات المدينة الأكثر تحللا . وكانت الألمانية لغة التعليم إلا فى الفلسفة واللاهوت .

على أن الألمانية كانت قد انحدرت سمعتها الآن ،لأن الطبقة الأرستقراطية أخذت تستعمل الفرنسيه . كتب فولتير من برلين (٢٤ نوفمبر ١٧٥٠) يقول « أنني أجد نفسي هنا فى فرنسا ، فما من انسان يتكلم غير الفرنسية . أما الألمانية فللجند والخيل . ولا يحتاج إليها المرء إلا على الطرق »[٩] . وقدم المسرح الألمانى الهزليات بالألمانية ، والمآسى بالفرنسية — وكانت عادة تختار من ذخيرة المآسى الفرنسية . وكانت ألمانيا آنئذ أقل الدول الأوروبية نزعة قومية ، لأنها لم تكن بعد دولة .

وعانى الأدب الألمانى من هذا الافتقار إلى الوعى القومى . وكان أكثر مؤلفى العصر الألمان أثرا ، وهو يوهان كرستوف جوتشيد ، الذى جمع من حوله لفيفا من الأدباء أحال ليبزج إلى « باريس صغرى » ، يستعمل الألمانية فى كتاباته ، ولكنه استورد مبادئه من بوالو ، وندد بالفن الباروكى لأنه ضرب من الفوضى البراقة ، ودعا إلى الرجوع للقواعد الكلاسيكية فى الكتابة والفن كما مارسها الفرنسيون على عهد لويس الرابع عشر . وهاجم ناقدان سويسريان — هما بودمير وبريتنجر — إعجاب

جوتشيد بالنظام والقواعد ، وأحسا أن الشعر يستمد قوته من قوى الوجدان والعاطفة الأعمق من العقل ، وحتى فى راسين يتفجر عالم من الانفعال والعنف خلال الشكل الكلاسيكى . وأكد بودمير أن « أفضل الكتابات ليس ثمرة القواعد ... فالقواعد تشتق من الكتابات » [١٠] .

أما كرستيان جيللبرت ، الذى فاق جميع الكتاب الألمان شعبية ، فقد وافق بودمير ، وبويتنجر ، وبسكال ، على أن الوجدان هو لب الفكر وروح الشعر . وكان جديرا باسم المسيحى (كرستيان) إذ بلغ من احترام الناس له لنقاء حياته ورقة سلوكه أن الملوك والأمراء كانوا يختلفون إلى محاضراته فى الفلسفة والاخلاق بجامعة ليبزج ، وأن النساء كن يأتين ليلثمن يديه . وكان رجلا ذا عاطفة لا يخجل من الجهر بها ، ناح على القتلى فى معركة روسباخ بدلا من أن يحتفل بانتصار فردريك فيها ، ومع ذلك فإن فردريك ، أعظم رجل واقعى فى ذلك العصر ، وصفه بأنه « أكثر العلماء الألمان معقولية » [١١] . على أن فردريك آثر عليه فى أغلب الظن إيفالد كرستيان فون كلايست ، الشاعر الشاب الفحل الذى بذل حياته لأجله فى معركة كونرسدورف (١٧٥٩) وكان رأى الملك فى الأدب الألمانى قاسيا ولكنه مشوب بالأمل : « ليس لدينا كتاب مجيدون على الاطلاق ، ولعلهم يظهرون حين أكون سائرا فى فراديس النعيم . . . ستسخر منى لاهتمامى بتوصيل بعض المفاهيم عن الذوق وبعض « الملح » الكلاسيكى لأمة لم تعرف إلى الآن شيئا غير الطعام والشراب والقتال [١٢] وكان كانط ، وكلوبشتوك ، وفيلاند ، ولسنج ، وهردر ، وشيلر ، وجيته — كان هؤلاء جميعا قد ولدوا فى هذه الأثناء .

وثمة ألمانى من أهل ذلك العهد كسب تعاطف فردريك الفعال وهو كرستيان فون فولف ، وكان ابن دباغ ارتقى إلى منصب الاستاذية فى جامعة هاللى . وقد اتخذ المعرفة كلها موضوعا لتخصصه ، فحاول أن يصنفها على أساس فلسفة ليبنتس . ومع أن مدام دشاتليه وصفته بأنه « ثرثار كبير » ، فإنه التزم بأن يسترشد بالعقل ، وبطريقته المتعثرة بدأ التنوير

الألمـانى (Aufklarung) وحطم السوابق بتدريس العلـوم والفلسفة بالألمانية . ومجرد إيراد قائمة بكتبه السبعة والستين كفيل بأن يعطل مسيرنا . وقد بدأ برسالة من أربعة مجلدات عن « جميع العلوم الرياضية » (١٧١٠) ، ثم ترجم هذه المجلدات إلى اللاتينية (١٧١٣) وأضاف إليها قاموسا رياضيا (١٧١٦) ييسر الانتقال إلى الألمانية . وواصل التأليف بسبعة كتب (١٧١٢—٢٥) فى المنطق ، والميتافزيقا ، والاخلاق ، والسياسة ، والفزياء ، والغائية ، والأحياء ، وكل عنوان منها تتصدره فى جرأة هاتان الكلمتان « أفكار معقولة » وكأنه يرفع راية العقل فوق صارية . وإذ كان يهفو إلى جمهور قراء أوربى ، فإنه غطى هذه المنطقة كلها بثمانى رسائل لاتينيه ، كان أكثرها تأثيرا « علم النفس التجريبى » (١٧٣٢) ، و «علم النفس العقلانى» (١٧٣٤) و « اللاهوت الطبيعى » (١٧٣٦) . وبعد أن خرج حيا من كل هذه المـآزق ارتاد فلسفة القانون (١٧٤٠ — ٤٩) ، ولكى يتوج هذا الصرح كتب ترجمة لحياته .

وسير أسلوبه المدرسى المنتظم يجعـل من الصعب قراءته فى عصرنا المحموم . ولكنه كان بين الحين والحين يلمس مناطق حية . من ذلك أنه رفض ما ذهب إليه لوك من اشتقاق المعرفة كلها من الإحساس ، وكانت نظرياته معبراً بين ليبنتس وكانط لأنه أصر على الدور النشيط الذى يؤديه العقل فى تكوين الأفكار . فالجسم والعقل ، والحركة والفكرة ، عمليتان متوازيتان ، لا تؤثر إحداهما فى الأخرى . والعالم الخارجى يعمل آلياً ، وهو يبدى دلائل كثيرة على الخطة ذات القصد ، ولكن ليس فيه معجزات وحتى عمليات العقل خاضعة لحتمية العلة والمعلول . أما الأخلاق فينبغى أن تلتمس ناموساً خلقياً مستقلا عن العقيدة الدينية ، وعليها ألا تعتمد على الله لتخويف البشر حتى يلتزموا الفضيلة . وأما وظيفة الدولة فليست السيطرة على الفرد بل توسيع الفرص لنموه[١٣]. وهو يطرى الأخلاق عند كونفوشيوس بوجه خاص ، لأنها لم تقم الفضيلة على الوحى فوق الطبيعى بل على العقل البشرى[١٤] . « إن قدامى أباطرة الصين وملوكها كانوا قوما ذوى ميل فلسفى وبفضل عنايتهم أصبح نظام حكومتهم خير النظم جميعا »[١٥] .

وذهب كثير من الألمـان إلى أن فلسفة فولف مهرطقة إلى حد خطر ، رغم اعترافاته الجادة بالعقيدة المسيحية . وأنذر أعضاء فى هيئة التدريس فردريك وليام الأول بأنه لو قبلت حتمية فولف فلن يكون فى الإمكان عقاب أى جنـــدى هارب ، وسينهار صرح الدولة كله (١٦) . فأمر الملك المرتاع الفيلسوف بأن يغادر بروسيا خلال ثمان وأربعين ساعة وإلا « كان عقابه الموت الفورى » فهرب إلى مجدبورج وجامعتها ، حيث رحب به الطلاب رسولا وشهيداً للعقل . وقد نشر أكثر من مائتى كتاب أو كتيب خلال ستة عشر عاما (١٧٢١ — ٣٧) تهاجمه أو تدافع عنه . وكان من أول أعمال فردريك الأكبر الرسمية عقب اعتلائه العرش (١٧٤٠) إنه وجه دعوة حارة للفيلسوف المنفى يطلب إليه الرجوع إلى بروسيا وهاللى . وجاء فولف وفى ١٧٤٣ عين مديراً للجامعة . وازداد اتباعه للابن التقليدى مع الزمن ، ومات (١٧٥٤) فى كل ورع المسيحى السنى .

ولقد كان تأثيره أعظم كثيراً مما قد نحكم به من شهرته الضعيفة فى العصر الحاضر ، وجعلته فرنسا عضو شرف فى أكاديمية علومها ، وعينته أكاديمية سانت بطرســـبورج الإمبراطورية أستاذاً فخريا بها ، وترجم الانجليز والإيطاليون مؤلفاته فى مثابرة ، وفرض ملك نابلى النسق الفولفى فى جامعاته . واطلق عليه الجيل الأصغر من الألمـان لقب الحـكيم ، وشعر بأنه علم ألمـانيا أن تفكر . واضمحلت طرائق التعليم المدرسية القـــديمة ، وزادت الحرية الأكاديمية . ونقل مارتن كنوتسن الفلسفة الفولفية إلى جامعة كونجزبرج ، حيث كان يدرس ايمانويل كانط .

وضعف تأثير الدين فى الحياة الألمـانية بسبب تطور العلم والفلسفة ، ونتائج البحث فى الكتاب المقدس التى أزالت الأوهام ، فضـــلا عن قوى العلمنة الشديدة . وانتشرت بين الطبقات العليا الأفكار الربوبية التى وصلت من انجلترة بفضل الترجمات واتصال انجلترة بهانوفر ، ولكن أثر هــذه الأفكار كان تافها إذا قيس بنتيجة إخضاع الكنيسة ـ الكاثوليكية والبروتستنية على السواء ـ للدولة . لقد قوت حركة الإصلاح البروتستنتى العقيدة الدينية حينا ، ثم جاءت حرب الثلاثين فأضرت بهذه العقيدة ، والآن كان خضوع

الاكليروس للأمراء الحاكمين سببا فى زوال هالة التقى والورع التى خلعت القدسية من قبل على سلطانهم . وأصبحت التعيينات فى الوظائف الكنسية يمليها الأمير أو السيد الإقطاعى المحلى . أما النبلاء فتظاهروا بالدين ، كما فعل نظراؤهم فى انجلترة ، باعتباره مسألة منفعة سياسية وعرف اجتماعى. وفقد الاكليروس اللوثرى والكلفنى مقامهما ، واستردت الكاثوليكية سلطانها فى بطء . فى هذه الفترة انتقلت ولايات شكسونيا ، وفورتمبرج ، وهسى ، وكلها بروتستنتية ، إلى حكام كاثوليك ، واضطر فردريك اللاأدرى إلى استرضاء سيليزيا الكاثوليكية .

ولم تزك غير حركة دينية واحدة فى المناطق البروتستنتية وهى حركة الإخوان المتحدين ، أو الإخوان الموارفيين. ففى عام ١٧٢٢ هاجر نفر من أعضائها الذين اضطهدوا فى مورافيا إلى سكسونيا ، ووجدوا الملجأ فى ضيعة الكونت نيكلاوس لودفج فون تستسندورف . وقد رأى هذا الكونت الشاب، الذى كان هو نفسه ابن العمادلفيليب ياكوب سبينر فى هؤلاءاللاجئين فرصة لإحيــاء روح المذهب التقوى . فبنى لهم على أرضه قرية هرنهوت (أى جبل الرب) ، وأنفق ثروته كلها تقريبا على طبع الأسفار المقدسة وكتب تعليم العقيدة المسيحية ، وكتب التراتيل وغيرها من المؤلفات لينتفعوا بها . وقد أعانت رحلاته فى أمريكا (١٧٤١ — ٤٢) وانجلترة (١٧٥٠) وغيرهما على إنشاء مستعمرات لهؤلاء الإخوان فى كل قارة ، والواقع أن الإخوان الموارفيين هم الذين بدأوا نشاط البعوث الحديث فى الكنائس البروتستنتية [١٧] فقد جلب بيتر بولر تأثيرا قويا للإخــوان فى الحركةالمثودية حين ألتقى بجون وسلى فى ١٧٣٥ . وفى أمريكا استقر بهم المقام قرب بيت لحم فى بنسلفانيا ، وفى ســـليم بكارولينا الشمالية . واحتفظوا بإيمانهم ونظامهم سليمين لم تكد تمسهما رياح العقيـدة وأزياء اللباس ، وربما كان الثمن شيئاً من قسوة الروح فى علاقاتهم العائلية ، ولكن لا مناص للشاك من أن يحترم قوة إيمانهم وإخلاصه ، وانسجامه الغريب مع حياتهم الخلقية .

وكانت أخلاق العصر بصفة عامة أسلم وأصح فى ألمانيا منها فى فرنسا،

إلا حيث سرت بدعة محاكاة فرنسا من اللغة إلى الفسق . ففي الطبقات الوسطى خضعت الحياة العائلية لضبط أشرف على التعصّب والغلو ، فقد درج الآباء على أن يسوطوا بناتهم ، وزوجاتهم أحيانا [١٨] ، وفرض فردريك وليم الأول على بلاط برلين نظاما تسوده الرهبة ، ولكن ابنته وصفت البلاط السكسوني في درسدن بأنه بلغ في زناه مبلغ بلاط لويس الخامس عشر . ويؤكد لنا مصدر غير وثيق أنه كان لأوغسطس القوى ٣٥٤ طفلا « طبيعيا » (أي غير شرعي) نسي بعضهم أبوتهم المشتركة في فراش سفاح المحارم . بل قيل إن أوغسطس نفسه اتخذ له خليلة من ابنته غير الشرعية الكونتيسة أوركتسيلسكا [١٩] ، التي علمت فردريك الأكبر فيما بعد فنون الغرام . وقد أصدرت كلية الحقوق بجامعة هاللي في بواكير القرن الثامن عشر إعلانا دافعت فيه عن التسري بين الملوك والأمراء [٢٠] .

وكانت آداب السلوك صارمة ، ولكنها لم تدع لنفسها ما تميزت به الآداب الفرنسية من رشاقة الحركة أو سحر الحديث . وأدفأ النبلاء أنفسهم بالحلل والألقاب بعد أن انتزعت منهم السلطة السياسية . كتب اللورد تشسترفيلد في ١٧٤٨ يقول : « أعلم أن الكثير من الخطابات رد دون أن يفتح لأنه أغفل كتابة لقب من بين عشرين في عنوانه » [٢١] . وكان حكم أولفر جولدسمث قاسياً قسوة المتعصب لوطنه إذ قال : « فلنوف الألمان حقهم ، إنهم وإن كانوا أغبياء فليس هناك أمة حية تتكلف رزانة محمودة أكثر منهم ، أو تفوقهم في فهم آداب الغباء » [٢٢] وقد وافقه فردريك الأكبر [٢٣] وظل الأكل وسيلة محببة لإنفاق اليوم . واقتبس الأثاث طرز النقش والتطعيم المزدهرة آنئذ في فرنسا ، ولكن لم يكن في فرنسا ولا في انجلترة شيء يداني في بهجته مواقد الطهو الملونة بألوان تشرح الصدر ، والتي أثارت حسد الليدي ماري مونتاجيو [٢٤] . وكانت الحدائق الألمانية مطلينة ، ولكن البيوت الألمانية ، بما حوت من واجهات نصفها من الخشب ، ونوافذ ذات أعمدة ، وأفاريز واقية ، خلعت على المدن الألمانية فتنة مشرقة تنم على حسٍّ جمالي مرهف وإن لم يكن قد تشكل .

والواقع أن الذى أرسى الاستعمال الحديث للفظ Aesthetic (جمـــالى) فى كتابه بهذا العنوان (١٧٥٠) ، وأذاع نظرية فى الجمال والفن بوصفها قسما من أقسام الفلسفة ومشكلة من مشاكلها ، كان ألمانيا يدعى ألـكسندر باومجارتن .

٣ ـ الفن الألمـانى

كانت صناعة الخزف هنا فناً كبيراً ، لأن الألمان علموا أوروبا فى هذه الفترة كيف تصنع الصينى ، فلقد استأجر أوغسطس القوى يوهان فريدرش بوتجر لتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وأخفق بوتجر ، ولكنه انشأ بمساعدة صديق قديم لسبينوزا يدعى فلترفون تشيرنهاوس مصنعاً للقاشانى فى درسدن ، وأجرى تجارب وفقت آخر الأمر فى إنتاج أول خزف صينى أوروبى صلب العجينة . وفى ١٧١٠ نقل هذه الصناعة إلى مايسن ، على أربعة عشر ميلا من درسدن ، وهناك واصل تحسين طرائقه وصقل منتجاته حتى وفاته (١٧١٩) . وكان خزف مايسن يرسم بألوان غنية على أرضية بيضاء برسوم رقيقة للزهر والطير ومشاهد الحياة اليومية والمناظر الطبيعية ومناظر البحر واللقطات الغريبة من الثياب والحياة الشرقيتين . وزاد يوهان يواكيم كيندلر العملية تحسيناً ، فأضيف النحت فى الصينى إلى الرسم تحت السطح المصقول؛ وخلدت التماثيل الصغيرة الغريبة أشخاص الفولكلور والكوميديا الألمانيين ، ودلت روائع خصبة الخيال مثل رائعة « خدمة البجع » لكيندلر وايبرلاين على أن فى استطاعة الفن أن ينافس ما حوته خزائن النساء المنوعة بهاء ونعومة . وسرعان ما راحت كل مجتمعات أوروبا الارستقراطية ، حتى فى فرنسا ، تزين حجراتها بتماثيل من صينى مايسن فيها تهكم مضحك . واحتفظت المدينة بتفوقها فى الفن إلى سنة ١٧٥٨ ، حين اجتاحها الجيش البروسى فى حرب السنوات السبع .

ومن أوجزبورج ، ونورنبرج ، وبايرويت ، وغيرها من المراكز ، سكب الخزافون الألمان فى البيوت الألمانية فيضاً باروكياً من المنتجات

الحرارية ، من أبدع القاشانى والصينى إلى الأباريق البهيجة ى جعلت حتى فن شرب الجعة تجربة جمالية . وتزعمت ألمانيا أوروبا طوال أكثر القرن الثامن عشر فى صناعة الزجاج لا الصينى فحسب (٢٥) . كذلك لم يبز صناع الأشغال الحديدية الألمان أحد فى هذا العصر ، ففى أوجزبورج وإيبراخ ، وغيرهما صنعوا بوابات من الحديد المشغول تنافس تلك التى كان يقيمها جان لامور فى نانسى . أما الصاغة الألمان فلم يفقهم غير أبرع زملائهم فى باريس . وحفر الحفارون الألمان (كنوبلزدورف ، وجلوى ، وروجنداس ، وريدنجر ، وجيورج كيليان ، وجيورج شمت) أو نقشوا بالحرق رسوماً بديعة فى الأطباق النحاسية (٢٦) .

أما المصورون الألمان فى هذه الفترة فلم يظفروا بالشهرة الدولية التى ما زال يجزى بها فاتو ، وبوشيه ، ولاتور ، وشاردان . وإنه لمن ضيق أفقنا الفكرى — ذلك الضيق الذى لامهرب منه — جهل غير الألمان بصور مصورين ألمان مثل كوزماس آرام ، وبلتازار دينر ، ويوهان فيدلر ، ويوهان تيلى ، ويوهان تسزنيس ، وجيورج دماريه ، فحسبنا أن نتلو أسماءهم على الأقل ونحن أكثر إحاطة بمصور فرنسى استوطن ألمانيا يدعى انطوان بين ، وقد أصبح مصور البلاط لفردريك وليم الأول ثم لفردريك الأكبر . وتصور رائعته فردريك وهو بعد غلام برىء فى الثالثة ومعه أخته فلهلمينى ذات الستة أعوام (٢٧) ، ولو أن هذه اللوحة رسمت فى باريس لسمعت بها الدنيا كلها .

واكتسبت أسرة صيتاً ذائعاً فى ثلاثة ميادين — التصوير والنحت والعمارة . فقد رسم كوزماس دميان آزام ، فى كنيسة القديس إمبرام بريجنزبورج ، صعود القديس بندكت إلى الفردوس ، وأعانه على ذلك بمنصة إطلاق . واشترك كوزماس مع أخيه إيجد فى رسم داخل كنيسة القديس نيبوموك بميونخ — عمارة يغشاها النحت بأكثر ضروب الباروك إسرافاً . وحفر إيجد بالجص « صعود مريم » لكنيسة دير فى رور ببافاريا . وبدت اليد الإيطالية الرقيقة فى نافورة نبتون الرائعة التى أقامها لورنتسو

ما تيللى فى درسدن ، وكانت النافورة من المعالم الشهيرة فى بهاء العاصمة السكسونية . أما بلتازار برموزر فقد أفسد تمثاله « تمجيد الأمير أوجين[٢٨] » بخليط مهوش من التماثيل الرمزية ، وقد زين بمثل هـذا الإسراف جناح قصر تسفنجر بدرسدن ، ولكنه حقق درجة من الجلال والقوة تكاد تقربه من ميكلانجلو فى تمثال « الرسل » المتجمعين حول منبر كنيسة البلاط بدرسدن ، وتمثاله « القديس أمبروز » المصنوع من خشب الزيزفون فى تلك الكنيسة يستشرف قمة النحت الأوربى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد تصـور جيورج ايبنيست الجمال الألمانى المشوق فى تمثاله البديع « باخوس واريادنى » الذى نحته لبستان سانسوسى . وحفلت البساتين والحدائق الألمانية بالمنحوتات ، وقدر خبير فى الباروك أن « فى ألمانيا من تماثيل الحدائق الجيدة نسبة تفوق كل ما فى سائر أوروبا من تماثيل مجتمعة[٢٩] » .

على أن المعمار هو الميدان الذى لفت فيه الفنانون الألمان أنظار الفنانين الأوربيين فى هذا العصر . فقد ترك يوهان بلتازار نويمان بصمته على أكثر من عشرة مبان . وكانت رائعته قصر أمير فورتسبورج الأسقف ، وقد تعاون آخرون معه فى التصميم والتنفيذ (١٧١٩ — ٤٤) ، ولكن يده كانت اليد الهادية . وقد تحطمت فى الحرب العالمية الثانية القاعة الفينيسية وقاعة المرايا ، المتألقتان بزخارفها ، ولكن بقيت أربع قاعات لتشهد ببهاء الداخل ، أما بيت السلم الفخم الذى اشتهر فى دنيا الفن كلها بصور سقفه الجصية التى رسمها تيبولو ؛ فكان واحد من عدة مبان شبيهة به أعانت على دفع نويمان إلى مكان مرموق بين معمارى زمانه . وبيت السلم الذى بناه للقصر الأسقفى فى بروشزال يختلف عن هذا كل الاختلاف ، ولكنه يكاد يعدله روعة — وهو ضحية أخرى من ضحايا الانتحار القومى . وربما فاق كليهما جمالا بيت السلم المزدوج الذى بناه لأوجستوسبورج فى برول بقرب كولونيا . وكان بناء بيوت السلم غرامه ، فأغدق من فنه على بيت آخر فى دير بمدينة ابراخ . ثم قطع مصاعده ومهابطه ببناء « كنيسة للحج » فيرتسينهايليجن على المين ، وزين بالباروك المزخرف كنيسة

القديس بولس فى ترير وكنيسة كرويتسبيرج قرب بون ، وأضاف إلى كتدرائية فورتسبورج مصـــلى بلغ ظاهره أكمل ما يمكن أن يبلغه طراز الباروك .

وتخصصت العمارة الكنسية الآن فى بناء الديورة الضـــخمة . فقام إنريكو تسوكاللى فى ١٧١٨ بترميم « كلوستر أتال » ، وهو دير بندكتى بناه الإمبراطور لويس البافارى عام ١٣٣٠ فى وادجبـــل على مقربة من أوبرامبرجا وحدد بناؤه إنريكوتسوكاللى ،وتوجه بقبة رشيقة . وقد دمرت النار كنيسة الدير فى ١٧٤٤ ، فأعاد بناءها يوزف شموتسر فى ١٧٥٢ ، وقد حلى داخلها تحلية دقيقة بطراز الروكوك المذهب الأبيض ، بصور جصية بريشة يوهان تسايلر ومارتن كنوللر ، وأضيفت مذابح جانبية فاخرة فى ١٧٥٧ ، وأرغن اشتهر بغطائه الجميل . وأروع هذه الآثار التقوية هى الكلوستركرشي ، أو كنيسة الدير البندكتى ، الغنية غنى لا يصدق ، والواقعة فى اوتوبورين جنوب شرقى ميمنجن . هنا نظم يوهان ميكائيل فيشر المجموعة ، وقام يوهان كريستيان بالنقوش المذهبة ، وصنع مارتن هورمان مقاعد المرتلين — وهى مفخرة الحفر الألمـانى فى الخشب فى القرن . وقد عكف فيشر على هـــذا العمل فى فترات متقطعة من ١٧٣٧ ، حتى وفاته فى ١٧٦٦ .

وكرهت الطبقات الحاكمة — كما كره الرهبان — أن تنتظر جنة بعـــد القبر . فشيدت بعض القاعات الفخمة للمدن ، مثل قاعتى لونبورج وبامبرج ولكن أعظم جهود العمارة العلمانية خصص للقلاع والقصور . فكان فى كل كارلزروهى قصر الحاكم بادن دورلاخ ، هو قلعة فريدة فى بابها ، بنيت على شكل مروحة - تتشعب أضلاعها من حديقة لها شكل مقبض متجهة إلى شوارع المدينة . وقد دمر هذا القصر كما دمر كثير مما احتوته المدينة فى الحرب العالمية الثانية . وحاقت هذه المأساة أيضاً بقصر [illegible] العظيم الذى شيده أندرياز شلوتر وخلفاؤه (١٦٩٩ — ١٧٢٠) [illegible] ضحية أخرى هى قصر مونبيجو ، القريب من برابة شباندا و [illegible] لين . أما قلعة برول التى صممت لرئيس أساقفة كولونيا فقد دمر بعضها . وأما قلعة

بروشزال فقد دمرت برمتها . وفى ميونخ بنى يوزف افنر قصر بريبزنج وفى توبير بنى يوهان زايتس لرئيس الأساقفة الحاكم « قصر الناخب » — وهو نموذج للجمال الوديع . وأما الأسقف ناخب مينز ، فقــد بنى له مكسمليان فون فيلش ويوهان دينتسينهوفر بقرب بومرزفيلدن قلعة كبرى ثانية ، تدعى قلعة فيسنشتين ، أقام فيها يوهان لوكاس فون هيلدبرانت بيت سلم مزدوجاً يستطيع كبار القوم أن يصعدوا ويهبطوا عليه دون أن يصدم بعضهم بعضاً .

وتوج فردريك الأكبر المعمار الألمانى العلمانى فى القرن الثامن عشر بتكليفه جيورج فون كنوبلز دورف وآخرين بأن يبنوا فى بوستدام (خارج برلين بستة عشر ميلا) ، وفق تصميم صنعه الملك نفسه ، ثلاثة قصور كانت فى مجموعها ضريباً لفرساى : قصر الدولة « شتاتشلوس » ، (١٧٤٥—٥١) ، والقصر الجديد «نويئس» (١٧٥٥) ، ومنتجع فردريك الصيفى ، الذى سماه شلوس « قلعة سانسوسى » . فكان طريق مشجر من درج هين ، يبدأ من نهر هافل ، يفضى بعد خمس مراحل تخترق بستاناً مدرجاً إلى هذه « القلعة الحلية البال » التى اتخذت نوافذها ذات الأعمـدة وقبتها الوسطى بعض وحيها من قصر تسفنجر بدرسدن . واحتوى جناح من أجنحتها على قاعة للفنون ، وتحت القبة دائرة من الأعمـــدة الكورنثية الجميــلة ، مكتبة زينت بزخارف ملولبة روكوكية ، وتألقت بالكتب التى احتوتها خزانات زجاجية ، وأتاحت للملك ملاذاً من السياسة والقواد الحربيين. وفى سانسوسى على الأخص كان فولتير يلتقى بقرينه فى الملك الفليسوف الذى استطاع أن يحكم دولة ، ويتحدى الكنيسة ، ويصمم بناء ، ويرسم لوحة شخصية ، وينظم شعرا لا بأس به ، ويكتب تاريخا ممتازا ، وينتصر فى حرب على نصف أوربا ، ويلحن موسيقى ، ويقود أوركسترا ، ويعزف على الفلوت .

٤ — الموسيقى الألمانية

احتلت الموسيقى الألمانية مكان الصدارة من مولد هاندل وباخ فى ١٦٨٥ حتى موت برامز فى ١٨٩٧ . ففى أى وقت من هذه السنين التى بلغت ٢١٢

كان أعظم الملحنين الأحياء ألمانياً، باستثناء تأليف الأوبرا [٣٠]. وقد بلغ شكلان موسيقيان ، هما الأوراتوريو والفوجه ، غاية تطورهما فى إنتاج الألمان فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد يضيف البعض أن القداس الكاثوليكى الرومانى تلقى تعبيره النهائى على يد بروتستنتى ألمانى . لقد انتهى عصر القصور ، وبدأ عصر الموسيقى .

كانت الموسيقى جزءا من الدين ، كما كان الدين جزءا كبيرا جدا من الموسيقى فى كل بيت ألمانى . فما من أسرة ، اللهم إلا فى أفقر الطبقات ، إلا استطاعت أن تترنم بالترانيم المشتركة ، وما من فرد إلا استطاع أن يعزف على آلة أو أكثر . ورتلت مئات من جماعات الهواة المسماة Liebhaber الكنتاتات التى يعتبرها المرتلون المحترفون اليوم عسيرة إلى حد مثبط [٣١] . وظفرت كتيبات الموسيقى بشعبية كشعبية الكتاب المقدس . ودرست الموسيقى مع القراءة والكتابة فى المدارس العامة . وكان النقد الموسيقى أرقى من نظيرة فى أى بلد باستثناء إيطاليا ، وكان أعظم نقاد الموسيقى فى ذلك القرن ألمانيا .

وأغلب الظن أن يوهان ماتيزون كان أشهر من أى موسيقى ألمانى بين الموسيقيين الألمان وأقلهم ظفرا بحبهم . فقد حجب غروره جلائل أعماله . عرف اللغات الأدبية القديمة والحديثة ، وألف فى القانون والسياسة ، وأجاد العزف على الأرغن والبيان القيثارى إجادة أتاحت له أن يرفض أكثر من عشر دعوات إلى شغل وظائف مرموقة ، وكان راقصا رشيقا ، ورجل دينا عريض الثقافة ، وكان مثاقفا خبيرا كاد يقتل هاندل فى مبارزة معه . وغنى بنجاح فى أوبرا همبورج ، وألف الأوبرات ، والكانتاتات ، وتراتيل أسبوع الآلام ، والموشحات الدينية ، والسوناتات والسويتات . وطور شكل الكانتاتا قبل باخ . وظل تسع سنين قائد فرقة المرتلين للدوق هولستين ، فلما أصيب بالصمم قنع بأن يؤلف . وأصدر ثمانية وثمانين كتابا ، ثمانية منها فى الموسيقى ، وأضاف إليها رسالة عن التبـــغ . وأنشأ وأشرف على صحيفة « النقد الموسيقى » (١٧٢٢ — ٢٥) ، وهى أقدم ما عرفنا من نقاش نقدى

للمؤلفات الموسيقية القديمة والجديدة ، وصنف قاموس تراجم للموسيقيين المعاصرين ، ومات فى الثالثة والثمانين (١٧٦٤) ، بعد أن حفز عالم الموسيقى حفزا قويا .

أما الآلات الموسيقية فكانت فى تطور وتغير دائمين ، ولكن الأرغن ظل سيدهامن غير منازع . وكان له عادة ثلاث لوحات مفاتيح أو أربع ، مضافا إليها دواسة لجوابين ونصف ، وضوابط مختلفة تستطيع محاكاة أى آلة أخرى تقريبا . ولم تصنع إلى الآن أراغن أبدع من تلك التى صنعها اندرياس زلبرمان الاستراسبورجى ، وجوتفريد زلبرمان الفرايبرجى ولكن الآلات الوترية كانت تزداد رواجا فاستعملت « موترة المفاتيح » clarichord (أى المفتاح والوتر) لوحة مفاتيح لتشغيل روافع مزودة بمماسات صغيرة من النحاس لتضرب الأوتار . وكان عمر هذه الآلة ثلاثة قرون وربما أكثر أما البيـــان القيثارى harpischord (الذى سمـــاه الفرنسيون clavecin والايطاليون clavi أو gravicembalo) فـــكانت أوتاره ينقرها لسان من ريشة أو جلد ملصق بروافع تحركها (عادة) لوحة مفاتيح مزدوجة ، بمساعدة دواستين وثلاثة ضوابط أو أربعة . وكان لفظ clavier يستعمل للدلالة على أى آلة موسيقية لوحة مفاتيح — الموترة ، أو البيان القيثارى ، أو البيان — وعلى لوحات مفاتيح الأرغن . وكان البيان القيثارى فى أساسه قيثارا تنقر فيه الأصابع الأوتار بواسطة مفاتيح ، الريشة وروافع ، وكانت تنبعث منه أصوات لها سحر رقيق ، ولكن لما كانت الريشةوريش ترتد بمجرد ضربها الوتر ، فإن هذه الآلة لم يتح لها أن تطيل نغمة أو تنوع حدتها . ولكى تعزف درجتين من درجات الصوت كان لابد لها من اللجوء إلى لوحة مفاتيح مزدوجة — العليا لـ « بيانو » (خافته) والسفلى لـ « فورتى » (عالية) وقد انبعث « البيانو فورت » من الجهود التى بذلت للتغلب على هذه العيوب .

وفى عام ١٧٠٩ أو قبله صنع بارتولوميو كريستوفورى فى فلورنسه أربعة « بيانات قيثارية بالخافت والعالى » . وفيها حلت محل الريشة مطرقة جلدية صغيرة كان فى الأمكان إطالة اتصالها بالوتر بمواصلة خفض المفتاح ،

فى حين أمكن التحكم فى علو النغمة بالقوة التى يضرب بها الأصبع المفتاح . وفى عام ١٧١١ وصف سكيبوتى دى ما فى الآلة الجديدة فى مجلته « جورنالى دى ليتراتى ديتاليا »، وفى ١٧٢٥ ظهر هذا المقال بدرسدن فى ترجمة ألمانية، وفى ١٧٢٦ صنع جوتفريد زلبرمان ، بوحى من الترجمة [٣٢] ، بيانين على هدى من مبادىء كريستوفورى . وحوالى ١٧٣٣ عرض نموذجا محسنا على يوهان سبستيان باخ ، الذى صرح بأنه شديد الضعف فى القدرة الصوتية العليا ، وأنه يتطلب لمسا شديدا . وسلم زلبرمان بهذه العيوب واجتهد فى تلافيها . وبلغ من توفيقه فى هذا أن فردريك الأكبر اشترى خمسة عشر بيانا منها . وعزف باخ على أحدها حين زار فردريك فى ١٧٤٧ ، فأعجبه، ولكنه رأى أنه قد بلغ من الشيخوخة حدا لا يسمح له باستعمال الآلة الجديدة، وظل فى السنوات الثلاث الباقية فى عمره يؤثر الأرغن والبيان القيثارى .

أما الأوركسترا فكان يستخدم أساسا فى خدمة الأوبرا أو الكورس ، وقل أن وضعت الموسيقى له وحده ، ألا أن تكون مقدمات . وكانت الأوبوا والباصون أكثر عددا منها فى أوركسترا هذه الأيام ، وطغت آلات النفخ على الآلات الوترية . أما الحفلات الموسيقية العامة فكانت إلى ذلك العهد نادرة فى ألمانيا ، وكادت الموسيقى تنحصر برمتها فى الكنيسة ، والأوبرا ، والبيت ، والشوارع . وأحييت حفلات لموسيقى الحجرة فى ليبزج من ١٧٤٣ فى بيوت أغنياء التجار ، ثم قبل بها جماعات أكبر فأكبر من المستمعين ، وزيد العازفون إلى ستة عشر ، وفى ١٤٧٦ أعلن دليل صادر فى ليبزج أنه « فى أيام الخميس تحيا حفلة موسيقية بأشراف شركة التجار التقية ، وأشخاص آخرين ، من الساعة الخامسة إلى الثامنة فى نزل البجعات الثلاث وأضاف الإعلان أن هذه الحفلات يرتادها أفراد المجتمع العصرى وتلقى الإعجاب والاهتمام الشديد[٣٣] . ومن هذة الجماعة الموسيقية Collegium Musieum تطور فى ١٧٨١ الكونشرتو الكبير فى قاعة تجار الأجواخ . Gewandhaus بليبزج —وهو أقدم سلسلةموجودةمن الكونشرتو .

ولم تخص الآلات وحدها إلا بأقل القليل من المؤلفات الموسيقية ، ولكن بعض هذه المؤلفات شارك بنصيب فى تطوير السمفونية . وفى مانهايم قامت

مدرسة من الملحنين والعازفين— كثير منهم من النمسا أو إيطاليا أو بوهيميا — بدور قيادى فى هذا التطوير . فهناك جمع شارل تيودور أمير بالاتين الناخب (حكم ١٧٣٣ — ٩٩) ، وراعى الفنون جميعا ، أوكسترا اشتهر عموما بأنه خير الأوركسترات قاطبة فى أوربا . وقد لحن يوهان شتاميتز ، عازف الكمان الماهر ، لهذا الأوركسترا سيمفونيات بالمعنى الصحيح ، أى مؤلفات أوركسترالية مقسمة إلى ثلاث حركات أو أكثر ، كانت أولاها على الأقل تنهج نهج السوناتا — أعنى عرض مواضيع متقابلة ، والتوسع فيها دون قيود ، ثم تلخيصها . وجريا على طريقة الملحنين النابوليين ، اتخذ الشكل الجديد عادة تعاقب هذه الحركات : السريع ، فالبطئ ، فالسريع (الأليجرو ، والأندانتى ، والأليجرو) ، وأضاف أحيانا من الرقص « منيوتا » . وهكذا انتقل عصر الموسيقى البوليفونية (أى المتعددة الأصوت) ، المبنية على فكرة رئيسية واحدة ، والبالغة قمتها فى ى . س . باخ ، إلى عصر الموسيقى السيموفونية — عصر هايدن ، وموتسارت ، وبيتهوفن .

وظل الصوت البشرى أعظم الآلات الموسيقية سحراً . فلحن كارل فليب إيمانويل باخ ، وكارل هاينريش جراون وغيرهما قصائد الغرام المشبوب التى نظمها يوهان كرستيان جونثر ، ووجد يوهان إرنست باخ الفيمارى الوحى للعديد من الأغانى الألمانية (الليدر) ، الجميلة فى شعر كرستيان جللرت . وازدهرت الأوبرا فى ألمانيا الآن ، ولكن غلب عليها الطابع الإيطالى ، إذا استوردت ألحانها ومغنيها من إيطاليا . وكان لكل بلاط كبير قاعة أوبراه ، التى لاتفتح عادة إلا للصفوة . أما همبورج التى هيمن عليها تجارها فكانت استثناء القاعدة : فقدمت الأوبرا الألمانية ، وأباحت حضور حفلاتها للجمهور الذى يدفع ، وجندت مغنياتها من السوق . وفى همبورج تربع راينهارت كايزر على عرش مسرح جينزيماركت (سوق الأوز) أربعين عاماً . وخلال حكمه هذا لحن ١١٦ أوبرا ، معظمها إيطالى نصاً وأسلوباً ، ولكن بعضها ألمانى . ذلك أن كتاب ماتيزون « الموسيقى الوطنى » ، المنشور فى ١٧٢٨ أشهر صيحة الحرب على الغزاة

الإيطاليين : « أخرجوا أيها البرابرة ! [Fuori barbari] ليمنع من الاشتغال بالأوبرا الأجانب الذين يحاصروننا من الشرق إلى الغرب ، وليردوا ثانية إلى ألبهم المتوحشة ليطهروا أنفسهم فى نيران إتنا ! [٣٤] ، ولكن سحر الأصوات والألحان الإيطالية لم يكن سبيل إلى مقاومة . وحتى فى همبورج خنق الولع بالأوبرات النابوليه المؤلفات الوطنية . فاستسلم كايزر وشد رحاله إلى كوبنهاجن . وأغلق مسرح همبورج أبوابه فى ١٧٣٩ بعد حياة امتدت ستين عاما ، ولما أعيد افتتاحه فى ١٧٤١ خصص صراحة للأوبرا الإيطالية . وحين أعاد فردريك الأوبرا إلى برلين (١٧٤٢) ، اختار ملحنين ألمانا ومغنين إيطاليين . وقال فى دهشة « مغن ألمانى ! أنى لأوثر أن أسمع حصانى يصهل [٣٥] .

وأنجبت ألمانيا فى هذا العصر مؤلفاً واحداً للأوبرا من الطراز الأول هو يوهان أدولف هاسى ، ولكنه هو أيضاً خطب ود إيطاليا . فقد درس فيها عشر سنوات على أليساندرو سكارلاتى ونيكولو بوربورا ، وتزوج المغنية الإيطالية فاوستينا بوردونى (١٧٣٠) ، ولحن الموسيقى لنصوص إيطالية وضعها أبوستولوزينو وميتاستاسيو . وغيرهما . واستقبلت أوبراته الأولى فى نابلى والبندقية استقبالا بلغ من حماسته أن إيطاليا لقبته « il caro Sassone » أى السكسونى المحبوب . فلما عاد إلى ألمانيا دافع بغيرة عن الأوبرا الإيطالية ، ووافقه معظم الألمان ، وكرموه أكثر من هاندل الغائب ، وأكثر كثيراً من باخ المجهول ، وشبهه بيرنى ، هو وجلوك ، برفائيل وميكلانجلو الموسيقى فى البلاد الألمانية [٣٦] . ولم يبلغ أحد حتى الإيطاليون ، ما بلغته أوبراته المائة من غنى فى الابتكار اللحنى أو الدرامى . وفى ١٧٣١ تلقى هو وزوجته ، أعظم مغنيات الأوبرا فى ذلك العصر ، دعوة إلى درسدن من أوغسطس القوى . وأسرت فاوستينا العاصمة بصوتها وسحرها هاسى بألحانه . وفى ١٧٦٠ ، فقد أكثر ممتلكاته ، ومن بينها مخطوطاته المجموعة ، نتيجة قصف فردريك الأكبر لدرسدن بالقنابل . وكفت المدينة المدمرة عن عرض أوبراته ، فرحل هاسى وزوجته إلى فيينا حيث راح وهو فى الرابعة والسبعين ينافس جلوك . وفى ١٧٧١ ، فى زواج

الارشيدوق فرديناند بميلان ، تقاسم البرنامج الموسيقى مع الصبى موتسارت البالغ الرابعة عشرة من عمره . ويروى أنه قال « إن هـذا الصبى سوف يحجبنا كلنا[٣٧] ! .وعقب ذلك ذهب هو وفاوستينا لينفقا ما بقى لهما من عمر فى البندقية . وهناك مات كلاهما عام ١٧٨٣ ، هو فى الرابعة والثمانين ، وهى فى التسعين . وقد فاق تآلف حياتهما اتساق أغانيهما .

وبينما كانت الموسيقى الإيطالية تنتصر فى دور الأوبرا الألمانية ، ازدهرت الموسيقى الكنسية رغم سخرية فردريك منها لأنها « عتيقة » ، و « منحطة »[٣٨] وسنرى الموسيقى الكاثوليكية تزكو فى فيينا ، وفى الشمال ألهمت الحماسة البروتستنتية الباقية على قيد الحياة فيضاً من الكنتاتات ، والكورالات ، وترانيم أسبوع الآلام ، وكأن مائة ملحن كانوا يمهدون لباخ الطريق ويعدون له الأشكال والصيغ الموسيقية . وغلبت موسيقى الأرغن ، ولكن الكثير من الأوركسترات الكنسية كان يحوى الكمان والفيولنشيلو . ولم يقتصر ظهور تأثير الأوبرا على التوسع فى الأوركسترات وفرق الترتيل الكنسية ،بل كذلك فى الطابع الدرامى المتزايد للألحانالكنسيه.

أما أشهر مؤلفى الموسيقى الدينية فى ألمانية باخ فكان جيورج فليب تيليمان الذى ولدقبل باخ بأربع سنوات (١٦٨١) ومات بعده بسبعة عشر عاماً (١٧٦٧) . وقد عده ماتيزون أعظم معاصريه الألمان قاطبة فى التأليف الموسيقى ، ولعل باخ كان يوافق على هذا الرأى باستثناء واحد لأنه نسخ كأنتاتات كاملة ألفها منافسه . وكان تيليمان طفلا عبقرياً ، تعلم اللاتينية واليونانية والكمان والفلوت فى طفولته ، وحين بلغ الحادية عشرة بدأ يلحن ، وفى الثانية عشرة ألف أوبرا مثلت على المسرح وقام هو بالغناء فى أحد أدوارها . كذلك لحن كنتاتا وهو الثانية عشرة ، وقادها وهو واقف فوق مقعد ليستطيع العازفون رؤيته .

ثم شب تيوتونيا قوياً بشوشاً يتدفق مرحاً وألحاناً . وفى ١٧٠١ بينما كان يمر بهاللى التقى بهاندل الذى كان فى السادسة عشرة من عمره فأحبه من أول نظرة . ومضى إلى ليبزج ليدرس القانون ، ولكنه ارتد إلى

الموسيقى وأصبح عازف أرغن الكنيسة الجديدة (١٧٠٤) . وبعد عام قبل وظيفة الكنيسة فى زوراو ، ثم مضى إلى أيزيناخ ، حيث ألتقى بباخ ، وفى ١٧١٤ قام بدور العراب لكارل فليب إيمانويل ، ابن يوهان سبستيان . وفى ١٧١١ قام ماتت زوجته الشابة وأخذت معها قلبه كما قال ، ولكنه تزوج ثانية بعد ثلاث سنين . وفى ١٧٢١ مضى إلى همبورج ، حيث كان عازفاً فى ست كنائس ، وأشرف على تعليم الموسيقى فى الجمنازيوم ، واضطلع بشئون أوبرا همبورج ، وحرر مجلة للموسيقى ، ونظم سلسلة من الحفلات الموسيقية العامة استمرت إلى يومنا هذا . وقد حالف الحظ تيليمان فى كل شىء ، إلا فى إيثار زوجته للضباط السويديين بحبها .

وكانت قدرته على الإنتاج تضارع أى رجل فى ذلك العصر ، عصر عمالقة الموسيقى . فقد لحن لجميع الآحاد والأعياد فى تسعة وثلاثين عاماً ألواناً من الموسيقى الدينية — تراتيل لأسبوع الآلام ، وكنتاتات ، واوراتوريات ، وأناشيد ، وموتيتات ، وأضاف إلى ذلك كله الأوبرات والأوبرات الفكاهية ، والكونشرتات ، والثلاثيات ، والسرينادات ، وقال هاندل إن فى استطاعة تيليمان أن يلحن موتيتا ذا ثمانية أقسام بالسرعة التى يكتب بها المرء خطاباً [٣٩] . وقد أخذ أساوبه عن فرنسا ، كما أخذ هاسى أسلوبه عن إيطاليا ، ولكنه أضاف إليه حيويته الخاصة . وفى ١٧٦٥ ، حين كان فى الرابعة والثمانين ، ألف كنتاتا تسمى « إينو » عدها رومان رولان معادلة لنظائرها من تآليف هاندل ، وجلوك ، وبيتهوفن . ولكن تيليمان كان ضحية خصوبته . فقد لحن بأسرع مما يمكنه من الإتقان ، ولم يكن له صبر على تنقيح الثمرات الناقصة لعبقريته أو شجاعة على تحطيمها . وقد اتهمه ناقد بـ «الإسراف الذى لا يصدق»[٤٠] واليوم يكاد يكون نسياً منسياً ولكنه بين الحين والحين يجيئنا روحاً متحررة من الجسد فى الهواء ، فنجد كل ألحانه المنبعثة من مراقدها رائعة الجمال [٤١] .

ولم ينفرد فردريك بتفضيله كارل هاينريش جراون على تيليمان وباخ . وقد ذاع صيت كارل أول ما ذاع بفضل صوته السوبرانو ، فلما قصر هذا الصوت تحول صاحبه إلى التلحين ، فألف فى الخامسة عشرة كنتاتا

كبيرة لأسبوع الآلام (١٧١٦) رتلت فى كرويتسشولى بدرسدن . وبعد أن مضى فترة يعمل عازفاً للكنيسة فى برنزويك استخدمه فردريك (١٧٣٥) ليشرف على الموسيقى فى راينزبرج . وظل يخدم البلاط البروسى طوال الأعوام الأربعة عشرة الباقية من عمره ، لأن موسيقاه ، حتى الدينية منها ، كانت تبهج الملك الشاك . وظفر لحن الآلام المسمى « موت يسوع » ، الذى رتل أولا فى كتدرائية برلين سنة ١٧٥٥ ، بشهرة فى ألمانيا لم تضارعها غير شهرة « المسيا » فى انجلترا وايرلندة ، وظل يعاد سنوياً فى أسبوع الآلام حتى يومنا هــذا . وشاركت ألمانيا البروتستنتية كلها فردريك فى الحزن على موت جراون قبل أوانه .

وخلال ذلك كان خمسون « باخاً » قد ألقوا البذرة وأعدوا المسرح لظهور أشهر وريث لهم . وقد رسم يوهان سبستيان باخ بنفســه شجرة أسرته فى كتابه « أصل أسرة باخ الموسيقية » الذى وصل إلى المطبعة فى ١٩١٧ ، وقد أفرد الناقد الموسيقى المدقق « شبيتا » ١٨٠ صفحة لرسم ذلك النهر الأورفى . وانتشر فى مدن ثورنجيا أفراد من آل باخ يمكن رد نسبهم إلى عام ١٥٠٩ . وكان أقدم موسيقى من الأسرة بدأ به يوهان سبستيان قائمته هو جد جده المدعو فايت باخ (توفى ١٦١٩) . ومنه انحدرت أربع بطون من الباخيين الذين برز العديد منهم فى الموسيقى ، وقد بلغوا من الكثرة مبلغاً جعلهم يؤلفون ضرباً من النقابة المهنية التى ألفت أن تجتمع دورياً لتبادل الرأى . وتلقى أحدهم ، وهو يوهان أمبروزيوس باخ عن أبيه فن عزف الكمان الذى ورثه لأبنائه . وفى ١٦٧١ ، قد تزوج اليزابيث خلف ابن عمه موسيقياً للبلاط فى أيزيناخ . وكان فى ١٦٦٨ ، قد تزوج اليزابيث لا ميرهيرت ، ابنة تاجر فراء أصبح عضــوا فى مجلس المدينة . فأنجب منها بنتين وستة أبناء . وارتقى أكبر الأبناء ، وهو يوهان كريستوف باخ ، إلى وظيفة عازف الأرغن فى أوردورف . والتحق ابن آخر ، هو يوهان ياكوب باخ ، بالجيش السويدى عازفاً للأوبرا . وكان أصغر الأبناء هو يوهان سبستيان باخ .

٥ — يوهان سبستيان باخ : ١٦٨٥ — ١٧٥٠

ا — مراحـل حياته

ولد فى ٢١ مارس ١٦٨٥ بأيزيناخ فى دوقية ساكسيفايمار : وفى « الكوتهاوس » المشرف على ميدان لوثر كان المصلح الدينى العظيم قد عاش صباه ، وعلى تل مشرف على المدينة قامت فارتبورج ، القلعة التى اختبأ فيها لوثر من شارل الخامس (١٥٢١) وترجم العهد الجديد ، إن أعمال باخ أشبه بالإصلاح البروتستنتى ملحناً .

ماتت أمه وهو فى التاسعة ، ومات أبوه بعد ثمانية أشهر ، وضم يوهان سبستيان وشقيقه يوهان باكوب إلى أسرة أخيهما يوهان كريستوف . وفى « الجمنازيوم » بأيزيناخ تلقى سبستيان الكثير من تعاليم المسيحية وبعض اللاتينية ، وفى « الليسيه » بمدينة أوردروف القريبة درس اللاتينية ، واليونانية ، والتاريخ ، والموسيقى . وكان متقدماً فى فرقته ، فرقى بسرعة وكان أبوه قد علمه الكمان ، وعلمه أخوه كريستوفر البيان القيثارى . وعكف بشغف على هذه الدراسات الموسيقية ، وكأن الموسيقى تجرى فى عروقه . ونسخ عدداً كبيراً من المؤلفات الموسيقية التى لم تكن ميسرة له بانتظام نسخاً كاملا . وهكذا بدأ الأذى الذى لحق ببصره فيما يظن البعض .

فلما ناهز سبستيان الخامسة عشرة انطلق ليكسب قوته تخفيفاً عن أسرة يوهان كريستوف المتزايدة . فوجد وظيفة مغن سوبرانو فى مدرسة دير القديس ميخائيل باونيبرج ، فلما تغـير صوته احتفظت به المدرسة عازفاً للكمان فى الأوركسترا . ومن لونيبرج زارهمبورج ، التى تبعد عنها ثمانية وعشرين ميلا ، ربما للذهاب إلى الأوبرا ، ولكن بالتأكيد للاستماع إلى عزف يوهان ادم راينكن ، عازف أرغن كنسية القديسة كاترين البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً . ولم تجتذبه الأوبرا ، ولكن فن الأرغن استهوى روحه القوية النشيطة ، ففن تلك الآلة الشامخة استشعر تحدياً

لكل طاقته ومهارته . فما وافت سنة ١٧٠٣ حتى كان قد بلغ من البراعة في العزف عليها مبلغاً حمل الكنيسة الجديدة بآرنشتات (القريبة من أرفورت) على استخدامه ليعزف ثلاث مرات كل أسبوع على الأرغن الكبير الذى ركب فى الكنيسة مؤخراً ، والذى ظل مستعملا حتى ١٨٦٣ . أما وقد أطلقت يده فى استعمال هذه الآلة لدراساته ، فإنه بدأ الآن تلحين أول أعماله الهامة .

وقد أبقاه الطموح دائم التحفز للنهوض بفنه . ونمى إليه أن أشهر عازف على الأرغن فى ألمانيا ، ديترش بوكستيهودى ، سيعزف فى مدينة لوبيك على بعد خمسين ميلا منه ، سلسلة من الألحان فيما بين عيد القديس مارتن وعيد الميلاد فى كنيسة مريم . فطلب إلى مجلس كنيسته أجازة شهر ، فمنح الأجازة ، وأناب ابن عمه يوهان ارنست فى أداء عمله وصرف راتبه ثم انطلق راجلا إلى لوبيك (أكتوبر ١٧٠٥) . وقد رأينا هاندل وماتيزون يقومان بمثل رحلة الحج هذه . ولم يغر باخ بزواج ابنة بوكستيهودى لقاء وراثة وظيفة ، إنما كان يريد أن يدرس أسلوب الأستاذ فى العزف على الأرغن . ولا بد أن هذا أو شيئاً غيره قد استهواه ، لأنه لم يعد إلى أرنشتات حتى منتصف فبراير . وفى ٢١ فبراير ١٧٠٦ وبخه مجلس الكنيسة على مده إجازته ، وعلى ادخال « تنويعات غريبة » فى استهلالات ترانيمه الجماعية . وفى ١١ نوفمبر أنذر لتقصيره فى تدريب فرقة الترتيل تدريباً كافياً ، ولسماحه سراً « لعذراء غريبة بالترتيل فى الكنيسة » ، (ولم يكن يسمح للنساء بعد بالترتيل فى الكنيسة) . أما الفتاة الغريبة فكانت ماريا بربارة باخ ، ابنة عمه . وقدم من الاعتذارات ما استطاع تقديمه ، ولكنه استقال فى يونيو ١٧٠٧ ، وقبل وظيفة عازف الأرغن لكنيسة القديس بلازيوس بموهاوزن . وتقرر أن يكون راتبه السنوى خمسة وثمانين جولدينا ، وثلاثة عشر بوشلا من القمح ، وكردين من الخشب ، وست حزم من الحطب ، وثلاثة أرطال من السمك — وهو راتب يعد حسناً جداً بالنسبة للزمان والمكان[٤٢] وفى ١٧ أكتوبر تزوج ماريا بربارة .

ولكن تبين له أن موهاوزن متعبة كأرنشتات . ذلك أن جزءاً من المدينة

كان قد احترق ، ولم يكن أهلها المرهقون فى حال يتقبلون معها هـــذه التنويعات الغريبة ، وكان شعب الكنيسة ممزقاً بين اللوتريين السنيين المولعين بالترتيل ، والتقويين الذين يعتقدون أن الموسيقى أقرب الأشياء إلى الكفر . وكانت فرقة المرتلين تشكو الفوضى ، وباخ يستطيع إحالة الفوضى نظاماً فى الأنغام لا فى الرجال . فلما تلقى دعـــوة ليصبح عازف أرغن ومديراً للاوركسترا فى بلاط فلهلم إرنست دوق ساكسيفيمار ، توسل إلى رؤسائه أن يخلوا سبيله (٤٣) . وفى يونيو ١٧٠٨ انتقل إلى وظيفته الجديدة .

وكان يتلقى راتباً طيباً فى فيمار — ١٥٦ جولدينا فى العام ، رفعت إلى ٢٢٥ فى ١٧١٣ ، واستطاع الآن أن يطعم الأفراخ التى كانت ماريا بربارة تفقسها . ولم يقنع بحاله تماماً ، لأنه كان خاضـــعاً لرئيس المرتلين فى الكنيسة يوهان دريزى ، ولكنه أفاد من صداقة يوهان جوتفريد فالتر ، عازف الأرغن فى كنيسة المدينة ، ومؤلف أول قاموس موسيقى ألمانى (١٧٣٢) ، وملحن كورالات لا تقل جودة عن كورالات باخ . وربما اضطلع بدراسة الموسيقى الفرنسية والإيطالية باهتمام الآن بفضـــل فالتر المثقف . وقد أحب فريسكوبالدى وكوريللى ، ولكنه افتتن جـــداً بكونشرتات الكمان التى وضعها فيفالدى ، ونقل تسعة منها لآلات أخرى . وكان أحياناً يدخل شذرات مما نقل فى ألحانه . ونستطيع أن نحس أثر فيفالدى فى كونشرتات براندنبورج ولكننا نحس فيها أيضاً روحاً أعمق وفناً أغنى .

أما أهم واجباته فى فيمار فعزف الأرغن فى كنيسة القلعة (شلوسكيرشى) . هناك كان فى متناوله أرغن صغير ولكنه مجهز تجهيزاً كاملا . وألف لهذه الآلة الــكثير من أعظم قطعه الأرغنية : الباساكاليا والفوجه فى مقام C الصغير ، وأفضل التوكاتات ، ومعظم الاستهلالات والفوجات الـكبيرة ، وكتاب الأرغن الصـــغير (أورجلبوخلاين) . وكانت شهرته إلى الآن عازف أرغن لا ملحناً . وقد تعجب المشاهدون ، ومنهم ما تزون الناقد ، لخفة حركته فى استعمال المفاتيح ، والدواسات ، والضوابط ، وصرح أحدهم بأن قدمى باخ «تطيران على لوحة الدواسة كأنما كان لها جناحان» (٤٤)

ودعى ليعزف فى هاللى ، وكاسل ، وغيرهما من المدن . وفى كاسل (١٧١٤) أعجب به ملك السويد القادم فردريك الأول إعجاباً حمله على أن يخلع من اصبعه خاتماً ماسياً ويعطيه لباخ . وفى ١٧١٧ ، التقى باخ فى درسدن بجان لوى مارشان الذى ذاع صيته فى الأرض عازف أرغن للويس الخامس عشر . واقترح بعضهم مباراة بين العازفين ، واتفقا على اللقاء فى بيت الكونت فون فلمنج ، وكان على كل منهما أن يعزف بمجرد النظر أى لحن أرغنى يوضع أمامه . وحضر باخ فى الساعة المحددة ، ولكن مارشان رحل عن درسدن قبله لأسباب مجهولة الآن ، فأتاح لباخ نصراً غيابياً لم يشرح صدره .

على أن القوم تخطوه فى الترقية ، رغم اجتهاده وشهرته المتزايدة ، حين مات رئيس عازفى فيار ، وأعطيت الوظيفة لابن الميت . وكان باخ فى حالة استعداد نفسى لتجربة بلاط جديد . وعرض عليه ليوبولد أمير أنهالتكوتن وظيفة رئيس عازفيه . ولكن دوق ساكسيفيار الجديد ، قلهلم أوجسطس ، رفض أن يخلى سبيل عازف أرغنه . وألح باخ عليه ، فسجنه (٦ أبريل ١٧١٧) ، وثابر باخ على اصراره ، فأطلقه الدوق (٢ ديسمبر) ، وهرول باخ بأسرته إلى كوتن . ولما كان الأمير ليوبولد كلفنيا لا يوافق على موسيقى الكنيسة ، فقد كانت وظيفة باخ أن يدير أوركسترا البلاط ، الذى كان الأمير نفسه يعزف فيه الفيولا دا جامبا (فيولا الساق) . وعليه ففى هذه الفترة (١٧١٧ — ٢٣) ألف باخ الكثير من موسيقى الحجرة ، بما فيها السويتات الانجليزية والفرنسية . وفى ١٧٢١ أرسل إلى كرستيان لودفيج حاكم براندنبورج الكونشرتات التى تحمل ذلك الاسم .

تلك كانت فى أكثرها سنوات سعيدة ، لأن الأمير ليوبولد أحبه ، واصطحبه فى رحلات شتى ، وأظهر فى فخر موهبة باخ ، وظل صديقاً له يوم فرق التاريخ بين طريقيهما . ولكن حدث فى يوليو ١٧٢٠ أن ماتت ماريا بربارة بعد أن ولدت لباخ سبعة أطفال ظل أربعة منهم على قيد الحياة. وبكاها سبعة عشر شهراً ، ثم اتخذ له زوجة ثانية تسمى أنا مجدلينا فولكن، ابنة نافخ بوق فى أوركستراه . وكان الآن فى السادسة والثلاثين ، وهى

لا تتجاوز العشرين ، ومع ذلك قامت خير قيام بما ناطها به من واجب — وهو أن تكون أماً وفية لأطفاله . أضف إلى ذلك أنها كانت تعرف الموسيقى ، فساعدته فى تلحينه ، ونسخت مخطوطاته ، وغنت له بصوت وصفه بأنه « سوبرانو شديد الصفاء » (٤٥) . وقد أنجبت له ثلاثة عشر طفلا ، مات سبعة منهم قبل أن يبلغوا الخامسة . لقد نزلت بتلك الأسرة العجيبة فواجع كثيرة . وقد أزعجت باخ مشكلة تعليم أطفاله بازدياد عددهم . وكان لوثريا متحمساً ، كره الكلفنية الكئيبة التى سيطرت على كوتن ، فأبى أن يرسل أطفاله إلى المدرسة المحلية التى تعلم العقيدة الكلفنية . ثم إن أميره المحبوب تزوج (١٧٢١) أميرة شابه قللت مطالبها من ليوبولد من اهتمامه بالموسيقى . ومرة أخرى رأى باخ أن قد آن أوان التغيير . لقد كان روحاً قلقة ، ولكن القلق صنعه . ولو أنه ظل فى كوتن لما سمعنا به قط .

وحدث فى يونيو ١٧٢٢ أن مات يوهان كوناو ، بعد أن شغل عشرين عاماً وظيفة قائد فرقة الترتيل فى مدرسة توماس بليبزج . وكانت مدرسة خاصة ذات سبعة صفوف وثمانية مدرسين ، تهتم بتدريس اللاتينية والموسيقى واللاهوت اللوثرى . وكان على الطلاب والخريجين ، بإشراف قائد فرقة الترتيل ، أن يقدموا الموسيقى للكنائس المدنية . وكان القائد خاضعاً لمدير المدرسة والمجلس البلدى الذى يدفع الرواتب .

وطلب المجلس إلى تيليمان أن يشغل الوظيفة الشاغرة ، لأنه حبذ الأسلوب الإيطالى الذى اتسمت به ألحان تيليمان ، ولكنه رفض . فعرضها على كريستوفر جراوبنر قائد فرقة المرتلين فى دارمشتات . ولكن رئيس جراوبنر أبى أن يحله من عقده . وفى ٧ فبراير تقدم باخ للمجلس طالباً الوظيفة . وارتضى شتى الاختبارات التى أجريت عليه للتأكد من كفايته . ولم يشك أحد فى مهارته عازفاً للأرغن . ولكن بعض أعضاء المجلس رأوا أن أسلوب ألحانه يتسم بروح محافظة شديدة (٤٦) . وكان اقتراح أحدهم هو « بما أن خيرة الموسيقيين لم يتاحوا لنا ، فلا مفر من أن نستخدم رجلا متوسط الكفاية (٤٧) » . واستخدم باخ (٢٢ أبريل ١٧٢٣) بشرط أن يقوم بتدريس اللاتينية فضلا عن الموسيقى

وأن يحيا حياة التواضع والهدوء ، وأن يوقع بقبوله العقيدة اللوثرية ، وأن يبدى للمجلس «كل الاحترام والطاعة الواجبين» وألا يغادر المدينة قط بغير إذن من العمدة . وفى ٣٠ مايو أسكن هو وأسرته فى جناح المدرسة السكنى ، وبدأ واجباته الرسمية . وظل يشغل هذه الوظيفة الثقيلة الأعباء حتى مماته .

وأخذ منذ الآن يلحن معظم مؤلفاته الموسيقية ، فيما عدا القداس بمقام «ب» الصغير ، لاستخدامها فى كنيستى ليبزج الرئيسيتين — كنيسة القديس توماس وكنيسة القديس نيقولا . وكانت خدمات الكنيسة يوم الأحد تبدأ فى السابعة صباحاً بمقدمة على الأرغن ، ثم يرتل القسيس الصلاة الافتتاحية ، وترتل فرقة المرتلين كيريا (مطلع صلاة كيرياليسون — أى يا رب ارحمنا) ، ويرتل القسيس والفرقة — وأحياناً المصلون — ترتيلة «جلوريا» (أى المجد لله فى الأعالى) بالألمانية ، ثم يرتل المصلون ترتيله . ويرتل القسيس الإنجيل وقانون الايمان ، ويعزف عازف الأرغن مقدمة ، وترتل الفرقة كنتاتا ، والمصلون ترتيلة «نؤمن كلنا بإله واحد» ، ويلى ذلك عظة للقسيس تمتد ساعة ، يعقبها الصلاة ثم البركة . وبعد ذلك يأتى تناول القربان المقدس ، ثم ترنيمة أخرى . وتنهى هذه الخدمة فى الساعة العاشرة شتاء والحادية عشرة صيفاً . وفى الحادية عشرة يتناول الطلاب والمدرسون الغداء فى المدرسة . وفى الواحدة والربع بعد الظهر تعود الفرقة إلى الكنيسة لصلاة المساء ، ومزيد من الصلوات ، والترانيم ، والعظة ، وتسبحة «تعظم نفسى الرب **Magnificat**» فى صيغتها الألمانية . وفى الجمعة الكبيرة ترتل الفرقة لحن آلام المسيح . ولكى يؤدى باخ الموسيقى لهذه الخدمات كلها درب فرقتين ، كل منهما من نحو اثنى عشر عضواً ، وأوركسترا يعزف على نحو ثمانى عشرة آلة . وكان المغنون المنفردون جزءاً من الفرقة ، يرتلون معها قبل ألحانهم ومقاطعهم الملحونة وبعدها .

ولقاء هذه الخدمات المعقدة التى أداها باخ فى ليبزج كان يتقاضى راتباً بلغ فى المتوسط سبعمائة طالر فى السنة ، يدخل فيه نصيبه من مصروفات التلاميذ المدرسية ، وأتعابه نظير تقديم الموسيقى فى الأفراح والمآتم .

وكانت سنة ١٧٢٩ ، التى جاءت بـ « لحن آلام المسيح كما رواها القديس متى » ، فى حساب باخ سنة سيئة ، لأن الجو اعتدل جداً حتى عز الموتى [٤٨] . وكان بين الحين والحين يكسب بعض المال الإضافى من قيادة الحفلات الموسيقية العامة للجماعة الموسيقية . وحاول أن يزيد من دخله بالمطالبة بالاشراف على الموسيقى فى كنيسة القديس بولس الملحقة بجامعة ليبزج . وعارضه بعض منافسيه عليها ، فظل سنتين فى خلاف مع السلطات الجامعية وانتهى إلى حل وسط غير مرض لكل الأطراف المعنية .

ثم خاض معركة طويلة أخرى مع المجلس البلدى الذى يختار الطلبة لمدرسة توماس ، ذلك أن أعضاء المجلس نزعوا إلى أن يرسلوا له طلاباً اختيروا بفضل نفوذ سياسى لا لكفاية موسيقية فيهم . فلم يستطيع باخ أن يصنع من هؤلاء الوافدين الجدد مرتلين لا للسوبرانو ولا للجهير ، وفى ٢٣ أغسطس ١٧٣٠ أودع المجلس احتجاجاً رسمياً ، وكان رد المجلس أن رماه بأنه معلم غير كفء وضابطه للنظام ضعيف ، وبأنه كان يفقد أعصابه وهو يوبخ التلاميذ ، وبأن الفوضى تستشرى فى فرق الترتيل وفى المدرسة . [٤٩] وكتب باخ إلى صديق بلوينبرج يطلب إليه أن يساعده فى العثور على وظيفة أخرى . فلما لم يفتح فى وجهه باب التمس (٢٧ يوليو ١٧٣٣) من أوغسطس الثالث ، ملك بولنده الجديد ، أن يعطيه فى بلاطه منصباً ولقباً يحميانه مما يلقاه من « إهانات لا يستحقها » وأبطأ أوغسطس فى الاستجابة ثلاث سنوات ، وأخيراً (١٩ نوفمبر ١٨٣٦) خلع على باخ لقب « ملحن البلاط الملكى » . وكان المدير الجديد لمدرسة توماس خلال ذلك ينازع باخ حقه فى تعيين عرفاء الفرقة وتأديبهم وجلدهم . وطال النزاع شهوراً ، وطرد باخ مرتين العريف الذى عينه إرنستى من منصة الأرغن ، وأخيراً ثبت الملك سلطة باخ .

لم تكن حياته قائداً للمرتلين فى ليبزج إذن بالحياة السعيدة . فلقد سكب روحه وطاقته فى ألحانه وفى أدائها ، فلم يبق بعد ذلك شىء كثير لممارسة التربية أو الدبلوماسية . وقد وجد بعض العزاء فى صيته الذائع ملحناً وعازف أرغن . وقبل الدعوات للعزف فى فيار ، وكاسل ، وناومبورج ، ودرسدن ، ونقد أجراً على هذه الحفلات العارضة وعلى اختباره للأراغن . وفى ١٧٤٠

عين ابنه كارل فليب إمانويل صناجاً فى أوركسترا كنيسة فردريك الأكبر . وفى ١٧٤١ زار باخ برلين ، وفى ١٧٤٧ دعاه فردريك المصور وتجربة البيانات التى اشتراها مؤخراً من جوتفريد زلبرمان . وأدهشت الملك ارتجالات « باخ العجوز » . وتحداه أن يرتجل فوجة فى ستة أقسام . فأبهجته استجابة باخ . ولما عاد باخ إلى ليبزج لحن ثلاثية للفلوت ، والكمان ، والبيان القيثارى ، وأرسلها هى وقطعاً أخرى « هدية موسيقية » للملك عازف الفلوت . بوصفه « ملكاً هو محط الإعجاب فى الموسيقى كما فى جميع فنون الحرب والسلام الأخرى » (٥٠) . وفيما خلا هذه الفواصل المثيرة ، كرس باخ نفسه بإخلاص مضن لواجباته قائداً للمرتلين ، ولحبه لزوجته وأبنائه ، وللتعبير عن فنه وروحه فى أعماله .

٢ — مؤلفاته الموسيقية

(أ) — الآلية :

كيف نعتذر لاجترائنا على هذا العرض لضخامة إنتاج باخ وتنوعه دون أن تتوافر لنا كفاية المحترفين للقيام بهذه المهمة ؟ ليس فى وسعنا أن نفعل شيئاً هنا ، اللهم إلا أن نقدم للقراء قائمة تجملها المحبة لباخ .

فلنبدأ إذن بمؤلفاته للأرغن . فالأرغن ظل غرامه المقيم . لم يضارعه فيه أحد غير هاندل الذى فقد وراء البحار . كان باخ يحب أحياناً أن يفك كل ضوابطه لمجرد اختبار رئاته وجس قوته . وكان يلهو به لهوه بآلة دانت لسيطرته تماماً ، وخضعت لكل شطحاته . ولكنه فى استبداده هذا وضع حداً لأهواء العازفين بتحديده الأوتار التى يجب استعمالها بعلامات الجهير (الباص) المدونة ، وذلك بأرقام فى أسفلها . وهذا هو الجهير « المرقم » أو الكامل الذى يعين السلسلة المتصلة التى ينبغى أن يصاحب بها الأرغن أو البيان القيثارى الآلات الأخرى أو الصوت .

وخلال مقام باخ فى فيمار أعد لابنه الأكبر ولغيره من الطلاب « كتيباً للأرغن » من خمسة وأربعين استهلالا كوراليا ، وأهداه إلى « الإله العلى وحده

تمجيداً له ، وإلى جارى لكى يعلم به نفسه » .وكانت وظيفة الاستهلال الكورالى أن يكون مقدمة بالآلات لترنيمة جماعية ، ليرسم موضوعها ويحدد طابعها . ورتبت هذه الاستهلالات لتؤلف متتاليات ملائمة لعيد الميلاد ، ولأسبوع الآلام ، وعيد القيامة ، وظلت وقائع السنة الكنيسية هذه إلى النهاية الشغل الشاغل لموسيقى باخ الأرغنية والصوتية . وهنا منذ البداية ، فى كورال « Alle Menschen mussen sterben » (كل البشر مصيرهم الموت) ، تلتقى بموضوع من موضوعات باخ التى يعود إليها المرة بعد المرة ، ويخفف منه على الدوام عزمه على مواجهة الموت بالإيمان بقيامة المسيح بشيراً بقيامتنا . وسنسمع هذه النغمة ذاتها بعد سنوات فى الكورال الحزين « Komm, susser tod » (تعال أيها الموت الحلو) . ويرافق هذه التقوى الغامرة فى هذه الاستهلالات ، وفى ألحان باخ الآلية بوجه عام ، مرح صحى ، فتراه يطفر أحياناً فوق المفاتيح فى فرحة تنويعات تذكرنا بشكاوى مجلس كنيسة أرنشتات منه .

وبلغت جملة ما خلفه باخ من المقدمات الكورالية ١٤٣ ، يعدها دارسو الموسيقى أولى أعماله عليه وأكملها من الناحية التقنية . فهى قصائده الغنائية كما أن القداسات وألحان الآلام ملاحمه . وقد طوف بسلم الأشكال الموسيقية كلها ، ولم يسقط منه غير الأوبرا لأنها غريبة على وظيفته ومزاجه ، ومفهومه عن الموسيقى قرباناً لله قبل كل شيء . ولكى يفسح لفنه مجالا أرحب أضاف فوجة للمقدمة ، فجعل فكرة الجهير تتابع نفس الفكرة الرئيسية فى الندى ، أو العكس ، فى لعبة متشابكة أبهجت نفسه الولوعة بالطباق الموسيقى . فترى لحن المقدمة والفوجة بمقام E الصغير يبدأ ببساطة مغرية ، ثم يحلق فى أجواء معقدة من الغنى والقوة تكاد تلقى الرعب فى أذن السامع . أما لحن المقدمة والفوجة بمقام D الصغير فهو باخ على أروعه بناءاً ، وصنعة فنية ، وتطويراً للفكرة الرئيسة ، وخصوبة تصورية ، وقوة عارمة . وربما كان أروع من هذا الباساكاليا والفوجه بمقام C الصغير . وقد أطلق الأسبان اسم Pasacalle على اللحن الذى يعزفه موسيقى « عابر بالطريق » ؛ وأصبح فى إيطاليا لوناً من الرقص ، أما فى باخ فهو فيض جليل من النغم ، يجمع بين البساطة والتأمل والعمق .

وألف باخ للأرغن أو موترة المفاتيح اثنى عشرة توكاتات tocattas أى قطعاً تستطيع أن تمرن « لمس » العازف . وكانت تحتوى عادة على ضربات سريعة على لوحة المفاتيح ونغمات عالية جريئة ، وأخرى خافتة رقيقة ، وفوجه من النغمات يدوس بعضها أعقاب بعض فى دعابة وعبث . وقد ظفرت التوكاتا والفوجه فى مقام D الصغير ، فى هذه المجموعة ، بأكبر عدد من المستمعين،وبعض ، الفضل فى هذا راجع لألحان أوركسترالية مكيفة كانت أنسب من الأرغن للأذن العصرية غير الكنسية . ومن بين التوكاتات السبع الموضوعة لموترة المفاتيح أو البيان القيثارى ، يتبدى باخ هنا أيضاً فى التوكاتا بمقام C الصغير وقد ملك ناحية صنعته فى ثقة كاملة — فهى فرحة من مزج الألحان تعقبها حركة بطيئة كلها عذوبة صافية مهيبة .

وليس من السهل علينا نحن الذين حرمنا الأنامل الماهرة والآذان المرهفة أن نقدر اللذة التى استشعرها باخ ومنحها سامعيه فى مؤلفاته التى وضعها لموترة المفاتيح — التى كانت بالنسبة له تعنى البيان القيثارى عادة . فعلينا أولا أن نفهم مبادىء البناء التى اتبعها فى تطوير بضع نغمات فكرة رئيسية إلى بناء مفصل معقد ولكنه منظم — أشبه بقطعة فنية من الطراز العربى فى سجادة فارسية أو محراب جامع ، تسرح بعيداً عن قاعدتها وكأنها تحررت من كل القيود ، ولكنها تفعل ذلك دائماً فى منطق يضيف الإشباع العقلى إلى لذة الشكل الحسية . ثم علينا أن نستعير سحر يدى باخ . لأنه ابتكر فى العزف فناً يتطلب الاستخدام الكامل لأصابع اليدين كلها (بما فيها الإبهام) ، فى حين قل أن تطلب من سبقوه أكثر من الأصابع الثلاث الوسطى فى مؤلفاتهم لموترة المفاتيح . ولقد أحدث ثورة حتى فى وضع اليد . فقد نحا العازفون قبله إلى الاحتفاظ بيدهم مبسوطة أثناء ضربهم المفاتيح ، ولكن باخ علم تلاميذه أن يحنوا اليد حتى تضرب جميع الأنامل المفاتيح فى نفس المستوى . وبغير هذه الطريقة كان يستحيل ظهور عازف مثل ليست .

وأخيراً ، حين اقتبس باخ نظاماً اقترحه أندرياس فركمايستر فى ١٦٩١ ، طالب بضبط الأوتار فى الآلات ضبطاً متوسطاً متكافأ ، بحيث يقسم

« الجواب » إلى اثنى عشر نصف نغمة متساوية تماماً ، فلا يحدث أى تنافر عند الانتقال من مقام إلى مقام . وكان فى حالات كثيرة يصر على أن يضبط بنفسه البيان القيثارى الذى سيعزف عليه [٥١] . لذلك وضع كتابه « البيان القيثارى الصحيح الضبط » (الجزء الأول ، ١٧٢٢ والجزء الثانى ، ١٧٤٤) : ثمان وأربعون مقدمة وفوجة — اثنتان لكل مقام كبير وصغير — « لاستعمال وتمرين شباب الموسيقين الراغبين فى التعليم ، ولمن حذقوا هذه الدراسة أيضاً على سبيل التسلية » كما نص عليه العنوان الأصلى للكتاب . والقطع ذات أهمية كبرى للموسيقين ، ولكن الكثير منها أيضاً يستطيع أن يبتعث فينا فرحة باخ أو شعوره المتأمل ، وهكذا نرى جونو يقتبس المقدمة بمقام C الكبير ، فى شكل محور ، لتكون لحناً مصاحباً على آلة منفردة (أوبلجاتو) لحنه « السلام يا مريم » . وقد وجدت بعض النفوس العميقة ، مثل ألبرت شفايتسر ، فى هذه المقدمات والفوجات « عالمأمن السلام » وسط ضجيج الصراع البشرى [٥٢] .

ثم أصدر باخ ، الذى لم يكن لخصوبته نهاية ، فى ١٧٣١ الجزء الأول من كتابه « كلافيروبونج » (أى تمرينات على موترة المفاتيح) وقد وصفه بهذه العبارة « تمرينات من مقدمات ، وموسيقى للرقصات الألمانية (المائد) والكورانت ، والسراباند ، والجيج ، والمنويت ، وغيرها من اللطائف ، مؤلفة على سبيل الترويح الذهنى عن محبى الفن » . [٥٣] وأضاف إلى هذين الجزئين أجزاء ثلاثة فى سنوات لاحقة . حتى أصبح الكتاب فى النهاية متضمناً لأشهر مؤلفاته : « مبتكرات » و « بارتيتات » ، وسنفونية ، و « ألحان جولدبرج المحورة » و « الكونشرتو الإيطالى » ، وبعض المقدمات الكورالية الجديدة للأرغن . وذكر المخطوط أنه يقدم « المبتكرات مرشداً أميناً يهدى محبى الموترة إلى طريق واضح .. لا لاكتساب الأفكار الجيدة (المبتكرات) فحسب ، بل لوضعها بأنفسهم .... ولاكتساب أسلوب غنائى فى العزف ، و . . . ميل قوى إلى التلحين » [٥٤] . وبهذه الأمثلة كان فى استطاعة الطالب أن يرى كيف يمكن تطوير الفكرة الرئيسية ، متى وجدت ، بالمزج بين الألحان عادة ، تطويراً منطقياً لتبلغ خاتمة موحدة . وقد لعب

باخ بفكراته كأنه حاو مرح ، فهو يقذف بها فى الهواء ، ويقلبها بطناً لظهر ، ويقلبها رأساً على عقب ، ثم يقيمها على قدميها سالمة من غير سوء . إن الأنغام « والتيمات » لم تكن طعامه وشرابه والهواء الذى يتنفسه فحسب ، بل كانت إلى ذلك تسليته وراحته .

وكانت البارتيتات تسليات شبيهة بما ذكرنا . وقد أطلق الإيطاليون لفظ « بارتيتا Partita على اللحن الراقص ذى الأقسام المختلفة . فالبارتيتات بمقام D الصغير و B الكبير اتخذت خمسة أشكال راقصة : « الألماند » أو الرقصة الألمانية ، و الكورانت الفرنسية ، والسراباند ، والمنويت ، والجيج . ويظهر هنا تأثير العازفين الإيطاليين ، الذى شمل حتى مصالبة اليدين ، التى كانت حيلة محببة لدومنيكو سكارلاتى وهذه القطع تبدو لنا اليوم تافهة القيمة ، ولكن يجب أن نتذكر أنها لم تؤلف للبيانو فورت الجبار ، بل لموترة المفاتيح الهشة ، وفى وسعها — إذا لم نشتط فيما نطلبه منها — أن تمنحنا بهجة فريدة فى بابها .

وأعسر من هذه هضماً « ألحان جولدبرج المنوعة » . ويوهان تيوفيلوس جولدبرج هذا كان عازف موترة مفاتيح للكونت هرمان كايزرلنج ، السفير الروسى لدى بلاط درسدن . فلما زار الكونت ليبزج اصطحب معه جولدبرج ليهدىء أعصابه بالموسيقى التماساً للنوم . وفى هذه المناسبات تعرف جولدبرج إلى باخ وهو مشوق إلى تعلم طريقته الفنية فى العزف على لوحة المفاتيح ؛ وأعرب كايزرلنج عن رغبته فى أن يؤلف باخ قطعاً للموترة من نوع « يدخل عليه شيئاً من البهجة فى لياليه المؤرقة » (٥٥) . وتفضل باخ بتأليف « لحن ذى ثلاثين تنويعاً » أثبت أنه علاج شاف للأرق . وكافأه كايزرلنج بقدح ذهبى يحوى مائة جنيه من الذهب . ولعله هو الذى حصل لباخ على تعيينه ملحناً لبلاط الملك — الناخب السكسونى .

على أن فن باخ لا قلبه هو الذى كان فى هذه التنويعات . فتراه يهدى الموترة بشعور ولذة أعظم ، سبعة توكاتات ، وسوناتات كثيرة . و « فنتازيا وفوجه ملونة » بمقام D الصغير . و « كنشرتو إيطالية » حاول فيها بحيوية وروح مذهلتين ، أن ينقل إلى لوحة المفاتيح تأثيرات الأوركسترا الصغير .

وثمة شكل موسيقى وجد سبيله إلى جميع مؤلفاته الأوركسترالية تقريباً — وهو الفوجه . وقد وفدت كمعظم الأشكال الموسيقية من إيطاليا ، ولاحقها الألمان فى مطاردة مشبوبة طغت على موسيقاهم حتى مجىء هايدن . وأجرى عليها باخ تجاربه فى « فن الفوجة » ، فأخذ فكرة واحدة وبنى منها أربع عشرة فوجة وأربعة اتباعات فى متاهة فن مزج الألحان تبين كل ضرب من التقنية الفوجية . وقد خلف المخطوطة ناقصة عند موته ، فنشرها ابنه كارل فليب إيمانويل (١٧٥٢) ولم يبع منها غير ثلاثين نسخة . ولا عجب فعصر البوليفونى (تعدد النغمات) ، والفوجة كان فى طريقه إلى الزوال بزوال أعظم أساتذته ، وأخذ فن مزج الألحان يخلى السبيل للهارمونى .

ولم يكن ولوعاً بالكمان ولعه بالأرغن وموترة المفاتيح . لقد بدأ حياته عازف كمان وكان أحياناً يعزف على الفيولا فى المجموعات الموسيقية التى يقودها فى نفس الوقت ، ولكن بما أن أحداً من معاصريه أو أبنائه لم يذكر شيئاً عن عزفه على الكمان ، فلنا أن نفترض أنه لم يكن يتجلى فى تلك الآلة . على أنه لا بد كان قديراً فى العزف عليها ، لأنه ألف للكمان والفيولا موسيقى غاية فى الصعوبة ، يغلب على الظن أنه كان على استعداد لعزفها بنفسه . وتعرف دنيا الموسيقى الغربية كلها « الشاسون » التى اختتم بها بارتيتا بمقام D الصغير للكمان المفرد ، فهى آية فى الأسلوب الفنى ألف كل عازف كمان أن يهفو إليها هدفاً أعظم له . وقد يرى فيها بعضنا استعراضاً كريهاً من الحواية والشعوذة — أشبه بحصان يعذب قطه على مراحل عديدة . أما عند باخ فقد كانت محاولة جريئة ليحقق على الكمان عمق الأرغن وقوته البوليفونيين . فلما نقل بوزونى اللحن إلى البيانو ، أصبحت البوليفونية أكثر طبيعية ، وكانت النتيجة باهرة . (وعلينا ألا نتعالى على هذه المنقولات وإلا وجب أن ندين باخ ذاته) .

فاذا وصلنا إلى مؤلفات باخ التى أعدها لأوركستراه الرقيق ، وجدت فيها حتى الأذن غير المحترفة الكثير مما يشبه القصائد التى تتغنى الفرح والبهجة . ولابد أن الهدية الموسيقية التى أهداها لفردريك الأكبر قد أبهجته بألحانها المتألقة وهزته بأنغامها المتألقة نصف الشرقية . وقد كتب باخ بالإضافة

إلى البارتيتات أو المتتابعات فى « تمرينات الموترة » خمس عشرة متتابعة لرقصات . وسميت ستة منها بالمتتابعات الإنجليزية لأسباب نجهلها الآن ، وستة بالمتتابعات الفرنسية ، وهذه التسمية أوضح لأنها نسجت على منوال النماذج الفرنسية واستعملت ألفاظاً فرنسية بما فيها كلمة Suite (أى المتتابعة) ذاتها . وفى بعضها تطغى مهارة الصنعة ، فتسمع حتى الآلات الوترية تبعث أنغاماً يغلب عليها النفخ . ومع ذلك فإن أبسط الناس يستطيع أن يحس ذلك الجمال المهيب الذى يفيض به لحنه الشهير « أريوزو » أو « لحن لوتر المقام G » الذى يؤلف الحركة الثانية للمتابعة رقم ٣ . وقد نسيت هذه المؤلفات أو كادت بعد موت باخ ، حتى عزف مندلسون أجزاء منها لجيته فى ١٨٣٠ ، وأقنع أوركسترا قاعة تجار الأجواخ بليبزج ببعثها سنة ١٨٣٨ .

واقتبس باخ شكل الكونشرتو كما مارسه فيفالدى . واستخدمه فى شتى أنواع التشكيلات الآلية . والحركة البطيئة بطئاً مهيباً ، عند موسيقى ولد بمزاج معتدل البطء ، تجعل كنشرتو الكمان بمقام D الصغير مبهجاً جداً ، كذلك فإن الحركة البطيئة فى كنشرتو الكمان رقم ٢ بمقام E هى التى تؤثر فينا بعمقها الحزين ورقتها المتأملة . وربما كان أعذب هذه القطع الموسيقية هو الكونشرتو بمقام D الصغير لكمانين ، والنشيط vivace منهما تصوير خالص دون لون ، كأنه شجرة دردار شتوية ، ولكن الأريث Largo لقطة أثيرية من الجمال الصافى — الجمال المعتمد على ذاته ، دون « برنامج » أو أى شائبة فكرية تشوبه .

ولكونشرتات براندبنودج تاريخها الخاص : ففى ٢٣ مارس ١٧٢١ بعث بها باخ إلى أمير ، نسيه الناس إلا فى هذا الأمر ، مشفوعة بهذه الرسالة بالفرنسية ، التى صاغها كاتبها بأسلوب عصره . قال :

إلى صاحب السمو الملكى الأمير كرستيان لودفج ، حاكم براندنبورج :
مولاى :

بما أننى تشرفت بالعزف أمام سموكم الملكى قبل عامين ، ولاحظت أنكم استشعرتم شيئاً من السرور بالموهبة المتواضعة التى حبتنى بها السماء فى الموسيقى ، وحين انصرفتم سموكم الملكى شرفتمونى بأمر لى بأن أبعث إليكم ببعض قطع

من تأليفي ، فإنى الآن عملا بأوامركم الكريمة أبيح لنفسى أن أقدم لسموكم الملكى احتر ماتى المقرونة بالتوضيع الشديد ، مع الكونشرتات المرافقة ... متوسلا إليكم فى تواضع ألا تحكموا على نقصها بدقة ذلك الذوق الموسيقى المرهف الرقيق الذى يعرف الجميع أنكم تملكونه ، بل أن تتبينوا فى كرم ولطف ذلك الاحترام العميق والطاعة الشديدة المتواضعة اللذين قصدت بهذه القطع أن تشهد عليهما . وفيما عدا ذلك يا مولاى ، فإننى بكل تواضع أطلب إلى سموكم الملكى أن تجودوا بمواصلة أفضالكم على ، وبأن تثقوا بأنه ما من شىء أتوق إليه كرغبتى فى استخدامى فى شئون أجدر بكم وبخدمتكم ، لأننى يا مولاى ، بغيرة لا تعدلها غيرة ، خادمكم المتواضع جداً

جان سبستيان باخ (٥٦) .

ولا علم انا هل شكر الحاكم لباخ هديته أو أثابه عليها ، ولعله فعل ، لأنه كان شغوفاً بالموسيقى ، يحتفظ بأوركسترا ممتاز . وعند موته (١٧٣٤) أدرجت الكونشرتات الستة ، بخط باخ الشديد العناية والتأنق ضمن ١٢٧ كونشرتو فى قائمة جرد وجدها شبيتا فى المحفوظات الملكية ببرلين . وفى هذه القائمة قدرت قيمة كل من هذه الكونشرتات بأربعة جروشينات (١ر٦٠ دولار) .

وتتبع كونشرتات براندبنورج شكل الكونشرتو الكبير الإيطالى — ألحان فى عدة حركات ، تعزف على مجموعة صغيرة من آلات غالية (الكونشرتينو) يصاحبها أوركسترا وترى (الريبينو أو التونى) . وقد استعمل هاندل والايطاليون كمانين وفيولونتشيللو للكونشرتينو ، أما باخ فقد نوع هذا بجرأته المعهودة ، وقدم كماناً ، وأوبوا ، وبوقاً ، رفلوتا آلات مقصدرة فى الكونشرتو الثانى ، وكماناً وفلوتين فى الكونشرتوا الرابع ، وموترة مفاتيح ، وكماناً ، وفلوتا فى الخامس ، وطور البنيان إلى تفاعل معقد بين الكونشرتينو والريبينو فى حوار حى — من الانفصال والتعارض ، والتداخل ، والاتحاد — لا يفهم فنه ومنطقه ويستمتع بهما غير الراسخين فى الموسيقى . أما من عداهم فقد يجدون بعض الفقرات مكررة تكراراً مملا ، تذكرهم بأوركسترا ريفى يقيس الوقت لرقصة ، ولكن حتى نحن نستطيع أن نحس بسحر

الحوار ورقته ، وأن نجد فى الحركات البطيئة سلاماً مهدئاً أنسب للقلوب المسنة والأرجل المتلكئة مما نجده فى دوامة الحركات العجلاء ، ومع ذلك فإن الكونشرتو الثانى يستهل بأعجل (الليجرو) خلاب . والرابع يضفى عليه البهجة فاوت لعوب ، أما الخامس فهو باخ فى أوجه .

(ب) الصوتية :

لم يستطيع باخ وهو يلحن للصوت أن يلقى جانباً كل ما طوره من حيل وخفة يد على لوحة المفاتيح ، ولا الجهود الجبارة المعذبة التى طالب بها أوركستراه ، فقد كتب للأصوات كأنها آلات لا يكاد يكون لحذقها ومداها حدود ، وكان ضنيناً فى الاستجابة لرغبة المرتل أو المغنى فى أن يتنفس . ونهج نهج عصره فى تمديد المقطع الواحد ليشمل ستة أنغام («كيريي — يليــ يـ — يـ — يـ — يـ — ييسون ») ، ومثل هذا الاستكثار من الأنغام لم يعد أسلوب العصر ، ولكن بفضل مؤلفاته للصوت حقق باخ شهرته الراهنة بوصفه أعظم ملحن فى التاريخ .

وقد حباه إيمانه الوطيد بالعقيدة اللوثرية إلهاماً حاراً يعدل أى إلهام وجده باليسترينا فى القداس الكاثوليكى . فكتب نحو أربع وعشرين ترنيمة وست موتيتات وفى الاستماع إلى إحدى هذه الست Singet dem Herrn (رنموا للرب) « شعر موتسارت أول ما شعر بعمق باخ . وكتب لجماهير المصلين ولكورسه كورالات قوية كانت كفيلة بأن تبهج قلب لوثر الشبيه بقلبه : « عند أنهار بابل » و « حين تشتد بنا الحاجة » ، و « تجملى أيتها النفس المباركة » وقد أثر هذا الكورال الأخير فى مندلسون تأثيراً عميقاً حتى قال لشومان « لو أن الحياة سلبتنى الرجاء والإيمان لردهما إلىّ هذا الكورال وحده »[٥٧] .

ولحن باخ لأعياد الميلاد ، والقيامة ، والصعود ، أوراتوريات — كانت تراتيل ضخمة للكوارس ، أو المرتلين المنفردين ، أو الأرغن ، أو الأوركسترا . وقد رتل أوراتوريو Weinachts Oratorium الميلاد ، كما يسمى الأورتوريو الأول ، فى كنيسة توماس فى ستة أقسام على ستة أيام بين عيد الميلاد وعيد

الظهور (الغطاس) ١٧٣٤ — ٤٥ . وأخذ من أعماله المبكرة نحو سبعة عشر لحناً أو كورساً ، مستعملا حقه الكامل فيما يملك ، ونسج منها قصة عن ميلاد المسيح استغرقت ساعتين . وكاد بعض ألحانه هذه التي سطا عليها لا ينسجم مع النص الجديد ، ولكن كان في استطاعة السامع أن يغفر الكثير من الأخطاء في لحن يقدم ، في مطلعه تقريباً ، الكورس الذي يبدأ بهذه الكلمات «كيف ألقاك اللقاء الجدير بك ؟ » .

كانت الأوراتوريات في صميمها تجميعات لكنتاتات . وكانت الكنتاتا ذاتها كورالا تتخلله الألحان . ولما كانت الخدمة اللوثرية كثيراً ما تطلب الكنتاتات ، فقد ألف باخ ثلاثمائة منها ، بقي منها إلى اليوم نحو مائتين . وقد حدت صلتها الوثيقة بالطقوس اللوثرية من عدد المستمعين لها في زماننا هذا ، ولكن كثيراً من الألحان التي تضمنتها فيه جمال يسمو على أي لاهوت . وفي فيمار ، في سنته السادسة والعشرين (١٧١١) كتب باخ أول كنتاتاته الرائعة « Actus tragicus التي تبكي مأساة الموت ولكنها تفرح برجاء القيامة . وفي ١٧١٤ — ١٧ خلد تقسيمات السنة الكنسية بطائفة من أروع كنتاتاته : فللأحد الأول من الآحاد الأربعة السابقة للميلاد Advent كتب « تعال الآن ، يا مخلص الوثنيين » . ولعيد القيامة ١٧١٥ كتب « السموات تضحك ، والأرض تبتهج » التي استعمل فيها ثلاثة أبواق ، ونقارية ، وثلاث أبوات وكمانين ، وفيولنتشيللوين ، وباصونا ، وسلسلة أنغام على لوحة المفاتيح لتعين الكورس ، وتحمل جمهور المصلين ، على أن يهتزوا طرباً بانتصار المسيح ؛ وكتب للأحد الرابع من الآحاد السابقة للميلاد في ١٧١٥ ، « القلب والفم والعقل والحياة » مع الكورال الجذل المألوف « و «أوبلجاتو » الأوبوا ، « يسوع ، يابهجة أشواق الإنسان » . وكتب للأحد السادس عشر بعد عيد الثالوث الأقدس ١٧١٥ ، « تعالي يا ساعة الموت الحلوة » . وفي ليبزج لحن تسبحة أخرى لقيامة المسيح « رقد المسيح في سجن الموت المظلم » . وفي الذكرى المئوية الثانية لـ « إعلان العقيدة الأجزبورجي » لحن ترنيمة لوثر التي مطلعها « إلهنا حصن حصين » في صورة كنتاتا تعد

الترنيمة فى قوتها ، ولكن ربما كانت أعنف من أن تكون تعبيراً مناسباً عن الإيمان .

وكان فى باخ إحساس محى بمباهج الدنيا رغم تدينه وصلته الوثيقة بالتقوى بحكم واجباته ، وكان فى وسعه أن يضحك ، كما يبكى ، من كل قلبه . وتسللت عناصر علمانية إلى مؤلفاته الدينية ، وقد اكتشفت بعض أنغام من أوبرات عصره فى القداس بمقام B الصغير [٥٨] . ولم يتردد فى أن يغدق موارد فنه على كنتاتات علمانية خالصة ، بقى منها الآن إحدى وعشرون . فألف « كنتاتا الصيد » و « كنتاتا القهوة » و « وكنتاتا الزفاف » وسبع كنتاتات لاحتفالات مدينة . وفى ١٧٢٥ كتب كنتاتا كاملة بمناسبة عيد ميلاد أوجست مولر الأستاذ بجامعة ليبزج « أيولوس المغتبط » احتفالا بتحرير الرياح ، ربما بمجاز خبيث . وفى ١٧٤٢ خلع موسيقاه على « كنتاتا الفلاحين الساخرة سخرية كاريكاتورية صريحة ، بما فيها عن رقص القرويين الصاخب وشربهم وغزلهم . وبعد عام ١٧٤٠ لم تعد الموسيقى الكنسية الغالية فى ليبزج ، وقدمت الحفلات الموسيقية العامة بازدياد ألحاناً علمانية ..

وقبل أن تدخل الموسيقى الدينية عصر اضمحلالها حلق بها باخ فى أجواء لم تبلغها من قبل فى البلاد البروتستنتية . وكان من مخلفات القداس الكاثوليكى فى الخدمة الكنسية اللوثرية ترتيل تسبحة « تعظم نفسى الرب » فى عيد زيارة العذراء (٢ يوليو) . وكان هذا إحياء لزيارة مريم لابنة خالتها أليصابات ، حين فاهت العذراء كما ورد فى إنجيل البشير لوقا (الاصحاح الأول ٤٦ — ٥٥) بترنيمة شكرها التى لا شبيه لها : **Magnificat anima meadominam**
« تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى لأنه نظر إلى اتضاع أمته : فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبنى . » ولحن باخ هذه السطور وما يليها مرتين ، ولعله لحنها فى صورتها الحالية لخدمة الميلاد بليبزج عام ١٧٢٣ . هنا يسمو الدين ، والشعر ، والموسيقى كلها إلى نفس الذروة فى وحدة رائعة .

وبعد ست سنوات بلغ تلك الذرى غير مرة فى « ألحان أسبوع الآلام

كما ورد فى إنجيل متى » . ولقد كان تلحين قصة آلام المسيح وموته القرون الطوال جزءاً من الطقس الكاثوليكى . واقتبس كثير من الملحنين البروتستنت صيغة الكنتاتا لهذا الغرض ، واستخدم إثنان منهم قبل باخ إنجيل القديس متى نصاً لها [٥٩] . وكتب باخ على الأقل ثلاثة من ألحان الآلام ، متبعاً فيها على التوالى روايات يوحنا (١٧٢٣) ، ومتى (١٧٢٩) ، ومرقص (١٧٣١) . ولم يتخلف من اللحن الثالث غير قطع متناثرة . ولحن الآلام على رواية يوحنا يشوبه تعاقب غير منطقى للمناظر وخلط بين الأحداث ، ونزوع تيوتونى إلى الخطب الراعدة ، ولكن الأجزاء الأخيرة منه تخف إلى رقة ورهافة فى الشعور ، وعمق حزين فى التأمل ، بلغ غاية ما تبلغه الموسيقى تأثيراً فى النفس..ولحن Es ist vollbrocht (قد أكمل) ترجمة عميقة لأخطر حدث فى قصة المسيح ، وما من امتحان للملحن أو المصور أعسر من هذا .

وفى عصر يوم الجمعة الكبيرة ، ١٥ أبريل ١٧٢٩ ، فى كنيسة توماس بليبزج ، أخرج باخ أعظم ألحانه قاطبة . وقد أتيح له فى هذا اللحن « لحن الآلام على رواية متى » ، نص ألمانى جيد ، بنى على رواية متى الكاملة نسبياً ، ورتبة أديب محلى يدعى كرستيان فردريك هنريكى ، الملقب « بيكاندر » . ويبدو أن باخ نفسه كتب النص لعدة كوارس وقد ظنها البعض قطعاً لا مبرر له لقصة الإنجيل ، ولكنها كالكورس فى المسرحية اليونانية تثرى الدراما بالتعقيب والشرح ، وإيقاعاتها الحزينة تعبر عن عواطفنا وتطهرها — وهما وظيفتان للفن الأسمى . وإذا كان الكثير جداً من موسيقى باخ إعلاناً للبراعة أو القوة ، فإن لحن الآلام على رواية متى كله تقريباً هو صوت الأسى ، أو العرفان ، أو المحبة — فى قرار الكورال المتكرر ، الحزين ، الرقيق ، وفى رفاهة الألحان ، وفى أنغام الفلوت الملازمة ترنم كأنها آتية من عالم آخر ، وفى الضبط الوقور للأدوار المصاحبة التى تلتف حول الكلمات ووسط الأحداث كأنها زخارف مذهبة مفضضة فى كتاب قداس من العصر الوسيط . هنا يفتح لنا باخ أعماقاً من الوجدان والمغزى لا تنكشف فى مكان آخر إلا فى الرواية الأصلية ذاتها ، فهذه المأساة ما زالت

بالنسبة لنا نحن أبناء الحضارة الغربية أشد المآسى تأثيراً فى نفوسنا ، لأنها لا تقتصر على تمثيل صلب شخص مثالى نبيل بأيدى إخوتنا من بنى البشر ، بل تجاوز هذا إلى الرمز لصلبه يومياً فى العالم المسيحى ، ولذلك الموت البطىء ، فى كثير منا ، موت الايمان الذى أحبه هذا الشخص إلهاً له .

وكاد باخ أن يوفق فى أن يبلغ مرة أخرى ، فى القداس بمقام B الصغير ، ذرى الانفعال والصنعة التى بلغها فى لحن الآلام المذكور . ولكنه لم يستطع أن يشعر بالانسجام الكامل مع مغامرته الجديدة كما شعر فى لحنه ذاك . فلقد كان انجيل الآلام أساس العقيدة البروتستنتية ومرتكزها : وكان باخ مستغرقاً فى تلك القصيدة استغراقاً لا سبيل إلى رده عنه . على أن القداس على أى حال كان تطويراً كاثوليكياً . وقانون الايمان ذاته يعبر عن التزام لا شك فيه بـ « كنيسة واحدة مقدسة ، جامعة (كاثوليكية) catholicam ، رسولية » . ومع أن الشعائر اللوثرية احتفظت بالكثير من القداس الكاثوليكى ، فإن هذا الكثير كان أثراً قاقاً تخلص فعلا من لحن « يا حمل الله Agnus Dei » قبل باخ . وكان القداس فى عصر باخ وفى الكنائس أيامه يغير قطعة قطعة بالكنتاتات ، وبقاياه اللاتينية تقصى شيئاً فشيئاً عن الطقوس . وقد رتلت ألحان الآلام لباخ بالألمانية ، وكان قد دس أربع ترانيم ألمانية بين الأبيات اللاتينية لحنه « تعظم نفسى الرب » . ولكن القداس كان لاتينياً خالصاً بحكم التقاليد بحيث كانت أى إقحامات ألمانية فيه تغامر بأن يؤخذ عليها عيب التنافر . وكان قد غامر بهذا التحدى بكتابته أربعة قداسات جزئية بمثل هذه الملاحق الألمانية ، ولم تكن النتيجة مرضية . فدرس بعناية تلك القداسات الكاثوليكية التى لحنها بالسترينا وغيره من الايطاليين . وأوحت علاقته ببلاط درسدن أنه قد يسر الملك — الناخب الكاثوليكى إذا لحن قداساً كاثوليكياً . وحين بعث لأوغسطس الثالث (١٧٣٣) ملتمساً بطلب وظيفة ولقب فى البلاط أرفق معه لحنى « كيرياليسون » و « المجد لله Gloria » أصبحا فيما بعد جزئين من القداس بمقام B الصغير . ويلوح أن الملك لم يهتم بهما . وأداهما باخ فى كنائس ليبزج ، فاستقبلا استقبالا طيباً ؛ وواصل هو هذا العمل (١٧٣٣ — ٣٨) فأضاف إليهما أجزاء أخرى ، قانون الايمان Credo ،

ولحن « قدوس قدوس قدوس Sanctus » ولحن « أوصنا Osanna ، ولحن « مبارك الرب Benedictus » ولحن «يا حمل الله » ولحن « هبنا سلاماً» Dona nobis pacem . فلما اكتمل هذا كله أصبح قداساً في صورته الكاثوليكية . ولعل باخ قد راوده الأمل في أن يأمر أوغسطس الثالث بترتيله في بولنده ، ولكن القدر لم يحقق أمنيته ، لأنه لم يترتل قط في كنيسة كاثوليكية . وقد قدمه باخ قطعة قطعة في مناسبات شتى ، في كنيسة توماس أو كنيسة نيقولا بليبزج .

والآن ، هل نسوق التحفظات المترددة التي تخالطه إعجابنا بهذا القداس الضخم بمقام B الصغير ؟ أن قوة باخ تطغى مراراً على ذلك التواضع الذي ينبغي أن يشرب به خطاب موجه إليه تعالى ، وقد يبدو أحياناً أنه لابد قد ظن أن الله أصم أذنيه ، لأنه قد أمسك طويلا عن الكلام في لغات كثيرة . فلحن « كيرياليسون » يجر ضخامته الراعدة المختلطة جراً طويلا مملا حتى لنصيح نحن أيضاً في النهاية « إليسون — أي ارحمنا ! » أما لحن « الحمد لله » فهو في أكثره متقن من حيث مصاحباته الأوركسترا ، وهو ينتقل إلى لحن جميل ، لحن « الجالس عن يمين الآب » ، ولكنه يبيت أجش خشنا بصوت الأبواق في لحن « لأنك وحدك قدوس » ثم يتناول لحن « مع روحك القدوس » برعد من المقاطع الموسيقية لابد جعل الروح القدس يرتعد مخافة أن يقتحم هذ التيوتونى الجبار أبواب السماء عنوة . ومن عجب أن قانون الإيمان — بتفاصيله ودقائقه العقائدية التي أحدثت الانقسام في العالم المسيحي ، والتي لا تلائم بطبيعتها الموسيقى — ينتج أسمى لحظات القداس بمقام B الصغير ، إلا وهما لحن « وتجسد » ولحن « الصلب » ، حيث يظفر باخ ثانية بذلك الجلال الهادىء الذي بلغه في لحن الآلام على رواية متى . ثم يأتي لحن « وقام من بين الأموات » فيطلق كل الأنغام الصارخة ، التي نفد صبرها ، أنغام الأبواق والطبول ، لتصيح وترتفع تهللا بانتصار المسيح على الموت . ويهدئنا لحن « مبارك الرب » بصمه الصدح (التينور) الرقيق وكمانه المنفرد السماوي . والمصاحبة الأوركسترالية للحن « يا حمل الله » جميلة

فى عمق ، ولكن لحن « هبنا سلاما » دليل على القوة لا على هبة السلام . تلك ردود فعل صريحة ليس لها كبير قيمة . ولن يتذوق القداس بمقام B الصغير تذوقاً كاملا غير أولئك الذين توافر لهم شيء آخر فضلا عن التربية المسيحية التى لم تفقد نغماتها التوافقية العاطفية ، وهو القدرة الفنية على أن يميزوا ويستمتعوا بما فى اللحن من بناء ، ونغميات ، وصنعة ، وبما استعمله الملحن فيه من موارد منوعة ، وبما فى تأليفه الأوركسترالى من تعقيد ، وبتكييف الأفكار الرئيسية فى الموسيقى وفى أفكار النص .

وقد انتقد بعض الموسيقيين المحترفين باخ أثناء حياته . ففى ١٧٣٧ نشر يوهان أدولف شايبى (الذى أصبح فيما بعد قائد الأوركسترا الملك الدنمرك) خطاباً غفلا من من التوقيع امتدح فيه باخ عازفاً على الأرغن ، وأشار إلى أن « هذا الرجل العظيم يكون محط إعجاب الأمم كلها لو كان أسلس من هذا ، ولو لم تكن ألحانه مفتعلة لما فيها من ضجيج واختلاط ، ولو لم يحجب جمالها الاسراف فى الصنعة (٦٠) . وبعد عام جدد شايبى هجومه فقال « إن ألحان باخ الكنسية تزداد افتعالا وبطئاً ، وهى تقصر عن ألحان تلمان وجراون فى الامتلاء بالاقتناع المؤثر أو التأمل الفكرى (٦١) . وكان شايبى قد حاول الحصول على منصب عازف الأرغن فى ليبزج وعلق باخ على عزفه الذى أداه على سبيل الاختبار تعليقاً فى غير مصلحته ، وهجاه فى إحدى كنتاتاته ؛ ولعل نقد شايبى لم يخل من غل . ولكن شبيتا ، أشد المعجبين بباخ حماسة ، ينبئنا أن الكثيرين من معاصرى شايبى شاطروه آراءه (٦٢) . وربما كان بعض نقاده يمثلون انتقاض الجيل الجديد فى ألمانيا على الموسيقى الطباقية التى بلغت عند باخ من التفوق ما لم يترك بعده مجالا لشيء غير التقليد ، وقد شهد القرن العشرون انتقاضاً كهذا على السمفونية .

ولعل شايبى كان مؤثراً هاندل على باخ ، ولكن هاندل كان قد خسرته ألمانيا وكسبته انجلترة ، فشق على ألمانيا بالطبع أن تقارن بينه وبين باخ . فإذا عقدت هذه المقارنة كان هدفها دائماً تفضيل هاندل (٦٣) . وقد أعرب بيتهوفن عن الرأى الألمانى حين قال ، « إن هاندل أعظمنا جميعاً » (٦٤) .

ولكن هذا كان قبل أن يبعث باخ تماماً من زوايا النسيان . ومن أسف أن هذين العملاقين — وهما أعظم مفاخر الموسيقى وألمانيا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر — لم يلتقيا قط ، ولو قد فعلا لأثر الواحد منهما فى صاحبه تأثيراً طيباً . وقد انطلق كلا الرجلين من الأرغن ، واعترف الناس لها بأنهما أعظم عازفيه فى زمانهما ، ثم واصل باخ إيثاره تلك الآلة بحبه ، فى حين جعل هاندل الصدارة للصوت ، وهو الذى راح يتنقل بين مغنيات الأوبرا وخصيان المغنين ، وزاوج هاندل بين الميلوديا الإيطالية والطباق الموسيقى الألمانى ، وفتح طريقاً إلى المستقبل ، أما باخ فكان التمام والكمال للماضى البوليفونى ، الفوجى ، الطباقى . وأحس الناس ، حتى أبناؤه ، أنه لم يبق من سبيل للتحرك على ذلك الخط .

ومع ذلك كان فى تلك الموسيقى القديمة شىء صحى ، سيستعيده فى تشوف وحنين رجال مثل مندلسون ؛ ذلك أنها كانت لا تزال مشربة بالإيمان الراسخ ، الذى لم تزعزعه بعد تلك الشكوك التى ستنفذ إلى صميم العقيدة المعزية . ولقد كانت صوت حضارة مكتملة التشكل ، بوصفها الملاك والذروة لفن ولتقليد موروث . ولقد عكست التنميق الزخرفى للباروك ، ولأرستقراطية لم يعد يتصدى لها الآن متصد . ولم تكن ألمانيا قد ولجت بعد عصر تنويرها « الأوفكلبرنج » ، ولا سمعت صياح أى من ديوك الثورة . فليسنج ما زال صغيراً ، وكل ألمانى تقريباً يؤمن بالعقيدة النيقوية قضية لا نقاش فيها ، ولم يشذ بتفضيل فولتير غير الأمير فردريك البروسى . وعما قليل سيتزعزع صرح المعتقدات والطرائق الموروثة الفخم زعزعة تكاد تهدمه هدماً من جراء دعوات العقول المبتدعة ، وستطوى صفحات ذلك السلام المنظم القديم ، وذلك الاستقرار الطبقى ، وذلك الإيمان العجيب الذى لا يساوره شك ولا تساؤل — كل هذا الذى كتب موسيقى باخ ، وستتغير كل الأشياء ، حتى الموسيقى ، باستثناء الإنسان دائماً .

٣ — ختـــام :

لقد أتاحت له عزلته وترويضه فى ليبزج أن يرث الماضى دون غضاضة أو تمرد . وكان إيمانه الدينى ، بعد موسيقاه راحته وملاذه . كان يقتنى

فى مكتبته ثلاثة وثمانين مجلداً فى اللاهوت ، أو التفسير ، أو الوعظ والإرشاد . وقد أضاف إلى عقيدته اللوثرية ، المستقيمة ، الرجولية ، مسحة من الغيبية ، ربما أخذها عن الحركة التقوية فى زمانه ـ مع أنه عارض التقوية لعدائها لأى موسيقى كنسية غير التراتيل . وكان أكثر موسيقاه ضرباً من العبادة . وقد ألف أن يبدأ التلحين بصلاة يقول فيها « أعنى يا يسوع » وكان يستهل كل مؤلفاته تقريباً ويختمها بإهدائها لجلال الله ومجده . وعرف الموسيقى بأنها « تناغم لطيف لمجد الله وبهجة الروح المباحة » (٦٥) .

وفى الصور التى خلفها لنا فى أخريات عمره نرى فيه الرجل الألمانى النموذجى ، عريض المنكبين ، بديناً ، ممتلىء الوجه أحمره ، عظيم الأنف ، له إلى ذلك كله حاجبان مقوسان أضفيا عليه نظرة متسلطة يشوبها بعض الغيظ والتحدى . وكان طبعه حاداً وقد حارب ببأس شديد دفاعاً عن منصبه وآرائه ، أما فيما عدا ذلك فقد كان أشبه بدب دمث لطيف يستطيع أن يطأطىء وقاره مازحاً إذا توقفت المعارضة . ولم يشارك بنصيب فى حياة ليبزج الاجتماعية ، ولكنه لم يكن ضنيناً باستضافة الأصدقاء ، ومن بينهم منافسون كثيرون من أمثال هاسى وجراون . وكان متعلقاً بأسرته . يستغرقه عمله وبيته . وقد درب جميع أطفاله العشرة الأحياء على الموسيقى . وزودهم بالآلات ، واحتوى بيته خمس موترات مفاتيح ، وعوداً ، وفيولا للساق ، وعدة كمانات ، وفيولات ، وفيولنتشيلات . كتب إلى صديق فى تاريخ مبكر (١٧٣٠) يقول « أستطيع الآن أن أحيي حفلة موسيقية ، صوتية وآلية ، من أفراد أسرتى » (٦٧) . وقد يتاح لنا فى موضع لاحق أن نرى كيف واصل أبناؤه فنه وفاقوه شهرة .

ثم وهن بصره فى أخريات عمره . وفى ١٧٤٩ ارتضى أن تجرى له جراحة على يد نفس الطبيب الذى عالج هاندل بنجاح فى الظاهر ، ولكن الجراحة أخفقت هذه المرة وتركته مكفوف البصر تماماً . وعاش بعدها فى حجرة معتمة لأن النور الذى لم يستطع رؤيته كان يؤذى عينيه . على أنه واصل التلحين رغم بلواه ، شأنه فى ذلك شأن بيتهوفن الأصم ، وراح الآن

يملى صهيراً له الافتتاحية الكورالية « حين تشتد بنا الحاجة » . وكان قد أعد نفسه للموت منذ أمد بعيد ، ووطن نفسه على تقبله ، إذا حان حينه ، عطية من الآلهة ؛ ومن ثم ألف لحنه المؤثر « تعال أيها الموت الحلو » .

تعال أيها الموت الرحيم ، أيها الراحة المباركة ،
تعال لأن حياتى مقفرة ،
وقد تعبت من الدنيا .
تعال لأننى فى انتظارك ،
تعال سريعاً وهدىء روحى ،
وأسبل عينى فى رفق ،
تعال ، أيها الراحة المباركة [٦٨] .

وفى ١٨ يوليو ١٧٥٠ بدا أن بصره قد رد إليه بصورة معجزة ، وتجمعت أسرته من حوله فى فرح وابتهاج ولكن فجأة ، فى ٢٨ يوليو ، قضت عليه إصابة بالفالج و « رقد إلى الرب هادئاً مباركاً » [٦٩] كما تقول لغة ذلك العهد المفعمة بالرجاء .

وكاد يصبح نسياً منسياً بعد موته . وبعض هذا النسيان مرجعة انزواء باخ فى ليبزج ، وبعضه عسر ألحانه الصوتية ، وبعضه اضمحلال الميل إلى الموسيقى الدينية والأشكال الطباقية . وحاول يوهان هيللر ، الذى شغل فى ١٧٨٩ وظيفة باخ قائداً لفرقة المرتلين فى مدرسة توماس ، أن « يبث فى التلاميذ استهجان فجاجات باخ » [٧٠] . وكان اسم باخ فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر يعنى كارل فليب إيمانويل ، الذى كان يأسف على طابع موسيقى أبيه العتيق [٧١] . وما حلت سنة ١٨٠٠ حتى بدا أن كل ذكر ليوهان سبستيان باخ قد طوى .

ولم يذكر عمله غير أبنائه . وقد وصفه إثنان منهما ليوهان نيكولاوس فوركل ، مدير الموسيقى بجامعة جوتنجن . ودرس فوركل العديد من ألحانه فتحمس له ، ونشر فى ١٨٠٢ ترجمة لحياته فى تسع وثمانين صفحة صرح فيها بأن :

« الأعمال التي خلفها لنا يوهان سبستيان باخ هي تراث قومي لا يقوم بثمن ولا يملكه أي شعب آخر ... وتخليد ذكرى هذا الرجل العظيم ليس واجب الفن وحده بل واجب الأمة ... فهذا الرجل ، الذي هو أعظم من عاش ولعله أعظم من سيعيش من شعراء الموسيقى ومنظريها ، كان ألمانياً ... فته به فخراً يا وطني » (٧٢) .

وفتح هذا النداء المستنفر للوطنية قبر باخ . فاشترى كارل تسلتر ، مدير أكاديمية الغناء ببرلين ، مخطوطة لحن الآلام . واستطاع فيلكس مندلسون ، تلميذ تسلتر ، أن يقنعه بأن يسمح له بأن يقود في الأكاديمية أول أداء لهذا اللحن يؤدى في مكان غير الكنيسة (١١ مارس ١٨٢٩) . ولاحظ صديق لمندلسون أن لحن الآلام هذا قد بعث إلى النور بعد تقديمه أول مرة بمائة عام تقريباً ، وأن يهودياً في الحادية والعشرين من عمره هو صاحب الفضل في بعثه من مرقده . (٧٣) وأدى جميع المشاركين في اللحن أدوارهم دون أن يتقاضوا أجراً . وزاد مندلسون على هذا الاحياء بتضمين معزوفاته ألحاناً أخرى لباخ . وفي ١٨٣٠ نزل فترة ضيفاً على جوته ، فشغله جوته بطلبه عزف ألحان باخ .

ووافق هذا الإحياء ظهور الحركة الرومانسية ، وتجديد الإيمان الديني بعد حروب نابليون ، وزال سلطان الواقعية ؛ فقد ارتبطت بالثورة (الفرنسية) المحرمة ، وبـ« ابن الثورة » ، ذلك الرجل الرهيب الذي طالما أذل ألمانيا في ساحات القتال . وكانت ألمانيا الآن ظافرة . فشارك حتى هيجل في الإشادة بباخ بطلا للأمة . وفي ١٨٣٧ دعا روبرت شومان إلى نشر أعمال باخ نشراً كاملا ، وفي ١٨٥٠ تألفت « جماعة باخ » . وجمعت مخطوطات باخ من كل مصدر ، وفي ١٨٥١ صدر أول مجلد . وفي ١٩٠٠ صدر المجلد السادس والأربعون والأخير . وقال برامز أن أعظم حدثين في التاريخ الألماني وقعا في عهده هما تأسيس الامبراطورية الألمانية ، ونشر ألحان باخ الكاملة (٧٤) ؛ وهذه الألحان تؤدى اليوم أكثر من ألحان أي ملحن آخر ، ويتقبل العالم الغربي كله تقدير باخ بأنه « أعظم شاعر موسيقي عاش إلى اليوم » .

الفصل الثالث عشر
فردريك الأكبر وماريا تريزا

١ — استهلال امبراطورى : ١٧١١ — ٤٠

يبدو أن فولتير كان أول من لقب فردريك بـ « الأكبر » منذ عام ١٧٤٢ [١] Frédéric Le Grand وكانت العبارة جزءاً من ميثاق بالاعجاب المتبادل دام عشر سنين بعد ذلك التاريخ . ولكن إذا جاز للتاريخ أن ينحو نحو الشاعر هويتمان فى التهليل للمهزومين بنفخ الأبواق ، حق له أيضاً أن يلقب ماريا تريزا بالكبرى ، لأنها كانت واحدة من عدة ملكات فقن فى العصور الحديثة معظم الملوك وأزرين بهم .

ولنبدأ حديثنا عنها من خلال خلفيتها . فقبل أن تولد بست سنوات ارتقى أبوها الهابسبورجى (١٧١١) عرش « الأمبراطورية الرومانية المقدسة » وتسمى شارل السادس . وكان رأى فولتير فى هذه الدولة أنها لا تملك واحدة من هذه الصفات الثلاث ، ولكنها كانت لا تزال امبراطورية ، تكسوها مهابه تسعة قرون . وضمت هذه الدولة التى حكمت من فينا حكماً واهناً النمسا ، والمجر ، وبوهيميا (تشكسلوفاكيا) واستيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، والتيرول ؛ وفى ١٧١٥ بسطت سلطانها على الأراضى المنخفضة الإسبانية السابقة ، التى نعرفها الآن باسم بلجيكا ، ولم تكن الدويلات الألمانية فيها خاضعة للامبراطور إلا بالاسم ، أما المدن الحرة الألمانية فقد اعترفت بسلطته فى شئونها الخارجية ، وكانت بوهيميا الآن فى اضمحلال ، فقد أشاع فيها الفوضى التعصب الدينى واستغلها الملاك الغائبون عن أرضها وأكثرهم يتكلمون لغة أجنبية ، أما المجر فكانت قد عانت من كونها أهم منطقة للصراع بين المسيحيين والعثمانيين ، عبرها أكثر من عشرة جيوش واستهلكوها ؛ وتقلص عدد سكانها ، واستشرت الفوضى فى حكومتها . ورفضت طبقة

من النبلاء كبيرة العدد حربية النزعة ، لم تعد مجرية الجنس إلا فى قسم منها ، أن تدفع الضرائب الامبراطورية ، وكرهت الحكم النمسوى . ولم يكن يملك أرضاً فى المجرسوى النبلاء والكنيسة ، فقسماها ضياعاً شاسعة يفلحها الأقنان ، وجنيا منها الدخول التى بنيا بها كبار الأديار والقلاع والقصور ، ورعيا الموسيقى والفن . وكان بعض النبلاء يمتلك خمسين ألف فدان للواحد ، وكانت أسرة استرهازى تملك سبعة ملايين فدان (٢) .

أما النمسا نفسها ، أكبر المستفيدين فى الامبراطورية ، فكانت تنعم بالرخاء . فبينما لم يزد سكان المجر على مليونين ، بلغ سكان النمسا زهاء ٦,١٠٠,٠٠٠ فى ١٧٥٤ زادوا إلى ٨,٥٠٠,٠٠٠ فى ١٨٠٠ . وفيها هى أيضاً كانت الأرض ملكاً للنبلاء أو الاكليروس يفلحها الأقنان ؛ وقد عمرت القنية فى النمسا حتى ١٨٤٨ . وكان شأن الضياع فيها شأنها فى انجلتره يحتفظ بها ملاكها كاملة بحق البكورة ، الذى يقضى بأن تورث الأرض كلها للابن البكر ، أما الأبناء الأصغر منه فيعوضون بوظائف فى الجيش ، أو الكنيسة ، أو الإدارة ؛ وهكذا بلغت حاشية الامبراطور شارل السادس أربعين ألفاً ، ولم يكن فى النمسا طبقة وسطى غنية تتحدى سلطان الارستقراطية الطاغى أو تخفف من دمها الأزرق . وكانت الزيجات مسألة بروتوكول . وأبيحت الخليلات والعشاق بقانون غير مكتوب ، على ألا يجاوز هذا نطاق الطبقة . وقد كتبت اللادى مارى مونتاجيو من فيينا فى ١٧١٦ ، ربما بما يعهد فى الرحالة من مبالغات ، فقالت :

« من العادات الراسخة أن يكون لكل سيدة نبيلة زوجان ، أحدهما حامل الإسم والآخر القائم بالواجبات ، وهذه الارتباطات معروفة جداً حتى أن القوم يعدونها إهانة صريحة تشجب علناً أن تدعو امرأة من علية القوم إلى الغداء دون أن تدعو فى الوقت ذاته تابعيها هذين ... العشيق والزوج اللذين تجلس هى بينهما رسمياً فى وقار شديد ... والمرأة تتطلع إلى عشيق حالما تتزوج باعتباره جزءاً من حاشيتها (٣) . .

وكانت الطبقة الارستقراطية ، فى جميع أرجاء هذه الدولة التى كانت تتحول

الآن إلى امبراطورية نمساوية — مجرية تعمل ويدها فى يد الكنيسة : ولعل النبلاء تقبلوا اللاهوت الكاثوليكى فى شىء من التحفظ والارتياب ، وكان العديد منهم ماسونا (٤) . ولكنهم مخوا شاكرين على دين أعان بمثل هذه السماحة أقفانهم وبناتهم المجردات من المهور على الرضى بنصيبهم فى هذه الدنيا تعللا بالآخرة . وكان تنوع العقائد كفيلا بتشويش هذه العملية لو أبيح لأنه مفض إلى الجدل والشك ، أما التسامح الدينى فهو ولا ريب من خطل السياسة . وقد جعل فيرميان رئيس أساقفة سالزبورج الحياة فى رئاسة أسقفيته عسيرة على البروتستنت عسراً حمل ثلاثين ألفاً منهم على الهجرة . فنزح معظمهم إلى بروسيا (١٧٢٢ — ٢٣) (٥) حيث شدوا من أزر عدو النمسا الصاعد . كذلك أسهمت هجرات أو حركات طرد مماثلة من بوهيميا فى الاضمحلال الاقتصادى لتلك الدويلة التى كانت يوما ما تعتز باستقلالها ، وعملت على تقدم ألمانيا البروتستنتية .

وشارك الأغنياء والفقراء فى تمويل عمارة العصر الكنسية . ففى براغ أكمل كيليان اجناز دينتسنهوفر أعظم المعمارين التشيكيين ، فى عمارة ضخمة فخمة ، كنيسة القديس نيقولا التى بدأها كريستوف دينتسنهوفر . وترك يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ ، أعظم المعماريين النمسويين ، بصمته على سالزبورج ، وبراغ ، وروما ، وشيد هو وابنه يوزف إمانويل رائعة من الباروك فى كنيسة القديس شارل بفينا . وأبرزت الأديار الفخمة مجد الله ورفاهيات العزوبة . فكان هناك مثلا الدير البندكتى فى ملك على الدانوب حيث نشر ياكوب برانتاوير ومساعدوه (٦) مجمعاً يشتمل على مبان ، وأبراج ، وقبة ، وفى داخله القصور الفخمة والأعمدة الرائعة ، والزخرفة الفاخرة . وهناك دير القساوسة الأوغسطينيين القديم فى دورنشتين الذى أعاد بناءه (٧) بالباروكه الأنيق يوزف مونجناشت ؛ ويلاحظ أن أهم مفاخره — البوابة الرئيسية والبرج الغربى — من إنتاج متياس شتايندل ، وهو مثال اتجه إلى العمارة وهو فى الثامنة والسبعين . وهناك كنيسة الدير البندكتى ومكتبته فى آلتنبورج (وبانيهما هو مونجناشت أيضاً) (٨) وهما مشهورتان بالزخارف المترفة . وهناك دير الرهبان البندكتين فى تسفيتل ،

وهو من آثار القرن الثانى عشر ، وقد أقام فيه مونجناشت وشتايندل واجهة جديدة وبرجاً ومكتبة . [٩] أما الخورس الرائع فكان من صنع مايستريوهان فى ١٣٤٣ — ٤٨ ؛ هنا أظهر الطراز القوطى القديم تفوقه على الباروك الجديد. ثم هناك دير شتامز فى التيرول الذى أعاد بناءه [١٠] جيورج جومب ، والذى تميزه المصبعات الحديدية والزخارف الجصية فى بيت سلم « الأحبار » ؛ وهنا كان يدفن أمراء الهايسبورج . وهناك كنيسة الدير فى هوتسوجنبورج ، وهى الرائعة التى أبدعها فرانتس بن يوزف مونجناشت ، فى حياته القصيرة (١٧٢٤ — ٤٨) . وهناك كنيسة الدير فى فيللبرنج ، التى قيل فيها أنها « أبدع بناء بطراز الروكوك فى النمسا » . [١١] ونلاحظ فى مرورنا هنا الأراغن الرائعة فى هذه الكنائس كالتى فى هرتسوجنبورج وفيللبرنج ، والمكتبات الجملية ؛ ومن نماذجها مكتبة الدير البندكتى فى آدمونت ، المحتوية على ٩٤,٠٠٠ مجلد ، ١,١٠٠ مخطوطة فى هيكل من الزخرف الباروكى. لقد كان رهبان النمسا فى قمة مجدهم فى عصر الإيمان المتداعى الذى نحن بصدده .

وقد جارهم النبلاء بنفس الخطو . ففى النمسا والمجر ، كما فى ألمانيا ، كان كل أمير يتوق إلى ضريب لفرساى ؛ ومع أنه عجز عن منافسة ذلك البهاء المفرط فإنه جمع من الأسلاب ما أتاح له بناء « قصر » palais (كما كان يسميه) يعكس كل جانب ومظهر فيه سمو مكانته . فشاد أوجين أمير سافوى قصراً صيفياً على مستويين فى ضيعته خارج فيينا « بلفدير واطىء » (وهو الآن متحف الباروك) و « بلفدير عال » وضع تصميمهما الجميل يوهان لوكاس فون هلدبرانت . وصمم يوهان برنارد فيشر فون إرلاخ قصر الأمير الشتوى (وتشغله الآن وزارة المالية) كذلك وضع تصميمات لقصر شونبرون وحدائقه لينافس بهما فرساى ، ولكن البناء الفعلى الذى بدأ فى ١٦٩٦ أغفل هذه التصميمات أو خفف منها أثناء تنفيذه . وصمم فيشر فون إرلاخ وابنه يوزف إيمانويل المكتبة الامبراطورية — وهى المكتبة القومية الآن — التى يرى إخصائى فى فن الباروك أن بها أبدع بناء داخلى لأى مكتبة فى العالم . [١٢] وفى ١٧٢٦ فتح شارل السادس هذا الكنز للجمهور وفى ١٧٣٧

اشترى لها مجموعة المخطوطات والكتب الهائلة التى كان يمتلكها أوجين أمير سافوى . لقد كانت فيينا ، إلى حد كبير ، أجمل مدينة فى دولة الجرمان ؛

وقد حمل أكثر العمارة النمسوية بالنحت . ونذكر هنا بجهل خجول تمثال « المسيح المصلوب » الخشبى الذى صنعه أندرية تاماش فى دير شتامز ، وتمثال الامبراطور فرانسيس الأول الرخامى الذى نحته بلقازار مول والمعروض فى متحف الباروك بفيينا ؛ وفى وسعنا أن نستشعر على البعد تفانى يوزف شتامل فى فنه ، إذ أنفق معظم حياته فى تجميل دير آدمونت بالتماثيل . ولكن كيف يغتفر لنا كل هذا الإبطاء فى التنويه بجيورج رفائيل دونر مثالا لا يفوقه بين مثالى العصر غير برنينى ؟ فقد ولد فى اسلنجن بمنخفضات النمسا (١٦٩٣) وتلقى فنه على يد جوفانى جوليانى ؛ وبفضل هذه الوصاية الإيطالية اكتسب الميل الكلاسيكى الذى أتاح له تنقية ما فى الباروك النمسوى من إسراف . على أن تمثاله الرخامى « تمجيد شارل السادس » (١٣) مازال يعانى من غرابة الباروك وشططه — ففيه يرى الامبراطور وقد رفعه إلى السماء ملاك له ساقان جميلتان وثديان متألقان ؛ ومع ذلك فنحن شاكرون للفن أن أعاد للصاروفيم (الملاك) شيئاً ملموساً — وهو الذى خالته الفلسفة مجرداً من الجسد . ومن آيات دونر الجديرة بعصر النهضة تمثاله « القديس مارتن والشحاذ » فى كتدرائية برسبورج (براتيسلافا) ، ولمنحوتته الرخامية البارزة « هاجر فى البرية » (١٤) جمال كلاسيكى ناعم . وقد بلغ أوجه فى التماثيل التى صبها من الرصاص لنافورتين كبيرتين فى فيينا : نافورة « العناية الإلهية » فى السوق الجديدة ، التى تمثل أنهار النمسا ، ونافورة أندروميدا التى تنافس نافورة روما . وقبل أن يموت فى ١٧٤١ بعام بالضبط صب لكتدرائية جورك مجموعة تمثل بكاء مريم على جسد المسيح ؛ وهى مجموعة كانت خليقة بأن تشيع البهجة فى صدر رفائيل لأن دونر اتخذ اسمه .

ولم ينتج المصورون ولا الشعراء فى هذا العصر فى النمسا أو ممتلكاتها أى آثار تثير اهتمام العالم الخارجى ، وربما يستثنى من هذه القاعدة الصور الجصية التى صورها دانيل جران داخل قبة المكتبة الكبرى فى فيينا . أما فى الموسيقى فقد كانت فيينا المركز المعترف به للعالم الغربى . وكان شارل

السادس يعشق الموسيقى عشقاً لا يعلو عليه سوى حبه لبناته وعرشه . وقد لحن هو نفسه أوبرا ، وصاحب فارينيللي عازفاً على البيان القيثارى ، وقاد البروفات . وجلب لفيينا خيرة المغنين ، والعازفين ، والممثلين ، ورسامى المناظر المسرحية ، دون أن يعبأ بالتكاليف . وفى إحدى المناسبات أنفق — فيما قدرت الليدى مارى — ثلاثين ألف جنيه ليخرج أوبرا واحدة (١٥) . وبلغ عدد المرتلين والعازفين فى فرقة كنيسته ١٣٥ . وأصبحت الموسيقى « إمبراطورية » ، أو على الأقل أرستقراطية . وفى بعض الأوبرات كان جميع المشاركين — سواء العازفين المفردين ، أو الكورس ، أو الباليه ، أو الأوركسترا — أفراداً من الطبقة الارستقراطية . وفى إحدى هذه الحفلات كانت تقوم بالغناء فى الدور الرئيسى الأرشيدوقة ماريا تريزا (١٦) .

وقبل أعظم كتاب نصوص الأوبرا فى ذلك العهد الدعوة إلى فيينا فأقبل أبوستولو زينو من البندقية فى ١٧١٨ ، وعمل شاعراً لبلاط شارل السادس ، وفى ١٧٣٠ اعتزل فى لطف مخلياً مكانه لبيترو ترابامى ، النابولى الذى كان قد تسمى من جديد ، « ميتاستاسيو » . وفى السنوات العشر التالية كتب ميتاستاسيو — بالإيطالية دائماً — مسرحيات شعرية بلغ من قدرتها على إثارة العواطف أن كبار ملحنى أوروبا الغربية أسعدهم أن يلحنوها . ولم يضارعه أحد فى تكييف الشعر وفق مطالب الأوبرا — أى فى ملاءمة موضوع نصه ، وحركته ، ومشاعره ، لمقتضيات المغنين المنفردين ، والثنائيين ، والمقاطع الملحونة ، والكوارس ، والباليات ، والمناظر المسرحية ؛ ولكنه فرض لقاء ذلك على الملحنين التوافق الإيقاعى بين موسيقاهم ومسرحيته . وعظم نجاحه حتى خشى فولتير أن تطرد الأوبرا الدراما من المسرح ، وقال « إن هذا الوحش الجميل يخنق ملبومين (ربة التراجيديا) » (١٧) .

وتربع شارل السادس على عرش كل هذه الموسيقى ، والفن ، والبلاط المتعدد اللغات ، والإمبراطورية ، بيد مبسوطة ، وقلب رحيم ، وحزن رجل الحرب . ذلك أن قواده لم يستطيعوا أن يتبعوا عصا قيادته ، وحين طالبهم بأغانى الفرح لم يعطوه غير المآسى . لقد جرت ريح الحرب مع النمسا رخاء ما دام أوجين أمير سافوى محتفظاً بقوة ذهنه وسلطانه ، وهو الذى

شارك ملبره صد جيوش لويس الرابع عشر ؛ فانتزعت بلغراد من العثمانيين ، وسردانيا من سافوى ، وميلان ونابلى والأراضى المنخفضة الإسبانية من أسبانيا . ورقى أوجين لا قائداً عاماً لجميع الجيوش النمساوية فحسب ، بل وزيراً أول ومديراً للدبلوماسية . والواقع أنه بسط سلطانه على كل شيء إلا الأوبرا ، ولكنه — وقد أذعن للناموس الذى يبلى أجساد البشر — أصاب الوهن عقله لا جسمه فحسب . وفى حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ — ٣٥) انزلقت النمسا إلى صراع مع فرنسا ، واسبانيا ، وسافوى (التى كانت تعرف آنئذ بمملكة سردانيا الصغيرة) وخسرت اللورين ، ونابلى ، وصقلية (١٧٣٥ — ٣٨) ، وأسفر تحالفها مع روسيا عن حرب أخرى مع تركيا ؛ وضاعت منها البوسنه ، والصرب ، والأفلاق ، وعادت بلغراد تركية من جديد (١٧٣٩) . ولم يؤت الامبراطور من المواهب ما يعوض به المواهب التى افتقدها معاونوه . وإليك رأى فردريك الأكبر فيه :

« أخذ شارل السادس من الطبيعة الصفات التى تصنع المواطن الصالح ، ولكنه لم يأخذ صفة من تلك التى تصنع الرجل العظيم . كان سمحاً دون تمييز ، له روح محدودة دون بصيرة ثاقبة ، وكان قادراً على الانكباب على العمل ، ولكن دون عبقرية ، يجهد نفسه دون أن ينجز الكثير ، ويجيد معرفة القانون الألمانى ، وعدة لغات ، وقد نبغ فى اللاتينية على الأخص . وكان أباً صالحاً وزوجاً صالحاً ، ولكن شابه ما شاب جميع أمراء البيت المالك النمسوى من تعصب وميل للخرافة » [١٨] .

وكان عزاؤه وفخره فى كبرى بناته ماريا تريزا ، التى وطد العزم على توريثها عرشه : ولكن أباه ليوبولد الأول كان قد أبرم (١٧٠٣) « ميثاقاً متبادلا للوراثة » تقرر فيه أن يحكم الوراثة مبدأ حق الابن البكر ؛ فإذا لم يوجد وريث ذكر انتقل التاج إلى بنات ابنه جوزف (المولود فى ١٦٧٨) ثم إلى بنات ابنه شارل (المولود فى ١٦٨٥) . وترك موت جوزف الأول فى ١٧١١ دون وريث ذكر (ولكن بابنتين على قيد الحياة) التاج لشارل . وفى ١٧١٣ بمقتضى « أمر عال » أصدره شارل لمجلسه الخاص ، أعلن مشيئته بأن ينتقل عرشه وأملاكه الشخصية بعد وفاته إلى أكبر أبنائه الحى ،

فإذا لم يكن هناك ابن على قيد الحياة فإلى كبرى بناته . وقد ولد ابنه الوحيد ومات عام ١٧٢٦ . وبعد أن انتظر شارل عبثاً إنجاب آخر ، ناشد الدول الأوربية أن تتفادى نشوب حرب وراثة بقبولها وضمانها الجماعى لنظام الوراثة الذى وضعه . وفى الأعوام الثمانية التالية قبلت أمره العالى أسبانيا ، وروسيا ، وبروسيا ، وانجلتره ، وهولنده ، والدنمرك ، واسكندناوه ، وفرنسا .

ولكن مصاعب نشبت فصنعت كثيراً من التاريخ . ذلك أن سكسونيا وبافاريا كان على عرشيهما أميران متزوجان من ابنتى جوزف أخى شارل ، فطالبا الآن بوراثة عرش الامبراطورية عملا بميثاق ليوبولد الأول ، أما فردريك وليم الأول ملك بروسيا فوافق على أساس تأييد شارل له فى مطالبته بجزء من دوقيتى يولش وبيرج ويبدو أن شارل وافق على هذا الشرط ولكن سرعان ما بذل لمنافسى فردريك وليم وعوداً عكس هذا الوعد . وعليه انضم ملك بروسيا إلى أعداء الامبراطور [١٩] .

وفى ١٧٣٦ تزوجت ماريا تريزا من فرانسس ستيفن ، دوق اللورين ، وغراندوق توسكانيا فيما بعد (١٧٣٧) ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وفى ٢٠ أكتوبر ١٧٤٠ مات شارل السادس ، مختتماً بموته فرع الذكور فى بيت هابسبورج . واعتلت ماريا تريزا العرش بوصفها أرشيدوقة النمسا وملكة بوهيميا والمجر . وأصبح زوجها شريكاً لها فى الحكم ، وإذ لم يبد كبير اكتراث بشئون الدولة أو كفاءة تذكر للقيام عليها فقد وقع عبء الحكم كله على عاتق الملكة الشابة . وكانت فى عام ١٧٤٠ تملك كل مفاتن الأنوثة والملك ؛ قسمات بديعة ، وعيون زرق متألقة ، وشعر أشقر غزير ، ورقة فى السلوك ، وخفة فى الحركة ، ومتعة العافية ، وحيوية الشباب [٢٠] . وكان ذكاؤها وخلقها يفوقان هذه المفاتن كلها قصراً عن التصدى للمشكلات التى أحدقت بها من كل جانب . وكانت الآن حاملا فى شهرها الرابع بالطفل الذى سوف يخلفها باسم جوزف الثانى « المستبد المستنير » . ونازعها حقها فى العرش كل من شارل ألبرت ناخب بافاريا ، وفردريك أوغسطس الثانى ناخب سكسونيا ، وناصر حزب قوى فى فيينا القضية البافارية ، ولم يكن هناك تأكيد بأن المجر ستعترف بها ملكة عليها ، ولم تتوج بهذا الوصف حتى ٢٤

يونيو ١٧٤١ . أما خزانة الامبراطورية فخاوية إلا من ١٠٠,٠٠٠ فلورين ، زعمت الامبراطورة أرملة شارل السادس أنها ملك لها . وكان الجيش مختل النظام ، وقواده تعوزهم الكفاية . وكان مجلس الدولة مؤلفاًمن أعضاء مسنين فقدوا القدرة على التنظيم أو القيادة . وانتشرت الشائعات بأن العثمانيين سيزحفون مرة أخرى على فيينا بعد قليل .[21] وطالب فليب الخامس ملك أسبانيا بالمجر وبوهيميا ، وملك سردينا بلمبارديا ثمناً لاعترافهما بها[22] . أما فردريك الثاني الذى أصبح ملكاً على بروسيا قبل تولى ماريا تريز العرش بخمسة شهور فقط ، فقد بعث إليها يعرض الاعتراف بها والدفاع عنها ودعم انتخاب زوجها امبراطوراً ، شريطة أن تنزل له عن الشطر الأكبر من سيلزيا ، فرفضت العرض ، ذاكرة ما كان أبوها يرجوه من بقاء المملكة سليمة لا تجزأ ولا يمسها سوء . وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٤٠ غزا فردريك سيلزيا ، ووجدت المملكة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً نفسها تخوض حرباً مع أقوى دولة فى ألمانيا ، ومع الرجل الذى قدرله أن يكون أعظم قائد فى عصره .

٢ — استهلال بروسى : ١٧١٣ — ٤٠

(أ) فردريك وليم الأول :

كانت أسرة هوهنتسلرن قد نجحت فى رفع إمارة براندنبورج الناخبة إلى مملكة بروسيا فى ١٧٠١ ، وأصبح أميرها الناخب ملكاً باسم فردريك الأول . وقد أوصى بأن يرث ملكه بعد موته ابنه فردريك وليم الأول (حكم ١٧١٣ — ٤٠) . وكان الملك الجديد ، عن طريق زوجته صوفيا دوروتيا ، صهراً لجورج الأول الذى ارتقى عرش انجلترہ فى ١٧١٤ . وكانت أملاك بروسيا تشمل بروسيا الشرقية ، وبومرانيا السفلى ، وإقليم الحدود المسمى براندنبورج (والمحيط ببرلين) وإقليم كليفز فى غربى ألمانيا ، وكونتية مارك ، ومدينة رافنزبرج فى وستفاليا : وكلها أخلاط مفككة من البلاد تمتد امتداداً متقطعاً من الفستولا إلى الألب ، ولا تربط بينها غير قوات الملك . وبلغ سكان « بروسيا » هذه فى ١٧٤٠ نحو ٣,٣٠٠,٠٠٠ زادوا إلى ٥,٨٠٠,٠٠٠ فى نهاية القرن ، أما بنيانها الاجتماعى فكان إقطاعياً

فى أساسه : فلاحون يدفعون الضرائب والفروض الإقطاعية ، وطبقة وسطى ضعيفة ، وطبقة نبلاء تطالب بإعفائها من الضرائب ثمناً لتزويد الملك بالعون الحزبى . وكانت رغبة فردريك وليم الأول فى التحرر من الاعتماد على هؤلاء النبلاء بعض ما دعاه إلى تنظيم جيش دائم سيقرر التاريخ السياسى لأوربا الوسطى طوال نصف قرن .

كان فردريك وليم حاكماً شاذاً شذوذ ابنه الأشهر منه ، الذى يرجع معظم الفضل فى انتصاراته لجيش أبيه . ولم يوهب الوالد ولا الولد شخصية جذابة ساحرة ، ولم يسترضى أحدهما العالم بجمال طلعته أو لطف ابتسامته ، بل واجهه كلاهما بسحنة آمرة صارمة تسوس الجيوش : كان الأب قصيراً بديناً ، له وجه متورد تحت قبعة مثلثة ، وعينان تنفذان إلى صميم كل زيف وصوت يعلن عن إرادة صاحبه . وفكان على استعداد لطحن كل مقاومة . وإذْ كان ذا شهية طيبة دون أن يكون ذواق للطعام ، فقد طرد طاهيه الفرنسى ، وأكل طعام الفلاحين ، وكان يستهلك الكثير فى وقت قصير دون احتفال يذكر لأنه كان فى شغل عن هذا بعمله . ورأى نفسه سيد الدولة وخادمها ، فعكف على تصريف شئون الحكم فى أمانة وسخط ، لأنه وجد فيها الكثير المعوج المنحرف . فأقسم أن يقومه بالقوة . واختصر إلى النصف عدد كبار الموظفين المغرورين الذين عطلت سلطاتهم المتضاربة عمل الحكومة ، وباع ما ورثه من مجوهرات ، وخيول ، وأثاث فاخر . واختزل مظاهر بيت الملك إلى بساطة بيت المواطن من أهل المدن ، وجمع الضرائب أينما أمكن تنميتها ، وخلف لفردريك الثانى خزانة مملوءة إلى حد مغر .

وأراد من كل إنسان أن يكد ويكدح مثله ، فأمر موظفى البلديات بأن يراقبوا أخلاق السكان ، ويبشروا بالجد والاقتصاد ، وأن يؤدبوا المتشردين بالأشغال الشاقة وبسط إشراف الدولة على التجارة والصناعة ، ولكنهما وجدتا التشجيع فى تحسن حال القنوات والطرق . وفى ١٧٢٢ أصدر الملك اليقظ أمراً يقرر التعليم الإلزامى ففرض على كل أبرشية أن تمول مدرسة ، فما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كانت بروسيا تتصدر أوربا كلها فى التعليمين الابتدائى والثانوى [٢٣] . وألقيت البذرة لعصر كانط وجيته .

وحين تبين فردريك وليم أن الأتقياء من الناس يعملون بأثبت مما يعمل الشكاك ، أيد الحركة التقوية . وتسامح مع الكاثوليك على مضض وأخبر الكالفنيين بأن يكفوا عن التبشير بكآبة مذهبهم الجبرى ، وأمر اللوثريين بأن يستعملوا الألمانية بدل اللاتينية فى طقوسهم ، وأن يقلعوا عن ارتداء المدرعات « والبطرشيلات » وعن رفع القربان أمام المصلين ، باعتبار هذه كلها من مخلفات البابوية . ولما أكره رئيس أساقفة سالزبورج خمسة عشر ألف بروتستنتى على الهجرة ، رحب بهم فردريك وليم وأقرضهم المال رحلتهم التى قطعوا فيها خمسمائة ميل ، وأجر لهم الأراضى (ولم تكن من خيرة أرضه) إلى أن تؤتى أرضهم غلاتها . واستقدم خمسة عشر ألف مهاجر آخرين من سويسرة والدويلات الألمانية . وهكذا ردت بروسيا إلى الحياة الاقتصادية بعد أن دمرتها حرب الثلاثين .

كانت الرغبة العارمة التى دفعت الملك إلى هذا النشاط هى تأمين الأمة فى عالم لا يكف عن الحرب . فحين تقلد فردريك وليم السلطة كانت الحرب الشمالية الكبرى ما تزال مستقرة ، تشتبك فيها السويد ، وروسيا وبولنده ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبعد قليل انجلتره ، وكانت العبرة الواضحة من هذه الحرب أنه لا غنى عن جيش قوى للسلم ، وسط عالم يسوده السطو المؤثم . وكان ملك بروسيا تواقاً إلى الحصول على ستتن ثغرا لتجارة برلين ، فاشتراها بمبلغ ٤٠٠,٠٠٠ طالر من الدول التى انتزعها من شارل الثانى عشر . ولكن شارل رفض عقب عودته من تركيا أن يعترف بهذا البيع لبضاعة مسروقة ، فعرض فردريك وليم أن يردها للسويد نظير الـ ٤٠٠,٠٠٠ طالر التى دفعها ، ولم يكن شارل يملك المال ، ولكنه أصر على استرداد ستتن ، فأعانت بروسيا الحرب عليه (١٧١٥) وانضمت إلى أعوانه فى حصار شترالزوند . وفر شارل إلى السويد ونصف العالم ضده ، وأدركه الموت هناك . وعاد فردريك وليم إلى برلين وستتن فى جيبه ، وبريق الانتصار فى عينيه .

بعد هذا أصبح الجيش شغله الإدارى الشاغل . ولم يكن بالرجل العسكرى النزعة تماماً ، ولا كان مقاتلا قط ، ولم يخض حرباً بعد ذلك بتاتاً ، ولكنه

عقد العزم على ألا يخوض أحد حرباً ضده وهو فى مأمن . فلقد كان هذا الرجل الذى بنى أشهر جيش فى ذلك القرن « من أعظم الملوك حباً للسلام » [٢٤] وهو القائل أن مبدئى ألا أؤذى أحداً ، على ألا أسمح بأن يستهين بى أحد » [٢٥] ومن ثم راح يجمع الجند ، ويطلب أطول من يجد منهم قامة فى ولع شديد ؛ وكان يكفى للظفر بمودته أن يرسل له إنسان رجلا طوله ستة أقدام على الأقل وكان الملك يسخو فى دفع ثمنهم ويبتهج قلبه لقوامهم الفارع . ولم يكن أكثر جنوناً بالجيوش من زملائه الملوك ، إلا فيما يتصل بطول الجندى . فقد كان لفرنسا مثلا فى ١٧١٣ من الجند النظاميين ١٦٠,٠٠٠ ، ولروسيا ١٣٠,٠٠٠ ، وللنمسا ٩٠,٠٠٠ [٢٦] . ولكى يرفع فردريك وليم عدة جيشه إلى ٨٠,٠٠٠ فى بلد لا يزيد سكانه على ثلاثة ملايين ، جند الجند من الخارج وفرض التجنيد الإجبارى فى أرض الوطن . وقاوم الفلاحون وسكان المدن الإكراه على الخدمة العسكرية ، فكانوا يؤخذون بالحيلة أو القوة ؛ وحدث مرة أن اقتحم ضابط من فرق التجنيد كنيسة وساق أطول الرجال وأقواهم رغم توسلاتهم . [٢٧] (ولنذكر أننا نحن أيضاً نفرض التجنيد الإجبارى) وكان الرجال إذا انخرطوا فى سلك الجندية يجدون الرعاية الطبية ، ولكنهم أخضعوا لنظام قاس وتدريب شاق ؛ وكان الجلد هو العقاب حتى لصغار الذنوب .

وطبق التجنيد الإجبارى على النبلاء أيضاً ، ففرض على كل نبيل سليم البدن أن يخدم فى الجيش ضابطاً ما دام يطيق الخدمة العسكرية . وكان هؤلاء الضباط يدربون تدريباً خاصاً ، ويخصهم الملك بالتكريم . فأصبحوا طبقة حاكمة يحتقرون التجار ، والمعلمين ، ورجال الدين ، والطبقات الوسطى عامة ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى طبقات دينا مستضعفة ، وكثيراً ما كانوا يعاملونهم بوقاحة وتفاخر ، أو بوحشية وضراوة . ولكنهم دربوا المشاة والمدفعية والفرسان فى تشكيلات دقيقة وحركات طيبة لم يعرفها قط أى جيش حديث آخر فى أغلب الظن . وشارك الملك ذاته فى هذه المناورات العسكرية ، وأشرف على تدريب جنوده فى تدقيق وحب ؛ فلما ولى فردريك الثانى العرش

وجد تحت إمرته قوة من الرجال مهيأة للخدع الحربية والغنائم ، متجاهلة فى لحظة كل دروس السلام التى تعلمها الأمير من الفلسفة .

(ب) فرتز الصغير :

كان « جاويش تدريب الأمة البروسية العظيم » (كما وصف كارليل فردريك وليم الأول) (٢٨) ، أباً لعشرة أطفال أكبرهم فلهلمينا . والمذكرات التى خلفتها عند وفاتها (١٧٥٨) هى أكثر مصادرنا مباشرة ووثوقاً عن تاريخ أخيها الباكر . وربما أسهبت بتركيز انتقائى فى ذكر قسوة مربيتها ، وأنانية أمها الجافية . ووحشية أبيها ، وأوامره الاستبدادية فى أمر زواجها ، ومعاملته الصارمة للفتى فرتز الذى أحبته مفخرة وعزاء لحياتها (٢٩) . قالت « لم يوجد حب نظير حبنا الواحد للآخر لقد أحببت أخى حباً جماً وحاولت على الدوام أن أدخل السرور على قلبه » (٣٠) .

وكان فردريك ، المولود فى ٢٤ يناير ١٧١٢ ، يصغرها بثلاثة أعوام . ولم يرضى عنه أبوه ولا أمه . فقد جهدا ليصنعا منه قائداً وملكاً ، أما هو فأبدى كل إمارة على أنه سيصبح شاعراً وموسيقياً . وبين أيدينا التعليمات التى أعطاها فردريك وليم لمعلمى ولده . قال :

« اغرسوا فى ولدى ما يجب من محبة الله وخشيته باعتبارهما الأساس والركن الركين لخيرنا الزمنى والأبدى . فلا تذكروا على مسمعه أبداً أى أديان زائفة أو مذاهب إلحادية . أو أريوسية . أو سوسينية ، أو ما شاكل ذلك من أسماء لهذه السموم التى تستطيع إفساد العقل الحدث بسهولة كبيرة (وقد أصبح فردريك كل هؤلاء) . ومن ناحية أخرى يجب أن يعلم ما يجب من استنكار للبابوية وبصر بما تفتقر إليه من أساس وما فيها من سخف ...

وليتعلم الأمير الفرنسية والألمانية .... دون اللاتينية ... وعلموه الحساب . والرياضة . والمدفعية . والاقتصاد ، بتعمق ... والتاريخ على الأخص ... وكلما شب زيدوه علماً بالتحصينات ، وتشكيل المعسكر ، وغير ذلك من علوم الحرب . ولكى يدرب الأمير منذ صباه على أن يعمل ضابطاً وقائداً . . . اغرسوا فى ولدى الحب الصادق لمهنة الجندى ، وأقنعوه

بأنه لما كان السيف هو الشيء الوحيد الذى يكسب الأمير الشهرة والشرف ، فإنه سيكون مخلوقاً محتقراً من جميع الناس إذا لم يحبه ويلتمس فيه فخره الوحيد »[٣١] .

ولو أفسح للأب فى أجله بما يكفى لتاه فخراً بولده جندياً وقائداً ، ولكن كل شيء بدا وكأنه يسير فى طريق خطأ خلال سنوات التلمذة تلك . فقد كان الغلام ذكياً ، ولكنه لم يهتم قط بالهجاء . احتقر اللغة الألمانية وأحب لغة فرنسا وأدبها وموسيقاها وفنها ، وأحب أن ينظم الشعر الفرنسى ، وواصل هويته تلك إلى آخر عمره . وكان الملك الشيخ يستشيط غيظاً إذا رأى ولده وبيده كتب فرنسية ، ويزداد غضبه حين يجده يعزف على الفلوت . وجاء يوهان كوانتش ، عازف الفلوت فى بلاط سكسونيا ، إلى برلين ليعلم الصبى خفية بناء على طلب أمه . وكان كوانتش إذا سمع الملك يدنو يختبىء فى خزانة ، ويقلب فردريك روبه الفرنسى إلى سترة حربية ، ولكن الأب كان يثور لمرأى الكتب الفرنسية ملقاة هنا وهناك ، فأمر الخدم أن يرسلوها إلى بائع كتب ، فبيعها خير من حرقها . ولكن الخدم لم يفعلوا هذا ولا ذاك ، بل خبأوا الكتب ، وبعد قليل أعادوها للأمير .

وبذل الشيخ قصارى جهده الذى اختلطت فيه محبة الأب بغضبه ليجعل الصبى مقاتلا . فاصطحبه فى رحلات صيده ، وخشنه بحياة الخلاء ، وعوده الخطر والركوب الوعر ، وألزمه العيش على الطعام الزهيد ، والنوم القليل ، ووكل إليه أمور فوج فى جيشه ، وعلمه أن يدرب جنده ، وأن يرقى بطارية مدفعية ، وأن يطلق المدافع . وتعلم فردريك هذا كله ، وأبدى قدراً كافياً من الشجاعة ، ولكن الأب تبين بغضب متزايد أن الفتى ، الذى بلغ الآن السادسة عشرة راح يكون صداقة حميمة مريبة مع ضابطين شابين هما الكبتن فون كاتى والملازم كايت . وكان كاتى واسع الاطلاع كثير الرحلات ، ورغم ما تركه الجدرى على وجهه من ندوب ، فإن « تهذيب عقله وسلوكه » كما قالت فلهلمينا جعله « رفيقاً لطيفاً جداً ... وكان يفخر بأنه حر الفكر . وتأثير كاتى هو الذى دمر كل إيمان دينى فى صدر أخى »[٣٢] .

ولم يستطع فردريك وليم أن يستجيب لهذه التطورات المنحرفة فى ابنه

البكر إلا بالغضب والعنف . وكان ديدنه استعمال العصا مع خدمه ، فهدد باستعمالها لتأديب ولده . وكانت فلهلمينا خلال ذلك تقاوم خططه لتزويجها لحليف سياسي قوى ؛ وبدا أن الولد والبنت أرسلهما القدر ليخيبا كل آماله .

« لقد بلغت ثورة أبي على أخي وعلى مبلغاً جعله يقصينا عن حضرته فيما عدا ساعات الطعام . وحدث ذات مرة أن الملك قذف رأس أخي بطبقه ، وكان يمكن أن يصيبه لولا أنه حاد عنه ، وفى مرة أخرى قذف الطبق على وقد نجوت منه أنا أيضاً لحسن حظى ، ثم انهال على بوابل من السب والشتم ... وإذ مررت أنا وأخي على مقربة منه لنبرح الحجرة دفع نحونا عكازه ليضربنا . ولم يكن يرى أخي قط دون أن يهدده بعصاه . وكثيراً ما قال لى فرتز إنه قد يحتمل كل معاملة سيئة إلا أن يضرب ، فإذا بلغ الأمر حد الضرب فإنه سيهرب (٣٣) .

وفى وسعنا أن نفهم بعض أسباب الغضب الذى استشعره الملك المسن . ذلك أنه كان قد تطلع إلى ترك ملكه هذا الذى أعاد تنظيمه لولد يواصل رعايته للجيش ، ويقتصد فى النفقات ، ويبنى الصناعات ، ويصرف شئون الدولة بأمانة واجتهاد ، ولم يكن ممكناً أن نتوقع منه التنبؤ بأن ابنه هذا سيفعل هذا كله وأكثر منه . فهو لم يجد فى « فريدرش » غير فتى وقح مخنث ، يجعد شعره كالفرنسيين بدلا من أن يقصه كالجنود البروسيين (٣٤) ، ويمقت الجنود والصيد ، ويهزأ بالدين ، وينظم الشعر الفرنسى ، ويعزف على الفلوت . فأى مستقبل يمكن أن يكون لبروسيا إذا حكمها هذا الفتى الضعيف ؟ وحتى التماساته للعفو بين الحين والحين يمكن أن يفسرها أبوه بأنها جبن منه . وذات مرة قال الملك لمن حوله بعد أن لكم أذنى ولده إنه لو لقى مثل هذه المعاملة من أبيه لضرب نفسه بالرصاص ؛ ولكن فريدرش لا يملك الإحساس بالشرف وإنه على اســتعداد لاحتمال أى شيء (٣٥) .

وحاول الملك — إذا صدقنا الخبر الذى أنهاه فردريك إلى فلهلمينا — أن يقتله فى بوتسدام فى ربيع ١٧٣٠ . قال :

أرسل فى طلبى ذات صباح . فما إن دخلت الحجرة حتى أمسك بناصيتى وطرحنى أرضاً . وبعد أن ضربنى بقبضته جرنى إلى النافذة وربط حبل

الستارة حول عنقى — وأتيح لى لحسن الحظ وقت للنهوض والإمساك بيديه ، ولكنه جذب الحبل بكل قوته حول عنقى فشعرت بأننى أختنق وصحت مستغيثاً . وجرى تابع ليسعفنى ، واضطر إلى استعمال القوة لينقذنى [٣٦] .

وأسر فريدرش — الذى بلغ الثامنة عشرة — إلى فلهلمينا أنه ينوى الهروب إلى انجلتره مع كاتى وكايت . فتوسلت إليه ألا يفعل ، ولكنه أصر . وكتمت سره فى خوف ، ولكن الملك الذى أحاط ولده بالجواسيس علم بأمر المؤامرة ، وقبض على ابنه وابنته ، وعلى كاتى وكايت (أغسطس ١٧٣٠) . وأطلق سراح فلهليمنا بعد حين وفر كايت إلى انجلتره ، ولكن فريدرش وكاتى حوكما أمام مجلس عسكرى وحكم عليهما بالإعدام (٣٠ أكتوبر) . وأعدم كاتى فى فناء قلعة كوسترين (وهى الآن كوسترزين فى بولنده) وأكره فريدرش بأمر أبيه على أن يشهد منظر الإعدام من نوافذ زنزانته (٦ نوفمبر) . وفكر الملك فى قطع رأس ولده ، وفى جعل من يليه من أبنائه ولياً للعهد ، ولكنه خشى الأصداء الدولية لهذه الفعلة ، فراض نفسه على الإبقاء على حياة فريدرش .

ومن نوفمبر ١٧٣٠ إلى فبراير ١٧٣٢ ظل الأمير يلزم كوسترن ، فى سجن محكم أول الأمر ، ثم فى حدود المدينة لا يبرحها ، تحت رقابة مشددة طوال الوقت ، ولكن « برلين كلها أرسلت إليه المؤونة لا بل أفخر الطعام والشراب » . [٣٧] فى رواية فلهليمنا . وفى ١٥ أغسطس ١٧٣١ ، بعد عام من الفراق ، جاء الملك ليرى ابنه ، وقرعه ما شاء له التقريع . وقال له إن مؤامرة الهروب لو نجحت « لألقيت إلى الأبد فى مكان لا ترى فيه الشمس أو القمر ثانية . [٣٨] وجثا فريدرش على ركبتيه والتمس الصفح من أبيه ، وانهار الشيخ ، وبكى ، وعانقه ، وقبل فريدرش قدمى أبيه . [٣٩] فأطلق سراحه ، وبعث به فى جولة بالأقاليم البروسية ليدرس اقتصادها وإدارتها . لقد غيرت سنوات صراعه مع أبيه تلك من خلقه وقسته .

أما فلهلمينا التى أبهجها أن تترك سقف أبويها فقد قبلت يد هنرى ولى عهد بايرويت . وبعد أن تزوجا فى برلين (٣٠ نوفمبر ١٧٣١) ذهبت إلى الجنوب لتصبح (١٧٣٤) أميرة بايرويت ، ولتجعل بلاطها يزخر بالثقافة.

وفى فترة سلطانها هناك تحول المسكن الأميرى ، وهو قلعة إيريمبتاج ، إلى قصر ريفى (شاتو) من أجمل القصور الريفية فى ألمانيا .

وكان على فريدرش هو أيضاً أن يتزوج ، رضى أم كره . وقد ساءه هذا الإلزام ، وهدد قائلا « لو أصر الملك على هذا فسأتزوج طاعة له ، ثم أدفع بزوجتى إلى ركن من الأركان وأحيا كما أشتهى . » [٤٠] وعليه فقد قاد إلى مذبح الكنيسة (١٢ يونيو سنة ١٧٣٣) إليزابث كرستينا « أميرة برنزويك — بيفرن الجليلة » وكان يومها فى الحادية والعشرين وهى فى الثامنة عشرة ، « جميلة جداً » كما قالت أم فردريش لفلهلمينا ولكنها « بليدة كحزمة من القش — ولست أدرى كيف ينسجم أخوك مع هذه الإوزة » . [٤١] ومع أن فردريك تعلم فى سنوات لاحقة أن يقدرها تقديراً كبيراً ، إلا أنه فى هذه الفترة تركها أكثر الوقت وحيدة تلتمس لنفسها السلوى . وذهبا ليسكنا فى راينزبرج ، على أميال شمال برلين . هناك بنى الزوج الأعزب لنفسه حصناً يلوذ به ، وأجرى التجارب فى الفيزياء والكيمياء ، وجمع العلماء ، والأدباء ، والموسيقيين ؛ من حوله ، وتبادل الرسائل مع فولف ، وفونتنيل ، وموبرتيوى ، وفولتير .

(جـ) الأمير والفيلسوف : (١٧٣٦ — ٤٠)

ورسائله مع فولتير من أعظم وثائق ذلك العهد كشفاً وإنارة : فهى تعبير أدبى رائع لشخصيتين بارزتين يتضاءل فيه فن أكبرهما سناً أمام واقعية الفتى المتفتح . كان فولتير الآن فى عامه الثانى والأربعين ، وفردريك فى الرابعة والعشرين . وكان فولتير زعيم الأدباء الفرنسيين غير منازع ، ولكن كاد يدير رأسه أن يتسلم من ولى عهد سيرتقى العرش بعد حين الخطاب التالى الذى كتبه من برلين فى أغسطس ١٧٣٦ وأرسله مع رسول خاص إلى الشاعر فى سيريه :

سيـــدى :

مع أنه لم يتح لى سرور التعرف إليك شخصياً فإن ذلك لايقلل من معرفتى بك من خلال آثارك . فهى كنوز عقلية إذا جاز القول ، وهى تكشف

للقارىء عن مواطن للجمال عند كل قراءة جديدة لها ... ولو بعث الخلاف حول فضائل المحدثين والقدامى من جديد ، لدان عظماء المحدثين لك ، ولك وحدك ، بالفضل فى رجحان كفتهم ... فلم يحدث قط أن نظم شاعر مسائل الميتافيزيقا فى إيقاع منغم ، وقد حفظ لك أنت شرف السبق فى هذا المضمار . »

وواضح أن فردريك لم يكن قد قرأ لوكرتيوس بعد ، ربما لضآلة إلمامه باللاتينية ، ولكنه قرأ فولف ، وأرسل إلى فولتير :

« صورة من اتهام ودفاع السيد فولف ، أشهر فلاسفة زماننا ، الذى يتهم اتهاماً قاسياً بالمروق عن الدين والإلحاد لأنه حمل النور إلى أحلك أركان الميتافيزيقا .... وقد طلبت ترجمة لكتاب فولف « رسالة عن الله . والنفس ، والعالم .... وسأوافيك بها » .

هذا وإن ما تقدمه من عطف ومعونة لجميع من يكرسون أنفسهم للآداب والعلوم يجعلنى آمل أن تسلكنى فيمن تراهم جديرين بإرشاداتك .... »

والظاهر أن فردريك كان قد سمع بعض ما شاع عن قصيدة فولتير « لابوسيل » : (عذراء اللورين) .

سيدى ؛ لست أشتهى شيئاً اشتهائى لاقتناء جميع كتاباتك .... وإذا كان بين مخطوطاتك ما تود ستره عن أعين الجماهير فإنى أتعهد بالاحتفاظ به سراً مكتوماً ...

إن الطبيعة إذا شاءت كونت نفساً عظيمة ذات قدرات تدفع الآداب والعلوم قدماً . وواجب الأمراء أن يكافئوا الجهد النبيل الذى يبذله صاحب هذه النفس وليت « المجد » يستخدمنى لأكلل نجاحك .....

وإذا أبى حظى أن يسعدنى بالقدرة على الاستيلاء عليك . فعسانى على الأقل أرى يوماً ما ذلك الرجل الذى طالما أعجبت به من بعيد . وأؤكد لك ، بلسانى . أننى مع كل التقدير والاعتبار الواجبين للذين يكرسون جهودهم للجماهير مهتدين فى ذلك بمشعل الحق — يا سيدى صديقك المخلص ،

فريدريك ولى عهد بروسيا

وفى وسعنا أن نتصور شعور الاغتباط الذى قرأ به فولتير هذا الخطاب ،

وهو الذى لم يكبر قط على الغرور ، فراح يرشف رحيقه أمام المركيزة الغيور . وبادر بعد تسلمه بالرد عليه فى ٢٦ أغسطس ١٧٣٦ :

مولاى :

لابد أن يكون إنساناً مجرداً من كل عاطفة ذلك الذى لا يتأثر تأثراً بالغاً بالخطاب الذى شئتم سموكم الملكى تشريفى به . فحبى لذاتى تزهو به زهواً شديداً ، ولكن محبتى للبشر ، التى غذوتها دائماً فى قلبى ، والتى أجرؤ على القول بأنها أساس خلقى ، منحتنى سروراً أعظم نقاء وصفاء — لأننى أرى أن فى الدنيا الآن أميراً يفكر كإنسان ، أميراً فيلسوفاً ، سوف يسعد الناس .

واسمح لى بأن أقول أنه ليس على وجه الأرض إنسان لا يدين لك بالشكر على العناية التى تبذلها لكى تهذب بالفلسفة السليمة نفساً ولدت لتأمر وتنهى . إذ لم يوجد بين الملوك صالح إلا أولئك الذين بدأوا بمحاولة تعليم أنفسهم ، وبتبين خيار الناس من أشرارهم ، وبحب ما هو حق ، وبمقت الاضطهاد والخرافة . وإن أميراً يثابر على هذه الأفكار قد يعيد العصر الذهبى إلى بلده! ترى لم لا يسعى إلى هذا المجد إلا قلة قليلة من الأمراء ؟ .... لأنهم يفكرون فى ملكهم أكثر مما يفكرون فى النوع الإنسانى . أما حالك فنقيض هذا بالضبط ، (وما لم يغير ضجيج العمل ولؤم البشر يوماً ما من هذا الخلق الإلهى) (*) فإن شعبك سيعبدك ، والعالم كله سيحبك ، والفلاسفة الجديرين بهذا الاسم سيؤمون دولتك ، والمفكرين سيتزاحمون حول عرشك .... لقد تركت الملكة كرستينا الشهيرة ملكها طلباً للآداب والفنون ، فاملك إذن يا مولاى ، وستقبل الآداب والفنون ساعيه إليك ...

ولست أجد من الشكر لسموكم المعانى ما يكفى على إهدائى ذلك الكتيب عن السيد فولف . وإننى أحترم الأفكار الميتافيزيقية ، فهى أشعة من نور تتخلل الليل الدامس . وفى رأيى أننا يجب ألا ننتظر من الميتافيزيقيا أكثر من هذا . ولا يبدو أن من المحتمل الكشف إطلاقاً عن الأصول الأولى للأشياء . فالفيران التى فرض عليها البقاء فى ثقوب صغيرة من بناء هائل لا تدرى هل

(*) العبارة المحصورة بين القوسين مضافة .

البناء خالد أم غير خالد ، أو من بناه ، أو لم بناه . وما أشبهنا بهذه الفيران ، والبناء الإلهي الذى بنى الكون لم ينبيء أحداً منا قط بسره المكنون فيا أعلم ..

سأصدع بأمرك وأبعث إليك بتلك الكتابات التى لم تنشر . وستكون أنت يا مولاى جمهور قرائى ، وسيكون نقدك مكافأتى ، فهذا ثمن لا يقدر على دفعه من الملوك والأمراء إلا الأقلون . وأنا واثق من كتمانك سرها ... وإنى فى الحق أراها سعادة غالية أن آتى لأقدم احترامى لسموكم الملكى ... لولا أن الصداقة التى تبقينى فى هذه الخلوة لا تسمح لى بمغادرتها ، ولاشك أنكم توافقون جوليان ، ذلك الرجل العظيم المفترى عليه كثيراً ، على قوله « ينبغى أن يفضل الأصدقاء دائماً على الملوك . »

وثق يا مولاى أنه أياً كان ركن الأرض الذى سأختتم فيه حياتى ، فإن تمنياتى ستكون دائماً لك — أى لسعادة شعب بأكمله . وسيعد قلبى نفسه واحداً من رعاياك ، وسيكون مجدك دائماً عزيزاً على . وسأتمنى أن تكون دائماً كما أنت ، وأن يكون الملوك الآخرون مثلك — وإننى مع عميق الاحترام خادم سموكم الملكى المتواضع جداً .

فولتير (٤٣)

واتصلت الرسائل بين أعظم ملوك زمانه وأعظم أدبائه طوال اثنين وأربعين عاماً ، مع انقطاعات أثمة تخللتها . وتكاد كل كلمة فى هذه الرسائل تجزى قراءتها ، لأنه لا يتاح لنا كثيراً امتياز الاستماع إلى رجلين كهذين يتحدثان هذا الحديث الحميم المدروس . ونحن نصد أنفسنا بصعوبة عن إغراء نقل ما فى هذه الرسائل من الأحكام المنيرة ، ومن آيات الذكاء ، ولكن بعض فقراتها تعيننا على تصور هذين العملاقين المتنافسين ، رب السيف ورب القلم . (*)

(*) الاشارات التالية الترجمة الانجليزية للرسائل التى قام بها رتشرد أولدنجتن بعنوان :
The Letters of Voltaire and Frederick The Great (New York 1927)
رسائل فولتير وفردريك الأكبر (نيويورك ؛ ١٩٢٧) والتى نزكيها بقوة .

فهما بادىء ذى بدء يتفقان فى إعجاب الواحد منهما بصاحبه . ففردريك يعرب عن دهشته لأن فرنسا لم تتبين « الكنز المخبوء فى قلبها » ، ولأنها تترك فولتير « يعيش وحيداً فى صحارى شامبين ... ومنذ الآن ستصبح سيريه (معبدى) دلفى ، ورسائلك وحى المقدس . »[٤٤] ؛ اترك وطنك الجاحد ، وتعال إلى بلد يعبدك فيه أهله » .[٤٥] ويرد فولتير باقات الزهر بأجمل منها ، فيقول « إنك تفكر كتراجان ، وتكتب كبلينى ، وتستعمل الفرنسية كأحسن كتابنا . . . ستكون برلين بفضل رعايتك أثينة ألمانيا ، بل ربما أوربا »[٤٦] . وهما متفقان على الربوبية ، يؤكدان الإيمان بالله ويعترفان بأنهما لا يعرفان عنه تعالى شيئاً قط وهما يمقتان رجال الدين الذين يقيمون سلطانهم على ما يزعمون من قرب من الله[٤٧] . ولكن فردريك مادى صريح (« الشىء المؤكد هو أننى ، مادة ، وأننى أفكر »[٤٨] وجبرى خالص ؛ أما فولتير فليس مستعداً بعد للتخلى عن فكرة حرية الإرادة .[٤٩] وينصح فردريك « بالصمت العميق إذاء القصص الخرافية المسيحية ، التى قدسها قدمها وغرارة الناس السخفاء والتافهين »[٥٠] ولا يترك فولتير فرصة يلقن فيها تلميذه الأمير حب الإنسانية وكراهية الخرافة ، والتعصب ، والحرب أما فردريك فلا يأخذ الإنسانية مأخذ الجد الشديد : « إن الطبيعة تنجب بطبيعتها اللصوص ، والحساد ، والمزورين ، والقتلة ؛ فهم يغطون وجه البسيطة ، ولولا القوانين التى تقمع الرذيلة لاستسلم كل فرد لغرائزه الفطرية ولما فكر إلا فى نفسه »[٥١] .... والبشر بطبيعتهم ميالون إلى الشر ، وهم ليسوا أخياراً إلا بقدر ما تهذب التربية والتجربة من عنفهم وطيشهم[٥٢] .

وقد تميزت السنوات الأخيرة فى تلمذة فردريك بحدثين . ففى ١٧٣٨ انضم إلى جماعة الماسون .[٥٣] وفى ١٧٣٩ ، وهو فى نشوة من تأثير فولتير فيما يبدو ، ألف كتيباً سماه « الرد على كتاب الأمير لمكيافللى » حاسب فيه الفيلسوف الإيطالى حساباً عسيراً على ما بدا فى كتابه من تبرير لأى ذريعة يراها الحاكم ضرورية لصيانة دولته أو دعمها . وقال الأمير الجديد ، لا ، فالمبدأ الحق الوحيد للحكم هو ولاء الملك وعدله وشرفه . وقد أعرب الفيلسوف الأمير عن احتقاره للملوك الذين يؤثرون « مجد الفاتحين المهلك على المجد

الذى يكسب بالعطف والرحمة . » ، وتساءل ما الذى يغرى إنساناً بأن يطلب عظمته الشخصية بإشقاء غيره من الناس وتدميرهم . » [٥٤] ومضى فردريك يقول :

إن مكيافللى لم يفهم طبيعة الملك الحقة ... فهو ليس السيد المطلق المتصرف فيمن يدينون لحكمه ، إنما هو أول خدامهم ؛ وينبغى أن يكون الأداة لرفاهيتهم كما أنهم الأداة لمجده . [٥٥]

ثم أطرى فردريك الدستور الإنجليزى مقتدياً بفولتير على الأرجح :

يبدو لى أننا لو شئنا الإشادة بشكل من أشكال الحكم على أنه القدوة لجيلنا لكان هو الحكم الإنجليزى . فالبرلمان هناك هو القاضى الأعلى للشعب والملك على السواء ، وللملك كامل القدرة على فعل الخير ، ولا قدرة على فعل الشر [٥٦] .

ولسنا نجد فى هذه الآراء أى علامة من علامات عدم الإخلاص ، فهى تتكرر المرة بعد المرة فى رسائل فردريك التى تنتمى لهذه الفترة . وقد بعث بمخطوطة كتابه إلى فولتير (يناير سنة ١٧٤٠) ، الذى طلب الإذن له بأن ينشرها . ووافق المؤلف الفخور على استحياء ، وكتب فولتير مقدمة للكتاب ، وأخذ المخطوطة إلى لاهاى ، وأشرف على طبعها ، وصحح تجاربها . وفى أواخر سبتمبر طلع الكتاب على الناس فجأة غفلا من اسم المؤلف بعنوان « المعارض لمكيافللى » . وسرعان ما كشف سر مؤلفه ، وشارك القراء فولتير فى الترحيب بمقدم ملك — فيلسوف .

أما فردريك وليم الأول فقد ظل إلى النهاية تقريباً على ما كان عليه طويلا ، كأنه سنديانة كثيرة العقد ، يوبخ ، ويندد ، ويشرع القانون بطريقته العجيبة . ولم يسالم العالم على مضض إلا حين أنبأه واعظ البلاط بدنو أجله ، وبأنه يجب أن يغفر لأعدائه إن أراد أن يغفر الله له . وأرسل فى لحظاته الأخيرة فى طلب فردريك ، وعانقه وبكى ، فلعل هذا الفتى العنيد ، رغم هذا كله ، أن يحوى بين جنبيه مقومات ملك ؟ وسأل القواد المحيطين بسريره « ألست محظوظاً لأن لى ولداً أستخلفه » ؟ [٥٧] ولعل

الابن فهم الآن أكثر من ذى قبل إحساس أبيه الشيخ بأن الملك يجب أن يكون له بعض الحديد فى دمه .

وفى ٣١ مايو ١٧٤٠ أسلم فردريك وليم الأول روحه وعرشه وقد أبلاه النضال ولما يجاوز الحادية والخمسين ، وآل الملك لمعارض مكيافللى .

٣ — مكيافللى الجديد

كان فردريك الثانى فى الثامنة عشرة من عمره حين ولى العرش . وكان لا يزال — كما رسمه أنطوان بين قبل ذلك بعام — الموسيقى والفليسوف رغم دروعه البراقة : قسمات حلوة رقيقة ، وعينان واسعتان تختلط فيهما الزرقة بالشهبة ، وجبين عال ؛ « له أسلوب فى السلوك طبيعى جذاب ، وصوت خافت سار . » [٥٨] على حد قول السفير الفرنسى . وكان إلى ذلك الحق تلميذ فولتير . وقد كتب له بعد ستة أيام من تقلده الحكم :

لقد تبدل حظى ، وشهدت اللحظات الأخيرة للملك ، ومعاناته ، وموته . لم يكن بى حاجة وأنا أرتقى العرش إلى ذلك الدرس لكى أشمئز من خيلاء العظمة البشرية .... وأرجو ألا ترى فى إلا مواطناً غيوراً ، وفيلسوفاً تغلب عليه نزعة الشك ، وصديقاً صدوقاً . وإنى أستحلفك بالله أن تكتب لى كتابتك لإنسان عادى ، وأن تحتقر مثلى الألقاب والأسماء وكل مظاهر الزهو والغرور [٥٩] .

وعاد يكتب إلى فولتير بعد ثلاثة أسابيع :

« إن ضخامة العمل الذى ألقاه القدر على عاتقى لا يكاد يترك وقتاً لحزنى الحقيقى . وإننى أشعر أننى بعد فقدى أبى مدين بجملتى لبلدى . وبهذا الهدف أعمل بكل طاقتى لاتخاذ أسرع التدابير وأصلحها للخير العام » . [٦٠]

وقد صدق . ففى غداة توليه العرش ، حين حكم من برد الربيع بأن المحصول سيكون متأخراً وهزيلا ، أمر بأن تفتح مخازن الغلال العامة ، وأن يباع القمح للفقراء بأسعار معقولة . وفى اليوم الثالث ألغى فى جميع أرجاء بروسيا اللجوء إلى التعذيب فى محاكمة المجرمين — قبل أن يصدر باكاريا

رسالته الخطرة بأربعة وعشرين عاماً ، وينبغى أن نضيف أن التعذيب فى المحاكمات وإن أجازه القانون إلا أنه من الناحية العملية تقادم فى عهد فردريك وليم الأول ، وأن فردريك انتكس لحظة إلى استعماله فى حالة واحدة عام ١٧٥٢ . [٦١] وفى ١٧٥٧ وكل إلى صموئيل فون كوكيى ، كبير القضاة البروسيين ، أن يشرف على إصلاح القانون البروسى اصلاحاً شاملا .

وظهر تأثير الفلسفة فى أعمال أخرى قام بها فى هذا الشهر الأول . فى ٢٢ يونيو أصدر فردريك أمراً بسيطاً جاء فيه « يجب التسامح مع جميع الأديان ، وعلى الحكومة أن تتحقق من أن أحداً منها لا يجور على غيره ، لأن على كل إنسان فى هذا الوطن أن يصل إلى السماء بطريقته الخاصة » . [٦٢] ولم يصدر أمراً رسمياً عن حرية المطبوعات ، ولكنه أباحها عملياً ، فقال لوزرائه « إن الطباعة حرة » واحتمل فى صمت ملؤه الاحتقار مئات الانتقادات العنيفة التى نشرت ضده [٦٣] . ومرة رأى هجوماً ساخراً معلقاً فى أحد الشوارع ، فأمر بأن ينقل إلى مكان يسهل قراءته فيه . وقال « لقد انتهيت أنا وشعبى إلى اتفاق يرضينا جميعاً : يقولون ما يشتهون ، وأفعل ما أشتهى » . [٦٤] ولكن هذه الحرية لم تكن كاملة قط ؛ فكلما ارتقى فردريك الأكبر فى مدارج العظمة حظر النقد العلنى لتدابيره الحربية أومراسيمه الضرائبية . وظل ملكاً مطلق السلطة وإن حاول أن يجعل تدابيره متسقة مع القوانين .

ولم يبذل أى محاولة لتغيير هيكل المجتمع أو الحكومة البروسيين . فظلت المجالس والهيئات الإدارية كما كانت ، إلا أن فردريك شدد الرقابة عليها وشارك بهمة أكبر فى أعمالها ؛ وقد أصبح عضواً فى جهازه البيروقراطى. قال السفير الفرنسى « إنه يبدأ حكمه بطريقة مرضية جداً : فحيثما تلفت وجدت آثار بره برعيته وعطفه عليها » . [٦٥] ولكن هذا لم يمتد إلى التخفف من وطأة القنية ؛ فظل الفلاح البروسى أسوأ حالا من الفرنسى ، واحتفظ النبلاء بامتيازاتهم .

وتضافر تأثير فولتير مع تقليد ليبنتس فى إحياء أكاديمية برلين للعلوم إحياء قوياً . فبعد أن أسسها فردريك الأول (١٧٠١) أهملها فردريك وليم الأول . أما فردريك الثانى فقد جعلها الآن أبرز الأكاديميات فى أوربا . وقد سلف القول بأنه رد فولف من منفاه . وأراد فولف أن يرأس الأكاديمية ولكنه كان طاعناً فى السن ، ضعيف الساقين ، فيه شيء من الخضوع للعقائد التقليدية . أما فردريك فأراد رئيساً لها من أصحاب « العقول القوية » (أحرار الفكر) ، رجلا مواكباً لآخر تطورات العلم ، لا يعوقه معوق من اللاهوت . وعملا باقتراح من فولتير (أسف عليه فيما بعد) دعا (يونيو ١٧٤٠) بيير لوى مورو دموبير توى ، الذى كان الآن فى منتصف عمره ، عائداً لتوه من بعثة شهيرة إلى لايلاند لقياس درجة من درجات العرض . وحضر موبيرتوى وأغدق عليه فردريك العون والتأييد ، فبنى مختبراً عظيما وأجرى تجارب أحياناً فى حضرة الملك والحاشية . وقد ذهب جولدسمث ، الذى لابد قد خبر جمعية لندن الملكية ، إلى أن أكاديمية علوم برلين « تفوق أى أكاديمية غيرها فى الوجود » [٦٦] .

وأبهج هذا كله فولتير . فلما أتيحت لفردريك فرصة زيارة كليفز دعا الفيلسوف للقائه . وكان فولتير يومها فى بروكسل ، فانتزع نفسه من مركيزته الفكدة ، وسافر ١٥٠ ميلا إلى « شلوس مويلاند » . هناك رأى أفلاطون الجديد ديونيسيوسه أول مرة ، وأنفق ثلاثة أيام (١١ — ١٤ سبتمبر ١٧٤٠) فى نشوة غامرة لم يفسدها غير وجود ألجاروتى دموبيرتوى . وفى خطاب للسيدة سيدفيل كتبه فى ١٨ أكتوبر أبدى رأيه فى فردريك فقال :

فى ذلك المكان رأيت رجلا من ألطف الرجال فى الدنيا ، هو زينة المجتمع ، ولو لم يكن ملكاً لسعى إليه الناس فى كل بلد ، فيلسوف مبرأ من التزمت ، كله حلاوة ، وكياسة ، وسلوك كريم ؛ ينسى أنه ملك حين يلقى أصدقاءه . لقد احتجت إلى جهد من ذاكرتى لأتذكر أن الجالس عند أسفل سريرى ملك له جيش عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل . [٦٧]

ولم يكن فردريك أقل اغتباطاً . فقد كتب إلى مساعده جوردان فى ٢٤ سبتمبر يقول :

رأيت فولتير الذي كنت تواقاً إلى معرفته ، ولكني رأيته وهي الربع تهدني ، وعقلي وجسدي متوتر الأعصاب ... إن له فصاحة شيشرون ، ولطف بيلني ، وحكمة أجريبا ، فهو باختصار يجمع خير ما يجنى من الفضائل والمواهب من ثلاثة من أعظم القدماء . وعقله لاينى عن التفكير ، وكل قطرة مداد هي رحيق ذكاء يقطر من قلمه ... إن لاشاتليه محظوظة بعيشه معها ، فإن في وسع إنسان لم يؤت من المواهب غير ذاكرة قوية أن يؤلف كتاباً رائعاً من الأقوال الحكيمة التي ينثرها كيفما اتفق . » (٦٨)

فلما رجع فردريك إلى برلين لاحظ أن لديه جيشاً عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وفي ٢٠ أكتوبر مات شارل السادس وارتقت عرش إمبراطورية النمسا والمجر شابة لها جيش من الدرجة الثانية . في ذلك اليوم ذاته أرسل فردريك إلى فولتير خطاباً نذيراً بالشر ، جاء فيه « أن موت الامبراطور يغير كل أفكاري السلمية ، وأظن أن الأمور ستنحو في شهر يونيو نحو المدافع والبارود ، والجنود والخنادق ، بدلا من الممثلات والمراقص والمسارح ؛ بحيث أراني مضطراً إلى إلغاء الاتفاق الذي كنا على وشك إبرامه . (٦٩)

وأحس فولتير في قلبه وجعاً . أترى تلميذه هذا تاجر حرب كأي ملك آخر ؟ وانتهز دعوة فردريك إياه لزيارته في برلين فقرر أن يرى ما هو مستطيع صنعه في سبيل السلام وقد يستطيع في الوقت ذاته أن يصلح ما فسد بينه وبين فرساي لأن الكردينال فلوري ، الذي ظل قابضاً على دفة الحكم في فرنسا كان هو أيضاً ينشد السلام . وعليه ففي ٢ نوفمبر كتب إلى الكردينال يعرض خدماته عميلا سرياً لفرنسا ، في محاولة لرد فردريك إلى حظيرة الفلسفة . وقبل فلوري العرض ، ولكنه وبخ الدبلوماسي الجديد برفق على حملاته العنيفة على الدين « لقد كنت حدثاً ، وربما طالت حداثتك بعض الشيء » . (٧٠) وفي خطاب آخر بنفس التاريخ (١٤ نوفمبر) كتب الكردينال اللطيف ينبيء بتسلمه كتاب « المعارض لمكيافيلي من مدام دشاتليه وأطراه وهو يحدس بحكمة هوية مؤلفه :

أياً كان مؤلف هذا الكتاب ، فهو جدير بأن يكون أميراً إن لم يكنه . والقليل الذي قرأته منه يفيض حكمة ومعقولية وفيه تعبير عن مبادىء جديرة

بالإعجاب الشديد ، مما يؤهل مؤلفه لقيادة غيره من الناس ، شريطة أن يؤتى من الشجاعة ما يجعله يطبق مبادئه . فإذا كان قد ولد أميراً فقد دخل فى ميثاق جليل جداً مع الشعب ؛ وما كان الامبراطور أنطونينوس مكتسباً المجد الخالد الذى يحتفظ به جيلا بعد جيل لو لم يدعم بعد الة حكمه تلك الفضيلة السامية التى بسطها لجميع الملوك فى مثل هذه الدروس المنيرة ... وسوف أتأثر تأثراً لاحد له إذا استطاع صاحب الجلالة البروسى أن يجد فى مسلكى بعض التطابق مع مبادئه ، ولكنى أؤكد لك على الأقل أننى أعتبر مخططه مخططاً لأكمل وأمجد حكومة . [٧١] .

وبعد أن رتب فولتير أداء فردريك لجميع نفقات رحلته عبر ألمانيا لأول مرة ، وأنفق زهاء أسبوعين مع الملك فى راينزبرج وبوتسدام وبرلين (٢٠ نوفمبر إلى ٢ ديسمبر) وارتكب خطأ بإطلاعه فردريك على خطاب الكردينال عن كتابه « المعارض لمكيافللى » وتبين فردريك فوراً أن فولتير يلعب دور الدبلوماسى ، ففسر مديح فلورى الجميل على أنه دعوة للتعاون مع فرنسا ، وضايقه أن يرى نفسه معوقاً بمقال كتبه فى الفلسفة . وتبادل الشعر والأجوبة البارعة مع فولتير ، ورفه عنه بعزفه على الفلوت ، وصرفه دون شيء محدد أكثر من شكره على الكينين الذى لطف به الشاعر برداء الملك . وفى ٢٨ نوفمبر كتب فردريك إلى جوردان وهو يعنى فولتير دون أن يذكر اسمه صراحة » . إن صاحبك البخيل سيعب ما شاء ليروى ظمأه الذى لا يطفأ للغنى ، فسيقبض ثلاثة آلاف طالر ، وهو ثمن غال يدفع لمهرج ؛ فما من مهرج بلاط نقد مثل هذا الأجر من قبل » . [٧٢] ويبدو أن هذا المبلغ شمل نفقات رحلة فولتير — التى تطوع فردريك على الأرجح بدفعها — وتكاليف نشر كتابه « المعارض لمكيافللى » التى كان فولتير قد قدمها من جيبه الخاص . وهكذا إذا دخل المال من الباب خرج الحب من الشباك ، كما يقولون ، إن فردريك لم يستطب دفع نفقات عميل فرنسى ولا تكاليف كتاب كان يسره أن يرشو العالم ليناه .

وغلب تأثير فردريك وليم الآن تعاليم الفيلسوف . وكلما حلت فرص

السلطة وتبعات الحكم محل موسيقى صباه وشعره وهو بعد أمير ، ازداد فردريك بروداً وقسوة ، لا بل إن المعاملة السيئة التى كان أبوه يصبها عليه أغلظت جلده ومزاجه . وكان فى كل يوم يرى أولئك العمالقة الـ ١٠٠,٠٠٠ الذين خلفهم له أبوه ، وفى كل يوم كان عليه أن يطعمهم . فأى معنى لتركهم يصدأون ويبلون فى السلم ؟ أما من ظلم يستطيع هؤلاء العمالقة رفعه ؟ أجل ، هناك سيليزيا ، التى تفصلها بوهيميا عن النمسا ، والأقرب إلى برلين منها إلى فيينا ؛ وكان نهر الأودر العظيم يجرى هابطاً من بروسيا إلى برزلا وعاصمة سيليزيا التى لا تبعد عن برلين غير ١٨٣ ميلا إلى الجنوب الشرقى . فماذا يفعل النمساويون هناك ؟ إن لبيت برندبنورج مطالب فى سلزيا — فى الإمارات السابقة — وهى بيجرندورف ، وراتيبور ، وأوبيلن ، وليجنتس ، وبرييج ، وفولاو ؛ هذه كلها أخذتها النمسا أو تم التنازل لها عنها بمقتضى ترتيبات لم تكن قط مرضية لبروسيا . إذن فالآن ، والوراثة النمساوية محل نزاع ، وماريا تريزا صغيرة ضعيفة ، وعلى العرش الروسى قيصر طفل هو إيفان السادس — الآن هو الوقت الملائم للإلحاح على تلك المطالب القديمة ، ولتصحيح تلك الأخطاء القديمة — ولإعطاء بروسيا وحدة وأساساً جغرافياً أعظم من ذى قبل .

وفى أول نوفمبر قال فردريك لبوديفيلز أحد مستشاريه : « حل لى هذه المسألة : إذا أتيحت لإنسان ميزة فهل ينتفع بها أو لا ينتفع ؟ إننى مستعد بجيشى وبكل شىء آخر . فإذا لم أستعمله الآن كنت أملك فى يدى أداة عديمة الجدوى رغم قوتها . وإذا استعملت جيشى قيل إننى أوتيت مهارة استغلال التفوق المتاح لى على جارتى . » ورأى بوديفيلز أن هذا العمل سيعتبر عملا غير أخلاقى . فرد فردريك : ومتى كانت الفضيلة معوقاً للملوك ؟ (٧٣) وهل فى وسعه أن يمارس الوصايا العشر فى عرين الذئاب ذاك الذى يسمى الدول العظمى ؟ ولكن ألم يتعهد فردريك وليم بتأييد « الأمر العالى » الذى ضمن لماريا تريزا تلك الممتلكات التى خلفها لها أبوها ؟ إن هذا التعهد على أية حال كان مشروطاً بتأييد الامبراطور لمطالب بروسيا فى يوليش وبرج ، وهذا التأييد لم يأت ، بل على العكس بذل لمنافسى بروسيا . فالآن يمكن الثأر لهذه الإهانة المؤلمة .

وعليه فى ديسمبر أرسل فردريك مبعوثاً إلى ماريا تريزا يعرض عليها حمايته إذا أقرت مطالبه فى شطر من سيليزيا . وإذ توقع رفضها لهذا الغرض ، فإنه أمر شطراً من جيشه يبلغ ثلاثين ألف مقاتل بالزحف . فعبر الحدود إلى سيليزيا فى ٢٣ ديسمبر قبل وصول مبعوث فردريك إلى فيينا بيومين . وهكذا بدأت الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ — ٤٢) ، وهى أولى مراحل حرب الوراثة النمساوية .

٤ — حرب الوراثة النمساوية ؛ : ١٧٤٠ — ٤٨

لن نتتبع فردريك فى كل تحركاته العسكرية ، لأن هذا الكتاب تاريخ الحضارة . ولكن يهمنا طبيعة الإنسان وسياسة الدول كما تكشف عنهما أقوال فردريك وأفعاله ، والسياسات المتقلبة للدول . ولعل حقائق سياسة القوة لم تقر فى أى حرب مدونة بأوضح مما تعرت فى هذه الحرب .

اخترق الجيش البروسى سيليزيا دون أن يلقى مقاومة تذكر . فأما النصف البروتستنتى من السكان ، وهم الذين عانوا بعض الاضطهاد فى ظل الحكم النمساوى ، فقد رحبوا بفردريك محرراً لهم ؛ (٧٤) وأما الكاثوليك فقد تعهد لهم — وأوفى بعهده — بكامل الحرية فى ممارسة دينهم . وفى ٣ يناير ١٧٤١ استولى على برزلاو فى هدوء . وهو يؤكد لنا أنه « لم ينهب بيت ، ولم يهن مواطن ، وقد أشرق النظام البروسى بكل بهائه » ؛ (٧٥) وكان هذا أرق وأرفق استيلاء على مدينة . وأمرت ماريا تريزا المرشال نايبيرج بأن يجمع جيشاً فى مورافيا ويعبر به إلى سيليزيا ؛ وفى ١٠ أبريل اشتبك هذا الجيش بقوة فردريك السيليزية الرئيسية فى مولفتش ، على عشرين ميلا جنوبى برزلاو . وكانت عدة جيش نايبيرج ٨,٦٠٠ فارس ، و ١١,٤٠٠ راجل ، و ١٨ مدفعاً ، وعدة فردريك ٤,٠٠٠ فارس و ١٦,٠٠٠ راجل ، وستين مدفعاً ، وقد قررت هذه الفروق مراحل المعركة ونتائجها . فغلب الفرسان النمساويون الفرسان البروسيين الذين لاذوا بالفرار . وأقنع المرشال شفرين فردريك بأن يفر مع الفارين مخافة أن يؤسر ولا يفرج عنه إلا بفدية مدمرة . ولكن بعد أن ذهب الملك وفرسانه ، صمد المشاة البروسيون لجميع الهجمات

سواء من الفرسان أو المشاة ، أما المدفعية البروسية فقد أعادت تعبئة مدافعها بمدكات حديدية وألحقت من الأذى البالغ بالنمساوين ما حمل نايبيرج على إصدار أمره بالتقهقر . فلما استدعى فردريك ثانية إلى ساحة القتال أبهجه وأخجله أن يجد أن جيشه كسب المعركة . وأحس أنه أذنب لا بالجبن فحسب بل بالاستراتيجية الناقصة ؛ فلقد بعثر رجاله الثلاثين ألفاً فى سيلزيا قبل أن يدعم غزوه ، ولم ينقذ الموقف غير شجاعة مشاته وحسن تدريبهم . وجاء فى مذكراته أنه « فكر كثيراً فى الأخطاء التى ارتكبها ، وحاول إصلاحها فيما تلا ذلك . »[٧٦] ولم يكن فى بسالته قصور مرة أخرى بعد هذا ، وندر أن أخطأ فى التكتيك أو الاستراتيجية .

ونمى نبأ هزيمة الجيش النمساوى إلى ماريا تريزا وهى تستجم عقب ولادة طفلها . وبدا أن أملها الوحيد — فى حالة الضعف الذى أصاب قواتها وماليتها — معقود على معونة من الخارج . فلجأت إلى الدول الكثيرة التى تعهدت من قبل بتأييدها للأمر العالى الخاص بحكمها . واستجابت انجلتره فى حذر ؛ فهى فى حاجة إلى نمسا قوية تثبت لفرنسا ، ولكن جورج الثانى خاف على إمارته الهانوفرية إن خاض الحرب ضد جارته بروسيا . وأقر البرلمان البريطانى إعانة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لماريا تريزا ، ولكن المبعوثين البريطانيين حثوها على أن تتنزل عن سيلزيا السفلى (الشمالية) لفردريك ثمناً للسلام . وكان فردريك راضياً بهذا الحل ، ولكن الملكة رفضته . أما بولنده ، وسافوى ، والجمهورية الهولندية ، فقد وعدت كلها بالمعونة ، ولكنها أبطأت فى إرسالها إبطاء أفقدها أثرها فى النتيجة .

وكل ائتلاف يلد نقيضاً له . فما إن رأت فرنسا ذلك التقارب بين عدويها القديمين انجلتره والنمسا حتى بادرت بالتحالف مع بافاريا ، وبروسيا ، وأسبانيا البوربونية . وقد رأينا أن فرنسا كان لديها مكيافللها ، وهو بيل — إيل ، الذى اقترح هذه الآية من آيات اللصوصية السياسية . فعلى فرنسا التى تعهدت بتأييد الأمر العالى أن تسرع بالإفادة من مصيبة ماريا تريزا ، وذلك بتأييد شارل ألبرت البافارى فى مطالبته بالعرش الإمبراطورى عن طريق زوجته . وعلى فرنسا أن تقدم له المال والجند للمشاركة فى الهجوم على النمسا ،

فإذا أفلحت الخطة قصر حكم ماريا تريزا على المجر ، والنمسا السفلى ، والأراضي المنخفضة النمساوية ، وأصبح شارل إمبراطوراً يحكم بافاريا ، والنمسا العليا ، والتيرول ، وبوهيميا ، وجزءاً من سوابيا ؛ أما الابن الثانى لملك اسبانيا فيأخذ ميلان ، وعارض فلورى الخطة ، وتغلب بيل — ايل ، وأرسل ليظفر بتأييد فردريك للمؤامرة . ووقعت فرنسا وبافاريا على تحالفهما فى نمفنبورج فى ١٨ مايو ١٧٤١ . وأحجم فردريك عن الانضمام فلم يكن فى وسعه أن يسمح لفرنسا بأن تقوى شوكتها إلى هذا الحد ، ولم يفقد الأمل فى الوصول إلى تفاهم مع ماريا تريزا . ولكن لما لم تعرض عليه سوى تنازلات تافهة ، فقد وقع ببرزلاو فى ٥ يونيو حلفاً مع فرنسا ، وبافاريا ، وأسبانيا ، وأراد أن يشارك فى الغنيمة بنصيب إن قسمت المملكات النمساوية . وتعهد كل طرف من الأطراف الموقعة على الحلف بألا تعقد حكومته صلحاً منفرداً سرياً . وضمنت فرنسا استلاء فردريك على برزلاو وسيليزيا السفلى ، ووعدت بأن تحث السويد على تعليق روسيا فى حرب تشغلها ، ووافقت على إرسال جيش فرنسي لمنع قوات انجلتره الهانوفرية من المشاركة فى اللعبة .

أما وقد تركت ماريا تريزا بغير حليف تقريباً ، فإنها صممت على الاستنجاد بنبلاء المجر العسكريين . وكان هؤلاء النبلاء ، أو أسلافهم ، قد عانوا الأمرين من حكم النمسا ؛ فقد حرمهم ليوبولد الأول دستورهم القديم وحقوقهم الموروثة ، فلم يكن لديهم إذن كبير مبرر لإغاثة حفيدته . ولكن حين ظهرت أمامهم فى مجلسهم النيابى (الديت) فى برسبورج (١١ سبتمبر ١٧٤١) أثر فيهم جمالها ودموعها . وخطبت فيهم باللاتينية ، واعترفت بأن حلفاءها تخلوا عنها ، وأعلنت أن شرفها وعرشها يعتمدان الآن على بسالة وشهامة الفرسان المجريين والأسلحة المجرية وما يروى من أن النبلاء هتفوا باللاتينية « لنمت فداء مليكنا » (فهكذا سموا الملكة) إنما هو قصة جميلة هبطت الآن إلى مرتبة الأسطورة . [٧٨] فقد ساوموا كثيراً ، واستلوا منها العديد من التنازلات السياسية ؛ ولكن حين جاءهم زوجها فرانسيس ستيفن فى ٢١ سبتمبر ومعه مرضع ترفع لهم بين يديها الطفل جوزف ذا الشهور الستة ، استجابوا للنداء بشهامة ، وهتف كثيرون منهم

بأن حياتهم ودماءهم فداء للملكة [٧٦] وأقر المجلس التجنيد العفوى العام . ودعوة جميع الرجال للسلاح ، وبعد تعطيل طويل ركبت قوة مجرية صوب الغرب للدفاع عن الملكة .

ولو أن شارل ألبرت واصل زحفه على فيينا لكان الوقت قد فات لتخليص هذه العاصمة . ولكن الذى حدث أثناء ذلك (١٩ سبتمبر) أن سكسونيا انضمت إلى الحلف المعادى للنمسا ، فخشى شارل البرت أن يستولى أوغسطس الثالث على بوهيميا ، ونصح فلورى الأمير البافارى بأن يستولى على بوهيميا قبل أن يستطيع السكوسونى الوصول إليها . وحث فردريك شارل على مواصلة الزحف على فيينا . أما شارل الذى كانت فرنسا تموله فقد أطاع فرنسا . وخشى فردريك أن تصبح فرنسا بعد غلبة نفوذها فى بافاريا وبوهيميا قوة خطرة على أمن بروسيا ، فوقع هدنة سرية مع النمسا (٩ أكتوبر ١٧٤١) وزلت له ماريا تريزا مؤقتاً عن سيليزيا السفلى لحرصها على إنقاذ بوهيميا .

وأحدقت ثلاثة جيوش الآن ببراغ : أحدها بقيادة شارل ألبرت ، والثانى جيش فرنسى بقيادة بيل — ايل . ثم عشرون ألف سكسونى . وسقطت العاصمة البوهيمية ذات الحامية الضعيفة بعد الهجمة الأولى (٢٥ نوفبر) ولكن النصر كان كارثة على شارل . ذلك أنه وقد استغرقته الحملة على بوهيميا ترك إمارته البافارية دون أن يدعمها بأسباب دفاع تذكر ، ولم يدر بخلده قط أن تستطيع ماريا تريزا الهجوم عليها وهى مهددة بأخطار من هذه الجوانب الكثيرة . ولكن الملكة أبدت من مرونة الحركة وسهولة التكيف ما أوقع الفزع فى قلوب أعدائها . فقد استدعت عشرة آلاف جندى نمساوى من إيطاليا ، وأخذت الفرق المجرية تصل إلى فيينا . فأمرت على هذين الجيشين الكونت لودفج فون كيفنهولر . الذى تعلم فنون الحرب على يد أوجين أمير سافوى . أما وقد توفرت للجيشين القيادة القادرة ، فقد فتحا بافاريا واجتاحاها دون مقاومة تذكر . وفى ١٢ فبراير ١٧٤٢ استوليا على مونخ عاصمتها . وفى هذا اليوم نفسه فى فرانكفورت — أم — مين ،

توج شارل ألبرت امبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل السابع .

أما فردريك ، الذى كان يتحول مع كل ريح من رياح القوة ، فقد دخل الحرب من جديد خلال ذلك . لقد جعل الهدنة مشروطة بكتمان أمرها ، ولكن ماريا تريزا كشفت أمرها لفرنسا . ووصلت إلى آذان فردريك هذه الهمسات الدبلوماسية ، فبادر بالانضمام إلى حلفائه من جديد (ديسمبر ١٧٤١) . واتفق معهم على خطة يقود بمقتضاها جيشاً يخترق مورافيا إلى النمسا السفلى ، وهناك تلتقى به القوات السكسونية والفرنسية البافارية ، ويزحف الجميع معاً إلى فيينا . ولكنه كان يقود الآن عملياته وسط سكان معادين له عداء نشيطاً ، وكان الفرسان المجريون يغيرون على خطوط مواصلاته مع سيليزيا . فارتد ثانية ودخل بوهيميا . هناك ، على مقربة من شوتوسنز ، هجم على مؤخرته جيش نمساوى بقيادة الأمير اللوريني شارل الكسندر (١٧ مايو ١٧٤٢) . وكان هذا الأمير ، زوج أخت ماريا تريزا ، شاباً فى الثلاثين وواحداً من ألمع وأشجع أمراء أسرته ، ولكنه لم يكن قريعاً لفردريك فى تكتيكات المعركة . وكان لكل منهما جيش عدته نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل . وعادت طلائع فردريك إلى ساحة القتال فى الوقت المناسب تماماً ، فوجه قوتها الكاملة ضد جناح مكشوف للنمساويين ، فتراجعوا فى تقهقر منتظم . ولحقت بالجيش خسائر فادحة ، ولكن النتيجة أقنعت ماريا تريزا بأنه ليس فى استطاعتها أن تقاتل كل أعدائها فى وقت واحد . فقبلت نصيحة المبعوثين الإنجليز الذين أشاروا عليها بإبرام صلح واضح محدد مع فردريك ، وفى هذه المرة ، وبمقتضى معاهدة برلين (٢٨ يوليو ١٧٤٢) نزلت له عن سليزيا كلها تقريباً . وهكذا وضعت الحرب السيليزية الأولى أوزارها .

أما الجيشان النمساويان اللذان يقودهما كيفنهولر والأمير شارل الكسندر فقد زحفا الآن داخل بوهيميا . وواجهت الحامية الفرنسية فى براغ التطويق والتجويع . ورغبة فى تحاشى « قياس الخلف » هذا لأحلام بيل - إيل ، أمرت فرنسا المرشال مايبوا بأن يقود إلى بوهيميا ذلك الجيش الذى كان يشاغل

قوات جورج الثانى فى هانوفر . وإذ تحررت انجلتره على هذا النحو ، فإنها دخلت الحرب بنشاط ، وأقرضت ماريا تريزا ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأرسلت ستة عشر ألف جندى إلى فلاندر النمساوية ؛ ودفعت الأقاليم المتحدة ٨٤٠,٠٠٠ فلورين مساهمة منها فى نفقات الحرب . وأحالت الملكة المال جيوشاً . وسد أحد هذه الجيوش طريق مايبوا فى زحفه على بوهيميا . وتجمعت القوات النمساوية ، التى ازداد عددها ، غير مرة حول براغ . وفر بيل — إيل ومعظم جنوده إلى بجير بعد أن كلفهم هذا ثمناً عالياً . وأقبلت ماريا تريزا من فيينا إلى براغ ، وهناك توجت أخيراً (١٢ مايو ١٧٤٣) ملكة على بوهيميا .

وبدت الآن منتصرة فى كل مكان . وفى شهر مايو هذا وافقت الأقاليم المتحدة على أن تمينها بعشرين ألف مقاتل . وبعد شهر هزم حلفاؤها الإنجليز أعداءها الفرنسيين فى ديتنجن . وكان لسيطرة البحرية الإنجليزية على البحر المتوسط أثر فى دعم قضيتها فى إيطاليا . ففى ١٣ سبتمبر انضم ملك سردانيا شارل إمانويل الأول إلى حلف من النمسا وانجلتره . ونال شريحة من لمباردية من النمسا وتعهداً من انجلتره بأن تدفع له ٢٠٠,٠٠٠ جنيه كل عام نظير ٤٥,٠٠٠ جندى ؛ وهكذا اشترى الجند بالجملة ، والملوك بالتجزئة . وداعبت الآن ماريا تريزا الأحلام ، لا باسترداد سيليزيا فحسب ، بل بضم بافاريا ، والإلزاس ، واللورين ، إلى امبراطوريتها . إذ كانت عنيدة وقت الانتصار بقدر ما كانت باسلة وقت الشدة .

أما فردريك فقد داعب السلام برهة . ففتح دار أوبرا جديدة فى برلين ، وقرض الشعر ، وعبثت أنامله بالفلوت . وجدد دعوتاه لفولتير . ورد فولتير بأنه ما زال وفياً لاميلى . ولكن حدث عند هذا المنعطف أن الوزارة الفرنسية — التى راعها أن تجد فرنسا فى حرب مع انجلتره ، والنمسا ، والجمهورية الهولندية ، وسافوى — سردانية — تذكرت أن عبقرية فردريك وعمالقته سيكون عوناً مرحباً به ؛ وأن انتهاكاته لمعاهداته التى أبرمها مع فرنسا يمكن اغتفارها إذا انتهك معاهدته مع النمسا ؛ وأنه قد يمكن إقناعه بأن يرى فى سطوة النمسا المنبعثة من جديد خطراً يتهدد سلطانه على سيليزيا

بل على بروسيا . فمن يستطيع أن يوضح له هذا على أحسن وجه ؟ لم لا يجرب فولتير ، الذى بيده الآن دعوة من فردريك ، والذى يتوق دائماً لأن يلعب دوراً فى السياسة ؟

وهكذا عاد فولتير داعية السلام يخترق ألمانيا فى مركبة يثب داخلها ويتأرجح ، وأنفق هناك ستة أسابيع (من ٣٠ أغسطس إلى ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) وهو يحاول إقناع فردريك بخوض الحرب . ولم يستطع الملك أن يلتزم بوعد ، فصرف الفيلسوف خاوى الوفاض إلا من التحيات . ولكن تقدم حملات عام ١٧٤٤ أدخل فى قلبه الخوف على سلامته وعلى دوام مكاسبه . ففى ١٥ أغسطس بدأ الحرب السيليزية الثانية .

وأراد أن يفتح بوهيميا . ولما كانت سكسونيا تقع بين برلين وبراغ ، فقد سير جنوده مخترقاً درسدن ، فأسخط بذلك أوغسطس الثالث الغائب عن وطنه . وما وافى الثانى من سبتمبر حتى كان رجاله الثمانون ألفاً يدقون أبواب براغ . وفى ١٦ سبتمبر استسلمت الحامية النمساوية . وبعد أن ترك فردريك خمسة آلاف جندى لاحتلال العاصمة البوهيمية ، زحف جنوباً وهدد فيينا من جديد . وردت ماريا تريزا بتحدى هذا الخطر ، فركبت على عجل إلى برسبورج وطلبت من الديت المجرى تجريدة أخرى من الجند ، فجمع لها ٤٤,٠٠٠ ، وبعد قليل زادهم ٣٠,٠٠٠ آخرين . وأمرت الأمير شارل بالكف عن مهاجمة الألزاس وقيادة الجيش النمساوى الرئيسى شرقاً لاعتراض زحف البروسيين . وتوقع فردريك أن الفرنسيين سيطاردون النمساويين ، ولكنهم لم يفعلوا . فحاول أن يكره شارل على القتال ، غير أن الأمير تجنبه ، ولكنه دعم جهود المغيرين لقطع خطوط اتصال البروسيين بسيليزيا وبرلين . وأعاد التاريخ نفسه ، فقد وجد فردريك جيشه معزولا وسط سكان من الكاثوليك المتحمسين لمذهبهم المعادين له عداء فيه دهاء وبراعة . وكانت الجنود المجرية فى طريقها للانضمام إلى الأمير شارل . ونمى إلى فردريك أن سكسونيا دخلت الحرب صراحة فى صف النمسا . وخاف فردريك أن يعزل عن عاصمته وعن مصادر تموينه ، وأمر الحامية البروسية بالتخلى عن براغ ؛ وفى ١٣ ديسمبر قفل راجعاً إلى برلين ، دون زهوه الماضى ، بعد أن تعلم أن الخادع قد يخدع .

وجرى تيار الحرب أشد ما يكون معاكسة له . فى ٨ يناير ١٧٤٥ وقعت انجلترہ ، والأقاليم المتحدة ، وبولنده — سكسونيا ، فى وارسو ميثاقاً مع النمسا وعد جميع موقعيه بأن يرد لكل منهم كل ما كان يملكه فى ١٧٣٩ — ومعنى هذا أن تعاد سيليزيا لمريا تريزا . ووعد أوغسطس الثالث بأن يقدم ٣٠,٠٠٠ مقاتل نظير ١٥٠,٠٠٠ جنيه من انجلترہ وهولندة ؛ بواقع خمسة جنيهات لكل نفس . وفى ٢٠ يناير مات شارل السابع بعد أن تقلد عرش الامبراطورية برهة قصيرة جداً ، وكان يبلغ الثامنة والأربعين ، وقد أعرب حين حضره المنية عن أسفه لما ألحقه بوطنه من خراب من جراء تطلعه لعرشي الامبراطورية وبوهيميا ، وطلب إلى ولده مكسمليان جوزف أن يقلع عن هذه الدعاوى ويسالم البيت المالك النمساوى ، وامتثل الناخب الجديد للنصيحة رغم اعتراضات فرنسا ؛ ففى ٢٢ ابريل تخلى عن كل دعاوى فى عرش الامبراطورية ، ووافق على تأييد الدوق فرنسس ستيفن فى مطالبته بالتاج الامبراطورى . وسحبت الجنود النمساوية من بافاريا .

وفكرت الملكة الآن لا فى استرداد سيليزيا فحسب ، بل فى تقطيع أوصال بروسيا ضماناً لها من أطماع فردريك [٨٠] . وقد أقلقها مؤقتاً انتصار الفرنسيين على حلفائها الإنجليز فى فونتنوا (١١ مايو ١٧٤٥) ، ولكنها فى ذلك الشهر أرسلت جيشها الرئيسى إلى سيليزيا وأصدرت إليه الأمر بالدخول فى المعركة . والتقى النمساويون الذين عززتهم فرقة سكسونية بفردريك فى هوهنفريدبيرج (٤ يونيو ١٧٤٥) . هنا أنقذته براعته التكتيكية ، فقد نشر خيالته ليستولوا على تل استطاعت مدفعيته أن تقصف منه مشاة العدو . وبعد ساعات من التقتيل انسحب النمساويون والسكسون تاركين وراءهم أربعة آلاف قتيل وسبعة آلاف أسير وكانت تلك المعركة الفاصلة فى الحروب السيليزية .

وعادت انجلترہ تطوع دبلوماسيتها لمقضيات السلام . فقد أكرهتها غزوة ١٧٤٥ الاستيوارتية على سحب خيرة جندها من فلاندر ، واستولى المرشال دساكس على المدينة تلو المدينة لفرنسا ؛ وحتى على القاعدة الإنجليزية الكبرى فى أوستند ؛ وخشى جورج الثانى أن يصل الفرنسيون

المنتصرون إلى إمارته المحبوبة هانوفر . أما البرلمان البريطانى الذى خلع ولبول لحبه السلام فقد مل الآن حرباً كلفت الملايين من الدنانير الغالية ، فضلا عن آلاف الرجال الذين يمكن تعويضهم . وناشد المبعوثون الإنجليز ماريا تريزا أن تصل إلى تفاهم مع فردريك تمكيناً للقوات النمساوية والإنجليزية من التركيز على فرنسا التى نفخ فيها العافية قائد كادت انتصاراته تعدل غرامياته . ولكن الملكة أبت . فهددتها انجلتره بسحب كل معونة وإنهاء كل دعم مالى ، ولكنها أصرت على الرفض . فدعت انجلتره فردريك إلى مؤتمر فى هانوفر ، وهناك وقعت مع ممثليه صلحاً منفرداً (٢٦ أغسطس ١٧٤٥) . وقبلت انجلتره بمقتضى هذا الصلح شروط معاهدة برلين . التى أكدت ملكية بروسيا لسيليزيا ، ووافق فردريك على تأييد انتخاب الدوق فرانسس ستيفن امبراطوراً . وفى ٤ أكتوبر . فى فرانكفورت . توج فرانسس إمبراطور ، وأصبحت ماريا تريزا إمبراطورة .

وأمرت قوادها بأن يواصلوا الحرب . فقاتلوا البروسيين فى زور بيوهيميا (٣٠ سبتمبر) وفى هينيرزدورف (٢٤ نوفمبر) ، وهزم النمساويون مرتين رغم تفوقهم العددى . وتقدم خلال ذلك جيش بروسى يقوده ليوبولد أمير أنهالت — دساو فى سكسونيا . وعند كيسلدورف (١٥ ديسمبر) سحق القوات التى تحمى درسدن . ودخل فردريك درسدن قادماً إليها بعد النصر . دون مقاومة وفى شهامة وسماحة ؛ فحظر أعمال النهب والسلب . وطمأن أبناء أوغسطس الثالث الذين فروا إلى براغ . وعرض الإنسحاب من سكسونيا إذا انضم الملك الناخب إلى انجلتره فى الاعتراف بتملك فردريك لسيليزيا وكف عن مساعداته لماريا تريزا ، ووافق أوغسطس . ووجدت ماريا تريزا نفسها وحيدة بعد أن تخلت عنها انجلتره وسكسونيا . فأبرمت معاهدة درسدن (٢٥ ديسمبر ١٧٤٥) التى نزلت فيها عن سيليزيا ومقاطعة جلاتز لبروسيا . وهكذا وضعت الحرب السيليزية الثانية أوزارها .

وفقدت حرب الوارثة النمساوية الآن معناها ، ولكنها استمرت ؛ فحاربت فرنسا النمسا وانجلتره على السلطة فى فلاندر ؛ وحاربت فرنسا

وأسبانيا والنمسا وسردينا على السلطة فى إيطاليا . وكان لانتصارات النمساويين فى إيطاليا ما يقابلها من انتصارات للفرنسيين فى الأراضى المنخفضة . وأخيراً أكره الإعياء المالى ، لا أى نفور من المذابح ، المتخاصمين على الصلح . وانتهت حرب الوراثة النمساوية بنهاية مؤسفة بمقتضى معاهدة إكس‌لاشابل ، بعد مفاوضات طالت من إبريل إلى نوفمبر ١٧٤٨ ، وثبت بها استيلاء فردريك على سيليزيا ، وكان هذا الكسب القيم الوحيد الذى استطاعت أى دولة من الدول الظفر به لقاء ثمانية أعوام من التنافس فى التدمير . فردت فرنسا الأراضى المنخفضة الجنوبية إلى النمسا رغم انتصارات ساكس ؛ واعترفت بالأسرة الهانوفرية المالكة فى انجلتره ، ووافقت على طرد المطالب الشاب بالعرش من الأراضى الفرنسية .

واستراحت الدول ثمانية أعوام حتى يستطيع مخاض النساء أن يعوض النقص فى الجيوش لجولة جديدة فى لعبة الملوك .

٥ — فردريك فى أرض الوطن : ١٧٤٥ — ٥٠ :

قفل الملك الظافر الذى أدركه التعب إلى برلين (٢٨ ديسمبر ١٧٤٥) وأقسم أن « سيكون منذ اليوم سلام إلى آخر حياتى ! »[٨١] ونددت به كل أوربا خارج بروسيا (ونند به بعض الناس داخلها) لصاً غادراً ، وأعجبت به لصاً ناجحاً . واستنكر فولتير مذابحه ولقبه « الأكبر »[٨٢] (أو العظيم) . وكان فردريك قد رد فى ١٧٤١ على احتجاجات الشاعر فقال :

تسألنى كم من الزمن اتفق زملائى على أن يدمروا العالم فيه . وجوابى أنه ليس لى أدنى علم به . ولكن القتال أصبح فاشية هذا العصر . وفى ظنى أن أمده سيطول . وقد أرسل لى الأبيه دسان — بيير ، الذى يخصنى بشرف مكاتبتى ، كتاباً جميلا فى طريقة رد السلام إلى ربوع أوربا والحفاظ عليه إلى الأبد ..

وكل ما ينقص الخطة لكى تنجح هو موافقة أوربا وبضعة توافه مماثلة.[٨٣]

وقد قدم لأوربا دفاعه فى كتابه الذى نشر بعد موته باسم « تاريخ

جيلى » ، واعتنق فيه مبدأ مكيافللى الذى غلب فيه مصلحة الدولة على مبادىء فضيلة الفرد .

ربما رأت الأجيال القادمة بدهشة فى هذه المذكرات روايات عن معاهدات أبرمت ثم نقضت . ومع أن لهذه التصرفات سوابق كثيرة ، فإنها ما كانت تشفع للمؤلف لو لم يكن لديه مبررات أفضل يعتذر بها عن سلوكه . إن مصلحة الدولة يجب أن تقوم قانوناً للملوك . ويجوز نقض المحالفات لأى من هذه الأسباب :

١ — حين لا يوفى حليف ما بتعهداته ، ٢ — حين يبيت حليف خداعك ، وحين لا يكون أمامك سبيل إلا أن تسبقه إلى خداعه ؛ ٣ — حين تفرض عليك قوة قاهرة تضطرك إلى نقض اتفاقاتك . ٤ — حين تعوزك الوسائل لمواصلة الحرب .... ويبدو لى واضحاً جلياً أن الفرد الذى لا يتولى منصباً عاماً يجب عليه أن يوفى بوعده بكل أمانة ... فإذا خدع استطاع أن يطلب حماية القوانين له .. ولكن إلى أى محكمة يلجأ الملك إذا انتهك ملك آخر المواثيق التى بذلها له ؟ إن كلمة فرد ما تنطوى على كارثة لرجل واحد فقط ، ولكن كلمة ملك قد تجر كارثة شاملة على أمم برمتها . وهذا كله يمكن اختزاله إلى سؤال واحد هو : هل من الخير أن يهلك الشعب أم أن يخرق الملك معاهدة ؟؟ وأى أبله متردد فى الجواب القاطع عن هذا السؤال ؟ (٨٤)

وقد وافق فردريك اللاهوت المسيحى على أن الإنسان بطبيعته شرير . فلما أعرب مفتش تعليم يدعى زولتسر عن الرأى بأن « ميل البشر الفطرى يتجه إلى الخير أكثر من الشر » رد الملك عليه قائلا « أواه ياعزيزى زولتسر ، إنك لا تعرف هذا النوع الإنسانى اللعين . » (٨٥) . ولم يقتصر فردريك على مجرد تقبل تحليل لاروشفوكو طبيعة البشر على أنها أنانية خالصة ، بل آمن بأن الإنسان لن يقر بأى قيد على الجرى وراء مصلحته إن لم يكبحه الخوف من الشرطة فما دامت الدولة هى الفرد مضروباً فى أعداد كثيرة ، وليس هناك شرطة دولية يردعها عن أنانيتها الجماعية . فلا سبيل إذن إلى كبح جماحها إلا أن تخاف سطوة غيرها من الدول . ومن ثم كان أول واجبات « خادم الدولة الأول » (كما سمى فردريك نفسه) أن ينظم قوة الأمة على الدفاع ،

وهي تتضمن السبق بالهجوم — أي أن تفعل بالآخرين ما يبيتون أن يفعلوه بك . وهكذا كان الجيش في رأي فردريك . كما كان في رأي أبيه ، أساس الدولة . لقد أرسى دعائم اقتصاد تشرف عليه الحكومة وتخططه بعناية ، ورعى الصناعة والتجارة ، وبعث عملاءه إلى جميع أرجاء أوربا ليجلبوا مهرة الصناع ، والمخترعين ، والصناعات ، ولكنه أحس أن هذا كله لا غناء فيه آخر الأمر إن لم يصنع من جنوده أفضل جيوش أوربا تدريباً . وأضبطها نظاماً ، وأجدرها بالثقة والاطمئنان .

أما وقد ملك هذا الجيش ، ومعه بوليس حسن التنظيم ، فإنه لم ير به حاجة إلى الدين معواناً على النظام الاجتماعي . فلما سأله وليم برنزويك ألا يرى أن الدين دعامة من أفضل دعائم سلطة الحاكم ، أجاب « إنني أجد الكفاية في النظام والقوانين .... لقد كانت الدول تحكم حكماً جديراً بالإعجاب حين لم يكن لدينك وجود » (٨٦) ولكنه قبل أي عون استطاع الدين بذله في غرس المشاعر الفاضلة التي تعين على « النظام » . وحمى جميع الأديان في مملكته ، ولكنه أصر على تعيين الأساقفة الكاثوليك لا سيما في سيليزيا . (كذلك أصر الملوك الكاثوليك على تعيين الأساقفة الكاثوليك . وعين الملوك الإنجليز الأساقفة الانجليكان .) وقرر أن يكون لكل إنسان الحرية في أن يعبد كما يشاء ، أو لا يعبد على الإطلاق . وشمل هذا الروم الكاثوليك ، والمسلمين ، والتوحيديين ، والملحدين . على أنه كان هناك قيد واحد على هذه الحرية ، فحين كان الجدل الديني ينقلب إلى السب أو العنف الشديدين ، كان فردريك يخمده كما يخمد أي خطر يهدد السلام الداخلي . وفي سنواته الأخيرة كان أقل تسامحاً مع الهجمات على حكومته منه على الهجمات على الله .

فأي رجل كان ، مرهب أوربا هذا ومعبود الفلاسفة ؟ لم يزد طوله على خمسة أقدام وست بوصات . وليست هذه بالقامة الشامخة . وقد غلبت عليه السمنة في شبابه ، ولكنه غدا الآن بعد عشر سنين من الحكم والحرب نحيلا ، عصبياً ، مشدوداً ، وكأنه سلك من الحساسية والنشاط الكهربيين . له عينان حادتان فيهما ذكاء نفاذ متشكك . وله قدرة على الفكاهة ، ونكته الذكية لا تقل حدة عن نكت فولتير . كان في وسعه ، كإنسان لا يعارضه

أحد ، أن يكون غاية فى اللطف ، ولكنه كملكاً كان صارماً ، وندر أن خفف العدل بالرحمة ، فكان يستطيع أن يناقش الفلسفة مع مساعديه وهو يرقب فى هدوء جنوده وهم يعانون الجلد وكان لكلبيه لسان لاذع يجرح أصدقاءه أحياناً . وهو شديد الشح عادة ، كريم بين الحين والحين . وإذ ألف أن يطاع ، فقد أصبح مستبد الطبع ، لا يكاد يطيق اعتراضاً ، وندر أن يلتمس النصيحة ، ولا يعمل بها إطلاقاً . فيه وفاء لأخصائه ، ولكنه يحتقر النوع الإنسانى . نادر الحديث مع زوجته ، يضيق عليها فى النفقة ، ومزق فى وجهها الكشف الذى دونت فيه احتياجاتها فى مسكنة . [٨٧] وكان عادة لطيفاً ودوداً لشقيقته فلهلمينا ، ولكنها هى أيضاً وجدته أحياناً متحفظاً فاتر العاطفة . [٨٨] . أما غيرها من النساء ، باستثناء الأميرات من زواره ، فقد باعد ما بينهن وبينه ، ولم يكن به ميل للطائف الأنثى ومفاتنها ، سواء الجسدية أو الخلقية ، وقد أبغض ثرثرة الصالونات . وآثر الفلاسفة والشبان ملاح الوجوه ، وكثيراً ما صحب أحد هؤلاء إلا مسكنه بعد العشاء . [٨٩] وربما كان حبه للكلاب أكثر حتى من حبه لهؤلاء . وكان أحب رفاقه إليه فى أخريات عمره كلابه السلوقية التى كانت تنام فى فراشه ، وقد أمر بإقامة أنصاب على قبورها ، وبأن يدفن بجوارها . [٩٠] لقد وجد أن من العسير عليه أن يكون قائداً ناجحاً وإنساناً محبوباً فى وقت واحد .

وفى ١٧٤٧ أصيب بنوبة فالج وظل فاقد الوعى نصف ساعة . [٩١] بعد هذا قاوم ضعف صحته بالعادات الثابتة والحمية ، ينام على حشية رقيقة فوق سرير بسيط قابل للطى ، ويستجلب النوم بالقراءة . وكان يقنع فى منتصف عمره هذا بالنوم خمس ساعات أو ستاً فى اليوم ، فيستيقظ فى الثالثة ، أو الرابعة ، أو الخامسة صيفاً ، وبعد ذلك شتاء . لا يقوم على خدمته غير خادم واحد — أهم واجباته أن يوقد له ناره ويحلق له لحيته ، وكان يحتقر الملوك الذين لا يستغنون عن مساعدين يلبسونهم ملابسهم . ولم يعرف عنه نظافة الشخص أو أناقة الملبس . فكان ينفق نصف يومه وهو فى روبه ، ونصفه فى سترة الحارس . يبدأ فطوره بعدة أكواب من الماء ، ثم عدة أقداح من القهوة ، ثم يتناول بعض الكعك ، ثم كثيراً من الفاكهة . وبعد الفطور يعزف على الفلوت ، متأملا شئون السياسة والفلسفة وهو ينفخ آليته .

وفى نحو الحادية عشرة من كل صباح يحضر تدريب جنده وعرضهم . وكانت وجبة الظهيرة الرئيسية تختلط عادة بالمداولات . ثم ينقلب بعد الظهر مؤلفاً ، فينفق ساعة أو ساعتين فى كتابة الشعر أو التاريخ ؛ وسنجده مؤرخاً ممتازاً لأسرته ولجيله . فإذا فرغ ساعات للإدارة روح عن نفسه بالحديث مع العلماء ، والفنانين ، والشعراء ، والموسيقيين . وفى السابعة مساء قد يشارك فى حفلة موسيقية عازفاً على الفولوت . وفى الثامنة والنصف يحل موعد حفلات عشائه المشهورة فى سانسوسى عادة (بعد مايو ١٧٤٧) ، يدعو إليها أخص أخصائه ، وكبار زواره ، وأقطاب أكاديمية برلين . وكان يطلب إليهم أن يكونوا على سجيتهم ، وينسوا أنه ملك ، ويتحدثوا دون خوف ، وهو ما فعلوه فى كل موضوع إلا السياسة . وكان فردريك نفسه يتكلم فى إسهاب ، وعلم ، وذكاء . يقول أمير لين « كان حديثه موسوعياً ، فالفنون الجميلة ، والحرب ، والطب ، والأدب ، والدين ، والفلسفة ، والأخلاق ، والتاريخ والتشريع ، تعرض على بساط البحث كل فى دوره » . (٩٢) ولم ينقص الحفل غير مفخرة واحد حتى يصبح مأدبة للفكر . وقد أقبل فى ١٠ يوليو ١٧٥٠ .

٦ — فولتير فى ألمانيا : ١٧٥٠ — ٥٤

لقد رضى حتى هو عن استقباله . فقد اصطنع فردريك العادات الغالية فى الترحيب به . كتب فولتير لريشليو يقول « تناول يدى ليقبلها ، وقبلت أنا يده ، وقلت إننى عبده . » (٩٣) وأفرد له مسكن أنيق فى قصر سانسوسى ، فوق الجناح الملكى مباشرة . ووضعت خيول الملك ومركباته ، وحوذيوه ، ومطبخه ، تحت تصرفه . وأحاط به أكثر من عشرة خدم يغالون فى العناية به ، وخطب وده عشرات الأمراء ، والأميرات ، والنبلاء ، والملكة ذاتها . وقد عينه الملك كبيراً لأمنائه براتب قدره عشرون ألف فرنك فى السنة ، ولكن أهم واجباته كان تصحيح الفرنسية فى شعر فردريك وكلامه . ولم يتقدمه فى حفلات العشاء غير الملك . وذهب زائر ألمانى إلى أن مطارحاتها أطرف ألف مرة من أى كتاب » . (٩٤)

وقد قال فولتير بعد ذلك مستحضراً هذه الأحاديث « لم يحظ مكان آخر في الدنيا بحرية أكبر في الحديث عن خرافات الإنسان . » [٩٥]

وقد انتشى طرباً بهذا كله . فكتب إلى دارجنتال (سبتمبر ١٧٥٠) يقــول :

إنني أجد مرفأ ألجأ إليه بعد ثلاثين عاماً من العواصف . أجد حماية ملك ، وحديث فيلسوف ، وخلالا لطيفة لإنسان محبوب ، كلها مجتمعة في رجل ظل ستة عشر عاماً يتوق إلى تعزيتي عن عثرات حظي وتأميني من أعدائي ... هنا أطمئن إلى مصير هادىء إلى النهاية . وإذا جاز للإنسان أن يطمئن إلى أي شيء ، فهو خلق ملك بروسيا . [٩٦]

وكتب إلى مدام دنيس يطلب إليها أن تحضر وتعيش معه في فردوسه . على أنها بحكمة آثرت باريس والعشاق الأصغر ، فحذرته من إطالة المكث في برلين . وقالت في خطابها إن صحبة السلطان لا يؤمن جانبها، فهو يغير رأيه ويبدل محاسيبه ، وعلى المرء أن يكون على حذر دائماً من أن يعارض مزاجه أو إرادته . وسيجد فولتير نفسه إن عاجلا أو آجلا خادماً وسجيناً أكثر منه صديقاً . [٩٧]

وأرسل الفيلسوف الأحمق الخطاب إلى فردريك فكتب له هذا الرد (٢٣ أغسطس) وهو كاره أن يفقد الغنيمة التي تريد الظفر بها :

قرأت الخطاب الذي كتبه ابن أختك من باريس . وإني لأقدر لها الود الذي تكنه لك . ولو كنت مكان مدام دنيس لفكرت كما تفكر ، أما وأنا ما أنا ، فإني أفكر بطريقة أخرى . وإنه ليحزنني أن أكون سبباً في تعاسة عدو ، فكيف إذن أبغي بلية رجل أقدره ، وأحبه ، يضحي من أجلي ببلده وكل ما هو عزيز على الإنسانية ، لا يا عزيزي فولتير ، لو أنني تبينت أن إنتقالك إلى هنا سيلحق بك أقل أذى لكنت أول من يثنيك عنه . وإني لأوثر سعادتك على سروري المفرط بتملكك . ولكنك فيلسوف ، وكذلك أنا، فأي شيء إذن أكثر طبيعية ، وبساطة ، وتمشياً مع نظام الأشياء ، من أن يمنح فلاسفة خلقوا ليعيشوا معاً ، تربطهم دراسات واحدة ، وميول واحدة ،

وطريقة تفكير مشابهة ، يمنح بعضهم بعضاً هذا الإشباع لرغباتهم ؟ ... إننى موقن بأنك ستكون سعيداً جداً هنا ، وأنك ستعد أباً للأدب ولأصحاب الذوق ، وأنك واجد فى كل التعزيات التى يمكن أن يتوقعها رجل له كفايتك من رجل يقدره . مساء الخير . (٩٨)

ولم يقتضى تدمير هذا الفردوس من أكبر الفيلسوفين سناً أكثر من أربعة أشهر . لقد كان فولتير مليونيرا ، ولكنه ، لم يطق أن يفوت عليه فرصة قد تضخم ثروته . ذلك أن بنك سكسونيا كان قد أصدر أوراقاً سميت « شهادات إيراد » ، هبطت إلى نصف قيمتها الأصلية . وقد اشترط فردريك فى معاهدة درسدن دفع ثمن الأوراق التى اشتراها البروسيون ، عند استحقاقها بقيمتها الإسمية ذهباً ، واشترى بعض البروسيين الخبثاء بعض هذه الأوراق بثمن بخس فى هولنده ثم صرفوا ثمنها كاملا فى بروسيا . وفى مايو ١٧٤٨ حظر فردريك هذا الاستيراد إنصافاً لسكسونيا . وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٤٨ استدعى فولتير فى بوتسدام مصرفياً يهودياً يدعى أبراهام هيرش . وفى رواية هيرش أن فولتير طلب إليه أن يذهب إلى درسدن ويبتاع له بمبلغ ١٨,٤٣٠ أيكوسا أوراقاً بسعر خمسة وثلاثين فى المائة من قيمتها الإسمية . وزعم هيرش أنه نبه فولتير إلى أن هذه الأوراق المالية لا يمكن جلبها قانوناً إلى بروسيا ، وأن فولتير وعده بأن يحميه ، وأعطاه خطابات تحويل على باريس وليبزج . وضماناً لهذه المبالغ أودع هيرش لدى فولتير ماسات قدرت من قبل بمبلغ ١٨,٤٣٠ أيكوسا . ولكن فولتير ندم على هذه الاتفاقات بعد رحيل عميله ، وقرر هيرش بعد وصوله إلى درسدن ألا يمضى فى تنفيذ العملية ، وأوقف فولتير الدفع على خطابات التحويل ، وعاد المصرف إلى برلين . ويقول هيرش إن فولتير حاول أن يرشوه ليسكت ، بشراء ماسات قيمتها ثلاثة آلاف ايكوس . وتنازعا على تقدير القيمة وأمسك فولتير برقبة هيرش وصرعه ، (٩٩) فلما لم يتلق ترضية أكثر من هذا جعل السلطات تقبض عليه ، وعرض النزاع على المحكمة علناً (٣٠ ديسمبر) . وفضح هيرش خطة فولتير لشراء الأوراق السكسونية ، فأنكرها فولتير زاعماً أنه أرسل هيرش إلى درسدن لشراء فراء ، ولكن أحداً لم يصدقه .

فلما سمع فردريك بهذه الورطة بعث برسالة غاضبة من بوتسدام إلى فولتير فى برلين (٢٤ فبراير ١٧٥١) :

لقد سرنى أن أستقبلك فى بيتى ؛ وقدرت عبقريتك ، ومواهبك ، وعلمك . وكان لى ما يبرر اعتقادى بأن رجلا فى مثل سنك أعياه النضال مع الكتاب والتعرض للعاطفة يجىء إلى هذا المكان ليحتمى به احتماءه بمرفأ آمن .

ولكنك حين وصلت انتزعت منى بصورة غريبة بعض الشىء أمراً بألا أكلف فريرون بكتابة الأنباء من باريس ، وكان فى من الضعف ... ما جعلنى أمنحك سؤلك ، مع أنه ليس من حقك أن تقرر أى الأشخاص يجب أن أستخدم . وقد شعرت بأن باكولار دارنو (شاعر فرنسى فى بلاط فردريك) أساء إليك ، والرجل الكريم السمح كان يعفو عنه ، أما المنتقم فيطادر أولئك الذين يطيب له أن يبغضهم ... ومع أن دارنو لم يسىء إلى بشىء ، فإنى طردته بسببك ... ثم كانت لك مع يهودى خصومة هى أقذر الخصومات فى الدنيا ، وقد أثارت فضيحة رهيبة فى طول المدينة وعرضها . ومسألة شهادات الإيراد تلك معروفة جيدا فى سكسونيا حتى لقد شكوا لى منها شكاوى مرة .

وانى من جهتى كنت محافظاً على الهدوء والسلام فى بيتى حتى وصلت ؛ وإنى أنذرك بأنك إن كنت مولعاً بالدس والتآمر فقد أخطأت اختيار من يعينك عليه . فإنى أحب الناس المسالمين الهادئين الذين لا يشيعون فى سلوكهم انفعالات الدراما المأساوية . فإن اعتزمت العيش عيشة الفلاسفة ، فسيسرنى أن ألقاك ، أما إن أسلمت نفسك لكل سورات غضبك وانفعالك ودخلت فى مشاجرات مع كل الناس ، فإنك لن تحسن إلى بمجيئك هنا ، وخير لك أن تبقى فى برلين .

وحكمت المحكمة لصالح فولتير . وأرسل إلى الملك اعتذارات ذليلة وعفا عنه فردريك . ولكنه نصحه بأن « يكف عن الشجار ، سواء مع العهد القديم أو الجديد . » [١٠٠] وبعدها أنزل فولتير بيتاً ريفياً لطيفاً

يسمى « بيت المركيز » ويقع قرب سانسوسى . وأرسل له الملك تأكيدات باحترامه المجدد ، ولكن حماقة فولتير لم تذهب به إلى حد الثقة بها . وبعث له الملك الشاعر قصائد يطلب إليه تهذيب فرنسيتها ، وأضنى فولتير نفسه فيها كثيراً وأغضب كاتبها بإدخال تغيرات حادة عليها .

ونظم فولتير الآن قصيدته المسماة « فى القانون الطبيعى » ، وقد حاولت أن تمجد الله فى الطبيعة ، مقتدية فى ذلك بطريقة الكسندر بوب على الأخص . وأهم من هذه القصيدة مضموناً قصيدة « عصر لويس الرابع عشر » التى أكملها وصقلها خلال تلك الأشهر المقلقة ثم نشرها فى برلين (١٧٥١) . وكان حريصاً على الفراغ من طبعها قبل أن يضطر لسبب ما إلى الرحيل عن ألمانيا لأنها لن تكون بمأمن من الرقابة على المطبوعات إلا فى رعاية فردريك . كتب إلى ريشليو فى ٣١ أغسطس « تعلم جيداً أنه ليس هناك (فى باريس) رقيب صغير واحد للكتب لايعتبر تشويه عملى أو مصادرته حسنة أو واجباً». (١٠١) وحظر بيع الكتاب فى فرنسا . وأصدر تجار الكتب فى هولنده وانجلتره طبعات مسروقة لم ينقدوا فولتير عليها شيئاً ، فإذا عرفنا هذا فهمنا حبه للمال فهماً أفضل . لقد كان عليه أن يحارب « تجار الكتب الأوغاد » (١٠٢) لا رجال الدين والحكومات فحسب .

و « عصر لويس الرابع عشر » أكثر أعمال كفولتير دقة وأمانة فى الإعداد فقد خطط له فى ١٧٣٢ ، وبدأه فى ١٧٣٤ ، ونحاه جانباً فى ١٧٣٨ ، ثم عاد إليه فى ١٧٥٠ . وقد قرأ له مائتى مجلد ، وتلالا من المذكرات غير المنشورة ، واستشار عشرات الناس ممن بقوا على قيد الحياة بعد العصر العظيم ، ودروس الأوراق الأصلية التى كتبها أبطال العصر أمثال لوفوا وكولبير . وحصل من الدوق دنواى على المخطوطات التى خلفها لويس الرابع عشر ، ووجد وثائق هامة لم تستخدم إلى ذلك الحين فى دار محفوظات اللوفر . (١٠٣) ووازن بين الأدلة المتضاربة بحكمة وعناية ، وحقق مرتبة عالية من الدقة . لقد حاول مع مدام دشاتليه أن يكون عالماً ففشل ، والآن اتجه إلى كتابة التاريخ ، وكان نجاحه فى ذلك ثورة .

وقد أعرب قبل ذلك بزمن طويل عن هدفه فى خطاب تاريخه ١٨ يناير ١٧٣٩ : « أن هدفى الأهم ليس التاريخ السياسى والحربى ، بل تاريخ الآداب والفنون ، تاريخ التجارة ، تاريخ الحضارة – وبعبارة موجزة ، تاريخ العقل الإنسانى . » وأعرب عنه إعراباً أفضل حتى من هذا فى خطاب كتبه لتيريو فى ١٧٣٦ . يقول :

حين طلبت حكايات ونوادر عن عصر لويس الرابع عشر لم أكن أقصد الملك ذاته بقدر ما أقصد الآداب والفنون التى ازدهرت فى عهده . وإنى لأوثر تفاصيل عن راسين وبوالو ، وكينو ولولى ، وموليير ، ولوبرون ، وبوسويه ، وبوسان ، وديكارت ، وغيرهم ، لا عن معركة ستنكركى . لم يبق من أولئك الذين قادوا الجيوش والأساطيل إلا اسمهم ، ولا ثمر يجنيه النوع الإنسانى من مائة معركة كسبت ، أما الرجال العظماء الذين ذكرتهم فقد جهزوا مباهج صافية باقية لأجيال لم تولد . فقناة تربط بين بحرين ، أو لوحة بريشة بوسان ، أو مأساة رائعة ، أو حقيقة يماط عنها اللثام ، هذه كلها أشياء أثمن ألف مرة من جميع حوليات البلاط ، وكل قصص الحرب . وأنت تعلم أن العظماء من الرجال هم الأوائل فى نظرى ، أما «الأبطال» فهم الأواخر . والعظماء عندى هم كل الذين بزوا غيرهم فى النافع المبهج . أما الذين يخربون الأقطار فليسوا أكثر من أبطال .[١٠٤]

وربما رفع فولتير الأبطال العسكريين من مكانهم فى المؤخرة إذا أنقذت انتصاراتهم الحضارة من الهمجية ؛ ولكن كان من الطبيعى أن يجد الفيلسوف الذى لم يعرف سلاحاً غير الألفاظ متعة فى رفع أضرابه إلى مكان مرموق ، واسمه خير بيان لنظريته لأنه لم يزل بعد قرنين من الزمان أبرز الأسماء فى ذكرنا لعصره . وكانت نيته فى الأصل أن يخصص الكتاب برمته للتاريخ الثقافى . ثم أشارت عليه مدام دشاتليه بكتابة « تاريخ عام » للأمم ؛ وعليه فقد ألف فصولا فى السياسة ، والحرب ، والبلاط ، ليجعل المجلد تتمة متجانسة لكتاب أكبر عنوانه « مقال فى التاريخ العام » كان يتخلف تحت قلمه . ولعل هذا هو السبب فى أن التاريخ الثقافى غير مندمج فى بقية المجلد ، فالنصف الأول من الكتاب مخصص للتاريخ السياسى والحربى ، ثم تأتى أقسام

عن العادات « خصائص ونوادر » ، والحكومة ، والتجارة ، والعلوم ، والأدب ، والفن ، والدين .

وتطلع الكاتب المطارد خلفه فى إعجاب إلى عهد كان الملك فيه يكرم الشعراء (إذا لم يحيدوا عن الجادة) ؛ وربما كان تشديده على دعم لويس الرابع عشر للآداب والفنون هجوماً جانبياً على عدم اكتراث لويس الخامس عشر بمثل هذه الرعاية . أما وقد برزت الآن عظمة العصر الماضى فى هذه الذكرى المموهة ، وأغفل ذكر استبداده وغارات خياليه على البيوت ، فإن فولتير راح يضفى شيئاً من الكمال على الملك الشمس ويطرب لانتصارات القواد الفرنسيين — وإن وسم بالعار تدمير البلاتينات . ولكن النقد يحنى رأسه أمام هذه المحاولة الحديثة الأولى لكتابة التاريخ المتكامل . وقد أدرك المعاصرون الفطنون أن هذه بداية جديدة — فهى التاريخ يترجم للحضارة ، التاريخ الذى حوله الفن والنظرة الصحيحة أدباً وفلسفة . فما انقضى عام على نشره حتى كتب إيرل تشسترفيلد لولده يقول :

لقد أرسل إلى فولتير من برلين كتابه « تاريخ عصر لويس الرابع عشر » وقد جاءنى فى أوانه ، ذلك أن اللورد بولنبروك علمنى مؤخراً كيف ينبغى أن يقرأ التاريخ . وها هو ذا فولتير يرينى كيف ينبغى أن يكتب ... إنه تاريخ الفهم الإنسانى ، بقلم عبقرى لينتفع به الأذكياء من الناس .... وقد تحرر مؤلفه من الأهواء الدينية والفلسفية والسياسية والقومية أكثر من أى مؤرخ صادفته إطلاقاً . ومن ثم فهو يروى هذه الأمور كلها بصدق ونزاهة على قدر ما تسمح له بعض الاعتبارات التى لا مفر دائماً من مراعاتها . (١٠٥)

وكان فولتير خلال جهوده الأدبية برما بوضعه القلق فى بلاط فردريك : ذلك أن لامترى ، الرجل المادى النزعة المرح الطبع الذى كان كثيراً ما يقرأ للملك ، نقل فى أغسطس ١٧٥١ إلى فولتير ملاحظة أبداها مضيفهما : « سأحتاج إليه (أى فولتير) سنة أخرى على الأكثر (مهذباً لفرنسية الملك) ؛ إن الناس يعتصرون البرتقالة ثم يلقون قشرتها » . (١٠٦) ويتشكك البعض فى صحة نسبة هذه الملاحظة إلى فردريك ، إذ لم يكن فى طبعه أن يفضى بسره لأحد على هذا النحو ، ولم يكن مستحيلا على لامترى أن يتمنى إقصاء فولتير

عن حظوته . كتب فولتير إلى مدام دنيس فى ٢ سبتمبر يقول « بذلت قصارى جهدى لكيلا أصدق لامترى ، ولكنى ما زلت حائراً . » ثم كتب إليها فى ٢٩ أكتوبر يقول « ما زلت أحلم بقشرة البرتقالة تلك ... وما أشبهنى بذلك الرجل الذى كان يسقط من برج فلما وجد نفسه مرتاحاً فى الهواء قال لا بأس بهذا الوضع لو دام . » (١٠٧) .

وكان فى ألمانيا رجل فرنسى آخر شارك فى المهزلة . وقال فردريك إنه لابد من زوال واحد من رجلين فرنسيين فى بلاط واحد (١٠٨) ذلك أن موبرتوى عميد أكاديمية برلين ، كان لا يتقدم عليه مقاماً بين ضيوف الملك فى سانسوسى غير فولتير ؛ وكان كلا الرجلين ضيفاً بهذا الجوار ؛ ولعل فولتير لم ينس أن مدام دشاتليه كانت يوماً ما مغرمة بموبرتوى . وفى أبريل ١٧٥١ أقام فولتير وليمة دعا إليها موبرتوى فلبى الدعوة . وقال له فولتير إن كتابك « عن السعادة » أمتعنى كثيراً ، بإستثناء بضعة غوامض سنناقشها معاً ذات مساء . » وعبس موبرتوى وقال « غوامض » ؟ قد يكون هناك غوامض بالنسبة لك يا سيدى . » ووضع فولتير يده على كتف العالم وقال « سيدى العميد ، إننى أقدرك ، فأنت رجل شجاع ، تريد الحرب . فلتخوضها إذن ، ولكن دعنا الآن نأكل شواء الملك . » (١٠٩) وكتب إلى دارجنتال (٤ مايو) يقول « لم يؤت موبرتوى من أداب السلوك ما يفتن كثيراً . إنه يقيس أبعادى بربعيته فى خشونة ؛ ويقولون أن معلوماته يخالطها الحسد ... إنه رجل فيه بعض الفظاظة ، وليس اجتماعياً جداً . » ثم كتب إلى ابنة أخته دنيس فى ٢٤ يوليو يقول « لقد أشاع موبرتوى بدهاء أننى وجدت « أعمال » الملك رديئة جداً ، وأننى قلت لبعضهم وأنا أتسلم بعض أشعار الملك (ألايتعب من إرسال غسيله القذر إلى لأغسله » ؟ (١١٠) وليس من المؤكد أن موبرتوى حمل هذه الشائعة إلى فردريك ، ولكن فولتير ظنه مؤكداً ، فعقد النية على الحرب .

وكان من إسهامات موبرتوى فى العلم « مبدأ الحركة الدنيا » — أى أن كل النتائج فى عالم الحركة تنجز بأقل قوة تكفى لأحداث النتيجة . وقد تعثر صموئيل كوينيج ، الذى دان لموبرتوى بعضويته فى أكاديمية برلين ، على

وثيقة قيل إنها نسخة من خطاب غير منشور كتبه ليبنتز ، وسبق فيه إلى وضع هذا المبدأ ؛ وكتب كوينيج مقالاعن هذا الكشف ، ولكنه عرضه على موبرتوى قبل أن ينشره ، وأبدى استعداده للعدول عن النشر إذا اعترض عليه العميد . غير أن موبرتوى وافق على نشره ، ربما بعد أن اطلع عليه على عجل . وطبع مقال كوينيج فى عدد مارس ١٧٥١ من مجلة « أكتا إيروديتورم » التى تصدر فى ليبزج ، فأثار نشره ضجة . وطلب موبرتوى إلى كوينيج أن يقدم خطاب ليبنتز إلى الأكاديمية ، ورد كوينيج بأنه لم ير غير نسخة منه بين أوراق صديقه هنتسى الذى شنق فى ١٧٤٩ ، وأنه نقل نسخة عن هذه النسخة ، وهو مرسلها الآن إلى موبوتوى ، ولكن هذا عاد فطالب بالأصل . واعترف كوينيج بأن الأصل لا يمكن العثور عليه الآن لأن أوراق هنتسى تبددت بعد موته . وعرض موبرتوى الأمر على الأكاديمية (٧ أكتوبر ١٧٥١) ، فأرسل سكرتيرها إلى كوينيج أمراً نهائياً بإبراز أصل الخطاب ، فلم يستطع . وعليه فى ١٣ أبريل ١٧٥٢ حكمت الأكاديمية بأن خطاب ليبنتز المزعوم مزيف . ولم يحضر موبرتوى هذه الجلسة لأنه شكا نزفاً سببته إصابة بالسل . (١١١) وأرسل كوينيج استقالته من الأكاديمية ، وأصدر « نداء إلى الشعب » (سبتمبر ١٧٥٢) .

وكان كوينيج قد أنفق مرة عامين فى سيريه ضيفاً على فولتير ومدام دشاتليه . وقرر فولتير أن يضرب ضربة دفاعاً عن صديقه القديم ضد عدوه الحالى . فى عدد ١٨ سبتمبر من مجلة « المكتبة العقلانية » ظهر مقال بعنوان « رد عضو فى أكاديمية برلين على عضو فى أكاديمية باريس » دافع من جديد عن كوينيج وخلص إلى أن :

« السيد موبرتوى مذنب أمام الدوائر العلمية الأوربية لا بالانتحال والخطأ فحسب ، بل باستغلال منصبه لمصادرة النقاش الحر ، واضطهاد رجل شريف .. وقد احتج عدة أعضاء من أكاديميتنا على هذا الإجراء الفاضح ، ولولا خشيتهم من إغضاب الملك لتركوا الأكاديمية . » (١١٢)

وكان المقال غفلا من الإمضاء ، ولكن فردريك عرف لمسة فولتير

الغادرة . وبدلا من أن يقذفه بصاعقة ملكية ، كتب رداً وصف فيه الرد المذكور بأنه« خبيث ،جبان ، دنىء» ووسم فيه كاتبه بأنه « دجال لايستحى » ، « ولص قبيح » و « ملفق للطعون الغبية ». (١١٣) وكان هذا الرد أيضاً غفلا من التوقيع ، ولكن صفحة الغلاف كانت تحمل الأسلحة البروسية ومعها النسر ، والصولجان ، والتاج . وأحس فولتير أن كبرياءه قد جرحت ، ولم يكن فى طاقته قط أن يترك لعدو الكلمة الأخيرة ، ولعله وطن النفس على أن يختصم الملك . وكتب لمدام دينس (١٨ أكتوبر ١٧٥٢) يقول « لست أملك صولجاناً ، ولكنى أملك قلماً . » ثم استغل غاية الاستغلال نشرموبرتوى مؤخراً (درسدن ، ١٧٥٢) لسلسلة من « الرسائل » اقترح فيها حفر ثقب فى الكرة الأرضية ، إلى مركزها إن أمكن ، لدراسة تركيبها ، ونسف هرم من أهرام مصر للكشف عن أسرار هدفها وتصميمها ، وبناء مدينة لا يتكلم الناس فيها غير اللاتينية حتى يقضى الطلاب فيها عاماً أو عامين ويتعلموا تلك اللغة كما تعلموا لغتهم القومية ، وألا ينقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض ، وأن جرعة كافية من الأفيون قد تمكن متعاطيها من التنبؤ بالمستقبل ، وأن العناية الصحيحة بالجسم قد تتيح لنا إطالة العمر إلى مالا نهاية .(١١٤) وانقض فولتير على هذه الرسائل انقضاضة على فريسة سهلة ، مغفلا بعناية أى فقرة فيها إدراك سليم أو أى لمحات من الفكاهة ثم قذف بالباقى فى مرح على قرون دعابته الذكية . وهكذا كتب فى نوفمبر ١٧٥٢ « خطاب الدكتور أكاكيا ، طبيب البابا المقيم . » وكلمة Diatribe (ومعناها الآن هجاء) كانت تعنى يومها خطاباً ، أما akakia فكلمة يونانية معناها « غرارة أو غفلة » . وقد بدأه الطبيب المزعوم فى براءة ظاهرة بتشككه فى أن يكون رجل عظيم كعميد أكاديمية برلين مؤلفاً لكتاب بهذا السخف . وعلى أى حال « ليس فى عصرنا هذا ما هو أشيع وأعم من أن يزيف مؤلفون صغار جهل عن العالم ، تحت أسماء مشهورة ، كتباً غير جديرة بالمؤلفين المزعومين . فلابد أن هذه الرسائل هى من هذا الضرب من التزييف ، لأنه محال أن يكون العميد العلامة قد

كتب هذا الهراء . وخص الدكتور أكاكيا بالاحتجاج على ذلك الاقتراح بعدم نقد الطبيب أجره إلا بعد شفاء المريض — وهو اقتراح ربما كان يمس وتراً متعاطفاً فى صدر فولتير الموجع ، ولكن « أينكر الموكل على محاميه أتعابه التى يستحقها لأنه خسر قضيته ؟ إن الطبيب يعد مريضه بأن يعينه لا بأن يشفيه . وهو يبذل ما فى وسعه وينقد أجره على هذا الأساس » ، وكيف يكون شعور عضو الأكاديمية إذا اقتطع قدر معين من الدوقاتيات من راتبه السنوى نظير كل غلطة ارتكبها ، أو كل قول سخيف فاه به ، خلال العام ؟ وراح الطبيب يفصل ما اعتبره فولتير أغلاطاً أو سخافات فى أعمال موبرتوى . (١١٥)

ولم يكن هجاؤه هذا بالبراعة التى يخالها الناس عموماً ، فكثير منه معاد وبعض ما فيه من نبش عن الأخطاء تافه غير كريم ؛ ونحن نخفى حقدنا فى أيامنا هذه بأدب أكثر . ولكن فولتير سر بتمثيليته هذه سروراً لم يستطع معه أن يقاوم بهجة رؤيتها مطبوعة . فأرسل مخطوطة منها إلى ناشر فى لاهاى ، وأرى الملك فى الوقت نفسه مخطوطة أخرى . واستمتع فردريك بقراءة الهجاء (أو هكذا قيل) وكان بينه و بين نفسه يوافق على أن موبرتوى فيه أحياناً غرور لا يطاق ، ولكنه نهى فولتير عن نشره ، وواضح أنه وجد فى النشر مساساً بكرامة أكاديمية برلين وسمعتها . وسمح له فولتير بأن يحتفظ بالمخطوطة ، ولكن الهجاء نشر رغم ذلك فى هولندة . وسرعان ما أ انبثت ثلاثون ألف نسخة منه فى أرجاء باريس ، وبروكسل ، ولاهاى ، وبرلين . ووصلت نسخة منها ليد فردريك ، فأعرب عن غضبه بعبارات جعلت فولتير يفر إلى مسكن خاص فى العاصمة . وفى ٢٤ ديسمبر ١٧٥٢ رأى من نافذته جلاد الدولة الرسمى يحرق كتابه على الملأ . وفى أول يناير ١٧٥٣ رد لفردريك مفتاحه الذهبى بوصفه أميناً للقصر ، وصليب الاستحقاق الذى خلعه عليه .

وكان الآن مريضاً حقاً ، تلهب الحمرة جبينه ، وترهق الدوسنتاريا أمعاءه ، وتبرى الحمى جسده . فلزم فراشه فى ٢ فبراير ولم يبرحه طوال

أسبوعين ، وبدا عليه كما قال زائر عاده فى مرضه « كل مظهر الهيكل العظمى . » (١١٦) ورق له قلب فردريك ، فأوفد طبيبه الخاص ليرعى الشاعر . فلما تحسنت صحته كتب إلى الملك يستأذنه فى زيارة بلومبيير ، فلعل مياهها تشفى حمرته . وأمر فردريك سكرتيره بأن يرد عليه (١٦ مايو) « بأن فى استطاعته أن يترك هذه الخدمة حين يشاء ، وأنه لا حاجه به للاعتذار بمياه بلومبيير ، ولكن عليه أن يتكرم قبل رحيله بأن يرد إلى ... مجلد القصائد الذى عهدت به إليه . » (١١٧) وفى الثامن عشر من الشهر دعا الملك فولتير للعودة إلى مسكنه القديم فى سانسوسى . وأتى فولتير ، ومكث ثمانية أيام ، وبدا أنه أصلح ما بينه وبين الملك - ولكنه احتفظ بقصائد الملك . وفى ٢٦ مارس ودع فردريك ، وتظاهر كلاهما بأن الفراق إلى حين . وقال الملك « اعتن بصحتك قبل كل شىء ، ولا تنس أننى أنتظر عودتك بعد استشفائك بالمياه ... رحلة طيبة ! » (١١٨) ولم يلتقيا بعدها قط .

وهكذا انتهت هذه الصداقة التاريخية ، ولكن العداوات السخيفة استمرت . فقد انطلق فولتير مع سكرتيره ومتاعه يتأرجح فى مركبته إلى الأمان فى ليبزج السكسونية . هناك تلكأ ثلاثة أسابيع بحجة ضعف صحته ، وأضاف مزيداً إلى « الخطاب » . وفى ٦ أبريل تلقى رسالة من موبرتوى يقول فيها :

تقول الجرائد إنك تخلفت فى ليبزج لمرضك ، ولكن معلوماتى الخاصة تؤكد لى أنك لا تمكث هناك إلا لطبع مزيد من القذف فى .. إننى لم أسىء إليك قط ، وما كتبت ضدك ولا قلت شيئاً قط . لقد كنت على الدوام أراه أمراً لا يليق بى أن أرد على السفاهات التى رحت تذيعها عنى ... ولكن إذا صح أن فى نيتك العودة إلى مهاجمتى فى مسائل شخصية ، ... فإننى أنذرك بأن فى من العافية ما يمكننى من العثور عليك أنى كنت ، وصب جام غضبى وانتقامى عليك . (١١٩)

ورغم ذلك طبع فولتير « الخطاب » المنقح ، وطبع معه رسالة موبوتوى . وأصبح الكتيب ، الذى تضخم الآن حتى بلغ خمسين صفحة ، حديث القصور والبلاطات فى ألمانيا وفرنسا . وكتبت فلهلمينا من بايرويت إلى فردريك

(٢٤ ابريل ١٧٥٣) تعترف بأنها لم تملك نفسها من الضحك على الخطاب . أما موبرتوى فلم ينفذ تهديده ، كذلك لم يمت غيظاً وكمداً كما ظن البعض ؛ فلقد عمر ست سنوات بعد الدكتور أكاكيا ، ومات بالسل فى بازل عام ١٧٥٩ .

وفى ١٩ أبريل رحل فولتير إلى جوتا ، ونزل فندقاً عاماً بها ، ولكن سرعان ماأقنعه دوق ودوقة ساكس — جوتا بالنزول ضيفاً عليهما فى قصرهما ؛ ولما كان بلاطهما الصغير يهتم بالثقافة ، فقد جمعت الدوقة الأعيان والأدباء ، وقرأ لهم فولتير شيئاً من أعماله ، حتى من قصيدة « لا بوسيل المرحة » . ثم مضى إلى فرنكفورت — أم على — مين ، وهناك أدركته إلهة الانتقام .

ذلك أن فردريك حين تبين أن فولتير يواصل الحرب التى شنها على موبرتوى ، خامرته الظنون فى أن الشاعر المستهتر قد يذيع على الناس القصائد التى كتبها الملك، والتى لم تزل نسخة منها — طبعت سراً — فى حوزة فولتير وهى قصائد فى بعضها خروج عن اللياقة ، وبعضها يتهكم بالمسيحية ، وبعضها يتحدث عن الأحياء من الملوك حديثاً فيه من الدعاية أكثر مما فيه من الاحترام ، فمن شأنها أن تنفر منه قوى نافعة . وعليه فقد أرسل إلى فريتاج ، المقيم البروسى فى فرانكفورت ، يأمره بحبس فولتير حتى يسلم « ذلك الهيكل العظمى ، الشيطانى » قصائد الملك وشتى الأوسمة التى خلعها عليه إبان « شهر العسل » . وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، ولكنها تعتمد على رضى فردريك اعتماداً لم تجرؤ معه على التدخل فى هذه الأوامر ؛ أضف إلى ذلك أن فولتير كان من الناحية الرسمية لا يزال فى خدمة ملك بروسيا وفى أجازة ممنوحة منه . ومن ثم قصد فريتاج فى أول يونيو فندق الأسد الذهبى الذى وصل إليه فولتير البارحة ، وطلب إليه فى أدب أن يسلمه الأوسمة والقصائد . وسمح فولتير للمقيم بأن يفتش متاعه ويأخذ الأوسمة الملكية ، أما قصائد الملك فقال إنها على الأرجح فى صندوق أرسله إلى همبورج . وأمر فريتاج بوضعه تحت الحراسة حتى يعاد الصندوق من همبورج . وفى ٩ يونيو تعزى الفيلسوف المغيظ بوصول مدام دنيس ،

التي أعانته على التنفيس عن غيظه . وقد راعها هزاله «كنت على يقين من أن هذا الرجل (فردريك) قاتلك ! » وفى ١٨ يونيو وصل الصندوق ، وعثر فيه على المجلد المحتوى على القصائد ، وسلم للمقيم ، ولكن فى اليوم ذاته وصل توجيه جديد من بوتسدام يأمر فربتاج بالاحتفاظ « بالوضع الراهن » لحين وصول أوامر أخرى . فحاول فولتير الهروب بعد أن عيل صبره ، وفى ٢٠ يونيو ترك حقائبه مع ابنة أخته وفر هو وسكرتيره خلسة من فرانكفورت .

ولكن فربتاج لحق بهما قبل أن يجتازا الحدود الأدارية للمدينة ، وعاد بهما إليها وأودعهما سجينين فى فندق العنزة ، لأن « صاحب فندق الأسد أبى أن يستبقى فولتير أطول مما بقى عنده بسبب شحه الذى لا يصدق » (١٢٠) (فى رواية فربتاج) . واستولى آسرو فولتير على نقوده كلها ، وعلى ساعته ، وبعض جواهره التى يتحلى بها ، وصندوق نشوقه — الذى رد إليه سريعاً بناء على توسله لأنه قال إنه لا غنى لحياته عنه . وفى ٢١ يونيو وصل خطاب من فردريك يأمر بالافراج عن فولتير ، ولكن فربتاج رأى أن الأمانة فى أداء الواجب تقتضيه أن ينبىء الملك بمحاولة فولتير الهروب ، فهل يطلق سراحه رغم ذلك ؟ وفى ٥ يوليو وافق فردريك على الإفراج عنه ، وأطلق سراحه بعد اعتقاله خمسة وثلاثين يوماً . وفى ٧ يوليو غادر فرانكفورت إلى مينز ، وعادت مدام دنيس إلى باريس ، بأمل الحصول على إذن لفولتير بدخول فرنسا .

وكان نبأ اعتقاله قد ذاع ، فاحتفل به القوم وأشادوا به حيثما ذهب ، لأن فردريك لم يحبه أحد غير أخته فلهلمينا ، أما فولتير فهو رغم شيطنته كلها كان أعظم الأحياء من الشعراء ، والمسرحيين ، والمؤرخين . وبعد أن قضى ثلاثة أسابيع فى مينز رحل فى بطانة كبطانات الأمراء إلى مانهايم وستراسبورج (١٥ أغسطس إلى ٢ أكتوبر) حيث أمتع روحه بفكرة وجوده على أرض فرنسية . ثم مضى إلى كولمار (٢ أكتوبر) حيث زارته فلهمينا فى طريقها إلى مونبليه وطيبت خاطره « بالأنعامات » واسترد من عافيته ما أوحى إليه ببعض رسائل ظريفة لمدام دنيس التى كانت تشكو ورماً فى :لا لديها :

بالله يا طفلتى العزيزة ما الذى تريد ساقاك وساقاى أن تقول ؟ لو أنها كانت معاً لما شكت مرضاً ... إن فخذيك لم يخلقا للألم . فهذان الفخذان اللذان سيقبلان بعد قليل يلقيان الآن معاملة مخزية . [١٢١]

وكتب فى لهجة أكثر تواضعاً إلى مدام بومبادور يتوسل بنفوذها على لويس الخامس عشر ليسمح له بالعودة إلى باريس . ولكن ناشراً لصاً فى لاهاى كان قد نشر طبعة مشوهة سماها « موجز التاريخ العام » اختصر منها كتاب « مقال التاريخ العام » أو « مقال فى العزف » الذى لم يتمه فولتير ، وقد احتوى نقداً جارحاً للمسيحية . وبيع الموجز بسرعة فى باريس ، وقال لويس الخامس عشر لبومبادور « لست أريد أن يأتى فولتير إلى باريس »[١٢٢] وطالب اليسوعيون فى كولمار بطرده من تلك المدينة ، فحاول أن يسترضى أعداءه الكنسيين بتناوله القربان فى عيد القيامة . وكانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل أن انضم أصدقاؤه لليسوعيين فى رميه بالنفاق . وكان تعقيب مونتسكيو « انظروا إلى فولتير الذى لا يعرف أين يضع رأسه » ثم أضاف « أن النفس الصالحة أغلى ثمناً من النفس الجميلة . » [١٢٣]

وفكر الفيلسوف المشرد ، بعد أن سدت فى وجهه المسالك ، فى الرحيل عن أوربا والإقامة فى فيلادلفيا . وكان معجباً بروح بن وجهود فرانكلن الذى وحد مؤخراً بين البرق والكهرباء « لولا أن البحر يسبب لى دواراً لا يطاق لقضيت بقية عمرى بين كويكرزى بنسلفانيا . » [١٢٤] وفى ٨ يونيو ١٧٥٤ غادر كولمار ووجد ملجأ فى دير سنون البندكتى باللورين . هناك علم أن دوم أوجستن كالميه رئيس للدير ، وأن بمكتبة الدير اثنا عشر ألف مجلد ؛ ووجد فولتير السلام وسط الرهبان ثلاثة أسابيع . وفى ٢ يوليو رحل إلى بلومبير ، وشرب من مياهها فى خاتمة المطاف . ولحقت به مدام دنيس هناك ، وظلت منذ ذلك الحين سيدة (Mistrest خليلة) بيته على الأقل . واستأنف تجواله ، وعاد إلى كولمار ، ولم يجد فيها راحته ، فانطلق إلى ديجون ومكث فيها ليلة ، ثم إلى ليون التى أقام فيها شهراً (١١ نوفمبر إلى ١٠ ديسمبر). ونزل أسبوعاً ضيفاً على صديقه ومدينه القديم الدوق ريشليو ، ثم انتقل إلى فندق الباليه رويال ، ربما خوفاً من أن يؤذى سمعته . وذهب إلى أكاديمية

ليون وتلقى كل ماخلعته عليه من تكريم . وأخرجت بعض تمثيلياته على المسرح المحلى ، ورفع تصفيق الاستحسان معنويته . وفكر فى الإقامة فى ليون ، ولكن رئيس الأساقفة تنسان اعترض، فرحل فولتير عنها . وأيقن أنه قد يقبض عليه فى أية لحظة لو مكث فى فرنسا .

وعليه فى ختام عام ١٧٥٤ ، أو مطلع عام ١٧٥٥ ، عبر جبال الجورا وألقى عصا التسيار فى سويسرة .



الفصل الرابع عشر

سويسرة وفولتير ١٧١٥ — ٥٨

١ — فيللا المباهج (ليدليس) :

على طريق لبون ، خارج أبواب جنيف مباشرة ولكن فى حدودها الإدارية ، وجد فولتير فى خاتمة المطاف مكاناً يستطيع أن يرقد فيه آمناً مطمئناً ، هو فيللا فسيحة تسمى سان — جان ، ذات حدائق مدرجة تهبط إلى نهر الرون . ولما كانت قوانين الجمهورية تحرم بيع الأرض إلا للبروتستنت السويسريين ، فقد قدم ٨٧,٠٠٠ فرنك لشراء الملك (فبراير ١٧٥٥) بواسطة وكالة لابا دجرانكور وجان روبير ترونشان(*). وبكل حماسة أهل المدن اشترى دجاجات وبقرة ، وزرع حديقة خضر ، وغرس الأشجار. لقد أنفق من عمره ستين عاماً حتى تعلم أننا « يجب أن نزرع حديقتنا » . وخطر له أن فى وسعه الآن أن ينسى فردريك ، ولويس الخامس عشر ، وبرلمان باريس ، والأساقفة ، واليسوعيين ، ولم يبق إلا مغصه ونوبات صداعه . وبلغ ابتهاجه ببيته الجديد مبلغاً جعله يسميه « ليدليس » أى المباهج وكتب إلى تيريو يقول : « إن بى من السعادة ما يخجلنى » . [1] ولما كانت استثماراته الذكية تأتيه بدخل مترف ، فإنه أشبع رغبته فى العيش المترف . فاحتفظ بستة جياد وأربع مركبات ، وسائق ، وجوذى يمتطى أحد جياد العربة ، وتابعين ، وخادم خاص ، وطاه فرنسى ، وسكرتير ، ونسناس — كان يحب أن يقارن بينه وبين الإنسان . وتربعت على عرش هذه المؤسسة مدام دنيس ، التى وصفتها مدام دينيه حين زارت البيت فى ١٧٥٧ بهذه العبارات :

(*) كان هناك أفراد كثيرون باسم ترونشان ، أهمهم : (١) جان روبير ، المصرفى والمدير العام لجنيف ، (٢) باكوب ، عضو المجلس ، (٣) فرنسوا ، المؤلف والمصور (٤) تيودور ، الطبيب . و « ترونشان » هنا يقصد به تيودور ، مالم ينص على غير هذا .

ما زال البيت موجودا (١٩٦٥) ، وقد نقصت مساحته كثيرا ، ولكن مدينة جنيف تحتفظ به معهدا ومتحفا لفولتير .

« امرأة قصيرة سمينة ، مدورة كالكرة ، تناهز الخمسين ، ... قبيحة ، طيبة ، كذابة دون قصد ودون خبث ، ليس فيها ذكاء ومع ذلك تبدو وكأن لها نصيباً منه ... تكتب الشعر وتناقش فى منطق وفى غير منطق ... دون كثير ادعاء أو غرور ، وأهم من ذلك كله دون أن تسىء إلى أحد .. تعبد خالها ، بوصفه خالا وبوصفه إنساناً ، وفولتير يحبها ، ويضحك عليها ، ويعبدها . إن هذا البيت ، باختصار ، مأوى يجمع بين النقائض ، ومشهد يمتع المتفرجين[٢].

ووصف زائر آخر هو الشاعر الصاعد مارمونتيل ، المالك الجديد فقال « كان فى فراشه حين وصلنا . فمد ذراعيه وعانقنى وبكى فرحاً ... ثم قال « هأنت تجدنى مشرفاً على الموت . فتعال وردنى إلى الحياة ، أو تلق آخر أنفاسى » ... وبعد لحظة قال « سأنهض وأتناول الغداء معك . » [٣] .

وكان فى فيللا المباهج هذه عيب واحد — وهو برودتها فى الشتاء ، وفولتير يحتاج إلى الحرارة لشدة هزاله . وعليه فقد وجد قرب لوزان خلوة صغيرة تدعى مونريون يقيها موقعها من ريح الشمال . فاشتراها ، وأنفق فيها بعض شهور الشتاء خلال ١٧٥٥ — ٥٧ . وفى لوزان ذاتها اشترى (يونيو ١٧٥٧) على نهر جران شين « بيتاً لو كان فى إيطاليا لسمى قصراً » له خمس عشرة نافذة تطل على البحيرة . » هناك ودون أى معارضة من رجال الدين أخرج تمثيليات أكثرها من تأليفه . وكتب يقول « إن الهدوء شىء جميل . ولكن الملل ينتمى إلى نفس الأسرة . ولكى أرد عنى هذا القريب القبيح أقمت مسرحاً » . [٤] .

وهكذا ، فى غدوة ورواحه ، بين جنيف ولوزان عرف سويسرة .

٢ — المقاطعات السويسرية (الكانتونات) :

فى ١٧٤٢ تساءل صموئيل جونسن « بأى سياسة عجيبة ، أو بأى توافق سعيد بين المصالح ، أمكن تجنب الفتن العنيفة فى دولة تتألف من شتى

---

(١) هو الآن (١٩٦٥) متحف للفن ، يضم مخلفات صغيرة لفولتير .

المجتمعات ومختلف الأديان ، رغم أن فى أهلها من الولع بالحرب ما يجعل من تقرير تجريد جيش ومن حشده شيئاً واحداً ؟ (*) .

هذا المركب الغريب من ثلاثة شعوب ، وأربع لغات ، ومذهبين ، ظل فى سلام مع العالم الخارجى منذ ١٥١٥ . فبمقتضى ضرب من الميثاق المبرم بين اللصوص أمسكت الدول عن مهاجمته ، ولقد كان مطمعاً غاية فى الصغر (بلغ ٢٢٧ ميلا فى أقصى طوله ، و ١٣٧ فى أقصى عرضه) فقيراً جداً فى موارده الطبيعية ، شديد الوعورة فى أرضه ، اتصف أهله بشجاعة تثبط همة المعتدى . واستمر السويسريون ينجبون خيرة الجنود فى أوربا ، ولكن الاحتفاظ بهم كان غالى الكلفة ، لذلك كانوا يؤجرون لشتى الحكومات بسعر معلوم للجندى . وفى ١٧٤٨ كان هنالك ستون ألفاً من هؤلاء الجنود « الجوالين » فى خدمة الدول الأجنبية . وقد أصبحوا فى بعضها جزءاً دائماً من المؤسسة العسكرية ؛ وكانوا أحب الحرس للبابوات والملوك الفرنسيين وأحوزهم لثقتهم ؛ والعالم كله يعرف كيف قضى الحرس السويسرى لآخر رجل منهم دفاعاً عن لويس السادس عشر فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ .

وفى ١٧١٥ كانت ثلاث عشرة مقاطعة تؤلف الاتحاد السويسرى : أبنتسيل ، وبازل ، وجلاروز ، وشافهاوزن ، وزيورخ — وكانت فى أغلبها ألمانية وبروتستنتية ؛ ثم لوسرن ، وشفيتس ، وزولوتورن ، وأونترفالدن ، وأورى ، وبتسوج — وكلها ألمانية وكاثوليكية ، ثم برن ، وكانت ألمانية وفرنسية ، بروتستنتيةوكاثوليكية ؛ ثم فريبورج ، وكانتفرنسية وكاثوليكيو. وفى ١٨٠٣ ضم الاتحاد إليه مقاطعات أراجاو ، وسانت جالين ، وتورجاو (ألمانية وبروتستنتية) ، وتيتشينو (إيطالية وكاثوليكية) ، وڤو (فرنسية وبروتستنتية) . وفى ١٨١٥ أضيفت ثلاث مقاطعات جديدة هى جنيف (فرنسية وبروتستنتية تنقلب الآن كاثوليكية بسرعة) ، وڤاليه (فرنسية ، وألمانية ، وكاثوليكية) والإقليم المعروف للفرنسيين باسم جريزون وللألمان باسم جراوبوندن تغلب عليه البروتستنتية ، ويتكلم الألمانية أو الرومانش ، وهى لاتينية أثرية .

وكانت سويسرة جمهورية النظام ، ولكنها لم تكن ديمقراطية بمعناها المعروف ، ففى كل مقاطعة تنتخب أقلية من السكان الذكور البالغين ، الذين ينتمون عادة للأسر العريقة ، مجلساً كبيراً أو « مجلساً عاماً » يتألف من نحو مائتى عضو ، ومجلساً صغيراً يتألف من أربعة وعشرين إلى أربعة وستين عضواً . وكان المجلس الصغير يعين مجلساً خاصاً أصغر منه وعمدة وهو أكبر موظفى المقاطعة . ولم يكن هناك فصل للسلطات ، فالمجلس الصغير هو أيضاً المحكمة العليا . وقصرت المقاطعات الريفية (وهى أورى ، وشفيتس ، وأونتفالدن ، وجلاروز ، وتسوج وأبنتسيل) حق الانتخاب على الأسر الوطنية ، أما غيرها من المقيمين بها ، مهما طال مقامهم ، فيحكمون بوصفهم طبقة تابعة .[٦] ومثل هذه الأولجركيات كانت شائعة فى سويسرة . فلوسرن مثلا قصرت صلاحية التعيين فى الوظائف الحكومية على تسع وعشرين أسرة ، ولم تسمح لأسرة جديدة بدخول هذه الدائرة إلا إذا انقرضت إحدى الأسر القديمة .[٧] وفى برن كانت ٢٤٣ أسرة صالحة للتعيين فى الوظائف ، ولكن نحو ثمان وستين منها فقط هى التى تقلدت المناصب بصفة دائمة . وفى ١٧٨٩ لاحظ المؤرخ الروسى نيكولاى كارامزين أن مواطنى زيورخ « يفخرون بلقبهم فخر ملك بتاجه » لأن « أحداً من الأجانب لم يحصل على حق المواطنة منذ نيف و ١٥٠ سنة . »[٨] (وعلينا أن نذكر أنفسنا بأن كل الديمقراطيات تقريباً أو الأولجركيات ، لأن الأقليات يمكن تنظيمها للحركة والسلطة ، أما الأغلبيات فلا) .

وكان فى حكومة المقاطعة نزوع إلى النظام الأبوى الذى يتطلب الطاعة لأولى الأمر . مثال ذلك أن المجالس فى زيورخ أصدرت القوانين المنظمة للأكل ، والشرب ، والتدخين . وقيادة العربات ، وحفلات الزفاف ، واللباس ، والتزين ، وقص الشعر ، وأجور العمل ، ونوعية المنتجات ، وأسعار الضروريات ، وكانت هذه الأوامر من مخلفات القوانين البيئية أو النقابية القديمة ، والواقع أن « معلمى » النقابات الحرفية الاثنى عشرة فى زيورخ كانوا يكتسبون عضوية المجلس الصغير تلقائياً ، بمعنى أن هذه المقاطعة كانت إلى حد كبير دولة نقابية . وقد كتب جوته فى أخريات القرن

أن شواطىء بحيرة زيورخ تعطى « فكرة جذابة مثالية عن أروع وأسمى حضارة » . [٩]

أما « مدينة وجمهورية » برن فكانت أكبر وأقوى المقاطعات . فهى تضم ثلث سويسرة ، وتتمتع بأغنى اقتصاد ، وحكومتها محط الإعجاب عموماً لما تتميز به من تدبير وكفاية ؛ وقد شبهها مونتسكيو بروما فى أزهى عصور الجمهورية . أما وليم كوكس ، وهو قسيس بريطانى ومؤرخ عالم ، فقد وصف المدينة كما رآها فى ١٦ سبتمبر ١٧٧٩ بهذه العبارات :

حين دخلت برن أدهشنى ما تميزت به من نظافة وجمال . شوارعها الرئيسية عريضة طويلة ، ليست مستقيمة ، بل منعطفة انعطافاً هينا ، وتكاد بيوتها تكون متماثلة ، وهى مبنية بحجر تغلب عليه الشهبة ومن تحتها البواكى . ويجرى وسط الشوارع نهر نشيط ، ماؤه شديد الصفاء ، فى مجرى صخرى ، وهناك نافورات عديدة تضفى على المدينة جمالا يعدل نفعها لأهلها . ويكاد نهر آر يحيط بالمدينة ، إذ يلتف مجراه فوق قاع صخرى أوطا كثيراً من مستوى الشوارع .. والريف المجاور غنى بالزرع ، فيه تنويع لطيف من تلال ومروج وغابات ومياه .. وترسم على الأفق البعيد سلسلة شديدة الانحدار من جبال الألب الوعرة المكللة بالثلوج . [١٠] » .

أما الخطأ الفادح الذى ارتكبه نبلاء برن فى معاملتهم لمقاطعة فو . فهذا الفردوس الأرضى كان يمتد بحذاء الضفة السويسرية لبحيرة جنيف من أرباض مدينة جنيف حتى لوزان (العاصمة) ويصل شمالا إلى بحيرة نيوشاتل . على هذه الضفاف الجميلة والتلال الزاخرة بالكروم استمتع فولتير وجيبون بحياة غاية فى التحضر ، وشب روسو وتعذب ، واختار بيت جولى الفاضل (فى كلارنس ، قرب فيفى) . وقد خضع الإقليم لسيادة برن فى ١٥٣٦ ، ففقد مواطنوه حقهم فى تقلد المناصب الحكومية ، واشتد تبرمهم بالحكم البعيد عنهم ، وتكررت ثوراتهم دون جدوى .

وكانت المقاطعات شديدة الحرص على استقلالها الذاتى . كل منها تعتبر نفسها دولة ذات سيادة ، لها الحرية فى خوض الحرب أو إبرام الصلح

أو الدخول فى أحلاف أجنبية ، مثال ذلك أن المقاطعات الكاثوليكية ارتبطت بفرنسا طوال حكم لويس الخامس عشر . ورغبة فى التخفيف من الصراع بين المقاطعات كانت كل منها ترسل مندوبين عنها إلى مجلس سويسرى (ديت) ينعقد فى زيورخ . ولكن هذا المجلس الاتحادى (الكونجرس) كانت سلطاته محدودة جداً ، فهو لا يستطيع فرض قراراته على أى مقاطعة ترفضها . ويجب أن توافق جميع المقاطعات على هذه القرارات لكى تكون قانونية . وكانت حرية التجارة مقبولة من حيث المبدأ ، ولكن حروب المكوس بين المقاطعات انتهكت هذا المبدأ . ولم تكن هناك عملة مشتركة ، ولا إدارة مشتركة للطرق التى تربط المقاطعات .

على أن الحياة الاقتصادية زكت رغم العوائق الطبيعية والحواجز التشريعية. وكان رق الأرض قد زال فى بضع مناطق على الحدود الألمانية أو النمساوية ، فملك الفلاحون كلهم تقريباً الأرض التى يزرعونها . وكان الفلاحون فقراء فى « مقاطعات الغابات » (وهى أورى ، وشفايتس ، وأونتر فالدن ، ولوسرن) وذلك لظروف جغرافية ؛ أما حول زيورخ فازدهرت أحوالهم ، وفى برن جمع العديد من الفلاحين ثروات بالفلاحة التى اتسمت بالعناية والمثابرة . وقد اضطر كثير من السويسريين إلى الجمع بين الزراعة والصناعة لطول الشتاء وصعوبة النقل ؛ فالأسرة التى تغزل القطن أو تصنع الساعات تزرع الحدائق أو تغرس الكروم . واشتهرت فريبورج بجبنها الجروبير (جرافيرا) ، وزيورخ بدنتلتها ، وسانت جالين بقطنها ، وجنيف بالساعات ، ونيوشاتل بالدنتيللا ، وسويسرة كلها بالأنبذة . وكانت المالية السويسرية حتى فى ذلك الحين مثار حسد أوربا ، والتجار السويسريون نشيطين فى كل بلد . وأثرت بازل من الاتجار مع فرنسا وألمانيا ، وزيورخ من الاتجار مع ألمانيا والنمسا . ونافست بازل وجنيف ولوزان ، أمستردام ولاهاى مراكز للنشر . وبعد أن أشاد هاللر وروسو بجمال البحيرات السويسرية المتألق وجلال الألب السويسرية المهيب ، أمدت السياحة الاقتصاد الاتحادى بدعم متزايد .

أما مستوى الأخلاق فلعلة كان فى سويسرة أرقى منه فى أى بلد آخر باستثناء اسكندناوة ، حيث أنتجت الظروف المماثلة نتائج مماثلة . فكانت أسرة الفلاح مثالا للجد ، والعفة ، والوحدة ، والتدبير . وكان فى المدن بعض الفساد فى السياسة وبيع المناصب ، ولكن حتى فى هذه الأماكن أعانت الخشونة التى ولدها المناخ القاسى ، والإقليم الجبلى ، والآداب البروتستنتية ، على الاستقرار الخلقى . وكان اللباس محتشما سواء عند الأغنياء أو الفقراء . وظلت قوانين الإنفاق صارمة مرعية الجانب فى سويسرة (١١) .

أما الدين فكان نصف الحكم ونصف الصراع . فالحضور إلى الكنيسة إجبارى ، والمدن من الصغر بحيث يستحيل على الخوارج المتمردين أن يجدوا ملاذاً لهم فى زحمة الجماهير . ويوم الأحد يوم تعبد لاهوادة فيه ، ويروى إن الحانات فى زيورخ كانت تهتز بالمزامير ترتل فيها فى يوم الرب (١٢) . ولكن المذهبين المتنافسين — الكلفنى والكاثوليكى — ضربا أسوأ أمثلة السلوك ، لأنهما أطلقا العنان للحقد والكراهية وقيدا العقل بالأغلال . وحظرت بعض المقاطعات الكاثوليكية كل عبارة إلا الكاثوليكية . وبعض المقاطعات البروتستنتية كل عبادة إلا البروستنتية . (١٣) وحرم القانون الخروج على الكنيسة الرسمية وتأليف مذاهب مستقلة . وفى لوسرن عذب ياكوب شمدلن فى ١٧٤٧ ثم شنق لمحاولته تنظيم حركة « تقوية » مستقلة عن الكنيسة . وكان حلف يمين الالتزام بالكلفنية شرطاً لشغل المناصب السياسية أو الكنسية أو التعليمية فى المقاطعات البروتستنتية . (١٤) وفرضت الكنيسة والدولة رقابة شديدة على المطبوعات . وفى مقاطعات الغابات تضافر فقر الفلاحين ، والعواصف ، وانزلاقات الأرض ، وانهيارات الثلوج ، وآفات الزرع ، والفيضانات ، والرهبة من الجبال المحيطة بالسكان — كلها اجتمعت لتولد فيهم خوفاً خرافياً من الأرواح الشريرة الساكنة فى القمم المحلقة والرياح المدومة . ولكى يقهر الفلاحون المكروبون أعداءهم الخارقين للطبيعة كانوا يتوسلون إلى قساوستهم أن يخرجوا الأرواح النجسة ويمنحوا قطعانهم البركة فى مراسم دينية . وقد انتهى حرق المتهمين بالسحر فى جنيف عام ١٦٥٢ ،

وفى برن عام ١٦٨٠ ، وفى زيورخ عام ١٧٠١ ، وفى المقاطعات الكاثوليكية عام ١٧٥٢ ، ولكن امرأة فى جلاروز قطع رأسها عام ١٧٨٢ وكانت تهمتها أنها سحرت طفلا .[١٥]

وانبثق النور وسط هذه الظلمة بفضل المدارس الحكومية والمكتبات العامة . وكانت جامعة بازل تعانى اضمحلالا من جراء التعصب الدينى ، فلم تكد تقدر منجزات يوهان وياكوب ودانيل برنوللى ، وأكرهت ليونارد أويلر على الهروب إلى قاعات أكثر سماحة لضيوفها . ولكن سويسرة رغم هذا أنجبت الأدباء والشعراء والعلماء فى تناسب كامل مع عدد سكانها ؛ وقد ذكرنا من قبل العالمين الزيورخيين يوهان ياكوب بودمير ويوهان ياكوب برايتنجر ، وقد كان لهما أثر دائم على الأدب الألمانى لأنهما عارضا إعجاب جوتشيد المفرط ببوالو والأشكال الكلاسيكية ، ودافعا عن حقوق الوجدان ، والعناصر الغيبية ، بل اللامعقولة ، فى الأدب والحياة ؛ وأشادا بالشعر الإنجليزى وفضلاه على الفرنسى ، وقدما شيكسبير وملتن لقراء الألمانية ، وبعثا الأغانى القديمة (١٧٥١) وشعراء العصر الوسيط الغنائيين الألمان minnesingers وانتقل مذهبهم إلى ليسنج ، وكلوبشتوك ، وشيلر ، والشاب جوته ، وفتح الطريق للحركة الرومانسية فى ألمانيا ولإحياء الاهتمام بالعصور الوسطى . وسار على هذا الدرب شاعر زيورخى يدعى سالومون جسنر ، وأصدر قصائد « رعوية » (١٧٥٦) فيها من فتنة الريف ما جعل أوربا بأسرها تترجمها ، وشعراء مثل فيلاند وجوته يحجون إلى بيته .

وأنبه سويسرى فى القرن الثامن عشر ذكراً بعد جان جاك روسو هو البريشت فون هاللر البرنى ، أعظم الشعراء والعلماء فى بلده وعصره . درس فى برن ، وتوبنجن ، وليدن ، ولندن ، وباريس ، وبازل ، القانون والطب والفسيولجيا والنبات والرياضة . فلما عاد إلى برن اكتشف جبال الألب . وأحس بجمالها وجلال خطوطها ، فتدفق شعراً . وأصدر وهو بعد فى الحادية والعشرين (١٧٢٩) مجلداً من الشعر الغنائى سماه « الألب » ذهب كوكس المتحمس له إلى أنه شامخ خالد كالجبال التى يتغنى بها .[١٦] وكان الكتاب

سبقاً لروسو فى كل شىء تقريباً . دعا العالم للاعجاب بجبال الألب لما فيها من علو شاهق ملهم وشهادة بعظمة الله ؛ وأزرى بالمدن لأنها أوكار للترف والكفر تفضى إلى انحلال الجسم والخلق . وأشاد بالفلاحين وأهل الجبال لصلابة عودهم ومتانة أيمانهم واعتدال عاداتهم . وأهاب بالرجال والنساء والأطفال أن يتركوا المدن ويخرجوا ليعيشوا فى الخلاء عيشة أبسط وأعقل وأصح .

ولكن علم هاللر هو الذى أذاع شهرته فى أوربا . ففى ١٧٣٦ عرض علية جورج الثانى أستاذية النبات والطب والجراحة فى جامعة جوتنجن . وهناك ظل يدرس سبعة عشر عاماً ، بكفاية حملت أكسفورد وهاللى على دعوته ، وأراده فردريك الأكبر أن يخلف موبرتوى عميداً لأكاديمية برلين ، وحاولت كاترين الثانية إغراءه بالذهاب إلى سانت بطرسبورج وأرادت جوتنجن أن تعينه عميداً لها . ولكنه بدلا من هذا كله قفل إلى برن واشتغل طبيباً ، واقتصادياً ، ورئيساً لمقاطعته ، وعكف فى مثابرة وجد على رائعة من روائع القرن العلمية هو كتابه « الأصول الفسيولوجية لجسم الإنسان » الذى سنلتقى به ثانية فى مكان لاحق .

وظل طوال هذه السنين . وطوال اشتغاله بهذه العلوم ، محتفظاً بنقاء صادق فى عقيدته الدينية ونزاهة صارمة فى أخلاقه . فلما قدم فولتير ليعيش فى سويسره خيل لهاللر أن الشيطان رفع رايته فوق جنيف ولوزان . وقد زار كازانوفا كلا من هاللر وفولتير فى ١٧٦٠ ، وكان ينافس هاللر فى تذوقه للجمال . فلنستمتع مرة أخرى برواية كازانوفا لمغامرته المزدوجة :

كان هاللر رجلا كبير الجسم والعقل ، طوله ستة أقدام ، عريضاً فى أبعاده — فهو عملاق فى الجسم والعقل . وقد هش للقائى كثيراً ، وفتح لى عقله ، وأجاب عن كل أسئلتى فى دقة وتواضع ... فلما أخبرته أننى أتطلع إلى لقاء المسيو فولتير ، قال إنى محق تماماً فى تطلعى هذا ، وأضاف دون مرارة « أن المسيو فولتير رجل يستحق أن يعرفه المرء ، رغم أن كثيراً من الناس وجدوه أعظم عن بعد ، وهذا يناقض قوانين الفيزياء . »

وبعد بضعة أيام زار كازانوفا فولتير في فيلته المباهج » : قلت له : مسيو فولتير . هذا اليوم مفخرة حياتى الكبرى . لقد كنت تلميذك طوال عشرين عاماً . وإن قلبي ليطرب لرؤية معلمي .

وسألني من أين جئت .

قلت « من روش . إنني لم أرد أن أبرح سويسرة دون أن أرى هاللر .. ولقد احتفظت بك كأنك النقل أختم به طعامى . »

« هل سررت من هاللر ؟ » .

« لقد أنفقت معه ثلاثة من أسعد أيام حياتى . »

« إنى أهنئك »

« يسرنى أنك تنصفه . ويؤسفنى أنه لا ينصفك إنصافك إياه » . »

« أها ! ربما كان كلانا مخطئاً . » [17]

وفى ١٧٧٥ . نشر هاللر آخر كتبه وكأنه يذيع على العالم كلمته الأخيرة ، واسم الكتاب « رسائل تتناول عدة محاولات أخيرة للفكر الحر .. ضد الوحى» ، وهو محاولة جادة لمعارضة كتاب فولتير « أسئلة فى الموسوعة . » وكتب رسالة مؤثرة للزنديق الرهيب . دعاه (وهو فى الحادية والثمانين) إلى أن يستعيد « تلك السكينة التى تهرب حين تدنو العبقرية » ، ولكنها تقبل على الإيمان الواثق ، « عندها سيكون أشهر رجل فى أوربا أسعدهم كذلك » . [18] على أن هاللر نفسه لم يظفر بهذه السكينة قط . فقد كان برما فى المرض لفرط إحساسه بالألم «كان فى سنواته الأخيرة يدمن تعاطى الأفيون الذى لم يكن له من أثر إلا زيادة ضجره الفطرى لأنه لم يكن سوى ملطف وقتى لألمه » . [19] وكان يعانى من خوف الجحيم . ويلوم نفسه على فرط ما بذل « لنباتاتى وغيرها من الحماقات . » [20] وقد أدرك السكينة فى ١٢ ديسمبر ١٧٧٧ .

٣ — جنيف :

لم تكن جنيف فى هذا القرن مقاطعة داخلة فى الاتحاد ، بل جمهورية قائمة بذاتها — المدينة وما وراء البحيرة — تتكلم الفرنسية وتدين بالمذهب

الكلفني . وقد وصفها دالامبير فى مقاله عنها فى « الموسوعة » وصف معجب بها كما رآها فى ١٧٥٦ :

من العجيب أن مدينة لا يزيد سكانها على ٢٤،٠٠٠ نسمة وتشمل رقعتها أقل من ثلاثين قرية ، قد حافظت على استقلالها ، وهى من أكثر المجتمعات ازدهاراً فى أوربا . وهى فى غناها بحريتها وتجارتها ترى كل ما حولها يشتعل دون أن يمسها من ذلك أذى . فالأزمات التى تضطرب بها أوربا ليست بالنسبة لها غير مشهد تتفرج عليه دون أن تشارك فيه . وهى مع ارتباطها بفرنسا برباط الحرية والتجارة ، وبانجلتره برباط التجارة والمذهب الدينى ، تبدى رأيها بإنصاف فى الحروب التى تخوضها هاتان الأمتان الواحدة ضد الأخرى ، ولكنها أحكم من أن تنحاز لأحداهما . وهى تصدر حكمها على جميع ملوك أوربا دون تملق ، أو إساءة ، أو خشية . (٢١)

وكانت هجرة الهيجونوت من فرنسا نعمة على جنيف ، لأنهم جلبوا إليها مدخراتهم ومهاراتهم ، وجعلوا المدينة عاصمة صناعة الساعات فى العالم بأسره . وقد قدرت مدام دبينيه عدد المشتغلين بتجارة المجوهرات بستة آلاف . (٢٢) فأصبح جاك نكير وزيراً لمالية لويس السادس عشر ، وألبير جالاتان وزيراً لخزانة الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد الرئيس جفرسن .

وكان الحكم فى جنيف امتيازاً طبقياً شأنه فى كل المقاطعات . فلا يقبل فى الوظائف العامة غير السكان الذكور الذين ولدوا فى جنيف لآباء وأجداد مواطنين . وتلى طبقة الأشراف هذه طبقة البورجوازية من أرباب الصناعات ، والتجار ، وأصحاب الحوانيت ومعلمى الحرف . وأعضاء المهن . وكان الأشراف والبورجوازيون ، الذين قل أن جاوز عددهم ألفاً وخمسمائة ، (٢٣) يجتمعون كل سنة فى كتدرائية القديس بطرس لينتخبوا « مجلساً كبيراً » من مائتى عضو « ومجلساً صغيراً » من خمسة وعشرين عضواً . ويختار المجلسان أربعة مأمورين ، كل منهم لعام واحد ، رؤساء تنفيذيين للدولة . وهناك طبقة ثالثة مجردة من حق الانتخاب . هم « المستوطنون » المنحدرون من آباء أجانب ، وطبقة رابعة هم « الأهالى » المولودون فى جنيف لجنيفيين

غير وطنيين . هؤلاء « الأهالى » الذين ألفوا ثلاثة أرباع السكان لم يكن لهم من الحقوق المدنية غير دفع الضرائب ، فهم لا يستطيعون الاشتغال بالأعمال التجارية أو المهن ولا بوظائف الجيش أو برآسة حرفة فى نقابة . ولقد دار التاريخ السياسى لهذه الجمهورية حول صراع البورجوازيين للحصول على حق شغل وظائف الدولة ، وصراع الطبقتين الدينيتين للحصول على حق التصويت . وفى ١٧٣٧ امتشق مواطنو المدينة الحسام ليقاتلوا طبقة الأشراف ، وأكرهوها على قبول دستور جديد يقضى لجميع الناخبين بالحق فى أن ينتخبوا أعضاء فى المجلس الكبير . ولهذا المجلس حق إصدار القرارات النهائية فى مسائل الحرب والسلم ، والأحلاف والضرائب ، وإن كان التشريع لا يقدم إلا من المجلس الصغير ، أما « الأهالى » فقد سمح لهم بالاشتغال ببعض المهن مع بقائهم محرومين من التصويت . وظلت الحكومة أو ليجاركية ، ولكنها كانت تدار بكفاية ، ومحصنة نسبياً ضد الفساد .

وكان يلى طبقة الأشراف فى النفوذ مجمع القساوسة الكلفينين . فقد نظم هذا المجمع شئون التعليم ، والأخلاق ، والزواج ، ولم يسمح بأى تدخل فى سلطته من السلطة العلمانية . ولم يكن هنا أساقفة ولا رهبان . وقد أشاد الفيلسوف دالامبير بفضائل الاكليروس الجنيفى ووصف المدينة بأنها أشبه بجزيرة من الأدب والعفة ، رآها النقيض للفوضى الخلقية التى فشت بين فرنسيي الطبقة العليا . أما مدام دبينيه فبعد أن مارست العديد من العلاقات الغرامية ، امتدحت « العادات الصارمة ... لشعب حر ، هو عدو للترف . (٢٤)

ولكن رجال الدين زعموا أن شباب جنيف يفسد فى الكباريهات ، وأن الصلوات العائلية تتقلص ، وأن الناس يثرثرون فى الكنيسة ، وأن بعض المصلين المتواجدين فى المؤخرة يأخذون أنفاساً من «بيباتهم» ليستعينوا بها على ابتلاع العظة . (٢٥) وشكا الوعاظ من عجزهم عن توقيع العقوبات إلا الروحى منها ، ومن إغفال تحذيراتهم وإنذاراتهم إغفالا متزايداً .

وقد أبهج فولتير أن يجد العديد من رجال الدين الجنيفيين متقدمين نوعاً ما فى لاهوتهم . فقد أتوا ليستمتعوا بضيافته فى فيللا المباهج ، واعترفوا له سراً

بأنهم لا يحتفظون من عقيدة كلفن القائمة إلا بالقليل . وقد أشار أحدهم ، وهو جاك فيرن ، فى كتابه « التعليم المسيحى » (١٧٥٤) بأن يبنى الدين على العقل حين يخاطب الكبار ، أما « عامة الناس ... فمن المفيد أن تشرح لهم هذه الحقائق ببعض الطرق الشعبية ببراهين تصلح ... لإحداث أثر أكبر فى عقول الجماهير . »[٢٦] وكتب فولتير إلى سيدفيل (١٢ ابريل ١٧٥٦) يقول : « لم تعد جنيف هى جنيف كلفن – بل على العكس ، فهى بلد يحفل بالفلاسفة . و « المسيحية المعقولة » التى نادى منها لوك هى دين كل القساوسة تقريباً ، وعبادة كائن أعلى عبادة مقترنة بنسق أخلاق ، هى دين كل القضاة تقريباً.[٢٧] وأضاف فولتير إلى تنديده بدور كلفن فى إعدام سرفيتوس العبارة الآتية : فى « مقال عن الأعراف » (١٧٥٦) .

« يبدو أن ترضية تقدم اليوم لرماد سرفيتوس . فإن رعاة الكنائس البروتستنتية المثقفين . قد اعتنقوا آراءه (التوحيدية) . »[٢٨] .

أما دالامبير ، فبعد أن زار جنيف وبيت فولتير (١٧٥٦) ، وبعد أن تحدث إلى بعض القساوسة ، وتبادل الرأى مع فولتير ، كتب للمجلد السابع (١٧٥٧) من الموسوعة مقالا عن جنيف أثنى فيه على تحرر إكليروسها فقال :

« إن العديدين منهم لا يؤمنون بلاهوت المسيح الذى كان زعيمهم كلفن شديد الغيرة فى الدفاع عنه والذى أمر بسببه بحرق سرفيتوس .. وجهنم التى هى أحد أركان إيماننا لم تعد كذلك عند الكثيرين من قساوسة جنيف . فهم يقولون أن من الإهانة لله أن نتصور أن هذا الكائن الذى يفيض طيبة وعدلا فى طاقته أن يعاقب أخطاءنا بألوان من العذاب الأبدى ... وهم يعتقدون أن هناك عقوبات فى حياة أخرى ، ولكنها مؤقتة . فالمطهر الذى كان من أهم أسباب انفصال البروتستنت عن كنيسة روما ، هو اليوم العقاب الوحيد الذى يسلم به كثير منهم للخاطىء بعد موته . وهذه لمسة جديدة تضاف إلى تاريخ تناقضات البشر .

والخلاصة أن الكثير من رعاة جنيف لا يدينون بغير السوسنيانية الخالصة ، ويرفضون كل ما يسمى أسراراً ، ويتصورون أن أول مبدأ للدين الحق هو

ألا يطلب إلى الناس الإيمان بشيء يناقض العقل ... وهكذا نرى من الناحية العملية أن الدين اختزل إلى عبادة إله واحد ، على الأقل بين جميع الذين لا ينتمون إلى طبقات العوام . » [٢٩] .

فلما قرأ رجال الدين الجنيفيون هذا المقال انزعجوا كلهم — المحافظون منهم لوجود أمثال هؤلاء المهرطقين على المنابر الكلفنية ، والمتحررون لفضح هرطقاتهم الخاصة على هذا النحو . وقامت لجنة بفحص الرعاة المشبوهين فأنكروا بشدة مزاعم دالامبير ، وأصدرت اللجنة تأكيداً رسمياً جديداً للسنية الكلفنية . [٣٠]

على أن كلفن نفسه كان من بواعث هذه الاستنارة الشائنة التي أطراها دالامبير ، لأن الأكاديمية التي أسسها أصبحت الآن من أروع المؤسسات التعليمية في أوربا . لقد علمت طلابها المذهب الكلفني ، ولكنها لم تغل في تعليمه ، وزودتهم بدراسات ممتازة في الأدب الكلاسيكي ، وأعدت معلمين أكفاء لمدارس جنيف — وتحملت الدولة جميع النفقات . وأعارت مكتبة تضم ٢٥,٠٠٠ مجلد الكتب للجماهير . وقد وجد دالامبير « الشعب أفضل تعلما منه في أي بلد آخر . » [٣١]

وأدهش كوكس أن يسمع تجاراً يناقشون الأدب والسياسة بذكاء . وفي هذا القرن أسهمت جنيف في العلوم بمنجزات شارل بونيه في الفسيولوجيا وعلم النفس ، ومنجزات أوراس دسوسير في الأرصاد الجوية والجيولجيا . أما في الفن فقد أعطت العالم فنانها جان إتين ليوتار ، بكل ما في كلمة العطاء من معنى . ذهب إلى روما بعد أن درس في جنيف وباريس ، فصور هناك البابا كلمنت الثاني عشر وكرادلة كثيرين . ثم إلى الآستانة حيث عاش وعمل خمس سنوات . ثم إلى فيينا ، وباريس ، وانجلتره ، وهولنده ، حيث كسب قوته من صنع اللوحات الشخصية ، والصور بالباستل ، وبالمينا ، وبالمحفورات والصور على الزجاج . وقد رسم صورة أمينة غاية الأمانة لنفسه في شيخوخته [٣٢] ظهر فيها أقرب من فولتير إلى القردة العليا .

أما فى ميدان الأدب فلم توفق جنيف توفيقاً يذكر . ذلك أن الرقابة اليقظة على المطبوعات خنقت الطموح والأصالة الأدبيين . فحظرت الدراما باعتبارها مباءة للفضائح . وحين أخرج فولتير مسرحيته « زائير » أول مرة فى ١٧٥٥ فى قاعة الاستقبال بفيللا دليس ، تذمر رجال الدين ، ولكنهم تسامحوا فى الجريمة باعتبارها عيباً خاصاً فى ضيف كبير . ولكن حين نظم فولتير فرقة من الممثلين من شباب جنيف ، وعرض سلسلة من التمثيليات ، طالب المجمع الكنسى (٣١ يوليو ١٧٥٢) المجلس الكبير بتطبيق مراسيم ١٧٣٢ و ١٧٣٩ التى تحظر كل عروض للمسرحيات عامة كانت أو خاصة ، وأمر الرعاة بمنع رعاياهم من « تمثيل أدوار فى المآسى ببيت السيد دفولتير .» وأعلن فولتير توبته ، ولكنه أخرج المسرحيات فى بيته الشتوى بلوزان . ولعله هو الذى أوعز لدالامبير بأن يضمن المقال المذكور الذى كتبه عن جنيف نداء لرفع هذا الحظر :

ليس السبب استهجان جنيف للمسرحيات فى ذاتها ، بل لأنها (كما يقولون) تخشى الميل إلى التبرج . والانحلال ، والأباحية التى تنشرها الفرق المسرحية بين الشباب ، ومع ذلك ، أليس فى الإمكان علاج هذه المساوىء بقوانين صارمة مرعية التنفيذ ؟ ... إن الأدب فى هذه الحالة سينهض دون أن يزيد الرذيلة وستجمع جنيف بين حكمة إسبرطة وثقافة أثينا .

ولم يستجب المجمع الكنسى لهذا النداء ، ولكن جان جاك روسو رد عليه (كما سنرى) فى خطابه المشهور « خطاب إلى مسيو دالامبير عن المسرحيات » (١٧٥٨) . وبعد أن اشترى فولتير إقطاعة فيرنيه تخطى الحظر ببناء مسرح فى شاتلين ، على أرض فرنسية ولكن بجوار حدود جنيف . هناك أخرج التمثيليات ، واستقدم لحفلة الافتتاح أكبر ممثلى باريس ، هنرى لوى لوكان . وحظر رعاة جنيف حضور التمثيليات ، ولكن الحفلات وجدت إقبالا شديداً من الجماهير حتى أن قاع المسرح كان يغص بالنظارة قبل بدء البرنامج بساعات فى هذه المناسبات ، حين يكون مقرراً أن يظهر لوكان على المسرح . وكسب المقاتل العجوز آخر الأمر معركته ، ففى ١٧٦٦ أنهى المجلس الكبير حظر جنيف للتمثيليات .

٤ - التاريخ الجديد :

وصف شاهد عيان حضر أداء لوكان دوره فى مسرحية فولتير « سميراميس » ظهور المؤلف فى المسرح فقال :

كان فولتير نفسه جزءاً لا يستهان به فى العرض ، وهو جالس فى صدر بنوار أول ، فى مواجهة جميع النظارة ، يصفق كمن به مس ، مبدياً استحسانه تارة بعصاه وتارة بعبارات الإعجاب « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! آه ، رباه ، ماكان أروع تمثيل هذا الجزء ! » ... وبلغ من عجزه عن السيطرة على حماسته أنه ما إن ترك لوكان خشبة المسرح ... حتى جرى خلفه ... ولا يمكن تصور مفارقة أدعى للضحك من هذه ، فقد أشبه فولتير واحداً من شيوخ الكوميديا - بجواربه المطوية على ركبتيه ، والزى الذى يرتديه - زى « أيام زمان الحلوة » وهو لا يتماسك فوق ساقيه المرتعشتين إلا بالتوكؤ على عصاه ، وكل أمارات الشيخوخة مرتسمة على محياه ، فحذاه غائران متغضنان ، وأنفه مستطيل ، وعيناه أوشكتا أن ينطفىء بريقهما »[٣٣] .

وبين المسرحيات والسياسة ، والزوار ، وفلاحة حديقته ، وجد متسعاً من الوقت ليكمل فى فيلته « دليس » عملين كبيرين وينشرهما . وقد ساءت سمعة الأول لما قيل عن خروجه عن اللياقة ، أما الثانى فقد فتح عهداً جديداً فى كتابة التاريخ .

كان يحتفظ بقصيدته « لابوسيل » منذ ١٧٣٠ باعتبارها ترفيهاً أدبياً . ويبدو أنه لم يكن فى نيته أن ينشرها ، لأنها لم تكتف بالتهكم بعذراء أورليان (جان دارك) البطلة ، بل هاجمت عقيدة الكنيسة الكاثوليكية ، وجرائمها ، وشعائرها ، وأخبارها . وأضاف الأصدقاء والأعداء إلى مخطوطاتها المتداولة بينهم نتفاً فيها من البذاءة والمرح ماكان حتى فولتير ليكتبه . والآن ، فى ١٧٥٥ ، بعد أن وجد الهدوء والسلام فى جنيف ، ظهرت فى بازل طبعة مسروقة من القصيدة . فحرمها البابا ، وأحرقها برلمان باريس ، وصادرتها شرطة جنيف ، وزج بناشر باريسى فى سفينة الأسرى والعبيد لأنه أعاد إصدارها فى ١٧٥٧ . وقد أنكر فولتير أنه كاتبها ، وأرسل إلى ريشليو ، ومدام بومبادور ، وبعض موظفى الحكومة ، نسخاً من نص مهذب نسبياً ، وفى ١٧٦٢ نشر هذا النص ،

فلم يناكده أحد بسببه . وحاول أن يكفر عن اساءته لجان دارك بتصويرها صورة أكثر انصافاً وجداً فى كتابه « مقال عن الاعراف » [٣٤] .

وقد قصد بهذا المقال أن يكون رائعته الكبرى ، وكان أيضاً — بمعنى من المعانى — أثراً يخلد العشيقة التى استعاد ذكراها . ذلك أنه تقبل الاحتقار الذى صبته مدام دشاتليه على من عرفت من مؤرخين محدثين على أنه تحد له : قالت « ماذا يهمنى ، أنا المرأة الفرنسية التى تسكن ضيعتها هذه أن أعرف أن ايجل خلف هاكون على عرش السويد ، وأن عثمان كان ابن أرطغرل ؟ إننى قرأت بلذة تاريخ اليونان والرومان ، ولقد قدموا لى صوراً رائعة اجتذبتنى ، ولكنى لم أستطع إلى الآن أن أكمل قراءة أى تاريخ مطول لأممنا الحديثة . ولا أكاد أرى فى هذه التواريخ شيئاً غير الخلط والتشويش : فهى حشد من الأحداث الصغيرة التى لا ترابط بينها ولا تسلسل ، وألف معركة لم تحسم شيئاً . لقد زهدت فى دراسة تغرق العقل دون أن تنيره . [٣٥]

ووافقها فولتير على هذا الرأى ، ولكنه كان يعرف أن هذا ليس إلا التاريخ « كما يكتب » . ولقد أسف على مسخ الأهواء الحاضرة للماضى ، فى هذا المعنى « ليس التاريخ إلا مجموعة حيل ندخلها على الموتى (*) [٣٦] ومع ذلك فإن إغفال التاريخ معناه أن تكرر إلى مالا نهاية أخطاءه ، ومذابحه ، وجرائمه . وهناك ثلاثة مسالك تفضى إلى هذا المنظور الفسيح السمح الذى يسمى الفلسفة : أولها دراسة البشر فى الحياة عن طريق التجربة ، والثانى دراسة الأشياء فى المكان عن طريق العلم ، والثالث دراسة الأحداث فى الزمان عن طريق التاريخ . وحاول فولتير أن يسلك المسلك الثانى بدراسة نيوتن ؛ ثم اتجه الآن إلى الثالث . ومنذ عام ١٧٣٨ وضع هذا المبدأ الجديد « يجب أن يكتب المرء التاريخ مفلسفاً » . [٣٨] وعليه فقد عرض على المركيزة ما يلى :

لو أنك تخيرت من بين هذا القدر الوافر من المادة الغفل التى لم تتشكل ، ما تبنين به صرحاً لاستعمالك الخاص ، ولو أنك رغم اسقاطك كل تفاصيل الحروب ... وكل المفاوضات التافهة التى لم تكن سوى ألوان من الخبث

(*) الظاهر أن فنيلون ، لا فولتير ، هو القائل أن « التاريخ ليس الا خرافة متفقا عليها » . (٣٧) ولكن الاتفاق ليس واضحا .

واللؤم لاغناء فيها ... ولو أنك رغم احتفاظك بتلك التفاصيل التى تصور العادات ، استطعت أن تؤلفى من تلك الفوضى صورة عامة واضحة المعالم ؛ ولو أنك اكتشفت فى الأحداث « تاريخ العقل البشرى » أفتعتقدين عندها أنك ضعيت وقتك هباء ؟ » (٣٩) .

وظل عاكفاً على مشروعه هذا على مراحل متقطعة مدى عشرين عاماً يقرأ بنهم ، ويسجل المراجع ، ويجمع الملاحظات ، حتى إذا جاء عام ١٧٣٩ ، وضع لمدام دشاتليه « مجملا للتاريخ العام » ؛ وفى ١٧٤٥ — ٤٦ طبعت أجزاء منه فى صحيفة « لامركير دفرانس » . وفى ١٧٥٠ أصدر « تاريخ الحروب الصليبية » ؛ وفى ١٧٥٣ ، فى لاهاى ، ظهر « المجمل » فى مجلدين ، وفى ١٧٥٤ فى ثلاثة ، وأخيراً نشر النص الكامل بجنيف فى ١٧٥٦ فى سبعة مجلدات بعنوان « مقال فى التاريخ العام » ، وكان يشمل « عصر لويس الرابع عشر » وبعض فصول تمهيدية عن الحضارات الشرقية . وفى ١٧٦٢ أضاف « خلاصة لعصر لويس الرابع عشر » وثبتت طبعة ١٧٦٩ العنوان النهائى للكتاب كالآتى : « مقال فى أعراف الأمم وروحها منذ شرلمان حتى أيامنا هذه » وكلمة الأعراف moeurs لم تكن تعنى العادات والأخلاق فحسب ، بل التقاليد والأفكار والمعتقدات والقوانين . ولم يغط فولتير دائماً كل هذه المواضيع ، ولا دون تاريخ الثقافة ، أو العلم ، أو الفلسفة ، أو الفن ؛ ولكن كتابه كان فى مجموعه تناولا جزئياً لتاريخ الحضارة من أقدم العصور حتى زمانه . والأجزاء التى عالجت تاريخ المشرق مقدمات موجزة ، أما القصة الأكمل فتبدأ بشرلمان ، حيث توقف كتاب بوسويه « حديث فى التاريخ العالمى » (١٦٧٩) . كتب فولتير يقول « أريد أن أعرف ما هى الخطوات التى انتقل بها البشر من الهمجية إلى المدنية » — وهو يعنى الانتقال من العصور الوسطى إلى الأزمنة الحديثة » . (٤٠)

وقد أثنى على بوسويه لمحاولته كتابة « تاريخ عالمى » . ولكنه اعترض على تصور هذا التاريخ تاريخاً لليهود والمسيحيين ، ولليونان والرومان

فى علاقتهم بالمسيحية على الأخص . وهاجم إهمال الأسقف بوسويه للصين والهند ، وفكرته عن العرب ،أنهم مجرد زنادقة همج . وأقر بالجهد الفلسفى الذى بذله سلفه فى البحث عن موضوع موحد أو عملية رابطة فى التاريخ ، ولكنه لم يستطيع موافقته على أن التاريخ يمكن تفسيره تدبيراً تسيره العناية الإلهية ، أو برؤية يد الله فى كل حدث كبير . فلقد رأى التاريخ – بدلا من هذا – المسيرة البطيئة المترددة التى خطا بها الإنسان ، بفضل الأسباب الطبيعية والجهد البشرى ، من الجهل إلى المعرفة ، ومن المعجزات إلى العلم ، ومن الخرافة إلى العقل . ولم يستطيع رؤية أى خطة إلهية فى دوامة الأحداث . وقد جعل من الدين المنظم شخصية « الشرير » فى قصته ، ربما انتقاضاً على بوسويه لأنه بدا له على العموم حليفاً للظلامية ، ميالا إلى الطغيان ، مثيراً للحرب . وهكذا دفع فولتير حرصه على استنكار التعصب والاضطهاد إلى الغلو فى تحميل قصته من جانب ، غلو بوسويه فى تحميلها من الجانب الآخر .

وفى منظوره العالمى الجديد الذى أتاحه له تقدم الجغرافيا بفضل تقارير الرواد ، والمبعوثين الدينيين ، والتجار ، والرحالة ، اتخذت أوربا مكاناً أكثر تواضعاً فى لوحة التاريخ الواسعة . فقد أعجب فولتير بتلك « المجموعة من المشاهدات الفلكية التى تجمعت خلال ألف وتسعمائة سنة متعاقبة فى بابل ، والتى نقلها الاسكندر إلى اليونان » [٤١] وخلص إلى أنه لابد أن دجلة والفرات قد غنيا بحضارة عريضة راقية ، لا تظفر عادة بأكثر من جملة أو جملتين فى تواريخ كتاريخ بروسويه . ونأثر أكثر بعراقة الحضارة فى الصين وانتشارها وتفوقها ، وذهب إلى أن هذا « يرفع الصينيين فوق كل أمم الأرض » . ومع ذلك فإن هذه الأمة وأمة الهند، أقدم الدول الحية ... اللتين اخترعتا كل الآداب والفنون تقريباً قبل أن نعرف واحداً منها ، كان نصيبها الإغفال حتى يومنا هذا فى تواريخنا التى نزعم أنها عالمية . » [٤٢] وقد طاب لهذا المقاتل عدو المسيحية أن يجد ويقدم للقراء الكثير من الحضارات العظيمة التى سبقت المسيحية بزمن طويل ، والتى لم يكن لها أى علم بالكتاب المقدس ، ومع ذلك أنجبت الفنانين ، والشعراء ، والحكماء ، والقديسين ،

قبل مولد المسيح بأجيال كثيرة . وقد أبهج عدو السامية المرابى ، الحانق ، أن يختزل كثيراً ذلك الدور الذى قامت به يهوذا فى التاريخ .

على أنه بذل بعض الجهود لينصف المسيحيين . فليس كل البابوات فى صفحاته أشراراً ، ولا كل الرهبان طفيليين . ولم يضن على رجل كالبابا اسكندر الثالث بكلمة طيبة ، فقد « ألغى العبودية الإقطاعية .... ورد حقوق الشعب ، وعاقب لؤم الرءوس المتوجة » . (٤٣) وأعجب بالشجاعة الهائلة « التى اتصف بها بوليوس الثانى ، وعظمـة آرائه » (٤٤) وتعاطف مع جهود البابوية لإقامة سلطة أخلاقية تكبح حروب الدول ومظالم الملوك . واعترف بأن أساقفة الكنيسة ، بعد سقوط الدول الرومانية الغربية ، كانوا أكفأ الحكام فى ذلك العصر الذى كان يضم أوصاله بعدما أصابها من تفكك. ثم :

« فى تلك العصور الهمجية ، والناس غاية فى البؤس ، كان من التعزيات الكبرى أن يجد المرء فى الديورة ملاذاً آمناً من الظلم والطغيان . (٤٥) . . . . ولا نكران فى أن الدير كان يضم فضائل عظمى ، فلم يكد يوجد دير لم يحو أفراداً جديرين بالاعجاب يشرفون الطبيعة البشرية . وقد طاب للكثيرين جداً من الكتاب أن ينبشوا عن المفاسد والرذائل التى لوثت أحياناً بيوت التقوى والصلاح هذه » . (٤٦)

ولكن فولتير ، الذى تورط مع الموسوعيين المتحفزين للمعركة فى حرب مع الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، أكد بوجه عام على أخطاء المسيحية فى التاريخ ، وهون من اضطهاد روما للمسيحيين ، وسبق جيبون إلى اعتبار هذا الاضطهاد أقل تكراراً وفتكاً من اضطهاد الكنيسة للمهرطقين . ثم سبق جيبون أيضاً إلى القول بأن الدين الجديد أضعف الدولة الرومانية . وذهب إلى أن القساوسة اغتصبوا السلطان ببث التعاليم السخيفة بين الجهال والسذج ، وباستعمال قوة الطقوس المنومة لإماتة العقل وتقوية هذه الأوهام . ورمى البابوات بأنهم بسطوا نفوذهم وجمعوا الثروات باستعمال وثائق مثل « هبة قسطنطين » التى يسلم الناس عموماً الآن بأنها زائفة وصرح بأن محكمة التفتيش الاسبانية ، ومذبحة الأليجنس المهرطقين ، هما أحط ما وعى التاريخ من أحداث .

وبدت له العصور الوسطى فى العالم المسيحى فاصلا مقفراً بين جوليان ورابليه، ولكنه كان من أول من اعترفوا بدين الفكر الأوربى لعلم العرب وطبهم وفلسفتهم . وأشاد بلويس التاسع مثلا أعلى للملك المسيحى ، ولكنه لم ير نبلا فى شرلمان ، ولا فهماً فى الفلسفة المدرسية (الكلامية) ، ولا عظمة فى الكتدرائيات القوطية التى أنكرها لأنها « خليط غريب من الجلافة والتخريم»

ولم يكن متوقعاً من روحه المطاردة أن تقدر دور العقيدة والكهانة المسيحيتين فى تشكيل الخلق والفضائل وحفظ النظام والسلام فى المجتمعات ، وتشجيع كل الآداب والفنون تقريباً ، وإلهام الموسيقى الرائعة ، وتجميل حياة الفقراء بالمراسم والأعياد والتراتيل والأمل . ولا عجب ، فلقد كان إنساناً يخوض حرباً ، ولا يستطيع إنسان أن يقاتل ما لم يتعلم الكراهية . والغالب وحده هو الذى يستطيع تقدير عدوه حق قدره ؛

أكان مصيباً فى وقائعه ؟ عموماً ، ولكنه ارتكب أخطاء بالطبع ، وقد نشر الأبيه نونوت مجلدين بعنوان « أغلاط فولتير » ، وأضاف بعضاً من أغلاطه هو . (٤٧) ولكن روبرتسن ، وهو مؤرخ كبير ، أعجب بدقة فولتير عموماً فى مثل هذا الميدان الشاسع . (٤٨) ولما كان فولتير يغطى هذه المواضع الكثيرة فى هذه الأقطار الكثيرة خلال قرون كثيرة ، فهو لم يدع أنه تقيد بالوثائق الأصلية أو المصادر المعاصرة ، ولكنه استعمل مراجعه الثانوية بتمييز ووزن حكيم للشواهد . ورسم لنفسه قاعدة هى التشكك فى أى شهادة تناقض « الحس المشترك » أو الخبرة العامة للنوع الإنسانى . ولا ريب فى أنه كان معترفاً فى أيامنا هذه بأن غرائب عصر ما قد تقبل فى العصر الذى يليه على أنها أمور عادية ، ولكنه وضع هذا المبدأ الهادى ، وهو « أن عدم التصديق هو الأساس لكل أنواع المعرفة » . (٤٩) وهكذا سبق بارتولد نيبور فى رفضه الفصول الأولى لليفى لأنها من قبيل الأساطير ، وسخر من قصة رومولوس ، وريموس ، والذئبة التى كانت لها الأم الرءوم ، وسخف مزاعم ليفى ، واتهم تاسيتوس بالمبالغات الانتقامية فى وصفه لرذائل طيباريوس ، وكلوديوس ، ونيرون ، وكاليجولا ؛ وارتاب فى هيرودوت وسوتنيوس لأنهما مروجان للشائعات والأقاويل ، وذهب إلى أن فى بلوتارخ من الولع بالنوادر مالا يجعله موضع الثقة الكاملة ، ولكنه قبل تيوسيديدس ، وزينوفون ،

ويوليبيوس ، مؤرخين جديرين بالثقة . وتشككك فى الأخبار التى كتبها الرهبان ، ولكنه أثنى على دوكانج وتللمون « المدقق » ومابيون « العميق » ورفض أن يواصل التقليد القديم ، تقليد الخطب الخيالية ، أو التقليد الحديث ، تقليد « اللوحات » التاريخية . وأنزل مكان الفرد فى المجرى العام للأفكار والأحداث ، وكان الأبطال الوحيدون الذين عبدهم هم أبطال العقل .

وقد ألمع فولتير فى « المقال » وفى غيره إلى فلسفته فى التاريخ دون أن يصوغها . وكتب « فلسفة للتاريخ » وقدم بها لطبعة من « المقال » فى ١٧٦٥ . وكان ينفر من « مذاهب » الفكر ، ومن كل المحاولات لاختزال الكون فى صيغة أو قانون ، ويعرف أن الحقائق أقسمت أن تكون خصماً أبدياً للتعميمات . ولعله أحس أن أى فلسفة للتاريخ ينبغى أن تلى سرد الأحداث وتنبع منه ، لا أن تسبقه وتقرره . على أن استنتاجات عريضة انبعثت من روايته للتاريخ : فالحضارة سبقت « آدم » و « الخليقة » بآلاف السنين ؛ والطبيعة البشرية فى جوهرها واحد فى كل زمان ومكان ، ولكن شتى العادات والتقاليد عدلتها تعديلا منوعاً ، وأن المناخ والحكومة ، والدين ، هى العوامل الأساسية التى تقرر هذه الاختلافات ، وأن دولة العادات والتقاليد أوسع كثيراً من دولة الطبيعة »[٥٠] والاتفاق والمصادفة (فى نطاق السلطان الشامل للقوانين الطبيعية) يلعبان دوراً هاماً فى توليد الأحداث ، والتاريخ لا تصنعه عبقرية الأفراد بقدر ما تصنعه الأفعال الغريزية التى تؤثر بها الجماهير البشرية فى بيئتها ؛ وهكذا تنتج ، جزءاً فجزءاً ، العادات ، والأخلاق ، والاقتصاديات ، والقوانين ، والعلوم ، والفنون والآداب التى تصنع حضارة وتبعث روح العصر . « إن هدفى الرئيسى هو دائماً ملاحظة روح العصر ، لأنه هو الذى يوجه أحداث العالم الكبرى . »[٥١]

والتاريخ فى جملته ، كما رآه فولتير فى « تلخيصه » ، قصة مرة محزنة (كما يكتب عموماً) .

« لقد اجتزت الآن المشهد الضخم للثورات التى عرفها العالم منذ عهد شارلمان ؛ فإلام كان اتجاهها ؟ إلى الخراب ، وخسارة ملايين الأنفس ! فكل حدث كبير كان نكبة كبرى . ولم يحفظ لنا التاريخ وصفاً لعصور السلم

والطمأنينة ؛ فهو لا يروى غير الغارات المدمرة والكوارث ... والتاريخ كله بإيجاز ، ليس إلا سلسلة طويلة من أعمال القسوة العقيمة ... مجموعة من الجرائم ، والحماقات ، والنكبات ، التقينا وسطها بين الحين والحين ببعض الفضائل ، وبعض الأويقات السعيدة ، شأننا حين نرى أحياناً أكواخاً مبعثرة فى صحراء مقفرة ... وبما أن الطبيعة ألقت فى قلب الإنسان الأنانية والكبرياء وجميع الأهواء ، فلا عجب إذن ... أن نلتقى بسلسلة من الجرائم والكوارث لا تكاد تنقطع . » (٥٢)

وهذه صورة مقبضة جداً وكأن صاحبها رسمها فيا بين أيامه النكدة فى برلين ، أو وسط ضروب الإهانة والقهر التى لقيها فى فرنكفورت . ولعل الصورة كانت تصبح أكثر إشراقاً لو أن فولتير أنفق صفحات أكثر على رواية تاريخ الأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والفن . أما والصورة قائمة إلى هذا الحد ، فإنا نتساءل : ما باله قد جشم نفسه كل هذه المشقة ليرسمها بهذا الاسهاب الشديد ؟ ولعله كان يجيب : لكى يصدم القارىء حتى يتنبه ضميره وفكره ، ويهز الحكومات حتى تعيد صياغة التعليم والتشريع لتكون ناساً أفضل . صحيح أننا لا نستطيع أن نغير الطبيعة البشرية ، ولكنا نستطيع أن نعدل تصرفاتها بتقاليد وعادات أصح وشرائع أحكم . وإذا كانت الأفكار قد غيرت العالم ، فلم لا تصنع الأفكار الأفضل عالماً أفضل ؟ وهكذا خفف فولتير فى النهاية من تشاؤمه بالأمل فى نشر التعقل عاملا صابراً من عوامل النهوض بالبشر .

وسرعان ما نقد الناقدون ما فى « مقال الأعراف » ؛ من عيوب . فلم يقتصر الأمر على نونوت ، بل إن لارشير ، وجينيه ، وكثيرين غيرهم ندوا بأخطاء الحقائق التى وردت فيه ، ولم يعسر على اليسوعيين كشف التحامل الذى شوهه . واتفق معهم مونتسكيو فى هذه الناحية فقال « إن فولتير يشبه الرهبان الذين لا يكتبون من أجل الموضوع الذى يعالجونه . بل لمجد طائفتهم ؛ إنه يكتب من أجل ديره . » (٥٣) ورد فولتير على نقاده بأنه أكد على أخطاء المسيحية لأن غيره ما زالوا يدافعون عنها ؛ ثم استشهد

بأقوال مؤلفين معاصرين امتدحوا الحروب التى شنت على الالبيجنس ، وإعدام هس ، بل مذبحة القديس برتلميو ، فالعالم يحتاج ولا ريب إلى تاريخ يدمغ هذه الأفعال بالاجرام ضد الإنسانية والفضيلة . (٥٤) — وربما أخطأ فولتير فى فهم وظيفة المؤرخ رغم كل فكرته المنيرة عن الكيفية التى ينبغى أن يكتب بها التاريخ ، فلقد جلس فى مجلس القضاء يحاكم كل شخص وكل حادث ، ويصدر الأحكام كأنه « لجنة أمن عام » التزمت بحماية الثورة الفكرية ودفعها قدماً . وقد حكم على الناس لا بلغة زمانهم الفاسد ومعرفتهم المحدودة ، بل فى ضوء المعرفة الأوسع التى توافرت منذ أن ماتوا . وقد ألف فولتير « المقال » فى أوقات متفرقة على مدى عشرين عاماً ، وسط الكثير من المغامرات والشدائد التى شتتت انتباهه ، لذلك افتقر هذا الكتاب إلى اتصال الرواية ووحدة الشكل ، ولم يدمج أجزاءه تماماً فى كل متماسك .

ولكن محاسن الكتاب لا تحصى . فرقعة معرفته هائلة ، وهى شهادة على ما بذله فيه مؤلفه من البحث الجاد المثابر . وأسلوبه المشرق ، الذى أثقلته الفلسفة وخففته الفكاهة ، رفعه إلى مرتبة دونها مرتبة أكثر كتب التاريخ فيما بين كاسيتوس وجيبون . وقد لطفت روحه العامة من تحيزه ، وما زال الكتاب ينبض بمحبة الحرية ، والتسامح ، والعدالة ، والعقل . فى هذا أيضاً أصبحت كتابة التاريخ فناً ، بعد الكثير جداً من كتب الأخبار التى اتسمت بالغفلة وافتقرت إلى الحياة . وفى جيل واحد أحال ثلاثة كتب تاريخ أخر أحداث الماضى أدباً وفلسفة : « تاريخ انجلتره » لهيوم ، و « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » لروبرتسن ، و « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » لجيبون — وكلها مدينة لروح فولتير ، ومن بعض الوجوه للمثال الذى ضربه . وقد نوه ميشليه بالكتاب فقال فى عرفان بالجميل أنه . « التاريخ » الذى صنع فن كتابة التاريخ كله ، والذى أنجبنا كلنا ، نقاداً ورواة على السواء . (٥٥) وليت شعرى ما الذى نفعله نحن هنا إلا السير على درب فولتير ؟

عندما وضعت حرب السنين السبع فرنسا فى صف أعداء فردريك ، انبعث حب فولتير الكامن لوطنه من جديد ، ربما ممزوجاً بذكريات قديمة

لفرانكفورت وارتياب جديد فى جنيف . فبعد مقال دالامبير ، وتراجع إكليروس جينف عن الآراء الجريئة التى ربطهم بها المقال ، أحس فولتير بأن الخطر عليه فى سويسرة لا يقل عنه فى فرنسا . فمتى يستطيع العودة إلى وطنه ؟

وحالفه الحظ هذه المرة . ذلك أن الدوق دشوازيل الذى أمتعته قراءة كتب هذا الطريد المنفى عن بلده تقلد وزارة الخارجية فى ١٧٥٨ ، وبلغت مدام دبومبادور ذروة نفوذها رغم اضمحلال جسدها ، وكانت قد عفت عن حماقات فولتير ، واستطاعت الحكومة الفرنسية الآن ، والملك يلهو وسط حريمه ، أن تغضى عن عودة الزنديق الرهيب إلى فرنسا . فنى أكتوبر ١٧٥٨ ، انتقل ثلاثة أميال ونصفاً خارج سويسرة ، وأصبح سيد فيرنيه . وكان فى الرابعة والستين ، لم يزل قريباً من الموت كما قال من قبل ، ولكنه اختصم أقوى دوله فى أوربا فى أخطر صراعات القرن .



الكتاب الرابع

تقدم العلم ١٧٥١ – ٧٩

الفصل الخامس عشر

الأدباء

١ – البيئة الفكرية :

تعطل نمو المعرفة نتيجة للجمود ، والخرافة ، والاضطهاد ، والرقابة ، وهيمنة الكنيسة على التعلم . حقيقة أن هذه المعوقات ضعفت عن ذى قبل ، ولكنها ظلت أقوى كثيراً منها فى حضارة صناعية يضطر فيها الناس ، بسبب تنافس الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، إلى البحث عن أفكار وأساليب جديدة ، عن وسائط جديدة لغايات قديمة . وكان أكثر الناس فى القرن الثامن عشر يتحركون فى بيئة بطيئة التغير ، تكفى الاستجابات والأفكار التقليدية عادة لسد حاجات الحياة فيها . فإذا لم تسمح المواقف والأحداث الجديدة بالتفسيرات الطبيعية دون عناء ، عزتها عقول العوام لأسباب خارقة ، ثم أخلدت إلى الراحة .

وبقيت مئات الخرفات جنباً إلى جنب مع الاستنارة المطردة . مثال ذلك أن نساء الطبقة العليا كن يرتعدن إذا كانت طوالعهن نحوسا ، أو يؤمن بأن فى الإمكان إحياء طفل غريق إذا أضاءت امرأة فقيرة شمعة وعومتها فى فنجان لتشعل النار فى كوبرى على السين . وقد وعدت أميرة كونتى الأبيه لورو بحاشية فخمة إذا عثر لها على حجر الفلاسفة . واحتفظت جولى دلبسيناس بإيمانها بالأيام السعيدة والمشئومة رغم أنها عاشرت العالم الشاك دالامبير عدة سنين .

وكان قارئوا البخت يعيشون على صيت شفافيتهم ؛ من ذلك أن مدام دبومبادور ، والابيه دبيرنيس ، والدوق دشوازيل كانوا يستشيرون خفية مدام بونتان ، التي تقرأ لهم البخت في تفل القهوة .[١] ويقول مونتسكيو أن باريس كانت تعج بالسحرة وغيرهم من الدجالين الذين يكفلون للناس التوفيق في دنياهم أو التمتع بشباب دائم . وقد أقنع الكونت سان جرمان لويس الخامس عشر أن في الإمكان إصلاح ماليات فرنسا التي فسدت بوسائل خفية لصنع الماس والذهب[٢] وكان الدوق دريشليو يتسلى بالسحر والشعوذة — مستعيناً بالشيطان . أما أمير انهالت دساو العجوز ، الذي كسب معارك كثيرة لبروسيا ، وكفر بالله ، فكان إذا التقى بثلاث عجائز في طريقه إلى الصيد قفل إلى بيته ، لأن « اليوم نحس » .[٣] وكان آلاف الناس يحملون التمائم أو الطلاسم اتقاء الشرور . واستعملت مئات الوصفات السحرية علاجات طبية شعبية . واعتقد الناس أن في قدرة المخلفات الدينية أن تشفي كل العلل تقريباً ، وكانوا يجدون مخلفات المسيح أو ذخائر القديسين في أي مكان — فقطعة من ثوبه في تريبه ، وعباءته في تورين ولاون ، ومسمار من مسامير الصليب الحقيقي في دير سان — دنيس . وقد تدعمت قضية المطالبين الاستيوارتيين بالعرش في انجلتره بفضل فكرة آمن بها أكثر الناس ، وهي أن في استطاعتهم شفاء الداء الخنازيري بلمسة منهم — وهي قوة حرم منها الملوك الهانوفريون لأنهم « غاصبون » لم يتباركو بحق الملوك الإلهي . وكان أكثر الفلاحين على يقين من أنهم سمعوا العفاريت أو الجنيات في الغابات . ومع أن الاعتقاد بوجود العفاريت كان في اضمحلال ، فإن دوم أوجستن كالميه ، البندكتي المثقف ، كتب تاريخاً لمصاصي الدماء Vampires — وهي جثث تترك قبورها في الليل لتمتص دم الأحياء ؛ وقد نشر هذا الكتاب بموافقة السوربون .[٤]

واختفت في هذا القرن شر الخرافات قاطبة ، وهي الإيمان بالسحر ، اللهم إلا بعض بقاياه المحلية . ففي ١٧٣٦ اتخذ « أحبار الكنائس المشيخية المتحدة » الاسكتلندية قراراً يؤكد من جديد إيمانهم بالسحر ،[٥] وفي ١٧٦٥ (وهو تاريخ متأخر) كتب أشهر الفقهاء الإنجليز ، السر وليم

بلاكستون فى « تعليقاته » يقول : « إن إنكار إمكان السحر والعرفة ، لا بل وجودهما الفعلى ، إنما هو تكذيب صريح لكلمة الله ، فالشيء وذاته حقيقة شهدتها كل أمة فى العالم بدورها » . ولكن القانون الإنجليزى الذى جعل من السحر جناية كبرى ألغى فى ١٧٣٦ رغم بلاكستون والكتاب المقدس . ولم يرد ذكر لأى حكم بالاعدام عقاباً على تهمة السحر لا فى فرنسا بعد ١٧١٨ ، ولا فى اسكتلندة بعد ١٧٢٢ ؛ وحكم الإعدام الذى نفذ فى سويسرة عام ١٧٨٢ هو آخر ما ورد ذكره من أحكام إعدام فى القارة الأوربية . [٦] وكان لازدياد الثروة ، وتكاثر المدن ، وانتشار التعليم ، وتجارب العلماء ، ونداءات الأدباء والفلاسفة — كان لهذا كله أثره فى الحد شيئاً فشيئاً من دور الشياطين والعفاريت فى حياة الناس وتفكيرهم ، ورفض القضاة الاستماع إلى تهم العرافة ، متحدين فى ذلك التعصب الجماهيرى . وبدأت أوربا تنسى أنها ضحت بمائة ألف رجل ، وامرأة ، وفتاة ، على مذبح خرافة واحدة فقط من خرافاتها الكثيرة . [٧]

وظل اضطهاد الكنيسة والدولة ، والكاثوليك والبروتستنت ، للمنشقين والخوارج يرهب الناس بأهواله ليحجب عن عقولهم أى أفكار قد تمس المعتقدات الراسخة أو تزعج السلطات المقررة . وقد زعمت الكنيسة الكاثوليكية أن مؤسسها هو ابن الله ، فهى إذن مستودع الحق الإلهى ، والمفسر الشرعى الوحيد له ، ولها إذن حق قمع الهرطقة . وقد انتهت إلى أنه لا خلاص لإنسان من الهلاك الأبدى خارج الكنيسة . ألم يقل المسيح « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » ؟ [٨] ومن ثم فإن مجمع اللاتران المسكونى الرابع ، المنعقد فى ١٢١٥ ، جعل النص الآتى جزءاً من العقيدة النهائية التى يلزم بها كل كاثوليكى « هناك كنيسة جامعة واحدة للمؤمنين ، لا خلاص خارجها لأحد على الإطلاق » [*]

(*) أكد البابا بيوس التاسع هذه العقيدة من جديد فى منشوره الذى أصدره فى ١٠ أغسطس ١٨٦٣ ، « أن العقيدة الكاثوليكية معروفة جيدا ، وهى أنه لا يستطيع أحد أن يخلص بعيدا عن الكنيسة الكاثوليكية (الموسوعة الكاثوليكية ، ٣ - ٧٥٣ ب) .=

وقد قبل لويس الخامس عشر هذه العقيدة باعتبارها منطقياً مستقاة من نصوص الكتاب المقدس ، نافعة فى تشكيل عقل قومى موحد . وفى ١٧٣٢ كانت ممارسة العبادة البروتستنتية علانية فى فرنسا محرمة ، وإلا كان التعذيب ، أو التشغيل فى مراكب الأسرى ، أو الموت ، عقاباً للمخالفين .[٩] على أن الأهالى الكاثوليك كانوا أكثر تسامحاً من قادتهم ، فأنكروا هذه العقوبات الوحشية ، واشتد التراخى فى تطبيق المرسوم حتى جرؤ هيجونوت فرنسا فى ١٧٤٤ على عقد مجمع قومى لهم على أن السوربون ، كلية اللاهوت فى جامعة باريس ، أكدت من جديد فى ١٧٦٧ الدعوى القديمة ، « أن الملك تلقى السيف الزمنى ليقمع به مذاهب كالمادية ، والإلحاد ، والربوبية ، تمزق روابط المجتمع وتحرض على الجريمة ؛ وليسحق أيضاً كل تعليم يهدد بزعزعة أسس الإيمان الكاثوليكى . »[١٠] وقد طبقت هذه السياسة بصرامة فى أسبانيا والبرتغال ؛ وفى إيطاليا طبقت تطبيقاً أكثر ليناً ، وفى روسيا اشترطت الكنيسة الأرثوذكسية إجماعاً مماثلا .

ووافق الكثير من الدول البروتستنتية الكاثوليك على ضرورة الاضطهاد . فى الدنمرك والسويد طالبت القوانين بالتزام المذهب اللوثرى . ولكن غير اللوثريين من البروتستنت ، بل الكاثوليك أيضاً ، كانوا من الناحية العلمية فى مأمن من الاضطهاد ، وإن ظلوا محرومين من حق شغل مناصب الدولة . وفى سويسره كانت كل مقاطعة حرة فى اختيار مذهبها وفرضه على أهلها . وفى ألمانيا كانت القاعدة التى تقضى بأن يتبع الناس دين أميرهم تغفل باطراد .

= ومن الانصاف أن نضيف أن اللاهوت الكاثوليكى الحديث يخفف من غلواء هذه العقيدة ، أن يقرر أن العقيدة ... التى تلخصها عبارة « لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية . . . لاتعنى أنه لاخلاص إلا للذين فى شركة منظورة مع الكنيسة . فقد علمت الكنيسة الكاثوليكية دائما أنه لا شيء يلزم للتبرير غير فعل المحبة الكاملة والتوبة . وكل من تصدر عنه هذه الأفعال بدافع النعمة الحقيقية ، ينال على الفور عطية النعمة التى تقدسه ، ويحسب فى عداد أبناء الله . فإذا مات فى هذه الأوضاع والنوازع فسوف يدخل الجنة بالتأكيد » . . . .

(النص السابق ٧٥٢) ب .

وفى الأقاليم المتحدة رفض رجال الدين البروتستنت التسامح باعتباره محرضاً على اللامبالاة الدينية ، ولكن العلمانيين رفضوا الاقتداء برجال الدين فى هذا الأمر ، فأصبحت هولندة بفضل تحريرها النسبى من الاضطهاد ملاذاً للأفكار والمطبوعات غير التقليدية . وفى انجلتره سمحت القوانين بالانشقاق الدينى ، ولكنها تعقبت المنشقين بالقيود الاجتماعية والسياسية . وقد صرح صموئيل جونسن فى ١٧٦٣ بأن « التعليم الباطل ينبغى قمعه بمجرد ظهوره ؛ وينبغى أن تتكاتف السلطة المدنية مع الكنيسة فى عقاب من يجرؤن على مهاجمة الدين المقرر . » [١١] وأحرقت الحكومة الانجليزية بين الحين والحين الكتب ، أو وضعت فى المشهرة مؤلفيها الذين تشككوا فى أسس الإيمان المسيحى ؛ مثال ذلك أن وولستن غرم وحبس فى ١٧٣٠ ، وفى ١٧٦٢ حكم على بيتر آرنت بوضعه فى المشهرة ، ثم بالسجن سنة مع الأشغال الشاقة ، بسبب تهجمه على المسيحية . وكانت القوانين التى شرعت ضد الكاثوليك تطبق فى انجلتره تطبيقاً غير دقيق ، ولكنها نفذت بصرامة فى ارلنده ، إلى أن رفض اللورد تشسترفيلد تطبيقها حين تولى حكم الإقليم فى ١٧٤٥ ؛ وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ألغى بعض اللوائح الصارمة . ويمكن القول بصفة عامة أن نظرية الاضطهاد كان يؤمن بها رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت حتى سنة ١٧٨٩ ، إلا حيث كان الكاثوليك أو البروتستنت أقلية ، ولكن ممارسة الاضطهاد تضاءلت بظهور رأى عام جديد مع تطور الارتياب الدينى . وانتقلت غريزة الاضطهاد من الدين إلى السياسة بحلول الدولة محل الكنيسة حارساً على الإجماع والنظام وهدفاً للانشقاق المبتدع .

أما الرقابة على الكلام والمطبوعات فكانت فى الدول البروتستنتية بصفة عامة منها فى الدول الكاثوليكية ، وكانت أهون ما تكون فى هولندة وانجلتره . وكانت صارمة فى أكثر المقاطعات السويسرية . وقد أحرق آباء المدينة فى جنيف بعض الكتب الخارجة على السنة ، ولكن ندر أن اتخذوا إجراء ضد مؤلفيها . وفى ألمانيا تعطلت الرقابة لتعدد الولايات التى كان لكل منها عقيدته الرسمية الخاصة ؛ وكان فى استطاعة الكاتب أن ينتقل عبر الحدود

من بيئة معادية إلى بيئة صديقة أو محايدة . وفى بروسيا ألغى فردريك الأكبر الرقابة عملياً ، ولكن خلفه أعادها فى ١٧٨٦ . أما الدنمرك فإنها احتفظت بالرقابة على الكتب حتى عام ١٧٤٩ باستثناء فاصل قصير فى عهد شترويزى؛ وأما السويد فقد حظرت نشر المواد التى انتقدت اللوثرية أو الحكومة ، وفى ١٧٦٤ أصدرت جامعة أوبسالا قائمة بالكتب المحرمة ؛ ولكن فى ١٧٦٦ قررت السويد الحرية الكاملة للمطبوعات .

كانت الرقابة فى فرنسا قد اتسعت من سابقة إلى سابقة منذ عهد فرنسوا الأول ، ثم جددت بمرسوم صدر فى ١٧٢٣ ينص على « ألا يطبع ناشرون أو غيرهم ، أو يعيدوا طبع ، أى كتب فى أى مكان فى المملكة ، دون الحصول سلفاً على إذن بخطابات مختومة بالخاتم الكبير » . وكان هناك ستة وسبعون رقيباً رسمياً فى ١٧٤١ ، يطلب إلى الرقيب منهم قبل أن يمنح الكتاب « إذن الملك وامتيازه » أن يشهد بأن الكتاب لا يحوى شيئاً ضد الدين ، أو النظام العام ، أو الخلق القويم . ويجوز لبرلمان باريس أو السوربون أن يشجبا الكتاب حتى بعد نشره بإذن الطبع الملكى . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر لم تطبق الرقابة الملكية إلا تطبيقاً هيناً ، فظهرت آلاف الكتب دون إذن ودون أن يمسها سوء ، وفى كثير من الحالات لا سيما حين تولى مالزيرب رئاسة الرقابة (١٧٥٠ — ٦٣) كان المؤلف يحصل على « إذن ضمنى » — وهو تعهد غير رسمى بأن الكتاب المراد نشره يصرح بطبعه دون خوف من محاكمة . فإذا صدر كتاب لم تصرح الحكومة بنشره جاز أن يحرقه جلاد الدولة بينما يظل المؤلف حراً طليقاً ، فإذا زج به فى الباستيل لم يسجن غير سجن قصير كريم . (١٢)

على أن هذه الحقبة من التسامح النسبى انتهت بمحاولة داميان اغتيال لويس الخامس عشر (٥ يناير ١٧٥٧) . فى أبريل قضى مرسوم وحشى بالموت على « جميع من يدانون بكتابة أو طبع أى مؤلفات قصد بها التهجم على الدين أو العدوان على السلطة الملكية أو تكدير نظام المملكة وهدوئها . » وفى ١٧٦٤ حرم مرسوم آخر نشر الكتب التى تتناول مالية الدولة . وأخضعت الكتب ، والنشرات ، وحتى مقدمات المسرحيات ، لأكثر ضروب الفحص

والإشراف تفصيلا . وفرضت أحكام تتفاوت بين الوضع فى المشهرة والجلد ، وبين التشغيل تسع سنين فى سفن الأسرى والعبيد عقاباً على شراء أو بيع نسخ من قصيدة فولتير « لابوسيل » أو « قاموسه الفلسفى » . وفى ١٧٦٢ كتب دالامبير إلى فولتير يقول : « إنك لا تتصور مبلغ الهياج الذى بلغته محكمة التفتيش (فى فرنسا) . فإن مفتشى الفكر ... يحذفون من جميع الكتب ألفاظاً مثل « الخرافة » و « التسامح » و « الاضطهاد » . [١٣]

واشتدت الكراهية فى طرفى الصراع بين الدين والفلسفة ؛ وما بدأ حملة على الخرافة تصاعد حتى أصبح حرباً على المسيحية . وقد نشبت الثورة فى فرنسا ، لا فى انجلتره القرن الثامن عشر ، من بعض الوجوه لأن رقابة الدولة أو الكنيسة ، التى كانت معتدلة فى انجلتره ، اشتدت فى فرنسا إلى حد استحال معه على العقل الحبيس أن ينطلق إلا بتحطيم أغلاله تحطيما عنيفاً .

واحتج « الفلاسفة » (وهو اصطلاح يراد به الفلاسفة الفرنسيون الذين شاركوا فى الهجوم على المسيحية) على الرقابة لأنها تحكم على الفكر الفرنسى بالعقم . ولكنهم هم أنفسهم كانوا أحياناً يطلبون إلى الرقيب أن يكبح جماح خصومهم . مثال ذلك أن دالامبير رجا مالزيرب أن يصادر مجلة فريرون المسماة « عدو الفيلسوف » ، و « العام الأدبى » . ولكن مالزيرب أبى رغم ميله للفلاسفة . [١٤] وطلب فولتير إلى الملكة أن تحظر تمثيل تقليد ساخر لمسرحيته « سميراميس » ، فلم تشأ حظرها ، ولكن بومبادور حظرتها . [١٥]

واحتال الفلاسفة أثناء ذلك بشتى الطرق لتفادى الرقابة فأرسلوا مخطوطاتهم إلى الناشرين الأجانب ، عادة إلى أمستردام ، أو لاهاى ، أو جنيف ؛ ومن هناك كانت كتبهم بالفرنسية تستورد بالجملة إلى فرنسا ، فتصل كل يوم تقريباً بالمراكب إلى بوردو أو غيرها من الموانى على الساحل أو الحدود الفرنسية . وكان الباعة يطوفون بها من شارع إلى شارع ، ومن بلد إلى بلد ، مستخفية وراء عناوين بريئة . وسمح بعض النبلاء الذين لم يكونوا شديدى الإخلاص للحكومة المركزة ببيع هذه الكتب فى أرضهم . [١٦] ونجت رسائل فولتير ، التى وحدت الحملة الفلسفية من كثير من الرقابة لأن صديقه داميلافيل شغل حيناً منصباً فى إدارة المالية ، فاستطاع أن يصدق بختم الرقيب العام على رسائل فولتير وشركائه وطرودهم . [١٧] وقرأ

الكثير من موظفى الحكومة ، وبعض رجال الدين ، بلذة تلك الكتب التى شجبتها الحكومة أو الأكليروس . وندر أن وضع مؤلفو الكتب الفرنسيون المنشورة خارج فرنسا أسماءهم على الغلاف ، فإذا اتهموا بتأليفها كذبوا بضمير جرىء ، وكان هذا جزءاً من اللعبة باركته قوانين الحرب . ولم يكتف فولتير بانكار تأليف العديد من كتبه ، به أنه أحياناً نسب تأليفها إلى الموتى . وضلل الرقيب بنشره مقالات ينقد فيها كتبه أويندد بها . واشتملت اللعبة على حيل فى الصياغة أو التعبير أعانت على تشكيل ما فى النثر الفرنسى من رقة ورهافة فى تورياته ، وحواراته ، ورمزياته ، وقصصه ، ومفارقاته ، ومبالغاته الشفافة ، وفى ما يتسم به فى مجموعه من ذكاء وظرف بلغا مبلغاً لم يضارعه فيها أدب قط . وقد عرف الأبيه جاليانى البلاغة بأنها فن قول الشيء دون أن يزج بقائله فى الباستيل .

وثمت عقبة أخرى فى طريق التفكير الحر لم تفقها غير عقبة الرقابة ، وهى هيمنة رجال الدين على التعليم . فقد كان القساوسة المحليون فى فرنسا يعلمون أو يشرفون على التعليم فى مدارس الابرشيات . وكان التعليم الثانوى فى قبضة اليسوعيين معلمين للغات والآداب الكلاسيكية ، ولكنهم كانوا أقل عوناً فى ميدان العلوم . وقد شحذ التعليم اليسوعى أذهان عدد كبير من « الفلاسفة » . وكانت جامعة باريس تخضع لقساوسة أشد محافظة من اليسوعيين أما جامعة أورليان المشهورة بالقانون ، وجامعة مونبلييه المشهورة بالطب ، فكانتا علمانيتين نسبياً . ومما له دلالة أنه لا مونتسكيو ، ولا فولتير ، ولا ديدورو ، ولا موبرتوى ، ولاهلفيتيوس ، ولا بوفون ، درسوا فى جامعة فقد ازدهر العقل الفرنسى المناضل للتحرر من سلطان اللاهوتيين ، لا فى الجامعات ، بل فى الأكاديميات والصالونات .

وكانت الأكاديميات العلمية قد ظهرت فى هذا القرن فى برلين (١٧٠١) وأوبسالا (١٧١٠) وسانت بطرسبورج (١٧٢٤) وكوبنهاجن (١٧٤٣) . وفى ١٧٣٩ ألف لينيوس وخمسة أدباء سويديين آخرين « الكوليجيوم كوريوزم » ، وفى ١٧٤١ تأسست من هذه الهيئة أكاديمية « كونجليجا زفنسكا فيتنسكابس » ، التى أصبحت الأكاديمية الملكية السويدية . وكان فى فرنسا

أكاديميات اقليمية فى أورليان ، وبوردو ، وتولوز ، وأوجزير ، ومتز ، وبيزانسون ، وديجون ، ولبون ، وكان ، وروان ، ومونتوبان ، وأنجير ، ونانسي ، وأكس - أن - بروفانس . وتجنبت الأكاديميات الهرطقة ، ولكنها شجعت العلم والتجربة ، وتسامحت فى النقاش وشجعته ، ومسابقات الجوائز التى قدمتها أكادعية ديجون فى ١٧٤٩ و١٧٥٤ هى التى أطلقت روسو على الدرب إلى الثورة الفرنسية . وفى باريس أيقظ انتخاب دوكلو (١٧٤٦) ودالامبير (١٧٥٤) أكاديمية الخالدين المحتضرين الفرنسية من غفواتها الدجماطيقية ؛ وكان ارتقاء دوكلو إلى منصب استراتيجى فى الأكاديمية ، هو منصب « السكرتير الدائم »(١٧٥٥)إيذاناً بسيطرة الفلاسفة على الأكاديمية .

وأضافت المجلات العلمية مزيداً من الحفز للحركة الفكرية . وكان من خيرة هذه المجلات « مذكرات للانتفاع بها فى تاريخ العلوم والفنون الجميلة » التى رأس تحريرها اليسوعيون من ١٧٠١ إلى ١٧٦٢ ، وتعرف بمجلة « تريفو » نسبة إلى دار النشر فى تريفو ، قرب ليون ، وكانت أكثر المطبوعات الدينية تفقهاً وتحرراً . وكان فى باريس وحدها ثلاث وسبعون مجلة وعلى رأسها « المركيز دفرانس » و « مجلة العلماء » . ورأس اثنان من أقوى خصوم فولتير وأشدهم لدداً تحرير مجلتين واسعتى النفوذ : فأسس ديفونتين «أخبار الأدب» فى ١٧٢١ ، ونشر فريرون « العام الأدبى » من ١٧٥٤ إلى ١٧٧٤ . ونسجت ألمانيا على هذا المنوال ، فأصدرت « رسائل فى الأدب الجديد » التى كان ليسنج وموسى مندلسون من بين من زودوها بمقالاتهم الكثيرة . وفى إيطاليا تناولت « مجلة الأدباء » المواضيع العلمية والأدبية والفنية ، أما مجلة «كافيه » فكانت صحيفة رأى على طريقة « الاســبكتاتور الانجليزية » وفى السويد جعل أولوف فون دالين من صحيفة « سفنسكا آرجوس » رسولا للتنوير ؛ ولما كانت كل هذه الدوريات تقريباً تستعمل اللغات القومية ولا تخضع لإشراف كنسي ، فقد كانت بمثابة خميرة طالعة فى حركة عصرها المضطربة :

ومن سمات القرن الثامن عشر ، كما أنه من سمات عصرنا الحاضر ، ذلك التشوف المنتشر إلى المعرفة — وهو بالضبط تلك الشهوة الفكرية التي أنكرتها العصور الوسطى باعتبارها خطيئة الغرور الأحمق . وقد استجاب الكتاب بحماسة ليجعلوا المعرفة أوسع منالا وفهماً . فكثرت « الخلاصات » ، وحاولت كتب مثل « الرياضة الميسرة » و « آراء بيل الأساسية » و « عقل مونتيني » و عقل فونتيل » أن تضع العلم ، والأدب ، والفلسفة في متناول جميع الناس ، وازداد باطراد عدد الأساتذة الذين يحاضرون باللغات الوطنية ، ووصلت بذلك محاضراتهم إلى جماهير لا قبل لها بتعلم اللاتينية . وأخذت المكتبات والمتاحف تتسع وتفتح كنوزها للطلاب . ففي ١٧٥٣ أوصى السير هانز سلون للأمة البريطانية بمجموعته البالغة خمسين ألف كتاب ، وعدة آلاف من المخطوطات ، وعدداً كبيراً من الصور ، والعملات ، والتحف الأثرية . وقرر البرلمان تعويض ورثته بعشرين ألف جنيه ، وأصبحت المجموعة نواة للمتحف البريطاني ، وأضيف إليها مجموعتا مخطوطات هارلي وكوطن ، والمكتبات التي جمعها ملوك انجلتره ؛ وفي ١٧٥٩ فتح المتحف العظيم للجمهور . وكان يقتني في ١٩٢٨ نحو ٣,٢٠٠,٠٠٠ مجلد مطبوع و ٥٦,٠٠٠ مخطوط ، تملأ أرففه البالغ طولها خمسة وخمسين ميلا .

وأخيراً ظهرت الموسوعات لتجمع ، وترتب ، وتوصل للقراء ذخائر العلم الجديدة لكل قادر على القراءة والتفكير . وقد عرفت العصور الوسطى موسوعات كتلك التي وضعها ايزيدور أسقف إشبيلية (حوالي ٦٠٠ — ٦٢٦) ، وفانسان البوفي (حوالي ١١٩٠ — ١٢٦٤) ؛ وفي القرن السابع عشر كان هناك موسوعة يوهان هينريش آلستيد (١٦٣٠) و « القاموس التاريخي الكبير » لمورتيري (١٦٧٤) . وكان « القاموس التاريخي النقدي » لبيل (١٦٩٧) أقرب إلى تجميع لحقائق مقلقة ، ونظريات موحية ، منه إلى الموسوعة ، ولكن تأثيره على فكر أوربا المثقفة فاق تأثير أي مؤلف مماثل آخر قبل مؤلف ديدور . وفي لندن نشر أفرايم تشيمبرز عام ١٧٢٨ ، في مجلدين « موسوعة أو قاموساً عاماً للآداب والعلوم » ، وقد أسقط منه التاريخ ، والتراجم ، والجغرافيا ، ولكنه بفضل نظام الأحالات أو الإسنادات

التر افقية الذى ابتكره ، وبغير ذلك من الوسائل ، فتح الطريق الذى سلكته « موسوعة » ديدرو ودالامبير الخطيرة (١٧٥١ وما بعدها) . وفى ١٧٧١ ظهرت فى ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى من « الموسوعة البريطانية » ، أو قاموس الآداب والعلوم – من وضع بعض السادة فى اسكتلندة ، ومطبوعة فى أدنبرة وبلغت طبعة ثانية منها (١٧٧٨) عشرة مجلدات ، وتقدمت على سابقتها باحتوائها التاريخ والتراجم . وهكذا اطرد نموها من طبعة لأخرى خلال مائتى عام . وما أكثر الذين تزودوا منا من هذا المحصول ، وسطوا على تلك الذخيرة ، غير مرة كل يوم » .

وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كانت الطبقات الوسطى فى أوربا الغربية لا تقل ثقافة عن طبقتى الأشراف والاكليروس . لقد شقت الطباعة طريقها ، تلك كانت الثورة الأساسية رغم كل ما يقال .

٢ – إلهام الدراسات الكلاسيكية :

كانت الدراسات الكلاسيكية تهبط فى رفق من مكان القمة الذى تربعت عليه أيام جوليوس وجوزف سكاليجر ، وكازوبون ، وسالماسيوس ، وبنتلى ؛ ولكن نيكولا فريرى واصل ما نهجوا عليه من تفان جدير بالعلماء ، وما حققوه من نتائج بعيدة المدى . فقد قبل عضواً فى الأكاديمية) الفرنسية الملكية للمأثورات والآداب البحتة وهو فى السادسة والعشرين ، وقرأ لها فى ذلك العام (١٧١٤) بحثاً « فى أصل الفرنجة » قلب الأسطورة الفخور التى زعمت أن الفرنجة رجال « أحرار » قدموا من اليونان أو طروادة ، فقال إن الأصح أنهم كانوا همجاً من الألمان الجنوبيين . وأبلغ عنه الأبية فرتو الحكومة لأنه قذف فى الملكية . فزج بالعالم الشاب فى الباستيل فترة قصيرة ، وبعدها قصر أبحاثه على بلاد غير فرنسا . ورسم ١,٣٧٥ خريطة توضح الجغرافيا القديمة . وجمع البيانات المثيرة عن تاريخ العلوم والآداب الكلاسيكية ، وعن أصول الأساطير اليونانية . وقد صححت مجلداته الثمانية عن التأريخ القديم (الكرونولوجيا) كتاب جوزف يوسطس سكاليجر الخطير ، وأرسى التاريخ الصينى على أسس مقبولة فى يومنا هذا ، فكان هذا

واحداً من مئات الوخزات العلمية التى أحدثت تقوياً فى مفهوم الكتاب المقدس للتاريخ :

ووجهت ضربة مماثلة للخرافات الكلاسيكية حين قرأ بوبى على الأكاديمية (١٧٢٢) بحثاً يتشكك فى رواية ليفى للتاريخ الرومانى القديم . وكان لورنتسو فاللا قد ألمع إلى هذه الشكوك عن هذه النقطة حوالى عام ١٤٤٠ ، وقد طورها فيكو عام ١٧٢١ ، ولكن بحث بوبى المستفيض سخف بشكل قاطع قصص رومولوس وريموس ، والهوراشيين ، والكورياتيين ، باعتبارها مجرد أساطير ؛ ومهد الطريق لعمل بارتولد نيبور فى القرن التاسع عشر . ولا تدخل الكتب التالية تماما فى النطاق الزمنى لهذا الفصل ، مع انتمائها إلى القرن الثامن عشر ، وهى كتاب « ملاحظات تمهيدية عن هومر » (١٧٩٥) الذى فكك فيه فريدرش فولف الشاعر هومر إلى مدرسة وأسرة كاملة من المنشدين ؛ وطبعات رتشرد بورسن المدققة لأسخيلوس ويوربيديس ، وكتاب يوزف ايكيل « نظرية المسكوكات » (١٧٩٢ - ٩٨) الذى أسس علم المسكوكات والمعادن .

ولم يشعر عالم الدراسات الكلاسيكية ثانية بنشوة إلهام كذلك الإلهام الذى جاءه من إنسانيي النهضة ، إلا حين اكتشفت مدينة هركولانيوم . ففى ١٧٣٨ كان عمال يضعون أساس بيت للصيد يبنى لشارل الرابع ملك نابلى ، فكشفوا بطريق الصدفة عن أطلال هركولانيوم ، وفى ١٧٤٨ أظهر فحص مبدئى بعض الأبنية المذهلة لمدينة بومبى التى طمرها هى أيضاً ثوران فيزوف فى ٧٩ م . وفى ١٧٥٢ استنقذت المعابد الفخمة التى بناها المستعمرون اليونان فى بيستوم من غياهب القرون المظلمة . وقد رسم الحفار الكبير بيرانيزى معابد بومبى وقصورها وتماثيلها التى أخرجتها الحفائر على محفورات وجدت النسخ المنقولة عنها إقبالا من المشترين فى كل أنحاء أوربا . وأسفرت هذه الكشوف عن إحياء حار لاهتمام القوم بالفن القديم ، ودافع قوى للحركة الكلاسيكية الجديدة التى تزعمها فنكلمان ، وإضافة هائلة للمعرفة الجديدة بأساليب الحياة القديمة .

ويجب أن نقف هنا هنيهة للإقرار بدين العلم للرهبان الذين استخدموا

مكتباتهم ومجموعات مخطوطاتهم للقيام بأبحاث وتصنيف سجلات كانت معينة جداً للفكر الحديث . من ذلك أن رهبان القديس مور البندكتيين واصلوا عكوفهم القديم على الدراسات التاريخية . وأنشأ دوم برنار دمونفوكون علم الباليوغرافيا (الكتابات القديمة) بكتابه « الباليوغرافيا اليونانية » (١٧٠٨) ، ووضح التاريخ القديم بالفن القديم فى كتابه « العلم القديم مشروحاً وممثلا بالصور » (عشرة مجلدات ، ١٧١٩ — ٢٤) ووجه دراساته المدققة لوطنه فى خمسة مجلدات من القطع الكبير « آثار المملكة الفرنسية » (١٧٢٩ — ٣٣) . وبدأ دوم أنطوان ريفيه دلاجرانج فى ١٧٣٣ التاريخ البندكتى المسمى « التاريخ الأدبى لفرنسا » الذى أصبح السلف والمعين الذى استمدت منه جميع التواريخ اللاحقة للأدب الفرنسى القديم . وكان أعظم علماء القرن الثامن عشر البندكتيين هؤلاء هو دوم أوجستن كالميه ، الذى التجأ فولتير إلى ديره فى سينون عام ١٧٥٤ ، ولم ين فولتير عن الإفادة من كتاب كالميه « شروح نصية على جميع أسفار العهدين القديم والجديد » (١٧٠٧ — ١٦) ، بل سطا عليه أحياناً . ورغم ما فى هذه المجلدات الأربعة والعشرين من مآخذ[١٨] فقد امتدحها القراء باعتبارها أثراً شامخاً للتفقه فى العلم . وقد ألف كالميه عدة كتب أخرى فى تفسير الكتاب المقدس ، وحذا حذو بوسويه فى تصنيف « تاريخ للعالم » (١٧٣٥) ، وأنفق كل ساعات يقظته تقريباً فى الدرس والصلاة . ومرة سأل فولتير فى جهل سعيد « من تكون مدام دبومبادور هذه ؟ » [١٩] ورفض منصب الأسقفية ، وكتب قبريته التى قال فيها باللاتينية « هنا يرقد إنسان قرأ كثيراً ، وكتب كثيراً ، وصلى كثيراً ، فلعله أحسن عملا ! آمين » [٢٠] .

وشارك بعض العلمانيين الأجرياء فى نقد الكتاب المقدس مثال ذلك الطبيب جان آسترك ، الذى درس مصادر الأسفار الخمسة ، التى افترض أن موسى كاتبها ، فى كتابه « استقراءات حول السجلات الأصلية التى يبدو أن موسى اقتنع بها فى كتابة سفر التكوين » (١٧٥٣) ؛ هنا ذكر لأول مرة أن استعمال اسمين مختلفين لله ، وهما يهوه وأيلوهيم ، يشير إلى قصتين أصليتين للخليقة ، ربط بينهما فى سفر التكوين ربطاً واهياً متكرراً . وحاول آخرون من دارسى الكتاب المقدس أن يحسبوا تاريخ الخليقة من واقع

الأسفار الموسوية الخمسة ، فخلصوا إلى مائتى نتيجة مختلفة . وأزعج المستشرقون المؤمنين المحافظين بذكرهم التأريخ المصرى (الكرونولوجيا) الذى زعم أنه يرجع إلى ثلاثة عشر ألف سنة ، والحسابات الصينية التى قدرت عمر الحضارة الصينية بتسعين ألف سنة . ولم يصدق أحد البراهمة الهنود الذين يعتقدون أن العالم عمر ٣٢٦,٦٦٩ عصرا ، يحتوى كل منها على قرون كثيرة . (٢١)

أما أجرأ وأخطر إسهام فى دراسات الكتاب المقدس Biblical Studies فى القرن الثامن عشر فصاحبه أستاذ ألمانى للغات الشرقية فى أكاديمية هبورج ، هو هرمان رايماروس . وقد ترك عند موته فى ١٧٦٨ مخطوطاً من أربعة آلاف صفحة عكف عليه عشرين عاماً ، وعنوانه « دفاع عن عباد الله العقلانيين » . ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر وعنوانه « دفاع عن عباد الله العقلانيين » . ولم يجرؤ أحد على نشره إلى أن نشر ليسنج(١٧٧٤ — ٧٨) سبع قطع منه وصفها بأنها «كسر من كتاب مجهول المؤلف وجد فى فولفتبوتل» (حيث كان ليسنج أميناً للمكتبة) . وهبت كل ألمانيا المثقفة تقريباً محتجة إلا فردريك الأكبر . لا بل أن يوهان زملر ، العالم المتحرر ، رمى ليسنج بالجنون لأنه احتضن مثل هذا النقد المدمر للمعتقدات السنية . ذلك أن رايماروس لم يكتف فى الكسرة السابعة التى تناولت « هدف المسيح وتلاميذه » برفض معجزات المسيح وقيامته ، بل صوره يهودياً شاباً ، جاداً ، لطيفاً ، مخدوعاً ، ظل وفياً لليهودية إلى النهاية ، وقبل معتقد بعض اليهود بأن العالم مشرف على الزوال ، وأرسى مبادئه الأخلاقية على هذه المقدمة إعداداً للحدث . وذهب رايماروس إلى أن المسيح فسر عبارة « ملكوت السموات » بالمعنى المتعارف عليه بين قومه ، وهو ملك آت لليهود المحررين من روما . (٢٢)

وزعم أن صرخته اليائسة على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى » كانت اعترافاً بناسوته وبهزيمته . وبعد أن غاب أحال بعض الرسل هذا الملكوت الموعود حياة بعد الموت ، وبهذا المعنى لم يكن مفتتح المسيحية هو المسيح بل الرسل . ويقول ألبرت شفايتسر ، المفسر العلامة لكتاب رايماروس ، « ربما كان كتابه أروع إنجاز فى كل مسار البحث التاريخى فى حياة المسيح ، لأنه أول

من أدرك أن حياة الفكر التى تحرك فيها المسيح كانت فى صميمها أخروية ((eschatological)) « – أى مبنية على نظرية نهاية وشيكة للعالم . » [٢٣]

ومن دراسة الآثار اليهودية انتقل العلماء فى حذر إلى شعوب الشرق التى رفضت المسيح أو لم تسمع باسمه قط . فترجمة جالان الفرنسية لألف ليلة (١٧٠٤ – ١٧) وكتاب ريلان « ديانة المسلمين » (١٧٢١) ، وكتاب بوريفيه « تاريخ الفلسفة الوثنية » (١٧٢٤) ، وكتاب بولانفلييه « حياة محمد » (١٧٣٠) ، وترجمة سيل الإنجليزية للقرآن – هذه كلها أظهرت الإسلام ، لا عالماً من الهمجية ، بل ساحة لعقيدة منافسة قوية ، ولنظام خلقى بدا موفقاً رغم تسامحه مع فطرة تعدد الزوجات فى جنس الرجال . وفتح إبراهام هياسنت آنكتيل – دوبرون ميداناً آخر بترجمته أسفار البرت المقدسة . وقد جذبته إليها قراءته مختارات من الزند أفستا فى مكتبة بباريس ، فعدل عن تحضيره للقسوسية ، واعتزم أن يرتاد كتب الشرق المقدسة فى أصولها . ولما كان أفقر من أن يدفع نفقات الرحلة ، فقد انخرط وهو فى الثالثة والعشرين (١٧٥٤) فى سلك الحملة الفرنسية إلى الهند . وما أن وصل إلى بوندتشيرى حتى تعلم قراءة الفارسية الحديثة ، وفى شاندرناجور درس السنسكريتية ، وفى صورات أقنع كاهناً برتيا بأن يعلمه البهلوية والزندية . وفى ١٧٦٢ عاد إلى باريس ومعه ١٨٠ مخطوطاً شرقياً عكف على ترجمتها ؛ وكان خلال ذلك يعيش على الخبز والجبن والماء ، ويتجنب الزواج لأنه ترف لاطاقة له به . وفى ١٧٧١ نشر ترجمته الفرنسية للزند – أفستا ، وشذرات من كتب أخرى للبرت ، وفى ١٨٠٤ أصدر « الأوبانيشادات » . وقد شارك الوعى بالديانات والنواميس الأخلاقية غير المسيحية ، ببطء ، فى تقويض دجماطيقية العقائد الأوربية .

وكان أبعد هذه الإلهامات العرقية أثراً إماطة المرسلين والرحالة والعلماء الأوربيين اللثام عن تاريخ الصين وفلسفتها . وكانت البداية هى عودة ماركو بولو إلى البندقية فى ١٢٩٥ ، وعززتها الترجمات الفرنسية والإنجليزية (١٥٨٨) لكتاب الأب اليسوعى خوان جونذاليس دى مندوزا « تاريخ الصين » (لشبونه ١٥٨٤) ، وترجمة هاكلويت الإنجليزية ، فى كتابه

« رحلات » (١٥٨٩ - ١٦٠٠) ، لمقال لاتيني « عن مملكة الصين » (مكاو ، ١٥٩٠) . وظهر الأثر الجديد في مقال مونتيني » في التجربة (١٥٩١) حيث يقول « الصين ، التي تفضل حكومتها وآدابها وفنونها نظائرها عندنا في كثير من مواطن التفوق ، دون أي علم منها بنظمنا . » [٢٤] وفي ١٦١٥ نشر الأب اليسوعي نيكولاس تريجوت وصفه للبعثة المسيحية إلى الصين ، وسرعان ما ترجم إلى الفرنسية ، وإلى الإنجليزية في « حجاج برتشاش » (١٦٢٥) . وقد امتدح تريجوت وغيره النظام الصيني الذي قضى باشتراط التعليم المتخصص المفصل لتولى المناصب العامة ، وبالسماح لجميع الطبقات من السكان الذكور بالامتحان للوظائف ، وباخضاع كل الهيئات الحكومية للتفتيش الدوري . ونشر يسوعي آخر هو أثناسيوس كيرشر ، العلامة المدهش المتعدد المعارف ، في عام ١٦٧٠ ، موسوعة بمعنى الكلمة اسمها « الصين المصورة » امتدح فيها الحكومة الصينية لأن على رأسها ملوكاً - فلاسفة . [٢٥] .

وأثنى اليسوعيون ثناء مستطاباً على ديانة الصين وفلسفتها . فقال تريجوت إن الصينيين المتعلمين يتصورون الله روح العالم ، والعالم جسده ؛ وكان في وسع سبينوزا ، الذي قال بمثل هذا الرأي ، أن يقرأ هذه الفكرة في كتاب نشر بأمستردام في ١٦٤٩ ، يقتنيه في مكتبته فرانز فان دن إندن ، الأستاذ الذي علمه اللاتينية ؛ [٢٦] وفي ١٦٢٢ نشر اليسوعيون ترجمة لاتينية لكونفوشيوس « حكمة الصين » وفي خلاصة أخرى سموها « الفيلسوف الصيني كونفوشيوس » (١٦٨٧) وصفوا النظام الأخلاقي الكونفوشي بأنه « أرقى فضيلة علمت للناس ، فضيلة يجوز القول بأنها منبثقة من مدرسة المسيح » . [٢٧] وقد كتب الأب اليسوعي لوي لكونت في « مذكراته عن الصين » (١٦٩٦) أن الشعب الصيني « حفظ معرفة الإله الحق مدى ألفي عام » وأنه « مارس أنقى ناموس للفضيلة في الوقت الذي كانت فيه أوربا لا تزال مترديه في حمأة الخطيئة والفساد » [٢٨] وقد شجبت السوربون هذا الكتاب . وفي ١٦٩٧ نشر ليبنتز الحذر سياسياً ، المتيقظ لكل هبة نسيم في جو الفكر ، كتابه « آخر الأنباء من الصين » . وقد قدم فيه أوربا على الصين في العلوم والفلسفة ، ولكن :

« من كان يعتقد أن هناك شعباً يبزنا فيما يتبعه من مبادىء الحياة المدنية ؟ فهذا الذى نراه فى حالة الصينيين . . . فى الأخلاق والسياسة . فمحال أن نصف الجمال الذى وجهت به كل الأشياء فى قوانين الصينيين لتحقيق الطمأنينة والسلام للشعب أكثر من توجيهها فى قوانين الشعوب الأخرى . . . ويخيل إلى أن الوضع فى شئوننا قد بلغ من السوء – بسبب انتشار الفساد بيننا بغير حدود – مبلغاً يكاد يكون فيه من الضرورى أن يبعث إلينا مرسلون صينيون ليعلمونا فائدة الدين الطبيعى وممارسته ، تماماً كما نبعث إليهم بالمرسلين ليعلموهم الدين السماوى . لذلك أعتقد أنه لو اختير حكيم ليصدر حكمه ... فى تفوق الشعوب ، لأعطى قصب السبق للشعب الصينى – اللهم إلا فى تمايزنا عليه بشىء سام واحد ولكنه فوق الطبيعة البشرية ، وأعنى به العطية الإلهية التى وهبناها ، وهى الدين المسيحى . » (٢٩)

وحث ليبنتز أكدميات أوربا على جمع المعلومات عن الصين ، وساعد فى إقناع الحكومة الفرنسية بإرسال العلماء اليسوعيين الأكفاء للانضمام إلى البعثة فى الصين وتقديم التقارير الواقعية . وفى ١٧٣٢ لخص جان باتيست دوهالد هذه التقارير وغيرها من المعلومات فى كتابه « وصف ... امبراطورية الصين » ، وبعد عام ترجم الكتاب إلى الإنجليزية ، فكان له فى فرنسا وانجلتره تأثير بعيد المدى . وكان دوهالد أول من أذاع شهرة الفيلسوف الصينى مينسيوس فى أوربا . وما انتصف القرن الثامن عشر حتى كان كتاب بوسويه فى « تاريخ العالم » قد غض من قدرة ذلك الكشف عن حضارات قديمة ، واسعة ، مستنيرة ، كاد تاريخه « العالمى » يغفلها تماماً ، وأصبح الطريق ممهداً لمنظور فولتير الأوسع عن قصة الحضارة .

وظهرت نتائج هذه المبالغات الحماسية فى التقاليد والفنون والعادات والآداب والفلسفة الأوربية . ففى ١٧٣٩ نشر المركيز دارجنس سلسلة من « الرسائل الصينية » بقلم صينى وهمى ، انتقد فيها النظم والعادات الأوربية ، وفى ١٧٥٧ أضحك هوراس ولبول انجلتره بكتابه « رسالة من الفيلسوف الصينى كسوهو » ، وفى ١٧٦٠ لجأ جولدسمث إلى نفس الحيلة فى كتابه « مواطن العالم » . وحين كان الامبراطور جوزيف الثانى يحرث بنفسه قطعة

أرض كان يقلد عادة اتبعها الأباطرة الصينيون . [٣٠] وحين كانت سيدات باريس الراقيات يفتحن شماسيهن اتقاء الشمس ، كن يعرضن بدعة جميلة أدخلها اليسوعيون إلى فرنسا من الصين . [٣١] وفي أخريات القرن الثامن عشر تطورت الشمسية pavasol إلى مطرية umbrella . وكان الخزف الصيني واللاكيه الياباني قد أصبحا في القرن السابع عشر مقتنيات غالية في البيوت الأوربية ، واستهوى خيال الإنجليز حوالي عام ١٧٠٠ ورق الجدران الصيني الذي تؤلف وحداته الصغيرة الموضوعة في مكانها الصحيح رسماً كبيراً واحداً . ودخل الأثاث الصيني البيوت الإنجليزية حوالي عام ١٧٥٠ . وطوال القرن الثامن عشر كان الولع بالصينيات Chinoisees وهي الأدوات الصينية الصنع أو الطراز — يميز الزخرفة الإنجليزية والفرنسية . وسرى إلى إيطاليا وألمانيا ، واختلط بحلية الروكوك ، واستبدت بدعته بالناس استبداداً حمل الكثير من النقاد على أن يهبوا لتحدي طغيانه . وأصبح الحرير الصيني رمزاً لعلو المكانة الاجتماعية ، وانتشرت الحدائق الصينية في غرب أوربا ، وأحرقت الألعاب النارية الصينية أباهم الأوربيين . [٣٢] وكانت « توراندوت » التي ألفها جوزي « فنتازيا » صينية . وظهر نيف وعشر مسرحيات بخلفية صينية على المسرح الإنجليزي ، وطور فولتير مسرحيته « يتيم صيني » من دراما صينية في المجلد الثالث من كتاب دوهالد . [٣٣]

وكان التأثير الصيني في الفكر الغربي على أشده في فرنسا ، حيث تلقفه أحرار الفكر سلاحاً آخر يشهرونه على المسيحية . وأبهجهم أن يجدوا أن كونفوشوس كان رجلا حر التفكير لا يسوعياً مرحل عن وطنه . وصرحوا بأن نظام كونفوشيوس الخلقي أثبت أن الناموس الخلقي الذي لا يعتمد على دين سماوي شيء ممكن عملياً . [٣٤] ولاحظ بيل (١٦٨٥) أن امبراطوراً صينياً كان يمنح المرسلين الكاثوليك حرية العمل في الوقت الذي يفرض فيه لويس الرابع عشر ، بعد إلغائه مرسوم نانت المتسامح الذي أصدره هنري الرابع ، الامتثال لمذهب الدولة ، مستعيناً على ذلك بالعنف الهمجي الذي استعملته خيالته في احتلالها بيوت الهيجونوت . وقد أخطأ بيل في تفسير عقيدة الكونفوشوسيين فحسبهم ملحدين ، ومن ثم استشهد بهم لدحض الحجة المستمدة من الإجماع العالمي على وجود الله . [٣٥] أما مونتسكيو

فلم يستسلم للمد الشرقى ، ووصف الأباطرة الصينيين بأنهم حكام مستبدون ، ونلد بالتجار الصينيين غير الأمناء ، وفضح فقر الجماهير الصينية ، وتنبأ بما سيسفر عنه تكاثر السكان فى الصين من عواقب وخيمة .[٣٦] وحاول كزينيه الرد على مونتسكيو فى كتابه « حكم الصين الاستبدادى » (١٧٦٧) ، فأثنى على هذا الحكم لأنه « استبداد مستنير » واستشهد بنماذج صينية على اصلاحات لازمة فى الاقتصاد والحكم الفرنسيين . أما طرجو ، المرتاب فى مثالية الصين ، فقد كلف كاهنين كاثوليكيين صينيين فى فرنسا بأن يذهبا إلى الصين ويحاول الحصول على إجابات حقيقية عن اثنين وخمسين سؤالا ، وقد شجع تقريرهما على تقييم أكثر واقعية لما فى الحياة الصينية من خير وشر.[٣٧]

وقد قرأ فولتير عن الصين فى إفاضة وشغف . وخص الحضارة الصينية بالفصول الثلاثة الأولى فى « المقالة عن العرف » ، ووصف الصين فى قاموسه الفلسفى بأنها « أروع ممالك الأرض ، وأقدمها ، وأوسعها ، وأحفلها بالسكان ، وأحسنها تنظيما . »[٣٨]

وقد أسهم إعجابه بالحكومة الصينية فى ميله إلى الاعتقاد بأن خير أمل فى الإصلاح الاجتماعى معقود على « الاستبداد المستنير » ، الذى عنى به الملكية المستنيرة . وكان كالعديد من الفرنسيين ، وكالفيلسوف الألمانى فولف ، على استعداد لسلك كونفوشيوس فى زمرة القديسين ، لأنه «علم الشعب الصينى مبادىء الفضيلة قبل تأسيس المسيحية بخمسمائة سنة » .[٣٩] وذهب فولتير ، وهو الذى عرف عنه أدب السلوك ، إلى أن ما تحلى به الصينيون من ذوق وضبط للنفس ، ومسالمة هادئة ، مثال ينبغى أن يقتدى به مواطنوه السريعو الانفعال ،[٤٠] وربما أن يقتدى به هو نفسه . فلما ترجمت إلى الفرنسية قصيدتان من نظم تشين لونج (حكم ١٧٣٦ — ٩٦) امبراطور الصين فى تلك الفترة ، استجاب فولتير لها شعراً . فأهداه الامبراطور زهرية من الخزف الصينى .

وكان علم الأوربيين بالأديان والأنظمة الأجنبية عاملا قوياً فى إضعاف اللاهوت المسيحى . وأفضت الأنباء الواردة من فارس ، والهند ، ومصر ، والصين ، وأمريكا ، إلى سلسلة لا آخر لها من الأسئلة المربكة . فتساءل

مونتسكيو مثلا كيف يتأتى للمرأ أن يختار الدين الحق من بين ألفى دين مختلفة ؟ [٤١] وتساءل عشرات غيره كيف أمكن خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م ، فى حين أن الصين كان لها حضارة راقية سنة ٤٠٠٠ ق. م ؟ ولم لم تحتفظ الصين بسجل أو تقليد متوارث لطوفان نوح الذى تقول التوراة — إنه أغرق الأرض كلها ؟ ولم خص الله بوحيه الكتابى أمة صغيرة فى غرب آسيا إن كان قد قصد به البشرية كلها ؟ وكيف يستطيع إنسان أن يصدق بأنه لا خلاص بعيداً عن الكنيسة ؟ — فهل كل تلك الملايين التى عاشت فى الهند ، والصين ، واليابان ، تصلى الآن نار جهنم ؟ وكافح اللاهوتيون للإجابة عن هذه الأسئلة وأشباهها بتلال من التمييزات والتعليلات ، ولكن هيكل العقيدة ظهرت فيه رغم ذلك شروخ جديدة يوماً بعد يوم ، فى الغالب نتيجة لتقارير البعثات الدينية ، ولاح أحياناً أن اليسوعيين فى الصين قد اعتنقوا الكونفوشيوسية بدلا من أن يهدوا الصينيين إلى المسيح .

وألم يكن العلم الذى جاء به هؤلاء اليسوعيون المثقفون ، لا اللاهوت الذى علموه ، هو صاحب الفضل فى كسبهم الكثير جداً من الأصدقاء من بين الصينيين ؟



الفصل السادس عشر

التقدم العلمى (*)

١٧١٥٠ — ٨٩

١ — البحث المتسع

كان العلم أيضاً يزود الناس بإلهام جديد . ونمو العلم — نمو طلبه ، وطرائقه ، وكشوفه ، وتنبؤاته ، وثمراته الناجحة ، وسلطانه ، ومكانته — هذا النمو هو الجانب الايجابى لذلك التطور الحديث الأساسى الذى كان جانبه السلبى هو اضمحلال الايمان بالخوارق . ونشب الصراع بين كهانتين : الأولى كرست نفسها لتشكيل الخلق بطريق الدين ، والثانية لتربية العقل بطريق العلم . والكهانة الأولى هى الغالبة فى عصور الفقر أو الكوارث ، حين يكون الناس شاكرين لفضل العزاء الروحي والنظام الخلقى ، والثانية هى الغالبة فى عصور الثروة المتصاعدة ، حين يميل الناس إلى قصر آمالهم على هذه الدنيا .

ومن المألوف اعتبار القرن الثامن عشر دون السابع عشر فى انجازاته العلمية ، ولا شك أنه يخلو من الفحول الشوامخ أمثال جاليليو أو نيوتن ، ومن المآثر التى يمكن أن تقاس باتساع العالم المعروف ، أو الامتداد الكونى لجاذبية . أو صياغة حساب التفاضل والتكامل ، أو كشف الدورة الدموية . ومع ذلك فأى كوكبة من النجوم يتألق بها المشهد العلمى فى القرن الثامن عشر ! - أويلر ولاجرانج فى الرياضة ، وهرشل ولابلاس فى الفلك ، ودالامبير وفرانكلن وجلفانى وفولتا فى الفيزياء ، وبريستلى ولافوازييه فى الكيمياء ، ولنابيوس فى النبات ، وبوفون ولامارك فى الأحياء ، وهاللر فى الفسيولوجيا ، وجون هنتر فى التشريح ، وكونديلاك فى علم النفس ، وجنر بوبرها فى الطب -

* هذا الفصل مدين بصفة خاصة لكتاب ١ . ولف A. Wolf : History of science Technology and Philosophy in the 18th Century (تاريخ العلم التكنولوجيا والفلسفة في القرن ١٨) .

وقد خصصت الأكاديميات المتكاثرة المزيد من وقتها ومالها للبحث العلمى . وأدخلت الجامعات العلوم بازدياد فى برامجها ، فأنشأت كمبردج بين عامى ١٧٠٢ و ١٧٥٠ كراسى فى التشريح ، والفلك ، والنبات ، والكيمياء ، والجيولوجيا ، و « الفلسفة التجريبية » — أى الفيزياء . وأصبحت الطريقة العلمية تجريبية بصورة أدق .. وهبطت الخصومة الوطنية ، التى لوثت دولية الفكر بالجدل المحتدم بين نيوتن وليبنتز ، وتكاثفت الكهانة الجديدة عبر الحدود ، والحقائد اللاهوتية ، والحروب ، لترتاد المجهول المتعاظم . وجاء طلاب البحث من كل طبقة ، من بريستلى الرقيق الحال ودالامبير اللقيط ، إلى بوفون حامل لقب الشرف ولافوازييه المليونير . ودخل الملوك والأمراء ساحة البحث : فاشتغل جورج الثالث بالنبات ، وجون الخامس بالفلك ، ولويس السادس عشر بالفيزياء . وعكف الهواة أمثال مونتسكيو وفولتير ، والنساء أمثال مدام دشاتليه والممثلة الآنسة كليرون ، على العمل بجد فى المختبرات أو تلهوا بها ، وحاول العلماء اليسوعيون أمثال بوسكوفش الجمع بين الايمانين القديم والجديد .

ولم يتمتع العلم بمثل هذه الشعبية وهذا التشريف حتى جاء عصرنا الحاضر المتفجر . فقد رفع دوى كشوف نيوتن فى الرياضة والميكانيكا والفلك هامات العلماء فى كل بلد فى أوربا . صحيح إنهم لم يستطيعوا الارتقاء حتى يصل أحدهم — كما وصل نيوتن — إلى منصب مدير دار المسكوكات ، ولكنهم فى القارة ، بعد عام ١٧٥٠ ، وجدوا الترحيب فى المجتمع المعطر وغشوا المحافل جنباً إلى جنب مع اللوردات والأدواق . وفى باريس غصت قاعات المحاضرات العلمية بالمستمعين من الجنسين ومن جميع المراتب . كتب جولدسمث الذى زار باريس فى ١٧٥٥ يقول : « رأيت فى محاضرات روويل فى الكيمياء من نجوم الجمال المتألقة ما هو خليق بأن يزين بلاط الملك فى فرساى . » [1] وكانت نساء المجتمع العصريات يحتفظن بكتب العلوم على خزانات زينتهن ، وترسم لهن الصور — كما صورت مدام بومبادور — وعند أقدامهن ، المربعات والتلسكوبات . وفقد الناس الاهتمام باللاهوت ، ونفضوا عنهم العالم الآخر مع حرصهم على خرافاتهم . وغدا العلم الأسلوب والمزاج لعصر يتحرك فى نهر معقد من التغير المحموم إلى نهايته الوبيلة .

٢ - الرياضة

(أ) أويلر

كان التغير فى الرياضة الآن أبطأ لأن الكثير جداً قد أنجز فى ذلك الميدان طوال خمسة آلاف عام ، بحيث بدا أن نيوتن لم يترك زيادة لمستزيد . وبعد موته (١٧٢٧) حدث رد فعل ، بعض الوقت ، ضد فروض حساب التفاضل وأبهاماته . فهاجمها الأسقف باركلى ، فى مقال نقدى قوى (المحلل ، ١٧٣٤) ، لأنها تعادل تماماً غوامض الميتافيزيقا واللاهوت ، ورمى أتباع العلم بـ « الخضوع للسلطان ، وقبول الأشياء بالتسليم ، والإيمان بنقاط لا يمكن تصورها » وهى بالضبط التهم التى اتهم بها من قبل أتباع الدين . وقد لقى الرياضيون وما زالوا يلقون من العنف فى الرد عليه فى هذه النقطة ما يلقاه الماديون فى تفنيد مثاليته .

على أن الرياضة بنت لها جسوراً ، واستمر البحث فى الأرقام . فطور أبراهام دموافر ، ونيكولاس سوندرس ، وبروك تيلر فى انجلتره ، وكولن مكلورن فى اسكتلندة ، الشكل النيوتونى للتفاضل . ودفع دموافر قدما رياضيات الصدفة ومعاشات مدى الحياة . وإذ كان فرنسى المولد ، انجليزى الموطن ، فقد اختارته جمعية لندن الملكية (١٧١٢) حكماً فى دعاوى نيوتن وليبنتز المتنافسة على أيهما سبق صاحبه إلى اختراع حساب التفاضل النهائى الصغر . أما سوندرسن فقد كف بصره فى عامه الأول ، فتعلم حل المسائل الحسابية الطويلة العويصة عقلياً ، وعين أستاذاً للرياضة فى كمبردج فى عامه الحادى والعشرين (١٧١١) ، وألف كتاباً فى « الجبر » حاز الاستحسان الدولى . وسنرى كيف استهوت سيرته ديدرو . وترك تلور اسمه على النظرية الأساسية فى حساب التفاضل ، وأثبت مكلورين أن الكتلة السائلة التى تدور حول محورها تتخذ شكل القطع الناقص .

وفى بازل واصلت أسرة بونوللى إنجاب العلماء المبرزين طوال أجيال ثلاثة . وكانت هذه الأسرة البروتستنتية المذهب قد فرت من أنتورب (١٥٨٣) اتقاء فظائع دوق ألفا . وينتمى اثنان من الرياضيين البرنوليين السبعة لعصر لويس الرابع عشر ، وكان الثالث وهو يوهان الأول) ١٦٦٧ -

١٧٤٨ (مخضرماً أدرك حكم ملكين) لويس ١٤ و ١٥) وأصبح دانيال (١٧٠٠ — ٨٢) أستاذاً للرياضة فى سانت بطرسبورج وهو فى الخامسة والعشرين ، ولكنه عاد بعد ثمانية أعوام ليدرس التشريح ، والنبات والفيزياء ، وأخيراً الفلسفة ، فى جامعة بازل وترك مؤلفات فى حساب التفاضل والتكامل ، والصوتيات ، والفلك ، وأسس الفيزياء الرياضية تقريباً . وعلم أخوه يوهان الثانى (١٧١٠ — ٩٠) البلاغة والرياضة ، وترك بصمته على نظرية الحرارة والضوء . وقد نال دانيل جوائز من أكادمية العلوم عشر مرات ، ويوهان ثلاث مرات . وأصبح أحد أبناء يوهان ، وهو يوهان الثالث (١٧٤٤ — ١٨٠٧) ، فلكى الملك فى أكاديمية برلين ، وعلم ياكوب الثانى (١٧٥٨) — ٨٩) الفيزياء فى بازل ، والرياضة فى سانت بطرسبورج . لقد امتدت هذه الأسرة العجيبة عبر المنهج ، والقرن ، والقارة الأوربية .

ويتميز ليونارد أويلر ، تلميذ يوهان بونوللى الأول والمنافس الصديق لدانيال ، إماماً لرياضى عصره من حيث تعدد القدرات وغزارة الإنتاج . ولد فى بازل عام ١٧٠٧ ومات فى بطرسبورج عام ١٧٨٣ ، وبرز فى الرياضة ، والميكانيكا ، والبصريات ، والسمعيات ، والديناميكا المائية ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، وحفظ نصف الانيادة عن ظهر قلب ، فكان بهذا كله خير بيان لفوائد التنوع ومدى قدرات العقل البشرى . وفى ثلاث رسائل كبرى فى التفاضل والتكامل حرر هذا العلم الجديد من العقد الهندسية التى ولد بها ، وأرسى أسسه بوضعه تفاضلا جبرياً — « تحليلا » . وأضاف إلى هذه الرسائل الكبرى .مؤلفات فى الجبر ، والميكانيكا ، والفلك ، والموسيقى ؛ على أن مقاله عن « نظرية جديدة فى الموسيقى » (١٧١٩) « احتوى من الهندسة فوق يسيغه الموسيقيون ، ومن الموسيقى فوق ما يسيغه الهندسيون . » [٢] وقد احتفظ رغم تبحره فى العلم بإيمانه الدينى إلى النهاية .

وحين انتقل دانيال برنوللى إلى سانت بطرسبورج وعد ليونارد بأن يحصل له على وظيفة فى أكاديميتها . وذهب الشاب إليها وهو فى العشرين ، ولما غادر دانيال روسيا (١٧٣٣) خلفه أويلر رئيساً لقسم الرياضة . وأدهش زملاءه الأكاديميين بأن حسب فى ثلاثة أيام جداول فلكية قدر أنها تحتاج إلى عدة شهور وعكف على هذا العمل وغيره عكوفاً شديداً ليل نهار

على ضوء ضعيف ، حتى فقد بصر عينه اليمنى فى ١٧٣٥ . ثم تزوج ، وشرع على الفور يجمع ويضرب ، بينما الموت يطرح ، فقد مات ثمانية من أبنائه الثلاثة عشر أطفالا. ولم يأمن على حياته فى عاصمة أنهكتها الدسائس والاغتيالات السياسية . وفى ١٧٤١ قبل دعوة من فردريك الأكبر للانضمام إلى أكاديمية برلين ، وهناك ، فى سنة ١٧٥٩ ، خلف موبرتوى فى الاضطلاع بالرياضة . وأحبته أم فردريك ، ولكنها وجدته صموتاً بشكل غريب ، وسألته « لم لا تتحدث إلى ؟ » فأجاب « سيدتى ، إننى قادم من بلد يشنق المرء فيه إن تكلم[٣] » . على أن الروس كانوا قادرين على السلوك المهذب . فقد واصلوا صرف راتبه له بعد رحيله بزمن طويل ، وحين نهب جيش روسى مزرعة أويلر أثناء غزوه برندنبورج سخا القائد الروسى فى تعويضه عن خسارته ، وأضافت الإمبراطورة إليزابث بتروفنا إلى التعويض مبلغاً من عندها .

وتاريخ العلم يكرم أويلر أولا لما أنتجه فى حساب التفاضل ، لاسيما لتناوله النظامى لتفاضل التغيرات . وقد دفع الهندسة وحساب المثلثات إلى الأمام باعتبارهما فرعين من فروع التحليل . وكان أول من تصور فى وضوح فكرة الوظيفة الرياضية التى هى الآن قلب الرياضة . وفى الميكانيكا صاغ المعادلات العامة التى ما زالت تحمل اسمه . وفى البصريات كان أول من طبق حساب التفاضل على ذبذبات الضوء وصاغ منحنى التذبذب باعتباره متوقفاً على المرونة والكثافة . واستنبط قوانين الانكسار تحليلياً وقام بدراسات فى انتشار الضوء مهدت لصناعة العدسات الأكرومانية . وشارك فى مشروع دولى هدفه إيجاد خط الطول فى البحر برسم موقع الكواكب وأوجه القمر ، وأعان حله التقريبى جون هاريسون على وضع جداول قمرية موفقه للبحرية البريطانية .

وفى ١٧٦٦ طلبت كاترين الكبرى إلى أويلر أن يعود إلى سانت بطرسبورج . وقد عاد إليها ، فاحتفت به حفاوة بالغة . ولم يثبت بعد وصوله أن كف بصره تماماً ، ولكن ذاكرته بلغت من الدقة ، وسرعة حسابه بلغت من

العظمة مبلغاً أتاح له أن يواصل الإنتاج بنشاط يقرب من نشاطه السابق . وأملى الآن كتابه « مقدمة كاملة للجبر » على خياط شاب لم يكن حين بدأ عمله هذا يعرف شيئاً عن الرياضة أكثر من الحساب البسيط ، وقد أضفى هذا الكتاب على الجبر الشكل الذى احتفظ به إلى يومنا هذا . وفى ١٧٧١ دمرت نار بيت أويلر ، وأنقذ مواطن سويسرى من بازل يدعى بيتر جريم الرياضى الأعمى من النيران إذ حمله على كتفيه بعيداً عن الخطر . ومات أويلر عام ١٧٨٣ وقد بلغ السادسة والسبعين بنوبه فالج أصابته وهو يلعب مع أحد حفدته .

(ب) لجرانج

ولم يفقه غير رجل واحد فى قرنه وعلمه ، وهو الفتى الذى بسط عليه رعايته — جوزف لوى لجرانج . وكان واحداً من أحد عشر طفلا ولدوا لزوجين فرنسيين يقيمان فى تورين ، ولم يتجاوز الطفولة من هؤلاء كلهم غيره . وقد تحول عن الدراسات الكلاسيكية إلى العلم عند قراءته مذكرة وجهها هالى إلى جمعية لندن الملكية ، فكرس نفسه للتو لدراسة الرياضة ، وسرعان ما برز فيها تبريزاً أوصله فى سن الثامنة عشرة إلى منصب أستاذ الهندسة فى أكاديمية المدفعية بتورين . وقد ألف من تلاميذه ، وكلهم تقريباً أكبر منه سناً ، جماعة بحث نمت حتى غدت أكاديمية تورين للعلوم . وفى التاسعة عشرة أرسل إلى أويلر طريقة جديدة لتناول حساب تفاضل التغيرات . ورد أويلر بأن الطريقة تذلل صعوبات لم يستطع هو نفسه تذليلها . وأجل السويسرى الكريم إذاعة النتائج التى وصل إليها ، حتى لا أحرمك من أى قسط من المجد الذى تستحقه . » وأذاع لجرانج طريقته فى المجلد الأول الذى أصدرته أكاديمية تورين (١٧٥٩) وشهد أويلر فى مذكرته عن حساب تفاضل التغيرات بكل الفضل للفتى . وفى ذلك العام (١٧٥٩) انتخب بنفوذه عضواً أجنبياً بأكاديمية برلين وهو لا يعدو الثالثة والعشرين . ولما غادر أويلر بروسيا زكى لجرانج خلفاً له فى الأكاديمية ، وأيد دالامبير هذا الاقتراح بحرارة ، وفى ١٧٦٦ انتقل لجرانج إلى برلين . وقد حيا

فردريك الأكبر باعتباره « أعظم ملك فى أوربا » ، ورحب به فردريك « أعظم الرياضيين فى أوربا »[٥] وكان هذا سابقاً لأوانه ، ولكنه صدق بعد قليل . والعلاقات الودية التى ربطت أئمة رياضيي القرن الثامن عشر — أويلر ، ولجرانج ، وكليرو ، ودالامبير ، ولجاندر — تؤلف فصلا مبهجاً فى تاريخ العلم .

وخلال العشرين السنة التى أقام فيها لجرانج ببرلين ألف تدريجياً أجزاء رائعته الكبرى « الميكانيكا التحليلية » . وعلى هامش هذا المشروع الأساسى نقب فى الفلك ، وقدم نظرية عن توابع المشترى وتعليلا لترجحات القمر ، أى التغيرات فى الأجزاء المنظورة منه . وفى ١٧٨٦ مات فردريك الأكبر ، وخلفه فردريك وليم الثانى ، الذى لم يكن يعبأ كثيراً بالعلم . فقبل لجرانج دعوة من لويس السادس عشر للانضمام إلى أكاديمية العلوم الباريسية وأعطى سكناً مريحاً فى اللوفر ، وأصبح أثيراً لدى مارى أنطوانيت التى بذلت ما وسعها لتخفف عنه نوبات الاكتئاب التى كثيراً ما انتابته وجلب معه مخطوط « الميكانيكا التحليلية » ، ولكنه لم يستطع العثور على ناشر يتصدى لمثل هذه المشكلة الطباعية العسيرة فى مدينة تغلى مراجلها بالثورة . وأخيراً أقنع صديقاه أدريان لجاندر والأبية مارى طابعاً بالاضطلاع بهـذه المهمة ، ولكنه لم يقتنع إلا بعد أن وعده ألابيه بأن يشترى جميع النسخ غير المباعة بعد تاريخ محدد . فلما وضع الكتاب الذى لخص جهد حياة لجرانج بين يديه (١٧٨٨) لم يكترث بالنظر إليه ، فقد كان فى إحدى نوبات اكتئابه الدورية التى أفقدته كل اهتمام بالرياضة ، بل بالحياة . وظل الكتاب مقفلا على مكتبه عامين كاملين .

وهناك إجماع على وضع « الميكانيكا التحليلية » فى قمة رياضة القرن الثامن عشر . فهذا الكتاب الذى لم يفقه غير « الأصول » فى الميدان الذى تناوله الكتابان ، تقدم على كتاب نيوتن هذا باستعماله « التحليل » — التفاضل الجبرى — بدلا من الهندسة فى إيجاد الحلول وعرضها ، وقد جاء فى المقدمة « ليس فى هذا الكتاب رسوم بيانية » وبهذه الطريقة اختزل لجرانج الميكانيكا إلى صيغ عامة — تفاضل التغيرات — يمكن أن تستخلص منها معادلات نوعية

لكل مسألة بعينها ، وما زالت هذه المعادلات العامة تسود الميكانيكا وتحمل اسمه . ووصفها إرنست ماخ بأنها من أعظم الإسهامات فى الاقتصاد فى الفكر[٦] وقد رفعت ألفرد نورث هوايتهيد إلى ذرى النشوة الدينية فقال « إن فى هذه المعادلات من الجمال ، ومن البساطة التى تكاد تبلغ مرتبة القداسة ، ما يجعل هذه الصيغ جديرة بأن تضارع تلك الرموز الغامضة التى آمن الناس فى القديم بأنها تدل مباشرة على الكائن الأعلى الذى يكمن وراء كل الأشياء [٧] .

فلما نشبت الثورة بسقوط الباستيل (١٤ يوليو ١٧٨٩) نصح لجرانج ، المقرب إلى الملكية ، بأن يعود إلى برلين ، ولكنه أبى . فلقد كان على الدوام متعاطفاً مع المظلومين ، ولكنه لم يؤمن بقدرة الثورة على النجاة من نتائج عدم المساواة الطبيعى بين البشر . وهالته مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وإعدام صديقه لافوازييه ، ولكن صمته المكتئب أنقذ رأسه من الجيلوتين . فلما فتحت مدرسة المعلمين (١٧٩٥) نيط لجرانج بقسم الرياضة فيها ، وحين أقفلت وأسست مدرسة الفنون والصنائع (١٧٩٧) كان أول أساتذتها ، والأساس والاتجاه الرياضيان للتعليم الفرنسى هما بعض تأثير لجرانج الطويل الأمد .

وفى ١٧٩١ عينت لجنة لوضع نظام جديد للموازين والمقاييس . وكان لجرانج ، ولافوازييه ، ولابلاس ، من أوائل أعضائها . وبعد ثلاثة أشهر « طهر » اثنان من هذا الثالوث ، وأصبح لجرانج العقل القائد فى وضع النظام المترى . واختارت اللجنة أساساً للطول ربع الكرة الأرضية — ربع الدائرة العظمى التى تمر حول الأرض على مستوى البحر بطريق القطبين ، وأخذ جزء على عشرة ملايين منه وحدة جديدة للطول وسمى متراً . واختارت لجنة فرعية الجرام وحدة جديدة للموازين : وهو وزن الماء المقطر فى درجة الصفر المئوية ، ويشغل مكعباً كل ضلع فيه سنتيمتر واحد — أى جزء على مائة من المتر . وبهذه الطريقة بنيت جميع الأطوال والأوزان على ثابت فيزيائى واحد ، وعلى العدد عشرة . وظل هناك مدافعون عن النظام الإثنى عشرى ، الذى اتخذ العدد اثنى عشر أساساً له ، كما هو متبع فى انجلترة ، وبوجه عام فى تقديرنا للزمن . ولكن لجرانج أصر على النظام العشرى ، وكان له ما أراد . فقررت الحكومة الفرنسية هذا النظام فى ٢٥ نوفمبر ١٧٩٢ ،

وما زال ، مع بعض التعديلات باقياً إلى يومنا هذا ، ولعله أبقى نتائج الثورة الفرنسية .

وأضاءت تجربة رومانسية كهولة لجرانج . ذلك أنه حين بلغ السادسة والخمسين أصرت فتاة فى السابعة عشرة ، كانت ابنة صديقه الفلكى لمونييه ، على الزواج منه وتكريس نفسها للتخفيف من أوهامه ووساوسه . وأذعن لجرانج ، وبلغ من عرفانه بصنيع حبها أنه كان يصحبها إلى المراقص والحفلات الموسيقية . وكان قد تعلم أن يحب الموسيقى – التى هى لعبة تحتال بها الرياضة على الأذن – لأنها « تعزلنى . إننى أسمع الموازين الموســيقية الثلاثة الأولى ، وفى الرابعة لا أعود أعى شيئاً ، فأستسلم لأفكارى ، ولا شىء يقطعها على ، وبهذه الطريقة أحل أكثر من مسألة عويصة » (٨) .

فلما هبطت حمى الثورة ، هنأت فرنسا نفسها لأنها أعفت إمام رياضيى العصر من الجيلوتين . وفى ١٧٩٦ أوفد تاليران إلى تورين ليزور بصفة رسمية والد لجرانج ويقول له « إن ابنك الذى تفخر بيدمونت بأنها أنجبته ، وتفخر فرنسا بأنه مواطن فيها ، وقد شرف البشر أجمعين بعبقريته » (٩) . وكان نابليون يحب فيما بين حملاته أن يتحدث إلى الرياضى الذى تحول إلى الفلسفة .

واستعاد الشيخ اهتمامه بالرياضة حين نفخ ووسع « الميكانيكا التحليلية » (١٨١٠ – ١٣) لإعداد طبعة ثانية من الكتاب . ولكنه أسرف فى الجهد والسرعة كعادته ، وأضعفته نوبات من الدوار ، ومرة وجدته زوجته فاقد الوعى على أرض الحجرة ، وقد نزف رأسه من قطع سببه سقوطه على حرف المائدة . وأدرك أن قواه البدنية آخذة فى النضوب ، ولكنه تقبل هذا التحلل البطىء على أنه طبيعى ومعقول . وقال لمونج ولغيره من عواده :

« كنت مريضاً جداً أمس أيها الأصدقاء ، وأحسست أننى سأموت . وأصاب الضعف بدنى شيئاً فشيئاً ، وانطفأت قواى العقلية والبدنية دون وعى منى . ولاحظت « متوالية » تناقص عافيتى ، الحسنة التدرج ، ووصلت إلى النهاية دون أسف ، أو حسرات ، وفى هبوط غاية فى الرفق . يجب

ألا نخشى الموت ، وحين يأتى دون ألم ، فإنه يكون وظيفة أخيرة ليست بالكريهة ... إن الموت هو الراحة الكبرى للجسد [١٠] .

ومات فى ١٠ ابريل ١٨١٣ وقد بلغ الخامسة والسبعين غير بالك على شىء إلا اضطراره لترك زوجته الوفية عرضة لمخاطر ذلك العهد ، حين بدا أن العالم كله قد امتشق الحسام لقتال فرنسا .

وحمل صديقاه جسبارمونج ، وأدريان لجاندر ، إلى القرن التاسع عشر تلك الأبحاث الرياضية التى كانت الأسس للتقدم الصناعى . وينتمى إنتاج لجاندر (١٧٥٢ — ١٨٣٣) إلى عصر ما بعد الثورة ، وحسبنا أن نقرئه التحية فى طريقنا . أما مونج فكان بابن بائع متجول وسنان سكاكين . ونحن نراجع فكرتنا عن الفقر الفرنسى حين نرى هذا العامل البسيط يوفر لثلاثة من أبنائه التعليم فى الكلية . ونال جسبار كل ما أتيح من جوائز فى فى المدرسة . وفى الرابعة عشرة صنع آلة لإطفاء الحريق . وفى السادسة عشرة رفض دعوة معلميه اليسوعيين إياه أن ينضم إلى طريقتهم . وبدلا من هذا أصبح أستاذ الفيزياء والرياضة فى المدرسة الحربية بميزيير . وهناك صاغ أصول هندسته الوصفية — وهى طريقة لعرض شكل ثلاثى الأبعاد على مستوى وصفى واحد . وتبين عظم فائدة هذه الطريقة فى تصميم الحصون وغيرها من المبانى ، حتى أن الجيش الفرنسى ظل خمسة عشر عاماً يحظر عليه البوح بسرها علناً ، ثم سمح له (١٧٩٤) بتدريسها فى مدرسة المعلمين بباريس . وقد أخذ لجرانج العجب وهو يستمع إلى محاضراته فيها ، شأن جوردان فى مسرحية فولتير « قبل أن أستمع إلى مونج لم أعرف أننى أعرف الهندسة الوصفية » [١١] . وقد أبلى مونج بلاء حسناً فى خدمة الجمهورية التى تعد نفسها للمعركة . وارتقى إلى منصب وزير البحرية . وعهد إليه نابليون بالكثير من المهام السرية . وبعد عودة البوربون إلى الملك عانى مونج من الفاقة والتعرض للخطر . فلما مات (١٨١٨) منع تلاميذه فى مدرسة الفنون والصنائع من السير فى مأتمه . وفى الغد ساروا إلى المدفن بهيئتهم الكاملة ، ووضعوا على قبره اكليلا من الزهر .

٣ — الفيزياء

(١) المادة والحركة والحرارة والضوء

نمت الرياضة لأنها كانت الأساس والأداة التي لاغنى عنها للعلوم كلها ، إذ اختزلت الخبرة والتجربة إلى قوانين كمية أتاحت التنبؤ الدقيق والضبط العملي . وكانت الخطوة الأولى هي تطبيقها على المادة عموماً : بكشف الاطرادات ووضع « القوانين » للطاقة ، والحركة ، والصوت ، والضوء ، والمغنطيسية ، والكهرباء ، هناكمن ما يكفي من الأسرار التي تتطلب الكشف عن خوافيها .

وقد ضحى بيير لوى مورو دموبرتوى بمستقبله فى الجيش الفرنسي ليكرس نفسه للعلم . وسبق فولتير فى تعريف فرنسا بنيوتن ، وفى تقدير مفاتن مدام دوشاتليه وتعليمها . وفى ١٧٣٦ ، كما سنرى ، رأس بعثة إلى لايلاند لقياس درجة طولية . وفى ١٧٤٠ قبل دعوة لزيارة فردريك الثانى ، وتبع فردريك إلى معركة مولفتز (١٧٤١) ، وأسره النمساويون ، ثم أطلقوا سراحه بعد قليل . وفى ١٧٤٥ انضم إلى أكاديمية برلين للعلوم ، وبعد عام أصبح عميداً لها . وشرح المبدأ الذى توصل إليه لأكاديمية باريس للعلوم فى ١٧٤٤ ، ولأكاديمية برلين فى ١٧٤٦ ، وهو المبدأ القائل بأقل حركة : « حين يحدث أى تغيير فى الطبيعة فإن كية الحركة المستخدمة لهذا التغيير هى دائماً أقل ما يمكن . » وذهب إلى أن هذا يثبت وجود نظام منطقى فى الطبيعة ، وإذن وجود اله منطقى [١٢] . وطور أويلر ولجرانج هذا المبدأ ، وفى زماننا هذا لعب دوراً فى نظرية الكم . وفى « مقال فى علم الكون » (١٧٥٠) أحيا موبرتوى بدعة لا يمكن القضاء عليها : فهو مع تبينه قصداً فى الطبيعة ، إلا أنه اعترف بأنه يرى فيها أيضاً علامات الغباء أو الشر ، وكأن شيطاناً ينافس إلهها خيراً فى تعريف شئون الكون [١٣] . ولعل موبرتوى كان يوافق خصمه اللدود فولتير على أن القديس أوغسطين كان ينبغى أن يظل مانويا .

وقد سبقت الإشارة إلى مولد دالامبير ، ثمرة غير مقصودة لصلة عابرة بين ضابط مدفعية وراهبة سابقة . عثرت عليه شرطة باريس على سلم كنيسة

سان جان لورون ولما تمض على مولده ساعات (١٧١٧) . فعمدوه باسم جان بانيست لورون ، وأرسلوه إلى مرضع فى الريف . وطالب به أبوه ، الشفالييه ديتوش ، وسماه دارامبر (لأسباب نجهلها) ، ودفع أجراً لمدام روسو ، وهى زوجة صانع زجاج ، لتتبنى الطفل . وتبين أنها رابة مثالية ، وأن جان غلام نابغة . فلما بلغ السابعة أراه أبوه فى فخر لأمه ، مدام دتانسان ، ولكنها قررت أن مستقبلها خليلة وصاحبة صالون سيضار بقبول الطفل ، ولم تسهم بشىء فى إعالته على قدر علمنا ، أما الشفالييه فقد ترك له قبل موته فى ١٧٢٦ معاشاً سنوياً قدره ألف ومائتا جنيه .

وتلقى جان تعليمه فى الكوليج دكاتر ناسيون (كلية الأمم الأربع) ، ثم فى جامعة باريس ، حيث نال درجة القانون . وهناك ، حوالى عام ١٧٣٨ ، غير اسمه من دارامبر إلى دالامبر . ثم اتجه إلى دراسة الطب بعد أن مل القانون ، ولكن ميلا عارضاً إلى الرياضة انقلب فيه غراماً مشبوباً . قال « كانت الرياضة لى أشبه بالخليلة للرجل » [١٤] . وواصل السكنى مع مدام روسو حتى بلغ الثامنة والأربعين وهو يعتبرها فى عرفانه بصنيعها أمه الوحيدة . وكان من رأيها أن مما يشين الرجل أن يسلم نفسه إلى حياة الدرس ولا يبدى أى شهوة للمال . فكانت تقول له فى أسى « إنك لن تعدو أن تكون فيلسوفاً . وما الفيلسوف ؟ مجنون يعذب نفسه طوال حياته ليتحدث الناس عنه بعد موته » [١٥] .

ولعل دوافعه الملهمة لم تكن الرغبة فى الشهرة بعد الموت ، بل المنافسة الأبية مع العلماء الراسخين ، وتلك الغريزة الشبيهة بغريزة القندس ، التى تبتهج بالبناء ، وتخلق النظام من فوضى المواد أو الأفكار . على أية حال فإنه فى الثامنة والعشرين بدأ يقدم أبحاثاً لأكاديمية العلوم : أحدها فى حساب التكامل (١٧٣٩) ، وآخر فى انكسار الضوء (١٧٤١) ؛ وفى بحث الضوء هذا أقدم تعليل لانحناء أشعة الضوء وهى تنتقل من سائل إلى آخر أكبر كثافة ، ومكافأة له على هذا البحث قبلته الأكاديمية عضواً « ملحقاً » . وبعد عامين نشر أهم آثاره العلمية « رسالة فى الديناميكا » . وقد حاول فيها أن يختزل كل مسائل المادة المتحركة إلى معادلات رياضية ، وسبقت الرسالة رسالة

لجرانج الأفضل منها « الميكانيكا التحليلة » باثنتين وأربعين سنة ، وهى تحتفظ بأهميتها التاريخية لأنها صاغت النظرية الأساسية المعروفة الآن باسم « مبدأ دالامبير » ، وهى أعسر تخصصاً مما يحتمله هضمنا العام ، ولكنها عون كبير على الحسابات الميكانيكية . وقد طبقها فى « رسالة فى توازن السوائل وحركتها » (١٧٤٤) ، وظفرت من الأكاديمية بإعجاب حملها على مكافأته بمعاش من خمسمائة جنيه ، لابد أنه هدأ من ثائرة مدام روسو .

ومن مبدئه هذا من ناحية ، ومن معادلة مبتكرة فى حساب التفاضل ، توصل دالامبير إلى صيغة لحركة الرياح . وأهدى كتابه « تأملات فى السبب العام للرياح » (١٧٤٧) إلى فردريك الأكبر ، الذى استجاب بدعوته للإقامة فى برلين ، ولكن دالامبير رفض ، فأبدى بذلك من الحكمة وهو فى الثلاثين أكثر مما سيبديه فولتير وهو فى السادسة والخمسين . وفى « مقال عن نظرية جديدة فى مقاومة السوائل » (١٧٥٢) : حاول أن يجد صيغاً ميكانيكية لمقاومة الماء لجسم يتحرك فوقه ، فأخفق ؛ ولكن فى ١٧٧٥ ، وبتكليف من طورجو ، أجرى هو وكوندورسيه والابيه بوسو تجارب أعانت على تقرير قوانين مقاومة السوائل للأجسام المتحركة على سطوحها . وفى أخريات عمره درس حركة الأوتار المتذبذبة ، وأصدر (١٧٧٩) « مبادىء الموسيقى النظرية والعملية » متبعاً ومعدلا طريقة رامو ؛ وقد ظفر هذا الكتاب بثناء عالم الموسيقى الشهير تشارلز بيرنى . ويمكن القول أن دالامبير أوتى فى مجموعه عقلا من أذكى وأرهب العقول فى هذا القرن .

وعرض فردريك الأكبر وظيفة عميد أكاديمية برلين على دالامبير حين استقال موبرتيوس . وكان الرياضى — الفيزيائى — الفلكى — الموسوعى رجلا رقيق الحال ولكنه رفض المنصب فى أدب ، ذلك أنه كان يعتز بحريته ، وبأصدقائه ، وبباريس . واحترم فردريك بواعثه ، وأرسل إليه معاشاً متواضعاً من ألف ومائتى جنيه بعد استئذان لويس الخامس عشر . وفى ١٧٦٢ دعته كاترين الكبرى إلى روسيا وأكاديمية سانت بطرسبورج ، فرفض الدعوة ، لأنه كان الآن عاشقاً . وأصرت كاترين ، ربما بعد علمها بهذا ، وطلبت إليه أن يحضر « ومعك كل أصدقائك » ، وعرضت عليه راتباً

من ١٠٠,٠٠٠ فرنك فى العام . وقبلت اعتذاراته فى سماحة ، وواصلت مراسلته ، وناقشت معه أسلوب حكمها ومشاكله . وفى ١٧٦٣ ناشده فردريك أن يزور بوتسدام على الأقل ، فذهب دالامبير ، وكان يتناول الطعام مع الملك شهرين . ورفض مرة أخرى عمادة أكاديمية برلين ، وبدلا من ذلك اقتنع فردريك بأن يرفع راتب أويلر رب الأسرة الكبيرة (١٦) . ونرجو أن نلتقى بدالامبير مرة أخرى .

وكان لآل برنوللى المدهشين مساهمات عارضة فى الميكانيكا . فصاغ يوهان الأول (١٧١٧) مبدأ السرعات الافتراضية : « فى كل توازن للقوى أياً كانت ، وعلى أى صورة استخدمت ، وفى أى اتجاهات يؤثر بعضها فى بعض ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، يكون مجموع الطاقات الموجبة معادلا لمجموع الطاقات السالبة إيجابياً » . وأعلن يوهان وابنه دانيال (١٧٣٥) أن مجموع « القوة الحية » فى العالم ثابت دائماً ؛ وقد أعيدت صياغة هذا المبدأ فى القرن التاسع عشر باسم عدم فناء الطاقة . وطبق دانيال الفكرة تطبيقاً مثمراً فى كتابة « الديناميكا المائية » (١٧٣٨) وهو من عيون الكتب الحديثة فى ميدان بالغ الصعوبة . وفى ذلك المجلد أرسى أساس النظرية الحركية للغازات ، فالغاز يتألف من ذرات ضئيلة تتحرك بسرعة كبيرة ، وتحدث ضغطاً على الإناء بالصدمات المتكررة ، والحرارة تزيد من سرعة الذرات ، ومن ثم من ضغط الغاز ، ونقص الحجم (كما أثبت بويل من قبل) يزيد الضغط بنسبة النقص .

أما فى فيزياء الحرارة فإن ألمع الأسماء فى القرن الثامن عشر هو اسم جوزيف بلاك . ولد فى بوردو لأب اسكتلندى مولود فى بلفاست ، ودرس الكيمياء فى جامعة جلاسجو ، وفى السادسة والعشرين (١٧٥٤) أجرى تجارب فيما نسميه الآن التأكسد أو التآكل . وقد بينت هذه التجارب مفعول غاز ميزه عن الهواء العادى ، وكشف عن هذا الغاز فى الميزان ، وسماه « الهواء الثابت » (ونسميه الآن ثانى أوكسيد الكربون) ، وكان قد أوشك على الكشف عن الأوكسجين قبل ذلك . وفى ١٧٥٦ ، حين كان محاضراً فى الكيمياء ، والتشريح ، والطب فى الجامعة ، بدأ ملاحظات هدته إلى نظريته

فى « الحرارة الكامنة » : فحين تكون مادة ما بسبيلها إلى التغير من الحالة الجامدة إلى حالة السيولة أو من السيولة إلى الغازية ، فإن المادة المتغيرة تمتص من الهواء كمية من الحرارة لا يمكن ملاحظتها كتغيير فى درجة الحرارة ، وهذه الحرارة الكامنة ترد إلى الهواء حين يتحول غاز إلى سائل أو سائل إلى جامد . وقد طبق جيمس وات هذه النظرية فى تحسينه للآلة البخارية . وكان رأى بلاك فى الحراوة كرأى جميع أسلاف بريستلى ، أنها مادة تزداد أو تتناقص دفئاً ، وظلت هذه الفكرة سائدة حتى أثبت بنيامين طومسن ، كونت رمفورد ، فى ١٧٩٨ ، أن الحرارة ليست مادة بل شكلا من أشكال الحركة ، يفهم الآن على أنه حركة مكتسبة للأجزاء المكونة للجسم .

وفى هذه الأثناء توصل يوهان كارل فيلكى الاستوكهولمى إلى نظرية مماثلة فى الحرارة الكامنة (١٧٧٢) مستقلا عن بلاك . وفى سلسلة من التجارب رواها هذا العالم السويدى فى ١٧٧٧ أدخل اصطلاح « الحرارة المشعة » — أى الحرارة غير المنظورة التى تنبعث من المواد الساخنة ، وقد ميز بينها وبين الضوء ، ووصف خطوط حركتها وانعكاسها وتركيزها بواسطة المرايا ، ومهد للربط الذى ربطه فيما بعد بين الحرارة والضوء باعتبارهما شكلين متشابهين من أشكال الإشعاع . وحدد فيلكى ، وبلاك ، ولافوازييه ، ولابلاس ، وغيرهم من الباحثين ، القيمة التقريبية للصفر المطلق (وهو أدنى درجة حرارة ممكنة من حيث المبدأ) . أما البريطانيون فكانت وحدة الحرارة التى اتخذوها هى الكمية التى ترفع درجة حرارة رطل من الماء درجة فهرنهيتية ، أما الفرنسيون ، وشعوب القارة عموماً ، فقد فضلوا استعمال كمية الحرارة التى ترفع درجة حرارة كيلو جرام من الماء درجة مئوية واحدة .

أما نظرية الضوء فإن ما أحرزه القرن الثامن عشر من تقدم فيها كان ضئيلا ، لأن جميع الفيزياثيين تقريباً قبلوا « فرض الجسيمات » الذى قال به نيوتن — وهو أن الضوء انبعاث كريات من الجسم إلى العين . وكان أويلر يتزعم أقلية تدافع عن نظرية الموجات . فافترض — كما افترض هويجنز — أن الفضاء « الخالى » بين الأجرام السماوية ، وبين الأجسام المنظورة الأخرى ،

يملؤه « الأثير » ، وهو مادة أرق من أن تدركها حواسنا أو آلاتنا ، ولكن تلمع إليه إلماعاً شديداً ظواهر الجاذبية ، والمغنطيسية ، والكهرباء . والضوء فى رأى أويلر تموج فى الأثير ، كما أن الصوت تموج فى الهواء . وقد ميز بين الألوان على أنها ترجع إلى فترات مختلفة من التذبذب فى أمواج الضوء ، وكان سباقاً إلى نظريتنا التى تنسب اللون الأزرق إلى أقصر فترة تذبذب ، واللون الأحمر إلى أطولها . وقد أثبت بيير بوجيه بالتجربة ما سبق أن توصل إليه كيلر نظرياً ، وهو أن شدة الضوء تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع بعده عن مصدره . وتوصل يوهان لامبرت إلى طرق لقياس شدة الضوء ، وقرر أن ضياء الشمس يبلغ ٢٧٧,٠٠٠ ضعف ضياء القمر ، وأن علينا أن نتقبل هذا بالإيمان كما تقبلنا اللاهوت الذى ألقى إلينا فى طفولتنا .

٢ - الكهرباء

حققت فيزياء القرن الثامن عشر أروع تقدم لها فى ميدان الكهرباء . لقد عرف الناس كهرباء الاحتكاك منذ زمن طويل . وكان طاليس المليطى (٦٠٠ ق . م) على علم بما للعنبر (الكهرمان) ، والكهرمان الأسود ، وغيرهما من المواد إذا حكت من قدرة على جذب الأجسام الخفيفة كالريش أو القش . وقد سمى وليم جلبرت ، طبيب الملكة اليزابث ، هذه القوة الجاذبة « إلكترون » (من كلمة Electron اليونانية بمعنى الكهرمان) وباللاتينية vis electrica . وكانت الخطوة التالية هى إيجاد وسيلة لتوصيل هذه الكهرباء الساكنة واستخدامها . وقد بحث جويريكى وهاوكسبى عن مثل هذه الوسيلة فى القرن السابع عشر ، وبقى أن يظل الكشف الحاسم عليها سراً حتى يتم على يد ستيفن جراى (١٧٢٩) .

وكان جراى رجلا متقاعداً حاد الطبع ، نزيل ملجأ من ملاجىء لندن . وحين « كهرب » أنبوبة زجاجية ، مسدودة بفلينتين عند طرفيها ، بدعكها وجد أن الفلينتين وكذلك الأنبوبة تجذب ريشة طائر . فأدخل أحد طرفى قضيب خشبى فى إحدى الفلينتين ، والطرف الآخر فى كرة من العاج ، فلما دعك الأنبوبة ، جذبت الكرة الريشة كما جذبتها الأنبوبة والفلينتان ، وهكذا أمكن توصيل الكهرباء على طول القضيب . واستطاع باستعمال

الدوبارة أو خيط القنب المتين بدلا من القضيب أن يوصل الكهرباء لمسافة ٧٦٥ قدماً . فلما استخدم الشعر ، أو الحرير ، أو الراتنج ، أو الزجاج . فى الربط انعدم التوصيل ؛ وهكذا لاحظ جراى الفرق بين الأجسام الموصلة وغير الموصلة ، واكتشف أن الأجسام غير الموصلة يمكن استعمالها لحفظ الشحنات الكهربائية أو تخزينها . فلما علق ٦٦٦ قدماً من الدوبارة الموصلة من سلسلة طويلة من الأعمدة الماثلة ، وأرسل « القوة أو الفضيلة » الكهربائية (كما سماها) خلال تلك المسافة ، كان فى الواقع سباقاً إلى ابتكار التلغراف .

وتبنت فرنسا البحث ، فواصل جان ديزاجولييه (١٧٣٦) تجارب جراى ، وقسم المواد إلى موصلة وغير موصلة (سماها « كهربات قائمة بذاتها ») ووجد أن هذه يمكن تغييرها إلى موصلات ببلها بالماء . وأجرى شارل روفيه أبحاثاً أنهاها إلى أكاديمية العلوم فى ١٧٣٣ — ٣٧ . وفى رسالة متواضعة إلى جمعية لندن الملكية (١٧٣٤) صاغ أهم استنتاجاته على النحو الآتى :

« لقد ألقت الصدفة فى طريقى بمبدأ آخر ... وهو أن هناك كهربائين متميزتين . تختلفان الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً ، اسمى إحداهما « الكهرباء الزجاجية » والأخرى « الكهرباء الراتنجية » والأولى هى كهرباء الزجاج . والبللور الصخرى ، والأحجار الكريمة ، وشعر الحيوان والصوف ؛ وأجسام كثيرة أخرى . والثانية كهرباء العنبر ، والكوبال ، والجملكة ، والحرير ، والخيط ، والورق ، وعدد هائل من المواد الأخرى . وطبيعة هاتين الكهربائين هى أن جسما من نوع الكهرباء الزجاجية ... يصد كل الأجسام التى من هذا النوع من الكهرباء ، وبالعكس يجذب كل الأجسام التى من نوع الكهرباء الراتنجية [١٧] .

إذن فإن جسمين مكهربين بالتماس مع نفس الجسم المكهرب يصد أحدهما الآخر وهو ما اكتشفه دوفيه ، ويستطيع كل تلميذ أن يتذكر دهشته حين رأى كرتى بلسان معلقتين بواسطة مادتين غير موصلتين من نفس النقطة وموضوعتين بحيث تمس الواحدة منهما الأخرى ، تنتقضان فجأة مبتعدتين الواحدة عن الأخرى حين يلمسهما نفس القضيب الزجاجى المكهرب . وأظهرت تجارب لاحقة أن الأجسام « الزجاجية » قد تكتسب كهرباء راتنجية » ، وأن الأجسام « الراتنجية » قد تكتسب كهرباء « زجاجية » .

ومن ثم غير فرانكلن مصطلحات دوفيه إلى « موجبة وسالبة » . وروح دوفيه عن معاصريه بتعليقه رجلا بحبال غير موصلة ، وشحنه بالكهرباء بتلامسه مع جسم مكهرب ، ثم بعث الشرر من جسم الرجل المعلق دون أن يصيبه أذى (*) .

وانتقل المشهد إلى ألمانيا . فسبق جورج بوزيه فى ناحية فرانكلن بإلماعه إلى أن ظاهرة الفجر الكاذب مصدرها كهربائى . وفى ١٧٤٤ أثبت كرستيان لودولف فى أكاديمية برلين أن فى استطاعة شرارة كهربية أن تشعل سائلا قابلا للالتهاب . وفجر بونيه البارود بهذه الطريقة ، فأفتتح بذلك عصر استعمال الكهرباء فى التفجير ، وإطلاق المدافع ، وعشرات الأغراض الأخرى . وفى نفس العام بدأ جوتليب كراتسنشتين استعمال الكهرباء فى علاج الأمراض . وفى أكتوبر ١٧٤٥ اكتشف قسيس بومرانى يدعى أ . ج كلايست أن فى الإمكان تخزين شحنة كهربية فى أنبوبة زجاجية يملؤها بسائل أدخل فيه مسماراً متصلا بآلة تحدث كهرباء احتكاكية ،فلما قطعت الوصلة احتفظ السائل بشحنته عدة ساعات . وبعد بضعة شهور توصل إلى هذا الكشف ذاته أستاذ بجامعة ليدن يدعى بيتر فان موسشينبرويك ، دون أن يعلم شيئاً عن تجارب كلايست . وتلقى من طاس مشحونة غير مفصولة صدمة بدالحظة أنها قاضية عليه ، ولم يفق منها إلا بعد يومين . وأثبت المزيد من التجارب فى ليدن أن فى الإمكان تخزين شحنة أثقل فى قارورة فارغة إذا غلف سطحاها السفليان ، الداخلى والخارجى ، بورقة قصدير . وخطرت لدانيال جرالات فكرة ربط عدة « جرار ليدينية » معاً ، ووجد أن إفراغ شحنتها الكهربية يقتل صغار الحيوان .

---

* بدأ الآن قرن من الحيل الكهربية فدعا جورج بوزيه ، الأستاذ بجامعة ليبزج ، عدة أصدقاء للغذاء ثم عزل المائدة خفية ، ولكنه أوصل شتى الأجسام التى فوقها بآلة تحدث الكهرباء مخفاة فى الحجرة المجاورة . فلما أقبل الضيوف على الطعام أشار لمساعد له بأن يدير الآلة، وتطاير الشرر من الأطباق، والأطعمة ، والأزهار . ثم قدم للجماعة شابة جذابة عزلها حذاؤها عن أرض الحجرة ، ولكن جسمها كان قد شحن كهرباء ، ودعا الضيوف الى تقبيلها . فاصيب المقبلون بصدمات كادت « تخلع اسنانهم » على حد قول الأستاذ .

وعرض لوى جيوم فى باريس عام ١٧٤٦ ، ووليم واطسن فى لندن عام ١٧٤٧ ، ما بدأ واطسن بتسميته « دائرة » . فقد مد واطسن سلكاً طوله نحو ألف ومائتى قدم عبر كوبرى وستمنستر ، وعلى إحدى ضفتى التيمز أمسك رجل بطرف السلك ولمس الماء ؛ وعلى الضفة الأخرى أمسك آخر بالسلك وبجرة من الجرار الليدنية ، فلما لمس ثالث الجرة بيد وقبض بالأخرى على سلك امتد داخل الماء أقفلت « الدائرة » وأصيب الرجال الثلاثة بصدمة . وفى ١٧٤٧ لاحظ جرومبرت الدرسدنى أن فى الإمكان بعث الشرر مسافة ما خلال فراغ جزئى . فينشأ عن ذلك ضوء غير قليل .

ويوصلنا هـــذا العام — عام ١٧٤٧ إلى بنيامين فرانكلن ، الذى بدأ آنئذ تجاربه الكهربية التى جعلت اسمه وصـــيته يتذبذبان بين العلم والسياسة . هنا ذهن وقلب من أعظم ما وعى التاريخ ، اتسعت رقعة فضوله الخـــلاق وتفاوتت من مقترحات كالتوقيت الموفر لنور النهار ، والكراسى الهزازة ، والنظارات المزدوجة البؤرة إلى مانعات الصواعق ونظرية السائل الواحد الكهربية . وقد اعترف عالم من أئمة علماء قرننا هذا ، هو السير جوزيف طومسن ، بأنه « دهش للتشابه بين بعض الآراء التى تهدينا إليها نتائج أحدث الأبحاث ، والآراء التى قال بها فرانكلن فى طفولة الموضوع [١٩] » .

كان من أول كشوف فرانكلن تأثير الأجسام المدببة فى « جذب وقذف النار الكهربية » [٢٠] . فقد وجد أن إبرة طويلة رفيعة تستطيع جذب تيار من الكهرباء من كرة مكهربة على بعد ست بوصات أو ثمان ، فى حين أن جسما غير حاد اقتضى إحداث هذا الأثر فيه تقريبه إلى مسافة بوصة من الكرة . وكان فرانكلن يتحدث عن الكهرباء باعتبارها ناراً ، ولكنه ذهب إلى النار نتيجة خلل بين توازن السائلين الناريين « الموجب والسالب » ، اللذين ظن أنهما الكهرباء . فكل الأجسام عنده تحوى هذا السائل الكهربى : فالجسم « الزائد » المحتوى على أكثر من كميته العادية ، يكهرب إيجابياً ويميل إلى إفراغ فائضه فى جسم يحوى كمية عادية أو أقل من العادية ؛ والجسم « الناقص » المحتوى على أقل من كميته العادية ، يكهرب سلبياً ، ويجتذب

الكهرباء من جسم يحوى كمية عادية أو أكثر . وعلى هذا الأساس طور فرانكلن بطارية مكونة من إحدى عشرة لوحة زجاجية كبيرة مغطاة برقائق من الرصاص كهربت إلى درجة عالية ؛ فلما قرب هذا الجهاز ليلمس أجساماً أخف شحنة ، أطلق جانباً من شحنته بقوة قال عنها فرانكلن « أنها لا تعرف حدوداً « تفوق أحياناً » أشد ما نعرف من آثار البرق العادى » [٢١] .

وكان العديد من الباحثين – وول ، ونيوتن ، وهوكسبي ، وجراى ، وغيرهم – قد لاحظوا الشبه بين الشرر الكهربى والبرق ؛ فأثبت فرانكلن أنهما واحد . وفى ١٧٥٠ أرسل إلى جمعية لندن الملكية رسالة جاء فيها :

« ألا يجوز أن يفيدنا علمنا بقوة الأطراف المدببة هذه فى وقاية البيوت والكنائس والسفن الخ . من الصواعق ، وذلك بإرشادنا إلى أن نثبت فوق قمم المبانى قضباناً مستقيمة من الحديد ، يسن القضيب منها كالأبرة ويغشى بالذهب منعاً لصدئه ، ومن أسفل هذه القضبان يمد سلك من خارج البناء هابطاً إلى الأرض ، أو حول أحد حبال صارى المركب إلى جنبها حتى يصل إلى الماء ؟ ألا يحتمل أن تجذب هذه القضبان المدببة النار الكهربائية فى هدوء من السحابة قبل أن تقترب قرباً يتيح لها أن تصعق البناء ، وبهذا نأمن ذلك الشر الفجائى المستطير ؟ » [٢٢] :

ثم وصف تجربة يمكن أن تختبر بها هذه النظرية . أما الجمعية الملكية فقد رفضت الاقتراح لأنه من قبيل الخيال ، ورفضت أن تنشر رسالة فرانكلن . ولكن عالمين فرنسيين هما دلور ودالبيار ، وضعا نظرية فرانكلن موضع الاختبار ، فأقاما فى حديقة بمارلى (١٧٥٢) قضيباً حديدياً مدبباً طوله خمسون قدماً ، ونبها على حارس بأن يلمس القضيب بسلك نحاسى معزول إن مرت فى غيابهما سحب رعدية فوق رأسه . وجاءت السحب ، ولمس الحارس القضيب لا بالسلك فقط بل بيده كذلك ؟ وتطاير الشرر وطقطق ، وصدم الحارس صدمة عنيفة . وأيد دلور ودالبيار رواية الحارس بمزيد من الاختبارات ، وأبلغا أكاديمية العلوم الباريسية أن « فكرة فرانكلن لم تعد حدساً بل حقيقة » .

أما فرانكلن فلم يقنع بهذا ، فقد أراد أن يوضح وحدة البرق والكهرباء فى جلاء ، وذلك بأن « يستخلص » البرق بشيء يرسل صعداً إلى السحابة

المبرقة ذاتها . ففي يونيو ١٧٥٢ حين بدأت عاصفة رعدية ، طير على خيط قنب متين طيارة من الحرير (لأنه أصلح من الورق لحمل الريح والرطوبة ، دون أن يتمزق) ؛ وبرز سلك شديد التدبب على نحو اثنتي عشرة بوصة من قمة الطيارة ، وعلى طرف الخيط الذي ينتهي عند المشاهد ربط مفتاح بشريط حريري ؛ وبين فرانكلن نتائج التجربة في رسالة إلى انجلتره (١٩ أكتوبر) ضمنها توجيهات لتكرارها :

« إذا بلل المطر خيط الطيارة بحيث يستطيع توصيل النار الكهربية دون معوق ، ستجد أنها تنطلق بوفرة من المفتاح بمجرد أن تدنى منه مفصل اصبعك . وبهذا المفتاح يمكن شحن قنينة (أو جرة ليدينية) ، ومن النار الكهربية التي يحصل عليها بهذه الطريقة يمكن إشعال المواد الكحولية وإجراء جميع التجارب الكهربية الأخرى التي تجرى عادة بالاستعانة بكرة أو أنبوبة زجاجية محكوكة ، وهكذا يتضح تماماً أن المادة الكهربية هي والبرق شيء واحد »[٢٣] .

وكررت التجربة في فرنسا (١٧٥٣) بطيارة أكبر وحبل طوله ٧٨٠ قدماً ملفوف حول سلك حديدي ، ينتهي عند المشاهد بأنبوبة معدنية كانت في التجربة تبعث شرراً طوله ثماني بوصات . وقد قتلت الصدمة الكهربية ج. و. ونشمان الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورج وهو يجري تجربة مماثلة . فلما أرسلت مؤلفات فرانكلن إلى انجلتره في ١٧٥١ — ٥٤ أكسبته الانتخاب عضواً في الجمعية الملكية . ومدالية كوبلي . وجاءته ترجمتها إلى الفرنسية بخطاب تهنئة من لويس الخامس عشر ، وثناء حار من ديدرو ، الذي وصفها بأنها نماذج في تحرير التقارير العملية . وقد مهدت هذه الترجمات للاستقبال الودي الذي لقيه فرانكلن حين قدم إلى فرنسا ملتمساً العون للمستعمرات الأمريكية إبان ثورتها فلما نجحت الثورة بمعونة فرنسا لخص دالامبير (أوطورجو) إنجاز فرانكلن في بيت محكم خليق بقبرحل أو لوكريتيوس :

« إنه خطف البرق من السماء ، والصولجان من الطغاة » .

وعجت أوربا كلها بالنظريات والتجارب الكهربية بعد عام ١٧٥٠ . ففتح جون كانتون (١٧٥٣) وفيلكى العالم المتعدد القدرات (١٧٥٧) الطريق لدراسة التوصيل الكهربى الاستاتيكى ، الذى يتكهرب بواسطته موصل غير مشحون إذا وضع بقرب جسم مشحون . وبرهن فيلكى على أن فى الإمكان شحن معظم المواد بالكهرباء الموجبة (أو السالبة) إذا حكت بجسم مشحون بشحنة أقل منها (أو أزيد) . وأثبت أيبينوس (فرانتز أولريش هوخ) الذى كان يعمل مع فيلكى فى برلين أن لوحتين معدنيتين لا يفصلهما إلا طبقة من الهواء تعملان عمل الجرة الليدينية . وحاول جوزف بريستلى قياس قوة الشحنة الكهربية وأقصى اتساع تمر عبره شرارة شحنه معينة . وقد قرر أنه حين عبرت شرارة فجوة لا تتجاوز حتى بوصتين بين قضيبين معدنيين فى فراغ ظهر فى الفجوة « ضوء أزرق أو أرجوانى خفيف ». على أن أروع اسهام أسهم به بريستلى فى النظرية الكهربية هو إلماعه إلى أن قوانين الكهرباء قد تكون شبيهة بقوانين الجاذبية وأن القوة التى تؤثرها الواحدة على الأخرى بواسطة شحنات كهربية منفصلة تتناسب تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بين مصدريهما . وقد جرب هنرى كافندش (الذى يذكر كما يذكر بريستلى بفضل منجزاته فى الكيمياء على الأخص) اقتراح بريستلى فى سلسلة من التجارب الصابرة ، وتوصل إلى تعديل طفيف ولكنه هام ، زاده جيمس كلارك ماكسويل صقلا فى ١٨٧٨ ، والقانون يقبل اليوم بوضعه هذا . وبعد أن قام شارل أوجستن وكولومب بأعمال قيمة فى ميدان توتر العوارض ومقاومة المعادن للالتواء ، قدم لأكاديمية العلوم الباريسية تقارير عن تجارب (١٧٨٥ — ٨٦) استخدمت الميزان الالتوائى (إبرة تعتمد على شعرة رقيقة) فى تقدير التأثيرات المغنطيسية والشحنات الكهربية ، وفى كلتا الحالتين أثبت مادياً قانون المربعات العكسية .

وقد ترك إيطاليان ، كما ترك كولومب ، على اسميهما مصطلحات الكهرباء. فلم يقتصر لويجى جلفانى أستاذ التشريح فى بولونيا على كشفه إمكان إحداث التقلصات العضلية فى الحيوان الميت بالتماس الكهربى المباشر (وكان هذا معروفاً قبل ذلك بزمن طويل) بل زاد بأن هذه التقلصيات تحدث إذا قربت ساق ضفدع ميت موصلة بالأرض من آلة تبعث شرارة كهربية . وأحدثت

تقلصات مماثلة فى سيقان الضفادع — الموصلة كذلك بالأرض والمربوطة بأسلاك حديدية طويلة — حين ومض البرق فى الحجرة . وأدهش جلفانى أن يكتشف أن فى إمكانه أن يقلص ساق ضفدع دون أى استعمال أو وجود لجهاز كهربى بمجرد تقريب عصب الضفدع وعضلته لمسا معدنين مختلفين . وخلص من ذلك إلى أن فى جسم الحيوان كهرباء طبيعية .

وكرر هذه التجارب أليساندرو فولتا ، أستاذ الفيزياء فى بافيا ، ووافق أول الأمر على نظرية مواطنه فى الكهرباء الحيوانية ، ولكن المزيد من أبحاثه عدل آراءه . فبعد أن أعاد فولتا تجربة رواها ى . ج. زولتسر حوالى عام ١٧٥٠ وجد أنه إذا وضع قطعة من القصدير على طرف لسانه ، وقطعة من الفضة على ظهر لسانه شعر بطعم شديد الحموضة كلما وصل المعدنين بسلك . فلما وصل جبينه وسقف حلقه بهذين المعدنين المختلفين حصل على إحساس بالضوء . وفى ١٧٩٢ أذاع النتيجة التى خلص إليها ، وهى أن المعدنين ، لا النسيج الحيوانى . أحدثا الكهرباء بمجرد تفاعل الواحد مع الآخر ولمسهما مادة رطبة يحسن أن تكون محلول ملح . وأثبت المزيد من التجارب أن تماس معدنين مختلفين يحدث بهما شحنة كهربية — الواحد إيجاباً والآخر سلباً — دون تدخل من أى مادة رطبة ، حيوانية كانت أو غير حيوانية . ولكن هذا التماس المباشر يحدث تفاعلا فى الشحنات فقط ، لا تدفقاً فى التيار . ولكى يحدث فولتا تياراً صنع » رصيفاً كهربائياً « (فولطياً) بوضع عدة طبقات بعضها فوق بعض ، يتألف كل منها من صفيحتين موصولتين من معدن مختلف . وصفيحة من الورق أو الخشب المبلل . وهكذا كونت فى آخر سنة فى القرن الثامن عشر أول بطارية ذات تيار كهربى . وفتح الطريق أمام الكهرباء لتعيد صنع وجه الأرض وليلها .

٤ — الكيمياء

(أ) البحث عن الأوكسجين

كتب إدوارد جيبون فى ١٧٦١ يقول « إن الفيزياء والرياضة تتربعان الآن على العرش ، ترين أخواتهما ملقيات على الأرض أمامهما ، مغلولات إلى عربتهما ، أو على الأكثر يزين موكب انتصارهما . ولعل الزمن لن

تمهلهما كثيراً حتى يسقطهما عن عرشهما » .[٢٤] وكانت تلك نبؤة مشئومة ، فالفيزياء الآن ملكة العلوم ، والرياضة معينتها ، ولكن ما من أحد يستطيع التنبؤ بما قد يسفر عنه اتحادهما .

ومع ذلك ، فى وسط جميع انتصارات رياضة القرن السابع عشر وفيزيائه وفلكه ، كان علم صغير قد انبعث من أقمطة الكيمياء . وأوشك خطأ مؤسف أن يخنقه وهو بعد فى المهد . ذلك أن جورج شتال أستاذ الطب والكيمياء فى هاللى ، عملا بنظرية اقترحها يوهان بيشر فى ١٦٦٩ ، علل الاحتراق بأنه إطلاق « الفلوجستون » (اللاهوب) من المادة المحترقة إلى الهواء وكلمة Phlogiston هى المقابل اليونانى لكلمة inflammable أى قابل للاحتراق ؛ وكلمة phlox هى المقابل اليونانى لكلمة flame أى اللهب ، وتعنى اليوم نباتاً تتلون أزهاره أحياناً باللون الأحمر المشتعل) . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى قبل معظم الكيميائين فى غرب أوربا هذه النظرية التى تزعم أن الحرارة أو النار مادة منفصلة عن المادة المشتعلة . ولكن أحداً لم يستطع أن يفسر ، إذا كان الأمر كذلك فما السر فى أن المعادن تزن بعد احتراقها أكثر منها قبله .

وقد مهد لتعليلنا الراهن للاحتراق العمل الذى قام به هيلز ، وبلاك ، وشيليه فى كيمياء الهواء . أما ستيفن هيلز فقد عبد الطريق باختراعه « الحوض الغازى » وهو وعاء هوائى يمكن أن تجمع فيه الغازات فى إناء مقفل فوق الماء . وقرر أن الغازات (وقد سماها « الأهوية ») تحتويها جوامد كثيرة ، ووصف الهواء بأنه « سائل مطاط رقيق » له جزئيات ذات طبيعة مختلفة جداً تطفو فيه »[٢٥] .

وقد أنهى تحليل الهواء والماء إلى مواد منوعة الفكرة القديمة عن الهواء ، والماء ، والنار ، والتراب ، باعتبارها العناصر الرئيسية الأربعة . وفى الجيل التالى أثبتت تجارب جوزف بلاك (١٧٥٦) أن من مكونات الهواء ما سماه اقتداء بهيلز — « الهواء الثابت » أى الهواء المحتوى فى المواد الجامدة أو السائلة والقابل للازالة منها ، ونحن نسميه الآن ثانى أوكسيد الكربون أو غاز حامض الكربونيك » . وزاد بلاك بتمهيده الطريق للكشف عن الأوكسجين بإثباته

بالتجربة أن هذا الغاز يحتويه زفير الإنسان . ولكنه ظل يؤمن بالفلوجستون ، وظل الأوكسجين والهيدروجين والأزوت (النيتروجين) أسراراً غامضة .

وقد أسهمت السويد بعطاء سخى فى كيمياء القرن الثامن عشر فتوربرن أولوف برجمان ، الذى سنلتقى به ثانية رائداً فى الجغرافيا الطبيعية ، كان أولا وقبل كل شىء كيميائياً ، عرفه الناس وأحبوه أستاذاً لذلك العلم فى جامعة أوبسالا . وهو أول من حصل على النيكل فى حالة نقاء ، وأول من أثبت أهمية الكربون فى تحديد الخواص الطبيعية للمركبات الكربونية الحديدية . وقد درس فى حياته القصيرة نسبياً — والتى لم تتجاوز تسعة وأربعين عاماً — الائتلافات الكيميائية لتسع وخمسين مادة ، بعد أن أجرى عليها نيفاً وثلاثين ألف تجربة ، ونشر كشوفه فى كتابه « الاجتذابات الانتخابية » (١٧٧٥) ومات قبل أن يكمل هذا العمل ، ولكنه كان خلال ذلك قد أورث شيليه تفانيه فى البحوث الكيميائية .

ويسلم مؤرخو العلم الانجليز الآن فى شهامة بأن كيميائياً سويدياً — هو كارل فلهلم شيليه سبق (١٧٧٢) كشف بريستلى (١٧٧٤) لما سماه لافوزييه (١٧٧٩) لأول مرة بالأكسجين . وقد قضى شيليه أكثر عمره الذى لم يتجاوز الثلاثة والأربعين عاماً فقيراً معدماً . بدأ صبياً لصيدلى فى جوتبورج ، ولم يرق إلى أكثر من صيدلى فى مدينة كوبنج المتواضعة . وقد حصل له معلمه توربرن برجمان — على معاش صغير من أكاديمية استوكهولم للعلوم ، فكان شيليه ينفق ثمانين فى المائة منه على التجارب الكيميائية ، يجرى أكثرها ليلا بعد الفراغ من عمل نهاره مستعيناً بأبسط الأجهزة المعملية . ومن هنا موته المبكر . ومع ذلك فقد غطى ميدان هذا العلم الجديد كله تقريباً ، وعرفه ببساطته المعهودة فقال « إن هدف الكيمياء ومهمتها الرئيسية هى أن تفصل المواد بمهارة ، وتردها إلى مكوناتها ، وأن تكشف خواصها ، وأن تركبها بطرق مختلفة »[٢٦] .

وفى ١٧٧٥ أرسل إلى المطبعة مخطوطة عنوانها « رسالة كيميائية فى الهواء والنار » ، وتأخر نشرها حتى ١٧٧٧ ، ولكن كل التجارب التى وصفتها تقريباً كانت قد أجريت قبل ١٧٧٣ . ومع أن شيليه ظل حتى مماته متمسكاً

بإيمانه باللاهوب ، فإنه أرسى قضية أساسية هى أن الهواء غير الملوث يتألف من غازين ، سمى أحـــدهما « هواء النار » وهو الأكسجين لأنه أهم عماد للنار وسمى الثانى « الهواء التالف » وهو الأزوت لأنه هواء فقـــد « هواء النار » . وقد حضر الأكسجين بطرق عديدة ، مزج فى إحداها حامض الكبريتيك المركز بالمنغنيز المطحون طحناً دقيقاً ، وسخن المزيج فى إنبيق ، وجمع الغاز الناتج فى كيس ضغط حتى خلا من الهواء تقريباً . ووجد أن الغاز الذى أنتج على هذا النحو إذا مرر على شمعة مشتعلة « بدأت تشتعل بلهيب أكبر ، وبعثت نوراً ساطعاً يبهر العين »[٢٧] . وخلص إلى أن « هواء النار » هو الغاز الذى تعتمد عليه النار . ولا شك أنه استخرج هذا الغاز قبل أن يستخرجه بريستلى بسنتين [٢٨] .

ولم يكن هذا سوى قسط يسير من منجزات شيليه . ولعل سجله مكتشفاً لمواد جديدة لا ضريب له بين المكتشفين [٢٩] فهو أول من عزل الكلورين ، والباريوم ، والمنغنيز ، ومركبات جديدة مثل النشادر ، والجلسرين ، وأحماض الهيدروفلوريك ، والتانيك ، والبنزويك ، والأوكساليك ، والماليك ، والطرطريك . وقد انتفع برتولليه فى فرنسا ، وجيمس وات فى انجلتره ، انتفاعاً تجارياً بكشفه لتبييض الكلورين للثياب ، والخضر ، والزهر . وفى أبحاث أخرى اكتشف شيليه حمض البوليك بتحليل حصاة المثانة (١٧٧٦) . وفى ١٧٧٧ حضر الهيدروجين المكبرت ، وفى ١٧٧٨ حمض المولبديك . وفى ١٧٨٠ أثبت أن حموضة اللبن الحامض سببها حمض اللبنيك ؛ وفى ١٧٨١ حصل على حمض التنجستيك من تنجستات الكلسيوم (ويعرف الآن بالشيلى) . وفى ١٧٨٣ اكتشف حمض البروسيك (الهيدروسيانك) دون أن يدرك ما له من طبيعة سامة . كذلك استخرج غاز الأرسين (وهو مركب قتال من الزرنيخ (وصبغة الزرنيخ المعروفة الآن بأخضر شيليه [٣٠] . وقد أعان على تيسير التصوير الفوتوغرافى بإثباته أن ضوء الشمس يحيل كلوريد الفضة إلى فضة . وأن الأشعة المنوعة التى يتألف من الضوء الأبيض لها تأثيرات مختلفة على أملاح الفضة . وقد تبين أن الجهد الذى أنفق فى هذا العمر القصير ، وهو جهد مثمر إلى حد لا يصدق ، ذو أهمية بالغة فى التنميات الصناعية فى القرن التاسع عشر .

(ب) بريستلى

ظل الفضل فى اكتشاف الأكسجين ينسب طويلا إلى جوزف بريستلى لا إلى شيليه ، لأنه اكتشفه مستقلا عن شيليه ، وأذاع اكتشافه هذا فى ١٧٧٥ قبل عامين من نشر شيليه المتأخر لكشفه . ومع ذلك فنحن نكرمه لأن أبحاثه أتاحت للافوازييه أن يضفى على الكيمياء شكلها الحديث ، ولأنه كان من الرواد فى الدراسة العلمية للكهرباء ، ولأنه أسهم بشجاعة فى الفكر البريطانى عن الدين والحكومة حتى أن جماعة متعصبة من الغوغاء أحرقت بيته فى برمنجهام وحملته على الالتجاء إلى أمريكا . وقد لمس تاريخ الحضارة فى نقط كثيرة ، وهو واحد من أعظم شخصياته إلماماً .

ولد فى يوركشير فى ١٧٣٣ ، لمشاط من المنشقين على الكنيسة الرسمية . وأكب بنهم على دراسة العلم ، والفلسفة ، واللاهوت ، واللغات ؛ فتعلم اللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، والعربية ، وحتى طرفاً من السريانية والكلدية . واشتغل أول الأمر واعظاً منشقاً فى سافوك ، ولكن عقده فى لسانه انتقصت من تأثير بلاغته فى السامعين . فلما بلغ الخامسة والعشرين نظم مدرسة خاصة بعث الحياة فى مناهجها بتجارب فى الفيزياء والكيمياء . وفى الثامنة والعشرين أصبح معلماً فى أكاديمية للمنشقين فى وارنجتن ، وهناك علم خمس لغات ، ووجد رغم ذلك الوقت ليجرى أبحاثاً أكسبته زمالة فى الجمعية الملكية (١٧٧٦) . فى تلك السنة التقى بفرانكلن فى لندن فشجعه على تأليف كتابه « تاريخ الكهرباء ووضعها الراهن » (١٧٧٦) وهو مسح جدير بالإعجاب للموضوع بأسره حتى جيله ؛ وفى ١٧٦٧ عين راعياً لكنيسة مل هل بليدز . وقد تذكر فى تاريخ لاحق من حياته ، إنه « نتيجة لسكناى حيناً بقرب مصنع عمومى للجعة أغريت بإجراء تجارب على الهواء الثابت [٣١] . لأن عجين مصنع الجعة انبعث منه غاز ثانى أكسيد الكربون . وقد أذابه فى الماء ، وأعجبته نكهته الفوارة ؛ وكان هذا أول « ماء صودا » .

وفى ١٧٧٢ أعفى من هموم الرزق بتعيينه أمين مكتبة للورد شلبرن . وفى البيت الذى جهز له بكولن أجرى التجارب التى أكسبته شهرة دولية .

وقد حسن « وعاء هيلز الغازى » بأن جمع فوق الزئبق ، بدلا من الماء ، الغازات التى ولدها بأنواع مختلفة من المزج . ففى ١٧٧٢ عزل أكسيد النتريك ، وأكسيد النترى (الغاز الضحاك) وكلوريد الهيدروجين ؛ وفى ١٧٧٣ النشادر (مستقلا عن شيليه) ؛ وفى ١٧٧٤ ثانى أكسيد الكبريت ؛ وفى ١٧٧٦ بيروكسيد الأزوت . وفى ١٥ مارس ١٧٧٥ أرسل إلى الجمعية الملكية خطاباً أذاع فيه كشفه للأكسجين . وقد وصف طريقته فى المجلد الثانى من كتابه تجارب ومشاهدات فى مختلف أنواع الهواء (١٧٧٥) فقال أنه باستعمال عدسة حارقة قوية : « شرعت ... بالاستعانة بها فى أن أفحص نوع الهواء الذى تطلقه أنواع كثيرة جداً من المواد) حين تسخن بهذه الطريقة (بوضعها فى ... أوان ... مملوءة بالزئبق ومقلوبة فى حوض الزئبق ... وبهذا الجهاز ... ، فى أول أغسطس ١٧٧٤ ، حاولت استخراج الهواء من الزئبق المكلس وحده (أكسيد الزئبق) وسرعان ما وجدت أن الهواء يطرد منه بسرعة باستعمال هذه العدسة ... والذى أدهشنى دهشة لا يمكننى التعبير عنها أن شمعة اشتعلت فى هذا الهواء بلهب قوى جداً [٣٢] .

فلما لاحظ — كما لاحظ شيليه — أن فى استطاعة فأر أن يعيش أطول فى هذا الهواء المنزوع اللاهوب أو الفلوجستون (كما سمى الأكسجين) مما يعيش فى الهواء العادى ، خطر له أن يجرب بنفسه الهواء الجديد .

« لن يعجب القارىء لأننى بعد أن أكد لى عظم صلاحية الهواء المنزوع اللاهوب من حياة الفيران فيه ، وبغير ذلك من التجارب التى سبق ذكرها ، تطلعت إلى تذوقه بنفسى . فأشبعت فضولى باستنشاقه وسحبه من زجاجة سيفون ، وبهذه الطريقة أحلت ابريقاً كبيراً مملوءاً به إلى مستوى الهواء العادى . ولم يكن إحساس رئتى به يختلف اختلافاً محسوساً عن إحساسهما بالهواء العادى ، ولكن خيل إلى أن صدرى ظل بعض الوقت بعدها يحس بأنه خفيف إلى درجة غريبة . ومن يدرى ، فلعل هذا الهواء النقى سيصبح يوماً ما أداة عصرية من أدوات الترف ؟ أما إلى اليوم فإن أحداً لم يستمتع باستنشاقه سواى أنا وفأرين [٣٣] ...

وقد تنبأ ببعض صور هذا الترف المستقبل :

لنا أن نحزر — من قوة لهيب الشمعة المضاءة فى هذا الهواء النقى وسطوعها الزائد — أنه قد يكون أصلح جداً للرئتين فى حالات مرضية معينة ، حين لا يكفى الهواء العادى لإزالة الزفر الفلوجستى الفاسد (ثانى أكسيد الكربون) بالسرعة الكافية . ولكن ربما استنتجنا أيضاً من هذه التجارب أنه وإن كان الهواء المنزوع اللاهوب (الأكسجين) مفيداً جداً كدواء ، فإنه قد لا يكون بمثل هذه الصلاحية لنا فى حالة الصحة العادية للبدن ، لأن الشمعة تشتعل فى الهواء المنزوع اللاهوب بأسرع مما تشتعل فى الهواء العادى ، ومن ثم فقد نفنى حياتنا بأسرع مما ينبغى وتستهلك فينا القوة الحيوانية على عجل فى هذا النوع النقى من الهواء [٣٤] .

وقد تألقت تجارب بريستلى بالفروض المثمرة والإدراكات اليقظة ، ولكن تفسيراته النظرية كان أكثرها تقليدياً . فقد ظن كما ظن شتال وشيليه أنه فى الاحتراق يخرج الجسم المشتعل مادة هى الفلوجستون (اللاهوب) وذهب إلى أن هذه المادة تتحد مع أحد مكونات الهواء ليكونا « الهواء التالف » أو « الهواء ذات اللاهوب » (وهو الأزوت) أما المكون الآخر فسماه « الهواء المنزوع اللاهوب » وهو ما سيطلق عليه لافوازييه اسم الأكسجين . وبينما كان لافوازييه يقول بأن الجسم فى عملية الاحتراق يمتص الأكسجين من الهواء بدلا من أن يطرد الفلوجستون فيه ، ظل بريستلى إلى آخر حياته متمسكاً بالمفهوم القديم .

وفى ١٧٧٤ سافر مع اللورد شلبيرن إلى القارة . وأخبره بتجارب الأكسجين . وفى ١٧٨٠ أحاله شلبيرن إلى التقاعد بمعاش سنوى قدره ١٥٠ جنيها . واستقر بريستلى فى برمنجهام قسيساً أصغر لجماعة كبيرة من المنشقين تدعى « المحفل الجديد » . وانضم إلى جيمس وات ، وجوسيا ودجوود ، وارزمس داروين ، وماثيوبولتن ، وغيرهم فى « جمعية قمرية » تناقش أحدث الأفكار فى العلم ، والتكنولوجيا ، والفلسفة . وكان محبوباً من جميع الطبقات تقريباً وموضع الإعجاب لوجهه البشوش ، وتواضعه ، وسماحته ، وطهارة حياته التى لا تشوبها شائبة [٣٥] . ولكن بعض جيرانه

ارتابوا فى مسيحيته . وفى كتابه « مقالات فى المادة والروح » (١٧٧٧) رد كل الأشياء ، حتى النفس ، إلى المادة وأصر على أن هذا الرأى شىء لا غبار عليه .

« فمعلوم جيداً لأهل العلم ... إن ما عناه القدماء بالكائن اللامادى إنما هو نوع مهذب مما ينبغى أن نسميه الآن مادة ، شىء كالهواء أو النفس ، زود الناس لأول مرة باسم للنفس ... ومن ثم لم يستبعد القدماء من العقل خاصية « الامتداد » والضغط المحلى . فقد كان له فى رأيهم بعض الخواص المشتركة بينه وبين المادة ، وكان فى استطاعته أن يتحد معها ، وأن يؤثر فيها ويتأثر بها ... وعليه فقد رؤى أن .... قوة الحس أو التفكير ... يمكن أن تنقل لأغلظ ضروب المادة ... وأن « النفس » « والجسم » لابد أن يموتا معاً لأنهما فى الواقع مادة واحدة [٣٦] .

وفى كتاب آخر نشره فى نفس العام اسمه « شرح عقيدة الضرورة الفلسفية » ، أنكر بريستلى بحماسه حرية الإرادة أسوة بهارتلى وهيوم . وفى كتابه « تاريخ تحريفات المسيحية » (١٧٨٢) رفض المعجزات وسقوط آدم ، وكفارة المسيح ، وعقيد الثالوث . وذهب إلى أن هذه العقائد كلها تحريفات أدخلت أثناء تطور المسيحية ؛ إذ لا وجود لها فى تعاليم المسيح والرسل الاثنى عشر . ولم يبق من المسيحية فى بريستلى غير الايمان بالله المبنى على شهادة للقصد الإلهى . ولم يكن راضياً تمام الرضى عن فكرة الخلود ، فألمع إلى أن الله فى يوم الحشر سيعيد خلق الأموات جميعاً . على أن رجاءه الحقيقى لم يكن معقوداً على سماء فى الآخرة بل على « يوتوبيا » تبنى على هـــذه الأرض بانتصار العلم على الخرافة والجهل . وندر أن عبر إنسان بحرارة كما عبر بريستلى عن دين القرن الثامن عشر ، وعن التقدم . إذ يقول :

كل المعرفة ستقسم فروعاً وتوسع . ولما كانت المعرفة قوة كما لاحظ اللورد بيكون ، فإن قوى البشر ستزداد فى الواقع . فالطبيعة — مواردها وقوانينها — ستكون فى متناولنا أكثر من ذى قبل . وسيجعل الناس وضعهم فى هذا العالم أشد يسراً وراحة . وأغلب الظن أنهم سيطيلون وجودهم فوقه ، وسيصبحون كل يوم أسعد حالا ، كل سعيد فى ذاته ، وأقدر

(وأكثر ميلا فى ظنى) على توصيل السعادة لغيره . ومن ثم ، فأياً كانت بداية هذا العالم ، فإن نهايته ستكون أمجد وأسعد مما يستطيع خيالنا الآن أن يتصوره . . . [٣٧] وطوبى للذين يسهمون فى نشر النور النقى لهذا الإنجيل الخالد [٣٨]

وفى رؤيا بريستلى أن بعض هذا التقدم المجيد سيكون سياسياً ، وسيبنى على مبدأ إنسانى بسيط « فتحقيق الخير والسعادة .... لأغلبية الناس فى أى دولة ، هو المعيار العظيم الذى يجب أن يقرر به نهائياً كل شىء يمت إلى تلك الدولة[٣٩] . ويقول بنتام أنه وجد هنا مصدراً من مصادر فلسفة المنفعة التى بشر بها . وعند بريستلى أن الحكومة العادلة الوحيدة هى التى تستهدف إسعاد مواطنيها . ومما يتفق تماماً مع المسيحية أن يطيح الشعب بالحكومة التى يتضح له ظلمها . وقد أجاب عن تحذير القديس بولس الذى قال فيه « إن السلاطين الكائنة هى مرتبة من الله . » بقوله « للسبب نفسه ستكون سلاطين المستقبل مرتبة من الله أيضاً [٤٠] .

وكان طبيعياً أن يتعاطف ثائر كهذا مع المستعمرات فى احتجاجها على فرض الضرائب عليها دون أن يكون لها ممثلون فى البرلمان البريطانى . وقد وقد صفق للثورة الفرنسية بحرارة أشد حتى من حرارة تعاطفه مع المستعمرات . ولما ندد بها بيرك دافع عنها بريستلى . فدمغه بيرك فى البرلمان بالهرطقة . وكان بعض أصدقاء بريستلى يشاركونه آراءه المتطرفة . وفى ١٤ يوليو ١٧٩١ اجتمعت « جمعية برمنجهام الدستورية » فى الفندق الملكى للاحتفال بالذكرى السنوية لسقوط الباستيل . ولم يحضر بريستلى الاحتفال . واحتشد جمع أمام الفندق واستمعوا إلى اتهامات زعمائهم للمهرطقين والخونة ، ثم قذفوا نوافذ الفندق بالحجارة . ففر أصحاب المأدبة . وانطلق الجمع إلى بيت بريستلى فأحرقوه مبتهجين وأتوا على مختبره وأدواته ومكتبته ومخطوطاته . ثم ظلوا ثلاثة أيام يجوبون أنحاء برمنجهام وهم يقسمون أن يقتلوا جميع « الفلاسفة » ، وراح المواطنون المروعون يخطون على زجاج نوافذهم عبارة « لايوجد هنا فلاسفة » . وفر بريستلى إلى ددلى ، ثم إلى لندن . ومنها وجه رسالة فى ١٩ يوليو إلى أهل برمنجهام قال فيها :

مواطني وجيراني الأسبقون .

بعد أن عشت معكم أحد عشر عاماً ، خبرتم كلكم على السواء خلاله ذلك المسلك المسالم الذي كنت أسلكه في العكوف على الواجبات الهادئة لمهنتي وللفلسفة ، لم أتوقع قط تلك الاضرار التي أوقعتموها مؤخراً بي وبأصدقائي ... وعقول الإنجليز لحسن الحظ تستبشع « القتل » ؛ ومن ثم لم تفكروا فيه (وهو ما أرجوه) . ولكن ما قيمة الحياة إذا ارتكب كل شيء لجعلها شقية تعسة ؟ ..

لقد دمرتم أثمن وأنفع جهاز حقاً من أجهزة الأدوات الفلسفية ..... لقد دمرتم مكتبة .... لا يمكن للمال أن يشتريها من جديد إلا بعد زمن طويل ولكن ما يحز في نفسي أكثر من هذا أنكم دمرتم مخطوطات هي ثمرة الدرس الكادح في سنوات كثيرة ، ولن أستطيع أبداً إعادة تأليفها من جديد ؛ وقد فعلتم هذا بإنسان لم يؤذكم قط ولم يخطر له قط أن يؤذيكم .

وتخطئون إذا ظننتم أن مسلككم هذا قد يخدم قضيتكم أو يضر قضيتنا ... فلو أنكم قضيتم على كما قضيتم على بيتي ، ومكتبتي ، وأجهزتي . فإن عشرة أشخاص آخرين لهم من الجرأة والكفاية ما يعادل مالي أو يفوقه سيظهرون على الفور . ولو قضى على هؤلاء العشرة لظهر بدلهم مائة ...

نحن في هذا الأمر أشبه بالحملان وأنتم بالذئاب . وسنستمسك بخلقنا ، ونرجو أن تغيروا خلقكم . وأياً كان الأمر ، فإننا نرد على لعناتكم بالبركات . ونرجو أن تثوبوا سريعاً إلى ما امتاز به أهل برمنجهام فيما مضى من جد واجتهاد وعادات رزينة .

وإنني المتمنى لخيركم ، المخلص .

ج . بريستلي [٤١]

ولكنه قاضى المدينة مطالباً بتعويض ، وقدر خسارته بمبلغ ٤،٥٠٠ جنيه . وأعان قضيته تشارلز جيمس فوكس ، ومنحته برمنجهام ٢،٥٠٢ جنيهاً . فحاول أن يستقر في موطن جديد في انجلتره ولكن رجال الكنيسة ، وأنصـــار الملكية ، وزملاءه في الجمعية الملكية ، تجنبوا صحبته [٤٢] .

وعرضت عليه الأكاديمية الفرنسية للعلوم عن طريق سكرتيرها كوندورسيه بيتاً ومختبراً فى فرنسا . وفى ٨ ابريل ١٧٩٤ هاجر إلى أمريكا ، وكان يومها فى الحادية والستين ، واختار بيته الجديد فى مدينة نورثمبرلاند ، فى بنسلفانيا وطن فرانكلن . على ضفاف نهر سسكويهانا الجميل الذى سيحلم به بعد قليل كولردج وسوذى . ثم استأنف تجاربه واكتشف تركيب أول أكسيد الكربون . وقد احتفت به الجماعات العلمية وعرض عليه كرسى الكيمياء فى جامعة بنسلفانيا . وفى ١٧٩٦ ألقى على الجامعيين فى فيلادلفيا سلسلة من الأحاديث عن « الشواهد على المسيحية » وكان من بين جمهور المستمعين جون آدمز نائب رئيس الجمهورية وكثيرون من أعضاء الكونجرس . ومن هذه الاجتماعات انبعثت جمعية للموحدين . وبعد عامين اقترح تيموثى بيكرنج ، الوزير فى حكومة الرئيس آدمز ، ترحيل بريستلى بوصفه أجنبياً غير مرغوب فيه . ووضع انتخاب جفرسن (١٨٠٠) نهاية لقلق بريستلى ، فأتيحت له أربعة أعوام من السلام . وفى ١٨٠٣ كتب آخر أبحاثه العلمية التى ظل يدافع فيها عن الفلوجستون ومات فى نورثمبرلاند فى ٦ فبراير ١٨٠٤ . وفى ١٩٤٣ قررت الهيئة التشريعية البنسلفانية أن يكون بيته بيتاً تذكارياً قومياً .

وبينما اضطلع توماس بين بحملة بريستلى بوصفه مسيحياً متمرداً ، واصل هنرى كافندش أبحاثه فى كيمياء الغازات . وكان كافندش ابن لورد ، وابن أخى دوق . وقد ورث فى الأربعين ثروة من أعظم الثروات فى انجلتره . كان خجولا متردداً فى حديثه ، مهملا فى لباسه . فعاش عيشة النساك فى مختبره بكلابهام كومن بلندن . ولم يسع إلى الشهرة . وتميزت أبحاثه بالتدقيق الشديد فى قياس جميع المواد ووزنها قبل التجربة وبعدها ، وقد أعانت هذه المعايرات لافوازييه على أن يصوغ مبدأه القائل بأن كمية المادة تظل ثابتة فى التغيرات الكيميائية .

وفى ١٧٦٦ أنهى كافندش إلى الجمعية الملكية تجاربه على « الهواء الصناعى » أى الغاز المشتق من الجوامد . فقد توصل بإزابة الزنك أو القصدير فى أحماض إلى استخراج ما سماه « الهواء القابل للاحتراق » ، وقال أن هذا

والفلوجستون شيء واحد ، ونحن نسميه الآن الهيدروجين . وكان كافندش أول من أدرك أنه عنصر متميز ، وعين وزنه النوعي . وفى ١٧٨٣ ، وجد — وهو يتابع تجربة أجراها بريستلي — أنه إذا مررت شرارة كهربية فى مزيج من الهواء العادى « والهواء القابل للاحتراق » تكاثف جزء من المزيج وتحول إلى ندى . واستنتج من هذا التحليل الكهربى أن الماء مركب من ٢,٠١٤ حجماً من « الهواء القابل للاحتراق » إلى حجم واحد من هواء برستلى المنزوع الفلوجستون ، أو كما نقول الآن (يد ٢ ا) . وكان هذا أول برهان قاطع على أن الماء مركب لا عنصر (وقد ألمع جيمس وات ، مستقلا ، إلى نفس التركيب للماء فى نفس السنة ١٧٨٣) . وبعد أن مرر كافندش ثانية شرارة كهربية فى مزيج من الهيدروجين والهواء العادى حصـــل على حمض النتريك ، واستنتج أن الهواء النقى مركب من الأكسجين والنتروجين (الأزوت) . (وكان دانيال رذرفورد الأدنبرى قد اكتشف النتروجين بوصـــفه عنصراً متميزاً فى ١٧٧٢) ، واعترف كافندش بوجود بقية صغيرة لم يســـتطع تعليلها ، ولكنه قدرها فبلغت ٠,٨٣ من الكمية الأصلية . وقد ظل هذا سراً غامضاً حتى ١٨٩٤ ، حين عزل رايلى ورامزى هذا الجزء الذى نسميه الآن الأرجون ، بوصفه عنصراً قائماً بذاته ، ووجدا أن وزنه ٠,٩٤ من الهواء العادى . وهكذا ثبتت دقة موازين كافندش .

(ﺟ) لافوازييه :

فى هذه الأثناء أتاحت مجموعة من الباحثين المتحمسين ، عبر القنال الانجليزى ، لفرنسا مكان الريادة فى هذا العلم الجديد ، وأعطت الكيمياء الشكل الذى تبدو عليه اليوم فى جوهرها . وقام فى مكان المنبع منهم جيوم روويل ، الذى تميز بجهوده فى كيمياء الأملاح ، ولكنه اشتهر بدورات محاضراته التى علم الكيمياء فيها للأغنياء والفقراء ، ولديدرو وروسو ، ولأعظم كيميائى فيهم أجمعين .

وقد كان لأنطوان لافوازييه ميزة أو معوق ، هى أنه ولد غنياً (١٧٤٣) . أتاح أبوه — وكان محامياً فى برلمان باريس — للصبى كل ما توفر من تعليم

فى ذلك الحين ، وورثه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه وهو بعد فى الثالثة والعشرين . وثروة كهذه كان يمكن أن تجهض مستقبلا فى مهنة الأدب ، ولكنها كانت عوناً لعلم تطلب أجهزة غالية وسنوات طويلة من الإعداد . وقد فر أنطوان من مدرسة الحقوق التى أرسل إليها ، مؤثراً عليها دراسة الرياضة والفلك ، وحضر محاضرات روويل فى قاعة الجاردان دروا . ومع ذلك أتم دراساته القانونية ، ثم رافق جان جتار فى القيام برحلات ورسم خرائط تعدينية لفرنسا . وفى ١٧٦٨ انتخب عضواً فى أكاديمية العلوم ، وكانت يومها تضم بوفون ، وكزنيه ، وطورجو ، وكوندورسيه . وبعد عام انضم إلى هيئة الملتزمين العامة فى عملية بغيضة هى جمع ضرائب الإنتاج لاستعاضة ما أنفقوه فى إقراض الحكومة . فدفع ٥٢٠,٠٠٠ جنيه ثمناً لثلث نصيب فى أحد الأسهم الستين لهيئة الالتزام العامة ، وفى ١٧٧٠ رفعه إلى نصيب كامل . وفى ١٧٧١ تزوج مارى بولز ، ابنة ملتزم عام غنى ، وأنفق الآن بعض وقته فى رحلات للأقاليم ، وفى تحصيل إيراداته ، وجميع بيانات الضرائب ، والعينات الجيولوجية . وقد مولت ثروته مختبراً عظيما وتجارب غالية التكاليف(*) ، ولكنها قادته إلى الجيلوتين .

ثم شارك بدور إيجابى فى الشئون العامة . فلما عين (١٧٧٥) مأموراً للبارود ، زاد إنتاج تلك المادة المتفجرة وحسن نوعها ، فيسر بذلك تصديرها على نطاق واسع إلى المستعمرات الأمريكية ، وانتصارات جيوش الثورة الفرنسية .

وقال لافوازييه « لقد أصبح البارود الفرنسى خير بارود فى أوربا ... ويجوز لنا أن نقول أن أمريكا الشمالية تدين له بحريتها . » [٤٣] وقد خدم فى مختلف المجالس الرسمية ، قومية وبلدية ، وعالج بذكائه المتعدد النواحى شتى مشكلات نظام الضرائب ، والعملة ، والمصارف ، والزراعة العلمية ،

(*) فى احدى تجاربه الأولى أحرق ماستين ليثبت أن الناتج الوحيد من احتراقهما هو ثانى أوكسيد الكربون وبما أن هذا الغاز كان كذلك الناتج الوحيد للفحم النباتى التام الاحتراق ، فقد برهن لافوازييه بهذه الطريقة على الوحدة الكيماوية للفحم النباتى والماس بوصفها شكلين من أشكال الكربون الخالص .

وأعمال البر العام . وحين كان عضواً فى الجمعية الإقليمية بأورليان (١٧٨٧) جاهد فى سبيل تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى الأقاليم . وخلال نقص الطعام الخطير فى١٧٨٨ أقرض ماله لكثير من المدن لتشترى به قمحاً . لقد كان رجلا أحب خير المجتمع ، وثابر على جمع المال .

على أنه فى هذه الأنشطة كلها لم يكف عن الاشتغال بالعلم . فغدا مختبره أعقد وأوسع المختبرات السابقة للقرن التاسع عشر : قوامه ٢٥٠ آلة ، وثلاثة عشر ألف مخبار ، وآلاف المستحضرات الكيمائية ، وثلاثة موازين دقيقة أعانت فيما بعد على تقدير الجرام وحدة للموازين فى النظام المترى . وكان الوزن والمعايرة نصف السر فى كشوف لافوازييه ، وبفضلهما غير الكيمياء من نظرية كيفية إلى علم كمى . وبالوزن الدقيق برهن على أن « فلوجستون » شتال ليس إلا خرافة مربكة افترضت وجود مادة غامضة تترك الجسم المشتعل فى عملية الاحتراق وتدخل الهواء . فى أول نوفمبر ١٧٧٢ قدم لافوازييه إلى أكاديمية العلوم مذكرة هذا نصها :

قبل ثمانية أيام اكتشفت أن الكبريت فى احتراقه لا يفقد الوزن بل يكسبه ، أى أننا قد نحصل من رطل الكبريت على أكثر من رطل من الحمض الكبريتى ، مع أخذ رطوبة الهواء فى حسابنا . وهذا ما يحدث أيضاً فى الفوسفور . وزيادة الوزن تأتى من كمية الهواء الكبيرة التى تثبت (أى تمتصها المادة المحترقة) أثناء الاحتراق وتتحد مع الأبخرة (الكبريتية) . وقد اقنعنى هذا الكشف ، الذى أثبته بتجارب أراها حاسمة ، أن ما يلاحظ فى احتراق الكبريت والفوسفور قد يحدث فى جميع الأجسام التى تكتسب وزناً عند الاحتراق أو التكلس [٤٤] . فالجسم المحترق لا يعطى الهواء شيئاً بل يأخذ منه شيئاً . فما هذا الشىء ؟

فى خريف ١٧٧٤ نشر لافوازييه وصفاً لمزيد من التجارب . فقد وضع كمية موزونة من القصدير فى قنينة موزونة تتسع لقدر كبير من الهواء . ثم ختم القنيينة ، وسخن الكل حتى تأكسد القصدير تأكسداً جيداً . وبعد أن أتاح للجهاز وقتاً ليبرد ، وجد أن وزنه ظل دون تغيير . ولكنه حين كسر الختم

اندفع الهواء إلى القنينة ، مما دل على أن فراغاً جزئياً قد حدث فى القنينة .. فكيف حدث ؟ لم يجد لافوازييه تعليلا إلا أن القصدير المحترق قد امتص جزءاً من الهواء .. فما هذا الجزء ؟

وفى أكتوبر ١٧٧٤ التقى لافوازييه ببريستلى فى لندن . وأخبره بريستلى بالتجارب التى أجراها فى أغسطس ، والتى ظل يفسرها بأنها دليل على أن الفلوجستون ينطلق من الجسم المحترق إلى الهواء . وفى ٢٦ ابريل ١٧٧٥ قرأ لافوازييه على الأكاديمية مذكرة روى فيها التجارب التى هدته إلى اعتبار الاحتراق امتصاص جسم محترق لعنصر غامض من الهواء ، أطلق عليه مؤقتاً اسم « الهواء الشديد النقاء » . لقد اكتشف الأكسجين كما اكتشفه بريستلى ، ولكنه اختلف عنه لأنه نبذ خرافة الفلوجستون . ولم ينحت لفظ « الأكسجين » للدلالة على العنصر القابل للاشتعال فى الهواء إلا عام ١٧٧٩ ، وقد اشتقه من كلمتين يونانيتين معناهما « مولد الحمض » لأنه ظن خطأ أن الأكسجين مكون لا غنى عنه فى جميع الأحماض .

ولاحظ لافوازييه كما لاحظ بريستلى أن نوع الهواء الذى تمتصه المعادن فى الاحتراق هو نفس النوع الذى يدعم الحياة الحيوانية . فى ٣ مايو ١٧٧٧ قدم للأكاديمية بحثاً فى « تنفس الحيوان » قال فيه « إن خمسة أسداس الهواء الذى نستنشقه عاجزة عن دعم تنفس الحيوان ، أو الاشتعال والاحتراق ،... فخمس حجم الهواء فقط هو الصالح للتنفس » . ثم أضاف « هناك شبه كبير بين الهواء الذى استعمل لدعم هذه الوظيفة الحيوية وقتاً ما ، والهواء الذى تكلست (تأكسدت) فيه المعادن ، والعلم بـ (عملية) واحدة يمكن بالطبع أن يطبق على الأخرى » . وعليه فقد أسس لافوازييه التحليل العضوى ، بوصف التنفس بأنه اتحاد الأكسجين بالمادة العضوية . وفى هذه العملية لاحظ انطلاق حرارة ، كما تنطلق فى الاحتراق ؛ ثم زاد تأكيد الشبه بين التنفس والاحتراق ، بإثباته أن ثانى أكسيد الكربون والماء ينطلقان (كما فى التنفس) من احتراق مواد عضوية مثل السكر والزيت والشمع . وحدثت الآن ثورة فى علم الفسيولوجيا بفضل التفسير المتزايد للعمليات العضوية بلغة فيزيا – كيميائية .

واقتضى تكاثر التجارب ، ونمو المعرفة الكيميائية ، ونبذ نظرية الفلوجستون ، صياغة جديدة ، ووضع مصطلحات جديدة ، لهذا العلم المتفتح . وعينت أكاديمية العلوم لافوازييه ، وجيتون دمورفو ، وفوركروا ، وبرتولليه ، لمحاولة إنجاز هذه المهمة . وفى ١٧٨٧ نشروا « طريقة لوضع المصطلحات الكيميائية » . فنبذت أسماء عتيقة مثل « مسحوق الألجاروت » ، و « زبد الزرنيخ » و « أزهار الزنك » ؛ وسمى الهواء المجرد من الفلوجستون « أوكسجينا » والهواء المحتوى على الفلوجستون « أزوتا » ، ثم نتروجينا ، والغاز القابل للاشتعال هيدروجينا ، والهواء الثابت غاز حامض الكربون ، والتلكس تأكسداً ، واشتقت أسماء المركبات من مكوناتها . وعدد جدول للمواد البسيطة اثنين وثلاثين عنصراً معروفة للافوازييه ، ويعدد الكيميائيون اليوم من هذه العناصر ثمانية وتسعين . ومعظم الأسماء التى تقررت فى كتاب « الطريقة » المذكور قياسية فى علم المصطلحات الكيميائية فى يومنا هذا . وقدم لافوازييه للمصطلحات الجديدة ولخص العلم الجديد ، فى « رسالة تمهيدية فى الكيمياء » ظهرت عام ١٧٨٩ ، وكانت علامة ثورة أخرى — هى نهاية فلوجستون شتال وعناصر أرسطو .

وكان لافوازييه نفسه ضحية من ضحايا الثورة الفرنسية . فلقد شارك فى الجهود المبذولة لتفاديها ، وفى الشرور التى أفضت إليها . وفى العقد الذى هيأ للثورة عمل بهمة فى لجان تدرس عيوب السجون والمستشفيات وتصلحها . وقدم إلى لوران دفيلدوى المراقب العام (١٧٨٧) مذكرة عدد فيها تسعة عوامل مسئولة عن استغلال طبقة الفلاحين . وكان فى كلامه ما يشرفه تشريفاً خاصاً ، لأنه صادر من مالك أرض من أصحاب الملايين . قال :

« فليكن لنا من الشجاعة ما يحملنا على أن نقرر أنه ... إلى أن ارتقى لويس السادس عشر العرش لم يكن للشعب أى وزن فى فرنسا ، ولم يكن هناك اعتبار لغير قوة الدولة ، وسلطانها ، وثروتها ، أما سعادة الشعب ، وأما حرية الفرد ورفاهيته ، فتلك الكلمات لم تقرع قط آذان حكامنا الأسبقين ، الذين لم يدركوا أن الهدف الحقيقى من الحكومة يجب أن يكون الاستكثار من أسباب الاستمتاع ، والسعادة ، والرفاهية ، لكل رعاياها . إن المزارع

المنكود الحظ يئن فى كوخه . لا يمثله أحد ولا يدافع عنه أحد ، ولا تعبأ بمصالحه أى إدارة من الإدارات الكبرى فى الحكومة القومية[٤٥] » .

وقد اختير لافوازييه لتمثيل الطبقة الثالثة العامة فى المجلس الإقليمى الذى اجتمع بأورليان فى ١٧٨٧ . وهناك تقدم بقانون لإلغاء السخرة ولصيانة الطرق ، لا بتشغيل الفلاحين إلزامياً بل بضرائب تفرض على جميع الطبقات ، ولكن النبلاء والاكليروس هزموا هذا الاقتراح . ثم أوصى بنظام للتأمين الاجتماعى يساهم فيه من يريد من الفرنسيين تأمين شيخوختهم ، فهزم هذا أيضاً . وفى مذكرة وجهها إلى الحكومة عام ١٧٨٥ وضع المبدأ القائل بأن مجلس طبقات الأمة القادم يجب أن يحول إلى سلطة تشريعية كاملة ، فيكون الملك عامله المنفذ فقط ، وأنه يجب دعوته للانعقاد بانتظام ، وأن الضرائب يجب أن تفرض على الجميع ، وأن تطلق حرية الصحافة والطباعة[٤٦] . لقد كان لافوازييه من أكثر أفراد البورجوازية الفرنسية استنارة ما فى ذلك شك ، ولعل اقتراحاته عبرت عن جزء من استراتيجيتها السياسية .

كذلك كان من كبار الأعضاء فى هيئة الملتزمين العموميين ، التى كانت هدفاً للسخط من الجميع تقريباً . وبين عامى ١٧٦٨ و ١٧٨٦ بلغ متوسط أرباحه من عملية الالتزام هذه ٦٦٦,٦٦٧ جنيهاً فى العام ، وهو ما يساوى نسبة مئوية قدرها ٨,٢٨ ٪ فى السنة ، وربما كان محقاً فى اعتباره هذا العائد معقولا نظراً لما تتطلبه العملية من جهد ومخاطرات . وعملا باقتراح منه بنى كبير الوزراء كولون ، فى ١٧٨٣ — ٨٧ ، سوراً حول باريس لمنع المهربين الذين يتهربون من أداء المكوس . وقد كلف السور والجمارك والبوابات الجديدة ثلاثين مليوناً من الجنيهات . وأثار المشروع سخطاً عاماً ، وصرح الدوق دنيفرنوا بأن صاحب فكرته يجب أن يشنق .

وأيد لافوازييه الثورة فى ١٧٨٩ وهى ما تزال تحت سيطرة الطبقات الوسطى . وبعد عام شعر بأنها تنزع إلى التطرف ، والعنف ، والحرب ، فناشد القائمين بها الاعتدال وضبط النفس . وفى نوفمبر نشر بعض موظفى الالتزام العام نبذة اتهموا فيها الهيئة باختلاس صندوق معاشاتهم . وقالوا فيها

« ارتعدوا يا من مصصتم دم التعساء » [٤٧] . وفى ١٧٩١ بدأ مارا حملة شخصية ضد لافوزييه . فقد كان « صديق الشعب » قد نشر فى ١٧٨٠ « أبحاثاً فيزيائية فى النار » زعم فيها أنه أظهر للعيان العنصر الخفى فى النار ، وأبى لافوازييه أن يأخذ هذا الزعم مأخذ الجد . ولم ينس مارا له فعلته هذه . ففى عدد ٢٧ يناير ١٧٩١ من مجلته « صديق الشعب » اتهم مارا الكيميائى — المالى بأنه دجال ضخم الموارد ، رجل « سنده الوحيد فى المطالبة بتقدير الشعب له أنه حبس باريس بمنعه الهواء النقى عنها بسور كلف الفقراء ٣٣ مليون جنيه . فليته شنق على عمود المصباح » [٤٨] . وفى ٢٠ مارس ١٧٩١ ألغت الجمعية التأسيسية هيئة الالتزام العام .

وجاء دور الهجوم الآن على أكاديمية العلوم ، لأن جميع المؤسسات التى تخلفت عن النظام القديم اشتبه فى تعاطفها مع أعداء الثورة . ودافع لافوازييه عن الأكاديمية ، فأصبح الهدف الأكبر للهجوم . وفى ٨ أغسطس صدر الأمر بأن تحل الأكاديمية نفسها . وفى آخر اجتماع لها وقع جدول الورديات فيمن وقع لاجرانج ، ولافوازييه ، ولالاند ، ولامارك ، وبرتولليه ، ومونج . وانصرف كل منهم إلى حال سبيله مؤملا ألا تعثر عليه الجيلوتين .

فى هذا الشهر قدم لافوازييه إلى المؤتمر مشروع نظام قومى للمدارس أوحت به إليه أفكار كوندورسيه ، ويقضى بأن يكون التعليم الابتدائى مجاناً للجنسين « لأن هذا واجب مفروض على المجتمع نحو الطفل . » أما التعليم الثانوى ، المباح هو أيضاً للجنسين ، فيوسع بتأسيس الكليات الصناعية فى جميع أرجاء فرنسا . وبعد شهر فتش عمال الحكومة مسكنه ، وكان بين الخطابات التى وجدت به من أصدقاء لافوازييه خطابات نددت بالثورة ، وتحدثت فى أمل عن الجيوش الأجنبية التى ستطيح بها سريعاً ، وأظهرت خطابات أخرى أن لافوازييه وزوجته يخططان للهروب إلى اسكتلنده [٤٩] . وفى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣ قبض على اثنين وثلاثين من الملتزمين العموميين السابقين ، ومن بينهم لافوازييه . وقد حركت زوجته كل نفوذ ليفرج عنه ، ففشلت ، ولكن سمح لها بزيارته . وفى السجن واصل عمله فى شرحه للكيمياء الجديدة . واتهم الماليون بأنهم تقاضوا ربا فاحشاً وغشوا التبغ بالماء ، وابتزوا ١٣٠ مليون جنيه فى أرباح غير مشروعه .

وفى ٥ مايو ١٧٩٤ استدعوا للمثول أمام محكمة الثورة . وبرىء ثمانية منهم ، وحكم على أربعة وعشرين بالاعدام ، ومنهم لافوازييه . فلما طلب إلى القاضى الذى رأس المحكمة أن يخفف الحكم على أساس أن لافوازييه وبعض الآخرين علماء ذوو قيمة للدولة ، كان رده فيما روى « ليس بالجمهورية حاجة إلى علماء » ولكن الرواية لا تستند إلى دليل مقنع (٥٠) . وأعدم لافوازييه بالجيلوتين فى اليوم الذى صدر فيه الحكم ، ٨ مايو ١٧٩٤ ، فى المكان الذى يقوم فيه اليوم ميدان الكونكورد . ويقال أن لاجرانج علق على إعدامه بهذه العبارة « إن قطع رأسه لم يستغرق أكثر من لحظة ، وقد لا تكفى مائة عام لنوهب رأساً نظيره » (٥١) .

وصودرت كل أموال لافوازييه وأرملته لتساعد فى الوفاء للجمهورية بمبلغ ١٣٠ مليوناً من الجنيهات ادعى أن الملتزمين العموميين مدينون به للدولة . أما مدام لافوازييه ، المملقة ، فقد عالها خادم قديم للأسرة . وفى ١٧٩٥ استنكرت الحكومة الفرنسية إدانة لافوازييه ، وردت إلى ارملته ثروتها ، وقد عمرت حتى عام ١٨٣٦ . وفى أكتوبر ١٧٩٥ أقامت ليسيه الآداب والفنون جنازاً لذكرى لافوازييه ، وألقى فيه لاجرانج تأبيناً . وأزيح الستار عن تمثال نصفى يحمل هذه العبارة : « إن ضحية الطغيان ، وصديق الآداب والفنون المبجل ، لم يمت ، ولم يزل يخدم الإنسانية بعبقريته (٥٢) .

٥ — الفلك :

(ا) مقدمة فى الأدوات الفلكية :

إلى أى حد أثارت كشوف الرياضة والفيزياء والكيمياء قبة السماء ؟ إن أجرأ ما اقتحم العلم من مغامرات محاولته أن يقذف بأدوات قياسيه حول النجوم ويتجسس بالليل على أولئك الحسان المتألقات فى كبد السماء ، ويحلل مكوناتهن عبر بليون من الأميال ، ويحدد حركاتهن بمنطق البشر وقوانينهم . إن العقل والسماوات هما قطبا دهشتنا ودراستنا ، والعجب العجاب أن يشرع العقل القوانين للقبة الزرقاء .

كانت الأدوات المقربة للأبعاد قد اخترعت ، والاكتشافات الكبرى قد تمت ؛ فاضطلع القرن الثامن عشر بتحسين هذه الأدوات (جراهام ، وهادلى ، ودولاند) ، وبالتوسع فى تلك الكشوف (برادلى وهرشل)

وبتطبيق أحدث الرياضيات على النجوم (دالامبير وكليرو) . وبترتيب النتائج فى نسق جديد من الديناميكا الكونية (لابلاس) .

وقد حسن التلسكوب وزيد حجمه . وصنعت « التلسكوبات الاستوائية » التى تدور حول محورين — أحدهما مواز لمستوى محور الأرض ، والآخر عمودى عليه ، واختيار هذين المحورين مكن الراصد من أن يبقى الجرم السماوى تحت بصره زمناً يكفى للدراسة المفصلة والقياس المكرومترى . وقد ثنى نيوتن عن استعمال التلسكوب الانكسارى اعتقاده بأن الضوء إذ تكسره العدسات لابد أن يتحلل ألواناً فيشوش الرصد ، ويئس من مشكلة إيجاد انكسار خال من الألوان ، واتجه إلى التلسكوب العاكس . وفى ١٧٣٣ قام هاو يدعى السيد تشستر مور هول بحل المشكلة ، إذ جمع عدسات ذات وسائط عاكسة مختلفة تبطل بذلك تنوع اللون . ولم ينشر كشفه ، وكان على جون دولاند أن يتوصل بجهده الخاص إلى مبادىء التلسكوب الاكروماتى وتركيبه ، وقد أعلن عن كشفه هذا فى « الأعمال الفلسفية لجمعية لندن الملكية » فى ١٧٥٨ .

وفى ١٧٢٥ صنع جورج جراهام ، الساعاتى الكويكرى ، لأدموند هالى فى مرصد جرينتش آلة ربع جدارية — هى عبارة عن ربع دائرة ميكانيكى مقسم إلى درجات ودقائق ومثبت على جدار ليلتقط مرور نجم عبر الزوال . وصنع جراهام لهالى ، وجيمس برادلى ، وبيير لمونيه ، أدوات لتسجيل هذا المرور تجمع بين التلسكوب ، والمحور ، والساعة ، والكرونوجراف ، لتسجيل هذا المرور بدقة أعظم من ذى قبل . وفى ١٧٣٠ ، وصف توماس جودفرى ، عضو جماعة فرانكلن الفكرية فى فيلادولفيا ، لأصدقائه آلة لقياس الزوايا والارتفاعات بالانعكاس المزدوج خلال مرايا متقابلة ترى فى تلسكوب ، ولكنه لم ينشر عن هذه الآلة حتى عام ١٧٣٤ . وفى ١٧٣٠ صنع جون هادلى آلة مشابهة لها ، وهى آلة الثمن — أى قوس مدرج من ثمن دائرة . وفى ١٧٥٧ وسعت إلى السدس . وقد أتاحت « آلة السدس » هذه التى صنعها هادلى قياساً أضبط للزاوية التى تفصل بين جسمين ، لأنها مكنت الملاح من أن يرى فى وقت واحد ، فى التلسكوب

العاكس ، كلا من الأفق والشمس (أو النجم) . وبفضل هذه الآلة ، مضافاً إليها كرونومتر هاريسون البحرى ، أصبحت الملاحة علماً أقرب ما يكون إلى العلوم الدقيقة .

وكان على الملاح أن يحدد خطى الطول والعرض إن أراد تحديد موقع سفينته فى البحر . ولكى يعين خط الطول كان عليه أن يعين زمنه فى المكان واللحظة بالرصد الفلكى ، ويقارن بين هذا الزمن المحلى وبين ساعة ضبطت لتحتفظ بزمن قياسى (جرينيتش) أينما كانت الساعة . وكانت المشكلة هى صنع كرونومتر لا يتأثر بتغيرات درجة الحرارة أو حركات السفينة . وفى ١٧١٤ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها عشرون ألف جنيه لمن يبتكر طريقة لايجاد خط الطول فى حدود نصف درجة . وعرض ساعاتى من يوركشير يدعى جون هاريسون على جورج جراهام (١٧٢٨) تصميمات لكرونومتر بحرى ، وأقرضه جراهام المال لصنعه . وقد اكتمل صنعه فى ١٧٣٥ ، واستعمل ميزانين ضخمين متقابلين بدلا من البندول . وعادلت حركة السفينة أربعة زنبركات موازين ، تتحرك ضد بعضها البعض ؛ وأمكن إبطال مفعول التغييرات فى درجة الحرارة بعدة قضبان مصنوعة من النحاس والصلب ، تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة ، وموصلة بالزنبركات . وأوفد « مجلس خطوط الطول » هاريسون بكرونومتره فى رحلة إلى لشبونه لاختباره ، وشجعت النتائج المجلس على توفير المال لتحسين ثان ، وثالث ، ورابع . وقد جرب هذا الكونومتر الرابع ، الذى لم يزد عرضه على خمس بوصات ، فى رحلة إلى جزر الهند الغربية (١٧٥٩) ؛ ولم تؤخر الساعة فى تلك الرحلة أكثر من خمس ثوان بالإضافة إلى تأخيرها العادى المحسوب سلفاً (حين تكون ثابتة على البر) ومقداره ثمانون ثانية فى كل ثلاثين يوماً . وبعد نزاعات حصل هاريسون على جائزة العشرين ألف جنيه كاملة . وبفضل هذه الآلة وغيرها من الآلات البحرية تهيأت البحرية البريطانية الآن (فى ذروة حرب السنين السبع ١٧٥٦ — ٦٣) للسيطرة على البحار .

(ب) النظرية الفلكية :

تبارى البريطانيون والفرنسيون مباراة حامية فى دراسة الفلك ، ولم يكن

الفلك بالعلم البعيد أو « البحث » بالنسبة لهم ، فقد دخل فى الصراع على سيادة البحار ، ومن ثم على كل عالم المستعمرات والتجارة . وأسهمت فى المباراة ألمانيا وروسيا بفضل أويلر ، وإيطاليا بفضل بوسكوفش دون أن تحظيا بنصيب فى المغانم .

وأعان أويلر ، وكليرو ، ودالامبير ، الملاحة بدراساتهم للقمر ، وجدولوا تغيرات موقعه واوجهه بالنسبة للشمس والأرض ، وتأثيره على المد والجزر . ومن سجلات أويلر وضع يوهان طوبياس ماير فى جامعة جوتنجن جداول قمرية أتته بمنحة من مجلس خطوط الطول البريطانى . وفى ١٧٣٨ أعلنت أكاديمية باريس للعلوم عن جائزة لمن يتوصل إلى نظرية فى المد والجز ر . ومنحت جوائز لأربعة مؤلفين : دانيال برتوللى ، وأويلر ، وكولن ماكلورن ، وأ . كافاللرى . وقد بنوا جميعهم — إلا الأخير — تعليلاتهم على تعليل نيوتن ، وأضافوا دوران الأرض إلى جاذبية الشمس والقمر عاملا فى إحداث المد والجزر . ودعت الأكاديمية فى مناسبات عديدة المؤلفين لتقديم مقالات عن حركات الكواكب — عن انحرافاتها الحقيقية أو الظاهرية عن الأفلاك البيضية ، وظفر مقال كليرو بالجائزة فى ١٧٤٧ ، ومقال أويلر فى ١٧٥٦ .

وشرف روجيرو جوزيبى بوسكوفش طائفته اليسوعية بكشوف منيرة فى الفلك والفيزياء . وقد ولد فى راجوزا ، وتتلمذ للرهبنة بروما وهو فى الرابعة عشرة ، وأدهش معلميه فى « الكلية الرومانية » بنبوغه المبكر فى العلم . وعين أستاذاً لكرسى الرياضة هناك فى التاسعة والعشرين . ومن ذلك التاريخ أصدر ستة وستين مؤلفاً ، وشارك فى تحديد المدار العام للمذنبات وقدم أول حل هندسى لايجاد مدار الكوكب واستوائه . وفى رسالة عن « انقسام المادة » (١٧٤٨) شرح رأيه فى المادة ، وهو أنها مكونة من نقط أو مجالات قوة ، كل منها مركز يتبادل عليه الصد والجذب — وهى نظرية تذكرنا بمونادات ليبنتز وتسبق إلى تصوير نظريات عصرنا الذرية . ونظم اليسوعى المتعدد المواهب مشروعات عملية — كمسح الولايات البابوية وعمل خرائط لها ، وبناء سدود على البحيرات التى هددت بإغراق لوكا ، ووضع

خطط لصرف المستنقعات البونتية ، والمساعدة فى تصميم مرصد بريرا فى ميلان . وبفضل إلحاحه ألغى البابا بندكت الرابع عشر فى ١٧٥٧ الأمر الذى أصدرته لجنة الفهرس (للتحريمات) على النظام الكوبرنيقى . وقد أختير عضواً فى أكاديمية باريس للعلوم وجمعية لندن الملكية . وفى ١٧٦١ — ٦٢ استقبل بمظاهر التكريم فى فرنسا ، وانجلتره ، وبولنده ، وتركيا . وفى ١٧٧٢ قبل وظيفة مدير البصريات فى البحرية الفرنسية التى عينه فيها لويس الخامس عشر . ثم عاد إلى إيطاليا فى ١٧٨٣ ، ومات بميلان فى ١٧٨٧ وهو فى السادسة والسبعين ، وخلف عدة مجلدات من الشعر .

أما ألمع نجم بين الفلكيين البريطانيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر فهو جيمس برادلى . وكان خاله ، جيمس باوند ، القسيس بوانستد فى إسكس ، فلكياً هاوياً يملك مرصداً خاصاً ، تعلم فيه الصبى أن للنجوم علماً كما أن لها فلسفة جمالية . وبعد أن نال برادلى درجة الأستاذية من أكسفورد عجل بالعودة إلى وانستد ، وقام بأرصاد مبتكرة ، وأبلغها إلى الجمعية الملكية ، وانتخب عضواً بها وهو فى السادسة والعشرين (١٧١٨) وبعد ثلاث سنوات أصبح أستاذاً « سافيليا » للفلك فى أكسفورد . فلما مات هالى العظيم فى ١٧٤٢ ، عين برادلى خلفاً له فى جرينتش فلكياً للملك . وظل يشغل هذه الوظيفة حتى مماته (١٧٦٢) .

وكان أول مشروعاته الكبرى تحديد « اختلاف المرأى » السنوى للنجم — أى الفرق فى اتجاهه الظاهرى كما يرى (١) من نقطة على سطح الأرض ، و (٢) من نقطة وهمية فى مركز الشمس . فإذا كانت الأرض تدور فى فلكها حول الشمس كما افترض كوبرنيق ، فلابد من وجود هذا الفرق ، ولكن أحداً لم يبرهن على وجود أى فرق ، فلو أمكن البرهنة عليه لعزز ذلك نظرية كوبرنيق . وكان روبرت هوك ، المغامر فى كل ميدان ، قد حاول (١٦٦٩) أن يبين هذا الاختلاف فى مرأى النجم جما دراكونيس ، ولكنه أخفق . واستأنف المحاولة هاو ثرى يدعى صموئيل مولينو عام ١٧٢٥ فى كيو ، وانضم إليه برادلى هناك ، وأسفرت النتائج التى تمخضت عنها محاولتهما عن تأييد جزئى فقط لنظرية كوبرنيق . وعاد برادلى إلى وانستد ،

وكلف جورج جراهام بأن يصنع له تلسكوب « قطاع أوج » يمكنه من رصد مائتى نجم ، لانجم واحد ، فى عبورها الزوال . وبعد أن أنفق برادلى ثلاثة عشر شهراً فى الرصد والحساب ، تمكن من أن يبرهن على دورة سنوية من الانحرافات المتجهة بالتناوب للجنوب والشمال فى الموقع الظاهرى للنجم ، وفسر هذا التناوب بأنه راجع إلى حركة الأرض فى مدارها . وفسر كشف « انحراف الضوء » (١٧٢٩) مئات من المشاهدات والانحرافات التى كانت محيرة إلى ذلك الحين ، وقد فرقت تفريقاً ثورياً بين الموقع المرصود والموقع « الحقيقى » أو المحسوب لأى نجم . واتفقت اتفاقاً حسناً مع كوبرنيق ، لأنها اعتمدت على دوران الأرض حول الشمس . وبلغ من تأثيرها المنير على الفلك أن فلكياً — مؤرخاً فرنسياً يدعى جوزف دلامبر ، اقترح أن يسلك برادلى فى صف كيلر ، لا بل فى صف هيبارخوس ذاته [٥٣] .

وانتقل برادلى إلى كشفه الكبير الثانى — وهو ميل mutation ومعناها الحرفى إيماء — محور دوران الأرض كتذبذب النحلة المحورى . فالنجوم التى وصفت حركاتها الظاهرية بأنها تقوم بدورة سنوية نظراً إلى دوران الأرض حول الشمس ، لا تعود — فى مشاهدات برادلى — بعد سنة إلى نفس المواقع الظاهرية السابقة . وخطر له أن الفرق ربما نشأ عن ميل محور الأرض بسبب تغيرات دورية فى العلاقة بين مدار القمر حول الأرض ومدار الأرض حول الشمس . فدرس هذه التغيرات طوال تسعة عشر عاماً (١٧٢٨ — ٤٧) ، وفى نهاية العام التاسع عشر وجد أن النجوم عادت بالضبط إلى نفس المواقع الظاهرية التى كانت لها عند بدء العام الأول « وتأكد الآن أن ميل محور الأرض ناشىء عن الحركة الفلكية للقمر ، وتأثيره على الأجزاء الاستوائية من الأرض . وكان تقريره عن هذه الكشوف حدثاً مثيراً فى أعمال الجمعية الملكية لعام ١٧٤٨ . أن للصبر — كما للحرب — أبطاله .

وخلال اشتغال برادلى فلكياً للملك ، استسلمت بريطانيا لجراحة مؤلمة : فبعد ١٧٠ عاماً من المقاومة قبلت التقويم الجريجورى ، ولكنها سمته فى عناد التقويم المصلح وأمر قانون برلمانى (١٧٥٠) ، بأن تحذف الأحد عشر

يوماً التالية لليوم الثانى من سبتمبر ١٧٥٢ من « نظام التقويم الجديد » وأن يسمى يوم ٣ سبتمبر يوم ١٤ سبتمبر ، وألا تبدأ السنة القضائية بعد ذلك فى ٢٥ مارس بل فى أول يناير . وقد سبب هذا تعقيدات فى المعاملات التجارية والعطلات الكنسية ، وأثار هذا احتجاجات كثيرة ، وتصايح البريطانيون الغاضبون قائلين « ردوا إلينا أيامنا الأحد عشر ! » (٥٤) — ولكن العلم انتصر فى النهاية على مسلك الدفاتر وعلى اللاهوت .

(ج) هرشل

بلغ الفلك الإنجليزى قمته حين أضاف وليم هرشل الكوكب أورانوس إلى قائمة الكواكب وهجر عمله موسيقياً . وكان أبوه(*) موسيقياً فى الجيش الهانوفرى . واتخذ الصبي المولود فى ١٧٣٨ ، والذى سمى فريدرش فلهلم ، مهنة أبيه ، وعمل موسيقياً فى أول حملة فى حرب السنين السبع ، ولكن صحته كانت رقيقة هشة فسرحه الجيش (ومع ذلك عمر إلى الرابعة والثمانين) . وفى ١٧٥٧ أرسل إلى انجلترة ليلتمس رزقه فى الموسيقى . وفى باث التى نافست آنذاك لندن مركزاً للمجتمع الراقى ، ارتقى من عازف على الأوبرا ، إلى قائد فرقة ، إلى عازف على الأرغن فى « الكنيسة المثمنه » . وكان يؤلف الموسيقى ، ويعلمها ، ويعطى أحياناً خمسة وثلاثين درساً فى الأسبوع . وفى الليل يروح عن نفسه بدراسة حساب التفاضل ، ومنه انتقل إلى البصريات ، وأخيراً إلى الفلك . واستقدم من ألمانيا أخاه ياكوب ، وفى ١٧٧٢ أخته كارولين ، التى أدارت بيتهما ، وتعلمت أن تمسك السجلات الفلكية ، وأخيراً أصبحت فلكية بجهدها هى دون اعتماد على أحد .

(*) أن اسم هرشل اسم يهودى نموذجى ، وقد ظن أول مترجم للفلكى ا. س. هولدن ، أن الأب ، واسمه اسحاق ، كان يهوديا . ولكن الدليل على هذا غير قاطع . وقد عمد الصبى فى المسيحية فى تاريخ مبكر . أنظر
The Jewish Encyclopedia VI 362 and Cecil Roth, The jewish Contribution to Civilization, 189.

وكان هرشل يضطرم شوقاً إلى وضع الخرائط للسماء ، فصنع تلسكوبه الخاص بمعاونة أخيه . وشحذ العدسات وصقلها بنفسه ، وذات مرة واصل هذه العملية بلا انقطاع ست عشرة ساعة ، وكارولين تطعمه وهو يشتغل ، أو تخفف من سأمه بأن تقرأ له من سرفانتس ، أو فيلدنج ، أو ستيرن . وكان هذا الأول فى عدة تلسكوبات صنعها هرشل بيده أو تحت إشرافه . وفى ١٧٧٤ ، حين بلغ السادسة والثلاثين ، أجرى أول أرصاده ، ولكنه ظل سنين كثيرة لا يستطيع أن يعطى الفلك من وقته إلا ما يسمح به عمله موسيقياً . وقد درس كل جزء من أجزاء السماء أربع مرات . وفى الجولة الثانية من هذه الجولات ، فى ١٤ مارس ١٧٨١ ، كشف كشفه الخطير الذى بخس قدره بخساً شديداً . قال :

رأيت وأنا أفحص النجوم الصغيرة القريبة من هـ . جمينورم أ نجما ظهر بوضوح أنه أكبر من غيره . وإذ أدهشنى مظهره غير العادى ، فقد قارنت بينه وبين هـ جمينورم والنجم الصغير الذى فى الزاوية القائمة بين أوريجا وجمينى ، وإذ وجدته أكبر كثيراً من كل منهما ، فقد اشتبهت فى كونه مذنباً » (٥٥) .

ولم يكن النجم مذنباً ، وقد أظهر الفحص المتصل أنه يدور حول الشمس فى فلك يكاد يكون دائرياً ، يكبر تسع عشرة مرة عن فلك الأرض ، ومرتين عن فلك زحل ، لقد كان كوكباً جديداً ، وأول الكواكب التى ميزت على هذا النحو فى سجلات الفلك المدونة . وهلل العالم المثقف بأسره للكشف الذى صاعف قطر المجموعة الشمسية عما عرف من قبل . وكافأت الجمعية الملكية هرشل بزمالتها وبمدالية كوبلى ، وأقنعه جورج الثالث بأن يترك عمله موسيقياً ويصبح فلكياً للملك . وأطلق هرشل على الكوكب الجديد اسم جورجيوم سيدس (نجم الجورجيين) ، ولكن الفلكيين اتفقوا بعد ذلك على تسميته « أورانوس » ، فانتزعوه بذلك من الملوك الهانوفرين وأسلموه لآلهة الوثنيين كما فعلوا بكل أخوته تقريباً .

وفى ١٧٨١ انتقل وليم وكارولين إلى سلاو ، وهى مدينة لطيفة على الطريق من لندن إلى وندسور . ولم يكف راتبه المتواضع البالغ مائتى جنيه

فى السنة حاجاته هو وأخته وأدواته ، فأكمله بصنع التلسكوبات وبيعها . وزاد من حجم ما صنعه منها لنفسه ، حتى بلغ طول أحدها الذى صنعه فى ١٧٨٥ أربعين قدماً ، بمرآة قطرها أربعة أقدام وقد كتبت فانى بيرنى ، ابنة الموسيقى المؤرخ التى نقلنا عنها كثيراً ، فى يوميتها بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٧٨٦ :

هذا الصباح حملنى أبى (بمعنى أركبها عربته ، فقد كانت إذ ذاك فى السادسة والثلاثين) إلى الدكتور هرشل واستقبلنا هـذا الرجل العظيم الغريب الأطوار جداً بحفاوة بالغة ... وبدعوة من المستر هرشل قمت بجولة .. داخل تلسكوبه ! وقد احتوانى هذا التلسكوب مستقيمة العود دون أدنى مضايقة ؛ وكذلك كان يحتوينى لو كنت ألبس ريشى وطوقى — فمحيطه كبير إلى هذا الحد [٥٦] .

وفى ١٧٨٧ اكتشف هرشل قمرين لأورانوس سماهما أوبرون وتيتانيا ؛ وفى ١٧٨٩ وجد قمرى زحل (ساتورن) السادس والسابع . وفى ١٧٨٨ تزوج بأرملة غنية ؛ فلم يعد هناك ما يقلقه من جهة المال ، ولكنه واصل أبحاثه بحماسة لم تفتر . وألف أن يعمل طوال الليالى التى تطلع فيها النجوم ولا يحجب ضوءها قمر زاه . وكان يجرى أكثر أرصاده فى الهواء الطلق من رصيف يصل إليه بسلم متنقل ارتفاعه خمسون قدماً . وكان البرد يشتد أحياناً حتى يتجمد الحبر فى الزجاجة التى تأخذها كارولين معها لتسجل كشوفه .

وبعد أن واصل هرشل بأسلوب أكثر نظاماً وتيلسكوبات أفضل صنعاً عمل شارل مسييه ونيكولا دلاساى فى تحديد مواقع السدم وعناقيد النجوم وعمل قوائم لها ، قدم إلى الجمعية الملكية (١٧٨٢ — ١٨٠٢) قوائم حوت ٢,٥٠٠ سديم وعنقود ، و ٨٤٨ نجماً مزدوجاً . ومن هذه النجوم الأخيرة كان هو نفسه قد اكتشف ٢٢٧ نجماً . وألمع إلى أنها قد تكون ازدوجت فى جذب ودوران متبادلين — وهذا تطبيق منير لنظرية نيوتن على العلاقات بين النجوم . وفى كثير من الحالات تبين أن ما بدا كأنه نجم واحد إنما هو فى الحقيقة عنقود من نجوم منفردة ، وتبين أن بعض هذه العناقيد — حين رؤيت فى التلسكوبات الكبيرة — هى نجوم قائمة بذاتها على مسافات من

الأرض مختلفة أشد الاختلاف . وتحول « درب التبانه » فى التكبير الجديد من سحابة من المادة المتأججة ، إلى تجمع وتتابع هائلين من نجوم نيرة مفردة . وتبددت السماء الآن مكتظة بالنجــوم اكتظاظ قطرات الماء فى المطر ، بعد أن كانت تبدو مرصعة بها فقط . وبينما لم تر العين المجردة إلا نجوماً من الدرجة الأولى إلى السادسة فى كبر الحجم ، كشفت تلسكوبات هرشل عن مزيد من النجوم أضعف ضوءاً ١,٣٤٢ مرة من ألمعها . لقد بسط هرشل كما بسط جاليليو من قبل رقعة الكون المعروفة بسطاً هائلا . وإذا كان بسكال قد غشيته الرعدة أمام « لانهائية » السماوات المعروفة فى زمانه ، فماذا يكون شعوره أمام أعماق وراء أعماق لا آخر لها من نجوم لا تحصى ، قدر هرشل بعد بعضها عن الأرض بنحو ١١,٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل ؟ (٥٧) وكان كثير من النجوم شموساً لها كواكب تدور حولها . أما شمسنا وما يدور حولها من كواكب وأقمار ، فقد هبطت بجملتها إلى مقام الذرة فى عالم من الضوء .

وكان من أذكى إلماعات هرشل ما اتصل بحركة مجموعتنا الشمسية فى الفضاء ، فقد دلت المشاهدات السابقة على أن بعض النجوم المتصلة قد زادت أو أنقصت ، فى الزمن المدون ، من تباعدها عن بعضها البعض . فتساءل هرشل : ألا يجوز أن يكون مرجع هذا الاختلاف تحرك المجموعة الشمسية بعيداً عن النجوم الملتقية — أو صوب النجوم المفترقة ، كما يبدو مصباحان على جانبين متقابلين من الطريق ملتقيين أو مفترقين حين نبتعد أو تقترب منهما ؟ وقد خلص إلى أن المجموعة الشمسية ، بجملتها ، تتحرك مبتعدة عن بعض النجوم ، مقتربة من نجم فى برج هرقول . ونشر فرضه هذا فى ١٧٨٣ ، وبعد شهور أذاع بيير بريفوست نظرية مشابهة . وكان فريقا الفلكيين الأنجليز والفرنسيين يعملان فى تنافس غيور وتوافق وثيق .

وصف معاصر هرشل فى عامه الثانى والثمانين فقال « شـــيخ جليل ، بسيط ، طيب ، وبساطته ، ولطفه ، ونوادره ، واستعداده لشرح مفاهيمه الرفيعة للكون ، كلها جذابة إلى حد لا يوصف . (٥٨) وفى جهوده كلها شاركت كارولين فى إخلاص رائع روعته فى أى رواية خيالية . فلم تكتف

بتسجيل أرصاده بدقة وإجراء الحسابات الرياضية المعقدة لترشده ، بل اكتشفت بنفسها ثلاثة سدم وثمانية مذنبات . وبعد موت وليم (١٨٢٢) عادت لتعيش مع أقربائها فى هانوفر ؛ وهناك واصلت دراساتها وأعدت مزيداً من القوائم بكشوف أخيها . وفى ١٨٢٨ نالت المدالية الذهبية للجمعية الفلكية . وفى ١٨٤٦ نالت مدالية من ملك بروسيا . وماتت عام ١٨٤٨ وقد بلغت الثامنة والتسعين .

(د) بعض الفلكيين الفرنسيين

تجمعت حول مرصد باريس (الذى اكتمل بناؤه عام ١٦٧١) كوكبه من الراصدين . ألفت فيهم أسرة كاسينى ، خلال أجيال أربعة ، برجاً من الأنجم التى يتلو بعضها بعضاً . فكان جوفانى دومنيكو كاسينى مديراً للمرصد من ١٦٧١ إلى ١٧١٢ . وبعد موته خلفه فى إدارة المرصد ابنه جاك ، الذى خلفه (١٧٥٦) ابنه سيزار فرنسوا كاسينى دتورى ، الذى خلفه هو الآخر (١٧٨٤) ابنه جاك دومنيك ، الذى مات بلقب كونت كاسينى فى ١٨٤٥ بعد أن عمر إلى السابعة والثمانين . هنا أسرة جديرة بأن يقرن اسمها باسمى أسرتى برنوللى وباخ .

أما جان لورون دالامبير فكان بغير أسرة ، لا قبل مولده ولا بعده ، ولكنه جمع العلوم من حوله كما يجمع الإنسان أطفاله . وقد طبق رياضته على الفلك ، فقنن نظرية نيوتن فى « استقبال » الاعتدالين ، وفرض برادلى فى الميل المحورى للأرض : يقول لابلاس « إن اكتشاف هذه النتائج كان فى زمن نيوتن ممتنعاً على التحليل والميكانيكا ... وقد أرجىء شرف القيام بهذه المهمة دالامبير . فبعد عام ونصف من المؤلف الذى قدم فيه برادلى كشفه ، قدم لدالامبير رسالته « أبحاث فى استقبال الاعتدالين (١٧٤٩) » ، وهى عمل رائع فى تاريخ ميكانيكا وديناميكا الأجرام السماوية ، روعة عمل برادلى فى حوليات الفلك [٥٩] » .

وقد لوثت سجل دالامبير لطخة ، هى أنه لم يغتبط بما أدركه منافسوه من نجاح — ومن منا قد سما به خلقه إلى هذا الابتهاج المقدس ؟ واشتدت

خماسته فى نقد عمل ألكسيس كليرو . والكسيس هذا عرف حساب التفاضل المتناهى الصغر . وهو بعد فى العاشرة ؛ وحين بلغ الثانية عشرة قدم أول أبحاثه لأكاديمية العلوم : وفى الثامنة عشرة نشر كتاباً حوى من الاضافات الهامة للهندسة ما حمل الأكاديمية على اختياره عضواً ملحقاً بها (١٧٣١) فى سن يصغر ست سنوات عما يبلغه دالامبير عند نيله هذا الشرف ذاته عام ١٧٤١ . وكان كليرو واحداً من العلماء الذين اختيروا لمرافقة موبرتوى فى البعثة الموفدة إلى لابلاند (١٧٣٦) لقياس قوس من أقواس الزوال . فلما عاد قدم إلى الأكاديمية مذكرات فى الهندسة ، والجبر ، والقطاعات المخروطية ، وحساب التفاضل . وفى ١٧٤٣ نشر نظرية فى شكل الأرض حسبت بمقتضى « نظرية كليرو » ، وبأدق مما حسب نيوتن وماكلورن ، ذلك الشكل الذى يتخذه ميكانيكياً جسم دائر على محوره من الجاذبية الطبيعية لأجزائه . وقد اتصل بمدام دشاتليه بفضل اهتمامه بنيوتن ، فأعانها على ترجمتها لأصول نيوتن ، وشارك فولتير شرف تحويل العلماء الفرنسيين من دوامات ديكارت إلى جاذبية نيوتن .

وفى ١٧٣٦ — ٤٩ عكف أويلر ، وكليرو ، ودالامبير ، مستقلين بعضهم عن البعض على إيجاد أوج القمر ، أى أقصى حد فى البعد بينه وبين الأرض بطرق التفاضل الجديدة — ونشر أويلر وكليرو نفس النتائج تقريباً ، وتلاهما دالامبير بحساب أدق حتى من حسابهما . وفاز كليرو بجائزة قدمتها أكاديمية سانت بطرسبورج لتصوير حركة القمر ، وكان قد نشر النتائج التى خلص إليها فى كتابه « نظرية القمر » (١٧٥٢) ثم طبق رياضته على حركات الأرض الناشئة عن الزهرة والقمر ؛ ومن هذه الاختلافات قدر أن كتلة الزهرة ٦٦,٧٪ ، وكتلة القمر ١,٤٩٪ من كتلة الأرض ، وتقديراتنا الحالية هى ٨١,٥ ٪ و ١,٨٢ ٪ .

وفى ١٧٥٧ بدأ فلكيو أوربا فى ترقب عودة المذنب التى تنبأ بها هالى ولكى يرشد كليرو أرصادهم اضطلع بحساب التقلبات التى كانت تطرأ على المذنب فى مروره بزحل والمشترى . فحسب أن هذه التقلبات وغيرها عطلته ٦١٨ يوماً ، وأشار على أكاديمية العلوم بأن المذنب سيكون فى الحضيض

(أقرب نقطة للشمس) حوالى ١٣ أبريل ١٧٥٩ . وتبينه راصد هاو فى عيد الميلاد ١٧٥٨ ، ومر بالحضيض فى ١٢ مارس ١٧٥٩ ، قبل الموعد الذى حسبه كليرو باثنين وثلاثين يوماً . ولكن حتى مع هذا الفارق فإن الحدث كان انتصاراً للعلم ولطمة عابرة للخرافة(*) وقدم كليرو دراسته عن الموضوع فى « نظرية حركة المذنبات » (١٧٦٠) وقد جعلته انتصاراته وعظم جاذبيته الشخصية ، مطمحاً تتنافس عليه الصالونات . وكان كثير الاختلاف إليها ، ومات فى الثانية والخمسين (١٧٦٥) « ولم يستحق عالم فرنسى فى هذا العهد صيتاً أبعد من صيته » [٦٠] .

وكان غير هؤلاء كثيرون ممن يجدر بالتاريخ أن يخلدهم ، وإن كان سردهم جميعاً يفسد قصتنا . نذكر منهم جوزف دليل ، الذى درس بقع الشمس وهالتها ، وأنشأ مرصد سانت بطرسبورج ؛ ... ونيكولا دوسيل ، الذى ذهب إلى رأس الرجاء الصالح موفداً من أكاديمية العلوم ، وأنفق عشر سنين (١٧٥٠ — ٦٠) يرسم الخرائط للأجواء الجنوبية ، وقد مات فى التاسعة والأربعين ، وبيير لمونييه ، الذى صاحب مويرتوى إلى لابلاند وهو فى الحادية والعشرين ، وأجرى دراسات على القمر طوال خمسين عاماً ، وحلل حركات المشترى وزحل ، ورصد وسجل أورانوس (١٧٦٨ — ٦٩) قبل أن يكشف هرشل أنه كوكب بسنين طويلة (١٧٨١) ، وجوزف دلالاند ، الذى مسح كتابه « رسالة فى الفلك » كل فرع من فروع هذا العلم ، والذى قام بتدريسه فى الكوليج دفرانس ستة وأربعين عاماً ، وأنشأ فى ١٨٠٢ جائزة لالاند ، التى ما زالت تمنح سنوياً لأفضل بحث فى الفلك ، وجان باتيست دلامبر ، الذى عين مدار أورانوس ، وخلف لالاند فى « الكوليج » ، وأضاف إلى عرض لالاند العالمى تاريخاً للفلك فى ست مجلدات بذل فيها كل جهد وعناية (١٨١٧ — ٢٧) .

(هـ) لابلاس :

ولد (١٧٤٩) باسم بيير سيمون لابلاس ، لأسرة من الطبقة الوسطى فى نورماندیا ، ثم أصبح المركيز بيير سيمون دلابلاس ، وحقق أول فوز له

(*) ينتظر مذنب هالى مرة أخرى ١٩٨٦ .

بمقالاته اللاهوتية الورعة فى المدرسة ، وغدا أشد الملحدين إمعاناً فى الحادهم فى فرنسا النابوليونية . أوفد إلى باريس فى الثامنة عشرة من عمره ومعه خطاب تعريف إلى دالامبير . ورفض دالامبير لقاءه ، فقد كان يتلقى الكثير من أمثال هذا الخطاب ولا يعبأ بما حوت من مديح ، ولكن لابلاس الذى لم تفل عزيمته أرسل إليه خطاباً فى المبادىء العامة للمكانيكا . ورد عليه دلامبير قائلا « سيدى ، أنت ترى أننى لم أعبأ كثيراً بالتوصيات . ولكنه لا حاجة لك بتوصية . فقد عرفتنى بنفسك تعريفاً أفضل ، وهذا يكفينى . ومن حقك أن أساعدك » (٦١) . وما لبث لابلاس ، بفضل نفوذ دالامبير ، أن عين مدرساً للرياضة فى المدرسة الحربية . وقد حلل حبه المشبوب للرياضة فى خطاب وجهه بعد ذلك إلى دالامبير ، قال :

لقد عكفت على الرياضة مدفوعاً دائماً بميلى لا بالرغبة فى شهرة باطلة . وأعظم تسلية لى أن أدرس موكب المخترعين ، وأرى عبقريتهم تصارع العقبات التى صادفوها وذللوها . ثم أضع نفسى مكانهم وأسائلها كيف كنت فاعلا للتغلب على هذه العقبات ذاتها ؛ ومع أن هذا البدل كان فى الكثير الأغلب من الحالات مذلا لأنانيتى ، فإن لذة الابتهاج بنجاحهم عوضتنى عوضاً وافراً عن هذا الإذلال القليل . وإذا أتيح لى من الحظ ما أضيف به شيئاً لأعمالهم ، فإننى أعزو كل الفضل لجهودهم الأولى » (٦٢) .

ونحن نلمس شيئاً من الكبرياء فى هذا التواضع الواعى . على أية حال كان طموح لابلاس أبعد الأشياء عن التواضع ، لأنه اضطلع باختزال الكون كله إلى نسق رياضى واحد ، بتطبيق نظرية الجاذبية النيوتينية على جميع الأجرام والظواهر السماوية . لقد ترك نيوتن الكون فى وضع قلق ؛ فظن أنه عرضة لشذوذات تتصاعد أحياناً ، بحيث يلزم أن يتدخل الله من حين إلى حين ليقومه من جديد . ولم يقتنع كثير من العلماء — مثل أويلر — بأن العالم جهاز آلى ، ولكن لابلاس أراد أن يثبت هذا ميكانيكياً .

وبدأ (١٧٧٣) بمقال بين أن الاختلافات فى متوسط أبعاد كل كوكب من الشمس تخضع لصياغة رياضية مضبوطة ، تقريباً ، فهى إذن دورية

وميكانيكية ، واختارته أكاديمية العلوم بفضل هذا المقال عضواً ملحقاً بها وهو بعد فى الرابعة والعشرين . ومن ذلك التاريخ كرس لابلاس حياته ، بوحدة وتوجيه وإصرار فى الهدف ، لاختزال عمليات الكون واحدة تلو الأخرى إلى معادلات رياضية . كتب يقول « إن كل تأثيرات الطبيعة ليست سوى نتائج رياضية لعدد قليل من القوانين الثابتة » (٦٣) .

ومع أن أعماله الكبرى لم تنشر إلا بعد الثورة ، فإن إعداده لها بدأ قبل ذلك بكثير . وكان كتابه « عرض لنظام العالم » . (١٧٩٦) مقدمة مبسطة غير ميكانيكية لآرائه ، تتسم بأسلوبها الصافى المتدفق ، وتجسد نظريته الشهيرة (التى سبقه إليها كافط فى ١٧٥٥) عن أصل المجموعة الشمسية . وكان هدف لابلاس أن يفسر دوران الكواكب حول محاورها وحول الشمس ، ودوران أقمارها ، بافتراض وجود سديم أزلى من الغازات الحارة ، أو غيرها من الذرات الدقيقة ، يغلف الشمس ويمتد إلى آخر أطراف المجموعة الشمسية . وقد برد هذا السديم الدائر مع الشمس شيئاً فشيئاً ، وانكمش مكوناً حلقات ربما كانت شبيهة بالحلقات التى ترى الآن حول زحل . فلما ازدادت البرودة والانكماش تكاثفت هذه الحلقات فكونت كواكب ، وبمثل هذه الطريقة كونت الكواكب أقمارها ، ولعل تكاثفاً شبيهاً بهذا فى السدم كون النجوم . وافترض لابلاس أن جميع الكواكب والأقمار تدور فى نفس الاتجاه ، وفى نفس المستوى عملياً ، ولم يعرف وقتها أن أقمار أورانوس تتحرك فى اتجاه مضاد .وهذه « النظريةالسديمية » مرفوضةالآن كتفسير للمجموعة الشمسية ، ولكنها مقبولة على نطاق واسع كتفسير لتكاثف النجوم من السدم . على أن لابلاس لم يعرضها إلا فى كتابه الشعبي هذا ، ولم يغل فى أخذها مأخذ الجد : « هذه التكهنات حول تكون النجوم والمجموعة الشمسية ... أعرضها بكل التشكك الذى يجب أن توحى به جميع الأشياء التى ليست تنتجه للمشاهدة أو للحساب » (٦٤) .

وقد لخص لابلاس مشاهداته ، ومعادلاته ، ونظرياته – وتقريباً كل علم الفلك المعروف فى زمانه – فى الأسفار الخمسة الجليلة التى يتألف منها كتابه « ميكانيكا الأجرام السماوية (١٧٩٩ – ١٨٢٥) ، والذى سماه جان باتيست

فوريبه « مجسطي » الفلك الحديث . وقد ذكر هدفه فيه ببساطة رائعة فقال « بناء على أجرام المجموعة الشمسية الثمانية عشر المعروفة ، وعلى مواقعها وحركاتها فى أى وقت ، أريد استنباط مواقعها وحركاتها فى أى وقت آخر ، من جاذبيتها المتبادلة .... بالحساب الرياضى ، والبرهنة على أن هذه تتفق مع تلك التى شوهدت فعلا . » وتحقيقاً لهذه الخطة كان على لابلاس أن يدرس التقلبات التى تحدثها التأثيرات المتعارضة لأعضاء المجموعة — الشمس ، والكواكب ، والأقمار — ويختزلها إلى انتظام دورى يمكن التنبؤ به . وقد آمن بأن هذه التقلبات كلها يمكن أن تفسر برياضيات الجاذبية . وفى هذه المحاولة لإثبات ما تتمتع به المجموعة الشمسية وسائر الكون من ثبات واكتفاء ذاتى ، اتخذ لابلاس رأياً يدين بالميكانيكية البحتة ، وعبر عن الفلسفة الحتمية تعبيراً مشهوراً فقال :

« ينبغى أن ننظر إلى حالة الكون الراهنة على أنها نتيجة لحالته الماضية ، وسبب لحالته المستقبلة . وإن ذكاء يحيط بجميع القوى العاملة فى الطبيعة فى لحظة معلومة ، كما يحيط بالمواقع الوقتية لجميع الأشياء فى الكون ، فى استطاعته أن يدرك فى صيغة واحدة حركات أكبر الأجرام وأخف الذرات فى الكون . شريطة أن يكون عقله من القوة بحيث يخضع جميع المعطيات للتحليل ، فلا شىء يغم على فهمه ، وسيبصر المستقبل كما يبصر الماضى ، (قارن مفهوم الفلاسفة السكولاستيين عن الله) . والكمال الذى استطاع العقل البشرى أن يوصل إليه علم الفلك يعطينا صورة عامة ضعيفة لهذا الذكاء . وقد أتاحت كشوف الميكانيكا والهندسة ، مشفوعة بكشوف الجاذبية الكونية ، للعقل أن يدرك فى نفس الصيغ التحليلة الحالة الماضية والمستقبلة لنظام الكون . وكل جهود العقل بحثاً عن الحقيقة تنحو إلى القرب من الذكاء الذى تصورناه ، وإن بقى إلى الأبد بعيداً عن هذا الذكاء بعداً سحيقاً » [٦٥] .

حين سأل نابليون لابلاس لم لم يرد ذكر الله فى كتابه « ميكانيكا الأجرام السماوية » قيل إنه أجاب « لم يكن بى حاجة إلى ذلك الفوضى » [٦٦] على أن

لابلاس كانت له لحظاته المتواضعة . ففى كتابه « نظرية تحليلية للاحتمالات » ، (١٨١٢) — وهى الأساس لكل ما جد بعد ذلك من عمل فى هذا الميدان — جرد العلم من كل يقينية فقال :

إذا توخينا الدقة فى التعبير قلنا إن معرفتنا كلها تقريباً غير يقينية ؛ وفى الأشياء التى نستطيع معرفتها يقيناً ، حتى فى العلوم الرياضية ذاتها ، يقوم الاستنباط والقياس على الاحتمالات ، وهما أهم السبل للكشف عن الحقية (*) [٦٧] وكان للابلاس إسهامات نوعية ، بالإضافة إلى صياغته الخطيرة الأثر للكشوف والفروض الفلكية المعروفة إلى وقته . فقد أنار كل فرع تقريباً من فروع الفيزياء بـ « معادلات لابلاس » عن « الجهد » التى يسرت التأكد من شدة الطاقة ، أو سرعة الحركة ، فى أى نقطة فى ميدان خطوط القوة . وحسب البيضية الديناميكية للأرض من تقلبات القمر التى كانت تعزى لشكل الكرة المفرطح ، ووضع نظرية تحليلية للمد والجزر ، واستنبط كتلة القمر من ظواهرها . وابتكر طريقة محسنة لتحديد مدار المذنبات ؛ واكتشف العلاقات العددية بين حركات أقمار المشترى . وحسب بدقته المعهودة السرعة « القرنية » المتوسطة حركة القمر . وأرست دراساته للقمر الأساس للجداول المحسنة لحركات القمر ، التى وضعها تلميذه جان شارل بوركهارت عام ١٨١٢ . وأخيراً ارتفع من العلم إلى الفلسفة — من المعرفة إلى الحكمة — فى فيض من البلاغة جدير ببوفون :

« إن الفلك بحكم جلال موضوعه وكمال نظرياته ، هو أبدع صرح من صروح الروح البشرية ، وأنبل شهادة على الذكاء البشرى . فالأنسان الذى أضلته أنانيته وأوهام حواسه ظل طويلا يعتبر نفسه المركز فى حركات النجوم ، وقد لقى غروره الكاذب عقاباً من الأهوال التى أوحت بها هذه النجوم .

---

* ان برهان لابلاس ، حتى فى الميكانيكا القديمة (النيوتنية) عن ثبات المجموعة الشمسية ، لم يعد حاسما ... فهو لم يعط جوابا دقيقا . فلوريان كاجورى عن كتاب نيوتن .

Mathematical Principles of Natural Philosophy, p. 678.

ثم ألقى بنفسه فوق كوكب لا يكاد يدرك حجمه فى المجموعة الشمسية ، وامتداده الشاسع ليس إلا نقطة تافهة فى اتساع الفضاء . والنتائج السامية التى قاده إليها هذا الكشف خليقة بأن تعزيه عن المرتبة التى وضعت فيها الأرض ، لأنها تبصره بعظمته فى كل ضآلة القاعدة التى يقيس منها النجوم . فعليه أن يصون بعناية نتائج هذه العلوم السامية التى هى بهجة للكائنات المفكرة ، وأن يوسع رقعتها . وقد أدت تلك العلوم خدمات جلية للملاحة والجغرافيا ، ولكن بركتها الكبرى هى تبديد المخاوف التى سببتها الظواهر الفلكية والقضاء على الأخطاء المنبعثة من الجهل بعلاقتنا الصحيحة بالطبيعة — وتلك أخطاء ومخاوف ستنبعث من جديد إذا قدر لمشعل العلم يوماً ما أن ينطفىء » (٦٨) .

وقد وجد لابلاس أن تكييف حياته وفق اضطرابات السياسة الفرنسية أيسر له من تكييف رياضياته لشذوذات النجوم . فلما أقبلت الثورة قوى علبها بكونه أعظم قيمة حياً منه ميتا ، فاستخدمته مع لاجرانج لصنع ملح البارود للبارود ، وحساب مسارات قذائف المدافع . وعين عضواً فى لجنة الموازين والمقاييس التى وضعت النظام المترى . وفى ١٧٨٥ كان قد امتحن وأجاز طالباً متقدماً لسلاح المدفعية ، هو بونابرت الذى كان فى السادسة عشرة من عمره ؛ وفى ١٧٩٨ أخذه الجنرال بونابرت إلى مصر ليدرس النجوم من الأهرام . وفى ١٧٩٩ عينه القنصل الأول وزيراً للداخلية وبعد سبعة أسابيع عزله لأن « لابلاس يبحث عن الرقائق والدقائق فى كل مكان . . وينقل إلى الإدارة روح اللانهائى الصغر » . (٦٩) ولكى يطيب بونابرت خاطره عينه فى مجلس الشيوخ الجديد ، وخلع عليه لقب الكونت . ورسم له الان جاك أندريه نيجون صورة فى ذهب رتبته الجديدة وزينتها : وجه مليح شريف ، وعينان محزونتان كأنهما شاعرتان بأن الموت يهزأ بكل عظمة وجلال ، وبأن الفلك ما هو إلا تحسس فى الظلام ، وأن العلم ليس إلا نقطة ضوء فى بحر من الليل البهيم . وعندما حضرته المنية (١٨٢٧) فارقه كل غرور ، وكانت كلماته الأخيرة تقريباً هى « إننا لا نعلم إلا القليل ، أما الذى نجهله فلا حدود له » (٧٠) .

٦ — فى الأرض :

درست أربعة علوم الأرض : فعلم الظواهر الجوية (المتيورولوجيا) ارتاد غلافها الجوى ، وعلم المساحة التطبيقية (الجيوديسيا) قدر حجمها ، وشكلها ، وكثافتها ، والمسافات التى تشمل انحناء سطحها ، والجيولجيا نقبت فى تكوينها ، وأعماقها ، وتاريخها ، والجغرافيا رسمت الخرائط ليابسها ومائها .

(أ) المتيورولوجيا :

استعمل علم الجو أربع آلات للقياس بالإضافة إلى المقياس البسيط للمطر : الترمومتر لدرجة الحرارة ، والبارومتر للضغط الجوى ، والانيمومتر للرياح ، والهيجرومتر لرطوبة الهواء .

فى عام ١٧٢١ أو قبله ، وفق جابرييل دانييل فارنهايت ، وهو صانع آلات ألمانى فى أمستردام ، فى تطوير الترمومتر الذى كان جاليليو قد اخترعه فى ١٦٠٣ ، واستعمل فارنهايت الزئبق بدلا من الماء سائلا متمدداً منكمشاً . وقسم المقياس إلى درجات مبنية على نقطة تجمد الماء (٣٢°) ودرجة حرارة الفم لجسم الإنسان العادى (٩٨،٦°) . وفى ١٧٣٠ أنهى رينيه دريامور إلى أكاديمية العلوم « قواعد لبناء الترمومترات بتدرجات قابلة للمقارنة » ، واتخذ درجة تجمد الماء صفراً ، ودرجة غليانه ٨٠° ، ودرج المقياس بحيث يجعل الدرجات تتفق والزيادات المعادلة فى صعود أو هبوط السائل الترمومترى الذى استعمل له الكحول . وحوالى عام ١٧٤٢ أدخل أنديرس كلسيوس الأوبسالى تحسينات على ترمومتر دريامور بالعودة إلى استعمال الزئبق وتقسيم المقياس إلى مائة درجة « سنتجرادية أى مئوية » بين نقطتى تجمد الماء وغليانه . واستطاع جان أندريه دلوك الجنيفى فى ١٧٧٢ أن يعطى الترمومترين المتنافسين شكلهما الحالى : الشكل الفهرنهايتى للشعوب الناطقة بالانجليزية ، والشكل المئوى لغيرها من الشعوب .

أما البارومتر فكان قد اخترعه تورينشيللى فى ١٧٤٣ ، ولكن قراءاته للضغط الجوى كانت تتأثر دقتها بعوامل لم يحسب لها حساب ، كنوعية الزئبق ،

واتساع الأنبوبة ، ودرجة حرارة الهواء . على أن شتى الأبحاث التى بلغت ذروتها فى تجارب دلوك وحساباته (١٧١٧ – ١٨١٧) عالجت هذه العيوب ، وأوصلت البارومتر الزئبقى إلى شكله الراهن .

وصنعت أنيمومترات بدائية متنوعة فى القرن السابع عشر . من ذلك أن بيير أوويه أسقف أفرانش العالم ، ترك عند موته فى ١٧٢١ تصميما لانيمومتر (والكلمة من ابتكاره فيما يبدو) يقيس قوة الريح بتمريره فى أنبوبة يرفع ضغطه فيها عموداً من الزئبق . ودخل على هذا الأنيمومتر تحسين بـ « مقياس الريح » (١٧٧٥) الذى ابتكره الطبيب الاسكتلندى جيمس لند . وابتكر جون سميتن (حوالى ١٧٥٠) جهازاً لقياس سرعة الريح . وأفضل آلات قياس الرطوبة فى القرن الثامن عشر هى هيجرومتر أوراس دسوسير (١٧٨٣) الجنيفى المتعدد القدرات ، وقد بناه على تمدد وانكماش شعرة إنسان بفعل التغيرات فى الرطوبة . وأرسى وليم كولن الأساس لنوع آخر من الهيجرومتر بملاحظة ما للسوائل من تأثير مبرد على البخر .

بهذه الأدوات وغيرها ، كالأبرة المغنطيسية ، حاول العلم أن يكشف عن الانتظامات فى تقلبات الجو . وكان أول ما يستلزمه هذا الكشف وجود السجلات الموثوق بها ، وقد احتفظت ببعض هذه السجلات لفرنسا أكاديمية العلوم منذ ١٦٨٨ . ومن ١٧١٧ إلى ١٧٢٧ احتفظ طبيب برزلاوى بسجلات يومية للتقارير الجوية التى كان يطلبها من أنحاء كثيرة فى ألمانيا ، وفى ١٧٢٤ بدأت جمعية لندن الملكية فى جمع التقارير المتيورولوجية ، لا من بريطانيا وحدها بل من القارة الأوربية ، والهند ، وأمريكا الشمالية . ثم نظم ج . ج . هيمر فى مانهايم ، عام ١٧٨٠ ، تنسيقاً أوسع وأنظم من هذا كله للتقارير اليومية تحت رعاية شارل تيودور أمير بالاتين الناخب ، ولكنه توقف (١٧٩٢) خلال حروب الثورة الفرنسية .

ومن الظواهر المتيورولوجية التى أطلقت الكثير من التكهنات ظاهرة الفجر الكاذب . وقد درس ادموند هالى بعناية تفجرات هذه « الأضواء الشمالية » فى ١٦ – ١٧ مارس ١٧١٦ ، وعزاها إلى تأثيرات

مغنطيسية منبعثة من الأرض . وفى ١٧٤١ لاحظ هيورتر وغيره من المشاهدين السكندناويين أن اختلافات غير منتظمة فى إبرة البوصلة تحدث فى وقت ظهور الأضواء . وفى ١٧٩٣ قرر جون دولتين الكيميائى أن ألسنة الضوء موازية لإبرة الانحراف المغنطيسى ، وأن سمتها ، أو نقطة إلتقائها ، تقع فى الزوال المغنطيسى . إذن فقد أدرك القرن الثامن عشر الطبعة الكهربية لهذه الظاهرة التى تعلل الآن بأنها تفريغ شحنة كهربى فى جو الأرض ، سببه التأين الناشىء عن جزيئات تطلق من الشمس .

وبدأت مؤلفات القرن الثامن عشر فى المتيورولوجيا بكتاب كرستيان فولف فى « مقاييس الجو الأساسية » (١٧٠٩) ، الذى لخص المعلومات المعروفة إلى عهده واقترح أدوات جديدة . وقد حاول دالامبر وضع صيغة رياضية لحركات الرياح فى كتابه « تأملات فى السبب العام للرياح » الذى نال جائزة قدمتها أكادعية برلين فى ١٧٤٧ . أما أبرز بحث فى هذه الفترة فهو كتاب ضخم يسمى « رسالة فى المتيورولوجيا » (١٧٧٤) بقلم لوى كوت ، أحد قساوسة مونمورنسى . وقد جمع كوت نتائج مشاهداته وغيرها وجدولها ، ووصف الآلات ، وطبق كشوفه على الزراعة ، وعين وقت الأزهار والنضج لمختلف المحاصيل ، والتواريخ التى تفد فيها عصافير الجنة وترحل ، ومتى يتوقع أن يشدو البلبل بغنائه ، واعتبر الرياح أهم أسباب التغيرات فى الجو ، وأخيراً اقترح صيغاً اجتهادية للتنبؤات الجوية . أما كتاب جان دلوك « أبحاث فى تغيرات الجو » (١٧٧٢) فقد وسع تجارب بسكال (١٦٤٨) وهالى (١٦٨٦) فى العلاقات بين الارتفاع والضغط الجوى ، ووضع صيغة القانون الذى ينص على أنه « فى درجة حرارة معينة تعطى الفروق بين لوغاريتمات ارتفاعات الزئبق (فى البارومتر) فوراً ، فى أجزاء من القامة — الفرق فى ارتفاعات الأماكن التى رصد فيها البارومتر »[٧١] . واستطاع دلوك بإلحاق ميزان ماء ببارومتره ، أن يقدر بارومترياً ارتفاع مختلف الشواخص . فقدر أن « المون بلان » يعلو ١٤,٣٤٦ قدماً عن سطح البحر . أما أوراس دسوسير . فبعد أن ارتقى الجبل وسجل قراءات عند قمته (١٧٨٧) ، خلص من قياسه إلى أنه يعلو ١٥,٧٠٠ قدم .

(ب) الجيوديسيا :

كان المعنى الحرفى للجيوديسيا هو « تقسيم الأرض » . وللقيام بهذه المهمة بدقة كان من الضرورى معرفة شكل الكرة الأرضية . وكان هناك اتفاق عام فى ١٧٠٠ على أن الأرض ليست تامة التكور بل لها شكل القطع الناقص — فهى مفرطحة بعض الشىء فى نهايتها . وذهب نيوتن إلى أنها مفرطحة عند القطبين ، أما العلماء من آل كاسينى فذهبوا إلى أنها مفرطحة عند خط الاستواء . وللفصل فى هذا الخلاف الدولى أوفدت أكاديمية علوم باريس بعثتين ، ذهبت الأولى فى ١٧٣٥ وعلى رأسها شارل دلاكوندامين ، وبيير بوجيه ، ولوى جودان ، إلى ماكان بيرو يومها (وهو الآن اكوادور) لقياس درجة عرض فلكية على منحنى من الزوال قرب الاستواء . (*) وقد وجدو أن البعد بين درجة عرض فلكية والدرجة التى تليها ، على الزوال المار فوق مكان رصدهما ، هو ٣٦٢,٨٠٠ قدم . وفى ١٧٣٦ أوفدت بعثة كهذه إلى لابلاند وعلى رأسها نوبرنياس وكليرو ، لقياس درجة عرض فلكية على منحنى من الزوال عند مكان أقرب ما أمكن للدائرة القطبية . وقد قررت أن طول الدرجةهناك ٣٧٦,١٠٠قدم — أى أكثر قليلا من تسعة وستين ميلا . ودلت هذه الكشوف على أن طول درجة العرض الفلكية ، يزداد زيادة طفيفة كلما تحرك الراصد من الاستواء إلى القطب ؛ وقد فسرت الزيادة بأنها راجعة لتفرطح الأرض عند القطبين . وسلمت أكاديمية العلوم بأن نيوتن كان على حق . واتخذت المقاييس التى حصلت عليها البعثتان بعد ذلك أساساً لتحديد المتر ، والنظام المترى ، والزمن الفلكى المضبوط لمختلف الأماكن على سطح الأرض .

وقد عزا بوجيه انحرافات ميزان الاستقامة التى لاحظها فى أرصاد بعثة بيرو إلى القوة الجاذبية لجبل شيمبورازو القريب . وبقياس الانحراف قدر كثافة الجبل ، وعلى هذا الأساس حاول حساب كثافة الأرض . وواصل

---

* العرض الفلكى هو البعد الزاوى بين الاستواء واتجاه ميزان للجاذبية فى مكان معين . وزاول المكان هو الدائرة الكبرى التى تمر فوقه رأسا من القطب الى القطب .

هذا البحث نفيل ماسكلين ، فلكى الملك وجورج الثالث (١٧٧٤ — ٧٨) ، بإسقاطه ميزان الاستقامة تارة على جانب جبل جرانيتى فى اسكتلندة وتارة على الجانب الآخر . وفى كلتا الحالتين انحرف الميزان نحو اثنتى عشرة ثانية زاوية نحو الجبل . واستنتج ماسكلين أن نسبة كثافة الأرض إلى كثافة الجبل هى نفس النسبة بين قوة جاذبية الأرض وانحراف الاثنتى عشرة ثانية ، وعلى هذا الأساس قدر تشارلز هتن أن كثافة الأرض تقرب من ٤,٥ مرة من كثافة الماء — وهو رقم مقبول الآن عموماً ، وقد توصل إليه نيوتن بما عهد فيه من حدس ذكى قبل قرن من الزمان .

(جـ) الجيولوجيا :

ظلت ضروب التحريم اللاهوتية تعرقل دراسة أصل الأرض ، وعمرها ، وتركيبها ، والبحث فى قشرتها وما دونها ، وفى زلازلها ، وبراكينها ، وفوهاتها ، وأحافيرها . وكانت الأحافير تفسر عموماً بأنها مخلفات كائنات بحرية تركتها على الأرض مياه انحسرت عقب طوفان نوح ، الذى كان الاعتقاد أنه غطى الكرة الأرضية . وفى ١٧٢١ قرر أنطونيو فاللزنيرى فى كتابه عن الأجسام البحرية . . . . أن فيضاناً مؤقتاً لا يمكن أن يعلل راسباً من التكوينات البحرية بهـذا الانتشار الواسع . ورأى أنطون مورو فى كتـابه « البندقيـــة » ، (١٧٤٠) أن الأحافير قذفت بها ثورانات بركانية من البحر . فالأرض كانت فى الأصل مغطاة بالماء ، فدفعت النيران الباطنية اليابس الذى تحت الماء إلى فوق البحر الهابط ، وكونت الجبال والقارات .

وقد خلف بنوا دماييه عند موته (١٧٣٨) مخطوطة طبعت عام ١٧٤٨ باسم « تياميد ، أولقاءات بين فيلسوف هندى ومراسل فرنسى » وقد ساق آراءه على لسان حكيم هندى . ولكن سرعان ما تبين أن « تياميد » ليس إلا « دمامية » مقلوباً ، ولعل الزوبعة التى أثارها الكتاب قد صالحت بين مؤلفه وبين موته الذى أدركه فى أوانه . ونظريته تزعم أن الأرض والجبال والأحافير لم تكونها الثورانات البركانية — بل الانحسار التدريجى للمياه التى غطت وجه الأرض فيما مضى من الزمان ، وألمح ماييه إلى أن كل

النباتات والحيوانات تطورت من كائنات بحرية مقابلة ، لابل الرجال والنساء تطوروا من أناسى البحر وعرائسه الذين فقدوا ذيولهم كما فقد الضفدع ذيله . وقد نشأ انحسار الماء عن البخر الذى هبط بمستوى البحر نحو ثلاثين قدماً كل ألف عام . وأنذر ماييه بأن المحيطات ستجف تماماً فى النهاية ، وستصعد النيران الباطنية إلى السطح وتفنى كل شىء حى .

وبعد « تياميد » بعام أصدر جورج لوى دبوفون أول مجلديه الرئيسين اللذين أسهم بهما فى علم وليد لم يزل مقمطاً فى تكهنات لا سبيل إلى التثبت من صحتها . وقد ألف « نظرية الأرض » (١٧٤٩) وهو فى الثانية والأربعين ، « وحقب الطبيعة » (١٧٧٩) وهو فى الحادية والسبعين . وبدأ باحتياط على طريقة ديكارت ، فسلم بدفعة أولى دفع الله بها العالم ، وبعدها قدمت « النظرية » تفسيراً طبيعياً خالصاً للأحداث الكونية . وقد استبق آخر نظريات تكوين العالم بقرنين ، إذ ذهب إلى أن الكواكب نشأت كشظايا انفصلت عن الشمس إثر صدمة مذنب قوى أو بفعل جذبه ، فكل الكواكب إذن كانت فى البداية كتلا منصهرة مضيئة كالشمس الآن ، ولكنها بالتدريج بردت وأظلمت فى برد الفضاء . أما « الأيام » التى استغرقتها الخليقة فى سفر التكوين فلابد من تفسيرها على أنها حقب ، قد نتبين منها سبعاً :

١ — اتخذت الأرض شكلها الكروى نتيجة لدورانها ، ثم برد سطحها ببطء (٣,٠٠٠ سنة) .

٢ — تجمدت الأرض فأصبحت جسما جامداً (٣٢,٠٠٠ سنة) .

٣ — تكاثفت الأبخرة التى غلفتها وكونت محيطاً عالمياً (٢٥,٠٠٠ سنة).

٤ — هبطت مياه هذا المحيط باختفائها فى شقوق فى قشرة الأرض ، تاركة نباتاً على السطح ، وأحافير على ارتفاعات شتى على اليابس (١٠,٠٠٠ سنة) .

٥ — ظهرت الحيوانات البرية (٥,٠٠٠ سنة) .

٦ — فصل هبوط المحيط نصف الكرة الغربى عن نصفها الشرقى ، وجرينلند عن أوربا ، ونيوفوندلند عن أسبانيا . وترك الكثير من الجزر تبدو كأنها طالعة من البحر (٥,٠٠٠ سنة) .

٧ - تطور الإنسان (٥,٠٠٠ سنة) .

ولاحظ بوفون بجمع هذه الحقب معاً أن حاصلها ٥٨,٠٠٠ سنة . ولعله كان يعجب لخيال الجيولوجيين الفائق فى يومنا هذا ، فهم يمدون عمر الأرض إلى أربعة بلايين سنة .

وقد أسس بوفون علم الأحافير (البليونتولوجى) بدراسته العظام المتحفرة واستنباطه الحقب المتعاقبة للحياة العضوية منها . ويتبين منظوره وأسلوبه من الأسطر الأولى التى استهل بها « حقب الطبيعة » إذ يقول :

« كما أننا فى التاريخ المدنى نرجع إلى ألقاب الناس ، وندرس العملات والمداليات ، ونفك رموز الكتابات القديمة ، لنحدد عصور الثورات الإنسانية وتواريخ الأحداث فى تاريخ المجتمع ، فكذلك يجب علينا فى التاريخ الطبيعى أن ننقب فى محفوظات الدنيا ، ونخرج من أحشاء الأرض الآثار القديمة ، ونجمع بقاياها ، ونحشد فى مجموعة من الأدلة كل الإشارات على التغيرات الفيزيائية التى تتيح لنا الرجوع إلى مختلف عصور الطبيعة . وهذا سبيلنا الأوحد إلى تحديد بعض النقط فى الفضاء الشاسع ، ووضع عدد من الشواخص على الطريق الأبدى للزمن . وما أشبه الماضى بالمسافات فبصرنا به كان يتناقص بل يتلاشى لولا أن التاريخ والترتيب وضعا المعالم والمشاعل فى أشد نقطه ظلاماً » (٧٢) .

ثم لأنه لم يتوصل إلى علم الأحافير إلا فى شيخوخته كتب يقول :

« إننى أترك أسفاً هذه الأشياء الخلابة ، هذه الآثار الثمينة التى خلفتها لنا الطبيعة القديمة ، والتى لاتمهلنى شيخوختى لفحصها فحصاً يكفى لأن أستخلص منها النتائج التى أتصورها ، والتى ينبغى ألا تجد لها مكاناً فى الكتاب لأنها لاتقوم إلا على الافتراض ، فى حين أننى جريت فيه على سنة : هى ألا أعرض فيه غير الحقائق المبنية على الواقع . وسيأتى من بعدى آخرون (٧٣) .

وكتابه « حقب الطبيعة » كان من أهم كتب القرن الثامن عشر . وقد أغدق عليه بوفون كل ما يملك من صنعة فى الأسلوب ، حتى أنه كتب بعض أجزائه

من جديد سبع عشرة مرة (إذا صدقناه) [٧٤] . وسكب فيه كل قوة خياله حتى لقد بدا أنه يصف ، عبر فجوة من ستين ألف عام ، تصورات فكره وكأنها أحداث تنبسط أمام عينيه(*) . وقد أشاد جريم بالكتاب لأنه « من أروع القصائد التي جرؤت الفلسفة على أن توحي بها » وقال كوفييه في حكمه عليه إنه « أذيع أعمال بوفون قاطبة ، مكتوب بأسلوب رفيع حقاً » [٧٦] .

وفي هذه الأثناء حاول نفر من الدارسين أكثر تواضعاً أن يرسموا خرائط لتوزيع المعادن في التربة . وقد ظفر جان جتار بثناء أكاديمية باريس للعلوم على كتابه « مذكرة وخريطة في علم المعادن » (١٧٤٦) وبينما كان يبذل هذه المحاولة الأولى للقيام بمسح جيولوجي ، اكتشف براكين خامدة في فرنسا ، وعلل الرواسب المحيطة بها بأنها حمم متجمدة ، والينابيع الحارة بأنها آخر مراحل هذه القوى البركانية . وحفز زلزال لشبونه جون متشل إلى إعداد « مقال في أسباب الزلازل وظواهرها » (١٧٦٠) ، وقد ذهب إلى أنها راجعة إلى الالتحام الفجائي بين النار والماء الباطنيين ، مما أحدث بخراً متمدداً ، وقد وجد هذا البخر منفذاً خلال البراكين والفوهات ، ولكن إذا تعذرت هذه المخارج أحدثت اهتزازات في سطح الأرض . وهذه الأمواج الأرضية يمكن في رأي متشل رسمها لإيجاد بؤرة الزلزال . وهكذا تمخض علم الجيولوجيا الذي كان حدثاً بعد عن علم الزلازل .

كذلك أصبح علم طبقات الأرض فرعاً متخصصاً . فقد حار الناس في أصل طبقات القشرة الأرضية وتركيبها وتعاقبها . وأتاحت مناجم الفحم مفتاحاً لهذه الدراسات ؛ ومن ثم قدم جون ستراتشي للجمعية الملكية (١٧٠٩) « وصفاً غريباً للطبقات الأرضية لوحظ في مناجم فحم منديب بسمرستشير . » وفي ١٧٦٢ أصدر جيورج كرستيان فوشزل أول خريطة جيولوجية مفصلة ، ووصف « التكوينات » التسعة في تربة تورنجيا ، وأرسى مفهوم « التكوين » باعتباره تعاقباً لطبقات تمثل في مجموعها حقبة جيولوجية .

---

* عبر سانت - بوف عن هذا أروع تعبير : « قال الله لأيوب أين كنت حين أرسلت أساسات الأرض ؟ » ، وكأني بمسيو ديوفون يقول لنا في غير انفعال « كنت هناك » . [٧٥]

وتنازعت النظريات المتنافسة على أسباب هذه التكوينات . من ذلك أن أبراهام فرنر ، الذى ظل اثنين وأربعين عاماً (١٧٧٥ - ١٨١٧) يعلم فى مدرسة المناجم بفرايبورج ، جعل كرسى أستاذيته المقر الشعبي للرأى « النبتيونى » ، وهو القائل بأن القارات ، والجبال ، والصخور ، والطبقات قد نشأت كلها من فعل المياه ، من هبوط محيط كان يوماً يغطى العالم - وهو هبوط بطىء أحياناً ، مباغت أحياناً أخرى ؛ فالصخور هى ترسب معادن تركها البحر المنحسر جافة ، والطبقات هى فترات هذا الانحسار ورواسبه .

وزاد هتن نار الجدل اشتعالا بتعليله تغيرات الأرض وتقلباتها . وقد أصبح هذا الرجل الذى ولد بأدنبرة فى ١٧٢٦ ، واحداً من ذلك الفريق الممتاز الذى ألف حركة التنوير الاسكتلندى - هيوم ، وجون هوم ، واللورد كيمس ، وآدم سمث ، وروبرتسن ، وهتشسن ، وماسكلين ، ومكلورين ، وجون بلايفير ، وجوزف بلاك . تنقل من الطب إلى الكيمياء إلى الجيولوجيا ، وما لبث أن خلص إلى أن تاريخ كرتنا الأرضية استغرق أضعاف أضعاف الآلاف الستة من السنين التى قال بها اللاهوتيون . ولاحظ أن الريح والمياه ينحران الجبال فى بطء ويرسبانها على السهول ، وأن آلاف النهيرات تحمل المواد إلى الأنهار ، التى تحملها بعد ذلك إلى البحر ، ولواستمرت هذه العملية إلى ما شاء الله لابتلعت المحيطات النهمة الثائرة قارات برمتها . ولعل جميع التكوينات الجيولوجية نجمت عن هذه العمليات الطبيعية البطيئة كما نشهد اليوم فى أى مزرعة تتعرى تربتها أو أى بحر يجور على اليابس ، أو أى نهر يحفر قاعه فى إصرار صابر ، تاركاً سجل مستوياته الهابطة على طبقت الصخور والتربة . وقد ذهب هتن إلى أن هذه التغيرات التدريجية هى الأسباب الأساسية لما يطرأ على أرضنا من تحول . وعنده أننا « فى تفسيرنا للطبيعة ، يجب ألا نستخدم قوى ليست من طبيعة الكرة الأرضية ، وإلا نسلم بأى عمل إلا الأعمال التى نعرف مبدأها ، وألا ندعى أى أحداث خارقة لنعلل بها ظاهرة شائعة » [٧٧] .

ولكن إذا سلمنا بأن هذا النحات ظل آلاف الآلاف من السنين ، فلم لا تزال هناك قارات على ظهر الأرض ؛ ويرد هتن بأن السبب هو أن

المواد التى أزالها التحات وتجمعت فى قاع البحر تتعرض للضغط والحرارة ، فهى تنصهر ، وتتجمع ، وتتمدد وتتصاعد ، وتطلع من المياه لتكون الجزر والجبال ، والقارات . إما أن هناك حرارة باطنية فالدليل عليه ثوران البراكين . فالتاريخ الجيولوجى إذن عملية دائرة ، انقباض وانبساط شاسعان لا يفتآن يصبان القارات فى البحار ويرفعان القارات الجديدة فى قلب تلك البحار . وقد أطلق الدارسون الذين جاءوا بعد هتن على نظريته اسم « الفلكانية » ، (نسبة لفلكان إله النار) لقيامها على تأثيرات الحرارة ، أو « البلوتونية » نسبة إلى بلوتو الإله القديم للعالم السفلى .

وقد تردد هتن نفسه فى نشر آرائه لأنه عرف أنها ستلقى المعارضة لا من المؤمنين بالعصمة الحرفية للكتاب المقــدس فحسب ، بل من « النبتيونيين » على نحو لا يقل حدة . وقد وجد هؤلاء مدافعاً متحمساً فى روبرت جيمسن أستاذ الفلسفة الطبيعية فى جامعة أدنبرة . وقد اقتصر هتن أول الأمر على شرح نظريته لنفر من أصدقائه ، فلما ألحوا عليه قرأ بحثين فى موضوعها على جمعية أدنبرة الملكية ، الحديثة التشكيل . فى ١٧٨٥ . وكان النقد الذى وجه إليها مهذباً حتى عام ١٧٩٣ ، حين هاجمه عالم معادن دبلنى بعبارات أثارت حنقة ، فرد بنشره كتاباً من عيون الجيولوجيا عنوانه « نظرية الأرض » (١٧٩٥) . ومات بعد ذلك بسنتين . وبفضل كتاب جون بلايفير الواضح الأسلوب « إيضاحات لنظرية هتن » (١٨٠٢) ، انتقل مفهوم التغيرات العظمى الناجمة عن العمليات البطيئة إلى علوم أخرى غير الجيولوجيا ، وأعد أوربا لتطبيق داروين لهذا المفهوم على أصل الأنواع وتسلسل الإنسان .

(د) الجغرافيا :

ولكن وجه الأرض أكثر استهواء للدارسين من أحشائها . ولقد كان العرض المتصاعد لاختلافات البشر فى العرق ، والأنظمة ، والأخلاق ، والعقائد ، عاملا قوياً فى توسيع آفاق الذهن الحديث . ومضى ارتياد المجهول برغبة فى الاستطلاع وحب للتملك أكثر من أى عهد سبق ،

لا حبا فى سواد عيون العلم ، بل سعياً إلى المواد الخام ، والذهب ، والفضة ، والأحجار الكريمة ، والطعام ، والأسواق ، والمستعمرات ، وإلى رسم خرائط للبحار تضمن مزيداً من السلامة للملاحة فى السلم والحرب . لا بل إن رحلة السفينة المتمردة « باونتى » (١٧٨٩) كان هدفها الأصلى شتل شجرة فاكهة الخبز من بحار الجنوب إلى جزر الهند الغربية واشتد التنافس فى هذه اللعبة بين الفرنسيين والهولنديين والإنجليز ، وهم يعلمون أن السيادة على العالم رهن بنتيجة هذا التنافس .

وقد انبعثت من ذهن بطرس الأكبر رحلة من أجرأ رحلات الارتياد ، إذ أنه قبل موته فى ١٧٢٥ كلف فينوس بيرنج ، وكان قبطاناً دنمركياً فى البحرية الروسية ، بارتياد الساحل الشمالى الشرقى لسيبيريا . وعينت أكاديمية سانت بطرسبورج فلكياً وطبيعياً ومؤرخاً لمرافقة البعثة وبعد أن سافر بيرنج إلى كمشاسكا براً ، أبحر (١٧٢٨) إلى خط عرض ٦٧° شمالا ، واكتشف المضيق الذى يحمل اسمه ، ثم عاد إلى سانت بطرسبورج . وفى رحلة ثانية بنى أسطولا فى أوخوتسك وأبحر شرقاً حتى لمح أمريكا الشمالية (١٧٤١) ؛ وهكذا اكتشف دنمركى تلك القارة من الغرب كما اكتشفها لايف إريكسن السكندنافى من الشرق . وفى رحلة العودة ضلت سفينة بيربج طريقها وسط ضباب كثيف ، وأنفق الملاحون ستة أشهر على جزيرة لم يسبق أن سكنها أحد قرب كمشاسكا . وعلى هذه الجزيرة ، التى تحمل هى أيضاً اسمه ، مات الدنمركى العظيم من الاسكربوط (١٧٤١) وهو فى الستين . واكتشفت سفينته أخرى من سفن البعثة جزائر الوشيان . واستولت روسيا على ألسكا ، وبعث المرسلون لتعريف الاسكيمو باللاهوت المسيحى . .

وحفز تقدم روسيا داخل أمريكا أمماً أخرى لارتياد المحيط الهادى فجردت انجلتره فى حربها مع أسبانيا (١٧٤٠) أسطولا تحت امرة جورج آنسن ليضيق الخناق على المستوطنات الاسبانية فى أمريكا الجنوبية . وقد اهلك الاسكربوط أكثر ملاحيه ، وحطمت الزوابع بعض مراكبه ، ولكنه شق طريقه إلى المحيط الهادى الجنوبى ، ووقف عند جزائر خوان فرنانديز ،

ووجد الدليل على أن الكسندر سلكرك (وهو روبنصن كروزو فى رواية ديفو) كان هناك من قبل (١٧٠٤ — ٩) . ثم عبر المحيط الهادى واستولى على غليون أسبانى قرب الفلبين ، وأخذ كنز الذهب والفضة الذى يحمله (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار) وعبر المحيط الهندى ودار حول رأس الرجاء الصالح ، وأفلت من الأسطولين الاسبانى والفرنسى اللذين حاولا اعتراضه . ثم وصل إلى انجلتره فى ١٥ يونيو ١٧٤٤ بعد رحلة ثلاثة سنوات وتسعة أشهر . ونقلت غنيمة السبائك من سبتهيد إلى لندن فى اثنتين وثلاثين عربة تصاحبها الموسيقى العسكرية . وصفقت انجلتره كلها لآنسن ونفدت أربع طبعات من قصته فى سنة واحدة .

وفى ١٧٦٣ أوفدت الحكومة الفرنسية بعثة مماثلة على رأسها لوى أنطوان دبوجانفيل ، تحمل تعليمات بإقامة مستوطنة فرنسية فى جزر فوكلند ؛ وقد أتاح لها موقعها على ثلاثمائة ميل شرقى مضيق مجللان قيمة حربية ، لأنها تشرف على المعبر من الأطلنطى إلى الهادى . وقد أنجز مهمته وعاد إلى فرنسا . وفى ١٧٦٥ أبحر ثانية ، وعبر المضيق إلى المحيط الهادى ووصل إلى تاهيتى (١٧٦٨) . التى كان صموئيل واليس قد اكتشفها قبل ذلك بسنة — واستولى عليها لفرنسا ، واكتشف مجموعة جزر ساموا وهبريد الجديدة ، ودار حول رأس الرجاء الصالح . ووصل إلى فرنسا فى ١٧٦٩ ، وجلب معه من أقاليم الباسفيك المدارية نبات البوجانفليا المتعرش (الجهنمية) . وقد ركزت روايته لرحلته على مناخ تاهيتى اللطيف ، وما يتمتع به الأهالى من صحة سابغة ، وطبيعة خيرة ، وخلق أنيس : وسنلتقى بديدرو معقباً فى حسد على هذا التقرير فى كتابه « ملحق لرحلة بوجانفيل » .

وفى ١٧٦٤ كلفت الحكومة البريطانية الكابتن جون بايرون أن يضع يده على أرض تفيدها فى البحار الجنوبية . فرسا على فورت إجمونت فى جزر فوكلند ، واستولى على الجزر الإنجليزية وهو لا يدرى أن الفرنسيين كانوا هناك فعلا . وادعت أسبانيا أن لها حقاً أسبق فى تملك الجزر ، فأذعنت لها فرنسا ، ثم أذعنت اسبانيا لإنجلترة (١٧٧١) وتطالب بها الأرجنتين اليوم .

وواصل بايرون رحلته حول الكرة الأرضية ، ولكنه لم يترك على التاريخ أكثر من هذه البصمة . وكان فى رحلة سابقة ، أثناء عمله ضابط صف تحت إمرة آنسن قد تحطمت به السفينة على ساحل شيلى (١٧٤١) ، وقد استخدم حفيده اللورد بايرون روايته لهذا الحادث فى قصيدته « دون جوان »

أما أبرز رائد فى رواد القرن الثامن عشر فى نظر الشعوب الناطقة بالانجليزية فهو الكابتن جيمس كوك . كان ابن فلاح فى مزرعة ، ألحق وهو فى الثانية عشرة ببائع خردوات ، فلما لم يجد فى بيع الملابس الداخلية ما يشبع شوقه للمغامرة التحق بالبحرية ، وعمل « ملاحظاً بحرياً » على طول سواحل نيوفوندلند ، وذاعت شهرته رياضياً ، وفلكياً ، وملاحاً ، وفى ١٧٦٨ ، حين بلغ الخمسين ، اختير لرآسة بعثة تسجل مرور كوكب الزهرة ، وتقوم بأبحاث جغرافية فى المحيط الهادى الجنوبى . فأبحر فى ٢٥ أغسطس على السفينة « إندفر » بصحبة عدة علماء ، جهز أحدهم وهو السر جوزف بانكس السفينة من ماله الخاص(*) . وشوهد مرور الزهرة فى تاهيتى فى ٣ يونيو ١٧٦٩ . ومنها أبحر كوك باحثاً عن قارة كبرى (تيرا أوستراليس) زعم بعض الجغرافيين أنها تختبىء فى بحار الجنوب . فلم يجد شيئاً ، ولكنه ارتاد جزر سوسايتى وسواحل نيوزيلندة ، ورسم لها خرائط بعناية : ثم واصل رحلته إلى استراليا (التى عرفت يومها بهولندة الجديدة) ، واستولى على ساحلها الشرقى لبريطانيا العظمى ، وأبحر حول أفريقيا ، ووصل إلى انجلتره فى ١٢ يونيو ١٧٧١ .

وفى ١٣ يوليو ١٧٧٢ ، ركب البحر من جديد ، ومعه السفينتان رزوليوشن وإندفر ، بحثاً عن القارة الجنوبية المزعومة . وقد حرث البحر شرقاً وجنوباً بين رأس الرجاء الصالح ونيوزيلندة ، وعبر الدائرة القطبية الجنوبية إلى خط عرض ٧١ دون أن يشهد أرضاً ، ثم أكرهه الخطر المتزايد من قطع الجليد الطافية على العودة . وزار جزيرة إيستر وكتب وصفاً

(*) عمل رئيسا لجمعية لندن الملكية من ١٧٧٨ إلى ١٨٢٠ ، وأوصى بمكتبته ومجموعاته للمتحف البريطانى .

لتماثيلها العملاقة . ورسم خرائط لجزر ماركيزا وتونجا ، وسمى هذه « فرندلى » أى الجزيرة الصديقة لما خبر فى أهلها من لطف ودماثة خلق . واكتشف كلدونيا الجديدة ، وجزيرة نورفوك ، وجزيرة باينز (كونى) . وعبر المحيط الهادى الجنوبى شرقاً إلى رأس هورن ، وواصل الرحلة عبر الأطلنطى الجنوبى إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم أبحر شمالا إلى انجلتره ، فرسا على برها فى ٢٥ يوليو ١٧٧٥ بعد رحلة قطع فيها نيفاً وستين ألف ميل و ١,١٠٧ يوماً .

أما بعثته الثالثة فقد التمست طريقاً مائياً من ألسكا عبر أمريكا الشمالية إلى الأطلنطى . وقد أقلع من بليموث فى ١٢ يوليو ، ومعه السفينتان رزوليوشن وسكفرى ، وطاف حول رأس الرجاء الصالح ، ووصل بر تاهيتى ثانية ، ومضى شمالا بشرق ، ووقع على أعظم كشوفه ، وهى جزر هاواى (فبراير ١٧٧٨) التى كان الملاح الاسبانى خوان جيتانو قد رآها فى ١٥٥٥ ، ولكن أوربا نسيتها أكثر من قرنين . وبعد أن واصل كوك الرحلة إلى الشمال الشرقى وصل إلى ما نسميه الآن بولاية أوريجون ، ومسح ساحل أمريكا الشمالية إلى مضيق بيرنج ووراءه حتى الحدود الشمالية لألسكا . وعند عرض ٧٠,٤١° شمالا عاق تقدمه جدار من الجليد يرتفع اثنى عشر قدماً فوق البحر ويمتد إلى آخر ما يصل إليه بصر الرقيب . وعاد كوك إلى هاواى بعد أن أخفق فى بحثه عن ممر شمالى شرقى عبر أمريكا . وهناك لقى مصرعه حيث لقى من قبل ترحيباً ودياً . ذلك أن الأهالى كانوا لطفاء ولكنهم يميلون إلى السرقة ، فسرقوا قارباً من قوارب السفينة « دسكفرى » ، وقاد كوك نفراً من رجاله ليسترده ، فنجحوا فى استرداد القارب ، ولكن الأهالى الحانقين أحاطوا بكوك الذى أصر على أن يكون آخر من يبرح الساحل . فأوسعوه ضرباً حتى مات (١٤ فبراير ١٧٧٩) ، وكان فى الحادية والخمسين من عمره . وتكرمه انجلتره بوصفه أعظم روادها البحرين وأنبلهم ، وباعتباره عالماً مهذباً ، وقبطاناً شجاعاً محبوباً من جميع ملاحيه .

ولا تكاد تقل عن هذه البعثات بسالة تلك البعثة التى قادها جان فرانسوا دجالوب ، كونت لابيروز ، الذى كلفته الحكومات الفرنسية بأن يتابع

كشف كوك . فأبحر فى ١٧٨٥ حول أمريكا الجنوبية ثم مصعدا إلى ألسكا وعبر إلى آسيا، وكان أول أوربى يمر بالمضيق (الذى كان يحمل اسمه إلى عهد قريب) الواقع بين سخالين الروسية وهوكايدو اليابانية . ثم اتجه إلى الجنوب وارتاد ساحل استراليا وبلغ جزر سانتا كروز . ويبدو أن سفينته تحطمت هناك (١٧٨٨) لأن أحداً لم يسمع بخبره قط .

وكان ارتياد اليابس هو أيضاً تحدياً لشهوة المغامرة والكسب . ففى ١٧١٦ وصل مراسل يسوعى إلى لهاسا — مدينة التبت « المحرمة » وارتاد كارستن بيبور ووصف جزيرة العرب ، وفلسطين ، وسوريا ، وآسيا الصغرى ، وفارس (١٧٦١) . وجاب جيمس بروس شرق أفريقيا واكتشف من جديد منبع النيل الأزرق (١٧٦٨) . وفى أمريكا الشمالية أسس الرواد الفرنسيون نيو أورليان (١٧١٨) وتحركوا شمالا على طول المسسبى إلى المسورى . وفى كندا كافحوا ليصلوا إلى المحيط الهادى ، ولكن جبال روكى كانت عقبة كؤودا . وفى هذه الأثناء تقدم المستعمرون الإنجليز فى الداخل إلى نهر أوهايو ، وفتح الرهبان الأسبان الطريق لمن بعدهم من المكسيك عبر كاليفورنيا إلى مونتيريه ، وصعدوا فى حوض نهر كلورادو إلى يوتاه ، ولن تلبث أمريكا الشمالية أن تصبح إحدى المغانم التى يصطرع عليها المقاتلون فى حرب السنين السبع . وفى أمريكا الجنوبية قاد لاكوندامين بعثة من منابع الأمازون قرب كيتو إلى مصبه عند الأطلنطى ، على بعد أربعة آلاف ميل بعد أن قاس درجة عرضية عند خط الاستواء .

وعجز رسامو الخرائط الجغرافية عن اللحاق بالرواد . فخلال نصف قرن (١٧٤٤ — ٩٣) أصدر سيزار فرنسوا كاسينى وابنه جاك دومنيك فى ١٨٤ فرخ متوال خريطة لفرنسا طولها ٣٦ قدماً وعرضها ٣٦ قدماً ، تبين فى تفصيل لم يسبق له نظير ، جميع الطرق ، والأنهار ، والأديار ، والمزارع ، والمصانع ، وحتى ما وضع على جانب الطرق من صلبان ومشانق . وفى ١٧٦٦ نشر توربيرن ألوف بيرجمان ، الذى لم يقنع بكونه واحداً من أعظم كيميائيى القرن الثامن عشر ، « وصفاً للعالم » لخص فيه المتيورولوجيا ، والجيولوجيا ، والجغرافيا الطبيعية فى عصره . وذهب إلى أن كثيراً من الجزر هى قمم

لسلاسل جبلية غمر أكثرها فى الماء ، فجزر الهند الغربية قد تكون مخلفات سلسلة ربطت يوماً ما فلوريدا بأمريكا الجنوبية . أما أوراس دسوسير ، فبعد أن قضى أربعة وعشرين عاماً أستاذاً للفلسفة فى جامعة جنيف ، ارتقى جبل مون بلان (١٧٨٧) وجبل كلاين ماترهورن (١٧٩٢) ارتقاءين مشهورين ، وكتب دراسات ضخمة لجبال سويسرة من حيث أحوالها الجوية ، وتكويناتها ، وطبقاتها ، وأحافيرها ، ونباتاتها ، فجمع بذلك جمعاً رائعاً بين المتيورولوجيا ، والجيولوجيا ، والجغرافيا ، والنبات . فلنتذكر حين يقال لنا أن التاريخ هو « تقويم نيوجيت » للأمم ، أنه كذلك سجل لمئات من ضروب البطولة والشرف .

٧ — النبات :

(أ) لينيوس :

وهكذا نصل فى قصتنا إلى الحياة ! فبعد أن طور المكرسكوب المركب أصبح فى الإمكان فحص تكوين النباتات فحصاً أدق ، يصل إلى خفايا جنسها . وشب علم النبات عن الطوق فلم يعد تابعاً للطب ، ورسم لينيوس عالم الحياة المكتظ بعناية راهب العلم وتفانيه .

وكان أبوه نيلز لينيه ، راعياً لشعب لوثرى فى شتنبروهولت بالسويد . ومن العسير جداً على ابن قسيس أن يحتفظ بتقواه ، ولكن كارل استطاع ذلك ، ووجد فى عالم النبات على الأخص أسباباً لا حصر لها تدعوه لشكر الخالق . والحق إن هناك لحظات تبدو فيها الحياة رائعة الجمال بحيث لا يمكن أن يكفر بالله غير إنسان جحود .

وكان نيلز بستانياً متحمساً ، أحب اقتناء الأشجار المنتقاة والأزهار النادرة وغرسها فى التربة من حول مسكنه كأنها تسبيحة حية . وكانت هذه لعب كارل وأصفيائه فى صباه ، فشب (كما يروى لنا) وفى قلبه « حب للنبات لا يرتوى » [٧٨] . وما أكثر ما « زوغ » من المدرسة ليجمع عينات فى الغابات والحقول . وكان أبوه تواقاً لجعل ولده قسيساً ، لأن الصبى كان

آية فى الطيبة ، وقد تعلم بالقدوة خيراً مما يعلم بالعقيدة ، ولكن كارل مال إلى الطب لأنه رأى فيه المهنة الوحيدة التى يستطيع فيها الجمع بين الاشتغال بالنبات وكسب قوته . وعليه فى ١٧٢٧ ، حين كان فى العشرين من عمره ، قيد طالب طب فى جامعة لوند . وبعد عام أرسل إلى أوبسالا حاملا توصيات حارة من معلميه . ولم يستطيع أن يتلقى الكثير من العون المادى من أبويه لأنه كان واحداً من خمسة أبناء لهما . وإذ أعجزه الفقر عن ترقيع حذائه فقد فرشه بالورق ليغطى ثقوبه ويتقى بعض البرد . أما وقد تهيأت له حوافز الدرس فإنه تقدم حثيثاً فى دراسة النبات والطب . وفى ١٧٣١ عين محاضراً مساعداً فى النبات ومدرساً خاصاً فى بيت الأستاذ رودبيك ، الذى كان أباً لأربعة وعشرين طفلا ، فكتب يقول « إننى الآن بفضل الله أملك دخلا » (٧٩) .

فلما قررت جمعية أوبسالا العلمية إيفاد بعثة لدراسة نباتات لابلاند ، أختير لينيوس لرآستها . وبدأ هو ومساعدوه الشبان الرحلة فى ١٢ مايو ١٧٣٢ . وقد وصف رحيلهم بأسلوبه الزاهى بطبيعته فقال :

كان الجو مشرقاً لطيفاً ، وأضفى نسيم عليل هب من الغرب على الهواء برودة منعشة ... وكانت براعم أشجار البتولا قد بدأت تتفتح ، والأوراق على معظم الشجر متوافرة ، ولم يبق عارياً غير الدردار والبلوط . وكانت القبرة تصدح فى العلا . وبعد أن قطعنا ميلا أو نحوه جئنا إلى مدخل غابة ، وهناك فارقتنا القبرة ، ولكن على قمة شجرة الصنوبر راح الشحرور يتدفق بأغنية حبه » (٨٠) .

وهذا الوصف ينبىء بطبع لينيوس ؛ فقد كان يقظاً أبداً بكل جوارحه لمشاهد الطبيعة ، وأصواتها ، وعبيرها ؛ ولم يسلم قط بأى فرق بين علم النبات والشعر . وقد قاد جماعته فوق ١,٤٤٠ ميلا من لابلاند ، خلال عشرات المخاطر والمشاق ، ثم عاد بهم سالمين إلى أوبسالا فى ١٠ سبتمبر .

وإذ كان لا يزال رقيق الحال ، فقد حاول أن يكسب قوته بالتدريس فى الجامعة ، ولكن غريماً له أفلح فى حظر محاضراته بدعوى أن لينيوس لم يكمل بعد دراسته الطبية أو ينال درجته الجامعية . وكان كارل فى هذه

الأثناء قد وقع فى غرام « ليزا » — وهى ساره إليزابث مورايا ، ابنة طبيب محلى . فقدمت له مدخراتها ، وأضاف إليها مدخراته ، وإذ تهيأ له المال على هذا النحو فقد انطلق ميمماً هولنده (١٧٣٥) . وفى جامعة هاردرفيك فاز فى امتحاناته ونال درجته الطبية . وبعد عام التقى فى لندن بيوبرهافى العظيم ، وكاد ينسى ليزا . وأصدر لينيوس كتاباً من أمهات كتب النبات بإلهام وعون من ذلك النبيل العالم ، وهو « نظام الطبيعة . » وقد طبع اثنتى عشرة مرة فى حياته ، وكان يتألف فى الطبعة الأولى من أربعة عشر فرخاً فقط من القطع الكبير ، أما فى الطبعة الثانية عشرة فقد ازداد إلى ٢,٣٠٠ صفحة ، فى ثلاثة مجلدات من قطع الثمن ، وعلى مقربة من أمستردام تزود بما نقصه من مال بإعادة تنظيم المجموعة النباتية التى يملكها جورج كليفورت وعمل قوائم بها ، وكان كليفورت هذا مديراً لشركة الهند الشرقية . فأخرج فى ١٧٣٦ ، بهمــة قعساء ، « مكتبة النبات » . وفى ١٧٣٧ « أجناس النبات » . وفى ١٧٣٨ قصد باريس ليدرس الجاردان دووا . وهناك ، دون أن يقدم نفسه ، انضم إلى مجموعة من الطلاب كان برنار دجوسيو يحاضرهم باللاتينية فى نباتات دخيلة : وقد حير الأستاذ نبات منها ، واجترأ لينيوس على إبداء رأى فقال أن لهذا النبات مظهراً أمريكياً : ونظر إليه دجوسيو ، وقال وهو يحزر هويته « أنت لينيوس» ؛ واعترف كارل ، وبأخوة العلم الرائعة رحب به دجوسيو ترحيباً حاراً [٨١] . وعرض على لينيوس منصب الأستاذية فى باريس ، ولندن ، وجوتنجن ، ولكنه رأى أن قد آن الأوان ليعود إلى ليزا (١٧٣٩) . ولم تكن مثل هذه الخطبات الطويلة بالأمر الشاذ فى تلك الأيام ولعلها عاونت فى كثير من الحالات على استقرار الخلق ونضج الشخصية . وتزوجا . واستقر كارل فى استوكهولم طبيباً .

وظل حيناً يترقب عبثاً مجيء المرضى كما يفعل أى طبيب ناشىء . وذات يوم سمع وهو فى حانة شاباً يشكو من أن أحداً لم يستطع شفاءه من السيلان . وشفاه لينيوس ، ومالبث غيره من الشبان الذين اشتد بهم الشوق لإثبات رجولتهم أن جاءوه ملتمسين الشفاء . وامتدت خبرة الطبيب إلى أمراض الرئتين وتعرف إليه الكونت كارل جوستاف تسين ، رئيس مجلس النبلاء

فى الركزداج ، وحصل له على وظيفة طبيب للبحرية (١٧٣٩) . فى ذلك العام ساعد لينيوس فى إنشاء أكاديمية العلوم الملكية ، وأصبح أول عميد لها . وفى خريف ١٧٤١ اختير أستاذاً للتشريح فى أوبسالا . وسرعان ما استبدل بكرسيه كرسى النبات ، والمواد الطبية ، والتاريخ الطبيعى (الجيولوجيا والاحياء) ، وهكذا وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب أخيراً . وقد بث فى تلاميذه تحمسه للنبات ، وكان يعمل معهم فى صداقة لا تكلف فيها ، وأسعد أوقاته حين يأخذهم فى جولة من جولات التاريخ الطبيعى . يقول :

كنا نقوم برحلات كثيرة بحثاً عن النباتات ، والحشرات ، والطيور ، فنى الأربعاء والسبت من كل أسبوع نجمع الأعشاب من الفجر إلى العشية ثم يعود التلاميذ إلى الميدان واضعين الأزهار على قبعاتهم ، ويصحبون أستاذهم إلى حديقته ، يتقدمهم موسيقيون بسطاء . ذلك منتهى الروعة فى علمنا اللذيذ » [٨٢] .

وقد أوفد بعض طلابه إلى شتى بقاع الأرض ليأتوه بالنباتات الغريبة ، وحصل لهؤلاء الرواد الصغار (الذين ضحى بعضهم بحياته فى بحثهم هذا) على الاعفاء من أجرة الرحلة على سفن شركة الهند الشرقية الهولندية . وحفزهم بالأمل فى إضافة أسمائهم للنباتات فى نظام التسمية الكبير الذى كان بصدد إعداده . وقد لاحظوا أنه أطلق اسم « كاميليا » على الشجيرة المزهرة التى عثر عليها اليسوعى جورج كاميل فى الفلبين .

وقد أقام بجهده المتصل تصنيفه الضخم للنبات فى كتبه « نظام الطبيعة » و « أجناس النبات » و « زيت النبات » (١٧٣٨) ، و « فلسفة النبات » (١٧٥١) و « أنواع النبات » (١٧٥٣) وقد سبقه نفر من علماء النبات إلى هذه المهمة ، نخص بالذكر منهم بوهن وتورنفور ، وكان ريفينوس قد اقترح (١٦٩٠) طريقة ثنائية لتسمية النباتات . ولكن رغم هذه الجهود وجد لينيوس مجموعات عصره فى حالة من الخلل عطلت الدراسة العلمية للنباتات تعطيلا خطراً . فقد اكتشفت مئات الأنواع الجديدة التى

أطلق عليها علماء النبات أسماء متضاربة . وأخذ لينيوس على عاتقه تصنيف جميع النباتات المعروفة أولا حسب طائفتها ، وفى طائفتها حسب رتبتها ، وفى رتبتها حسب جنسها ، وفى جنسها حسب نوعها ؛ وهكذا توصل إلى اسم لاتينى مقبول دولياً . واتخذ أساساً لتصنيفه وجود وطبيعة الأعضاء التناسلية الواضحة أو عدم وجودها ، فقسم النباتات إلى « نباتات زهرية » وهى التى لها أعضاء تناسل ظاهرة (أزهارها) و « نباتات لا زهرية » ليس لها أزهار تخرج بزوراً وهياكلها التناسلية مخفاة أو غير واضحة (كما فى الطحلب والسرخس) .

وقد اعترضت بعض النفوس الخجولة على هذا التركيز على الجنس لأنه سيؤثر تأثيراً خطراً على خيال الشباب [٨٣] . ولكن نقاداً أصلب وأجرأ بينوا خلال الأعوام المائة التالية عيوباً أهم فى تصنيف لينيوس ، فقالوا إنه غلا فى الاهتمام بإيجاد أركان وأسماء للنباتات غلواً جعله يحول علم النبات حيناً عن دراسة وظائف النباتات وأشكالها . ولما كان تغير الأنواع سيشوش النظام الذى وضعه ، فضلا عن تناقضه مع سفر التكوين ، لذلك وضع مبدأ مؤداه أن جميع الأنواع خلقها الله مباشرة وظلت دون تغيير طوال تاريخها . وقد عدل من هذا الموقف التقليدى فى تاريخ لاحق (١٧٦٢) بإلماعه إلى أن أنواعاً جديدة قد تظهر نتيجة لتهجين الأنواع المتقاربة . ومع أنه تناول الإنسان (الذى سماه فى ثقة واطمئنان « هومو سابينز » أى الإنسان العاقل) بوصفه جزءاً من مملكة الحيوان ، وصنفه نوعاً فى رتبة الحيوانات العليا ، جنباً إلى جنب مع القرد ، فإن نظامه عطل نمو الأفكار التطورية .

وقد انتقد بوفون تصنيف لينيوس ، على أساس أن الأجناس والأنواع ليست أشياء موضوعية ، إنما هى مجرد أسماء لتقسيمات عقلية مريحة لواقع معقد ، تذوب فيه جميع الرتب ، عند أطرافها ، بعضها فى البعض ، فلا شىء يوجد خارج الذهن ، إلا الأفراد ؛ هنا نجد جدل العصور الوسطى القديم بين الواقعية والإسمية . أما لينيوس فرد (مثبتاً أنه بشر) بأن بلاغة بوفون يجب ألا يسمح لها بأن تخدع العالم ، ورفض أن يأكل فى قاعة علقت فيها صورة بوفون مع صورته [٨٥] . على أنه سلم فى لحظة أكثر سماحة أن

ترتيبه ناقص ، وأن تصنيف النباتات حسب الجهاز التناسلى ترك أطرافاً كثيرة غير محكمة ؛ وفى كتابه « فلسفة علم النبات » اقترح نظاماً طبيعياً مبنياً على شكل أعضاء النبات وتطورها . وقد تبين أن نظام التسمية الذى وضعه لا التصنيف ، مريح جداً ، سواء فى علمى النبات والحيوان ، وما زال سائداً مع بعض تعديلات أدخلت عليه .

وكرمت أوربا كلها لينيوس فى شيخوخته أميراً لعلماء النبات . فى ١٧٦١ خلع عليه الملك لقب الفروسية ، فأصبح اسمه كارل فون لينيه . وبعد عشر سنوات تلقى خطاب حب من ثانى أشهر مؤلف فى القرن وهو جان جاك روسو ، الذى ترجم « فلسفة علم النبات » ، ووجد فى الاشتغال بالنبات دواء للفلسفة . قال « تقبل أيها السيد الكريم ولاء تلميذ من تلاميذك ، جاهل جداً ، متحمس جداً ، يدين ديناً كبيراً للتأمل فى كتاباتك فى السكينة التى ينعم بها ... إننى أكرمك ، وأحبك من كل قلبى [٨٦] » .

ومات لينيوس ، كروسو وفولتير ، عام ١٧٧٨ . وباعت أرملته مكتبته ومجموعاته إلى جيمس ادوارد سمث ، الذى اشترك مع آخرين (١٧٨٨) فى تأسيس « جمعية لينيوس اللندنية » للعناية بتراث لينيوس ومن ذلك المركز أذاعت سلسلة طويلة من المطبوعات جهود عالم النبات فى جميع أرجاء أوربا وأمريكا وقد قرر جوته أن أعظم التأثيرات فى حياته العقلية كان الفضل فيها لشكسبير ، وسبينوزا ولينيوس [٨٧] .

(ب) فى الكرمة

واصل مئات من الدارسين المخلصين البحث فى علم النبات . ففى فرنسا مثلا نجد أسرة من أسر الفحول التى يربط أعضاءها تكريس مشترك للحياة عبر القرون . وقد ارتقى رب هذه الأسرة ، انطوان دجوسيو ، الذى وفد على باريس من ليون ، ليصبح مديراً للجاردان دوروا فى ١٧٠٨ . وكان أخوه الأصغر برنار محاضراً و « معيداً » هناك ؛ وقد رأيناه يرحب بلينيوس . وذهب أخ آخر يدعى جوزف إلى أمريكا الجنوبية فى صحبة لاكوندامين ، وأرسل نوعاً من عباد الشمس يسمى Heliotropium peruvianum

مثله فى أوربا . وفى ١٧٨٩ نشر ابن أخ له يدعى أنطوان لوران دى جوسيو كتاباً بدأ يحل محل النظام الذى وضعه لينيوس واسمه Genera plantarum secundum ordines naturales disposita

وقد صنف النباتات مورفولوجياً (أى حسب أشكالها) بناء على وجود أوراق البزار أو عدم وجودها ، أو عددها ؛ فما ليس له أوراق عديم الفلقة ، وما له ورقة واحدة سماه « وحيد الفلقة » وما له ورقتان « ثنائى الفلقة » . وواصل ابنه أدريان عملهم فى القرن التاسع عشر . وفى ١٨٢٤ وضع أوجستن وكاندول خطوط التصنيف الذى يتقبله علماء النبات اليوم بعد أن أقامه على جهود أسرة جوسيو .

وقد اكتشف نحميا جرو جنسانية النباتات عام ١٦٨٢ أو قبل ذلك ، وأيد كامبراريوس هذا الكشف فى ١٦٩١ . وأنهى كوطن ماذر من بوسطن إلى جمعية لندن الملكية (١٧١٦) تجربة تهجين بطريق التلقيح بالريح .

زرع جارى خطاً من الكومات فى حقل ذرة ، وكان لون الحب أحمر وأزرق ، أما باقى الحقل فزرعه ذرة من اللون الأعم وهو الأصفر . فعدى هذا الصف فى الجانب الذى يواجه الريح أكثر من غيره ؛ أربعة من الصفوف المجاورة ... ليلونها بلونيه (الأحمر والأزرق) اللذين ظهرا عليه . أما على الجانب المتجه مع الريح ، فقد تلون بهذين اللونين مالا يقل عن سبعة خطوط أو ثمانية ، وتأثرت الخطوط الأبعد تأثيراً أقل » (٨٨) .

وفى ١٧١٧ برهن رتشرد برادلى على ضرورة الإخصاب بتجربة أجراها على أزهار الطوليب (الخزامى) . فقد نزع كل اللقاح من اثنتى عشرة زهرة منها « مكتملة الصحة » ؛ فلم تحمل هذه أى بزر طوال الصيف ... فى حين أن كل زهرة من الأربعمائة التى تركها وشأنها أخرجت بزراً » (٨٩) وقد درس التلقيح المختلط وتنبأ بنتائج خلابة له « فقد نستطيع بهذه المعرفة أن نغير خاصية أى فاكهة ومذاقها بتلقيح فاكهة بلقاح أخرى من نفس الرتبة ولكن من نوع مختلف » . يضاف إلى هذا أنه فى قدرة شخص محب للاستطلاع أن يستعين بهذه المعرفة على إنتاج أنواع نادرة من النبات لم يسمع

بها إلى الآن . وروى كيف أن توماس فيرتشايلد أنبت نوعاً جديداً « من حبة قرنفل لقحت بلقاح زهرة القرنفل الملتحى "Sweet William" وقد وجد أن هذه المهجنات من الأنواع عقيمة ، وشبهها بالبغال .

وفى ١٧٢١ روى فليب ملر أول وصف معروف لتلقيح النحل للنبات . فقد نزع « قمم » بعض الأزهار قبل أن تسطيع أن « تنفض غبارها » ، ومع ذلك فإن بزرة هذه الأزهار العنينة فى الظاهر نضجت نضجاً سوياً . وقد تشكك الأصدقاء فى روايته فكرر التجربة ذاتها بمزيد من العناية ، فحصل على النتيجة ذاتها . قال :

بعد يومين ، وبينما كنت جالساً فى حديقتى ، شاهدت فى حوض طوليب قريب منى بعض النحل تنشط نشاطاً شديداً وسط الأزهار ؛ ورأيتها وأنا ألحظها تخرج وأرجلها وبطونها محملة بالغبار ، وطار ذكر فيها إلى طوليبه كنت قد خصيتها ، وعلى الفور تناولت مجهرى وفحصت الطوليبة التى طار إليها ، فوجدت أنه ترك من الغبار ما يكفى لتلقيح الطوليبة . فلما أخبرت أصدقائى بما حدث .... عادوا للاطمئنان إلى روايتى ... فما لم يتخذ احتياط لمنع الحشرات من الدخول إلى النباتات ، فإن هذه النباتات تقبل التلقيح من حشرات أصغر كثيراً من النحل » (٩٠) .

وقد أجرى كولرويتر ، أستاذ التاريخ الطبيعى فى كارلسروهى ، دراسة خاصة (١٧٦٠ وما بعدها) للاخصاب المختلط وفيزيوكيميائية التلقيح ، وكان لتجاربه الخمس والستين أثر هائل على الزراعة فى عدة قارات . فقد انتهى إلى أن التهجين لا يثمر إلا فى النباتات الوثيقة التقارب ؛ ولكنه إذا نجح نمت المهجنات بسرعة أكبر ، وأزهرت أسرع ، وعاشت أطول ، وأخرجت براعم صغيرة أوفر من الأنواع الأصلية ، ولا يضعفها إنماء الحب . وأثبت كونراد شبرنجل (١٧٩٣) أن الإخصاب المختلط — بواسطة الحشرات عادة ، وأقل من ذلك بواسطة الريح — يعم داخل النوع ، وزعم فى اقتناع غائى حار أن شكل الأجزاء فى كثير من الأزهار وترتيب هذه الأجزاء مقصود به منع الإخصاب الذاتى . وفتح يوهان هدفج ميداناً جديداً للبحث

بدراسة عملية الإنسال فى النباتات اللازهرية (١٧٨٢) وفيما بين عامى ١٧٨٨ ، ١٧٩١ أصدر يوزف جبرتز الأستاذ بجامعة فورتمبرج ، على دفعتين ، مسحه الموسوعى لفاكهة النباتات وبزارها ، وقد أصبح هذا المسح أساساً لعلم النبات فى القرن التاسع عشر .

وفى ١٧٥٩ أعلن كسبار فريدرش فولف فى كتابه « نظرية الأجيال » نظرية فى تطور النبات تعزى عادة إلى جوته .

« عندما أنظر إلى النبات بجملته ، الذى نعجب لأجزائه لأنها تبدو لأول وهلة شديدة التنوع ، لا أرى فيه وأميز نهائياً غير الأوراق والساق ، لأن الجذر يمكن اعتباره ساقاً ... وكل أجزاء النبات ، باستثناء الساق ، أوراق معدلة » (٩١) .

وخلال ذلك ارتاد خفايا تغذية النبات أحد أساطين العلم فى القرن الثامن عشر ، وهو ستيفن هيلز . وكان واحداً من أولئك القساوسة الإنجليكان الكثيرين الذين لم يجدوا فى لاهوتهم الطيع ما يعوقهم عن الاشتغال بالعلم أو الدراسات القديمة . ومع أنه تقبل عقيدة القصد الإلهى ، فإنه لم يستخدمها فى تحقيقاته العلمية وفى ١٧٢٧ نشر النتائج التى خلص إليها فى كتاب من أمهات كتب النبات « استاتيكا النبات . . . . نحو تاريخ طبيعى للنبات » . وقد شرحت المقدمة هدفه :

« قبل عشرين عاماً أجريت عدة تجارب شريانية على الكلاب ، وبعد ستة أعوام كررت التجارب ذاتها على الخيل وغيرها من الحيوانات لكى أجد قوة الدم فى الشرايين (وهو ما نعركفه بضغط الدم الانقباضى (... وتمنيت وقتها لو استطعت إجراء تجارب مماثلة لاكتشاف قوة العصارة فى الخضروات ، ولكنى يئست من إمكان إجرائها إطلاقاً ، إلى أن وقعت عليها مصادفة قبل سبع سنوات بينما كنت أحاول بشتى الطرق أن أقف نزف ساق كرمة قديمة (٩٢) » .

وكان كشف هارفى للدورة الدموية فى الحيوان قد أدى بعلماء النبات إلى افتراض حركة دورية مماثلة للسوائل فى النبات . وقد نقض هيلز هذا الفرض

بتجارب بينت شجرة تمتص الماء فى أطراف أغصانها كما تمتصه بجذورها ؛ وقد تحرك الماء إلى الداخل من الأغصان إلى الجذع كما تحرك من الجذع إلى الأغصان ؛ واستطاع قياس الامتصاص . على أن العصارة تحركت إلى أعلى من الجذور إلى الأوراق بفضل ضغط العصارة المنتشر فى الجذور . وامتصت الأوراق غذاءها من الهواء .

عند هذه النقطة أثار بريستلى الذكى المشكلة بكشف من ألمع كشوف القرن — هو تمثيل ثانى أكسيد الكربون الذى تخرجه الحيوانات فى زفيرها ، تمثيلا غذائياً ، بواسطة كلورفيل النباتات فى ضوء الشمس . وقد وصف هذا الشطر من عمله فى المجلد الأول (١٧٧٤) من كتابه « تجارب ومشاهدات » قال :

« أخذت كمية من الهواء فسدت فساداً تاماً نتيجة لتنفس الفيران وموتها فيها ، وقسمتها قسمين ، وضعت أحدهما فى قنينة مغمورة فى الماء ، ووضعت فى الآخر فرعاً من النعناع ، وكان هذا القسم محتوى « فى أبريق زجاجى قائم فى الماء . كان هذا فى بواكير أغسطس ١٧٧١ ، وبعد مضى ثمانية أيام أو تسعة وجدت أن فأراً يحيا فى تمام الصحة فى قسم الهواء الذى نما فيه فرع النعناع ، ولكنه مات لحظة أن وضعته فى القسم الآخر من نفس كمية الهواء الأصلية ، والذى حفظته فى نفس الوضع المكشوف ولكن دون أن ينمو فيه أى نبات » .

وبعد عدة تجارب مشابهة خلص بريستلى إلى أن :

« الضرر الذى يلحق بالهواء باستمرار تنفس هذا العدد الكبير من الحيوانات ، وتعفن هذه الكتل الكبيرة من المادة النباتية والحيوانية ، تصلحه — جزئياً على الأقل — الكائنات النباتية . ورغم ضخامة كمية الهواء الذى يفسد يومياً من جراء الأسباب السالفة الذكر ، فإننا إذا أخذنا فى حسابنا المقدار الهائل من النباتات النامية على وجه الأرض .... لم يخامرنا شك فى أنه هذا موازن كاف لذلك ، وأن الدواء شاف من الداء » [٩٣] .

وفى ١٧٦٤ تعرف بان إنجنهوز إلى بريستلى ، وكان عالم أحياء هولندياً يسكن لندن . وقد أعجبته نظرية تنقية النباتات للهواء بتمثيلها ثانى أكسيد الكربون الذى تخرجه الحيوانات وترعرعها عليه . ولكن انجنهوز وجد أن النباتات لا تؤدى هذه الوظيفة فى الظلام . وقد بين فى كتابه « تجارب على النبات » (١٧٧٩) أن النباتات كالحيوانات تخرج ثانى أكسند الكربون ، وأن أوراقها وبراعمها الخضر تمتص هذا الغاز ، وتخرج الأكسجين فى رائعة النهار فقط . ولهذا السبب تخرج الأزهار من غرف المستشفيات ليلا .

« إن ضوء الشمس ، لا الدفء ، هو السبب الأهم ، إن لم يكن السبب الأوحد ، الذى يجعل النباتات تخرج هواءها المجرد من الفلوجستين (أى الأكسجين (..... فالنبات ... الذى لا يستطيع ... البحث عن طعامه يجب أن يجد داخل ... الحيز الذى يشغله كل شىء يلزمه .... والأشجار تنشر فى الهواء تلك المراوح الكثيرة وتوزعها ... بطريقة تقلل قدر الإمكان من تزاحمها على أن تمتص من الهواء المحيط بها كل ما تستطيع امتصاصه وأن تقدم ... هذه المادة ... إلى أشعة الشمس المباشرة ، لكى تنال الخير الذى يستطع هذا النجم العظيم أن يهبها إياه » [٩٤] .

ولم يكن هذا بالطبع إلا صورة جزئية لتغذية النبات . وقد أوضح راعى كنيسة فى جنيف يدعى جان سنيبيه (١٨٠٠) أن الأجزاء الخضر فقط من النباتات هى التى تستطيع تحليل ثانى أكسيد الكربون الذى فى الهواء إلى كربون وأكسجين . وفى ١٨٠٤ درس نيكولا تيورور دسوسور ، ابن الرائد الألبى ، الدور الذى تسهم به التربة ، والماء والأملاح ، فى تغذية النبات . وكان لهذه الدراسات جميعها نتائج حيوية فى التطوير الخطير لخصوبة التربة والإنتاج الزراعى فى القرنين التاسع عشر والعشرين . هنا أثرت بصيرة العلماء وصبرهم مائدة كل أسرة تقريباً فى العالم المسيحى :

٨ — علم الحيوان :

(أ) بوفون :

ولد أعظم عالم طبيعى من علماء القرن الثامن عشر بمونبار فى برجنديه (١٧٠٧) لمستشار فى برلمان ديجون . وكانت ديجون آنذاك مركزاً مستقلا

من مراكز الثقافة الفرنسية . والذى فتح منفذاً لثورة روسو على الحضارة وفولتير هو مسابقة اقترحتها أكاديمية ديجون . وقد درس جورج لوى لكليرك دبوفون فى الكلية اليسوعية بديجون ، وهناك تعلق بشاب انجليزى يدعى اللورد كنجزتن ، سافر معه عقب التخرج فى رحلة إلى إيطاليا وانجلتره . وفى ١٧٣٢ ورث تركة كبيرة أتته بدخل سنوى قدره ٣٠٠,٠٠٠ جنيه ، فأصبح الآن حراً فى هجر القانون الذى كان أبوه يعده للاشتغال به ، وإشباع غرامه بالعلم . وبنى على تل فى نهاية حديقته بمونبار ، وعلى مائتى ياردة من منزله ، حجرة للدراسة فى برج قديم يسمى برج القديس بولس ، هنا كان يعتكف من الساعة السادسة صباح كل يوم ، وهنا ألف معظم كتبه . وقد انفعل بقصة أرخميدس الذى أحرق أسطول الأعداء فى ميناء سيراكيوز بسلسلة من المرايا الحارقة ، فأجرى ثمانى تجارب ، جمعت فى النهاية ١٥٤ مرآة ، أشعل بها النار فى ألواح من الخشب على بعد ١٥٠ قدماً [٩٩] . وتردد حيناً بين التاريخ الطبيعى والفلك ؛ وفى ١٧٣٥ ترجم كتاب هيلز « استاتيكا النبات » وأسس نفسه فى علم النبات ؛ ولكن فى ١٧٤٠ ترجم كتاب نيوتن فى « التدفقات » وأحس بإغراء الرياضة وانضم بذلك إقليدس إلى أرخميدس فى مجمع أربابه .

وفى ١٧٣٩ عين مديراً (ناظراً) للجاردان دوروا ، فانتقل إلى باريس . عندها فقط جعل علم الأحياء شغله الشاغل . فتحت إشرافه أغنت مئات النباتات الجديدة المجلوبة من كل أصقاع الدنيا هذه الحديقة النباتية الملكية . وسمح بوفون لجميع الدارسين المهتمين بالنبات بدخول الحديقة فجعل منها مدرسة للنبات . وبعد حين عاد إلى مونبار وبرج القديس لويس بعد أن ترك الحديقة فى أيد أمينة ، وشرع فى تنظيم مشاهداته ليؤلف منها أشهر كتب القرن العلمية .

ونشرت المجلدات الثلاثة الأولى من كتابه هذا « التاريخ الطبيعى ، العام والخاص » فى ١٧٤٩ . وكانت باريس فى مزاج يهيئها لدراسة العلم ،

وإذ وجدت الآن الجيولوجيا والبيولوجيا مقدمتين لها فى نثر صاف رصين ، موضحتين بلوحات مغرية ، فقد أقبلت على هذه المجلدات إقبالا يقرب من إقبالها على كتاب مونتسكيو « روح القوانين » الذى صدر قبل ذلك بعام فقط . ومضى بوفون — بمساعدة الأخوين أنطوان وبرنار دجوسيو له فى النبات ، ولوى دوبنتون وجينو دمونبليار وغيرهما له فى الحيوان ، يضيف المجلد تلو المجلد إلى رائعته الكبرى ، فصدر اثنا عشر مجلداً جديداً قبيل ١٧٦٧ ، وتسعة مجلدات أخرى عن الطيور فى ١٧٧٠ — ٨٣ ؛ وخمسة عن المعادن فى ١٧٨٣ — ٨٨ ، وسبعة عن موضوعات أخرى فى ١٧٧٤ — ٨٩ . وبعد موته (١٧٨٨) أشرف إتيين دلاسيبيد على نشر مخطوطاته التى لم تنشر وأصدرها فى ثمانية مجلدات (١٧٨٨ — ١٨٠٤) . وبلغت جملة المجلدات الصادرة من كتاب « التاريخ الطبيعى » فى النهاية أربعة وأربعين مجلداً استهلك إعدادها أكثر من حياة ، واستغرق نشرها أكثر من نصف قرن . ودأب بوفون على أن ، يستيقظ مبكراً ويمضى إلى برجه ، ويقترب من هدفه خطوة فخطوة . ويبدو أنه — بعد أن اجتاز بسلام بعض الفلتات الجنسية فى شبابه أقصى النساء عن حياته حتى عام ١٧٥٢ حين تزوج مارى دسان — بيلون وهو فى الخامسة والأربعين . ورغم أنه لم يدع الوفاء لرباط الزوجية (٩٦) ؛ فقد تعلم أن يحب زوجته ، كما يفعل الكثير من الفرنسيين بعد حياة الزنا ، وقد أظلم موتها فى ١٧٦٩ سنى عمره الباقية .

وقد أخذ « التاريخ الطبيعى » على عاتقه وصف السماوات ، والأرض ، وكل المعروف من عالم النبات والحيوان ، بما فيه الإنسان . وحاول بوفون أن يرد كل هذه المتاهة من الحقائق إلى نظام وقانون عن طريق أفكار الاستمرارية والضرورة الشاملتين . وقد مرت بنا نظريته التى تذهب إلى أن الكواكب شظايا تحطمت عن الشمس إثر اصطدامها بمذنب ، ونظريته فى « حقب الطبيعة » التى رآها مراحل فى تطور الكرة الأرضية . أما فى عالم النبات فقد رفض تصنيف لينيوس للنباتات حسب أعضائها الجنسية لأنه شديد التعسف والنقص والصلابة . وقد قبل طريقة لينيوس فى المصطلحات على مضض ، واشترط أن توضع الأسماء على جنب فى أسفل البطاقات الملحقة

بالنباتات فى حديقة الجاردان [٩٧] . وكان تصنيفه للحيوانات غير معقول ، ولكنه اعترف بأنه مؤقت ؛ فقد رتبها حسب نفعها للإنسان ، ومن ثم بدأ بالحصان . وفى تاريخ لاحق ، وبعد إلحاح من دوبنتون ، وضع تصنيفاً جديداً لها حسب خصائصها المميزة . وضحك نقاده المتخصصون على تصنيفاته وتشككوا فى تعميماته ، ولكن قراءه طربوا لأوصافه الحية ولاتساع نظراته العظيم .

وقد ساعد على إرساء دعائم الأنثروبولوجيا (علم الأجناس البشرية) بدراسة اختلافات النوع الإنسانى تحت تأثير المناخ ، والتربة ، والأنظمة ، والمعتقدات ؛ ورأى أن هذه القوى قد نوعت لون الأجناس وملامحها ، وولدت خلافاً فى العادات ، والأذواق ، والأفكار . ومن أجرأ فروضه قوله بأنه ليس فى الطبيعة أنواع ثابتة لا تقبل التغير ، وأن النوع منها يذوب فى النوع التالى ، وأن فى استطاعة العلم إذا نضج أن يصعد خطوة فخطوة من المعادن المفروض أنها ميتة ، إلى الإنسان نفسه . ولم ير إلا فرقاً فى الدرجة بين غير العضوى والعضوى .

وقد لاحظ أن صوراً جديدة من الحيوان تكونت بالانتخاب الطبيعى ، وزعم أن فى الإمكان إحداث نتائج مماثلة فى الطبيعة بالهجرة والعزل الجغرافيين. وسبق مالثوس بملاحظته أن خصوبة أنواع النبات والحيوان التى لا رابط لها تلقى باستمرار عبئاً باهظاً على خصوبة التربة ، مما قد يؤدى بالكثير من الأفراد والأنواع فى الصراع على البقاء :

« لقد اختفت ، أو ستختفى ، أنواع أقل كما لا ، وأضعف ، وأثقل ؛ وأقل نشاطاً ، وأردأ تسليحاً . [٩٨] . . . وهذبت أنواع كثيرة ، أو انحطت ، نتيجة لتغيرات كبيرة فى اليابس أو الماء ، ولرضى أو سخطها عليها ، وللطعام ، ولتأثيرات المناخ الطويلة الأمد ، المعاكسة أو المواتية ... فلم تعد اليوم كما كانت بالأمس » [٩٩] .

ومع أنه سلم بوجود نفس للإنسان ، فقد تبين فى جسم الإنسان أعضاء الحس والأعصاب ، والعضلات ، والعظام ، ذاتها التى فى الحيوانات العليا .

و من ثم فقد رد « الحب الرومانسى » إلى ذات الأساس الفسيولوجى الذى فى جاذبية الحيوان الجنسية . لا بل أنه احتفظ بشعر الحب لأوصافه البليغة لتزاوج الطيور ورعايتها لصغارها . وتساءل « لم يسعد الحب جميع الكائنات الأخرى ويشقى الإنسان هذا الشقاء الكثير ؟ لأن الجزء البدنى من هذه العاطفة هو وحده الحسن ، أما العناصر الأخلاقية فيها فلا قيمة لها » (١٠٠) . (وقد وبخته مدام دبومبادور على هذه الفقرة ولكن فى لطف كثير) (١٠١) وخلص بوفون إلى أن الإنسان حيوان فى كل نقطة « مادية » (١٠٢) .

« ومتى سلمنا بأن هناك عائلات من النبات والحيوان ، أى أن الحمار قد ينتمى لعائلة الحصان ، وأن الواحد منها لا يختلف عن الآخر إلا فى تسلسله المنحط من نفس الجد ... فقد نضطر إلى التسليم بأن القرد ينتمى لعائلة الإنسان ، وأنه ليس إلا إنساناً منحطاً ، وأنه هو والإنسان كان لهما جد واحد . وإذا تبين أنه كان بين الحيوانات والنباتات ... ولو نوع واحد أنتج خلال التسلسل المباشر من نوع آخر ... إذن فليس هناك حدود يمكن أن تقيد قوة الطبيعة ، ولن نخطىء إن افترضنا أنه لو ترك لها الوقت الكافى لاستطاعت أن تطور جميع الأشكال العضوية الأخرى من نوع أصلى واحد » .

ثم أضاف بوفون هذه العبارة بعد أن تذكر فجأة سفر التكوين وجامعة السوربون « ولكن لا . فالثابت من الوحى الإلهى أن جميع الحيوانات قد وهبت بالتساوى نعمة خلقها خلقاً مباشراً ، وأن أول زوج من كل نوع خرج مكتمل الصورة من يدى الخالق » (١٠٣) .

ولكن مدير السوربون ، أو كلية اللاهوت فى جامعة باريس ، نبه بوفون رغم ذلك (١٥ يونيو ١٧٥١) إلى أن أجزاء من « تاريخه الطبيعى » تناقض تعاليم الدين ، ويجب أن تسحب — لا سيما آراؤه عن عمر الأرض الطويل ، وانبعاث الكواكب من الشمس ، وتأكيده بأن الحقيقة لا تستقى إلا من العلم . واعتذر المؤلف مبتسما :

« أقرر أنه لم يكن لدى أى نية فى مناقضة نص الكتاب المقدس ، وإننى أومن أوطد الإيمان بكل ما حواه الكتاب خاصاً بالخليقة ، سواء من حيث ترتيب الزمن أو الحقائق المتضمنة . وإنى أعدل عن كل ما ورد فى

كتابى عن تكوين الأرض ، وبصفة عامة عن كل ما قد يناقض رواية موسى » [١٠٤] .

ولعل بوفون ، الرجل الأرستقراطى ، أحس أن من سوء الأدب أن يختلف جهراً مع إيمان الشعب ، وأن « سوربونا » لم تهدأ تأثرتها قد تفسد عليه خطته الكبرى ؛ وعلى أية حال ، فإن كتابه إذا اكتمل سيكون تعقيباً منيراً على اعتذاره . وقد تبينت الطبقات المتعلمة الابتسامة فى سحب آراءه ، ولاحظت أن مجلدات الكتاب التالية واصلت هرطقاته . ولكن بوفون أبى أن ينضم إلى فولتير وديدور فى هجومهما على المسيحية . وقد رفض دعوى لامترى وغيره من الماديين باختزال الحياة والفكر إلى مادة فى حركة ميكانيكية . أن النظام ، والحياة ، والنفس ، هى وجودنا الحقيقى الصحيح ؛ وما المادة إلا غلاف غريب لا نعرف صلته بالنفس ، ووجوده عقبة [١٠٥] .

ومع ذلك رحب به « الفلاسفة » حليفاً قوياً . ولاحظوا أن حماسته ونداءاته موجهة إلى طبيعة لا شخصية ، خلاقة ، خصبة ، لا إلى إله شخصى . فالله عند بوفون كما هو عند فولتير بذر بذور الحياة ثم ترك للأسباب الطبيعية القيام بالباقى كله . وقد رفض بوفون فكرة القصد فى الطبيعة ، ومال إلى وحدة وجود اسبينوزية ورأى الحقيقة الواقعة كما رآها تورجنيف ، مختبراً كونياً شاسعاً تتناول فيه الطبيعة بالتجربة ، على مدى دهور طويلة ، الشكل أو العضو أو النوع ، الواحد تلو الآخر ، وفى هذه الرؤية انتهى إلى نتيجة تبدو متناقضة مع نقده للينيوس : فالفرد هو الذى بدا الآن غير حقيقى ، والنوع هو الحقيقة الباقية نسبياً . ولكن التناقض يمكن حله : فالنوع والجنس والعائلة والرتبة ، لم تزل أفكاراً لا غير ، يركبها الذهن ليعطى نظاماً ميسراً لخبرتنا بالوفرة المحيرة فى الكائنات العضوية ، والأفراد هم الحقائق الحية الوحيدة ، ولكن أجلهم قصير قصراً يجعل الفيلسوف لا يرى فيهم غير بصمات عابرة بتركها شكل أكبر وأطول بقاء . وبهذا المعنى كان أفلاطون محقاً : فالإنسان « حقيقى » ، أما « الناس » فلحظات عابرة فى خيال ظل الحياة .

واستمتع قراء بوفون بهذه الرؤى التى تدير الرءوس ، ولكن نقاده

أخذوا عليه إنه ضيع نفسه بتهور شديد فى التعميمات ، مضحياً أحياناً بدقة التفاصيل . وضحك فولتير على تقبله فكرة التوالد الذاتى ، واحتقر لينيوس مؤلفه فى النباتات ، ولم يحترم ريامور دراسته للنحل ، واستخف علماء الحيوان بتصنيفه الحيوانات نفعها للإنسان . ولكن الناس جميعاً صفقوا لأسلوبه .

ذلك أن بوفون ينتمى للأدب كما ينتمى للعلم ، ولا يستطيع إنصافه إلا التاريخ المتكامل . فندر من العلماء من أفصح عن نفسه بمثل هذه البلاغة الرائعة . وقد قال فيه روسو ، وهو أحد أساتذة الأساليب ، « إننى لا أعرف له ضريباً فى عالم الكتابة . فقلمه أول قلم فى قرنه » (١٠٦) . وفى هذا اتفق جريم الحكيم مع روسو رغم عدائه له . « يحق للمرء أن يدهش لقراءة أحاديث قد يبلغ الحديث منها مائة صفحة ، كتبت دائماً من أول سطر إلى آخره ، بأسلوب رفيع واحد وحرارة مضطردة واحدة ، وزينت بأروع تلوين وأكثره طبيعية (١٠٧) . ولقد كتب بوفون كما يكتب رجل تحرر من أغلال العوز ووهب متسعاً من الوقت ، فلم يكن فى إنتاجه ما كتب على عجل كما نجد ذلك كثيراً فى فولتير ، وكان يعنى بألفاظه عنايته بعيناته . وإذ تبين فى الأشياء قانون استمرارية لاينتسيا » ، فقد أرسى نظرية فى الأسلوب ، فصقل كل الانتقالات ، ورتب كل الأفكار فى تسلسل جعل لغته تتدفق كأنها نهر عريض عميق . وبينما كان السر فى أسلوب فولتير هو التعبير السريع الواضح عن الفكر الثاقب ، كانت طريقة بوفون هى الترتيب المتأنى لأفكار عريضة تنبض بالوجدان فلقد أحس بجلال الطبيعة وجعل من علمه أنشودة تسبيح .

وكان على وعى تام بنزعته الأدبية ، يبهجه أن يقرأ لزواره فقرات عذبة من كتبه ؛ وحين انتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية لم يتخذ موضوعاً له يوم استقباله (٢٥ أغسطس ١٧٥٣) عجيبة من أعاجيب العلم ، بل تحليلا للأسلوب . وحوى هذا الخطاب المشهور ، كما قال كوفييه ، « المبدأ والمثال جميعاً » (١٠٨) ، لأنه هو نفسه كان درة من درر الأسلوب . وهو مخفى عن عين جميع الناس — إلا الفرنسيين — تحت أكداس مؤلفاته ، ولم نكد نعرف منه غير حكمه الشهير ، الجامع ، الخفى المغزى ، « الأسلوب هو الإنسان .

فلنبسطه هنا إذن ، ونتأمله على مهل . والترجمة تذهب ببعض روائه ، ولكنه مع ذلك ، ورغم ما تضطرنا إليه العجلة القبيحة من بتر لبعضه ، فإنه خليق بأن تزدان به الصحائف أياً كانت » . قال بعد أن قدم لخطابه بتحية لجمهور ضم الكثيرين من أصحاب الأساليب :

« إن الناس لم يتقنوا الكتابة والحديث إلا فى العصور المستنيرة . فالبلاغة الصادقة ... تختلف تماماً عن سهولة الحديث الطبيعية ... التى وهبت لكل صاحب عاطفة قوية ... وخيال سريع ... أما القلة من الناس الذين وهبوا الفكر المتزن ، والذوق الرفيع ، والحس المرهف — والذين لا يعبأون كثيراً ، شأنكم أيها السادة ، بنبر الكلمات ، وإيماءاتها ، ورنينها الأجوف— هؤلاء يتطلبون المضمون ، والفكر ، والتمييز ، يتطلبون فن تقديم كل أولئك وتحديدها ، وترتيبها ، فلا يكفى قرع الآذان واسترعاء العيون ، فلا بد للمرء أن يؤثر فى النفس ويلمس القلب وهو يتحدث إلى الذهن ... وكلما ازدادت المادة والقوة اللتان نضفيهما على فكرنا بالتأمل ، سهل بلوغهما فى التعبير .

كل هذا ليس الأسلوب بعد ، بل أساسه ، أنه يدعم الأسلوب ويوجهه ، وينظم حركته ، ويخضعه للقوانين . فبدونه يضل خير الكتاب ، ويتوه قلمه دون مرشد ، ويقذف كيفما اتفق بالخطوط المبهمة والأشكال المتنافرة . ومهما كان بريق الألوان التى يستعملها ، وأياً كانت المحسنات التى ينثرها فى التفاصيل ، فسيختنق بكثرة أفكاره ، ولن يبعث فينا وجداناً ، ولن يكون لكتابته هيكل أو بنيان ... ومن ثم يسىء الكتابة من يكتبون كما يتحدثون ، مهما أجادوا الحديث ، والذين يستسلمون لأول الهام حار من خيالهم يتخذون نبرة لا يستطيعون الإبقاء عليها ...

ما السر فى كمال أعمال الطبيعة ؟ هو أن أى عمل من هذه الأعمال كل متكامل : لأن الطبيعة تعمل وفق خطة سرمدية لا تنساها أبداً ، فهى تعد فى صمت بذور إنتاجها ، وترسم بخطة فرشاة واحدة الشكل البدائى لكل شىء حى ، ثم تطوره وتصقله بحركة متصلة وفى زمن مقرر ... وذهن الإنسان لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، أو ينتج شيئاً ، إلا بعد أن تثريه التجربة

والتأمل ، وتجاربه هي بذار منتجاته . ولكن لو أن الإنسان حاكى الطبيعة في طريقته وفي جهوده ، ولو أنه ارتقى بالتأمل إلى أسمى الحقائق ، ولو أنه وحد بينها من جديد وربط بينها في سلسلة ، وألف منها كلا واحداً ، ونسقاً محسوباً ، لو أنه فعل هذا كله لأقام على أسس راسخة صروحاً خالدة على الزمن؛

وبسبب افتقار الكاتب إلى مخطط ، وعدم تفكيره في هدفه تفكيراً كافياً ، يجد نفسه حائراً — حتى إذا كان من رجال الفكر — لا يعرف من أين يبدأ الكتابة ؛ فهو يرى في وقت واحد عدداً كبيراً من الأفكار ، ولأنه لم يوازن بينها ، ولم يرتبها ترتيباً منظماً ، فما من شيء يدعوه لتفضيل بعضها على بعض ، ومن ثم يظل في حيرته . أما إذا وضع له مخططاً ، وإذا جمع ورتب جميع الأفكار الأساسية في موضوعه ، فسيرى للتو ، وفي يسر ، في أي نقطة يجدر به أن يتناول قلمه ، وسيحس بأفكاره تنضج في ذهنه . وسيبادر إلى إخراجها للنور ، وسيستشعر لذة في الكتابة ، وستتلو أفكاره بعضها بعضاً في غير عناء ، وسيكون أسلوبه طبيعياً وسهلا ، وسينبعث من هذه اللذة ضرب من الدفء ينبسط على عمله ، ويضفي الحرارة على عبارته ؛ وسيزداد النبض في كتابته ويعلو النبر ، وتتخذ الأشياء لها لوناً ، ويزداد الشعور وينتشر بعد التحامه بالنور ، وينتقل من ذلك الذي نقوله إلى ذلك الذي نوشك أن نقوله ؛ وسيصبح الأسلوب ممتعاً مشرقاً ...

ولن تنحدر إلى الأجيال القادمة غير الأعمال التي أجيدت كتابتها . ولن يكون ما حوت من غزارة في المعرفة ، أو غرابة في الوقائع ، أو حتى طرافة في الكشوف ، ضماناً أكيداً للخلود . فلو أن الأعمال التي تحوى هذا كله اهتمت بموضوعات تافهة ، أو كتبت دون تميز أو سمو ... لكان مآلها إلى الزوال ؛ ذلك أن المعرفة ، والوقائع والكشوف ، يسهل نقلها وسلبها ، بل إنها تكون أوفر حظاً لو وضعت في أيد أقدر وأكفأ . فتلك الأشياء خارجة عن الإنسان ، أما الأسلوب فهو الإنسان ذاته Le style est l'homme même ، إن الأسلوب لا يمكن سرقته ، ولا حمله ، ولا تغييره وتبديله ، وإذا كان أسلوباً رفيعاً ، نبيلا ، سامياً ، كان صاحبه موضع الإعجاب في جميع العصور على السواء ؛ ذلك أن الحقيقة وحدها هي الباقية الخالدة » (١٠٩) .

يقول فيلمان « أن هذا الخطاب الذى أثار الإعجاب الشديد فى ذلك الحين يبدو أسمى من كل ما خطر على الأفكار قبله فى هذا الموضوع ، ونحن نستشهد به حتى فى يومنا هذا بوصفه قاعدة عامة جامعة . » وربما وجبت بعض الاستثناءات من هذا الحكم . فوصف بوفون هذا يصدق على النثر خيراً مما يصدق على الشعر ، وهو ينصف الأسلوب « الكلاسيكى » أكثر مما ينصف الأسلوب « الرومانسى » ، وهو يتبع تقليد بوالو ، ويرفع بحق من شأن العقل ؛ ولكنه لا يترك متسعاً يذكر لفحول النثر الفرنسى من أمثال روسو ، وشاتوبريان ، وهوجو ، ولا لفوضى رابليه ومونتينى اللذيذة ، ولا لبساطة العهد الجديد المؤثرة البريئة من التكلف . ومن العسير عليه أن يدلنا على السر فى أن « اعترافات » روسو ، الشديدة الفقر فى الفكر ، الوافرة الغنى فى الوجدان ، ما زالت من أروع كتب القرن الثامن عشر . فالحقيقة قد تكون واقع وجدان كما تكون بنيان فكر أو كمال صورة .

ولقد كان أسلوب بوفون هو الرجل ، رداء وقوراً لنفس أرستقراطية . فهو لم ينس أنه سيد اقطاعى كما كان عالماً وكاتباً إلا فى دراساته . ولم تغير خطوه أسباب التشريف المتكاثرة التى توجت شيخوخته . فقد خلع عليه لويس الخامس عشر لقب الكونت دبوفون فى ١٧٧١ ودعاه إلى فونتنبلو . ومنحته أكاديميات أوربا وأمريكا العلمية عضويتها الشرفية . وقد تفرس فى هدوء واطمئنان فى التمثال الذى أقامه له ابنه فى الجاردان دوروا وغدا برجه فى مونبار أبان حياته قبلة يحج إليها الزائرون كما يحجون إلى بيت فولتير فى فرنيه ، وفد عليه روسو ، وركع على عتبته ، وقبل الأرض (١١١) . وزاره هنرى أمير بروسيا ، ومع أن كاترين الكبرى لم تسطع زيارته ، إلا أنها أرسلت له كلمة تقول إنها تضعه فى أعلى المراتب بعد نيوتن .

ولقد كان مهيب المظهر مليح الصورة حتى فى شيخوخته — « له جسم رياضى » كما قال فولتير « وروح حكيم » (١١٢) وكان فى رأى هيوم لا يبدو رجل أدب بل قائداً من قواد فرنسا الحربيين (١١٣) . أما أهل مونبار فكانوا يعبدونه . وكان بوفون على وعى تام بهذا كله ، يفخر بلياقته البدنية وبمظهره ، ويرجل له شعره ويبدر مرتين فى اليوم (١١٤) . وقد نعم

بصحة سابغة حتى بلغ الثانية والسبعين . ثم بدأ يشكو الحصى ، ولكنه واصل العمل ، وأبى أن تجرى له جراحة . وأفسح له فى الأجل تسع سنين أخر ، ومات فى ١٧٨٨ . ومشى فى جنازته عشرون ألفاً . ولكن لم تكد تمضى سنة على موته حتى نبشت رفاته وذريت فى الريح ، وسوى تمثاله بالتراب ، بأيدى الثوار الذين لم يستطيعوا أن يغفروا له أنه كان نبيلا ، أما ابنه فقد أعدم بالجيلوتين [١١٥] .

(ب) نحو التطور :

بدأ علم الأحياء الذى تزعمه هذا الأستاذ الفذ فى نظرته ، وصبره ، ونثره ، فى إغراء المزيد من الطلاب وتحويلهم عن الرياضة والفيزياء اللتين استأثرتا بمعظم العلماء فى القرن السابع عشر . وقد أحس ديدرو ببعض هذا التغير ، وهو الذى تأثر بجميع تيارات عصره ، فكتب فى ١٧٥٤ يقول « فى هذه اللحظة نصل إلى ثورة كبرى فى العلوم . وأنى إذ ألحظ الميل الذى تستشعره أفضل العقول لدراسة الفلسفة الأخلاقية ، والأدب ، والتاريخ الطبيعى ، والفيزياء التجريبية ، أجرؤ على التنبؤ بأنه قبل أن تنقضى مائة سنة أخرى لن يكون لدينا ثلاثة رياضيين كبار فى أوربا » [١١٦] . وقد شهد عام ١٧٥٩ ذروة البيولوجيا الحديثة .

وقد فت فى عضد هذا العلم الجديد (الأحياء) معضلته الأولى — وهى أصل الحياة . وبذلت المحاولات الكثيرة لإثبات إمكان توليد الحياة ذاتياً من المادة غير الحية . ودبت الحياة من جديد فى نظرية التولد الطبيعى أو الذاتى abiogenesis القديمة نظراً إلى كثرة ما وجد بالمجهر من كائنات دقيقة فى قطرة ماء ، وذلك برغم ما وضح من تفنيد ريدى لهذه النظرية فى ١٦٦٨ . ففى ١٧٤٨ أحيا النظرية جون نيدام ، وكان قسيساً كاثوليكياً إنجليزياً يسكن القارة ، بإعادته تجارب ريدى وحصوله على نتائج مختلفة عن نتائجه . فقد غلى بعض مرق الضأن فى قوارير سدها فوراً بفلين وختم عليها . فلما فتح القوارير بعد أيام وجدها تعج بالكائنات الحية . ولما كان الغلى — فى رأى نيدام — كفيلا بقتل أى جراثيم حية فى المرق ، ولما كانت القوارير قد أحكم ختمها بالصمغ ، فقد استنتج أن كائنات جديدة تولدت

تلقائياً فى السائل . وأعجبت الحجة بوفون ، ولكن فى ١٧٦٥ كرر أستاذ فى جامعة مودينا يدعى سباللانزانى تجارب نيدام وخرج منها بنتيجة عكسية . فقد وجد أن غلى شراب دقيقتين لم يقضى على كل الجراثيم ، أما غليه خمساً وخمسين دقيقة قد قضى عليها ، وفى هذه الحالة لم تظهر أى كائنات حية . ومضى الجدل حتى بدا أن شفان وباستير قد أنهياه فى القرن التاسع عشر .

كذلك أحاطت بعمليات التناسل أسرار لا تقل عن هذا السر إثارة للحيرة . فقد حار جيمس لوجان ، وشارل بونيه ، وكاسبار فولف ، فى دورى عنصرى الذكر والأنثى فى التناسل ، وتساءلوا كيف يمكن أن يحتوى العنصران المتحدان فى ذاتيهما — كما يبدو أنهما يفعلان — التحديد المحتوم لجميع الأجزاء والهياكل فى الكائن الناضج . واقترح بونيه نظرية مغرقة فى الخيال سماها emboîtement (التكبيس) ، فالأنثى تحوى جراثيم أطفالها جميعاً ، وهذه الجراثيم تحوى جراثيم الحفدة ، وهكذا دواليك حتى يتمرد الخيال . ولا عجب فالعلم هو أيضاً يستطيع الانحراف إلى الخرافة . أما فولف ، الذى يزين اسمه القنوات الفولفية ، فقد دافع عن نظرية هارفى فى التوالد الخارجى epigenesis : فكل جنين يخلق من جديد بواسطة العناصر الأبوية . وسبق فولف نظرية تكوين الأعضاء التى قال بها فون باير فى واضع الجراثيم ، بكتابة « فى تكوين الأحشاء » . (١٧٦٨) ، الذى وصفه فون باير بأنه « أعظم ما نملك من روائع الملاحظة العملية » (١١٧) .

وهل تجدد النسيج نوع من التناسل ؟ لقد أدهش العالم الجنيفى إبراهام ترمبلى المجتمع العلمى فى ١٧٤٤ بتجارب كشفت عن أصرار «كثير الأرجل Polyp » الذى يعيش فى الماء العذب على التجدد ، فقد قطع واحداً منها إلى شطائر طولية أربعة ، نما كل منها إلى كائن سوى كامل . وتردد هل يسمى كثير الأرجل هذا نباتاً أم حيواناً ؛ فقد بدا أن له جذوراً كالنبات ، ولكنه ينهش الطعام ويهضمه كما يفعل الحيوان ؛ وهلل المتكهنون له باعتباره همزة الوصل بين عالمى النبات والحيوان فى « سلسلة الوجود العظمى » (١١٨) أما ترمبلى فقد انتهى إلى أنه حيوان ، وهو رأى البيولوجيين فيه اليوم . وقد أطلق عليه ريامور لفظ « Polyp » أو كثير الأرجل بسبب قرون

استشعاره المترعصة المتحسسة . ونحن نعرفه أيضاً باسم الهيدرا hydra نسبة إلى الوحش الخرافى (الافعوان) ذى الرءوس التسعة (الذى كلما قطع هرقل رأساً منها نبت اثنان فى مكانه . وقد استعمل « الهيدرا » فى دنيا الأدب تشبيهاً له مائة ألف حياة .

ورينيه أنطوان دريامور هذا كان علما لا يبزه فى بيولوجيا العصر الذى نحن بصدده غير بوفون ، وكان يفوق بوفون كثيراً فى دقة الملاحظة . هيىء لمهنة الطب ، ولكنه هجرها حالما تحقق له الاستقلال المالى ، وكرس نفسه للبحث العلمى . خبر إثنى عشر ميدان . فى ١٧١٠ كلف بأن يمسح ويصف صناعات فرنسا وفنونها الصناعية ، فقام بالمهمة بما عهد فيه من اتقان وقدم توصيات أفضت إلى إنشاء صناعات جديدة وإحياء أخرى أصابها الاضمحلال وابتكر طريقة لتصفيح الحديد ما زالت مستعملة . وبحث فى الفروق الكيميائية بين الحديد والصلب . وأتته هذه الاسهامات وغيرها فى علم المعادن بمعاش قدره اثنا عشر ألف جنيه من الحكومة ، فأعطى المال لأكاديمية العلوم . وقد مر بنا بحثه فى الترمومتر .

وفى غضون هذا راح يثرى البيولوجيا . فى ١٧١٢ أثبت أن فى استطاعة جراد البحر (اللوبستر) أن يجدد طرفاً مبتوراً من أطرافه . وفى ١٧١٥ وصف الصدمة الكهربائية التى يحدثها السمك الرعاد — وصفاً صحيحاً . وفيما بين عامى ١٧٣٤ و ١٧٤٢ نشر رائعته « مذكرات ينتفع بها فى تاريخ الحشرات » — — وهى ستة مجلدات موضحة برسوم دقيقة ، ومكتوبة بأسلوب ساحر ينبض بالحياة ، جعل الحشرات قريبة فى طرافتها من العشاق فى روايات كريبيون (الابن) الغرامية . ولقد استهواه كما استهوى قابر فى أيامنا هذه :

« كل ما يمت إلى أخلاق الكثير من الحيوانات الصغيرة — إن جاز هذا التعبير — وعاداتها ومعيشتها . فلقد لاحظت طرق عيشتها المختلفة ، وكيف تحصل على قوتها ، والحيل التى يصطنعها بعضها للقبض على فريسته ، وأسباب الحيطة التى يتخذها غيرها اتقاء للاعداء ... — وانتقاء الأماكن التى تضع فيه بيضها حتى تجد صغارها حين تفقس طعاماً صالحاً لها لحظة خروجها للحياة » (١١٩) .

وقد وافق ريامور فولتير على أن فى الإمكان تفسير سلوك الكائنات الحية وبنيانها دون افتراض قوة قصد فى الطبيعة ، وكانت مجلداته ذخيرة استعان بها أولئك الذين قاوموا تيار الإلحاد الذى تدفق بعد حين فى فرنسا . واحتقره ديدرو لانفاقه الوقت الكثير على دراسة البق [١٢٠] ، ولكن أمثال هذا العمل المدقق هى التى أرست الأسس الواقعية للبيولوجيا الحديثة .

ترى ماذا قال ديدرو بالضرورة حين سمع أن شارل بونيه ، صديق ريامور ، قد برهن على الولادة العذرية parthenogenesis فى مملكة الحيوان ؟ فلقد وجد بعزل منّ حديث الولادة aphids(وهو قمل الشجر الذى يعشق أشجار البرتقال) إن أنثى هذا النوع تستطيع إنسال ذرية مخصبة دون أن تضطر إلى تلقى العنصر الذكر المطلوب فى الإخصاب عادة ؟ إذن فهدف الجنس فيما يبدو ليس مجرد التناسل ، بل إثراء الذرية بشتى الصفات التى يسهم بها أبوان مختلفا المواهب . وقد وصفت هذه التجارب التى أبلغت لأكاديمية العلوم فى ١٧٤٠ فى كتاب بونيه « رسالة فى علم الحشرات » (١٧٤٥) وأشار بونيه فى كتابة « أبحاث .... فى النباتات » (١٧٥٤) إلى أن لبعض النباتات قوى للحس ، بل للتمييز والانتقاء ، وإذن فقدرة على الحكم — وهذا سر الذكاء .

وبونيه هذا — الذى ولد بجنيف — أول من طبق اصطلاح « التطور » envolution على البيولوجيا فيما يبدو [١٢١] ، وعنى به سلسلة الكائنات من الذرات إلى الإنسان . وفكرة التطور ، بمعنى النمو الطبيعى لأنواع جديدة من أخرى قديمة ، ظهرت مراراً فى علم القرن الثامن عشر وفلسفته . ومن ذلك أن بنوا دماييه ألمع فى كتابة « تياميد » الذى صدر بعد موته (١٧٤٨) إلى أن جميع الحيوانات البرية تطورت من كائنات بحرية قريبة منها بطريق تغير النوع بتغير البيئة ، وهكذا تولدت الطيور من السمك الطائر ، والسباع من سباع البحر ، والإنسان من أناسى البحر . وبعد ثلاث سنوات لم يكتف كتاب موبرتوى « نظام الطبيعة » بتصنيف القردة مع البشر نوعين متقاربين ، بل سبق — فى خطوط عريضة — نظرية داروين فى تطور الأنواع [١٢٢]

الجديدة بطريق الانتقاء البيئى لأشكال عارضة صالحة للبقاء . قال العالم المنكود الحظ الذى كتب عليه أن يقع بعد قليل فوق قلم فولتير السليط :

« أن كل جزىء من الجزيئات البدائية التى تؤلف الجنين مشتق من البيان الأبوى المقابل له ، ويحتفظ بضرب من الذكرى لشكله الأسبق . ومن ثم نستطيع أن نعلل فى غير عناء تكون الأنواع الجديدة ... إذا افترضنا أن الجزيئات البدائية قد لا تحتفظ دائماً بالترتيب الذى تكون عليه فى الأبوين ، بل تولد بالصدفة فروقاً تسفر بتكاثرها وتراكمها عن الأنواع التى لا حصر لها ، والتى نشهدها اليوم » (١٢٣) .

وهكذا يستطيع نموذج أصلى واحد إذا ترك له الوقت الكافى ، أن يولد جميع الأنواع الحية (فى رأى موبرتوى) — وهى قضية قبلها بوفون من قبيل الاجتهاد ، ولقيت الاستحسان الحار من ديدرو .

وعاد جان باتيست روبينيه ، فى كتابه « عن الطبيعة » (١٧٦١) إلى فكرة أقدم عن التطور تقول بأنه « سلم من الكائنات » : فالطبيعة كلها سلسلة من المحاولات لإنتاج كائنات أكثر وأكثر رقياً ، وكل الكائنات — طبقاً لقانون لايبنتس فى الاستمرارية (الذى لم يعترف بأى انفصام بين أحط الكائنات وأرقاها) ، حتى الأحجار ، ما هى إلا تجارب تشق بها الطبيعة طريقها صعدا خلال المعادن ، والنباتات ، والحيوانات ، إلى الإنسان . وما الإنسان إلا مرحلة فى هذه المغامرة الكبرى ، سوف تحل محله يوماً ما كائنات أرقى منه » (١٢٤) .

أما القاضى الاسكتلندى جيمس بيرنت ، لورد مونبودو ، فقد كان داروينياً قبل داروين بزهاء قرن . فى كتابة « أصل اللغة وتقدمها » (١٧٧٣ — ٩٢) صور إنسان ما قبل التاريخ كائناً بغير لغة وبغير نظام اجتماعى ، لا يتميز إطلاقاً عن القردة من حيث مدركاته العقلية أو طرقه المعيشية . فالإنسان والأورانجوتان (كما قال ادورد تايزن فى ١٦٩٩) ينتميان لجنس واحد ، والأورانجوتان (يقصد به مونبودو الغوريلا أو الشمبانزى) إنسان فشل فى أن يتطور . ولم يتطور إنسان ما قبل التاريخ ليصبح الإنسان البدائى

إلا بفضل اللغة والنظام الاجتماعى . فتاريخ البشر ليس هبوطاً من حالة الكمال الأصلية ، كما جاء فى سفر التكوين ، بل صعود بطىء أليم [١٢٠] »

وقد لمس الشاعر جبته تاريخ العلم فى نقاط عديدة . ففى ١٧٨٦ اكتشف العظم البينفكى ، وفى ١٧٩٠ ألمع إلى أن الجمجمة مؤلفة من فقار معدلة . وتوصل — دون اعتماد على كاسبار فولف — إلى النظرية القائلة بأن جميع أجزاء النبات تعديلات فى الأوراق ، وذهب إلى أن جميع النباتات انحدرت بالتطور العام من مثال أصلى واحد سماه Urpfanze .

وآخر العلماء فى شجرة دارويني القرن الثامن عشر هو جد داروين العظيم . وأرزمس داروين هذا شخصية طريفة طرافة تشارلز حفيده . ولد فى ١٧٣١ ، وتلقى علومه فى كمبردج وأدنبره ، وشرع فى ممارسة الطب فى نوتنجهام ، ثم فى لتشفيلد ، ثم فى داربى ، حيث توفى عام ١٨٠٢ . وكان يركب بانتظام من لتشفيلد إلى برمنجهام (خمسة عشر ميلا) ليحضر حفلات عشاء « الجمعية القمرية » التى كان روحها المحرك ، والتى أصبح بريستلى أشهر أعضائها . ومن الرسالة التالية التى بعث بها داروين الجد إلى ماثيو بولتن معتذراً عن غيابه عن اجتماع للجمعية تشرق شخصة ألمعية محببة للنفس ، قال :

« يؤسفنى أن منعتنى الشياطين التى تصيب البشر بالأمراض ... من مشاهدة جميع رجالكم العظام فى سوهو (برمنجهام) اليوم . ليت شعرى أى ابداعات ، وأى ذكاء ، وأى بلاغة — ميتافيزيقية ، وميكانيكية ، وصاروخية — ستحلق فى جو اجتماعكم ، يتقاذفها كالمكوك لفيف فلاسفتكم ؟— بينما يقضى على أنا المسكين ، حبيس مركبة البريد ، بأن تخضنى هذه المركبة ، وترجنى ، وتهزنى ، وترضنى ، على طريق الملك ، لكى أخوض حرباً مع وجع فى معدة إنسان ، أو حمى فى جسده [١٢٦] » .

ووسط هذه الحياة الحافلة بالشواغل كتب كتاباً قيما سماه زونوميا (فسيولوجيا الحيوان) (١٧٩٤ — ٩٦) مزج فيه الطب بالفلسفة ، وعدة مجلدات من شعر العلم : « الحديقة النباتية » (١٧٨٨) ، و « غراميات

النباتات » (١٧٨٨) و « هيكل الطبيعة » (١٨٠٢) . وقد أعرب هذا الكتاب الأخير عن أفكاره التطورية . فبدأ بتأكيده أن التوالد الذاتى هو أكثر النظريات احتمالا فى أصل الحياة . قال شعراً :

« إذن بغير أبوين ، وبالتوالد التلقائى ، ظهرت أول ذرات الأرض النابضة بالحياة ... وولدت الحياة العضوية تحت الأمواج الطاغية وعذبت فى كهوف المحيط اللؤلؤية ؛ أولا تتحرك كائنات دقيقة لا ترى بالمجهر على الوحل ، أو تخترق اليم ؛ وبعد أن تتفتح منها أجيال متعاقبة ، تكتسب قدرات جديدة ، وتتخذ لها أطرافاً أكبر ، ومن ثم تظهر مجاميع لا حصر لها من النبات ، وممالك حية تتنفس من ذوات الزعانف والأرجل والأجنحة[١٢٧] » .

وهكذا تطورت الحياة من الكائنات البحرية إلى البرمائية فى الطين ، ثم إلى الأنواع التى لا تحصى فى البحر والبر والجو . ونقل الشاعر عن بوفون وهلفتيوس آراءهما فى خصائص تشريح الإنسان دليلا على أن الإنسان مشى فى الماضى على أربع ، وأنه لم يكمل بعد تكيفه لوضعه المنتصب . وقد ارتقى نوع من القردة باستعماله قوائمه الأمامية أيادى ، وتطويره الإبهام قوة موازنة مفيدة للأصابع . وفى كل مراحل التطور صراع بين الحيوانات على الطعام والأزواج ، وبين النباتات على التربة ، والرطوبة ، والضوء ، والهواء . وفى هذا الصراع (فى رأى إرزمس داروين) حدث الارتقاء بتطور الأعضاء نتيجة محاولات لتلبية الحاجات الجديدة (لا بالانتقاء الطبيعى لتغيرات مصادفة تساعد على البقاء كما سيقول تشارلز داروين) ؛ والنباتات تنمو بجهودها للحصول على الهواء والضياء . وقد سبق هذا الطبيب فى كتابة « زونوميا » لامارك بقوله : « من أن كل الحيوانات تمر بتغييرات تحدث جزئياً بجهودها الخاصة ، استجابة للذة والألم ، وكثير من هذه الأشكال أو الميول المكتسبة تتحد إلى ذراريها [١٢٨] » . فخطم الخنزير طور للرعى ، وخرطوم الفيل للهبوط إلى الطعام ، ولسان الماشية الخشن لشد أوراق العشب ، ومنقار الطائر لالتقاط الحب . وأضاف الطبيب إلى هذا كله نظرية التلوين الوقائى : « هناك أعضاء طورت لأغراض وقائية ، تغير شكل الجسم ولونه للاستخفاء أو القتال » [١٢٩] . ثم اختتم كلامه بلمحة جليلة اشتملت دهوراً طويلة .

« فإذا تأملنا الحقب الصغيرة من الأزمنة التي حدث فيها الكثير من التغييرات سالفة الذكر . أيكون من الجرأة المسرفة أن نتصور - في الزمن السحيق الذي انقضى منذ بدأت الأرض ، ربما قبل بدء تاريخ الإنسان بملايين السنين - أن جميع الحيوانات ذوات الدم الحار نشأت من لقاح خييط حي واحد . وهبته العلة العظمى الأولى ميزة الحيوانية ، والقدرة على اكتساب أعضاء جديدة ، تلازمها ميول جديدة . وتوجهها الانفعالات ، والأحاسيس والإرادات ، والارتباطات . فتملك بذلك قوة مواصلة التحسن بنشاطها الفطري الخاص . وتوريث تلك التحسينات لذراريها إلى آخر الدهر » [١٣٠] ؟

كتب تشارلز داروين يقول « عجيب كيف سبق جدي ... نظرات لامارك والأسس الخاطئة لآرائه . في كتابة زونوميا » [١٣١] . ولعل الجد لا يرضى بالتسليم بأنه كان سائراً على الطريق الخطأ . وهو على أية حال بسط نظرية لم تمت بعد . وبطريقته اللطيفة أسهم بضربة في الدفاع عن فكرة التطور .

- علم النفس :

ومضى البحث العلمي قدماً من المعادن إلى النباتات إلى الحيوانات إلى الإنسان . وراحت رابطة متزايدة من الدارسين تتفحص جسم الإنسان وقد تسلحت بالمجهر وحفزتها حاجات الأطباء ، فوجدت أعضاءه ووظائفه شبيهة شبهاً لا خلاف عليه بأعضاء الحيوانات الراقية ووظائفها . ولكن بدا أنه لا يزال هناك انفصال في سلسلة الكائنات . وأجمع الناس كلهم تقريباً على أن ذهن الإنسان يختلف عن ذهن الحيوان في النوع وفي الدرجة معاً .

وفي ١٧٤٩ اقتحم قسيس انجليزي ، تحول إلى احتراف الطب ، يدعى ديفد هارتلي ، هذه الفجوة بتأسيسه علم النفس الفسيولوجي . وكان يجمع النباتات طوال ستة عشر عاماً (١٧٣٠ - ٤٦) ثم نشر في ١٧٤٩ كتابه « ملاحظات حول الإنسان » : ولما كان يطمع في إيجاد مبدأ يحكم العلاقات بين الأفكار كما اقترح نيوتن مبدأ يحكم العلاقات بين الأجسام ، فقد طبق ترابط الأفكار على تفسير العاطفة ، والعقل ، والحركة ، والحس الخلقي ،

لا على تفسير الخيال والذاكرة فحسب كما فعل هوبز ولوك من قبل فصور الإحساس على أنه فى بدايته تموج فى جزيئات عصب يثيره جسم خارجى ، ثم على أنه انتقال هذا التموج على هذا العصب إلى المخ ، على نحو « انتشار الأصوات الطليق على صفحة الماء » (١٣٢) . وقال إن المخ كتلة من الخويطات العصبية تموجاتها هى متلازمات الذكريات ، يثير خويط أو أكثر منها تموج وافد مرتبط به فى الخبرة الماضية ؛ وهذا التموج هو الملازم الفسيولوجى للفكرة . فلكل حالة عقلية ملازم بدنى ، ولكل عملية بدنية مرافق عقلى أو عصبى ؛ وترابط الأفكار هو الجانب العقلى لترابط التموجات العصبية الذى يحدثه تجاورها أو تعاقبها فى خبرة ماضية . على أن الصورة الفسيولوجية التى رسمها هارتلى كانت بالطبع شديدة التبسيط ، ولم تمس قط لغز الوعى ، ولكنها شاركت فى إقناع أقلية صغيرة من الانجليز بفكرة فناء عقولهم .

وتناول قسيس آخر يدعى إتيين بونو دكونדياك مشكلات الذهن من جانب سيكولوجى خاص . وقد ولد فى جريوبل (١٧١٤) ، وتعلم فى مدرسة لاهوتية لليسوعيين بباريس ، ورسم قسيساً . فلما سمح له بالاختلاف إلى صالونى مدام دتانسان ومدام جيوفران ، التقى بروسو وديدرو ، وفقد حماسته الدينية ، وهجر كل وظائفه الكهنوتية ، وكرس نفسه للعبة الأفكار . فدرس المذاهب التاريخية للفلسفة ورفضها فى كتابه « رسالة فى المذاهب » (١٧٤٩) الذى نطق بروح « الفلاسفة » فقال إن كل هذه الصروح المتعالية من أنصاف الحقيقة إنما هى تفرعات كثيرة كلها أوهام انتشرت من معرفتنا المبتورة للكون ؛ وفحص جزء من التجربة بالاستقراء خير من التدليل على الكل بالاستنباط .

وقد حذا كونדياك فى كتابه « مقال فى أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) حذو لوك فى تحليله للعمليات العقلية ، ولكنه فى أنجح كتبه « مقال فى الأحاسيس قبل رأياً أكثر تطرفاً — وهو أن « التأمل » الذى تبين فيه لوك مصدراً ثانياً للأفكار ، هو مجموعة أحاسيس ، هى المصدر الوحيد لكل الحالات العقلية . إن هناك عالماً خارجياً ، لأن أهم حواسنا وهى اللمس تلقى مقاومة ؛ ومع ذلك فإن كل ما تعرفه هو أحاسيسنا والأفكار التى تولدها .

وقد وضح كونديلاك هذه الدعوى بمقارنة مشهورة ربما نقلها عن بوفون ، ولكنه نسب الفضل فيها إلى « مصدر وحيه » المتوفاة ، وهي الآنسة فيران التي أوصت له بميراث طوقت به عنقه . فصور لنا تمثالا من الرخام « نظم باطنه على غرارنا ، ولكن يحركه عقل تجرد من جميع الأفكار » (١٣٣) . وهو لا يملك غير حاسة واحدة هي حاسة الشم ، وفي استطاعته التمييز بين اللذة والألم . ثم عمد إلى أن يبين كيف يمكن أن تستق جميع ألوان التفكير من أحاسيس هذا التمثال . فالحكم ، والتأمل ، والرغبات ، والانفعالات . الخ ليست غير أحاسيس تغيرت على أشكاله مختلفه (١٣٤) . فالانتباه يولد مع الإحساس الأول ، ويأتي الحكم مع الثاني ، مما يولد المقارنة مع الأول . والتذكر إحساس ماض أحياه إحساس حاضر أو تذكر آخر . والخيال ذكرى تتصور أو تربط . والرغبة في الشيء أو النفور منه هي التذكر النشيط لإحساس لذيذ أو كريه . والتأمل هو تناوب الذكريات والرغبات . والإرادة رغبة قوية يرافقها فرض بأن الهدف ممكن بلوغه . والشخصية . أو الأنا ، أو النفس ، لا وجود لها أول الأمر ؛ فهي تتخذ لها شكلا بوصفها جماع ذكريات الفرد ورغباته (١٣٥) . وهكذا ، من حاسة الشم وحدها — أو من أي حاسة أخرى غيرها — يمكن أن تستنبط جميع عمليات الذهن تقريباً . فإذا أضفنا أربع حواس أخرى ، كون التمثال له ذهناً معقداً .

كل هذا كان جهداً ضخماً طريفاً ، أثار ضجة كبرى بين رجال الفكر في باريس . ولكن النقاد لم يعسر عليهم أن يثبتوا أن طريقة كونديلاك كان فيها من الاستنباط والفروض ما في غيرها من مذاهب الفلسفة ، وأنه تجاهل مشكلة الوعي تجاهلا تاماً ؛ وأنه لم يبين لنا كيف نشأت الحساسية الأصلية . فالتمثال الحساس وإن اقتصرت حواسه على الشم ، ليس بتمثال ، إلا أن يكون ذلك الوجيه الذي قال ترجنيف في وصفه إنه يقف في كبرياء كأنه أثر لذكراه أقيم بالاكتتاب العام .

وفي ١٧٦٧ عين كونديلاك مدرساً خاصاً للطفل الذي أصبح فيما بعد دوق بارما . فأنفق السنين التسع التالية في إيطاليا وألف لتلميذه سبعة عشر مجلداً نشرت في ١٧٦٩ — ٧٣ باسم « خطط دراسية » . وهي رفيعة المستوى ،

ولكن المجلدين اللذين تناولا التاريخ جديران بتحية خاصة لأنهما اشتملا على تاريخ الأفكار والعادات ، والمذاهب الاقتصادية ، والأخلاق ، والفنون ، والعلوم ، والملاهي ، والطرق — وهذا في مجموعه يؤلف سجلا لحضارة أوفى مما سجله فولتير في كتابه « مقالة عن الأعراف » . وفي ١٧٨٠ ، بناء على طلب الأمير أجناسي بوتوكي ، وضع كتاباً في « المنطق » لمدارس لتوانيا . وكان هذا أيضاً كتاباً فذاً في بابه . وفي تلك السنة مات مؤلفه .

ودام تأثير كونديلاك قرناً ، فتجلى عام ١٨٧٠ في كتاب تين « في الذكاء » وكانت سيكولوجية كونديلاك أساساً في النظام التعليمي الذي وضعه المؤتمر الوطني الذي حكم فرنسا من ١٧٩٢ إلى ١٧٩٥ . وقد اعترف له بفضل السبق مشرحون مثل فيك — دازير ، وكيميائيون مثل لافوازييه ، وفلكيون مثل لابلاس ، وأحيائيون مثل لامارك ، وأطباء عقليون مثل بينيل ، وسيكولوجيون مثل بونيه وكاباني . وقد وصف بيير جان جورج كاباني الدماغ في ١٧٩٦ بأنه « عضو خاص وظيفته الهامة أن ينتج الفكر كما أن للمعدة والأمعاء وظيفة خاصة هي مواصلة عملية الهضم ، والكبد وظيفته هي ترشيح الصفراء »[١٣٦] . وقد تجاهل « الفلاسفة » الذين أحاطوا بكونديلاك تصريحاته بالايمان بالله ، وحرية الإرادة ، والروح الخالدة غير المادية ، وزعموا أن فلسفة طبيعية ، نصف مادية ، مؤمنة بمذهب اللذة ، كانت النتيجة المنطقية لرده المعرفة كلها إلى الإحساس ، والبواعث كلها إلى اللذة والألم . وقد خلص روسو وهلفتيوس إلى أنه ما دام ذهن الإنسان عند مولده عبارة عن قدرة على الاستقبال لا أكثر ، إذن في استطاعة التعليم أن يصوغ الذكاء والخلق دون كبير نظر إلى الفروق الوراثية في القدرة العقلية . هذا كان الأساس السيكولوجي لكثير من الفلسفات السياسية المتطرفة .

ولم يأت الانتقاض على السيكولوجية المادية في فرنسا إلا بعد أن قلم نابليون أظافر الثورة ووقع اتفاقية ١٨٠١ مع الكنيسة (الكونكوردا) . وقد بكر هذا الانتقاض في ألمانيا ، حيث كان التقليد المضاد للمذهب الحسي (وهو التقليد الموروث عن لايبنتس) لا يزال قوياً وهاجم رجال كيوهان نيكولاوس تيتنز الأستاذ بجامعة روستوك ، مدرسة كونديلاك زاعماً أن

أتباعها مجرد منظرين لا علماء . فكل هذا الحديث عن « التموجات » و « السائل العصبي » إنما هو محض افتراض ، فهل رأى أحد هذه الأشياء ؟ وزعم تيتنز أن السيكولوجية العلمية تستهدف الملاحظة المباشرة للعمليات الفعلية ، وتجعل الاستبطان أداتها الرئيسية . فتبنى بذلك سيكولوجية على أساس استقرائي بحق . وستجد بعد قليل أن « قوانين الترابط » التي صاغها هوبز ، ولوك ، وهارتلي ، لا تتفق وخبرتنا الفعلية ، وأن الخيال كثيراً ما يحيى أو يربط الأفكار في ترتيب يختلف تمام الاختلاف عن الترتيب الذي أعطاه إياها الإحساس ، وأن حلقات في سلسلة الترابط تسقط أحياناً على نحو غريب جداً . ويبدو أن الرغبة هي الحقيقة المحايثة (الباطنة) للكائن الحي ، وأنها لا تتفق غالباً مع القوانين الميكانيكية . والذهن قوة نشيطة مشكلة ، لا « صفحة بيضاء » ، يخط الإحساس عليها إرادته .

وهكذا هيىء المسرح لإمانويل كانط .

١٠ — تأثير العلم على الحضارة :

إذا كان هذا الفصل قد طال أكثر من العادة رغم ما يشوبه من نقص فليس السبب أننا اعتبرنا العلماء وعلمهم منتمين إلى التاريخ فحسب ، بل إن تطور الأفكار أيضاً هو موضع اهتمامنا الأساسي ، وأن الأفكار لعبت دوراً في القرن الثامن عشر لا يفوقه أهمية غير طبيعية الإنسان نفسه . وإذا كانت منجزات العلم في تلك الحقبة الثورية لا تبلغ في إدهاشها مبلغ نظائرها في القرن الذي سبقها من جاليليو إلى ديكارت إلى نيوتن وليبنتس ، فإنها تغلغلت تغللا أقوى في كل منحى تقريباً من مناحي التاريخ الأوربي . فبفضل فولتير وعشرات المفسرين الأقل منه شأناً نشرت نتائج البحث في الطبقتين الوسطى والعليا ، وشاركت العلوم الجديدة — علوم الكيمياء . والجيولوجيا ، والحيوان — في التأثير البطيء ، العميق رغم بطئه . الذي أثرت به المعرفة المتسعة على الذهن المثقف ، وكانت النتائج بغير نهاية .

والعجيب أن تأثير العلم كان أقله ، وآخره ، على التكنولوجيا . ذلك أن طرائق البشر في الزرع والحصاد ، وفي التعدين والصناعة ، وفي البناء والنقل ،

كلها تكونت خلال قرون من التجربة والخطأ ، ولم تتقبل التقاليد والجمود التحسينات التى اقترحتها التجارب المعملية إلا على مضض . ولم يفلح العلم فى التعجيل بالثورة الصناعية إلا فى نهاية هذا العصر . وحتى مع هذا البطء فإن المراحل الأولى لتلك الثورة دانت ديناً كبيراً للأبحاث الكيميائية على الأصباغ ، فقد أرسى برتولليه (١٧٨٨) استعمال الكلورين فى تبييض المنسوجات . وأدخل جيمس هتن ونيكولا ليلان تصنيع الصودا وملح النشادر . وشاركت دراسة بويل وماريوت للغازات ، ودراسة بلاك للحرارة ، فى تطوير الآلة البخارية — الذى كان أكبر الفضل فيه على أية حال للميكانيكيين المهتمين بالأمر آنئذ . وبتقدم القرن نمت علاقة أوثق بين الرجال العمليين الذين ينشدون الإنتاج ، والعلماء الذين ينشدون الحقيقة . وأوفدت أكاديمية باريس للعلوم باحثين إلى الحقول ، والمصانع ، والورش ، وأصدرت عشرين مجلداً فى « أوصاف الفنون والصنائع » (١٧٦١ — ٨١) . ولقاء هذا بدأت الصناعات الوليدة تلجأ إلى العلم طلباً للمعلومات والتجارب ؛ وهكذا اختزل كولومب جهد العوارض إلى صيغ يعتمد عليها ، وحفزت مشكلات الآلة البخارية العلم إلى أبحاث جديدة فى العلاقة بين القوة والحرارة . وقد قدر لهذه العلاقات فى القرن التاسع عشر أن تغير العالم الاقتصادى والفزيائى .

أما الأثر الأكبر للعلم فكان بالطبع على الفلسفة ، ذلك أن الفلسفة ، وهى البحث عن الحكمة ، لابد أن تقوم على العلم ، وهو البحث عن المعرفة . وقد بدا فى كل خطوة أن العلم يزيد العالم تعقيداً واتساعاً ، وكان لابد من تكوين منظورات جديدة . ولم يكن بالتكيف اليسير ذلك الذى كان على العقل البشرى أن يتكيفه بعد أن اكتشف أن الإنسان ليس مركز الكون ، بل ذرة ولحظة فى اتساعات الفضاء والزمان غير المحدودة والمحيرة ؛ ولم يتم ذلك التكيف إلى الآن . وباستجابة متعالية ، قديمة قدم كوبرنيف ، كاد الإنسان يغلبه الغرور بعظمة كشفه عن ضآلته ، وحجبت خيلاء العلم تواضع الفلسفة ، وتخيل الناس عوالم مثالية جديدة بلغة العلم ، وقدمت فكرة التقدم ديناً جديداً للنفس الحديثة .

وبدا أن تأثير العلم على الدين — أو على الأصح على المسيحية — مميت . إن الناس كانوا سيمضون ولا ريب فى تكوين ، أو تحبيذ ، مفاهيم عن العالم تمنح الأمل والعزاء ، والمغزى والكرامة ، للنفوس المعذبة القصيرة الأجل ؛ ولكن كيف تستطيع ملحمة المسيحية عن الخليقة ، والخطيئة ، والفداء الإلهى ، أن تثبت فى منظور اختزل هذه الأرض إلى ذرة وسط مليون من النجوم ؟ وما هو الإنسان حتى يذكره إله كون كهذا ويعنى به ؟ وكيف يستطيع شعر سفر التكوين أن يثبت لكشوف الجيولوجيا ؟ وما الرأى فى الأديان العشرة أو تزيد ، التى تدين بها أقطار كشفت عنها الجغرافيا ؟ — أهى منحطة انحطاطاً لاريب فيه عن المسيحية من حيث عقائدها ونواميسها ونتائجها الأخلاقية ؟ وكيف يمكن التوفيق بين معجزات المسيح ، فضلا عن المعجزات التى ينسبها الكثيرون للقديسين والشيطان ، وبين ما يبدو من سيادة ناموس الكون ؟ وكيف يمكن أن تكون نفس الإنسان ؛ أو عقله ، خالداً إذا كان معتمداً هذا الاعتماد على الأعصاب وغيرها من الأنسجة الواضح أن مصيرها الفناء ؟ وما الذى لا مناص من حدوثه للدين الذى يتحداه على هذا النحو علم ينمو يوماً بعد يوم فى رقعته ومنجزاته ومكانته ؟ وما الذى لا مناص من حدوثه لحضارة قائمة على ناموس أخلاقى قائم على ذلك الدين ؟

* * *

الفصل التاسع عشر
الطب

١٧١٥ – ٨٩

١ – التشريح والفسيولوجيا

ثم هناك أثر العلم فى الطب . فقد ارتبط فن التطبيب بتحسن الميكروسكوب والترمومتر ، وظهور الكيمياء والأحياء ، وأهم من ذلك كله المعرفة المتقدمة بتشريح وفسيولوجيا الإنسان والحيوان . وكان معظم الأبحاث فى التشريح والفسيولوجيا من عمل الأطباء أنفسهم .

وكان جوفانى باتيستا مورجانى إنموذجا من الأطباء الكثيرين الذين جعلوا من الطب علما باحتفاظهم بسجلات أكلينية للحالات التى جاءتهم للعلاج . ففحص سبعمائة من هذه الحالات خلال الفترة التى عمل فيها بإخلاص ممارسا للطب وأستاذا له فى بادوا . وفى عامه الثمانين (١٧٦١) روى ملاحظاته فى سبعين رسالة أرست أساس التشريح الباثولوجى : « فى مواطن العلل وأسبابها كما بحثها التشريح » هنا ساق أوصافا عملية لانسداد القلب ، والضمور الأصفر للكبد ، وعمل الكلى ، وربط بين العلامات الاكلينكية للالتهاب الرئوى وتصلب الرئتين ، وأضاف اضافات هامة لمبحث القلب يقول السر وليم أوزلر « ما زال الجزء الخاص بالتمدد الوعائى للأورطى من أفضل ما كتب فى هذا الباب . » « وهل من وصف أدق من وصفه للذبحة [الصدرية ؟ » [١] وحصر موطن كل دواء الآن بوضوح أكثر من أى وقت مضى ، فى تغيرات مرضية تعرو أعضاء بعينها . واعجبت المستشفيات بعمل مورجانى ، فزودته ومعاونيه – دون معارضة من الكنيسة أو الدولة – بجثث الموتى من جميع طبقات المجتمع ، حتى النبلاء ورجال الكنيسة ؛ وأعرب أفراد كثيرون حباً فى النهوض بالعلم ، عن رغبتهم فى أن يفحص مورجانى جثثهم بعد موتهم [٢] . وقد أجرى التجارب على الحيوانات ، دون أن يلقى هنا أيضا أى احتجاج من الكنيسة .

وواصل التدريس حتى بلغ التسعين . وفى ١٧٦٤ ، حين كان فى الثانية والثمانين ، روى أنه « ينعم بعافية ابن الخمسين ، ولا يزال يعمل دون استعانة بنظارات . »[٣] وقد لقبه طلابه فى فخر برئيس المشرحين فى أوربا كلها . وفى ١٩٣١ أقامت له بلدته « فورلى » نصبا تذكاريا فى الميدان الذى يحمل اسمه .

وأصبح تلميذه انطونيو سكاربا أستاذا للتشريح فى مودينا وهو بعد فى العشرين . فلما رقى لكرسى التشريح فى بافيا حين بلغ السادسة والثلاثين (١٧٨٣) شارك سباللا نتسانى وفولتا فى دفع تلك الجامعة إلى مكانة مرموقة بين جامعات أوربا . واكسبته الشهرة الدولية درساته التشريحية على الأذن والأنف ، والأقدام ، والأعصاب ، وظل كتابه « ملاحظات على أمراض العيون الرئيسية » (١٨٠١) عشرات السنين الكتاب الجامعى العمدة فى الرمد . أما فيلكس فيك دازير ، الذى كان يصغر سكاربا بسنة واحدة فقط ، فقد درس التشريح المقارن للطيور ، وذوات الأربع ، والإنسان . وأظهرت نتائجه تشابها غريبا مفصلا فى بنية الأطراف فى البشر والحيوانات ، وأسهمت فى وضع الإنسان فى مكانه البيولوجى . وقد مات فى السادسة والأربعين (١٧٩٤) قبل أن يتم عملا أوصل تشريح الدماغ إلى ذروته فى القرن الثامن عشر .

وفى بريطانيا العظمى أضفى الاخوان هنتر ، والمولودان فى سكتلندة ، مزيداً من البهاء على حركة التنوير الاسكتلندية بعملهما فى التشريح والجراحة . فأحدثت محاضرات وليم ثورة فى تدريس التشريح فى لندن ، حيث تعطلت هذه الدراسة طويلا من جراء القيد المفروض على توافر الجثث . وقد زاع صيته لكشفه الخطير (١٧٥٨) للوظيفه الماصة للأوعية [illegible] ، ولتأليفه كتابا من عيون الكتب يسمى « تشريح الرحم الحامل » (١٧[illegible]) ، ولطبعه النارى ، الذى علله بأنه ، وهو المشرح [illegible] الجثث له خضوعا سلبيا »[٤] ومات فى ١٧٨٣ وقد [illegible] الخامسة والستين إثر إعياء أصابه فى إحدى محاضراته . وقد أوصى بمجموعته التشريحية الكبرى لجلاسجوا ، حيث ما زال محتفظا بها فى متحف هنتر .

أما أخوه جون هنتر فقد ولد بعده بعشر سنوات ، ومات بعده بعشر أيضا . وحين بلغ الحادية والعشرين (١٧٤٩) كان قد حصل من العلم ما أهله للاضطلاع بصف وليم فى التشريح العملى . وبينما كان يعمل مع أخيه ، حل مشكلة سقوط الخصيتين عند الجنين ، وتتبع دورة المشيمة وتشعبات الأعصاب الأنفية والشمية ، واكتشف القنوات الدمعية ، وقام بدور رائد فى عرض وظائف القنوات اللمفاوية . وفى السابعة والعشرين دخل أكسفورد ، فلما وجد اللاتينية واليونانية أشد مواتا من جثث الموتى ، ترك الكلية والتحق بالجيش جراحا . وتعلم الكثير فى أثناء الخدمة العاملة فى الخارج عن جراح البارود ، فخلف بعد موته رسالة قيمة فى الموضوع . وقد مارس الجراحة وعلمها عند رجوعه إلى إنجلتره ، وواصل أبحاثه فى التشريح والفسيولوجيا . وفى ١٧٦٧ أصيب بحادث مزق له « أربطة أخيل » (التى تربط عضلات سمانة الساق بالعقب) . ومن مشاهداته عن نفسه آنئذ ، ومن تجاربه على الكلاب ، توصل إلى جراحة ناجحة للأقدام المشوهة وغيرها من التشوهات التى تصيب الأربطة فيما تصيب . وحدث أنه حقن نفسه بالزهرى عن غير قصد ، فأرجأ علاجه ريثما يدرس المرض من خبرته الشخصية(٥) ، على أنه أخطأ فى اعتباره الزهرى والسيلان مرضا واحدا . وأثبت بالتجربة أن الهضم لا يحدث فى الأفاعى والسحالى أثناء إسباتها . وجمع لأبحاثه فى بيته ببرومتن معرضا غريبا للوحوش ، فيه الديوك البرية ، والحجل ، وضفادع البر ، والسمك ، والأوز ، والقنافذ ، وديدان القز ، والنحل ، والدبابير الكبيرة والصغيرة ، ونسر ، وفهدان ، وعجل . وكاد يفقد حياته فى صراعه مع العجل ومحاولته القبض على الفهدين الهاربين . وقد شرح نيفا وخمسمائة نوع من الحيوان . ودرس آثار مختلف السموم ، واعترف فى ١٧٨٠ بأنه « سمم بضعة آلاف من الحيوان » .

وفى ١٧٨٥ جلس إلى رينولدز ليرسمه ، ولكنه كان كثير الحركة والتململ أول الأمر . وأوشك السر جوشوا أن يعدل عن تصويره ، حين أخذت هنتر سنة من أحلام اليقظة عميقة ساكنة مكنت المصور من تخطيط اللوحة المعروضة الآن فى كلية الجراحين الملكية . وكان جون كأخيه صاحب

طبع نزق عات . وقال حين وجد نفسه عرضة للذبحة الصدرية « أن حياتى فى يد أى وغد يطيب له أن يضايقنى ويغيظنى » [٦] وحدث أن أحد زملائه ناقضه ، فاستشاط غضبا ، ولم يلبث أن فارق الحياة بعد دقائق (١٧٩٣) ، ودفن فى ديروستمنستر بجوار رفات بن جونسن . وقد حصل اتحاد الجراحين ، بفضل منحة من الحكومة ، على مجموعته المحتوية على ثلاثة عشر ألف عينة ، وأصحبت المجموعة فى ١٨٣٦ متحف هنتر اللندنى . و « الخطاب الهنترى » الذى يلقى فى ذكراه واقعة سنوية فى عالم الطب الانجليزى .

أما الفسيولوجيا فإن أعظم أعلامها فى هذه الحقبة هو ألبرشت فون هاللر وقد التقينا به شاعرا فى شبابه . وفى سنواته اللاحقة وضع نفسة على رأس علماء الفسيولوجيا بكتابه « أصول فسيولوجية جسم الانسان » الذى صدر فى ثمانية مجلدات بين عامى ١٧٥٧ و ١٧٦٦ . ولم تقتصر هذه الأسفار على تسجيل ما توافر يومها من علم بتشريح الإنسان وفسيولوجيته ، بل شملت كذلك كشوفه عن دور الصفراء فى هضم الدهنيات ، وعن قابلية ألياف العضلات للتهيج أو التقلص مستقلة عن الأعصاب ، لا بل عقب فصلها عن الجسد . وخلص ديدرو من هذه التجارب وأمثالها إلى أنه « إذا كانت الحياة باقية فى أعضاء فصلت عن الجسد ، فأين هى النفس إذن ؟ وما الذى يحدث لوحدتها ؟ ... ولعدم قابليتها للانقسام ؟ » [٧] وزعم بناء على هذه الشواهد أن جميع العمليات الفسيولوجية ميكانيكية . وخالفه هاللر ، ففى رأيه أن قابلية النسيج العضوى للتهيج دليل مبدأ حيوى لا يوجد فى المواد غير العضوية ولا يتفق والفلسفة الميكانيكية . وأظهر المزيد من درسات هاللر أن « بنية عظام ذوات الأربع فى جوهرها واحد هى وبنية الطيور » وأن « العظام فى الانسان لا تختلف فى أى جزء من أجزاء بنيتها عن عظام ذوات الأربع » [٨] وفى ١٧٥٥ قام بأول ملاحظة مدونة لمرض التصلب السنبلى ، أى تراكم الدهن اللين فى جدران الأوعية الدموية . يقول السر وليم فوستر « حين نفتح صفحات هاللر نشعر أننا انتقلنا إلى العصور الحديثة » [٩] .

وأيدت أبحاث أخرى الرأى الميكانيكى . فتبين رورت هويت (١٧٥١) أن الأفعال المنعكسة لا تحتاج لأن يشارك فيها غير قطاع صغير من الحبل الشوكى . وبدا أن عمل برستلى ، ولا فوزييه ، ولا بلاس ، ولا جرانج ، يختزل التنفس إلى عمليات كيمائية شبيهه بالاحتراق . وأثبتت تجارب ريامور (١٧٥٢) أن الهضم ينشأ عن الفعل الكيميائى للعصارات المعدية ، وأثبت سبا للانتسانى (١٧٨٢) أن هذا الفعل — فعل العصارات الهضمية — على الطعام يمكن أن يستمر حتى خارج المعدة ، واكتشف جون هنتر أن هذه العصارات تبدأ بعد الموت فى هضم جدار المعدة ذاته .

وكان سباللانتسانى من أساطين فسيولوجية القرن الثامن عشر وقد رأينا تجاربه على التوالد « الذاتى أو التلقائى » ، ولم يكن اهتمامه بعملية الهضم يعرف حدودا . فقد اكتشف الوظيفة الهضمية للعاب . وأجرى التجارب على نفسه بالقيء المصطنع ، وبابتلاع الأكياس والأنابيب ، التى استمادها بصبر من برازه . وكان أول من بين أن التقلص الانقباضى للقلب يرسل الدم فى أصغر الشعيرات . وبين أن العرق ليس شبيها بالتنفس ، ولكنه يستطيع إلى حد ما أن يحل محل الشهيق . وأصبح حجة فى الإخصاب رغم أنه رئيس دير . وقد وجد أنه إذا غطيت أعضاء الذكورة فى ضفدع بقماش مغموس فى الشمع ظلت أنثاه دون إخصاب بعد الجماع ولكن حين جمع سائل الذكر من القماش ووضعه ملتحما ببيض الأنثى أصبحت مخصبة . وحصل على الأخصاب الصناعي فى الثدييات بحقنه منى كلب فى رحم كلبة [١٠] . وقد قدر القرن العشرون فى نهاية المطاف مدى تجاربه التى لم يعترها كلل ، وأدرك مغزاها ، واعترف به كاهنا من الصفوة المختارة فى كهنوت العلم .

٢ — دهاء المرض

ولكن ، هل هزم نمو المعرفة سعة حيلة المرض ؟ كلا . لقد قدر فولتير متوسط عمر الانسان فى عصره باثنتين وعشرين سنة [١١] وكان من

أثر الاحياء الفقيرة المزدحمة فى المدن النامية ارتفاع نسبة الوفيات فى الأطفال ، حتى بلغت أحيانا خمسين فى المائه [١٢]. وفى لندن كان ثمانية وخمسون فى المائة من جميع الأطفال يموتون قبل أن يبلغوا الخامسة[١٣] وشاعت على نطاق واسع عادة ترك الأطفال حديثى الولادة . وفى السنوات الثمان بين عامى ١٧٧١ و١٧٧٧ أدخل قرابة ٣٢٠٠٠ طفل إلى مستشفى اللقطاء بباريس — بمعدل تسعة وثمانين يوميا ، ومن هؤلاء الرضع مات ٢٥٫٤٧٦ (أى ثمانون فى المائة) قبل أن يتموا ربيعهم الأول . وأعان على زيادة وفيات الأطفال فى القرن الثامن عشر انتشار الرضاعة الجافة — أى احلال البزازة محل ثدى الأم أو المرضع وقد قدر السر هانز سلون نسبة الوفيات فى الرضاعة الصناعية بثلاثة أضعاف نسبتها فى أطفال الرضاعة الطبيعية . وراجت الطريقة الجديدة على الأخص بين الطبقات الراقية فى فرنسا ، إلى أن أشاع كتاب روسو « أميل » (١٧٦٢) موضة الرضاعة من الثدى . واستمر الإجهاض ومنع الحمل . واستعمل القراب من القماش — الذى أوصى به فالوبيو فى ١٥٦٤ للوقاية من عدوى الأمراض التناسلية — فى القرن الثامن عشر لمنع الحمل[١٤]. وقد ورد فى كتاب الدكتور جان استروك « فى الأمراض التناسلية » (١٧٣٦) ذكر الزناة الذين « استعملوا حينا أكياسا من نسيج رقيق من قطعه واحدة على شكل قراب . تسمى بالانجليزية Condum[١٥]» وأصدرت امرأة تدعى المسز فلبس فى ١٧٧٦ إعلانات يدوية فى لندن أذاعت أن فى حانوتها كمية وافرة من « أسباب الأمان التى تكفل صحة زبائنها » [١٦] . ولكن الأمراض التناسلية اقتضت الضحايا من كل طبقة رغم هذه « الآلات » كما كانت تسمى ... وقد كتب اللورد تشسترفلد إلى ولده محذرا منها « ففى الحب قد يضيع الرجل قلبه ويحتفظ بكرامته ..... أما إذا ضيع أنفه فإنه يضيع معه سمعته » [١٧] .

ويصعب علينا — نحن الذين نعيش بعد جنر — أن نتصور أى لعنة ابتلى بها الجدرى البشر قبل أن يهدى هذا الطبيب العالم الغربى إلى التطعيم. ولقد حسب فولتير أن « من بين مائة شخص يولدون ، يصاب ستون على الأقل بالجدرى ، ومن هؤلاء الستين يموت عشرون . . . وعشرون

آخرون يحتفظون بندوب كريهة لهذا المرض القاسي تلازمهم مدى الحياة »[١٨] وبين عامى ١٧١٢ و١٧١٥ مات بالجدرى ثلاثة من ورثة العرش الفرنسي. وقد ذهب الأمير دلين إلى أن ٠٠٠ ر ٢٠٠ من نزلاء ديورة النساء والرجال لجأوا إليها هربا من ذلك التشوه الذى أصابهم به الجدرى . [١٩] واستفحل المرض حتى بلغ درجة الوباء فى باريس فى ١٧١٩ ، وفى السويد فى ١٧٤٩ — ٦٥ ، وفى فيينا فى ١٧٦٣ و ١٧٦٧ ، وفى تسكانيا فى ١٧٦٤ ، وفى لندن فى ١٧٦٦ و ١٧٧٠ .

وكانت الأوبئة الآن ، بصفة عامة . أخف وطأة منها فى القرون السابقة ، ولكنها ظلت أحد الأخطار التى تهدد الحياة . وكانت أشد هولا فى الريف منها فى المدن ، رغم ما فى هذه من أحياء فقيرة مزدحمة ، لأن الفلاحين كانوا أعجز من أن يدفعوا ثمن الرعاية الطبية . وقد قتلت أوبئة التيفوس ، وحمى التيفود ، والجدرى ، ثمانين ألف شخص فى برتني فى سنة واحدة (سنة ١٧٤١) . [٢٠] وفى ١٧٠٩ قضى الطاعون الدملى على ٠٠٠ ر ٣٠٠ شخص فى بروسيا ، وعاد ظهوره بشكل أخف فى أوكرانيا فى ١٧٣٧ ، وفى موسكو فى ١٧٨٩ وكانت الحمى القرمزية ، والملاريا (mal aria أى الهواء الفاسد) والدوزنتاريا أمراضا شائعة ، لا سيما بين الطبقات الدنيا ، حيث أعانها على الانتشار الافتقار إلى حفظ الصحة للعامة والصحة الشخصية . وأصيبت باريس ، ودبلن ، وأبردين ، وتورجاو ، وبرن ، بأوبئة من حمى النفاس المعدية . أما الانفلونزة ، التى سماها الفرنسيون La grippe (الالتصاق) فقد بلغت مرحلة الوباء فى فترات مختلفة فى إيطاليا ، والسويد ، وألمانيا . وكانت بين الحين والحين تفضى إلى شلل الأطفال ، كما حدث للصبي الذى أصبح فيما بعد السر ولتر سكوت . وأشرف الالتهاب الرئوى ، والدفتريا ، والحمرة ، أحيانا على مستوى الأوبئة . وكان السعال الديكى ، الذى يبدو الآن قليل الشأن ، واسع الانتشار وخطرا ، لا سيما فى شمالى أوربا ، ففى السويد مات به أربعون ألف طفل بين عامى ١٧٤٩ و١٧٦٤. ووفدت الحمى الصفراء من أمريكا ، وانتشرت حتى أصبحت وباء فى لشبونة عام ١٧٢٣ . وإلى هذه العلل وعشرات غيرها أضافت نساء الطبقات

العليا مرضا سموه « the vapors » وهو مزيج مضطرب من الإرهاق العصبى ، والوهم ، والأرق ، والسأم ، يتفاقم أحيانا حتى يبلغ درجة الهستريا .

ولمقاومة هذه الأعداء العامة اتخذت الحكومات بعض التدابير لحفظ الصحة . ولكن القمامة كانت لا تزال فى أكثر الحالات تفرغ فى الشوارع . وظهرت المراحيض فى باريس فى مطلع القرن ، ولكن فى بعض البيوت فقط ، ولم تكن توجد إطلاقا فى غير باريس من بلاد أوربا . وكانت الحمامات ترفا يختص به الأغنياء . ولعل الحمامات العامة كانت أقل عددا منها أيام النهضة الأووبية . وأحرز حفظ الصحة فى الجيوش والبحريات تقدما أكثر منه فى المدن . ونهض السر جون برنجل بالطب الحربى (١٧٧٤) ، وأحدث الاسكتلندى جيمس لند ثورة فى حفظ الصحة البحرية (١٧٥٧) . وخلال بعثة آنسن سنة ١٧٤٠ كان الاسكربوط أحيانا يعجز نحو خمسة وسبعين فى المائة من الملاحين . وقرر لند فى رسالة خطيرة عن هذا المرض (١٧٥٤) أن عصير البرتقال أو الليمون تداوى به الهولنديون منه فى ١٥٦٥ واستعمله السر رتشرد هوكنز فى ١٥٩٣ ، وقد أدخل هذا الدواء الواقى بنفوذ لند إلى البحرية البريطانية (١٧٥٧) . ولم تكن فى رحلة كوك الثانية التى امتدت أكثر من ثلاث سنين (١٧٧٢ — ٧٥) ، إصابات مميتة بالاسكربوط غير إصابة واحدة . وفى ١٧٩٥ تقرر استعمال العصير أو الفواكه الحمضية اجباريا فى البحرية البريطانية (ومن هنا اطلاق كلمة Limey على الجندى أو البحار البريطانى) ، وبعد هذا ختفى مرض الاسكربوط البحرى .

وكان من معالم إنسانية القرن الثامن عشر البارزة ، أن يضع فكتور ركيتى ، مركيز ميرابوا ، مبدأ (١٧٥٦) مؤداه أن صحة الشعب مسئولية تقع على عاتق الدولة . وقد اقترح يوهان بيتر فرانك نظاما كاملا للخدمة الصحية العامة فى كتابه « نظام كامل للرقابة الطبية العامة » (١٧٧٧ — ٧٨) ، وكان قد بدأ حياته طفلا فقيرا ملقى على عتبة بيت . وهذه المجلدات الأربعة — هذه « الذكرى النبيلة للولاء للإنسانية امتد طول العمر »[٢١] — وصفت

التدابير التى ينبغى لأى مجتمع مدنى أن يتخذها للتخلص من النفايات ، وللحفاظ على نقاء الماء والطعام ، ولصيانة الصحة فى المدارس والمصانع ، ولحماية صحة النساء فى الصناعة . وزاد الطبيب على هذا أن أوصى بفرض الضرائب على العزاب ، وبذل النصيحة للأزواج لحفظ صحتهم ، وطالب بتعليم الأطفال مبادئ الصحة . وكان نابليون أحد الذين قدروا أفكار فرانك ، فرجاه أن يأتى ويخدم فى باريس ، ولكن فرانك بقى فى فيينا .

وأما المستشفيات فقد تخلفت كثيراً عن واجب الاهتمام المنظم بالمرض . فقد ازداد عددها . ولكن جودتها هبطت . وضاعفت إنجلتره على الأخص من مستشفياتها فى القرن الثامن عشر ، ولكن كلها كان يعتمد على التبرعات الخاصة دون منحة من الدولة . [٢٢] وفى باريس تلقى أكبر مستشفياتها المسمى الأوتيل ديو ١٧٨ر٢٥١ مريضاً فى السنوات الإحدى عشرة بين ١٧٣٧ و ١٧٤٨ ، مات منهم ٠٩١ر٦١ . وقد أفضى التهافت على « منزل الله » هذا — كما سموه — إلى حشد ثلاثة أشخاص أو أربعة أو خمسة أو حتى سته فى فراش واحد ، « فكان المحتضرون والناقهون يرقدون جنبا إلى جنب . . . وكان الهواء ملوثا بالافرازات المنبعثة من هذا العدد العديد من الأجساد المريضة » . [٢٣] وكان من بين الأعمال الخيرة الكثيرة التى قام بها لويس السادس عشر فى ١٧٨١ أمره بأن « يخصص سرير مستقل لكل من ٥٠٠ر٢ مريض ، وأن ينام خمسمائة مريض على أسرة مزدوجة يفصلها حاجز » ، وأن تخصص حجرات للناقهين . [٢٤] ومع ذلك لم يكن بالمستشفى بعد سبع سنوات من الأسرة المنفردة سوى ٤٨٦ ، واحتوى ٢٢٠ر١ سريرا أربعة مرضى أو أكثر ، ورقد ثمانمائة مريض على القش . [٢٥] وفى فرانكفورت — على — المين وغيرها من المدن كان الهواء فى المستشفيات من الوخم بحيث « رفض الأطباء الخدمة فى المستشفيات باعتبارها معادلة لحكم بالإعدام » [٢٦] .

٣ — العــلاج

واجترأ بعض الأطباء على تقويض مواردهم بنشر المعرفة بالطب الوقائى . من ذلك أن الدكتور جون آربثنوت اللندنى زعم فى « مقال عن طبيعة الأمراض » ، (١٧٣١) أن نظام التغذية يفعل كل ما فى وسع الطب أن يفعله . وقد تنبأ بأمراض المستقبل فى رسالة تسمى « ثمن صيانة الصحة » (١٧٤٤) . وتحسن تعليم طلاب الطب تحسينا بطيئاً ، مع احتفاظ الجامعات الإيطالية (بادوا ، وبولينا ، وبافيا ، وروما) بمكان الصدارة ، وفيينا ، وباريس ، ومونبلييه ، بالمكان التالى ، ولكن حتى فى هذه الجامعات لم يكن هناك أكثر من أربعة أساتذة أو خمسة . وكان كل مدرس يجمع المصروفات الجامعية للمقرر الذى يدرسه ، ويصدر تذاكر دخول ، أحيانا على ظهر ورق اللعب . [٢٧] وبدأت بعض المستشفيات الآن تعلم الطب الاكلينيكى . وكانت الممارسة القانونية للطب أو التوليد تتطلب دبلوما من معهد معتمد .

وكما أن نظرية جيورج شتال عن النار باعتبـارها « فلوجستونا » تسلطت على الكيمياء فى القرن السابق للافوازييه ، فكذلك تسلطت فكرته عن « حيوية المادة animism » على الطب . فقد رفض نظرة ديكارت إلى الجسم على أنه جهاز ميكانيكى ، وصور النفس على أنها أصل لا مادى للحياة يشكل الجسم بوصفه أداته . وبناء عليه ، رأى أن الطبيعة ، فى صورة قوة الحياة هذه ، هى العامل الأهم فى شفاء العلل ، وما المرض إلا جهد من « الروح الحية anima » لاسترداد الصحة ، والفعالية ، والانسجام الطبيعى للأعضاء المضطربة ؛ وارتفاع درجة الحرارة وسرعة النبض وسيلتان تلجأ إليهما الطبيعة للتغلب على المرض ، والطبيب الحكيم من يعتمد أول ما يعتمد على عمليات التخلص الذاتى من السموم ، ويكره استعمال العقاقير . ولكن شتال ترك سؤالا بغير جواب ، وهو ما السبب فى الاضطراب . ومن الأجوبة جواب قدمه ماركوس انطونيوس باينكتس ، الذى بعث فى ١٧٦٢ رأى اثناسيوس كيرشر فى أن المرض راجع إلى عدوى بكائن دقيق . فقال إن لكل مرض كائنا مغيرا خاصا به ، له فترة حضانة محدودة .

على أن هذه البصيرة الممتازة بنظرية الجراثيم لم تترك طابعا على طب القرن الثامن عشر العلاجي ، وكان لا بد من بعثها مرة ثانية فى القرن التاسع عشر.

واقترحت بعض طرق التشخيص الجديدة ، فدعا ستيفن هيلز إلى قياس ضغط الدم ، وادخل ليوبولد أوينبروجر النقر على الصدر وسيلة لتبين السائل فى القفص الصدرى . وطور اسكتلنديان ، هما جون مارتن وجيمس كرى ، استعمال الترومتر الاكلينيكى .

وتنافست العقاقير ، والجراحة ، والشعوذة ، على مال المريض . وظل الفصد الدواء الذى يصلح لكل الأدواء ، وقد قدر طبيب فى ١٧٥٤ أن أربعين ألف شخص يموتون كل عام فى فرنسا من جراء الإفراط فى الحجامة . [٢٨] وفى أخريات القرن تصاعدت الاحتجاجات على هـذا الدواء ووجدت لها صوتا فعالا فى كتاب ولشتين « تعليقات على الفصد » وتكاثرت العقاقير . وقد نبذت فارماكوبيا لندن الرسمية الصادرة فى ١٧٤٦ الوصفات المؤلفة من نسيج العنكبوت ، وقرون الثور الوحشى ، ولبن العذراء ، ولكنها احتفظت بالترياق ، وعيون السرطان ، وقمل الصوف والأفاعى ، واللآلىء ، زعما منها أنها تولف مزائج شافية . وقد أعطت فارماكوبيا عام ١٧٢١ صفة رسمية لصبغ الأفيون الكافورى (paregoric) وعرق الذهب المقيئ (الابيكاك) ، ومقيئ الطرطير ، وروح النشـادر الطيار ، وغيرها من العقاقير الجديدة ؛ وأضافت طبعة ١٧٤٦ الفالريانا ، وروح النترات الطيب ، و « البلسم » (صبغة الجاوى) ؛ واعتمدت طبعة ١٧٨٨ الازنيكا ، والعشبة ، والقشيرة ، والمانزيا ، وصبغة الأفيون ... وبدأ استعمال زيت الخروع فى أوربا الحديثة حوالى ١٧٦٤ ، والزرنيخ حوالى ١٧٨٦ ، وادخل اللحلاح (الكولشيوم) علاجا للنقرس فى ١٧٦٣ وتعلم غلام من شروبشير يدعى وليم وذرنج من جدة عجوز أن كف الثعلب (الديجيتال) مفيد للاستسقاء . وقد ظفر بمكان مرموق فى تاريخ الطب باكتشافه فائدته فى أمراض القلب (١٧٨٣) . وكان كثير من مشاهير الأطباء يصنعون عقاقيرهم ويبيعونها ، ويتقاضون الأتعاب على تذاكرهم

الطبية لا على عيادتهم لمرضاهم . وأثرى أفراد من « الأدوية المملوكة لأصحابها » — المركبة من وصفات سرية مسجلة . وهكذا ابتلعت إنجلترة أطناناً من « إكسير ستوتن » و « زيوت بتن البريطانية » و « حبوب هوبر للنساء » و « أقراص الدود » لنشنج .

وكان دجاجلة الطب ومشعوذوه عنصرا محببا فى المسرح الطبى . من ذلك أن « الكونت » اليساندرو دى كاليوسترو ، واسمه الحقيقى جوزبى بلساموا ، كان يبيع إكسيرا يطيل العمر للحمقى الأغنياء فى أقطار عديدة . وزعم الشفالييه تيلر ، وهو مسلح بابرة السد (الكتركته) ، إنه يشفى أى مرض من العيون ، وقد استمع إليه جيبون وهاندل والأمل يراودهما . واقنعت جوانا ستيفنز البرلمان بأن يدفع لها خمسة آلاف جنيه لقاء الكشف عن سر علاجها الشافى من الحصى . فلما نشرت وصفتها (١٧٣٩) اتضح أنها مركب من قشر البيض ، والحلزونات ، والحبوب ، والصابون ، وفى كل حالة من الحالات التى زعمت أنها شفتها وجد الحصى فى المثانة بعد موت المريض .

وأما أشهر دجاجلة القرن الثامن عشر فهو فرانتز أنطون مزمر Mesmer وقد بعثت رسالته التى نال عليها درجة الدكتوراة من فيينا (١٧٦٦) الدعوى القديمة القائلة بتأثيرات النجوم على الإنسان ، ففسرها بأنها أمواج مغنطيسية وحاول حينا أن يشفى الأمراض بتمرير المغنطيس على الأعضاء المريضة ، ثم أقلع عن هذا العلاج بعد أن قابل قسيسا بدا أنه يشفى بمجرد وضع يديه على المريض ، ولكنه أعلن أن قوة سحرية تسكنه ، وأن فى إمكانه نقلها للغير بحفز من المال . وافتتح مكتبا فى فيينا ، حيث عالج المرضى بلمسهم — كما كان يفعل الملوك مع مرضى الداء الخنازيرى ، وكما يفعل دعاة الشفاء بالإيمان اليوم . وأعلن البوليس إنه مشعوذ ، وأمره بأن يبرح فيينا فى ظرف ثمان وأربعين ساعة . فرحل إلى باريس (١٧٧٨) وبدأ من جديد بنشر « مذكرة عن كشف المغنطيسية الحيوانية » (١٧٧٩) ، وأقبل إليه المرضى لينومهم mesmerize فكان يلمسهم بعصاه السحرية ، أو يحملق فى عيونهم

حتى يخضعهم لإيحاءاته اخضاعا أشبه بالتنويم ؛ وكان قبح صورته معينا رهيبا فى عملية التنويم هــذه . وأقام أحواضا مغنطيسية تحــوى مزيجا قوامه سلفيد الهيدروجين ، ومزودة بنتوءات حديدية يمسها المرضى وأيديهم متشابكة ؛ ولـكى يجعل مزمير الشفاء مؤكدا كان يلمس كلا منهم بدوره . وكان بين مرضاه المركيز دلافاييت ودوقة بوربون ، وأميرة لامبال ، وغيرهم من الشخصيات البارزة فى البلاط . وعرض عليه لويس السادس عشر عشرة آلاف فرنك أن كشف عن سره وأسس معهدا مغنطيسيا مباحا للجميع ، فرفض . وقد كسب خلال ستة أشهر ٠٠٠ر٣٥٠ فرنك[٢٩] وفى ١٧٨٤ عينت أكاديمية العلوم لجنة من أعضائها لافوازييه وفرانكلن لبحث طرق مزمير . وقد سلم تقريرها ببعض دعاواه وعلاجاته الشافية (لا سيما للأمراض العصبية الصغيرة) ، ولـكنه رفض نظرية المغنطيسية الحيوانية التى قال بها . ثم أدانته حكومة الثورة الفرنسية باعتباره نصابا ، وصادرت ثروته المغرية ونفته من فرنسا . وقد مات بسويسرة فى ١٨١٥ .

وفى لندن افتتح جيمس جراهام (١٧٨٠) « معبد للصحة » على مبادئ مزمير مع تحسينات أدخلها عليه . فزوده بسرير عرس سحرى للعروسين ضمن له كفالة النسل الجميل لهما ؛ وكان يتقاضى مائة جنيه أجرا عنــه لليلة . [٣٠] وكانت مساعدته « ربة الصحة » فى إجراءاته هى إيما ليون ، التى قدر لها حين أصبحت ليدى هاملتن أن تنوم اللورد نلسن ذاته .

واستغرق الجمهور ورجال الطب القرن الثامن عشر بطوله تقريباً لتقبل التطعيم الوقائى لونا مشروعا من ألوان الطب العلاجى بعد أن أختلط عليهم الأمر لـكثرة أدعياء الطب وعلاجاته المعجزة . وكان قدماء الصينيين قد مارسوا نقل الفيروس الذى أضعفت قوته من إنسان مصاب بالجدرى إلى آخر لتحصينه ضد الجدرى . [٣١] ولهــذا الغرض نفسه كانت النسوة الشركسيات يخزن الجسم بأبر مست بسوائل الجدرى . وفى ١٧١٤ وصفت رسالة من الدكتور ايمانويل تيمونى ، قرئت على جمعية لندن الملكية ، « الحصول على الجدرى بالحز أو التطعيم ، كما مورس منذ زمن طويل

فى الأستانة . (٣٢) كتبت ليدى مارى ورتلى مونتاجيو من الأستانة فى أول أبريل ١٧١٧ :

« أن الجدرى ، ذلك المرض الشديد الفتك والانتشار بيننا (نحن البريطانيين) قد جعله اختراع التطعيم سليم العاقبة تماما . . . . وفى كل عام تجرى العملية لألوف الناس . . . . وليس هناك حالة واحدة لشخص مات منها . وقد تصدق أننى مطمئنة جداً لسلامة التجربة إذا علمت أننى أنوى تطبيقها على ولدى الصغير الحبيب . (٣٣)

وقد طعم الصبى البالغ من العمر ست سنوات فى مارس ١٧١٨ بيد الدكتور تشارلز ميتلاند ، وهو طبيب إنجليزى كان يومها فى تركيا .

وفى ١٧٢١ انتشر وباء جدرى فى لندن وفتك بأهلها لا سيما الأطفال . وكانت ليدى مارى قد عادت من تركيا . فكلفت الدكتور ميتلاند ، الذى عاد هو أيضا إلى وطنه ، بأن يطعم أبنتها البالغة من العمر أربعة أعوام . ودعا ثلاثة من أبرز الأطباء ليروا أن الفتاة (التى أصبحت فيما بعد ليدى بيوت) لم تزعجها النتائج إزعاجا يذكر . فأعجبوا بما رأوا ، وسمح أحدهم بتطعيم أبنه . ونشرت ليدى مارى الفكرة فى البلاط . ووافقت الأميرة كارولين على تجربة التطعيم على ستة مجرمين حكم عليهم بالإعدام ، فارتضوا على وعد بأن يفرج عنهم إن ظلوا أحياء ، وعانى أحدهم من أصابة خفيفة بالمرض ، أما الباقون فلم يبد عليهم أى أذى ، وأفرج عن الستة جميعاً . وفى ١٧٢٢ أمرت الأميرة بأجراء العملية على الأطفال الأيتام فى أبرشية — سانت جيمس ، فتكللت بالنجاح التام ، وفى أبريل أمرت باجرائها على اثنين من بناتها . وانتشر قبول التطعيم فى الأوساط الارستقراطية البريطانية ، ولكن موت شخصين مطعمين فى بيتهما عطل الحركة وقوى المعارضة لها ؛ وشكا أحد النقاد من أن « تجربة لم تمارسها غير قلة من النساء الجاهلات . . . . تسود فجأة ، وبعد خبرة ضئيلة ، على أمة من أكثر أمم الأرض أدبا وتهذيبا حتى وجدت طريقها إلى القصر الملكى . (٣٤) وأحست ليدى مارى بهذه الطعنة ، فنشرت دون توقيع « بيانا واضحا عن التطعيم بالجدرى بقلم تاجر تركى » وشجب معظم الأطباء الإنجليز التطعيم لما فيه من خطر ،

ولكن فى ١٧٦٠ أدخل روبرت ودانيال ستن التطعيم بالثقب ، وقررا أن لم يمت من بين ٣٠٠٠٠ مطعم غير ١٢٠٠ — أى أربعة فى المائة . وظل قسيس إنجليزى يدعى أدورد ماسى حتى علم ١٧٧٢ يعظ ضد « عادة التطعيم الخطرة المذنبة » ، ويدافع بقوة عن الرأى اللاهوتى القديم ، الذى يرى أن الأمراض ترسلها العناية الإلهيــة عقاباً على الخطيئة : [٣٥] وربما أمكن صياغة هذا القول من جديد ككثير من التعاليم الدينية القديمة صياغة علمانية ، وهى أن المرض كثيراً ما يكون عقاباً على الجهل والإهمال) .

وتبنت الفكرة دول أخرى . ففى أمريكا طعم الدكتور زابديل بويلستن أبنه (١٧٢١) خلال وباء الجدرى السادس الذى تفشى فى بوسطن ، وأجرى ٢٤٦ تطعيما آخر رغم معارضة هائجة هددت بشنقه . ودافع عنه أكثر القساوسة البيورتان وقاسموه ما صب عليه من طعن ولوم . [٣٦] ومنح بينامين فرانكلين وبنيامين رش تأييدهما الفعال لحركة التطعيم فى فيلادلفيا . وفى فرنسا ضرب الوصى على العرش ، فيليب أورليان ، بشجاعته المعهودة ، المثل لغيره بتطعيم ولديه . وعارضت كلية الطب بجامعة باريس التطعيم حتى عام ١٧٦٣ . ولكن فولتير امتدح حملة ليدى مارى فى « رسائله حول الإنجليز » ، ولاحظ انتشار التطعيم بين الشراكسة ، وعزاه إلى القيمة المالية للجمال : « إن الشراكسة قوم فقراء ، ولكن لهم بنات جميلات ، هن إذن أهم سلعة فى تجارتهم الخارجية ، فهن اللاتى يزودن بالحسان حريم السلطان وصوفيى فارس وغيرهم ممن يتيح لهم ثراؤهم شراء هذه السلع الثمينة والاحتفاظ بها . » [٣٧] وأذاع طبيب إيطالى يدعى أنجيلو جاتى تجربة التطعيم فى فرنسا وأذاعها تيودور ترونشان فى سويسره . وتطعمت كاترين الكبرى والغراندوق بولس الروسى بناء على إلحاح فولتير (١٧٦٨) ، وفى ذلك العام طعم بان انجهنوز ثلاثة أعضاء من الأسرة الامبراطورية فى فيينا .

كل هذه التجارب التى استعملت مصل الجدرى من الإنسان ، كان فيها الكثير ممــا يبعث على الشكوى ، لأن نسبة الوفيات من التطعيم وإن

هبطت إلى أربعة فى المائة كانت لا تزال مرتفعة ارتفاعا مؤذيا . ولاحظ جراح إنجليزى يدعى أدورد جنر أن اللبانات اللاتى أصبن بجدرى البقر (وهو مرض خفيف نسبيا) نادراً ما يصبن بالجدرى الذى يفتك بالمرضى فى غالب الأحيان . وحوالى ١٧٧٨ خطرت له فكرة نقل المناعة ضد الجدرى بالتطعيم بلقاح مصنوع من بقرة مصابة بالجدرى (vacca باللاتينية هى البقرة) . وكان هذا التطعيم قد تم من قبل على يد مزارع من دورست يدعى بنيامين جستى ، فى ١٧٧٤ — ٨٩ ، دون أن يلفت اهتمام أهل الطب وفى مايو ١٧٩٦ أجرى جنر عملية التطعيم بتلقيح جيمس فيلبس بصديد جدرى البقر . وفى يوليو لقح الصبى ذاته بفيروس الجدرى ولم يصب الصبى بالجدرى ، فاستنتج جنر أن لقاح جدرى البقر يعطى حصانة ضد الجدرى . وفى ١٧٩٨ نشر كتابه الخطير « تحقيق فى سبب ونتائج لقاح الفاريولا » ، (والفاريولا كان الاسم الطبى للجدرى) ، الذى روى فيه قصة ثلاث وعشرين حالة كانت كلها ناجحة ، وبلغ الاقتناع بالتجارب التى أعقبت هذا مبلغاً حمل البرلمان فى ١٨٠٢ و ١٨٠٧ على منح جنر ثلاثين ألف جنيه ليوسع عمله ويحسن طريقته ، وبعدها تناقصت سريعاً الإصابات بالجدرى ذلك المرض الذى ظل قروناً سوطاً من أسواط العذاب الكبرى التى أشرعت على حياة البشر ، حتى اقتصر حدوثه اليوم فى أوربا وأمريكا فى جميع الحالات تقريباً على عدوى الأشخاص الذين لم يطعموا من وفود الفيروس من أقطار لا يمارس فيها التطعيم .

٤ — الأطباء المتخصصون

كان فن التطبيب يتعقد بنمو علم الطب تعقداً أنبت فروع الطب المتخصصة . ولم تكن أمراض النساء بعد ميداناً للدرس قائماً بذاته ، أما التوليد فكان الآن مهارة متميزة ، وانتقل أكثر فأكثر إلى أيدى الرجال . وظل حياء النساء يؤثر المولدات المدربات أينما تيسرن ، ولكن العديد من الأمهات فى البيوت المالكة ضربن المثل فى قبولهن الرجال مولدين لهن . وكان وليم سمبلى رائداً فى انجلترة بدراساته فى نظام المخاض واستعمال الملقط

— وهى دراسات جمعها بعد خبرة ثلاثين عاماً فى كتابه القيم « فن التوليد » (١٧٥٢) .

وأحرز الرمد تقدماً ذا بال بجراحات السد (الكتركته) التى أجراها وليم تشسلدين (١٧٢٨) وجاك دافييل ، وقد أبتكر ثانيهما (١٧٥٢) العلاج الحديث للسد بانتزاع العدسة . وفى ١٧٦٠ صنعت أول نظارة ذات بعدين لبنيامين فرانكلن وبناء على اقتراحه فيما يبدو . وسنلتقى بديدرو يدرس سيكولوجية المكفوفين ويقترح إمكان تعليمهم القراءة باللمس ، ولعل روسو (على ما يقال) اقترح بالتفاهم معه الطباعة البارزة للمكفوفين [٣٨].

وتقدم طب الآذان بفضل استعمال القسطرة لتنظيف قناة يوستاكيوس (١٧٢٤) ، وبفضل أول جراحة ناجحة للالتهاب الحلمى (١٧٣٦) . وكشف سانل مرن فى متاهة الأذن (١٧٤٢) . وقد انقطع جياكومو رودريجز بريرا الأسبانى ، الذى شغف حباً بفتاة صماء بكماء ، لوضع لغة إشارات تستخدم يداً واحدة فقط ، وحسن الابيه شارل ميشيل دلبيه طريقة الكلام الصامت بأبجدية تستعمل كلتا اليدين ، وكرس حياته لتعليم تلاميذه بل لاعاشتهم .

وأصبح علاج مرضى العقول أكثر إنسانية باضمحلال النظرة اللاهوتية القديمة التى دان بها بوسويه وويسلى — والتى زعمت أن الجنون مس شيطانى سمح به الله عقاباً على الخطيئة الموروثة أو المكتسبة . فقد كان نزلاء النارنثروم (برج الحمق) بفيينا يعرضون على المتفرجين لقاء رسم دخول شأن الحيوانات فى معرض للوحوش . وكان مستشفى بيت لحم للمجاذيب (Bedlam) من أماكن الفرجة فى لندن ، يستطيع الجمهور فيه لقاء أجر أن يتفرس فى المخبولين وهم موثقون بسلسلة وطوق حديدى إلى الحائط . وكان المجانين فى الأوتيل ديو بباريس يعاملون بقسوة أو إهمال على أيدى خدم مبخوسى الأجر مرهقين بالعمل . وأسوأ من هذا كانت المستشفيات الخاصة لمرضى العقول ، التى كان فى الإمكان اقناعها بقبول حبس أشخاص يسلمهم إليها أقرباؤهم المعادون لهم [٣٩] . واستعملت شتى

العقاقير أو الحيل لعلاج الضحايا أو تهدئتهم – كالأفيون ، أو الكافور ، أو البلادونا (ست الحسن) ، أو الفصد ، أو الحقن الشرجية ، أو لزقة الخردل على الرأس . وذهب بعض المتخصصين إلى أن « دوشا » فجائياً من الماء البارد يخفف من السوداء (المنخوليا) ، وأوصى غيرهم بالزواج علاجاً للجنون . أما أول خطوة حديثة نحو علاج أرشد للجنون فقد اتخذها كويكريو بنسلفانيا الذين أسسوا مستشفيات يعالج فيها الجنون على أنه مرض . وفي عام ١٧٧٤ أسس الغراندوق ليوبولد الأول أمير تسكانيا في فلورنسه الأوسبدالى بونيفاتسيو ، حيث بدىء ، باشراف فنتشنتسو كياروجي ، تناول المشكلة تناولا علمياً . وفي ١٧٨٨ عينت الحكومة الفرنسية لجنة لإصلاح رعاية المجانين . وكان رئيس اللجنة . فليب بينيل قد بدأ حياته تلميذاً للاهوت ، ثم انتقل إلى الفلسفة ، وتشرب المبادىء الإنسانية التي نادى بها فولتير ، وديدور ، وروسو . وفي ١٧٩١ نشر كتابه « رسالة طبية فلسفية في الغربة العقلية » وهو واحد من معالم الطب الحديث . وفي ١٧٩٢ عين مديراً طبيا للبيسيتر ، وكان من أكبر مستشفيات الأمراض العقلية في فرنسا . وبعد عامين رقي لمستشفى أكبر هو سالبتريير وبعد أن وجه النداءات الكثيرة لحكومة الثورة ، سمح له بأن يحطم سلاسل مرضاه ، وأن يطلقهم من زنزاناتهم ويعطيهم الهواء النقي وضوء الشمس ، والرياضة ، والأعمال العقلية المتدرجة . وكان هذا واحداً من الانتصارات الكثيرة التي حققتها النزعة الإنسانية العلمانية في أشد القرون إمعاناً في اللاأدرية . .

٥ — الجراحات

كانت الجراحة أهم تقدم أحرزه طب القرن الثامن عشر باستثناء تطور التطعيم إلى التلقيح . وقد عمـــرت الرابطة القديمة بين الجراحة وفن الحلاق الصحي حتى عام ١٧٤٥ في انجلترة . أما في فرنسا فقد أنهاها لويس الرابع عشر . (وما زال شعار هذا الحلاق – وهو العمود المخطط بالأحمر والأبيض رمزاً للضمادة الملوثة بالدم – يذكرنا بماضيه الجراحي) .

وفى ١٧٢٤ صدق لويس الخامس عشر على إنشاء خمسة كراسى للجراحة فى كلية سان – كوم بباريس . واحتجت كلية الطب بجامعة باريس على رفع الجراحة إلى مثل هذا المقام الكريم ، وزحف الأطباء – وهم يرفلون فى أروابهم الجامعية الحمراء ويتقدمهم حامل صولجان ومناد – على سان كوم حيث كانت تلقى محاضرة فى الجراحة ، فلما وجدوا الباب مغلقا حاولوا فتحه عنوة وتصايحوا بالشتائم والسباب ، ناعتين الجراحين بأنهم حلاقون محدثو نعمة ، ولكن الجمع الذى احتشد انقلب على الأطباء وطردهم من المكان . وفى ١٧٣١ حصل جورج ماريشال وفرنسوا دلابيرونى على براءة ملكية بتأسيس « أكاديمية الجراحة » ، وفى ١٧٤٣ أصدر الملك أمرا حرر جراحى فرانسا من ارتباطهم بطائفة الحلاقين ، واشترط الحصول على درجة من الكلية لممارسة الجراحة . ومن يومها استطاع الجراح أن يواجه الطبيب فى غير خجل ولا أحجام .

وحدث تطور مماثل لهذا فى انجلترة . ففى ١٧٤٥ فصل الجراحين رسميا عن الحلاقين ، وتقرر اعتبار ممارسة الجراحة فى لندن أو بقربها دون امتحان وأجازة تمنحها لجنة من كبار الجراحين جريمة يعاقب عليها القانون . على أن « كلية الجراحين الملكية » لم يصدر بها ترخيص رسمى إلا فى سنة ١٨٠٠ . أما فى ألمانيا فقد كانت الجراحة عموما قبل فردريك الأكبر فى أيدى الحلاقين والجلادين ، والمتجولين من الممارسين غير المرخصين ، الذين يجبرون العظام ويزيلون السد (الكتركتة) ، ويربطون الفتق ، ويستأصلون الحصى . وكان الجراح فى الجيش – وهو مفخرة بروسيا – يسمى « فيلدشيرر » ، أى حلاق الميدان ، لأن من وظائفه الحلاقة للضباط ولكن فى ١٧٢٤ فتحت فى برلين كلية للطب والجراحة .

وكانت كثرة جراحى القرن الثامن عشر العظام من الفرنسيون . واخترع لوى بتى « المرقأة » (ضاغطة الشراين) وأدخل تحسينات على عمليات البتر والعنق وقد أجرى ديدرو فى كتابة « حلم دالامبير » على لسان الطبيب الشهير تيوفيل دبوردى وصفا لجراحة على المخ يجريها لابيرونى . وقد

أسس جان أندريه فثيل الجنيفى جراحة العظام (١٧٨٠) . وفى انجلتره طور وليم تشزلدن الجراحة الجانبية للحصى (١٧٢٧) إلى مرتبة لم تسكد تجاوزها بعده [٤٠] ، وفاخر بأنه أجرى جراحة لاستخراج حصاة فى أربع وخمسين ثانية . وأصبحت الجراحة الانجليزية علما حين أرساها جون هنتر على أساس من التشريح وللفسيولوجيا السليمين . وقد أجرى تجارب على الحيوان ليجد بدائل لجراحات كثيرا ما تؤدى بحياة الإنسان . ففى ١٧٨٦ ، بعد أن اكتشف وهو يجرب على وعل أن فى استطاعة الأوعية الدموية الفرعية أن تواصل دورتها إذا أوقف المرور من وعاء دموى رئيسى ، أنقذ حياة رجل يشكو ورما شريانيا فى الساق بربط الشريان الذى يعلو الورم والاعتماد على أجزاء الجسم المحيطة به فى امتصاص محتويات الورم . وقد أنقذت هذه الجراحة عددا لا حصر له من الأطراف والأنفس .

كذلك يحتل اسم جون هنتر مكانا مرموقا فى تطوير طب الأسنان . فقد كان هذا الفن فى انجلتره فى القرن السابع عشر متروكاً أكثره لخالعى الأسنان ، الذين كانوا يصيحون معلنين عن قدومهم ويعرضون على الجمهور حبالا من الأسنان كأنها شعار النبالة . وفى ١٧٢٨ أعلن بيير فوشار فى كتابه « جراح الأسنان » أن طب الأسنان فرع من الجراحة . ولكن هنتر كان أول من طبق الطرق العلمية على دراسة الأسنان . وقد أدخل تصنيفها إلى أنياب ، وضواحك ، وطواحن ، وقواطع ، وابتكر آلات لتقويم انطباق الأسنان . وكان أول من أوصى بإزالة لب الضرس تماماً قبل حشوه . وقد لخص أراءه فى كتابه « التاريخ الطبيعى لأسنان الإنسان » (١٧٢١) .

وكان أكثر الجراحات الصغيرة يجرى دون مخدر . وقد استعمل القدماء من قبل شتى الأشربة المنومة — مثل « السلوى » ، والأفيون ، وقاتل الدجاج ، واللقاح ، ، والشوكران ، إلخ ، وفى سفر التكوين أن الله ذاته أوقع على آدم « سباتاً » قبل أن يأخذ منه ضلعا . وقد وصف ديوسكوريدس فى القرن الأول الميلادى نبيذ اللقاح فى العمليات الجراحية [٤١] . واستعملت الهند القنب الهندى cannabis indica (الحشيش) ، وذكر أوريباسوس فى

القرن الثانى أشربة التنويم الجراحي ، كما ذكرها القديس هيلارى — وموطنه بواتييه — فى القرن الرابع . واستمر اســتعمال أكثر المنومات القديمة فى العصور الوسطى ، فكانت مدرسة سالرنو الشهيرة تحبذ استعمال « اسفنجة تخدير » . أما فى أوربا الحديثة ، فإن المخدر المفضــل كان السكر . ولم يكتشف السر همفرى ديفى الخواص المخدرة لأول أكسيد النتروجيين (الغاز المضــحك) إلا فى ١٧٩٩ . واكتشف الدكتور كروفورد لونج الطبيب بدانيالزفيل فى جورجيا خواص الأثير المخدرة فى ١٨٣٩ .

٦ — الأطبـاء

كان من أثر ازدياد الثروة ، ونمو الطبقات الوسطى عـدداً وثراء ، وتقدم علم الطب والتعليم ، أن ارتفع مقام الأطباء ودخلهم إلى درجة لم يعهدوها من قبل وقد أثلج هذا صدر لامترى ، وكان هو نفسه طبيباً ، فقال « إن كل شيء يخلى السبيل أمام الفن العظيم ، فن الطبيب الشافى . . . فالطبيب هو الفيلسوف الوحيد الذى يستحق تقدير وطنه . . . فمجرد رؤيته تعيد إلينا هدوءنا . . . وتبعث الأمل الجديد »[٤٢] . أما فولتير فكان نقاداً للأدوية — « أن الحمية خير من الدواء » ومعظم الأطباء فى رأيه مشعوذين « فى كل مائة طبيب ثمانية وتسعون مشعوذين » ولكنه أضاف : « أن الرجال العاكفين على رد العافية لغيرهم من الناس بممارستهم المهارة والإنسانية معاً هم أولا عظماء هذه الأرض ، لا بل أن لهم نصيباً من صفات الله ، لأن عملية المحافظة والتجديد تـكاد تبلغ فى سموها عملية الخلق » .[٤٣] وقد أثنى ديدرو على كليــة الطب بجامعة باريس[٤٤] ، الجامعة التى نغضست كلية لاهوتها عليه حياته ، فقال : « ليس هناك كتب أطالعها بسرور أكثر من كتب الطب ، ولا رجال يمتعنى حديثهم أكثر من حديث الأطباء — ولـكن حين أكون معافى « فقط »[٤٥] . وقد جعــل الدكتور دبورديه الشخصية المحبوبة فى قصة « حلم دالامبير » وسلط الهجاء على مهنة الطب كالعادة ، كما ترى فى مسرحيات جلدونى وصور شودوفيكى ، وقصة سموليت « فرديناند كونت فاذوم » ، وكاريكاتورات توماس رولاندسن اللذيذة .

وقد رفعت الأتعاب والدخول الأعلى من مقام الأطباء الاجتماعي . وكان أكثرهم في انجلترة يتقاضى جنيها نظير الكشف على مريض . وبلغ إيراد بعضهم ستة آلاف جنيه في العام . وقد أصبح السر هانز سلون ، أول من رقي للبابوية من الأطباء رئيساً للجمعية الملكية ، وخلع جوزف الثاني إمبراطور النمسا على جوزف فون كوارين لقب البارون . ولقي الأطباء الترحيب في خيرة أندية لندن وصالونات باريس ، وخلعوا عنهم الروب الأسود (السوتان) الكابي ، وتزيوا باحدث أزياء الطبقة الوسطى الراقية فكانوا في انجلترة يبدون في سترة من الساتان أو الحرير المطرز الأحمر ، وسراويل للركبة ، وأحذيه ذات مشابك ، وعصا ذات مقبض ذهبي ، وسيف أحياناً . أما في فرنسا فكانوا يضارعون كبار رجال الكنيسة في فخامة زيهم .

وبعض هؤلاء الأطباء يطالبنا بتنويه خاص . منهم سيمون أندرية تيسو الذي اشتهر في لوزان بتزعمه الدعوة للتطعيم ، وبكونه حجة في الصرع وقد جاهد لا ليشفي المرضى فحسب ، بل ليحفظ الصحة على الاصحاء ، وطبع كتابه « نصيحة للشعب في الصحة » (١٧٦٠) عشر طبعات في ست سنوات ، وترجم إلى كل لغة كبرى في أوربا . ومنهم ليوبولد أونبروجر الذي كان قطبا بين عظام الأطباء الذين شرفت بهم فيينا في عهد ماريا تريزا . وكان محبوبا لتواضعه وأمانته ، ومحبته للناس ، « مثل سام لخير ما في الخلق الألماني القديم من صادق القيمة والجاذبية » .[٤٦] ولم يكن الدكتور جوزف إجناس جيوتان محبوبا إلى هذا الحد ، وكان أحد نواب مجلس طبقات الأمة في ١٧٨٩ ، وحبذ عقوبة الإعدام ، واقترح استعمال آلة لقطع الرؤوس (الجيلوتين) لتفادي ضربات الجلادين الخاطئة .

أما تيودور ترونشان فكان أشهر الأطباء في سويسرة . وكان تلميذاً أثيرا لدى بويرهافي في ليدن ، ومارس الطب عشرين سنة في أمستردام ، وتزوج حفيدة جان دويت ، وعاد إلى مسقط رأسه في جنيف ، وأدخل فيها التطعيم (١٧٤٩) بادئاً بنفسه وأطفاله . وفي١٧٥٦

دعاه دوق أورليان إلى باريس ليطعم ولده الدوق شارتر وابنته التي كانت يومها المدموازيل دمانبانسيه . وعجبت باريس لهذه الشجاعة ، ولكن حين خرج المطعمان من هذه العملية دون أن ينالهم أذى ، تقاطر صفوة الناس على مسكن ترونشان في البالية — رويال وكلهم شوق للتحصن من مرض ظل طويلا يحتفظ بنسبة عالية من الوفيات في فرنسا .

وقد أعطى نجاحه وزنا لآرائه في موضوعات أخرى . فسبق روسو في حض الأمهات على إرضاع أطفالهن . ونصح مرضاه بالاقلال من الدواء والاكثار من الرياضة في الهواء الطلق ، وبأكل الأطعمة البسيطة ، والاكثار من السباحة ، وبالاغتسال في الماء البارد ، وبخلع باروكاتهم ، وطواقيهم ، وستائر أسرتهم ، وبالتبكير في النوم والاستيقاظ . وحفل البلاط في فرساي حين أمر بأن تفتح نوافذ القصر — التي ظلت مقفلة دائماً — بعض ساعات النهار على الأقل ، حتى في الشتاء . وأصبحت أفكاره من موضات العصر ، فكانت النساء من علية القوم يتمشين في ساعات الصباح الباكرة ، مرتديات الثياب القصار للتهوية ، وسرعان ما سميت هذه الثياب « ترونشين » (٤٧) .

وحين استقر بفولتير المقام في جنيف وضع نفسه في رعاية ترونشان . يقول « إنه رجل طوله ستة أقدام ، حكيم كأسكولابيوس ، وسيم كأبوللو . » (٤٨) ولم يبادله ترونشان هذا الثناء ، ولكن ربما كان كلاهما مخطئا كما قال فولتير عن نفسه وعن هاللر . أما مدام ديبينيه التي قطعت الرحلة الطويلة من باريس إلى جنيف طلبا للعلاج من ترونشان فقد رسمت لنا صورة كلها المديح والاطراء ، قالت :

سأنفق يومين أو ثلاثة في بيت فولتير مع السيد ترونشان . والحق أنني في كل يوم أكتشف في ترونشان صفات جديدة توحي باحترام وإجلال له لا حد لهما . فليس هناك ما يضارع حبه للخير ، وتجرده من الأنانية ، ومحبته لزوجته ورعايته لها . وأصارحك بعد أن عرفتها بأنها أشد نساء الأرض عبوسا وثقلا (٤٩) .

ولكن من ذا الذي يصدق حديث امرأة عن أخرى ؟

هذا ولم يكن القرن الذى نحن بصدده فذا فى تاريخ الطب ، فلم يزل جو الطب يخيم عليه ظلمات السرية ، والشعوذة ، والنظريات التى كان ينبغى أن تتوارى خجلا منذ زمن نتيجة للخبرة ، إلا أن تقدم التشريح والفسيولوجيا أرسيا الطب فوق أساس أسلم من ذى قبل، وكان تعليم الطب أشمل وأيسر ، ومزاولة المهنة دون ترخيص فى طريقها إلى الزوال ، والتخصصات تزيد المعرفة وتحسن رعاية المرضى ؛ وقد أطلقت الجراحة من عقالها ، وأخذت العلاجات المعجزة تفقد سمعتها ، وانتصارات الطب تقوم بدورها الهادئ فى ذلك الصراع الأساسى بين الدين والعقل ، وهو صراع راح يحتل مكان الصدارة فى حياة الذهن . .

* * *

المراجع

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 1..
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326; de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27; Thompson, J. W., *Economic and Social History of . . . the Later Middle Ages*, 483.
3. Taine, *Ancient Regime*, 18.
4. See Muhlhausen as described in Spitta, *J. S. Bach*, I, 344.
5. Láng, *Music in Western Civilization*, 608.
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov. 21, 1716).
7. Tietze, *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943.
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108.
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 838b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298.
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748.
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63.
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716.
25. Dillon, E., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin.
28. Barockmuseum, Vienna.
29. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Láng, 450.
32. Spitta, *Bach*, II, 46; *Enc. Brit.*, XVII, 896b.
33. Spitta, III, 18.
34. Rolland, *Musical Tour*, 84.
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n.
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 219.
41. E.g., Concerto in D for trumpet; Suite in A Minor for flute; Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158. On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147.
46. Láng, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 261-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 321.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323.
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Láng, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167.
66. Rolland, 71.
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275.
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231.
71. *Ibid.*, 230; Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 241.
74. 254.

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 173.
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 141.
4. Goodwin, 112.
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 164; *New Camb. Mod. History*, VII, 402.
6. In 1714-34.
7. 172?-33.

8. 1713–56.
9. 1722–32.
10. 1729–32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; cf. Baedeker, *Austria*, 46
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241
21. *Ibid.*, 242
22. *New Camb Mod History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II, 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288
25. *Camb. Mod. History*, VI, 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 51, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 212.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid.*, 154.
38. Carlyle, II, 327.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66–68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar. 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolò Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 432.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575
62. Carlyle, III, 161.
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 417.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*, Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443
74. Lützow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94
76. *Ibid.*, 103
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70
80. Coxe, III, 309
81. Carlyle, V, 36
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 150
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5
85. *Enc. Brit.*, IX, 718c
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313
87. Carlyle, V, 201
88. *Ibid.*, III, 260
89. Carlyle, V, 197, hotly repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c
91. Carlyle, V, 65
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 161.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 612
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid.*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752
106. Parton, II, 59
107. *Ibid.*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 106.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184
109. Carlyle, V, 182
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 213.
113. 214, Strachey, *Books and Characters*, 191.
114. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103
118 Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 28, 1753, in Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J., *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161
9. Oechsli, 264.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11 *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 262.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 56.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.
34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch lxviii.
35. Morley, 284.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254.
38 Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41 *Phil Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64
42 *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45 *Essai sur les moeurs*, Ch xx.
46 *Ibid.*, Ch cxxxiv.
47 Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51.
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543, Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247
7. Clark, G N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10 Smith, P., *Modern Culture*, II, 555.
11 *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14 Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15 Brandes, II, 107.
16 Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. *Cf. Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351
21. Faguet, *Literary History of France*, 361, 516.
22 Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors
27. In Lovejoy, *Essays*, 105
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6
30. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485
32. Reichwin, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire *Works*, VIIIa 176
34. Pinot, V. *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France* 425
35. *Ibid.*, 315, 281
36. Maverick, 242
37. *Ibid.*, 113
38. *Philosophical Dictionary*, art "Glory," in *Works*, Va, 208
39. *Works*, XVIa, 119, XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI

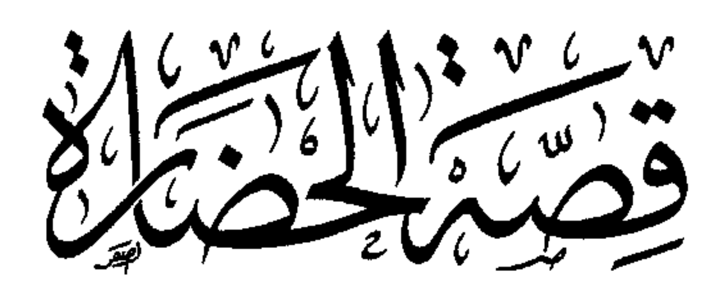
CHAPTER XVI

1. Buckle, I, 660n.
2. Fuss, N., in Smith D. E., *History of Mathematics*, I, 522
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics*, 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70
7. Whitehead, A N, *Science and the Modern World*, 91
8. Bell, 170
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185
12. Whitehead, 90
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123
16. Bertrand, 143, 153, 164. Ségur, *Julie de Lespinasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290
23. 295, Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la litterature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 21.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 359.
28. *Enc Brit.*, XX, 61c.
29. *Ibid.*, 61b.
30. Moore, F J, *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27
40. *Ibid.*, in Willey, 197.
41. Schuster, M Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
42. French, S. J., 215.
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166
44. Moore, 49
45. McKie, *Antoine Lavoisier* 225.
46. *Ibid.*, 293.
47. 325
48. 319
49. 412 f.
50. 404
51. 407
52. French, 267.
53. Williams, III, 11
54. Langer W L., *Encyclopedia of World History*, 435
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec 30, 1786)
57. Williams, III, 21.
58. *Enc Brit.*, XI, 520d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322
65. Laplace, *Theorie analytique des probabilites*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 282
66. Quoted by Cajori in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

69. In Bell, 182
70. Berry, 307.
71. Wolf, 299.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455
73. *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 169.
76. Buffon, *Oeuvres*, IX, 454
77. Trattner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
81. Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263.
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16
84. Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 130.
85. Bearne, *A Court Painter and his Circle*, 272.
86. Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
87. Gourlie, 270.
88. Wolf, 455.
89. *Ibid.*, 456.
90. 457.
91. *Enc. Brit.*, XVIII 32.
92. Locy, 399.
93. Wolf, 349
94. *Ibid.*, 450.
95. Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24.
96. *Ibid.*, 321.
97. Sainte-Beuve, II, 264.
98. Osborn, 136
99. In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175.
100. Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, H., XVI, 37.
101. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145.
102. Osborn, H. F., *Men of the Old Stone Age*, 3.
103. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
104. In Smith, P., II, 518.
105. In Buffon, *Oeuvres completes*, I, introd., xxii.
106. Rousseau, letter of Nov. 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
108. Buffon, I, introd., xviii.
109. *Ibid.*, XII, 324-30.
110. *Ibid.*, 324n.
111. Hazard, 144
112. Voltaire, letter to Helvétius, Oct. 27, 1740.
113. Sainte-Beuve, II, 254.
114. Jardine, 32.
115. *Ibid.*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 114
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
119. Reaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis*, 81
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid.*, 122
125. Lovejoy *Essays in the History of Ideas* 137
126. Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 245.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 136
130. *Ibid.*
131. 149.
132. Brett, G. S., *History of Psychology*, 423
133. Condillac, *Traite des sensations*, 38
134. *Ibid.*
135. *Ibid.*, 70
136. Wolf, 689

رقم الإيداع : ٢٥٦٢ لسنة ١٩٨٣

م. الدجوى ـ الكرداسي عابدين



ول وايريل ديورانت

أوروبا الوسطى

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأخير من المجلد التاسع





بيروت


تونس

فهرس

الجزء الأخير من المجلد التاسع

من قصة الحضارة

الصفحة

الكتاب الخامس

الهجوم على المسيحية

١٧٣٠ - ١٧٧٤

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ - ١٧٥١

الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ - ١٧٦٨

الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ — ١٧٧٣

الصفحة

الفصل الحادى والعشرون

اتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ — ١٧٧٤

الفصل الثانى والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ – ١٧٧٨

الفصل الثالث والعشرون

إنتصار الفلاسفة

١٧١٥ – ١٧٨٩

خاتمــة فى الفردوس

الكتاب الخامس

الهجوم على المسيحية

١٧٣٠ - ١٧٧٤

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ — ١٧٥١

١ — النشوة الفلسفية

لنبدأ بتحديد مصطلحاتنا . سوف نعني بلفظة فيلسوف . كل إنسان يحاول أن يصل إلى آراء مسببة مقنعة عقلانية فى أى موضوع مهما يكن ، إذا نظر إليه فى أبعاده العريضة . وفى تحديد أكثر ، سنطلق هذا المصطلح فى الفصول التالية على أولئك الذى يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره ، والحياة أو الإنسان . ويجدر ألا نفهم الفلسفة على أنها ضد الدين أو أنها تتعارض معه ، وينبغي أن نفسح فى النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالا للدين . ولكن لما كان كثير من فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها ، فان لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوما معاديا للمسيحية(*) . وفى استعمالنا لهذا المصطلح الفرنسي فانه سيتضمن هذا المفهوم عادة . وسينطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبيرث وجريم وهلفشيوس ودى هولباخ فلاسفة ، ولكننا لن نعد روسو فيلسوفا بهذا المعنى — على الرغم من أنه يجدر بنا أن نسميه فيلسوفا ، لأنه زودنا بحجة عقلانية دفاعا عن الوجدان والإيمان . كما ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله ، ومع ذلك ، مثل فولتير ،

(*) ذكر جويوم فرنسوا برتييه ، المحرر اليسوعي اللامع لجورنال دى تريفو ، فى عدد يولية ١٧٥٩ : « جرت العادة على أن نطلق لفظة فلاسفة على أولئك الذين يهاجمون العقيدة الدينية الموحى بها ، ويطلقون لفظة مضطهد على من يناضلون دفاعا عنها »(١)

يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله . إن الجدل الذى هاج مشاعر الطبقات المفكرة فى نصف القرن الذى سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة ، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكى المسيحى كما وجد فى فرنسا آنذاك ، إنه الغيظ المكظوم فى قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطخت به الديانة سجلها من الوقوف فى وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح . وبلغ رد الفعل أقصى مداه ، ولكن كذلك كان الاسفاف فى مذبحة سانت برثلميو (١٥٧٢) ومقتل هنرى الرابع (١٦١٠) واضطهاد الهيجونوت بعد الغاء مرسوم نانت (١٦٨٥) .

ولم يكن ثمة مثل هذا العدد الكبير من الفلاسفة قط من قبل ، وألمع هلفشيوس إلى « تذوق عصرنا للفلسفة وحبه لها » [٢] وكتب دالمبير :

أطلق قرننا على نفسه قرن الفلسفة بغير منازع . فمن أصول العلوم الدنيوية الدنسة إلى أسس الوحى ، ومن الميتافزيقا إلى مسائل الذوق ، ومن الموسيقى إلى الأخلاق ، ومن حقوق الأمراء والملوك إلى حقوق الشعوب . كل شئ كان موضع دراسة وتحليل ومثار نقاش وخلاف . وليس فينا من ينكر أن الفلسفة أحرزت بيننا تقدما . إن العلوم الطبيعية تقدم لنا فى كل يوم ذخرا جديدا ... واتخذت كل ميادين المعرفة تقريبا أشكالا جديدة [٣] .

وكان الفلاسفة الفرنسيون نتاجا جديدا . فكانوا قبل كل شئ واضحين ولم يكونوا جماعة منعزلة عن العالم تكسوهم المهابة والقداسة ، يتحدثون إلى أنفسهم أو إلى نظرائهم أحاديث غامضة لا يفهمها إلا فئة معينة من الناس . وكانوا أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والآراء فى الألفاظ . وولوا ظهورهم نحو الميتافيزيقا باعتبارها ضالة ميئوسا منها ، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غرورا كاذبا عريضا . ولم يكتبوا أبحاثا مطولة معقدة جهدوا فيها فى استنباط العالم من فكرة واحدة ، ولكنهم كتبوا نسبيا موضوعات قصيرة ، ومحاورات مسلية وقصصاً متبلة أحيانا ببعض الفحش ، وهجاء قتالا من فرط السخرية ، أو حكمة معبرة بطريقة بارعة توهم بالتناقض فى سطر يحطم تحطيما . وساق هؤلاء الفلاسفة حديثهم متناغما مع رجال الصالونات وسيداتها ، وفى كثير من الأحوال وجهوا كتبهم ومؤلفاتهم إلى شهيرات النساء ، وكان لزاما أن

تكون مثل هذه الكتب واضحة جلية يسهل إدراك مراميها ، وقد تضفى على الإلحاد سحرا وفتنة . ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة إجتماعية إنتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة . وأسهمت فى الصراع بين الدول ، وكانت جزءاً من الأنباء. ولما كانت كل أوربا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء ، فان مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى انجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا ، وأصبحت أحداثا فى دنيا أوربا . وفاخر فردريك الأكبر وكترين قيصرة روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة ، وربما لم يقلقهما تنبؤ الطبقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدتها وسلطانها وقوتها .

وكان لجوتنبرج أثره البارز : فان الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين ، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذى قبل ، ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة . ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيرا فى « الرجل العادى » كما عرفوه فى ذاك العصر ، ولكنهم وثقوا فى أن نشر « الحقيقة » قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم . واعتبر دالمبير أن « فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة وهبة فى متناول البشر » [٤] ، وأصبح « التجاسر على المعرفة » شعارة الاستنارة الذى حققه عصر العقل وفاز به .

ذلك أن الإيمان بالعقل الذى آذن بانبلاج فجره فرنسيس بيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته — أى أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً فى عظمة وحى جديد ، وطالب بالسيادة والسيطرة فى كل مجال وميدان ، وعرض اصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والأقتصاد والحكومة بمفهومه المشرق . وأقر الفلاسفة بضعف العقل ، مثله فى ذلك مثل أى شئ بشرى ، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأى منطق فاسد أو تفسير خاطئ للخبرة . وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للارادة . إن هيوم الذى هيمن على عصر العقل هذا فى بريطانيا كان

أقوى ناقد واجهه العقل ، وربما باستثناء كانت . واعترف فولتير من آن لآخر بحدود العقل . واتفق ديدرو مع روسو فى أن الوجدان أساسى أكثر من العقل . واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريبا بأن غالبية الناس حتى فى أعظم الأمم حضارة ومدنية مرهقون بالحاجيات الإقتصادية والكدح فى سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل ، وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر من تأثرها بالعقل ، ومع هذا ظل الأمل معقودا على إنتشار العقل وإمكان تحريره من الأنانية الضيقة والتعاليم المغرضة .

وهكذا برغم فترات التشاوم التى مر بها الفلاسفة فقد سادت بينهم روح التفاؤل ، ولم يكن الناس قط من قبل واثقين بقدرتهم ، أن لم يكن على إعادة بناء أنفسهم ، فعلى الأقل على إعادة بناء المجتمع . وبرغم كوارث السنين السبع ، وفقدان كندا والهند واستيلاء إنجلترا عليهما ، فقد سيطرت على ذهن فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حماسة وحيوية بدا أنهما ستعيدان إلى فرنسا العجوز المتوجعة قوتها وشبابها من جديد . ولم يحدث قط منذ أيام السفسطائيين الإغريق أن انتشرت مثل هذه الآراء والأفكار الكثيرة ، أو ظهرت روح البحث والتحقيق والحوار والجدل المنعشة ، فلا عجب أن يحس ديكلوس حوله « بشئ من انهيار العقل يميل إلى التطور والنمو فى كل مكان » (٥) وبما أن باريس كانت آنذاك عاصمة الفكر فى أوربا ، فان حركة التنوير أصبحت حركة واسعة النطاق مثل حركة النهضة الأوربية وحركة الاصلاح الدينى ، والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة . وكانت النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكتشف الذهن الوثنى ، كما أن الاصلاح الدينى كان قد كسر قيود السيادة المذهبية ، وعلى الرغم منه تقريبا أطلق العنان لعمل العقل ، وباتت مقدمتا العصر الحديث هاتين تكمل الواحدة الأخرى ، وأصبح الآن فى مقدور الإنسان فى نهاية المطاف أن يحرر نفسه من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق . كما أصبح فى مقدوره أن يهز كتفيه استخفافا باللاهوت المربك المرعب ، وأن يقف على قدميه حرا طليقاً . حرا فى أن يشك ؛ وفى أن يحقق ويدقق . حرا فى أن يفكر

ويجمع ألوان المعرفة وينشرها . حرا فى أن يقيم دينا جديدا حول مذبح ا. قل لخدمة البشر ، وكان ثملا كريما شريفاً .

٢ — خليفة الثورة

ولكن كيف حدث كل هذا ؟ ولماذا انقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة فى فرنسا على المسيحية التى كانت فوق كل شىء قد مزجت الأمل بأهوالها ورعبها ، والصدقات بجرائمها ، والجمال بآثامها وخطاياها ؟

إن الثورة التى قام بها الربوبيون فى إنجلترا استطاعت أن تعبر عن نفسها مع تسامح نسبى حتى من جانب الكنيسة الرسمية ، وربما كان هذا هو السبب فى خمود لهيبها ، وفضلا عن ذلك كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة فلم تعد تزعم زعما فعالا أنها — أى الكنيسة — سلطة منافسة مستقلة . أما الكنيسة فى فرنسا فكانت هيئة قوية تملك نصيبا كبيرا من الثروة الوطنية وأرض الوطن ، وهى مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية . ويبدو أنها كانت تستنزف مزيدا من الثروة من أيدى العلمانيين إلى أيدى رجال الكنيسة عن طريق الوصية والتوريث ، كما رفضت أن تدفع أية ضرائب أكثر من « المنح أو الهبات الاختيارية » واحتفظت بآلاف الفلاحين فى أراضيها فى استرقاق فعلى ، واحتفظت بالرهبان فيما بدا أنه خمول عقيم . وكم أفادت الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة . وسيطرت على كل المدارس والجامعات تقريبا ، وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة المنافية للعقل ، واستنكرت ، على أنه هرطقة ، كل تعليم يتعارض مع تعليمها واستغلت الدولة فى فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة ، وبذلت الكنيسة غاية الجهد فى خنق التنمية الفكرية فى فرنسا . وحرضت لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الإنسانى . والتخريب الخالى من الرحمة لبورت رويال ، وارتكبت الكنيسة إثما فى الحملات الوحشية التى شنتها ضد الألبيجنسيين وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبحة سانت برثلميو ، وأشعلت نار الحروب الدينية التى دمرت فرنسا تقريبا . وفى وسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادعت الكنيسة ، وحملت

الملايين من ذوى العقول الساذجة على الإعتقاد بأنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة ، وأنها ورثت وحيا إلهيا ، وأنها ممثل الله على الأرض الملهم المعصوم من الخطأ . وأن جرائمها كانت ، بارادة الله مثل حسناتها .

وقدمت الكنيسة ردودا كثيرة على هذه الإتهامات . ولسوف نعرض لها فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه أثارت هذه الإتهامات المتزايدة حفيظة آلاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج ، وأخيرا إلى العداوة المريرة . وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعودوا يخشون رجال الدين وأحرجوهم علنا بالأسئلة العويصة . وحين دعا الأب تورنمين غير المؤمنين حوالى ١٧٣٠ إلى كلية « لويس الأكبر » ، يقال « إن غرفته اكتظت بالمفكرين الأحرار والربوبيين وأنصار المذهب المادى ، وما استطاع الأب الجليل أن يحول أحدا عن رأيه » [٦]. وجزع رجال الدين من كثرة عدد الفرنسيين والفرنسيات الذين فارقوا الحياة رافضين تناول الأسرار المقدسة للكنيسة . وهددت مدام دى برى بأن تأمر خدمها بالقاء راعى الكنيسة من النافذة حين ألح عليها فى قبول مسحها بالزيت المقدس [٧] . وشكا أحد القساوسة من أنه « فى اللحظة التى يظهرون فيها أمام الناس يجبرون على الدخول فى مناقشة ، فنحن مطلوب منا ، وعلى سبيل المثال ، أن نثبت فائدة الصلاة للإنسان الذى لا يؤمن بالله ، وضرورة الصيام لإنسان أنكر طوال حياته خلود النفس ، والمناقشة مزعجة إلى أقصى حد ، على حين أن أولئك الذين يسخرون ويهزأون يقفون إلى جانبنا » [٨] .

وذكر باربييه فى ١٧٥١ « قد نرى فى هذه البلاد ثورة تؤيد البروتستانتية [٩] » وكان مخطئا . فان طرد الهيجونوت لم يترك طريقاً وسطا بين الكاثوليكية وعدم الإيمان بصحة الكتب المقدسة . إن الفكر الفرنسى المتحرر تخطى الاصلاح الدينى وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوروبية إلى عصر الاستنارة ، وهكذا فى فرنسا فان الذهن الفرنسى لم ينعطف بثورته نحو الجانسنيين أو إلى الفئة القليلة الباقية من البروتستانت ، بل انعطف إلى مونتانى وديكارت وجاسندى وبيل ومونتسكيو ، ولما رجع المفكرون الأحرار الفرنسيون إلى ديكارت رفضوا كل آرائه تقريبا اللهم إلا « شكه المنهجى »

وتفسيره الآلى للعالم الموضوعى . وكان بيل موضع إجلال وتقدير باعتباره أدق العقلانيين المتأملين ، فقد ولدت شكوكه مزيدا من آلاف الشكوك . وكان « قاموسه » معينا لا ينضب من الدروع التى يتسلح بها أعداء الكنيسة ضدها .

وكان ما حدث فى إنجلترا مثالا حافزا ملهما مشجعا للمفكرين الأحرار فى فرنسا . وبدا أولاأن دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الاستقرائى تبشر بثمار أكثر بكثير مما يبشر استنباط ديكارث السحرى لله والخلود من وجود ديكارت . ثم كانت مادية هوبز الفظة التى لم تكف قط عن إثارة ديدرو . وهناك أيضا نيوتن الذى بدا أنه هبط بالاله إلى مجرد ضاغط زرار فى آلة العالم ، ولم يكن الفرنسيون قد عرفوا بعد أن نيوتن أكثر إنتاجا فى اللاهوت منه فى العلوم . ولا ننس الربوبيين الإنجليز الذين أمدوا فولتير بالشجاعة والقوة الدافعة . وأخيراً جاء لوك ، لأن المتشككين الفرنسيين رأوا أن صرح الدين ينهار أمام القول بأن كل الأفكار مستمدة من الإحساس . وإذا كان الإحساس نتاج قوى خارجية فان الذهن نتاج الخبرة ، وليس هبة خالدة من لدن الله لا يراه أحد . وإذا كانت الخبرة تخلق الشخصية ، فان الشخصية يمكن تغييرها بتغيير طرق التعليم ومادته . وإصلاح النظم الاجتماعية ، ومن هاتين القضيتين خلص رجال مثل ديدور وهلفشيوس ودى هولباخ إلى نتائج ثورية . وتساءل فولتير مستحضرا لوك فى ذهنه « هل يمكن أن يكون ثمة شئ أعظم من أن تثير العالم بأسره سياسيا وإجتماعيا ببضع حجج ومناظرات » .(١٠) (مات فولتير قبل ١٧٨٩) .

واستمع مرة أخرى إلى ما كتبه المركيز دارجنسون اليقظ فى ١٧٥٣

« قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين فى فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التى لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف فى باريس ، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التى أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود »

ثم يضيف دارجنسون بعد التنبؤ بالثورة ، مما أسلفنا ذكره :

ستكون الثورة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الاصلاح الدينى — وهو

خليط مشوش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا فى القرن السادس عشر . ولما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين ، فانهما سيسيران إلى حيث ينبغى لهما أن يسيرا : سيطردان رجال الدين ، ويلغيان مهنة القساوسة ، ويتخلصان من كل الرحى وكل الأسرار الغامضة .... فلا يتحدث المرء فى مصلحة رجال الدين ولا يساندهم فى دوائر المجتمع وإلا كان موضع سخرية واستهزاء ، واعتبر جاسوسا لمحاكم التفتيش . ويشير القساوسة إلى أنه فى هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث ، وهجر الناس الكلية اليسوعية ، وانسحب ١٢٠ راهبا من هؤلاء الرهبان الذين ساءت سمعتهم إلى حد كبير . (١١)

وكان ثمة تأثيرات فكرية أخرى أضعفت عقيدة العصور الوسطى الدينية . وانضم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب المحافظ (الأرثوذكسى) فى رفض سبينوزا ، لأن هذا اليهودى الكبير دمغ بأنه ملحد ، وكان من الخطر التحدث عنه دون إتهامه ، كما حرص هيوم وفولتير على أن يفعلا . ولكنهم كانوا يقرأون سبينوزا سرا ، وكانت « رسالته اللاهوتية السياسية » تثير نقد الأسفار المقدسة . وشرح كونت بولانفيلير سبينوزا بحجة تفنيده . إن هيوم الذى تأثر بفرنسا هو نفسه ، كان يؤثر فيها كذلك ؛ وكان البناؤن الأحرار (الماسونيون) يؤسسون لهم مراكز فى فرنسا ، حيث كانوا يمارسون سراً هرطقتهم الربوبية . وكانت الكشوف الجغرافية والتاريخ والدراسة المقارنة للأديان تضيف نارا إلى البوتقة التى تجرى فيها أختبار المسيحية بما لم يعهد له مثيل قط من قبل . وكان كل علم من العلوم فى نموه وتقدمه يزيد من درجة احترام العقل ، ومن الإيمان بقانون كونى ، ومن عدم الإيمان بالمعجزات ؛ وبالذات بأعظمها شيوعيا وانتشاراً ، ألا وهى تحويل خمسين ألف كاهن يوميا الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه .

وعملت القوى الإجتماعية على إنحلال العقيدة . وكان كل إزدياد فى الثروة يعجل فى التسابق على اللذة والمتعة ، كما كان يجعل القيود على الأخلاق المسيحية أكثر إزعاجا يوما بعد يوم ، فى باريس التى احتفظ فيها أكثر الملوك مسيحية بمجموعة من الخليلات ، والتى إحتلت فيها مدام دى بمبادور مكان السيدة

مريم العذراء . بل أن الانحلال الخلقي في ذاك العصر تحول إلى إتهام للمسيحية، فكيف يتأتى ، بعد سبعة عشر قرنا من سيطرة المسيحية ، ألا تكون أخلاق أوربا أحسن حالا من متوحشي أمريكا أو « الوثنيين في الصين ؟ » .

وكانت كل طبقة ، عدا الفلاحين ، تضم أقلية متشككة . واستاءت البيروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعفائها من الضرائب . والرباط الوثيق القديم بين الكنيسة و « ساعدها » الدنيوى العلماني وهو الدولة » بدأت تنفصم عراه . وكان هناك مفكرون أحرار ، مثل مالشرب في مصلحة الرقابة . وكان يحمى بكل قواه ديدرو ودائرة المعارف . وأوثق صلة بالملك كانت مدام دى بمبادور التي كانت تكره اليسوعيين ، والتي اعتبرها فولتير (واحدا منا) . ورأت الأرستقراطية في الكنيسة دعما لمركز أسرة البوربون التي كانت قد أطاحت بحكم هذه الأرستقراطية ، ومن ثم لم تكن هذه الطبقة تعارض أضعاف رجال الدين . بل لقد هلل كثير من النبلاء وسروا بامتهان فولتير وعدم توقيره للكنيسة والنيل منها ، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى العليا ارتياحهم ورضاهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين . لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيسة استنكار الفائدة (الربا) وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال . فلو أن هؤلاء الأساقفة المتعجرفين أذيقوا المذلة والهوان لصعدت البرجوازية إلى مراقى الشهرة والعزة والسلطان ومن ثم فان رجال المال ، من أمثال بويلنيير وهلفشيوس ودى هولباخ فتحوا أبوابهم وخزائنهم ، بل حتى في بعض الحالات قاوبهم ، للحرب ضد الكنيسة . وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم ، وكم تطلعوا إلى اليوم الذي يحكمون فيه الدولة ، كما كانوا بالفعل يحكمون البرلمانات . وذهب أحد تقارير الشرطة في ١٧٤٧ إلى أنه لا يكاد يوجد موظف في برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط مناف للدين في بيته [١٢] . وعجت مقاهى باريس بالالحاد . وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه « السيد وجود » وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين إنتشارا واسعا حتى في الأقاليم ، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير ، ومن باب إلى باب ، منشورات عنوانها « أشهر الدجالين

الثلاثة »(*)، ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الديني ، بل هنا وهناك في كل مكان ، عدوى الالحاد الصريح غير المقنع ؟ وإليك على سبيل المثال .

٣ — جان مسلييه : ١٦٧٨ — ١٧٣٣

كان جان راعي أبرشية أتربيني في شمبانيا . وكان في كل عام يمنح الفقراء كل ما يتبقى من راتبه بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير . وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية في وظيفة الراعي ، قضى نحبه وهو في الخامسة والخمسين ، موصيا بكل ما يملك لأهالي الأبرشية ، تاركا ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها « عهدي الجديد » وجهت إحداها إلى شعب الأبرشية : توسل فيها إليهم على المظروف الذي وضعت فيه المخطوطة ، أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم . وواضح أنه فقد الإيمان بالدين قبل أن يرسموه كاهنا » إنني لم أتقاد عملا يتعارض مع مشاعري بشكل صريح طمعا في المال ، بل أني امتثلت في هذا لأبوي (١٣) ونشر فولتير أجزاء من « العهد الجديد » ١٧٦٢ وأصدر ديدرو ودي هولباخ خلاصة له في ١٧٧٢ تحت عنوان « رجاحة عقل الكاهن مسلييه » ولم يطبع النص الكامل حتى ١٨٦١ — ١٨٦٤ ونفدت طبعته منذ عهد بعيد . ويندر الحصول عليه . وفي كل الحملة ضد المسيحية من بيل إلى الثورة ، لم يوجد هجوم متطرف قاس لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية هذا . ويبدو أنه بدأ شكوكه بدراسة الكتاب المقدس . وأظهرت نتيجة هذه الدراسة أن الكنيسة كانت حكيمة إلى حد ما في إبعاد الكتاب المقدس عن العامة . وكان يجدر بها أن تحتفظ به بعيداً عن متناول رجال الدين أيضاً . ووجد الأب يوحنا صعوبات كثيرة في الكتاب المقدس . لماذا اختلف نسب السيد المسيح في إنجيل متى إختلافا كبيراً عنه في إنجيل لوقا ، إذا كان كلاهما

(*) المخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس (وهو بهذا يقصد الأنبياء ، مما لا تقره عليه) .

منزلا من عند الله ؟ لماذا لم تنته سلسلتا النسب هاتان بيوسف إذا كان سيعفى سريعا من انجاب يسوع ، لماذا يمتدح ابن الله بأنه ابن داود الذى كان زانيا بكل معنى الكلمة ؟ وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح ، أم أن هذه التطبيقات مجرد شطحات للقوة اللاهوتية ؟ وهل كانت معجزات العهد الجديد حيلا أو خداعات ورعة ، أم كانت عمليات طبيعية أسئ فهمها ؟ وهل نصدق هذه الحكايات أم نتبع العقل ؟ وصوت جان إلى جانب العقل وأيده :

« لن أضحي بعقلي ، لأن عقلي وحده يمكنني من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والضلال ... لن أتخلى عن الخبرة لأنها مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال ، أو من سلطان المرشدين الذين أرادوا أن يزودونى به . لن أرتاب فى حواسى . ولست أتجاهل أنها يمكن أحيانا أن تؤدى بى إلى الخطأ . ولكنى من جهة أخرى أدرك أنها لن تضالنى دائما ... إن حواسى تكفى لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة التى ملت إلى إتخاذها (١٤) .

ولم يجد جان فى العقل مسوغا للإيمان بالإرادة الحرة أو خلود النفس ، ورأى أنه « يجدر بنا أن نكون شاكرين أن تهيأ لنا جميعا نوم أبدى بعد نصب وصخب الحياة الدنيا التى تسبب المشقة أكثر مما تسبب اللذه لغالبيتنا ... عودوا جميعا فى سلام إلى المستقر العام الشامل الذى جئتم منه ، ومروا دون ضجة أو تذمر مثل كل الكائنات التى حولكم » . (١٥) وعلى أولئك الذين دافعوا عن فكرة الجنة ، من قبيل العزاء ، أجاب « بأن أقلية ضئيلة . على زعمها ، حققت هذا الهدف ، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم . فكيف إذن يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء ؟ إن العقيدة التى تخلصنى من المخاوف الرهيبة ... تبدو مرغوبا فيها أكثر من الشك الذى تركنى مؤمنا بإله يتحكم فى عطفه فلا يمنحه إلا لذوى الحظوة لديه ، ويهيئ للآخرين السبيل ليكونوا جديرين بالعذاب الأبدى ، كيف يمكن لأى إنسان متحضر أن يؤمن بإله يحكم على المخلوقات بالخلود فى الجحيم . ؟ »

هل هناك فى الطبيعة إنسان بلغ من القسوة حداً يتعمد فيه تعذيب ، لا أقول رفاقه من الكائنات . بل أى كائن واع حساس أياً كان ؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبقاً لمبادئكم ، شرير أكثر بكثير من أى شرير من بنى الإنسان . إن القساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائنا خبيثا ماكراً صارماً إلى حد أن فئة قليلة فى هذه الدنيا هى التى لا تود إلا أن يكون الإله موجوداً .. وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله . (١٦)

ورأى فولتير فى هذا شيئاً من التطرف ، وبذل أقصى الجهد عند نشره « العهد الجديد » (الذى ألفه جان) فى أن يلطف من الحاد الكاهن بالربوبيه ، ولكن مسلبيه كان عنيدا متشددا . واستطرد قائلا أن اله المسيحية هو منشئ كل الشرور ، لأنه حيث أنه قادر على كل شئ يتم دون رضاه وموافقته ، فاذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا الموت . وإذا وهبنا الصحة والثروة ، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب . (١٧) إن فى العالم دلائل كثيرة على تصميم بارع ، ولكن هلا توجد فيه علامات كثيرة بنفس القدر على أن العناية الإلهية ، إن وجدت ، قادرة على إيقاع أشد أذى شيطانى؟

إن كل الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء رياء ونفاقا على العناية الإلهية التى أفرطوا فى الثناء على رقابتها اليقظة . ومهما يكن من أمر فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر على السواء فى صراع دائم مع العناية الإلهية . فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التى تنزلها به فى صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجدب وغيرها من مختلف النازلات التى تجعل كد الإنسان وجده غير ذى جدوى . وفى إيجاز أرى أن البشر جميعا مشغولون باستمرار فى حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التى تدبرها هذه العناية الإلهية التى يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم . (١٨)

وفوق كل شئ هل وجد إله أغرب وأبعد عن التصديق من هذا ؟ إنه لآلاف السنين ظل مختفياً عن أعين البشر ، واستمع دون استجابة واضحة بريئة

لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه . والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة ، ولكن ملكه يسوده الخلل والاضطراب والخراب . والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب كما يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية . والمفروض أنه عادل وهو يهيئ للأشرار سبل الرخاء والإزدهار ، على حين يتعذب القديسون حتى الموت . إنه منهمك دائماً فى الخلق والتدمير [١٩] .

وبدلا من الإعتقاد مثل فولتير بأن الإيمان بالله أمر طبيعى عام ، أكد مسلييه أن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعى ، وأنه يجب أن يصب فى أذهان المراهقين أن :

كل الأطفال ملحدون — ليس لديهم فكرة عن الإله ... ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون . إن مربياتنا هن أول معلمى اللاهوت . إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدثن عن آدميين تحولوا إلى ذئاب ... إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلها لولا ما يبذل من جهد فى أن يجعلوا لهم إلها.[٢٠]

وعلى حين أعلن معظم الملحدين عن إعجابهم بيسوع ، نرى مسلييه يشمل السيد المسيح نفسه فى هدمه الغاضب الانفعالى للعقيدة الدينية . وقبل كل شئ . أى رجل عاقل يصدق أن الله ، لكى يسترضى البشر ويستميلهم .. يمكن أن يضحى بأبنه البرىء الذى لم يرتكب إثما ؟ [٢١] أما عن يسوع نفسه فيقول : —

إننا نرى فيه ... متعصبا مبغضا للبشر ، يعظ البائسين فينصحهم بأن يكونوا فقراء . ويكافحوا الطبيعة ويجمدوها ، ويكرهوا اللذة ويلتمسوا الآلام والشقاء . ويحتقروا أنفسهم ، ويطلب إليهم أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أواصر الحياة ليتبعوه . أية أخلاق كريمة ! ... لابد أن تكون سماوية لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان[٢٢]

وينتقل مسلييه إلى مادية كاملة : وليس من الضرورى أن نذهب إلى ما وراء المادة لنسأل عن خالقها . ويمكن أن يتخلف لغز المنشأ خطوة إلى الوراء ليفسح مجالا للسؤال الطبيعى للطفل : « من الذى خلق الله ؟ » وأنا

أقول لكم أن المادة تعمل من نفسها بنفسها ... واتركوا لرجال اللاهوت علتهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج التى تراها (٢٣) وإذا كان لزاما أن تعبدوا أحداً ، فاعبدوا الشمس ، كما تفعل شعوب كثيرة ، فإن الشمس هى الخالق الحقيقى لحياتنا وللصحة والضوء والدفء والبهجة والسرور . ولكن واحسرتاه ! ويأسف مسلييه ، لو أن الدين كان واضحا لكان أقل جاذبية وفتنة لدى الجهال ... إن هؤلاء بحاجة إلى الغموض والأسرار والخرافات والمعجزات والأشياء التى لا يمكن تصديقها (٢٤) .... إن الساوسة والمشرعين ، بابتداع الأديان وإختلاق الأسرار ... قد أرضوا أذواق الجهال ، إنهم بهذه الطريقة يجتذبون المتحمسين والنساء والأميين . (٢٥)

وصفوة القول ، فى رأى مسلييه ، أن الدين كان جزءاً من مؤامرة بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق (٢٦) . إن الكهنة «حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا إلههم مرعبا متقلبا طاغية كثير النزوات والأهواء . وكان لزاما أن يكون كذلك من أجلهم حتى يكون فى خدمة مصالحهم المتنوعة » (٢٧) وتقع تبعة هذه المؤامرة على رؤوس رجال الدين أكثر منها على الملوك ، لأنهم يسيطرون على الأمير منذ طفولته ، عن طريق كاهن الاعتراف ، ويلقنونه الخرافات ، ويشوهون عقله ويعوقون نموه ويقودونه إلى التعصب الدينى والاضطهاد الوحشى (٢٨) وبهذا :

> زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى الثورات ودمرت الملوك وخربت أوربا بأسرها ، ولم يكن من الميسور إخماد هذه النزاعات الحقيرة حتى فى أنهار من الدماء . إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين ، فى كل مرة يستثيرهم فيها معلموهم إلى تحطيم إخوتهم ، وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس فى سبيل إرضاء الرب أو تسكين سورة غضبه (٢٩) ... أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا يوجد إلا فى خيالهم وحدهم (٣٠)

إنهم يدافعون عن هذه المؤامرة الضخمة المستمرة بذاتها من جانب الكنيسة والدولة ضد الإنسان والعقل على أساس أن ديانة خارقة للطبيعة ، بل قل ديانة إرهاب ، أمر لا غنى عنه فى مهمة بناء الفرد والأخلاق .

ولكن هل حقاً أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة ، وهل الأمم التى يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد والخلق القويم ؟ (٣١) ويكفى لنتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكا بالدين ونفكر فيها مليا ، وسنرى طغاة متعجرفين ، ورجال البلاط ، ومغتصبين لا حصر لهم ، وحكاما لا ضمائر لهم ، ودجالين وزانين وفاسقين وأباحيين فجرة ، وعاهرات ولصوصا ، وأوغاداً من كل صنف ، لم يشكوا لحظة فى وجود إله محب للإنتقام ، أو لم يشكوا فى عذاب الجحيم أو جنة النعيم (٣٢) .

كلا ، إن الأفكار اللاهوتية ، على الرغم من اعتراف كل الناس تقريبا بها ، فإن تأثيرها على سلوكهم ضعيف ، فالإله بعيد كل البعد ولكن الإغراء قريب « من ذا الذى ترهبه وتخيفه فكرة الإله ؟ نفر قليل من الضعاف البائسين المتبرمين بالحياة ، وبعض أفراد انطفأت فيهم بذرة العواطف والشهوات بحكم السن أو العجز والوهن أو تعثر الحظ . (٣٣) إن الدولة ، لا الكنيسة ، هى التى تخلق النظام وتعود المواطنين على طاعة القوانين » إن القيود والضوابط الإجتماعية أقوى من الدين فى تقويم سلوك الناس (٣٤) وأحسن العلاقات ، مع تعاقب الأيام ، هى تلك التى تؤسس على العقل والذكاء .

ولكى يتبين الناس مبادىء الأخلاق القويمة فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحى أو الآلهة . إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة وحسن الإدراك ، إنهم ينبغى عليهم أن يتفكروا فى أنفسهم ويتأملوا طبيعتهم ، ويتدبروا مصالحهم الواضحة ، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع وهدف كل عضو فيه ، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات. والناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة ، وهم جهلة لأن كل شىء يتآمر على

الحيلولة بينهم وبين الاستنارة . وهم أشرار لمجرد أن عقلهم لم ينم ولم يتطور بعد بدرجة كافية ؟ (٣٥)

ويستطيع الفلاسفة أن يبتوا أخلاقا طبيعية فعالة ، لو لم يكرهوا على معتقد تقليدى ؛ اثف خشية الكهنة الأقوياء المتسلطين :

إن اللاهوت منذ أقدم العصور هو الذى حدد مسار الفلسفة وبم ساعدها اللاهوت ؟ إنه حولها إلى رطانة غير مفهومة ... ذات ألفاظ لا معنى لها ، أكثر ملاءمة للتعمية منها للتنوير ... كيف اضطر ديكارت ومالبرانش وليبنتز وكثيرون غيرهم لإبتداع فرضيات ومراوغات ليوفقوا بين كشوفهم وبين الأفكار الخيالية والأخطاء الفاضحة التى أضفى عليها الدين صفة القداسة ! وأية احتياطيات لم يلجأ إليها أعظم الفلاسفة لحماية أنفسهم . حتى إلى حد المغامرة بوصفهم بالطيش والحمق ، وبأن كلامهم غير مفهوم إذا تعارضت أفكارهم مع مبادىء اللاهوت ! وكان القساوسة اليقظون على أتم استعداد لهدم المبادىء والآراء التى يتعذر التوفيق بينها وبين مصالحهم . وكل ما استطاع الأفراد المستنيرون أن يفعلوه هو أن يتحدثوا ويكتبوا فى معان خبيثة وغالبا مطاوعة موصومة بالجبن ، حتى يوفقوا بين الباطل والحق توفيقاً مخزيا . كيف أمكن أن يدعى الفلاسفة والحديثون ، تحت التهديد بأقسى الإضطهاد والتعذيب ، إلى نبذ العقل والخضوع للعقيدة — أى لسيادة رجال الدين وسيطرتهم — وكيف يتأتى لأناس مكبلين بمثل هذه القيود والأغلال أن يطلقوا العنان لعبقريتهم ومواهبهم ... أو يعجلوا بتقدم الإنسانية (٣٦) ؟

وكان لدى بعض الفلاسفة من الشجاعة ما استطاعوا معه أن يتقبلوا الخبرة والعقل هاديا ومرشدا لهم ، ويحطموا أغلال الخرافة — لوسيبوس وديموقريطس وإبيقور وسترابو — ولكن مناهجهم كانت بسيطة معقولة مجردة من الأعاجيب والمعجزات من أجل عشاق الخيال حتى اضطرت إلى الاستسلام لأحداس أفلاطون وسقراط وزينون الخرافية . ومن بين الفلاسفة الحديثين اتبع هوبز وسبينوزا وبيل وغيرهم نهج ابيقور (٣٧) .

ورثى مسليه لما منيت به البشرية من خسارة نتيجة لسيطرة اللاهوت

على الفلسفة . ودافع عن حرية الفكر حقاً أساسياً ، يمكنه وحده أن يحقق للناس معنى الإنسانية وعظمة النفس [٣٨] .

إنهم باظهارهم الحقيقة وحدها يمكنهم أن يدركوا أفضل مصالحهم ، والعوامل الحقيقية التي تؤدى بهم إلى السعادة . لقد طال العهد بمعلمى الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء ، فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض . لقد تعب الذهن البشرى من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة ،والأسرار العويصة والطقوس الصبيانية . فلينشغل هذا الذهن البشرى بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف والأشياء الواضحة والحقائق المعقولة والمعرفة النافعة .[٣٩]

فليطلقوا حرية الكلام والفكر والصحافة والطباعة وليكن التعليم علمانيا غير مقيد . إذن لأسرع الناس الخطى يوما بعد يوم إلى اليوتوبيا (المثالية). إن النظام الإجتماعى الراهن جائر ،أنه يهيئ لأقلية ضئيلة الثراء الخامل وينشر فيها الفساد نتيجة للترف وللبذخ ، على حساب الإبقاء على الملايين فى فقر مذل وجهل مخز . ونظام الملكية هو أس البلاء ، فالتملك لصوصية ، وقد كيفوا التعليم والدين والقانون لحماية هذه اللصوصية وإجازتها، [٤٠] وان ثورة للقضاء على مؤامرة الأقلية ضد الأغلبية لها ما يبررها كل التبرير . وصاح مسلييه فى غضبته الأخيرة « أين جاك كليمنت (قاتل هنرى الثالث) ورافاياك (قاتل هنرى الرابع) فى فرنسا ؟ هل بقى على قيد الحياة فى أيامنا هذه رجال يطيحون برووس هؤلاء الجبابرة البشعين المنحرفين أعداء الجنس البشرى ، ويهذا يخلصون الناس من الطغيان [٤١] ؟ فلنوزع الأمة الملكية توزيعا عادلا ، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب ، وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم ، وليتزوج الرجال والنساء وليفترقوا متى شاءوا ، ولينشأ أطفالهم معاً فى مدارس مشتركة ، وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع فى الأسرة ونهاية لحرب الطبقات والفقر . وهنا تكون المسيحية فى النهاية حقيقية صادقة[٤٢] ،

وبعد أن ذكر جان مسلييه كل ما أسلفنا ، ختم إنجيله أو عهده الجديد بعبارة يتحدى فيها ، كما أدرك هو ، كل الذين يمقتونه ويصبون عليه اللعنات :

دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا مايريدون ... لن أعبأ بهم كثيراً ... بل إنى اليوم لم أعد أعبأ كثيرا بما يحدث فى العالم . إن الأموات الذين أوشك أن ألحق بهم قريبا ، لا يعانون الآن شيئاً ولم يعودوا يزعجون أنفسهم . ومن ثم فأنا أضع نهاية لكل هذا . أنا الآن أشبه شئ بالعدم ، وبعد قليل سأصبح لا شئ حقاً [٤٣] .

هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا فى تاريخ البشرية جمعاء ؟ تصور الكاهن المنعزل مجردا من كل عقيدة ومن كل أمل ، وهو يعيش منسيا لا ذكر له فى قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعبا ورهبا ، إلا نفسه هو ، لمجرد الاطلاع على أفكاره الخفية . ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا لمخطوطته . وهناك ، ودون إكتراث ودون معرفة واسعة بطبيعة الإنسان ، صب كل غيظه واستيائه فى صراحة بالغة معادية للدين غاية العداء مما لم يعهده حتى عصره نفسه . وهنا كانت حملة فولتير ضد « المنبوذين » وكل مادية لامترى وكل الحاد دى هولباخ ، وكل خيال ديدرو الجامح المدمر ، بل شيوعية بابيف أيضاً . واصدر فولتير « عهد » جان مسلييه بعد تردد ، ونشره دى هولباخ فرحا مغتبطا ، ومن ثم اختمر فى ذهن فرنسا وأسهم فى التمهيد لسقوط النظام القديم . ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية .

٤ — هل الإنسان آلة ؟

إن جوليان أجوفروى دى لامترى رد على هذا السؤال بالإيجاب . ولد فى سان مالو ١٧٠٩ لتاجر ميسور ، وتلقى تعليما واسعا واعتزم أن يكون شاعرا . وحبذ والده الوظيفة الكنسية باعتبارها أقل خطرا ، فأرسله إلى إحدى الكليات فى بليسيس حيث شب الولد جانسنيا متحمسا . ولكن طبيبا صديقاً للوالد رأى (هكذا يقول فردريك الأكبر) أن طبيبا عاديا يمكن أن يحصل من علاج المرضى على أكثر مما يحصل عليه القسيس الفاضل من عمليات الغفران . [٤٤] ومن ثم حول جوليان إهتمامه إلى التشريح والطب وحصل على درجة فى الطب من ريمس ، وتتلمذ على بورهاف فى ليدن ، وكتب عدة أبحاث طبية ، وعمل جراحا فى الجيش الفرنسى ، ورأى واحداً

فى المائة من الحد والعظمة وتسعة وتسعين فى المائة من حالات الإسهال (٤٥) فى ساحتى القتال فى دتنجن وفونتنوى ، ولزم هو نفسه الفراش أثر حمى شديدة ، فلما شفى زعم أن صفاء ذهنه أو موضوع تفكيره كان يختلف باختلاف درجة الحمى . ومن ثم خلص إلى أن التفكير وظيفة المخ ، ونشر هذا كله وما يرتبط به من آراء ١٧٤٥ تحت عنوان « التاريخ الطبيعى للنفس » .

وسار البحث على هذا المنوال : « نحن لا نعرف ما هى النفس . ولا نعرف ما هى المادة ، ولكنا نعرف على أية حال أنه لا توجد نفس بلا جسد : ولدراسة النفس تجب دراسة الجسم ، ولدراسة الجسم ينبغى أن نبحث فى قوانين المادة . إن المادة ليست مجرد امتداد ، إنها أيضاً قدرة على الحركة ، وهى تشتمل على مصدر فعال يتخذ مزيدا من الأشكال فى مختلف الأجسام ، ولسنا نعرف أن للمادة فى ذاتها قوة الإحساس ، ولكنا نشهد دليلا على تلك القوة حتى فى أحط الحيوانات . وإنه لأكثر إتفاقا مع المنطق أن نعتقد بأن هذه الحساسية تطور من إمكانية من أصل واحد فى المادة ، من أن تعزوها إلى نفس خفية صبت فى الأجسام عن طريق قوة خارقة للطبيعة . وعلى هذا فإن هذا المصدر الفعال « فى المادة يتطور فى النبات والحيوان حتى إذا كان فى الإنسان مكنه من أن يدق قلبه ، ومن أن تهضم معدته ومن أن يفكر مخه . وهذا هو التاريخ الطبيعى للنفس . » —

وارتعدت فرائص القسيس فى كتيبه لامترى فزعا لهذه النتيجة ، وصاح منذراً متوعداً ، وفصل الطبيب الفليسوف من وظيفة الجراح فى الجيش ، وكان يمكن أن يهب زملاؤه الأطباء لنجدته ، لولا أنه كان قد كتب فى نفس الوقت تقريبا كتابا صغيرا تحت عنوان « سياسة الأطباء » يهجو فيه دسائسهم فى تنافسهم على الوظائف التى تدر مالا وفيرا . وانضموا إلى مهاجمته واستنكار آرائه . ورأى أن عمله فى الطب قد انهار كما انهارت شهرته ، ففر إلى ليون ، وهناك شن هجوما آخر على مهنة الطب وتحول إلى الفلسفة .

وهكذا أصدر لامترى فى ليون كتاب (الإنسان الآلة) وهو يقصد بالآلة هنا جسما ترجع كل أفعاله إلى أسباب وعمليات باطنية أو خارجية . أما

جسم الحيوان آلة فيتضح له من مائة ظاهرة : فإن جسم الحيوان يظل ينبض ويرتجف ، وأن أمعاءه تظل تتمعج (التمعج موجات متعاقبة من تقلص لا إدارى تحدث فى جدران الأمعاء فتدفع محتوياتها إلى الأمام) لبعض الوقت بعد الموت . وتنبض العضلات التى تفصل عن الجسم إذا نبهت وهكذا . فالحيوانات عندئذ آلات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم لا يكون الإنسان ، وعظامه وعضلاته وأوتاره وأعصابه قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحيوانات العليا ؟ وواضح أن الذهن يعتمد على العمليات الفيزيائية الكيميائية فى الجسم والأفيون والقهوة والخمر ومختلف العقاقير لا تؤثر فى الجسم وحده . بل إنها يمكن أن تغير مجرى التفكير وطبيعته ، ومزاج الإرادة وقوتها . إنك إذا غيرت بعض الأنسجة فى مخ فونتينيل لجعلت منه شخصاً أحمق أبله (٤٦) ، إن مرض الجسم يمكن أن يضعف الذهن . إن النفس تكتسب حيوية ونشاطاً بالجسم ، وتكاسب حدة وذكاء كلما قوى الجسم (٤٧) ، والغذاء يؤثر فى الخلق . وعلى هذا فان « الانجليز الذين يأكلون اللحم أحمر مشويا بالدم ، غير مطهو طهيا جيدا مثل لحومنا ، يبدو أنهم يشتركون بشكل أو بآخر فى الوحشية تبعاً لهذا اللون من الطعام (٤٨) فهل ندهش إذن إذا وعى الفلاسفة دائماً فى أذهانهم صحة الجسم حفاظا على صحة النفس ؟ » ، وأن « فيثاغورس وضع قواعد للتغذية كما حرص أفلاطون على تحريم الخمر ؟ » (٤٩) ويخلص لامترى إلى أنه :

> حيث أن كل قدرات النفس تعتمد إلى مثل هذا الحد على التنظيم السليم للمخ وكل أجزاء الجسم ... فمن الواضح أن هذه القدرات ليست إلا هذا التنظيم نفسه . وواضح أن النفس آلة مستنيرة ... فالنفس لذلك لفظة جوفاء ، ليس لدى أى إنسان فكرة عنها ، ويجدر أن يستخدمها الإنسان المستنير لتعنى فقط ذلك الجزء الذى يفكر فينا (٥٠) .

وفى كتاب « الإنسان نبات » (١٧٤٨) توسع لامترى فى « سلسلة الوجود» الكبيرة إلى نظرية للتطور . وفقد بعض ثقته حين حاول تخطى الهوة الواضحة بين اللاعضوى والعضوى ، وفجأة نسى الآلية (المذهب الآلى) وانزلق إلى

المذهب الحيوى : افترض بذورا معينة مكنت المادة من أن تسبب الحياة (٥١) ووجد من السهل عليه بعد ذلك أن يتبع اوكريتس « لابد أن الأجيال الأولى كانت ناقصة غير تامة ... وما كان يمكن أن يكون الكمال عمل يوم واحد فى الطبيعة ، ولا فى الفن » (٥٢) . وليضيق الهوة بين الحيوان والإنسان يحاول لامترى ، على النقيض من ديكارت ، أن يبرهن على أن بعض الحيوانات تفكر : —

لننظر إلى القرد والسمور (حيوان ذو فراء ثمين) والفيل وغيرها فى تصرفاتها . وواضح أن هذه الأنشطة لا يمكن تأديتها دون ذكاء . ولم ننكر الذكاء على هذه الحيوانات ؟ وإذا وهبتهم نفسا فقد ضيعت . ومن ذا الذى لا يرى أن روح الحيوان يجب أن تكون فانية أو باقية ، من أى النوعين نفس الإنسان ؟ (٥٣) .

وليس ثمة فرق كبير بين أبسط إنسان وأذكى حيوان « فالبلهاء » أو المعتوهون .... حيوانات لها وجوه بشرية . كما أن القرد الذكى إنسان صغير ذو شكل آخر (٥٤) ويستطرد لامترى فيقول فى دعابته المألوفة أن كل مملكة الإنسان ليست إلا مركبات من قردة مختلفة ، ووضع البابا نيوتن على رأسها (٥٥) ولم يعد الإنسان يكون قردا إلا عندما اخترع أصواتا معينة لتكون تعبيرا مناسبا عن أفكار بعينها . وأصبح إنسانا بفضل اللغة (٥٦) .

وهل أقر لامترى بوجود إله « محركا أول » لآلة العالم ؟ وكأن فولتير وديدور قد دافعا عن هذه الحجة من الحاجة إلى وجود نظام للكون . ورفضها لامترى فى احتقار :

إن كل تفكير يقوم على العلل أو الأسباب النهائية تفكير طائش . إن الطبيعة تمهد الطريق للسيد البرجوازى ليتحدث نثرا دون أن يعرفه . إن الطبيعة عمياء حين تهب الحياة ، قدر ما هى بريئة حين تدمرها . وكما أنها دون نظر خلقت عينين تبصران ، فإنها كذلك صنعت دون تفكير ، آلة تفكر (٥٧) .

ولم يكن لامترى ملحداً صريحاً . إنه تظاهر بالميل إلى نبذ موضوع الإله

على أنه غير هام « فليس يهمنا من أجل راحة البال ، إذا كانت المادة أبدية أو أنها خلقت ، أو أنه يوجد أو لا يوجد إله » . [٥٨] ولكنه نقل ربما عن صديق وهي « إن العالم لن يكون سعيداً مطلقاً إلا إذا كان ملحداً » ، فعند ذاك لا تكون ثمة مزيد من خلافات لاهوتية ولا اضطهادات من جانب الكنيسة ولا مزيد من الحروب الدينية ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن غرائزه الطبيعية دون شعور بالإثم [٥٩] وقنع لامترى بالنسبة لشخصه بالمادية (المذهب المادى) واختتم كتابه « الإنسان آلة » بعبارة جريئة متحدية : « هذا هو منهجي — بل هو الحق ، إلا إذا كنت قد ضللت كثيراً . إنه موجز بسيط . ناقشوه الآن إذا أردتم » . [٦٠] ويحتمل أنه من قبيل الدعابة أهدى لامترى بيانه « اللاأدرى » (الغنوصى) إلى الشاعر المتدين الورع والعالم الفسيولوجي البرخت فون هوللر الذى رفض الإهداء فزعا جزوعا فى خطاب إلى « صحيفة العلماء » عدد مايو ١٧٤٩ .

> إن المؤلف المجهول لكتاب « الإنسان آلة » أهدى إلى كتابه الخطر بقدر ما هو شاذ غير مألوف ، وإنى لأشعر بأنى مدين بالفضل لله وللدين ولنفسى ، إذ أدلى بهذا التصريح ... إنى أعلن هنا أن الكتاب الذى نحن بصدده لا يلتئم مع مشاعرى ، وأعتبر أن فى إهدائه إلى شخصى إساءة بالغة تفوق فى قساوتها كل إساءة وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من أفاضل الناس . وأرجو أن يتأكد الجمهور أنى لا علاقة لى بهذا المؤلف ... وأنى لا أعرفه ... وأنه يجدر بى أن أعتبر أى توافق بيننا فى الآراء أعظم كارثة محققة يمكن أن تنزل بى [٦١] .

واستمر لامترى يطبع الإهداء فى الطبعات اللاحقة من هذا الكتاب .

وتناول الناس « الإنسان آلة » بالنقد والتمحيص على نطاق واسع ، واجمعوا على دحضه وتفنيده . وكان من اليسير نقد الأسلوب المضطرب فى هذا المجلد الصغير وشجب الثقة بالنفس وتبيان مواضع مجانبة الحقيقة . ولم يكن واضحا على الإطلاق أن النفس والجسم يغلبهما النعاس معاً [٦٢] وبعض الكتاب أكثر إشراقاً فى أحلامهم وأوهامهم منهم فى كتاباتهم . وقد

يستقر جسم مريض فى ذهن سليم مثل بوب وسكارون ، ولن يسلم محبو اللحوم النادرة أنهم لا يزالون فى مرحلة الصيد . إن لامترى نفسه الذى كان كثير المزاح نشر نقدا مزعوما لكتابه ، فى رسالة غفل من اسم المؤلف تحت عنوان « الإنسان أكثر من آلة » — وربما كان هذا وسيلة لجذب الأنظار إلى كتابه الأول .

ومن ناحية أخرى ربما كان لامترى متأثرا حقا بالحجج التى تساق ضد المذهب الآلى ، ونحن نعلم أنه كان مهتما بشرح ترمبلى (١٧٤٤) للقوى التجديدية فى الماء العذب لبعض الحيوانات المائية البسيطة ، مما لم يتفق بسهولة مع النظرية الآلية . وكان جورج ستال الذى اشتهر برأيه فى وجود نارية فى الأجسام ، قد قلب فى جرأة (١٧١٧) الفرضية الفسيولوجية ، ذلك أنه بدلا من القول بأن الجسم هو الذى يحدد أفكار النفس واختياراتها ، فإن النفس — وهى العنصر المتأصل النشط — هى التى تتحكم فى نمو الأعضاء وعملها . وكان تيوفيل دى بوردو — طبيب دالمبر — يعتقد أن العمليات الفسيولوجية ، حتى أبسط الهضم غير قابلة لتفسيرات آلية أو كيميائية بحتة (٦٣) وعرض جان بابتست روبينيه لحيوية كونية وهبت كل المادة الحياة والحساسية . وكان واضحا أن لامترى يود أن يرتضى هذا الحل لمشكلة المادة بازاء الحياة .

وفى الوقت عينه انتقل لامترى ليستنتج مذهبا قائما على اللذة من فلسفته المادية . وفى كتب ثلاثة مستقلة — بحث فى السعادة ، واللذة ، وفن الاستمتاع — أعلن أن حب الذات هو أسمى الفضائل ، وأن اللذة الحسية هى أعظم الخير ، وكره تحقير اللاهوتيين للذات الحياة ، ونازع فى سمو المتعة العقلية المزعومة ورأى أن كل الملذات حسية حقاً . ومن ثم فان البسطاء من الناس الذين لا يهتمون بالحياة الفكرية أسعد حالا من الفلاسفة ، ويقول لامترى : لا يندمن أى إنسان على انغماسه فى الملذات الحسية ما دامت لا تنطوى على أى ضرر للغير ، ولا يجوز أن يعتبر أى إنسان مسئولا مسئولية خلقية عن جرائمه لأنها نتاج الوراثة والبيئة اللتين لا سلطان له عليهما ، وينبغى ألا

يعالجوه بالعظات بل بالدواء . وبحزم يحمى المجتمع ، بل وبشفقه تعترف بحتمية كونية . ومن المرغوب فيه أن نختار لمناصب القضاء أمهر الأطباء [٢٤].

وكانت هذه الآراء من علائم إنتصار أبيقور (وقد أسئ فهمه) على زينون فى فرنسا القرن الثامن عشر : واستسلمت الفلسفة الرواقية فى العهد الزاهر للويس الرابع عشر ، لدفاع الأبيقورية عن مذهب اللذة فى عصر الإستنارة ، ولشمولية المادة وإطراح الألهة . فلا عجب أن يشتد الإقبال على كتب لامترى من جمهور تحرر من أوهام اللاهوت وأرهقته الشكليات التقليدية والقيود الخلقية . ومهما يكن من أمر فإن المجتمع المهذب نفر من لامترى باعتباره مفكرا خارجا على جماعته كشف عن كثير من معتقدات الطبقة العليا ، وهو عاجز عن ضبط النفس . وهاجمه رجال الدين مبعوثا من عند الشيطان . واستحث رجال اللاهوت فى ليدن الحكومة الهولندية لإبعاده عن البلاد . وفى فبراير ١٧٤٨ دعاه المفكر الحر فردريك الأكبر للحضور إلى بروسيا ومنحه راتبا ، وضمه إلى أكاديمية العلوم فى برلين ، واستأنف لامترى ممارسته مهنة الطب وكتب عن الربو وعن الدوسنتاريا أبحاثا اعتبرها الملك أحسن ما كتب من نوعها . وبعد أن اصطدم فولتير بلامترى فى حاشية فردريك ، كتب إلى مدام دنيس فى ٦ نوفمبر ١٧٥٠ يقول :

> هنا رجل مرح جداً ، هو لامترى ، وأفكاره عبارة عن ألعاب نارية ، على شكل صواريخ من السماء دائما . وثرثرته مسلية لبضع دقائق ، ولكنها مزعجة بعد ذلك إلى حد مؤلم . إنه ألف دون أن يدرى كتابا رديئا ، دأب فيه على تحريم الفضيلة والندم وامتداح الرذائل ،وحرض فيه قراءه على الحياة المختلفة والمنافية للأخلاق والحشمة — دون قصد سئ منه . وفى كتابه هذا ألف من اللمسات المشرقة ، ولكن فيه نصف صفحة من العقل . إنها أشبه بومضات برق فى الليل .. اللهم حل بينى وبين اتخاذه طبيبا لى ، إنه قد يعطينى عقارا مزعجا بدلا من الراوند بكل براعة . ثم يشرع فى الضحك والسخرية . وهذا الطبيب العجيب هو قارئ الملك .

وأحسن ما فى الموضوع أنه يقرأ له كتاب « تاريخ الكنيسة » إنه يقرأ مئات من الصفحات من الكتاب ، وهناك مواضع يكاد يختنق فيها الملك والقارىء من الضحك [٦٥] .

وكان لامترى قد وصف الموت بأنه خاتمة مسرحية هزلية ساخرة تمثل . وفى ١١ نوفمبر ١٧٥١ ، وهو فى الثانية والأربعين قدم نفسه مثالا لهذه المسرحية . ففى مأدبة عشاء أقامها له مريض عالجه من داء عضال ، فأتخم بفطيرة من لحم الطير ، فانتابته حمى شديدة وقضى نحبه . وهنا قتل المرض طبيبه [٦٦] . وكتب الملك بهذه المناسبة رثاء جميلا . وتنفس فولتير الصعداء . وانتقلت أفكار الرجل المتوفى إلى ديدرو ودى هولباخ ، ودخلت إلى روح العصر .



الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧٦٨ - ١٧١٣

١ - سنوات الضياع والكسل : ١٧١٣ - ١٧٤٨

ولد ديدرو فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى لانجرز فى شمبانيا ، على مسافة ٣٨ ميلا من ديجون . وكأن أبوه ديديبه ديدرو يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت . ولم يرث دنيس عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم ، ولكنه لم يكف يوما عن أجلاله وحسن تقديره لامانة أبيه الموسومة بالبساطة وأقباله على أعمال البر والخير فى هدوء . وينقل عنه دنيس قوله « أى بنى ، أى بنى أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى إلى وسادة الدين والقوانين »[1] وهنا فى جملة وأحدة تردد الصوتان اللذان سمعا فى فرنسا القرن الثامن عشر . — وكان له أخ أصبح كاهنا وخصما لدوداً لدنيس . وأخت دخلت الدير .

وكاد دنيس نفسه أن يكون كاهنا ، ذلك أنه منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة يسوعية فى لانجرز وفى الثانية عشرة حلق شعر رأسه وارتدى غفارة سوداء (لباس الكاهن فى الكنيسة) وعاش حياة الزهد والتقشف ، وعقد العزم على أن يكون يسوعيا . وفسر هو هذا فيما بعد ، بأنه فيض من حماسته ، وأنه كان قد أخطأ « الحافز الأول لحنين جنسي ينمو بين جنبيه فخاله صوت الله »[2] . وأبتهج الوالد ديديبه لهذا النداء الباطنى الجديد لدى أبنه . ورأفقه مغتبطاً إلى باريس (١٧٢٩) ليلحق ، بكلية (لويس الأكبر) اليسوعية هناك ومنها حصل فى ١٧٣٢ على درجة الأستاذية . ولكن كما حدث فى حالات كثيرة كان اليسوعيون يفقدون راهبا مبتدئا بشحذ ذهنه وصقله . وأكتشف دنيس أن باريس عبارة عن

مواخير أكثر منها كنائس . فخلع غفارته وتخلى عن ورعه وتقواه ، وأنصرف إلى التدريب عند أحد المحامين . وسرعان ما نبذ القانون ، وقضى عشر سنين يتنقل من مهنة إلى مهنة . وعانى آلام الفقر فى حجرة فوق السطح ، ونفد صبر والده فمنع عنه النفقة ، ولـكن والدته كانت تمده ببعض المعونة خفية . وأقترض دنيس بعض النقود ، وكان أحيانا يسدد ما أقترض . وأعطى دروسا خاصة فى الرياضيات ، ودبج العظات للقساوسة ، وأشتغل كاتبا عند بائع كتب ، وفى نفس الوقت تابع دراسته فى الرياضيات واللاتينية واليونانية والانجليزية ، وألم الماما جيدا بالأيطالية . وكان متمرداً على القانون ولـكنه كان تواقا شديد التوق إلى المعرفة والحياة . لم يتعلم النظام والانضباط قط ، ولكنه تقريباً تعلم كل ما عدا ذلك .

وكان مفلسا خالى الوفاض ، ولـكنه ممتلىء حيوية وقوة ، ووقع فى شرك الغرام وأعتزم الزواج . وكانت انطوانيت شامبيون تكبره بثلاث سنين وثمانية أشهر ، ولكنها كان سيدة . وعنفته على شبابه المفاجىء ، ولـكنه أكد لها أن هذا مقدمة لحياة زوجية أمينة ، وأنه سيكون رفيق حياتها المخلص الأمين إلى الأبد . « أن خطابات غرامى الأخيرة موجهة اليك ، ولتعاقبنى السماء باعتبارى أشر الناس وأشدهم خيانة وغدرا إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك »[٣] . ونقضت أرق خطاباته هذا العهد . واستسلمت والدة أنطوانيت لدموع أبنتها ولفصاحة الخطيب ولسانه الذرب ، ووافقت على الزواج شريطة الحصول على موافقة أبيه . وجمع ديدرو ما يكفى من المال لسداد نفقات العربة إلى لا نجرز على بعد ١٨٠ ميلا .

ووصل إلى لا نجرز ، وهناك تأثر والده بتجاوب طبخ وصلت إلى أبنه لترجمته لتاريخ اليونان عن الأنجليزية . وعرض الوالد أن يقدم العون لأبنه فى أى عمل . وكان على دنيس أن يختار ، ولابد أن يقع أختيارة على شىء ما . فأعلن الشاب عن تلهفه على الزواج فعنفه أبوه بقسوة على أنه شاب عاق كسول سىء التدبير . ورد الأبن ردا وقحا ، وأقسم أن يتزوج سواء وأفق أبوه أم لم يوافق ، ودون أى عون مادى منه . وسجنه أبوه فى دير محلى ،

وهرب دنيس وسار على قدميه تسعين ميلا إلى تروى حتى أستقل عربة هناك . وعاد أدراجه إلى باريس .

ولكن مدام شامبيون كانت مصممة على ألا تتزوج أبنتها من رجل منفصل عن أبويه محروم من الميراث وكان ديدرو يقيم فى حجرة حقيرة لايكاد يملك من حطام الدنيا شيئا ، وأنتابه مرض شديد فلما علمت أنطوانيت بذلك أسرعت إليه مصطحبة أمها معها قسرا ، وهناك أنهارت معارضة الأم . وسهرت مدام شامبيون وأبنتها على العناية بالفيلسوف المريض ، وفى ٦ نوفمبر ١٧٤٣ تزوجت « نانيت من نينو » (كما كان يسمى الواحد منهما الآخر) فى منتصف الليل فى كنيسة صغيرة أثرت بمثل هذه الزيجات السرية . وأبتهج الزوجان بانجاب طفلة بعد تسعة أشهر ، ولكنها لم تعمر لأكثر من ستة أسابيع . وولد لهما ثلاثة أطفال آخرين جاوز واحد منهم سن الطفولة . وأثبتت أنطوانيت أنها زوجة مخلصة ولكن رفيقة غير ملائمة عاجزة عن متابعة تحليقات أو شطحات زوجها الفكرية ، غير راضية فى شيء من المزاح ، عن دخله الضئيل من الترجمة . وعاد إلى مقاهى الفساد يعيش على القهوة ويلعب الشطرنج . وفى ١٧٤٦ كان قد إتخذ له عشيقة هى مدام بويسييه ، ومن أجلها كتب « الأفكار الفلسفية » « الحلى الزائفة » و « رسائل إلى العميان » .

وكان منذ وقت طويل قد أستسلم لفتنة الفلسفة التى تجتذبنا دائما ، لأنها لا تجيب أبدا عن الأسئلة التى لا نكف مطلقا عن القائها . ومثل بعض المفكرين لأحرار فى هذا القرن ، تأثر من هذه الناحية تأثرا عميقا بقراءة مونتانى وبيل ، ووجد فى كل صفحة تقريبا فى « المقال » وفى « القاموس » فكرة رائعة تلفت النظر . واجتذبة كثرة مراجع مونتانى وأشاراته إلى الروائع الوثنية إلى الأستزادة من دراسة الفلاسفة اليونان والرومان وبخاصة ديموقريطس ، وأبنيقوز ولوكريتس . وكان هو نفسه « الفليسوف الساخر » فى عصره ، فليسوفا ماديا يتدفق حيوية ونشاطا — ولم تتيسر له نفقات زيارة إنجلترا مثل فولتير ومونتسكيو ، ولكنه تعلم أن يقرأ الأنجليزية فى سهولة

ويسر . ولو ليستمتع بالشعراء والكتاب المسرحيين الانجليز . ولسوف نراه يتجاوب مع عواطف طومسون ويدافع ، مثل ليللو عن مأساة حياة الطبقة الوسطى . وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمى المنظم ، وأنتقل إلى تمجيد التجربة أداة عظيمة للعقل . وأستمع فى سنى تكوينه وتشكيله هذه ، ومرة أخرى عند إعداد الموسوعة — إلى محاضرات فى البيولوجيا والفسيولوجيا والطب . وشهد طيلة سنوات ثلاث مؤتمرات رويل فى الكيمياء ودون ملاحظات فى ١٢٥٨ ورقة من القطع الكبير . ودرس التشريح والفيزياء ، وتمشى مع رياضيات زمانه ، وتابع الأبحاث من بيكون إلى هوبز ولوك والربوبيين الأنجليز . وفى ١٧٤٥ ترجم كتابا شافتسبرى « بحث فى الفضيلة والجدارة » وأضاف تأملات من عنده ، وأستمر طوال التقلبات يؤمن بأن الخير والحقيقة والجميل كلها مؤتلفة تقريباً ، وأن قانونا أخلاقيا مؤسساً على العقل ، لا على الدين ، يفيد النظام الاجتماعى بدرجة كافية .

وأصدر فى ١٧٤٦ ، مدفوعا بكل هذه الحوافز وبخياله الواسع الخصيب ، كتابه « أفكار فلسفية » دون أن يذكر أسم المؤلف . وكان متطرفا إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى لامترى ، بليغاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى فولتير . وربما كان لكليهما بعض الفضل فيه . وبدأ بدفاع عن « الانفعالات » وهنا حاول الفكر الجرىء ، متفقا فى ذلك مع صديقه روسو ، أن يبرهن على أنه لا ضير من « أن تقول الفلسفة كلمة فى صالح خصوم العقل ، مذ كانت الأنفعالات وحدها هى التى ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة ، ولن يبلغ شىء ذروة السمو فى الأخلاق أو الأعمال بدون الأنفعالات ، فقد ترجع الفنون القهقرى إلى طفولتها ، وتتقلص الفضيلة إلى أتفه الأعمال بدونها[٤] . ولكن الأنفعالات بدون نظام تكون مدمرة . ويجدر أن يكون هناك بعض التنسيق بينها ، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد جماح الآخر . ومن هنا نحتاج إلى العقل ، وينبغى أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا ، وهنا كانت محاولة مبكرة فى عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان ، بين فولتير وروسو .

وكان ديدرو ، مثل فولتير ، فى أولى مراحل تطوره ونموه ، ربوبيا . أن شواهد تصميم العالم وتكوينه ترغم على الإيمان برب ذكى بارع . ويمكن أن يفسر المذهب الآلى المادة والحركة ، ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر . أن ملحد المستقبل تحدى الملحدين أن يفسروا عجائب حياة الحشرات التى كشفت عنها حديثا أبحاث ربومير وبونيه :

هل رأيتم فى تفكير أى إنسان وأعماله ، ذكاءا ونظاما وحكمة وأتساقا أكثر من تركيب الحشرة ؟ اليست بصمات الإله وأضحة فى عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير فى أعمال نيوتن العظيم ؟ . . . فكروا فقط فى أنى لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة وعين البعوضة . على حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون(٥) .

ومهما يكن من أمر فأن ديدرو نبذ فى إزدراء الإله الذى جاء به الكتاب المقدس حيث بدأ له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة ، واتهم الكنيسة التى نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل والتعصب والأضطهاد . وهل ثمة شيء أشد حمقاً وسخفا من أن يجعل الهاً يموت على الصليب ليهدىء من غضب الله على رجل وامراة ماتا منذ أربعة آلاف سنه . ثم ـــ كما يقول بعض رجال اللاهوت « إذا لعنت وعذبت ألف نفس مقابل خلاص نفس واحدة ، اليس الشيطان هو الرابح فى هذه القضية ، دون أن يسلم الرب أبنه إلى الموت ؟ ولم يعترف ديدرو بأى وحى الهى سوى الطبيعة نفسها . وناشد قراءه أن يرتفعوا إلى مفهوم رب جدير بالكون الذى كشف عنه العلم . وطالب « بتكبير الإله وتحريره(٦) » .

وأمر برلمان باريس باحراق الكتاب بمعرفة المدعى العام بتهمة « تقديمه إلى الأذهان القلقة المضطربة الجرئية أشد الأفكار سخفا وأجراما ، والتى من شأنها إفساد الطبيعة البشرية ، وبوضعه كل الأديان فى مستوى واحد تقريباً ، فى ارتياب مصطنع ، حتى ينتهى إلى عدم الأعتراف بها جميعا(٧) ولما كان أحراق الكتاب الصغير (٧ يوليو ١٧٤٦) بمثابة أعلان عنـــه ، فوجد له عدداً غير متوقـــع من القراء ، وترجم إلى

الالمانية والأيطالية ، ولما تهامس الناس بأن ديدرو هو مؤلفه ، أرتفع إلى مرتبة تدانى فولتير . وتسلم من الناشر ٥٠ جنيها ذهباً . أعطاها لعشيقته التي كانت فى حاجة إلى ملابس جديدة .

ولما تزايدت مطالب مدام دى بويسييه ، ألف ديدرو كتاباً آخر (١٧٤٧) سمع به كاهن الأبرشية ، فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحمى المسيحية من هجوم ثان . ففاجأ رجال الشرطة المؤلف فى داره وصادروا مخطوطة الكتاب ، أو كما يروى بعضهم ، قنعوا بوعد منه بعدم نشره . وعلى أية حال لم يظهر كتاب « نزهة الشكاك » حتى ١٨٣٠ ولم يزد هذا الكتاب شيئا فى شهرة المؤلف ولكن كان فيه تنفيس عن مشاعره . ولجأ إلى حيلة الفيلسوف الأثيرة لديه فى المراوغة ، إلا وهى الحوار ، فهيأ لربوبى وقائل بوحدة الوجود (الله والطبيعة شيء واحد ، الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات لألهية) وملحد ، بأن يشرحوا وجهات نظرهم فى الألوهية . ويكرر الربوبى فى حماسة الحجة المأخوذه من تصميم الكون ، ولم يكن ديدرو مقتنعا بعد بأن تكيف الوسائل مع الغايات فى الكائنات هو تكييف رائع ممتاز يمكن تفسيره بعملية عمياء من تطور أتفاقى جاء مصادفة . أما الملحد فيصر على أن المادة والحركة والفيزياء والكيمياء تفسير للكون أفضل من إله لا يفعل إلا أن يؤجل مشكلة الأصل أو المنشأ . أما القائل بوحدة الوجود ، وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل ، فيعتقد أن الذهن والمادة أبديان معاً ، وأنهما يؤلفان الكون ، وأن هذه الوحدة الكونية هى الله . وربما كان ديدرو يقرأ سبينوزا .

وكان عام ١٧٤٨ مثيراً ومجهداً . كانت أنطوانيت قد وضعت طفلا . وكانت مدام دى بويسييه تطالب بتعويض عن الزنى والفجور ، ومن المحتمل أن ديدرو ، رغبة فى الحصول على المال بسرعة ، كتب آنذاك قصة فاجرة « الحلى الزائفة » وبناء على ما أوردته أبنته (مدام دى فانديل مستقبلا فى كتابها : مذكرات من تاريخ حياة وأعمال ديدرو) — ولاينبغى الأخذ بما جاء به قبل التأكد من صحته — فأن ديدرو ذكر لعشيقته أن كتابة قصة مسألة سهلة نسبيا ، ولكنها تحدته فى ذلك فراهن على تأليف قصة ناجحة فى

أسبوعين ، ووأضح أنه كان يقلد كريبيون Crebillon الأصغر فى « الأريكة» ١٧٤٠ حيث أخذت أريكة تتذكر من جديد عدد العاشقين الذين كانت تئن تحتهم . وتخيل ديدرو خاتما سحريا عند أحد السلاطين إذا وجهه إلى الحلى الزائفة عند المرأة ، جعلها وعشيقها يعترفان بكل ما قاسى الأثنان وعانيا من الغرام . ووجه الخاتم السحرى إلى ثلاثين سيدة ، وما كاد يفتّر عنصر التشويق والأمتاع فى المجلدين كليهما . وخلط المؤلف البذاءة بشىء من الملاحظات المثيرة عن الموسيقى والأدب والمسرح — وأضاف حلما رأى فيه السلطان طفلا يسمى « التجربة » أخذ ينمو ويكبر ويقوى حتى دمر معبداً قديما أسمه « الفرضية » وحقق الكتاب غرضه على الرغم من إقحام الفلسفة فيه ، حيث أمكن أن يدر مالا ، ودفع الناشر لورنت دوراندا لديدرو مبلغ ١٢٠٠ جنيه فى المخطوطة وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن يباع إلا خلسة فقد عاد بربح وفير . وخرجت ست طبعات بالفرنسية فى ١٧٤٨ وظهرت عشر طبعات فى فرنسا بين عامى ١٩٢٠ — ١٩٦٠ والواقع أن هذا أوسع كتب ديدرو أنتشارا وأكثر عدد طبعات[٨] .

وبدل ديدرو من طبعه وحالته النفسية حين كتب رسائل علمية . وقدر أحسن التقدير كتابه « مذكرات فى موضوعات مختلفة فى الرياضيات » (١٧٤٨) الذى ضم أبحاثا علمية أصيلية فى الصوت والجهد ومقاومة الهواء ، « وتصميما لا رغن جديد » يمكن أن يعزف عليه أى إنسان . وأثنت « مجلة الرجل المهذب » « وصحيفة العلماء » على بعض المقالات ، بل إن صحيفة اليسوعيين « دى تريفو » إمتدحتها ، ودعت إلى مزيد من مثل هذه الأبحاث من رجل بارع قدير مثل مسيو ديدرو الذى نلاحظ أن أسلوبه رشيق واضح غير متكلف بقدر ما هو مبدع[٩] . وظل ديدرو طوال حياته ينطلق بشكل غير متواصل إلى العلوم الطبيعية . ولكن إزداد ميله إلى مسائل علم النفس والفلسفة . وكاد يكون فى كل مجال تقريباً أكثر المفكرين أصالة فى زمانه .

٢ – الأعمى والأصم والأبكم ١٧٤٩ – ١٧٥١

لفت نظر ديدرو بوجه خاص مسألة كان قد أثارها وليم مولينكس الايرلندى ١٦٩٢ : هل يستطيع إنسان ولد أعمى كان قد تعلم التمييز بين مكعب وجسم كروى باللمس . أن يفرق فى الحال إذا عاد إليه بصره ، بين هذين الجسمين ، أو هل يقتضى الأمر قبل هذا التفريق بعض الخبرة فى العلاقات بين الأشكال ملموسة ونفس الأشكال مرئية ؟ وجاء الجواب الثانى من مولينكس وصديقه لوك . وفى ١٧٢٨ قام وليم شزلدن بتجربة ناجحة على صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، كان ضريراً عند الولادة ، وكان لزاما أن يتدرب الصبى قبل أن يتمكن من التمييز بين الأشكال بالنظر وحده . ولأحظ ديدرو أيضا بعناية مثيرة حياة نيقولا سوندرسن الذى فقد بصره فى عامة الأول ، ولم يسترده قط ، ولكنه إبتدع لنفسه كتابة رياضية خاصة على طريقة بريل ، ومن ثم أكتسب قدرة إلى درجة عين معها أستاذا للرياضيات فى كمبردج .

وفى أوائل ١٧٤٩ دعا ريومور مجموعة مختارة من الناس ليشاهدوا ماذا يحدث عند إزالة الضمادات عن عينى امرأة أجريت لها عملية لعلاجها من عمى خلقى . وأستاء ديدرو وجرحت كبرياؤه لأنه لم يدع هو والفلاسفة الآخرون إلى هذه المناسبة . وباستهتاره المعهود قال إن ريومور كان قد رتب أن ترفع الضمادات أمام « بعض عيون لا قيمة ولا شأن لها[١٠] » وطبقا لما روته أبنة ديدرو أساءت هذه العبارة إلى مدام ديبرى دى سانت مور التى كانت تفتخر بعينيها والتى كانت العشيقة الحالية لمدير المكتبة الحالى ، أو كبير مراقبى المطبوعات الكونت دارجنسون (مارك بيير ، الأخ الأصغر للمركيز رينيه لويس) .

وفى ٩ يونيو نشر دوراند كتاب ديدرو « رسالة عن العميان لخدمة المبصرين » وكانت على شكل رسالة موجهة إلى مدام بويسبيه . وبدأت بوصف زيارة قام بها ديدرو وبعض الأصدقاء لزارع كروم أعمى . وأذهلهم روح النظام عند الرجل المكفوف البصر إلى الحد الذى تعتمد عليه فيه زوجته

بالليل فى إعادة كل شيء إلى مكانه بعد فساد النظام أثناء النهار . وكانت حواسه الباقية أحد وأقوى من حواس الناس العاديين « وهناك بالنسبة له فروق بسيطة لاتكاد تذكر من نعومة الأجسام ، وهى فروق لاتقل دقة عن الفروق بين أصداء الأصوات ، ولاخوف من أن يحسب خطأ أن سيدة أخرى هى زوجته ، إلا اذا كان فى المبادلة كسباً له »(١١) ولم يكن يدرك كيف يعرف الانسان الوجه دون أن يلمسه . وانحصرت روح الجمال عنده فى الأشياء الملموسة وفى رخامة الصوت والمنفعة ولا يجد عاراً فى العرى لأنه يجد أن فى الثياب حماية من الجو لا اخفاء الجسم عن أعين الآخرين . واعتبر السرقة جريمة كبرى لأنه يقف حيالها عاجزاً لاحول له ولا قوة .

وخلص ديدرو إلى أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله ، بل من خبرتنا الحسية . بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها ، وهى أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق ، نسبية متنوعة . ووجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيراً من قوته . حقاً هناك شواهد وبراهين على التصميم والتركيب فى كثير من الكائنات والأعضاء مثلما هو فى الذبابة والعين ، ولكن ليس ثمة شواهد على التصميم فى الكون باعتباره كلا ، لأن بعض الأجزاء عوائق — إن لم تكن أعداء فتاكة — لأجزاء أخرى ، وكل تركيب تقريباً محكوم عليه أن يلتهمه تركيب عضوى آخر وتبدو العين مثالا رائعاً لتطابق الوسائل مع الغايات ، ولكن فيها عيوب وشوائب جسيمة (كما يوضح هلمهولتز هذا تفصيلا فيما بعد) وثمة عفوية أو تلقائية خلاقة فى الطبيعة ، ولكنها نصف عمياء . وتؤدى إلى كثير من الخلل والاضطراب والتبديد والضياع . وزعم ديدرو أنه اقتبس من كتاب « حياة دكتور نيقولا سوندرسون وخلقه لمؤلفه وليم انشليف (وواضح أنه لم يوجد قط) ، فأجرى على لسان الأستاذ الأعمى قوله « لماذا تحدثنى عن هذا المشهد الجميل الذى لم يصنع من أجلى قط ؟ . . . إذا أردت منى أن أومن بالله فينبغى أن تجعلنى ألمســه »(١٢) وفى سيرة الحياة الوهميـــة هذه رفض

سوندرسن الإيمان بالله (*) وعزا نظام الكون إلى انتقاء طبيعي للأعضاء والتركيبات العضوية عن طريق بقاء الأصلح .

كل تركيبات معيبة ناقصة من المادة اختفت . ولم يبق منها إلا ما انطوى تركيبه على تعارض غير ذى أهمية ، والتى يمكن أن تستمر وتبقى بوسائلها الخاصة وتتوالد بنفسها . . . بل إن نظام العالم الآن ليس بالغ الكمال ، ولكن النتاجات الضخمة الغريبة تظهر من حين إلى حين . . . ماهوالعالم ؟ إنه مركب خاضع لثورات تشير كل منها إلى نزعة ملحة إلى التدمير ، تسلسل سريع للكائنات يعقب بعضها بعضاً . ويدفع بعضها بعضاً ثم تختفى (١٣) ويختتم ديدرو بمذهب اللاأدرية : « وأجسرتاه يا سيدتى ، إننا إذ نضع المعرفة الإنسانية فى ميزان مونتانى فلن نبعد عن شعاره ، لماذا نكتسب المعرفة ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المادة ، وعن طبيعة الذهن والفكر ، لانعرف إلا أقل من ذلك . بل لا نعرف شيئاً إطلاقاً (١٤) .

وجملة القول إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب فى عصر الاستنارة فى فرنسا . إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والقصص ، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصر البارع العطوف بوصفه بحثاً فى علم النفس ، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثاً فى الفلسفة ، وهو مرهق قرب انتهاء صفحاته الستين ولكنه يضم بعض ما يجافى الحشمة مما لا يكاد يليق برسالة مفروض إنها موجهة إلى سيدة ، ولكن ربما كانت مدام دى بويسييه متعودة على خاطر ديدرو بين بذاءة السوقة وسعة الاطلاع والمعرفة . وشمل البحث ، لحسن الحظ ، اقتراحاً مفصلا لما عرف فيما بعد باسم طريقة لويس بريل (١٥) .

وأرسل فولتير الذى كان آنذاك فى باريس (١٧٤٩) إلى ديدرو تقريظاً حماسياً للبحث ، قال فيه : « قرأت فى سرور بالغ كتابك الذى يذكر الشىء الكثير ويوحى بشىء أكثر . وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير ، بقدر ما أحتقر أولئك الهمج الأغبياء الذين ينقصون من قدر مالا يفهمون . . .

(*) مات سوندرسن ، طبقاً لما رواه أصدقاؤه ، متمسكاً بدينه . واستاءت الجمعية الملكية بلندن من نسبة ديدرو الإلحاد إلى أحد أعضائها ، ولم تسمح له قط بالانضمام إليها عضواً مراسلا .

ولكنى أعترف لك أنى لست من رأى ستدرسن الذى ينكر وجود إله ، لأنه ولد أعمى . وربما كنت مخطئاً ، ولكن لو أنى فى مكانة لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبنى اضافات كثيرة تكمل البصر . أود من كل قلبى أن أتحدث إليك . وليس يهمنى أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته ، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية . وقبل مغادرتى لونفيل أرجو أن تشرفنى بتناول عشاء فلسفى معى ، فى دارى بصحبة بعض الحكماء .

ورد عليه ديدرو فى ١١ يونية :

سيدى الأستاذ العزيز : إن اللحظة التى تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة . . . إن رأى سوندرسن ليس رأيى ولا هو رأيك . . . إنا أومن بالله ، ولكنى أنسجم كثيراً مع الملحدين ، ومن المهم جداً ألا نخلط بين الشوكران (نبات يستخرج منه شراب سام) والبقدونس . ولكن ليس يهمنى مطلقاً أن تؤمن بالله أولا تؤمن به . وقال مونتانى إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها . . . [١٦] .

وقبل ظهور أية نتيجة لهذه المراسلات قبض على ديدرو . ذلك أن الحكومة ثار غضبها لنقد صلح إكس لاشابل المذل علناً . وأودعت السجن نفرا من النقاد ، ورأت أن الوقت قد حان لكبح جماح ديدرو وإيقافه عند حده ولسنا ندرى إذا كان الالحاد المندس فى رسالة العميان هو الذى أثار إحتجاج رجال الدين ، أو أن مدام دبرى دى سانت مور وقد ساءتها إشارة ديدرو إلى العيون التى لاقيمة لها قد حفزت عشيقها (كبير مراقبى المطبوعات) إلى إتخاذ إجراء . وعلى أية حال فإن السكونت دارجنسون أرسل أمراً مختوماً (٢٣ يوليو ١٧٤٩) إلى ماركيز دى شاتيليه محافظ قلعة فنسان « إستقبلوا فى القلعة المدعو ديدرو ، وأودعوه فى السجن لحين صدور أوامر أخرى منى »[١٧] وفى الصباح الباكر فى اليوم التالى طرق رجال الشرطة باب ديدرو ، وفتشوا مسكنه ووجدوا نسختين أو ثلاثا غير مجلدة من رسالة العميان ، وعدة صناديق مملوءة بمادة الموسوعة الشهيرة التى كان يعدها

ديدرو ، وحملوها إلى القلعة (فى ضواحى باريس) حيث وضع وحيداً فى زنزانة فى القلعة الـكئيبة ، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان فى جيبه عند إعتقاله « الفردوس المفقود » وتهيأ له الآن فسحة من الوقت لقراءته بعناية . وكتب عليه حواشى وتعليقات بغير الطريقة التقليدية . واستخدم صفحاته الخالية فى تدوين بعض أفـكار وموضوعات أقل ورعاً وتديناً ، وتوصل إلى صنع الحبر من كشط الاردواز من الجدران وطحنه وخلطه بالنبيذ ، وإستخدام عودا من الخلال قلماً . وفى نفس الوقت هرعت زوجته التى عاشت بمكتئبة مع طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى رئيس الشرطة بربيه ، وتوسلت إليه أن يطلق سراح زوجها ، وأنكرت علمها بكتاباته « وكل ما أعرفه أن كتاباته شبيهة بسلوكه . أنه يعتز بالشرف أكثر ألف مرة مما يعتز بالحياة ، وإن مؤلفاته لتعكس الفضائل التى يتمسك بها[١٨]. » وإذا كانت إنطوانيت لاتعلم شيئاً عن مدام دى بوبسييه ، فإن الشرطة كانت تعلم ، وكان أشد فعالية وتأثيراً من ذلك الالتماس الذى تقدم به الرجال الذين عهدوا إلى ديدرو تحرير الموسوعة ، حيث أكدوا لـكونت دارجنسون أن المشروع لايمكن أن يخطو خطوة بدون السجين . وفى ٣١ يوليو استدعى بربيه ديدرو وحقق معه وأنكر ديدرو أنه مؤلف « رسالة العميان » وكتاب « الأفكار » وكتاب « الحلى الزائفة » وأدرك رئيس الشرطة أنه يكذب ، وأعاده إلى السجن .

وفى شهر أغسطس ، كتبت مدام دى شاتيليه — قبل وفاتها بشهر واحد والمفروض أن هذا بايعاز من فولتير ، من لونفيل إلى قريبها محافظ فنسان ، ترجوه على الأقل أن يخفف من الشدة التى يعامل بها ديدرو . وحوالى ١٠ أغسطس عرض بربيه أن يسمح للسجين بالتمتع بالحرية والتيسيرات فى قاعة السجن الـكبرى مع الترخيص له باستقبال الزوار وتلقى الـكتب ، إذا قدم إعترافاً صادقاً . وفى ١٣ أغسطس وجه الفيلسوف المعاقب إلى بربيه الوثيقة الآتية : —

أعترف لك بأن الكتب الثلاثة أن هي إلا نزوات غواية أملاها ذهن تملص مني ، ولـكني أستطيع . . . أن أعد تحت كلمة الشرف (وأنا فعلا رجل شريف) بأنها ستكون الأخيرة . . . وستكون الوحيده . . . أما بالنسبة لهؤلاء الذين اشتركوا فى نشر الـكتب وطبعها ، فلن أخفى عنكم شيئاً يتعلق بهم ، وسأفضي إليك سرا بأسماء الناشرين والطابعين (١٩).

وفى ٢٠ أغسطس أطلق سراحه من الزنزانة . ووضعوه فى غرفة مريحة ، وسمح له باستقبال الزائرين والتنزه فى حدائق القلعة ، وفى يوم ٢١ وقع تعهداً بألا يغادر المبنى أو منطقته دون ترخيص رسمي . وجاءت إليه زوجته لتواسيه وتؤنبه وتلومه ، وبعث من جديد حبه القديم لها . وزاره دالمبير ورسو ومدام دى بوبسييه وجاء إليه ملتزمو الموسوعة ببعض المخطوطات واستأنف عمله فى تحريرها . ومنذ علم أن أخاه أبلغ أباه بنبأ إعتقاله فانه كتب إلى الوالد « السكاكيني » المتألم ، وأدعى أن اعتقاله كان بناء على مكيده إحدى السيدات ، وطلب منه معونة مالية . وفى ٣ سبتمبر أرسل الوالد رداً يكشف عن الجانب الانسانى فى الصراع بين الدين والفلاسفة :

يابنى : تسلمت خطابيك اللذين بعثت بهما إلى مؤنخوا ، تنبئني بخبر إعتقالك وسببه ، ولم أتمالك نفسي من القول بأنه لابد بالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى غير التى ذكرتها فى أحد الخطابين . . . وحيث أنه لايحدث شيء إلا بإذن الله ، فإنى لست أدرى أيهما أفضل لتقويم خلقك : اخلاء سبيلك أو إطالة مدة بقائك فى السجن لمدة شهور أخرى لتفكر جيداً وملياً فى نفسك . ولا تنس أن الله إذا كان قد أنعم عليك بالمواهب ، فإنه منحك إياها لا لتستخدمها فى العمل على أضعاف مبادىء عقيدتنا المقدسة . لقد قدمت دليلا كافياً على حبي لك . هيأت لك فرصة التعلم على أمل أن تفيد منه أعظم فائدة ، لا أن تورثنى أشد الهم والغم والـكمد حين علمت بما لحق بك من خزى وعار . . . سامحنى يابنى . ولسوف أصفح عنك . أنا أعلم أنه ليس ثمة إنسان بمنجاة عن الافتراء وتشويه السمعة ، وأنهم قد ينسبون

إليك أعمالا لم تشترك فيها . . . ولن يكون لك إعتبار أو قيمة فى نظرى إلا إذا صدقتنى القول دون لبس أو مواربة ، بأنك كما أبلغونى من باريس بأنك تزوجت وأن لك طفلين . فان كان الزواج شرعياً وأن الأمر قد إنتهى فأنا راض ، وآمل ألا تضن على شقيقتك بالشعور بالفرح لتنشقهما ، وعلى بالسعادة لرؤيتهما أمام عينى . . . إنك تسألنى مالا . ماذا ! إن رجلا مثلك يعمل فى مشروعات ضخمة . . . هل يمكن أن يكون فى حاجة إلى مال ؟ ولقد قضيت شهراً فى مكان لاتكلفك الإقامة فيه شيئاً ؟ . . . تذكر أمك المسكينة . . . إنها فى تأنيبها لك ، كم من مرة قالت إنك أعمى . . . قدم لى الدليل على عكس ذلك . ومرة أخرى ، وقبل كل شىء ، كن صادقاً ومخلصاً فى الوفاء بوعودك . . . ستجد مرفقاً بهذا حوالة بمائة وخمسين جنيهاً . . . تنفقها كما تريد . . . وإنى لأنتظر بفارغ الصبر اليوم الذى تخفف فيه من آلامى وهمومى حين أعلم بنبأ إطلاق سراحك . . . وسأقدم الشكر لله حالما أعلم ذلك .

مع كل الحب الذى أكنه لك . . .

(والدك الحبيب ديدرو)[٢١]

ولسنا ندرى ماذا كان رد دنيس . وربما وجد مشقة فى مجاراة هذه الرسالة فى نبلها . وفى ٣ نوفمبر ١٧٤٩ أفرج عنه بعد قضاء ثلاثة شهور ونصف شهر فى السجن . وقصد داره سعيداً مبتهجاً بالعودة إلى زوجته وصغاره ، ونسى مدام دى بويسيبه لفترة من الوقت ؛ ولكن فى ٣٠ يونية ١٧٥٠ مات إبنه البالغ من العمر أربع سنوات ، إثر حمى شديدة ، وأنجب طفلا ثالثا بعد ذلك مباشرة . ولكنه أوذى أذى بالغاً عند تعميده ، حيث أوقعه أحد الخدم على الأرض فى الكنيسة ، وما لبث أن فارق الحياة قبل انقضاء عام واحد على مولدة ، وهكذا ولد له ثلاثة ومات ثلاثتهم (وعاد ديدرو إلى أمسياته فى مقهى بروكوب . وحوالى ١٧٥٠ قدمه روسو إلى فودريك ملخيور جريم ، وهناك بدأ ثالوث من الصداقة كان له بعض الأهمية

فى عالم الأدب . وتلك هى السنة التى غادر فيها فولتير فرنسا إلى برلين وكتب فيها روسو بحثه الذى نال به الجائزة عن (المدنية مرض) وأصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة :

وبينما كان ديدرو يعمل فى المجلد الأول من مشروع الموسوعة استطرد إلى تحقيق فى علم النفس نشر نتائجه (١٧٥١) فى « رسالة عن الصم والبكم لخدمة أولئك الذين يسمعون ويتكلمون » . ولم يكن ديدرو قد نسى قلعة فنسان بعد ، ومن ثم تجنب الهرطقة ، وتسلم من الرقيب (مالشرب الطيب الرحيم آنذاك) « إذناً ضمنياً » بنشر الكتاب فى فرنسا دون ذكر إسمه ، ودون خوف من المحاكمة أو المقاضاة . واقترح ديدرو أن يوجه أسئلة إلى أحد الصم البكم ، ويلاحظ الايماءات التى يجيب بها الأصم الأبكم على هذه الأسئلة ، وبذلك يلقى الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشاوات والايماءات . أن الممثل القدير (وكان ديدرو آنذاك منشغلا بوضع كتابه « تناقض الممثل » ينقل أحياناً عن طريق إيماءة أو تعبير بالوجه فكرة أو إحساساً بشكل أعظم تأثيراً منه عن طريق الألفاظ . ومن الجائز أن الألفاظ الأولى (فى اللغة) كانت عبارة عن إيماءات صوتية أو معبرة توضح فكرة فى الذهن ، وليس للفظة التى يختارها الشاعر دلالة أو معنى عقلى فحسب ، ولكن لها كذلك مفهوماً رمزياً متضمناً وفارقاً دقيقاً لايكاد يذكر ، ولها تضمينات بصرية (قارن مثلا بين يرى ويتفرس أو يحدق النظر أو نغمات توافقية فى الصوت ، قارن بين يقول ويتذمر ، Say, murmur ومن ثم فان الشعر الحقيقى تتعذر ترجمته) .

والحديث — كما هو معهود فى ديدرو مضطرب يعوزه الترتيب والنظام ولكنه زاخر بالجوانب الموحية . « قد تكون فكرتى أن أحلل الإنسان إذا جاز التعبير ، وأدرس ماذا يستمد من كل حاسة من حواسه » . (بنى كوندياك مؤخراً فى ١٧٥٤ ، رسالته عن الأحاسيس حول هذه الفكرة) أو قارن مرة أخرى بين الشعر والرسم ، أن الشاعر يستطيع أن يسرد

الأحداث على حين يبرز الرسام لحظة واحدة ، وصورته عبارة عن إشارة تحاول أن تعبر فى وقت واحد عن الماضى والحاضر والمستقبل . وهنا كانت بذرة فى كتاب ليسنج « لاوكون » (١٧٦٦) .

ولكن فى هذه الاثناء كان المجلد الأول من الموسوعة معداً للنشر .

٣ — تاريخ كتاب : ١٧٤٦ — ١٧٦٥

قال الناقد الكاثوليكى برونتيير « إن الموسوعة أعظم عمل فى عصرها ، والهدف الذى كان يصبو إليه كل شىء سبقها ، ومصدر كل شىء جاء بعدها ، ومن ثم فإنها المركز الحقيقى لأى تاريخ للأفكار فى القرن الثامن عشر » .[٢١] وقال ديدرو إن محاولة إخراج موسوعة إنما تنسب فقط إلى قرن فلسفى .[٢٢] إن عمل بيكون وديكارت وهوبز ولوك وباركلى وسبينوزا وبيل وليبنتز فى الفلسفة ، والنهوض بالعلوم على أيدى كوبرنيكس وفيساليوس وكبلر وجاليليو وهوجينز ونيوتن ، وإرشياد الأرض بفضل الملاحين والبعثات التبشيرية والسياح ، وإعادة الكشف عن الماضى على أيدى الباحثين والمؤرخين ، كل هذه المعرفة المتراكمة انتظرت لتنسق فى موسوعة تكون فى متناول الجميع وخدمتهم .

وبدا فى أول الأمر أن « موسوعة تشامبرز » أو « القاموس العالمى للفنون والعلوم » (١٧٢٨) قد يسد هذه الحاجة . وفى ١٧٤٣ اقترح ناشر فى باريس هو أندريه فرنسوا لى بريتون ترجمته إلى الفرنسية مع بعض تعديلات وإضافات تفى بحاجة فرنسا . ونما المشروع ليظهر فى عشر مجلدات ولمواجهة النفقات أشرك لى بريتون معه فى هذه المهمة ثلاثة ناشرين آخرين هم برياسون ودافيد ودوران . واستخدموا الأب دى جوا دى مالف محررا . وحصلوا على إذن ملكى بالطبع ، وأصدروا فى ١٧٤٥ نشرة مؤقتة . ورأى الناشرون أو رأى المحرر دى جوا دى مالف الاستعانة بديدرو ود المبير . وفى ١٧٤٧ انسحب دى جوا دى مالف . وفى ١٦ أكتوبر عين الناشرون ديدرو ورئيساً

للتحرير مقابل راتب قدره ١٤٤ جنيهاً في الشهر. وطلبو إلى دالمبير أن يكون مسئولا عن مقالات الرياضيات.

وكلما تقدم العمل ازداد ديدرو سخطاً على نص تشامبرز ويمكن أن تقدر هذا السخط والاستياء إذا عرفنا أن ديدرو خصص للتشريح ٥٦عموداً على حين أفرد له تشامبرز عموداً واحداً ، وللزراعة ١٤دعموداً ، على حين أوردها تشامبرز في ستة وثلاثين سطراً . وأخيراً أوصى بتنحية قاموس تشامبرز جانباً وإعداد موسوعة جديدة تماماً ، (وربما اقترح مالف هذا فوراً) . ووافق الناشرون واستحث ديدرو (ولم يكن قد اتضح بعد أنه المؤلف الزنديق لرسالة العميان) المستشار الجاد المتدين دى أجسو حتى يشمل الترخيص الملكي المشروع الموسع (أبريل ١٧٤٨) .

ولكن كيف كان يمكن تمويل المشروع ؟ قدر لى بريتون أنه قد يكلف مليون جنيه . والواقع أنه تكلف مليوناً وأربعمائة ألف — حتى ولو كان من المشكوك فيه كثيراً أن يكون عدد المشتركين كافياً إلى حد يدفعون معه بالموسوعة إلى المطبعة . وكان ديدرو قد أعد بالفعل كثيراً من المقالات وحصل على عدد آخر منها من أجل المجلدات الأولى حين أوقف أعتقاله في فنسان سير العمل . وعندما أطلق سراحه تفرغ تفرغاً كاملا للمضى في المشروع . وفي نوفمبر ١٧٥٠ أخرج الناشرون ثمانية آلاف نسخة من نشرة تمهيدية دبجها يراع ديدرو . (وفي ١٩٥٠ أعادت الحكومة الفرنسية طبع هذه النشرة تذكاراً وطنياً لهذا الحادث) . وأعلنت هذه النشرة أن فريقاً من الأدباء والخبراء والمتخصصين اتجه رأيهم إلى جمع المادة الموجودة في العلوم والفنون في صعيد واحد مرتبة ترتيباً أبجدياً ، مزودة بمراجع قد يسهل على العلماء والباحثين والطلاب استخدامها . وقالت النشرة إن لفظة الموسوعة أو دائرة المعارف تدل على العلاقات المتبادلة بين العلوم وهي تعني حرفياً التثقيف أو التعليم مجموعاً في صعيد واحد . وقال ديدرو إن المعرفة لم تنم على أوسع نطاق فحسب ولكن الحاجة إلى نشرها مهمة كذلك،

حيث لاجدوى منها إلا اذا أفاد منها الجميع . وجاء فى النشرة أن هذا كله سوف تضمه ثمانية مجلدات للنصوص ومجلدان للوحات والرسوم ، وحدد الاشتراك بمائتين وثمانين جنيهاً للمجموعة تدفع على تسعة أقساط . ويجب تسديد المبلغ كله على مدى عامين . وتبدو لنا الآن هذه النشرة وكأنها أحد الأعلانات بأن عصر العلم قد بدأ . وأن عقيدة جديدة قد ظهرت لخلاص الجنس البشرى .

وكانت الأستجابة للنشرة مشجعة ، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العليا . وتبين بعد وفاة مدام جيوفرين أنها وزوجها أسهما فى نفقات الموسوعة بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه(٢٣) .

وبهذه الموسوعة فى فرنسا وقاموس جونسون فى إنجلترا (١٧٥٥) أعلن الأدب الأوربى إستقلاله عن الأرستقراطيين والأهداءات الذليلة ، وإتجه إلى الجمهور العريض الذى عرض هذا الأدب أن يكون عينه التى تبصر وصوته الذى يعبر . وكانت الموسوعة أشهر تجربة لتبسيط المعرفة ونشرها(٢٤) .

وظهر المجلد والأول فى ٢٨ يونية ١٧٥١ محتويا على ٩١٤ صفحة من القطع الكبيرة من ذات النهرين . وكانت صورة الصفحة الأولى من رسم شارل كوشان ، وكانت رمزاً صادقاً للقرن الثامن عشر ، فقد أبرزت البشرية تتلمس طريقها إلى المعرفة تمثلها امرأة جميلة فى ثوب رقيق شفاف . وكان العنوان مثيراً : الموسوعة أو قاموس موضوع بعد دراسة وترو لمختلف العلوم والفنون والمواد ألفه فريق من رجال الأدب رتبه وحرره ديدرو وتعهد قسم الرياضيات فيه دالمبير ، ونشر بتصديق من الملك وترخيص منه وأهدى المجلد من باب الحكمة إلى السيد الكونت دار جنسون وزير الحربية . ولم يكن موسوعة بالمعنى الحالى عندنا ، فانها لم تر أن تشمل سير حياة أو تاريخا . ولكن الغريب فى الأمر أنها تضمنت بعض سير الحياة تحت عنوان محل الميلاد للشخص . ومن جهة أخرى كانت بشكل جزئى قاموسا عرض لتعريف بعض المصطلحات وإيراد المترادفات وبعض قواعد الأجرومية .

وأبرز ما فى المجلد الأول وأجدره بالذكر هو « مقال تمهيدى » ووقع الأختيار على دالمبير لكتابته لأنه كان معروفا بأنه من رجال العلم المرموقين وبأنه كذلك من البارعين الأفذاذ فى النثر الفرنسى ، وعلى الرغم من هذه المزايا كان دالمبير يحيا حياة رواقية بائسة فقيرة فى باريس . وحين وصف فولتير المشهد الرائع من لى دليس أجاب دالمبير : « أنت تكتب إلى من مخدعك حيث تشرف على عشرة فراسخ من البحيرات وأنا ارد عليك من جحرى الذى لا يشهد إلا رقعة من السماء لا تجاوز ثلاث أذرع »[٢٥]. وكان لا أدريا ، ولكنه لم ينضم إلى نقد علنى للكنيسة . وفى — مقاله التمهيدى حاول أن يفحص حجج معارضى الكنيسة :

« إن طبيعة الإنسان سر لا يمكن سبر أغواره إذا إستنار الإنسان بالعقل وحده . ويمكن أن نقول مثل هذا عن وجودنا فى الحاضر والمستقبل ، وعن جوهر « الكائن » الذى ندين له بهذا الوجود ، وعن نوع العبادة التى يتطلبها منا . ومن ثم فأننا أحوج ما نكون إلى ديانة منزلة تهدينا سواء السبيل فى مختلف الموضوعات[٢٦] . »

واعتذر لفولتير عن هذه الاحترامات : « أن مثل هذه العبارات هى أسلوب توثيق ، وما هى إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقائق التى ننشد تدعيمها . . . أن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه[٢٧] .

ونهج المقال التمهيدى نهج إقتراح لفرانسيس بيكون ، فصنفت المعارف وفق الموهبة العقلية التى تنتج عنها : فوضع التاريخ تحت بند « الذاكرة » والعلوم فى باب « الفلسفة » واللاهوت تحت بند « العقل » والأدب والفن فى باب « الخيال » وكان ديدرو ودالمبير فخورين كل الفخر بهذا التقسيم وجعلا منه ورقة مطوية وضعاها بعد المقال أو خريطة للمعرفة أثارت أشد الأعجاب . وكان أقوى أثر فى الموسوعة بعد أثر بيكون هــو أثرلوك . « أننا مدينون للأحاسيس بكل أفكارنا » . هذا هو ما جاء فى المقال . ومن

هذا البيان راود الأمل المحررين على مدى المجلدات الثمانية أن يستنتجوا فلسفة كاملة دينا طبيعيا يهبط بالاله إلى مجرد دفعة إبتدائية أولى وإن يستنتجوا علم نفس طبيعيا يجعل الذهن وظيفة من وظائف الجسم ، ومبادىء أخلاق طبيعية تحدد الفضيلة على أساس واجبات الإنسان نحو الإنسان لا نحو الله — وتضمن « المقال التمهيدى » هذا البرنامج فى حرص وحذر .

ومن هذه المبادىء الأولى أنتقل دالمبير إلى إستعراض تاريخ العلم والفلسفة وأمتدح الأقدمين ، وأستنكر العصور الوسطى وانتقص من قدرها ، وهلل لعصر النهضة وأبتهج به :

لن نكون منصفين إذا لم نعترف بفضل أيطاليا علينا ، فمنها تلقينا العلوم التى انتجت فيها بعد ثمارا وفيرة فى كل أوربا . ونحن مدينون لها فوق كل شيء بالفنون الجميلة والذوق الرفيع الذى زودتنا منه بعدد كبير من نماذج لا تبارى أو تتعذر محاكاتها[٢٨] .

وجاء أبطال الفكر الحديث ليتوجوا بأكاليل الغار :

يجدر أن يوضع على رأس قائمة الشخصيات اللامعة مستشار إنجلترا الخالد فرانسيس بيكون الذى تستحق أعماله بحق أن ندرسها حتى أكثر من أن نمتدحها . أننا حين نتأمل وندرس آراء ونظرات هذا الرجل العظيم الحكيمة الواسعة الأفق ، والموضوعات الكثيرة التى أستعرضها فى ذهنه ، وجرأة أسلوبه التى جمعت فى كل موضع بين أروع الصور والأنطباعات الذهنية وبين أعظم الدقة والأحكام . فاننا نميل إلى أعتباره أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأشملهم وأوسعهم بحثا[٢٩] .

وأنتقل دالمبير ليبرز كيف أن عبقرية ديكارت العميقة الخصبة فى الرياضيات قد عوقها فى الفلسفة الأضطهاد الدينى :

إن ديكارت على الأقل تجاسر فبين للأذهان اليقظة كيف تتحرر من نير السكولاسية والرأى والسيطرة — وصفوة القول من التحيز والتحامل

والوحشية . وبهذه الثورة التى نجنى نحن ثمارها اليوم أدى ديكارت للفلسفة خدمة قد تكون أجمل وأشق مما تدين به لخلفائه البارزين المشهورين . وقد نعتبره زعيم عصابة تعاهدت ، وكان لها من الشجاعة ما قادت به ثورة ضد سلطة أستبدادية . وأرسى بفضل تصميمه الأكيد المشجع الملهم أساس حكومة أعدل وأفضل ما كان يمكن أن يعيش ليراها قائمة ، وإذ أنتهى به التفكير إلى أيضاح كل شىء فأنه على الأقل بدأ بالشك فى كل شىء . إن الأسلحة التى يجب إستخدامها لمحاربته ليست على الرغم من ذلك أسلحته لأننا نصوبها إليه .

وبعد أن تحدث دالمبير عن نيوتن ولوك وليبنتز ختم حديثة بالإعراب عن إيمانه بالنتائج الطيبة للمعرفة التى تزكو وتنمو وتنتشر : « إن قرننا ليعتقد بأنه قد كتب عليه أن يغير القوانين فى جميع المجالات[٣٠] . ونشجع دالمبير بحرارة هذا الأمل فجعل من مقاله التمهيدى هذا تحفة من روائع النثر الفرنسى فى القرن الثامن عشر . وشارك بيفون وموتنسكيو فى الثناء على مقدمة الموسوعة هذه كما إعتبرها — أى صفحات المقدمة — من أعظم المقالات التى كتبت فى لغتنا فلسفة ومنطقا وإشراقا وأحكاما ودقة[٣١] .

ولم يكن المجلد الأول ضد الدين بشكل سافر . وكانت المقالات عن العقيدة والطقوس المسيحية تقليدية تقريباً . وأبرزت عدة مقالات بعض الصعوبات ، ولكنها أختتمت كلها عادة باحترام مهيب للكنيسة . وكثيراً ما وجدت هرطقات مغلفة وهجمات عارضة على الخرافة والتعصب ، ولكنها مستترة فى مقالات واضح أنها كانت تعالج موضوعات بريئة مثل « حمل سكيزيا » أو النسر . من ذلك أن ما كتب عن حمل سكيزيا توسعوا فيه حتى صار بحثا عن شواهد تركت الإيمان بالمعجزات فى حالة يرثى لها . كما أن مادة « النسر » بعد مناقشة سذاجة الناس وسرعة تصديقهم إنتهت بتهكم صريح :

« سعيد هذا الشعب الذى تطالبه ديانته ألا يؤمن إلا بالأشياء الحقيقية

المقدسة السامية الرفيعة الشأن ، وإلا يقتدى إلا بصالح الأعمال . ومثل هذه الديانة هي ديانتنا وهي التي فيها لا يتبع الفيلسوف إلا عقله حتى يصل إلى مذبحنا[٣٢] وفى شيء من المكر والدهاء كانوا يهاجمون الخرافات والأساطير هنا وهناك . وأنبثقت روح من الإنسانية العقلانية .

وعلى الرغم من كل شيء أستقبل اليسوعيون هذا المجلد أستقبالا ودياً . وأعترض جويوم فرنسوا برتييه المحرر العالم المثقف لصحيفة تريفو فى رقة وأدب على توكيد المقال التمهيدى على الفلاسفة المهرطقين ، وأشار إلى بعض الأخطاء والأنتحالات ، وطالب بتشديد الرقابة على المجلدات التي ستصدر فيما بعد ، ولكنه أثنى على الموسوعة مشروعا عظيما ضخما جدا يمكن لمحرريه حتى بعد إنجازه أن يطبقوا على أنفسهم قول هوراس « لقد أقمت نصبا أبقى من النحاس » .

ثم أضاف برتييه « ليس هناك من هو أكثر منا ميلا إلى تبين الخفايا الدقيقة فى الموسوعة ولسوف نعرضها برفق فى مقتطفاتنا القادمة[٣٣] .

وثمة كاهن آخر لم يكن مترفقا متساهلا إلى مثل هذا الحد ، وهو جان فرنسوا بوير أسقف ميربوا سابقاً الذى شكا المحررين إلى الملك بأنهم خدعوا الرقباء ، فأرسله الملك لويس إلى مالشرب الذى كان قد أصبح كبير مراقبي المطبوعات ، فوعد مالشرب بفحص المجلدات التالية بشكل أدق ، ولكنه أثناء توليه مناصب حكومية مختلفة استخدم كل نفوذه لحماية الفلاسفة . وكان من حسن حظ الثائرين أن هذا المسيحي جويودى مالشرب الذى كان قد أصبح متشككا حين قرأ كتابات بيل والذى كان قد ألف كتاب « حرية الصحافة » هو الذى كان رقيب المطبوعات من ١٧٥٠ — ١٧٦٣ وهى أحرج فترة فى حياة فولتير وديدرو وهلفشيوس وروسو . وكتب مالشرب « فى قرن كان يستطيع فيه كل مواطن أن يتحدث إلى الأمة عن طريق الكتاب فإن هؤلاء الذين أوتوا المقدرة على تعليم الناس وتثقيفهم أو موهبة التأثير فيهم — وفى إيجاز رجال الأدب — وسط شعب مشتت يقومون بالدور الذى

كان يقوم به خطباء رومه وأثينا فى شعب تلتف حولهم » . وشجع مالشرب الحركة الفكرية بمنح « تراخيص ضمنية » للمطبوعات التى لا يمكن أن تحصل فى ظل النظام القائم على ترخيص ملكى أو تنال إستحسان السلطات . ذلك أنه كان من رأيه أن الإنسان الذى لم يقرأ إلا الكتب التى صدرت بموافقة صريحة من الحكومة . . يكون متخلفا عن معاصريه بنحو قرن من الزمان تقريباً(٣٥) .

وانتهت هذه الفترة السعيدة فى حياة الموسوعة بحادث من أغرب الحوادث فى تاريخ عصر الأستنارة ، ذلك أنه فى ١٨ نوفمبر ١٧٥١ تقدم جان مارتن دى براد للحصول على درجة جامعية من السوربون ، وعرض على رجال اللاهوت رسالة ظاهرها البراءة والخلو من أية شائبة « من ذا الذى نفخ الله فى وجهه روح الحياة » ؟ وبينما كان النعاس يغلب على أعضاء هيئة الإمتحان عرض الراهب الشاب فى لغة لاتينية ممتازة تضاربات زمنية فى الكتاب المقدس ، وهبط بمعجزات المسيح إلى مستوى معجزات أسكولابيوس ، وإستبدل بالوحى لا هوتا طبيعيا متحرراً . وقبلت جامعة السوربون الرسالة ومنحت دى براد الدرجة . وأتهم الجانسنيون الذين كانوا يسيطرون على برلمان باريس الجامعة ، وراحت الشائعات بأن لديدرو يداً فى الرسالة ، وسحبت الجامعة الدرجة وأمرت بالقاء القبض على الراهب . وهرب دى براد إلى بروسيا حيث آواه فولتير حتى خلف دى لامترى قارئا لفردريك الأكبر .

وصعق الأمناء الحراس على الديانة التقليدية إذ رأوا أن دى براد هذا نفسه كان قد كتب مقالة « اليقين » فى المجلد الثانى من الموسوعة الذى صدر فى يناير ١٧٥٢ . وكان فى هذه المقالة أيضا بعض لمحات من ديدرو ، وتعالت الصيحات ضد الموسوعة حتى أن برتييه الذى أطرى هذا المجلد لما فيه من إسهامات كثيرة فى المعرفة ، وجه اللوم إلى المحررين على قطعة ذكر فيها أن معظم الناس ينظرون إلى الأدب بعين الأجلال والأكبار مثلما ينظرون إلى الدين » أى إلى شىء لا يستطيعون أن يعرفوه أو يمارسوه أو يحبوه » .

وقال اليسوعيون أن مثل هذا الكلام يجب لفت نظر المؤلفين والمحررين إليه حتى لا يعودوا يثبتون شيئا من هـذا القبيل فى الموسوعة مستقبلا[٣٦] . وفى ٣١ يناير أتهم كريستوف دى بومونت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينيه : وفى ٧ فبراير صدر قرار من مجلس الدولة يحظر بيع الموسوعة أو نشرها . وفى نفس اليوم كتب مركيز دارجنسون فى صحيفته « صدر فى هذا الصباح قرار من المجلس لم يكن متوقعا يقضى بمنع تداول الموسوعة أو نشرها بسبب مزاعم مروعة : منها الكفر بالله والتمرد على سلطة الملك . وفساد الأخلاق . . . وقيل فى هذا الصدد أن مؤلفى الموسوعة ينبغى إعدامهم فى أقرب وقت[٣٧] .

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء ، فلم يعتقل ديدرو ، ولكن الحكومة صادرت كل المادة التى كان قد جمعها ، وكتب فولتير من بوتدام يستحث ديدرو على نقل المشروع إلى برلين حيث يمكن النهوض به تحت حماية فردريك ، ولكن ديدرو وقف عاجزا بدون المادة التى صودرت . أما لى بريتون فكان يأمل أن تعدل الحكومة من قرار الحظر بعد سكون العاصفة ، وأيد مالشرب ومركيز دارجنسون ومدام دى بمبادور النداء الذى تقدم به لى بريتون إلى المجلس . وفى ربيع عام ١٧٥٢ وافق المجلس على نشر المجلدات الأخرى « بترخيص ضمنى » وأشارت دى بمبادور على دالمبير وديدرو باستئناف العمل « مع تحفظ ضرورى فيما يتعلق بما يمس الدين والسلطة الحاكمة » [٣٨] . ورغبة فى تهدئة خواطر رجال الدين وافق مالشرب على أن يراجع المجلدات التالية ثلاثة من رجال اللاهوت يختارهم الأسقف السابق بوير .

وصدر المجلدان الثالث والرابع فيما بين عامى ١٧٥٣ — ١٧٥٦ ، بعد خضوعهما لرقابة صارمة . وزاد الغضب من إنتشار الموسوعة ، كما أصبحت رمز الأفكار الحرة ، وزاد عد المشتركين إلى ٣١٠٠ فى المجلد الثالث ، و ٤٢٠٠ فى المجد الرابع

واجتاز «المبير المحنة وقد اهتزت أعصابه بعض الشيء ومن ثم فانه ضماناً لسلامته الشخصية إشترط ألا يكون مسئولا بعد الآن إلا عن مقالات الرياضيات ، ومهما يكن من أمر فان ديدرو ظل يناضل الرقابة . وفى ١٢ أكتوبر ١٧٥٢ نشر ظاهريا فى برلين وباسم دى براد « مواصلة الدفاع عن الراهب دى براد » ، وتحدث فيه غاضباً ، مشيراً إلى أن أحد الأساقفة شجب مؤخرا رسالة السوربون : « لست أعلم شيئاً أكثر مجافاة للياقة وأشد خطرا على الدين من هذه الخطب الغامضة التى تهاجم العقل والتى يلقيها بعض رجال اللاهوت . وقد يقول المرء لدى سماعها أن الناس لايستطيعون الدخول فى المسيحية إلا كما يدخل قطيع من الحيوان إلى حظيرة ، وأن على المرء أن يتخلى عن الإدراك السليم وحصافة الرأى ليعتنق ديننا أو يستمسك به . وأكرر القول بأن إقرار هذه المبادىء معناه الهبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، ووضع الزيف والحقيقة على قدم المساواة »(٣٩) .

وتابع فى المجلد الثالث هجماته غير المباشرة على المسيحية ، مغلفة بالجهر بالايمان بالعقيدة القويمة. وأبرزت مقالته « التوقيت الزمنى المقدس » مرة أخرى تناقضات التوراة . وألقت ظلالا من الشك فى نصوص الأسفار المقدسة . وأكدت مقالته عن «الكلدانيين» على إنجازاتهم فى الفلك ، ولكنها رثت لخضوعهم للكهنة «أنه لمما يزرى بالعقل ولا يشرفه تقييده فى الأغلال كما فعل الكلدانيون. ولد الإنسان ليفكر لنفسه » وعددت مقالته عن « الفوضى » الاعتراضات على فكرة الخلق وأسهبت — زعما أنها تدحض وتفند — القول فى حجج أبدية المادة . واشتملت على بعض النقاط الخلافية التى تثير الجدل مقالاته الممتازة فى التجارة والمنافسة وأسلوب التأليف والتركيب (فى الرسم) « والكوميديين » أى الممثلين ، وأوضح ديدرو أنه لم يكن رساماً ولا خبيرا باللوحات والرسوم ولكنه اضطر إلى الكتابة فى الموضوع لأن « الهاوى المتبجح » الذى عهد إليه بالكتابة عن أسلوب التأليف فى الرسم ، كان قد قدم موضوعاً تافهاً غير جدير بالنشر . وعبرت مقالة ديدرو عن بعض

ٔفكار أبهجت فيما بعد « صالوناته » فكانت مقالته عن « الممثلين » إستمرارا لحملة فولتير دفاعاً عن حقوقهم المدنية .

وحظى المجلد الثالث بثناء كبير خفف منه نقد اليسوعين وليلى فرينون فى مجلة « السنة الأدبية » ورفع المشتركون الجدد من قيمة العمل ومكانته : وبدأ ديكلوس ينهض بقسط من الجهد فى إخراج المجلد الرابع ، وفولتير وترجو يشاركان فى المجلد الخامس . وفى أثناء السنوات الأربع الأولى من المشروع كان فولتير مشغولا أو متورطاً فى ألمانيا — أما الآن فى عام ١٧٥٥ فقد استقر به المقام فى جنيف وأرسل منها المقالات عن « الأناقة » و « الفصاحة » و « الذكاء » وكلها تفيض أناقة وفصاحة وذكاء وكتب ديدرو نفسه للمجلد السادس مقالا تحت عنوان « الموسوعة » عده بعض العلماء والباحثين أحسن ماكتب فى المجموعة كلها . وكانت بالفعل من أطول المقالات حيث بلغ عدد كلماتها ٣٤ ألف كلمة ، تحدث فيه عن الصعوبات التى واجهت العمل لامن حيث القوى التى كانت تهدف إلى هدم المشروع فحسب بل كذلك من حيث ضآلة الاعتمادات المالية غير الكافية لدفع أجور المؤلفين ونفقات الطبع ، والعلل الطبيعية التى إنتابت الكتاب حيث أقعدهم المرض أو ضيق الوقت . وأقر العيوب الكثيرة التى صابت المجلدات الخمسة الأولى التى كانت قد أخرجت فى عجالة وخوف ، ووعد بالعمل على ملافاتها ، وفى شىء من الانفعال كتب قانون الايمان الخاص به : إن الغاية القصوى من أية موسوعة هو جمع المعرفة المتناثرة هنا وهناك على الأرض ، وشرحها للمعاصرين ونقلها إلى الأعقاب ، والغرض من ذلك هو ألا تكون جهود القرون الماضية غير ذات نفع للاجيال القادمة وأن يكون خلفاؤنا وقد أصبحوا أكثر ثقافة وأغزر علماً ، فى نفس الوقت أسعد وأكثر تمسكا بالفضيلة ، وألا نفارق الحياة دون أن نحظى بثناء الجنس البشرى وتقديره» .

ورأى ديدرو فى الموسوعة لطمة للاعقاب ، ووثق أنهم سيدافعون عنه ويبرئونه ، وتصور ثورة عارمة عطلت مؤقتاً تقدم العلوم وعمل فنون

الصناعة ، وغمرت من جديد بالظلام جزءا من العالم . وراوده أكبر الأمل فى « إعتراف مثل هذا الجيل بفضل أولئك الرجال الذين أوجسو خيفة من هذا الخراب وتوقعوه فجمعوا شتات المعرفة التى تراكمت عبر القرون وحفظوها فى حرز أمين » وقال « إن الأعقاب بالنسبة للفيلسوف هى بمثابة الدار الآخرة بالنسبة لرجل الدين [٤٠] .

وخلق المجلد السابع الذى ظهر فى خريف ١٧٥٧ أزمة أخرى أسوأ مما سبقها . وذلك أن كسنى وترجوكتبا أبحاثاً مستفيضة مشهورة فى شرح سياسة عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية ، (مذهب الفيزيوقراطيين فى حرية التجارة والصناعة — ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر) كما أن لويس دى جوكور ، الذى كثيرا ما أسهم الآن فى الكتابة فى الموسوعة ، كتب مقالة موجزة مهينة تحت عنوان « فرنسا » بلغت كلماتها تسعمائة كلمة ولم ترو معظمها شيئاً من تاريخ فرنسا ، بل عددت شوائبها وأخطائها : الافراط الخطير فى عدم المساواة فى توزيع الثروة ، فقر الفلاحين ، وتضخم باريس وتناقص السكان فى الأقاليم . وفى مقال عن « الحكومة » كتب جوكور « أن الخير كل الخير للشعب فى حريته . . . وبدون الحرية تنتفى السعادة فى الدول » وفى هذا المجلد كتب فولتير مقالة عن الفسوق والزنى ، وتفاخر بأنها علمية ، ولكن مقالة « المقاومة » — على الأقل المقالة التى أثارت أشد مقاومة — هى المقالة عن جنيف التى التقينا بها فى محيطها السويسرى . ونسى دالمبير ما أخذ به نفسه من حيطة وحذر وتصميمه على الاقتصار على الرياضات وأثار على نفسه سخط جنيف وباريس كلتيهما حين صور رجال الدين الكلفنيين بأنهم يرفضون ألوهية المسيح .

ورأى جريم على الغدر أن هذه المقالة زلة فظيعة تعوزها اللباقة ، وقال إنها تسبب اهتياجاً وبلبلة . واستنكر أحد اليسوعيين المجلد فى عظة ألقاها أمام الملك فى فرساى . وكتب دالمبير إلى فولتير يقول « إنهم يجزمون بأنى أمتدح قساوسة جنيف فى أسلوب يضر بالكنيسة الكاثوليكية » [٤١] . وفى ٥ يناير

١٧٥٧ بذلت محاولة لقتل الملك . فكان رد الملك عليها أنه أحيا قانوناً قديماً يعاقب بالإعدام مؤلفي وناشري وبائعي الكتب التي تهاجم الديانة أو تزعج الدولة ، وزج بعدد من الكتاب في السجن ، ولم يعدم أحد ولكن دالمبير المرهف الحس تولاه الفزع بشكل واضح ، وقطع علاقته بالموسوعة نفوراً من الهياج والصخب (١ يناير ١٧٥٨) . وفقد بعض الوقت قدرته على رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة ، وأتهم مدام بمبادور بمحابات « أعداء الفلاسفة » وتأييدهم ، وطلب إلى مالشرب أن يكبح جماح زعيمهم فريرون . وألح عليه فولتير في عدم الاستقالة ، فأجاب دالمبير في ٢٠ يناير « أنت لاتدرك الوضع الذي نحن عليه ، وصورة غضب السلطات علينا . . . أنا أشك في مواصلة ديدرو العمل بدوني . . . فإذا فعل هذا فإنه يمهد السبيل لسلسلة من المحاكمات والبلايا لمدة عشر سنوات »[٤٣] وكان رعبه قد إزداد في السبعة أو الثمانية أيام التالية « إذا كان الأعداء ينشرون مثل هذه الأشياء اليوم باذن صريح من قبل هذه المراجع المسئولة ، فلن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا يعني إثارة الهياج ضد المجلد السابع ، وألقاءنا في أتون المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن »[٤٣] وأذعن فولتير لرأي دالمبير . ونصح ديدرو بالتخلي عن الموسوعة ، حيث أنه إذا استمر العمل فيها بأية حال ، فستكون خاضعة لرقابة تقضي على قيمة العمل باعتباره أداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان في فرنسا[٤٤] وأبى ترجو ومارمونتيل وديكلوس وموريللي أن يكتبو أية مقالات أخرى ، وفترت همة ديدرو نفسه لفترة من الزمن ، وكتب يقول « لايكاد يمر يوم إلا وتحدثني نفسي بالذهاب إلى مسقط رأسي في شمبانيا لأعيش منزوياً في هدوء »[٤٥] ولكنه لن يلقي سلاحه ولن يستسلم . وفي فبراير ١٧٥٨ كتب إلى فولتير « أن التخلي عن العمل معناه أن ننقض العهد وننكص على أعقابنا ونفعل ما يريده منا هؤلاء الأوغاد الذين يضطهدوننا . آه لو علمت كم إبتهجوا وفرحوا عندما علموا باعتزال دالمبير العمل ، وكم من مناورات قاموا بها للحيلولة دون رجوعه إليه !

وفى إجتماع أساقفة فرنسا ١٧٥٨ قدموا إلى الملك منحة اختبارية كبيرة بشكل غير عادى ، وتقدموا إلية برجاء إلغاء « الترخيص الضمنى » الذى يجيز نشر الموسوعة فى فرنسا . وفى ١٧٦٨ شرع أبراهام دى شوميكس فى إصدار سلسلة من النشرات تحت عنوان « أحكام شرعية ضد الموسوعة » وأثار نشر كتاب هلفشيوس « أسس الروح » (٢٧ يوليو ١٧٥٨) مزيدا من الاحتجاجات ، وتورطت الموسوعة فى هذه العاصفة حيث إنتشرت الشائعات القوية بأن ديدرو تربطه بهلفشيوس علاقات وثيقة . وزاد الطين بلة أن روسو الذى كان يكتب للموسوعة مقالات فى الموسيقى ، رفض أن يسهم فى التحرير الآن . ورروجت رسالته إلى دالمبيز عن العروض المسرحية نبأ إنشقاقه على الفلاسفة . وبدا أن معسكر الموسوعيين قد تمزق . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ حذر وكيل الملك أمير دى فليرى برلمان باريس من أن هناك مشروعاً أعد وجماعة تكونت لنشر المذهب المادى ، والقضاء على الدين ونشر روح الاستقلال ، والعمل على إفساد الأخلاق[٤٦] وأخيراً فى ٨ مارس ، صدر من مجلس الدولة أمر بتحريم الموسوعه تحريماً تاماً ، فلايطبع أى مجلد جديد ، ويمنع بيع أو تداول المجلدات الموجودة . وأوضح القرار أن الفوائد التى تجنى من هذا العمل من حيث تقدم الفنون والعلوم لايمكن بحال من الأحوال أن تعوض عن الأضرار البالغة المتعذر إصلاحها التى تنشأ بالنسبة للعقيدة الدينية والأخلاق[٤٧] .

ولم يتهدد هذا المرسوم سلامة أشخاص الفلاسفة فحسب ، بل تهدد كذلك قدرة الناشرين على الوفاء بديونهم . وكان كثير من المشتركين قد دفعوا قيمة إشتراكهم فى المجلدات التالية ، فكيف يتيسر رد ما دفع مقدماً ؟ فمعظم هذه الأموال أنفق على المجلدات السبعة الأولى ، وعلى الأعداد لاخراج المجلد الثامن الذى كان معدا للتوزيع حيث صدر المرسوم الملكى . وحرض ديدرو الناشرين على ألا يستسلموا ، لعل هذا المرسوم يجرى أيضاً تعديله أو العدول عنه فى الوقت المناسب ، وإلا طبعت المجلدات الباقية فى الخارج .

وبناء على طلب الناشرين لزم ديدرو داره وواصل العمل فى المجلد التاسع . وفى الوقت نفسه بذل مالشرب وآخرون غيره أقصى الجهد فى تسكين غضب الحكومة .

وهنا — فى صيف ١٧٥٩ ظهرت فى باريس نشرة سرية غفل الاسم ، تحت عنوان مذكرة إلى « فرنسوا شوميكس » وهى قطعة مملة عنيفة فى موقف واحد ، تهاجم فى أقذع الإهانة والسباب ، لا الحكومة والبرلمان واليسوعيين والجانسنيين وحدهم ، بل هاجمت المسيح وأمه كذلك . وقال ديدرو « إن العمل منسوب إلينا بما يشبه الاجماع » ، (٤٨) وقصد إلى مالشرب وإلى مدير الشرطة وإلى المحامى العام للبرلمان وأقسم أنه لاعلاقة له بتفجر الإلحاد فى الشوارع على هذا النحو ، وصدقه أصدقاؤه ، ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى الهروب ، محتجاً فإن فى الهروب إعترافا بالذنب . وحذره مالشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ، ومن ثم ينبغى إخفاؤها . فتساءل الثائر الحائر المنزعج « ولكن أين أخفيها ؟ » وكيف يتسنى له فى ساعات قلائل أن يوفق إلى مكان يخفى فيه كل هذه المادة التى جمعها ؟ فقال مالشرب « أرسلها إلى أنا ، لن يأتى أحد ليفتش عنها هنا(٤٩) » . وفى الوقت نفسه عثر رجال الشرطة على طابعى النشرة المخزية ، وانتهوا إلى أن ديدرو لم يكن له صلة بها ، ولم يصدر أمر بمصادرة أوراقه ، وتنفس الصعداء ولكنه أشرف على الإصابة بانهيار عصبى . وصحبه صديقه الغنى دى هولباخ لقضاء عطلة فى بعض الأماكن القريبة من باريس . وكتب ديدرو « حملت معى إلى كل مكان قصدناه خطى مضطربة متعثرة ونفساً مكتئبة »(٥٠) .

وعاد ديدرو إلى باريس ، ووقع مع الناشرين عقداً جديداً لإعداد تسعة مجلدات إضافية من الموسوعة لقاء مبلغ ٢٥ ألف جنيه . وعرض دالمبير أن يستأنف مسئوليته عن مقالات الرياضيات ، ووجه ديدرو إليه اللوم على تخليه عن العمل فى وقت المحنة حين حمل عليه العدو ، ولكنه قبل إسهامه

فى الموسوعة ، وكذلك إنضم إليهم فولتير . وكان ديدرو يأمل أن يكمل المجلد السابع عشر والأخير فى ١٧٦٠ . ولكنه فى سبتمبر ١٧٦١ . كتب يقول « إنتهت المراجعة المزعجة ، حيث قضيت فيها خمسة وعشرين يوماً متصلة بمعدل عشر ساعات فى اليوم »(٥١) وظل لعشرة أيام أخر حبيساً فى داره لمراجعة اللوحات والرسوم . وتم طبع المجلدات من الثامن إلى السابع عشر فى تعاقب سريع فى باريس ، ولكنها موسومة بعلامة تشعر بأنها نشرت فى نيوشاتل ، وتغاضى سارتين مدير عام الشرطة الجديد عن هذه الخدعة أو التضليل (٥٢) ومهد الطريق لهذا طرد اليسوعيين من باريس ١٧٦٢(*) وفى سبتمبر ١٧٦٢عرضت كاترين قيصرة روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة فى سان بطرسبرج ، وجاء مثل هذا العرض من فردريك الأكبر عن طريق فولتير . وربما استحثت هذه الاقتراحات الرجال الرسميين فى فرنسا على إجازة الطبع فى باريس . وظهر المجلد الأخير من النصوص فى ١٧٦٥ ، وأضيف أحد عشر مجلدا للوحات والرسوم فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٢ وصدر ملحق من خمسة مجلدات ، مجلدان لفهرس الموسوعة فيما بين عامى ١٧٧٦ — ١٧٨٠ وطلب إلى ديدرو تحريرها ولكنه كان منهوكا مرهقاً فرفض ، فان أهم مشروع نشر فى هذا القرن إستنزف قواه ، ولكنه خلد ذكره بالقدر الذى تسمح به تقلبات المدنية .

(*) إن القصة الطريفة التى تقول بأن مدام بمبادور أقنعت لويس الخامس عشر بالتخلى عن معارضته فى نشر المجلدات من الثامن إلى السابع عشر باطلاعه على مقالة « البارود » قصة مرفوضة الآن بصفة عامة على أنها من نسج خيال فولتير(٥٣) والقصة مذكورة فى المجلد الثامن والأربعين من طبعة بيشو لأعمال فولتير ، وفى كتاب جونكور « مدام دى بمبادور » ص ١٤٧ .

٤ — الموسوعة نفسها

إن كل محتويات الموسوعة تقريبا نسختها الثورة الفكرية التي ساعدت على إذكاء نارها ، ولكنها تسترعي إنتباهنا لمجرد أنها أحداث في تاريخ الأفكار ، وأسلحة استخدمها الفلاسفة في صراعهم مع المسيحية الوحيدة التي عرفوها ، وقل إن كان الهجوم مباشرا كما رأينا وكانت مقالتا « المسيح والمسيحية » وكلتاهما بقلم ديدرو ، فويمتين تقليديتين في جوهرهما . وامتدح المقالة الثانية أحد الرهبان الإيطاليين . وكتب نفر من الكهنة مقالات للموسوعة ، ومن ذلك أن الراهب يفون كتب مقالة بعنوان « الملحدون » ولم تؤيد الموسوعة الإلحاد بل الربوبية . ومهما يكن من أمر فإن المراجع المفترضة كانت في بعض الأحيان مضللة ، ملحقة بمقالة تقليدية رشيدة . وكثيرا ما أشارت إلى مقالات أخرى تثير الشكوك . من ذلك أن المقالة المثالية عن « الله » أشارت إلى مقالة « البرهان » التي أوردت قواعد للبرهنة فيها تشويه للمعجزات والأساطير . وفي بعض الأحيان شرحت أقل العناصر إعتدالا ومعقولية في العقيدة المسيحية في قبول ظاهر . ولكن بطريقة تستدعي الإرتياب والجدل . ورفضت المبادىء الصينية أو الإسلامية المماثلة للنظريات المسيحية باعتبارها غير عقلانية . وارتفعت الصيحات بأن مقالة « الكهنة » غير ودية . ويحتمل أن دي هولباخ هو الذي دبجها . لأن الفلاسفة كانوا يمقتون رجال الدين بوصفهم أعداء للفكر الحر ومشجعين على الاضطهاد وزعم المؤلف أنه إنما كان يكتب عن رجال الدين الوثنيين : « إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة ، ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة . واعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص . ومن هنا كان للكهنة نصيب في إجلال الناس لله . وبدت المناصب العادية التي يشغلونها أدنى مستوى منهم . واعتقد العامة أنهم مرغمون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما بعولهم ... وكأنهم ودائع ينفذون وصية الله ، ووسطاء بين الآلهة والناس .

وعمد الكهنة ، لكي يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم ، إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبون للإنتقام لا يستشعرون الرحمة . وأدخلوا

المراسم والطقوس والشعائر والأسرار التى يمكن أن تبعث فظاعتها فى نفوس الناس الإكتئاب الرهيب الملائم كل الملاءمة لدنيا التعصب . ثم تدفق الدم البشرى الغزير فوق المذابح . وظن الناس ، وقد ملأهم الخوف بالجبن وأعمتهم الخرافة ، أنه لن يكون أى ثمن يدفعونه غاليا فى سبيل الحظوة برضا الأرباب . وأسلمت الأمهات أطفالهن الصغار دون أن يذرفن دمعة واحدة ، إلى النيران الملتهبة . وسقط آلاف الضحايا تحت سكين القربان المقدس ... وكان من الميسور على الرجال الذين كانوا موضع الإجلال والإحترام إلى هذا الحد ، أن يبقوا طويلا داخل حدود الخضوع الضرورى للنظام الإجتماعى . فإن الكهنة الذين أسكرتهم السلطة كثيرا ما نازعوا الملوك حقوقهم . وأمسك التعصب والخرافة بالسيف مصلتا على رؤوس الملوك واهتزت العروش حين رغب الملوك فى كبح جماح أو معاقبة الرجال المقدسين الذين كانت مصالحهم متشابكة مع مصالح الآلهة ... كان الحد من سلطانهم يعنى تقويض أركان الديانة . » (٥٤) .

وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة فى العلوم والفلسفة ومناهجهما . وكان الفلاسفة يحلمون باحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة . وحظيت العلوم بتفسيرات وشروح مسهبة . مثال ذلك أن ستة وخمسين عمودا خصصت «للتشريح» . وتحت بند « الجيولوجيا » كتبت مقالات مطولة عن المياه المعدنية والمعادن والطبقات وأنهار الجليد والأحافير والمناجم والزلازل والبراكين والأحجار الكريمة . وكان لزاما أن توضع الفلسفة فى النظرة الجديدة إليها على أساس من العلوم تماما . وينبغى ألا تبنى « نظما » ويجب أن تتجنب الميتافيزيقا ويجب ألا تتحدث بلغة الأساقفة عن منشأ العالم ومصيره . وشنت مقالة « المدرسة » هجوما مباشرا على الفلاسفة السكولاسيين (المدرسيين) على إعتبار أنهم تخلوا عن البحث عن المعرفة ، واستسلموا للاهوت . وضيعوا أنفسهم ، وهم آمنون فى المنطق الواهى مثل خيوط العنكبوت ، وسط غيوم الميتافيزيقا .

ودبج ديدرو سلسلة من المقالات الممتازة فى تاريخ الفلسفة ، استندت

كثيرا على كتاب جوهان جاكوب بروكر « تاريخ النقد الفلسفى » (١٧٤٢ — ١٧٤٤) ولكنها كشفت عن بحث أصيل فى الفكر الفرنسى ، وشرحت المقالات التى كتبت عن مدرسة إلياوأبيقور المذهب المادى . وأفرطت بعض المقالات فى إطراء برونو وهوبز . وباتت الفلسفة عند ديدرو ديانة . « والعقل للفيلسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح »[٥٥] . وصاح « فلنسارع لنجعل الفلسفة شعبيه »[٥٦] . وفى مقالة « الموسوعة » كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون « اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة ، وتخضع لسلطانها كل الأشياء التى تهمها ، وحين يكون صوتها عاليا مدويا ، وتشرع فى طرح نير السلطة والتقاليد وتستمسك بقوانين العقل ... » وهنا كانت العقيدة الجريئة الجديدة مع ثقة فتية شابة قليلا ما توجد ثانية . وربما كان يفكر فى حاميته الإمبراطورية فى روسيا ، فأضاف مثل أفلاطون » وحدوا بين حاكم (كترين الثانية) وبين فيلسوف من هذا الطراز (ديدرو) ومن ثم تجدون ملكا بلغ درجة الكمال[٥٧] .

وإذا حل مثل هذا الفيلسوف محل كاهن اعتراف مرشد وموجه للملك ، فلابد أن ينصحه أول ما ينصح باطلاق الحرية ، وبخاصة حرية الكلام والصحافة « إن أحداً لم يتلق من الطبيعة حق التحكم فى الآخرين »[٥٨] وفى هذا تعريض شديد بحقوق الملك الأهلية أما بالنسبة للثورة : « إن السلطة التى يتم الإستيلاء عليها عن طريق العنف ليست إلا اغتصابا ، لا تدوم إلا بقدر تفوق قوة من سيطر على قوة من أذعنوا له . فاذا توافر لهؤلاء الآخرين قسط كبير من القوة وتخلصوا من نير من تسلط عليهم من قبل فإنهم يفعلون بحكم الحق والعدل مثل ما فعل هذا الذى كان قد تحكم فيهم وفرض عليهم سلطانه من قبل . إن نفس القانون الذى فرض السيادة هو الذى يحطمها ويبطلها ، وهو قانون الأقوى ، ... ومن ثم فإن السلطة الحقيقية الشرعية لها بالضرورة حدود وقيود ... إن الأمير (الملك) يتلقى من رعاياه السيادة التى يمارسها عليهم . وهذه السيادة محدودة بقوانين الطبيعة وقوانين الدولة ... إن الدولة لا تتبع الأمير ، بل إن الأمير هو الذى يتبع الدولة وينتسب إليها[٥٩] .

ولم تكن الموسوعة إشتراكية ولا ديموقراطية ، بل إنها قبلت الملكية ،

ونبذت نظرية المساواة التي شرحها روسو بقوة ١٧٥٥ . ودافعت مقالة جوكور « المساواة الطبيعية » عن المساواة أمام القانون ، ولكنها استطردت تقول « إني أدرك تمام الإدراك ضرورة تباين الأحوال والدرجات والمقامات والطبقات والإمتيازات والتبعية التي يجب أن تسود في كل الحكومات » [٦٠] واعتبر ديدرو آنذاك أن الملكية الخاصة أساس لا غنى عنه للمدنية [٦١] على أن مقالة « الإنسان » على أية حال كانت لها وقفة مع الشيوعية : « إن الربح الصافي للمجتمع إذا وزع توزيعا عادلا بالتساوى قد يكون مفضلا على ربح أكبر إذا لم يوزع على قدم المساواة ، ومن ثم تكون نتيجته تقسيم الشعب إلى طبقات » . وعند التحدث عن الملاجيء قيل « قد يكون السعي إلى منع الفقر والبؤس ذا قيمة أكبر من مضاعفة الملاجيء لإيواء البؤساء » [٦٢] .

إن الملك الفيلسوف قد يفحص من وقت لآخر شئون الإقطاع ويلغي الإمتيازات الإقطاعية التي لم تعد تتكافأ مع خدمات السادة الإقطاعيين للفلاحين أو للدولة [٦٣] . وقد يجد بديلا إنسانيا للعمل الإجبارى ، أى نظام السخرة ، ويحرم تجارة الرقيق ، ويضع حداً ، كلما اتسع سلطانه ، للحروب بين الأسرات المتنافسة والصراعات التي يمليها الجشع ، ويسعى إلى تطهير المحاكم من الفساد ، ويوقف بيع الوظائف ، ويخفف من وطأة قانون العقوبات وعلى الأقل يضع حداً للتعذيب القضائي . وعليه ، بدلا من العمل على استدامة الخرافة وانتشارها ، أن يبذل أقصى جهوده في أن يدفع إلى الأمام هذا العصر الذهبي الذي يمكن أن يتحالف فيه فن الحكم وسياسة الدولة مع العلم في حرب متصلة ضد الجهل والمرض والفقر .

وكانت الأفكار الإقتصادية في الموسوعة في جملتها هي أفكار الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها معظم الفلاسفة . وهي على الأغلب آراء الفيزيوقراطيين التي سيطرت بزعامة كني وميرابو الأب على النظرية الإقتصادية في فرنسا في أواسط القرن الثامن عشر . فقد ساد الإعتقاد بأن حرية العمل والمشروعات — ومن ثم التجارة الحرة والمنافسة الحرة — أمر حيوى بالنسبة للأحرار من الناس . ولذلك كانت النقابات وهي عوائق لهذه كلها ، غير مرغوب فيها ولا يتقبلها أحد . وقدر لهذه الأفكار أن تبرز على مسرح التاريخ في وزارة

ترجو ١٧٧٤ ونبهت الموسوعة الأذهان إلى التكنولوجيا الصناعية وأولتها عناية متحمسة ، وهى التكنولوجيا التى بدأت تغير وجه الإقتصاد فى إنجلترا وفرنسا . واعتقد ديدرو أن الفنون الميكانيكية يجب إكبارها والرفع من شأنها باعتبارها تطبيقاً للعلوم ، والتطبيق بالتأكيد ذو قيمة كبيرة مثل النظرية تماما . « ما هذا الحمق فى قراراتنا وتقديراتنا ! إننا نحض الناس على أن يشغلوا أنفسهم بما يفيد وينفع ، ثم نحتقر الرجال النافعين » (٦٤) . وكان يأمل فى أن تكون الموسوعة مستودعا جامعا مانعا للتكنولوجيا حتى إذا وقعت بالفنون الميكانيكية كارثة دمرتها أمكن بناء هذه الفنون من جديد بفضل مجموعة باقية من مجلدات الموسوعة . وكتب هو نفسه مقالات مطولة بذل فيها جهداً كبيراً عن الصلب والزراعة والإبر والبرونز وآلة النقب والقمصان والجوارب والأحذية والخبز . وأعجب بعبقرية المخترعين وبمهارة الحرفيين . وقصد بنفسه أو أرسل مساعديه إلى المزارع والحوانيت والمصانع لدراسة العمليات والمنتجات الجديدة ، وأشرف على حفر الرسوم والنقوش التى قارب عددها ألفا والتى جعلت من مجلدات اللوحات الأحد عشر إحدى العجائب من نوعها فى ذلك العصر . وكانت الحكومة فخورة بأن يشمل هذه المجلدات الأحد عشر الإذن الملكى بطبعها ونشرها . وقد ضمت خمساً وخمسين لوحة عن صناعة النسيج وإحدى عشرة لوحة عن سك العملة وعشرا عن الصناعات الحربية ، وخمسا عن البارود ، وثلاثا عن صناعة الدبابيس . وكانت هذه اللوحات الثلاث الأخيرة مصدراً لمقالة آدم سميث الشهيرة عن توزيع العمل إلى « ١٨ عملية متميزة » فى إنتاج الدبوس (٦٥) . قال ديدرو : « من أجل الحصول على هذه المعلومات كنا نقصد إلى أقدر الحرفيين فى باريس وفى سائر أنحاء المملكة ، وحرصنا على أن نوجه إليهم الأسئلة ونكتب ما يملون علينا . ونحصل منهم على المصطلحات المستخدمة فى حرفهم . وفى مقابلات طويلة كثيرة مع مجموعة واحدة من العمال كنا نستكمل ما قد يكون الآخرون قد شرحوه بشكل ناقص أو غامض أو أحيانا غير دقيق . وأرسلنا إلى الحوانيت حفارين ورسامين رسموا الآلات والأدوات دون أن يحذفوا شيئا يمكن أن يجعلها واضحة تمام الوضوح أمام الأعين . » (٦٦)

وفى ١٧٧٣ ، عندما طلب سلطان تركيا إلى بارون دى توت أن يصنع المدافع لحصون الدردنيل استخدم البارون مقالة « المدافع » فى الموسوعة مرشدا دائما يسترشد بما جاء فيها . (٦٧)

وبعد أن فرغ ديدرو من إعداد النص كاملا ، أصيب بنكسة زلزلت كيانه وحطمت روحه ، ذلك أنه وهو يراجع إحدى المقالات اكتشف أن أجزاء كثيرة من أوراق التجارب التى كان قد صححها واعتمدها حذفت أو سقطت عند الطبع . وأظهرت مراجعة بعض المقالات الأخرى أن حذفا مماثلا جرى فى المجلدات من التاسع إلى السابع عشر . وجرى الحذف والتعديل عادة فى أجزاء ربما أثارت مرة أخرى رجال الدين أو البرلمان . وجرى الحذف دون اعتبار للمنطق أو السياق فى الجزء الباقى من المقالة . واعترف لى بربتون بأنه عمد إلى هذه العملية الجراحية (الحذف) لينقذ الموسوعة مما قد تتعرض له من محن ، وينقذ نفسه من الإفلاس . وروى جريم نتيجة هذا العمل « لقد جن جنون ديدرو عند اكتشاف هذا التصرف ، ولن يغيب عن ذاكرتى مطلقاً هذا الذى حدث له وظل لعدة سنين يصرخ فى وجه لى بريتون « لقد كنت تخدعنى بشكل مخز ودنىء .... وضيعت جهود عشرين من أفاضل الرجال ، الذين خصصوا كل وقتهم وقدراتهم ومواهبهم ونشاطهم حبا فى الحق وجريا وراء الحقيقة ، يحدوهم مجرد الأمل فى وصول آرائهم إلى جمهور الناس ، ولا يريدون منها إلا أيسر الجزاء بثمن غال ... ولسوف يذكرونك منذ الآن رجلا اقترف جريمة الخيانة ، وتصرف تصرفا وقحا كريها ، مما لا يقارن به أى شىء حدث فى هذا العالم » (٦٨) . ولم يغتفر ديدرو لبريتون هذه الزلة قط » .

إننا لو ألقينا نظرة فاحصة إلى هذا العمل ، سواء من حيث تاريخه أو محتوياته : لأدركنا أنه المشروع البارز الرائع فى عصر الإستنارة فى فرنسا ، ومنذ كان ديدرو فيه رئيسا لا غنى عنه ، كانت مكانته تجىء بعد فولتير وروسو فى الصورة العامة الشاملة للحياة الفكرية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر . وكانت مثابرته على تحرير الموسوعة عملية متشعبة الأطراف مضنية . إنه أثبت المراجع المتعارضة وصحح الأخطاء وقرأ تجارب الطبع ، وطاف

بأرجاء باريس يبحث عن الكتاب ويستحثهم . ودبج بقلمه مئات المقالات في حالة عدم العثور على الكتاب أو عجزهم عن الكتابة . وكان المرجع الأخير إذا قصر الآخرون ، ومن ثم نجده يكتب فى الفلسفة والفن والمسيحية ، والأصلة العاصرة (نوع من الحيات الضخمة الماحقة) والجمال وأوراق اللعب ومصانع الجعة والخبز المقدس . وسبقت مقالته عن « التعصب أو عدم التسامح » رسالة فولتير فى نفس الموضوع ، وربما أوحت ببعض الأفكار الواردة فيها . وزخر الكثير من مقالاته بالأخطاء ، وكان بعضها عدائيا غير منصف بشكل مشوش ، مثال ذلك مقالته عن اليسوعيين ، ولكنه كان فى عجلة من الأمر ، على حذر يستعد للنضال ، كما كانوا يطاردونه ، وكان يحارب بكل سلاح فى متناول يده .

أما وقد خفت حدة المعركة ، فنى مقدورنا أن نتبين مواطن الضعف فى الموسوعة . ففيها ألف خطأ فى إيراد الحقائق ، وفيها تكرارات طائشة غير مدروسة وحذف فاضح . وكان فيها انتحالات جوهرية ، كما أوضح الباحثون اليسوعيون «وكانت بعض المقالات» لوحة من المسروقات أو الإقتباسات(٦٩) . وفى ثلاثة أعداد من صحيفة تريفو أورد برتييه ، استناد إلى مراجع دقيقة ومقتبسات متطابقة أكثر من مائة من الانتحالات فى المجلد الأول وكان معظم هذه المسروقات مختصرا غير ذى أهمية ، ولكن بعضها إمتد إلى ثلاثة أو أربعة أعمدة منقولة بالحرف الواحد .

وكان فى الموسوعة شوائب فكرية خطيرة . ومن ذلك أنه كان لدى المؤلفين فكرة بالغة السذاجة عن الطبيعة البشرية ، وتقدير متفائل إلى حد بعيد لأمانة العقل وإدراك غامض غاية الغموض لضعف هذا العقل وهشاشته أو سهولة إنقياده ، ونظرة عامة متفائلة أكثر مما ينبغى إلى كيفية استخدام الناس للمعرفة التى يزودهم بها العلم . إن الفلاسفة بصفة عامة وديدرو بصفة خاصة ، كانت تعوزهم الحاسة التاريخية . إنهم قليلا ما توقفوا ليبحثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التى حاربوها ، وأية حاجات بشرية ، لا إبتداعات كهنوتية انتجتها وهيأت لها الدوام . وعميت أبصارهم تماما عن إسهام الديانة الضخم فى النظام الإجتماعى وفى الأخلاق وفى الموسيقى والفنون ، وفى

تخفيف الفقر والشقاء . إن تحاملهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً إدعاء النزاهة أو عدم التحيز الذى ينبغى أن نعتبره الآن عنصراً أساسيا فى الموسوعة الجيدة . وعلى الرغم من أن بعض اليسوعيين مثل برتييه ، كانوا فى الغالب منصفين فى نقدهم للموسوعة ، فإن معظم نقادنا كانوا متحيزين مثل الفلاسفة .

وأحس ديدرو إحساسا قويا بالأخطاء الحقيقية الفعلية فى الموسوعة فكتب فى ١٧٥٥ : إن الطبعة الأولى من موسوعة لا يمكن إلا أن تكون جمعا وتصنيفا مشوهين ناقصين ، [٧٠] وتوقع أن تحل محلها وشيكا طبعة أخرى مصححة . وحتى مع هذا شق هذا الإنتاج الضخم طريقه إلى الأوساط الفكرية فى القارة . وأعيد طبع المجلدات الثمانية والعشرين ثلاث مرات فى سويسرا ، ومرتين فى إيطاليا ، ومرة فى ألمانيا ، ومرة فى روسيا ، وعادت الطبعات المنتحلة إلى فرنسا لتنشر تأثير الأفكار المهربة . وبلغ عدد الطبعات ثلاثا وأربعين طبعة على مدى خمسة وعشرين عاما — وهو رقم قياسى لمثل هذه المجموعة الغالية الثمن . وكان أفراد الأسرة يجتمعون فى المساء ليقرأوا الموسوعة وتألفت مجموعات متلهفة على دراستها . وأشار توماس جفرسون على جيمس ماديون بشرائها .

والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير ، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم فى الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوربا مثل ريح محملة بلقاح جديد ، تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة .

إن الموسوعة كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية »



الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ – ١٧٧٣

١ – القائل بوحدة الوجود

إننا نسميه بروتية Proteus لأنه مثل إله البحر عند هوميروس ، حاول أن يفلت من أيدى صائديه بالتشكل فى مختلف الأشكال.[١] أما فولتير فقد أطلق على ديدرو اسم بانتوفيلس ، لأنه أولع بكل فروع العلوم والأدب والفلسفة والفن . وكان له بكل هذه المجالات معرفة واسعة ، وأسهم فى كل واحد منها إسهاماً مثيراً موحيا . وكانت الأفكار هى كل زاده وعتاده . فجمعها وتذوقها وفحصها . ثم سكبها مشوشة تشويشا مسرفا حيثما وجد قرطاساً خالياً أو آذانا صاغية « إنى أضع أفكارى على الورق ولتكن ما تكون »[٢] وربما أصبحت أعداء . ولم ينسق قط بينها ولم يهتم قط بترابطها . ويمكن أن نقتبس عنه فى أى اتجاه تقريباً ، ولكن نزعته المركبة كانت جلية واضحة . وكان أكثر أصالة من فولتير ، وربما كان السبب فى هذا أنه لم يرتض قط المعايير التقليدية . وقد يطلق لنفسه العنان دون قيود مقبولة . وتتبع كل نظرية أنى قادته ، أحياناً إلى أعماقها وأحياناً أخرى إلى حثالتها . وتعرف على كل وجهات النظر إلا وجهات نظر القسيس والقديس لأنه لم يكن لديه حقائق أو أشياء يقينية « أنى لا أهتم بتشكيل السحب أكثر منى بتبديدها ، وتعطيل القرار أو الحكم ، لا باتخاذه .. أنا لا أقرر ، بل أتساءل[٣] أنا أترك ذهنى يهيم إلى حد السرف ، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة ، تأتى أو تقفز إلى ذهنى أولا ، وأتعقبها كما يتعقب الشباب الداعر محظية بائسة وهى تبتسم ، وتتلألأ عيناها وتنظر بازدراء ... إن أفكارى هى محظياتى[٤].

وكان لديدرو خيال عقلانى ، فتخيل الأفكار والفلسفات والشخصيات كما يتخيل الآخرون الأشكال والمشاهد . ومن غيره كان يستطيع فى زمانه أن يتصور « ابن أخى رامو » المخزى اللا أخلاقى الفاتن . إنه بعد أن يخلق أحد شخوصه يدعه ينمو ويتطور وكأنما يفعل ذلك طواعية واختياراً . ثم يدع هذه الشخصية تقوده ، وكأنما المؤلف هو الدمية المتحركة أو الألعوبة . إنه تخيل نفسه فى مكان راهبة شابة كارهة ثم جعلها حقيقة إلى حد أن المتشككين الفرنسيين تولاهم الجزع لمحنتها . أنه جرب الأفكار تجريبا عقلياً ، وتمسك بها بعض الوقت ، وتخيل نتائجها منطقيا أو عمليا ، ثم طرحها جانبا . وما كادت توجد فكرة فى هـــذا العصر إلا دارت بخلده . أنه واقعيا لم يكن مجرد موسوعة متحركة ، بل كان معملا متنقلا . سارت أفكاره معه أينما سار .

وهكذا فإن ديدرو فى كتابة « بعض الأفكار فى تفسير الطبيعة » الذى نشره فى ١٧٥٤ غفلا من اسم المؤلف ، بترخيص ضمنى من الرقيب الكريم المحسن مالشرب — تلاعب بأفكار عن الأحدية (القول بأن ثمة مبدأ غائبا واحداً ، كالعقل أو المادة . القول بأن الحقيقة كل عضوى واحد) . والمادية والآلية والحيوية (المذهب الحيوى الذى يقول بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتماداً كليا على العمليات الفيزيائية والكيميائية) والتطور . وكان لا يزال متأثراً ببيكون وأخذ عنه العنوان والصيغة الحكيمة ودعوة رجال العلم ليتكاتفوا فى العمل على قهر الطبيعة عن طريق التجريب والعقل . وتأثر كذلك بكتاب موبرتيوس « منهج عام للطبيعة » (١٧٥١) وكتاب بيفون (التاريخ الطبيعى (١٧٤٩) . واتفق مع موبرتيوس على أن كل مادة قد تكون حية ، ومع بيفون فى أن علم الحياة (البيولوجيا) مستعد الآن للتحدث إلى الفلسفة . ورحب عند المؤلفين كليهما بفرضية التطور الناشئة .

وبدأ ديدرو بمخطط ضخم : (إنها الطبيعة هى التى أريد أن أصفها ، إن الطبيعة هى الكتاب الوحيد أمام الفيلسوف) [٥] وتصور أن الطبيعة قوة

نصف عمياء ونصف ذكية ، تؤثر فى المادة وتبعث فيها الحياة ، وتهيء للحياة مليون شكل تجريبى ، وتدخل التحسين على هذا العضو . وتنبذ ذاك العضو ، تحيي وتميت بشكل مبدع . وفى هذا المعمل الكونى ظهرت واختفت آلاف الأنواع .

(أنه مثل ما هو حادث فى مملكتى الحيوان والنبات ، ينشأ فرد وينمو ويبقى ثم يهلك ويزول، فهلا يمكن أن تكون كل الأنواع على هذا المنوال؟ إذا لم تعلمنا العقيدة أن الحيوانات تأتى عن يدى الخالق كما نراها ، وإذا كان هناك أدنى شك فى بدايتها ونهايتها ، فهلا يفترض الفيلسوف المستسلم لخواطره أن الحيوانية أخذت عن كل الأبدية كل العناصر الخاصة بها ، ثم تبعثرت و اختلطت بكتلة المادة ، وحدث أن هذه العناصر اتحدت كلما أمكن حدوث هذا الاتحاد ، وأن الجنين الذى تكون من هذه العناصر مر بتنظيمات وتطورات لا حد لها ، وأنه اكتسب على التوالى حركة وأفكاراً وتفكيراً وتأملا ووعيا ومشاعر وانفعالات ورموزا وإيماءات وأصواتا واضحة ولغة وقانونا وعلوما وفنونا، وأن ملايين من السنين انقضت بين هذه التطورات، وأنه قد لا يزال أمام هذا الكائن تطورات أخرى يمر بها وأضافات أخرى يتلقاها ، غير معروفة لنا الآن . . وأنه قد يفقد هذه المواهب والقدرات كما اكتسبها ، وأنه قد يختفى إلى الأبد من الطبيعة ، لا بل إنه قد يبقى على قيـد الحياة فى شكل آخر بمواهب وقدرات مختلفة كل الاختلاف عما نراه فيه فى هذه اللحظة من الزمان ؟ [٩]

إن الطبيعة عند ديدرو هى كل شيء وهى إلهه . ولكنا لا نعرف عن جوهرها إلا وفرتها المضطربة والتغير الدائب الذى لا يهدأ فيها . والطبيعة هى المادة الحية . ولكن المادة تحتوى فى نفسها على اندفاع الحياة وعلى إمكانية التفكير . وليس الإنسان آلة كما أنه ليس روحا غير مادية ، والجسم والنفس كائن واحد ويفنيان معا (إن كل شيء يدمر نفسه ثم يهلك

ولا يبقى إلا العالم ، ولا يثبت إلا الزمان [٧] والطبيعة محايدة ولا تعمد إلى التفريق بين الخير والشر والكبير والصغير والآثم والقديس . أنها تعنى بالأنواع الفرد . فلينضج الفرد ويتكاثر ثم ليمت ولسوف يفنى كل نوع كذلك . أن الطبيعة حكيمة فى عدد لا يحصى من التفاصيل البارعة التى يبدو أنها تكشف عن التخطيط . إنها تمنح الكائنات غرائز تمكنها من الحياة ومن تهيئة الحياة لغيرها ، ولكن الطبيعة أيضاً عمياء تدمر الفلاسفة والحمقى على حد سواء ، بقذيفة واحدة من النار أو بضربة واحدة من يدها على أديم الأرض ، ولن يكون فى مقدورنا أن نفهم الطبيعة ولا أن نكشف النقاب عن أغراضها أو معناها إذا كان لها ثمة أغراض أو معنى ، لأننا نحن أنفسنا طوال تاريخنا الدموى الجليل من بين ألعابها أو رياضاتها العابرة المتناهية فى الصغر .

٢ — حلم دالمبير

تابع ديدرو تأملاته فى الطبيعة فى واحد من أغرب المؤلفات فى الأدب الفرنسى — حلم دالمبير (وامتاز ديدرو بعرض أفكاره فى صورة حلم ، ودس الحلم على صديقه بأن جعل اثنين من مشاهير المعاصرين — جولى دى لسبيناس ودكتور تيوفيل دى بوردو — متحدثين فى الحوار . وقال ديدرو لخليلته « إنى أضع أفكارى على لسان رجل يحلم . وغالبا ما يكون ضروريا أن نضفى على الحكمة جوا من السخف والحمق حتى نهيىء لها مدخلا » [٨] وتحت هذه الأقنعة أطلق العنان لخياله الفلسفى غير مبال بأى خطر شخصى أو أية نتائج اجتماعية ، وكان مسروراً غاية السرور بالنتيجة . ووصفه صوفى فوللاند بأنه (أكثر ماكتب حمقا وعمقا ، فيه خمس أو ست صفحات تجعل شعر رأسك ينتصب »[٩] على أنه أكد لها أنه لم يتضمن كلمة واحدة خاطئة[١٠]. أنه كتبه فى عام ١٧٦٩ وقرأ أجزاء منه على أصدقائه ، وفكر فى طبعه ، والمفروض فى الخارج . فاحتجت الآنسة دى لسبيناس لأسباب سوف تتضح فيما بعد . وفى حركة بطولية ألقى بالمخطوطة فى النار ، وربما كان يعلم أن هناك نسخة أخرى . وعلى أية حال طبع الكتاب فى ١٨٣٠ .

أنه عمل ثلاثى . وفى « الحادثة » الأولية بين ديدرو ودالمبير يعترض العالم الرياضى على مذهب صديقه المادى الحيوى بأنه ليس مقبولا أكثر من قبول مفهوم الله عند رجال اللاهوت فى القرون الوسطى . يقول ديدرو : « ليس بينك وبين الحيوان إلا فارق واحد فى الكائن الحى (درجة التطور العضوى) وكذلك الحال بين الحيوان والنبات » . ومن ثم فإن كل شىء فى الإنسان يجب أن تكون له بذرته أو نظيره فى النباتات» . ويسأل دالمبير : وفى المادة أيضاً ؟ فيرد ديدرو بالإيجاب ، لأنك « كيف تعرف أن الوجدان لا يلتئم مع المادة—أنت الذى لا تعرف جوهر أى شىء لا المادة ولا الوجدان؟ وليس ثمة إلا جوهر واحد فى الكون فى الإنسان وفى الحيوان [١١] » .

ويبرز الجزء الثانى من هذه الثلاثية دكتور بوردو والآنسة دى لسبيناس إلى جوار سرير دالمبير وهو نائم بعد أمسية قضاها فى الجدل والحوار مع ديدرو (وكانت الآنسة وقد اشتهرت فعلا بصالونها تقيم مع دالمبير فى لون من الحياة الأفلاطونية) . وتروى للطبيب أن صديقها رأى فيما يرى النائم حلما مزعجاً وأنه تحدث فى نومه حديثا غريبا وأنها دونت بعض ملاحظات عن هذا الحديث ، مثال ذلك إن دالمبير قال لديدرو « انتظر قليلا أيها الفيلسوف. أنا أستطيع أن أدرك بسهولة مجموعة . . من الكائنات الصغيرة التى تحس ، ولكن الحيوان ؟ هل هو كل . . بوعى من وحدته الخاصة به ؟ أنا لا أرى هذا [١٢] ويرى الحالم فى منامه أن ديدرو يروغ إذ من السؤال يتخذ موقفاً عفوياً « عندما رأيت المادة الهامدة تصبح فى حالة شعور فلا شىء يدهشنى بعد ذلك » .[١٣] . ويتابع ديدرو :«إذا كانت كل الأنواع الموجودة ستزول فإنها أو أية أشكال أخرى من الحيوان ستنتج على إمتداد الزمن تخمر الأرض والهواء . ويشترك بوردو والآنسة فى المناقشة ، ولكن تقاطعهما صرخة مفاجئة من الرجل الذى يحلم الذى يتحدث الآن مثل ديدرو . « لماذا أكون أنا الآن كما أنا ؟ لأنه لم يكن ثمة مفر من أن أكون كذلك . إذا كان كل شىء فى تغير عام متواصل فما الذى لا يمكن إنتاجه هنا أو فى أى مكان آخر

بمرور ملايين القرون وتقلباتها ؟ . . . ومن يدرينا أن الكائن المفكر الذى يحس ويشعر موجود على كوكب زحل ؟ . . . هل يمكن أن يكون للكائن المفكر الذى يحس ويشعر فى زحل حواس أكثر منا ؟ آه إذا كان الأمر كذلك لكان ساكن زحل سيء الحظ لأنه كلما ازدادت الحواس ازدادت الحاجات (١٤) » .

ويعلق بوردو على ذلك « أنه على حق طبقا لنظرية لا مارك فى التطور العضوى ، فإن الأعضاء تولد الحاجات وبالتبادل تولد الحاجات الأعضاء » .

ويصحو دالمبير لحظة ويجد بوردو يقبل لسبيناس فيحتج . ويأمرانه بالعودة إلى النوم فيمتثل . وينسى الطبيب وصاحبته الصالون ويتتبعان الأفكار التى بدأت فى الحلم ويشير بوردو إلى ولادة المخلوقات الإنسانية الغريبة ويتحدى المؤمنين بالتخطيط الالهى أن يفسروها . وتسنح للآنسة لمحة خاطفة بارعة « ربما كان الرجل مجرد صورة مشوهة من المرأة أو المرأة صورة مشوهة من الرجل(١٥) . ويضيف الطبيب إلى هــذا على طريقة ديدرو « الفرق الوحيد بينهما أن لأحدهما كيس يتدلى فى الخارج وللأخر كيس مثبت فى الداخل » . ويستيقظ دالمبير ويحتج « أنت تتحدث بكلام بذىء إلى الآنسة لسبيناس » وينهض بوردو لأنه كان على موعد مع مريض آخر ، ويتوسل إليه دالمبير أن يبقى ليفسر له : «كيف حدث أنه ظل كما هو بالنسبة لنفسه وللآخرين طوال التقلبات التى عاناها طوال سنى حياته على حين أنه ربما لم يعد لديه شيء قط من الجزئيات التى كانت له عند مولده » ؟ فيجيب الطبيب « أنها الذاكرة و . . بطء التغيرات » . وتقدم الآنسة قياسا مثيراً « أن الدير يحتفظ بروحه لأنه يمتلىء بالرواد شيئا فشيئا وإذا قدم راهب جديد فأنه يجد مائة راهب قديم يقودونه إلى أن يفكر ويحس مثل ما يفعلون هم أنفسهم (١٦) » .

ويسيطر بوردو منذ الآن على المناقشة وهو يفرق بين النزعة الرومانتيكية والنزعة التقليدية القديمة حسبما تسيطر الحواس على الذهن الواعى أو يسيطر

الذهن الواعي عليها . ويرى ن لسبيناس مثال وأضح على الحالة الأولى ويقول لها فى رقة « إنك ستوزعين وقتك بين الضحك والدموع ولن تكونى أكثر من طفل » ويذكر تفسيرا فسيولوجيا للإحلام : « النوم حالة لا يعود يوجد فيها تنسيق بين الحواس عن طريق الوعى أو الهدف ، ولا يعود يوجد أى عمل مدبر أو نظام وضبط والسيد (النفس الواعية) ستسلم لهوى أتباعه (الحواس) . . . هل الخيط (الأعصاب) مشدود ؟ إذن يرى أصل الشبكة (المخ) . وإذا أراد خيط السمع فأنه يسمع . والفعل ورد الفعل (الأحساس والأستجابة) هما الشيئان الوحيدان اللذان يبقيان بينهما . وهذا نتيجة طبيعية لقانون الأستمرار والعادة . إذا بدأ الفعل بالغاية الشهوانية التى قدرتها الطبيعة للذة الحب ، وتكاثر النوع فإن أثره على أصل الحزمة (المجموعة) هو الكشف عن صورة المحبوب . ومن جهة أخرى إذا ظهرت هذه الصورة باديء ذى بدء لأصل الحزمة فستكون شدة الرغبة الشهوانية وهياج السائل المنوى وتدفقه ، هذه كلها ستكون نتيجة رد الفعل . . . وفى حالة اليقظة تذعن الشبكة للصور التى يطبعها فى الذهن شيء خارجى . وفى حالة النائم ، فإنه من ممارسته شعوره الخاص ، ينبثق كل شيء فى نفسه . وليس فى الحلم شيء يصرف الأنتباه ومن ثم كانت حيوية ونشاطه[١٧] » .

وربما أحس بوردو بأن المريض الذى كان قد قرر زيارته قد يشفى بالطبيعة أسرع منه بالدواء ، والملك نسيه ، وأنطلق يشرح الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر) ويصف « إحترام الذات ، والخجل والندم » بأنها صبيانيات مبنية على جهل وغرور شخصى ينسب لنفسه مزايا ونقائص فى لحظة لا مفر منها[١٨] .

وأفتتن ديدور بالطبيب بوردو ناطقا بلسانه ، حتى أنه فى الجزء الثالث « مواصلة المحادثة » أغفل دالمبر . وإذ تحرر الطبيب فإنه أنكر العفة باعتبارها أمرا غير طبيعى ، ويقر الأستمناء متنفساً ضروريا عن الحويصلات المكتظة أو المحتقنة « أن الطبيعة لا تجيز شيئاً غير ذى فائدة . فهل أكون ملوما فى

مساعدتها إذا أهابت بى لمعونتها فى أقل الأعراض شبهة وريبة ؟ ويجدر بنا إلا نستفزها أبدا ، بل نمد لها يد المعونة بين الحين والحين[١٩] » . ويختتم الطبيب كلامه بتحبيذ التجارب فى مجال الخلط المنتج بين مختلف الأنواع ، حيث يمكن أن ينتج هـذا الخلط نمطا من الإنسان الحيوان الذى قد يقنع بخدمة الإنسان . وتستبق الآنسة لسبيناس أناتول فرانس والبطارقة ، فتتسأل : وهل ينبغى تعميد أنصاف الرجال هؤلاء ؟

بوردو (وهو يهم بالخروج) : هل رأيت فى حديقة الحيوان ، فى قفص من زجاج إنسان الغاب (ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان يقطن فى بورنيو وسومطره) يبدو وكأنه سان جون يلقى المواعظ فى الصحراء ؟

الآنسة : نعم رأيته .

بوردو (وهو يغادر المكان) : قال له الكارد ينال دى بوليناك ، « تكلم وأنا أعمدك[٢٠] .

وفى « مبادىء الفسيولوجيا » (١٧٧٤) صاغ ديدرو نظريته فى التطور ، متأملا فى الحلقة المفقودة ، فهو يقول « من الضرورى أن نبدأ بتصنيف الكائنات ، إبتداء من الجزىء الخامل غير الفعال (إذا وجد) إلى الجزىء النشيط الفعال ، إلى الحيوانات الدقيقة التى لاترى إلا بالمجهر . . . إلى النبات ، وإلى الحيوان ، وإلى الإنسان . : . يجدر إلا يصدق المرء أن سلسلة الكائنات قد عوقتها وأعترض سبيلها تباين الأشكال وتنوعها ، فالشكل مجرد قناع خداع . وربما وجدت الحلقة المفقودة فى كائن غير معروف ، لم يستطع علم التشريح المقارن بعد أن يحدد مكانه الحقيقى[٢١] .

٣ — ديدرو والمسيحية

كان ديدرو قد وعد صوفى فوللاند بأنه لن يتعرض للديانة فى « حلم دالمبير » والواقع بطبيعة الحال أن « الثلاثى » أورد فلسفة استغنت عن الآلهة تماما . وظل ديدرو فى العلن ربوبيا متمسكا بأن الله هو « المحرك الرئيسى » فقط ،

منكرا العناية الألهية والتخطيط والتدبير الألهى . وكان من الناحية النظرية « لا أدريا » ينكر أى علم أو إهتمام بأى شيء فيما وراء دنيا الحواس ودنيا العلوم ، وتحدث أحيانا بشكل غامض عن وعى كونى تعثر وتخبط عبر زمان لا حدود له ، وقام بتجارب تنتج الأن أشخاصا غريبة عقيمة أو يسبب أحداثا سعيدة — لا يكاد يكون ألها يتقبل الصلوات والدعوات . ويمكن أن يصبح فى أحدى نوبات الغضب خصيماً عنيفا ، وأنبأ عن مبغض البشر الذى بث فكرة الإله ، أنتقاما من الحياة ، وأنتشرت الفكرة ، وسرعان ما تشاجر الناس وكره بعضهم بعضا ، وقطع الواحد منهم رقبة الآخر . وكانوا يفعلون نفس الشيء منذ جرى هذا الأسم الكريه على الألسنة . وأضاف ديدرو فى إبتهاج مقرون بالحذر « ربما ضحيت بحياتى فى سبيل القضاء على فكرة الألة قضاء مبرما[٢٢]. » ومع ذلك فأن نفس العبقرية المهوشة أحست بنظام الكون وعظمته المذهلتين . وكتب إلى الآنسة فوللاند : « أن الألحاد أقرب ما يكون إلى الخرافة ، وكلاهما صبيانى طائش » ، ثم أضاف « لقد جن جنونى لأنى حائر متورط فى فلسفة شيطانية لا أملك إلا أن يقرها ذهنى وينبذها قلبى[٢٣]» وأقر فى سنيه الأخيرة بعد ذلك صعوبة أشتقاق العضوى من غير العضوى أو الفكر من الأحساس [٢٤] » .

ولكن ديدرو لم يهدأ قط فى حملاته على المسيحية . وثمة فقرة مثيره من رسالة خاصة تلخص موقفه منها ، « من رأيى أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون فى تعاليمها ومبادئها ، كما أنها مستعصية على الفهم ، ميتافيزيقية مربكة غامضة إلى أبعد الحدود . ومن ثم كانت أكثر تعرضا للأنقسامات والشيع والأنشقاقات والهرطقات ، وأكثرها ايذاء وازعاجا للهدوء العام ، وخطرا على الملوك والحكام فى تسلسل مراتبها الكهنوتية واضطهاداتها ونظامها العام ، وهى أشد العقائد فتورا وكآبة وبعدا عن المدنية ، وعبوسا فى طقوسها ، وأشدها صبيانية وأنطوائية وبعدا عن الروح الاجتماعية فى اخلاقياتها . . . وهى متعصبة لا تحتمل إلا أقصى[٢٥] .

وفى « نزهة المتشكك » (١٧٤٧) كان ديدرو قد اعترف بخدمات الكنيسة فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ولكنه بعد ذلك رأى أن المسيحية، على حين تنهى عن الجرائم البسيطة ، تبعث على إقتراف الجرائم الكبيرة ، « سيأتى ، أن عاجلا أو آجلا . الوقت الذى نرى فيه أن نفس العقيدة التى حالت بين الإنسان وبين سرقة شلن واحد ، تكون سببا فى قتل ١٠٠ ألف شخص . تعويض رائع !(٢٦) ومهما يكن من أمر ، فأن لأفكارنا الدينية أقل الأثر فى أخلاقنا (٢٧) ، والناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الآجلة والأله الذى لايرونه . أن القسيس نفسه قلما يعتمد على الدعاء والصلاة للالهة ، اللهم إلا إذا كان المرء لا يعنيه إلا قليلا(٢٨) . وفى ١٧٧٣ تنبأ ديدرو بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود فى بحر سنوات قلائل فى كل مكان(٢٩) ويبدو أن النبؤة تحققت فى فرنسا فى ١٧٩٢ . ولكن ديدرو تنبأ أيضاً « بأن الإيمان بوجود الله سيبقى(٣٠) » .

ومثل معظم الذين فقدوا إيمانهم بالمذهب الكاثوليكى ، فإن نفس ديدرو الذى ذهب إلى أن المراسم والطقوس الكاثوليكية كئيبة حزينة ، ظل حساسا لجمال ووقار الشعائر الكاثوليكية . ودافع عنها ضد النقاد البروتستانت فى صالونه ١٧٦٥ ، فهو يقول : « أن هؤلاء المتشددين الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهرية على الناس . أنهم لم يشهدو قط توقير الصليب فى يوم الجمعة الحزينة ، وحماسة الجماهير فى موكب عيد القربان . وهى حماسة كانت فى بعض الأحيان تجرفنى أنا نفسى . أنى لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة فى ملابسهم الكهنوتية ، ومساعديهم الصغار فى ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس ، ولم أر هذه الجماهير الحاشدة التى تسبقهم وتعقبهم فى صمت دينى رهيب ، كما أن كثيراً من الناس ينبطحون على الأرض . ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التى ينشدها الكهنة وترددها فى حب وإخلاص الجموع الحفيرة من الرجال والنساء والأطفال ، إلا أهتز قلبى من الأعماق ، وذرفت عيناى الدموع(٣١) . »

ولكنه إستأنف الهجوم بعد أن مسح عينيه . ففي « مناقشة فيلسوف مع المارشال دى . . . (١٧٧٦) تخيل رجلا متشككا أسماه كروديلى (معناها بالأيطالية قاس) يتحدث مع أحدى سيدات المجتمع النبيلات ، تعتقد أن من ينكر « التثليث المبارك » إنما هو متوحش مصيره إلى المشنقة . وتدهش السيدة إذ تجد أن كروديلى الذى هو ملحد ، ليس أيضاً لصاً ومنغمساً فى الشهوات يقول « أظن أنه إذا لم يكن لدى شيء أخشاه أو آمل فيه بعد الموت فأنى سأستبيح لنفسى كثيراً من الملذات اليسيرة هنا » . ويسأل كروديلى « وما هى هذه الأشياء » ؟ « أنى أعترف بها للكاهن فحسب . . . . ولكن ما للذى يدفع الكافر غير المؤمن ليكون طيبا إلا إذا كان مجنونا ؟ » أنها تتراجع قليلا أمام حججه ثم تتخذ خط دفاع آخر : « ينبغى أن يكن لدينا ما نرهب به الأعمال التى تفلت من قبضة القانون القاسية وفضلا عن ذلك إذا قضيت على الديانة فماذا تضع محلها ؟ » . فيجيب كروديلى « هى أنه ليس هناك شيء يحل محل الدين ، فلسوف يكون دائما على ية حال ضرر وظلم أقل » . إنه يصور المسلمين فى ثورة يذبحون فيها المسيحيين ، والنصارى يحرقون المسلمين واليهود .

المارىشال : هب أن كل ما اعتقدته باطلا كان حقاً ، وأنك هالك . إنه لشيء رهيب مزعج أن تكون هالكاً ملعوناً وأن تصلى النار إلى الأبد .

كروديلى : يقول لافونتين بأننا سننعم بالراحة ، مثل السمك فى الماء .

المارىشال : نعم ، نعم ، ولكن لافونتين أصبح وقوراً تقياً جداً آخر الأمر ، وأتوقع أن تكون كذلك .

كردىلى : أنا لاأستطيع أن أجيب بشيء إذا ضعف مخى .

أن أشد الفلاسفة عداوة لرجال الدين كان يحس بمرارة بالغة نحو ما بدا له أنه ضياع لحيوية البشر وطاقاتهم فى أديار الرهبان والراهبات . وفى إحدى

صفحاته الغاضبة أنحى بأعنف اللوم عــلى الآباء الذين حكموا على بناتهم بالعيش بين جدران الدير وهن كارهات . إن من أروع كتاباته من الناحية الفنية ، بعثاً خيالياً من جديد لحياة راهبة من هؤلاء . أنه كتب رسالة الراهبة فى ١٧٦٠ نتيجة مزحة كان يأمل جريم وديدرو من ورائها أن يعيدا إلى رفقتهما المركيز دى كرواكسمير من كاين إلى باريس . وحوالى هذه الفترة أثار ديدرو نداء وجهته الراهبة إلى برلمان باريس لاحلالها من القسم الذى أكرهها والداها عليه (كما تدعى) . وتعطف المركز فكتب إلى البرلمان يناصر قضية الراهبة ، ولكن دون جدوى .

إننا لانعرف عن هذه الراهبة شيئاً أكثر من هذا ، ولـكن ديدرو أعاد كتابة تاريخها فى تصوير واقعى يخلد ذكراها على مدى القرون . وافترض أنها هربت من الدير ، وأرسل إلى كرواكسمير عدة رسائل — وكأنها بقلمها — تصف فيها معاناتها فى الدير ، وتطلب أن يمد لها يد المساعدة لتبدأ حياة جديدة . وأجاب المركيز ، ورد ديدرو ، باسمها ، واستمرت هذه المراسلات أربعة شهور فى مائة وخمسين صحيفة .

وصور ديدرو سوزان تعانى من رئيسة الدير الغليظة القلب ، فهى تضطهدها وتحبسها وتجردها من ملابسها وتعذبها وتحرمها من الطعام ، فتشكو إلى أحد الكهنة الذى يهيء لها سبيل الانتقال إلى دير آخر . وهناك كانت رئيسة الدير الجديد مساحقة وشغفها الراهبة حباً ، وتوسلت إليها لمعاونتها . وربما بالغ ديدرو فى وصف قساوة الأمهات رئيسات الأديار وشقاء الراهبات وحزنهن . ولكنه جعل كل الكهنة فى قصته ودودين محبوبين مطبوعين على حب الخير ، وعالج فكرة السحاق فى رقة نادراً ما ظهرت فى مؤلفاته . وتأثر المركيز وقدم إلى باريس . وتكشفت له الخدعة ولكنه تجاوز عنها وكانت هذه القصة الغريبة قد أدت إلى دراسة رائعة فى علم النفس ، كانت متأثرة بقصة ريتشاردسن «كلاريسا» ولم يتعمق أى متشكك قط بمثل هذه القوة فى مشاعر القديس ، وفاجأ أحد الزوار

الكاتب وهو يدون هذه الرسائل ، فوجده كما يروى جريم « حزينا غاية الحزن ... ويذرف الدمع [٣٢] واعترف ديدرو بأنه كان يبكى لقصته هذه ، فما أسرع ما كانت الدموع تجرى فى عينيه ، مثل روسو. وكان فخوراً ، بشكل يمكن الصفح عنه ، بقصته الموضوعة على هيئة رسائل ، وباحتمال أن تكون صحيحة ، وبالعاطفة الدافقة فيها ، وبأسلوبها ، وقد عنى بمراجعتها وتنقيحها ، وأوصى بنشرها بعد موته . ورأت هذه القصة الثورة فى ١٧٩٦ فى عهد الثورة وفى ١٨٦٥ أحرقت قصة « الراهبة » علناً بناء على أمر من محكمة السين [٣٣] :

ومع قصة الراهبة ، نشر فى ١٧٩٦ ، كما أحرق معها فى ١٨٦٥ « جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيده » الذى أعتبره ديدرو أعظم إنتاجه [٣٤] ، بداعى التقارب فى الزمن . وربما كان الأمر كذلك ، ولكنه أيضاً أسخف ما كتب . وافتتن ديدرو بقصة « ترسترام شاندى » فاتخذ أسلوب ستيرن (قصصى انجليزى فى القرن الثامن عشر ١٧٦٠ — ١٧٦٨) فى تأليف قصة قائمة إلى حد كبير على اعتراض السياق ، فيقطعه من حين إلى آخر ، فى نزوة من نزواته ، ليتحدث إلى القارىء عن شخوص القصة . وبدأ الكتاب واختتمه بقطع وأحداث منقولة مباشرة من ستيرن . [٣٥] وفاق ستيرن فى إزعاج القارىء بين الحين والحين بفحش القول . إن شخصى القصة يعكسان أسلوب سرفنتيز فى التباين بين السيد وتابعه فى المزاج والفلسفة . فالسيد يرفض فكرة القضاء والقدر على حين يؤمن جاك بها . إن كل شىء يحدث هنا على الأرض مسطور فى كتاب هناك . [٣٦] إن جاك « يعتقد أن الإنسان يشق طريقه بالضرورة إلى المجد أو إلى الخزى والعار ، كما تنطلق الكرة متتبعة انحدار الجبل الذى تدحرجت عليه . إن رئيس جاك السابق كان قد ملأ رأسه بكل هذه الأفكار التى استقاها من سبينوزا الذى حفظه عن ظهر قلب [٣٧] وهو رئيس نادر المثال .

وفى أواسط القصة يتلكأ ديدرو ليروى فى حماسة وبراعة قصة

المركيزة دى لا بومراى عشيقة المركيز دى ارسيز . أنها أرتابت فى أنه سئمها ، فعزمت على أن تكتشف الأمر بالأشارة إلى أن علاقتها أصبحت عبئاً ثقيلا ، أنه أساء إليها أبلغ أساءة بتصريحه بأنه يود أن يفلت من عشيقة إلى صديقة ، فتدبر المركيزة إنتقاما فريداً فى يأبه . وتعثر على بغى جميلة ، وتتحمل نفقات أبدال ملابسها وتعلمها الأجرومية وآداب السلوك وتلقنها مبادىء التقوى المثيرة للاعجاب ، وتقدمها إلى المركيز على أنها سيدة من ذوات الحسب والنسب ، ودربتها على أن تثير نزواته وترفض عرضه لأن تكون صديقته ، وأرشدتها إلى الطريقة التى تنتزع بها منه إقتراحا بالزواج . وبعد بضعة أشهر من الزواج تكشف مدام لا بومراى للمركيز عن ماضى زوجته . ولكن يفسد على المركيزة أنتقامها تطور غريب . ذلك أن المرأة الآثمة التى أعيد تشكيلها وصلح حالها عرفت كيف تحب زوجها المركيز ، وأعترفت له خجلة باكية بخدعتها وعرضت أن تختفى من حياته ، وفى الوقت نفسه كانت هى زوجة مخلصة ووفية إلى حد أن المركيز أكتشف أن فى الزواج سعادة أكبر مما هى فى الفجور والزنى . فيغتفر لها تضليلها ويأبى أن تفارقه ، ويعيش معها عيشة راضية ممتازة ، ويتحطم قلب بومراى من مرارة الهزيمة .

أن هذا الفاصل على أية حال هــو أكثر ما يأخذ بالألباب فى « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » فأنه يتميز بمتانة التركيب ، واللمسات الرقيقه للواقعية النفسية (السيكولوجية) ، والشعور العميق فى تعبير هادىء . وهذه كلها تعوزها القصة على وجه الأجمال . واعترف شيللر بأنها درة فى فن الأدب . وترجمها إلى الالمانية فى ١٧٨٥ .

٤ — ابن أخى رامو

أن « ابن أخى رامو » ، لا « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » هو أعظم كتب ديدرو وأسماه جوته « الكتاب الممتاز الذى ألفه رجل لامع[٣٨] ، كتبه فى ١٧٦١ ومات قبل أن ينشر ، لأنه كان أقبح كتبه وأكثرها خزيا ، وفى

نفس الوقت أكثرها أصالة . وظاهر أنه رأى أنه غير مستساغ ليقدمه حتى لاصدقائه . وبعد موته تسربت نسخة منه إلى المانيا أحدثت هناك دويا شديدا. وارتاع له شيللر وثارت نفسه ، وحمله إلى جوته ، وكان آنذاك فى قمة الشهرة (١٨٠٥) فترجمه إلى الإلمانية . ودخلت هذه الترجمة إلى فرنسا وأعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (١٨٢١) ونشرت طبعة أخرى١٨٢٣ ولكن هـذه لم تصل إلى المطبعة إلا بعد أن كانت أبنة ديدرو قد هذبتها وحذفت منها ما لايليق نشره . ولم تكتشف المخطوطة الأصلية إلا فى عام ١٨٩١ فى كشك للكتب على ضفة نهر السين وهى موجودة الآن فى مكتبة بيير بونت موجان فى نيويورك .

واختار ديدرو لسانا ناطقا بأفكار غريبة شاذة إلى حد كان من العسير معه أن يعبر عنها ديدرو بضمير المتكلم . جان فرنسوا رامو هو ابن أخى الملحن المشهور جان فيليب رامو (الذى توفى ١٧٦٤) والذى كان لايزال على قيد الحياة حين كتب الحوار غير القابل للنشر . وعرف ديدرو الموسيقى معرفة جيدة ، وتحدث بطلاقة ودون تكلف عن لوكاتللى ، برجوليسى وجوميللى ، وجالوبى ، وليووفنسى ، وتارتينى ، وهاس ، وتنبأ بحق أنه فى العزف على الكمان سرعان ما سيحل العزف الشاق محل العزف الجميل ويزحزحه من مكانه[٣٩] .

وألف ابن الأخ موسيقى ، وأصاب بعض النجاح معلما للموسيقى . ولكن كان أسمه يقض مضجعه ويقلق باله . وكان يغار أشد الغيرة من عمه ويحقد عليه تفوقه . فتخلى عن المعركة ، وانغمس فى اللهو وأطلق العنان لشهواته ورغباته بشكل ينافى الأخلاق ، مما وصفه ديدرو فى قصته . وأكدت التقارير المعاصرة[٤٠] كثيراً من الصفات الأخرى التى نسبت إليه فى الحوار ، ولكن التاريخ لم يؤيد ماذهب إليه ديدرو من أنه كان قواد يتجر بجمال زوجته فى سوق الدعارة . وعندما فارقت هـذه الزوجة الحياة فقد جان فرانسو كل احترام للنفس وجعل منه لسانه البذىء غير العف ، الشديد التهكم

والسخرية منبوذا فى المجتمع ، وطرد من دار مسيو برتان الثرى الذى كان لعدة سنوات قد إعتمد عليه فى تناول العشاء عندة ، وصار عليه أن يلتمس الزملاء فى مقهى « لا ريجانس » وفى أماكن أخرى تزخر بالأفكار التقدمية التى لاتغنى ولاتسمن من جوع . يقول ديدرو (لاحظ كيف يعكس حياته فى كتبه) : « فليكن الطقس معتدلا أو غائما معتما ، إن من عادتى أن أقصد سيراً على الأقدام فى الساعة الخامسة بعد الظهر إلى البالية رويال . وأنا الشخص الذى يمكن أن يقع بصرك عليه وحيدا دائما ، حالما على مقعد دارجنسون ، أبحث بينى وبين نفسى مشاكل السياسة والحب والذوق والفلسفة ، وأطلق لذهنى العنان . . . . وإذا أشتد البرد أو هطل المطر ، آوى إلى مقهى لا ريجانس ، أراقب لعب الشطرنج . . . وكنت ذات مساء هناك ، أتلفت إلى ما حولى ، أتكلم قليلا ، وأسمع قليلا بقدر الأمكان . حين دنا منى شخص من أغرب الأشخاص على الأرض[٤١] » .

وتجيء بعد ذلك شخصية رائعة : رجل أخنى عليه الدهر ، وهو يتذكر الحمر فى مرارة وكان فيا مضى كثير المال ناعم البال مع أجمل زوجة فى باريس ، واستقبل مرة فى كل دار أنيقة[٤٢] ، كما كان متمشيا مع كل الوان الثقافة فى فرنسا . ولكنه الآن يعانى الفقر والخزى والعار ، يعيش على ما يقتات به من موائد الذين يستشعرون الأشفاق عليه ، وعلى القروض المنسية ، لا يرى فى الحياة إلا الصراع والهزيمة ، ينبذ كل الديانة باعتبارها قرية جميلة ولكنها مرعبة ، وينظر إلى الاخلاقيات على أنها جبن وخداع ، ومع كل هذا يحتفظ بقد ركاف من ماضيه ليغلف تحررا من الوهم بفصاحة بارعة مهذبة ، ويكسو هذا التحرير رداء عقلانيا . ودعابته حادة مريرة : من ذلك قوله « أن السيدة (كذا) وضعت توأما ، سيكون لكل والد واحد منهما » أو قوله عن أوبرا جديدة « أن فيها بعض قطع جميلة والمؤلم حقاً أن هذه القطع لم توضع لأول مرة[٤٣] » . أن مأساته الكبرى هى أنه لايؤمن بشيء « وسمع بعض كلام روسو عن الطبيعة — كم هى أفضل من المدنية

وخير منها ، ولكنه يلاحظ أن فى الطبيعة يفتك كل نوع بالآخر ؟ والخاتمة الرهيبة هى التهام كل كائن وهو يرى نفس الألتهام والفتك (أكل الكائنات بعضها بعضا) فى دنيا الاقتصاد ، اللهم إلا أن فيها أناسا يستنزف بعضهم دم بعض عن طريق اجراء قانونى مقبول . وهو يرى أن الأخلاق مجرد خدعة يضلل بها ذوو الدهاء من الناس بسطاء العقول منهم ، أو يخدع بها السذج من الناس أنفسهم . أنظر إلى تلك المرأة التقية الورعة التى تغادر الكنيسة (بعد الصلاة) « أنها أثناء الليل تتدرب فى خيالها على مشاهد الفسق والخلاعة وعلى الأوضاع الشهوانية الداعرة عند أريتينو[٤٤] » ويرى ابن الأخ (جان فرنسوا) أن الرجل العاقل لأبد أن يسخر من الوصايا العشر « ويتمتع بكل الخطايا والآثام فى حكمة وتبصر » . مرحى أمرحى ! بالحكمة والفلسفة ! — حكمة سليمان : شرب أجود الخمور ، التهام أطيب الأطعمة ، مضاجعة أجمل النساء ، النوم على الفراش الوثير ، وكل ماعدا هذا تافه لاقيمة له[٤٥] ؟ وماذا بعد هذا يمكن أن يقول الفيسوف الإلمانى نيتشه أو الشاعر والكاتب الفرنسى بودلير وأمثالهما ؟ .

ويختتم ديدرو هذا العرض المفزع « للأفكار بأن ينعت ابن الأخ بأنه « بليد شره جبان ، روح من الطين » ويجيب رامو على هذا بقوله « أعتقد أنك على حق[٤٦] وتجول بخاطرنا فكرة خبيثة : كيف كان يتسنى لديدرو أن يصور هذه الشخصية بمثل هذه القوة والحيوية ، إذا لم تكن تكمن بين جنبيه هو نفسه ؟ أنه يحتج على هذه الفكرة ، ولكنه يسلم بأنه ليس قديساً : « أنا لا أستنكر لذة الحواس ، فإن لى أنا أيضاً ذوقا يستسيغ أطباق الطعام الشهى والأنبذة الجيدة . كما أن لى قلبا وعينين أحب أن يقعا على سيدة جميلة ، وأحب أن المس بيدى أن رقبتها مستديرة ثابتة ، وأن تعتصر شفتاها شفتى ، وأن أرشف اللذة والمتعة من عينيها ، وأن ألفظ النفس الأخير بين ذراعيها . ولا يزعجنى الأنغماس البسيط فى الملذات فى بعض الأحيان مع أصدقائى ، حتى ولو كان صاخبا بعض الشىء . ولكن لا أخفى عليكم أنه

يبدو لى أنه يحلو لى أكثر إلى أبعد الحـــدود ، أن أمد يد المساعدة إلى المنكوبين ، أو أسدى نصيحة مفيدة ، أو أقرأ كتابا جيدا ، أو أتنزه مشياً على الأقدام مع رجل أو امرأة عزيزة لدى أو أقضى مع أولادى بضع ساعات أتولى فيها توجيههم وتثقيفهم ، أو أكتب صفحة جيده أو أؤدى واجبات عملى ، أو أصب فى أذن حبيبتى بضع كلمات حلوة رقيقة حتى تحيط عنقى بذراعيها وتعانقنى .. إن أحد معارفى رجل من ذوى الثراء فى قرطاجنة ، وكان الأبن الأصغر فى بلد جرت العادة فيه أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبن الأكبر ،وترامت إليه الأنباء فى كولمبيا أن أخاه الأكبر ، وهو شخص متلاف ، قد سلب أبويه اللذين دللاه وتساهلا معه كل ماكانا يملكان ، وطردهما من قصرهما . وأن هذين الوالدين الطيبين يعيشان الآن فى مدينة صغيرة فى الأقاليم يعانيان مرارة الفقر ، فماذا فعل هذا الأبن الأصغر الذى أساء والده معاملته إلى حد إنه رحل إلى أقصى الأرض يلتمس الرزق ؟ إنه أرسل إليهما معونة وعجل بتدبير أموره ، ليعود ثريا ميسوراً إلى أبيه وأمه ، واسترد لهما دارهما ، وهيأ الصداق لأخواته ليتزوجن . آه يا عزيزى رامو ، إن هذا الرجل يعتبر تلك الشهور أسعد أيام حياته . إنه حدثنى عنها والدموع تغمر عينيه . أما أنا ، وأنا أقص عليك هذه القصة ، فإنى أحس بأن قلبى قد أرهقه الفرح والغبطة والسرور الذى لا أجد كلمات للتعبير عنه (٤٧) .

٥ — علم الأخلاق والسياسة

كان لديدرو مثلما لنا جميعا ، شخصيتان على الأقل : نفس بأطنة تختزن فيها خفية كل دوافع الطبيعة البشرية ، كما هو موجود فى الحياة البدائية بل حتى حياة الحيوان ، ثم نفس ظاهرة للعيان تتقبل على كره منها التعليم والانضباط والأخلاق ، ثمنا يجب أن يدفع مقابل الحماية التى يبسطها النظام الاجتماعى . ولا تزال له أنفس أو شخصيات أخرى : ديدرو الذى لم يكن قد نسى شبابه ، وحرياته البوهيمية وحبيباته وخلوه من المسئوليات اللهم الا

أمام الشرطة ، ثم ديدرو رب أسرة ، الذى لو تهيأت له سيدة قادرة على فهم كلامه وأفكاره ، لأمكن أن يكون هو أيضاً . أحيانا ، زوجا صالحاً وأبا شغوفا بأبنائه ، وحيواناً شبه مستأنس ، ورجلا يقدر بعض التقدير المسالى والأخلاق والقانون .

إن هذه الشخصيه المزدوجة ، « دكتور جيكل ومستر هايد » ، أنتجت فيما بين عامى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ . محاورتين توضحان تذبذب آرائه . ففى « حوار بين أب وأبنائه » يقدم صورة جميلة لأبيه وهو يشرح فى رفق« خطر أولئك الذين يتعالون على القانون أو يضعون أنفسهم فوقه » ولكنه بعد ذلك بعامين كتب أكثر أعماله تطرفا .وكان لويس أنطوان بوجينفيل قد نشر لتوه (١٧٧٢) كتابه « رحلة حول العالم » عدد فيه خبراته وتجاربه فى تاهيتى وغيرها من جزر المحيط الهادى الجنوبى ووقع بصر ديدرو على بعض أجزاء من هذا الكتاب تبين تفوق الحياة البدائية فى بعض النواحى على المدنية .ورغبة من ديدرو فى إبراز نواحى التفوق والسمو هذه ، كتب فى ١٧٧٢ عما هو معهود فيه من حيوية وخيال وتميز وشغف ، « ملحق لرحلة بوجينفيل» ، وهو كتاب لم ير النور إلا فى ١٧٩٦ . واختار ديدرو رجلا عجوزاً من أهالى تاهيتى أورد بوجينفيل ذكره ، وتخيل أنه يلقى خطابا يؤدع فيه أمير البحر لدى الفرنسيين الراحلين عن الجزيرة : « وأنت يا زعيم عصابة اللصوص المطاع الذين يمتثلون لأوامرك ، إغرب بسفينتك عن شواطئنا . فنحن أبرياء سعداء ، وكل ما تستطيع أن تفعل لنا هو أن تفسد علينا سعادتنا . إننا ننهج نهج الفطرة النقية ، ولكنك تسعى لمحو أساس هذه الفطرة من نفوسنا . وهنا كل الأشياء ملك لكل الناس ، أما أنت فتبشر بتفريق غريب بين ما هو « ملك لك » وما هو « ملك لى » وكل بناتنا وزوجاتنا كانت لنا جميعا فى الشيوع ، ولكنكم شاركتمونا هذه الميزة ودفعتم بهن إلى لوثات من الجنون ، ولم يكن لهن بها عهد من قبل . . وتناحرتم وقتل بعضكم بعضا من أجلهن وعدن مضرجات بدمائكم ... نحن أحرار ، ولكن تأمل كيف أنكم نقشتم

على أرضنا عنوان عبوديتنا فى المستقبل ..إنكم كتبتم على هذا النصل المعدنى « هذا البلد بلدنا » . . . ولكن لماذا فعلتم هذا ؟ هل لأنكم حططتم رحالكم هنا ؟ وهل إذا رسا أحد أبناء تاهيتى ذات يوم على شواطئكم، ونقش على حجر عندكم « هذا البلد تابع لأهل تاهيتى » فماذا عساكم ترون فى مثل هذا العمل ؟ .. إن هذا التاهيتى الذى تريدون أن تمسكو به وكأنه حيوان ليس أخاً لكم .. وأى حق لكم عليه ليس له حق مثله عليكم ؟ إنكم جئتم إلينا ، فهل سطونا عليكم ؟ وهل أعملنا السلب والنهب فى مراكبكم ؟..كلا . لقد احترمنا ذاتنا فى شخصكم . . . اتركوا لنا عاداتنا وأعرافنا ، أنها أحكم وأشرف من عاداتكم وأعرافكم . وليست بنا من حاجة أو رغبة فى مقايضة ما تسمونه جهلنا بالمعرفة القيمة لديكم » [٤٨] .

ويمضى حكيم تاهيتى فيذكر الأوربيين بما قوبلوا به من ترحيب حار ، وكيف أسكنوهم وأطعموهم وأحبوهم . ولم يكن فى الجزيرة « وصية سادسة» (كما افترض ديدرو) كما لم يكن ثمة حقد ولا حسد . فلم يفهم نساء الجزيرة ما تحدث به قسيس السفينة عن الخطيئة والعار ، وأحطن البحارة بكل الكرم والرعاية .وماذا كانت النتيجة ؟ إن مرض الزهرى الذى لم يعرفه سكان الجزيرة من قبل ، ظهر الآن بين نسائها ، ثم انتقل إلى رجالها . ويتوسل الرجل العجوز إلى الزائرين أن يرحلوا إلى غير رجعة .

وأضاف ديدرو « مناقشة بين القسيس وأورو « وهو مواطن من تاهيتى كان قد تعلم الأسبانية ، صدرت إليه الأوامر بإيواء القسيس فى كوخه . ويعرض أورو على القسيس أن يختار لمشاركته فراشه بين زوجته وإحدى بناته ، ويوضح القسيس أن قانونه الأخلاقى يحرم عليه قبول مثل هذا العرض الكريم . ولكن إحدى البنات تمسه بيدها فيصبح رجلا . ويقضى القسيس الأيام الثلاثة التالية يشرح لأورو الأخلاق المسيحية والليالى الثلاث التالية مضاجعا البنات واحدة بعد الأخرى ، أما الليلة الرابعة ، وكأنما ارتبط بكلمة الشرف ، فأنه يخصصها لزوجة مضيفة [٤٩] وأمدت محاولات القسيس لتحويل أورو إلى المسيحية ديدرو بصحيفة سارة بهيجة .

القسيس — ما هو الزواج عندكم ؟

أورو — اتفاق على المشاركة فى كوخ واحد ، والمشاركة فى سرير واحد كلما طاب لنا أن نفعل ذلك .

القسيس — وإذا رغبتم عن ذلك

أورو — نفترق :

القسيس — وماذا يحدث للأبناء ؟

فيقول أورو إن هذه ليست مشكلة : تعود السيدة بأبنائها إلى بيت أبيها ، وسرعان ما يتزوجها رجل آخر يسعد بقبول أبنائها ، لأن الأولاد فى المجتمع الزراعى كسب اقتصادى عظيم .

القسيس — هل يستطيع الوالد أن يضاجع ابنته ؛ والوالدة ابنها ، والأخ أخته والزوج زوجة رجل آخر ؟

أورو — ولم لا ؟

القسيس — أظن أنه حتى هنا — مهما يكن من أمر ، لا يضاجع الأبن أمه غالباً .

أورو — لا . اللهم إلا إذا كان احترام هذا الأبن لأمه شديدا[٥٠]

ويخرج القسيس من هذا وهو يكاد يحبذ كل التحبيذ طرق معيشة أهل تاهيتى ، ويقر بأنه « أغرى بخلع ملابسه الكهنوتية فى السفينة ليقضى بقية أيام حياته بين أبناء الطبيعة هؤلاء .

وينتهى ديدرو إلى مثل ما انتهى إليه صديقه القديم روسو ، الذى كان يناقش فى كتابه « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥٠) و « بحث فى منشأ عدم المساواة » (١٧٥٥) « هل تريدون لمحة موجزة عن كل تعاستنا وشقائنا تقريبا ؟ هاكم هذه اللمحة . لقد وجد إنسان طبيعى ثم أدخل إلى هذا الإنسان الطبيعى إنسان صناعى ، ونشبت حرب أهلية استمرت طيلة الحياة . . وكان الإنسان الطبيعى فى بعض الأحيان هو الأقوى ، كما حطمه فى أحيان أخرى الإنسان

الصناعى الأخلاقى . وفى كلتا الحالتين يعامل العملاق بقسوة ويضيق عليه الخناق ويعذب، ويسام الخسف .. إنه دائما تعس منكوب » (٥١) .

وكان ديدرو بطبيعة الحال لا يعرف إلا القليل عن أهل تاهيتى ، وكان بوجينفيل قد وصفهم بأنهم متمسكون بالخرافات والمحرمات ، يرهبون أرواحاً شريرة خيالية ، يستسلمون للكهنة ، ناهيك بالعديد من أنواع الحشرات والأمراض . إن ديدرو الذى كان يضيق ذرعا بالزواج بواحدة ، لم يكن فى حاجة إلى أن يدرك لماذا وضعت ضرورات النظام الاجتماعى مثل هذه القيود الكثيرة على الغرائز الجنسية غير المشروعة لدى الجنس للبشرى ، وكان نموذجا آخر للفكر الفردى الذى يتصور نفسه أحكم وأعقل من عادات البشر وأعرافهم .

وثمة تناقض طريف بين الفلسفة الأخلاقية عند ديدرو الكاتب وديدرو الإنسان من الناحية النظرية ، وفى بعض الأحيان أشرفت آراؤه الأخلاقية على الفوضوية ، ففى تلك الأوقات وصف الطبيعة البشرية بأنها خيرة فى أساسها ، وبناء على هذا الفرض اقترح « إن نتبع الطبيعة أى الغريزة»،وأحس ديدرو أنه عن طريق الغرائز وحدها يمكن للانسان أن يحرر نفسه من القيود التى يفرضها الدين والمجتمع بآلاف التقاليد والمحظورات والقوانين . وفى هذا المزاج وصف الاتصال الجنسى بأنه « أعلى مراتب السعادة » (٥٢) ،وعرف الحب بأنه « احتكاك شهوانى بين غشائين » و« فقدان شهوانى لبضع قطرات من السائل » (٥٣) وأكد لخليلته أن الزنى « خطأ يستحق لوما أو توبيخا أقل مما تستحق أتفه كذبة(٥٤) .كان ديدرو فيلسوفا يتوق إلى أن يحيا حياة الديك الذى يختال عجباً بين الدجاجات .

ولما عركه الدهر وزادت خبرته بالحياة نقض كل آرائه الأخلاقية . ومنذ انحرف عن روسو إلى فولتير ، فأنه نظر إلى الإنسان نظرة تزداد كآبة وقتا ما ، على أنه شرير سىء بالطبيعة . أو بسبب تدهور النظام الاجتماعى على حد سواء . » وليس ثمة شىء يوضح أن الطبيعة البشرية كريهة بغيضة ؛

مثل السهولة التى يتقبل بها الناس أسوأ الأعمال حين لا يكون (كما هو الحال فى حشد منهم) .. هناك من هو مسئول شخصياً عن الشر الذى وقع (٥٥) ويقول جاك المؤمن بالقضاء والقدر : « صدقنى نحن لا نشفق على أحد إلا على أنفسنا » (٥٦) ويلغى ديدرو الآن مبالغاته القديمة بمبالغات جديدة . فربما « لوى الإنسان الطبيعى عنق أبيــه ليضاجع أمــه ، لولا تنمية عقله يفضل التعلم (٥٧) ولما تضاءلت حاجيات ديدرو الجنسية ، اتفق مع ابيقور على أن « ملذات أو مباهج النفس » مرضية بشكل أكثر اطرادا من الملذات الجنسية ، أو المادية (٥٨) وهو يتساءل « هل هناك متعة أو لذة مادية فحسب فى اقتناء امرأة جميلة ؟ وهل هناك ألم مادى فحسب فى فقدها بسبب الموت أو التحول عنها ؟ أليس التمييز بين المادى والمعنوى قائماً وطيدا مثل التمييز بين الحيوان الدقيق الذى لا يرى إلا بالميكرسكوب والذى يحس ، وبين الحيوان الذى يفكر ويتأمل ويعقل (٥٩) .

وإذ وصل الآن ديدرو إلى المفهوم البيولوجى للفضيلة ــ صفة تعمل على البقاء ، فقد تسنى له فى شىء من الغموض أن يدرك أن اسمى الفضائل هى تلك التى تعمل على بقاء المجموعة ، حيث أن التنظيم الاجتماعى هو الوسيلة الرئيسية لبقاء الفرد ، وفى قصة « أين أخى رامو » تبين ديدرو ماذا يحدث لمن يحاول تحطيم القيود المفروضة على الفرد من أجل الاحتفاظ بالجماعة أو الإبقاء عليها . ومثل هذا الإنسان يصبح كما مهملا ومنبوذا بغير عقيدة أو طعام أو زوجة أو أمل . وبذلك يختتم ديدرو حلمه عن تاهيتى بشىء من الاعتدال فى بطء : « إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ولكننا فى نفس الوقت سنخضع لها . إن من يكون من سلطته أن ينتهك حرمة قانون سىء يعطى لكل إنسان غيره الحق فى انتهاك حرمة القانون الصالح إنه أقل إزعاجا أن تكون مجنــونا بين المجانين من أن تكون عاقــلا بمفردك» (٦٠) .

وعندما اكتملت وبرزت مفاتن الأنوثة فى أنجاليك ابنة ديدرو ، بدأ

يساوره القلق بشأن أخلاقها، وكان يقظا حريصا على عذريتها باعتبارها ذخرا ثمينا وسلعة رائجة . ولما رأى أنه قد تم زواجها فى أمان ، حذرها من الزنى ، قائلا إن مجرد الارتياب فى خيانتها لزوجها سيقتل الزوج كمدا ، وستقضى عليه بسبب الخزى والفضيحة .[٦١] وفى نقده للفنون عاب على الفنان بوشيه فساده وفسقه ، وامتدح التواضع وغيره من الفضائل المسيحية كما صورها جريز وشاردان . وبشر ديدرو فى رواياته بالفضائل القديمة مثل أى برجوازى راسخ الأركان مزدهر الأحوال . وتسلى ديدرو ببعض قطع من المرح الطائش مثل « ملحق رحلة بوجينفيل » وبعض المرح الصاخب وشطحات الخيال على مائدة العشاء عند دى هولباخ . حتى إذا عاد أدراجه إلى بيته أصر على الاستمساك بكل فضائل الطبقة الوسطى ، وحاول أن يمارسها إذا أجيز له شىء من الزنى على نطاق ضيق فقط .

وكانت أفكاره السياسية مهوشة مثل آرائه فى الأخلاق . وسلم هو بهذا فى صراحته لمحببة . ولم يتفق مع فولتير فى أن الملك المستنير هو أفضل أداة ممكنة للأصلاح . واتهم فردريك الأكبر بأنه طاغية ، وحاول أن يحول كاترين الكبرى إلى الأفكار الديموقراطية . ووافق على الملكيةالدستورية ولكنه اقترح جمعية وطنية ينتخبها الملاك لأن لهم سندا أو مصلحة فى حكومة اقتصادية صالحة .[٦٢] (وعندما كتب هذا لم يكن من المتصور أن يكون بديلا ممكنا للأرستقراطية فى حكومة فرنسا إلا الطبقة المتوسطة من الملاك) وحلم ديدرو بمجتمع كريم تتحقق فيه للجميع الحرية والمساواة كلتاهما (وهما العدوان الطبيعيان) ولكنه ارتاب فى جدوى أية اصلاحات ، حتى يرفع انتشار التعليم من مستوى تفكير الناس وعقولهم ( )

(*) الأبيات التى كثيرا ما اقتبست وشوهت هى : وقد تلوى يداه أحشاء الكاهن ، لعدم وجود حبل لشنق الملوك « وضعها ديدرو عن لسان أحد المتعصبين فى رواية « المجانين بالحرية » ولا يمكن أن تؤخذ على أنها وجهة نظر ديدرو ، لأنه استنكر صراحة قتل الملك : « لا يجوز أن يرى الشعب=

وكانت آراؤه الاقتصادية متطرفة من الناحية النظرية ، معتدلة عند التطبيق ، وحتى فى سنى الشيخوخة تعلق ديدرو بشيوعية فوضوية ، مثلا أعلى له : « إنى مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشرى أية سعادة حقيقية الا فى دولة اشتراكية ليس فيها ملك ولا قاضى ولا قسيس ولا قوانين ،ولا يكون فيها هذا لك ، وهذا لى ، وليس فيها حق تملك ، وليس فيها رذائل أو فضائل [٦٥] ولكنه اعترف بأن هذه النظرية « مثالية إلى حد شيطانى»[٦٦] وتعجب أبن أخى رامو قائلا « أى اقتصاد اجتماعى شيطانى عندنا ! فهنالك أناس يتوافر لديهم كل شيء إلى حد التخمة ، على حين هناك آخرون يتضورون جوعا ولا يجدون ما يتبلغون به » [٦٧] وأدرك ديدرو فى ساعات العسرة أن عدم المساواة فى التملك سيبقى ببقاء عدم المساواة أو التكافؤ فى القدرات ، وطرح فكرة الاشتراكية لأنها غير عملية ، حيث لم يوجد انذاك إلا بروليتاريا صغيرة غير منظمة لا تكاد تكون واعية ، ولكن راوده الأمل فى أن يرتفع مستوى هؤلاء العمال ويتحسن وضعهم وشيكا . ولما انتهى الأمر إلى الاصلاحات العملية ، أيد ديدرو الفيزيوقراطيين ووقف إلى جانب الرأسمالية الناشئة . وأعلن أن حق التملك يجب أن يكون مقدسا مطلقا ، واستنكر أى اعتداء على هذا الحق من جانب الدولة . وانضم إلى كنى وترجو وفولتير فى الدعوة إلى تحرير الصناعة والتجارة من أية قيود حكومية [٦٨] .

وحبذ الإعانات الحكومية للزراعة بوصفها أكثر فروع الاقتصاد حيوية وأهمية ، على حين أنها أيضا أكثر الفروع وقوعا تحت رحمة سائر الفروع [٦٩] . إن ديدرو مثلنا جميعاً أصبح أكثر محافظة (على القديم) كلما تقدمت به السن وزاد دخله .

= الدم الملكى مسفوحا لأى سبب مهما يكن[٦٤] ولا يمكن أن يكون لهذه الأبيسات أى تأثير على مصير لويس السادس عشر ، لأنها لم تنشر إلا فى ١٧٩٥ .

٦ — ديدرو والفن

ن هذا العلاج المتجول للاهوت والأخلاق والسياسة والاقتصاد لا يشكل إلا بعض جوانب يسيرة من ديدرو المتعدد الاهتمامات والأنشطة ، فهناك غير هذا كثير . ومن كان يظن أن هذا الرجل الفظ الذى يزدحم رأسه بأفكار كثيرة سيصبح بين عشية وضحاها أعظم ناقد فنى فى عصره ؟ .

فى ١٧٥٩ كان صديقه جريم مشغولا بشئون الحرب وبمدام دى ابيناى ، فطلب إلى ديدرو أن يقوم مقامه فى تغطية أنباء معارض بينالى الرسم والنحت فى اللوفر من أجل قراء « كورسبوندانس — الرسالة » التى كان يصدرها جريم . وذكر ديدرو أنباء المعارض فيما بين عامى ١٧٥٩ — ١٧٧١ ، وعامى ١٧٧٥ — ١٧٨١ وكان فى بعض الأحيان يسهب فى ذلك أيما اسهاب لأنه كان فى هذه المذكرات يطلق لقلمه العنان ليعرض لكل مظاهر الحياة البشرية تقريبا. ولم يظهر فى مجال النقدالفنى شىء يمثل هذه القوة والصراحة وفى الصميم . وجاء بعض هذا النقد فى صيغة محادثات مع الرسامين أنفسهم فى المعرض أو على شكل رسالة شخصية إلى جريم . كما حدث فى ١٧٦١ : هاك ياصديقى الأفكار التى جالت بخاطرى عندما شاهدت اللوحات والرسوم الموجودة فى معرض هذا العام . ولقد دونتها دون أن أعنى كثيراً بفحصها أو التدقيق فيها أو إيضاحها .. وكل ما كان يدور بخلدى هو أن أوفر لك شيئا من الوقت تستغله استغلالا أفضل (٧٠) .

وأقبل على مهمته الجديدة فى ابتهاج متحمس ، وشكر لجريم إرغامه أياه على أن ينظر إلى الفن المعروض لا نظرة الجمهور العابرة ، أى نظرة سطحية زائفة ، بل العزم الأكيد على دراسة كل رسم وكل تمثال ، حتى شعر بحق بالبراعة الفنية فى العمل المعروض وقيمته وأهميته . ولم يكن ديدور معداً من الناحية الفنية ولكنه تحدث إلى الفنانين أنفسهم — شاردان لا تور ، كوشان ، فلكونيه . . . ودرس طريقتهم فى التأليف والعمل ،

وشغل الفرشاة والتلوين . « فتحت قلبي للآثار التي ينتجها جهد الفنان ، وأدركت سحر الضوء والظل وعرفت اللون ، واكتسبت شعور الجسد (٧١)

وأصبح ديدرو آخر الأمر ناقداً قديراً للأسلوب الفني ولكنه أنكر أية معرفة تقنية أوفنية ، فإنه عرض أن يقول ماذا يعني عنده كل عمل فني ، فعمد بادىء ذي بدء إلى شرح الموضوع أوالقصة في شيء من التفصيل ، حيث أن بعض قراء جريم لم يكن يتيسر لهم قط رؤية القطع الفنية التي هي موضوع البحث ، كما أن نفراً منهم اشتروا اللوحات على أية حال ، بناء على تقريظ ديدورلها . إنه غالباً ما يتخيل ثم يعيد كتابة المسرحية الحية التي لم يمثل منها الفنان إلا اللحظة المعبرة المركزة . وحول في بعض الأحيان الفن إلى أدب ، ثم تباهى آخر الأمر بقوله . « إن شاردان ولاجرينيه ، وجريز وغيرهم . . . أكدوا لي أنني الأديب الوحيد الذي يمكن لصوره أن تمر على قطعة القماش المعدة للرسم مثلما تعاقبت في رأسك الواحدة بعد الأخرى تقريباً (٧٢) .

إن ديدرو أوضح ما يحب وما يكره ، أو مايؤثره وما لايعجبه بصراحة لا خجل فيها. إنه بعد أن استنكر كل شيء تقريباً في المدنية الفرنسية المعاصرة عاد فدافع عن الرسامين الفرنسيين في حماسة مشربة بحب الوطن . ورمى هوجارت بالكذب والجهالة لأنه قال إن فرنسا ليس فيها رسامون برعوا في استخدام الألوان ، ورد على ذلك بقوله « ربما كان شاردان من أبرع من استخدموا الألوان في كل عصور فن الرسم » (٧٣) وكان قاسياً مع ناتييه وعاب على بوشيه لوحاته العارية ولكنه استمتع بها . وبعد أن نقد العيوب في إحدى هذه اللوحات قال « كله يستوي عندي فلأحصل عليها كما هي ، ولا أظن أني سأضيع الوقت في الشكوى من أن شعرها فاحم إلى حد بالغ . وأغضبته لوحة تمثل يوسف يرفض عروض زوجة بوتيفار « لا يمكن أن أتخيل ماذا كان يريد ، وما كنت أنا أتطلب شيئاً خيراً من هذا ،

وغالباً ما أرتضيت أقل منه [٧٤] وأبدى عطفاً نحو الفنانين الذين يرسمون الصور العارية ، وبصفة خاصة نحو المثالين الذين يصبونها . وفوق كل هذا « ماذا تفعل فى التماثيل بالأزرار والنفثات[٧٥] وأحب صور جريز التى تمثل براءة الفتيات وشارك جريز نزعته العاطفية وبصفة خاصة قدر لوحاته التى رسمها لزوجته التى كانت عشيقة ديدرو أيام شبابه . واستساغ المناظر الطبيعية الموحشة فى الفن الهولندى والفلمنكى ، ووجد شعراً أكثر فى شجرة بمفردها تعانى من كر السنين وتعاقب الفصول ، منه فى واجهة قصر منيف فلابد أن يكون القصر أطلالا حتى يثير الاهتمام وتكون اللوحة مشوقة [٧٦] واستهجن التوكيد القديم الكلاسيكى — التقليدى على العقلانية والنظام والتناسق ، وامتدح الخيال الخلاق وأثره على التفكير التحليلى . ودعا إلى « تآليف مرعبة أو حسية ... تنقل الحب أو الرعب إلى أعماق القلب وتذيب الحواس وتطهر النفس ، فثمة شىء فى هذا الذى لا يمكن أن تحققه أية قواعد .[٧٧] واحتقر فكرة « الفن للفن » فكان يرى أن للفن مهمة أخلاقية هى « تمجيد الفضيلة والتنديد بالرذيلة [٧٨] .

وكان ديدرو واثقاً من ملاحظاته على معرض ١٧٦٥ إلى حد أنه أضاف إليها مقالا عن الرسم « ووجد مثل أفلاطون وأرسطو ، إن جوهر الجمال يكمن فى علاقة التناسق بين الأجزاء فى كل واحد ، ولكنه ارتأى أن يضاف إليها أيضاً تناسق بين الشىء وبيئته والغرض المقصود منه . ومن الوجهة المثالية عرف الجمال بأنه تكيف كامل مع الوظيفة فالإنسان الذكى الصحيح الجسم لابد أن يبدو جميلا . وينبغى على الفن أن يختار فى منظرها ، المعالم والقسمات التى تحدد مغزاه ، كما ينبغى أن يستبعد العناصر التى لا علاقة لها ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن يكون الفن تقليداً صاغراً حقيراً للهدف والواقع ومع ذلك يجـدر بالفنان أن يدرس الشىء الطبيعى لا النماذج القـديمة أو القواعد الشكلية فإن تنير Teniers واحد خير من إثنى عشر واتو Watteau خياليين . وأحس ديدرو بشىء من التنافر بين الفن والعقل ، وتبين له أن

قواعد بوالو التقليدية الكلاسيكية قد عوقت الشعر الفرنسي أو أصابته بالشلل. وهنا خالف فولتير لينضم إلى روسو فى أن الفن يجب أن يكون فوق كل شيء صوت الوجدان ونتاجه. لذلك رفع من شأن اللون على حين أن رينولدز فى نفس العقد من السنن كان يطرى التصميم. وسلم ديدرو بأن التصميم يعطى الكائنات شكلا ولكن اللون يعطيها حياة[٧٩]. ووجد جوته فى هذا المقال أشياء كثيرة بدا له أنها خطأ، ولكنه ترجم نبذا منها ووصفها لشيلر «بأنها عمل رائع، أنها تتحدث بشكل أنفع حتى للشاعر منه للرسام، ولو أنها للرسام كذلك مشعل قوى الضوء يهديه على الطريق[٨٠]».

٧ — ديدرو والمسرح

كتب ديدرو يقول «ترددت عندما كنت شابا، بين السوربون (الكهنوت) والمسرح[٨١]. وفى ١٧٧٤ كنت قد قضيت نحو ثلاثين عاماً أكتب الموسوعة على غير هوى منى، وكتبت روايتين أثنتين[٨٢]» وأولى إهتماما أكبر لرواياته منه لقصصه. ولما كان معظم قصصه لم ينشر إلا بعد وفاته فقد كان لرواياته أثر أكبر على شهرته وعلى حياته، كما أنها شكلت ما يقرب من الثورة فى تاريخ المسرح الفرنسى.

وكان ديدرو قد قرأ فى شغف زائد قصص ريتشاردسن. وفى ١٧٦١ كتب مقالة «فى مدح ريتشاردسن سما فيها إلى التغنى بالثناء على الرجل الإنجليزى، لأنه ينفخ فى القارىء من روحه ويغرس الفضائل، كما أنه أوتى الشجاعة ليصور حياة الطبقة الوسطى الجديرة بفن جاد وفوق هذا كان ديدرو قد تأثر برواية جورج لاو Lillo «تاجر لندن» (١٧٣١) التى كانت قد أبرزت بنجاح عواطف طبقة رجال الأعمال وبلاياهم على المسرح الإنجليزى. وقال أن الرواية «من مستوى رفيع» حتى لوقورنت بسوفوكليس. لماذا لا تكون القلوب الكسيره جديرة بمسرحية «مأساوية على الرغم من أنها ليست من ذوات الحسب والنسب؟ وعندما لجأ ديدرو إلى تأليف الروايات فى الأسلوب الجاد نراه قد أزعج وروع التقاليد الفرنسية بأستخدامه لروايته

شخوصا من الطبقة الوسطى وبالكتابة نثرا . وهكذا أرسل إلى المسرح والمطبعة فى ١٧٥٧ « الأبن الطبيعى أو المحرومون من الفضيلة ولم تلق نجاحا على خشبة المسرح ، ومثلت مرتين فى الأقاليم (١٧٥٧) ولم تمثل إلا ١٧٧١ فى باريس ، وواضح أنها مثلت مرة واحدة آنذاك ولكنها كانت حدثا هاما وحققت نجاحاً ورواجا وهى مطبوعة فى كتاب .

والقصة ممتعة إلى حد كبير فإن دورفال الأبن غير الشرعى المتمسك بالفضيلة الذى يعيش فى بحبوحة ، يجد نفسه قد وقع فى غرام روزالى المخطوبه لمضيفة كليرفيل ، ويحس دورفال أن الفتاة تبادله حبه فيعتزم أن ينأى بنفسه حتى لا يحطم زواج صديقة . وعندما كان على وشك مغادرة المكان رأى رجالا مسلحين يهاجمون كليرفيل ، فاشتبك فى قتال معهم وأنقذ حياة صديقة وعندما علم بأن والد روزالى التاجر فقد كل ثروته ولم يعد يستطيع أن يقدم لهـا صداقا ، فأنه يعوض الخسارة خفية ومن ثم أصبح التاجر المفلس والد دورفال ووالد روزالى معاً ، وتوطن النفس على أن تكون أختاله وتتزوج من كليرفيل ، ويتزوج دورفال من أخت صديقه كنستانس وتختتم الرواية وقد غمرت الجميع دموع الفرح . وهذا كان اسهام ديدرو فيما كان النقاد قد أسموه بالفعل « مسرحية الدموع » .

أن الذى هيأ للرواية مكانا فى التاريخ الفرنسى سلسلة من الحوادث نشرت معها ، سميت فيما بعد « مناقشات حول الأبن الطبيعى » وجرت تقاليد المسرح الفرنسى على أن المسرحية الجادة (تميزاً لها عن الهزلية) يجب أن تقتصر على أشخاص النبلاء ويجب أن تكتب شعرا . وأوضح ديدرو آنذاك فكرته فى أن المسرحية الجادة ينبغى إلا تخشى إستخدام شخوص وأعمال رمهن برجوازية ومشاهد من حياة الأسرة وللبيت فى شكل واقعى ، مع كتابة الرواية نثراً . ورأى ديدرو أن يبين أن عبارة « سيد مهذب من الطبقة الوسطى » ليست التناقض اللفظى الساخر الذى كان قد ارتآه موليير ، ولكنه تطور المجتمع الجديد الذى تصاعدت فيه ثروة البرجوازية ومكانتها وسلطتها ، واحتج بأنه

يجدر بالكاتب المسرحى إلا يعرض كثيراً من الدراسة للشخصية بل كثيراً من ظروف الحياة الواقعية فى الأسرة ، فى الجيش ، فى السياسة ، فى المهن ، بل حتى فى الصناعة . وحيث كانت الطبقات الوسطى منبع الفضيلة فى فرنسا فقد أصر ديدرو على أن يكون من وظائف المسرحية الجديدة أن تغرس فى الناس حب الفضيلة ومقت الرذيلة « ودمغ الفن المقصود به مجرد الترفيه بأنه ترف الطبقة الخاملة » فلابد أن يكون لكل فن وظيفة وفائدة اجتماعية . وأى هدف أن يسعى المسرح إلى تحقيقه أفضل من أن يكسو الفضيلة فتنة وسحراً وجلالا !

أن الرواية وما صاحبها من بيانات وتصريحات فرقت أهل الفكر فى باريس إلى معسكرات متنابذة ، وتناول باليسو وغيره من أعداء الفلاسفة آراء ديدرو بالتسفيه والتسخيف . أما فريرون فأنه لم ينقد الرواية بأنها تعليمية جافة كئيبة متبلة ببعض المشاعر والفضائل الزائفه فحسب ، بل أنه كذلك أوضح فى إعداد متواليه من « السنة الأدبية » التى كان يصدرها تشابها مريبابين النصف الأول من « الأبن الطبيعى » وبين كوميديا « الصديق الحق » التى كان جولدونى قد مثلها فى البندقية ١٧٥٠ . وأعترف ديدرو بقوله : لقد إستحوذت عليها وكأنها ملك خاص بى ولم يكن جولدونى أكثر تدقيقا فأنه إستحوذ على رواية موليير « البخيل » . وماكان يدور بخلد أحد أن هذا غير لائق . ولم يحلم أحد منا باتهام موليير أو كورنى بالسطو والأنتحال لأنه أقتبس ضمنا فكرة أحدى الروايات من مؤلف إيطالى أو مسرح أسبانى[٨٣] .

وهذا يصدق بطبيعة الحال على رواية كورنى « السيد Lecid » ورواية موليير « مأدبة الصخرة » Le Feslin de Pierre (دون جوان) .

وبتشجيع من الأصدقاء وتحديا للأعداء ، ووسط أشدما يلاق من عناء فى الموسوعة ، ألف ديدرو ونشر (١٧٥٨) رواية أخرى أسمها « رب الأسرة » وأضاف إليها موضوعا أثار الغضب : بحث فى الشعر المسرحى ، وهو عنوان يذكرنا بالعنوان الذى إستخدمه دريدن لبحث مماثل منذ تسعين

عاماً . وأخرجت الرواية فى تولوز ومرسيليا فى ١٧٦٠ ، وعلى « المسرح الفرنسى » فى باريس فى فبراياً ١٧٦١ ، حيث مثلت سبع ليال مما أعتبر نجاحا متواضعا . ووافق فولتير على تأجيل عرض مسرحيته Tanerede من أجل رواية ديدرو هذه، وكتب إلى منافسه الجديد « أيها الأخ العزيز ديدرو ، تخليت لك عن مكانى عن طيب خاطر وبودى أن أتوجك باكليل الغار » فرد عليه ديدرو « شكرا لك يا أستاذى العزيز وأنى لأعلم كم كنت ترغب فى أن يلاقى تلميذك نجاحا . وقد تأثرت لهــذا كثيراً، لك حبى وأحترامى إلى أخر لحظة فى حياتى[٨٤] » وأعيد تمثيل الرواية من جديد بنجاح فى ١٧٦٩ على المسرح الفرنسى وأصبحت عنصرا هزيلا فى إنتصار الفلاسفة .

وموضوع الرواية يتصل إلى حد ما بالسيرة الذاتية ، فالوالد تذكير جميل بديديه ديدرو ، اللهم إلا فى أنه يعظ أكثر كثيراً مما قيل لنا عن الرجل الطيب ديديه : أما الابن سانت ألبان (وهو صورة قريبة جداً من دنيس ديدرو) فانه يسعى فى الحصول على موافقة أبويه على زواجه من صوفيا ، وهى إحدى بنات الطبقة العاملة ، ويوافق الولد على أن يراها ويحبها ، ولـكنه يرفض أن يتزوج إبنه بمثل هذه البنت الفقيرة . وبعد خمسة فصول وبمحض الصدفة التى خدمت آلف مسرحية يتبين أن هذه الشابة إبنة أسرة كريمة ويرق قلب الوالد ويجرى كل شيء على مايرام ويمكن أن يغتفر لفريرون قوله أن الرواية مثيرة ميكانيكية سخيفة . وأثار أحد النقاد إلى أن التغنى بالفضيلة كان مقصوداً به جريم الذى كان يشارك روسو إحدى البغايا ، وكان الآن عشيق مدام أبيناى ، وأن ديدرو أطلق على بطلة روايته إسم هذه العشيقة م صوفى فوللان Volland أما فولتير فانه على حين إمتدح المؤلف على مافى الرواية من « أشياء رقيقة فاضلة » كتب إلى مدام ديفان يتساءل « هل قرأ لك أحد رواية رب الأسرة ؟ أليست مضحكة تدعو إلى السخرية ؟ أن قرننا ، فيما يختص بالعقيدة والايمــــان فقير، إذا قورن بقرن لويس الرابع عشر »[٨٥].

ومهما يكن من أمر فإن ديدرو أحس بأن مسرحية القرن السابع عشر فى فرنسا كانت على شكل غير طبيعى تماماً فى أسلوبها الخطابى الحماسى الطنان الرنان ، وفى وحداتها المحكمة المتزمتة فى العمل والمكان والزمان ، وفى تقليدها الكئيب للروايات الكلاسيكية القديمة لا الواقع الحى ، وكانت رواياته وهى عاطفية حسية دون موازنة أوخجل بشائر رد الفعل الرومانتيكى ضد المذهب العقلى والكبت العاطفى فى العصر الكلاسيكى ، وكان تأثير ديدرو محسوساً أيضاً فى الواقعية المتزايدة فى إعداد المسرح تبعاً لمختلف الفصول ، وفى دقة ملابس الممثلين بالنسبة لعصور التاريخ وفى الحفاظ على الخصائص القومية فى النطق . واشترك ديدرو مع فولتير فى الحملة التى شنها لاخلاء خشبة المسرح من النظارة . وقال جوستاف لانسون إن كل تحسين طرأ على فن الإخراج فى المائة والخمسين عاماً الماضية نبع من ديدرو»[٨٧] اللهم الا أن المناظر الآن تميل إلى أن تكون تخيلية أكثر منها واقعية . وكذلك تجاوبت ألمانيا مع ديدرو الذى أطلق عليه سانت بيف أقرب الفرنسيين إلى الألمان . وترجم لسنج رب الأسرة والمقالات المسرحية ، وصرح بأنه ليس ثمة ذهن أكثر ميلا إلى الفلسفة وتأثراً بها إنشغل بالمسرح منذ عهد أرسطو إلا ديدرو[٨٨].

الكوميدى كذلك كان لديدرو رأيه فى فن التمثيل المسرحى ، وفى مقال طابعه التحدى تحت عنوان « تناقض حول الممثل الكوميدى » ١٧٧٨ اعترض على القول بأنه من أجل تحريك شعور جمهور المتفرجين والتأثر فيهم يجب على الممثل ألا يستسلم للعاطفة التى يعبر عنها بل يجب أن يكون هادئاً رابط الجأش ، وهذا بالطبع تسفية لرأى هوراس الذى نصح الشعراء بقوله « إذا أردتمونى أن أبكى فلتجهشوا أولا بالبكاء » . ويسرد عليه ديدرو : « يجدر بالممثل أن يضم بين جنبيه مشاهداً أو متفرجاً لايتأثر وغير متحيز . ويجب أن يكون لديه حسن الإدراك والتمييز ، لا الحساسية . . . وإذا كان الممثل مليئاً حقاً بالشعور والوجدان فكيف يمثل نفس الدور مرتين بنفس الروح ونفس النجاح ؟ وإذا كان ممتلئاً حماسة ونشاطاً فى العرض

الأول ، فلابد أن يهن ما اشتد من قوته أو يصبح جامداً كالصخر فى العرض الثالث ، أملأ المسرح بأناس يذرفون الدموع ، ولكنى لا أسمح لأحد منهم بأن يكون على خشبته (ممثلا)[٨٩]. وتلك نصيحة قلما إتبعها ممثلو مسرحيات ديدرو . وكان ثمة تناقض فى ديدرو نفسه ، ذلك أنه فى ١٧٥٧ كتب يقول إن الشعراء والممثلين يحسون بقوة ولكنهم لايعكسون إلاالقليل من أحاسيسهم[٩٠] ولكنه الآن يناقض نفسه ، وربما كان هذا راجعاً إلى أنه شاهد فى باريس فيما بين عامى ١٧٦٣/ ١٧٧٠ دافيد جارك Gorrick يثير إنفعالات وأحاسيس متباينة فى تعاقب سريع ، متى أراد . أو أنه كان قد وجد المفارقة فى هملت وهو يأمر الممثلين السنيور : « وسط السيل والعاصفة (كما يمكن أن أقول) ودوامة الانفعال تذرعوا بشىء من الاعتدال الذى يضفى عليها شيئاً من الهدوء والرفق » [٩١] ورفض سير هنرى أرفنج تحليل ديدرو ولكن ناقدا حديثاً يعتقد أنه « ظل حتى اليوم أهم محاولة لمعالجة مشكلة التمثيل » [٩٢] . ويمكن أن يكون الممثلون عاطفين فى الحياة ولا يجوز أن يكونوا كذلك على خشبة المسرح . (وربما يؤدى ضبط النفس على المسرح إلى الانطلاق والتحرر فى الحياة ، ومن ثم يجب أن يغفر لهم خطايا كثيرة) . وينبغى عليهم أن يدرسوا الاحساس المعين فى أسبابه وعلله ، ويعبروا عنه بإيماءاتهم واشاراتهم وكلامهم . ولكن يجب « أن يتذكروا فى هدوء وسكون »[٩٣] . ووتوصل ديدرو إلى إيضاح الفرق فى رسالة إلى الآنسة جودان : « ن الممثل الذى لا يتحلى إلا بحسن التقدير والتميز فاتر بارد ، أما هذا الذى يتميز بالحيوية والحساسية فهو مجنون »[٩٤] .

إننا إذا ألقينا بنظرة إلى الوراء فى العرض غير المرتب الذى أوردناه للذهن ديدرو المشوش نغفر له إضطرابه وسط هذا العدد الوفير من الأفكار والآراء ومجالات إهتماماته . ولم يكن شىء من الانسانيات غريباً عليه أو بعيداً عنه ، اللهم إلا الدين . بل إنه حتى بالنسبة لهذا ، فأن ديدرو لم يخل من الشعور الدينى : وكان من خصائص ديدرو أن يبدأ بالرياضيات والفيزياء

وينتهي بالمسرحية والموسيقى . ولم يكن فى مقدوره أن يكون من جهابذة العلوم ، لأنه لم يكن يطيق صبرا على البحث والتجربة ، ومن ثم قفز مبتهجاً إلى التعميات . على أنها كانت كثيراً ما تنير العقل . وعرف من الموسيقى الشيء الكثير حتى أنه كتب عن طريقة إستعمال المفاتيح ، ورسالة عن علم الايقاع ، وألف أعظم الروايات أثراً وأحسن القصص فى عصره ، ويتفرق فى القصة القصيرة على كل معاصريه فيما عدا فولتير . ولكنه بز فولتير نفسه فى أنه أضفى على القصة القصيرة من تركيز الفكر والعمل ما حدد لها شكلها حتى يومنا هذا . وحيث أدمن ديدرو على الحديث والنقاش وتدرب على إرتياد المنتديات (الصالونات) فانه طور الحوار إلى درجة من الاشراق والحيوية ، نادراً ما سمع بها قبله أو بعده . وكتب فى الفلسفة ، ولكنه لم يكتب لغة غامضة للابراج العاجية ، وإنما كتب مناقشة حية فى موضوعات حية بين أناس إندفعوا إلى معترك الحياة أو إلى خضم العالم راضين طائعين .



٨ — ديدرو

وراء هـــذا الذهن المتغير الأشكال والألوان ، كان ثمة إنسان تجمل بفضائل كثيرة ، كما أنه لم يبرأ من كل الأخطاء تقريباً ، مما لعب كل منها دوره على مسرح حياته ، وعند مارسم فانلو لوحة لديدرو ، أحتج هذا على أن الوجه فى الصورة لم يظهر من صاحبه إلا جزءا سريع الزوال ، فلم يبرز إلا مجرد تعبير واحد عن حالة نفسية واحدة أومزاج واحد وقال : إن لى مائة من التعبيرات المتباينة فى كل يوم ، تبعا لحالتى النفسية أو مزاجى فى كل لحظة : كنت هادئا حزينا حالما رقيقا عنيفا منفعلا متلهفا . أن العلامات الخارجية الظاهرة لحالات ذهنى الكثيرة المتباينة كانت تلاحق بعضها بعضا بسرعة على وجهى إلى حد أن عين المصور وقعت على شخص مختلف من لحظة إلى أخرى ولم تقع على الشخص الحقيقى قط[٩٥] » .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الوجوه الكثيرة أندمجت شيئا فشيئا فى قالب مركب ، وتركت له التقاطيع والقسمات المجعدة التى نراها فى اللوحة التى رسمها له جريز Greuze مثل قيصر أضناه الالتحام العنيف مع جيش من الأفكار والأعداء ، كما أرهقته محاولاته التعبير بأدق عبارة وأجلى بيأن عن قبوله أو رفضه أى عن قوله نعم أولا . وكان له حاجبان عاليان يطلان على رأس نصف أصلع واذنان كبيرتان وأنف كبير منحن ، ولسان ناطق وذقن متجلد ، وعينان سمراوان ، ثقيلتان حزينتان ، وكأنما تستذكران من الأخطاء مالا يجوز تذكره ، أو تتأكدان من عدم قابلية الخرافة للتخريب ، أو تلاحظان أرتفاع معدل السذاجة ، وكان أمام الناس عادة يضع شعرا مستعارا ، وقد يخلعه إذا نسى نفسه فى نشوة الحديث ، وقد يلعب به أو يضعه على حجره ، وكان مستغرقا فى الحياة ، ولم يكن لديه فسحة من الوقت للتظاهر .

ولم يذعن لأى إنسان فى تقدير أخلاقه . وسلم « بأنى قد يغلبنى التأثر لحظة ولا ألبث إلا قليلا حتى أعود سيرتى الأولى ، الإنسان الصريح الوديع

المنصف المتسامح الأمين المحسن الذى يأسر الناس بحسن صنيعه . أستمر من فضلك فى قصيدة المديح لأنها لم تكمل بعد , إنى لم أذكر شيئا بعد عن ذكائى». وساوره الشك فى أن يوجد على ظهر البسيطة إنسان أكثر منه أمانة . وكان واثقا من أنه حتى « أعمدة الكنيسة » تستطيع أن تعتمد على كلمته . وكتب إلى خليلاته : « أية نفوس جميلة نفسك ونفسى ونفسه » وهنا أدخل جريم فى هذا الثالوث . وغمرته نشوة الفرح والأبتهاج وهو يتحدث عن مؤلفاته ورواياته واثقا من خلودها . وأعتقد أن أخلاقه قويمة . والحق أنه أحتفظ بسيدة واحدة فى وقت واحد . وتحدث عن نفسه على « أنه » الفيلسوف . « وسلم بوجود شبه بينه وبين سقراط وتساءل : « ماذا يهمنى إذا كنت أدين بمناقبى ومآثرى للطبيعة أو للخبرة مادامت ثابتة وطيدة ولن يفسدها الغرور(٩٦)

والواقع أن ديدرو تحلى بمعظم الفضائل التى نسبها لنفسه ، لقد كان أمينا بمعنى صريح ، ولو أنه أقترف كثيراً من الكذب فى شبابه . ولم يكن يتكلف أو يتظاهر ، وكان وديعا رفيعا ، اللهم إلا فى الحديث، حيث كثيراً ما كان متهورا ، وفى بعض الأحيان خشنا جافا إلى حد كانت تضطر معه مدام جيوفرين إلى أن تنبه إلى التزام النظام واللياقة . إنه يقينا كان شجاعا لأنه أستمر يناضل حين تخلى عنه الكثير من أصدقائه ، بل حتى نصحه فولتير بأن يكف . وكان منصفا اللهم إلا مع التقوى ومع روسو ، وقد ندرك فيما بعد أنه لم يكن يستسيغ كثيراً حساسية جان جاك روسو . وكان كريما بلا منازع مستعدا لمعونة من يلجأون إليه ، أكثر ثناء وأطراء للناس منه لنفسه . وقضى أياما كثيرة فى القيام بأعمال جريم فى صحيفة كورسبندانس ، « وصياغة محاولات أصدقائه الأدبية فى الشكل الملائم . وساعد نفرا كبيراً من الفقراء بمنح قدمها إليهم من دخله المتواضع . وإذا عرض عليه أحد الصحفيين المحتاجين قطعة هجاء فى ديدرو نفسه طالبا إليه أن يراجعها معللا ذلك بأنه إنما يسعى وراء القوت أجابه ديدرو إلى طلبه وراجعها ونقحها . بل أقترح

عليه إهداءها إلى دوق أورليان الحالى الذى يولينى شرف كراهيته لى » وهذا ما حدث فعلا وأرسل الدوق للصحفى الناشىء خمسة وعشرين جنيها[٩٧]. وكان متساهلا فى نقده للكتب واللوحات والرسوم (فيما خلا رسوم بوشيه) قائلا أنه يؤثر الأشاره إلى الأعمال الجيده على السخرية من الأعمال الرديئه[٩٨] » وكان أكثر الفلاسفة أنسا وودا . وأيد روسو حتى ١٧٥٨ ، وجريم حتى النهاية تقديراً من ديدرو لخلقه هو نفسه . وقالت مدام أبيناى أنهم تحدثوا عنه « بأعظم الأجلال والأحترام » وأعجبوا بعبقريته ، ولكن خلقه كان مثار حماسة خاصة بينهم . ويقول جريم إنه أكمل من عرف من البشر[٩٩] . وكانت أخطاؤه فى نظر مثل هؤلاء الاصدقاء أخطاء طفل صريح إلى حد السذاجه . وأعتبروا أنه أعمق من فولتير .

ومن المحقق أنه كان أكثر ثراء فى الأفكار من فولتير ، لأنه لم يكن ثمة قيود ولاضوابط فى بنيانه ، وكان أكثر خيالا وأقل عقلانية . وكان أكثر تهورا وطيشا ، ولم يكن ناضجا قط . يقول فولتير « أن ديدرو أتون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه[١٠٠] » . ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولاخبزها ، وكان شديد الحساسية مثل روسو رقيق العاطفه مثله ، كما كان ، مستعدا ليبكى على جمال الطبيعة ومآسى الحياة وأعلن رأيه فى الدين وربما عبر هذا الرأى عن نفسه : أن فى ذرف الدموع بالنسبة للنفس الحساسة الرقيقة لذة وبهجة[١٠١] . ورآه زواره أحيانا يذرف الدمع — أو فى سورة غضب — على كتاب ، وربما كانت صداقته مع روسو قائمة على التماثل فى المشاعر ونفس قسوة الوجدان ، ونفس حب الطبيعة ونفس المفهوم الرومانتيكى للعبقرية على أنها غريزه وأنفعال وخيال ، ونفس التحمس لقصص رتشاردسن . وتلهف على تحذير كلاريامن Loelace وعندما قرأ عن الملوك القساة كان من اليسير عليه أن يتخيل أنه يستخدم خنجراً فى سهولة عجيبة[١٠٢] أن فولتير + روسو = ديدرو . ولم يغفر أى من هذين الرجلين له أنه جمع بينهما كليهما ، على حين بقى هو فريدا مع نفسه .

وعبرت عاداته عن تناقص صفاته ، فأنه أحب الطعام إلى حد الشرة والأصابة بالحصى . ولكنه كان يقظا لكل النتاج الثقافى فى زمانه . وكره الترحال ولم يحبذه(١٠٣) ولكنه عبر قارة أوربا ليقدم إلى كاترين الثانية قيصرة روسيا شكره وتقديره ، وأنهمرت دموعه للشعر الجميل ، وانغمس فى البذاءة الفاحشة ، وأحتقر المال وتحدث عن الفقر صديقا ملهما للفلاسفة ، ولكن عندما مات والده قصد إلى لانجرز (١٧٥٩) ، وسر بحصوله على ثلث التركة . ومن ثم بلغ دخله فى ١٧٦٠ نحو أربعة الآف جنيه سنوياً . فقال عند ذاك « أنا فى حاجة إلى عربة وإلى مسكن مريح ، وإلى فراش وثير وإلى سيدة معطرة ، ومن ثم أستطيع بسهولة أن أصبر على بلايا دولتنا المتمدينة . أو هناكبح جماح فولتير فى ديدرو ، وجماح روسو فيه وسخر منه .

وشغلت زوجته بالأمومة المثبطة للهمة وبأعمال البيت غير المعطرة إلى حد لم تستطع معه أن تلقى أذنا صاغية إلى أفكار زوجها وآرائه المتكاثرة . وجأر مثل ملتون بطلب الطلاق على أساس عدم التكافوء العقلى ، ولما لم يجيزوا له الطلاق لجـأ إلى ما لايزال الفرنسيون يلجأون إليه ألا وهو إتخاذ خليله — وصفوة القول كانت هناك الآنسه بابوتى Babuti التى لازمته عشر سنين . وفى جريز Greuze ثم مدام بوسييه Puisieux التى لأزمته عشر سنين . وفى ١٧٥٥ وجد ضالته المنشودة فى سيدة شابة وفرت له لمدة ثمانية عشر عاماً الحب والأخلاص وحسن التفاهم . تلك هى لويز هنريت فوللان Volland ، وعاد فأطلق عليها أسم صوفى Sophie (لأنها بدت فى عينيه روح الحكمة) وكانت عندما التقيا لأول مرة فى الثامنه والثلاثين من عمرها غير متزوجه ريانة ممتلئة الجسم قصيرة البصر ، ووصفها بأنها تضع منظاراً على وجه « جاف » تقريباً . وكثيراً ما عنفها بين الحين والحين لأنها كانت تنافسه فى حب القراءة ، لكنها جمعت الكتب بدلا سن العشاق ، وقرأت كثيراً حتى فى السياسة والفلسفة ، وكانت حلوة الحديث ، ولكنها أستمعت أكثر ممـا تحدثت ، ووجد ديدرو أن ساقيها غليظتان أكثر ممـا ينبغى ، ولكنه كان

شاكرا لهـــا حسن أصغائها إليه ، مولعا بعقلها وقلبها . وكتب يوما إلى جريم يقول « آه ياعزيزى جريم ، أية سيدة هذه ! كم هى لطيفة جميلة أمينة رقيقة حساسة . ولسنا نعرف أكثر مما تأتى به هى من عادات وأخلاقيات ومشاعر فيما لا يحصى من الأشياء العامة . أن لها حكمها على الأشياء ، ووجهات نظرها وأراؤها وأفكارها وطريقة تفكيرها الخاصة بها ، كل أولئك قائم على العقل والحق وحسن الأدراك . ولا يثنيها عن شيء من ذلك الرأى العام أو الساطات أو أى شيء أخر(١٠٤) » ولا يمكن أن يكون كل هـــذا هياما وغراما ، أما جوهر الموضوع فإن دكتور ترونشين رأى فيها روح نسر تسكن بيتا من السحاب(١٠٥) أى أنها أحبت الثياب الفاخرة والتحليق فى سماء الفكر والعقل .

وكتب إليها ديدرو طيلة عشرين عاماً أرق رسائله التى ستظل من ذخائر القرن الثامن عشر الأدبية . وقد استطاع أن يكتب إليها فى كل شىء بصراحة ويرسل إليها قصصه الداعرة وآخر تأملاته وأفكاره . فكتب لها كما لو كان يتحدث إليها « إذا كنت بجوارك وذراعى يطوق ظهر مقعدك(١٠٦) » . وفى علاقته بها تحقق مما لم يتحقق من مثله قط من قبل : تحقق من الدور الذى يمكن أن يلعبه الوجدان والعاطفة فى الحياة ، وكاد أن يكون من العسير عليه إلا أن يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) وبدا بعيداً عن التصديق أن تبادلهما المزدوج للأخلاص والحب والأفكار نتيجة فيزيوكيميائية لسديم بدائى . واستطاع وهو فى مثل هذه الحالة النفسية أحياناً أن يتحدث حتى عن الله . وإنه ليروى لصوفيا كيف أنه بينما كان يسير فى الريف يوماً مع جريم التقط سنبلة من القمح وأستغرق فى التفكير فى سر النمو فسأله جريم « ماذا تفعل » ؟ فأجاب « استمع » « ولكن من الذى يكلمك ؟ » فرد عليه « الله » (١٠٧)

وبعد اثنى عشرة سنة من اتصاله بصوفيا فوللان فتر حبه لها . وأصبحت رسائله إليها موجزة ، كما أصبح توكيد الإخلاص أكثر تكلفاً . وفى ١٧٦٩ وهو فى السابعة والخمسين ، خلف صديقه المتوفى داميلافيل عشيقاً لمدام دى مو ، وكانت فى الرابعة والخمسين ، وبعد عام واحد أزاح ديدرو عن مكانه عاشق شاب ، على أن دنيس (أى ديدرو) ظل فى الوقت نفسه يؤكد لصوفى حبه الأبدى.

وفى كل شطحات قلبه وذهنه احتملت زوجته أنطوانيت بكل الصدق والإخلاص ، ولم تكف عن لومه وتوبيخه . والتمست السلوى والعزاء فى الدين ولعب الورق ولم ينقطع الشجار بينهما يومياً تقريباً ، ولم يضيق الزمن الهوة بين الرجل الذى تدور برأسه ألف فكرة والمرأة التى تعبد رباً واحداً ولم يتوقف أصدقاؤه قط لتحيتها عندما كانوا يأتون لزيارته . ولما اكتشفت علاقته بصوفى ثارت ثائرتها التى بدت له فرصة غير ملائمة للافتراق عنها تماماً . ولفترة من الوقت ظل يتناول طعامه فى مكتبه ، وكتب إلى جريم يقول « إنها بدأت تحس بنتائج هذا الفراق البسيط . إن نفاد نقودها وهو ما أراد وشيكا ، سيؤدى حتما إلى الصلح وعودة الإمور إلى مجاريها[١٠٨]» . وإنتابها المرض فرق قلبه لها وتولى رعايتها متذمراً ، وتجاوبت معه فى رقة ظن منها أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة . ومهما يكن من أمر فإنه فى رسالة بعث بها إلى صوفى وصف مرض زوجته أنطوانيت مازحاً . وعندما فكر صديقه سوارد فى الزواج نصحه ديدرو أن يلقى بنفسه فى لجة اليم بدلا من الزواج . (وكان زواج سوارد من أسعد الزيجات فى عصر الشقاء هذا) .

وكان من الجائز أن يولى ديدرو الفرار من داره لولا أنه أحب وسائل الراحة فى بيته ، وشغف حباً بابنته الجميلة . وكانت أنطوانيت (١٧٣) فى الثالثة والأربعين حين وضعت طفلها الرابع . وشبت مارى أنجليك واكتملت لها كل مفاتن الأنوثة ، فركز ديدرو كل اهتمامه عليها وتعلق بها ، فشاركها فى ألعابها . وأنا لنتصور الرجل الذى أثقلت الفلسفة رأسه يلعب مع ابنته الصغيرة الغمضية والحجلة والطفل المعصوب العينين « كنت شغوفاً بابنتى الصغيرة إلى حد الجنون . أية شخصية محبة هى : أو أية سيدة أستطيع أن أخلق منها إذا سمحت لى امها بذلك » . وعنى بتلقينها كل الفضائل المسيحية . ولما قاربت سن البلوغ زودها بتوجيهات صريحة لتصون نفسها من ذئاب باريس . وماذا كانت تعنى عروضهم ؟ « إنها تعنى يا آنسة رضاء لى ، هلا جللت نفسك بالفضيحة والعار ، وفقدت مركزك الاجتماعى

وتواريت عن أنظار المجتمع ، وحبست نفسك فى أحد الأديار وجعلت أباك وأمك يموتان حزناً وجزعاً (١٠٩)؟

ومن ثم فإنه مثل أى أب فرنسى أدخر مالا ليدفع لها الصداق ، واتصل بمختلف الأسرات ليجد لها زوجاً فى الوقت المناسب ، واستقر رأيه على اختيار زوج ابنته ورفضته أمها انطوانيت ، ولكن وافقت عليه الآنسة مارى وزفت إليه (١٧٧٢) ، وبكى ديدرو لفراقها ، ولكن اغرورقت عيناه أكثر بدموع الفرح عندما رأى سعادتها الزوجية ، وعاون الزوجان الصغيرين بسخاء قائلا « أليس من الأفضل أن أعاونهم فى وقت الشدة أكثر من أن أنتظر إلى الوقت الذى لايعودان يحتاجان إلى فيه » . وأصبح زوج الإبنة هذا صاحب مصنع ناجحاً كما أصبحت ذريته بعد عودة حكم البوربون (١٨١٤) من المحافظين الحذرين الحريصين .

ولما نضج فى ديدرو الاحساس بالأبوة بدأ يحسن فهم أبيه ، وينظر بين الاجلال والتقدير القانون الأخلاقى الذى ساعد رجلا على تنشئة أسرة طيبة ، ولكن قدراً كبيراً من البوهيمية ظل يلازمه . وعلى الرغم من أنه حب عرينه وملابسه وأخفافه القديمة ، وأولع بتدفئة أصابع قدميه أمام النار ويلزم البيت ، فإنه كان يحرم نفسه من هذه المتعة بين والحين ، مثلما قضى مرة شهراً مع دى هولباخ فى جراندفال Grandval وظل يرتاد المقاهى ، وكان شخصية مألوفة فى بعض الصالونات ، وأحبته مــدام جيوفرين على الرغم من خشونته فى الحديث . وفى نوبة من نوبات عطف الأمومة أرسلت إليه مكتبا جديداً وطاقماً من الكراسى المريحة المصنوعة من الجلد وساعة حائط ضخمة من الذهب والبرونز ومبذلا فاخراً — « روب دى شامبر » وقدم لها الشكر وتخلى عن أثاثه القديم وهو حزين ولكنه عبر عن أعمق الأسف لردائه الذى نبذه ! « لم لم احتفظ به أنه قد صنع من أجلى ، ولا يصلح إلا لى ولا أصلح إلا له ، والتأم مع كل ثنية فى جسمى دون أن يزعجنى ، وكان رداء جميلا مليحا على حين أن الرداء الجديد جامد يابس

وكأنه يجعل منى تمثالا لعرض الأزياء (مانيكان) . وكانت طبيعته الطيبة الودودة تسارع إلى تلبية كل نداء وتأدية كل خدمة ، فإذا علا التراب أحد الكتب أمكن استخدام أحد جوانب الرداء منفضة . وإذا كان الحبر على قلمي سميكا لا يتدفق كان جانب الرداء على أهبة الاستعداد . وإنك لترى من خلال الخطوط السوداء الطويلة كم من الخدمات أدى هذا الرداء . إن هذه الخطوط والأشرطة السوداء هي التي أنبأت عن الأديب وعن الكاتب وعن المجد الكادح ، أما الآن فيبدو على انى ثرى خامل الذكر ، لا يعرفني أحد وكنت صاحب السلطان المطلق على ردائى القديم أما الآن فقد أصبحت عبداً أسيرا للرداء الجديد »(١١٠)

واعتبر ديدرو أن صداقاته هي أكبر ساوى وأعظم إلهام له في حياته . وكان ارتباطه بجريم أوثق وأبقى من سائر محبيه . وفى ١٧٧٢ بعد أن كان الواحد منهما قد عرف الآخر لمده اثنين وعشرين عاما كتب إليه « عزيزى صديقى الوحيد ، لقد كنت دائماً وستكون دائماً صديقى العزيز الوحيد (١١١) ومع ذلك أساء فتور جريم وتظاهره بعدم الاكتراث فى بعض الأحيان إساءة بالغة إلى ديدرو . إن جريم الألمانى استغل طيبة قلب ديدرو وكثيراً ما أنابه عنـــه فى تحرير صحيفته « كورسبندانس » وحل محله لا فى كتابة أخبار المعارض فحسب ، بل فى عرض أحدث الكتب كذلك . وفى بعض الأحيان اشتغل أثناء الليل حتى آخر لحظة حددها جريم لإنجاز العمل (١١٢) وعرض جريم على ديدرو أجراً فرفض أن يؤجر . ومن المؤسف أن نروى أنه فى ١٧٧٣ سمع ستانلاس بونياتوسكى ملك بولنده أن ديدرو كان يعد العدة لزيارة سانت بطرسبرج ، وفكر فى دعوته للتوقف لعدة أيام فى وارسو ، فما كان من جريم إلا أن نصح الملك بأنه لا غناء فى التعرف على الفيلسوف « إن ديدرو بدلا من استغلال وقته فى اقتسام مجد العبقرية مع فولتير يضيعه فى كتابة شذرات لصحيفة كورسبنداس أو يضيعه سدى مع كل من يجد فى نفسه الجرأة ليسأله . وأستطيع أن أؤكد لجلالتكم أنه سيموت مغموراً غير معروف (١١٣)» .

وربما كانت أسعد ساعات ديدرو (عدا الوقت الذى كان يقضيه مع ابنته أنجليك) هى تلك التى كان يقف فيها خطيبا فى أمسيات دى هولباخ أو مدام جيوفرين للعشاء ، وينطلق فى الحديث بفصاحة فى أى موضوع وهو لا يكون فى أفضل حالاته فى الاجتماعات التى يغلب عليها الأدب والتهذيب والتى يكون فيها الظرف هو المطلوب لا الأفكار . وكم انزعجت مدام جيوفرين نفسها من تحمساته ، وكانت نصائحها له بالاعتدال والتزام آداب اللياقة قدر شطحاته هو ، ولكن على مائدة البارون التى اجتمع إليها كما أكدوا لهيوم ، سبعة عشر ملحدا أطلق ديدرو لنفسه العنـان ومن ثم (كما أجمع كلهم تقريباً) لا يكون فى أحاديث باريس الممتعة ما هو أكثر امتناعا وسحرا من حديث ديدرو ويقول مارمونتل « إن الذى عرف ديدرو من كتاباته وحدها لا يعرفه إطلاقاً ...لقد نعمت منه بمتعة فكرية أعظم[١١٤] أما هنرى ميستر الذى كثيرا ما نسمعه فإنه يصفه فى مقارنة ملائمة « إنى عندما استرجع ديدرو فى ذاكرتى وأرى شدة تنوع أفكاره وغزارة علمه المذهلة وتحليقه وشطحاته السريعة وحرارته واضطراب خياله المتهور وكل ما فى حديثه من فتنه وسحر وتشويش ، أتجاسر فأشبه شخصيته بالطبيعة نفسها تماماً ، كما تعود أن يتصورها ، غنية خصبة تكثر فيها الجراثيم من كل جنس ، وديعة عنيفة بسيطة فخمة ، قيمة مهيبة ولكن على غير مبدأ أو قاعدة ، ودون سيد ذى سلطان ودون إله[١١٥] .

واستمع إلى تقرير مباشر عن حديث ديدرو عن نفسه « بدا أنى شاذ غريب عنهم ، ملهم سماوى . إن جريم نفسه لم يتهيأ له من البصر ما يرانى به ولا من السمع ما يستمع إلى به ، ودهشوا جميعا وأحسست أنا نفسى بين جنبى بشىء من الرضا لا أستطيع التعبير عنـه ، إنه كان أشبه بنار تضطرم فى أعماق تلفح صدرى ، انتشرت بينهم وألهبتهم . كانت أمسية من الحماسه كنت أنا مضرمها »[١١٦] .

وكانت شهرته المعاصرة أعظم بين من عرفوه منها بين أولئك الذين

أوا فقط أعماله المنشورة ، وأهمها دائرة المعـارف ورواياته وأحسنها التمسك بالدين وجاك المؤمن بالقضاء والقدر ،وحلم دالمبير وابن أخي رامو ، ولم تكن قد طبعت عند وفاته . ومن أجل هذا السبب من ناحية ولتطرف آرائه وأفكاره فى الدين والجنس اخفق ولم يحاول قط اللحاق بالأكاديمية ومهما يكن من أمر فإنه فى نظر اصدقائه كان الفيلسوف زعيم جماعة الثائرين المتمردين . إن روسو حتى بعد أن كرهه باعتبـاره عدوا خفيا كتب فى اعترافاته « سيبدو ديدرو لعدة قرون قادمة فذا أعجوبة ، وينظر الناس من بعيد إلى هذا الرأس العالمى بمزيج من الأعجاب والدهشة كما ننظر نحن الآن إلى رأس أفلاطون وأرسطو (١١٧) .

وافتتن جيته وشيللر ولسنج بكتابات ديدرو وشارك ستندال وبلزاك ودلاكروا فى الاعجاب به واعتبره كومت أسمى عبقـرية فى ذاك العصر المثير (١١٨) واسماه ميشيليه « بروميثيوس الحقيقى (فى الأساطير اليونانية هو الشيطان المعبود الذى سرق النار من السماء وعلمها لأهل الأرض) . وقال إن المرء ليستطيع أن ينهل من كتابات ديدرو لمدة مئة سنة ومع ذلك تتبقى ذخائر لا حصر لها (١١٩) وهلا استمعنا إلى مدام جيوفرين التى عرفته حق المعرفة ، ولكنها لم تقرأ كتبه ، إنها كتبت تقول « أنه رجل طيب ورجل أمين ولكنه عنيد متشبث برأيه (ولو كان خطأ) غير متزن إلى حد أنه يرى ويسمع الأشياء على ما هى عليه ومثله دائماً كمثل رجل يحلم ثم هو يؤمن بأنه أحلامه صادقة (١٢٠) .

كان ديدرو طيبا وسيئاً ، أمينا وخائنا ، عنيداً ونزاعا إلى الحق ، قليل التوازن وخلاقا مبدعاً بشكل بارع ، كما كان حالماً ومناضلا ومتنبئاً ، يبدو أن مكانته فى التاريخ تعلو وتسمو كلما ابتعد زمانه ، حتى إن بعضهم اليوم ليعتقد أنه أعظم شخصية امتاعا وإثارة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر (١٢١) ولنقف الآن عند هذا الحد حتى نلتقى به مرة أخرى وجها وجها مع امبراطورة ثم فى لقاء الفلاسفة مع الموت .

الفصل الحادي والعشرون

إتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ – ١٧٧٤

هلفشيوس ١٧١٥ – ١٧٧١

١ – تطوره :

إنحدرت الأسرة من أصل سويسرى ألمانى مثل هؤلاء الأقوام الأشداء الممتلئين نشاطاً الذين تزهو وتزدهر بهم اليوم برن وزيوريخ . واتخذ أحد الأعضاء فى نيوشاتل إسم Schweitzer ومعناه سويسرى . وحمل آخر إنتقل إلى الأراضى الوطيئة إسم Helvetius ومعناه أيضاً سويسرى ، وانتقل هذا الفرع الثانى إلى باريس حوالى ١٦٨٠ ، وهنا أصبح جان كلود أدريان هلفشيوس طبيباً للملكة مارى لزكزنسكا . ومن أولاده العشرين يعنينا هنا كلود أدريان الذى ولد فى ٢٦ يناير ١٧١٥ والذى نشأ وترعرع فى كنف الطب الذى ترك بعض بصمات على فلسفته وبعد أن تلقى تعليمه على يد الجزويت فى كلية لويس العظيم تتلمذ على يد أحد جباة الضرائب . وسرعان ما أثرى . وفى سن الثالثة والعشرين بلغ دخله نحو ٣٦٠ ألف جنيه فى السنة [1] وكان وسيما وراقصاً ومبارزاً بارعاً كما كان محبوباً لدى رجال الحاشية ونسائها ، وعين سديراً للشئون الداخلية للملكة . ولم يكن مستعداً بأية حال ليكون فيلسوفاً ، اللهم إلا أنه كان يحذق تأليف الكتب :

ولـ،نه فى ١٧٣٨ ألتقى بفولتير فروعه عقله وشهرته وراوده حلم الكتابة والتأليف . فهلا يكون إمتيازاً غريباً أو غير مألوف أن يكون رأسمالياً وفيلسوفاً فى وقت معا ؟ وقضى بعض الوقت فى بوردو ضيفا على منتسكيو ،

ثم فى برجندى مع بيفون . وعمل تأثير هذين الرجلين على تشكيل هلفشيوس، وأصبح صديقاً وثيق الصله بمليونير آخر هو البارون دى هولباخ الذى كان الزعيم المادى فى هذا العصر . وفى أمسيات العشاء لدى البارون وفى صالون مدام دى جرافينى التقى بديدرو وجريم وروسو ود يكلوس وجاليانى ومارمومنتيل وترجو . ومن ثم تحولت إتجاهاته .

وفى ١٧٥١ إتخذ قرارين خطيرين ، فتخلى عن منصبه الوفير الكسب وهو منصب الملتزم العام للضرائب ، ولجـــــأ إلى ضيعة إقطاعية فى Vore - au perche وتفرغ لتأليف كتاب يهز العالم وفى العام نفسه وهو فى السادسة والثلاثين تزوج من آن كاترين دى لينيفيل دى أوتريكورت ؛ وهى كونتيسه من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت آنذاك فى الثانية والثلاثين من من العمر وهى من أجمل السيدات وأكثرهن كياسة وعقلا فى فرنسا وأخذها على الفور إلى بلدته فوريه حتى لاتفسدها باريس على حد قول جريم . وهناك أو فى باريس دخل فونتنيل وكان يناهز مائة عام إلى حجرة ملابس الكونتيسة الجميلة وهى تكاد تكون عارية تماماً ، فصرخ وهو يرتد من من الحجرة فرحا : آه ياسيدتى لو أنى كنت فى سن الثمانين فقط [٢].

واحتفظ الزوجان السعيدان كذلك بدار فى باريس . وهناك جذب إليها كرم هلفشيوس ومفاتن زوجته كثيراً من قادة الفكر مثل ديدرو ودى هولباخ وفونتنيل وبيون ودالمبروبيفون وترجو وجاليانى وموريلى وكوندرسيه وهيوم . ويقول مارمونتيل : كم أصبحت هذه الدار ملائمة مريحة لرجال الأدب[٣] وحاول هلفشيوس فى حفلات العشاء أن يوجه المناقشة إلى الموضوعات التى فكر فى أن يكتب فيها ، ويثير النقد لأفكاره وأبدى أنه يصغى كل الاصغاء لما يقال من نقد ، وشكا موريليه من أن هلفشيوس يؤلف كتابه شركة بينهم[٤].

وظل هلفشيوس يعمل فى إعداد الكتاب سبع سنين دأبا ، حتى خرج

الكتاب المرموق فى ١٥ يولية ١٧٥٨ بعنوان « الذكاء » ولشد ما كانت دهشة الأصدقاء الذين رأوا المخطوطة حين ظهر الكتاب متمتعا بالترخيص الملكى الثمين بالنشر . ذلك أن مالشرب كان قد عهد إلى جان بيير ترسيية بمراجعة الكتاب تمهيداً لنشره (عمل الرقابة على المصنفات) ، فقرر ترسييه « من رأيى أنه ليس فى الكتاب ما يحول دون نشره[٥] ولكن المحامى العام فى برلمان باريس دفع الكتاب فى ٦ أغسطس بأنه محشو بالهرطقة والكفر ، وألغى مجلس الدولة فى ١٠ أغسطس الترخيص بالطبع ، وسرعان ما عزل ترسييه عن مناصبه المربحه . ودفع يهاجم المسيحية قائلا : بأى لون من الإلحاد والكفر يتهموننى ؟ أنا لم أنكر فى أى جزء من الكتاب التثليث أو ألوهية المسيح أو خلود الروح أو بعث الموتى أو أية ناحية أخرى من نواحى العقيدة البابوية ، ومن ثم فانى لم أهاجم الديانة بأى شكل من الأشكال[٦]. وخشى فولتير أن يرسل هلفشيوس إلى الباستيل فنصحة بالرحيل ، ولكن هلفشيوس كان مستريحا فى ذاك إلى حد لا يضحى معه من أجل الكتاب ، فأصدر تراجعا فى صيغة رسالة إلى قسيس ، فأعلنت الحكومة بأن هذا غير كاف فنشر هو اعتذارا يقول جريم « أنه مذل إلى حد لايدهش معه المرء أن يرى رجلا يؤثر أن يلجأ إلى الهوتنتوت (قبائل السود فى جنوب أفريقية) على أن يضع اسمه على مثل هذه الاعترافات[٧] » وقصدت مدام هلفشيوس إلى فرساى لتشفع لزوجها ورضيت الحكومة بأن يأوى إلى ضيعته لمدة عامين ، وربما أصبحت العقوبة أشد من ذلك لولا أن الملك تذكر أن والد هلفشيوس أنقذ حياته ذات مرة حين كان طبيبا للملكة . وفى ٣ يناير اتهم البابا كليمنت الثالث عشر الكتاب بأنه مخز فاسق لا يلتزم قواعد الدين ، وفى فبراير أحرق علنا بأمر من البرلمان . ولقد رأينا كيف أن هذه « الضجة حول مسألة تافهة كما سماها فولتير قد أسهمت مع مقالة دالمبير عن جنيف فى تضييق الخناق على موسوعة ديدرو ، وبكل هذا الإعلان الواسع النطاق عن كتاب « الذكاء » تهافت الناس على قراءته أكثر مما أقبلوا على أى كتاب

لعب دوراً فى الحملة على المسيحية . وظهرت منه عشرون طبعة بالفرنسية على مدى ستة أشهر . وسرعان ماترجم إلى الإنجليزية والألمانية واليوم لايعرف عنه شيئاً إلا القليل من العلماء والباحثين ويكاد يكون من المتعذر الحصول على نسخة منه .

ولم ينشر هلفشيوس شيئاً بعد ذلك ، ولكنه استمر يكتب . وصرح ثانية وتوسع متروياً غاضباً فى شرح وجهات نظره فى رسالة «عن الإنسان» وهى التى هاجم فيها رجال الدين بوصفهم باعة متجولين يتجرون فى الرجاء والخوف وينشرون الجهل ويقتلون الفكر . وفى هذين الكتابين نجد كل مثله العليا فى هذا العصر الطموح ، الحرية والمساواة والأخوة : حرية الكلام والصحافة والاجتماع والعبارة ، والمساواة بين الجنسين كليهما ، وبين كل الطبقات فى فرص التعليم وأمام القانون، وتأييد يكاد يكون إشتراكياً لدولة الخير العام حماية وتعويضاً للفقراء السذج ضد الأغنياء الأذكياء » . وكل هذه الآراء والمثل العليا يتوجها إيمان شبيه بالايمان الدينى فى إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال المطلق . وهنا أيضاً إذا أصغينا جيداً لسمعنا صوت الثورة .

٢ — **فلسفته :**

ومثل كل الفلاسفة تقريباً يبدأ هلفشيوس بلوك . فكل الأفكار مستمدة من الإحساس ، ويلى ذلك من خبرة الفرد . فكل الحالات العقلية عبارة عن مجموعات متضامة من الأحاسيس يشعر بها الإنسان حالياً أو تنبعث من جديد من الماضى عن طريق الذاكرة ، أو يتصورها مستقبلا عن طريق الخيال . أما إصدار الحكم أو إتخاذ القرار فهو الاحساس بالفوارق بين الأحاسيس . أما العقل فهو مجموعة من الأحكام أو القرارات .

وليس الذهن والنفس شيئاً واحداً فالذهن هو تجمع أو تعاقب للحالات العقلية . أما النفس فهى حساسية الكائن الحى أى القدرة على إستقبال

الأحاسيس وكل الإحساس مادى . وكل النفس قوة فى المادة . أن كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعى تثبت بوضوح أن هذه القوة . . . تبدأ بتكوين أعضاء الجسم ، وتبقى ما بقيت ثم تنقضى هذه النفس بانحلال هذه الأعضاء وفنائها(٨) . وللحيوانات أنفس . ويسموا الإنسان على الحيوان بفضل نموه واستواء قامته حيث تتحول قوائمه الأمامية تدريجاً إلى أيد قادرة على الامساك بالأشياء ومعالجتها .

وحيث بدأ هلفشيوس بجون لوك فأنه يتابع المسيرة مع هوبز . فكل عمل رغبة تستجيب لاحاسيس حالية أو مبتعثة . والرغبه هى تذكر اللذه التى أقترنت بأحاسيس معينة ، والأنفعال رغبة ملحة ، وتختلف فى شدتها تبعاً للألم أو اللذة المتذكرة والمتوقعة . والأنفعالات تؤدى بنا غالبا إلى الخطأ ، لأنها تركز إنتباهنا على ناحية معينة من شىء أو موقف بعينه ولا تهيىء لنا المجـال لتدبره من جميع جوانبه(٩) . والذكاء بهذا المعنى هو تأخر رد الفعل ليهيىء إدراكا أوسع وإستجابة أوفى . وعلى الرغم من ذلك فالأنفعالات بالنسبة للخاق هى الحركة بالنسبة للمادة . وهى تزودنا بالدافع حتى الدافع إلى المعرفة . فالأنجاز العقل لأى شخص يختلف تبعاً لحدة أنفعالاته فالإنسان العبقرى إنسان ذو إنفعالات قوية والإنسان الغبى مجرد منها (١٠) . والأنفعال الأساسى هو حب القوة والسيطرة ، وهو أساسى لأنه يزيد فى قدرتنا على تحقيق رغباتنا .

وعند هذا الحـد إستحق عمل هلفشيوس ما وصفه به فولتير من أنه « عجة بيض » أى خليط من الأفكار التى كانت سائدة منذ عهد طويل فى دنيا الفاسفة ، ولكنه إنطلق الآن إلى أكثر آرائه ومسائله إمتيازا . فحيث أن كل الأفكار تنبع من خبرات الفرد وتجاربه فإن التباين بين أفكار الأفراد والأمم وخلقها يعتمد على الفوارق بين بيئة الفرد أو الأمة . ولدى كل الناس عند مولدهم استعداد متساو للفهم والحكم وليس ، هناك تفوق فطرى أو طبيعى فى الذهن . لقد وهب الجميع قـوة وقدرة على الأنتباه كافيتين

للارتفاع بهم إلى مرتبة الرجال اللامعين المرموقين إذا كانت البيئة والتعليم والظروف ملائمة لهم . وعدم المساواة فى القدرة والأهلية هـو دائماً نتيجة الاختلاف فى الموقف الذى تصادف أن وضعوا فيه(١١) .

« وفى اللحظة التى يخرج فيها الطفل من بطن أمه . . . . . يدخل إلى الحياة دون أفكار ودون انفعالات . وكل ما يحس به هو الجوع . إننا فى المهد (أى عن طريق الوراثة) لا نتلقى انفعالات الزهو والكبرياء والجشع والطمع والرغبة فى حسن التقدير والمجد والعظمه . إن هـذه الأنفعالات المثيرة للشقاق والشغب التى تتوالد بين البلدان والمدن تفترض مقدما وجود تقاليد وقوانين قائمة بالفعل بين الناس . . . ومثل هذه الأنفعالات لا تكون معروفة لدى من تحمله ساعة مولده عاصفة إلى صحراء مقفرة يغذيه ذئب مثل روميلوس . وحب المجد والعظمة شىء مكتسب ، ومن ثم فهو نتيجة درس وتعليم(١٢) » .

وحتى العبقرية نفسها نتاج البيئه ، أى الخبرة بالأضافة إلى الظروف ويضيف العبقرى الخطوة الأخيرة إلى خطوات أكتشفت وإتخذت قبله . وهذه الخطوة الأخيرة تكون تبعاً للظروف . وكل فكرة جديده هى نعمة من نعم الصدفة ، أى سلسة من النتائج والأثار لأندرك لها سبب(١٣) .

« ومن أين يأتى عدم المساواه التامة فى الفهم والذكاء » ؟ السبب فى هذا هو أن أى إنسان لأيدرك على وجه الدقه نفس الأشياء ، وليس هو على وجه الدقة فى نفس الموقف ، ولم يتلق نفس التعليم ، كما أن الصدفة أو الحظ الذى يسمو على تعليمنا لايؤدى بكل الناس إلى كنوز غنية مثمرة بقدر سواء . وإننا من أجل هذا ننسب إلى التعليم — بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . مع أخذ فكرة المصادفة والحظ فى أعتبارنا — ننسب عـدم المساواة فى الفهم والذكاء(١٤) .

ومن الجائز أن هذا التحليل النفسى وهو سخى بصفة خاصة من أحد أصحاب الملايين ، مشتق أو نابع من وضع سياسى . فالمحافظون يؤكدون

فوارق الوراثه وتأثيرها ، والحاجة إلى الحرص والحذر فى تغيير النظم المتأصلة فى عدم المساواة الطبيعية والحلية فى القدرة والخلق . أما دعاة الأصلاح فيؤكدون على فوارق البيئة وتأثيرها ، ممـا يجعل عدم المساواة فى القدرة والقوة والثروة يبدو راجعاً إلى المصادفة والحظ ، إلى مفارقات المولد وميزات الظروف أكثر منه إلى جدارة فطرية . ومن ثم يمكن خفض عدم المساواة بالمساواة فى التعليم وتحسين البيئة . ويطبق هلفشيوس نظريته فى المساواة الطبيعية على الأجناس والأفراد . فكان يمكن أن تصل كل الأجناس إلى نمومتساو إذا تساوت الفرص البيئية لديها . وينتج عن هذا أن الغرور القومى أو الأعتزاز بالجنس مثل الغرور الفردى أو إعتزاز الفرد بنفسه ، ليس له فى الواقع أى مبرر . أن الحرية التى يفاخربها الأنجليز . . . ليست جزاء لشجاعتهم بقدر ما هى نعمة الحظ — « أعنى القنال الانجليزى والبحار التى تحميهم (الحرية الداخلية إذا تساوت الأشياء الأخرى تتفاوت عكسيا مثل الخطر الخارجى) .

وواضح على هذه الأسس أن طريق التقدم يتبع تحسين التعليم والمجتمع والحكومة . « إن التعليم قادر على التأثير فى كل شىء » . ألا يدرب التعليم الدب على الرقص[١٥] ؟ أن كل التقدم ، حتى فى الاخلاق يتوقف على إنتشار المعرفة وتدريب الذكاء . إقض على الجهل وبذلك تقضى على كل بذور الشر[١٦] ومن أجل الأقتراب من هذا الهدف يجدر أن يعاد بناء نظام التعليم فى فرنسا كما ينبغى أن يحرر من ربقة الكنيسة ويعهد به إلى الدولة ، كما يجب أن يكون فى متناول كل الأفراد من الجنسين كليهما وفى كل الأعمار . ويجدر أن يحل تدريس العلوم والتقنيات محـل تعليم اللاتينية والأغريقية ، ويجب أن يكون ثمـة تركيز جديد على بناء الأجسام الصحيحة « والعقول السليمة المتمسكة بالفضيلة[١٧] » .

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل فى دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة فى فرنسا . أنه يهاجم الكنيسة من

وجهة نظر اجتماعية لا لاهوتية ، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية فى تمجيد العزوبة والفقر ، ولكنه يطرب ويبتهج لأن قلة ضئيلة من المسيحيين هم الذين ينظرون إلى هذه الأفكار بعين الجد . « أن ميلا خفياً إلى الشك وعدم التصديق يقاوم هذا الأثر الخبيث المؤذى للمبادىء الدينية[١٨] أنه يتهم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنها تعوق التقدم الفنى والعلمى فى الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب ، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لأخضاعه للسيطرة الكهنوتية[١٩] .

« إن رغبة رجال الدين فى كل العصور إنصرفت إلى القوة والنفوذ والثراء . وبأية وسيلة يمكن أشباع هذه الرغبة ؟ ببيع الرجاء (فى النعيم) والخوف (من الجحيم) . إن الكهنة وهم تجار جملة فى هذه السلع كانوا يحسون ويدركون أن هذا البيع سيكون مؤكدا رابحا[٢٠] . . . . . وتتوقف قوة الكاهن وسلطانه على الخرافات ، وعلى تصديق الناس فى غباء وحمق لهم . وليس لتعليمهم قيمة لديه . وكلما قلت المعرفة عندهم ازدادوا إمتثالا لأوامره[٢١] . . . . إن أول هدف للكهنة فى كل ديانة هــو خنق حب الاستطلاع عند الناس ، والحيلولة دون فحص أية تعاليم ومبادىء يكون سخفها ملموسا محسوسا إلى حد لا يمكن إخفاؤه[٢٢] . . . لقد ولد الإنسان جاهلا ، ولكنه لم يولد مغفلا أبله ، وليس إلا بالجهد والمشقة ليكون كذلك ، ولابد لذلك وليكون قادرا على أطفاء هــذا النور الطبيعى فى داخله من إستخدام كثير من الخداع والحيل والأساليب ، ومن ثم يكدس التوجيه والتربية فى ذهنه أخطاء فوق أخطاء[٢٣] وليس ثمة شىء تعجز قوة الكهنوت بمساعدة الخرافة عن تنفيذه ، لأنها تسلب الحكام والقضاة سلطانهم وسيادتهم ، والملوك سلطتهم الشرعية ، وبذلك تخضع الناس وتحرز السيطرة عليهم . وغالبا ما تكون هــذه أعلى من سيادة القوانين ، ومن ثم تفسد فى النهاية المبادىء الاخلاقية نفسها[٢٤] .

ويضيف هلفشيوس ثمانية فصول عن التسامح .

« أنه التعصب أو عدم التسامح الديني هو ربيب الطمع الكهنوتي ومرعة الصديق الغبي الأحمق[٢٥] . وإذا أنا صدقت مربيّ أو معلمي، إن كل ديانة أخرى باطلة زائفة ، وديانتي وحدها هي الصحيحة الحقة . ولكن هل يعترف العالم كله بهذا ؟ لا ، فإن الأرض لاتزال تئن تحت وطأة المعابد الكثيرة الموقوفة على الخطأ[٢٦] . وماذا يعلمنا تاريخ الأديان ؟ أنها أضاءت في كل مكان مشعل التعصب وملأت السهول بالجثث وخضبت الحقول بالدماء واحرقت المدن وإقامت أمبراطوريات مهلهلة[٢٧] . اليس الأتراك ، ودينهم دين جهاد وحرب ، أكثر تسامحا منا ؟ إننا نشهد الكنائس في القسطنطينية ولكنا لأنرى مساجد في باريس[٢٨] . أن التسامح يخضع الكاهن للأمير ولكن التعصب يخضع الأمير للكاهن[٢٩] .

ويميل هلفشيوس إلى القول باستثناء واحد في جانب التعصب ، حيث يقول : « هناك سبب واحد يمكن أن يكون فيه التعصب ضاراً بالشعب ، حيث يكون التسامح مع عقيدة تتسم بالتعصب مثل الكاثوليكية . فإن مثل هذه العقيدة التي تصبح أقوى ما تكون في دولة ما سوف تسفك دائماً دماء حماتها الأغبياء . لا تسمحوا للكاثوليك المتملقين أن يستغلوا البروتستانت . إن القساوسة الذين يعتبرون التعصب في بروسيا أمـــراً بغيضاً وخرقاً للقانون الطبيعي والسماوي ينظرون إلى التسامح في فرنسا على أنه جريمة وهرطقة . وماذا يجعل الإنسان مختلفا عن غيره في مختلف الأقطار ؟ ليس إلا ضعفه في بروسيا وقوته في فرنسا. وإذا تأملنا في سلوك المسيحيين الكاثوليك، لوجدنا أنهم في البداية حين يكونون ضعافاً يبدون وكأنهم حملان وديعة حتى إذا أصبحوا أقوياء كانوا وحوشاً ضارية[٣٠]

وأدلى هلفشيوس من حين إلى حين بكلمة طيبة عن المسيحية ، وبخاصة عن البروتستانتية ولم يكن ملحداً ولكنه كره تصوير الأسفار المقدسة للإله

طاغية . . . يعاقب على الهنات الهينات بالعذاب المقيم [٣١] . وراوده الأمل فى ديانة عالمية « تقيم تحت رقابة الدولة « أخلاقيات طبيعية » متحررة من الثواب والعقاب بعد الموت [٣٢]. ووضع العقل الإنسانى فوق كل دعاوى الإنسان للوحى الإلهى . فإن الرجل الأمين سوف يمتثل دائماً لعقله مؤثراً إياه على الوحى . لأنه سيقول بينه وبين نفسه عن يقين بالغ بأن الله هو منشيء العقل البشرى أكثر من أنه مؤلف كتاب بعينه [٣٣]

ولكن أليست المعتقدات الخارقة والوازع الدينى ضرورية لفاعلية القانون الأخلاقى ؟ يقول هلفشيوس . كلا « ليس على الدين ولكن على التشريع أو القانون وحده تتوقف رذائل الناس وفضائلهم وقوتهم وهناءتهم . . . إن كل جريمة لايعاقب عليها القانون تقترف كل يوم فأى دليل أقوى من هذا على عقم الدين وعدم جدواه ؟ ...

ومن أين ينشأ الأمن الحالى فى باريس ؟ هل ينشأ من تقوى أهلها وتبتلهم ؟ كلا إنما ينشأ من نظام الشرطة ويقظتهم . . . وفى أية فترة أصبحت القسطنطينية وكر الرذائل ؟ فى نفس اللحظة التى قامت فيها المسيحية هناك ... إن أشد الملوك تمسكاً بالمسيحية لم يكونوا أعظم الحكام . إن قليلا منهم تحلوا بفضائل تيتس أوتراجان أو انطونينس وأى أمير تقى ورع يمكن أن يقارن بهؤلاء ؟ [٣٤]

ومن هنا بدا لهلفشيوس أن مهمة الفلسفة أن تبتكر وتنشر أخلاقيات مستقلة عن العقيدة الدينية .ومن وجهة النظر هذه كتب ما أسماه أحد الباحثين« أعظم اختيار على الأخلاق الاجتماعية خطه يراع أى فيلسوف [٣٥] أنه عقد العزم على ألا ينتقص من قدر الطبيعة البشرية أو يجعلها مثالية، بل يأخذها كما وجدها بكل ما فيها من أنانية ، ويحاول إن يبنى عليها أخلاقاً طبيعية . إن الإنسان ليس خيراً أوشراً بالطبيعة . إنه مخلوق حاول أن يحافظ على ذاته فى عالم يحاول كل كائن آخر فيه أن يفتك به إن عاجلا أوآجلا [٣٦] . إن الصورة التى كان قد رسمها روسو حديثاً للمجتمع البدائى بدت لهلفشيوس خيالا تافهاً

غير ذى قيمة . وكان هوبز أقرب إلى الحقيقة حين وصف « حالة الطبيعة » بأنها صراع كل فرد ضد الجميع . إن لفظى الخير والشر فى تطبيقهما على الناس ليس لهما معنى إلا فى مجتمع ، وكل الطيبة فضيلة اجتماعية وهى نتاج التدريب أو التعليم الاجتماعى على الغايات والأغراض الاجتماعية . « إن الأمير الذى يثق فى استقامة الخلق الفطرى المتأصل فى النفوس شقى تعس . إن روسو يفترض وجود هذه الاستقامة ، ولكن الخبرة تنكر وجودها . وكل من يتأمل فى هذا سينتهى إلى أن الطفل يقتل الذباب ويضرب كلبه ويخنق عصفوره أى أن فى الطفل كل رذائل الرجل . إن الرجل وهو فى أوج سلطانه ، (متحرراً من كل القيود والضوابط الاجتماعية) غالباً ما يكون جائراً ظالماً . والطفل القوى مثله تماماً : فإنه إذا لم يكبح جماحه وجود رفاقه مثل الرجل فى أوج سلطانه يستحل لنفسه حلوى رفيقه وأدوات لعبه ويستولى عليها [٣٧]

ومن الواضح عندئذ أنه ليس هناك حاسة أخلاقية فطرية ، فكل الأحكام على الخطأ والصواب تنمو عن طريق خبرة الفرد نتيجة لتعاليم أسرته وجماعته وحكومته وكنيسته ، وفرضها عليه قسراً . فإذا تحرر الفرد من هذا القسر كما هو الحال فى الحكم المطلق أو الحرب أو الزحام فإنه يميل إلى العودة إلى مخالفة القانون والتمرد عليه ، وإلى عدم التمسك بالمبادىء الأخلاقية . وهنا « لاتكون الأخلاق فى معظم الأمم آنئذ إلا مجرد مجموعة من تعاليم وقواعد سلوكية يمليها ويفرضها الأقوياء ليضمنوا سيطرتهم وسيادتهم ، مع الاستمرار فى ظلمهم وطغيانهم ، مع الافلات من أى عقاب » ولكن الأخلاق بمعناها الصحيح هى « معرفة الوسائل التى يبتدعها الناس ليعيشوا معاً وجنباً إلى جنب فى أسعد حال .. وإذا كان من بيدهم الأمر والسلطة لايعارضون تقدم المعرفة بهذه الوسائل فإنها تنهض وتتقدم كلما اكتسب الناس معرفة جديدة»[٣٩] .

وهلفشيوس يعتنق صراحة مذهب المتعة (اللذة أو السعادة) . وهى الخير الرئيسى أو الأوحد فى الحياة : فالسعادة هى هدف الحياة هنا على الأرض ، والسعادة هى استمرار اللذة ودوامها ، وكل اللذة حسية أو فسيولوجية

أساساً [٤٠]» إن نشاط الذهن واكتساب المعرفة . هما أعظم اللذات إشباعاعلى الدوام [٤١] ولكنهما ماديان أيضاً بصفة جوهرية . والزهد أو التقشف ضرب من الحمق . واللذة الجنسية مشروعة تماما إذا لم تؤذ أحداً . وليست الفضيلة هي الأمتثال لشرائع الله بل هي السلوك الذي يوفر أعظم اللذة لأكبر عدد من الناس . وهنا وبشكل واضح يصوغ هلفشيوس الأخلاق النفعية التي جاء بها بالفعل هتشنسون (١٧٢٥) والتي شرحها بنتام فيما بعد(١٧٨٩). « لكي تكون فاضلا يجب أن تجمع بين نبل النفس والعقل المستنير . وهذا الذي يجمع بين هاتين النعمتين إنما يتجه إلى المنفعة العامة . وهذه المنفعة هي قاعدة كل الفضائل الإنسانية وأساس كل تشريع . . . وكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ أو قاعدة واحدة وهي نفع الناس جميعا أي أكبر عدد من الناس في ظل الحكومة نفسها . . . فهذا المبدأ يتضمن كل الأخلاقيات وكل التشريع [٤٢].

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأفعال في رأى هلفشيوس مهما كانت اخلاقية وفاضلة أنانية . وقد لا تكون الأفعال بالضرورة أنانية ، فكثير منها يتسم بالغيرية (حب الغير) بمعنى أنه مقصود به نفع الآخرين وفي بعض الأحيان تكلف فاعليها ثمناً غالياً . ولكن حتى مثل هذه الأفعال أنانية بمعنى أن الدافع إليها هو إرضاء الذات . أننا غيريون (نحب الغير) إننا بالفطرة أو بالتعليم والمران يمكن أن نجد لذة كبيرة في إدخال السرور على الآخرين وإسعادهم .وهكذا قد تضحى الأم من أجل طفلها أو البطل من أجل وطنه. إننا إذ نفعل الخير لغيرنا فذلك يرجع إلى أننا عن قصد أو عن غير قصد نتذكر في لذة وسرور ما قوبلت به مثل هذه الأفعال في الماضي من حب أو تقدير اجتماعي .وبهذه الطريقة قد تصبح بعض الأفعال الغيرية عادة لدينا. وقد نشعر بالانزعاج أو الخوف إذ لم نقم بها . وقد يبدو النسك أو التبتل الديني عملا فاضلا إلى درجة عالية ، ولكنه « مجرد استثمار طويل الأجل في سندات السماء » أي مجرد محاولة طويلة الأمد لضمان حسن الجزاء في السماء

« فإذا فرض ناسك أو راهب على نفسه قانون الصمت وجلد نفسه بالسوط فى كل ليلة وعاش على الحبوب والماء وافترش الأرض على القش فإنه يظن أنه بفضل النحول والهزال سيحظى بمنزلة رفيعة فى الجنة[٤٣]. وإذا لم يحكم المجتمع المحلى على أى تصرف أو فعل وحشى قاس بالإدانه ويستنكره فان هؤلاء الرجال المقدسين سيرتكبونه دون خجل أو لجوء إلى القانون : مثال ذلك إحراقهم المهرطقين[٤٤]. إن الصداقة نفسها ضرب من الأنانية : فهى تبادل خدمات حتى ولو كانت مجرد تأييد ، وحينما انقطع مثل هذا التبادل تقطعت أواصر هذه الصداقة ، وليس ثمة شيء إستثنائى أو غير مألوف أكثر من الصداقة التى لا تدوم طويلا [٤٥]، وجوهر الحقيقة إننا دائماً نحن الذين نحب أنفسنا فى غيرنا [٤٦] .

وحين هبط لاروشفوكول بالمثل بمختلف الدوافع إلى حب الذات فأنه شعر بالأسى باعتبار أن حب الذات هذا رذيلة . ولكن هلفشيوس ارتضاه على اعتباره فضيلة ، على أنه سعى للمحافظة على الذات . وعلى أية حال فتلك حقيقة عامة من حقائق الحياة «فالغضب أو الشعور بالضيق من الأفعال القائمة على حب الذات وهو مثل الشكوى من رخات المطر فى الربيع أو من حر الصيف ... أو صقيع الشتاء » [٤٧]. ومن منطلق عمومية حب الذات تماماً يقترح هلفشيوس إقامة أخلاقيات « علمية » . فالتعليم والتشريع يمكن أن يشكلا الأخلاق والعادات إلى حد الانزعاج والشعور بالملق والضيق بالأفعال أو التصرفات غير الاجتماعية ، والشعور باللذة والسرور فى الفضيلة — أى فى الأفعال التى تفيد الجماعة وتسدى إليها خيرا . ويجدر بالفيلسوف أن يدرس السلوك الإنسانى والحاجة الاجتماعية بقصد اكتشاف أى أشكال السلوك أكثر نفعا وخيراً لأكبر عدد من الناس ، ويحاول مع المعلمين والمشرعين التماس المغريات والمحاذير التى يمكن مع الاستعانة بحب الذات أن تشجع السلوك الاجتماعى ، وأية فوائد تعود على الجنس البشرى من مثل هذا الاتفاق بين

الفلاسفة والملوك ؟ » إن فضائل الشعب وسعادته لا تنبع من قدسية عقيدتهم الدينية ونقاوتها بل من حكمة قوانينهم [٤٨] .

وهكذا تحول هافشيوس فى قمة فلسفته إلى دراسة التشريع والحكومة . أنه من الناحية السياسية أشد الفلاسفة تطرفا . أنه لا يشارك فولتير إيمانه « بالحاكم المطلق المستنير » فان مثل هؤلاء الحكام قد ينزعون إلى إخماد أية آراء غير آرائهم هم أنفسهم ، التى قد تكون خاطئة ضارة . ويقتبس قول فردريك الأكبر لأكاديمية برلين « ليس ثمة ما هو أفضل من حكومة استبدادية يرأسها أمير عادل إنسانى عطوف متمسك بالفضيلة ، وليس ثمة شيء أسوأ من حكم الملوك العاديين البسطاء »[٤٩]. والملكية المحددة السلطة أو الدستورية مثل انجلترا صالحة طيبة ، والأحسن منها اتحاد من جمهوريات ديمقراطية تعاهدت على العمل المشترك ضد أى ظالم [٥٠] . والارستقراطية جائرة نظرياً حيث أن المقدرة العليا نتاج الصدفة ، ولكن الديمقراطية الكاملة غير مرغوب فيها ، ما دام الفقراء غير متعلمين لا يملكون شيئاً . ومن ثم فان المشرع الحكيم يسعى إلى نشر التعليم وحسن توزيع الملكية .

إن هذا « المليونير » الخبير بشؤون المال يرثى لتركيز الثروة وتيسير هذا التركيز عن طريق الاقتصاد القائم على المال : « إن هذا الشقاء الذى يخيم على كل الناس والأمم تقريباً إنما ينشأ من قصور قوانينهم والتوزيع البعيد كل البعد عن المساواة لثرواتهم . وفى معظم الممالك توجد طبقتان فقط من المواطنين : واحدة فى مسيس الحاجة إلى الضروريات والأخرى تبذر تبذيرا [٥١] ... وإذا كان فساد السلطة فى الشعب أبرز ما يكون فى عصور الترف والبذخ فما ذاك إلا لأن ثروة الأمة فى تلك العصور كانت مركزة فى أيدى أقل نفر من الناس [٥٢] .

إن الاستعاضة بالمال أو النقود عن الأرض رمزاً للسلطة والقوة ونقطة ارتكاز لهما ، ينشأ عنها سباق على الثروة ، وفيه تفويض للاستقرار الاجتماعى وتصعيد للصراع الطبقى ، كما أنه يؤدى إلى تضخم مدمر . « وفى الأمة التى

تزداد تدريجا ثروتها ومالها — وبخاصة العملة الورقية — ترتفع أسعار الحاجيات وأجور العمال باستمرار .. وكلما أصبح العمل غالى التكلفة فى أمة غنية فإنها لا بد أن تستورد من الأمم الأخرى أكثر مما تصدر إليها . وإذا ظلت كل العوامل الأخرى على حالها ... فإن أموال الأمة الغنية سوف تنتقل أو تتسرب دون أن يشعر بها أحد الى الأمة الأفقر التى ستدمر نفسها بدورها وبنفس الطريقة إذا أصبحت غنية (٥٣) .

وهل ثمة مهرب من تركيز الثروة أو التزاحم على المال ؟ « يجدر بالإنسان أن يضاعف عدد الملاك عن طريق توزيع جديد للأرض . . فاذا زادت أرض أحد الناس عن قدر معين من الأفدنة فيجب أن تفرض عليها ضرائب تفوق قيمة إيجارها . ومثل إعادة توزيع الأرض هذه قد تكون مستحيلة تقريبا فى اقتصاد يقوم على المال . ولكن إذا أمكن تداركها بحكمة فمن المستطاع تنفيذها بتغيرات دائمة غير محسوسة (٥٤) .

فلنعمد إلى انقاص ثروة بعض الناس وزيادة ثروة آخرين ونهيء للفقراء حالة من اليسر والرخاء حتى يتمكنوا بسبع أو ثمان ساعات من العمل فى اليوم أن يوفروا لأنفسهم ولذويهم وسائل العيش ويسدوا حاجتهم ، ومن ثم يصبح الشعب سعيدا بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية (٥٥) .

٣ — تأثير هلفشيوس :

وهنا فى كتابين لرجل واحد نجد كل الأفكار التى صنعت الثورة الفرنسية وكل الأفكار التى تعتلج فى صدور الأمم وتحركها اليوم . فلا عجب أن وضعت الفئات الفرنسية المتعلمة المثقفة فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر هلفشوس فى منزلة سواء تقريبا مع فولتير وروسو وديدرو ، ورحبت بكتابه الأول وهللت له مما كاد لا يحظى به كتاب غيره فى ذاك العصر . وقال برونيتيير « إن أى كتاب غيره لم يحدث مثل هذه الضجة فى زمانه ، ولم ينشر فى الخارج أفكارا أكثر أخذت تشق طريقها إلى العالم بأسره (٥٦) .

وذكر بريسو فى ١٧٧٥ «لقى منهج هلفشيوس وآراؤه أعظم رواج وشعبية»؛ وشكا ترجوعلى حين كان يعارض هذا المنهج من أن الناس امتدحوه وأثنوا عليه فى شيء من الشدة والعنف : وقال آخر « إن هذا الكتاب كان يوجد على كل منضدة [٥٧] » . وأطرى كل النقاد وضوح أسلوبه وقوة حكمة وتصويراته البارعة والروح الإنسانية البارزة فى رجل يدافع عن إعادة توزيع الثروة على حين أنه ثرى أوتى كل شيء .

ومهما يكن من شيء فان الفلاسفة أنفسهم انتقدوا « منهج هلفشيوس» باعتباره قائما على مفاهيم خاطئة . ودافع فولتير عن دعاوى الوراثة . فكل الناس عند الميلاد ليسوا متساويين فى التفوق الذهنى والخلق الكامن ورأى أن العبقريات مولودة لا مصنوعة [٥٨] . واتفق ديدرو مع فولتير فيما ذهب إليه . وفى « تفنيد لكتاب هلفشيوس بعنوان « الإنسان » (كتب فى ١٧٧٥ ، ولكن لم ينشر إلا بعد مائة عام من تأليفه) ، دفع ديدرو بأن الأحاسيس تنتقل بأشكال مختلفة إلى مختلف الأفراد بفعل الفوارق الموروثة فى تركيب المخ وبنيته [٥٩] « لا يولد الإنسان غفلا أو خاليا من كل شيء ، حقا أنه يولد بدون أفكار أو انفعالات موجهة ، ولكنه منذ اللحظة الأولى يوهب استعدادا أو ميلا إلى التصور والمقارنة والاحتفاظ ببعض الأفكار فى تلذذ واستمتاع أكثر من غيرها . وميلا ونزعات مسيطرة تنتج عنها فيما بعد الانفعالات الواقعية [٦٠]

وهنا نجد ديدو ، الذى كان قد بدأ بجون لوك يتحول إلى ليبنتز ويمد يده إلى كانت . أن تأثير البيئة والتعليم فى نظر ديدرو ، محدود دائما بالوراثة « إننا لانستطيع أن نعطى ما رفضته الطبيعة ، وربما نقضى على ماتهبه الطبيعة .. إن التعليم يعمل على تحسين ماتهبه لنا »[٦١] واستاء من الهبوط بالمباهج الفكرية إلى لذة حسية ، واشترك فى الاحتجاج العام على فكرة هلفشيوس التى تقول بأن كل الغيرية (حب الغير) أنانية غير محسوسة أو محتجبة .

وكانت مدام دى ديفان واحــدة من النفر القليل الذين اتفقوا مع هلفشيوس فى هذه النقطة . وقالت « إن هذا الرجل كشف الغطاء عن سر كل إنسان »(٦٢) أما آدم سميث الذى كان يتبع صديقه هيوم فإنه أصر على أن الغيرية مؤسسة على مشاعر عطف فطرية مثل الأنانية سواء بسواء ، ولـكنه فى كتابه « ثروة الأمم » أسس نظريته الاقتصادية على شمولية حب الذات . وفى نشوة الثورة أثار هلفشيوس إشمئزاز مدام رولان . « لقد شعرت أنى مدفوعة بكرم لم يعترف هو به قط . . . . وواجهت نظرياته بالابطال العظام الذين خلدهم التاريخ(٦٣) .

ولا يمكن حل هذه المسائل بسهولة فى فقرة من الفقرات ، ويبدو واضحا أن الاختلافات فى التكوين الوراثى أو الخلقى تؤثر تأثيرا جوهريا فى عمل البيئة والتعليم . وكيف إذن نفسر بأى شكل آخر الخلق والنمو المتباينين كل التباين فى الإخوة على الرغم من التشابه فى النشأ والأصل والفرص ؟ ومع ذلك فإن هلفشيوس كان على حق ؟ فى نطاق الحدود التى فرضتها البيئة ، فيمكن أن تحدث تغييرات جسيمة فى سلوك الأفراد والجماعات، بفعل الاختلافات فى البيئة والتعليم والتشريع . وإلا كيف نفسر إنتقال الانسان من الهمجية إلى المدنية ؟ وربما يجدر بنا أن نسلم لهلفشيوس بأنه ليس ثمة إنسان يعمل واعيا بطريقة أشد إيلاما من بديلتها . ولـكن بعض الغرائز الاجتماعية — حب الأم ، حب العيش مع أبناء جنسه ، حب الاستحسان — على الرغم من أنها لاتقدر على منافسة غرائز النزعة الفردية فى كمال القوة ، فانها أى الغرائز الاجتماعية قوية إلى حد تستطيع معه توليد أفعالى إجتماعية قبل أى ترجيح واع للذة أو الألم أو النتيجة . فـكل منا ذات أو « أنا » ولـكن بعض الذوات أو « الأنا » تتسع لتشمل أسرتنا أو جماعتنا أو ووطنا أو الجنس البشرى بأسره . وعلى هذا الأساس تـكون أوسع « أنا » هى الأفضل .

وعلى أية حال فان كثيراً من الناس تأثروا وتحركوا للتفكير والعمل بفضل إراء هلفشيوس . ومن الجائز أنه تحت تأثير هلفشيوس بدأ لاشالوتيه

حملته لابدال مدارس كهنة القرى وكليات الجزويت بطرق تعليمية تشرف عليهـــا الدولة . وترجع المدارس العامة فى أمريكا إلى مقترحات كوندرسيهالذى سمى نفسه تلميذ هلفشيوس ومريده(٦٤) وأكد بكاريا Beccaria إن كتابات هلفشيوس هى التى أوحت بكتابة دفاعه التاريخى عن إصلاح قانون العقوبات والسياسه . وصرح بنتام بأنه « مدين لكتاب هلفشيوس « الذكاء » بكثير من أفكاره » — بما فى ذلك مبدأ المنفعة بالتماس أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس فى الأخلاق وفى التعليم (٦٥) . وشهد « الميثاق الوطنى » فى ١٧٩٢ بتقدير تأثير هلفشيوس فى الثورة ، بأن منح بنات هلفشيوس لقب «بنات الأمة» . وبنى وليم جودون Goduin بحثه فى العدل السياسى « (١٧٩٣) على تعاليم هلفشيوس . أما زوجته مارى ولستونكرافت فقد وجهها إلى حد ما إلى تأليف كتابها المؤذن بعهد جديد « حقوق المرأة » ، دعوى هلفشيوس بأن الفوارق بين الجنسين ترجع إلى حد كبير إلى التفاوت فى التعليم وفى الفرص (٦٦) .

وقابل كثير من معاصرى هلفشيوس بين نظريته فى شمولية الأنانية وبين كرم خلقه وحياته الموسومة بالخير والإحسان . وكتبت عنه مارمونتيل : « ليس ثمة رجل أفضل منه ، فهو متحرر كريم جواد دون تظاهر أو تصنع ، محسن من صميم قلبه (٦٧) ووصف جريم الذى نادراً ما كان مسرفاً فى مدحه ، هلفشيوس بأنه « رجل مهذب وديع حقا « منصف متسامح ، ليس سريع الغضب أبداً ، زوج صالح ووالد عطوف ، وصديق وفى وإنسان طيب (٦٨) .وكان يصدق على شخصه ذلك الذى جاء فى مؤلفه « الذكاء » « من أجل أن نحب الناس يجدر أن نتوقع القليل منهم . . . إن كل إنسان ما دامت أهواؤه وانفعالاته لا تغشى عقله سيكون أكثر تسامحاً كلما ازداد استنارة . . . فإذا كان الرجل العظيم هو دائماً أكثر تسامحاً ... وإذا كان يقابل أخطاء الآخرين ببلسم الاشفاق الشافى ويتمهل فى الكشف عن هذه الأخطاء ، فما ذاك إلا لأن سمو عقله لايجيز له أن

يطنب فى رذائل أفراد بعينهم وحماقاتهم ، بل يحوم حول رذائل وحماقات الجنس البشرى بصفة عامة (٦٩) .

إنه فى فورى وفى باريس عاش مع زوجته وأطفاله أنشودة الأخلاص والسعادة . وفى عام ١٧٦٤ تجول فى انجلترا وألمانيا . وقابل هيوم وجيبون وفردريك الأكبر . وفى عام ١٧٧٠ أسهم فى تكاليف التمثال الذى أقامه بيجال لفولتير . وفى ١٧٧١ فارق الحياة على فراشه مع دى هولباخ وغيره من الأصدقاء . ووفاء لذكراه رفضت أرملته كل من طلب يدها للزواج ، بما فيهم بنيامين فرنكلين . وعمرت بعد وفاة زوجها تسعاً وعشرين سنة . ومرت بعهد الثورة فى سلام وأمان وقضت نحبها فى عام ١٨٠٠ ، فى سن الواحدة والثمانين .

٢ — فلاسفة مساعدون

فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر إنضم حشد كبير من الفلاسفة الأقل شأناً إلى الهجوم على المسيحية . وعملوا بكل الجد والحماسة اللتين تميز بهما المسيحيون الأوائل فى نشر الانجيل والدين الجديد ، أو المسيحيون الأسبان فى طرد العرب من بلادهم ، ودبجوا فيضاً من المقالات والرسائل . ولما نضب معينهم عمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين ، من لوكريشيس إلى هوبز وابتدعوا تقويماً جديداً للقديسين والشهداء ، وضموا إلى قائمة القديسين جوليان المرتد وآلهوا بومبوناتزى وبرونو وكامبانللا وفانينى وبيل وغيرهم من ضحايا الاضطهاد وأدانوا بنى إسرائيل لا لأنهم تقاضوا فوائد على القروض بل لأنهم أنجبوا المسيحية . وأنزلوا « يهوه » عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية ، وإلهاً للحرب ، وأول من عمد إلى الإبادة الجماعية . وسخروا من الخطيئة الأولى ومن « الآب » الذى كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل إبنه ويضرب بالسياط ويصلب ليهدئ من غضبه وهو الآب » الذى أثارت امرأة

فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة . ودمغوا الحروب الصليبية بأنها حملة لاغتصاب الأرض واحتكار التجارة ، واحتقروا العصور الوسطى باعتبارها عصوراً مظلمة ، ونظروا بازدراء إلى الكاتدرائية القوطية على أنها وحشية بشعة . ولحظ عليــه دالمبر « قدرا من التسامى بالأفكار وقلقاً واهتياجاً وفورانا عــــاماً فى الأذهان اكتسح منه بشىء من العنف كل ما وقف فى طريقه »[٧٠].

وكان هناك جاك أندريه نجيون Noigeon الذى وصفه سانت بيف بأنه « شماس » متعصب للالحاد[٧١] أنه عاش وعمل مع دى هولباخ مترجماً وقوراً، ونشراً معاً على مدى عشر سنين ثلاثين كتاباً صغيراً أو كبيراً أصلا أو مستورداً، وكلها ضد المسيحية . وقال عنها ديدرو « إنها قنابل تتساقط كالمطر فى بيت الرب[٧٢] . كما كان هناك نيقولا بولانجيه ، وهو أيضاً أحد أصدقاء دى هولباخ . واشترك فى هذه الحملة على المسيحية حتى وفاته (١٧٥٩) وخلف وراءه مخطوطة عنوانها « إماطة اللثام عن عهد قديم » احتفظ بها دى هولباخ حتى عام ١٧٦٥ حين أصبح شوازيل على رأس الوزارة وكان صديقا لجماعة الفلاسفة . وعندئذ دفع بها إلى المطبعة مع مقـــدمة مثيرة بقلم ديدرو . يقول بولانجيه : « أن الديانة نشأت من خلال مخاوف الإنسان البدائى من الفيضانات وغيرها من الكوارث الواضح أنها خارقة للطبيعة ونظمها (أى الديانة) ، أقامها قسيسون وملوك فى مؤامرة لتبرير الطغيان فى سبيل فرض جائر لعقيدة تقليدية ، ولن يجد الجنس البشرى مطلقا مهربا من هذه المؤامرة الشريرة إلا باتباع نور العقل تحديا للقساوسة والملوك [٧٣].

وأهم من هذا كان أندريه موريليه . وهو نتاج آخر لليسوعيين وراهب آخر تدرج فى مراتب المتمردين . ولد فى ١٧٢٧ وعاش طويلا حتى وصفته مدام نكر بأنه « دب » وعلى الرغم من ذلك أوتى من الصراحة والاخلاص والأستقامة بالأضافة إلى ألف من الصفات الحسنة وقدر كاف من الدين

ما يجعله يرتاب فى وجود إله . ويصرح أحيانا بذلك إلى أصدقائه اعتماداً منه على حكمتهم فى أنهم لن يفضحوا سذاجته وسرعة تصديقه[٧٤] . وكتب تحت إشراف ديدرو بعض المقالات لدائرة المعارف . وعلى مائدة العشاء لدى هولباخ كانت سخريته لاذعة حتى أن فولتير أسماه « الأب الموقر السيد عضهم إنهشهم » ولكن قال عنه ما رمونتيل « أنه كان لديه أفكار عميقة ... وكان قويم الخلق كما كان ثابت الجنان »[٧٥]. وفى ١٧٦٢ نشر « كتيبا عن أعضاء محاكم التفتيش » عبارة عن مختارات من « إدارة محاكم التفتيش » لنقولا أميريكو الذى قد عمل فى حماسة وغيرة محققاً وعضوا هاماً فى محاكم التفتيش من ١٣٥٦ إلى ١٣٩٩ . وكان الفرنسيون قد نسوا تقريباً محاكم التفتيش الأسبانية ولكن موريليه أعادها إلى ذاكرتهم بمجرد إقتباس اجراءات هذا النظام وعقوباته فى أوج عظمته . ومنح مالشرب موريليه ترخيصا حكوميا بطبع الكتاب قائلا أن قانون العقوبات الفرنسى كان لايزال من الوجهة العملية مطابقا لقانون محاكم التفتيش[٧٦] . وكاد موريليه إلا يصدق هذا ، ولكن فى السنة التى رأى فيها الكتاب طريقه إلى المطبعة وجد برلمان تولوز يقضى على جان كالا Calas فى آلة التعذيب .

وذكر جريم الرزين الرصين عادة عن راهب آخر هوجوبوم رينال Raynal فى صحيفته « كورسبندانس » عن ١٧٧٢ « منذ صدور كتاب مونتسكيو روح القوانين ربما لم يظهر فى أدبنا كتاب أجدر بالأنتقال إلى أبعد الأعقاب والأجيال القادمة أو الرفع من شأن تقدم الاستنارة لدينا من كتاب رينال « التاريخ الفلسفى والسياسى للمستعمرات والتجارة الأوربية فى جزر الهند الشرقية والغربية[٧٧] » وربما كان جريم يتخذ بصفة خاصة موقفا وديا من المؤلف لأن رينال هو الذى أفتتح فى ١٧٥٣ وأوصى فى ١٧٥٥ بصحيفة الكورسبدانس الأدبية لجريم ، وعليها عاش جريم . وأكثر من هذا فإن ديدرو صديق جريم كان قد عاون فى إعداد كتاب رينال الخالد الذى لا يفتح ولا يقرأ فى أيامنا هـذه أو يبدو أن رأى جريم أكده ما زال

الكتاب سالف الذكر « التاريخ الفلسفي والسياسي » على الفور من شعبية فبيعت منه أربعون طبعة قبل ١٧٨٩ عدا طبعات لا تحصى مسروقة أو مترجمة وحظى الكتاب بتقدير فوانكلين وجيبون وروبرتسون . وأوحى هذا الكتاب إلى توسان لوفرتير Toussain L, Boaverturn بجملته المخلصة لتحرير العبيد (١٧٩١) ، وذهب ناقد واسع الإطلاع إلى أنه كان لهذا الكتاب تأثير على الثورة الفرنسية أعظم حتى من تأثير كتاب روسو « العقد الاجتماعي[٧٨] » .

دخل رينال باريس قسيسا فقيراً . وتكشف أسطورة عن طبيعة المرح والأبتهاج عند المتمردين ، فتنسب نجاته من الموت جوعاً إلى أن الراهب بريفوست كان قد تلقى عشرين سو (عملة فرنسية قديمة قيمتها خمسة سنتيمات) ليقيم قداسا على روح أحد الموتى ، وأن بريفرست أعطى الراهب دى لا بورت ١٥ سو ليقيم القداس بدلا منه ، وأن هذا الراهب الأخير نفح رينال ثمانية فقط ليقيم القداس بدلا منه[٧٩] . وابتهج رينال بالأكل على موائد هلفشيوس ودى هو لباخ ، وأثبت أنه جليس أنيس . ويبدو أنه حظى بمعونة كثير من المؤلفين فضلا عن ديدرو فى جمع مادة كتابه . بل حتى فى تأليف بعض فصوله . أن روسو الذى تشاجر وتنازع مع كل الناس بلا أستثناء وجد رينال مسالما غير مشاكس ، وقدم له الشكر فى « إعترافاته » على وفائه بحق الصداقة وتقديره للمساعدة المالية[٨٠] .

ولأبد أن رينال قد جمع مالا بطريقة ما ، حيث قيل إنه رشا الرقيب للحصول على ترخيص بأصدار كتابه[٨١] . أنه قضى عشرين عاماً يعمل جاهداً فى إعداده ، وفصل القول تفصيلا فى جشع الأوربيين وخيانتهم وعنفهم فى معاملة السكان الأصليين فى جزر الهند الشرقية . واستنكر هـذا كله وحذر الرجل الأبيض من الأنتقام الرهيب الذى قد تعمد إليه الأجناس الملونة إذا عادت إليها السلطة[٨٢] . وكان الكتاب أول أتهام فرنسى للاستغلال الأستعمارى ، كما كان من أوائل الكتب التى أكدت على أهمية التجارة فى تحديد التاريخ الحديث ، وأسهم بطريقة عابرة فى إضفاء المثالية على المواطنين

الهنود وإعجاب المتحررين الأوربيين بحضارة الصين . وزخرت المجلدات المسهبة بالموضوعات والأفكار الرئيسية فى عصر الاستنارة : مقت الخرافة وحرفة الكهانة وبغض تسلط الدولة والكنيسة على الحياة والفكر . وأيد رينال فكرة أن الكثلكة كانت خداعا أو دجلا جمع فيه الحكام والكهنة قواهم ليدعم كل فريق منهم الأخر عن طريق الأساطير والخرافات والمعجزات والدعاية والظلم والمذابح . وأهاب بحكام أوربا أن يحلوا انفسهم من أى أرتباط بالكنيسة ، ويسمحوا بحرية الكلام والنشر ، ويمهدوا الطريق للحكومة الديمقراطية . ولم تنج البروتستانتية منه ، حيث قال أنها كذلك ارتكبت جريمة التعصب . ووصف تعصب البيوريتانيين فى إنجلترا الجديدة واضطهاد السحرة فى سالم Salem (مدينة فى ماساتشوست) .

وعلى الرغم من الوقت الطويل الذى قضاه رينال فى إعداد كتابه ، فأنه قضى عليه بالأهمال فى زوايا النسيان نتيجة لما ورد فيه من أخطاء . إنه لم يتحر الحقائق فأعتبر الأساطير تاريخا ، وأهمل تواريخ الأحداث ، ولم يورد أسماء المراجع الموثوقة ، وشوش المادة وأفسدها ، واستخدم ديدرو (أو سمح لديدرو أن يشغل نفسه فى كتابة الخطب المسرفة والنداءات العاطفية مما لايكاد يليق بمؤلف فى التاريخ ولكن هذه لم تكن عصور تجرد أو نزاهة ، فالكتاب كان سلاحا ، ولا يجوز أضعاف قوته بعرض الجوانب المتعارضة فإن الحرب كانت حربا وصراعا . وهكذا قدرت الحكومة الفرنسية فأصدر برلمان باريس أمرا بأحراق الكتاب ، كما صدر الأمر إلى رينال بمغادرة فرنسا ، فهوب إلى الأراضى الوطيئة ، ولكنه رأى ضمانا للأمن والسلامة أن يعود فى عام ١٧٨٤ فى عهد أكثر ملوك البوربون إعتدالا .

وكان رينال من الفلاسفة للقلائل الذين شهدوا الثورة الفرنسية وعمروا بعدها ، ورأى عنف الثورة واستخدامها لكل وسائل التعصب وعدم التسامح القديمة . وفى ٣١ مايو ١٧٩١ وهو فى سن الثامنة والسبعين وجه إلى الجمعية التأسيسية رسالة يحذرها من التطرف ، فكتب يقول « لقد تجرأت لأمد طويل

على تنبيه الملوك إلى واجباتهم ، فاسمحوا لى اليوم أن أنبه الشعب إلى أخطائه »
فأشار إلى أن طغيان الأهالى قد يكون قاسيا وجائرا قدر طغيان الملوك
وجورهم . ودافع عن حق رجال الدين فى التبشير بعقيدتهم ، مادام
معارضوهم يتركون أحراراً فى التعبير عن آرائهم . واحتج على القوانين
التى تفرض دين دولة ما وعلى إعتداء الجماهير على القساوسة . وأغرى
روبسبير الجمعية بالسماح للرجل العجوز بتفادى المقصلة ، ولكن الحكومة
صادرت ممتلكات رينال ومات فقيراً معدما (١٧٩٦) وسط إنتصارات
الثورة واوهامها .

٣ — دى هولباخ

١ — الملحد اللطيف :

كان أحب جماعة الفلاسفة إلى باريس ألمانى ولد (١٧٣٣) فى اديشيم
فى أمارة سبير Speyer الأسقفية (فى بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ
ديتريش فون هولباخ ، ونشأ كاثوليكيا . وجمع جده ثروة من إدخال عرق
الذهب من هولند إلى فرساى . وفى ليدن درس بول العلوم وتعلم اللغة
الانجليزية . وبعد صلح أكس لأشابل (١٧٤٨) إستقر به المقام فى باريس
وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال ، وحصل على
النبالة بأستثماره ١١٠,٠٠٠ جنيه بفائدة ٥ ٪ فى شركة سكرتيرى الملك .
« وسماه المحيطون به » البارون « لأنه كان يمتلك فى وستفاليا ضيعة تدر عليه
ستين ألف جنيه سنوياً . وبلغت جملة دخله السنوى مائتى ألف جنيه .
ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالا أشرف ولا أنفع منه للعلم
والفن[٨٣] وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور
ما سيناس بالنسبة لهم ، وهو راعى هوراس وفرجيل فى القرن الأول ق .م)
وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعى .

وأصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء « مقهى أوربا » وجعلت منه

ولائم العشاء عنده وصالونه فى باريس أو فى داره الريفية « جراند فال » على حد تعبير هوراس وولبول « قهرمان الفلسفه » وأعدت مدام دى هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لاثنى عشر ضيفا . ولم يكونوا هم أنفسهم دائما فى كل مرة ، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية: ديدرو ، هلفشيوس ، دالمبير ، رينال ، بولانجيه ، موريليه ، سانت لأمبرت ، ما رمونتيل ، وأحيانا بيفون ، ترجو ، وكنى ، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاع للالحاد الذى يتدفق من حوله ، وهناك كان ديدرو فى ذروة الحماسة والعنف ، أما الراهب جالبانى فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية . وكان عقد هذا الكنيس — كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات — يلتئم فى الساعة الثانية يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة . وتلك كانت الأيام التى كانت فيها المناقشه إدبا غير مسطور وليس ثمــة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور . ولم يكن هناك موضوعات محظور الخوض فيها ، أو كما قال موريليه « هذا هو المكان الذى تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتثقيفا بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة ، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك . . . وهناك فوق كل شىء أثار ديدرو عقولنا وألهب نفوسنا[٨٤] وذكر ديدرو نفسه للآنسة فوللان أنهم تحدثوا فى الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود ، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والملوك والفضاء والزمن وعن الموت والحياة[٨٥] . وقال ما رمونتيل « ظننت أحيانا أنى أستمع إلى تلاميذ فيثاغورس وأفلاطون[٨٦] . أو « إذا كان الطقس جميلا أستبدلنا بولائم العشاء أحيانا نزهات فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين ، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة ، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك ، وعادة إلى سان كلو ، وكنا نقصد مبكرين فى أحد القوارب لنستنشق نسيم النهر ونعود فى المساء عن طريق غابة بولونيا[٨٧].

وبلغ صالون دى هولباخ من الشهرة حدا استخدم معه بعض زوار

باريس من الأجانب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضروا هذه اللقاءات . ومن ثم جاء فى أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول وفرانكلين وبريستلى وآدم سميث وبكاريا . وقد أزعجهم فى بعض الأحيان وجود هذا العديد من الملحدين هناك . وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول (لروميللى) أنه حين كان هيوم يشك فى الوجود الفعلى للملحدين كان البارون يؤكد له « أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر[٨٨] . » وروى جيبون أن فلاسفة باريس « سخروا من تشكك هيوم الموسوم بالحذر ، وبشروا بتعاليم ومعتقدات الملحدين مع نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين (الدوجماتية أى الجزمية : توكيد الرأى بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين وصبوا اللعنات على المؤمنين فى تسخيف وازدراء .[٨٩] » كذلك روى بريستلى أن « كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم فى باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية بل صرحوا بأنهم ملحدون[٩٠] ومهما يكن من أمر فان موريليه لحظ « أن عدداً كبيراً منا كانوا ملحدين ولم يخجلوا من ذلك . ودافعنا بشدة عن انفسنا ضد الملحدين ، على الرغم من إننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبتهم .[٩١] » ورأى ووليبول أن « وكر الفلاسفة » لدى دى هولباخ يؤذى ذوقه الانجليزى . وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة انجلترا ومستعمراتها أكثر مما يعرف هو إلى حد أنه إدعى الصمم . أما بيان هيوم فكان فيه مجاملة بالغة . أن رجال الأدب هنا (فى باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم ، وكلهم رجال ذووشهرة واسعة يعيشون فى انسجام تام (أويكاد يكون تاما) بينهم جميعا ، ولا تشوب اخلاقهم شائبة ، وقد يكون مبعث أعظم الرضا عندك إلا يكون بينهم ربوبى واحد .[٩٢] والارجح أن هذا التصريح يدعو إلى الحيرة والأرتباك .

ولكن اتفق رأى الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيفين مثاليين وشخصيتين محببتين إلى النفوس . وعلى حد تعبير جريم : عاشت مدام دى هولباخ لزوجها فقط . فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم آوت إلى ركن منعزل وانصرفت إلى شغلى الأبرة ، دون أن تشترك فى مناقشاتهم ،[٩٣] وماتت فى عام ١٧٥٤ فى ريعان شبابها وظل دى هولباخ لبعض الوقت يعانى يأسا تاما [٩٤] وبعد عامين تزوج من اختها التى اثبتت أنها مخلصة قدر اخلاص اختها . وكان متواضعاً فى سلوكه وعاداته وديعا فى مناقشته ، لا تعلم شماله ما فعلت يمينـــه من بر وإحسان،[٩٥] حتى لم يكد أحد يرتاب فى أنه كتب مثل هذا الدفاع القوى عن الالحاد فى كتابه « نهج الطبيعة » فكتبت مدام جيوفرين منافسته فى عقد الندوات وإقامة المآدب فى صالونها : « لم أر قط رجلا فى غاية البساطة مثله ، [٩٦] أما روســـو الذى درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريباً فإنه احتفظ باعجابه بشخصية دى هولباخ وخلقه إلى حد أنه اتخذه نموذجا لفولمار الفاضل الذى يعتنق مذهب اللاأدرية فى رواية « هلواز الجديدة » . وكتب جريم الذى حلل كل إنسان فيما عدا روسو فى موضوعية رصينة :

« كان طبيعيا أن يؤمن البارون دى هولباخ بأمبراطورية العقل ، فقد كان هواه ، (ونحن دائما نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادىء القويمة فى المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضمر الكراهية لاى من الناس ، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفى مقته الصريح لرجال الدين ... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضى بطبيعته »[٩٧] .

ومن هنا ساند دى هولباخ « دائرة المعارف » أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته . وطمأن ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمبر وفولتير عن المشروع ، وكانت مقالاته فى معظمها عن العلوم الطبيعية ، فأنه من الجائز أن البارون كان فى هـــذا الحقل أوسع الفلاسفة أطلاعا . وكتب جريم فى ١٧٨٩ . « لم التق قط برجل أكثر منه علما وأطلاعا ، ولم أرقط رجل أقل منه أهتماما بالتظاهر بالعلم فى أعين الناس » .[٩٨] وترجم عن الإلمانية كثيراً من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون ، ومن أجل هذا عين عضواً فى أكاديمتى برلين وبطرسبرج ، ولم يحاول قط أن يلتحق بالأكاديمية الفرنسية .

وأفتتن دى هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضا سريعاً بحياة الإنسان، ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداء إلى الكنيسة التى بدا أن سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية ، فانتهز كل فرصة لمهاجمة رجال الدين فكتب مقالتى « آباء الكنيسة » و « الحكومة الدينية » لدائرة المعارف . فمنذ ١٧٦٦ فصاعدا نظم مع نيجبون مصنعا حقيقيا لاخراج الأدب المعادى للكنيسة . ثم ظهر فى تعاقب سريع « قائمة القديسين » ، « والوقفة المقدسة » و« آباء الكنيسة بغير قناع » و « القساوة الدينية وتحطيم الجحيم » وهنا جاء البشير بأنباء سارة — القضاء على الجحيم .

وفى ١٧٦١ صدر عن هذا الذى أطلق عليه بعضهم معمل الألحاد كتاب عنوانه « المسيحية فى خطر » كتبه أساساً دى هولباخ ، ولكنه نسب فى صحيفة العنوان إلى بولانجيه الراحل . وبسبب بيع هذا الكتاب أتهم ووصم بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف فى السفن الشراعية لمدة خمس سنين . ولقى مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام إشترى هذا الكتاب ليبيعه ثانية .[٩٩] وكان الكتاب هجوما مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة كما أنه إستبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها « أفيون الشعوب » .

« إن الديانة هى فن تخدير الناس بالحماسة (وفى القرن الثامن عشر كانت هذه اللفظة تعنى الغيرة الدينية) لتحول بينهم وبين مناهضة المساوىء والمظالم التى يعانونها من حكامهم . ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس . وهى ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة . . . وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضا على الناس أن يعانوا ويحتملوا فى صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية ، وفرض عليهم أن يأملوا فى السعادة فى الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين فى هذه الحياة الدنيا»[١٠٠] .

ورأى دى هولباخ فى إتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر الأساسى فى فرنسا . « إنى بوصفى مواطنا أهاجم الديانة لأنها تبدولى ضارة

بسعادة الدولة معادية للعقل البشرى ومناقضة للفضيلة الحقـة أو الخلق القويم »(١٠١) .

« إن المسيحى يلقن ، بدلا من الفضيلة والأخلاق القويمة ، الخرافات الخارقة القائمة على المعجزات والمبادىء والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافى تماما مع العقل السليم . إن هذا المسيحى منذ أول لحظة فى دراسته يتعلم إلا يثق فيما تشهد به حواسه وإن يخضع عقله . . . . . ويعتمد إعتمادا أعمى على ما يقرره أستاذه . إن أولئك الذين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لأحول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التى رضعوها مع ألبان إمهاتهم »(١٠٢) .

ودفع دى هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة ، لأن هـذه المعتقدات عرضة للتغيير وقد يدمر إنهيارها القانون الأخلاقى القائم على أساسها أو المتفق معها .

« إن كل من يكتشف ضعف أوزيف البينات التى قامت عليها ديانته ... لأبد يميل إلى الأعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذى قامت عليه . وهذا يوضح كيف أن لفظتى « كافر وخليع » أصبحتا مترادفتين ، ولن يكون ثمـة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلا من أخلاق لا هوتية ، وبدلا من تحريم الزنى والجرائم والرذائل لأن الله والدين حرماها ، يجد ربنا القول بأن كل إفراط يؤذى الإنسان ويحول دون صيانته والأبناء عليه ويجعله جديرا بالأزدراء فى أعين المجتمع . . . وهـو كذلك إفراط تحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التى تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة(١٠٣) .

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلا نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يحث على تأليفها . وفى ١٧٦٧ أخرج « اللاهوت السهل الحمل Theologie portative سخر فيه سخرية بالغة من المبادىء السخيفة ، وأجمل كل اللاهوت فى رغبة الكنيسة فى التسلط والسيطرة . وفى ١٧٦٨ نشر « العدوى المقدسة أو التاريخ

الطبيعى للخرافة » متظاهرا بترجمته عن « جان ترنشارد الانجليزى » . وفى نفس العام أصدر « رسائل إلى أوجينى » أو الصيانة ضد الآراء المسبقة (دون تمحيض) والمزعوم أنه بقلم فيلسوف ابيقورى فى سكو Sceaux . وفى ١٧٦٩ صدر « بحث فى الآراء المسبقة » من تأليف مسيو دى مارسى Marsais يوضح أن العلاج الوحيد لمساوىء الدين هو نشر التعليم والفلسفة . وفى ١٧٧٠ نشر البارون النشيط تحفته الرائعة ، وهو أقوى كتاب قد صدر فى الحملة ضد المسيحية .

٢ — منهج الطبيعة :

كان المزعوم أن كتاب منهج الطبيعة أو قانون العالم المادى والعالم المعنوى طبع فى لندن . ولكنه طبع فى الواقع فى أمستردام فى مجلدين كبيرين يحمل أسم مسيوميرابو Mirabaud وكأنه المؤلف . وهـذا الرجل الذى كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وجاء فى المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطيب المثالى ميرابود ألف مثل هذا الكتاب المخزى .

وفى ١٧٧٠ بعد أن قررت جمعية رجال الدين التى تجتمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية ، والتى إنتشرت كثيراً فى فرنسا . فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الأجراءات فورا . وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتابا دى هولباخ « فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة » ، باعتبارها بعيدة عن التقوى ، مليئة بالتخريف ، محرضة على الفتنة ، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن الالوهية ، وإلى اثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته ، والقضاء على كل مبادىء الأمن العام والأخلاق ، وصرف الناس عن واجب الطاعة والأذعان لمليكهم . وكان ينبغى أحراق الكتب وأعتقال موافيها وعقابهم عقاباً صارما . ويقول موريليه أن كثيراً

من الناس عرفوا أن دى هولباخ هو المؤلف وأنهم كتموا السر لمدة عشرين عاما . وظلت الندوة تعقد الاجتماعات . ودعت مدام دى هولباخ إلى بعضها كانون برجييه الذى كان لتوه قد تلقى معاشا من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة التى كتبها دفاعا عن الكنيسة الكاثوليكية . وارتاب كثير من الناس فى أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه فى جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب مما يستبعد أن يكون بقلم ديدرو ، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألقة البليغه للطبيعة فى آخر الكتاب . وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمائنينه فى باريس ورأى من الحكمة أن يزور لا نجرز .

ووصل كتاب « منهج الطبيعة » مهربا من هولنده ، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهال والسيدات(١٠٤) . وسر به ديدرو فقال « إن ما أحب هو فلسفة وأضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة فى كتاب منهج الطبيعة ، والمؤلف ليس ملحداً فى أى من الصفحات ، وهو ربوبى فى بعضها . وفلسفته تجرى على نسق وأحد ».(١٠٥) وهذا يختلف عن ديدرو كل الأختلاف . أن ما أحبه فى الحقيقة هو أن دى هولباخ كان ملحداً فى كل صفحات الكتاب . ومع ذلك فإن الكتاب كان مشربا بروح تقارب التفانى الشديد أو الأخلاص الدينى فى سعادة المبشر . أن دى هولباخ رأى عالما يسوده البؤس والشقاء . حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس سيكونون أسعد حالا لو أنهم ولوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلاسفه . وإن العبارات الأولى فى الكتاب لتنبىء عن روحه وفكرته الرئيسية :

« إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة . إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التى تلقنها فى طفولته . . . وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ضللا عقله وأفسد اذهنه . . يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ . . . أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم ،

ثقة منه بهم ، وهم أنفسهم مخطئون ، أو أن لهم مصلحة فى تضليله وخداعه . ولازالة هذه الغشاوة وأخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب يداً حانية وحباً شديداً . . . كما يقتضى أعظم الشجاعه التى لا يعتريها خوف ولا وجل وتصميا أكيداً لا يكل ولا يمل . . . . ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التى نقضى بها على الأوهام التى تضللنا وتخدعنا . وينبغى أن نفتش عن العلاج لهـــذه المساوىء فى الطبيعة نفسها . فنى وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع فى تعقل وجود الترياق الشافى من كل الشرور التى جلبتها علينا حماستنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه . لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوىء فى شجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر فى مقوماتها . أن العقل بخبرته الهادية المخلصة ينبغى أن يقتلع من الجذور هذه الأهواء التى كان الجنس البشرى هـــو الفريسة الوحيدة لها لأمد طويل . ولنحاول أن نغرس فى الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب لا يفتر للحقيقة ، بهدف أن يلتمس المشورة والرأى من خبرته ، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيها مضللا . ويتعلم أن يبنى أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع . ويتجرأ على أن يحب ذاته ، ويصبح كائنا فاضلا عقلانيا . وفى هذه الحالة لأبد أن يكون سعيداً[١٠٦] .

وبعد أن أنتهى دى هولباخ من بيان برنامجه على هذا النحو تقدم فى ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والأعتبارات والأفكار الخارقه للطبيعة . ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وأمكانات ، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة ، ويبنى على هذا الأساس المادى منهجاً للفضيلة والأخلاق يامل أن يكون فى مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين ، ويشكل الخلق الفردى والنظام الاجتماعى ويضفى سعادة معقوله على حياة مقرر لها الموت المحتوم .

إنه يبدأ ويختم بالطبيعة ، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها .

إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذى ينتج من اجتماع المادة فى مجموعاتها المختلفة . وهذا هـو الأسم المحبب لدى دى هولباخ للكون ، فهو يعرف المادة فى حرص وحذر بأنها بصفة عامة ، كل ما يؤثر على حواسنا بأى شكل كان «كل شيء فى الكون فى حركة دائبة . وجوهر المادة هو أن تعمل ، وإذا تأملناها فى يقظه تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمـة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق ، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو اللحظة واحدة على نفس الحالة ، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار . . . إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء[١٠٧]» .

إن هذا الكل لايقدم لمجال تأملنا وتفكيرنا « الا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج »[١٠٨] . وكلما إزدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها . وقد يكون من العسير أن ندرك كيف « أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة » ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفى خارج عن الكون المادى . ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل « الجاذبيه والمغناطيسية والمرونه والكهربية ، ليست ، أقل صعوبة فى إدراكها وفهمها من الشعور أو الأحساس »[١٠٩] .

والإنسان كذلك « كائن مادى صرف خاضع لنفس القوانين التى تحكم سائر العالم . وكيف يتسنى لجسم مادى وذهن غير مادى أن يتفاعل كل منهما مع الآخر ؟ أن « الروح » هى مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل . أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعانى بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التى تهشم إلى ألف قطعة تستمر فى دقاتها ساعة بعد ساعة ! . . . وتبين مرور الوقت[١١٠] . إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأمراض

العقلية . وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فاننا بذلك نمكن علم الطب من شفاء كثير من الأضطرابات العقلية بالقضاء علـى أسبابها الجثمانية[١١١](*) .

ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فأنه أى الذهن خاضع للقاعدة الكونية ، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية . والفصل الحادى عشر من كتاب « منهج الطبيعة » أفصح وأبلغ دفاع عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) فى مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها .

« إن حياة الإنسان خط قضت عليه الطبيعة برسمه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدره على الأنحراف عنه قيد أنملة . أنه ولد دون رضاه . أن كيانه أو تنظيمة لايتوقف البتة على نفسة . إن الأفكار التى تخالجه تأتى قسراً لا طوعا ، وعاداته واقفه تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلى عنها . ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعلل مرئية أوخفية ليس له سلطان عليها ولاتحكم فيها . وهى بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصبغ تفكيره بصبغة معينة ، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله ، فهو طيب أو ردىء ، سعيد أو تعس ، عاقل أو أحمق ، متعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل فى أى من هذه الحالات المختلفة[١١٣] .

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوى على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضى دى هولباخ هذا التضمين . . . إن حالة الكون فى أية لحظة تحددها حالته فى اللحظة السابقة ، وهذه حددتها سابقتها ، وهكذا دواليك فى الماضى ،

(*) يقول جون مورلى « إنها لحقيقة تاريخية أكيدة أن العلاج العقلانى للمجانين والنظريه العقلانية لنوع معين من الاجرام ترجعان إلى رجال مثل بينل Pinel الذى درج على تعاليم مدرسة المذهب المادى فى القرن الثامن عشر . وكان من المتعذر بشكل واضح أن تتم الأصلاحات العظيمة الانسانية فى هذا المجال قبل إضمحلال اللاهوت بشكل حاسم[١١٢] .

ومن ثم فإن أية لحظة فى تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة فى المستقبل . أنى شئت أن الأخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقرية أو القديس بأى مفهوم أو بكل التضرع والصلوات — لغاز بدائى ، لا يفت فى عضد دى هولباخ فأنه يتقبل مصيره فى كبرياء ابيقورية :

« إن الإنسان من عمل الطبيعة ، وهــو يوجد فى الطبيعة ، خاضع لقوانينها ، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين ، ولا يمكنه أن يخطوفيها وراءها خطوة واحدة حتى فى فكره . ولذلك فأنه بدلا من البحث خارج العالم . . . عن كائنات توفر له السعاده التى تنكرها عليه الطبيعة يجمل به أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل فى قواها ويراعى القواعد الثابته التى تعمل بمقتضاها . فليطبق الإنسان كل ما يصل إليه على هناءته هو ويخضع فى صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التى ليس فى مقدور أحد تبديلها أو تغيرها ، ويرتضى مبتهجا أن يتجاهل الأسباب والعلل التى يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن أختراقه ، ويستسلم دون تذمر لقوانين الضرورة الكونية التى يستحيل عليه ادراكها إطلاقا . ولاتحرره أبدا من تلك القوانين التى فرضت عليه بحكم ما هيته أو جوهره[١١٤] .

وهل تبرر لنا هذه « الجبرية (أى الايمان بالقضاء والقدر) أن نخلص إلى أنه لافائدة ترجى من وراء محاولتنا تفادى الشرور أو السيئات والأعمال المخزية أو المرض ، وأن نكف عن بذل أية جهود ، أو عن الطموح أو التطلع ، وأن ندع الأمور تجرى فى أعنتها ؟ ويجيب دى هولباخ بأنه حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا ، فان الوراثة والبيئة هما االتان قررتا بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة ، أو أن نستجيب فى جد ونشاط لمتطلبات الحياة وتحدياتها ، ويسبق دى هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه الجبرية — وهى تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغتفرها — قد تزيد منها . أن الجبرية لاتوحى بعدم معاقبة الجريمة بل إنها على النقيض من ذلك ستؤدى بالشرع والمعلم والرأى العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق

أفضل فى سبيل إرتكاب الجرائم ، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعى القويم ، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستنضم إلى العوامل البيئية التى تشكل سلوك الإنسان . ولكن الجبرية لاتسوغ لنا إعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعى اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والبيئة والظروف . ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض ، وأن نتخلى عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع . وتعود الناس على العنف والقسوة . أكثر مما تصرفهم عن إرتكاب الجرائم .

وليس فى هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للاله . إن مقت دى هولباخ الشديد لمذهب التوحيد (الايمان بالله الواحد) وحده . بل لمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه « العدو الشخصى لله سبحانه وتعالى[١١٥] . وإذا عدنا إلى الوراء إلى البداية فإننا نجد دائما إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أوالحماسة أو الخداع أوشوهوهم وعبدهم الضعف ، وأبقت عليهم السذاجة أحياء ، وأجلهم واحترمهم العرف والعادة . وناصرهم الطغيان . . . . ليخدم أغراضه[١١٦] ويثير ضدهم كل الحجج القديمة . ويتحمس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله[١١٧] ولا يوحى إليه النظام والتناسق الرائعان للكون بأى « عقل أسمى » فان هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إلى أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية . ولا يتطلب الأمر أن نعزوها إلى أى إله يمكن أن يكون هو أدق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم . والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذى توفره لنا مدركاتنا الحسية . ولكن الإنسان ليس « مقياس كل شيء » وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون . إن الطبيعة تسير قدما دون إعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة فى الفضاء حسنا أو سيئا ، قبيحا أو جميلا . ومن وجهة نظر الكل

« ليس هناك مايمكن أن يكون سيئا حقا ، فان الحشرة تأوى إلى ملجأ آمن فى أطلال القصر الذى يسحق الناس عند سقوطه »[١١٨] وينبغى أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة فى سموها وكوارثها محـايـدة بقدر سواء حياداً يتسم برباط الجأش :

« إن كل ماقيل فى سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أن كل شيء قريب متناسب مع الطبيعة . حيث لاتعمل فيها كل الكائنات إلا أن تتبع القوانين التى فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته . إن الطبيعة توزع بنفس اليد مايسمى نظاما ومايسمى اختلالا ، وما يسمى لذة وما يسمى ألما ، وقصارى القول أنها بمقتضى ضرورة وجودها تنشر الخير والشر . . ولذلك يجدر بالإنسان ألا يمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقده ، أو يتصور أن صخبه وضجيجه أو تضرعاته وابتهالاته يمكن أن تغنى عنه من شيء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهى تعمل دوما وفق قوانين ثابتة . . . فاذا عانى الإنسان شيئا فلا يجوز له أن يلتمس علاجا فى الأوهام التى يصدرها له خياله المستقيم ، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التى تقدمها للشرور والمساوىء التى تبتليه بها ، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التى أنتجتها الطبيعة نفسها[١١٩] .

ويقترب هولباخ من تقديم الإلة ثانية فى شكل « الطبيعة » ، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليهها ، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها ، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للانسان ، ويجيز لديدرو (؟) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخم « أيتها الطبيعة ، ياسيدة كل الكائنات ! ! إن بناتك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة — الفضيلة والعقل والحقيقة — يبقين إلى لأبد معبوداتنا الوحيدات . إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشرى وينصب عليك ثناؤه . وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله ، وهكذا . ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وأن

الكون المادى والانسان ليسا إلا مظاهر الذات الإلهية) . هذه التقوى لاتكاد تتسق مع نظرة دى هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تحيز ، « إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض والموت كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس فى كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة(١٢٠) وهذا يذكرنا بإله كلفن الضنين بالجنة المسرف فى عذاب النار » .

إن دى هولباخ فى حالته النفسية المميزة ينكر لامجرد فكرة الله ، بل نفس لفظته إن لفظى الإله ويخلق ... ينبغى أن تختفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة . إن هاتين لفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل . إنهما متعبدتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة ، الحاملين والجبناء إلى الحد الذى لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها (١٢١) . وأنه ليرفض الربوبية التى تنسجم مع الخرافة(١٢٢) وتصنع من الالحاد ديناً حقيقياً .

« إن صديق الجنس البشرى لايمكن أن يكون صديقاً للإله الذى كان فى كل الأوقات سوطاً مصلتا على الأرض . إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المضللة التى تجعل الدنيا مقراً الخداع . إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل . إنه يعلم أن سعاده الجنس البشرى تقتضى بشكل لارجعة فيه ، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه . لكى يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائما للسلام — هيكلا مقدسا للفضيلة . . . فاذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة فى الكائنات التى اعتادت أن ترتعد فرائصها جبنا . فان له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة . وعلى الرغم من ذلك فانة يحكم على جهوده بأنها عقيمة إذا إستطاع أن يجعل إنسانا واحداً سعيداً أو يهدىء من إضطرابات ذهن مستقيم واحد ، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج . . . ومن أنه وطىء تحت قدميه الأوهام التى تقض مضاجع المنكودى الحظ وتعذبهم . وإذ نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع

أن يتأمل فى هدوء من قمة صخرته فى تلك الأعاصير المروعة التى أثارتها الخرافة . ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها[١٢٣].

٣ — الأخلاق والدولة :

ولكن هل ينسجم الالحاد مع الأخلاق الشعبية العامة ؟ وهل يمكن ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقى مجرد من الإخلاص للدين ومن تأييده ؟ أن دى هولباخ واجه هذه المشكلة فى كتابه « منهج الطبيعة » ثم عاد إليها فى ١٧٧٦ فى كتاب ذى ثلاثة مجلدات « الأخلاق العـــامة » وأنه يرتاب بادىء ذى بدء فى أن الديانة سعت إلى الفضيلة والأخلاق القويمة .

« على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى فى مجرد وصفها . فأى حشد من المجرمين المتهتكين يملأ مدننا . . . وهل اللصوص أو القتلة المعاقبون ملحدون أو متشككون ؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله . وهل يتحدث أكثر الآباء تمسكا بالدين وهو ينصح إبنه عن إله محب للانتقام ؟ إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياع ثروته فى الميسر ، وازدراء المجتمع له — هى الدوافع التى دعت الولد إلى النصح[١٢٤].

وحتى مع إفتراض أن الدين فى بعض الأحيان يساعد الأخلاق ، فهل يتوازن هذا مع الضرر الذى يلحقه الدين بالانسان ؟

فى مقابل إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماحه هناك آلاف من الناس لاتؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقا . وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه الفكرة غير عقلانيين ، يعوزهم التفكير السليم . وتحولهم إلى أدوات إضطهاد وتعذيب وحشيين . وتحولهم إلى خبثاء أشرار . . . متعصبين . كما أن هناك ملايين تفسد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع[١٢٥] .

وتأمل فى النفاق الذى يفرضه الضغط الاجتماعى للدين على المتشككين .

أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التى فرضها اللاهوت على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا فى ظل « الديانة المسيحية » فليقرأوا الرومانسيات (القصص الخيالية) الميتافيزيقية التى كتبها ليبنتز وديكارت ومالبرانش وكدورث وغيرهم ويفحصوا فى هدوء النظم والترتيبات البارعة ولكن الحماسية المسماة « التناسق المقرر مقدما للأسباب العرضية(١٢٦) .

وفوق ذلك فان المسيحية بتركيزها فكر الانسان على الخلاص الفردى فى الدار الآخرة ، أماتت الشعور الانسانى والاجتماعى فى مثل هذا الفرد . وتركت الناس غير شاعرين ببؤس رفاقهم ،وبالجور والاجحاف اللذين يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة .

ويرفض دى هولباخ الفكرة المسيحية الفولتيرية التى تقول بأن الانسان يولد ولديه حاسة الصواب والخطأ . إن الضمير ليس صوت الله بل صوت رجل الشرطة . إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته « ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بآثار أفعالنا على رفاقنا ثم إنعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا(١٢٧) . ويمكن أن يكون هذا الضمير موجها أو مرشداً زائفا . فلربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم منحرف أو خبرة أسىء فهمها . أو تفكير خاطىء ، أو رأى عام فاسد . وليس ثمة رذيلة أو جريمة لايمكن إظهارها فى ثوب الفضيلة عن طريق التعليم أو القدوة السيئة ومن ثم فان الزنى مهما يكن من أمر تحريم الدين له على يبعث على الفخر . والتملق الذليل مستساغ فى البلاط واغتصاب النساء والسلب والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال . « أنا لنرى رجالا أغنياء لايعانون من وخز الضمير لما جمعوا من ثروة على حساب مواطنيهم » و « وطنيين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم الأفكار الزائفة الباطلة فأغرتهم بابادة من يخالفونهم فى الرأى دون شعور بالندم أو تأنيب الضمير » وخير مانأمل فيه هو ضمير تشكل عن طريق تعليم

أفضل، واكتساب عادة التطلع إلى آثار أفعالنا على غيرنا وعلى أنفسنا . وعن طريق رأى عام أسلم وأصح بتردد أى فرد عاقل فى الاساءة إليه[١٢٨] .

ويتفق دى هولباخ مع المسيحية فى أن الإنسان بطبيعته نزاع إلى « الاثم » أى إلى السلوك الضار بالجماعة . ولكنه يرفض فكرة أن هذه الطبيعة النزاعه للاثم « موروثة عن خطيئة آبائنا الأولين . باعتبارها فكرة سخيفة . ويقبل الأنانية باعتبارها جوهرية فى سلوك البشر ، ويرى مثل هلفشيوس أن يبنى عليها قانونه الأخلاقى ، بأن يجعل السلوك الاجتماعى مفيداً للفرد .

« فالأخلاق تصبح علماً عقيماً إذا لم تثبت للانسان بما لايقبل الجدل أن مصلحته تكمن فى تمسكه بالفضيلة[١٢٩] ويمكن أن يتحقق لنا شىء من تعليم يوضح اعتماد مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة . ويمكن بث درجة معقولة من الغيرية — حب الغير » باستثارة الرغبة الطبيعية فى كسب الاستحسان الاجتماعى العام والتفوق والامتياز والمكافآت . وهكذا يصوغ دى هولباخ علم الأخلاق عنده قانوناً للطبيعة : « عش لنفسك ولرفيقك فانى (أى الطبيعة) أقر ملذاتك مادامت لاتؤذيك ولا تؤذى الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك . . وكن عادلا لأن العدل يعزز الجنس البشرى ويدعمه . . وكن طيباً لأن طيبتك ستجذب كل قلب إليك ، وكن متسامحاً حيث أنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك . وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرح حب الذات عند كل من حولك . واعف عن الإساءة والأذى وأحسن إلى من أساء إليك . . حتى تكسب صداقته . وكن معتدلامقتصدا فى شهواتك عفيفا فإن الانغماس فى الشهوات والاسراف والافراط سرف يدمرك ويقضى عليك ويجعلك مدعاة للاحتقار[١٣٠] .

إن الحكومة إذا أولت عناية أكبر وأكثر جدية لصحة الشعب وحمايته وتعليمه فقد تخف معدلات الجريمة إلى حد كبير[١٣١] . وإذا كان الإنسان يخسر كثيراً فى عدم الالتزام بالسلوك الاجتماعى السليم فإنه لن يكون على

استعداد للمغامرة بمثل هذه الخسارة فى مثل هذا السبيل . وإذا تدرب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلا من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التى سرعان ما تفقد قوتها ، فإن أخلاق الرجال لابد أن تتحسس بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضى بما سيكون فى المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج .

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة ، ومثل هذه الفضيلة هى السبيل الأمثل للسعادة .

وفى « منهج الطبيعة » و« المنهج الاجتماعى » (٣ مجلدات ، ١٧٧٢) ، و« السياسة الطبيعية » (١٧٧٢ ، مجلدان) و« روح الشعب » (١٧٧٦) عالج المليونير الذى لا يكل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة . وفى هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة . ويتفق دى هولباخ مع لوك وماركس فى أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان نتاجاً لعمله وحده . إنه نبيل وقد يتخلص من الارستقراطية الوراثية .

قد يدعى نفر من الناس حقاً فى الثروة ومراتب الشرف فحسب . ولو أن حق المولد واللقب لابد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يثبط هممهم . إن الذين لا يملكون إلا عراقة الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق فى الثراء والشرف . . . ولا يمكن أن نعتبر النبالة الوراثية إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليدارى خمول ... وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع ... (١٣٢) وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة فى قصور العصور الوسطى تعطى لورثتها الحق فى تولى أرفع المناصب فى الكنيسة والدولة وفى دور القضاء أو فى الجيش دون اعتبار لما ينبغى أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام (١٣٣) ؟

أما بالنسبة لرجال الدين فلنتركهم يدبرون أمورهم بأنفسهم ، ويجدر أن تنفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال . ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لاتحظى بأى دعم أوتأييد من الدولة . وينبغى على كل حكومة ملتزمة جانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام أية ديانة أومذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد (١٣٤) .

ودى هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض ، وهو ينتقد أصحاب الدخول الخاملين من أفراد الطبقة الوسطى . وبوصفه بارونا فإنه يحتقر رجال الأعمال . « ليس ثمة مخلوق حى أشد خطراً من رجل الأعمال الذى يفتش عن فريسته (١٣٥) . أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب : « إن الدول مستعدة لافناء بعضها بعضاً من أجل أكوام من الرجال . إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال الجشعين الذين يزينون لهم الأمل فى الثروة التى يجنون هم أنفسهم ثمارها ، ومن هنا يتناقص عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة . ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التى التهمت الهند وكندا . « هناك شعب يبدو أنه فى نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفا لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار — وهو مشروع جائز جنونى يؤدى تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمه التى تسير وراء هذا الخبل . . . وسيأتى اليوم الذى يقذف الهنود هولاء الأوربيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب (١٣٦) .

ويميل دى هولباخ إلى الأخذ بسياسه الفيزيوقراطيين فى عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة) . « لايجوز للحكومة أن تعمل للتاجر شيئا إلا أن تتركه وشأنه . وليس ثمة تعليمات أو تنظيمات يمكن أن توجهه فى مشروعات أفضل من مصلحته هو . . . وليس على الدوله إلا أن تحمى التجارة . إن الأمم التجارية التى تهيىء لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لابد أن تتفق

فى أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعا(١٣٧).

ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيلولة دون تركيز خطير للثروة . ويقتبس عن طيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيقة اللاذعة « الرجل الغنى إما وغد أو وريث أحد الأوغاد(١٣٨) » . فى كل الأمم تقريبا لايملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئا . . . وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة فى الدولة ، لأصبحوا سادة هذه الدولة المتحكمين فيها . ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة الهامة إهمالا تاما(١٣٩) . . . وإذا توقفت إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع ، فإن‌خول بعض الناس مع الاستعانة بالقوه والخداع والاغراء ينجح (أى الحمرل) فى الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم(١٤٠) .

وفى رأى دى هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية البارعة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب — ويبدو أنه كان يفكر فى لويس الخامس عشر . «إنا لانرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكا جائرين ظالمين ، أوهنهم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق ، كما لوث الفجور والفسق أخلاقهم ، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث ، لايتحلون بأية مواهب أوقدرات أو بمكارم الأخلاق ، عاجزين عن بذل أى جهد لخير الدول التى يحكمونها . ومن ثم فانهم لايهتمون إلا قليلا بمصلحة شعوبهم ، مستهترون بواجباتهم التى غالبا ما يجهلونها فى الواقع . إنهم إنما تتملكهم الرغبة فى تحقيق أطماعهم التى لاحد لها ، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان ، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بهؤلاء الرعايا ، وهم أهم شىء من أجل سعادة أمتهم (١٤١) .

وواضح أن تفكير دى هولباخ إتجه إلى الحكومة الفرنسية ، فاندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب ، أى تعيينهم ملتزمين عامين . ويهجوا هؤلاء الملتزمين : « إن الحاكم المستبد الطاغية يلجأ إلى

طائفة من المواطنين الذين يهيئون له وسائل تحقيق جشعه فى مقابل منحهم الحق فى إبتزاز أموال الآخرين دون عقاب . . . أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التى تذهب إلى جيوب هــؤلاء المبتزين وتزيد ثراءهم تضيع عليه هو نفسه ، وأن جمهور العامة الذليل الخاضع قد يرتشى فى غمار الحيرة ليشن حربا على الأمة . . . إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ تزداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم . . . وتصبح الثروة هى الدافع الوحيد . . . والظمأ إلى الذهب يتملك كل القلوب(١٤٢) .

إن الأرستقراطى الرخى البال يتحدث أحيانا كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغمورين غضبا » ، هل ينبغى على الأمم أن تعمل دون كلل ولاملل لأرضاء غرور حفنة عقيمة من مصاصى الدماء ، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وأشباع نهمهم(١٤٣) » ؟ . أنه فى هذه الحالة النفسية يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو فى كتابة (العقد الاجتماعى) :

« أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريرا . أن العظماء وذوى السيطرة والقوة يسحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب . إن هؤلاء يغامرون بحياتهم فى سبيل الثأر مما لحق بهم من أذى وشر . إنهم يهاجمون جهراً أو سرا البلد الذى هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطى لبعض أبنائها كل شىء وتحرم الآخرين من أى شىء . . . والإنسان فى كل مكان تقريباً عبد رقيق . ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أنانياً مرائياً منافقاً بلا شرف ، وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التى هو فرد فيها . أن هذا الإنسان فى كل مكان مخدوع مضلل يشجع على الجهل ، محروم من استخدام عقله ، فلابد أن يكون بطبيعة الحال فى كل مكان غبيا غير متعقل شريرا ، وهو فى كل مكان يرى إمتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها . ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة ، وأن الفضيلة تضحية لأغناء فيها . . . وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جديا بتربية الشعوب

وتعليمها ومصلحتها وإذا كانت القوانين عادلة ، فلن يكون من الضرورى التماس أحلام وأوهام مالية فى حياة أخرى يثبت دائما أنها ناقصة غير وافية أمام إنفعالات الإنسان الخانقة وحاجاته الحقيقية[١٤٤] .

وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال ؟ إن أول خطوة فى هذا السبيل هى الغاء الحكم الاستبدادى المطلق . « إن الحكم المطلق لأبد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله[١٤٥] . . . ويجب دائما أن تخضع سلطة الملوك لممثلى الشعب ، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبيهم[١٤٦] » وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشئوم ١٧٨٩ . « ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين » فإن أى مجتمع يمكنه فى أى وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحكومة تمثل الإرادة العامة[١٤٧] » . وهنا يتمثل صوت روسو والثورة .

ولكن الثورة ، بثمن غال أحيانا ، تهدم الماضى وتقضى عليه لكى تقيمه من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى : « لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الأضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة . إن هذه العلاجات العنيفة هى دائما أشد قسوة من المساوىء المقصود القضاء عليها أو التخلص منها . . أن صوت العقل ليس مثيرا للفتنة وليس متعطشا للدماء . ويمكن أن تكون الأصلاحات التى يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط[١٤٨] .

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس فى مقدورهم أن يصنعوا دولا بالغة حد الكمال . واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام « تتعارض مع طبيعة الكائن « بآلته » الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذى لايصغى دائما لهدى العقل . . . أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون[١٤٩] . وليس التقدم خطا مستقيما بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعليم والخبرة لتبيان أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها . والديمقراطية مثل أعلى

وهي ممكنة في الدول الصغيرة وحدها ، مع إزدياد وعى الشعب وعقله وذكائه . وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية في فرنسا في عهد لويس السادس عشر . وقد يستخدم هذا الملك الجديد الطيب ذو المقاصد الحسنة أناسا ذوى قدرات ومواهب عظيمة لأصلاح الدولة . وهكذا يرتضى دى هولباخ ، آخر الأمر ملكية دستورية ويهدى كتابة الأخير روح الشعب « إلى لويس » الملك العادل الإنسانى المحب للخير أبى الشعب وحامى الفقراء(١٥١) وتعلق الفيلسوف العجوز بهذا الأمل المستميت .

٤ — دى هولباخ ونقاده :

إن « منهج الطبيعة » هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والالحاد في تاريخ الفلسفة بأسره . أن تردد فولتير وتناقضه ودقته التى لا نهاية لها ، وحماسة ديدرو الغامضة وكتاباته المتعارضة ، ورفض روسو المشوش المربك لما يكتبه جان جاك روسو نفسه ، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق وإتساق شديد بين الأفكار ، وتعبير قوى في أسلوب عميق أحيانا ، مشرق أحيانا ، فصيح غالبا ، ولكنه دائما أسلوب مباشر وأضح . ومع ذلك فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لايستوعبها عامة القراء . وتلهف دى هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس ، ومن ثم فأنه شرح آراءه . ووجهات نظره مرة أخرى في شكل أبسط في حسن الأدراك ، أو « أفكار في مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة» (١٧٧٢). وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد في نشر مثل هـــذه الآراء غير المألوفة التى يريد أن يقنع الناس بها .

وأنه لمما يدل على سعة إنتشار آراء دى هولباخ رد فعل « منهج الطبيعة » على فردريك الأكبر ، إن هذا الملك الذى كان يخطب ودالفلاسفة ، والذى مجدوه وأمتدحوه على أنه رأعيهم ومثلهم الأعلى ، أنقلب عليهم حين رأى أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية بقدر سواء . لقد كان من

مصلحته أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة ، ولكن أثار إستياءه وربما أثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنبل من الأله . أن نفس القلم الذى دبج يوما ضد المكيافيللية ، يكتب الأن تفنيد منهج الطبيعة ، أن هذا الرجل دى هولباخ قد ركب متن الشطط : يقول فردريك « إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ فى إعتباره رقـة الآذان الخرافية ، ويجدر به إلا يصعق أحداً ، وينبغى عليه أن يتريث حتى تبلغ الأستنارة حدا يسمح له بالجهر بأفكاره[١٥١] .

ووأضح أنه بناء على إيحاء فردريك ، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدى شدة تطرف دى هولباخ إلى انفضاض الناس من حول الفلاسفة . اللهم إلا الملحدين والثوريين ، نجد فولتير وكأنما هو قائد جيش يؤنب ضابطا (ملازما أول) وقحا — خصص فى مقاله « عن الله » فى « قاموسه الفاسفى » عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دى هولباخ ، فهو يقول فى بداية كلامة :

« أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على قراءته : العلماء والجهلة والنساء على حد سواء . إن لاسلوبه مزايا نفتقدها عند سبينوزا . وهـو فى الغالب وأضح وأحيانا فصيح ، على الرغم من أنه مثل الباقين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب الخطابي والتناقض الذاتى . أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به فى الفيزياء وفى الاخلاق كليهما . وهنا تكمن مصلحة الجنس البشرى ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة » .

ولا يوافق فولتير على أن النظام الذى ننسبه إلى الكون . والخلل الذى نظن أننا قد نجده فيه ، هما أفكار أو أهواء ذاتية . وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى ابعد الحدود وأن الخلل أحيانا وأضح إلى حد مؤلم :

« ماذا ! أليس الطفل الذى يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوى بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشرى ؟ إليس الأطراد المعتاد فى

الطبيعة هو الذى يصنع النظام والشذوذ هو الذى يشكل الخلل ؟ أليست فوضى صارخة وخللا رهيبا أن تعمد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريئا محدودا ؟ إن الأخراج بكل أنواعه ضرورى ، ولكن قنوات الأفراز كثيرا ما تكون بلا فتحات ، مما يتطلب العلاج ، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة » .

ومن حيث كون المادة لها قوة توليد الحياة والذهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوما ميالا إلى الأخذ بوجهة النظر هـــذه ، آثر « لا أدرية » متواضعة على إفتراضات دى هولباخ الواقعة :

« إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت لنا أن المادة التى نعتبرها جامدة ميته ؛ تدعى الفعل والحياة والعقل إذا إتحدت وتجمعت بطريقة معينة » وتلك هى المشكله بعينها ، كيف تنشأ جرثومة حية ؟ أن المؤلف والقارىء كليهما يجهلان هذا على حد سواء ، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية فى العالم بأسره مجرد أحلام ؟ يقول دى هولباخ : « من الضرورى أن نعرف المبدأ الحيوى الأساسى ، وأحسب أن التعريف متعذر » . أليس هـــذا التعريف ميسورا جداً . . . . اليس تنظيم الحياة بالشعور ؟ ولكن من المستحيل أثبات أن هاتين الخاصيتين تنشئان فقط من المادة وهى فى حركة . وإذا كان من المستحيل أثبات هذا ففيم توكيده ؟ ... أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذ هذا الأسلوب الحاسم فى الوقت الذى لم يتم فيه تفسير أى شىء . . . فإذا تجاسرت على توكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبديه ، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل ، مثل قضيه من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على « ربما » ، أى مجرد الاحتمال . وأى أساس هذا لمعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشرى .

وكان دى هولباخ قد أيد التوالد التلقائى بأشارته إلى تجارب اليسوعى الانجليزى نيدهام (١٧٤٨) الذى إعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة

من مادة ليس فيها حياة . وكان فولتير يقظا لآخر تطورات العلم ، فأشار إلى تجارب سبللانزانى (١٧٦٥) الذى أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما إنتهى إليه من نتائج . ولم يكن دى هولباخ قد رأى فى الطبيعة أى تصحيح أو تخطيط ، ولكن فولتير يرى الكثير ، ويحاول أن يبرهن على أن نمـــو العقل وتطوره فى الإنسان يدل على عقل فى الكون أو فيما وراءه ، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة « إذا لم يوجد إله فمن الضرورى أن نصطنعه ، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى فى عقله وعدله ، فإن الحياه بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشقاء تكون غير محتملة ، وينضم إلى دى هولباخ فى إزدراء الخرافة ، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لا له . ويختم فى رفق فيقول : « إننى ميال إلى القول بأنك وقعت فى خطأ جسيم ولكنى بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين فى أنك مخدوع خداعا ذاتيا . يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله . ولوأنك من سؤ الحظ قلت « سرعان ما تجعل الرذيلة الإنسان سعيدا حتى يحب الرذيلة » . وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصدقائك أن يقنعوك بمحوها . أنك فى كل مكان أخر توحى بالأستقامة والأمانة . إن هذا الصراع الفلسفى سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين فى أوربا . ومن يسمع عنه سائر العالم شيئا . إن الناس لا يقرأوننا . . . أنت مخطىء . ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفضائلك(١٥٢) » .

ولسنا ندرى إذا كان فولتير راضيا كل الرضا عن هذا التفنيد من كل قلبه . وأنا لنلاحظ ملاحظاته البسيطة العابرة عندما سمع أن فردريك كان قد كتب كذلك ضد « منهج الطبيعة » « إن الله كان فى صفه إثنان على الأقل من أبعد الناس عن التمسك بالخرافات فى أوربا — مما لأبد أن يكون قد إثلج صدره كثيراً(١٥٣) وطلب إلى الدوق دى ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علما بأن المغترب العنيد فى فرنى كان قد كتب ردا على الكتاب الجرىء المشهور الذى كان حديث الناس فى بأريس .

ونشر أصدقاء دى هولباخ نقد فولتير وسيلة للاعلان عن أفكار البارون. واتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبسالة والشجاعة فى الحرب ضد الكاثوليكية ودخلت فلسفة دى هولباخ إلى روح الثورة الفرنسية قبل روبسبيير وبعده — وكان يؤثر روسو . وانا لنسمع أصداء كتاب « منهج الطبيعة » فى كامى ديمولان وماراه ودانتون[١٥٤] قال فاجيه « إن دى هولباخ أكثر من فولتير وأكثر من ديدرو ، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين فى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر[١٥٥] وفى عهد حكومة الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخا من أحد كتب دى هولباخ إلى رؤساء المصالح والهيئات فى محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد[١٥٦] . وأنا لنحس تأثير دى هولباخ فى إنجلترا فى مادية بريستلى (١٧٧٧) ونبع كتاب جودوين « بحث فى العدالة السياسية » من دى هولباخ وهلفشيوس وروسو بهذا الترتيب فى التأثير [١٥٧] . وبدأ الألحاد المتحمس عند شالى صهر جودوين ، بقراءة « منهج الطبيعة » الذى شرع فى ترجمته كوسيلة لا شراك أساتذة أكسفورد فى الحملة ضد الدين[١٥٨] . أما فى ألمانيا فإن مادية دى هولباخ وتشكاك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من « سباته العقائدى » وربما ورث ماركس بطرق غير مباشرة تعاليمه المادية عن دى هولباخ .

وقبل أن يكتب البارون بزمن طويل كان بيركلى قد آذى المادية أكبر ايذاء . فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة . والمادة (منذ عرفها دى هولباخ بأنها كل ما يؤثر فى حواسنا) معروفة بطريق غير مباشر ، عن طريق الذهن . ويبدو أنه غير معقول أن تهبط بالمعروف مباشرة إلى ما هو معروف بطريق غير مباشر . وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا أن تكون . إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء . فكلاهما يحلل إلى أشكال من الطاقة لايتيسر لنا فهمها ، وأنه لمن العسير الآن ، كما كان عسيراً فى أيام لوك وفولتير . أن نتصور كيف يمكن أن تصبح المادة فكرة أقل وعيا بكثير . أن التفسير الميكانيكى للحياة أثبت أنه مجد فى الفسيولوجيا ،

ولكن يبقى الاحتمال قائما . وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجا وأدوات للرغبة (الذهن) مثل عضلات اللاعب الرياضى . إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعى « قد تكون تيسيرات وأيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية ، لأنها أدوات إصطنعها الذهن لتناول الظاهرات والأحداث والأشياء تناولا ملائما ، وأصبحت هذهالأدوات عناصر لا مفر منها فى الفكر العلمى ، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الذهن الذى شكلها . إننا لا نعرف أن العالم منطقى .



الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ — ١٧٧٨

١ — فولتير والله

قد ندرس فيما بعد الأنشطة والآراء والاهتمامات غير الدينية فى تلك النار المدمرة التى يقال لها فولتير ، والتى تتأجج بين الحين والحين فى فرنى Ferne ونكتفى هنا بتلخيص آرائه فى الدين وحربه ضد المسيحية . ولن نذكر هنا شيئا لم يذكر مائة مرة من قبل . كما أنه لم يقل عن المسيحية شيئاً لم يسبق قوله . وكل ما فى الأمر أنه حين تكلم انطلقت كلماته مثل اللهب سرى فى أوربا ، وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا .

وكان طبيعيا أن يرتاب فى العقيدة المسيحية ، لأن الدين قصد به تهدئة الفكر لا إثارته . وكان فولتير هو الفكر مجسدا فهو قلق مضطرب لا يهدأ ولا يسكن . ورأيناه فى سيرة حياته ينضم إلى ذوى العقول المتشككة فى The Tempole يغذى شكوكه بين الربوبيين فى انجلترا ساعيا وراء العلم فى سيرى، متبادلا رسائل الالحاد مع فردريك فى ألمانيا . ومع ذلك فإنه حتى بلغ السادسة بعد الخمسين احتفظ بالحاده أو كفره مظهرا عارضا أو لعبة أو تسلية خاصة . ولم يشن على الكنيسة الحرب علانية . بل على النقيض من ذلك دافع علنا وتكراراً عن أساسيات العقيدة المسيحية : إله عادل وإرادة حرة والخلود . وإذا لم نعده كذوبا (وغالباً ما كان كذلك) فانه احتفظ حتى وفاته بإيمانه بالله وبقيمة الدين . ويمكن أن نقتبس عنه لأى غرض تقريبا ، لأنه مثل أى شىء حى ، نما وتغير واضمحل . ومن هنا

احتفظ فى سن الخمسين بما اعتنق من آراء فى سن العشرين ، أو فى سن السبعين ، بآرائه حين كان فى الخمسين ؟ إن فولتير ناقض نفسه إلى أبعد الحدود ، لأنه عمر طويلا وكتب كثيراً ، فكانت آراؤه من فيض رؤيته كلما تقدمت به السنون [1]

وفى سيرى حوالى ١٧٣٤ حاول أن يصوغ أفـكاره حول الأشياء الأولى والأخيرة فى « رسالة فى الميتافزيقا » وقبل أن يجعل بالى المقارنة مألوفة لدى الإنجليز بعدة سنين ذكر فولتير أنه من المنطق التسليم بذهن ذكى عاقل فى الكون مثلما هو منطقى افتراض أن الساعاتى قد صنع ساعة . ففى كلتا الحالتين رأى دليلا على التصميم والتخطيط فى تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها . ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة ، فكذلك الكون . وليس ثمة معجزات . ولكنه إلى حد ما لم يستطع أن يطرح جانبا الشعور بأن الإرادة الإنسانية ، بطريقة خفية وللدرجة بسيطة حرة . على الرغم من أنه عرف تمام المعرفة أن الاختيار الحر المطلق حين يتصرف فى عالم ميكانيكى لا بد أن يفسد آليته أو طبيعة تركيب اجزائه. والذهن شكل من أشكال المادة ووظيفة من وظائفها . ويقول فولتير متبعاً فى ذلك لوك . « ينبغى أن نقرر أنه من اليسير جدا على الله أن يضيف إلى المادة فكرا . [2] وقدرة المادة على التفكير ليست معجزة أكبر من إمكان تأثير الذهن غير المادى على الجسم المادى . والنفس ليست إلا حياة الجسم وتفنى بفنائه ، وليس ثمة وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها ، وهذا كاف ، وهو معين لا ينضب . وقد يكون ثمة بعض النفع فى الدين ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه تعزيزا للفضيلة . وغالبا ما استخدمه رجال الدين على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس ، على حين ابتز الملوك أموالهم . وينبغى تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعى لا على أساس طاعة الله ، ويجب ألا تتوقف على الثواب والعقاب بعد الموت .

وقرأ فولتير هذه الصفحات الخمس والسبعين على مدام دى شاتيلية

الى يبدو واضحاً إنها لم تشجعه على نشرها . ويبدو أنه أقرها على ذلك وطرح المخطوطة جانبا ، فلم تنشر قط طيلة حياته . وفوق هذا أصبح مقتنعاً بأن أية ميتافيزيقا عقلانية وأية محاولة لتفسير أصل العالم والإنسان وطبيعتهما ومصيرهما عن طريق العقل ستكون إلى الأبد فوق طاقة البشر . وقرأ الفلاسفة ولكن لم ترقه مناهجهم ، وذهب إلى أن « الأقدمين قالوا كل شيء فى الميتا فيزيقا وفى الأخلاق ، وأننا دائماً نعارضهم أو نكررهم. وكل الكتب الحديثة من هذا النوع هى مجرد تكرار معاد [٣] » ولا بد أنه تأثر بمنهج سبينوزا لأنه أجهد نفسه فى دحضه وتفنيده .

وعلى الرغم من تنصله وإنكاره لم يستطع أن يتغلب على ولعه بالخوض فى المسائل العويصة المستعصية.وبين الحين والحين فيما بين عامى ١٧٣٤—١٧٥٦ أخذ ينقب فى الميتافيزيقا واللاهوت . وظل حتى آخر حياته يؤسس إيمانه بالله على حجة التخطيط أو التدبير منذ البداية ، ولو أنه عمد إلى تسفيه التطرف فى الغائية (الاعتقاد بأن كل شيء فى الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة) . « قد لا أومن بأن الأنوف قد صنعت لتكون جسرا مريحاً للنظارات ، ولكنى مقتنع بأنها صنعت لنشم بها [٤] » . « وأليس من أبشع السخف والحماقة أن نؤكد أن العين لم تصنع لتبصر والإذن لتسمع والمعدة لتهضم ؟ [٥] وعندما طرق مؤلف شاب الباب فى Les Delices (١٧٥٧) وقدم نفسه إلى فولتير على أنه « ملحد شاب مستعد لخدمته ، أجاب فولتير لى الشرف أن أستخدم ربوبيا ، وعلى الرغم من تعارض آرائنا سأقدم لك طعام العشاء الليلة ، وأقدم لك العمل غداء سأستفيد من ذراعيك وعضلاتك لا من رأسك وذهنك .[٦] أنه سمى نفسه ربوبيا ولكنه كان مؤمنا ، أى أن ألهه لم يكن قوة غير مجسمة تماثل الطبيعة بشكل أو بآخر ، ولكنه عقل واع يصمم العالم ويحكمه . وبعد ١٧٥٠ بصفة عامة أطلق على نفسه أنه مؤمن بوجود إله .[٧] وفى القاموس الفلسفى فى مقال « الإيمان بوجود الله

« كتب على أساس يمكن أن يبرر وصف كوندرسيه لفولتير بأنه رجل شديد التمسك بالدين :

« إن المؤمن الموحد بالله رجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوى معا ، خلق كل الموجودات يعاقب على الخطايا دون قسوة ، ويثيب على صالح الأعمال فى رفق وحنان . إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله وكيف يثيب ، وكيف يعفو ، ويغفر لأنه لم تبلغ به الجرأة حدا يخدع معه نفسه بأنه يدرك كيف يتصرف الله ، ولكنه يعلم أن الله يفعل وإن الله عادل . إن العقبات التى تواجه العناية الإلهية لا تزعزع إيمانه لأنها مجرد عقبات ضخمة وليست اختبارات إنه يخضع نفسه لتلك العناية الإلهية ، ولو أنه لم يدرك منها إلا بعض آثارها وبعض المظاهر . إنه يحكم على الأشياء التى لا يراها بالأشياء التى يراها . ومن ثم فانه يرى أن هذه العنابة الإلهية تحيط بكل مكان وبكل زمان . وقد اتحد فى هذا المبدأ مع سار الكون . فانه لا ينضم إلى أى من الشيع أو الطوائف التى تناقض نفسها . إن ديانته هى أقدم الديانات وأوسعها انتشاراً ، لأن العبادة البسيطة لله سبقت كل الأساليب والطرق فى العالم . . . أنه يؤمن بأن الديانة لا تقوم على آراء الميتا فيزيقا المبهمة التى يصعب سبر غورها ، ولا على الزخارف العقيمة ، بل تقوم على العبادة والتقديس والعدالة . إن عمل الخير عبادته والخضوع لله مذهبه . . . إنه يسخر من لوريتو ومكة ولكنه يغيث الملهوف ويدافع عن المظلوم [٨].

فهل كان فولتير مخلصا فى هذه الاعترافات ؟ إن بعض الباحثين ينسبها إلى الحيطة والحذر ، أو إلى الرغبة فى التحول إلى الالحاد خطوة خطوة ، [٩] أو إلى أمل فى أن يقلل غرس الإيمان الدينى فى خدمه من السرقة والاختلاس . وهناك فى كتابات فولتير قطع يبدو أنها تبرر هذا التفسير (اذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها ، فينبغى أن يكون لها دين) [١٠] . إن أكثر الملاحظات اقتباسا عنه يبدو انها تهبط بالديانة الى مجرد منفعة عامة ، ولكن سياق الكلام يلقى على هذا البيت ضوء أكثر اشراقاً وإيضاحا . أنه يوجد فى

رسالة إلى مؤلف الدجالين الثلاثة « إذا لم يكن الإله موجودا فيجب أن نبتدعه ، ولكن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلا .[١١]» والقصيدة كلها دعوة إلى الإيمان . إن فولتير يعود إلى قضية الإيمان بوجود اله واحد المرة بعد المرة ، وكأنما يرد على شكوكه . وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته كتب ضد الالحاد قدر ماكتب ضد الديانة التقليدية وفى نفس الوقت شن حربا ضد المفهوم المألوف للرب بأنه إله الانتقام الذى قدر على معظم الناس الخلود فى عذاب الجحيم : « سيكون الجنس البشرى تعساً بائسا إلى أبعد حد إذا ألف ارتكاب الفظائع قدر ما يألف التصديق بها [١٢] وإذا كان الرب قد خلق الإنسان على صورته فقد جازيناه على ذلك خير الجزاء[١٣] بتصويره على صورتنا . ولا شيء يوضح مفهوم الإنسان عن نفسه أكثر من فكرته عن الله » .

وحاول فولتير جاهدا أن يوفق بين إيمانه بإله واحد وبين وجود الشر. وفى محاولاته لتبرير العدل الإلهى لوجود الشر اقترب من تفاؤل ليبنتز (الذى عمد إلى تسفيهه فى كانديد) إن الشر من وجهة نظر الجزء قد يكون خيرا ، وعلى الأقل ليس شرا فى منظور الكل . إن هذا ليس أحسن عالم يمكن تصوره بل أكثر ما يحتمل وجوده .[١٤] وكتب فولتير إلى فردريك ١٧٣٨ يقول : « إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير فإن فى هذه الحياة متع لا تعد ولا تحصى أكثر مما فيها من مرارة .[١٥]» ولكن هذا كتب فى سنوات صحته وعافيته فى أواسط عمره . ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة بل على النقيض من ذلك اعتقد أن فى الإنسان إحساساً فطريا بالعدالة وشعورا طيبا بالود نحو الآخرين [١٦] وهنا فوارق وتناقضات لا حصر لها فى الأفكار الأخلاقية لدى الجنس البشرى وفى عاداته . ولكن الشعوب تستنكر قتل الوالدين وقتل الإخوة والأخوات [١٧] .

وفى بوتسدام ١٧٥٢ نظم قصيدة « القانون الطبيعى » (نشرت فى ١٧٥٦) التى لخصت ديانته الطبيعية . «وحيث اتخذت القصيدة شكل رسالة إلى فردريك

الثانى المتشكك فإنه كان من الصعب أن تكون محاولة لإرضاء الأتقياء ، ولكنها تقترب من التقوى والعقيدة القويمة أكثر من أى شيء آخر طبعه فولتير . إنها لم تؤكد الإيمان بالله الخـــالق فحسب ولكنها كذلك تصف الإحساس الخلقى عند الإنسان بأنه من غرس الرب [١٨] . إنه هنا يتحدث كما يتحدث روسو ويستبق حماسة كانت للسلطان المطلق للضمير . أنه يحدد ديانته فى سطر واحد : « أعبد الله وكن عادلا وأحب وطنك » .[١٩] ويعرض تنوع العقيدة الدينية ويرثى للكراهية والتعصب ويدعو إلى تسامح متبادل بين مختلف المذاهب والشيع ، ويختم بدعاء كان يمكن أن يقره أى قديس . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ أمر برلمان باريس باحراق القصيدة علنا . ويحتمل أن يكون هذا بسبب أن بعض أبياتها استنكرت الجانسنية .

وقد نخلص إلى القول بأنه حتى عام ١٧٥١ – إلى أن بلغ فولتير السابعة والخمسين تورع عن أى هجوم مباشر صريح علنى على المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية . فماذا أثاره وحفزه لشن الحرب فى نفس الوقت الذى جنح فيه معظم الثائرين إلى السلم؟أنه كان وقت صدور دائرة المعارف ، والتفسيرات الدينية التقليدية لزلزال لشبونه ، والإعدام الوحشى لـكل من جان كالا Calas وشيفالييه دى لابار De La Barre .

٢ - فولتير ودائرة المعارف

كان فولتير فى بوتسدام حين نشر المجلد الأول من دائرة المعارف (١٧٥١) . ولا بد أنه قرأ وهو مغتبط أشد الاغتباط السطور التى كتبها دالمبير تقديراً لفولتير وثناء عليه فى « [illegible] » حيث قال « قد لا أوفى هذه العبقرية الفذه حقها من الاجلال والمديح مما لقيه كثيرا من مواطنيه ومن الأجانب ومن أعدائه ، ومما ستضيف إليه الأجيال المقبلة كثيرا حين يعود غير قادر على الاستمتاع بالإطراء والثناء » . ورد فولتير على هذه التحية فى رسالة مؤرخة ٥ سبتمبر ١٧٥٢ إلى دالمبير قال فيها « إنك وديدرو تقومان بعمل

سيكون فيه فخار فرنسا ومجدها ، وعار وخزى لهؤلاء الذين يضطهدونكما أو يقفون فى طريقكما . أنا لا أعترف من بين الفلاسفة البلغاء الأبلك وبه » وعاهد نفسه على مساندته وتأييده ، ولم يضيع أى فرصة لجذب الأنظار إلى المشروع باعتباره « عملا ضخما خالدا يتهم قصر الحيـــاة الإنسانية ويندد به [٢٠] » .

ومهما يكن من أمر انشغال فولتير بأعماله الكبرى – قرن لويس الرابع عشر ، ورسالة فى الأعراف والعادات ، وتورطه مع هرشلك وموبرتوى وفردريك فانه وجد فسحة من الوقت ليرسل إلى دالمبير (١٧٥٣) بمقالات موجزة : « مجرد مادة يمكنك تبويبها كيف تشاء وضمها إلى الصرح الخالد الذى تقيمه . إنى أمدك ببعض لبنات تضعها فى أية زاوية فى البناء » [٢١] . وتوسل إلى الأصدقاء ذوى النفوذ أن يعملوا على حماية المحررين . وفى ١٧٥٥ كتب إلى دالمبير « ما دام فىّ عرق ينبض بالحياة سأكون فى خدمة مؤلفى الموسوعة اللامعين ، وإنى لاعتبره شرفا كبيراً لى أن أسهم ولو بقدر ضئيل فى أعظم وأجمل أثر باق للأمة وللأدب » [٢٢] وأرفق بهذه الرسالة مقالات عن النار والقوة والفسوق والعبقرية الفرنسية والذوق الفرنسى . وأطلع على المجلدات الخمسة الأولى مدققا فاحصا ، فوجد أجزاء كثيرة جديرة بالثناء ، كما حزن ورثى لبعض الأجزاء الأخرى ، وطلب إلى المحررين أن يطالبوا كل الكتاب بالوضوح والإيجاز ، وحذر دالمبير (الذى ظنه خطأ رئيس التحرير) بقوله « إن معاونيك ضعاف فهناك جنود غير صالحين فى جيش القائد العظيم . . يؤسفنى أن أجد فى مقال « الجحيم » أن الكاتب يعلن أن الجحيم واردة فى شريعة موسى ، وأقسم لك الآن بكل الشياطين أن هذا غير صحيح [٢٣] .

وسرعان ما بعث بعدة مقالات صغيرة وببحث ضخم فى التاريخ . وحرض قسيسا عالما من لوزان هو أنطوان نوى دى بوليبه Noe de Polies على أن يكتب لدائرة المعارف مقالات عن « الماجيين والسحر والسحرة وعن المخلص

المنتظر » . وكلها تعج بالهرطقه فى هدوء وقد رأينا كيف أن فولتير كان مسئولا إلى حد ما عن مقال دالمبير عن جنيف ١٧٥٧ . وخفف من هذه العاصفة التى ثارت بسبب هذه المقالات بدعوة الكاهن المخدوع إلى العشاء . وحين أوشكت الكارثة أن تنزل بمشروع دائرة المعارف وتهدد بتوقفها عن الظهور ، كتب إلى ديدرو :

« أى ديدرو الشجاع ودالمبير الجسور : امضيا فى طريقكما . . هاجما الأوغاد ، واقضيا على تخرصاتهم الجوفاء وسفسطتهم الحقيرة وأكاذيبهم التاريخية وتناقضاتهم وسخافاتهم التى لا حصر لها ... لا تدعوا رجال الفكر أرقاء مستعبدين لمن لايتحلون بشىء من الفكر والذكاء . إن الجيل القادم سيكون مدينا لكما بالعقل والحرية »[٢٤] .

ولم يجب ديدرو على هذه الرسالة ، وأصر دالمبير على الانسحاب من المشروع . أما فولتير فخانته شجاعته وساءه صمت ديدرو ، ومن ثم قرر أن ينفض يديه من العمل . وفى ٦ أو ٧ فبراير كتب ثانية إلى ديدرو يطلب إليه إعادة المقالات التى لم تنشر . فأجاب ديدرو بأن المخطوطات عند دالمبير ولكن إذا كرر فولتير طلب إعادتها إليه فأنه لن ينسى هذه الإساءة . وفى ٢٦ فبراير كتب فولتير إلى دارجنتال يقول : « إنى أحب ديدرو واحترمه ولكنى غاضب » . ولكنه كتب إليه مرة أخرى فى ١٢ مارس : « إذا التقيت بهذا الرجل الطيب ديدرو ، فأبلغ هذا العبد المسكين أنى أغفر له قدر ما أشفق عليه من كل قلبى »[٢٥] وفى مايو أرسل دالمبير المقالات المطلوبة إلى فولتير . ولكن دالمبير استأنف العمل فى دائرة المعارف فى شهر يونيه ، فأرسل فولتير المقالات إليه ثانية . ولكنه طلب عدم ذكر أسمه إذا نشرت . واقترح نقل المشروع إلى بلد آخر لا يتعرض فيه لعنت الرقابة فعلا أو توجسا . ورأى ديدرو أن هذا الاقتراح غير عملى . وفقد فولتير ثقته فى قيمة موسوعة ضخمة باهظة التكاليف وسيلة لنشر الفكر المتحرر . وفى ٢٦ يونية ١٧٥٨

أبلغ ديدرو أن مشاغله الأخرى قد تجعل من المتعذر عليه أن يسهم فى الموسوعة فضلا عن أن تأزم الأمور بين المحررين والحكومة والكنيسة « قد يضطر الإنسان إلى الكذب ، وأنا لنلقى الاضطهاد والتعذيب إذا لم نمض فى الكذب » (٢٦) إن الضجة التى أحدثها كتاب هلفشيوس « الذكاء »(فى يوليه) أزعجت الثائر العجوز ، فكتب ردا على ذاك الكتاب . وفى ١٦ نوفمبر أبلغ ديدرو أنه ابتاع دارا فى فرنى واعتزم أن يقيم هناك ويحيا حياة ريفية هادئة .

فهل كان يخدع نفسه ، أو أنه كان يدبر استئناف القتال بوسائل أخرى؟

٣ — لاهوت الزلازل

بينما كانت الموسوعة تكبو وتفيق وتختفى وتنبعث من جديد ارتعدت فرائص الفلسفة الأوربية نتيجة لزلزال لشبونه ففى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول نوفمبر ١٧٥٥ — يوم عيد كل القديسين — هزت الأرض كتفيها فى البرتغال وشمال أفريقية . وفى ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل ، ومات خمسة عشر ألف رجل ، وأصيب مثلهم باصابات خطيرة ، فى واحدة من أجمل العواصم فى العالم . ولم يكن ثمة شىء جديد لم يسبق له مثيل فى هذه المذبحة الرهيبة التى حدث فيها الموت بالجملة . ولكن كانت هناك بعض ملابسات وظروف محيطة حيرت رجال اللاهوت ، وأقلقت بالهم . لماذا اختار هذا اللغز المحير مثل هذه المدينة الكاثوليكية ، ومثل هذا الاحتفال المقدس ، فى مثل هذه الساعة التى اجتمع فيها كل المواطنين الاتقياء تقريباً لحضور القداس ؟ ولماذا أبقى وسط هذا الدمار الشامل على دارسيا ستيو دى كارفالو ميللو مركيز بومبال فيما بعد — الوزير الآمر الناهى الذى كان ألد أعداء اليسوعيين فى أوربا بأسرها ؟

وأوضح مالاجريدا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلزال وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقابا من الله على الرذيلة التى استشرت فى

لشبونة.[٢٧] ولكن هل كان الآثمون هم وحدهم الذين ذهبوا للصلاة فى الكنائس فى هذا الصباح الرهيب ؟ ولماذا هلك كثير من القساوسة المتبتلين والراهبات المتفانيات فى الاخلاص للدين فى الزلزال والحريق ؟ وربما هلل المسلمون للكارثة باعتبارها إنتقاماً إلهياً من محاكم التفتيش فى البرتغال ، ولكن الزلزال دمر المسجد الكبير الذى يحمل إسم المنصور فى الرباط . وعزا بعض الكهنة البروتستانت فى لندن هذه الكارثة لاستنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الانسانية . ولكن فى ١٩ نوفمبر من نفس العام دمر الزلزال خمسة عشر ألف منزل فى بوسطن مساشوست موطن الحجاج والبيوريتانيين . وأعلن وليم ووربرتون أن مذبحة لشبونة « أبرزت عظمة الله فى أبهى صورها[٢٨] وألقى جون ويزلى موعظة عن أسباب الزلازل وعلاجها قال فيها « إن الخطيئة هى السبب المعنوى للزلازل مهما كان سببها الطبيعى . . . إن الزلازل هى نتيجة اللعنة التى صبتّها على الأرض خطيئة آدم وحواء الأولى[٢٩] » .

واستشاط فولتير غضباً لهذه التفسيرات ، ولكنه هو نفسه لم يجد شيئاً يوفق به بين الحادث وبين إيمانه بإله عادل « أين الآن قول ليبنتز « أحسن العوالم الممكنة » أو قول بوب « كل ما هو موجود هو حسن » ؟[٣٠] ونظم فولتير كرد فعل غاضب لتفاؤله السابق أعظم قصيدة له « كارثة لشبونة اختبار للحقيقة المقررة « كل شيء حسن » وهنا نغتنم الفرصة لنقتطف نموذجا من فكرة شعره :

« آه أيتها المخلوقات الفانية التعسة . أيها الأرض المحزنة ، أيها الجمع الرهيب من بنى البشر . أيها المستقر الخالد لكل البلايا العقيمة الفاجعة ، أيها الحكماء الحمقى الذين ينادون بأعلى صوت كل شيء حسن ، تعالوا وتأملوا هذه الخرائب والأطلال الرهيبة : وهذا الحطام وأشلاء ورماد جثث بنى جنسكم ، وأنظرو إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة ، إلى الأعضاء المتناثرة تحت الأعمدة المحطمة . لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس ، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم ، واندفنوا وهم أحياء

تحت السقوف التي إنهارت عليهم ، فأنهوا دون أية مساعدة أيامهم التي تبعث على الأسى فى عذاب كريه . هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التي تؤذن بالفناء ، والدخان المتصاعد فى هذا المنظر البشع بقولكم هـــذا جرى وفق قوانين أبدية طبقا لمشيئة الله المطلقة الخيرة ؟ وهـل تقولون أمام هذه الأكداس من الضحايا لقد إنتقم الله منهم لـ إن موتهم جزاء جرائمهم ؟ » .

ولكن أية جريمة وأى خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم فى أحضان أمهاتهم ؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة ؟ ومع ذلك دمرت اشبونة وباريس ترقص ؟ ألم يكن فى مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالما ليس فيه هذا الشقاء الذى لا معنى له ؟ إنى أجل إلهى ولكنى أحب الجنس البشرى .

إن الشاعر يتأمل فى عالم الحياة فيرى فى كل مكان وعلى ألف صورة متباينة تنازعاً على البقاء يلقى فيه كل كائن حتفه إن عاجلا أو آجلا . إن هذه الخلاصة المريرة لعلم الحياة (للبيولوجيا) تتطلب أن نورد النص :

« إن الصقر الضارى ينقض على فريسته المخلوعة الفؤاد ويتلذذ مبتهجاً بالتهام أوصالها الدامية ، وكل شيء يبدو فى نظره على ما يرام ، ولكن سرعان ما يأتى نسر كاسر ويلتهم بمنقاره الحاد الصقر بدوره ، ثم يعاجل الإنسان هذا النسر المتكبر بطلقة تصيب منه مقتلا . ويتوسد الإنسان التراب على أرض المعركة ينزف الدم وقد أثخنته الضربات وسط كومة من الموتى . وهناك يكون غذاء رهيباً للطيور النهمة . وهكذا تئن الدنيا بكل من فيها حيث ولدت كلها لتشقى وتعانى ، ويكون مصيرها الموت المتبادل . وفى هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع ، أية سعادة هذه ؟ أيها المخلوق الفانى الضعيف البائس ، أنك تصيح فى نغمة حزينة « إن كل شىء حسن على ما يرام » إن الكون يقدم لك الكذبة ، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك . إن العناصر والحيوان والإنسان كلها فى صراع . فلنعترف بأن الشر ملأ الأرض واستشرى فيها .

وكيف يتفق هذا الصراع الكونى الشامل وهذا الموت المذل المؤلم مع الإيمان بإله خير طيب ؟ إن الله موجود ، ولكنه لغز محير . إنه يبعث بابنه ليخلص الجنس البشرى ، ولكن الأرض والانسان بقيا على ماهما عليه على الرغم من تضحيته .

ماذا يمكن أن يقول أوسع العقول مدى فى هذا ؟ لاشىء فان كتاب القدر محجوب عن أبصارنا . فالإنسان وهو الغريب الأجنبي بالنسبة لنفسه ، مجهول لدى الإنسان . من أنا ؟ وأين أكون ؟ إلى أين أنا ذاهب؟ ومن أين أتيت؟ ان الذرات تتعذب على هذه الكومة من الطين ، ويحصدها الموت ويلعب بها القدر . ومع ذلك فانها الذرات المفكرة التى قاست اعينها ورصدت ماف السموات بهدى من الفكر . إننا نخترق بأذهاننا وعقولنا هذا الكون اللانهائى ، ولكننا لانستطيع للحظة واحدة أن نرى أو نعرف أنفسنا » .

وتلك بطبيعة الحال هى النغمة التى ضرب عليها بسكال قبل مائة عام فى نثر أروع من شعر فولتير . وكان فولتير قد نبذ يوماً بسكال واستهجنه ، ولكنه الآن يردد تشاؤمه . وعلى أساس هذا التشاؤم نفسه خلص بسكال إلى قوله : فلنركن إلى العقيدة السيحية ونتعلق بالأمل . وختم فولتير قصيدته فى الأصل ببيتين كئيبين رواقيين : ماذا يجب علينا أن نفعل أيها الفانون؟ يجب علينا أن نقاسي ونخضع فى صمت ونعبد ونموت » . واحتج أصدقاؤه بأن هذه الخاتمة البائسة غير محتملة فغير السطر الأخير إلى اخضعوا واعبدوا وأملوا وموتوا ولم يشعر أحد بالرضا فاستسلم وأضاف ٢٩ بيتاً ، وأسلم نفسه للعناية الإلهية مؤمناً بأن « الله وحده على حق » .

وعلى الرغم من ذلك فان القصيدة لم تذهل المتدينين فقط ، بل أذهلت الفلاسفة كذلك . فان مثل هذه النغمة الكئيبة الجزوعة يبدو أنها أحرجت الفلاسفة وأرسل روسو إلى فولتير رسالة طويلة بليغه يوضح فيها إن كل ما تعانى الانسانية من علل وشرور ، إن هوالانتيجة لأخطاء البشر ، وأن زلزال لشبونه هو عقاب عادل للإنسان لتخلبه عن الحياة الطبيعية

وإقامته فى المدن ، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة فى القرى المتفرقة فى دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً ، وينبغى أن نؤمن بأن الله طيب خير ، لأن هذا كما قال جان جاك هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل ، وأن نستمر مع ليبنتز ، على الإيمان بأنه حيث إن الله خلق هذا العالم ، فلابد أن يكون كل شىء فيه على المدى الطويل وبالنظرة البعيدة حقاً وصدقاً . وحصل أحد أصحاب المطابع على هذه الرسالة ونشرها فلقيت أكبر الترحيب على أوسع نطاق ، رداً بارعاً على قصيدة فولتير ، ولزم فولتير الصمت لمدة أطول مما كان مألوفاً . ولما عاد للخوض ثانية فى موضوع التفاؤل خرج على الناس بأروع أعماله وهو كتاب ظل حديث العالم لمدة جيل ، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير .

٤ — كانديد

نشر هذا الكتاب فى أوائل عام ١٧٥٩ تحت أسم Candide أو التفاؤل ، مع الأيهام بأنه مترجم عن الإلمانية عن كتاب دكتور رالف ، مع اضافات وجدت فى جيب الدكتور عند وفاته فى ميندن Minden . وأمر المجلس الكبير بأحراق الكتاب فور صدوره تقريبا (٥ مارس) وأنكر فولتير بطبيعة الحال أنه مؤلفه . وكتب إلى قسيس صديق له فى جنيف « لأبد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا إلى هذه المجموعة من الهراء . إن عندى ولله الحمد والشكر ما شغلنى خيراً منه[٣١] ولكن فرنسا أجمعت على أنه ما كان فى مقدور أحد غير فولتير أن يكتب « كانديد » . فهنا كان النثر البسيط بشكل خداع الذى يتدفق برفق والذى يتميز بمرح خفيف وتهكم لاذع شيطانى مما يستطيع هو وحده أن يكتبه . وهنا وهناك فى الكتاب قليل من الفحش والبذاءة وقليل من الأدب الداعر ، وفى كل مكان عبارات هازلة غاضبة مهلكة تنم على عدم التوقير . فإذا كان الأسلوب هو الرجل فلابد أن يكون هذا فولتير .

أنه يبدأ بريئا ، ولكنه سرعان ما ينم على العين النافذة البراقة :

« فى إقليم وستفاليا فى قصر أنبل البارونات ثندر — تن — ترونخ Thunder-ten-Tronckh ، عاش شاب حبته الطبيعة أحلى مزاج وأكرم خلق . . . وكان سديد الرأى صائب الحكم ، إلى جانب ما تحلى به من بساطة بعيدة عن التكلف كل البعد ، ولهذا السبب فيما أعتقد سمى « كانديد » . أن الخدام القدامى فى القصر أرتابوا فى أن يكون ابن أخت البارون من رجل طيب شريف من الجيران رفضت تلك الآنسة أن تتزوج منه لأنه لم يكن يستطيع أن يصل بنسبه إلى أكثر من واحد وسبعين شريفا . وكان غير أهل للزواج ، ولكنه واف بالمراد فى الفراش ، وكان يتولى تربية الولد الوسيم غير الشرعى وتعليمه الأستاذ بانجلوس Pangloss (الكثير الكلام) الذى يستطيع أن يثبت إلى حد الأعجاب أنه ليس ثمة نتيجة دون علة أو سبب ، وأنه فى أحسن هذه العوالم الممكنة ، فإن قصر البارون هو أفخم القصور ، وأن ميلادى أحسن بارونه يمكن وجودها (على الرغم من أنها تزن ٣٥٠ رطلا) وقال أنه يمكن إقامة الدليل على أنه لا يمكن أن تكون الأشياء على غير ما عليه لأن كل الأشياء خلقت لبعض الغايات ، فلابد أنها بالضرورة خلقت لا حسن الغايات . لا حظ مثلا أن الأنف شكلت للنظارة ولهذا نلبس النظارات ، وواضح أن الأرجل صممت للجوارب ولهذا نلبس الجوارب... أن هؤلاء الذين يؤكدون أن كل شىء صحيح حق ، يخطئون التعبير ، وجدير بهم أن يقولوا أن كل شىء هو أفضل شىء » .

أن كانديد « أنصت فى أنتباه شديد وآمن ضمنا » لأن الآنسة كونيجوند أبنة البارون كان وأضحا أنها أحسن وأجمل مخلوقة يمكن وجودها . وتجذبه إلى حبها ويقع فى شراك غرامها ، ويوسعه البارون ضربا ويطرده من القصر .

ويجوب كانديد الآفاق ، ويأسره ضباط التجنيد ، ويرغمونه على اللحاق بالجيش البلغارى (هنا يعود فولتير بذاكرته إلى الجيش البروسى) « وهنا جعلوه ينعطف يمينا ويسارا وينزع بندقيته ثم يعيدها ويصوبها ويطلق

النار ويسير . وجلدوه ثلاثين ضربة بالعصا » أنه يشهد المعركة ثم يتخلى عنها ، ويلتقى بالأستاذ بانجلوس الذى كاد أن يفقد آخر جزء فى أنفه ، وعما قريب سيفقد أحدى عينيه وأحدى أذنيه لا فراطه فى الأقتراب من البغى الجميلة « باكت » التى أصابها داء عضال عن طريق العدوى من أحد الأخوة الفرنسيسكان العلماء كورد لييه ، وكان قد انتقل إليه هذا المرض عن طريق العدوى من كونتيسة عجوز كانت قد أصيبت به من أحد قواد الفرسان الذى نقله عن مركيزة نسبته إلى أحد الغلمان كان قد أصيب به بالعدوى من أحد اليسوعين . وكان المرض قد انتقل إلى هــذا الأخير من أحد رفاق كرستوفركولمبس(٣٢) .

وتحطمت سفينة كانديد وبانجلوس بالقرب من لشبونه ، ووصلا إلى الشاطىء ساعة حدوث الزلزال ، وكتب لهما البقاء على قيد الحياة ، ولـكن محكمة التفتيش تقبض عليهما بتهمة الهرطقة ، ويعدم بانجلوس شنقاً . أما كانديد فيتمكن من الهرب بمعونة كونيجوند التى كان الجنود قد اختطفوها ثم بيعت لأحد اليهود ، ثم بيعت مؤخراً لأحد رؤساء محكمة التفتيش . وتمكن كانديد وكونيجوند من الهرب بمساعدة سيدة عجوز أخرست شكاواهما بقولها أنها كانت على وشك أن يلتهمها الأتراك الذين كانوا يتضورون جوعا فى حصار آزور . وكانت قد وقعت أسيرة فى أيديهم ، ولكن برحمة من القدر نصف الأعمى بدأوا بقطع أحد ردفى كل أمرأة يمكن العثور عليها . وانتهى الحصار قبل المضى فى التجربة . وتختتم السيدة العجوز كلامها بقولها « كفا الآن عن النوح والتوجع لبؤسكما وتعاستكما ، وابتهجا لأنكما تستطيعان الجلوس على ردفيكما كليهما » .

ويعبران المحيط الأطلنطى على أمل أن تكون الدنيا الجديدة أقل قساوة من القديمة . وفى يونس أيرس يستولى قائد الموقع على كونيجوند ويختص بها نفسه ويأمر بابعاد كانديد ، فيدخل المستعمرة اليسوعية فى باراجوى ويجد هناك شقيق كونيجوند الذى يهاجمه لمجرد تجاسره على التفكير فى الزواج

منها ، فيرديه كانديد قتيلا ، ويستأنف تجواله وحيدا بائسا : حتى يصل فجأة فى واد منعزل فى بيرو إلى « الدرادو » حيث يكثر الذهب إلى درجة لا يقدر فيها أحد قيمته . وهى أرض لا يوجد فيها مال ولا سجون ولا محامون ولا كهنة ولا أى صراع اقتصادى . ويعمر أهلها السعداء لمائتى عام ، وليس لهم ديانة الاعبادة بسيطة لإله واحد . ويحمل كانديد بعض الذهب ويغادر المكان ، ولا يزال قلبه يهفو إلى كونيجوند . ويبحر عائداً إلى أوربا ويصل إلى بور تسموث ليجد من فوره أن أمير البحرين Byng قد أعدم رميا بالرصاص لأنه خسر معركة . ويقول مارتن صديق كانديد الجديد أنهم يعتبرون من الحكمة فى هذه البلاد أن يقتلوا أحد أمراء البحر بين الحين والحين ليستحثوا همم الآخرين ويشجعوهم[٣٣] .

وعلم كانديد أن كونيجوند فى البندقية فيستقل السفينة إلى إيطاليا ويكتئب ويحس بالضيق والحزن حين يسمع عما تعانى البغايا . ويستمع إلى غناء أصحاب الزوارق فى فينيسيا ويخلص إلى أنه قد وجد بعض أناس سعداء . ولكن مارتن ينتهر بقوله « أنت لا تراهم فى بيوتهم بين زوجاتهم وأطفالهم . أن للأزواج ما يشغل بالهم ويحزنهم ، ولأصحاب الجندولات (الزوارق) ما يقلقهم كذلك . حقاً أن صاحب الزورق فى الجملة أسعد حظا من الدوج ، ولكنى أعتقد أن الفرق بينهما طفيف لا يستحق التفكير فيه[٣٤] .

إن كونيجوند ليست فى البندقية . إنها فى الأستانة ويهرع إليها كانديد ليجد أنها باتت الآن أمة عجوزا شوهاء . ومع ذلك يحررها ويتزوجها . ويلحق بالجلوس الذى لم تقض عليه محكمة التفتيش تماماً بتلميذه . ويستأنف دفاعه عن التفاؤل . ويلتقون برجل سعيد تقريباً فيرحب بهم ويقدم لهم فاكهة وجوزا من غرس البيت . ويسأله كانديد « لابد أن لك ضيعة كبيرة » فيجيب الرجل التركى ليس عندى إلا ٢٠ فدانا أفلحها مع أولادى . وإن عملنا ليباعد بيننا وبين ثلاث مساوئ جسيمة : السأم والرذيلة والحاجة[٣٥] . ويقرر كانديد أن يحذو حذو هـذا الرجل التركى » ويعمد

هو وكوينجوند وأصدقاؤهما إلى فلح قطعة من الأرض يزرعون فيها غذاءهم وتقوم المرأة ذات الردف الواحد وبغى صلح شأنها وصديقها الأخ الراهب بمهام كثيرة . إنهم يجدون فى العمل ويلقون فى عملهم نصباً ، ويأكلون ، ويتولاهم بعض الضجر ولكنهم إلى حد ما راضون قانعون . ويحاول بانجلوس أن يثبت أن هذا أفضل العوالم الممكنة ، حيث أن معاناتهم أدت بهم إلى هذا الهدوء والسلام . فيجيب كانديد بأن هذا كلام جميل ولكن علينا أن نزرع جنتنا . وتنتهى القصة القصيرة .

وكان فولتير قد حاول تضمين قصة المغامرة والحب شيئا من الهجاء اللاذع لما ذهب إليه ليبنتز من تبرير العدالة الإلهية فى وجود الشر ، ولتفاؤل بوب ، ولمساوىء الدين ، وحوادث العشق والغرام فى الأدبار . والصراع الطبقى والفساد السياسى ، والحيل الشرعية والرشاوى القضائية ، ووحشية قانون العقوبات ، وجور الاسترقاق . وما تجره الحرب من خراب ودمار . وكانت قصة كانديد قد ألفت حين كانت حرب السنين السبع دائرة سجالا بين النصر والخراب والدمار والموت . وأطلق فلوبرت على تحفة فولتير خلاصة أعماله[٣٦]. ولم تخل كانديد من عيب معظم الهجاء وهو المبالغة السخيفة ، ولكن فولتير كان يعلم تمام العلم أن قليلا من الرجال يواجهون هذه السلسلة المريرة من الكوارث مثلما واجهها كانديد . ولابد أنه عرف كذلك أنه على الرغم من أنه حسن أن يزرع الإنسان حديقته وأن يتقن المرء عمله الفردى المباشر . فانه من الخير كذلك ألا تقتصر أرباحه على ما يعود عليه من حقله . أنه فلح حديقته فى فرنى على أحسن وجه . ولكنه ملأ أوربا صراخا واحتجاجا على إعدام كالاس .

٥ — ضمير أوربا

كان جان كالاس أحد أفراد جماعة صغيرة من الهيجونوت — البروتستانت الكالفنيين تركت فى تولوز بعد قرن من الاضطهاد ومصادرة الأملاك والتحول الجبرى إلى الكثلكة . ولم يستبعد القانون الفرنسى البروتستانت من الوظائف

العامة فحسب ، بل أعلن كذلك أنه لايسوغ لهم أن يشتغلوا محامين أو أطباء أو صيادلة أو قابلات أو باعة كتب أو صانعين أو بقالين . وإذا لم يكن قد سبق تعميدهم فليس لهم أية حقوق مدنية أيا كانت . وإذا لم يكن قد تم زواجهن على يد قسيس كاثوليكي كان زواجهم باطلا ، وكأنما يعيشون مع خليلات لاحليلات ، واعتبر أبناؤهم غير شرعيين[٣٧] والخدمات والقداسات البروتستانتية محظورة . وكان الرجال الذين يحضرونها يعاقبون بارسالهم للتجديف مدى الحياة . أما النساء فكان عقابهن السجن مدى الحياة . وعقاب الكهنة الذين يقيمون مثل هذه القداسات الاعدام . ولم تكن هذه القوانين مطبقة تطبيقا صارما فى باريس أو قريبا منها ، وتفاوتت صرامة هذه القوانين تبعا للبعد عن العاصمة .

وكانت الاحقاد الدينية حادة بصفة خاصة فى جنوب فرنسا . وكان الصراع بين الكاثوليك والهيجونوت عنيفاً لا هوادة ولا رحمة فيه . وكانت الفظائع التى ارتكبها الطرفان لاتزال حية فى الأذهان . وكان الكاثوليك المنتصرون قد قتلوا فى تولوز فى ١٥٦٢ ثلاثة آلاف من الهيجونوت ، كما حكم برلمان تولوز على مائتين آخرين بالتعذيب حتى الموت[٣٨] . وأحيا كاثوليك تولوز فى كل عام ذكرى هذه المذبحة فى احتفالات شاكرة ومواكب دينية مهيبة . وطافت نقابات المهنيين ومختلف طبقات النبلاء ورجال الدين وجماعات « النادمين البيض والسود والرماديين » بشوارع المدينة فى هيبة وجلال حاملين مخلفات رهيبة : جمجمة رئيس أساقفة تولوز الأول ، قطعة من ثوب العذراء ، وعظام أطفال قتلوا بمناسبة أسطورة هيرود « قتل الأبرياء » . وكان من سوء حظ كالاس أن تكون السنة القادمة هى ذكرى مرور مائتى عام على أحداث ١٥٦٢ .

إن برلمان تولوز الذى كان قوياً مسيطراً فى لنجدوك كما كان برلمان باريس فى وسط فرنسا ، كان يتحكم فيه الجانيسنيون — أى أنه برلمان كاثوليكى مع نزعة قوية إلى صرامة الكلفنيه وتزمتها وكآبتها . ولم يدخر وسعاً فى إثبات أنه أشد تمسكاً بالكثلكه من اليسوعيين أنفسهم . وفى ٢ مارس

١٧٦١ حكم بالاعــدام على الراعى الهيجونوتى روشيت لإقامته قداساً بروتستانتيا ، كما حكم بالاعدام على ثلاثة رجال من كومت دى فوا حاولوا تخليص روشيت من أيدى الشرطة[٣٩] . وفى ٢٢ مارس أمر بتعذيب واعدام صاحب متجر بتهمة قتله إبناً له عرض أن يعتنق المذهب الكاثوليكى .

وإنصافاً للمتعصبين ينبغى القول بأن نظم العقيدة المسيحية عند الكلفنيين وضعت أساساً لاعتقادهم بأنه من المرخص للوالد أن يقتل الابن العاق : وفى الأوقات التى كان القانون لايزال فيها ضعيفاً . والأسرة فيها هى المصدر الرئيسى أو الوحيد تقريباً للنظام والانضباط . منحت معظم المجتمعات الآباء حق إعدام أبنائهم أو الابقاء عليهم . ولابد أن شيئاً من هذا القانون الأبوى كان يعتمل فى ذهن كلفن حين كتب « إن الرب يأمر بقتل الأبناء العاقين لآبائهم[٤٠]. وأشار كلفن إلى سفر التثنية (الاصحاح ٢١ : الآيات ١٧ — ٢١) وإلى إنجيل متى (الاصحاح ١٥ : الآيات ٤ — ٦) إن هذه الآيات على أية حال تبيح للاباء أن يتهموا الابن المعاند أمام شيوخ مدينته ، الذين يمكنهم حينئذ أن يحكمو باعدامه (يرجمونه بالحجارة حتى يموت) . ولكن الكاثوليك المهتاجين فى جنوب فرنسا إرتابوا فى قدرة الهيجونوت على اللجوء إلى شيوخ المدينة ومن ثم يأخــذون تطبيق هذا القانون القديم على عاتقهم هم أنفسهم .

ويجدر بنا أن ننظر من خلال هذه الخلفية الكئيبة القاتمة إلى قضية جان كالاس .

أنه كان تاجر ملابس كتانية . وكان له مخزن فى الشارع الرئيسى فى تولوز حيث أقام لمدة أربعين عاماً . وكان له ولزوجته أربعة أبناء وبنتان واحتفظوا طيلة ثلاثين عاماً بمربية كاثوليكية لاولادهم ، هى جين فنير حتى بعد أن حولت أحد الأبناء (و لويس إلى الكثلكة . وأقام لويس آنذاك فى شارع آخر تلميذاً صناعياً يتقاضى من أبيه راتباً بانتظام . واشتغل الابن

الأصغر ، دونات ، تلميذا صناعياً فى نيم وعاش الابنان الآخران ، بيير ومارك أنطوان مع والديهما . وكان مارك أنطوان ، وهو أكبرهما سناً ، قد درس القانون ، ولكنه حين تهيأ للاشتغال به وجد أن كل الأبواب موصدة إلا أمام الكاثوليك . وحاول أن يخفى مذهبه البروتستانتى ، وأن يحصل على شهادة بأنه كاثوليكى ولكن كشف أمره . وما كان له إلا أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : إماأن يتخلى عن مذهبه البروتستانتى أو يضيع دراسة القانون هباء . واستبد به التفكير وعراه الاكتئاب ، وانغمس فى لعب الميسر والشراب وكان يحب أن يعيد على مسامع الناس مناجاة هملت للانتحار [٤١] .

وفى ١٣ اكتوبر ١٧٦١ إجتمعت أسرة كالاس فى دارها فوق المخزن . وكان جوبير لافاييس ، وهو أحد أصدقاء مارك انطوان ، قد حضر لتوه من بوردو وقبل دعوة الوالد لتناول العشاء . ونزل مارك انطوان إلى المتجر وتساءل بيير ولافاييس عن السبب فى عدم عودته ، فنزلا يستطلعان الأمر فوجداه متدلياً من قضيب كان قد وضعه بين عضادتى الباب . فأنزلاه ونادیا على الوالد واستدعيا طبيباً وحاول الجميع إنقاذه ولكن الطبيب أكد وفاته .

وهنا ارتكب الوالد خطأ جسيم . لقد عرف إن هناك قانوناً نافذ المفعول يقضى بأن يجر المنتحر عاريا فى شوارع المدينة . وأن يرجمه الأهالى بالطين والحجاره ثم يشنق وتصادر أملاكه للدولة . وتوسل الوالد إلى أسرته وحاول إقناعها بالقول بأن الوفاة طبيعيه [٤٢] وفى نفس الوقت كانت صيحات بيير واستدعاء الطبيب قد أدت إلى احتشاد جمع من الناس أمام باب الحانوت . وجاء الضابط واستمع إلى القصة التى رويت له . ورأى الحبل وشاهد الأثر الذى تركه فى عنق الرجل الميت . وأمر الأسرة ولافاييس وجين فنيين بالشخوص إلى دار البلدية . وهناك احتجزوا فى زنزانات مستقلة . وفى اليوم التالى سئل كل منهم فأقروا جميعاً أن الوفاة غير طبيعية وأكدوا أنه إنتحار . ولكن مدير الشرطة أبى أن يصدقهم ، واتهمهم بقتل مارك انطوان حتى

تحولوا بينه وبين الارتداد إلى الكثلكة . وأقر الاتهام الأهالى وكثير من أعضاء برلمان تولوز ، وأعمت حمى الانتقام بصائر الناس .

قد يكون من الصعب الآن أن يصدق أحدنا أن يعهد والد إلى قتل إبنه ليحول دون تغيير مذهبه الدينى ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أننا نفكر تفكيراً تغلب عليه النزعة الفرديه . وبعد قرنين من الزمان تدهورت فيهما العقيدة الدينية . وفكر أهل تولز مجتمعين كجمهور ، والجماهير قد تشعر ولكن لاتفكر ، واشتدت صورة الغضب وحمى الانتقام نتيجة احتفال أقامه « النادمون البيض » فى كنيستهم ، وعلقوا فوق نعش خال هيكلا عظميا يحمل فى إحدى يديه نقشاً يدل على « تجنب الهرطقة » وفى الأخرى سعفاً يرمز إلى الاستشهاد ، وتحت هذا إسم « مارك » انطوان كالاس » « وافترضوا أن الشاب لم ينتحر فدفنوا الجثة باحتفال مهيب فى كنيسة سان ستيفن . وعبثا احتج بعض رجال الدين على أن هذا استباق للحكم فى قضية القتل(٤٣) .

وجرت محاكمة آل كالاس أمام الاثنى عشر قاضيا فى محكمة تولوز البلدية . وصدرت مذكرة تحذير تتلى فى ثلاثة أيام أحد متوالية فى كل كنيسة تدعو للأدلاء بالشهاده كل من يعرف شيئا عن ظروف الوفاة . وتقدم للشهادة عدة أشخاص وشهد أحد الحلاقين بأنه سمع فى تلك الليلة المشئومة صراخا من بيت أسرة كالاس : آه يالهى أنهم شنقونى « وادعى آخرون أنهم سمعوا مثل هذه الصيحات . وفى ١٠ نوفمبر ١٧٦١ إدانت محكمة تولوز البلدية جان كالاس وزوجته وأبنه بيير ، وأصدرت حكما بأعدامهم شنقا ، وحكمت على لافاييس بالتجديف فى المراكب الشراعية ، كما حكمت على جين فنير بالسجن لمدة خمسة أعوام . وكانت المربية الكاثوليكية قد أقسمت اليمين على براءة مخدوميها البروتستانت .

واستؤنف الحكم أمام برلمان تولوز الذى عين هيئة من ثلاثة عشر قاضيا استمعوا إلى ثلاثة وستين شاهداً آخرين . وإستند كل الشهود إلى الشائعات واستمرت المحاكمة ثلاثة أشهر إحتجزت فيها أسرة كالاس ولا فاييس منفردين

وأدان الحكم النهائى الوالد فقط . ولم يستطع أحد أن يوضح كيف تسنى لرجل فى الرابعة والستين أن يتغلب دون مساعدة على أبنه الناضج المكتمل النمو ويشنقه . وأملت المحكمة أن يعترف كالاس تحت ضغط التعذيب ، ولكم من مرة نصحوه بالأعتراف ، وكم من مرة أكد أن مارك أنطوان إنتحر . وبعد راحة مدتها نصف ساعة خضع للتعذيب الشديد الاستثائى حيث صبوا فى حلقه نحو « جالونين » من الماء ولكنه أصر على أنه برىء . ثم صبوا فى حلقه عنوه جالونين آخرين حتى انتفخ جسمه إلى ضعف حجمه الطبيعى . ولكنه ظل مصرا على براءته فسمح له بالتخلص من الماء ، فأخذوه إلى ميدان عام أمام الكاتدرائية ووضع على صليب وبأحدى عشرة ضربة من قضيب حديدى هشم الجلاد أطرافه فى موضعين وأعلن الرجل براءته ، وهو يهيب بيسوع المسيح لنجدته ، وبعد ساعتين من الآلام المبرحه شنق ثم شدوا جثمانه إلى خازوق وأحرق (١٠ مارس ١٧٦٢)[٤٤] .

وأطلق سراح المسجونين الآخرين ، ولكن الدوله صادرت ممتلكات كالاس . وأسرعت الأرملة وبيير إلى مأوى خفى فى مونتوبان وأرسلت البنتان إلى ديرين مختلفين . ولما رأى دونات أنه مهدد بالخطر فى نيم هرب إلى جنيف . وإذ سمع فولتير بالمأساة دعا دونات إلى ملاقاته فى لى دليس فى ٢٢ مارس وكتب فولتير إلى داميلافيل « سألت دونات إذا كان أبوه وأمه من ذوى الطبع الحاد ، فأجاب أنهما لم يضربا أحدا من أبنائهما قط ، وأنه ليس ثمة آباء أشد منهما حناناً وتسامحا[٤٥] . وإستشار فولتير تاجرين من جنيف كانا قد أقاما مع كالاس فى تولوز ، فأكدا صدق ما قال دونات . وكتب إلى بعض الأصدقاء فى لنجدوك فأجاب الكاثوليك والبروتستانت جميعهم بأن جريمة الأسرة كانت فوق أى شك معقول[٤٦] وأتصل فولتير بالأرملة فبعثت إليه برد واضح فيه صدقها واخلاصها كل الوضوح ، إلى حد أنه حفزه إلى العمل والتصرف . فأهاب بالكاردينال دى برينس . ودارجنتال ودوقة دى أنفيل ومركيزة دى نيقولاى والدوق دى ڤيللار والدوق دى ريشيليو ليتوسلوا

إلى وزيرى الملك شوازيل وسانت فلورتين ليأمرا باعادة النظر فى المحاكة . والحق دونات بأسرته وأحضر بيير كالأس إلى جنيف وأقنع مدام كالاس بالأقامة فى باريس حتى يكون من الميسور سؤالها والرجوع إليها . واستخدم محامين ليشيروا عليه بما يجب إتخاذه من إجراءات فنية قانونية فى القضية . ونشر كتيبا تحت عنوان « الوثائق الأصلية فى وفاة السيد كالاس[٤٧] » ، واتبعه بنشرات أخرى . وأهاب بسائر الكتاب أن يسخروا إقلامهم لايقاظ ضمير أوربا وأثارة الشعور فيها . وكتب إلى داميلافيل « أحتج ودع الأخرين يحتجون على قضية أسرة كالاس ، أرفعوا عقيريتكم بالاحتجاج على التعصب[٤٨] » كما كتب إلى دالمبير « أرفع صوتك فى كل مكان ، إستحلفك بالله من أجل آل كالاس ضد التعصب . إنهم فقدوا اعتبارهم نتيجة أتهامهم بهذا الجرم الشائن . وهذا هو سبب شقائهم وتعاستهم ، وحث على التبرع بالأموال لسد نفقات هذه الحملة التى تحمل الجزء الأكبر منها حتى هذه اللحظة . وأنهالت عليه التبرعات من كل جانب ، ومن ملكة انجلترا وإمبراطورة روسيا وملك بولنده . ووافق محام لامع من باريس على إعداد القضيه لرفعها إلى مجلس الدولة دون أن يتقاضى أجرا . وقصدت بنات كالاس إلى باريس للحاق بوالدتهن . وحصلت أحداهن على رسالة من راهبة كاثوليكية تستدر العطف على آل كالاس[٥٠] وفى ٧ مارس ١٧٦٣ أستقبل وزراء الملك الأم وبناتها . واجتمع الرأى على ضرورة نظر القضية من جديد . وصدر الأمر باحضار كل الوثائق والمستندات المتعلقة بالموضوع من تولوز .

ولكن قضاة تولوز لجأوا إلى مائة حيلة للابطاء فى جمع الوثائق واحالتها. وفى أثناء ذلك الصيف كتب فولتير ونشر بحثه الهام « رسالة عن التسامح » ورغبة منه فى إزدياد أقبال الناس عليها وأفتتانهم بها كتبها بأسلوب يتسم باعتدال يثير الدهشة والعجب . أنه أخفى أنه المؤلف ، وتحدث حديث رجل مسيحى تقى متمسك بالدين مؤمن بالخلود ، وامتدح أساقفة فرنسا على أنهم سادة مهذبون ويفكرون ويعملون بشكل نبيل يتناسب مع شرف محتدهم[٥١].

وزعم أو تظاهر بأنه يرتضي المبدأ الذى يقول بأنه « لاخلاص بغير الكنيسة[٥٢]. ولم تكن الرسالة موجة إلى الفلاسفة بل إلى رجال الدين الكاثوليك أنفسهم ، ومع ذلك لم تخل من الجرأة والتهور لأنه كثيراً ما نسى قراءه .

وبدأ فولتير رسالته بالحديث عن محاكمة كالاس وإعدامه وعرض تاريخ التسامح وبالغ فى الكلام عنه فى حالة اليونان وروما . واستبق جيبون فى محاولة إقامة الدليل على أن اضطهاد المسيحين للهراطقة فاق بمالا يقاس اضطهاد الرومان للمسيحين حيث كان الهراطقة « يشنقون أو يغرقون أو تحطم أجسامهم فى عجلة التعذيب أو يحرقون بسبب حب الله[٥٣] » ودافع عن الأصلاح الدينى باعتباره ثورة لها ما يبررها ضد بيع البابوية لصكوك الغفران ، وهى البابوية التى حط من قدرها حوادث غرام البابا الأسكندر السادس وحوادث القتل التى أرتكبها قيصر بورجيا ابن البابا . وأبدى دهشته وشدة أستيائه عندما اطلع على محاولة حديثة لتبرير مذبحة سانت برثلميو(*) وسلم بأن البروتستانت كانوا كذلك غير متسامحين(**) وعلى الرغم من ذلك أوصى بإباحة العبادة البروتستانتية فى فرنسا وعودة الهيجونوت المنفيين إليها.

« أنهم لا يطلبون الا حماية القانون الطبيعى لهم ، وإقرار صحة زواجهم ، والأطمئنان على أحوال أبنائهم وحقهم فى الوراثة عن آبائهم ، وتحرير

(*) كان هذا فى « اعتذار لويس الرابع عشر » ١٧٦٢ بقلم القسيس كافيراك وقد استنكر كثير من رجال الدين الكاثوليك هذا الكتاب[٥٤] .

(**) وبما كان الوعاظ اللوثريون والكلفنيون قليلى الإتجاه إلى الشفقه والرحمة قساه القلوب غير متسامحين كذلك حين ينتقدون مخالفيهم بقسوة . إن القانون الوحشى الذى يحظر على أى كاثوليكى رومانى الإقامة فى بلاد معينة لأكثر من ثلاثة أيام لم يلغ بعد — رسالة عن التسامح المطلق فى أعمال فولتير ٢١ أ ص ٢٥٧ أنظر شجب فولتير لقانون الهيجونوت المتعصب البعيد عن التسامح فى مقالة « داود » فى القاموس الفلسفى .

أشخاصهم ، ولا يطالبون بكنائس عامة ولا بأى حق فى الوظائف البلدية ولا فى المناصب الرفيعة(٥٥) .

وعلى الرغم من هذا التحديد البارع عرف فولتير التسامح بقوله :

« هل لى إذن أن اقترح أن يكون كل إنسان حراً فى أتباع ما يمليه عليه عقله هو ، ويؤمن بما يوحى به إليه عقله المستنير أو المخدوع أيا كان ؟ وحقا شريطة إلا يعكر صفو النظام العام . . . وإذا كنت تصر على القول بأن عدم الإيمان بالديانة السائدة جريمة فانك بذلك تتهم المسيحين الاولين وأباءك الا قدمين وتبرر عمل من تلومهم على أضطهادهم وتعذيبهم . . . . وإذا كان ينبغى أن يكون للحكومة الحق فى معاقبة الناس على أخطائهم فمن الضرورى أن تتخذ هذه الأخطاء شكل الجرائم . ولن تتخذ الأخطاء شكل الجرائم إلا إذا أزعجت المجتمع وعكرت صفوه . وهى تقلق بال المجتمع إذا ولدت التعصب . ومن ثم يجدر بالناس أن يتفادوا التعصب ليكونوا جديرين بالتسامح »(٥٦) .

وختم فولتير حديثه بالتوجه إلى الإله « أنك لم تخلق لنا القلوب ليكره بعضنا بعضا ، ولا الأيدى ليقتل الواحد منا الآخر . فلنسلم بأن الواحد منا قد يعين الأخر على احتمال عبء الحياة المؤلمة الزائلة . نرجو الايستخدم الناس هذه الفروق الطفيفة فى الملابس التى تستر أجسامنا الضعيفة ، وفى الطرق التى نعبر بها عن أفكارنا وفى عاداتنا السخيفه وقوانيننا القاصرة . . . وباختصار هذه الاختلافات اليسيرة الموجودة بين الذرات المسماة بالناس . . . تقول نرجو إلا يستخدمها الناس علامات على الكراهية والاضطهاد المتبادلين ونرجو أن يتذكر الناس جميعا أنهم أخوة(٥٧) .

ولسنا ندرى أى نصيب أسهم به هـــذا النداء فى مرسوم التسامح الذى أصدره لويس السادس عشر فى ١٧٨٧ . وهل وصل إلى أسماع وزراء لويس الخامس عشر وحرك مشاعرهم . وعلى أية حال وبعد معوقات جمة

امتحن الله بها قلوب آل كالاس أعلن مجلس الملك فى ٩ مارس ١٧٦٥ أن أتهام جان كالاس بأطل ونطق ببراءته وحصل شوازيل من الملك على منحه قدرها ثلاثون ألفا من الجنيهات تعويضا للأرملة وأبنائها عن فقدممتلكاتهم. ولما وصلت أنباء هذا الحكم إلى فرنى بكى فولتير فرحا .

وفى الوقت نفسه (١٩ مارس ١٧٦٤) أمرت المحكمة البلدية فى Mazamet فى جنوب وسط فرنسا بأعدام بيير بول سيرفن Sirven وزوجته بتهمة قتل أبنتهما اليزابث للحيلولة بينها وبين التحول إلى الكاثوليكية . وقضى الحكم بأن تشهد البنتان الباقيتان على قيد الحياة إعدام والديهما[٥٨] وكان ينبغى أن يتم هذا الاجراء بصورة رمزية لأن الأسرة كانت قد هربت إلى جنيف (١ إبريل) وكانت قد أبلغت فولتير بقصتها .

وكان سيرفن بروتستانتيا يقيم فى كاستر Castre على بعد نحو أربعين ميلا إلى الشرق من تولوز . وفى ٦ مارس ١٧٦٠ اختفت الأبنة الصغرى اليزابث وعبثا حاول والداها البحث عنها . واستدعاهما أسقف كاستر وأبلغهما أنه كان قد أرسل الفتاة إلى أحد الأديار ، بعد أن أفضت إليه برغبتها فى أن تصبح كاثوليكية . وسمح القانون الفرنسى الذى سن فى عهد لويس الرابع عشر للسلطات الكاثوليكية بانتزاع الولد فوق سن السابعة من بين أحضان والديه ، ولو بالقوة عند الاقتضاء ، إذا طلب التحول إلى المذهب الكاثوليكى . وأستبدت الأوهام باليزابث فى الدير وتحدثت إلى الملائكة ومزقت ملابسها عن جسمها وتوسلت أن تضرب بالسياط . ويأتت الراهبات فى حيرة من أمر اليزابث ، وكيف يتصرفن معها ، فابلغن الأسقف بخبرها ، فأمر باعادتها إلى والديها .

وفى يولية ١٧٦١ أنتقلت الأسرة إلى سانت آبى St.Abby على بعد ٥٠ ميلا من كاستر . وهناك فى أحدى ليالى ديسمبر غادرت اليزابث غرفتها — ولم تعد . وفى ٣ يناير وجد جثمانها فى بئر . ولم يكن أهالى سانت آبى ميالين إلى أتهام أسرة سيرفن بقتلها ومثل ٤٥ شاهدا أمام المحكمة المحلية . فعبروا

جميعا بلا أستثناء عن رأيهم فى أن الفتاة إنتحرت أو أنها سقطت فى البئر بمحض الصدفة . وأرسل المدعى المحلى ترنكييه Trinquier مذكرة بالحادث إلى المدعى العام فى تولوز فأصدر إليه تعلياته بمواصلة السير فى القضية مع إفتراض أن سيرفن مذنب : وبدا هذا غير جائز لأن سيرفن كان متغيبا عن البلدة ليلة اختفاء اليزابث . كما كانت زوجته عجوزا واهنة . وكانت أحدى البنات حبلى . وكاد يكون من غير المعقول أن تكون أحدى هاتيك السيدات قد دفعت بالبنت إلى البئر دون أن يسمع لها صراخ . ومع ذلك فأن ترنكييه أصدر فى ٢٠ يناير أمرا بالقبض على سيرفن .

وعلم سيرفن أنه قبل ذلك بنحو شهرين كانت محكمة تولوز قد أصدرت حكما بأعدام جان كالاس بتهمة مماثلة بناء على:أدلة مشتبه فيها غير قاطعة . وإذا أستسلم للأعتقال والتحقيق والمحاكمة فإن قضيته ستعرض فى النهاية على برلمان تولوز ، ولما لم يكن يثق فى هذه المحاكم فأنه حمل زوجته وبناتة فى أو اسط الشتاء عبر فرنسا وفوق جبال السفن Sevennes إلى جنيف على أمل أن يهب المدافع عن كالاس لمعاونته .

وكان فولتير لايزال منهمكا فى حملته من أجل كالاس فرأى من سداد الرأى ألا يشغل الذهن الفرنسى بقضيتين فى وقت معاً . وأسهم فى الأخذ بيد الأسرة التى كانت أملاكها قد صودرت ، ولكن عندما أقحمتها سلطات تولوز فى الموضوع استجابة لطلب وثائق مستندات قضية كالاس ، استأنفه فولتير الهجوم بالبدء فى شن حملة من أجل سيرفن ، وعاود الكرة فى طلب المعونة والتبرعات التى جاءته من فرد ريك الثانى ملك بروسيا وكريستيان السابع ملك الدنمرك وكترين الثانية قيصرة روسيا وستانسلاس بونيا توسكى ملك بولندة . ورفضت محكمة مازامى طلب نسخة من أوراق التحقيق .

ويجدر بنا ألا نسهب فى إيراد تفاصيل الصراع فى هذه القضية فقد ظلت منظورة حتى نقض برلمان تولوز آخر الأمر فى ١٧٧١ حكم محكمة أولا

موجة و قضى ببراءة أسرة سيرفن وأعاد إليها أملاكها . وقال فولتير :

« لقد استغرق صدور الحكم باعدام هذا الرجل ساعتين واستغرق النطق ببراءته تسع سنوات[٥٩] .

وروع فولتير حين علم وسط هذا الجهد الكبير والشغل الشاغل أنه هو نفسه متورط فى قضية برزت فجأة فى آبفيل على شاطىء المانش . ذلك أنه فى ليلة ٨ — ٩ أغسطس شوه صليب خشبي (تمثال يمثل المسيح مصلوباً) على جسر بونت نيف على نهر السوم كما لطخ صليب آخر فى مقبرة سانت كاترين بالأوساخ والأقذار . وفزع رجال الدين والأهالى حين ما اكتشفوا تدنيس المقدسات على هذا النحو وقصد أسقف أميان إلى آبفيل وقاد وهو حافى القدمين موكباً اشترك فيه كل السكان تقريباً يلتمسون المغفرة من الرب . وقرىء فى كل الكنائس تحذير ينذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من كان فى مقدوره أن يلقى شيئاً من الضوء على هذا السر ولم يتقدم الأدلاء بما يعلم . واستمع القاضى دوفال إلى ٧٧ شاهداً وذكر بعضهم أنهم لاحظوا ثلاثة شبان يمرون بموكب عيد الجسد دون أن يركعوا أو يخلعوا قبعاتهم . وزعم آخرون إن عصابة من شبان آبفيل ، من بينهم ابن دوفال ، درجوا على السخرية من المواكب والاحتفالات الدينية والتغنى بأغان ماجنة[٦٠] . وفى ٢٦ أغسطس صدرت مذكرات إلى جيار أتاللوند وشيفالييه جان فرنسوا ليفبر دى لابار وإلى شاب فى السابعة عشرة يعرفه التاريخ باسم موازنل فقط . وهرب أتاللوند إلى بروسيا . وقبض على موازنل Moisnel ودى لابار . وحصل موازنل على عفو جزئى باعترافه بأنه هو والآخرون ارتكبوا هذه الأعمال المزعومة . واتهم دى لابار بأنه بصق على صور القديسين وبأنه أنشد ابتهالا بذيئاً اسمه «لامادلين» وبأنه أعاره القاموس الفلسفى» ورسالة إلى فراشه لفولتير ، وزعم أنه رأى أتاللوند يضرب الصليب فوق القنطرة ويلطخ الصليب بالأقذار فى المقبرة .

وكان لابارحفيد قائد أخنى عليه الدهر واعترف بأنه مهرطق . وروى أحد الشهود أن لابار عندما سئل لماذا لم يخلع قبعته أمام موكب عيد القربان أجاب بأنه « اعتبر القربان قطعة من الشمع ولم يستطع أن يفهم كيف يقدم أى إنسان على عبادة إله من العجين . وأقر لابار بأنه ربما قال شيئاً من هذا القبيل وأضاف إنه كان قد سمع شباناً آخرين يبدون شيئاً من مثل هذه المشاعر والآراء وإنه لاضير عليه من مثلها . كذلك وفتشت مكتبته فوجد فيها قاموس فولتير وكتاب هلفشيوس « الذكاء وكتب أخرى تهاجم الدين وفى أول الأمر نفى علمه بانتهاك أتاللوند للحرمات المقدسة فلما علم باعتراف موازنل بذلك عاد فأكد صحته . وكانت الجريمة النهائية التى اتهم بها دى لابار هى التجديف على الله والقربان المقدس والعذراء المقدسة والدين والوصايا الالهية وتعاليم الكنيسة والتغنى بأغنيتين مملوءتين بالتجديف اللعين البغيض ووضع علامات التقديس والاجلال على بعض الكتب السيئة السمعة وانتهاك حرمة علامة الصليب وسر تقديس النبيذ والبركات التى تمنحها الكنيسة والتى يقرها المسيحيون(٦١).

وفى ٢٨ فبراير ١٨٦٦ أصـــدرت محكمة آبفيل حكمها . وهو يقضى بتعذيب لابار واتا للوند عند اعتقالهما حتى يبوحا بأسماء شركائهما . كما يقضى عليهما بالتكفير علناً أمام الكنيسة الرئيسية فى المدينة ويقطع لسانيهما من الجذور وضرب عنقيهما ثم إحراق جثتيهما حتى تصيرا رمادا . كما يجب إلقاء قاموس فولتير الفلسفى فى نفس النار . واستؤنف الحكم أمام برلمان باريس . وطالب بعض الأعضاء بتخفيفه . فرد العضو باسكييه بأن الأمر يحتاج إلى إنذار وعقوبة رادعة لاستئصال شأفة الكفر الذى يهدد الاستقرار الاجتماعى والأخلاق ، وحاول التدليل على أن المجرم الحقيقى هو فولتير ، ولكن حيث أنه لاسبيل أمام البرلمان للوصول إلى أس البلاء فيجب أن ينال تلميذه جزاءه بدلا منه . وصوت عضوان على إبدال الحكم وتخفيفه وصوت خمسة عشر عضوا على تنفيذه برمته . وفى أول يولية ١٧٦٦ نفذ

الحكم باستثناء قطع اللسان . ولقى لابار مصيره دون توريط أحد من أصدقائه . وفصل الجلاد الرأس عن الجسد بضربه مسددة تسديداً محكما مما نال إعجاب الجمهو واستحسانه(٦٢).

وصعق فونتير لصرامه العقوبة وأحس بأنها وحشية خليقة بمحكمة التفتيش الإسبانية فى أسوأ أحوالها ، وكتب أسقف أنسى Anncey إلى المحكمة الفرنسية يطلب تطبيق العقوبات الواردة فى إلغاء مرسوم نانت على يد فولتير الذى كتب إلى دالمبير يقول إن هذا الأسقف الوغد لايزال يقسم أنه سيرانى أحرق فى هذه الدار الدنيا أو فى الدار الآخرة . . . وتجنباً للاحتراق فانى أرقد فى مقدار من الماء المقدس(٦٣). وخشية إستدعائه للمثول أمام برلمان ديجون إنتهز الفرصة لتجربة المياه المعدنية فى رول بسويسرا . ثم عاد إلى فرنى ليستأنف جهوده من أجل سيرفن .

واقترح آنذاك على دالمبير وديدرو أن يبرحا هم وسائر الفلاسفة فرنسا تحت جنح الليل : ويقيموا فى كليفز تحت حماية فردريك الأكبر . ولم يتحمسا كما لم يتحمس فرديك لهذه الخطة . وأقر الملك بأن عقوبة دى لابار كانت متطرفة فى صرامتها أما هو فكان يرى من جانبه الحكم على الشاب بقراءة « خلاصة اللاهوت »لتوماس أكويناس ، فهذا فى نظره. مصير أسوا من الموت ، ثم استطرد فردريك ليزود فولتير بشيء من النصيحة :

« أن ما حدث فى آبفيل كان مأساة ولكن ألم يخطىء أولئك الذين عوقبوا ؟ هل لنا أن نهاجم مباشرة الحزازات والاحقاد التى غرسها الزمن فى أذهان الأمم ؟ وهل يجوز لنا إذا إردنا أن ننعم بحرية الفكر أن نحقر الديانة السائدة . أن الإنسان الذى لا يهدف إلى تعكير الصفو وأثارة القلق نادراً ما يضطهد . وتذكر قول فونتنل « إذا كانت يدى مملؤة بالحقائق فينبغى على أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها (٦٤) .

أما فيما يتعلق بمستعمرة الفلاسفة المقترحة فى كليفز فإن فردريك عرض أن يبسط عليهم حمايته شريطة أن يحافظوا على السلام ويحترموا عقيدةالشعب.

وأضاف « أن الرجل المتوسط لاينبغى له أن يتنور . . . وإذا كان للفلاسفة أن يشكلوا حكومة فان الناس بعد ١٥٠ عاماً سيصطنعون خرافات جديدة ، فيصلون لأصنام صغيرة أو للأجداث التى دفنت فيها رفات عظماء الرجال ، أو يتضرعون إلى الشمس أو يعمدون إلى شىء من مثل هذا الهراء . إن الخرافة موطن ضعف فى ذهن الإنسان وجزء لايتجزأ منه ولا ينفصل عنه ، إن هذا الضعف كان موجوداً وسيظل موجوداً دائماً (٦٥)

وتابع فولتير حملته وأخرج « موجز عن موت شيفاليه دى لابار . وأرسل إلى أصدقائه الملكيين يطلب إليهم التوسط لدى لويس الخامس عشر ليرد إلى الشاب الميت اعتباره بشكل أو بآخره . ولما أخفقت هذه المساعى أرسل إلى لويس السادس عشر (١٧٧٥) رسالة عنوانها « صرخة الدم البرىء» . ولم ينقض الحكم على لابارقط ولكن رضيت نفس فولتير حين رأى ترجو يعيد النظر فى قانون العقوبات الذى أجاز إعدام شاب نتيجة أخطاء يبدو أنها تستحق عقوبة أقل من ضرب العنق . وتابع فولتير بنشاط يستحق التنويه به فى مثل سنه ، قيادة هذه الحملة الصليبية حتى آخر حياته ضد أفراط الكنيسة والدولة .

وفى ١٧٦٤ ظفر بإطلاق سراح كلود شرمونت الذى كان قد حكم عليه بالتجديف فى السفن الشراعية لحضوره صلاة بروتستانية . ولما أطاحوا برأس كونت توماس دى لالى (١٧٦٦ فى باريس) القائد الفرنسى الذى هزم أمام الإنجليز فى الهند بتهمة الخيانة والجبن فإن فولتير تلبية لنداء ابن لالى ، كتب مجلداً من ٣٠٠ صحيفة تحت عنوان شذرات تاريخية عن الهند يبرىء فيه الكونت ، واستحث مدام دى بارى لتتوسط لدى لويس الخامس عشر وألغى الحكم ١٧٧٨ قبل وفاة فولتير بزمن قصير .

إن هذه الجهود الشاقة أرهقت المناضل الذى بلغ الثمانين . ولكنها جعلت منه بطل فرنسا المتحررة .وأورد ديدرو فى كتابه (ابن أخى رامو) أن فولتير بلغ الذروة فى كتابه محمد ، ولكنى كنت أفضل أن أدافع عن كالاس .(٦٦)

وقال بوماريه وهوقسيس بروتستانتي في جنيف لفولتير— يبدو كأنك تهاجم المسيحية ولكنك تؤدى عمل الرجل المسيحي[٦٧] وأسهم فردريك على — الرغم من كل حرصه وحذره في تقدير وإجلال الرجل الذى جعل من نفسه « ضمير أوربا » ، حيث يقول » كم هو جميل أن يسمع فيلسوف صوته لكل الناس من ميكنه . وأن يجبر الجنس البشرى الذى يتكلم هذا الفيلسوف باسمه القضاة على إعادة النظر فى الأحكام الجائرة وإذا لم يكن ثمة شىء آخر يتحدث بفضل فولتير ، فإن هذا وحده كاف ليحظى بمكان بين من أحسنوا إلى الجنس البشرى وأدواله أجل الخدمات[٦٨]

٦ — أقضوا على الرجس

فى غمرة هذا الصراع انقلبت مناهضة فولتير للمسيحية إلى بغض استمر عشر سنين من حياته (١٧٥٩ — ١٧٦٩) وكان قد بدأ باحتقار شبابى للمعجزات والأسرار والأساطير التى واجهت الناس ، ثم انتقل إلى تشكك ساخر فى المبادىء المسيحية مثل التثليث وتجسد المسيح (اتحاد الألوهية والناسوتية فيه) وآلام المسيح وموته (تكفيراً عن خطايا البشر) ، عما اعترف توماس أكويناس صراحة بأنه ليس فى متناول العقل ، أو أنه يشق على الفهم . ولكن حالات التمرد والثورة هذه طبيعية فى ذهن نشيط يحس بالمويسرى فى العروق وربما مرفولتير بهذه الحالات حتى أصبح رجلا يتغاضى كما يتغاضى العالم تغاضياً لطيفاً عن المعتقدات العزيزة على جماهير الناس المفيدة بوصفها عاملا مساعداً على النظام الاجتماعى والانضباط الخلقى .
وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان رجال الدين الفرنسيون متسامحين نسبيا ، وأسهموا فى تقدم الاستنارة ولكن اتساع نطاق الكفر والترحيب الذى قوبلت به دائرة المعارف أزعجا رجال الكنيسة وانتهزوا فرصة ما داخل الملك من رعب بمحاولة دامين Damiens قتله (١٧٥٧) ليخرجوا من الدولة بمرسوم (١٧٥٩) ينص على أن مهاجمة الكنيسة جريمة عقوبتها الإعدام . ورأى الفلاسفة فى هذا إعلانا للحرب ، واحسوا بأنهم ليسوا منذ الآن فى حاجة إلى أن يدخروا أية مشاعر أو أية تقاليد فى شن الهجوم على ما بدا لهم أنه حماقة

قاتلة . ورأوا خلف جمال الديانة وشعرها دعاية تسخر الفن وتصادره ، وخلف مساندة المسيحية للفضيلة والأخلاق القويمة ألف مهرطق يحرقون وهم مشدودون إلى الخازوق ، كما رأوا أهل مدينة ألبي Albi (فى جنوب فرنسا) يسحقون فى حرب صليبية طاحنة ، ورأو أسبانيا والبرتغال تجللهما الكآبة والقتام بسبب محاكم التفتيش ، وفرنسا ممزقة منعزلة بما فيها من أساطير متنافسة ، ورأوا مستقبل الروح البشرية فى كل مكان خاضعاً للتجديد أو البعث المتكرر للخرافه ولأساليب الكهنة والاضطهاد والتعذيب ، وعليهم أن يكافحوا نكسة العصور الوسطى هذه فى أواخر سنى حياتهم .

وثمة ثلاثة أحداث جعلت من عام ١٧٦٢ نقطة تحول فى هذا الصراع المتعذر كبح جماحه . فبدا اعدام كالاس فى مارس وكأنه إعلان عن انتكاس فرنسا إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . إن السلطة المدنية هى التى تولت المحاكمة والتعذيب والقتل ، ولكن وراء خلفية من تعصب شعبي عام ولدته التعاليم والطقوس والكراهية الدينية . وفى مايو زود كتاب روسو « اميل القرن الثامن عشر » بإعلان قسيس سافوى لعقيدة الإيمان ، وهو ولو أن مؤلفه خصيم للفلاسفة جرد المسيحية من كل شيء تقريبا فيما عدا الإيمان بالله وبأخلاق المسيح . وبدا أن احراق الكتاب فى ١١ يونية فى باريس و ١٩ يونية فى جنيف وحد بين الكاثوليكية والكلفنية فى مؤامرة ضد العقل البشرى . وكان واضحا أن استنكار برلمان باريس لليسوعيين فى أغسطس نصر للفلاسفة ، كما كان أيضاً نصرا للجانسنيين الذين سيطروا على برلمانات باريس وتولوز وروان ، وإن تصرفات البرلمانات فى قضيتى كالاس ولا بار لتوضح أن الجانسنيين كانوا أعداء ألداء لحرية الفكر ، قدر عداوة غيرهم فى تاريخ فرنسا بأسره . وفى نفس الوقت نجد أن العداء بين البرلمانات والحاشية الملكية ونمو سلطان شوازيل فى الحكومة (١٧٥٨ — ١٧٧٠) . وهو من مشايعى فولتير — مهدا للفلاسفة الفرصة للمضى فى النضال مع التعرض لخطر أقل مما هو مألوف من جانب رقباء الدولة والشرطة ، ومن ثم أعدت الساحة لذروة الهجوم على المسيحية .

والآن يطلق فولتير النذير ويصيح بأعلى صوته غاضبا فى « إقضوا على الرجس » . وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة فى ١٧٥٩ ، واستخدمها منذ تلك اللحظة مئة مرة فى عدة صيغ مختلفة ، كما استخدمها أحياناً بمثابة توقيع (٦٩). لقد اكتسب فولتير ابن الثمانية والستين عاما حيوية جديدة ونشاطا جديدا حين شبه نفسه بكاتو سنكس القنصل حين ختم خطابه أمام مجلس السناتو الرومانى بصيحته « حذار من قرطاجه » وكتب فولتير يقول « إنى مصاب بالمغص ، وأنا أعانى كثيرا ، ولكن تخف آلامى حين أهاجم الخزى والعار » (٧٠). وفى حماسة شابة وثقة بالغة المدى نصب نفسه ونفرا من المعاونين المترددين لشن الحملة على أقوى نظام فى تاريخ البشرية .

وماذا كان يقصد بالرجس؟ هل كان يريد القضاء على الخرافة والتعصب والظلامية (النزعه إلى تعويق التقدم وانتشار المعرفة) والاضطهاد ؟ أو أنه أخذ على عاتقه هدم الكنيسة الكاثوليكية ، أو كل مذاهب المسيحية ، أو الدين أى دين ؟ أغلب الظن ألا يكون هذا الأخير لأننا نراه مرة بعد أخرى وسط الحملة يعلن إيمانه بالتوحيد ، وفى بعض الأحيان فى لغة عامرة يتقوى فولتير . وفى القاموس الفلسفى عرف الديانة بطريق غير مباشر بقوله « إن كل شيء تقريبا يتجاوز حدود عبادة كائن أسمى وإخضاع القلب لأوامره الأبدية هو خرافة (٧١) وقد يبدو أن هذا يرفض كل أشكال المسيحية فيما عدا مذهب الموحدين . إن فولتير نبذ تقريباً كل المبادىء المميزة فى المسيحية التقليدية — الخطيئة الأولى ، التثليث ، التجسد ، تكفير المسيح عن خطايا البشر ، والقربان ، وسفه « التضحية » من الله لله على الصليب أو من الكاهن فى القداس ، ومن ثم نبذ معظم أشكال البروتستانتية أيضا ، واعتبر الكلفنية عائقا فى سبيل التقدم ونشر المعرفة ، مثل الكاثوليكية . وصعق كهنة جنيف حين قال بأن كلفن مراوغ فظيع » ورأى أن فى مقدوره أن يعيش راضيا قانعاً فى ظل الكنيسة الرسمية كما كان قد رآها فى انجلترا . وكتب إلى دالمبير : « آمل أن تقضى على الرجس ، تلك هى النقطة الهامة . ويجدر أن نهبط بها

إلى ما هى عليه فى إنجلترا . وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت ، أو تلك هى أجل خدمة يمكن أن تؤديها للجنس البشرى » (٧٢) وقد نخلص من هذا إلى أنه قصد بالرجس الدين عامة ، بل الدين الذى قصد به نشر الخرافة والأساطير والتحكم فى التعليم والسيطرة عليه ، ومناهضة الانتقاض على الرقابة ، والأعتراض على الاضطهاد . وتلك هى المسيحية التى رآها فولتير فى التاريخ وفى فرنسا .

وهكذا أحرق كل الجسور من خلفه ، ودعا كل أفراد عصبته للحرب . « وكان المطلوب لدك الحصون خمسة أو ستة من الفلاسفة يفهم الواحد منهم الآخر ... لقد غرس دالمبير وديدرو وآل بولينجاروك وهيوم وأمثالهم بذور الحقيقة » (٧٣) ولكن بشكل مشتت تعوزه الخطة المتماسكة ، وعليهم الآن أن يتحدوا ، وسيكون هو على رأسهم ، وتلك قضية يسلم هو بها ، ويشير عليهم بخطة العمل فيقول : « اضرب وأخف يدك ... إنى آمل أن يستطيع كل من الإخوة أن يسدد بعض السهام إلى هذا المسخ دون أن يعلم أية يد صوبتها إليه (٧٤) إنى لأرجو أن يتسلل الإخوان إلى الأكاديميات ومراكز النفوذ وإلى الوزارة إذا أمكن ، إنهم ليسوا فى حاجة إلى تحويل الجماهير بل إلى تحويل الرجال ذوى السلطة الذين يمكنهم أن يأخذوا بزمام المبادرة . إن بطرس الأكبر غير روح روسيا ووجهها » . وكذلك حاول فولتير إدخال فردريك فى هذه الزمرة (٥ يناير ١٧٦٧) « مولاى إنك على حق تماما أن الأمير القوى الشجاع يستطيع بالمال والجنود والقوانين أن يحكم الناس دون عون من الدين الذى ما أقيم إلا ليضللهم ويخدعهم . إن جلالتكم تؤدون إلى الجنس البشرى أجل خدمة خالدة باقتلاع جذور هذه الخرافة المخزية ، ولا أقول من الرعاع غير الجدير بن بالتنوير ، الذين يتبعون أول ناعق ، وهم أهل للخضوع لأى سلطان ، ولكن أقول بين الناس المخلصين الأمناء ، بين الذين يفكرون والذين يريدون أن يعملوا فكرهم ..

وعليك أن تختبر عقولهم .. ولست آسف على شيء حين تدهمني المنون إلا على أني لن أتمكن من معاونتك في هذه المهمة النبيلة » (٧٥) .

وسخر فردريك من سذاجة هذا الشيخ الهرم ، ولكن فولتير أصروثابر ، مما كان له كما سنرى فيما بعد ، بعض الأثر على وزراء فرنسا والبرتغال وأسبانيا .

ورحب بأهوان أقل شأنا وكتب نصائح رسولية إلى بورد في ليون ، وسرفان في جرينوبل ، وبيير روسو في بويون ، وأود بير في مرسيليا ، وريبوت في مونتوبان ، ومركيز دار جنس في شارنت ، وإلى الراهب أودرا في تولوز . وأطلق على هؤلاء جميعا وغيرهم اسم « الإخوة » ، وأرسل إليهم بالمسادة والنداءات يستحثهم ويحفزهم حتى لا يغلب عليهم النعاس : « شنوا الحرب أيها الإخوة جميعا ببراعة على الرجس . إن كل ما يهمني هو نشر الإيمان والحقيقة والنهوض بالفلسفة ، والقضاء عن الخزى والعار . اشربوا معي نخب أفلاطون (ديدرو) وامحوا الرجس . إني أعانقكم أيها الإخوة جميعا .. إن صحتي تدعو إلى الإشفاق .. امحوا الرجس . إني أحتضن اخوتي في كنفوشيوس .. في لوكر يشس ، في شيشرون ، في سقراط ، في ماركوس أوربليوس ، في جوليان ، وفي شيوخنا الإجلاء جميعا . إني أمنح بركتي للإخـوة جميعا . صلوا وارقبوا أيها الإخوة ، اقضوا على الرجس » (٧٦) .

وباتت الكتب الآن أسلحة وبات الأدب حربا . ولم تقتصر الأمور على دخول ديدرو ودالمبير وهلفشيوس ورينال وموريلليه وكثير وغيرهم بأقلامهم في المعركة . ولكن فولتير الذى كان يحتضر دائما أصبح مستودعا حقيقيا للقذائف ضد رجال الدين ، وأخرج على مدى عشر سنين نحو ثلاثين كتيبا . ولم يكن يؤمن بفعالية المجلدات الضخمة فهو يقول : « أى أذى ينجم عن كتاب (الموسوعة مثلا) يكلف مائة كروان .. إن عشرين مجلدا من القطع الكبير لن يفجروا ثورة أبدا . إنها المجلدات الصغيرة السهلة الحمل القليلة

الثمن (من ذات الثلاثين سو) هى التى يخشى جانبها . ولو كان الأنجيل غالى الثمن (ثمنه ١٢٠٠ سسترس عملة رومانية قديمة) لما قامت الديانة المسيحية(٧٧) .

ومن ثم لم يخرج مجرد تواريخ وروايات ، بل نشرات وحكايات وعظات وتوجيهات وتعاليم دينية مفرغة فى قالب أسئلة وأجوبة ، وخطبا لأذعة ومحاورات ورسائل ونقدا موجزا للكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ، مما يسهل تداوله وانتشاره ويصيب الرجس بجراح ، وكان فردريك قد كتب إليه منذ زمن طويل :

« أنى لأتصور أنه فى مكان ما فى فرنسا نخبة منتقاة من ذوى العبقرية الرفيعة المتساوية ، ممن يكتبون معا وينشرون كتاباتهم تحت أسم فولتير . . . فإذا كان هذا الأفتراض صحيحاً فلسوف أصبح مؤمنا بالتثليث وابدأ فى رؤية ضوء النهار فى هـــذا السر الذى آمن به المسيحيون حتى الأن دون أن يفهموه(٧٨) .

ولكن فولتير لم يكن يكتب الآن تحت أسم فولتير ، بل استخدم أكثر من مائة من مختلف الأسماء المستعارة ، بل أحيانا ، فى مرح شيطانى ، نسب هجماته العنيفة إلى رئيس أساقفة كنتربرى ، أو رئيس أساقفة باريس ، أو إلى قسيس أو كاهن أو راهب ، ورغبة فى أبعاد كلاب السماء عن طريقه خص نفسه بأحدى قذائفه . وكان يعرف أصحاب مطابع باريس وأمستردام ولأهاى ولندن وبرلين ، فاستخدمهم فى حملته . وعن طريق داملافيل وغيره ، وكان يزود باعة الكتب مجانا بهذه النشرات ، وكانوا يبيعونها بأثمان رخيصة . وهم بذلك يغامرون . وأشتد العود ونما الغرس .

ونشر آنذاك فى ١٧٦٢ « عظة الخمسين » التى كان قد الفها قبل ذلك بعشر سنين على الأقل ، وقرأها على فردريك الأكبر فى بوتسدام ، وكانت أول هجوم مباشر على المسيحية . وبدأت بداية بريئة كل البراءة : « اجتمع كل يوم أحد فى مدينة تجارية آهلة بالسكان ، خمسون شخصا متعلما تقيا

متعقلا (الكويكرز فى لندن) فأدوا الصلاه وألقى أحدهم بحثا ، ثم تناولوا طعامهم ، وأخذوا قدرا منه للفقراء ، وتناوب كل منهم الرياسة ، وأم الصلوات ، وألقى الموعظة وهذه هى أحدى الصلوات وأحدى العظات :
« يا إلهنا ، يارب السموات ورب النجوم ، احفظنا بمنأى عن الخرافة . وإذا أسأنا إليك بتضحيات لا تليق بك فامح اللهم هذه الأسرار المخزية ، وإذا إنتقصنا من قدرك بهذه الخرافات الحمقاء ، فلتهلك الخرافات إلى الأبد . . . فليعش الناس ويموتوا فى عبادة إله واحد ، إله لم يكن ليولد أوليفنى[٧٩] » .

وحاولت العظة التدليل على أن الرب الذى ورد ذكره فى التوراة رب فخور حقود غضوب قاس قاتل ، لا يمكن لإنسان عاقل أن يعبده ، وأن داود كان وغدا منغمسا فى الشهوات سفاحا . فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هـــذا الكتاب تنزيل من عند الله ؟ وكيف تسنى أن يأتى من الأناجيل اللاهوت المسيحى الذى لايصدق ، والعمل الفذ السهل اليومى الذى يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه والبقايا التى لا تحصى ، وبيع الغفران والعداوات والبغضاء والحريق فى الحروب الدينية ؟

« لقد قيل لنا إن الناس بحاجة إلى الأسرار ومن الواجب خداعهم وتضليلهم . أيها الأخوة ، هل يجرؤ أحد على العدوان على الإنسانية بهذا الشكل ؟ ألم يخلص آباؤنا (المصلحون) الناس من إحالة الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، ومن الأعتراف المهموس به ، ومن صكوك الغفران ، ومن الرق والتعاويذ ومن المعجزات الزائفة والتماثيل السخيفة ؟ ألم يتعود الناس الآن الأستغناء عن هذه الخرافات ؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض خطوات أبعد من ذلك . فالناس ليسوا ضعاف العقول كما هو مظنون ، أنهم يستطيعون فى سهولة ويسر أن يقروا عبادة حكيمة بسيطه لاله واحد .... أننا لانعمل على سلب رجال الدين ما وفرلهم سخاء أتباعهم ، بل أن كل ما نريده — حيث أن معظمهم يسخرون من الأباطيل التى يعلمونها — هو أن ينضموا الينا فى التبشير بالحقيقة . . . . وأى خير عميم لا يحصى يمكن أن يتأتى بسبب هذا التغيير الميمون[٨٠] !

أن هذا يرهقنا اليوم كل الأرهاق ، ولكنه كان مادة ثورية فى فرنسا القرن الثامن عشر . فـــلا عجب إذن أن يصدره فولتير على زعم أن لامترى كان قد دبجه من قبل ، ولامترى فى عداد الأموات الآمنين .

وفى سنة ١٧٦٣ تحول المناضل إلى الدراما (المسرحيات) ، قصة قصيرة تافهة تحت عنوان « أبيض وأسود » ، وكتيب « أسئلة وأجوبة عن الرجل الأمين » يسرد فيه « ديانتة الطبيعية » ولكن عام ١٧٦٤ كان عاما بارزا ، فقد شغل فيه فولتير أصحاب المطابع « بأنجيل العقل » و « أختيار الديانة » (وهو طبيعة منقحة من كتاب جان مسلييه الملتهب) (العهد الجديد) ثم أحد أهم منشوراته وهو موجز القاموس الفلسفى (السهل الحمل) ولم يكن المجلد الضخم ذا الثمانمائة وأربع وعشرين صفحة ذات نهرين الموجود الآن ، أو الخمسة أو الثمانية مجلدات التى تملؤها « مجموعة أعماله » بل كان كتابا صغيراً يسهل الأمساك به أو أخفاؤه . إن إيجاز مقالاته وبساطة أسلوبه ووضوحه ، كل أولئك جعله فى متناول مليون قارىء فى كثير من البلاد .

وهذا إنتاج ضخم جدير بالتنويه لرجل واحد . وربما كان به ألف من الأخطاء ، ولكن المادة التى جمعت فيه ، والمعلومات التى تناولت كل فروع المعرفة تقريباً ، جعلت الكتاب واحدة من المعجزات فى تاريخ الأدب . وأى جد ومثابرة وأى هذر وأى إصرار وعناد فى هذا الكتاب : أن فولتير منهمك فى القيل والقال ، أن لديه ما يقوله فى كل شيء تقريباً ، ولديه دائما شيء لايفقد أهميته وتشويقه أبدا تقريبا . وهنا كثير من العبث والتفاهة والسفاسف أو السطحية ، وهناك بعض ملاحظات حمقاء (إن عقل أوربا أحرز تقدما فى المائة سنة الأخيرة أكثر مما أحرز العالم كله من قبل منذ أيام براهما وزرادشت)[٨١] . ولكن لن يتسنى لأحد أن يلتزم جانب العقل والحكمة فى ألف صحيفة ، ولم يكن أى إنسان بارعا متألقا دائما وهو يكتب هذا القدر الكبير من الصفحات . أنه أورد فيه دراسة أصول الألفاظ وتاريخها ، لأن فولتير مثل كل قارىء محب للاستطلاع ، وكانت تجاذب

نطره المحن التي قاستها الألفاظ والكلمات في ترحالها عبر الزمان . وهنا في مقال « سوء استخدام الكلمات » ثم في مقال « المعجزات » نجد قاعدة فولتير الشهيرة « حدد ألفاظك » .

وقصد بالكتاب أساساً أن يكون مصنعاً لإخراج الحجج ضد المسيحية كما عرفها فولتير ، وهنا نجد مرة أخرى الأشياء التي لا يمكن تصديقها في الكتاب المقدس ومافيه من سخافات وحماقات ومخازلا في مقال «المتناقضات» وحده ، بل في كل صحيفة تقريبا . من خول الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين انجيلا التي دونت في القرن الذي تلا موت المسيح ، هي وحدها - أي الأناجيل الأربعة - معتمدة موحى بها من عند الله ؟ وأي سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داود الوغد عن طريق يوسف المزعوم الخامل . ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها ؟ وهل كان بولص الذي نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح ؟

ولم يرق القاموس الفلسفي للآباء الروحانيين في مدينة جنيف . وفي ٢٤ سبتمبر ١٧٦٣ أمر مجلس الخمسة والعشرين النائب العام بأحراق أية نسخة يجدها منه . وفي ١٧٦٥ أصدر برلمان باريس أمراً شبيها بهذا ، وقد رأينا مصير الكتاب في آبفيل (١٧٦٦) وأكد فولتير لسلطات جنيف أن القاموس من عمل مجموعة من الكتاب مجهولة تماماً لديه . وفي الوقت نفسه أعد مقالات إضافية لتلحق بالطبعات الأربع الأخرى التي طبعت سراً قبل نهاية ١٧٦٥ كما أدخل مادة جديدة إلى الطبعات الخمس الإضافية التي ظهرت قبل وفاته في ١٧٧٨ . ورتب الأمور مع باعة كتب جنيف المتسترين ليمدهم مجاناً بأكبر عدد ممكن من النسخ يمكن توزيعه ، ومع الباعة على أن يتركوا نسخاً من هذا القاموس في الدور الخاصة [٨٢] :

وتابع فولتير الحرب بلا هوادة في ١٧٦٥ - ١٧٦٧ . وفي ١٧٦٤ كان

قد ترك نهائيا داره فى لى دليس فى مدينة جنيف التى باتت غير ملائمة لهرطقاته وضاقت بها ذرعا ، وكان لمدة نحو ثلاث سنوات لم يكد يبرح مكانه فى فرنى ، وكان فى كل شهر تقريبا يرسل إلى إحدى المطابع نشرة جديدة ضد « العار » وزعم كتيب Ouestions de zopata (مارس ١٧٦٧) أنه مجموعة أسئلة طرحها أمام لجنة من اللاهوتيين أستاذ اللاهوت فى جامعة سالامنكا فى ١٦٢٩ . وأعلن زاباتا عن شكوكه فى « نجم بيت لحم » وفى الإحصاء المزعوم « لكل الأرض » الذى أجراه أغسطس ، وفى قتل الأبرياء « وإغراء الشيطان ليسوع فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض . وأين كان يقع هذا التل العجيب ؟ ولم لم يف المسيح بوعده فى الحضور على متن سحابة فى قوة ومجد عظيم ، ليؤسس « مملكة الله » قبل أن ينقرض هذا الجيل ؟ [٨٣] ما لذى عوقه ؟ هل كان الضباب كثيفا إلى حد كبير ؟ [٨٤] ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك ؟ .. هل ألجأ من أجل تنويرهم وتهذيبهم ، إلى تعذيبهم العذاب العادى وغير العادى؟ أو الا يكون من الأفضل أن أتجنب هذه المتاهات ، وأحض على الفضيلة ببساطة فقط ؟ [٨٥] والخاتمة .

« حيث أن زاباتا لم يتلق جوابا ، فإنه لجأ إلى التبشير بالله بكل بساطة. وأعلن إلى الناس أنه « أى الرب » هو والد الجميع ، وأنه هو الذى يثيب ويعاقب وهو الغفور . واستخلص الحقيقة من الأكاذيب ، وفصل الديانة عن التعصب .وعلم الفضيلة ومارسها ، وكان وديعا عطوفا متواضعا وأحرق فى بلد الوليد (فى أسبانيا) فى عام البركة ١٦٣١ [٨٦] » .

وفى مايو ١٧٦٧ عاد فولتير إلى الهجوم فى نشاط أكبر فى كتاب من مائة وخمسين صفحة « اختبار هام للورد بولنجبروك » . وهنا وضع حججه على لسان الرجل الإنجليزى المتوفى . ولكنه كان من المحتمل أن يرتضى بولنجبروك هذا العبء الثقيل . وفى نفس العام نشر فولتير « الساذج » ، وهى قصة لطيفة تقع فى مائة صفحة عن أمريكى فاضل بشكل لا يصدق

لحضوره إلى فرنسا من أمريكا،حيرته العادات الأوروبية واللاهوت المسيحي. وفي ١٧٦٩ خرج كتيب « صيحة الأمم » وهو نداء إلى أوربا الكاثوليكية لتخلع نير سلطان البابوات المزعوم على الملوك والدول . وتابع الحملة في نفس العام بكتاب جاد مدروس ولكنه مثير هو « تاريخ البرلمان » متهما هذه الهيئة بأنها مؤامرة من جانب الجانسنيين الرجعيين. وفي ١٧٧٠ — ١٧٧٢ أصدر تسعة مجلدات تحت عنوان أسئلة عن الموسوعة » وهي خليط من مقالات تشكل موسوعة رجل واحد. وهو أشد عداء للكاثوليكية وأقسى في هجومه عليها من موجز القاموس الذي أسلفنا ذكره.

إن فولتير أخفى منشوراته عادة تحت أسماء أو عنوانات خداعة مضللة : « محاضرات في تفسير العهد القديم ، رسالة إلى الرومان ، عظات الأب الجليل جاك روست ، محاضرات وعظات الكاهن بورن ، نصائح لأرباب الأسر . وساورت جمهور فرنسا المتعلم الظنون بأن فولتير هو المؤلف ، لأنه لم يكن يستطيع أن يخفي أسلوبه ، ولكن لم يثبت أحد ذلك ، وباتت هذه اللعبة المثيرة حديث باريس وجنيف ،وتردد صداها في لندن وأمستردام وبرلين ، بل وفي فيينا ، ولم يحدث في التاريخ أن لعب كاتب لعبة التمضية (أو الاختفاء) مع أعداء أقوياء مثل هؤلاء ، وبمثل هذا النجاح . وحاول مائة من الخصوم أن يردوا عليه ولكنه قارعهم الحجة بالحجة جميعاً ، وحارب في قسوة ، وأحيانا في خشونة وغلظة ، كما كان أحيانا مجحفا غير منصف ،وتلك هي الحرب . وكان مستمتعا فرحا بها، وحمى وطيس المعركة فنسي أن يموت .

والحق أن تفاؤلا غريبا غلب على فولتير ، الذي بدأ بعد « زلزال لشبونه » و « كانديد » وكأنه ينصح بالاستسلام لشرور الحياة التي لا سبيل لقهرها أو التغلب عليها . وراوده حلم فلسفة منتصرة على كنيسة متغلغلة في حاجيات الناس . وإذا كان اثنا عشر من صيادي السمك الأميين قد أقاموا المسيحية ، فلم لا يستطيع اثنا عشر فيلسوفا أن يقضوا على تعاليمها وعلى محاكم

التفتيش فيها . وكتب إلى أحد الإخوة « عش سعيدا واقض على الرجس » وأكد أنهم سيقضون عليه (٨٧) . ألم يكن إلى جانب ملك وامبراطورة وعشيقة ملكية وكثير من الشخصيات اللامعة ؟ أنه تملق الحاشية وتودد إليها علنا أو سرا بمهاجمة برلمان باريس ، ونعم بعطف مدام دى بمبادور ومدام دى‌بارى فيما بعد ، بل إنه كان يأمل فى إغضاء لويس الخامس عشر عنه . وكتب إلى دالمبير فى ١٧٦٧ « فلنبارك هذه الثورة السعيدة التى نشأت فى عقول كل المخلصين والأمناء من الرجال فى الخمسة عشر أو العشرين عاما الأخيرة ، إنها فاقت كل ما كنت أؤمل فيه) (٨٨) ألم يتنبأ بها ؟ ألم يكتب إلى هلفشيوس فى ١٧٦٠ (إن هذا القرن بدأ يشهد انتصار العقل) (٨٩) .

٧ — الدين والعقل

إن فولتير لم يكن من السذاجة بحيث يتصور أن الدين اخترعه القساوسة والكهنة ، بل على النقيض من ذلك كتب فى القاموس الفلسفى : (إن فكرة الإله مستمد من الشعور ،وذاك المنطلق الطبيعى الذى يتكشف بتقدم العمر ، حتى فى أغلظ البشر قلبا . وشوهدت أكثر آثار الطبيعة ادهاشا — وفرة المحصول والجدب والأمحال والجو المعتدل والعواصف ، المزايا والبلايا — كما كان الإحساس بيد سيد خارق للطبيعة ... إن الملوك القدامى استخدموا فى زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم (٩٠) . وأفردت كل جماعة إحدى القوى الخارقة لتكون إلها حارسا لها ، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القرابين ، على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وآلهتها ، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة ، ولكن التفاسير والتأويلات والطقوس كانت من عمل الكهنة . وبمرور الزمن لعب الكهنة على خوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم . واقترفوا كل ضروب الخداع واللؤم ، حتى إلى حد إعدام (المهرطقين) وقتل جماعات بأسرها ، والقضاء على الأمم تقريبا . وانتهى فولتير إلى القول : « لقد

كرهت الكهنة ، وأنا الآن أبغضهم ، وسأظل أبغضهم إلى يوم الحساب[٩١].

أن فولتير وجد كثيراً مما يمكن قبوله فى الديانات غير المسيحية ، وبخاصة فى الكونفوشية (وهى ليست ديانة) ، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير فى اللاهوت المسيحى . « أن لدى مائتى مجلد فى هذا الموضوع ، والأدهى من ذلك أنى قرأتها وكأنى أقوم بجولة فى مستشفى للأمراض العقلية[٩٢] . » ولم يضيف إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس . وإنما كانت مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع . ولا يزال أثر هذا علينا واضحا. وفى جرأة وإندفاع أكثر ممن جاءوا بعده ، أكد مرارا سخف طوفان نوح وعبور البحر الأحمر ، وذبح الأبرياء وغير ذلك . ولم يكل ولم يمل قط من شجب قصة « الخطيئة الأولى » ونظريتها . وأقتبس فى سخط وغضب قول سانت أو غسطين « أن المذهب الكاثوليكى يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحا جديدة أفضل[٩٣] » . (ويقال إن مثل هؤلاء الأطفال يذهبون إلى مكان جميل بجوار الجحيم اسمه الأعراف) ! !

أما بالنسبة للسيد المسيح فإن فولتير كان مذبذبا . وأنتقل من الورع الطبيعى فى الطفولة إلى عدم التوقير الذى يغلب فى الشباب ، إلى حد قبول قصة مارى مع الجندى الرومانى ، وفكر فى وقت ما أن يسوع متعصب مخدوع « أحمق » ؛ ولما نضج تعلم كيف يبدى أعجابه بتعاليم يسوع الأخلاقية وقال : « سيكون خلاصنا بفضل ممارسة هذه المبادىء الأخلاقية ، لانتيجة أيماننا بأن المسيح هو الله » . وسخر كثيرا من « التثليث » فى كتابه الملحد والحكيم . ويسأل الملحد « هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصا واحدا وأرادة واحدة ، أو أن له طبيعتين وشخصيتين وارادتين ، أم أن له إرادة وأحدة وطبيعة واحدة وشخصيتين ، أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة ؟ » ولكن الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحيا طيبا[٩٥]. ويشير فولتير إلى أن المسيح ، بخلاف القديس بولص والمسيحيين اللاحقين ، ظل مخلصا

لليهودي على الرغم من نقده للفريسيين : « أن هذا الإله الخالد ، بعد أن جعل نفسه يهوديا ، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدى شعائرها ويتردد على المعبد اليهودى ولا ينطق بشيء يخالف الشريعة اليهودية . وكل التلاميذ يهود وهم يؤدون الشعائر اليهودية . يقينا إنه ليس هـــو الذى أسس الديانة المسيحية . . . أن يسوع المسيح لم يبشر بأيه خصيصة واحدة من خصائص المسيحية[٩٦] » .

أن يسوع فى رأى فولتير ، قبل معتقد كثير من اليهود الأتقياء قبله ، بأن العالم كما عرفوا يسير إلى نهايته ، وسرعان ما تحل محله « مملكة الرب » أى الحكم المباشر لله على الأرض . (والنقد الحديث يقبل وجهة النظر هذه).

وتجاوب فولتير فى سنواته الأخيرة ، أكثر فأكثر ، مع قصة المسيح وبدأ يسميه « أخى » « مولاى[٩٧] » وصور نفسه وكأنما أنتقل فى حلم إلى صحراء مغطاة بأكوام من العظام ، فهنا أشلاء ٣٠٠ ألف من اليهود المذبوحين ، وهناك أربعة تلال من المسيحيين شنقوا بسبب الخــلافات الميتافيزيقية ، وأكوام من ذهب وفضة تعلوها صولجانات وتيجان الأساقفة والملوك المنحلين ، ثم حمله ملاكه المرشد إلى واد أخضر حيث أقام الحكماء العظام ، وهناك رأى نوما ويومبليوس وفيثاغورس وزردشت وطاليس وسقراط . . . وأخيرا « تقدمت مع دليلى إلى أيكة أعلى من تلك التى أخلد فيها الحكماء القدامى إلى راحة بهيجة ، ورأيت رجلا يتسم بالبساطة وحسن المنظر ، بدا لى أنه فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وكانت قدماه ويداه منتفختين داميتين ، وكان مطعونا فى جنبه وكان لحمه ممزقا بضربات من سوط . ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين آلام هذا الحكيم وآلام سقراط».

وسأله فولتير عن سبب موته ، فأجابه يسوع « الكهنة والقضاة » . هل قصد أن يؤسس دينا جديداً ؟ كلا . هل كان مسئولا عن هذه الأكداس من العظام وهذه المقادير الضخمة من الذهب الملكى أو الكهنوتى ؟ كلا . لقد عشت وصحبي فى أشد الفقر « إذن مم تتألف الديانة الحقة ؟ » ألم أقل

لكم من قبل ؟ أحب الله وأحب جيرانك كما تحب نفسك » فقال فولتير » إذا كان الأمر كذلك فأنت مولاى الوحيد ، ورسم لى علامة نزلت على قلبى بردا وسلاما . وأختفى الطيف وتركنى وقد إرتاح ضميرى وشاع فى نفسى السلام والطمأنينة(٩٨) .

ولكن تلك كانت حالة نفسية لاحقة . فإن فولتير فى سنى حربه ضد المسيحية رأى فى تاريخها شقاء بالغا للجنس البشرى . أن صوفية بولص وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك فى صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة فى التخطيط والتدبير ، تضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عند الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية . ثم أن آباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل ارضاء عقول الطبقة الوسطى . وخبا شيئا فشيئا نور الثقافة الكلاسيكية بأنتشار الأخيلة الصبيانية والاحتيالات والخدع الورعة . حتى خيم الظلام لعدة قرون على عقل أوربا . وزحف المتأملون من الناس والحالمون منهم ، كما زحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة ومسئولياتها ، إلى الأديار . وأصاب بعضهم بعضا بعدوى أحلام النساء والشياطين والآلهة . واجتمعت مجالس العلماء والمتفقهين لتنظر أى الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءا من العقيدة المعصومة . وباتت الكنيسة ، بعد أن أسست قوتها وسلطانها على فكرة أشباع رغبة الناس فى الأساطير والخرافات التى تبعث على السلوى والعزاء ، نقول باتت الكنيسة بعد ذلك أقوى من الدولة التى تؤسس سلطانها على القوات النظامية . وأصبحت قوة السيف تعتمد على قوة الكلمة وثل البابوات عروش الملوك ، وأحلوا الأمم من واجب الولاء للملوك .

ومن رأى فولتير أن الأصلاح البروتستانتى كان مجرد خطوة متعثرة نحو العقل وأمتدح الثورة ضد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات فى الأديار ، وضد بائعى صكوك الغفران ، وضد رجال الدين الساعين إلى جمع الثروة ، الذين « استنزفوا فى بعض الحالات دخل أقليم بأسره » وفى شمال أوربا

أختار الناس دينا أرخص وأقل تكلفة[٩٩]. » ولكن أثاره توكيد اللوثريين والكلفنين على القضاء والقدر[١٠٠]. تخيل حاكما أو ملكا يحكم على ثلثى رعاياه بالخلود فى النار ! أو تأمل فى مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس ، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز ، واللوثريون يلتهمون الرب والخبز كليهما ، والكلفنيون يأكلون الخبز ، لا الرب . وإذا روى لنا أحد شيئا من مثل هذا الأسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا إنه يخدعنا ويلعب على عقولنا[١٠١]. » لقد ولى تقدم العقل لمثل هذه الخلافات ظهره ، وتركها بعيدا إلى الوراء « وإذا قدر للوثروكلفن أن يعود إلى الحياة الدنيا فلن يثيرا ضجة أكثر مما فعل أتباع جون دنز سكوتس وتوماس أكويناس[١٠٢] » .

وإذا أستمر البروتستانت على التبشير بمثل هذا اللاهوت فلسوف تتخلى عنهم الطبقات المتعلمة ، على حين تؤثر الجماهير مذهب رومه المعطر النابض بالحياة . وبالفعل كان فولتير يظن « أن الكلفنية واللوثرية معرضتان للخطر فى ألمانيا ، فأن تلك البلاد مملوءة بالأسقفيات العظيمة والأديان المسيطرة والشرائع والمذاهب الكثيرة ، وكلها ملائمة لعمل أية ردة »[١٠٣] .

إذن هل يجدر بالناس المتعقلين أن يتخلوا عن الدين تماما ؟ كلا ، فأن دينا يدعو إلى الله وإلى الفضيلة دون أية تعاليم أو مبادىء أخرى ، لأبد أن يكون ذا نفع حقيقى للجنس البشرى . . . وفى سنيه الأولى كان فولتير يظن « أن أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدة الدين ليكونوا طيبين صالحين ، هم أحق بالرثاء والأشفاق » وأن أى مجتمع يمكن أن يعيش بالأخلاق الطبيعية غير معتمد على المعتقدات الخارقة[١٠٤] » . ولكن لما اتسعت خبرته بالأهواء البشرية بدأ يسلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاق يمكن أن يقاوم بنجاح القوة البدائية فى الغرائز الفردية ، إلا إذا دعمه أيمان شعبى عام بأن هذا القانون الأخلاقى صادر عن إله بصير ، إله يثيب ويعاقب ، وهو الذى يتولى السهر عليه . وبعد أن إتفق مع لوك عن أنه ليست هناك أفكار فطرية ، عاد فانحاز

إلى رأى ليبنتز فى أن الحس الخلقى فطرى ، وعرفه بأنه شعور بالعدل أودعه الله فينا « أن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ولكن الدين يراقب الجرائم الخفية[١٠٥] » . وفى كتاب « الملحد والحكيم » يقول الحكيم :

سأفترض (لاقدر الله) أن كل الانجليز ملحدون ، وأذهب إلى أن هناك بعض مواطنين مسالمين ، هادئين بطبيعتهم أثرياء إلى حد يمكن أن يكونوا معه أمناء يلتزمون مبادىء الشرف . ويراعون قواعد السلوك إلى حد أنهم يسعون جهدهم ليعيشوا معا فى المجتمع . . . . ولكن الملحد الفقير المعوز سيكون غبيا إذا هو لم يقتل أو يسرق ليحصل على المال . فهل تنفصم إذن كل عرى المجتمع وروابطه وتطغى كل الجرائم الخفية على العالم وتنتشر مثل الجراد فوق الأرض ، ولو أنها فى أول الأمر تكون ضئيلة لاتدرك . . . من ذا الذى يكبح جماح الملوك العظام ؟ أن الملك الملحد أشد خطرا من الكاهن المتعصب . . . وتفاقم الالحاد فى أيطاليا فى القرن الخامس عشر . فماذا كانت النتيجة ؟ وكان من الأمور الشائعة أن تسمم إنسانا وكأنك تدعوه إلى العشاء. إذن يكون الإيمان بآله يثيب على صالح الأعمال ويعاقب على الشرور ، ويغتفر مادون ذلك من الأخطاء اليسيرة ، من أنفع الأشياء للإنسان[١٠٦] » .

وإتجه فولتير آخر الأمر إلى أن يرى بعض المعنى فى نظرية الجحيم :

« إلى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون الجحيم فى كتاباتهم أسوق الحديث : أيها السادة ، أنا لانقضى أيامنا مع شيشرون وأتيكوس وماركوس وأوريليوس وابيقور . . . ولامع الفاضل المبالغ فى التدقيق والشك ، سبينوزا الذى رد — رغم كدحه تحت وطأة الفقر والعوز — إلى أطفال المتقاعد الكبير دى ويت ، راتبا قدره ٣٠٠ فلورين ، كان قد منحه أياه رجل الدولة العظيم ، الذى قد يذكر أن الهولنديين قد حطموا قلبه . وصفوة القول ، أيها السادة ، أن الناس ليسوا جميعا فلاسفة . أننا مضطرون إلى عقد الأتصالات والقيام بمختلف الأعمال ، والإختلاط فى غمار الحياة بالأوغاد الذين لايفكرون إلا قليلا ، أو أنهم لايفكرون أبدا . وبعدد لايحصى من

الناس الذين لاهم لهم إلا الوحشية والسكر والسلب والنهب ، ويمكنكم إذا أردتم أن تعظوهم بأن نفس الإنسان فانية . أما أنا فسوف أصرخ فى آذانهم بأنهم إذا سلبونى فسيكونون مذنبين لامحالة »[١٠٧] .

ونختم بأن فى مقدور الشيطان أن يقتبس من فولتير ما يحقق أغراضه أى ما يؤيد الشيطان نفسه . وبعد المناداة بديانة متحررة من الخرافات[١٠٨] ، أنهى المتشكك الكبير اسوأ الخرافات . إنه قد طالب بديانة تقتصر على غرس الفضائل والاخلاق القويمة[١٠٩] . أما الآن فهو يسلم بأن الناس العاديين لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن أرتكاب الجرائم إلا عن طريق دين فيه جنة ونار أونعيم وجحيم . وللكنيسة أن تقول إنه تاب وأناب .

وفى سن الثانية والسبعين أعاد فولتير صياغة معتقده تحت العنوان المهذب « الفليسوف الجاهل » (١٧٦٦) إنه فى البداية يعترف بأنه لا يعرف ماهى المادة وما هو الذهن ، ولا يعرف كيف يفكر ولا يعرف كيف يحرك فكره ذراعه[١١٠] . إنه يسأل نفسه سؤالا من الواضح أنه لم يدر بخلده من قبل : أمن الضرورة لى أن أعرف ؟ ولكنه يضيف « أنا لا أستطيع أن أجرد نفس من الرغبة فى التعليم والمعرفة . أن حب الأستطلاع الذى يبعث على الحيرة والارتباك عندى ، لايشبع ولا يقف عند حد مطلقا »[١١١] وهو الآن مقتنع بأن الأرادة غير حرة : « أن الجهول الذى يرى هذا لم يفكر دائماً هكذا . ولكنه فى النهاية مضطر إلى الأستستلام »[١١٢]. هل يوجد هناك إله ؟ نعم ، وهو العقل وراء « النظام والفن المذهل والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تحكم الكون[١١٣]. ولكن هـذا العقل الأسمى معروف لدينا فقط بوجوده لابطبيعته . « أيها الإنسان الفانى البائس . إذا كنت لا ادرك عقلى ، وإذا كنت لا أعرف ماذا ينفخ فى الحياة ، فكيف تكون لى أيةدراية بهذا العقل الذى يجل عن الوصف والذى من الواضح أنه يتحكم فى الكون ؟ . . . ولكننا من صنعه وتدبيره »[١١٤] .

ويميل فولتير إلى الأعتقاد بأنه لم يكن ثمة خلق فى وقت معين . وأن الدنيا

قد وجدت دائماً . « تنبعث دائماً من هـــذه العلة البدائية الأساسية ، كما ينبعث الضوء عن الشمس » وأن الطبيعة كانت تنبعث فيها الحياة دائما[١١٥] . ولا يزال يؤمن بأن هناك تدبيرا مقصودا فى الكون ، أى « العناية الألهيه » التى توحيه الجميع ، ولكنها تسمح للجزء — بما فى ذلك كل إنسان بمفره — أن يتدبر أمر نفسه[١١٦] . وينتهى إلى القول « إن قلت لى إنى لم أعلمك شيئا ، فتذكر أنى إبتدرتك بأنى جاهل[١١٧] .

وبدأ الفليسوف المتحير يحسد أولئك الذين لم يفكروا قط . ولكنهم آمنوا ، وراودهم الأمل فحسب . ومع ذلك رجع إلى رأى سقراط وهو أن الحياة بدون تفكير غير جديرة بالإنسان . . . وعبر عن تردد بين هذه الآراء فى الحياة فى كتاب « تاريخ برهمى طيب » (١٧٦١) :

(اتفق لى أن التقيت فى رحلاتى ببرهمى عجوز . وكان الرجل ذا عقل راجح وعلم واسع وثراء عريض .. وقال لى الرجل ذات يوم: وددت لو أنى لم أولد قط ، فسألت : ولم هذا ، فقال : لأنى كنت أدرس طيلة تلك السنوات الأربعين ،ووجدت أنى قد ضيعت وقتاً طويلا . وأنى لاأعرف شيئاً على الرغم من أنى أعلم الآخرين .. أنا موجود فى الزمن دون أن أعرف ما هو الزمن ، أنا موضوع ، كما يقال حكماؤنا ، فى التخوم بين عالمين لا نهائيين ، ومع ذلك ليس عندى أية فكرة عن الأبدية أو الخلود . وأنا مكون من مادة فيما أظن . ولكنى لم أستطيع قط أن أقنع نفسى بهذا الذى ينتج التفكير . . . ولا أدرى لماذا أنا موجود ، ومع ذلك فأنا مكب كل يوم على حل اللغز ، ويجب أن أرد جوابا، ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً مرضياً فى هذا الموضوع . إنى أتكلم كثيرا ، وعند ما انتهى من الكلام أظل متحيراً مرتبكا شاعرا بالخجل مما قلت ..)

وأهمتنى كثيراً الحالة التى رأيت عليها هذا الرجل حقا .

وفى اليوم نفسه كان لى حديث مع سيدة عجوز هى جارته . وسألتها أكانت يوما قد شعرت بعدم السعادة لأنها لم تعرف كيف صنعت نفسها .

ولم تفهم سؤالي . انها لم تفكر ولو لبرهة قصيرة في حياتها ، وفي هذه الموضوعات التي عذب البرهمي الطيب نفسه بالتفكير فيها . وآمنت من أعماق قلبها بتحول إلهها فشنو Vishnu وكانت ترى أنها أسعد النساء شريطة أن يتاح لها الحصول على شيء من الماء المقدس من نهر الكنج لتغتسل به . وأثارتني سعادة هذه المخلوقة المسكينة ، فعدت إلى فيلسوفي وابتدرته بقولي : ألا تخجل من بؤسك وتعاستك . على حين أنه على بعد ٥٠ ياردة منك يوجد مخلوق آلي (أوتوماتيكي) لا يفكر في شيء ويعيش هانئا راضيا فرد علي بقوله « أنت على حق . لقد قلت في نفسي ألف مرة إني سأكون سعيداً لو أني كنت جاهلا مثل جيراني العجائز . ومع ذلك فتلك سعادة لا أرغب فيها . وكان أثر رد البرهمي في نفسي أعظم من أي شيء مضى . وخلصت إلى أننا على الرغم من أننا قد نضفي على السعادة قيمة عظيمة ، فإننا لانزال نقدر للعقل قيمة أعظم .

ولكن بعد تأمل ناضج . . . لاأزال أرى أن هناك قدراً كبيراً من الجنون في إيثار العقل على السعادة (١١٨)

٨ — فولتير متعصب

وفي حالة نفسية مماثلة لهذه كان بسكال قد اختار أن يخضع تفكيره الذي غلب عليه المنطق للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تنظيما كان قد وجده بعد طول التجربة مزيجاً من التعليم والطقوس تساعد على الفضيلة والأخلاق القويمة وتخفف من لوعة التساؤل والحزن . ولم يذهب فولتير في سن السبعينات بعيداً إلى هذا الحد ، ولكنه سار مضطرباً مشوش الذهن في هذا الإتجاه .

وبدأ بأن وطن النفس على قبول فكرة أن الدين ، أي دين ، أمر مرغوب فيه بصفة عامة . وحين سأله بوزول (٢٩ ديسمبر ١٧٦٤) ألا ترى أن تكون هناك عبادة عامة ؟ أجاب فولتير « نعم ، من كل قلبي . فلنجتمع أربع

مرات فى كل عام فى معبد كبير ، تصدح فيه الموسيقى ، لتقدم الشكر لله على كل نعمائه . فهناك شمس واحدة ، وهناك إله واحد . ولتكن لنا ديانة واحدة . ومن ثم يكون بنو البشر إخوة) [١١٩] . أن الشمس — كما يقولون مهدت له نصف الطريق إلى الله . وفى مايو ١٧٧٤ وهو فى سن الثمانين ، صحا من نومه قبل الفجر ، وصعد مع أحد أصدقائه ليشهد مشرق الشمس من تل قريب . وربما كان يقرأ روسو . وبلغ القمة وقد نال منه التعب ، وأربكه جلال الشمس المنتصرة وعظمتها ، فركع وصاح : يا الله العلى العظيم ، أنى أؤمن ! لكن ثابت نفس فولتير إليه فقال وهو ينهض على قدميه أما بالنسبة للسيد الإبن والسيدة أمه ، فتلك مسألة أخرى [١٢٠].

وذهب شيئاً فشيئاً إلى أبعد من ذلك فارتضى وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقدمون الصلوات لله [١٢١]. واعترف بأن الأساقفة فى فرنسا وانجلترا أسهموا فى إقرار النظام الإجتماعى ، ولكن الكاردينالات كانوا باهظى النفقة ويجب الاستغناء عنهم . وكان ينظر بعين الإجلال والإكبار إلى راعى الأبرشية البسيط الذى حفظ سجل القرية وساعد الفقراء وأصلح بين الأسرات المتنازعة ، فهؤلاء الكهنة رعاة الأبرشيات يجب أن يكون احترامهم أكبر وأن تزاد مخصصاتهم ، وألا يستغلهم رؤساء الكنيسة [١٢٢]. وفى ساعات التجلى كان الثائب العجوز يريد زيادة الاجتماعات الدينية لتكون مرة فى كل شهر ، بل حتى فى كل أسبوع [١٢٣]. ويجب أن يكون هناك صلوات وتكبير لله ، وعبادات ودروس فى الأخلاق . ولكن لاقربان ولا ذبائح ولا توسلات ، ولتكن العظات قصيرة . وإذا كان لابد من صور وتماثيل دينية فلتكن لتخليد ذكرى أبطال الإنسانية ، لاذكرى القديسين المشكوك فى أمرهم ، مثل هنرى الرابع (لاخليلاته) . وينبغى ألا يكون هناك تعاليم خارقة للطبيعة ، اللهم إلا وجود إله عادل . ويجدر أن تخضع هيئة الكنيسة للدولة ، وأن تتولى الحكومة تدريب رجال الدين ودفع أجورهم .

ويمكن أن تبقى الأديار والرهبنات على أن تكون ملاجىء للعجزة والمرضى . ومثل كثير من المتشككين نظر فولتير بعين الأكبار والإجلال إلى الراهبات اللائى خرجن من أديارهن لمساعدة المرضى والفقراء منذ رأى « إخوات البر والإحسان » فى مستشفيات باريس . وكان قد كتب فى رسالة العادات والأعراف : ليس فى العالم كله ما يضارع التضحية بالجمال والشباب وغالباً بكرم المحتد وعراقة الأصل ، تلك التضحية التى يقدمها الجنس اللطيف عن طيب خاطر للتخفيف من ويلات الإنسانية فى المستشفيات . إن الأمم التى انفصلت عن العقيدة الكاثوليكية قلدت بشكل منقوص . أعمال البر والاحسان الجليلة هذه .(١٢٤)

وكما يعرف العالم بأسره شيد فولتير بالقرب من قصره فى فرنى كنيسة صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة « يارب إذكر عبدك فولتير » وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هـــذه الأرض . أما الكنائس الأخرى فهى مخصصة للقديسين(١٢٥) .

وطلب إلى رومه أن تزوده ببعض المخلفات المقدسة ليضعها فى كنيسته ، فأرسل البابا ثوبا من وبر الجمل للقديس فرانسيس أوف أسيسى ، ووضع فولتير على المذبح تمثالا بالحجم الطبيعى من المعدن المذهب للمسيح لا وهو مصلوب بل باعتباره حكيما . وهناك إبتداء من ١٧٦٠ فصاعدا ، حضر فولتير القداس فى كل يوم أحد . وكان يقوم هو نفسه بعملية البخور باعتباره سيد القرية . وفى عيد الفصح ١٧٦٨ تناول العشاء الربانى(١٢٦) وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ودفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة(١٢٧) .

وربما قصد بجزء كبير من هذه التقوى والورع أن يكون قدوة حسنة لأهل قريته ، ويشجعهم على إيمان قد يحد من جرائمهم ويصون ممتلكاته . وكان واثقا أن الحاشية الملكية فى فرساى سوف يترامى إليها أنباء سلوكه المثالى ، وربما راوده الأمل فى أن هذا قد ييسر مهمته فى شن الحملات من أجل كالاس وآل سيرفن ودى لأبار ، ويشفع فى عودته إلى باريس . والحق أن

الملك والملكة قد سرهما ماسمعا من أنباء إصلاحه . ووافق الكاهن دى لاباترى على أن يتناول فولتير الأسرار المقدسة ، ولكنه عندما رأى هزال المبلغ أبدى ملاحظة فحواها أن فولتير نسى أن يدفن نفسه ، فأجاب فولتير بانحناء واحترام « يعدلك ياسيدى ».[١٢٨] وفى ٣١ مارس سنة ١٧٦٩ إستدعى موثقا ووقع أمام عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته فى الموت على العقيدة الكاثوليكية[١٢٩]. وسخر منه الأخوة فى باريس ، وتقبل هو سخريتهم بصدر رحب .

وبعد ١٧٦٨ اعتاد كما هو الحال فى الأديار ، أن تقرأ عليه بعض الكتب التعبدية أثناء تناول الطعام . وكان لهـذا الغرض يؤثر « عظات ماسيون » لأنه إستطاع أن يقدر قيمة الأدب حتى ولو بقلم كاهن . وكان قد اشترك فى الحملة ضد اليسوعيين ، ولكن فى ١٧٧٠ انضم إلى رابطة علمانية للاخوة الكبوشيين . وحصل من رئيس هذه الطائفة على لقب « الأب الدنيوى لطائفة الكبوشية فى جكس » ، وهى القرية التى كان فيها سيدا اقطاعيا . وكان فخورا جداً بهذا التشريف ، وكتب عنه عدة رسائل وقع على بعضها باسم « الأخ فولتير الكبوشى » . وحياه فردريك قديسا جديدا فى الكنيسة ، ولكنه أبلغه أن السلطات الكنسية فى رومه كانت قد أحرقت فى نفس العام بعض أعمال الكبوشيين الحقيرة[١٣٠]. وليس من اليسير أن نتبين أن تودده إلى الكنيسة كان مخلصا أو أنه كان ترضية لقصر فرساى ، أو أنه كان بدافع الخوف من الحيلولة دون دفن رفاته فى الأرض المخصصة لهـذا الغرض . وهى تشمل كل مقابر فرنسا . وربما لعبت هذه العوامل الثلاثة دورا فى الكوميديا المقدسة .

وفى تلك الأعوام الأخيرة ١٧٧٠ – ١٧٧٨ وقف قلمه على تفنيد الالحاد لامهاجمة المسيحية . وأضاف إلى مقال « الله » فى القاموس الفلسفى فقرتين دحض فيهما « نظام الطبيعة » لدى هولباخ . وفى ١٧٧٢ دبج مقالا رائعا تحت عنوان « يجب أن نؤيد » وفيه دافع عن « الله والتسامح » . واعترف لمدام نكر والدوقة دى شوازيل ، وللامير البروسى فردريك وليم ، بخوفه

على حركة التسامح الدينى من أن يهزمها تأييد الالحاد والدفاع عنه . وأسف لأن نقده لدى هولباخ قد يهدد تضامن « الأخوة » ولكنه أصر فى عناد : « لأشك عندى فى أن المؤلف وثلاثة من مؤيدى هذا الكتاب سيكونون من الد أعدائى لأنهم تحدثوا بأفكارى . وقد أعلنت لهم أنى سأتكلم طالما كان فى عرق ينبض أو طالما ترددت أنفاسى دون أن أخشى المتعصبين للالحاد ولا المتعصبين للخرافة[١٣١] . ورد أنصار دى هولباخ على هذا بقولهم إن السيد الثرى يشتغل بالسياسة مع فرساى ويستخدم الله ليحافظ على النظام بين خدمه وفلاحيه فى فرنى .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، نظر إليه الرجال الذى هتف لهم يوما ، وحفزهم وشجعهم على الانضمام إلى الحملة ضد « الرجس » باعتبارهم أخوة ، نظروا إليه وكأنه قائد مضيع . أن ديدرو ما أحبه قط ، وما ألف تبادل الرسائل معه ، وكره منه زعمه الواضح بأن دالمبير هو رأس الموسوعة المفكر وروحها المدبر . لقد استحسن دفاع فولتير عن آل كالوس . ولكن افلتت منه عبارة تنم على الحقد يقول فيها « أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون الثانى فى كل الأحوال[١٣٢] » . أن فولتير لم يشارك ديدرو سياسته الثورية ولاحبه لمسرحية البرجوازية العاطفية ، أن البرجوازية حين تصبح ارستقراطية لا تسيغ قناعة البرجوازية . ولم يقم ديدرو ولادى هولباخ بحج الاخلاص والولاء إلى فرنى . وعلق جيم فى صرامة غير معهودة على نقد فولتير لهوبز وسبينوزا بقوله : « أن الفيلسوف الجاهل لمس بصعوبة سطح هذه الموضوعات ولم يتعمق فى فهمها »[١٣٣] . إن الملحدين فى باريس ، وقد زاد عددهم وإعتزازهم بأنفسهم ، ولوا الآن ظهورهم لفولتير وانصرفوا عنه . وفى أوائل ١٧٦٥ ، وحتى وسط المعركة ضد « الرجس » نبذه أحدهم فى إحتقار قائلا « إنه متعصب إنه ربوبى[١٣٤] » .

وبدأ الشيخ الجليل الواهن حوالى ١٧٧٠ ، بعد أن تخلى عنه الجانبان وقاوموه ، بدأ يفقد ثقته فى أمكانات الفوز ، وأطلق على نفسه « المدمر

الكبير » الذى لم يبن شيئا.[١٣٥] وخشى من أن دينه الجديد — وهو دين « الله والتسامح » لن يتأتى إلا إذا قبل الحكام نصيحة القديس بطرس « أعملوا من أجل السلام الدائم » أى أنه لن يأتى أبدا . أنه أرتاب طويلا فى وهن الفلسفة وانعدام الفتنة والجاذبية ' العقل . إن أى فليسوف لم يؤثر فى عادات الناس حتى فى الشارع الذى يقطنه ، وأسلم الجماهير للخرافة أو الأساطير . وراوده الأمل فى أن يحظى بنحو أربعين حكيما فى فرنسا وبالفئات المتعلمة فى الطبقة الوسطى ، ولكن هذا الأمل نفسه بدأ يزوى ويذبل حين آذنت شمس حياته بمغيب . وكل الحلم الذى كان يراوده وهو يستعد فى سن الرابعة والثمانين ليرى باريس قبل أن يموت ، هو حلم « تنوير الشباب شيئا فشيئا » . فربما يعود إليه فى غمرة الترحيب الشديد به هناك ، إيمانه بالإنسان وأمله فيه .

وهل كان فولتير فيلسوفا ؟ نعم . أنه كان كذلك على الرغم من أنه لم يصطنع مذهبا . وأنه تردد وتذبذب فى كل شيء . وغالبا ما بقى فوق سطح الأشياء ولم يتعمق فيها . ولم يكن فيلسوفا إذا كانت هذه الكلمة تعنى صانع مذهب قائم على فكر موحد متماسك عن العالم والإنسان . إنه انصرف عن المذاهب باعتبارها هجمات وقحة على « المطلق غير المحدود » ولكنه كان فيلسوفا إذا كان المقصود بالفلسفة انشغال الذهن بشكل جدى بالمشاكل الأساسية للطبيعة والاخلاق والحكومة والحياة والقضاء والقدر . ولم يعتبر فولتير عميقا . وربما كان السبب فى هذا أنه كان غير متأكد . وكان واضحا وقل أن كانت أفكاره أصيلة . ولكن كل الأفكار الأصيلة تقريبا فى الفلسفة سخيفة . وانعدام الأصالة علامة الحكمة . يقينا كان الشكل الذى صاغ فيه أفكاره أصيلا . وفولتير بلا نزاع ألمع كاتب ظهر ، وهل كان الرجل الثانى . لا الرائد الأول . فى كل مجال كما اتهمه ديدرو ؟ كان الثانى فى الفلسفة بعد ديدرو ، نعم . وفى المسرحية بعد كورنى وراسين ولكنه كان الأول والأفضل فى زمانه فى فهمه وكتابته التاريخ وفى رقة شعره ، وفى

سحر نثره وظرفه ، وفى مدى تفكيره وتأثيره . ورفرفت روحه مثل اللهب فوق القارة وفوق القرن . كما أنها تثير وتهز مليون نفس فى كل جيل .

وربما أسرف فى كراهيته ، ولكن علينا أن نتذكر الاستفزاز والإثارة ، ونتصور أنفسنا عائدين إلى الوراء فى عصر كان الناس يحرقون فيه على الخازوق ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بسبب الارتداد عن الديانة التقليدية . وقد نرى المسيحية الآن أفضل مما كانت عليه أو مما رآها هو آنذاك ، لأنه ناضل وأصاب بعض النجاح للتخفيف من تعاليمها وحدتها . ويمكن أن نحس بقوة وروعة العهد القديم وجمال العهد الجديد وسموه ، لأننا أحرار فى أن نفكر فيهما باعتبارهما من عمل وإيحاء رجال غير معصومين من الخطأ . ويمكن أن نكون شاكرين ومقدرين لاخلاق المسيح لأنه لم يعد يهددنا بالجحيم ، أو يصب اللعنة على الناس والمدن التى لانستمع إليه(١٣٧) .

ويمكن أن نحس نبل القديس فرانسيس الأسيسى لأنه لم يعد يطالب منا أن نصدق أن القديس فرانسيس أكسافيير كان يسمع فى عدة لغات على حين كان يتحدث بلغة واحدة ، ويمكن أن نحس بشعر الطقوس الدينية وبالمسرحية فى هذه الطقوس ، حيث تركنا الأنتصار العابر للتسامح أحرارا فى أن نتعبد أو نمتنع عن العبادة . ويمكن أن نتقبل مائة أسطورة باعتبارها رموز عميقة أو مجازات منيرة موضحة ، لأننا لم نعد يطالب منا أن نتقبل حقيقتها الحرفية . وتعلمنا أن نتعاطف مع ما كنا يوما نحبه . وكان علينا أن نتخلى عنه ، عندما نستعيد أجمل الذكريات لما كنا نحب فى شبابنا . ولمن ، أكثر من أى رجل واحد آخر ، ندين بفضل هـذا التحرر العزيز علينا والذى يعتبر فاتحة عصر جديد ؟ أننا ندين بهذا الفضل لفولتير .

الفصل الثالث والعشرون

انتصار الفلاسفة

١٧١٥ – ١٧٨٩

١ – رجال الدين يصدون الهجوم

كان هناك الكثير مما يقال من أجل المسيحية . مما قاله المدافعون عنها فى قوة وحيوية ، أحيانا مع سـوء تقدير أعمى للعصر ، وأحيانا فى رقة ووضوح توقعتهما فرنسا حتى من اللاهوت . وهناك من رجال الكنيسة من ظل يصر على أن أى انحراف عن المذهب الكاثوليكى المحدد يجب أن تعاقب عليه الدولة ، وأن مذبحة سانت برثلميو عملية مشروعة مثلها فى ذلك مثل أية عملية جراحية[1]. ولكن كان هناك من قبلوا التحدى وأخذوه مأخذ الرجال الكرام الشرفاء وأجازوا للأعداء أن يختاروا السلاح ، وهو العقل . وكانت لفتة كريمة ، فأن الدين إذا أرتضى العقل كان فى هذا بداية موته وفنائه .

ونشرت فرنسا فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧٨٩ نحو تسعمائة كتاب دفاعا عن المسيحية ، منها تسعون فى سنة ١٧٧٠ وحدها[2]. أن كتاب ديدرو « أفكار فلسفية » ، وكتاب هلفشيوس « الذكاء » ، وكتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، استلزم كل منها نشر عشرة كتب لتفنيده والرد عليه . أن الراهب هوتفيل فى كتابه « الديانة المسيحة كما تثبتها الأعمال » (١٧٢٢) أكد (مثل رئيس الأساقفة ويتلى Whately بعد ذلك بقرن من الزمان) أن المعجزات التى تثبت قدسية المسيحية ثابتة بشكل موثوق قدر ثبوت الأحداث المقبولة فى التاريخ العلمانى . وفى مجلدين اثنين نشر الكاهن

جويون Guyonh كتابه « مهبط الوحى عند الفلاسفة الجدد » (١٧٥٩ — ١٧٦٠) وهو كتاب هجاء ونقد . ونشر الكاهن بلوش Pluche كتابه « مشهد الطبيعة » فى ثمانية مجلدات (١٧٣٩ — ١٧٤٦) . وظهرت منه ثمانى عشرة طبعة غالية الثمن ، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود فى الطبيعة ليثبت وجود إله أسمى فى العقل والقوة . وإذا وجد العقل البشرى بعض الالغاز فى المشهد الضخم ، فيكن متواضعا . ولا ينبغى لنا أن ننبذ الإله لأننا لا نستطيع فهمه وأدراكه ، ولنقدم له فى نفس الوقت الشكر على بديع صنعه . أما الأب جوشا Gauchat فأنه فى ١٥ مجلدا بعنوان « رسائل نقدية » (١٧٥٥ — ١٧٦٣) هاجم فرضية التطور عند بيفون وديدرو وغيرهما ببرهان طائش « إذا كان الناس يوما أسماكا . . . فأن هذا استتبع واحدا من أثنين ، فإما أنه ليس للإنسان نفس روحية خالدة ، أو أن للاسماك مثل هذه النفس ، وكلتاهما فرضية تنافى التقوى والدين»[٣]. ووافق الفلاسفة فرحين مهللين . وأكد الأب سيجورن Sigorgne فى كتابه « الفاسفة المسيحية » على لزوم الدين دعامة للاخلاق ، فأن القيود العلمانية الخالصة تؤدى فقط إلى شحذ إذهان المجرمين الذين لايعودون يؤمنون بالله البصير بكل شىء . وفى ١٧٦٧ نشر الأب شاندن Mayeul Chandon القاموس المضاد للفلسفة ، وقــد ظهرت منه سبع طبعات . أما الأب نونوت Nonotte وهو يسوعى سابق تحلى بسعة الأطلاع والثقافة مثل أعضاء طائفته[٤] ، فأنه أخرج فى ١٧٧٠ كتابه الضخم « أخطاء فولتير » وقد بيع من هذا الكتاب أربع طبعات فى عامه الأول ، وست طبعات فى ثمانية أعوام . وفى ١٨٥٧ عد فلوبير هذا الكتاب من بين ما تقرأ إما بوفارى . ودافع الأب جوينى Guenee عن الكتاب المقدس بروح وذوق وكياسة وتفقه فى كتابه « رسائل بعض اليهود » (١٧٧٦) . وهى رسائل توهم بأنهم صادرة من بعض علماء اليهود . وسلم فولتير بأن نقد جوينى « لاذع إلى حد بالغ[٥]» . ووجه المدافعون الكاثوليك وابلا من النيران فى كل شهر

ضد الفلاسفة فى نشرة « الدين المتقم » . وفى ١٧٧١ بدأوا يصدرون « موسوعة منهجية » ، أوسع حتى من موسوعة ديدرو ، تهاجم كل نقاط الضعف فى قلعة الشك هذه .

وواجه الماديون (أنصار المذهب المادى) خصما عنيدا فى شخص نقولا سلفستر برجييه وهو راعى أبرشية فى أسقفية بيزانسون . أن كتابه « الربوبية تفند نفسها » (١٧٦٥) كان « رد كاهن حقيقى على قسيس سافوى الذى إبتدعه خيال روسو[٦] » ومن أجـل كتابه « صدق براهين المسيحية » (١٧٦٧) تلقى رسالة ثناء ومديح من البابا . وفى سن الواحدة والخمسين (١٧٦٩) رفع إلى مرتبة كاهن فى كاتدرائية نوتردام فى باريس ، وأصبح كاهن الاعتراف لبنات الملك لويس الخامس عشر . وفى نفس العام نشر كتاب « دفاع عن المسيحية ضد مؤلف فضح المسيحية » — وهو ضربة موجهة إلى دى هولباخ . وسرت جمعية رجال الدين بهذا الكتاب فقررت له فى ١٧٧٠ معاشا سنويا قدره ألفان من الجنيهات ليتفرغ للدفاع عن العقيدة . وفى بحر سنة أخرج كتابا فى مجلدين تحت عنون « اختبار المادية » وهو رد على كتاب دى هولباخ « منهج الطبيعة » وأوضح مرة أخرى أن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا بطريق مباشر ، فلم نهبط به إلى شىء آخر معروف لدينا عن طريـق الذهن فقط[٧] . وأتهم دى هولباخ بعدة تناقضات : ١ — أعلن البارون أنه لا سبيل إلى معرفة الله ، ولكنه طبق بعد ذلك على المادة كل صفات اللاتناهى والأبدية ٢ — أنه قبل مذهب الحتمية ومع ذلك حض الناس على إصلاح سلوكهم . ٣ — نسب الديانة إلى :

(أ) إلى جهل الإنسان البدائى .   (ب) وحيل الكهنة ومغالطتهم .

(جـ) وإلى مكر صانعى القانون وبراعتهم . — فلنتركه يقرر . وطرح الكاهن نقد العهد القديم جانبا بإيضاحه أن ناسخى كلام الله من البشر كانوا قد استخدموا المجازات والاستعارات الشرقية . ولذلك ينبغى إلا يؤخذ الكتاب المقدس دائما بحروفه . والعهد الجديد هو جوهر المسيحية ، وحياة المسيح

من معجزاته تثبت قداسة الدين . ومهما يكن من أمر فإن سلطة الكنيسة لاترتكز على الكتاب المقدس وحده ، بل على التسلسل أو التعاقب الرسولى لاساقفتها ، وتقاليدهم التى رضعوها للدين . وفى كتاب اختبار الدين المسيحى (١٧٧١) أكد برجييه الحجة القائلة بأن الإلحاد ،على الرغم من الشخصيات الفردية الاستثنائية التى أبرزها بيل ، قد يدمر الفضيلة والأخلاق .

وأرق شخصية فى المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين فى القرن الثامن عشر فى فرنسا هوغليوم فرنسوا برتييه [٨] . فى سنة ١٧١٤وهو فى سن الثانية عشرة التحق بالكلية اليسوعية فى بورج ، وهناك اشتهر بحدة ذهن لم تسيء إلى تقواه إساءة ظاهرة . وفى سن السابعة عشرة أبدى لوالديه رغبته فى الانضمام إلى « جمعية يسوع » فطلبا إليه أن يفكر فى الأمر لمدة عام . ففعل وأصر على رغبته . وفى الفترة التى سبقت تثبيته راهباً فى باريس أكب على القراءة والدرس والصلاة حتى إنه نادرا ما خصص للنوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم. وتقدم ونما بسرعة حتى أنه عين فى سن التاسعة عشرة لتدريس العلوم الإنسانية فى كلية دى بلوا ، وبعد سبع سنين قضاها هناك ، وسنة أخرى فى الرهبنة ، أرسل إلى رن ثم إلى روان استاذاً للفلسفة . وفى ١٧٤٥ عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم «جورنال دى تريفو» التى كانت تصدر فى باريس آنذاك . وأصبحت هذه النشرة الدورية على عهده من أكثر الأصوات احتراماً فى فرنسا المتعلمة .

وكتب برتييه معظم الصحيفة بنفسه . وعاش فى صومعة صغيرة لم تجر تدفئتها قط ،واشتغل كل ساعات النهار ، وكان بابه مفتوحاً أمام كل من قصده ، وكان ذهنه مفتوحاً لكل موضوع ، اللهم إلا العقيدة التى كانت تعمر بها حياته وتغمرها بالدفء . إن لاهارب La Harpe أحد تلاميذ فولتير ، وصف برتييه بأنه الرجل الذى نال إعجاب العلماء والباحثين جميعاً : لغزارة علمه وسعة إطلاعه ، كما نال إعجاب أوربا لفضائله الموسومة بالتواضع .[٩] وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية حتى عند الاختلاف فى الرأى . فهاجم

الأفكار لا الشخصيات وامتدج مواهب خصومه أومعارضيه (١٠). ومع ذلك فإنه دافع عن عدم التسامح الديني. واعتقاداً منه بأن المسيح ابن الله هو الذي أسس الكنيسة الكاثوليكية، رأى أنه من واجب المسيحي أن يحول بكل الوسائل السلمية دون انتشار الخطأ الديني.. ويجب حظر الدعاية المعادية للمسيحية في أية أمة مسيحية، لأنها تغري بالسلوك غير الأخلاقي، وتسيء إلى استقرار الدولة. ورأى أنه من الخطأ أن نخلط بين التعصب للكاثوليكية وبين التحمس للاضطهاد (١١)، ولكنه لم يعد بعدم مواصلة الاضطهاد. وفي سنة ١٧٥٩ رد الاتهام بالتعصب وعدم التسامح إلى الفلاسفة فقال: أيها الكفار، أنتم تتهموننا بالتعصب الذي لا أثر له لدينا، على حين أن ما تضمرون من كراهية لديننا يبعث فيكم تعصباً لا يمكن تخيل أفراطكم الواضح فيه (١٢).

ولم يسلم برتييه بالحقيقة المطلقة للعقل وحتى على الاسس الحسية عند لوك، لا يستطيع العقل أن يصل إلا إلى الحواس، أما فيما وراء هذه الحدود، فهنالك حقائق واقعة ينبغي أن تظل إلى الأبد أسراراً خفية في الأذهان المحدودة، ومن ثم فإن الفيلسوف الحق يحد من بحثه حين لا يمكنه تخطى هذه الحدود بشكل معقول (١٣). أن السعي لإخضاع الكون أومعتقدات الناس التقليدية والعامة لاختبار عقل فردي، ضرب من الغرور العقلي. والرجل المتواضع يقبل عقيدة بني جلدته إذا لم يستطع فهمها. وذهب برتييه في بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين لأنه يتدخل في ملذاتهم، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الأباحية، فلابد أن ينهار القانون الأخلاقي، ويطلق العنان للأهواء، وتختفي المدنية في حمأة الأنانية والشهوة والخداع والجريمة. وإذا لم توجد الإرادة الحرة، فلا وجود للمسئولية الأخلاقية. وحيث أن الحتمية لا تسلم بأي قانون يلزم الضمير، فإن الشخص المذنب الوحيد هو الشخص الذي لا ينجح (١٤). ومن ثم تكون الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح

جماح الأقلية الذكية الماهرة فى سوء استغلال سذاجة الأغلبية ، ولن يشعر أى حاكم بأى التزام نحو شعبه ، اللهم إلا المباعدة بينهم وبين الثورة بسبب استغلاله لهم .[١٥]

أن برتييه كان كما رأينا قد رحب بالمجلد الأول من الموسوعة وقرظه ، وعرض ما فيه من أخطاء وانتحالات فى دقة بالغة تنم على ثقافة واسعة ، ومن ثم أظهر أن مقالة العمل للأب ييفون Yvon التى شغلت ثلاثة أعمدة كاملة ، أخذت بنصها كلمة بكلمة من كتاب الأب بوفييه « بحث فى الحقائق الأولية »[١٦]. وامتدح مثال «الفلسفة العربية» ولكنه أبدى فزعاً حين وجد أن مقالة الإلحاد قد أوردت الحجيج التى تساند الإلحاد على نفس مستوى الاسهاب والقوة الذى أوردت به الحجج ضد الالحاد ، تاركة فكرة وجود الله فى شك رهيب. وعندما أصبحت النزعة المعادية للمسيحية أكثر وضوحاً فى المجلد الثانى هاجمها فى قوة وبراعة . وأوضح إن الموسوعة استمدت سيادة الحكومة من رضا المحكومين ، وفى هذا ، فى نظر برتييه ، خطر على الملكية الوراثية . وربما كان له أثر فى وقف الموسوعة عن الظهور[١٧] .

وفى عدد أبريل من صحيفة دى تريفو عرض لكتاب فولتير « بحث فى العادات » فقال : إنه ليحزننا أن نرى مؤلفاً حياً نقدر مواهبه ونعجب بها ولكنه يسىء استغلالها فى أكبر الأمور الأساسية . لقد رأى فى كتاب فولتير محاولة لهدم الكنيسة والدين ليشـــيد على إطلالهما كياناً فلسفياً ، أو معبداً مخصصاً لإباحية الفكر ، نذره للاستقلال عن كل سلطة ، والهبوط بالعبادة والأخلاق والفضيلة إلى مجرد فلسفة علمانية بحتة بشرية . واتهم فولتير بتحيز أخزى المؤرخ ، حيث عمى عمى يكاد يكون تاماً عن فضائل المسيحية وخدماتها ، وصمم تصميما طائشاً على أن يلتمس لها الأخطاء فى منجزاتها وأعمالها . وقال : إن فولتير ادعى أنه يؤمن بالله ، ولكن من آثار كتاباته دعم الالحاد . وفى نفس العدد من الصحيفة تحول برتييه إلى كتاب فولتير « العذراء — جان دارك » فنفذ صبره . وصاح : إن

الجحيم لم يلفظ قط مثل هذا الطاعون الفتاك : . . . إن الشهوانية تعرض هنا بكل وقاحة أبشع الصور بذاءة ودعارة . إن الفحش والبذاءة تستعيران لغة السوقة ... إنه أحط الهزل الماجن يلطف الكفر والبعد عن التقوى ... إن الرائحة المنبعثة من هذه الأشعار كفيلة بافساد ونقل العدوى إلى كل عصر وكل حالة فى المجتمع[١٨]

ولم يسارع فولتير إلى الرد ، إنه مازال يحتفظ بذكريات طيبة لمعلميه اليسوعيين ، ولايزل على جدران مكتبه فى فرنى صورة الرجل الطيب العطوف المتدين آلاب بورى Poree [١٩] . ولكن عندما أوقفت الحكومة الفرنسية صدور الموسوعة استجاب لتحريض دالمبير وأنبرى لقتال برتييه . فاتهمه بمناهضة الموسوعة لأنها نافست قاموس تريفو الذى زعم أنه إنتاج يسوعى (كان كذلك بشكل جزئى وبصفة غير رسمية) . ودعا مجتمع يسوع إلى فصل محرر تريفو . أى عمل هذا الذى يشتغل به كاهن ... أنه يبيع فى كل شهر من مخزن للكتب مقتطفات من آراء طائشة مفتراه . [٢٠] فرد برتييه (يوليو ١٧٥٩) بأن محررى صحيفة تريفو لاعلاقة لهم بمحررى قاموس تريفو واعترف بأن كونه محرراً ليس عملا جميلا ولامناسباً . ولكنه تمسك بحق الكاهن فى استخدام صحيفة دورية للاشادة بالكتب القيمة واستهجان المؤلفات الغثة . وأسف لأن فولتير انزلق إلى المسائل الشخصية والاتهام بالفساد والرشوة وختم كلامه بالأمل فى أن يعود هذا الرجل ذو المواهب العظيمة فيما تبقى له من عمر تفضلت به عليه العناية الإلهية ، يعود إلى الديانة المقدسة لاالدين الطبيعى ، بل إلى المسيحية الكاثوليكية التى ولد فيها[٢١] . وفى نوفمبر أصدر فولتير (وكان لاشك يتذكر الدفن الوهمى لجون بارتريدج تأليف سويفت) ، رسالة مهيبة تحت عنوان « العلاقة بين المرض والاعتراف والموت وشبح برتييه اليسوعى » ذاكراً كيف أن المحرر مات فى نوبة من التثاؤب فوق صحيفة تريفو ، واعتذر عن أسلوبه فى الجدل فى خطاب إلى مدام ابيناى : لا بد من تسفيه الرجس والمدافعين عنه [٢٢] .

وفى ١٧٦٢ أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين ، وسر برتييه حين إنتهى عمله فى تحرير الصحيفة ، وآوى إلى دير للترابستيين ليحيا حياة الصمت والتأمل ، وطلب السماح له بالأنضمام إلى هذه الطائفة (التى يقوم مذهبها على دوام الصمت والتقشف والزهد) ولكن رئيس اليسوعيين أبى عليه ذلك ، وعينه لويس الخامس عشر معلما لأبناء الأسرة المالكة . ولما وقع الملك مرسوم طرد اليسوعيين من كل أنحاء فرنسا (١٧٦٤) هاجر برتييه إلى ألمانيا . وفى ١٧٧٦ سمح له بالعودة ، فاعتزل كل نشاط ، وأقام مع أخيه فى بورج . ومات هناك فى سن الثامنة والسبعين (١٧٨٢) وكان رجلا طيبا .

٢ — خصوم الفلاسفة

حمى وطيس الحرب حين نبذت أردية الكهنة ونبذت المجاملات ، وركز الصحفيون أنظارهم على الفلاسفة ، وسخر كل ذكاء باريس وكل مفردات لغتها للشد والجذب والطعان . ولقد رأينا كيف أن فولتير تعرض ١٧٢٥ لبعض المتاعب لانقاذ بيير ديفونتين من العقوبة القانونية للواط وهى الإعدام . ولم يغفر له ديفونتين هذا قط . وفى ١٧٣٥ شرع فى إصدار نشرة دورية تحت عنوان « ملاحظات على الكتابات الحديثة » إستمرت حتى عام ١٧٤٣ وعلى صفحاتها نصب نفسه مدافعا عن الفضائل وعن العفة بصفة خاصة . وهاجم ، فى زراية واحتقار ، كل مظاهر إنحلال الخلق أو الخروج على التقاليد السليمة ، باغة الأدب فى ذاك العصر . ومات الد إعداء فولتير . ولما مات فى ١٧٤٥ أوصى براية الجهاد لصديقه فريرون .

كان أيلى كاترين فريرون أقدر خصوم الفلاسفة وأشجعهم وأغزرهم علما وثقافة . وكان عالما بحاثة إلى حد أنه كتب « تاريخ مارى ستيوارت » (١٧٤٢) وسبعة مجلدات فى « تاريخ الامبراطورية الألمانية » (١٧٧١) . كما كان شاعرا إلى حد أنه نظم قصيدة « عن معركة فونتنوى » (١٧٤٥) ولأبد أن فولتير رأى فيها منافسة وقحة لقصيدته باعتباره المؤرخ الملكى . وفى ١٧٤٥

أصدر نشرة دورية تحت عنوان : « رسائل عن بعض كتاب هذا العصر » وتناول فيها فولتير بالنقد والتجريح أكثر من مرة . وقضى فريرون سنى فقره سائقا لعربة تجرها أربعة جياد . . وزج به فى سجن الباستيل ذات مرة لمدة ستة أسابيع لنقده راهبا من ذوى النفوذ . ولكنه حارب لمدة ثلاثين عاماً معركته الجبارة من الماضى . وإستاء استياءاً واضحا من فولتير لأنه نصح فردريك بالعدول عن استخدامه مراسلا له فى باريس[٢٣]. وفى ١٧٥٤ أصدر مجلة جديدة تحت أسم « السنة الأدبية » التى حررها وكتب معظمها ، ونشرها مرة كل عشرة أيام حتى ١٧٧٤ .

وأعجب فريرون بتمسك بوسويه بالدين وبالطرق الفخمة والأسلوب الفخم فى القرن السابع عشر ، وأحس بأن فهم الفلاسفة للتنظيم الاجتماعى ودعائم الفضيلة والأخلاق وركائز الإيمان فهم سطحى إلى حد معيب . « لم ينجب عصر مثل عصرنا هذا قط مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المغوين مثيرى الفتن الذين يركزون قواهم فى التهجم على مقام إلا له ، أنهم يسمون أنفسهم رسل الإنسانية ، دون أن يدركو أنه لايلائم أى مواطن وأنه يسىء إلى الجنس البشرى أبلغ اساءة أن يسلبوهم الآمال الوحيدة التى تهيء لهم بعض التخفيف من متاعب الحياة . أنهم لايدركون أنهم يقلبون النظام الاجتماعى ، ويحرضون الفقراء على الأغنياء والضعفاء على الأقوياء ، ويضعون الأسلحة فى يد ملايين الناس الذين منعهم حتى الآن الوازع الأخلاقى والدينى من اللجؤ إلى العنف ، قدر ما يمنعهم القانون »[٢٤] .

وتنبأ فريرون بأن هذا الهجوم على الدين سوف يقوض أركان الدولة ، واستبق بجيل واحد تحذيرات ادموندبيرك : « أليس التعصب للكفر وهدم الدين أشد سخفا وخطرا من التعصب للخرافة ؟ أبدا بالتسامح مع عقيدة آبائك . أنكم لاتتحدثون إلا عن التسامح ، ولكنكم ابعد الناس عن التسامح . . أنا لا أنتمى إلى عصبة الروح الجميلة ، ولا أنتمى إلى حزب الدين والفضيلة والشرف[٢٥] .

وكان فريرون ناقداً لاذعا ، ولم يدخر وسعا فى تحطيم غرور الفلاسفة الحساس وجرح كبريائهم . وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لآرائهم ، ومن مزاعم سيادة فولتير الأقطاعية باعتباره «كونت دى تورناى» . ولما ردوا عليه فأسموه «وغدا متعصبا» ، أنتقم هو منهم فقال إن ديدرو منافق وإن جريم متملق الوجهاء الأجانب ، وأطلق على جماعة الكفار بأسرها أسم عصبة «الاوغاد المحتالين والوضعاء الحمقى»[٢٦]. وأتهم الموسوعيين بسرقة الرسوم الأيضاحية من كتاب Reaumur عن «النمل» . وأنكروا هم هذه التهمة وأيدت أكاديمية العلوم هذا الأنكار ، ولكن الحقائق أيدت الأتهام فيما بعد[٢٧] . ولم يتصرف فريرون تصرفا حسنا فى «عودة إلى كالاس» إنه ذهب إلى أن الدولة أثبتت أن كالاس مذنب . وكتب أن فولتير لم يكن مدفوعا فى دفاعه عن كالاس بأى شعور إنسانى قدر رغبته فى لفت أنظار الرأى العام إلى وجوده هو — أى فولتير ، وفى أن يجعل الناس يتحدثون عنه[٢٨] . وأحبت الأنسة كليرون ، وهى كاتبة مسرحية كبيرة ، فولتير وزارته ، ودأب فريرون على إمتداح منافستها ، وأبدى بعض ملاحظات على الحياة الخاصة غير الأخلاقية لممثلة بعينها . واستاء الممثلون من مزاعمه باعتبارها تدخلا غير كريم فى أمورهم الشخصية . وحرض دوق ريشيليو ، وهو الذى يغتفر الزنى ، لويس الخامس عشر على إعادة فريرون إلى الباستيل ثانية ولكن الملكة حصلت على عفو عنه «من أجل تقواه وبلائه الحسن فى مناهضة الفلاسفة[٢٩]» . ولما قبض ترجو صديق الفلاسفة على زمام الأمور سحب رخصة مجلة السنة الأدبية (١٧٧٤) وتعزى فريرون بتناول الطعام الجيد ، ومات بسبب أكالة شهية ، وطلبت أرملته إلى فولتير أن يتبنى أبنته ، ولكن فولتير رأى أن هذا اسراف فى الشهامة .

وبقدر ما أساءت مجلدات فريرون الثلاثون إلى الفلاسفة ، أساءت لفظة واحدة هى اللفظة الأخيرة فى عنوان كتاب هجاء جاكوب نقولا مور «مذكرات جديدة لايضاح تاريخ الكاكوواك Cacouacs» . ويقول مورو

إن هؤلاء « الكاكوواك » جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية تحمل تحت السنتها أكياسامن السم ، فإذا تكلمت إمتزج السم بالكلمات ولوث كل الهواء المحيط بها . واقتبس المؤلف الحاذق مقتطفات من ديدرو ، ودالمبر وفولتير وروسو ، وحاول أن يبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقاً يسمون أنفاس الحياة ، واتهمهم بأنهم يرتكبون السيئات والشرور « لمجرد حبهم للشر وفرحهم بارتكابه »[٣٠] وسماهم ملحدين ، فوضويين ، لاخلاق لهم ، أنانيين . ولكن لفظة الكاكوواك هي التي آلمتهم أشد الأيلام . إن هذا اللفظ أوحى بتنافر النغمات في صوت البط ، وتهريج الثرثارين المجانين ، وأحيانا (كما قصد بالكلمة) رائحة المراحيض . وكافح فولتير ليرد ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفند الرائحة ؟

وتشجع المحافظون وشددوا من ضرباتهم . وفي ١٧٥٧ كسبوا جنديا جديداً طموحا نشيطا . فإن شارل باليسودي مونتيني كان قد زار فولتير في لي دليس (١٧٥٤) مع تقديم من تيرو على أنه « تلميذ صنعته مؤلفاتك »[٣١] وبعد ذلك بعام واحد مثل في نانسي ملهاة (كوميديا) تنتقد روسو بشكل لطيف ، وفي باريس رعى وشجع الأميرة الشابة الورعة Robecq التي كانت على الأقل صديقة الدوق دي شوازيل . وكان ديدرو الخبير في سوء السلوك قد عاب عليها خلقها في مقدمة كتابه « الأبن الطبيعي » وربما نشر باليسو (١٧٥٧) ، استرضاء لها ، كتاب « رسائل صغيرة عن كبار الفلاسفة » انتقد فيه ديدرو بشدة ، ولكنه إمتدح فولتير . وفي ٢ مايو ١٧٦٠ قدم تحت رعاية الآنسة دي روبيك على المسرح الفرنسي الملهاة الرائعة في الموسم وأسمها «الفلاسفة » . وكانت هذه بالنسبة لهلفشيوس وديدرو وروسو ما كانت مسرحية أرستوفان « السحب » بالنسبة لسقراط قبل ذلك بنحو ٢١٨٣ عاما . صور فيها هلفشيوس في صورة الفيلسوف المتحذلق فالير Valere الذي يشرح حب الغير في الأنانية للسيدة المثقفة ذات الأهتمامات الأدبية والفكرية سيد اليز Cidalise . وعرف جمهور المتفرجين

لأول مرة أن هذه السيدة تمثل مدام جيوفرين التى كان صالونها يتردد عليه الفلاسفة وصور ديدرو وكأنه دورتيديوس . وفى الخادم كرسبين Crispin الذى كان يحبو على أربع عبر المسرح وهو يمضغ الخس ، رأى الباريسيون صورة ساخرة (كاريكاتورية) لجـــان جاك روسو الذى كان فى ١٧٥٠ قد استنكر المدنية وأضفى صورة مثالية على « حالة الطبيعة » ومجدها . وكان هجاء جافا غير مصقول ، ولكنه مشروع . وأستمتع به كل من شاهده ، اللهم إلا الضحايا الذين قصدت المسرحية السخرية منهم . وملأت الآنسة دى روبك المسرح بأصدقائها وغيرهم من أتباعها ، وعدة أفراد من مختلف الرتب الكنسية . وأصرت الأميرة على الرغم من السل الذى كان يهدد كيانها ، على تشريف العرض الأول بجمالها المحموم . وفى نهاية المشهد الثانى دعى باليسو إلى مقصورتها ، وعانقته على مرأى من الناس ، ثم حملوها إلى دارها[٣٢] لأنها كانت تسعل دما . ومثلت مسرحية الفلاسفة أربع عشرة مرة فى تسعة وعشرين يوما .

وفى الوقت نفسه أنضم إلى الحملة على الكفار شخصية كبرى . فإن جان جاك لى فرانك مركيز دى بومبينان ، أحد حكام الإقاليم ، كتب قصائد وروايات ممتازة إلى حد فاز معه فى الإنتخابات للأكاديمية الفرنسية . وفى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة قبوله عضوا فيها ، قال جان مستنكرا : « هذه الفلسفة المضللة الخداعة التى تقول عن نفسها إنها لسان حال الحق ، وماهى إلا أداة للافتراء وتشويه السمعة ، إنها تتبجح بالاعتدال والتواضع ، ولكن تنتفخ أوداجها زهوا وكبرياء . أن أتباعها الذين يتجرأون ويتعالون ويتيهون عجباً بأقلامهم يرتعدون فرقا فى حطة فى حياتهم ، وليس ثمة شيء يقينى فى مبادئهم ، وليس ثمة غناء فى أخلاقهم . ولاقاعدة للحاضر ولا هدف للمستقبل »[٣٣] .

وإمتدح لويس الخامس عشر هذا الخطاب . وسخر منه فولتير فى نشرة من سبع صفحات لا تحمل أسم الكاتب ، عنوانها « عندما » لأن كل فقرة

فيها بدأت بكلمة « عندما » وعلى سبيل المثال . « عندما يحظى إنسان بشرف الأستقبال فى جمعية كريمة من رجال الأدب . فليس من الضرورى أن يكون خطاب الأستقبال هجاء لرجال الأدب ، لأن فى هذا اساءة للجمعية وللجمهور . وعندما لايكاد الإنسان يكون أديبا إلا بشق النفس ، ولا يكون على الأقل فيلسوفا ، فلا يجمل به أن يقول إن أدب امتنا زائف وفلسفتها عقيمة . . . »

وهكذا فى أسلوب غير رائع . ولكن موريليه أتبع هذه النشرة بنشرة أخرى كبيرة تكرر فيها لفظ « إذا » وسرعان ما صدرت بعد ذلك نشرة أمتلأت بلفظة « لماذا » ثم أصدر فولتير بعد ذلك نشرات متوالية زاخرة بالألفاظ : « من ، الذى ، نعم ، لا لماذا » ، وهرب بومبينان من هذه العاصفة إلى بلدته مونتوبان ، ولم يظهر قط فى الأكاديمية ثانية . ولكنه عاد إلى الصراع فى ١٧٧٢ بكتاب أسمه « الدين يثأر من الشكوكية بالشكوكية نفسها » وبسط وجهة نظره فى أن المذهب المادى (المادية) لم يترك أى وازع للاخلاق والفضيلة ، وإذا لم يكن هناك إله فكل شىء جائز أو مرخص به ، وكل ما نحتاجه هو أن نتملص من الشرطة . وتساءل المركيز : إذا لم يكن هناك إله فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذى وضعتهم الجمهورية فيه[٣٤] ؟

وقال الكاهن جاليانى ، الذى جاء من نابلى إلى باريس ١٧٦١ ، وتألق فى الصالونات لمدة ثمانى سنوات ، للفلاسفة — الذين أحبوه — إن دعوة بعضهم إلى « اتباع الطبيعة » نصيحة مجنونة تهبط بالإنسان المتحضر إلى الوحشية والهمجية[٣٥] وإن شواهد التدبير الألهى المقصود فى الكون بارزة جلية[٣٦] وإن التشكك أدى إلى الفراغ العقلى واليأس الروحى :

« بسبب تنوير أنفسنا وجدنا فراغا أكثر مما وجدنا أمتلاء . . . وهذا الفراغ الذى ألح على نفوسنا وعلى خيالنا هو السبب الحقيقى فى كآبتنا[٣٧] .. وبعد كل ما قيل وما عمل فالتشكك هو أعظم محاولة تبذلها روح الإنسان

ضد غرائزه وفطرته وأذواقه . . . إن الناس فى حاجة إلى التيقن . . . أن الغالبية من الناس وبخاصة النساء (وخيالهن ضعف خيالنا) لا يمكن أن يكونوا « لا أدريين » ، وإن هؤلاء القادرين على اعتناق مذهب اللاادرية (الذين يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها) ، لايستطيعون إن يبقوا على مذهبهم إلا بسمو شباب نفوسهم وقوتها ، فإذا هرمت النفس وولى شبابها يعود بعض الإيمان إلى الظهور ثانية[٣٨] . . . . إن اللاادرية يأس له ما يبرره »[٣٩] .

وضد جاليانى اللامع ، وبرجييه العالم الفقيه وبرتييه الدمث ، وفريرون المجـــد المكافح وبومبينان النبيل ذى اللقب ، وياليسو المرهق ، ومورو الثرثار ، استخدم الفلاسفة ضد هؤلاء جميعا كل أسلحة الحرب الفكرية ، من العقل والسخرية إلى الرقابة والقدح والذم . وتخلى فولتير عن هدوئه وغامر بأمنه وطمأنينته ليرد فى شيء من الدعاية أكثر منه بالمحاجة والجدل غالبا ، على كل من يهاجم الفلاسفة والعقل ، فكتب إلى ديدرو « أرسل إلى إسماء هؤلاء الرفاق التعساء ، وسأعاملهم بما يستحقون »[٤٠] .

وكان من الصعب التعرض لمورو لأنه كان أمين المكتبة ، وكان مؤرخ المملكة . وكان من الممكن التشهير ببومبينان بالتفاصيل الصغيرة ، والنيل من باليسو بالتورية والتلاعب بالألفاظ ، وهكذا كتب مارمونتل قطعة من المتعذر ترجمتها « هذا الرجل كان اسمه ذات يوم بالى ، وفى البداية أسموه بالى الغبى ، ثم بالى المنحط وبالى الأحمق ، وبالى العقيم وبالى البارد . وتتويجا لهذا التقريع المطول العنيف وختاما لهذه المقطوعة الهجائية ، جاءت الكلمة المناسبة على الفور . فأسموه بالى المغفل ، وهبوطا إلى مستواك يجب علينا ، أنا واللفظة أن نمزح مرحا صاخبا ، تأمل وفكر إذا استطعت أن تستخدم تلك الآلة ولكن لا تكتب ، بل اقرأ « أيها الأحمق » .

وأجل ديدرو الأنتقام حتى يسرد فجور باليسو وفسقه فى كتابه « أبن أخى رامو »[٤١] وكاد ألا يكون جديرا بفيلسوف ، ولكنه تورع عن

نشرة ، ولم يدفع به إلى المطبعة الفرنسية إلا بعد وفاة فريسته أو غريمه . على أن موريليه أخرج على الفور كتابا لا يهزأ فيه من باليسو وحده بل كذلك من « حاميته » الآنسة دى روبيك — وإستصدر أحد إصدقائها فى البلاط الملكى أمرا بايداع موريليه سجن الباستيل (١١ يونيه ١٧٦٠) وحصل روسو على أمر بأطلاق سراحه ، ولكنه قطع علاقته بالفلاسفة منذ ذاك الوقت . ولطابع باليسو إنتصاره بالأنغماس فى اللهو والشراب . وفى ١٧٧٨ إنحاز إلى جانب أنصار فولتير ، وانضم ثانية إلى الفلاسفة :

ووقعت أشد ضرباتهم على رأس فريرون . ووصفه ديدرو فى ابن أخى رامو[٤٢] بأنه « واحد من جماعة الأدباء المأجورين المبتذلين الذين عاشوا على مائدة الثرى (المليونير) برتان » . وخصص فولتير أحدى مقطوعاته الساخرة لفريرون ، حيث يقول « بالأمس القريب ، فى أحد الأودية لدغ ثعبان جون فريرون ، فماذا تظن قد حدث آنذاك ؟ لقد مات الثعبان .

ومن أمثلة البذاءة التى أساءت إلى سمعة فولتير والقرن الثامن عشر وصفه لفريرون بأنه « الدودة التى خرجت من إست ديفونتين »[٤٣] ولكن الهجوم الأكبر ورد فى رواية فولتير « المرأة الاسكتلندية » التى بدأ تمثيلها على المسرح الفرنسى فى ٢٦ يوليو ١٧٦٠ حيث كانت محاكاة ساخرة لرواية باليسو « الفلاسفة » مع مبالغات واضحة فى أنها نسبت إلى ضحاياه مسئولية هزائم الجيوش الفرنسية فى الحروب وانهيار مالية الدولة . وصور فريرون على أنه كاتب مأجور مبتذل تافه فى شارع جرب Grub street (شارع اشتهر بهذا الأسم سابقا) ، جاء بالرجس والعار فى كل فقرة كتبها نظير بستول واحد (عملة أسبانية أوربية) . ومن بين النعوت التى أطلقت عليه فى رواية فولتير : وغد ، ضفدع الطين (شخص تافه) ، كلب ، جاسوس ، سحلية ، ثعبان ، موطن التجس والقذارة[٤٤] . واتبع فولتير نفس العادة المألوفة فملأ المسرح بأصدقائه أو « بالأخوة » ونافست

هذه الرواية رواية باليسو فى شعبيتها واقبال الجمهور على مشاهدتها ، ومثلت ست عشرة مرة فى خمسة أسابيع . وخرج فريرون من العاصفة سالما بحضوره العرض الأول مع زوجته الجميلة ، وواضح أنه كان أول المصفقين . وتبين فولتير مزاج غريمه . فأذا سأل زائر عمن يؤخذ رأيه فى قيمة الكتب الجديدة أو مزاياها ، أجاب فولتير بقوله « أرجعوا إلى هذا الوغد فريرون ... إنه الرجل الوحيد الذى له ذوق . إنى مضطر إلى الاعتراف بهذا على الرغم من أنى لا أحبه »[٤٥] .

٣ — سقوط اليسوعيين

كشف الأنهيار السريع « لجمعية يسوع » عن روح العصر ومزاجه ، ولو أن هذا السقوط نتيجة لتصرف برلمان باريس أكثر منه نتيجة لعمل الفلاسفة . أن مؤسسها إطلق عليها إسم « عصبة (شركة) يسوع » وأقرها البابا بول الثالث ١٥٤٠ تحت إسم مجتمع يسوع — أى هيئة دينيية تتبع قاعدة محددة ، تعيش على الصدقات . وقد أصبح هؤلاء « اليسوعيين » كما سماهم النقاد — على مدى قرن من الزمان أقوى جماعة من رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية . وما وافى عام ١٥٧٥ حتى كانوا قد أسسوا فى فرنسا وحدها أثنتى عشر كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب فى فرنسا . ولمدة مائتى عام اختار ملوك فرنسا كهنة إعترافهم من بينهم ، وحذا سائر الحكام الكاثوليك حذوهم . وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل بات لهؤلاء اليسوعين أو « جماعة يسوع » أبلغ الأثر فى تاريخ أوربا بأسرها .

ومنذ بداية عهد اليسوعين فى باريس تقريباً كان البرلمان والسوربون يقاومانهم . وفى ١٥٩٤ اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان شاتيل الاعتداء على حياة هنرى الرابع . وفى ١٦١٠ اتهمهم البرلمان بتحريض رافياك على قتل الملك ، وأيد البرلمان هذه الاتهامات بالإشارة إلى بحث اليسوعى الأسبانى ماريانا الذى دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك فى

ظروف معينة . ولكن جماعة يسوع إزدادت عدداً وقـوة وسلطانا وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى مهاجمة الجانسنيين فى بورت رويال، على أنهم كلفنيون تحت شعار أنهم كاثوليك ، ولاتزال الإقلية المتعلمة تذكر « الرسائل الإقليمية » التى كتبها يسكال١٦٥٦، ومع ذلك فأنه فى ١٧٤٩ كانت جماعة يسوع تضم ٣٣٥٠ عضوا فى فرنسا من بينهم ١٧٦٣ كاهنا . وبرزوا بين رجال الدين فى فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين وأفصح الوعاظ ، وأتقى المدافعين عن الكنيسة ، وأنشطهم وأنجحهم ، وأسهموا فى كثير من العلوم ، وأثروا فى تطوير الفنون ، وكانوا باجماع الآراء أفضل المعلمين فى أوربا . وكانوا يتميزون بصرامة أخلاقهم ، ومع ذلك لجأوا إلى كل ألوان التحايل للتخفيف من متطلبات الاخلاق المسيحية عند الرجل العادى ، وحتى مـع هذا لم يتغاضوا قط عن فسق النبلاء والملوك وفجورهم ، وبفضل إعدادهم أو تربيتهم الشاقة ومثابرتهم الصابرة ، جعلوا من أنفسهم قوة تسيطر على سياسات الملوك وعقول الناس . وبدا فى بعض الأحيان أن أوربا بأسرها قد تذعن لصلابة ارادتهم المتحدة المتميزة بالنظام والانضباط .

أن قوة اليسوعيين هى تقريباً التى قضت عليهم . وبدا واضحا كل الوضوح لدى الملوك أن تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة فى مسائل الإيمان والاخلاق وغيرها ، إذا لم يوضع له حد سيجعل من كل الحكام المدنيين أتباعا للبابوات ، ويعيد سلطان رومه الامبراطورية . أنهم ولو أنهم كانو أقرب الجماعات إلى آذان الملوك ، دافعوا عن حق الشعب فى خلع الملك . أنهم ولو أنهم كانو متحررين نسبيا فى اللاهوت والاخلاق ، وسعوا إلى التوفيق بين العلم والكنيسة ، فأنهم شجعوا ورع الناس بتأييدهم دعوى مرجريت مارى الاكوك بأن المسيح كشف لها عن « قلبه المقدس » الذى يتحرق حباً للبشر . إنهم أنشأوا وبنوا عقول ديكارت ومولير وفولتير

وديدرو ، لمجرد أن يروا هؤلاء الرجال اللامعين ينقلبون عليهم وعلى نظام التعليم اليسوعى .

وأهم منهج المدارس اليسوعية بتعلقه الشديد وحرصه البالغ على اللغة اللاتينية ، إلى حد أنه عوق نمو المعرفة باستبعاد كل شيء اللهم إلا الأفكار التقليدية . إنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغى على الذاكرة ، وعلى الطاعة العمياء السلبية . ومن ثم فان قيمة الدراسة فقدت كثيراً بسبب حاجة العصر إلى قدر أكبر من الاستفادة بالعلوم ، وإلى نظرة أكثر واقعية إلى الحياة البشرية . وعلى ذلك فأن دالمبير فى مقاله عن « الكلية » فى الموسوعة رثى للسنوات الست التى قضاها الطلبة فى المدارس اليسوعية فى دراسة لغة ميتة ، وأوصى بمزيد من الاهتمام باللغتين الانجليزية والايطالية والتاريخ والعلوم والفلسفة الحديثة . وأهاب بالحكومة أن تسيطر على التعليم ، وتدخل منهجا جديدا للدراسة فى مدارس جديدة . وفى ١٧٦٢ نشر روسو كتابه « إميل » أعلن فيه ثورة على التعليم .

ومهما يكن من أمر فأن الفلاسفة كانوا عاملا أقل شأنا فى سقوط اليسوعيين فى فرنسا . إن نوعا من الهدنة المتبادلة خيم على العداء المتبادل ، ذلك أن الكفار احترموا علم اليسوعيين وخلقهم ، وهؤلاء من جانبهم كانوا يأملون بالأناة والصبر فى معالجة الأمور فى أن يعيدوا هؤلاء المتشككين الخطائين إلى حظيرة الدين القويم . ووجد فولتير أنه من العسير عليه أن يشن الحرب على معلميه السابقين . وكان قد أرسل روايته « هنرياد » إلى الأب بورى راجيا أياه أن يصحح ما قد يكون فيها من فقرات تسيء إلى الدين[٤٦]. وفى كتابه « معبد الذوق » كان قد إمتدح فى اليسوعيين تقديرهم لقيمة الأدب وكثرة استخدامهم للرياضيات فى تعليم الشباب . وتجاوبت معه صحيفة تريفو بنشر تقريظ لرواية هنرياد ، وكتابى « شارل الثانى » و « فلسفة نيوتن » . وانتهى هذا الأتفاق شبه الودى حين لحق فولتير بفردريك فى بوتسدام ، فتخلى عنه زعماء اليسوعيين عند ذاك باعتباره نفسا ضائعة . ولكن

فى أواخر ١٧٥٧ حاول بعضهم التوفيق بين فولتير وجماعة يسوع(٤٧).
وفى فرنى (فى ١٧٥٨ وما بعدها) احتفظ فولتير بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين واستمتع نفر منهم بكرم وفادته . وكان فى نفس الوقت قد هاجم الكنيسة فى مائة صحيفة فى كتابه « رسالة فى العادات والاعراف » . كما كان يكتب مقالات ضد المسيحية للقاموس الفلسفى . وعندما سمع بنبأ مهاجمة رئيس الوزراء كارفالو لليسوعيين فى البرتغال (١٧٥٧) واحراق مالاجريدا اليسوعى (١٧٦٤) شجب اتهامات كارفالو بأنها غير عادلة وإعدامه بأنه قسوة غاشمة(٤٨) . ولكنه طوال تلك السنوات كان هو نفسه فى حرب مع الكنيسة ، وكانت كتابات « أخوته » ديدرو ودالمبير ومورلليه تسهم فى اضعاف اليسوعيين فى فرنسا .

وربما أسهمت المحافل الماسونية ، المخصصة بصفة عامة للمذهب الربوبية فى عملية تقويض أركان اليسوعيين وأضعافهم . ولكن أقوى التأثيرات فى المأساة كانت شخصية متعلقة بصراعات طبقية . ولم تستطع مدام دى بمبادور أن تنسى أن اليسوعيين قاوموا كل خطوة فى سبيل تسنمها مراقى العظمة والسلطان ، وأنكروا الغفران للملك مادام يحتفظ بها ، ورفضوا أن ينظروا بعين الجد إلى عودتها المفاجئة إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين. وأعلن الكاردينال برنيس وكان لأمد طويل ذا حظوة لدى المركيزة ، أن قمع حركة اليسوعيين فى فرنسا يرجع أساساً إلى إمتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام دى بمبادور على الرغم من توكيدانها بأن علاقاتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية (٤٩) . وردد الملك صدى استيائها : لماذا كان هؤلاء الكهنة متساهلين مع الآخرين ، قساة متشددون مع المرأة التى أضاءت جوانب حياته المرهقة الموحشة ؟ لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الإعتمادات اللازمة لجيشه وبحريته فى حرب مشئومة تنذر بكارثة ، ومن أجل ملابس عشيقته وأجور تدريبها وإعدادها فى « منتدى

الظباء » وكان دامين قد حاول قتل الملك ، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحاولة ولكن كان لدامين كاهن إعتراف يسوعي . ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل الملوك ؟ وبدأ الملك يصغى إلى شوازيل وإلى بعض شيعة إنصار فولتير فى وزارته « ممن قالوا بأن الوقت قد حان لتخليص الدولة من ربقة وصاية الكنيسة ، وإقامة نظام إجتماعى إخلاقى مستقل عن رجال الدين النزاعين إلى تعويق إنتشار المعرفة » وعن لاهوت العصور الوسطى . وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة فى الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين فلم لا تقدم فرنسا المستنيرة على مثل هذا ؟

وتأثر اليسوعيون بهذه العداوات المختلفـــة وأشتد الارتياب فى أنهم ربطوا بين فرنسا والنمسا فى حرب السنين السبع ، ومن ثم فأنهم تعرضوا لكراهية مفاجئة بشكل غريب . وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردزيك فى روسباخ ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفا فى باريس ، بات اليسوعيين هدفا النكات والشائعات والأفتراءات المشوهة للسمعة حتى إلى حد الأتهام باللواط(٥٠) ، واتهموا بالأنهماك فى متاع الدنيا وبالهرطقة وبجمع الثروة وبأنهم عملاء لدولة أجنبية . وإنتقدكثير من رجال الدين غير المنتسبين إلى طوائف لاهوتهم بأنه متحرر أكثر مما ينبغى ، وإفتاءهم فى قضايا الضمير والسلوك والأخلاق بأنه مفسدة للاخلاق ، وسياستهم بأنها تقوم على إرتماء فرنسا فى أحضان رومه . وفى ١٧٥٩ كتب دالمبر إلى فولتير « إن الأخ برتييه والمتواطئين معه لايجرؤون على الظهور فى الشوارع فى هذه الأيام خشية أن يلقى الشعب بالبرتقال البرتغالى على رؤوسهم »(٥١)

وكان برلمان باريس أعظم القوى التى إنقلبت على اليسوعيين عداء ، وكانت هذه الجماعة تتألف من محامين وقضاة يتدثرون فى أردية كثيبة رهيبة مثل الملابس الكهنوتية ، وينتمون إلى طبقة « نبلاء الرداء » .

إن هذه الأرستقراطية الثانية المنظمة تنظيما جيدا، الذرية اللسان كانت ترقى مدارج السلطة والسطوة بسرعة ، وكانت متلهفة على تحدى سلطان رجال الدين . وفوق هذا كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين . وعلى الرغم من كل القمع عاناه الجانسنيون فإن هذا المذهب المتشدد ، وهو نتاج تشدد القديس بولص فى مسيحية المسيح وهى أيسر وأخف ، إجتذب قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى فى فرنسا ، وعلى الأخص تلك العقول القانونية التى أحست منطقه ، ورأت فيه وقفة قوية ضد اليسوعيين . واتضح الآن بما لأيدع مجالا للشك أن اليسوعيين هم الذين ألحوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير بورت رويال تدميرا تاما ، وإكراههم الشديد على قبول المرسوم البابوى البغيض الذى جعل من الجانسنية هرطقة أنكى من الالحاد . فهل تحين الفرصة للرد على هذا الايذاء بمثله والأنتقام لمثل هذا الأضطهاد !

وهيأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة . إنهم لعدة أجيال مضت قد إشتغلوا بالتجارة والصناعة ، وسيلة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية وسياستهم . إنهم فى رومه احتكروا كثيراً من نواحى الإنتاج والحرف والصناعات . وفى آنجرز بفرنسا أسسوا مصنعا لتكرير السكر(٥٢) ، واحتفظوا بمراكز تجارية فى كثير من الأراضى الأجنبية مثل جوا . وكانوا من أغنى المقاولين فى مستعمرات إسبانيا والبرتغال فى أمريكا(٥٣) . وجأرت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة . حتى أن الكاثوليك الأفاضل تعجبوا كيف أن طائفة نذرت نفسها للتقشف مثل اليسوعيين تجمع مثل هـــذه الثروة . وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب إنطوان دى لا فالت Valette الرئيس الأعلى لليسوعيين فى جزر الأنتيل الذى أدار باسم الجماعة مزارع وأسعة فى جزر الهند الغربية واستخدم آلافا من المواطنين السود(٥٤) وصدر السكر والبن إلى أوربا . وفى ١٧٥٥ إقترض مبالغ ضخمة من مصارف مرسليا ، ولسداد هذا القرض

أرسل فرنسا سفنا محملة بالبضائع التى تقدر قيمتها بمليونى فرنك (٥ ملايين من الدولارات) ، ولـكن البوارج الانجليزية استولت عليها سنة ١٧٥٥ فى مقدمات حرب السنين السبع . وأملافى تعويض هذه الخسائر اقترض فالت مبالغ أكبر ، ولكنه أخفق وأعلن افلاسه ، وهو مدين بمبلغ ٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنك . وطالب الدائنون بالدفع ، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئولياتها عن ديون لا فالت . ورفض زعماء اليسوعيين زاعمين أنه تصرف بصفة فردية ، لأباسم الطائفة ، وأقام أصحاب المصارف دعوى على الجماعة فنصحهم الأب فرى Frey الخبير السياسي لها فى فرنسا بعرض الأمر على البرلمان . وتم هذا فى مارس ١٧٦١ ، وتعلق مصير الطائفة بأيدى أقوى أعدائها . وفى الوقت نفسه أرسل أحد اليسوعيين رسالة سرية إلى الملك يوصى فيها بطرد شوازيل من الوزارة بوصفه عدوا للجماعة والدين ، ودافع شوازيل عن نفسه بنجاح .

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التى تكشف عن تنظيم الجماعة وأنشطتها . وفى ٨ مايو أصدر حكما فى مصلحة الشاكين ، وأمر الجماعة بتسوية كل ديون لا فالت . فشرع اليسوعيين فى عمل بعض التسويات مـع الدائنين الأصليين(**) . ولكن فى ٨ يوليو قدم الراهب Terray إلى البرلمان تقريرا عن « المذهب الخلقى والعملى لجماعة اليسوعيين» . وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان فى ٦ أغسطس قرارين قضى أحدهما بأحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين فى القرنين السابقين لأنها تعلم مبادىء « بغيضة تدعو إلى سفك الدماء » وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الأنضمام إلى عضوية الجماعة بعد الآن فى فرنسا . كما قضى بأنه حتى أول أبريل ١٧٦٢ ، يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التى تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها . أما القرار الثانى فأباح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة فى الجماعة أو بواسطتها . وفى ٢٩ أغسطس أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين ، ووافق

البرلمان على تعطيلهما مؤقتا حتى أول إبريل . وحاول الملك المنزعج الوصول إلى تسوية وسط . وفى يناير ١٧٦٢ أرسل إلى كليمنت الثالث عشر وإلى لورنزو رتشى رئيس اليسوعيين اقتراحاً بأن تفوض منذ الآن فصاعدا كل سلطاته فى فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين يقسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسى ، ومواد قانون ١٦٨٢ التى أحلت الكنيسة الفرنسية فى الواقع من الخضوع للبابا . وفوق ذلك يجب أن تكون المدارس اليسوعية خاضعة لتفتيش البرلمانات . ولكن البابا وريتشى رفضا الاقتراح فى شىء من التحدى « فليبق اليسوعيون كما هم أو لا يبقون مطلقا »[٥٦] . ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت برجال الدين الفرنسيين مباشرة . وفى هذا خرق للقانون الفرنسى . ورفض رجال الدين الفرنسيون رسالة البابا وأحيلت إلى الملك الذى أعادها إلى البابا .

ودخلت البرلمانات الإقليمية الآن حلبة النزاع وأضافت بعض التقارير التى تلقتها مزيداً من الاتهامات الموجهة إلى اليسوعيين . وأثر برلمان رن Rennes فى بريتانى بالتقرير الذى قدمه النائب العام لويس رينيه دى لاشالوتيه فى ١٧٦١ — ١٧٦٢ عن « نظام اليسوعيين » الذى اتهم فيه الجماعة بالهرطقة والوثنية والأعمال غير المشروعة والدعوة إلى قتل الملوك ، وأكد أنه لزام على كل يسوعى أن يقسم يمين الطاعة المطلقة للبابا ورئيس الطائفة الذى كان يقيم فى رومه . وأنه بناء على ذلك تكون الجماعة بمقتضى دستورها خطراً يهدد فرنسا ومليكها ، ومن ثم ألح التقرير على أن يكون تعليم الأطفال حقاً مطلقاً للدولة لامراء فيه . وفى ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان روان كل اليسوعيين فى نورمندى بإخلاء دورهم وكلياتهم وعزل كل المديرين الأجانب ، وقبول القانون الفرنسى . وصدرت قرارات مماثلة من البرلمانات فى رن ، اكس أن بروفانس ، بو ، بربينان ، تولوز ، وبوردو . وفى أول أبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ونقل إدارة المدارس اليسوعية فى دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين .

وحاول رجال الدين الذين لاينتمون إلى طوائف على الرغم من أنهم من الناحية التقليدية يحقدون على اليسوعيين ، نقول حاولوا إنقاذهم ، ووجهت جمعية من الأساقفة الفرنسيين فى أول مايو نداء إلى الملك من أجل هذه الطائفة : التى هى نظام مفيد للدولة ... وهم جماعة من المتمسكين بالدين الجديرين بالثناء ، لنزاهة أخلاقهم وشدة انضباطهم ، واتساع نطاق نشاطهم وعملهم وسعة إطلاعهم وعلمهم ، والخدمات التى لاتحصى التى قدموها للكنيسة ... إن كل شىء يا صاحب الجلالة يناشدك العطف على اليسوعيين.

إن الدين يرى فيهم المدافعين عنه ، وترى فيهم الكنيسة خدامها ، كما يرى فيهم المسيحيون حراساً على ضمائرهم ، إن عدداً كبيراً ممن كانوا تلاميذهم يتشفعون لديك من أجل معلميهم القدامى . وإن كل شباب مملكتك يدعون ويصلون من أجل أولئك اليسوعيين الذين يشكلون عقولهم وقلوبهم. نرجو يا مولاى أن تعير أذناً صاغية إلى توسلاتنا التى أجمعنا على تقديمها إلى جلالتكم [٥٧].

وأضافت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين فى الحاشية تضرعاتهم من أجل اليسوعيين . ولكن شوازيل وبمبادور نصحا الملك آنذاك قطعاً بالأذعان للبرلمان وإغلاق المدارس اليسوعية . وذكرا لويس بأن عليه أن يفرض ضرائب جديدة ، وأن هذا يتطلب موافقة البرلمان

وعلى حين كان الملك متردداً بين هذه النصائح المتضاربة ، اتخذ البرلمان خطوات حاسمة . وفى ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لاتلتئم مع قوانين فرنسا ، وأن الإيمان التى أقسمها الأعضاء ، طغت على ولائهم للملك ، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية جعل منها هيئة أجنبية داخل دولة مفروض أنها ذات سيادة . وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة فى فرنسا ، وبتخلى كل الجزويت فى بحر ثمانية أيام عن كل ممتلكاتهم فى فرنسا ، فأعلن أنها صودرت لجانب الملك .

وأخر الملك تنفيذ هذا القرار تنفيذاً كاملا لمدة ثمانية شهور . ورفض

برلمانا بيزانسون ودواى الامتثال لهذه القرارات ، على حين أطال ثلاثة برلمانات ديجون وجرينوبل ومتز الجدل والمناقشة كسباً للوقت . ولكن برلمان باريس أصر . وأخيراً فى نوفمبر ١٧٦٤ أمر لويس بوقف نشاط جماعة اليسوعيين وقفاً تاماً فى فرنسا . وبلغت قيمة الممتلكات المصادرة نحو ٥٨ مليوناً من الفرنكات[٥٨]، وربما ساعد هذا على موافقة الملك على حل هذه الطائفة . وخصص معاش ضئيل لليسوعيين السابقين ، وسمح لهم بالبقاء فى فرنسا لبعض الوقت . ولكن فى ١٧٦٧ قرر البرلمان وجوب مغادرة كل اليسوعيين السابقين أرض فرنسا . وتبرأ قليل منهم من الطائفة وبقوا فى فرنسا .

وكان رحيلهم موافقاً للنبلاء والطبقة الوسطى والمثقفين ورجال الأدب والجانسنيين ، ولكن لم يرق فى أعين بقية الأهالى . واستنكر كريستوف دى بومونت رئيس أساقفة باريس تصرفات البرلمان بشدة ، وعبرت مجموعة رجال الدين الفرنسيين (١٧٦٥) بالاجماع عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ودعت إلى إعادتها . وأعلن البابا كليمنت الثالث عشر فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فأحرق المدعى العام المرسوم فى شوارع عدة مدن ، على أساس إن البابوات ليس لهم حق مشروع فى التدخل فى شئون فرنسا[٥٩] . ورحب الفلاسفة فى أول الأمر بطرد اليسوعيين باعتباره إنتصاراً مشجعا للفكر الحر . وأورد دالمبير فى سرور تعليق جان أستروس العالم الباحث فى الأسفار المقدسة ، والذى قال فيه « إن الموسوعة ، لا الجانسنيين ، هى التى قضت على اليسوعيين[٦٠] . وزادت الآن بسرعة مطبوعات الفكر الحر . وفى عقد السنين التى تلت عملية الطرد ، قارب دى هولباخ ومعاونيه حد الإلحاد .

ومهما يكن من أمر فثمة تفكير ثان ، وهو أن الفلاسفة أدركوا أن الأنتصار يرجع إليهم أقل مما يرجع إلى الجانسنيين والبرلمانات ، وأن الفكر الحر ترك ليواجه عدوا أشد تعصبا من اليسوعيين بكثير[٦١] . وعبر دالمبير فى كتابه « تاريخ القضاء على اليسوعيين » عن إبتهاج يسير بمصيرهم :

يفيقا إن العدد الأكبر منهم ، الذين لم يكن لهم صوت فى إدارة الأمور كان يجدر ألا يتحملوا وزر أخطاء رؤسائهم ، إذا كان هذا التفريق بين هؤلاء جائزا من الوجهة العملية . وهنـــاك آلاف من الأبرياء خلطنا مع الأسف بينهم وبين عشرين شخصا مذنبين ... إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة ألا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .

وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التى هى أقل طغيانا وجورا . فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ويتكيفون معهم ، شريطة إلا يعلن المرء عداءه لهم أجازوا للمرء أن يفكر كيفما شاء . أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم . وإذا قدر لهم أن يسودوا لفرضوا على الناس تحكما شديدا فى الاذهان والكلام والاخلاق[٦٢] .

وكأنما أراد برلمان باريس الذى سيطر عليه الجانسنيون أن يضرب أمثلة توضح وجهة النظر هذه فأصدر فى نفس عام ١٧٦٢ الذى أمر فيه بحل جماعة يسوع أمرا باحراق كتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبيا . وفى تلك السنة أعدم برلمان تولوز الذى تحكم فيه الجانسنيون كذلك ، جان كالاس ، وأحرق برلمان باريس فى ١٧٦٥ قاموس فولتير الفلسفى . وبعد ذلك بعام وأحد ثبت حكم التعذيب والإعدام الصادر على الشاب شيفالييه دى لابار من محكمة آبفيل .

وفى ٢٥ سبتمبر ١٧٦٢ كان دالمبير قد كتب إلى فولتير : « هل تعلم ماذا سمعت عنك بالأمس ؟ سمعت أنك بدأت ترثى لحال اليسوعيين ، وأنك واقع تحت إغراء الكتابة فى مصلحتهم »[٦٣] لقد كان فى قلب فولتير دائما رصيد من الشفقة والعطف ، والآن وقد بدا أن المعركة ضد جماعة يسوع قد كسبت تماما فإنه كان يسمع أصواتا من اللوم والعتاب من معلميه الذين قضوا نحبهم . وأخذ إلى داره فى فرنى أحد اليسوعيين السابقين ،

هو الأب آدم الذى تسلم صدقاته ، وغلبه دائما فى الشطرنج . وحذر فولتير شالوتيه بقوله « إحترس حتى لا يوقع الجانسنيون يوما من الضرر والأذى قدر ما أحدث اليسوعيون .... وماذا يفيدنى أن إتخلص من الثعالب إذا أسلمونى للذئاب »(٦٤). أنه خشى أن يعمد الجانسنيون مثل البيوريتانيين فى القرن السابع عشر فى انجلترا إلى إغلاق المسارح ، والمسرح كل هوى نفسه الأثير لديه تقريبا ، ومن ثم كتب إلى دالمبير « كان اليسوعيون ضروريين ، وكانوا ضربا من التسلية ، وكنا نسخر منهم ، أما الأن فسوف يسحقنا المتحذلقون »(٦٥). وكان على استعداد للصفح عن اليسوعيين لمجرد أنهم أحبوا الآداب القديمة والمسرحية(٦٦) .

وشاركه صديقه وعدوه فردريك الأكبر فى هذه المشاعر . وسأل الأميردى لين ١٧٦٤ : « لماذا قضوا على مستودع نفائس أثينا وروما ، معلمى الإنسانيات وربما الإنسانية الممتازين ، وهم اليسوعيون ؟ أن التعليم سيعانى من القضاء عليهم....ولكن حيث أن الأخوة الملوك الأكثر كثلكة ومسيحية وإخلاصا وإيمانا ورسولية قد طردوهم ، فانى وأنا الأكثر هرطقة سأجمع أكبر عدد منهم وأحافظ عليهم »(٦٧) .

وعندما أنذر دالمبير بأنه سوف يأسف لهذا الود واللطف وذكره بأن اليسوعيين كانوا يعارضون غزوه لسيليزيا أنب الملك الفيلسوف بقوله :

« لا تنزعج من أجل سلامتى . أنى ليس لدى ما أخشاه من اليسوعيين ، إنهم يستطيعون تعليم شباب البلاد وهم أقدر على ذلك من غيرهم — حقا إنهم كانوا يعارضوننى أثناء الحرب ، ولكنك بصفتك فيلسوفا يجدر بك إلا تلوم أحدا لكونه عطوفا رحيما مشربا بالروح الإنسانية تجاه أى فرد من الجنس البشرى مهما كان من أمر دينه أو الجماعة التى ينتمى إليها . حاول أن تكون فيلسوفا أكثر منك ميتافيزيقيا »(٦٨) .

وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها ١٧٧٣ أبى فردريك السماح بنشر المرسوم البابوى فى مملكته.وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم فى بروسيا وسيليزيا .

ولم تعكر كاترين الثانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم فى الجزء الذى استولت عليه من بولندة ١٧٧٢ ، وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلو إلى روسيا فيما بعد . وثابروا وصبروا فى جهد متواصل حتى عودتهم (١٨١٤) .

٤ — التعليم والتقدم

ولكن من ذا الذى يتولى الآن تعليم شباب فرنسا بعد أن ذهب اليسوعيون ؟ هنا حدثت فوضى ، ولكن حدثت كذلك ثورة وإنقلاب فى عالم التربية والتعليم .

إن شالوتيه وهو بعد متحمس لأتهامه لليسوعيين ، إنتهز الفرصة وقدم لفرنسا رسالة عن التعليم القومى « (١٧٦٣) هالى لها الفلاسفة مرحبين بها . والآن كانت دعواه تقوم على أساس أنه لا يجدر بالمدارس الفرنسية أن تنتقل من أخوة دينية (طائفة) إلى أخرى — على سبيل المثال من طائفة « الأخوة المسيحيين » إلى « طائفة الأوراتوريين » . أنه لم يكن ملحدا ، إنه على الأقل رحب بتدعيم الدين للفضيلة والاخلاق القويمة ، إنه يود تلقينها واحلالها المحل اللائق بها ، ولكنه لا يرضى بسيطرة رجال الدين على التعليم . وسلم بأن كثيرين منهم كانوا معلمين ممتازين لا ينافسهم أحد فى صبرهم وجلدهم وأخلاصهم ، ولكنه إحتج بأن تحكمهم فى فصول الدراسة بغلق الأذهان أن عاجلا أو آجلا دون الفكر الأصيل ، يغرس فى نفوس التلاميذ الولاء للدولة أجنبية ، ويجب أن تلقن مبادى الاخلاق مستقلة عن أى مذهب دينى « يجب أن يكون لقوانين الأخلاق الأسبقية على كل القوانين سماوية كانت أو بشرية ، وينبغى أن تستمر ولو لم تعلن هذه القوانين الأخيرة مطلقا»[٦٩]. إن شالوتيه كذلك رغب فى غرس المبادىء ، ولكن كذلك أراد تلقين المثل العليا الوطنية[٧٠] « إنى أطالب للأمة بتعليم يعتمد على الدولة وحدها »[٧١]. ويجب أن يكون المعلمون علمانيين ، وإذا كانوا كهنة فيجدر ألا يكونوا من المنتمين لطائفة دينية . ويجب أن يكون الغرض من التعليم هو إعداد الفرد

لا للسماء بل للحياة ، ولا للطاعة العمياء بل للخدمة الممتازة فى مجالات المهن والإدارة وفنون الصناعة . ويجب أن تكون الفرنسية لا اللاتينية لغة التعليم ، ويجب أن يخصص للغة اللاتينية وقت أقل وللانجليزية والإلمانية زمن أكبر . ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم . ومن أدنى المراحل حتى الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة يمكن استيعاب مبادىء الجغرافيا والفيزياء والتاريخ الطبيعى . كذلك التاريخ ينبغى أن يكون له مكان أكبر فى التعليم المدرسى . « ولكن الذى يعوز فى العادة من يكتبون التاريخ ومن يقرأون التاريخ على حد سواء هو الذهن الفلسفى »(٧٢) . وهنا قلد شالوتيه فولتير أكليل الغار وشهد له بالسبق فى هذا المضمار . وفى المراحل المتأخرة يجب أن يكون ثمة تعليم الفن وتربية الذوق . ويجب توفير الوسائل لتعليم الأناث ، ولكن ليس من الضرورى تعليم الفقراء ، فإن ابن الزارع لن يتعلم فى المدرسة خيرا مما قد يتعلم فى الحقل ، وإن تعليمه شيئا غير هذا سيجعله غير راض عن طبقته.

وصعق هلفشيوس وترجو وكوندورسيه لهذا الرأى الأخير ، ولكن فولتير استحسنه وكتب إلى شالوتيه « أشكرك على تحريم التعليم على العمال . وأنا الذى أزرع الأرض إحتاج إلى عمال يدويين لا إلى رجال دين حليقى الرؤوس ، أرسل إلى أخوة جهلة حقاً ليقودوا مركباتى أو يهيئوها للاستخدام »(٧٣) . وكتب إلى داميلا فيل الذى كان قد إقترح التعليم للجميع « أشك فى أن أولئك الذين يكسبون قوتهم باستخدام عضلاتهم يكون لديهم فسحة من الوقت ليتعلموا ، وسيموتون جوعا قبل أن يصبحوا فلاسفة ... وليس العامل اليدوى هو الذى يجب أن نعلمه بل البرجوازى ساكن المدينة »(٧٤) . وفى مواضع أخرى تنازل فأيد تعليم الجميع التعليم الإبتدائى ، ولكنه كان يأمل فى تقييد التعليم الثانوى إلى حد يسمح بترك فئة كبيرة من العمال اليدويين ليقوموا بالأعمال البدنية فى المجتمع(٧٥) . إن أول مهمة للتعليم فى رأى فولتير هى وضع حد للتعليم للكنسى الذى رأى أنه مسئول عن الخرافات التى أمتلأت بها عقول الجماهير وعن تعصب الناس .

وبناء على طلب كاترين الثانية ١٧٧٣ رسم ديدرو « خطة لجامعة لحكومة روسيا » . واستنكر مثل شالوتيه المنهج التقليدى فى عبارات نسمعها نحن اليوم :

« لايزال يدرس فى كلية الآداب لغتان ميتتان لايستخدمهما إلا نفر قليل من المواطنين ، وهاتان اللغتان تدرسان لمدة ست أو سبع سنوات دون أن يحفظا . وتحت اسم البلاغة يدرس فن الكلام قبل فن التفكير ، وتحت اسم المنطق يملأ الرأس بتفاصيل دقيقة من أرسطو . . . وتحت أسم الميتافيزيقيا تبحث نقاط تافهة معقدة تضع أساس التشكك والتعصب كليهما . وهناك تحت اسم الفيزياء نزاع لا حد له حول المادة ونظام العالم دون كلمة واحدة عن التاريخ الطبيعى (الجيولوجيا والميبولوجيا) . أو عن الكيمياء وعن حركات الأجسام وجاذبيتها . وهناك تجارب قليلة جداً . ولاتزال الدراسة التشريحية قليلة وليس هناك جغرافيا[٧٦] .

ونادى ديدرو بسيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين ، ومزيد من العلوم . فينبغى أن يكون التعليم عمليا يخرج الزراعين والفنيين المتخصصين والأفراد العلميين والمديرين . ويجب إلا تدرس اللغة اللاتينية إلا بعد سن السابعة عشرة ، ويمكن حذفها كلية إذا لم يتطلع الطالب إلى استخدامها . ولكن لا يمكن أن يكون الإنسان أديبا دون معرفة باليونانية وللاتينيه[٧٧] . وحيث أن العبقرية قد تظهر فى أية طبقة فينبغى أن تكون المدارس مفتوحة أمام الجميع دون أجر ، ويجب أن يقدم الطعام للفقراء ويزودوا بالكتب بالمجان[٧٨] .

وإذ هوجمت الحكومة الفرنسية على هذا النحو فأنها جاهدت لتفادى توقف التعليم نتيجة طرد اليسوعيين ، وخصصت الممتلكات المصادرة من الطائفة إلى حد كبير لأعادة تنظيم المدارس الخمسمائة فى فرنسا . وجعلت هذه المدارس جزء من جامعة باريس . وحولت كلية لويس الأكبر إلى مدرسة للمعلمين لتدريب المدرسين ، وحددت الرواتب على أساس بدا معقولا .

وأعفى المدرسون من الضرائب البلدية ووعدوهم بمعاش تقاعد عند إنهاء الخدمة . وقبل البندكتيون والأوراتوريون والأخوة المسيحيون الانخراط فى سلك المعلمين ، ولكن الفلاسفة شنوا حملة ضدهم احدثت أثرا يذكر . وظل المذهب الكاثوليكى جزءا هاماً فى المنهج ولكن العلوم والفلسفة الحديثة بدأت تحتل مكان أرسطو والاسكولاسيين (الفلاسفة المسيحيين فى العصور الوسطى)، وحاول بعض المدرسين المدنيين أن ينقلوا أفكار الفلاسفة[٧٩] . وأنشئت المعامل فى الكليات مع أساتذة للفيزياء التجريبية ، وفتحت المدارس الفنية والحربية فى باريس والأقاليم . وكانت ثمة تحذيرات كثيرة بأن خطة الدراسة الجديدة ستعمل على تحسين العقول لا الأخلاق . وقد تضعف الفضيلة والانضباط وتؤدى إلى الثورة[٨٠] .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة بنوا آمالهم للمستقبل على اصلاح التعليم. إنهم بصفة عامة إعتقدوا بأن الإنسان خير طيب بالطبيعة ، وأن بعض انحرافات زائفة أو شريرة كهنوتية أو سياسية هى التى أفسدته ، وكل ما ينبغى عليه أن يفعله هو أن يطهر نفسه من الخداع والبدع ويعود إلى « الطبيعة » التى لم يحددها أحد بعد تحديدا مرضيا . وهذا كما سنرى كان لب الموضوع عند روسو . وقد لحظنا إيمان هلفشيوس « بأن التعليم يمكن أن يغير كل شيء »[٨١] . وحتى فولتير المتشكك نفسه ذهب فى بعض الحالات إلى أننا جنس من القردة يمكن أن يتعلم أن يتصرف تصرفا عقلانيا أو غير عقلانى[٨٢]. وأصبح الإيمان بامكانات التقدم التى لا حدود لها عن طريق تحسين التعليم والتوسع فيه أحد التعاليم الهامة فى الديانة الجديدة . إن السماء واليوتوبيا هما الدلوان المتنافسان اللذان يحومان حول بئر المصير والقدر فإذا هبط أحدهما صعد الآخر ، والأمل يرفع الواحد منهما أو الآخر إلى أعلى كل بدوره . وربما إذا صعد كلا الدلوين خاليا وهنت المدنية وبدأت تفنى .

وفى ١١ ديسمبر ١٧٥٠ صاغ ترجو العقيدة الجديدة فى محاضرة فى السوربون بعنوان « الخطوات المتعاقبة إلى الأمام فى الذهن البشرى » :

« إن الجنس البشرى إذا تأملناه من القدم يبدو لعين الفيلسوف كلا مترامى الأطراف ، له مثل الكائن الفرد مرحلة طفولته وتقدمه . . . فتصبح آداب السلوك أكثر رقة وتهذيبا والذهن أكثر تنورا ، وتتقارب بعضها من بعض الأمم التى كانت آنذاك منعزلة ، وتربط التجارة والعلاقات السياسية أركان الكرة الأرضية بعضها ببعض ، ويستمر الجنس البشرى بأسره فيما بين تقلبات الهدوء والعاصفة وتقلبات الأيام حلوها ومرها فى مسيرته قدما ، ولو بخطى وئيدة نحو كمال يقترب منه دوما[٨٣] . ووافق فولتير على هذا متردداً ، فهو يقول :

« قد نؤمن بأن العقل والصناعة سوف تتقدمان أكثر فأكثر ، وتتحسن الفنون الناقصة . وأنه من بين الشرور والمساوىء التى تنتاب بنى الإنسان ستختفى شيئا فشيئا الحزازات بين من يحكمون الأمم ، ولو أن تلك الحزازات ليست أقل الكوارث ، وأن الفلسفة بانتشارها على أوسع نطاق سيكون فيها عزاء لأرواح البشر عن المصائب التى يتعرضون لها فى كل العصور[٨٤] . »

ورحب الفيلسوف المحتضر بتولى ترجو زمام السلطة فى ١٧٧٤ لأنه ليس لديه ثقة بالجماهير . وتعلقت آماله باستنارة الملوك . إننا لا نستطيع تعليم الرعاع والغوغاء — كما كان يسمى عامة الناس — لأنهم منهوكون بالكد والكدح قبل أن يتعلموا التفكير . ولكن فى مقدورنا أن نعلم قلة تقترب من الذروة فيعلمون الحاكم أو الملك . أن حلم « المستبدين المستنيرين » هذا بأعتبارهم قادة مسيرة الجنس البشرى ، كان الرسالة الملكية « المحفوفة بالمخاطر التى بنى عليها معظم الفلاسفة رؤيتهم للتقدم ، وكان لديهم هواجس كثيرة تنذر بالثورة ، ولكنهم أوجسوا منها خيفة أكثر مما رغبوا فيها . ووثقوا أن العقل قد يكسب الطبقة الحاكمة إلى جانبه ، وأن الوزراء والحكام قد يستمعون إلى صوت الفلاسفة وينفذون الأصلاحات التى تحول دون الثورة ، وتسير بالجنس البشرى على طريق السعاده ومن ثم رحبوا باصلاحات فردريك الثانى ، وإغتفروا آثام كاترين الثانية . ولو أنهم عاشوا لا بتهجوا

بجوزيف الثانى فى النمسا . وبما ثقتنا فى الحكومة إلا أنها ذاك الأمل يبتعث من جديد ؟

٥ — الأخلاقيات الجديدة

بقيت مشكلة معلقة مرهقة . يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعى بالأمال والمخاوف الخارقة للطبيعة (الجنة والنار) ؟ هل يمكن الاحتفاظ بأخلاق شعبية عامة دون إيمان شعبى عام فى أصل سماوى للقانون الاخلاقى، وإيمان باله بصير بكل شىء، إله يثيب ويعاقب ؟ إن الفلاسفة (فيما خلا فولتير) زعموا أن هذه الدوافع ليست مطلوبة للأخلاق . ومع التسليم بأن هذا قد يصدق بالنسبة للقلة المثقفة ، فهل يصدق بالنسبة للباقين ؟ وهل كانت أخلاق القلة المثقفة صدى أخلاقيا للإيمان الذى فقدوه ، وللتربية الدينية التى تلقوها ؟

وقامر الفلاسفة بفعالية الأخلاق الطبيعية . وكانت الشكوك تخامر فولتير فيها ، ولكن ديدرو ود المبير وهلفشيوش ودى هولباخ ومابلى ، وترجو ، وغيرهم دافعوا عن أخلاق يمكن أن تكون مستقلة عن اللاهوت ، أخلاق قوية إلى حد الصمود أمام تقلبات العقيدة أو الإيمان . وكان بيل قد مهد الطريق بمحاولته التدليل على أن الملحدين قد يكونون على خلق مثل المؤمنين تماما ، ولكنه كان قد عرف الأخلاق بأنها عادة الإنسجام مع العقل ، وافترض أن الإنسان حيوان عقلانى، كما أنه كان قد ترك العقل دون تعريف. وهل يكون المجتمع أو الفرد حكما على ما هــو معقول ؟ وإذا إختلف المجتمع والفرد ، فماذا غير القوة يكون لهــا القول الفصل بينهما ؟ وهل يكون النظام الاجتماعى مجرد صراع بين تنفيذ القانون والتملص منه ؟ وهل تحصى الفضيلة أو الأخلاق القويمة فرص الكشف فحسب ؟ أن ف . ف توسان F. V. Toussin كان قد شرح الأخلاق الطبيعية فى كتابه « العادات والاعراف » (١٧٤٨) ، وكان أيضا قد عرف الفضيلة بأنها « الدقة والأمانة فى الوفاء بالالتزامات التى يفرضها العقل »[٨٥] ، ولكن كم من الناس يستطيعون التفكير ، أوكم من الناس فكر بالفعل إذا كان هذا فى مقدرته ؟ ألم يتشكل

الخلق (الذى يحدد الفعل) قبل أن ينمو العقل ؟ ألم يكن العقل مطية أقوى الرغبات ؟ تلك كانت بعض المشاكل التى واجهت الأخلاق الطبيعية .

وقبل معظم الفلاسفة شمولية حب الذات مصدرا أساسيا لكل الأفعال الإرادية أو الواعية ، ولكنهم آمنوا بأن التعليم والتشريع والعقل قد تعمل كلها على تحويل حب الذات إلى تعاون متبادل ونظام إجتماعى . إن دالمبر يبنى فى ثقة الأخلاق الطبيعية على :

« حقيقة واحدة لا تقبل الجدل هى حاجة الناس بعضهم إلى بعض ، والالتزامات المتبادلة التى تفرضها تلك الحاجة وإذ نسلم بهذا إلى حد كبير ، فإن كل القوانين الأخلاقية تستتبعه فى تسلل منتظم لا مناص منه ولا يمكن تفسيره . ولكل المشاكل المتعلقة بالأخلاق حل فورى فى قلب كل منا ، وهو حل قد تروغ منه أو تتحايل عليه احيانا أهواؤناوعوا طفنا ، ولكنها لا تقضى عليه مطلقا . وحل كل مسألة بعينها يؤدى . . . . إلى الجذر الأساسى وهذا بطبيعة الحال هو مصلحتنا الذاتية وهى المبدأ الأساسى فى كل الالتزامات الأخلاقية[٨٦] .

وتبين لبعض الفلاسفة أن هذا يتطلب هيمنة العقل بصفه عامة فى الناس عموما — أى مصلحة ذاتية « مستنيرة » إلى حد كاف لترى اختيار النفس (الاختيار الذاتى) فى صورة كبيرة إلى حد يسمح بالتوفيق بين أنانية الفرد وخير الجماعة . ولم يشارك فولتير فى هذه الثقه فى ذكاء الأنانية وبدا له التعقل عملية إستثنائية ، وآثر أن يؤسس الأخلاق على وجود غيرية (حب الغير) مستقلة عن حب الذات ، واستمد هذه الغيرية من شعور بالعدالة بثه الله فى الناس . واتهمه الأخوة بأنه يسلم القضية للدين .

ومذ افترض الفلاسفة شمولية حب الذات فأنهم بصفة عامة خلصوا إلى أن السعادة هى الخير الأسمى ، وأن كل اللذات مجازة مسموح بها إذا كانت لا تؤذى الجماعة أو الفرد نفسه .

وجريا على أساليب الكنيسة دبج جريم ودى هولباخ ومابلى وسانت

لامبير كتيبات تفسر الأخلاقيات الجديدة . ووجه سانت لامبير كتيبه « التعاليم الشاملة » إلى الأطفال فى سن الثانية عشرة أو الثالثه عشرة :

س — ما هو الإنسان ؟

ج — كائن له شعور وعقل .

س — إذا كان هذا الكائن على ما تصف ، فماذا يجب عليه أن يفعل ؟

ج — يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم .

س — أليس هذا هو حب الذات ؟

ج — أنه النتيجة اللازمة له .

س — هل يوجد حب الذات فى كل الناس بقدر سواء ؟

ج — نعم ، لأن كل الناس يهدفون إلى حفظ الذات وإلى تحقيق السعادة .

س — ماذا تفهم من السعادة ؟

ج — حالة مستمرة نجد فيها لذة أكثر مما نعانى ألما .

س — ماذا يجب علينا أن نفعل لنبلغ هذه الغاية (الحالة) ؟

ج — يجب أن نهذب عقولنا ونفعل ما يمليه علينا العقل .

س — ما هو العقل ؟

ح — معرفة الحقائق التى تفضى إلى سعادتنا ورفاهيتنا .

س — إلا يقودنا حب الذات دائما إلى كشف تلك الحقائق والعمل بمقتضاها؟

ج — كلا ، فليس كل الناس يعرفون كيف يمارسون حب الذات .

س — ماذا تعنى بهذا ؟

ج — أعنى أن بعض الناس يمارسونه ممارسة حقة وبعضهم يمارسونه ممارسة خاطئه .

س — من هم هؤلاء الذين يمارسون حب الذات ممارسة صائبة ؟

ج — هم الذين يحاولون أن يعرف بعضهم بعضا ولايفصلون سعادتهم عن سعادة الآخرين(٨٧) .

وركز الفلاسفة فى أخلاقهم العملية على ذكرياتهم عن الأخلاقيات المسيحية . فاحلوا محل عبادة الله ومريم والقديسين — وهى العبادة التى عاونت بطريق غير مباشر على الفضيلة — إخلاصا مباشراً للجنس البشرى : أن الراهب سان بيير اقترح لفظة جديدة لفضيلة قديمة — البر و الاحسان التى نترجمها ترجمة ضعيفة — وقصد بها العون الجاد المتبادل والتعاون مع الآخرين فى أعمال الخير والبر المشتركة . ومع هذه أكد الفلاسفة كذلك على الإنسانية ، أى التحلى بالروح الإنسانية وحب الخير العام ، ولهذه جذورها وأصولها فى ثانية الوصايا التى أعلنها السيد المسيح . ولابد أن رينال حين دمغ قسوة الأوربين مع السود والهنود (فى الشرق والغرب) بأنها عمل غير إنسانى ، عرف أن أسقفا أسبانياً هو لاس كاساس قد سبقه إلى هذا الأتهام فى عام ١٥٣٩ . ولكن التحمس الجديد لمساعدة الفقراء والمساكين والمرضى والمظلومين كان يرجع أساسا إلى الفلاسفة . وفوق كل شىء إلى فولتير . أن اصلاح القانون فى فرنسا يرجع إلى حملاته المتواصلة . وأشهر رجال الدين الفرنسيون بالصدقات ولكنهم آنذاك مارسوا رؤية الأخلاق العملية فى المسيحية يبشر بها الفلاسفة ويدعون إليها بنجاح يذكر . ونمت الأخلاقيات أكثر استقلالا وإنفصالا عن الدين ، وفى مجالات الروح الإنسانية والعطف والتسامح وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية والسلام انتقل الأمر من أساس لا هوتى إلى أساس علمانى أو دنيوى ، وأثرت على المجتمع بشكل لم يعهد له مثيل من قبل .

وحين واجه الفلاسفة المشكلات الأخلاقية التى ولدتها الحرب ، تحاشوا التهدئة على حين كانوا ينصحون بالسلام ، وأقر فولتير الحروب الدفاعية ولكنه دلل على أن الحروب عملية سلب ونهب ، وأنها تؤدى إلى ضعف وفقر المنتصر والمنهزم على حد سواء ، وأنها تجلب الغنى والثراء إلى نفر قليل

من الأمراء ومقاولى الحرب والعشيقات الملكات ، واحتج على غزو فردريك لسيليزيا ، وربما كان يعيه فى ذاكرته حين شرح فى مقال غاضب عن « الحرب » فى القاموس الفلسفى كيف يرتضى الضمير الملكى العدوان : « إن أحد علماء الأنساب يثبت لأحد الأمراء أنه ينحدر مباشرة من سلالة كونت عقد أبواه ميثاقا عائليا منذ ثلاثة أو أربعة قرون مع بيت لم تبق منه حتى الذكرى ، وكان لهذا البيت بعض الحقوق المزعومة فى الأقليم . . . إن الأمير ومجلسه يلمسون حقه على الفور . وهذا الأقليم الذى يبعد عنه بعدة مئات من الفراسخ ، يحتج عبثا بأنه لا يعرفه (أى الأمير) وأنه لا يرغب فى أن يكون تحت حكمه وأنه لكى يسن القوانين لشعب هذا الأقليم يجب على الأقل الحصول على موافقتهم ورضاهم . إن الأمير يحشد على الفور عددا كبيراً من الرجال الذين لن يخسروا شيئا ، ويزودهم بالملابس الزرقاء الخشنة . . . ويأمرهم بالألتفاف يمنة ويسرة ويتقدم إلى ساحة المجد » .

وعلى الرغم من ذلك نصح فولتير كاترين الثانية بامتشاق الحسام لطرد الأتراك من أوربا ، وكتب مرثية وطنية للضباط الذين ما توا من أجل فرنسا فى ١٧٤١ ، وبارك إنتصار الجيش الفرنسى فى فونتنوى .

ونبذ الفلاسفة القومية والوطنية على أساس أن هذه الأحاسيس والعواطف تعمل على تضييق مفهوم الإنسانية والالتزامات الخلقية ، وأنها جعلت من السهل على الملوك أن يقودوا شعوبهم إلى الحرب . وشجبت مقالة « الوطنية » فى القاموس الفلسفى « الوطنية » باعتبارها أنانية ضيقة الأفق . إن فولتير توسل إلى الفرنسيين إن يخففوا من تفاخرهم بسمو اللغة والأدب والفن والحرب ، وذكرهم بأخطائهم وجرائمهم ونقائصهم[٨٨] . وكان مونتسكيو وفولتير وديدرو ودالمبير فى فرنسا كما كان لسنج وكانت وهردر وجيته وشيلر فى ألمانيا ، أوربيين طيبين ثم بعد ذلك فرنسيين أو ألمان . وكما أن ديانة واحدة ولغة واحدة كانتا قد أنشأتا « العالمية » فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، فكذلك نمت العالمية فى القارة نتيجة لإنتشار اللغه والثقافة الفرنسيتين.

وتحدث روسو فى ١٧٥٥ عن تلك « الأذهان العالمية التى تهمل الحواجز التى أقيمت لتفصل بين الأمم بعضها عن بعض ، والذين مثل الذات العلية التى خلقتهم يحتضنون الجنس البشرى بأسره فى نطاق النزعة إلى عمل البر والخير [٨٩]. وفى مكان آخر كتب فى مبالغه ملحوظة « لم يعد هناك فرنسى ولا ألمانى . . . هناك فقط أوربيون »[٩٠] ولم يصدق هذا إلا على النبلاء ورجال الفكر ، ولكن فى هذه الطبقات إمتدت الروح العالمية من باريس إلى نابلى وبطرسبرج. وحتى فى زمن الحرب اختلط رجال الأدب بأضرابهم ممن هم فى طبقتهم عبر الحدود ، فقد رحب المجتمع الباريسى بهيوم وهوراس وولبول وجيبون وآدم سميث ، بينما كانت فرنسا مشتبكة فى حرب مع إنجلترا . وأحس الأمير دى لين أنه فى وطنه بين أهله وعشيرته فى كل عاصمة أوربية تقريبا . والجنود أنفسهم كان لديهم شىء من هذه النزعة العالمية . قال فرديناند دوق برنزويك « أنه لمما يشرف كل ضابط ألمانى أن يخدم تحت لواء فرنسا »[٩١] وكانت فى الجيش الفرنسى كتيبة بأكملها « الكتيبة الملكية الإلمانية » مكونة من الألمان. ووضعت الثورة الفرنسية حداً لهذه النزعة العالمية فى التوافق الشديد فى العادات والعقول ، وتضاءلت هيمنة فرنسا ، وإزدادت الروح القومية .

وهكذا نجد الثورة الفكرية التى كانت إلى حد ما نتيجة رد فعل أخلاقى ضد قساوات الألهة والكهنة قد انتقلت من نبذ اللاهوت القديم إلى أخلاق قائمة على أخوة عالمية اشتقت من أجمل جوانب العقيدة التى طرحت جانبا . ولكن المشكلة هى هل يمكن لقانون أخلاقى لايساندة ويدعمه الدين أن يحتفظ بنظام اجتماعى ؟ وهى مشكلة باقية دون حل ، وهى لاتزال تواجهنا . أننا نعيش هذه التجربة الحرجة الدقيقة .

٦ — تراجع الديانة

وفى الوقت نفسه ، حتى الآن ، بدا الفلاسفة وكأنهم كسبوا المعركة ضد المسيحية . أن المؤرخ النزيه إلى حد الأعجاب هنرى مارتن وصف شعب فرنسا فى ١٧٦٢ بأنه جيل ليس لدية أى إيمان بالمسيحية»[٩٢] . وفى ١٧٧٠ قال المحامى العام سيجويه Siguier فى تقرير له :

« سعى الفلاسفة بأحدى اليدين أن يشلوا العرش ، وباليد الأخرى أن يقلبوا المذابح (أن يهدموا الكنائس) . وكان غرضهم أن يثيروا الرأى العام ضد النظم المدنية والدينية . وهذا الأنقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل . فإن التاريخ والشعر والقصص بل حتى القواميس قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق . ولاتكاد كتاباتهم تنشر قبل أن تطغى على الإقاليم مثل السيل الجارف ، وإمتدت العدوى إلى المصانع والأكواخ»[٩٣] .

وكأنما كان أيضاحاً لهـــذا التقرير أن يجمع سيلفان ماريشال فى ١٧٧١ « قاموس الملحدين » الذى توسع فيه بتضمينه ابيلار وبوكاشيو والأسقف بيركلى[٩٤] . وفى ١٧٧٥ أعان رئيس أساقفة تولوز أن « الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأى السائد »[٩٥] . وذهبت مدام دى ديفان إلى أن الإيمان بالمعجزات المسيحية أصبح خامدا مثله فى ذلك مثل التصديق بالأساطير اليونانية[٩٦] ، وبقى الشيطان ضربا من لغو الكلام ، والجحيم أضحوكه[٩٧] . وأزعج علم الفلك الجديد رب اللاهوت فى الفضاء وكأنما يتراجع عن الفضاء مع ارتياد الكواكب فى زماننا هذا . وفى ١٨٥٦ تحدث توكفيل عن ضعف الثقة فى الإيمان الدينى الذى أنتاب الناس فى أو آخر القرن الثامن عشر[٩٨] .

لقد بولغ فى كل هذه التصريحات والبيانات ، وربما قيلت وباريس والطبقات العليا والمثقفة ماثلة فى أذهان ناشريها . إن حكم لكى Lecky أكثر تميزاً وتحديداً حيث يقول : إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة . وتغاضى كل موظفى الإدارة فى مصالح الحكومة جميعها عن انتشارها وتداولها ، أو قل أنهم رحبوا بهذا وذاك[٩٩] . وظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة ، فلم يقبلوا المعجزات القديمة فحسب بل الجديدة كذلك ووجد الباعة المتجولون سوقاً رائجة للتماثيل الصغيرة التى تمثل معجزات العذراء[١٠٠] . وكانت التماثيل والمخلفات تحمل فى المواكب بغية تفادى الكوارث العامة أو وضع حد لها وزوالها . وازدحمت الكنائس حتى

فى باريس بالناس أيام الأعياد الكبرى فى السنة الدينية ، ودوت أجراس الكنائس بالتراتيم فى المدينة تدعو الناس إليها . وكانت « الأخوات » الدينية تضم أعضاء كثيرين وبخاصة فى مدن الأقاليم على الأقل . وأكد سيرفان لدى لمبير حين كتب إليه من جرينوبل (١٧٦٧) : « قد تدهش أيها الأخ لتقدم الفلسفة فى هذه المناطق الهمجية غير المتمدينة » . وفى ديجون كان هناك ستون مجموعة من الموسوعة ، ولكن تلك كانت حالات استثنائية ، وبقيت البرجوازية الإقليمية فى جملتها مخلصة للكنيسة .

وفى باريس وصلت الحركة الجديدة إلى كل طبقة . وكان العمال يزداد عداؤهم للكنيسة ، وكانت المقاهى قد طردت الرب منذ زمن بعيد .

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه قال له وهو يصفف شعره « أنت ترى يا سيدى أننى شخص مسكين تافه ، ولكنى مع ذلك لم يعد لى دين مثل أى إنسان آخر »[١٠١] . وواصل نساء الطبقة الكادحة عبادتهن القديمة واستخدمن مسابحهن فى شغف زائد . أما السيدات العصريات الأنيقات فقد اتبعن أسلوب الفلاسفة على أية حال ، واستغنين عن الدين إلى حد كبير ، وأرسلت كل منهن تقريباً فى طلب القسيس حين تأكدن من دنو الأجل . وكانت معظم الصالونات الكبرى تتبع الفلاسفة . واحتقرت مدام دى ديفان هؤلاء الرجال ، ولكن مدام جيوفرين رحبت بهم فى أمسياتها ، حتى أكتظت بهم مائدتها . وتكاثروا حول الآنسة لسبيناس وتصدر جريم صالون مدام ابيناى ، ووصف هوراس وولبول الجو الفكرى للصالونات فى ١٧٦٥ فقال :

« هنالك إله وهنالك ملك يجب القضاء عليهما . والرجال والنساء جادون فى تدميرهما . أنهم يظنوننى دنسا لأن لدى بقية من إيمان[١٠٢] . . . والفلاسفة لايطاقون ، وهم سطحيون متغطرسون متعصبون ، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة ، وهم يجهرون بالإلحاد ، وقد لاتصدق مبلغ صراحتهم ، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعيا[١٠٣] .

وعلى الرغم من ذلك اختارت الأكاديمية لعضويتها تسعة من الفلاسفة فى الإنتخابات الأربعة عشر التى جرت فيما بين عامى ١٧٦٠ و فى ١٧٧٢ ، وجعلت دالمبير سكرتيرها الدائم .

والتهم النبلاء فى إبتهاج مشوب بالعداء للدين كل ما قدمته لهم العقول القوية . وقال لاموث لا نجون «كان الالحاد سائدا إلى حد بالغ فى المجتمع الراقى ، وكان الإيمان بالله دعوة إلى الحماقة والسخف وإنتشر الكفر والبعد عن الدين بين الأستقراطية بعد ١٧٧١[١٠٥] . وكانت دوقة دانفيل ودوقات دى شوازيل وجرامونت ومونتسون وتسى ربوبيات . وارتبط رجال من ذوى المناصب الرفيعة فى الحكومة — مثل شوازيل وروهان وموريباس وبوفو وشوفيلين بأواصر الود والصداقة مع دالمبير وترجو وكوندورسيه . وفى الوقت نفسه أوضح الفلاسفة لفرنسا أن النظام الإقطاعى جاوز عمر الفائدة المرجوة منه ، وأن الأمتيازات الوراثية جور متحجر طال عليه الزمن ، وأن صانع الأحذية الطيب خير من لورد مبلد لا يصلح لأى عمل، وأن كل السلطة مستمدة من الشعب .

وسرت العدوى حتى إلى رجال الدين . وفى ١٧٦٩ قاس تشامفورت درجة ترعزع الإيمان لدى رجال الدين تبعا لتسلسل مراتبهم الكنيسة : « يجب أن يؤمن القسيس قليلا ، أما وكيل الكنيسة فيبتسم لأية قضية تثار ضد الدين ، ويسخر الأسقف دون تحفظ ، ويضيف الكاردينال ملاحظه بارعة أو نكتة ساخرة من عنده[١٠٦] . وعدد ديدرو ودى هولباخ مجموعة كهنة متشككين من بين أصدقائهم . وكان القساوسة تورنى وفوشية ، وموري ، ودى بولونى « من بين أكثر من يرددون آراء الفلاسفة»[١٠٧] . وأنا لنسمع عن « جماعة القساوسة ذوى العقول الناضجة » وبعض هؤلاء الكهنة الأذكياء كانوا ربوبيين ، كما كان بعضهم ملحدين — وعاد مسليه إلى الحياة . إن المركيز دى شاستللولكس أبلغ بريستلى حين كان يتناول العشاء مع ترجو ١٧٧٤ « إن السيدين الجالسين أمامه هما أسقف أكس ورئيس أساقفة

تولوز ، ولكنهما ليسا أكثر إيماناً منك أو منى ، وأكدت له أنى مؤمن . وأبلغنى مسيولى روى الفيلسوف أنى أنا الوحيد المدرك الواعى الذى عرف أنه مسيحى » (١٠٨)

وكان للإلحاد بعض الأصدقاء حتى فى الأديار. وتجنباً للفضيحة والعامة كان دوم كولينيون يسمح لعشيقتيه بأن تكونا معه على المائدة حين يكون الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم . ولم يكن يسمح لطائفة الرسوليين أن تتدخل فى ملذاته ، ولكنه أعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب للحفاظ على الأخلاق عند العامة (١١٠) . وتحدث ديدرو (١٧٦٩) عن يوم قضاه مع راهبين : « قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قوية جداً عن الإلحاد ، زاخرة بالأفكار الجديدة الجريئة . وعلمت فى شىء من الدهشة أن هذه هى النظرية السائدة فى أديارهم . وبالنسبة للبقية كان هذان الراهبان نموذجا لذأ الأديار . وكانا يتحليان بالتفكير والمرح والانبهاج وحسن النية والمعرفة (١١٠) .

ويروى لنا مؤرخ كاثوليكى غيور أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كان قد حل شعور بالاحتقار ، مبالغ فيه ، ولكنه عام شامل ، فى كل مكان ، محل التبجيل الذى كانت الأديار الكبرى قد بثته فى العالم الكاثوليكى (١١١).

إن ازدياد التسامح نتج أساساً من تدهور الإيمان الدينى . فمن السهل أن نكون متسامحين إذا كنا غير مكترثين . إن نجاح فولتير فى قضيتى كالاس وسيرفنس حرك عدداً من حكام الأقاليم إلى مطالبة الحكومة المركزية بتخفيف القوانين ضد البروتستانت ، وتم هذا بالفعل ولم تلغ قوانين الهرطقة ولكنها كانت تطبق بشىء من الاعتدال . وترك الهيجونوت فى سلام كما كان فولتير قد اقترح ، وأبدى برلمان تولوز ندمه ، بتطبيق مبدأ التسامح إلى حد أزعج الملك (١١٢) . وأصدر بعض الأساقفة — مثل فيتز جيمس أسقف سواسون ١٧٥٧ — رسالة كهنوتية يدعو فيها كل المسيحيين إلى اعتبار الناس أخوة . (١١٣) .

وأضفى فولتير على الفلاسفة شرف هذا الانتصار ، فكتب إلى دالمبير ١٧٦٤ « أن الفلاسفة وحدهم هم الذين إلى حد ما هذبوا سلوك الناس ، وإنه لولاهم لشهدنا مذبحتين أو ثلاثا من مثل مذبحة سانت برثلميو فى كل قرن[١١٤]. وينبغى أن نلاحظ مرة أخرى أن الفلاسفة أنفسهم كانوا أحياناً متعصبين ، أن دالمبير ومارمونتيل حرضا مالشرب على كبح جماح فريرون (١٧٥٧)[١١٥] ، وطلب إليه دالمبر أن يقيم الدعوى القضائية على بعض نقاد الموسوعة (١٧٥٧) ، وحثته مدام هلفشيوس على إسكات صحيفة كانت قد عرضت بكتاب زوجها « الذكاء » ١٧٦٨ . وفى بعض المناسبات توسل فولتير إلى السلطات لإيقاف حملات التشهير بجماعة الفلاسفة والطعن فيهم والسخرية منهم[١١٦]. وبقدر ما كان هذا التشهير حقيقيا — أى افتراءمؤذيا — فقد كان لتوسلاته ما يبررها .

وكان ثمة عوامل أخرى غير الفلسفة لنشر التسامح ، فإن الإصلاح الدينى على الرغم من أنه أقر التعصب ، خلق فرقاً وشيعا كثيرة » . كان بعضها قويا إلى حد الدفاع عن نفسه ، إلى درجة أن التعصب نادراً ما تجاوز حد الكلام . وكان على هذه الشيع والفرق أن تتجادل وتقرع الحجة بالحجة ، وقبلت اختبار العقل كارهة ، ورفعت من شأنه . إن ذكرى الحروب « الدينية » فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وما نتج عنها من خسائر إقتصادية ، حولت كثيراً من الزعماء الاقتصاديين والقادة السياسيين الى التسامح . ووجدت بعض مراكز التجارة مثل همبرج وأمستردام ولندن ، أنه من الضرورى أن تصبر على مختلف المذاهب والعقائد التى يعتنقها زبائنهم الذين يتعاملون معهم . إن ازدياد قوة الدولة القومية جعلها أكثر إستقلالا عن الوحدة الدينية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بالنظام الاجتماعى ، وانتشار التعرف على مختلف المدنيات والثقافات أضعف ثقة كل عقيدة فى احتكارها للإله ، وفوق كل ذلك جعل تقدم العلوم من العسير على العقيدة الدينية أن تصل إلى القساوة والهمجية مثل محاكمات محكمة التفتيش أو إعدم

السحرة . وتقبل الفلاسفة بسرور معظم هذه التأثيرات فى دعايتهم من أجل التسامح واستدعاعوا بحق أن يدعوا بعض الفضل فى الانتصار ، وكان مقياس نجاحهم أنه بينما فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان دعاة الهيجونوت لا يزالون يعلقون على أعواد المشانق فى فرنسا ، حدث فى ١٧٧٦ أو ١٧٧٨ أن دعا ملك كاثوليكى سويسريا بروتستانتيا لأنقاذ الدولة .

٧ — الخـــلاصة

وهكذا ننتهى كما بدأنا ، إذ نرى أن الفلاسفة واللاهوتيين — لا المحاربين والدبلوماسيين — هم الذين كانوا يحاربون معركة القرن الثامن عشر الحاسمة . وأننا كنا على حق فى تسمية هذه الحقبة « عصر فولتير » . قال كوندورسيه « إن الفلاسفة من مختلف الأمم ، إذ اعتنقوا فى تأملاتهم المصلحة العامة لبنى البشر كونوا كتيبة قوية متحدة ضد أى وصف للخطأ أو أى لون من الظلم والطغيان [١١٧] ، وكانت على أية حال كتيبة متحدة . وسنرى روسو يتخلى عن الحياه والسلطان ، وكان يحاول التوفيق بين الفلسفه والدين . ولكنه كان حقا صراعا من أجل النفس الإنسانية . ونتائجه بارزة بيننا اليوم .

وفى هذا الوقت ترك فولتير فرنى لانتصاره فى باريس (١٧٧٨) . إن الحركه التى كان قد قادها أصبح لها الغلبة فى السيطرة فى مجال الفكر فى أوربا ووصفها فريرون عدوها اللدود بأنها « مرض العصر وحماقته [١١٨] » . وهرب اليسوعيون وولى الجانسينيون الأدبار ، وتغيرت كل نغمة المجتمع الفرنسى . ونهج كل كاتب فى فرنسا تقريبا نهج الفلاسفة ، وسعى إلى كسب رضاهم . وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات وآلاف الشفاه ، « إن عبارة مديح من فولتير أوديدرو أو دالمبير كانت أثمن وأعظم قيمة من نيل الحظوة عند أى أمير ومن عطفه [١١٩] . ووقعت الصالونات والأكاديمية الفرنسية ، بل حتى وزراء الملك نفسه ، أحيانا ، تحت تأثير الفلاسفة .

واحتال الزوار الأجانب على الدخول إلى الصالونات طمعا فى لقاء مشاهير الفلاسفة والاستماع إلى حديثهم ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم نشروا الأفكار الجديدة . وها هو ذا هيوم . على الرغم من أنه استبق فولتير فى كثير من

آرائه ، تراه ينظر إليه على أنه استاذ معلم . وبعث روبرتسون إلى فرنى بكتابه القيم « شارل الخامس » وكان تشسترفيلد وهوراس وولبول وجاريك من بين المراسلين الكثيرين لفولتير فى إنجلترا . وأسهم سمولت وفرانكلين وغيرهما فى إعداد ترجمة إنجليزية لمؤلفات فولتير فى سبعة وثلاثين مجلدا لنشرها فى إنجلترا (١٧٦٢) . وفى أمريكا تأثر مؤسسو الجمهورية الجديدة تأثرا عميقا بكتابات الفلاسفة . أما فى ألمانيا فيمكنك أن تستمع إلى ملاحظات جوته إلى اكرمان فى ١٨٢٠ و ١٨٣١ :

« ليس لديك فكرة عن مبلغ تأثير فولتير ومعاصريه العظام على فى شبابى ، وكيف تسلطوا على ذهن العالم المتحضر بأسره ... إنه يبدو لى أنه شىء رائع عجيب حقا أن ترى أى رجال هؤلاء الذين ظهروا فى ميدان الأدب فى فرنسا فى القرن الأخير . وكم تتولانى الدهشة لمجرد النظر فى هذا . إنها حركة التحول فى أدب عمره قرن من الزمان ، والذى كان آخذا فى النمو منذ عهد لويس الرابع عشر حتى أينع الآن وأثمر وآن أكله .[١٢٠]

وشارك الملوك والملكات فى التهليل والتصفيق لفولتير ، وتاهوا عجبا بأنهم فى عداد أتباعه . وكان فردريك الأكبر من أوائل من أدركوا أهميته . والآن فى عام ١٧٦٧ بعد ثلاثين عاما من التعرف عليه فى كل معايب شخصيته وكل توقد ذهنه ، هلل فردريك للانتصار فى الحملة ضد الرجس والعار . وقوضت أركان صرح الخرافة من أساسها » . « وستدون كل الأمم فى حولياتها أن فولتير كان هو الذى أحدث هذا الانقلاب الجارى الآن فى الروح الإنسانية فى القرن الثامن عشر) .[١٢١] وشاركت كاترين الثانية قيصرة روسيا وجوستاف الثالث ملك السويد فى هذا التملق . ومما لا نزاع فيه أن الامبراطور جوزيف الثانى كان مدينا بفضل روح اصلاحاته للفلاسفة ، ولو أنه لم يعلن عن نفسه بمثل هذه الصراحة . وتسلم المعجبون مقاليد السلطة فى ميلان وبارما ونابلى ومدريد ، وكلها بلدان كاثوليكية . وفى ١٧٦٧ لخص جريم الموقف بقوله : (إنى ليسرنى أن أشهد جمهورية مترامية الأطراف

من ذوى العقول المثقفة تتكون فى أوربا . إن الاستنارة تنتشر فى كل مكان)[١٢٢].

إن فولتير نفسه وقد قهر فى نفسه التشاؤم الذى يصاحب كبر السن ، نراة يردد نغمة الانتصار : (إن العقول الراجحة المشكاة تشكيلا حسنا كثيره الآن ، وهى تتصدر الأمم وتؤثر فى سلوك الجماهير . وان التعصب الذى طغى فى الأرض لينحسر سنة بعد سنة جوره الكريه . وإذا لم تعد الديانة الآن تثير الحروب الأهلية فأننا مدينون بهذا للفلسفة وحدها . وبدأ الناس ينظرون إلى الصراعات الدينية وكأنها عرض فى مسرح العرائس فى السوق . إن العقل الذى يبسط سلطانه وحكمه ، ينسف فى كل لحظة أى جور بعيض مؤذ قائم على الخداع والاحتيال من جهة ، وعلى الغباء من جهة أخرى [١٢٣] .

ولنوف الرجل حقه . اننا قد نسلم بعد معرفتنا بتطرفات الثورة واسرافها وبرد الفعل الذى تلاها ، بأن الفلاسفة (باستثناء فولتير) كانت لديهم ثقة متفائلة فى الطبيعة البشرية ، وأنهم انتقصوا الان من قوة الغرائز التى تولدت فى آلاف السنين من عدم الشعور بالأمن ومن الوحشية والهمجية ، وأنهم بالغوا فى قوة التعليم لتنمية العقل ضابطا متحكما إلى حد كاف فى هذا الغرائز ، وأنهم عموا عن مطالب الخيال والعاطفة ، وصمت آذانهم عن صيحات المقهورين التماسا لعزاء الإيمان ، ولم يقيموا كبير وزن للتقاليد والنظم التى انتجتها قرون من التجربة والخطأ ، وأقاموا وزنا كبيرا للعقل الفردى الذى هو فى أحسن الظروف نتاج لحياة قصيرة ضيقة محدودة . وإذا كانت هذه تقديرات خاطئة خطيرة فانها لم تتأصل فى مجرد زهو أو غرور فكرى ، ولكن تأصلت كذلك فى طموح واسع الآفاق فى إصلاح البشر وتحسن أحوالهم . إننا مدينون لفلاسفة القرن الثامن عشر — وربما للفلاسفة الأكثر عمقا فى القرن السابع عشر — بالحرية النسبية التى ننعم بها فى الفكر والكلام والعقائد ؛ كما أننا مدينون لهم بالفضل فى تضاعف عدد المدارس والمكتبات

والجامعات ، وفى مئات من الاصلاحات الإنسانية فى القانون والحكومة ، وفى معالجة الجريمة والعلل والأدواء والأمراض العقلية . ونحن مدينون لهم ولأتباع روسو بفضل الاستثارة العظيمة للذهن التى انتجت أدب القرن التاسع عشر وعلومه وفلسفته ، وفن الحكم وإدارة شئون الدولة فيه . وبسببهم استطاعت دياناتنا أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكئيبة واللاهوت الذى يبتهج بالتعذيب ، كما مكنها أن تولى ظهورها لمعوقات التقدم وللاضطهاد، وتتبين الحاجة إلى عطف متبادل من مختلف نواحى جهلنا وآمالنا . وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل ، ولو مع شىء من اللوم . إننا إذا توقفنا عن تمجيد فولتير وتكريمه سنكون غير جديرين بالحرية .

خاتمة فى الفردوس

(شخصا الحوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير)
(المشهد : مكان فى ذاكرة البشر الشاكرة)

بندكت : إنى سعيد برؤيتك هنا ياسيدى ، فعلى الرغم من أنك آذيت كثيراً الكنيسة التى قدر لى أن أكون على رأسها طيلة ثمانية عشر عاماً، فقد أحسنت صنعا بشن الحملة على آثام الكنيسة وأخطائها والمظالم التى أخزتنا جميعا فى عصرك .

فولتير : أنت الآن كما كنت فى حياتك أرق البابوات حاشية وأكثرهم صفحا . وإذا كان كل خادم من خدم الله مثلك لتحققت من أن آثام الكنيسة هى خاصية طبيعية فى الإنسان ، ولبقيت أجل وأحترم هذا النظام العظيم . وإنك لتذكر أننى لمدة خمسين عاما إحترمت اليسوعيين ؛

بندكت : أذكر ذلك ، ولكنك اشتركت فى الهجوم عليهم فى نفس الوقت الذى كانوا قد خفضوا فيه من دسائسهم السياسية ، وكانوا يقفون فيه بشجاعة ضد فسق الملك ومجونه واباحيته .

فولتير : كان جديرا بى أن أعرف أكثر من أن أقف إلى جانب الجانسنيين فى تلك القضية .

بندكت : حسناء أنت ترى الآن أنك أيضا قد تخطىء مثل البابا . والآن وقد وجدتك معتدل المزاج ، دعنى أحدثك لماذا بقيت أنا مخلصا للكنيسة التى تخليت أنت عنها .

فولتير : أن هذا يشوقنى كثيراً .

بندكت : أخشى أن أرهقك لأنى سأطيل الحديث ، ولكن تذكر كم ألفت أنت من مجلدات .

فولتير : كثيراً ما تاقت نفسى لزيارة رومه ، وكم كان يسعدنى أن تتحدث إلى.

بندكت : وكثيراً ما رغبت أنا فى التحدث معك . ويجدر بى أن اعترف بأنى تمتعت بذكائك وبراعتك ، ولكن تألق ذكائك هو الذى ضللك . من العسير أن تكون متألقا بأرعا ومحافظا ، إنه لايروق العقول النشيطة كثيراً أن تقف إلى جانب التقاليد والسلطة ، وهناك ما يغريها بالنقد . حيث يمكن أن تشعر بلذة النزعة الفردية والإبداع والجدة ، ولكن فى الفلسفة يكاد يتعذر أن يكون الإنسان أصيلا إلا إذا كان مخطئا . وإنى لأتحدث إليك ، لابصفتى كاهنا أو رجل لاهوت . ولكن بصفتى فيلسوفا يتحدث إلى فيلسوف .

فولتير : أشكرك ، لقد كان هناك كثير من الشك فى كونى فيلسوفا .

بندكت : لقد كنت حصيفا ، فلم تصطنع منهجا جديدا . ولكنك ارتكبت خطأ فاحشا أساسيا .

فولتير : ما هو ؟

بندكت : ظننت أنه من الميسور لذهن واحد على مدى حياة واحدة أن يكتسب هذا القدر من المعرفة وعمق التفكير ، مما يجعله صالحا لينصب نفسه حكما على حكمة الجنس البشرى كله — على تقاليد ونظم شكلتها خبرة الناس وتجربتهم عبر القرون . فالتقاليد بالنسبة للجماعة هى بمثابة الذاكرة للفرد . وكما أن أى خلل فى الذاكرة قد يؤدى إلى الجنون ، فأن أية مخالفة مفاجئة للتقاليد قد تنزلق بالأمة بأسرها إلى هاوية الجنون ، مثل فرنسا فى الثورة .

فولتير : أن فرنسا لم تصب بالجنون ، ولكنها ركزت فى عقد من السنين على ما تراكم من استياء وغيظ أثناء قرون من الظلم والجور ، فضلا عن ذلك فأن « الجنس » الذى تتحدث عنه ليس « ذهنا » ،

بل هـــو مجموعة وتساسل لأفراد غير معصومين من الخطأ ، وليست حكمة الجنس إلا مجموعة مركبة من أخطاء الأفراد وحسن تبصرهم ، وماذا حدد أى العناصر من هذا الحطام من الأفكار سينتقل إلى الأعقاب والذرارى ويسترعى انتباه الزمن ؟

بندكت : إن نجاح الأفكار واخفاقها فى تجارب الجماعات والأمم هو الذى حدد البقاء لبعض الأفكار وفناء الباقى .

فولتير : لست متأكدا ، فربما كان التحيز متسربلا ثياب السلطة هو الذى حدد فى كثير من الحالات أى الأفكار يجب الاحتفاظ به ، وربما منعت الرقابة ألفا من الأفكار الطيبة من الدخول إلى تقاليد الجنس البشرى .

بندكت : أظن أن خلفائى فكروا فى الرقابة وسيلة لمنع إنتشار الأفكار التى قد تقوض الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى ، والمعتقدات المؤثرة التى تساعد الناس على احتمال أعباء الحياة وأنى لأسلم بأن مراقبينا قد ارتكبوا أخطاء جسيمة مثل ما حدث مع جاليليو — ولو أنى أرى أنا كنا أكثر اعتدالا معه مما سول اتباعك لكثير من الناس أن يعتقدوا .

فولتير : قد تكون التقاليد اذن خاطئة ظالمة وتكون حجر عثرة فى سبيل تقدم التفاهم . وكيف يتقدم الإنسان إذا حرم مناقشة التقاليد ؟

بندكت : ربما كان علينا أن نناقش التقدم أيضا . ولكن فلنطرح هذه المسألة جانبا الآن مؤقتا . أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش التقاليد والنظم مع حرصنا على ألا نهدم أكثر مما نبنى ، ومع الحذر من أن الحجر الذى نزعزعه من مكانه لا يكون ضروريا لتدعيم مانريد الابقاء عليه . على أن نعى دائماً حقيقة متواضعة ، تلك هى أن خبرة الأجيال قد تكون أفضل وأحكم من عقل فرد عابر .

فولتير : ومع ذلك فالعقل أجل نعمة أنعم الله بها علينا .

بندكت : لا ، الحب هو أكبر نعمة . أنا لا أريد الأنتقاص من قيمة العقل ولكن يجب أن يكون خادم الحب لاخادم الغرور والزهو .

فولتير : أنا غالبا ما سلمت بهشاشة العقل وسهولة انقيادة . أنا أعلم نزوعه إلى أثبات كل ما توحى به رغباتنا . أن صديقى البعيد ديدرو كتب فى مكان ما أن حقائق الشعور أكثر ثباتا من حقائق العرض المنطقى[1] . إن المتشكك الحقيقى لأبد أن يرتاب فى العقل أيضاً . وربما بالغت أنا فى العقل لأن ذلك الرجل المجنون روسو بالغ فى الوجدان . وفى رأيى أن اخضاع العقل للوجدان أشد خطرا من اخضاع الوجدان للعقل .

بندكت : إن الإنسان ، كل الإنسان ، محتاج إليهما كليهما فى تفاعلهما . ولكنى الآن أتساءل هل لك أن تصاحبنى إلى خطوة أبعد ؟ إلا تتفق معى فى أن انصع معرفة مباشرة هى معرفتنا أننا موجودون وأننا نفكر ؟

فولتير : حسنا ؟

بندكت : إذن نحن نعرف الفكر بطريق مباشر أكثر مما نعرف أى شىء آخر .

فولتير : عجيب ! أعتقد أننا نعرف الأشياء قبل أن نتحول إلى انفسنا ونتبين أننا نفكر .

بندكت : ولكن اعترف بأنك حين تنظر فى نفسك تدرك حقيقة مختلفة تمام الأختلاف عن المادة التى تميل أحيانا إلى أن تختزل إليها كل شىء .

فولتير : أنا أشك فى هذا ، ولكن استمر .

بندكت : واعترف أيضا بأن ما تراه حين تنظره فى داخل نفسك هو بعض من واقع الاختيار ومن حرية الإرادة .

فولتير : أنت تنطلق بسرعة . أيها الأب ، لقد اعتقدت يوما بأنى نعمت

بدرجة معتدلة من الحرية ، ولكن المنطق أرغمنى على قبول القضاء والقدر .

بندكت : أى أنك أخضعت ما أدركت مباشرة لما انتهيت إليه من عملية تفكير طويلة مزعزعة .

فولتير : أنا لم أستطع أن أدحض آراء صانع العدسات الصغير العنيد سبينوا . هل قرأت له ؟

بندكت : بالطبع قرأت . إن البابا ليس مقيدا بقائمة معينة من الكتب المهذبة.

فولتير : أنت تعرف أننا اعتبرناه ملحداً .

بندكت : يجدر بنا ألا نخلع النعوت والالقاب بعضنا على بعض . أنه كان محببا إلى نفسى ، ولكنه كان مكتثيا إلى حد لايطاق . أنه رأى الله بطريقة شاملة إلى حد أنه لم يترك مجالا للشخصية الإنسانية. أنه كان متدينا مثل أو غسطين ، وقديسا عظيما مثله .

فولتير : إنى أحبك يابندكت . أنك أرحم به منى .

بندكت : فلنتابع حديثنا ، أسألك أن توافق على أن الفكر والوعى والأحساس بالشخصية هى أعظم الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر.

فولتير : حسنا . . هذا مسلم به .

بندكت : وعلى هذا أشعر بأنى محق فى رفض المادية والالحاد والجبرية . فكل منا روح والديانة تبنى على هذه الحقيقة .

فولتير : فلنسلم بكل هذا ، فكيف نجيز تلك المجموعة الضخمة من السخافات التى أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرنا بعد قرن ؟

بندكت : أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق ، ولكن الناس كانوا يتصايحون من أجلها ، وفى كثير من الأحيان نجد الكنيسة فى تقبلها لهذه الأعاجيب ، كانت تخضع للمطلب العام

الواسع الأنتشار ، وإذا أنت انتزعت من الناس المعتقدات التى نجيز لهم اعتناقها ، فانهم سيعتنقون أساطير وخرافات لا ضابط ولا حصر لها . أن الديانة المنظمة لن تخترع خرافة ، بل تحول دونها . اقض على أية ديانة منظمة فسيحل محلها هذه المتاهة من الخرافات المخلة التى تنشأ ضغثا على أبالة فى المسيحية وتزيد فى جراحها . ومع ذلك ففى العلم أشياء لاتصدق أكثر منها فى الديانة . أهناك شيء أبعد عن التصديق من الأعتقاد بأن حالة بعض سديم بدائى هى التى حددت وفرضت كل سطر فى رواياتك ؟

فولتير : وما بالك بحكايات القديسين غير القابلين للاحتراق حين يلقى بهم فى النار ، وحكاية القديس الذى ضرب عنقه ومشى ورقبته فى يده ، وحكاية مريم التى رفعت إلى السماء — أنا لم أهضم هذه الحكايات كلها .

بندكت : أن معدتك كانت ضعيفة دائما . إن الناس لا يجدون فيها شيئاً عسيرا لأن هذه الحكايات جزء من عقيدة تساند حياتهم ويجدون فيها بعض العزاء . وهذا هو السبب فى أنهم لن يعيروك أذنا صاغية طويلا ، حيث أن أنفاس حياتهم لا تتوقف على الاصغاء إليك — وهكذا ففى الصراع بين الإيمان والكفر ، فأن الإيمان يكسب المعركة دائما . أنظر كيف تكسب الكثلكة غرب المانيا ، وتستعيد فرنسا الكافرة ، وتسود أمريكا اللاتينية ، ويشتد عودها فى أمريكا الشمالية ، حتى فى أرض الحجيج والبيوريتانيين .

فولتير : أنا أرى أحياناً ، أيها الأب أن ديانتكم تستعيد مكانتها ، لاعن طريق صدق عقيدتكم ، ولا عن طريق الجاذبية فى أساطيركم ، ولا بفضل إستخدامكم البارع للمسرحية والفن ، ولكن

بفضل تشجيعكم الدقيق بشكل شيطانى للاخصاب بين الناس عندكم . وأعتقد أن معدل التكاثر هو العدو رقم ١ للفلسفة ، نحن نتناسل فى القاعدة ونموت فى القمة . وخصوبة السذاجة تهزم حدة الذكاء .

بندكت : أنت تخطىء إذا اعتقدت أن معدل التكاثر هو سر نجاحنا . فان شيئاً أعمق من هذا بكثير موجود ضمناً . هل أخبرك لماذا يعود كل الأذكياء فى كل أنحاء للعالم إلى حظيرة الدين ؟

فولتير : لأنهم تعبوا من التفكير .

بندكت : لا ، ليس هذا تماماً ، إنهم إكتشفوا أن فلسفتكم ليس لها جواب إلا الجهل واليأس . ويدرك العقلاء أن كل المحاولات فيما أسماه أخوتكم « الأخلاق الطبيعية » أخفقت . وقد نتفق أنت وأنا على أن الإنسان ولد وفيه غرائز تميل إلى النزعة الفردية تكونت فى آلاف السنين من الظروف والأحوال البدائية ، وأن غرائزه الاجتماعية ضعيفة نسبياً ، وأن شريعة قوية من الأخلاق والقوانين مطلوبة لترويض هذا الفوضوى بالطبيعة ، وتحويله إلى مواطن عادى مسالم . إن علماء اللاهوت عندنا أسموا هذه الغرائز التى تتسم بالنزعة الفردية « الخطيئة الأصلية الأولى » الموروثة عن « آبائنا الأولين » ، أى أولئك الناس المرهقين الذين لا يخضعون لقانون ، المعرضين دائماً للخطر ، الصيادين الذين كان لزاماً عليهم أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال والقتل من أجل الطعام أو الرفاق ، وأن يكونوا مولعين بالاكتساب والمشاركة ، وأن يكونوا قساة إلى حد العنف ، لأن أى نظام إجتماعى ساد بينهم ، كان لابد أن يظل ضعيفاً ، ولكن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فى الأمن على حياتهم وممتلكاتهم .

فولتير : أنت لاتتحدث كما يتحدث البابا .

بندكت : قلت لك إنه ينبغي علينا أن نتحدث كما يتحدث الفلاسفة . فالبابا أيضاً يمكن أن يكون فيلسوفا ، ولكن عليه أن أن يعبر عن نتائج الفلسفةلابلغة مفهومةللناس فحسب ،بل كذلك بلغة خليقة بالتأثير على عواطفهم وسلوكهم . نحن مقتنعون — والعالم كله يعود الينا لأنه يعلم — بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى من وضع الإنسان بشكل صريح معترف به ، يمكن أن يؤثر بدرجة كافية حتى يضبط ويتحكم فى الدوافع غير الاجتماعية فى الرجل الطبيعى . إن الناس عندنا محكومون فى حياتهم الأخلاقية — ولو أن هذا لايلتئم مع الجسد — بقانون أخلاق تعلموة وهم أطفال فى طور التشكيل ، باعتباره جزءاً من دينهم ، واعتباره من عند الله لامن عنديات الإنسان . أنت تريد أن تحتفظ بالأخلاق وتنبذ اللاهوت ، ولكن اللاهوت هو الذى يجعل الأخلاقيات تستقر فى أعماق النفس . ويجب أن نأخذ القانون الأخلاقى على أنه جزء لايتجزأ من الايمان الدينى الذى هو أثمن ما يمتلك الإنسان ، لأنه عن طريق هذا الايمان وحده تكتسب الحياة معنى ومنزلة سامية تعزز وجودنا وتضفى عليه شرفا ونبلا .

فولتير : وعلى هذا ابتدع موسى أحاديثه مع الله .

بندكت : إن الذهن الناضج لايوجه مثل هذا السؤال

فولتير : أنت على حق تماما .

بندكت : إنى أغتفر لك تهكمك الفطير غير الناضج . إن حمورابى وليكورغوس (مشرع أسبرطة فى القرن التاسع ق . م) ونوما وبومبليوس كانوا بالتأكيد على حق فى أن يضعوا للأخلاق أساسا دينيا حتى لاتنهار تحت الضربات المتواصلة من أقوى غرائزنا ، وأنت نفسك قبلت هذا حين تحدثت عن إله يثيب ويعاقب ؛ إنك

أردت أن يتمسك خدمك بالدين ، ولكنك ظننت أن أصدقاءك يمكن أن يعيشوا بلادين .

فولتير : ما زلت أرى أن الفلاسفة يمكنهم أن يستغنوا عن الدين .

بندكت : كم أنت ساذج ! هل الأطفال أهل للفلسفة ؟ هل يستطيع الأطفال أن يفكروا ويتأملوا ؟ إن المجتمع مؤسس على الأخلاقيات ، وهذه مؤسسة على الشخصية ، والشخصية تتكون زمن الطفولة والشباب . قبل أن يكون العقل موجها ومرشداً بزمن طويل . وينبغي أن نغرس الفضيلة فى الفرد حين يكون صغيراً مطواعا غض الأهاب ، حيث تكون الفضيلة والأخلاقيات قوية إلى حد يسمح بمقاومة نوازعه المشربة بروح الفردية . بل حتّى تفكيره الفردى . أخشى أن تكون قد بدأت تفكر بسرعة . والعقل عمل فردى أساسى ، وإذا لم تحكمه وتضبطه الأخلاق فانه يمكن أن يمزق مجتمعا إربا .

فولتير : إن بعض أحسن الرجال فى عصرى وجدوا أن العقل فضيلة وأخلاقيات كافية .

بندكت : كان هذا قبل أن يتغلب العقل القائم على النزعة الفردية والزمن على آثار الديانة . إن نفراً قليلا من الناس مثل سبينوزا وبيل ودى هولباخ وهلفشيوس قد يكونون قد عاشوا حياة طيبة بعد تخليهم عن دين آبائهم ، ولكن من يدرينا أن فضائلهم لم تكن نتيجة تعليمهم الدينى ؟

فولتير : كان هناك مئات من الناس المعاصرين لى ، ممن كانوا خليعين محتقرين على الرغم من تعليمهم الدينى وعقيدتهم الكاثوليكية ، مثل الكاردينال ديبوا ولويس الخامس عشر .

بندكت : الذين كتبت عنهم مديحا يثير الاشمئزاز .

فولتير : واحسرتاه! نعم ، كنت مثل بعض رهبانكم ، استخدمت بعض حيل وخدع تقية لأصل الى ما شعرت بأنه غايات طيبة .

بندكت : مهما يكن من أمر ، فليس ثمة شك فى أن هنلك آلافا من الناس ممن يتمسكون بالعقيدة القويمة ، حتى وممن يواظبون على كل الطقوس ، يمكن أن يكونوا آثمين خطائين ومجرمين عريقين فى الإجرام . إن الدين ليس علاجا معصوما من الخطأ للجريمة ، إنه ليس إلا مجرد عون فى المهمة الشاقة ، مهمة تمدين الإنسان . وأننا لنعتقد أن الناس بدون الدين يمكن أن يكونوا أسوأ بكثير مما هم .

فولتير : ولكن تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الجحيم ، حولت الإله إلى إلى غول بشع أ شد قسوة من أى مستبد غاشم فى التاريخ .

بندكت : أنت تمقت هذه الفكرة . ولكنك إذا عرفت الناس معرفة أكثر وأفضل ، لأدركت أنه يجب إن هابهم بالمخاوف والعقاب . أن رأس الحكمة مخافة الله . وعندما فقد إتباعك هذا الخوف بداوا يتدهورون ويفسدون . إنك كنت محتشما معتدلا نسبياً فى فسقك وفجورك ، وكان ثمة شىء جميل فى علاقتك الطويلة بمدام دى شاتيليه ، ولكن علاقاتك مع إبنة أختك كانت شائنة مخزية . ولم تجد شيئا يستحق اللوم فى سلوك صديقك الفاجر الداعر الدوق دى ريشيليو .

فولتير : وكيف كان يمكن أن ألومه ؟ إذن لتعرضت قروضى للخطر .

بندكت : أنت لم يمتد بك زمنك لترى كيف أن الإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيوان . هل قرأت المركيز دى ساد ؟ أنه فى نشو الثورة الفرنسية نشر ثلاث قصص (٢) أوضح فيها أنه لو لم يكن

هناك إله لكان كل شيء مباحا اللهم إذا كشف وكلاء القانون أمره. وأشار إلى أن كثيراً من الأشرار الخبثاء تزدهر أحوالهم فى الدنيا ، وكثيراً من الطيبين الفضلاء يعانون ويشقون ، وعلى ذلك فإنه إذا لم يكن هناك جنة أو نار ، فليس ثمة معنى فى أن نكون طيبين لنسىء إلى ملذاتنا . وانتهى إلى أنه إذا لم تكن الإرادة حرة فليس هناك مسئولية أخلاقية ، وليس هناك خير أو شر ، بل هناك فقط ضعفاء وأقوياء والخير هو الضعف ، والضعف هو الشر ، حتى ولو كان لما يجد القوى — اللذة فى استغلال الضعيف ما يبررها. وحاول أن يثبت أن القسوة أمر طبيعى وأنها غالباً ما تكون سارة مرضية . وهكذا أقر كل ضروب اللذة ، بما فى ذلك أحط ألوان الانحراف وأبغضه ، حتى بدا آخر الأمر أن الخير الأعظم يكمن فى إيقاع الألم وتلقيه ، أسلوباً من أساليب اللذة الجنسية .

فولتير : كان لزاماً أن يضرب هذا الرجل بالسوط حتى يموت.

بندكت : نعم إذا استطعت الإمساك به . أما إذا لم تستطع ؟ فكر فى الجرائم التى لاتحصى والتى ترتكب فى كل يوم ، والتى لا تكتشف والتى تفلت دون عقاب مطلقاً ، إنه من الضرورى أن يكون هناك قانون أخلاقى يمنع الناس من الإجرام حتى لو أحسوا أنهم فى مأمن من كشف أمرهم . فهل يكون عجيباً أن « عصر فولتير » أبعد العصور عن الأخلاق وأكثرها فساداً فى التاريخ . . ؟

أنا لن أذكر شيئاً عن « غادتك » ولكن فكر فى الملك « ومنتدى غزلانه » وفى الأدب الداعر الفاجر الذى كان يطبع بكميات كبيرة ويتداول على أوسع نطاق، ويتلهف الناس حتى النساء على شرائه : إن هذا الزاد الطائش ، والإثارة الجنسية تصبحان طوفانا فاجراً فى أزمان الكفر وأرضه .

فولتير : يجب أن تعلم يا صاحب القداسة أن الغريزة الجنسية قوية جداً حتى عند بعض البابوات ، وأنها لابد أن تجد متنفساً على الرغم من أى قانون .

بندكت : وبسبب قوة تلك الغريزة فانها تحتاج إلى ضوابط وقيود خاصة، لا إلى تشجيع قطعاً . وهذا هو مادعانا إلى محاولة حصرها فى حدود الزواج المنظم ، وعملنا كل ما فى وسعنا لجعل الزواج المبكر حيز الإمكان . إنكم فى مجتمعاتكم الحديثة تجعلون الزواج متعذراً للجميع اللهم إلا للطائشين المسرفين ، أى ما بعد الوصول إلى مرحلة النضج الجنسى بزمن طويل . ومع ذلك تجعلون كبح جماح الغريزة الجنسية أمراً شاقاً عسيراً بالنسبة لهم بإثارة خيالهم الجنسى وشهوتهم الجنسية فى كل لحظة بالأدب والمسرح ، بدعوى حرية الصحافة والمسرح .

فولتير : إن شبابنا لايضارون كثيراً بحريتهم .

بندكت : أظنك مخطئا . إن الرجل الذى تعود على الإختلاط الجنسى غير المشروع قبل الزواج نادراً ما يكون زوجاً أمينا مخلصا ، والمرأة التى تفرط فى عرضها قبل الزواج لن تكون زوجة أمينة إلا من قبيل الاستثناء، وهكذا نساق إلى إباحة الطلاق بشروط يسيرة . إننا نجعل من الزواج سراً مقدساً رهيباً وعهداً بطول الصبر والأمانة — مدى الحياة ، ولكنكم تجعلون منه عقد عمل يحق لأى من الطرفين أن يفسخه، أثر شجار عابر أو تطلعاً إلى رفيق أصغر سناً أو أكثر ثراء . إن كل بيت مفتحة الآن أبوابه كلها ، الأمر الذى يدعو إلى الانفصال ويشجع عليه . ووقع نظام الزواج فى حالة من فوضى التقارب المؤقت التجريبى ، مما يشكل كارثة للنساء ويقوض أركان النظام الأخلاقى .

فولتير : ولكن الزواج بواحدة فقط أمر غير طبيعي وغير محتمل ، أيها الأب العزيز .

بندكت : وإن أي كبت للغريزة أمر غير طبيعي ، ومع ذلك يستحيل قيام المجتمع دون كثير من هذه القيود ، وأعتقد أن الرجل أو المرأة مع رفيق (زوج) واحد وعدة أطفال أسعد من رجل أو امرأة مع عدة رفاق وطفل واحد . وكيف ينعم رجل بالسعادة وقد طلق زوجته التي فقدت جمالها في الحمل وفي تربية أبنائه ، حين أثاره وجه جديد وقوام رشيق ؟

فولتير : ولكن بتحريمك الطلاق يجب أن تتسامح مع الزنى المنتشر انتشارا واسعا في الأقطار الكاثوليكية .

بندكت : نعم نحن هناك ضعفاء مجرمون . نحن ضعفاء بسبب الكفر والتخلي عن الإيماني ، وربما كان الزنى أفضل من الطلاق ، لأنه يهيء في الظاهر بيتا متحداً آمنا للابناء ، وينطوي على ارتباك وتشويش أقل للأسرة . ولكني أشعر بالخجل لأننا لم نجد حلا أفضل .

فولتير : أنت رجل مؤمن مخاص أيها الأب ، إني لأتنازل عن كل ما أملك إذا قدر لي إن أشاركك إيمانك وطيبة نفسك .

بندكت : ومع ذلك فن الصعب إقناعك . وإني ليتولاني اليأس أحيانا من كسب الرجال الأذكياء اللامعين أمثالك ، ممن تحرك أقلامهم مليونا من الانفس وتوجهها نحو الشر أو الخير . ولكن بعض أتباعك يفتحون أعينهم على الحقيقة المرة الرهيبة . فإن فقاقيع التقدم إنفجرت في قرن شهد مزيدا من قتل الرجال والنساء بالجملة . ومزيدا من إجتياح المدن وتخريبها ، ومن تحجر القلوب وفسادها ، أكثر من أي قرن آخر في التاريخ . إن التقدم في المعرفة والعلم ووسائل الراحة والقوة ليس إلا تقدما في الوسائل ،

وإذا لم يكن ثمة تحسين الغايات والأغراض أو الرغبات فلن يكون التقدم إلا وهما وخداعا . إن العقل يعمل على تحسين الوسائل ولكن الغايات تحددها الغرائز التى تتشكل قبل المولد وتتكون قبل نمو العقل .

فولتير : أنا مازلت أثق فى ذكاء الإنسان ، أننا سنحسن الغايات والوسائل معاً إذا صرنا أكثر اطمئنانا وأمنا على حياتنا .

بندكت : هل ستصبح أكثر أمنا واطمئنانا ؟ هل ينخفض معدل الجريمة العنيفة ؟ هل الحرب أقل فظاعة وبشاعة من ذى قبل ؟ أنك تتعلق بأمل كاذب فى إن قوة التدمير فى أسلحتكم سوف تعوقكم وتعوق أعداءكم عن الحرب . ولكن هل التقدم المتكافىء من السهم إلى القنبلة سيعوق الأمم عن تحدى بعضها بعضا حتى الموت؟

فولتير : إن تعليم الجنس البشرى سيستغرق عدة قرون .

بندكت : فى نفس الوقت إنظر إلى الخراب الروحى الذى نشرته دعايتكم . وربما كان هذا كارثة أفظع من أى خراب فى المدن . أليس الالحاد مقدمة لتشاوم أعمق من أى تشاؤم عرفه المؤمنون ؟ وأنت أيها الفتى الذائع الصيت ، ألم تفكر كثيراً فى الأنتحار ؟

فولتير : نعم ، وحاولت أن أومن بالله ، ولكنى أعترف لك أن الله لم يعد شيئا فى حياتى ، وفى دخيلة نفسى شعرت أيضا بفراغ فى موضع إيمان طفولتى ، ولكن يحتمل أن يكون هذا هو أحساس أفراد وأجيال فى فترة إنتقال فقط . ولكن حفدة هؤلاء المتشائمين سيمرحون ويسرحون فى حرية حياتهم ، وتتهيأ لهم سعادة أكثر من المسيحين المساكين الذين أظلمت حياتهم بالخوف من الجحيم .

بندكت : إن هذا الخوف لم يلعب إلا دورا صغيرا فى حياة الغالبية العظمى من المؤمنين . إن ما أثلج صدورهم هو احساسهم بأن سكرات

الموت لم تكن عبثا غير ذى معنى : بل مقدمة لحياة أكبر تصحح وتشفى فيها كل المظالم والقساوات الدنوية ، وسيكونون متمتعين بالسعادة والسلام مع من كانوا يحبونهم ثم فقدوهم .

فولتير : نعم كان فى هذا راحة تامة ، مهما تكن خداعة . أنا لم أحس بها لأنى أكاد لا أعرف والدتى ، ولم أر والدى إلا نادرا ، وليس لى أولاد معروفون .

بندكت : أنت لم تكن رجلا كاملا ، ولم تكن فلسفتك كاملة . هل عرفت يوما حياة الفقراء ؟

فولتير : عرفتها من الخارج فقط . ولكنى حاولت أن أكون منصفا وعونا للفقراء الذين عاشوا فى ضياعى .

بندكت : لقد كنت سيداً فاضلا ، وفطنت إلى أن الإيمان والعقيدة التى اعتنقها هؤلاء الذين إستخدمتهم فى شبابك والتى لهم فيها عزاء وسلوى ، يجب إن تتجدد عن طريق التعليم الدينى والقيادة ولكن فى نفس الوقت كان إنجيلك المدمر الذى لا أمل فيه فيما وراء القبر يسود فرنسا بأسرها . هل أجبت يوما على سؤال دى موسيه[٣] ؟ بعد أن علمت أنت أو إتباعك الفقراء أن الجنة الوحيدة التى يمكنهم الوصول إليها يجب أن يخلقوها هم أنفسهم على الأرض أو فى الدينا . وبعد أن ذبحو حكامهم ، ويظهر حكام جدد ، ويبقى الفقر بالأضافة إلى خال وفساد وعدم إستقرار أكبر من ذى قبل ، فماذ إذن تسطيع أن تقدم من عزاء للفقراء المغلوبين على أمرهم ؟

فولتير : أنا لم أحبذ قتل حكامهم ، وارتبت فى أن يكون الجدد أقرب شبها بالقدامى ، ولكن اسوأ سلوكا .

بندكت : لن أقول إن الثورة ليس لها ما يبررها مطلقا ، ولكننا تعلمنا من التجارب والخبرات التى تراكمت ونقلتها الينا الأجيال . أنه

بعد كل انقلاب، سيكون هناك ثانية سادة وأناس ، وأغنياء وفقراء نسبياً . نحن ولدنا جميعا غير متساوين ، وكل إختراع جديد وكل تعقيد جديد يضاف إلى الحياة أو الفكر يزيد فى الهوة بين البسطاء والدهاة البارعين ، وبين الضعفاء والأقوياء . إن أولئك الثوريين المؤمنين تحدثوا عن الحرية والمساواة والاخاء ولكن هذه الأقانيم لا تتمشى مع بعضها البعض . لأنك إذا أقررت الحرية سمحت للتفاوتات وعدم المساواة الطبيعية أن تتضاعف إلى تفاوتات وفوارق مصطنعة . فإذا حلت دون هذه التفاوتات كان عليك أن تقيد الحرية ، وهكذا تصبح مثلك العليا فى الحرية ستاراً للاستبداد وفى غمرة هذا يصبح الأخاء مجرد كلمة .

فولتير : نعم هو كذلك .

بندكت : حسناً إذن ، ومن منا يقدم عزاء أكبر للغالبية التى لا مفر من أن تكون تكون مغلوبة على أمرها ؟ هل تظن أنك تحسن صنعاً أو تؤدى خدمة للكادحين فى فرنسا وإيطاليا إذا إقنعتهم بأن أضرحتهم القائمة على جانب الطريق وصلبانهم وصورهم الدينية وتقدماتهم التقية مجرد شعائر سخيفة لا معنى لها ، وأن صلواتهم موجهة إلى سماء خالية ، وهل يمكن أن تكون ثمة مأساة أشد من أنه يجب على الناس أن يؤمنوا بأنه ليس فى الحياة شىء إلا تنازع البقاء وليس فيها شىء أكيد على وجه اليقين إلا الموت . ؟

فولتير : أنا أشاركك شعورك أيها الأب . لقد أثر فى نفسى وأزعجنى رسالة تلقيتها من مدام دى تلموند ، أنا أذكرها جيداً ، وجاء فيها « أرى ياسيدى ألا يكتب فيلسوف مطلقا إلا ليحاول أن يجعل الجنس البشرى أقل شراً وأقل شقاء مما هو عليه . وأنت الآن تعمل على النقيض من ذلك تماما . أنت دائما تكتب ضد الدين . وهو وحده القادر على كبح جماح الشر وتقديم السلوى والعزاء

إذا ألم الخطب[٤] ، ولكن لى إيمانى كذلك بأن الحق سيكون على مدى الأيام نعمة حتى للفقراء .

بندكت : ان يكون الحق حقاً إلا إذا بقى صادقا عبر الأجيال . إن الأجيال السابقة تكذبك والأجيال القادمة ستلومك ، بل إن المنتصرين فى صراع الحياة سيلومونك على إنتزاعك الآمال من صدور المساكين وهى الآمال التى حملتهم على قبول المكانة المتواضعة فى مجتمع مقسم إلى طبقات ، وهو تقسيم لامناص منه .

فولتير : أنا لا أستسلم لخداع الفقراء والمساكين خداعا مزدوجا على هذا النحو .

بندكت : نحن لا نخدعهم . أننا نعلمهم الإيمان والأمل والبر والاحسان ، وتلك كلها نعم حقيقية فى حياة البشر . أنكم سخرتم كثيراً من التثليث ، ولكن هل كانت لديكم يوما أى فكرة عن الراحة النفسية التى أحس بها ملايين الملايين من الأنفس لمجرد التفكير فى أن الله نفسه قد نزل إلى هذه الأرض ليشاركهم آلامهم ومعاناتهم ، ويكفر عن خطاياهم ؟ وسخرتم من ولادة العذراء ، ولكن هل فى كل الأدب شىء محبب أو مؤثر أكثر رمزاً لبساطة النساء واعتدالهن ورمزا لحب الأم ؟

فولتير : أنها قصة جميلة ، ولو أنك كنت قرأت كل مجلداتى التسعة والتسعين لوجدت أنى اعترفت بقيمة هذه الأساطير التى تبعث فى النفوس السلوى والعزاء .

بندكت : نحن لا نسلم بأنها أساطير ، أنها من بين أعمق الحقائق . إن آثارها من بين أكثر الحقائق يقينا فى التاريخ . أنا لن أتحدث عن الفن والموسيقى اللذين خلقتها ، وهما من أغنى تراث الإنسان . . .

فولتير : كان الفن ممتازا . ولكن أغنيتكم الجريجورية كانت عبثا كريها كئيبا .

بندكت : لو أنك كنت أكثر عمقا لقدرت قيمة طقوسنا وأسرارنا المقدسة . إن احتفالاتنا تجمع بين المصلين فى مسرحية حية وأخوة تشجع على الوحدة ، وأسرارنا المقدسة هى حقاً أسم على مسمى من أمارات أو علامات ظاهرية على نعمة وبركة باطنة داخلية ، وأنها لراحة نفسية للآباء أن يروا طفلهم فى التعميد والتثبيت مقبولا فى جماعة العقيدة العريقة وفى ميراثها . وهكذا توحد الأجيال فى أسرة لا يحددها زمان ، ولا يعود الفرد فيها يحس أنه وحيد . وإنه لمن أجل النعم للمخطىء أن يعترف بخطاياه ويتلقى الغفران . وأنتم تقولون إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد سماح له بارتكاب الذنب ثانية ، ونحن نقول بأن هذا يشجعه على أن يبدأ حياة أفضل غير مثقلة بوزر الأثم . ألا يكافح أطباؤكم النفسيون من أجل إيجاد بديل عن الاعتراف للكاهن ؟ إلا يخلقون مصابين بالأمراض العصبية قدر ما يعالجون ويشفون ؟ أليس جميلا إنه فى سر القربان المقدس يقوى الإنسان الضعيف ويتأثر باتحاده مع الله ؟ هل رأيت شيئا أجمل من ذهاب الأطفال لأول عشاء ربانى لهم ؟

فولتير : لا يزال يزعجنى ويضايقنى فكرة أكل الله ، أنها بقايا عادات وحشية .

بندكت : أنك تخلط مرة ثانية بين الأشارة الظاهرية الخارجية والبركة الباطنية . ليس ثمة شىء ضحل مثل التحريف ، إنك تحكم على كل شىء من سطحه ، وتظن أنه عميق . وقد ضلل هذا التحريف كل الحياة الحديثة . وفى الدين مر العقل الناضج بثلاث مراحل : الإيمان والكفر والفهم .

فولتير : قد تكون على حق . ولكن هذا لا يبرر نفاق أساقفتك الآثمين الخطائين ، أو اضطهاد الفكر الصادق المستقيم .

بندكت : نعم . كنا مذنبين . إن العقيدة طيبة لأغبار عليها ، ولكن القائمين عليها رجال ونساء عرضة للخطأ والأثم .

فولتير : ولكن إذا كان القائمون عليها عرضة للخطأ ، فلماذا يزعمون أنهم معصومون منه ؟

بندكت : إن الكنيسة تدعى العصمة فقط لأحكامها الوسمية الأساسية الموقرة جداً ، ويجب الكف عن الجدل فى موضع ما ، إذا أريد للذهن أو المجتمع أن يعيش فى هدوء وسلام .

فولتير : وهكذا نعود ثانية إلى الرقابة الخانقة والتعصب الوحشى الذميم اللذين كانا مصدر الأذى والهلاك فى حياتى ، ومبعث الخزى والعار فى تاريخ الكنيسة . ويمكننى أن أرى أبواب محاكم التفتيش مفتوحة من جديد .

بندكت : أرجو إلا يكون الأمر كما تقول . إن هذا كان بسبب ضعف البابوية ، إن محاكم التفتيش كانت قاسية . إن خلفائى كافحوا لوقفها .

فولتير : البابوات أيضاً مذنبين . أنهم نظروا برباطة جاش إلى قتل مئات اليهود أثناء الحروب الصليبية ، وتآمروا مع دولة فرنسا على قتل الالبيجنسيين (طائفة دينية ازدهرت فى جنوب فرنسا فيا بين ١٠٢٠ — ١٢٥٠ م وأخيرا قضى عليها بتهمة الزندقة) . لماذا نعود إلى عقيدة استطاعت على الرغم من كل سحرها وفتنتها أن تولد مثل هذه الوحشية ومازالت تتغاضى عنها ؟

بندكت : أننا شاركنا فى عادات عصرنا وسلوكه . ونحن نشارك الآن فى تحسين الأخلاق . أنظر إلى قساوستنا ، أليسو ، مجموعة ممتازة من الناس فى تعليمهم وتبتلهم وسلوكهم ؟

فولتير : هكذا يقولون لى . ولكن ربما كان هذا بسبب المنافسة . ومن يدرى ماذا سيكرنون عليه ، حين يهيء لهم إنصارهم ذوو الأصل

العريق التفوق السياسى ؟ إن المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى من حقبتنا أشتهروا بسمو الخلق لكنك تعلم كيف اصبحوا حين تسلموا مقاليد الأمور . إنهم قتلوا من أجل الخلاف الدينى أناسا أكثر مائة مرة مما قتل أباطرة الرومان .

بندكت : إن قومنا كانوا آنذاك بادئين فى التعليم ، فلنأمل أن نفعل أفضل مما فعلوه فى المستقبل .

فولتير : لقد أحسنت الكنيسة صنعا فى بعض الأحيان . ففى النهضة الإيطالية أظهر بعض خلفائك تسامحا لطيفا نحو الكفر . ولم يحاول غير المؤمنين أن يحرموا المساكين من عقيدتهم التى توفر لهم العزاء والسلوى . أنا من جانبى لا أريد أن أدمر عقيدة الفقراء المساكين ، وأؤكد لك أن هؤلاء المساكين لايطالعون كتبى .

بندكت : بارك الله فى المساكين الفقراء .

فولتير : فى نفس الوقت ، ينبغى أن تغفر لى ولأمثالى إذا واصلنا مساعينا لتنوير أقلية كبيرة العدد إلى حد كاف ، مصممة على أن تحول دون تسلط الكنيسة مرة ثانية على أفكار المتعلمين . وسيكون التاريخ غير ذى قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب الطبيعى فى ديانة تقليدية تستغل القوة . إنى أجلك وأقدرك أعظم تقدير ، أيها الأب بندكت ، ولكن يجب أن ابقى كما أنا فولتير .

بندكت : ليغفر الله لك .

فولتير : المغفرة دعاء الجميع .

CHAPTER XVIII

1. Pappas, J. N., *Berthier's* Journal de Trévoux *and the Philosophes*, 122.
2. Helvétius, *De l'Esprit*, Eng. translation, 414.
3. D'Alembert, *Mélanges de littérature, d'histoire, et de philosophie* (1759), in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 3; Frankel, *Faith of Reason*, 7-8.
4. In Wolf, 39.
5. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 27.
6. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 55.
7. *Ibid.*, 54.
8. Taine, *Ancient Regime*, 288.
9. *Ibid.*
10. In Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 122.
11. Morley, *Diderot*, I, 169.
12. Mornet, 52.
13. Meslier, Jean, *Superstition in All Ages, or Last Will and Testament*, 30.
14. *Ibid.*, Sec. CXXXV.
15. CVIII.
16. LXVI, CLXXXII-III, and CLX.
17. CLX.
18. LII.
19. II.
20. XXXII.
21. XC.
22. CLX.
23. XL.
24. XII.
25. CXII.
26. CLXI.
27. CLIII.
28. CXLIX.
29. CLV.
30. Preface, p. 37.
31. CVII.
32. CXLI.
33. CLXVI.
34. CLXII.
35. Preface, pp. 42-43.
36. CCIV.
37. *Ibid.*
38. CLV.
39. Preface, p. 41.
40. In Martin, K., 240.
41. *Ibid.*, 242.
42. 241-42.
43. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 56.
44. La Mettrie, *Man a Machine*, 4.
45. Walt Whitman's formula for war
46. La Mettrie, 99.
47. *Ibid.*, 100.
48. 93.
49. 134.
50. 128.
51. In Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 305.
52. *Ibid.*, 316.
53. La Mettrie, 146.
54. *Ibid.*
55. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 316.
56. La Mettrie, 103.
57. Fellows and Torrey, II, 307.
58. La Mettrie, 122.
59. *Ibid.*, 129.
60. 149.
61. In Hazard, 128.
62. La Mettrie, 92.
63. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 397.
64. La Mettrie, 119; Lange, F. A., *History of Materialism*, II, 86 f.

65. Parton, *Life of Voltaire*, II, 25.
66. Desnoiresterres, IV, 198-200.

CHAPTER XIX

1. Crocker, L. G., *Embattled Philosopher*, 5.
2. *Ibid.*, 8.
3. 38.
4. Diderot, *Pensées philosophiques*, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 264.
5. Crocker, 65.
6. Diderot, *pensée* xxvi.
7. In Crocker, 68.
8. Wilson, A. M., *Diderot: The Testing Years*, 86.
9. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 189; Wilson, A. M., 90.
10. Diderot, *Lettre sur les aveugles*, in *Oeuvres*, 601.
11. *Ibid.*, 608.
12. 629.
13. 631-32.
14. 650.
15. 617-22.
16. Crocker, 102-3.
17. Havens, *Age of Ideas*, 289.
18. Crocker, 77.
19. *Ibid.*, 83.
20. 87.
21. Brunetière, *Évolution des genres dans l'histoire de la littérature* (Paris, 1890), 210, in Wilson, *Diderot*, 169.
22. Diderot, art. "Encyclopedia."
23. Aldis, *Madame Geoffrin*, 91.
24. Hazard, 199.
25. Morley, *Life of Voltaire*, 198.
26. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 316; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 165.
27. Lévy-Bruhl, *History of Modern Philosophy in France*, 212.
28. Fellows and Torrey, 319.
29. *Ibid.*, 320.
30. Ortega y Gasset, *Toward a Philosophy of History*, 77.
31. Crocker, *Embattled Philos.*, 133.
32. Lough, K., ed., *The* Encyclopédie: *Selected Articles*, 6.
33. Papp . Berthier's Journal de Trévoux, 181.
34. Wilson,
35. *Ibid.*, 163.
36. Pappas, 185.
37. Wilson, 160.
38. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 235; Wilson, 165.
39. Wilson, 169.
40. Becker, C., *Heavenly City of the 18th-Century Philosophers*, 119.
41. Wilson, 283.
42. *Ibid.*, 288.
43. Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 52.
44. Wilson, 288-89.
45. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 175.
46. Wilson, 312.
47. *Ibid.*
48. 358.
49. 339; Crocker, *Embattled Philos.*, 237.
50. Wilson, 339.
51. Crocker, 239.
52. Green, F. C., in Diderot, *Writings on the Theater*, 12.
53. See Hazard, 202, and Naves, 98.
54. In Lough, *Selected Articles*, 160-63.
55. Diderot, art. "Philosophy."
56. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 23.
57. Art. "Philosophy."
58. Art. "Political Authority."
59. *Ibid.*
60. Lough, 43.
61. Morley, *Diderot*, I, 216.
62. *Ibid.*, 172.
63. Article "Privileges."
64. Article "Art."
65. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 5.
66. Diderot, Prospectus, in Havens, 302.
67. Wilson, 136.
68. Grimm, *Correspondance*, VII, 146.
69. Lough, introd., xiv.
70. Art. "Encyclopedia."

CHAPTER XX

1. *Enc. Brit.*, XVII, 614.
2. Cru, *Diderot*, 234.
3. *Ibid.*, 395.
4. Dupee, F. W., *Great French Short Novels*, 8.
5. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 115.
6. *Pensées sur l'interprétation de la nature*, Sec. LVIII, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 276, and Wilson, *Diderot*, 194.
7. Faguet, *Dix-huitième siècle*, 334.
8. Letter of Sept. 2, 1769, to Sophie Volland.
9. Letter of Sept. 11, 1769.
10. Letter of Sept. 2, 1769.
11. Diderot, *Dialogues*, 34-35.
12. *Ibid.*, 43.
13. 53.
14. 57.
15. 69.
16. 79-80.
17. 93.
18. 96.
19. 105.

20. 310.
21. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 312.
22. Crocker, *Embattled Philosopher*, 318.
23. *Ibid.*, 320.
24. *Ibid*, 409; Crocker, *Age of Crisis*, 124.
25. Letter to Damilaville, 1766, in Morley, *Diderot*, I, 20.
26. Cru, 65.
27. Diderot, *Jacques the Fatalist*, 125.
28. Diderot, *Plan for a University*, in La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 179.
29. *Enc. Brit.*, IV, 419a.
30. Crocker, *Embattled Philos.*, 319.
31. Cru, 417.
32. Grimm, *Correspondance*, 1770, in Diderot, *Oeuvres*, 957-59.
33. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 67.
34. *Ibid.*, 68.
35. These passages are listed in Diderot, *Jacques the Fatalist*, 271-73.
36. *Ibid.*, 8.
37. 166.
38. Crocker, *Embattled Philos.*, 268.
39. *Neveu de Rameau*, in Diderot, *Oeuvres*, 249.
40. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 143 f.
41. *Oeuvres*, 191.
42. G. B. Shaw's phrase.
43. *Oeuvres*, 262, 270.
44. *Ibid.*, 222.
45. 218.
46. 268.
47. 220.
48. *Dialogues*, 119-20.
49. *Ibid.*, 146.
50. 140-41.
51. 154.
52. "Essay on Women," in *Dialogues*, 186.
53. Crocker, *Age of Crisis*, 101.
54. Crocker, *Embattled Philos.*, 340.
55. Crocker, *Age of Crisis*, 209.
56. *Ibid.*, 274.
57. *Neveu de Rameau*, in Crocker, *Age of Crisis*, 209.
58. *Ibid.*, 105.
59. 104.
60. *Supplement to the Voyage of Bougainville*, in *Dialogues*, 157.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 343.
62. Articles "Civil Liberty" and "Representatives."
63. Diderot, *Oeuvres*, Édition Assézat et Tourneux (Paris, 1875-77), IX, 16.
64. *Ibid.*, II, 411, in Morley, *Diderot*, II, 242-43.
65. Cru, 135.
66. Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 62.
67. Havens, *Age of Ideas*, 342.
68. Crocker, *Embattled Philos.*, 398.
69. *Ibid.*, 393.
70. Diderot, *Salons*, I, 1.
71. *Ibid.*, 79.
72. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 130.
73. Diderot, *Salons*, I, 188.
74. Crocker, 176.
75. *Ibid.*, 196.
76. Chambers, F. P., *History of Taste*, 146.
77. *Ibid.*, 140 f.
78. Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 533.
79. *Salons*, I, 418.
80. Morley, *Diderot*, II, 79.
81. Crocker, 19.
82. Cru, 287.
83. Wilson, 273.
84. Crocker, 243.
85. Wilson, 326.
86. Voltaire, *Phil. Dict.*, article "Rhyme."
87. Wilson, 237.
88. Sime, *Lessing*, I, 209.
89. Diderot, *Paradox of Acting*, 14, 18.
90. Cru, 328.
91. *Hamlet*, III, ii.
92. Lee Strasberg, in Diderot, *Paradox of Acting*, introd., *x*.
93. Wordsworth's phrase.
94. Ellis, *The New Spirit*, 56.
95. Hazard, 383.
96. Crocker, *Embattled Philos.*, 232-33.
97. Michelet, V, 408n.
98. Morley, *Diderot*, I, 30.
99. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 73.
100. Taine, *Ancient Regime*, 266.
101. Diderot, *Oeuvres*, 143.
102. Crocker, 26.
103. *Salons*, II, 354.
104. Crocker, 147.
105. *Ibid.*
106. Letter of July 14, 1762.
107. Crocker, 297.
108. *Ibid.*, 213-15.
109. 220.
110. "Regrets sur ma vieille robe de chambre," in *Oeuvres*, 733.
111. Crocker, 301.
112. Morley, I, 262.
113. Crocker, 302.
114. Marmontel, *Memoirs*, I, 360.
115. Morley, *Diderot*, I, 41.
116. Crocker, 292.
117. Wilson, 8.
118. Morley, I, 10.
119. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, ix.
120. Letter to King Stanislas Poniatowski in Aldis, *Madame Geoffrin*, 185.
121. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, vii.

CHAPTER XXI

1. Cumming, Ian, *Helvétius*, 36.
2. *Ibid.*, 57.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
4. Cumming, 137.
5. Parton, *Voltaire*, II, 302.
6. Helvétius, *Treatise on Man (De l'Homme)*, Vol. II, p. 480.
7. Grimm, *Corresp.*, II, 262.
8. Helvétius, *Treatise on Man*, Section II, Ch. iii.
9. Helvétius, *De l'Esprit*, p. 11.
10. *Ibid.*, in Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 68.
11. Helvétius, *De l'Esprit*, 175, 222, 277.
12. *Treatise on Man*, IV, i.
13. *Ibid.*, III, ii and iv.
14. IV, xxiii.
15. IV, iii and i
16. VI, i.
17. *De l'Esprit*, p. 489.
18. *Treatise*, VII, iv.
19. *Ibid.*, I, iii.
20. II, xxi.
21. I, ix.
22. II, xxii.
23. I, iii.
24. I, x.
25. VII, i.
26. I, ii.
27. VII, i.
28. *De l'Esprit*, p. 174.
29. *Treatise*, IX, xxxi.
30. *Ibid.*, IV, xxi.
31. I, xiv.
32. I, xiii-xiv.
33. VII, xii.
34. VII, iii and iv.
35. Mordecai Grossman in Horowitz, *Claude Helvétius*, p. 18.
36. *Treatise*, V, iii-x.
37. *Ibid.*, VI, viii.
38. V, iii-iv.
39. V, iii.
40. *De l'Esprit*, p. 179; Cumming, 79.
41. *Treatise*, VI, i.
42. *De l'Esprit*, pp. 6, 17.
43. In Martin, K., p. 180.
44. *Treatise*, II, vii.
45. *De l'Esprit*, p. 169.
46. *Ibid.*, 47; Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 95.
47. *De l'Esprit*, 29.
48. *Ibid.*, [illegible], 144.
49. *Treatise*, IV, ii.
50. Horowitz, p. 100.
51. *Ibid.*, 111.
52. *Treatise*, VI, v and x.
53. *Ibid.*, VI, xv.
54. VI, vii and xi.
55. VIII, iii and v.
56. Brunetière, *Essays in French Literature*, p. 327.
57. Buckle, I, 624n.
58. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 64.
59. Crocker, *Age of Crisis*, 123.
60. In Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 147.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 408.
62. Victor Cousin, *Histoire de la philosophie*, III, 201, in Buckle, I, 624n.
63. Morley, *Diderot*, II, 141.
64. Cumming, 118.
65. Morley, II, 142.
66. Grossman, 169.
67. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
68. Cumming, 139.
69. *De l'Esprit*, 87; Morley, II, 157.
70. D'Alembert, *Éléments de philosophie*, in Cassirer, *Enlightenment*, 4.
71. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 105.
72. Wickwar, *Baron d'Holbach*, 86.
73. *Ibid.*, 59-60, Mornet, *Origines*, 107.
74. Gooch, *Catherine the Great and Other Studies*, 192.
75. Marmontel, *Memoirs*, I, 256.
76. Morley, *Life of Voltaire*, 215.
77. Morley, *Diderot*, II, 193.
78. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 254.
79. Morley, *Diderot*, II, 194.
80. Rousseau, *Confessions*, 139.
81. Robertson, J. M., II, 254.
82. Morley, *Diderot*, II, 215.
83. Wickwar, 22.
84. *Ibid.*, 23, 27.
85. Diderot, letter of May 10, 1759.
86. Marmontel, I, 351.
87. *Ibid.*
88. Wickwar, 39; Burton, *Life of Hume*, II, 220.
89. Gibbon, *Memoirs*, in Mossner, *Life of David Hume*, 485.
90. Priestley, *Memoirs*, I, 74, in Buckle, I, 621n.
91. Wickwar, 25.
92. *Ibid.*, 38.
93. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 169.
94. *Ibid.*, 130.
95. Wickwar, 109.
96. Robertson, J. M., II, 272.
97. Grimm, *Corresp.*, Aug. 10, 1789.
98. *Ibid.*
99. Wickwar, 86.
100. D'Holbach, *Le Christianisme dévoilé*, in Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 193.
101. Wickwar, 126.
102. *Ibid.*, 135.
103. 127.

104. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. 4.
105. Morley, *Diderot*, II, p. 159.
106. D'Holbach, *System of Nature*, preface, pp. viii-x.
107. *Ibid.*, Vol. I, Ch. ii.
108. I, i.
109. I, ii and viii.
110. I, xiii.
111. I, ix.
112. Morley, *Diderot*, II, p. 74.
113. D'Holbach, *System*, I, Ch. xi.
114. *Ibid.*, I, i.
115. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, p. 16.
116. Martin, K., 175.
117. D'Holbach, *System*, II, Ch. vi.
118. *Ibid.*, II, v.
119. I, xiii.
120. *Ibid.*
121. II, iv.
122. II, v.
123. II, xii.
124. *System*, appendix, Ch. xxiii.
125. *System*, I, xiii.
126. *Ibid.*, I, vii.
127. D'Holbach, *Morale universelle*, Vol. I, Ch. i, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, p. 361.
128. *Ibid.*, 363.
129. *System of Nature*, I, xv.
130. *Ibid.*, appendix, xix.
131. *System*, I, xiv.
132. D'Holbach, *Politique naturelle*, Part IV, Ch. xxvii, in Wickwar, 182.
133. *Éthocratie*, Ch. x, in Hazard, 261.
134. *Politique naturelle*, Part VI, Ch. xiv.
135. Cumming, 112.
136. *Politique naturelle*, in Martin, K., 188.
137. *Ibid.*, 189.
138. Wickwar, 178.
139. Martin, K., 189.
140. Wickwar, 178.
141. *System of Nature*, Vol. I, Ch. xiv.
142. *Politique naturelle*, Part VI, Ch. xxxix, in Wickwar, 212-13.
143. *Système social*, Vol. II, 151, in Cobban, *In Search of Humanity*, 166.
144. *System of Nature*, I, xiv.
145. D'Holbach, *Contagion sacrée*, 145, in Wickwar, 141.
146. In Mornet, *Origines*, 103.
147. *System of Nature*, I, xiv.
148. *Système social*, II, ii, in Cassirer, *The Question of Jean-Jacques Rousseau*, 68.
149. *Politique naturelle*, Part I, Ch. vi, in Frankel, *The Faith of Reason*, 71.
150. Mornet, 103.
151. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 331.
152. *Phil. Dict.*, art. "God."
153. Wickwar, 89.
154. Morley, *Diderot*, 183.
155. Faguet, *Literary History of France*, 497.
156. Wickwar, 211.
157. Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Age of Reason*, 213.
158. Wickwar, 213.

CHAPTER XXII

1. This is what Faguet forgot in one of the most biased essays in French literature; see, e.g., *Dix-huitième Siècle*, 210.
2. Wade, *Studies in Voltaire*, 67.
3. *Phil. Dict.*, art. "Emblems."
4. Noyes, *Voltaire*, 487.
5. *Phil. Dict.*, art. "God."
6. Desnoiresterres, V, 167.
7. Pomeau, *Religion de Voltaire*, 421.
8. Voltaire, *Works*, VIIb, 82.
9. Mornet, *Origines*, 82; Torrey, *Spirit of Voltaire*, 253, 285.
10. *Phil. Dict.*, in *Works*, VIIb, 62
11. In Pomeau, 400, and Crocker, *Age of Crisis*, 385.
12. Parton, *Voltaire*, II, 432.
13. Pomeau, 159, 185.
14. Lévy-Bruhl, 185-86.
15. Letter of May 20, 1738, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 115.
16. Voltaire, *Notebooks*, I, 402.
17. *Traité de métaphysique*, Ch. ix.
18. *La Loi naturelle*, in *Works*, XIb, 25-26.
19. *Ibid.*; Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 424.
20. Bottiglia, *Voltaire's* Candide, 108; Mowat, *Age of Reason*, 36.
21. Letter of Oct., 1753, to d'Alembert, in Desnoiresterres, V, 163.
22. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 87.
23. Letters of May 24 and Dec. 22, 1757.
24. Voltaire, *Oeuvres*, ed. Moland, XXXIX, 363. See also Pomeau, 301; Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 53.
25. Naves, 54-57.
26. *Ibid.*, 61-63; Pomeau, 302.
27. Campbell, *The Jesuits*, 453.
28. Nicolson, H., *Age of Reason*, 81.
29. In Smith, P., II, 510.
30. Pope, *Essay on Man.*
31. Parton, II, 215.
32. Voltaire, *Romans*, I, 165, 169.
33. *Ibid.*, 233
34. 237.
35. 257.
36. Bottiglia, 249
37. Pomeau, 318.
38. Martin, H., *Histoire de France*, IX, 117
39. Pomeau, 319-21.
40. Calvin, *Institutes of the Christian Religion*, Eng. tr., I, 360.
41. Parton, II, 356.
42. Desnoiresterres, VI, 160.

CHAPTER XXIII

1. Pomeau, 300.
2. Mornet, *Origines*, 206.
3. Gauchat, *Lettres critiques*, XV, 224, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 313.
4. Pomeau, 338.
5. Voltaire, letter of Dec. 8, 1776.
6. Palmer, R.R., *Catholics and Unbelievers*, 96.
7. *Ibid.*, 142.
8. Our account follows John H. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux *and the Philosophes*.
9. *Ibid.*, 38.
10. 23, 137.
11. 48.
12. 128.
13. 48.
14. 205.
15. *Ibid.*
16. 184.
17. 186.
18. 110.
19. 113.
20. 119.
21. 122.
22. 131.
23. Desnoiresterres, III, 389.
24. Hazard, *Eighteenth Century*, 78.
25. Cornou, *Élie Fréron*, in Martin, K., 96.
26. Crocker, *Embattled Philosopher*, 240.
27. *Ibid.*
28. Brandes, II, 205.
29. *Ibid.*, 206.
30. Noyes, [illegible]*re*, 51.
31. *Ibid.*, 71.
32. Lanfrey, [illegible]
33. In Mass[illegible] *a Religion de Rousseau*, III, 31.
34. Crocker, [illegible] *of Crisis*, 382.
35. Lichtenber[illegible] A., *Le Socialisme et la Révolution* [illegible]*ançaise*, 60.
36. Crocker, *Emb. Philosopher*, 305.
37. Toth, *Woman and Rococo*, 224, 234.
38. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 305.
39. Toth, 234.
40. Letter of Jan. 10, 1758, in Naves, 53.
41. *Oeuvres*, 231, 239-40.
42. *Ibid.*, 235, etc.
43. Grimm, II, 373.
44. Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 7.
45. Parton, II, 334.
46. Pappas, 85.
47. *Ibid.*, 114.
48. 117.
49. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 374.
50. Gay, *Voltaire's Politics*, 310.
51. Pappas, 119.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 414.
53. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 201.
54. Lanfrey, 267; Campbell, *The Jesuits*, 482.
55. *Ibid.*, 483.
56. *Catholic Encyclopedia*, XIV, 982; Martin, H., XVI, 211; Ranke, *History of the Popes*, II, 447.
57. Campbell, 487.
58. *Ibid.*, 485.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 251.
60. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 236.
61. Desnoiresterres, VI, 269.
62. Bertrand, *D'Alembert*, 132.
63. Lanfrey, 269.
64. *Ibid.*, 270.
65. Pappas, 135.
66. Pomeau, 317.
67. Gilbert, *Prince de Ligne*, 138; Carlyle, *Friedrich the Second*, VII, 470.
68. Campbell, *The Jesuits*, 639.
69. La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 143, 149.
70. Cumming, *Helvétius*, 160.
71. La Fontainerie, 80.
72. *Ibid.*, 117.
73. *Ibid.*, 39, Desnoiresterres, VI, 239.
74. Letter of Apr. 1, 1766.
75. Lanson, *Voltaire*, 183.
76. Smith, P., *Modern Culture*, II, [illegible]
77. La Fontainerie, 240.
78. Sée, H., *Les idées politiques en France*, 142.
79. Mornet, *Origines*, 177.
80. Lacroix, *Eighteenth Century*, 265.
81. Helvétius, *Treatise on Man*, Vol. II, p. 402.
82. Brunetière, *Manual of French Literature*, 298.
83. Hazard, 369.
84. Bury, *Idea of Progress*, 149.
85. Smith, P., II, 614.
86. D'Alembert, *Eléments de la philosophie*, Ch. iv, in Hazard, 166.
87. Hazard, 169.
88. Voltaire, *Works*, XIXa, 89 f.
89. Hazard, 250.
90. Rousseau, *Sur le gouvernement de Pologne*, in Black, *Art of History*, 20.
91. Source lost.
92. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 212.
93. Bury, *Idea of Progress*, 203; Parton, II, 433.
94. Hazard, 126.

43. "Essay on toleration," in Voltaire, *Selected Works*, 78; Pomeau, 325.
44. Our account is based upon A. Coquerel's *Jean Calas et sa famille* (Paris, 1858), as summarized in Parton, II, 367.
45. Letter of Mar. 1, 1765.
46. *Ibid.*
47. Text in Parton, II, 356.
48. Letter of Mar. 29, 1762.
49. Letter of Sept., 1762, in Gay, *Voltaire's Politics*, 277.
50. Brandes, *Voltaire*, II, 196.
51. Voltaire, *Selected Works*, 86.
52. *Ibid.*, 113.
53. Parton, II, 433.
54. Mornet, *Origines*, 112.
55. *Selected Works*, 88.
56. *Ibid.*, 100, 108.
57. Voltaire, *Works*, IIb, 177.
58. Brandes, II, 214.
59. Desnoiresterres, VII, 469.
60. Parton, II, 397.
61. *Ibid.*
62. Desnoiresterres, VI, 493.
63. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 119.
64. Letter of Frederick the Great, Aug. 7, 1766.
65. Letter of Frederick, Sept., 1766, in Brandes, II, 231.
66. Diderot, *Oeuvres*, 220.
67. Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 260.
68. In Brandes, II, 232.
69. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, Letter 7584.
70. Pomeau, 311.
71. *Phil. Dict.*, art. "Superstition."
72. Letter of June 3, 1760.
73. Letter of Dec. 6, 1757.
74. Pomeau, 213; Bertrand, *D'Alembert*, 118.
75. Voltaire and Frederick, *Letters*, 283.
76. Parton, II, 285.
77. Letter to Damilaville, Apr. 5, 1765.
78. Frederick to Voltaire, Sept. 9, 1739.
79. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 198-200.
80. *Selected Works*, 59.
81. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
82. J. Gaberel in Parton, II, 428.
83. Luke xxi, 27-32.
84. *Questions of Zapata*, No. 58, in *Selected Works*, 34.
85. *Ibid.*, Nos. 65-66.
86. *Ibid.*, No. 66.
87. Parton, 286.
88. Letter of June 4, 1767.
89. *New Camb. Mod. History*, VII, 152.
90. *Phil. Dict.*, art. "God."
91. Letter of Nov. 28, 1752.
92. *Oeuvres complètes*, XLI, 570, in Torrey, *Spirit of Voltaire*, 179.
93. *Phil. Dict.*, art. "Sin."
94. Pomeau, 373.
95. *Works*, Ib, 139.
96. *Phil. Dict.*, art. "Miracles."
97. Pomeau, 348.
98. *Ibid.*, 374.
99. *Phil. Dict.*, art. "Climate."
100. Art. "Grace."
101. *Profession de foi des théistes*, in Black, *Art of History*, 57.
102. *Works*, XIXa, 228.
103. *Ibid.*, 238.
104. *Traité de métaphysique.*
105. Crocker, *Age of Crisis*, 385.
106. *Ibid.*, 190; *cf. Phil. Dict.*, art. "Atheism," and art. "God," Sec. v.
107. Art. "Hell."
108. Art. "Fraud."
109. Art. "Morality."
110. Voltaire, *The Ignorant Philosopher*, Secs. II-III.
111. *Ibid.*, III-IV.
112. XIII.
113. XIV.
114. XVII, XIX.
115. XX.
116. XXIV.
117. LI.
118. *Works*, IIa, 312-16.
119. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 304.
120. Noyes, *Voltaire*, 555; Pomeau, 411.
121. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXVI, 199, in Pomeau, 438.
122. Art. "Curate."
123. Pomeau, 439.
124. *Essai sur les moeurs*, Ch. cxxxix, in Ducros, *French Society in the 18th Century*, 199.
125. Desnoiresterres, VI, 118.
126. *Ibid.*, 63-64; Pomeau, 432.
127. Desnoiresterres, VII, 237.
128. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 225.
129. Desnoiresterres, VII, 228.
130. *Ibid.*, 287.
131. Pomeau, 390.
132. Diderot, *Letters to Sophie Volland*, I, 29; in Pomeau, 332.
133. Grimm, *Corresp.*, VII, 51.
134. Walpole, H., in Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 175; *cf.* Mornet, *Origines*, 139, and Morley, *Life of Voltaire*, 88.
135. Letter to Mme. du Deffand, June 1, 1770.
136. *Ignorant Philosopher*, Sec. XXIV.
137. Mark ix, 45-48; Matt. xiii, 40-42; Luke xvi, 23-26.

95. Buckle, I, 620.
96. Parton, II, 507.
97. Lecky, *History of . . . Rationalism*, I, 125.
98. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 165.
99. Lecky, *History of England*, V, 336.
100. Mornet, *Origines*, 214-16.
101. La Harpe in Taine, *Ancient Regime*, 400.
102. Walpole, H., letter of Oct. 19, 1765.
103. *Id.*, letter of Nov. 19, 1765.
104. Mornet, 269.
105. *Ibid.*
106. Toth, *Woman and Rococo*, 234.
107. Mornet, 272.
108. Willey, *Eighteenth-Century Background*, 192.
109. Taine, *Ancient Regime*, 293.
110. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 278.
111. Montalembert, *Monks of the West*, I, 86.
112. Mornet, 141.
113. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 237.
114. Letter of Nov. 9, 1764.
115. Wilson, *Diderot*, 286; Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 17.
116. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 133.
117. Condorcet, *Progrès de l'esprit humain*, 251.
118. Mornet, 125.
119. *Ibid.*, 273.
120. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 411, 519.
121. Frederick to Voltaire, May 5, 1767.
122. Grimm. *Corresp.*, Sept. 15, 1767.
123. *Dict. Phil.*, art. "God."

EPILOGUE

1. Crocker, *Embattled Philosopher*, 407.
2. Sade, Marquis de, *Justine* (1791), *Juliette* (1792), *Philosophie dans le boudoir* (1793).
3. Musset, Alfred de, *Confessions of a Child of the Century*, 21 f.
4. Chaponnière, *Geneva*, 231.
5. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. IV; art. "Polytheism."